

محمود مقديش

نزهة الأقطار

في عجائب التواريخ والأخبار

تحقيق
علي الزواري محمد محفوظ



محمود مقدّيش

نَهْضَةُ الْأَنْظَارِ

فِي عَجَائِبِ التَّوَارِيخِ وَالْأَخْبَارِ

تحقيق

محمد محفوظ

علي الزوّاري

المجلد الأول


دار الغرب الإسلامي

تَرْهَاتُ الْأَنْظَارِ
فِي عَجَائِبِ التَّوَارِيخِ وَالْأَخْبَارِ

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولى

1988



دار الفَرَبِ الإسلامي

ص.ب.: 113/5787

بيروت - لبنان

تَصْدِير

مضت سنوات منذ أن خامرتنا الفكرة الأولى في تحقيق «نزهة الأنظار» ثم العزم على القيام بهذا التحقيق ومحاولة العمل عليه ، فاستحال لعدم حصولنا على نسخة من مخطوطة شيخ الإسلام أحمد عارف حكمت بالمدينة المنورة وهي ضرورية ، ثم الشروع فيه لما تيسرت الظروف وحصلت لدينا نسخة من هذه المخطوطة بفضل صاحب دار الغرب الإسلامي السيد الحبيب اللمسي ، جزاه الله كل خير .

ولم يكن استقرار عزمنا بدون تردد ، هل هذا الكتاب ، الذي طبع بالحجر في سنة 1321 / 1903 م ، لما كانت الطباعة والنشر في تونس في الخطوات الأولى ، يستحق ترك مشاغلنا وتخصيص كل أوقاتنا له ، والعناء الطويل ، لينشر بين الناس باحثين وقراء ؟

وللمختصين ، آراء مختلفة في «نزهة الأنظار» ، وبعضهم ممن تباحثنا معهم في الموضوع يرون فيها أثراً لا يستحق الإهتمام والجهد والنشر لإعتبارهم أن مؤلفها نقل عن غيره دون اجتهاد من نفسه ، ولا يمكن فعلاً لأي قارئ أن يكون له غير هذا الرأي إن اكتفى بتقليب الجزء الأول من هذا الأثر ، ومع ذلك خالف الصغير نور الدين هذه الآراء . وقال : «إن النقل الذي قام به مقديش من المصادر التي كتبها أسلافه جعلته يكتب كتاباً رائعاً ممتازاً»⁽¹⁾ .

وعند بقية الناس ، في مدينة صفاقس ، خاصة يُعتبر هذا الكتاب من النفائس المفقودة المطلوبة - وكل مفقود نفيس - ويعتبر هؤلاء الناس ، معدن أخبار صفاقس ورجالها وعائلاتها ، ومن له نسخة أو وريقات منه صار يعتز بها ،

(1) Temps et espace chez Maqdish أطروحة دكتوراه مرحلة ثالثة ، مرقونة ، جامعة

السربون ، سنة 1983 - 1984 ص 42 .

ويخفيها ، ويتباهى بها ، ويضن بها على من شوقه إليها ، فصار الكتاب أسطورة . وتعطش الناس إليه توالى على مر الزمن ، ومرجه إلى فقدانه من أصله ، إذ صادرت الحكومة التونسية لما ظهر ، ولعل سبب ذلك ما أبداه مؤلفه فيه من تقدير لعل باشا الأول المنازع لسلطة عمه حسين بن علي وخزيته ، حكام تونس ، فقال كراتشكوفسكي في ذلك : « ويبدو أنه قد مسَّ مسائل معاصرة لأن حكومة تونس صادرت على الفور ولم ينشر الكتاب »⁽²⁾ . وكتب أحمد بن أبي الضياف عن قلة انتشار تأليف مقديش رغم معرفة الناس له فقال : « وكتب تاريخه المعروف ولم نر تأليفه لأنها لم تصل إلى حاضرة تونس »⁽³⁾ ، وكما قال محمد مخلوف في نفس الاتجاه : « وتاريخه غالبه في صفاقس وعلماها »⁽⁴⁾ .

ويرجع تعطش الناس إلى هذا المؤلف أيضاً إلى مادة الكتاب ، فالمؤلف أروخ لمدينته ، بناء على طلب كما ذكر في مقدمته ، وفي اتجاه معين يستجيب لميول دينية ، وبطولية وملحمية ، وخرافية كما نفهم من اختياره ، وتقصيره أو تمديده لمختلف مواد الكتاب ، ويستجيب لمستويات متوسطة في الفهم والثقافة باستعمال لغة بين العامة والفصحى ، فنزهة الأنظار كتاب تاريخ ، وأسطورة ، ومعتقد ديني ، وأخبار اجتماعية ، يقرأ ويحكى ، الوحيد في شكله الذي يداعب شعور أهل صفاقس ويستجلبهم للبحث فيه عن ذاتهم وأصولهم ، لعدم مزاحم له .

وشغف الناس بالمفقود ، وإرضاء طلباتهم المتكررة لنشره ، سبب من الأسباب التي دعنا لتحقيقه ، وليس السبب الوحيد ولا الأساسي ، فالذي دعانا إلى تحقيقه أساساً ، وإرضاء رغبات الناس في آن واحد ، سببان متكاتفان : استعماله كمرجع للبحث التاريخي ، وإصلاح الأخطاء التي وردت في مخطوطاته ، وخاصة النسخة المطبوعة المستعملة لدى الباحثين .

فنزهة الأنظار كتاب له قيمة لا يمكن نكرانها رغم نقائصه التي سنبينها في المقدمة ، وإن كانت فائدة الجزء الأول من الكتاب محدودة فإن الجزء الثاني له أهمية خاصة وأهمه الخاتمة التي يؤرخ فيها المؤلف لمدينته ، وهي ثلث الكتاب بجزيئه وهو في هذا ينفرد بما لم يسبقه إليه غيره ، ولا من لحق بعده من المؤرخين ، فيضيف عن طريق التاريخ الجهوي ، الذي أخذ حديثاً مكانته في مفاهيم التاريخ الحديث ،

(2) تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة

1963 ، 2/768 .

(3) إتخاف أهل الزمان ، تونس 1965 ، 86/7 .

(4) شجرة النور الزكية ، ص 366 .

أضواء جديدة على التاريخ التونسي ، فمدينة صفاقس جزء من التراب التونسي ، وتاريخها جزء من تاريخ هذه البلاد ، ولون من ألوانه .

وبهذا أخذ محمود مقديش مكانته بين المؤرخين التونسيين ، فترجم له ابن أبي الضياف في الإنحاف ، ومحمد مخلوف في شجرة النور الزكية ، وكراتشكوفسكي في الأدب الجغرافي ، ونالينو (Nallino) في مقالة طويلة نشرها ضمن مثوبة أماري⁽⁵⁾ وأدرجه أحمد عبد السلام ضمن المؤرخين التونسيين في أطروحته⁽⁶⁾ ، ومحمد محفوظ في تراجم المؤلفين التونسيين⁽⁷⁾ ، وغيرهم ، وأخذ كتابه «نزهة الأنظار» مكانه بين كتب التراث التاريخي ، وصار يستعمل مرجعاً في كتابة التاريخ الحديث المتعلق بالمدن ، والإقتصاد ، والإجتماع ، وعلاقة المغرب بالمشرق أثناء القرن الثامن عشر ، وقلمنا تنشر دراسة في هذه الأبواب دون الإشارة إليه والإعتماد عليه ، وخصص له الصغير نور الدين أطروحة دكتوراه ، المرحلة الثالثة ناقشها في جامعة السربون سنة 1983 - 1984 سماها : «Temps et espace chez Maqdish» «الزمان والفضاء عند مقديش» وقال فيها اعتماداً على محمد الهادي أنشريف في مقالته حول التاريخ الإقتصادي والإجتماعي التونسي في القرن الثامن عشر من خلال المصادر المحلية⁽⁸⁾ «إن كتاب مقديش له ميزة خاصة ، اعتباراً بنمصادر المختلفة التي نقل عنها ، وهو يمثل في آن واحد عملاً فريداً متميزاً لأن مؤلفه ينتمي إلى مدينة ثانوية ، وله ارتباط بالوسط التجاري ، ولأنه مثقف أيضاً يمثل في كتابته للقواعد التقليدية»⁽⁹⁾.

فإن كان هذا هو اعتبار الكتاب واستعماله ، فمن المفيد بل من اللازم تنقيح هذا المرجع وتيسير استعماله ، وعلى ذلك عزمنا وشرعنا أملنا التوفيق والإفادة ، وبالله نستعين ، وعليه نتوكل .

Venezia à Sfax Nel Secolo XVIII Secondo il crovista arabo (5)
Maqdish

6 Les historiens tunisiens des XVII, XVIII et XIX^e siècles باريس 1973 .

7 دار الغرب الإسلامي ، 364 - 356/4 .

8 «L'histoire économique et sociale de la Tunisie au XVIII^e siècle à travers les sources locales», in: les arabes par leurs archives de J. Becque, pp. 116-117

9 المصدر السابق ، ص 41 .

المقدمة

(1) فكرة عن الحياة العلمية والثقافية بصفاقس في عصر المؤلف.

لقد عرفت الحركة العلمية والتعليمية في البلاد التونسية تراخياً ثم ركوداً في أواخر أيام الدولة الحفصية ، بعد أيام عزّ وتقدم ، حملت رايتها تونس مركز الإمارة ، وتحول هذا التراجع الذي سببته الفتن وتدهور الحياة السياسية والإقتصادية ، وغموض المصير إلى نكسة خطيرة مع الاحتلال الإسباني ، فهاجر علماء تونس ، وحرمت البلاد من شعاع هذه المدينة عليها . ومدينة صفاقس لم تكن أوفر حظاً من بقية البلاد ، فقد عرفت في تلك المدة اضطرابات واسعة وانطوت على نفسها لما استقل بها المكني ، ثم انعزلت عن عاصمتها لمدة 38 سنة⁽¹⁾ وقل عدد سكانها ، وفشا فيها الفقر والجهل ، واضطربت فيها نظم الحياة ، ولم تحسن حالتها إلّا بعد أن رجعت إلى حظيرة عاصمتها الأولى في سنة 1594⁽²⁾.

لم يبق لنا ما يشير إلى التعليم والعلماء في تلك الفترة من القرن السادس عشر والسابع عشر إلّا اليسير من المعلومات ، نستشفه من بعض الأخبار التي وردت في التراجم والسير . وما من شك أن الكتاتيب كانت تعمل بالمساجد والزوايا ، إذ لم يبق لنا في خصوصها شيء من الوثائق ، وبضياح هذه الوثائق لا يمكن لنا التعرف على عددها ومستوى التعليم بها ، غير أننا نعرف أن الراغبين في العلم اتبعوا طريقة أسلافهم في التنقل إلى العاصمة التي بدأت ترجع إليها الروح الثقافية مع المراديين ، والتنقل إلى الأزهر بمصر أيضاً ، طبقاً لسنة قديمة ، ومن بينهم أبو الحسن الكراي وعبد العزيز الفراتي الأول وعلي النوري ...

(1) علي الزواري : صفاقس في القرن السادس عشر ، مجلة القلم ، صفاقس ، عدد 2 ، 1974 ، ص 3-4 .

(2) عزيز سامح : الأتراك العثمانيون بإفريقيا الشمالية ، بيروت 1969 ، ص 289 .

وحملت مشعل التعليم والعلم في تلك الفترة أسر ثلاث : أسرة الفراتي ، وأسرة الشرفي ، وأسرة الكراي .

أما أسرة الفراتي فقد قال في شأنها حسين خوجة عند ترجمته لعبد العزيز بن محمد الفراتي «وهو من دار علم من قديم الزمان ، وهو عاشرهم كلهم علماء أعلام»⁽³⁾ .
وأما أسرة الشرفي فقد اهتمت بعلوم الميقات والجغرافيا ، وبرز منها علي بن أحمد بن محمد الشرفي الذي وضع في سنة 1551 م أطلساً في ثماني ورقات لسواحل البحر الأبيض المتوسط تملك منه المكتبة الوطنية بباريس نسخة فريدة⁽⁴⁾ .

وقد ألحق أفراد آخرون من أسرة الشرفي نماذج أخرى للعالم تمثل في جوهرها صورة منقحة لخارطة الإدريسي ، ترجع إلى سنوات 1572 ، 1579 و 1601 ، وأهمها الخارطة التي وضعها محمد ابن علي الشرفي ، وتحدث عنها كراشكوفسكي اعتماداً على دراسات قام بها كل من ميللر وأماري⁽⁵⁾ .
أما أسرة الكراي فهي مشهورة بمركبتها الدينية ، الصوفية النزعة ، المتتمية إلى الحركة الوفاية الشاذلية ، وقد برز فيها أبو الحسن بن أبي بكر المتوفي سنة 1703 م وهو من أحفاد الشيخ علي الكراي أبي بغيلة معاصر سيدي أحمد بن عروس ، نعته محمد محفوظ في تراجم المؤلفين التونسيين «بالعالم الصوفي الوفاي نسباً وطريقة»⁽⁶⁾ أنشأ زاوية بصفاقس بعد رحلته إلى الأزهر «واشتغل بعلم وانتفع به جماعة من أهل بلده منهم خليفته على الزاوية الشيخ محمد المراكشي ومنهم كذلك الشيخ علي النوري» .

ويمثل رجوع الشيخ علي النوري من مصر إلى مسقط رأسه في أواخر سنة 1078 / 1668 م وتأسيسه لزاويته وفتحها للتدريس منعرجاً في حياة صفاقس الثقافية والدينية ، إذ أعطت شرارة نهضتها ، فكان الشيخ علي النوري الذي وصفه حسين خوجة «بالمرابي ، والمدرس ، ومحبي السنة...» رائد هذه النهضة . ورأى بعضهم حلوله في مدينته كالغيث في البلد القاحل الجديب ، أروى العقول من ظمأ الجهل . وكان للزاوية النورية إشعاع ، وتأثير كبير في تكوين الطلبة الذين اتقنوا دراستهم عن الشيخ علي النوري ، وعن شيخ البلد غيره وأهمهم عبد العزيز الفراتي ، وتوزع بعضهم في مساجد المدينة وزواياها ، ينشرون التربية والعلوم التي تلقوها ، ونذكر منهم محمد وأحمد ولدا الشيخ علي ، اللذان أخذوا مشعل الزاوية بعد وفاة والدهما ، وعلي بن محمد المؤخر الذي كان حياً في سنة 1118 هـ / 1706 م ، أخذ عن الشيخ علي النوري علوم اللسان والشريعة والميقات والحساب ، وتولى الإمامة والتدريس والتجويد بضريح الشيخ سيدي أبي الحسن اللخمي ، وبمحمد الغراب الذي خلفه بنفس

(3) حسين خوجة : ذيل بشارت أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ، تحقيق الطاهر المعموري ، الدار العربية للكتاب ، 1975 ، ص 128 .

(4) القسم العربي عدد 2278 .

(5) تاريخ الأدب الجغرافي 456/1 .

(6) 155/4 .

المقام بعد وفاته ، ومنهم رمضان بو عصيدة الذي استقر يزاوية الصّفار ، وإبراهيم المزغني الذي اشتغل بمقام سيدي عبد الرحمان الطّبّاع ، ومحمد الزّوّاري ، ومحمد بن محمد الشّرفي الذي تصدر للتدريس فيما بعد بالزاوية الحسينية .

وتعزز التدريس بصفافس بجانب الزاوية النورية بالحركة التي كان يقوم بها الشّيخ عبد العزيز الفراقي بالجامع الكبير ، وتعزّز كذلك بالمدرسة الحسينية التي أحدثها حسين بن علي في سنة 1126 / 14 - 1715 م ، وتصدر للتدريس بها أولاً الشّيخ محمد ابن المؤدّب محمد الشّرفي الذي أنهى تكوينه كالشيخ علي النوري وعبد العزيز الفراقي بمصر .

وكانت الزاوية النورية طيلة حياة الشّيخ علي ، وبعد وفاته مع ابنه محمد وأحمد وأحفاده ، والمدرسة الحسينية أيضاً أهم المدارس في صفافس خلال القرن الثامن عشر ، وكان مستوى التدريس بها هو مستوى مشايخها الذين يدرسون بها ، ربيعاً ، وكان بعض الطلبة يكتفي بما يتلقاه فيهما ليصبح فقيهاً أو ميقاتياً أو شاعراً .

وهكذا تعددت أماكن التدريس ، وتعدد المدرسون المتكونون في مختلف فنون المعرفة التي أخذوها عن مشايخهم وغيرها من مراكز التعليم في الإيالة وخارجها ، وانتشرت الثقافة بين الناس ونبغ بعضهم في مختلف نواحيها .

وهذه النهضة ليست مستقلة بذاتها ، إذ هي وجه من النهضة الثقافية التونسية في القرن الثامن عشر ، البارزة في تونس العاصمة ، وترجع أسبابها إلى عدة عوامل منها الإستقرار السياسي والتقدم الإقتصادي ، واعتناء الحكام بها منذ قيام الدولة الحسينية ببناء المدارس وتكوين المكتبات ، وتنظيم التدريس بالزيتونة ، وإكرام أهل العلم ، وإجراء المرتبات لهم والإحسان إلى الطلبة .

ويمكن أن نقسم فنون المعرفة التي راجت في صفافس إلى أقسام ثلاث :

- القسم الديني الذي يشمل الفقه والأحكام والأصول والفرائض والقراءات والحديث والتفسير وكل من سبق ذكرهم كان له باع فيها .
- قسم الرياضيات وله ارتباط بالأول ويتعلق بالحساب ، والفلك ، والميقات ، وصناعة الأرباع ، وقد برع فيها بعض أفراد عائلة الشّرفي بجانب تفضلهم في العلوم الأخرى ، وأهمهم محمد ابن المؤدّب محمد الشّرفي وابنه أحمد القاضي وحسن بن أحمد الشّرفي .
- الأدبيات : النحو والشعر والأدب والتاريخ .

ومن شعراء الجيل الأول : محمد ابن المؤدّب الشّرفي ، وبعده برع في قرض الشعر ثلاثة آخرون تعاصروا : علي ذويب ، وإبراهيم الخراط ، وعلي الغراب ، وكانوا رفقاء وزملاء تتلمذوا على الطيب الشّرفي وعلي الأومي ومحمد بن علي الفراقي .

وانفرد في كتابة التاريخ محمود مقديش - المترجم له - إذ لم تكن صناعة التاريخ في مدينته من الآداب الرائجة أو المطلوبة ، ولم تكن علماً قائماً بذاته يدرس . وقد يرجع ميل محمود مقديش إلى هذه المادة إلى عدة عوامل ، مرتبطة ببعضها : تعاطيه نسخ الكتب عندما كان مجاوراً الأزهر ، واعتقاده أن

التاريخ علم نبيل لقوائده ، فهو في رأيه « من أفضل العلوم نفعا وأشرف المزايا قطعاً »⁽⁷⁾ وأهم الأسباب إلحاح بعضهم عليه لكتابة «مغازي الصحابة ، ومغازي المجاهدين ، ومغازي العساكر العثمانية مع تقييد أحوال أمراء الإسلام القائمين بحفظ المغرب من الفتح الأول ، وتحديد المغرب براً وبحراً وذكر بلدانه ، مع ذكر أهل الفضل من العلماء والصالحين بخصوص صفاقس ، وذكر أحوالها مع ذكر ما تيسر من فضلاء غيرها »⁽⁸⁾.

فنزهة الأنظار تبدو وكأن مؤلفها صَنَّفَهَا لإرضاء طلب ، ولكن الطلب التقى مع رغبته ، فتمت رغم صعوبة السعي إليها الذي لخصه في مقدمتها بقوله : « فرأيت فيما دون ما طلب خروط القتاد سبياً من مثلي ممن لا مادة في تعاطي هذا الخطب العظيم الشأن ، ومع ذلك فليست أعد نفسي أهلاً لأن أكون من فرسان هذا الميدان »⁽⁹⁾.

وفي السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر لاحت بوادر تدهور الحياة التعليمية والعلمية في صفاقس خلال القرن التاسع عشر ، وربط محمود مقديش عدم إقبال الناس على التعلم والتعليم بإقبالهم على الدنيا وتشبيهم بها فقال معللاً صعوبة الكتابة : « وأخرى وأنا في بلد مطروح في زوايا الإهمال لإقبال أهله على تحصيل الدينار والدرهم والسعي على العيال »⁽¹⁰⁾ ، ونرى من جهتنا أن هذا التدهور مرتبط أيضاً بعمل الطاعون الجارف الذي انتشر في سنة 1199 / 1786 م فقد أخذ من المؤذنين والمدرسين ومن بقية العلماء عدداً وافراً نذكر منهم حسن بن أحمد الشرفي الفقيه والحيسوبي الفلكي ، والشاعرين علي ذويب وإبراهيم الخراط ، ومحمد المصمودي القاضي ، وعلي المصمودي الفقيه النحوي وغيرهم . وكان عمل الطاعون فاحشاً في الناس إلى حد أنه عطل سير حركة العلم والتعليم في وقته وبعده أيضاً بموت العديد من رواد الحركة .

وقد لخص لنا ذلك محمود مقديش في كلمة معبرة أتت في مقدمة كتابه فقال : « فنصفحت ما لدي من مادة فإذا هي بضاعة مزجاة وقد جرف الطاعون من بلادنا من كنا نعهده من الرواة »⁽¹¹⁾ . ومحمود مقديش بالنسبة لمدينته واعتباراً لحياته وثقافته ومستوى كتابته ، يمثل حداً فاصلاً بين عصرين متباينين ثقافياً ، القرن الثامن عشر المزدهر ، والقرن التاسع عشر الذي نزلت فيه المعرفة والتدريس والكتابة وإقبال الناس على التعلم ، درجات .

اعتبره كراتشكوفسكي ، نظراً لتاريخ وفاته من مؤرخي القرن التاسع عشر القلائل وكذلك اعتبره أحمد عبد السلام إذ ابتدأ به تقديم المؤرخين التونسيين في هذه الفترة ، اعتماداً على تاريخ وفاته أيضاً ، ولاحظ في آن واحد « أن مؤلفه نزهة الأنظار يندرج ضمن الأعمال التاريخية الراجعة إلى نهاية القرن الثامن عشر إذ أن الأحداث الأخيرة التي ذكرها مؤرخة في محرم من سنة 1205 / سبتمبر أكتوبر 1790 م »⁽¹²⁾.

(10) النزهة ص. 37.

(11) النزهة ص. 37.

(12) Les historiens... ، ص 274.

(7) النزهة ص. 36.

(8) النزهة ص. 36 - 37.

(9) النزهة ص. 37.

(2) المؤلف⁽¹⁾

□ أ) نسبه وحياته :

هو محمود بن سعيد مقديش (بفتح الميم والقاف المعقدة الساكنة والذال المهملة المكسورة) الفقيه المؤرخ المشارك في علوم .

ولد بصفاقس ، في سنة 1154 / 1742 م ، ونشأ في عائلة نبيلة من أنه بيوت صفاقس أصلها من أنشلة (Usulla) وتنسب إلى سيدي مخلوف الشرياني إحدى قرى صفاقس من الجهة الشرقية ، وترى تربية صالحة ، فقصى معظم حياته بين طلب العلم والتدريس والتأليف معتمداً على نفسه ، مستهيناً بالصعاب والعقبات في عصامية نادرة لا يبتطها ولا يثني عزمها أخرج الظروف المادية .

تلقى العلم في مبتدأ أمره عن أدركه ببلده من تلامذة الشيخ علي النوري كالشيخ محمد الزواري ، والمحدث المفسر الشيخ رمضان بو عصبدة ، وأخذ الفقه عن المقرئ الفقيه الرياضي الشيخ علي الأومي ، وشاركه في شيوخه التونسيين والمصريين ، والشيخ محمد الدرناوي اللبي عند إقامته بصفاقس قبل أن يستقر نهائياً بالخاصة ، ثم التحق بجامعة الزيتونة ، ولقي أعلامه كالشيخ قاسم المحجوب ، والشيخ محمد الشحيمي كبير علماء المعقولات في عصره والشيخ المحدث الفقيه الرحالة عبد الله السوسي السكتاني المغربي ، وهو من شيوخ الشيخ علي الأومي ، وعاقته قلة ذات اليد عن إرواء غلته من طلب العلم والإقامة بتونس ، فانتقل إلى الزاوية الجمينية بحجة التي تكفل بالإنفاق على الطلبة المقيمين بها من ريع أوقافها ومن تبرعات أهل الفضل والإحسان ، وقرأ هناك مختصر الشيخ خليل بشرح الشيخ محمد الخرشي وشرح الشيخ عبد الباقي الزرقاني على الشيخ إبراهيم الجميني الحفيد ، والشيخ أحمد بن عبد الصادق الجبالي العبادي اللبي ، ثم جاور بالأزهر وهو كهل متزوج له ذرية ، فأخذ العلوم الرياضية عن الشيخ أحمد الدمهوري وحسن الجبرتي والد المؤرخ عبد الرحمان ، وأخذ عن الشيخ علي الصعبيدي الفقه والحديث ، وقرأ على غيرهم من شيوخ الأزهر .

ولا نعلم تاريخ التحاقه بالأزهر ، ومدة إقامته بمصر سوى ما ذكره في القسم الأول من تاريخه الخاص بالجغرافيا أنه كان موجوداً بالإسكندرية سنة إحدى ومائتين وألف / 1786 ، ولعل ذلك كان لعرض التجارة .

وكان مدة مجاورته بالأزهر ينسخ الكتب الثمينة ، ثم يؤوب إلى بلده صفاقس ، ويبيع ذلك إلى علماء المدينة ، ويترك محصول ذلك لزوجه وذريته ، ويرجع إلى القاهرة لاستكمال قراءته ، وبعد تخرجه من الأزهر انتصب للتدريس مجاًناً ببلده ، قال الشيخ ابن أبي الضياف : «لما تضرع من العلوم رجع إلى بلده صفاقس فأفاد وأجاد ونفع العباد ، وتزاحمت على منله الورود ، وأفنى عمره في هذا

(13) يوجد بالمكتبة الوطنية بتونس مخطوط مسجل تحت رقم 235 به ترجمة محمود مقديش وكانها مجهول ويبدو من النص أنه أحد تلاميذ من أخذوا عن هذا المؤرخ ، وركز فيها على إنتاجه وصفاته .

المراد وأتى بما يستجد فتلأمذه بصفاقس أعلام وأئمة في الإسلام ، وكان متخلقاً بالإنصاف سمح بما عهد فيه من محمود الأوصاف⁽¹⁴⁾.

وكان لا يقتصر في تدريسه على أسلوب الإلقاء والتلقين ، بل يستخدم الأسئلة عن المشاكل والقواعد في قالب قصصي مخترع لاختبار ذكاء الطلبة ، ومعرفة ما هضموه من معلومات ، وتروى له حكايات يروونها بعضهم إلى اليوم.

ولبث يبلده مقسماً أوقاته بين التدريس والتأليف واحتراف التجارة لكسب قوته متجافياً عن الوظائف الرسمية إلى أن هاجر إلى القيروان في آخر حياته إذ توفي بها ، وحمل جثمانه إلى صفاقس . واختلف في تاريخ وفاته ، ذكر أحمد بن أبي الضياف في الإنحاف ومحمد مخلوف في شجرة النور الزكية وأشار أحمد عبد السلام في أطروحته حول المؤرخين التونسيين أنه توفي في سنة 1228 / 1813 م وهو التاريخ الذي ورد في المخطوط المشار إليه وفي ملحق الطبعة الحجرية وأثبت محمد محفوظ في تراجم المؤلفين مع شيء من الحذر إذ رآه إضافة لنص المؤلف فقال : « فلعل هذه الزيادة كتبت في الهامش فأضافها بعض النساخ إلى صلب الكتاب ، وهذه الزيادة شديدة الاختصار مبالغة لأسلوب الكتاب »⁽¹⁵⁾.

ويرى نالينو (Nallino) أن هذا التاريخ قد يخالف الواقع إعتدًا على أحد فهارس مكتبة جامع الزيتونة ، المسجل تحت عدد 6233 صفحة 62 إذ جاء فيه نقلاً عن الفرنسية : « توفي في سنة 1228 حسب المؤرخ ابن أبي الضياف ، أو في سنة 1229 هـ حسب الباش مفتي القراني بصفاقس ، وهو أحد تلاميذ المؤلف ، وهذان التاريخان يخالفان الواقع لأن محمود مقديش لم يكمل تاريخه إلا في سنة 1233 هـ »⁽¹⁶⁾. ويضيف نالينو أن مقديش تحدث فعلاً عن محمود باشا الذي استمر حكمه إلى سنة 1233 هـ ، ونقل كراتشكوفسكي خلاصة نالينو وأثبت أنه توفي بعد عام 1233 هـ / 1818 م .

وتعليل نالينو لإسقاط سنة 1228 كتاريخ لوفاة المؤلف ساقط من أساسه ، وميله إلى سنة 1233 في غير محله ، فنالينو اعتمد في كل ذلك على ما جاء في آخر الباب الأول من المقالة الحادية عشرة عن محمود باشا حيث قيل في - النسخة المطبوعة - « وهو أمير عصرنا سنة ثلاثة وثلاثين ومائتين »⁽¹⁷⁾ ولم يهتم هذا المستشرق بما جاء قبله عن حمودة باشا الذي قال عنه مقديش « فهو سلطان وقتنا أقر الله به أعيننا »⁽¹⁸⁾ فهذا التكرار المنافي للمنطق يجعلنا نثبت أن الأخبار القليلة التي وردت عن محمود باشا تمثل زيادة عن الأصل من أحد النساخ ، وتنبه لها أحمد عبد السلام ورأى أن سنة 1233 تمثل تاريخ الإنتهاء من نسخ المخطوطة التي اعتمدها الطبعة الحجرية فقال : « إن آخر الأحداث التي تعرض إليها

(14) الإنحاف 85/7.

(15) 362/4.

(16) Venezia... المصدر السابق ص 5.

(17) 72/2.

(18) 71/2.

مقديش ترجع إلى محرم 1205 / سبتمبر - أكتوبر 1790... ولم يتعرض إلى حكم حمودة باشا الذي توفي المؤلف في أواخره إلا ببعض أسطر ، ولخصت أخبار عثمان باشا ومحمود باشا اللذين تعاقبا بعده حتى سنة 1233 ، وتمثل هذه السنة تاريخ الإتياء من نسخ المخطوطة التي اعتمدها الطبعة الحجرية ، ولا شك أن هذا التلخيص السريع ليس من تحرير المؤلف الذي توفي قبل هذا التاريخ»⁽¹⁹⁾.

ولا يستبعد أن تكون النسخة المعتمدة هي النسخة الموجودة بالمكتبة الوطنية بتونس ، إذ لا تختلف مع الطبعة الحجرية فيما ذكر عن محمود باشا ، وبما يؤكد لنا أنها زيادة عدم وجودها في مخطوطة شيخ الإسلام أحمد عارف حكمت بالمدينة المنورة ، المرموز إليها عندنا بـ «ش» ، وهي أقدم المخطوطات ، ونقلها ناسخها عن نسخة بخط المؤلف.

اعتبارًا لكل هذا نقر عام 1228 هـ / 1813 م تاريخًا رسميًا لوفاة المؤلف إلى أن تأتي دراسات أخرى تخالفه.

وذكر كراتشكوفسكي ، اعتمادًا مرة أخرى على ناليو أن محمود مقديش «أمضى معظم حياته بمسقط رأسه ولو أنه كما يبدو ساح كثيرًا ، وزار مواضع كالبندقية مثلاً»⁽²⁰⁾. وناليو اعتمد بدوره نزهة الأنظار ذاتها ليقول أن محمود مقديش زار البندقية حيث قال في نزهة الأنظار عندما تحدث عن واقعة رأس المخبز التي دارت بين الصفاقسين والبنادقة أو البنلسيان وانتهت آخر يوم من شعبان سنة 1160 هـ / 1747 م : «ولما سافروا لبلاد المشرق نزلنا بلادهم على الصلح...»⁽²¹⁾.

□ (ب) تأليفه :

- (1) حاشية على العقيدة الوسطى للسوسي ينقل فيها من كتب قليلة الوجود في عصر السمرقندي مطبوعة على الحجر بتونس ، سنة 1321 / 1903 م ، جزءان في مجلد واحد.
- (2) حاشية على تفسير أبي السعود العمادي سماها «مطالع السعود على تفسير أبي السعود» ، في 13 : بمكتبة المرجع الشريف محمد الصادق النيفر.
- (3) شرح على المرشد المعين في الفقه المالكي للشيخ عبد الواحد بن عاشر ، جزءان.
- (4) شرح جانب من التذكرة للقرطبي ، انفراد بذكره الشيخ محمد المهيري في بحثه المنشور بمجلة الثريا ، شعبان 1963 جويلية 1946 ص 109.
- (5) شرح على كشف الأستار للقاصدي سماه «إعانة ذوي الإستبصار على كشف الأستار عن علم حروف الغبار» ، وهو مختصر من كتاب القاصدي كشف الجلباب في علم الحساب ، وهذا مختصر من كتابه التبصرة ، وهو أول مؤلفات المترجم ، توجد منه نسخة بالمكتبة الوطنية بتونس (مكتبة ح. ح. عبد الوهاب بخط محمد المصمودي في أواسط ذي الحجة 1283 في 312 ورقة 21 سطرًا ،

(19) Les historiens... ، المصدر السابق ، ص 282.

(20) Venezia... ، المصدر السابق ص 5.

(21) النزهة ، الطبعة الحجرية 93/2.

قياس 16 / 22 سم ، وتوجد منه قطعة أخرى في 50 ورقة بنفس المكتبة وأصلها من مكتبة الشيخ علي النوري .

ذكر في الخطبة قيمة علم الحساب ، وحالته في عصره ، والإقبال على تأليف القلصادي في القطر التونسي وخصائص كتابه «كشف الأستار» وتأليفه لهذا الشرح باقتراح من بعض الإخوان ، فقال : «أما بعد فإن المآثر وإن تكاثرت ، والمفاخر وإن تفاوتت فأشرقها رفعة ، وأعلاها رتبة العلم ، ثم هو وإن تفننت أفنانه وبسقت فروعها وأغصانه فأينها تبياناً ، وأوضحها حجة وبرهاناً - بعد علم الهندسة - علم الحساب ، الذي هو أول التعاليم القديمة وأمتن العلوم المستقيمة ، ثم هو مع ذلك قد صارت آثاره خفية وأسراره مطوية ، ولم يبق منه إلا بقايا لا تبل الصدى ، ولا تجيب النداء وإن وجد منه رسوم دارسة استولى عليها داء العجل من أصحابها ولا يمكن الإفصاح عنها من أربابها ، ومع هذا فالطلب فيه حثيث شديد والباعث عليه من النفوس أكيد ، فلما تعلققت همتي به وطمحت نفسي في تحصيله رأيت تأليفه مجراً لا ساحل له وبعداً لا منتهى له ، غير أن علماء العصر من إفريقية - حماها الله من كل أذية - قد أكبوا على اختصارات الإمام الأوحى الفاضل الأجدد أبي الحسن علي بن محمد ابن علي القرشي الأندلسي البسطي الشهير بالقلصادي ، واختاروا من اختصاراته أخصرها ، ومن تواليفه أنورها ، وهو أصغر كتبه حجماً وأغربها علماً المسمى «يكشف الأستار عن علم حروف الغبار» فكنت في جملة من أكب عليه ، ولم يجعل معوله إلا عليه ، فوجدته عظيم الشأن رفيع الأركان محكم البنيان ، غير أنه لشدة اختصاره ، تكاد النفوس تئأس منه سيما وهو - مع ذلك - مهرة لم تركب ودرة لم تنقب ، وإن تعاطاه أحد صار كأنما وقع في أجمة أسد ، لم يبلغنا عنه تعليق يليق له لا يليق⁽²²⁾ (٢) وصار كلام الناس فيه آثارها تطيرها الرياح وأحاديث ليل تمحوها به الصباح لأن ما يسطر في الدفاتر لا يستقر في الفكر ولا تحويه الضمائر...

ولما تردد علي بعض الإخوان فرما صدر مني بعض إشارات لمقاصده ولحات لمراشده ، فطلبوا مني أن أقيد لهم ما سمعوه ، وأرسم لهم ما فهموه ، ثم إني فكرت فيما أملت وجدته في كل لحظة يتغير فيه الأمر ويقبل الزيادة والنقص والتغيير والتبديل تحاشياً من النقص ، وطلباً للكمال المحبوب طبعاً للنفس ، فإذا أنا لم أجد لذلك غاية ، فاضطرب عندي الأمر ، سيما ولم يسبق عندي تأليف ، فعزمت على محو ما كتبت ، ورجعت عما أضمرت حتى رأيت كلام أستاذ البلغاء القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني إلى العماد الأصبهاني معترداً عن كلام استدركه عليه أنه قد وقع لي شيء ، ولا أدري أوقع لك أم لا؟

وها أنا أخبرك به وذلك أني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده : لو غيرت هذا الكتاب لكان أحسن ولو زيد هذا لكان يستحسن ولو قدم هذا الكلام أفضل ولو ترى

- هذا المكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر. ه فأقلعت عن ذلك العزم ، وعولت على انقاذه بالفور والحزم».
- (6) القول الجاوي في جواب وقفه الشيخ يحيى الشاوي في الفرق بين السبب والشرط ، مخزون بالمكتبة الوطنية بتونس (مكتبة ح. ح. عبد الوهاب) بخط علي بن عون الساسي بتاريخ ذي القعدة 1242 ، 7 ورقات ، قياس 16 / 22 ، وتوجد بها نسخة أخرى.
- (7) وأشهر مؤلفاته هو تاريخه المعروف بـ «نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار» والمعروف أيضاً بـ «دائرة مقديش».

(3) نزهة الأنظار

يبدو أن محمود مقديش كان بصدد كتابة النزهة في سنة 1207 / 1793 م اعتماداً على ما ذكره عند كلامه عن مدينة وهران إذ قال : «وكثيراً ما تغلب عليها إفرنج الأندلس من أيدي المسلمين ، ثم يفتحها المسلمون منهم ، وساعة تاريخ الكتاب سنة سبع ومائتين وألف بأيدي المسلمين». وذكر من جهة أخرى أن سلطان عصره في سنة 1203 / 1788 - 1789 م هو سليم خان الثالث ، فلعل البداية في التأليف كانت في هذه السنة.

ويرى المستشرق الروسي كراتشكوفسكي أنه أتم الجزء الأول من مصنفه في عام 1210 / 1796 م.

□ أ - مصادرها :

يعتمد محمود مقديش على مصادر متنوعة ، هي تقريباً المصادر التي اعتمدها معاصروه ، كالوزير السراج مثلاً ، وقد أتاحت الفرصة للمؤلف في استعمالها بفضل مكتبته الخاصة التي كانت فيها يبدو ثرية تشتمل على كتب التاريخ والتراجم والبلدان ، وفي نظرنا نُسَخُ للكتب أثناء إقامته بمصر مدة مجاورته الأزهر كان أهم الوسائل التي مكنته من استكمال تكوينه وتوجيه نحو المراجع التي احتاج إليها.

واستعمل محمود مقديش الأساليب التالية :

- النقل الحرفي .
- النقل مع تغيير بعض الكلمات ، وهو يصيب في بعض الأحيان ، فيخف التعبير ويستقيم المعنى ويخطئ في بعض المرات ، فتسقم جملة ، ويتغير المعنى الذي قصده المرجع .
- التلخيص مع استعمال بعض العبارات الجزئية من المرجع المستند إليه ، وهو في أغلب الأحيان يحافظ على المعاني الواردة في مراجعه .

- التقديم والتأخير: اقتضى ترتيب محمود مقديش لكتابه ، وتصميمه له ، واقتضت منه نظרתه التاريخية ، أن لا يتبع تسلسل النصوص بالمراجع التي استعملها بل كان في نقله وتلخيصه يستعمل ما جاء بها بالتقديم والتأخير دون ضبط أو إشارة .
- إشارة محمود مقديش في أغلب الأحيان إلى مراجعه ، منذ بداية نقله ، أو في أثنائه ، أو في آخره ، ولم يشر إليها مرات أخرى ، فأتى نصه إذ ذاك انتحالاً لكلام غيره ، ولم يتمكن في بعض الحالات ، وهي قليلة من التعرف على المصادر التي استعملها .
- استعمل المصادر التي أشار إليها إما بصفة مباشرة كالوفيات لابن خلكان ، ونزهة المشتاق للادريسي ، ورحلة التجاني ، ورحلة العياشي ، وتاريخ الدولتين للزركشي ، إلى غير ذلك ، أو بصفة غير مباشرة بواسطة مراجع نقلها عنها ، مثلاً ابن الأثير في بعض الحالات ، وابن شداد بواسطة ابن خلكان في وفيات الأعيان والذهبي بواسطة السيوطي في تاريخ الخلفاء...
- وتبدو مصادره قليلة ، أو فيها بعض التخليط فهو عند كلامه عن الدولة العثمانية نقل كثيراً من كتاب «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» للقطب النهروالي ، وعزا هذا النقل إلى أبي الوليد الأزرقى ، وهو متقدم بينه وبين النهروالي قرون ، ولعله كانت عنده نسخة من «أخبار مكة» لأبي الوليد الأزرقى يليه «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» فلم ينتبه لهذا ، وظن أن الكتاب كله للأزرقى ، وفي ترجمة عيسى بن مسكين لم يعرف تاريخ وفاته حتى أخبره صديق له بذلك ويبدو أنه لم يكن مطلعاً على «الديباج المذهب» لابن فرحون ، ولورجع إليه لوجد ترجمته وتاريخ وفاته فضلاً عن الرجوع إلى أصله : «ترتيب المدارك» للقاضي عياض .

وقائمة المصادر التي ذكرها واستعملها بطريقة أو بأخرى هي التالية حسب الترتيب الأبجدي :

- (1) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام للقطب النهروالي .
- (2) بشائر أهل الإيمان لحسين خوجة .
- (3) تاريخ الخلفاء للسيوطي .
- (4) تاريخ الدولتين للزركشي ولم يصرح بالنقل عنه .
- (5) تاريخ الطبري ؛
- (6) جامع مسائل الأحكام للبرزلي نقل منه مرة واحدة عند ترجمة أبي يحيى زكرياء بن الضابط تلميذ الإمام اللخمي ولم يترجم في ترتيب المدارك والديباج .
- (7) جذوة المقتبس للحميدى .
- (8) الحلل السندسية للوزير السراج .
- (9) حسن المحاضرة للسيوطي .
- (10) خريدة العجائب لابن الوردي .
- (11) رحلة التجاني .
- (12) رحلة العياشي .

- (13) رقم الحلل في نظم الدول لابن الخطيب الأندلسي .
- (14) رياض النفوس للمالكي .
- (15) زبدة التواريخ للبيضاوي .
- (16) سمط اللاك لمحمد قويسم النواوري .
- (17) صاحب كتاب فضل الحبيب والنديم اللبيب ، طبقات المناوي .
- (18) عجائب المخلوقات للقزويني .
- (19) قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس للثعلبي .
- (20) كتاب العبر لابن خلدون .
- (21) الكامل لابن الأثير .
- (22) المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء الأيوبي .
- (23) مروج الذهب : المسعودي .
- (24) مسالك الأبصار : لابن فضل الله العمري .
- (25) معالم الإيمان : للدباغ .
- (26) معالم التنزيل : للبغوي .
- (27) مناقب أبي الحسن الكراي .
- (28) مناقب سيدي أبي إسحاق الجبيني : لليدي .
- (29) مناقب سيدي محرز بن خلف .
- (30) المؤنس لابن أبي دينار .
- (31) نزهة المشتاق : للشريف الأدرسي . في القسم الأول من الكتاب (قسم الجغرافيا) .
- (32) وفيات الأعيان لابن خلكان .

أما بالنسبة للمقدمة ولاضافاته التي تهم خاصة المدن كالاسكندرية ، وتونس ، والجزائر ، والمهدية ، وصفاقس ... وجل ما جاء بخاتمته فهو من تحريره الذي اعتمد فيه على تكوينه الخاص ، ومشاهداته ، والأخبار والمعلومات التي تلقاها من أصدقائه أو الوسط الإجتماعي الذي عاش فيه ، وعن هذا الوسط أخذ بعض مآثراته منها طريقة المقاومة الشعبية للإحتلال الزماني ، وأخذ بعض الأخبار الأسطورية التي تتعلق بآدم وذريته ، والأنبياء والرسل ، إذ لا نجد لهذه الأخبار أثراً في كتب التراث .

□ (ب) تصميمها :

قسم محمود مقديش نزهة الأنظار إلى جزئين متعادلين حجماً ، يضم الجزء الأول مقدمة وعشر مقالات ، ويضم الجزء الثاني مقالة وهي المقالة الحادية عشرة وخاتمة . وقسم بعض المقالات والخاتمة إلى أبواب من اثنين إلى أربعة .

المقدمة : وهي مقدمة قصيرة ضبط المؤلف فيها سبب كتابته للنزعة ، وضبط منهاج عمله ، ومفهومه للتاريخ الذي هو في نظره : « الضابط لوقائع الأعصار الماضية والحاضرة مما له خطر وشأن بوقته للنقل »⁽²³⁾ ومنفعته « بمعرفة أحوال من مضى من أولى الأقطار »⁽²⁴⁾ وغايته من أنه عبرة .

المقالة الأولى : في تحديد المغرب برًّا وبحرًا وأسَاء البلدان .

وهي أطول المقالات ، خصصها لجغرافية المغرب ، وأقطاره ومدنه ، ويراها لازمة إذ كل ما فيها « راجع إلى موضوع الكتاب إذ البحث عن بلاد من بلدان المغرب وعن أمرائها موقوف على معرفة تلك البلاد وذكر غيرها تبع لها فن ثم مست الحاجة إلى ذكرها »⁽²⁵⁾ . وقسمها إلى أربعة أبواب :

- الباب الأول في تحديد المغرب برًّا وبحرًا .

- الباب الثاني في ير المغرب الأقصى والمغرب الأوسط إلى حدود بجاية .

- الباب الثالث في بقية المغرب الأوسط وجميع المغرب الأدنى .

- الباب الرابع في جزيرة الأندلس .

في هذه المقالة تناول المؤلف الجغرافية البشرية والاقتصادية والوصفية ، واعتمد فيها أساسًا على نزعة المشتاق للادريسي ، وخريدة العجائب لابن الوردی ، وعجائب المخلوقات للقرظيني ، ورحلة التجاني ، ووفيات الأعيان لابن خلكان في ضبط الألفاظ ووصف بعض المعالم . ويغلب على هذا القسم النقل ، بما في ذلك الأساطير المختلفة التي تهيم الأندلس ، وأصول البربر وتسميتهم ، والأساطير التي تتعلق بتسمية إفريقية ، والتفاسير المتعلقة بحركة البحر دون إعمال الرأي فيها ، وتقتصر آراؤه على تحديد المغرب الذي في نظره يمتد من بحر الظلمات على سواحل الأندلس ، إلى الإسكندرية والصحراء ويقتصر على إضافاته حول بعض مدن إفريقية والجزائر والإسكندرية ، وهي هامة على قلتها واختصارها كما ستعرض إليه فيما بعد .

المقالة الثانية : في ذكر الخلافة وخلفاء الصحابة .

بها يتبدأ القسم التاريخي وقسمها إلى ثلاثة أبواب .

- الباب الأول في الخلافة وخلافة النبي ﷺ ، والخلفاء الأربعة .

- الباب الثاني في خلافة بني أمية .

- الباب الثالث في فتوحات المغرب الواقعة أيام الصحابة وبني أمية واعتمد المؤلف في هذه

المقالة على تاريخ الخلفاء للسيوطي ، وحسن المحاضرة للسيوطي ، ورقم الحلل لابن الخطيب ، ومعالم الإيمان للدباغ ، والوفيات لابن خلكان .

(23) النزعة 39 .

(24) النزعة 39 - 40 .

(25) النزعة 42 .

وفيه حدد مفهوم الخلافة وفرق بينها وبين الملك ، وعن طريق الخلافة رجع إلى بدء الخليقة ، فأول الخلفاء آدم ثم تتبع ذريته حتى انتهى إلى الرسول ﷺ ونسبه ومر بسرعة على حياة الرسول ، والخلفاء الأربعة وخلفاء بني أمية ، وتاريخهم كتوتة مكتته من الإنتقال إلى فتح أقطار المغرب والأندلس .

المقالة الثالثة : في ذكر خلفاء بني العباس وبعض أمرائهم بالعراق ، وقسمها إلى ثلاثة أبواب :
- الباب الأول : في ذكر خلفاء بني العباس .

- الباب الثاني : في ذكر بعض أمراء بني العباس بالشرق : الصفاريين ، السامانيين ، الغزنويين ، والديلمة ، والسلاجقة والخوارزمية وتعرض في أوله إلى التتر وحروبهم .

- الباب الثالث : في مشاهير أمراء بني العباس بالمغرب .

واستعرض بعض ولاية إفريقية ، والدولة الأغلبية ، واعتمد في هذه المقالة على الطبري وذكر الصولي عند كلامه عن المكثي ، ومسالك الأبصار للعمري ، وزبدة التواريخ للبيضاوي ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ورحلة التجاني ، ورقم الحلل لابن الخطيب ، وتاريخ ابن خلدون في الباب الثالث ، ولا شك أنه استعمل في الباب الأول مصادر أخرى غير الطبري لم يذكرها وتعذرت علينا معرفتها .

المقالة الرابعة : في ذكر ملوك الشيعة بالمغرب وكيفية انتقالهم إلى مصر وما تبع ذلك .
وهذه المقالة نقل متواصل من عدة مصادر : الوفيات لابن خلكان ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي بما فيه من نقل عن الذهبي ، ورحلة التجاني ، ومعالم الإيمان للدباغ والكمال لابن الأثير .

المقالة الخامسة : في ذكر ملوك صنهاجة بالمغرب وصلاح الدين بمصر . وفيها بابان وقد يتساءل القارئ ما هي العلاقة بين الأيوبيين والصنهاجيين حتى يقرنوا في مقالة واحدة ؟ الخيط الذي يربطهما في ذهن المؤلف أنهم خلفوا الفاطميين هنا وهناك .

- الباب الأول : في ذكر ملوك صنهاجة ، وكيفية خروجهم عن طاعة الفاطميين ، ونزوح العرب من مصر إلى إفريقية .

- الباب الثاني : في ذكر دولة نور الدين وصلاح الدين وفيه ركز المؤلف على الحروب الصليبية وانتصارات الأيوبيين على المسيحيين .

واعتمد في الباب الأول على مناقب سيدي محرز بن خلف ، ومعالم الإيمان للدباغ ، وتاريخ ابن خلدون ، ورحلة التجاني ، ووفيات الأعيان لابن خلكان .

واعتمد في الباب الثاني على وفيات الأعيان لابن خلكان ، وتاريخ ابن أبي الهيجاء ، والكمال لابن الأثير .

المقالة السادسة : في ذكر خلفاء بني أمية في الأندلس .

وهذه المقالة سريعة ، استعرض فيها خلفاء بني أمية وملوك الطوائف ، وكأنها تمهيد لدخول يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وانتصاره على المسيحيين .

واعتمد فيها مقديش خاصة على رقم الحلل لابن الخطيب ، ووفيات الأعيان لابن خلكان .
المقالة السابعة : في ذكر ملوك لمتونة .

ويسمى الملثمين والمرابطين ، واهتم خاصة بظهور هذه الدولة ، وركز على يوسف بن تاشفين وتدخلات المرابطين في الأندلس .

واعتمد في هذه المقالة خاصة على وفيات الأعيان لابن خلكان .

المقالة الثامنة : في ذكر دولة الموحدين وأمرائهم بالمغرب والأندلس وإفريقية ، وقسمها إلى ثلاثة أبواب .

– الباب الأول : في قيام الدولة الموحدية وتاريخها العام .

– الباب الثاني : في فتح عبد المؤمن للمهدية وللبلاذ الساحلية من أيدي الزمان .

– الباب الثالث : في ذكر ثوار إفريقية على الموحدين ، وفيه يستعرض مقاومة الموحدين لبني

غانية ، وقراقوش .

واعتمد مقديش في مقالته على تاريخ الدولتين للزركشي ، ورقم الحلل لابن الخطيب ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، والكامل لابن الأثير .

المقالة التاسعة : في ذكر دولة بني مرين وبني زيان وبني نصر .

وقسمها إلى ثلاثة أبواب كل باب لدولة ، وتبسط نسبياً في ذكر دولة بني مرين بالمغرب واعتمد

فيها على رقم الحلل لابن الخطيب ، وتاريخ الدولتين للزركشي .

المقالة العاشرة : في ذكر دولة بني حفص بإفريقية .

وهي مقالة طويلة ، تحدث فيها عن الدولة الحفصية من خلال أمرائها ، والأحداث التي تعرضت لها ، وتبسط في كلامه عن تحول أبي الحسن المريني وابنه أبي عنان بعده إلى تونس ، كما تبسط في انحلال هذه الدولة واحتلال الإسبان لبعض مراكزها .

واعتمد فيه على تاريخ الدولتين للزركشي ورحلة التجاني ورحلة العياشي فيما يتعلق بدخول درغوث باشا لمدينة طرابلس وإجلاء المسيحيين عنها .

• الجزء الثاني :

المقالة الحادية عشر : في ذكر دولة آل عثمان وقسمها إلى ثلاثة أبواب .

– الباب الاول : في ذكر سلاطينهم وأصلهم ويقف عند سلطان عصره في سنة 1203 سليم

خان الثالث .

– الباب الثاني : في ذكر دخول العثمانيين إلى افريقية .

– الباب الثالث : في ذكر أمراء تونس التابعين للسلطنة العثمانية .

واعتمد في هذه المقالة على بشائر أهل الإيمان لحسين خوجة والمؤنس لابن أبي دينار ، وفي خصوص حسين بن علي وابنه علي باشا ، يوجه المؤلف القارئ إلى الحلل السندسية للوزير السراج والكتاب الباشي لحمودة بن عبد العزيز .

الخاتمة : في ذكر ما يتعلق بصفافس ووطنها .

وقسمها إلى أربعة أبواب :

- الباب الأول : في ذكر وضعها وما يتعلق به .

- الباب الثاني : في ذكر ولايتها .

- الباب الثالث : فيما وقع لأهل صفافس من الجهاد في الأعصار المتأخرة ويتناول فيه خاصة المعارك التي خاضتها صفافس مع مالطة والبندقية .

- الباب الرابع : في ذكر أهل الخير والصلاح والأولياء المتقدمين بصفافس ووطنها ، وهو أطول الأبواب .

واعتمد المؤلف في خاتمته على رحلة التجاني ، ومعالم الإيمان للدباغ ، ومناقب سيدي أبي إسحاق الجبيناقي للبيدي ، ومناقب سيدي أبي الحسن الكراي ، ويعتمد خاصة في الباب الأخير على معلوماته ، والخاتمة - كما سنبينه فيما بعد - أهم ما جاء بالكتاب .

□ (ت) أهميتها :

ضبط المؤلف لنفسه وصف المغرب ورواية تاريخه ثم التركيز على مدينته صفافس ، والمتتبع لحلقات الكتاب يشعر وكأن المؤلف يتردد فيما ضبطه لنفسه لأنه يتأرجح بين المغرب والمشرق وتاريخ المغرب وتاريخ الإسلام عامة ، ويرجع ذلك إلى غاية منهجية جعلته يبدأ بالأصل ويستقل منه إلى الفرع قصد الإيضاح ، وفسر ذلك أحمد عبد السلام بقوله : «والحقيقية أن التمييز بين التاريخ الإسلامي والتاريخ المغربي ليس في متناول محمود مقديش ومعاصره إذ أن تاريخ المغرب جزء من تاريخ العالم الإسلامي ، وهذا التاريخ هو في نظر مقديش التاريخ كله ، والمغرب يدخله عن طريق الفتح الإسلامي» (26) .

وباستثناء الفقرات والأجزاء التي حررها المؤلف ، فإن الكتاب يغلب عليه طابع النقل والتجميع وقد أشار إلى ذلك ناليو ، وكراتشكوفسكي اعتماداً عليه ، وأحمد عبد السلام في أطروحته ، والنقل والتجميع أشمل في الجزء الأول من الكتاب ، وقال في ذلك أحمد عبد السلام : «إن المقالات التي خصصها المؤلف للتاريخ تعتمد على النقل ، ولكنها أقل شمولاً ، وأقل غموضاً من العمل الذي قام به الوزير السراج في نفس الاتجاه ، وإن استعمل نفس مراجعه ، ولعله استوحاها من سلفه الجاد هذا ، فقديش لا يعطينا في هذه المقالات معلومات طريقة خاصة به ، ولا بد أن نرى في رأيه الذي اقتضته

منه المحادلات خاصة بأحداث سبقت صدى للآراء التقليدية المسلم بها عامة ، ولا أن نرى فيها نتيجة لاختياره الشخصي⁽²⁷⁾.

ولا بد أن نستثني - في القسم التاريخي هذا - المعلومات الخاصة به التي أفادنا بها عن المدن الإفريقية ، تونس والمهدية والقيروان ، وسوسة ، والجلم ، وجربة وصفاقس خاصة ، وكذلك عن الجزائر والإسكندرية وطرابلس ، وهذه المعلومات هامة ومفيدة وإن كانت مختصرة في بعض الأحيان ، وتعطينا فكرة واضحة عن بعض الأحوال خلال القرن الثامن عشر ، وفي محاولاته للمقارنة بين مصادره القديمة ، ومعلوماته ومشاهداته ، أعطى للتأثير الزمني حقه ، فمثلاً لما عقد كلامه عن الإسكندرية ومعالمها كالمجلس الذي يجنوبها ، والاسطوانة المفردة الكائنة في الركن الشمالي من هذا المجلس قال تصحيحاً للإدريسي الذي نقل عنه «ولقد وقفت عليها سنة إحدى ومائتين وألف ، فلم يبق من هذا المجلس أثر ، وإن هذه الاسطوانة المفردة نحتها أصحاب الطمع رجاء أن يجدوا تحتها بعض الكنوز ، فلما لم يجدوا شيئاً ردموا ما احترقوه»⁽²⁸⁾. وبرأ أهل جربة من الأقوال المشينة التي وردت في نزهة المشتاق «والصفحات التي يتحدث فيها عن جربة تمثل مدخلاً ممتازاً لدراسة انتشار المالكية داخل هذه الجزيرة ، وحركتها المفوقة ضد نظام الخوارج بها بفضل دعم المرادين لها»⁽²⁹⁾.

وتصحيح المؤلف لمصادره واكمال معلوماته فيما يتعلق ببعض المدن ، المدن التي تعرف عليها مباشرة وألفها ، فيه خطر ، فاكثافه بالنسبة للمدن الأخرى بنقل الإدريسي وغيره نقلاً حرفياً دون أن يعطي لتأثير الزمن حقه فيها كما أعطاه لغيرها قد يوهم القارئ أن الحالة بقيت في عصره على ما كانت عليه في الماضي.

ولا بد أن نشير إلى خطر آخر تنبيهاً للقارئ ، فالمؤلف - كما أشرنا - له ميلوه الدينية والسياسية ، والثانية امتداداً للأولى ، فهو سني راسخ العقيدة ، فاختار ما يلائم هذا الاتجاه ، وصنف كتابه على أساسه ، فهو يتحيز للإسلام في معاركه ضد الكفار ، والزمان ، فأسقط من نزهة المشتاق جل ما يتعلق باحتلال الزمان لبلاد الإسلام ، ومالطة التي يرفق ذكرها بدعائه عليها «دمرها الله» ، والصليبيين في الشرق ، ويأخذ كذلك موقفاً مماثلاً تجاه الحركات المضادة للحكومات التي يراها شرعية ، ومنها حركة أبي يزيد الخارجي ، والحركة الشيعية الفاطمية ، وحركة التتر ، وفي آخر المطاف يتشيع للدولة العثمانية التي يرى فيها منقذ بلاده «من أهل الكفر والضلال» ، فيمجّد رجالها وأعمالها ، كما يتشيع لعلي باشا الأول ويشيد بالجزائر العثمانية في بعض أوقاتها ، ويغض الطرف عن تدخلاتها الحربية في تونس ، وإن قبلنا تشييعه كرجل مؤمن مسير لتقاليد عصره فن المتأكد علينا ، إن بقينا في حيز التاريخ ، أن نعتبر موقفه هذا من الأحداث موقف المتحذر.

(27) نفس المرجع ص 283.

(28) النزهة ص 148.

(29) أحمد عبد السلام ، المصدر السابق ، ص 283.

وأهم ما جاء بالكتاب ثلثه الأخير ، وسماه الخاتمة وأفرده لمدينته صفاقس ، وكأن كل ما سبق سياق لها ، وفيها يعطينا معلومات ينفرد بها عن هذه المدينة ، تتعلق بتأسيسها ، وموقعها ، وتاريخها منذ أيامها الأولى ، واقتصادها الفلاحي والصناعي والتجاري ، والحياة اليومية ومقوماتها ، والحياة الديمغرافية وموقعاتها ، وطبائع الناس ، وحركة التعليم بها ، وجملة من تراجم مشايخها وصلحائها ، ويطنب في الحديث عن مقاومة هذه المدينة لأعدائها : الزمان ، وفرسان مالطة ، والبلنسيان ، على مر الزمن دون أن يهمل معنى ولا قصة بطولية حتى ولو بدت خرافية ، باعتزاز وفخر دون تصريح ، فالخاتمة تمثل مرجعاً من أهم المراجع لمعرفة أحوال صفاقس في القرن الثامن عشر وكذلك لمعرفة أحداث عامة ، أهمها الحرب المالطية التونسية ، والحرب التونسية البندقية ، وتاريخ هذه المدينة في شتى ألوان حياتها كما قدمه المؤلف يتطابق مع النظرة التاريخية الحديثة ، وكما قال أحمد عبد السلام : «إن نزعة الأنظار لمؤلفها محمود مقديش قَدَّمت بدقة حياة صفاقس بما فيها من أفراح وأتراح ، وهذا يمثل أكبر قيمة لها»⁽³⁰⁾.

ولغة الكتاب على مستويات مختلفة إذ ليست كلها لمقديش ، فهو ناقل ومؤلف ، ولغته الخاصة تعجب لها ، فهي متينة في المقدمة وضعيفة في أكثر التزهة ، ويستعمل فيها الكلمات العامية - يطين في معنى يطمس ، وناموس في معنى الهيبة ... ، وأيضاً يكتب الكلمة الفصحى كما تنطق في اللغة العامية - مونة العسكر عوض مؤونة ، وصرايا عوض سرايا - وأسقط الهزمة مثلاً التَمَّ عوض التأم ... وفي القسم الأخير من كتابه لاسيما عند الكلام عن الصوفية والصالحين يصل أسلوبه إلى حد كبير من الإسفاف والضعف».

(4) النسخ المعتمدة في التحقيق

أ - مخطوطة شيخ الإسلام أحمد عارف حكمت بالمدينة المنورة :

جزءان في مجلد .

عددها الرتي 142 .

مقاسها : 24/17 .

عدد أوراقها : ج 1 : 250 ، ج 2 : 350 .

مسطرتها : 21 .

لم يذكر الناسخ إسمه ، نقلها عن نسخة بخط المؤلف .

الإنهاء من نسخها 1238 هـ .

خطها : خط مغربي واضح ، العناوين بالحبر الأحمر الباهت .
الإشارة إليها : ش .
هذه المخطوطة هي المعتمدة أساسًا .

ب - مخطوطة المكتبة الوطنية بتونس :
جزءان .

عددتها الرتي : 2520 .
مقاسها : 23,5/17 .
عدد أوراقها : ج 1 : 527 ، ج 2 : 434 .
مسطرتها : 22 .
الناسخ : محمد المنوي الفرائي .
الإنهاء من نسخها : أول شوال 1322 هـ .
خطها : مغربي .
الإشارة إليها : ت .

ت - الطبعة الحجرية :
جزءان في مجلد .

مقاسها : 26,5/19 .
عدد صفحاتها : ج 1 : 256 ، ج 2 : 227 .
مسطرتها : 26 .
الإنهاء من طبعتها : 1321 هـ .
الإشارة إليها : ط .

ج - مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس :
جزء 2 ، اعتمدنا عليها في تحقيق الجزء الثاني .

عددتها الرتي : القسم العربي 6828 .
مقاسها : حجم متوسط .
عدد أوراقها : 196 .
مسطرتها : 21 .

تنتهي بالنص التالي : «وافق الفراغ من تغليف يوم الثلاث الخمسة والعشرون من محرم 1319 . هذه
النسخة امتاع محمد بالحاج محمد المذكور...» .
خطها : سمي مغربي . العناوين والفواصل بالحبر الأحمر .
الإشارة إليها : ب .

وبالمكتبة الوطنية بباريس نسخة أخرى للجزء الثاني أيضًا.

عددتها الرتيبي : القسم العربي 5146.

مقاسها : 24 / 16.

عدد أوراقها : 191.

مسطرتها : 24.

تاريخ نسخها : ذكر من جمع الكتاب ونقله إلى فرنسا أن تاريخ نسخه يرجع إلى سنة 1886. ولكن

ليس هناك في نص الكتاب ما يثبت هذا التاريخ.

رُمُوزَ وَأَشَارَات

- ط : طبعة .
- م . س : مصدر أو مرجع سابق .
- [5 أ] أول الورقة وجه .
- [5 ب] أول الورقة ظهر .
- [] ما بين حاصرتين إكمال من نسخ أخرى أو مقترح من المحققين لاستقامة المعنى .
- () ما بين القوسين حصر لكلمة أو جملة وقع تفسيرها في الهامش ، أو إضافة من المؤلف عما هو ناقل عنه .
- 120 / 5 الرقم السابق للخط المائل يشير للجزء والثاني يشير للصفحة بالنسبة للمصادر والمراجع .
- ﴿ ﴾ ما بين الهلالين آيات قرآنية .
- التواريخ : الرقم السابق للخط يشير للسنة الهجرية وما يليه مقابله السنة المسيحية .

ملحوظة 1) المؤلف ناقل عن غيره خاصة في الجزء الأول ويتصرف في بعض الأحيان في نقله ويصيب تارة ويخطئ أخرى ، وفي بعض المرات ... رأينا من المفيد الإشارة في الهامش إلى مقابل مقترحه الصائب من النص المنقول عنه ، وكلما أخطأ صوبنا خطأه في النص مع الإشارة في الهامش إلى مراجع التصويب .

2) وضعنا كل العناوين التي داخل النص سهيلاً للقراءة .

محمود مقدش

زَهْدُ الْأَنْظَارِ

فِي عَجَائِبِ التَّوَارِيخِ وَالْأَخْبَارِ

بسمهم الله المولى المولى وصلى الله على خيرنا محمد

لحمه لقصد والمجد والعز والفناء الذي لا يزول به
 الغالب على امره ولا معقب لحقه ولا مغير لما ينتفض
 ولا يحوله ام الوجود بلا يتعذر بالاعصار والصور
 والافات والبصون تنزه عن الفضة والمكان وعن التثنية
 بكنه ذاته الاوصاف بل ولا العقول ثم فيهم ومحمد
 به البر والبحر وبفضلهم على كثير ممن خلف بفضيلاد ورجع
 بعضهم على بعض خلافة وملكاً وعلماً وعملاً وحكمة
 وبصيرة وولاية وللآخرة اخبر درجات واخبر تفضيلاً على
 الانسان بالغيا ما لم يعلم ووجهه خيراً من يله ويشر علينا
 ضياء الانوار وانقل ما انتفض على حجابات الايام
 من الاضمار والصفى الورد وفاق الاقوان العايشة التي
 اوفنا تكلو تقيمه الواوثة الحاصرة بساعاتها وجعل لنا
 في الفصص خيرة وذخرى وايضاً به من منة الغلة وجعل
 لنا احسن الفحص في كتابه العزيز قلادة وذخرى في جسم
 شاهديننا يصايرنا ما لم تشاهد به باحارناه وكم سرحت اوكارنا
 في ديار فرم ناحت عزه يارناه حتى يحضرنا في لحظة واحدة في
 بقة واصرة عاتقنا وت به الدهور ونات به الافلاك ووجعنا

بسم الله الرحمن الرحيم وحلى الله على سيدنا محمد رسول

الحق لست بشيء ذو الجود والعز والملك الذي ينزل الغالب على ارضه
ولا يعقب حكمه ولا يغير ولا يتشكك ولا يحول دايح الوجود بلا يتحد
بنا اعمار الدهور والافات والبعول تنزه عن الجنة والمكان وعن
ان يحيله بكنه ذاته الا وهما ملوك العقول المرح بيده ادع وحلم في البر
والبحر وعلهم على كثير من خلق تبغيلا ورر مع بعضهم على بعض
خلافة وملك وعلما وعلما وحكمة ونبوة وولاية والاخرة الجبر
درجات والبر تبغيلا علم الانسان بالخلق ما لم يعلم وذهب خيال جهلا
ويسر علينا ضل العلو والانتار ونقل ما انتشر على صفحات الايام
من الاخبار والهمنا التي رد وناربع الكوان الماضية الى اوقاتنا وتغيير
الحوادث الحاصلة بساعاتها وجعل لنا في الفصح عبرة وذكرى
وايفضا به من سنة الغفلة وجعل لنا احسن الفصح في كتابه العزيز
تلاوة في كل شاهد نايضا برنا ما لم نشاهد باخبارنا وضع
سرخه اقبانا في ديار فرمونات عن ديارنا حتى خضنا في لحظة
واحدة في بقعة واحدة ما تكلمت به الدهور ونات به العلم
ما رتب في فحات الكون محصورة في دارة الدوار من ارض الدار
جعلنا في الماضي انتار من جعلنا بلعينا ما ثبت لدينا خلقنا

الملك

مُقَدِّمَةُ الْكِتَابِ

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلَّى الله على سيدنا محمد وسلَّم⁽¹⁾

تمهيد :

الحمد لله ذو المجد والعز والملك الذي لا يزول ، الغالب على أمره فلا معقب لحكمه ولا مغير ، ولا ينتقض ولا يحول ، دائم الوجود ، فلا يتحدد بالأعصار والدهور ، والأوقات والفصول ، تنزه عن الجهة والمكان ، وعن أن يُحيط بكنهه ذاته الأوهام بل ولا العقول ، كَرَّمَ بني آدم وحملهم في البرِّ والبحر ، وفَضَّلهم على كثير من خلق تفضيلاً ، ورفع بعضهم على بعض خلافة وملكاً ، وعِلماً وَعَمَلاً ، وحكمة ونبوءة وولاية ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ، علَّم الإنسان بالقلم ما لم يعلم ، ووهبه خيراً جزيلاً ، ويسر علينا ضبط العلوم والآثار ، ونقل ما انتقش على صفحات الأيام من الأخبار ، وأهمنّا إلى ردِّ وقائع الأكوان الماضية إلى أوقاتها ، وتقييد الحوادث الحاضرة بساعاتها ، وجعل لنا في القصص عبرة وذكرى ، وأيقظنا به من سِنَةِ الغفلة ، وجعل لنا أحسن القصص في كتابه العزيز تلاوة وذكرى ، فكلم شاهدنا ببصائرنا ما لم نشاهده بأبصارنا ، وكلم سرحت أفكارنا في ديار قوم نأت عن ديارنا ، حتى حضرنا في لحظة واحدة في بقعة واحدة ما تناولت به الدهور ونأت به الأقطار ، وصارت / واقعات الكون محصورة في دُور من الأدوار ، ودَار من الديار ، وجعلنا القاصين⁽²⁾ لآثار من سلفنا ، مُبْلِغِينَ⁽³⁾ ما ثبت لدينا لمن خلفنا ، ناقلين ما أبقاه الدهر من الأخبار ، راقين لأحوال من مضى وما لهم من الآثار ، والصَّلَاة والسَّلَام على سيدنا ومولانا محمد أشرف من تعلَّم وعَلَّم ، ووعظ بذكر من مضى من الأمم ، وزهد في الدنيا الدنيئة فهي عبرة لمن اعتبر ، وفي تقلبها بأهلها تبصرة لمن تبصر ، ورضي الله تعالى عن

[1/ب]

(1) في ط : «وصلَّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم» .

(2) في ت ، وط : «وجعلنا من القاصين» .

(3) في ت : «ناقلين مبْلِغِينَ» .

آله وصحبه الذين بنقل آثارهم المرضية ، وتصفح سيرهم الزكية ، نهتدي إلى الصواب والحق المبين ، والنمسل بأذيال شهبهم السنية ، نفوز بعين اليقين ، إن هذا هو حق اليقين ، وسبحان الله العظيم .

أما بعد فإن علم التاريخ الذي اعتنى بتحريره أساطين حُفَّاظ الرواة ، واشتغل بتنقيحه الأئمة المحققون الهداة ، من أفضل العلوم نفعاً ، وأشرف المزايا قطعاً ، إذ بمعرفته يكون اللبيب في دار الغرور على أهبة سفر ، وبتعاطيه يكون الموفق دائماً على حذر ، وفيه للفضلاء النبلاء تذكرة وهن للتبئى للرحيل ، وإيقاظ للغافل⁽⁴⁾ من نومة كسله ، وتسوية إلى المبادرة بالتوبة التي هي إلى السعادة أهدى دليل ، وتنشيط للمتواني ليتلافى⁽⁵⁾ ما بقي من عمره فإنه نزر⁽⁶⁾ قليل ، وفيه مع ذلك امتثال لقوله ﷺ «ليبلغ الشاهد الغائب» أو كما قال : «فإنه علم شامل لتبليغ جميع ما فيه نفع / للخلق ، من أحكام ومواظ وكل نافع من الكلام» ، وقالوا : «من كتب وقائع أيامه فقد كتب كتاباً لمن بعده ، لي شاهد حوادث دهره وأعوامه ، ومن قيد ما شاهد فقد أهدى لمن بعده أسراراً ، ومن كتب التاريخ فقد زاد في عمر من يخلفه أعماراً ، وبوَّاه بسماحه⁽⁷⁾ دياراً لم تكن له داراً ، وأحلَّ أهل الآفاق بلاداً ما كانت لهم منزلاً ولا قراراً . شعر⁽⁸⁾ : فإنني إن لم أر الديار بعيني ، فلعلِّي أرى الديار بسمعي ، ولقد أفادنا الأئم الماضون بأخبارهم ، وأطلعونا على ما دثر وما بقي من آثارهم ، فأبصرنا ما لم نشاهده بأبصارهم ، وأحطنا بما لم نخط به خبراً بأخبارهم ، فحق على من تسر عليه نقل ما شاهد ، وسمع ما لم يشاهد أن يُبلغ من بعده كما بلغه من قبله كما قال : «لقد غرسوا حتى أكلنا وإننا ، لغرس حتى يأكل الناس بعدنا» .

[أ/2]

هذا وقد سألتني بعض اخواننا من أهل العصر لما سمع بعض مغازي الصحابة الأعلام - رضي الله تعالى عنهم - حين فتحوا المغرب الفتح الأول . ومغازي المجاهد في سبيل الله عبد المؤمن - رحمه الله - لإفريقية الفتح الثاني لما استولى عليه الكفار من البلاد البحرية ، ومغازي العساكر العثمانية لتونس عند الفتح الثالث لما استولى عليها الكفرة⁽⁹⁾ فاستنقذوها - رحم الله أسلافهم وأخلافهم وقرن النصر برباباتهم - ، وطلب مني / تقييد شيء من ذلك مع تقييد شيء من أحوال أمراء الإسلام القائمين بحفظ المغرب من الفتح الأول إلى الآن .

[ب/2]

(4) في ت ، وط : « وإيقاظ الغافل » .

(5) في ت ، وط : « ليلالي » .

(6) في ش : « نوره » .

(7) في ش : « ساعة » ، والظاهر أنها هفوة من النسخ لعدم استقامة المعنى .

(8) ما سيأتي ونص عليه المؤلف بالشعر ليس إلا ننراً كما يلاحظه القارئ .

(9) في ش ، وط : « الكفرة اللام » .

وتحديد المغرب برًّا وبحرًا ، وذكر بلدان المغرب وخواصها وسكانها ، ومساحة ما بينها ، مع ذكر أهل الفضل من العلماء والصالحين بخصوص صفاقس من الماضين والحاضرين ، وذكر أحوالها مع ذكر ما تيسر من فضلاء غيرها على سبيل الاختصار ، فرأيت فيما دون ما طلب خُوطَ القَتَادَ سِيَّما من مثلي ممن لا مادة له في تعاطي هذا الخطب العظيم الشأن ، ومع ذلك فلست أعدد نفسي أهلاً لأن أكون من فرسان هذا الميدان ، وأحرى وأنا في بلد مطروح في زوايا الإهمال لإقبال أهله على تحصيل الدينار والدرهم والسعي على العيال ، ولم يعن الماضون بضبط أحوالها إلا بقدر ما⁽¹⁰⁾ ليس له بال . فأكد علي السائل الطلب ، وصار لي كالغريم المطول ، ومدافعي له كالفصول . فتصفح ما لدي من المادة فإذا هي بضاعة مزجاة ، وقد جرف الطاعون من بلدنا من كنا نعهده من الرواة ، ورأيت أنه لا يصلح لهذا الأمر إلا الوزراء وأرباب الدول الذين يتقَّبون في ظلال الملوك والسلطين ، ويطالعون خزائهم المحتوية على مادة التواريخ ويتدارسونها كل وقت وكل حين ، وتتصرف / على أيديهم حوادث العصر والأوطان ، ووقائع السلاطين والبلدان ، فأحججت عما سئلت إجحام العاجز الكليل ، وتقاعست عن التقدم لهذا الخطب الجسيم ، إلا أن السائل حسب أن كل بيضاء شحمة وكل سوداء⁽¹¹⁾ تمر ، وظن أن هذا الأمر عندي على طرف اللثام⁽¹²⁾ ، وأنه مما يقال في أيَّسَ أيام . فجعل يكرر السؤال المرة بعد المرة ، وأنا أتعلل في كل كرة ، فشبهت حاله معي بحال الطفل الصغير ، إذ يظن أن أباه على كل شيء قدير . ولما لم ينفع التعلل والمدافعة بالتي هي أحسن وأوفق . قلت : «أدفع السائل بظلف محرق» . فعزمت على إسعافه بقدر الطاقة ، وتوكلت على الله ، وطلبت منه الإعانة والتوفيق ، فإنه بتحقيق الأمانة حقيق ، وبيده أزمة⁽¹³⁾ التحقيق . وكتبت ما تيسر لي وإن كان شيئاً يسيراً ، لكنه بالنسبة لأمثالي قد يعده المنصف خيراً من الله كثيراً . والمرغوب من ذوي الفضل والكرم أن يعاملوني بالفضل والرضا والسباح ، لا بالسخط والإقتضاح . والله در القائل :

[طويل]

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

[طويل]

فقلت لهم لا تنسوا الفضل بينكم فليس ترى عين الكريم سوى الفضل

(10) في ت : «إلا ما قدرهما» ، وفي ط وش : «إلا بما قدره» ، والتصويب من عندنا ليستقيم المعنى .

(11) كذا في ط . وفي ت : «أسود» . وفي ش : «سواد» .

(12) ما على الفم من النقاب ، تاج العروس 55/9 .

(13) في ط : «أزمة» .

[3/ب]

وإذا عثروا لي علي غلط صريح أو نقل غير صحيح أن يردوه بآلتي هي أحسن بعد الثبوت / والتحقق لأن هذه أخبار ينقلها الرواة وكل ينقل على حسب ما ثبت عنده وتقرر ، ويؤرخ حسب⁽¹⁴⁾ ما لديه تحور ، والتعرض لنقل الأقوال المختلفة قد يفضي إلى الملل⁽¹⁵⁾ ويورث الكسل ، فيأخذ الإنسان بحسب اجتهاده ما يراه أقرب للصواب ، والله أعلم وعنده أم الكتاب .

وحصرت ما كتبت في مقدمة وإحدى عشرة مقالة وخاتمة ، فجاء بحمد الله مهماته كأحد عشر كوكبا والشمس والقمر بازغة غير كاسفة ولا آفلة ، وسميته «نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار» .

وها أنا أشعر في المقصود بعون الله المعبود فنقول :
أما المقدمة في حد علم التاريخ وموضوعه وفائدته ومنفعته ، وأول من أرخ في الإسلام فيكون هو كواضعه .
وأما المقالات :

فالأولى في تحديد المغرب برأ وبجرا ، وأسماء البلدان وخواصها وسكانها ، ومساحة ما بينها ، والمراسي وما يتعلق بذلك .

الثانية في ذكر الخلافة وخلفاء الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - بعد رسول الله ﷺ ، وخلفاء بني أمية بالشرق ، وما وقع من الفتح الأول لأرض المغرب على أيدي الصحابة وأمراء بني أمية .

الثالثة في ذكر خلفاء بني العباس وبعض أمراءهم بالعراق وأمراءهم بالمغرب .
الرابعة في ذكر ملوك الشيعة / غربا وشرقا وما يتعلق بذلك .

[4/أ]

الخامسة في ذكر ملوك صنهاجة بالمغرب ، ونور الدين بالشام وصلاح الدين بمصر والشام ، وكيفية قطع مذهب الشيعة من هذه الأقطار .

السادسة في ذكر خلفاء بني أمية بالأندلس ودول الطوائف بعدهم .
السابعة في ذكر ملوك كمتونة بالعدوة والأندلس .

الثامنة في ذكر دولة الموحدين بالعدوة والأندلس ، وفتح عبد المؤمن الفتح الثاني لما استولى عليه الكفار من البلاد البحرية .

التاسعة في ذكر بني مرين⁽¹⁶⁾ ، وبني زيان بتلمسان ، وبني نصر بالأندلس .
العاشرة في ذكر دولة بني حفص بإفريقية .

(14) في ط : «بحسب» .

(15) في ت : «قد يفضي إلى الملل» .

(16) في ت ، وط : «دولة بني مرين» .

الحادية عشرة في ذكر دولة آل عثمان وأمرائهم الذين فتحوا تونس الفتح الثالث من أيدي الكفار عند استيلائهم عليها .
الخاتمة فيما يتعلق بخصوص صفاقس ووطنها بقدر الطاقة .

المقدمة :

أما بيان المقدمة في حد علم التاريخ الخ ، فاعلم أن التاريخ في اللغة مصدر أَرَخَ الكتاب إذا وَقَّته ، وفي العرف اسمٌ لِعِلْمٍ ضابطٍ لوقائع الأعصار الماضية والحاضرة ، مما له خطر وشأن بوقته للنقل ، فخرج بالماضية والحاضرة المستقبلية .

فإن العلم المتعلق بها أن أسند للرسول ﷺ سمي علم الملاحم ، وإن أسند لغيره كالإمام علي وذريته - رضي الله تعالى عنهم - ، سُمِيَ علم الأَجْفار⁽¹⁷⁾ ويقول ما له خطر ما لا خطر له مما تجري به العادة / فإن ذلك لا يضبط (ولا يتعلق بضبط)⁽¹⁸⁾ غرض ، وبقولنا بوقته⁽¹⁹⁾ مخرج للقصص المجرد ، وبقولنا للنقل ضبط الحقوق الشرعية للتوثيق بأوقاتها فإن الغرض منها إثبات الحقوق لا مجرد النقل .

ثم التاريخ إن تعلّق بأحوال الرسول ﷺ ، وأحوال الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - سُمِيَ علم السير ، وقد يخص ما تعلق من ذلك بالقتال في سبيل الله باسم علم المغازي ، فيطلق التاريخ (على ما سوى)⁽²⁰⁾ ذلك كما هو الشائع . ومن هذا التعريف يؤخذ موضوعه وهو (الوقائع المعتمدة)⁽²¹⁾ مما له شأن . وأما منفعتها فعرفة أحوال من مضى

(17) الأَجْفار ، جمع جفر بفتح الجيم وسكون الفاء وهو ما بلغ أربعة أشهر من أولاد المگز وفصلت عن أمها . قال المعري :

لقد عجبوا لأهل البيت لما أتاهم علمهم في مَسَكِ جَفَرٍ
ومرآه المنجّم وهي صغرى أرتبه كل عامرة وقَفَرٍ

والمسك بفتح الميم الجلد .

أنظر حياة الحيوان الكبير للدميري 1/197 ، وفيات الأعيان لابن خلكان 2/404 - 405 في ترجمة عبد المؤمن بن علي ، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصري 2/88 - 89 ، وفيه كتابة محررة مقيدة ، ولهذه الكلمة معان أخرى أنظر مثلاً تاج العروس 3/104 . ويقصد في النص العلم الذي يسمى علم الحروف وهو علم يدعي أصحابه أنهم يعرفون به الحوادث إلى انقراض العالم ، لويس معلوف ، المنجد ، بيروت ، ص 94 .

(18) سقطت من ت .

(19) في ت : «بقوته» .

(20) في ش ، وت : «فجاء ما سوى» .

(21) في ت ، وش : «الواقع المعبرة» ، وهو تحريف من التاسخ لعدم استقامة المعنى .

من أولى الأفطار ، وأما غايته فإليها الإشارة بقوله - علت كلمته - ﴿لقد كان في قصصهم عبرة﴾ الآية (22) ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ (23) إلى غير ذلك حسبما أشرنا إليه في الخطبة . وأما واضعه فقال الجلال السيوطي - رحمه الله تعالى - : والمخفوظ أن الأمر بالتاريخ من عمر - رضي الله تعالى عنه - أخرج البخاري في «الأدب المفرد» والحاكم عن مكحول بن مهران : رفع إلى عمر ورقة فيها شعبان ، فقال : شعبان الذي نحن فيه أو الآتي أو الذي مضى ؟ فقال عمر لأصحاب النبي ﷺ : ضعوا للناس شيئاً يعرفونه من التاريخ . فكان عمر - رضي الله تعالى عنه - أول من حض على ذلك ، فقال بعضهم : اكتبوا / على تاريخ الروم ، فقال : إن الروم يطول تأريخهم يكتبون من ذي القرنين ، فقال : اكتبوا على تاريخ فارس . ولم يزل يدور الحديث (24) بينهم إلى أن أجمع رأيهم على الهجرة ، فإن الهجرة كانت [من] (25) عشرين سنين ، فكتبوا التاريخ من هجرة النبي ﷺ فكان عمر - رضي الله تعالى عنه - أول من وضع للناس (26) التاريخ الإسلامي المقيّد بكونه من هجرة النبي ﷺ (27) وقال في «سمط اللآل» (28) : لم يكن في صدر الإسلام تاريخ إلى أن ولي عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - وافتتح (29) بلاد العجم ودون الدواوين ، وجبى الخراج ، وأعطى الأعطية ، فقبل له ألا تؤرخ ؟ فقال : وما التاريخ ؟ فقبل له : شيء كانت الأعاجم تفعله يكتبون في شهر كذا من سنة كذا . فقال عمر : هذا حسن ، فأرخوا (30) . وقال ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - : قد ذكر الله تعالى التاريخ في كتابه العزيز فقال : ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ (31) . ومن استعمال التاريخ بمعنى التوقيت قوله تعالى ﴿فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نازلاً﴾ (32) .

[أ/5]

(22) سورة يوسف : 111 .

(23) سورة هود : 120 .

(24) في مكانها في الأصول : «التاريخ» ، والثبت من الوزير السراج الذي يقدم نفس النص في الحلل ، المجلد الأول ، ص 158 .

(25) زيادة يقتضيا المقام .

(26) كلمة سقطت من ت و ط .

(27) ورد الخبر في الكامل لابن الأثير 10/1 .

(28) سمط اللآل في تعريف ما بالشفاء من الرجال ، تأليف الشيخ محمد قويسم بن علي التونسي المالكي المعروف بالناووري (1033 / 1623 - 1114 / 1702) . والكتاب توجد منه نسخة بالمكتبة الوطنية وأصله من المكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة ، ويقع في أحد عشر جزءاً من القطع الكبير ، أنظر الزركلي ، الأعلام ، 233/7 .

(29) في ت : «وفتح» .

(30) محمد قويسم ، سمط اللآل ، 17/1 .

(31) سورة البقرة : 189 .

(32) سورة القصص : 29 .

المقالة الأولى

في تحديد المغرب برًا وبحرًا وأسماء البلدان وخواصها وسكانها ومساحة ما بينها ، وأسماء المراسي وما يتعلق بذلك حسبما ذكره أبو عبد الله محمد الشريف / الإدريسي ⁽¹⁾ في كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» الذي ألفه للجار ⁽²⁾ الكافر المتغلب على صقلية والبلاد البحرية من افريقية . وهذه المسائل أخذها من «جغرافيا» ⁽³⁾ الذي كان استخرجه بطليموس الاقلوذي ⁽⁴⁾ فإنه بحث فيه عن كرة (الأرض ، وما اتصل بها وهو في مقابلة المَجَسْطِي ⁽⁵⁾ الذي بحث فيه عن كرة) ⁽⁶⁾ الأفلاك وما اتصل بها ، وَوَجَّهْ ذِكْرُنَا لهذه

(1) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس ، ينتمي إلى بيت الادارسة العلويين ، ولهذا السبب اشتهر بالشريف الإدريسي ، عاش مدة في بالرمو بصقلية في بلاط روجر وطلب منه هذا الملك وضع شيء في شكل صورة للعالم ، فرسم له ما عاينه من البلدان على كرة من الفضة كانت منطلقاً لكتابه الضخم المعروف «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وقد انتهى من تأليفه سنة 1154 م قبل أسابيع من وفاة روجر ، واختلفت الأقوال في تاريخ وفاة الإدريسي ، وعلى أرجح الأقوال فإنه توفي سنة 560 هـ/1166 م ، أنظر مثلاً كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ... 279/1 .

(2) لجار وتكتب أيضاً في المصادر القديمة رجار ، ويقال فيه أجار بهمزة بدل الراء وجم مشددة وبعد الألف راء (كراتشكوفسكي 78/1) وتكتب حديثاً روجر وروجار . وهو روجر الثاني Roger II ولد سنة 1095 م وتوفي سنة 1154 م أول ملوك الزمان بصقلية منذ سنة 1130 م . اشتهر بفتوحاته وتحويل بلاطه إلى مركز مشع للدراسات ، ومن عناصره البارزة الشريف الإدريسي .

(3) «المدخل إلى الجغرافيا» المعروف عادة باسم «جغرافيا» هو أحد المصنفين الكبيرين لبطليموس (4) في الأصول : الأفودي . فكلوديوس بطليموس عرف عند العرب باسم بطليموس الاقلوذي كما في نزهة المشتاق ص 56 . وهو فلكي يوناني ولد وعاش بمصر خلال القرن الثاني للميلاد . كان مؤلفيه «الجغرافيا» و«الجامع» التأثير الكبير على العلوم الجغرافية والفلكية في القرون الوسطى ، راجع كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي 78/1 . (5) أحياناً بكسر الميم ، هو الاسم في شكله العربي لرسالة بطليموس في الفلك والحساب وتقع في ثلاث عشر كتاباً يحدوها ، وتسمى «الجامع» ودخلت هذه الرسالة إلى أوروبا في صورة المجسط Almagest راجع الأدب الجغرافي .. 78/1 - 79 .

(6) ما بين القوسين سقط من ش .

المقالة أن ما يذكر فيها راجع إلى موضوع الكتاب إذ البحث عن بلاد من بلدان المغرب وعن أمرائها وغير ذلك موقوف على معرفة تلك البلاد ، وذكر غيرها تبع لها ، فمن ثم مسّت الحاجة إلى ذكرها ، وفيها أربعة أبواب .

الباب الأول في تحديد المغرب براً وبحراً

البحر المظلم :

اعلم⁽¹⁾ ان أول المغرب براً من جهة مغرب الشمس هو البحر المحيط ، ويسمى البحر المظلم وبحر الظلمات وهو البحر الذي لا يعلم ما وراءه إلا الله تعالى من حيث الوقوف والمشاهدة بالعيان وإن كان من المعلوم بالضرورة أنه ينتهي بالآخر⁽²⁾ من جهة العلو إلى الهواء ، ومن جهة السفل إلى الأرض ، لكن لم يقطع ظهره بالركوب أحد ، فلهذا يقال لا يعلم ما وراءه إلا الله⁽³⁾.

وفي هذا البحر من هذه الجهة الجزائر الخالدات الست التي أخذ منها بطليموس⁽⁴⁾ ابتداء أطوال⁽⁵⁾ البلدان لجميع الأرض ، كما أخذ ابتداء الأعراض من خط الاستواء والاعتدال ، وفي هذه الجزر جزيرتان في كل واحدة منهما صنم مبني بالحجارة / وارتفاع⁽⁶⁾ كل صنم منهما مائة ذراع ، وفوق كل صنم منهما صورة من نحاس تشير بيدها إلى خلف ، أي ما ورأى شيء ولا مسلك ، إحداها⁽⁷⁾ مسفهان⁽⁸⁾ والأخرى لقوس⁽⁹⁾ وإليها وصل الإسكندر ثم رجع . وحديث البحر المظلم وعجائبه يطول . وسنشير إلى بعض منه فيما بعد . وسمي محيطاً لإحاطته بالأرض من جميع الجهات وهي مغرقة في وسطه كالأترج الملقاة في بركة من ماء والقدر البارز من الأرض قيل الثلث ، وقيل غير ذلك .

(1) ينقل عن الادريسي بتصرف ، راجع صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، طبعة ليدن 1668 ، ص 2 و ص 28 . وسنشير إليها فيما يأتي بنزهة المشتاق اختصاراً .

(2) في ش : «بالأخرى» .

(3) في ط : «ما وراءه أحد إلا الله» .

(4) في ت : «بطليموس الحكيم» .

(5) كذا في نزهة المشتاق ص 28 . في ت و ط : «طول» وكذلك في نزهة المشتاق ، ص 2 .

(6) في نزهة المشتاق : «وطول كل صنم» .

(7) أي الجزائر الخالدات .

(8) في الأصول «سفهان» والمثبت من ن . م . ص 28 .

(9) كذا في بعض نسخ الادريسي وفي غيرها «لقوس» .

وما بقي من الأرض فغامر⁽¹⁰⁾ في الماء. وكان مقتضى الاستدارة التي هي طبع الماء أن يحيط بجميع الأرض فلا يظهر منها شيء ، لأنه أخفّ من الأرض طبعاً فلا ينكشف منها شيء ، وتكون إحاطته بها من جميع الجهات على حدّ سواء ، لكن اقضت الحكمة والمشية الأزليّة انكشاف بعض الأرض ليكون مسكناً للحيوانات البرية ومنبتاً لمعاشيها وسُمّي مُظلماً لأن جهة الشّمال منه ممّا يلي القطب الشمالي مظلمة ليلاً ونهاراً في بعض الفصول ، لأن القطب الشمالي يكون فيه محاذياً لسمت الرأس ، فإذا بلغت الشّمس البروج الجنوبية اختلطت حصة الليل بحصة النهار وصار الدور كله ليلاً فاستولت الظلمة وبطل قوس النهار ، ومحل تفصيل ذلك علوم الهيئة.

الحدود البرية للمغرب :

ونهاية بر المغرب من جهة مشرق الشمس اسكندريّة وما يليها / من البحر الثاني⁽¹¹⁾ ، ولذا يقال : إن إسكندريّة مصريّة مغربيّة. ونهايته من جهة الجنوب الصّحراء المتاخمة لبلاد السودان ، ونهايته من جهة الشّمال آخر بلاد الأندلس وما يليها من البحر المظلم.

حفر الزقاق :

وأما بحر المغرب ويسمّى البحر الشامي ، والبحر الرّومي فهو فيما يحكى كان بركة منحازة ، لا يتّصل بشيء من البحور ، وكان أهل العدوّة⁽¹²⁾ من الأمم السالفة يغيرون على أهل الأندلس فيضرون بهم كل الضّرر⁽¹³⁾ ، ويكابدون منهم الأهوال الشّديدة فيحاربونهم جهد الطّاقة إلى زمن الاسكندر ، فلما وصل إلى أهل الأندلس ، أعلموه بمحاربتهم وما هم عليه من التناكر⁽¹⁴⁾ مع أهل السوسيين ببر العدوّة ، فقبل شكواهم ، فأحضر

(10) في ط وش : «فغامر».

(11) في ط : «الشامي».

(12) يقصد أهل المغرب الأقصى.

(13) كذا في الأصول ، وفي نزعة المشتاق : «الاضرار» ص 165.

(14) في الأصول : «التناكد» والمثبت من ن. م. ص 165.

المهندسين ، وقصد مكان الرقاق ، وكان أرضًا جافة فأمرهم بوزن سطح ماء البحر المظلم ، وسطح ماء البحر الشامي ، فوجدوا سطح ماء البحر المظلم يشف علوه على سطح ماء البحر الشامي بشيء يسير ، فأمر برفع البلاد التي على ساحل البحر الشامي من جميع جهاته ونقلها من أخفض إلى أرفع ، ثم أمر أن تحفر الأرض التي بين بلاد طنجة وبلاد الأندلس . فحضرت الفعلة وحفرت حتى وصل الحفر إلى الجبال التي في أسفل الأرض ، وبني عليها ⁽¹⁵⁾ رصيفًا بالحجر والجيار أفرأغًا من ناحية الأندلس وكان طول البناء إثني عشر ميلًا وهو / بعد ما بين البحرين من المسافة . وبني رصيفًا آخر يقابله من ناحية أرض [7/أ] طنجة ، وكان بعد ما بين الرصيفين ستة أميال فقط . فلما أكمل الرصيفين حفر من جهة البحر المظلم مدخلًا للماء ، فدخل ومَرَّ ماؤه بقوة سبيله بين الرصيفين حتى دخل للبحر الشامي ، فارتفع ماؤه كثيرًا لأن ارتفاع سطح المظلم وإن كان قليلًا لكنه لعظمه بالنسبة للشامي يعلو سطح الشامي كثيرًا لصغره بالنسبة للمظلم ، وغرقت مدن كثيرة كانت على سواحل الشامي فهلك من كان بها وارتفع الماء فوق الرصيفين نحو إحدى عشرة قامة . فأما الرصيف الذي يلي بلاد الأندلس فإنه يظهر في أوقات صفاء البحر في جهة الموضع المسمى بالصفيحة ظهورًا بينًا طوله على خط مستقيم ، وأهل الجزيرتين ⁽¹⁶⁾ يسمونه القنطرة .

وأما الرصيف الآخر الذي كان في بلاد طنجة فإن الماء حمله في صدره واحتفر ما خلفه من الأرض (قدر اثني عشر ميلًا) ⁽¹⁷⁾ وما استقر حتى وصل الجبال من كلتا الجهتين . وطول هذا الجواز المسمى بالزقاق اثنا عشر ميلًا وعلى طرفه (ببر الأندلس) ⁽¹⁸⁾ من جهة المشرق الجزيرة الخضراء ، وعلى طرفه في ⁽¹⁹⁾ جهة المغرب جزيرة طريف ويقابل جزيرة طريف (في الجهة الثانية من برّ العدو مرسى قصر مصمودة) ⁽²⁰⁾ ويقابل الجزيرة الخضراء من بر العدو مدينة سبتة [وعرض البحر] ⁽²¹⁾ بين سبتة والجزيرة الخضراء ثمانية

(15) في الأصول : «وبنى فيها» والمثبت من ن . م . ص 166 .

(16) في الأصول : «الجزيرة» والمثبت من ن . م . ص 166 .

(17) زيادة من المؤلف عما في ن . م . ، أنظر ص 166 .

(18) توضيح من المؤلف ، أنظر نفس الصفحة من ن . م .

(19) في ت : «من» .

(20) ما بين حاصرتين قاله الإدريسي هكذا : «ويقابل جزيرة طريف في الضفة الثانية من البحر مرسى القصر المنسوب لمصمودة» . ولم يخل المؤلف بالمعنى وإن اختصره .

(21) إضافة من نزهة المشتاق للتدقيق ، ص 167 .

[7/ب] عشر ميلاً هي عرض الحجاز. وبين جزيرة / طريف وقصر مصمودة اثنا عشر ميلاً هذا ما ذكره في «النزهة»⁽²²⁾ و«خريدة العجائب»⁽²³⁾.

المدّة والحزر:

ونقل⁽²⁴⁾ الشيخ محمد بن محمود القزويني⁽²⁵⁾ في «عجائب المخلوقات» عن كتاب «أخبار مصر» أنه بعد هلاك الفراعنة ، كان بمصر ملوك بني دلوكة ، وكانوا أصحاب رأي وكيد ، فطمع ملوك الرّوم في ملك مصر ، فاحتال بنو دلوكة في شق البحر المحيط من المغرب وهو بحر الظلمات فغلب على كثير من البلدان العامرة والممالك⁽²⁶⁾ العظيمة ، وامتدّ إلى الشّام وبلاد الروم ، وصار حاجزاً بين بلاد مصر والرّوم وهو الخليج الذي في زماننا هذا على أحد ساحليه المسلمون ، وعلى الآخر النصارى من الإفرنج. وهناك مجمع البحرين وهما بحر الرّوم والمغرب عرضه (سته فراسخ وطوله خمسة)⁽²⁷⁾ فراسخ ، وفيه يظهر مد ماء البحر ، وهو (زيادته وجزره وهو)⁽²⁸⁾ نقصانه في كل يوم وليلة كل واحد مرتين. وذلك أن البحر الأسود وهو بحر المغرب عند طلوع الشمس يعلو فينصبّ في مجمع البحرين حتى يدخل في بحر الرّوم وهو البحر الأخضر إلى وقت الزوال . فإذا زالت الشمس غاص البحر الأسود وانصبّ فيه البحر الأخضر إلى غروب الشمس ثم يعود المدّ إلى نصف الليل ثم الجزر إلى طلوع الشمس⁽²⁹⁾ وهكذا ، وقال قبل ذلك⁽³⁰⁾ : تعرض للبحار أحوال عجبية من ارتفاع مياهها ومدّها وهيجانها/ في أوقات مختلفة من الفصول الأربعة ، وأوائل الشهور وأواخرها ، وساعات الليل والنهار. وأما ارتفاعها فزعموا أن الشمس إذا أثرت في

(22) نزهة المشتاق للادريسي.

(23) خريدة العجائب لابن الوردي ، ص 16 - 17.

(24) ما سيأتي نقل من عجائب المخلوقات للقزويني بتصرف ، 218/1 - 219.

(25) الصواب أنه زكرياء بن محمد بن محمود كما صرح به في ديباجة كتابه «عجائب المخلوقات».

(26) في ت وش : «الممالك».

(27) في عجائب المخلوقات : «وعرضه ثلاثة فراسخ وطوله خمسة وعشرون فرسخاً».

(28) تفسير من المؤلف وهو غير موجود في عجائب المخلوقات.

(29) في جانب المخلوقات : «ثم يغض البحر الأسود ، وانصباب الماء من البحر الأخضر إلى طلوع الشمس

218/1 - 219.

(30) نقل من عجائب المخلوقات 185/1 - 186.

مياهاها لَطَفَتْ وتَحَلَّتْ ومَلَأَتْ مكانًا أوسع ممَّا كان فيه قبل فداغت بعض أجزائها بعضًا⁽³¹⁾ إلى الجهات الخمس : المشرق والمغرب والشمال والجنوب والفوق ، فيكون على سواحلها في وقت واحد رياح مختلفة . هذا ما ذكره⁽³²⁾ في سبب ارتفاع مياهاها .

وأما مَدُّ بعض البحار في وقت طلوع القمر فزعموا أن في قعر تلك البحار صخورًا صلدة وأحجارًا صلبة فإذا أشرق⁽³³⁾ القمر على سطح ذلك البحر وصلت مطارح أشعته إلى تلك الصخور والأحجار التي في قرارها⁽³⁴⁾ ثم انعكست من هناك متراجعة فسخت تلك المياه ولطفت فطلبت مكانًا أوسع وتموجت [إلى ساحلها]⁽³⁵⁾ ، ودفع بعضها بعضًا وفاضت على شطوطها⁽³⁶⁾ ورجعت المياه التي كانت تنصب إليها إلى خلف ، فلا تزال كذلك ما دام القمر مرتفعًا إلى وسط سمائه ، فإذا أخذ ينحط سكن غليان تلك المياه وبردت تلك الأجزاء وغلظت ورجعت إلى قرارها وجرت الأنهار على عاداتها ، فلا يزال كذلك إلى أن يبلغ القمر إلى الأفق الغربي ثم يتدنى المدُّ على مثال عادته في الأفق الشرقي ، ولا يزال كذلك إلى أن يبلغ القمر إلى وتد الأرض فينتهي المدُّ ثم إذا زال القمر عن وتد الأرض / أخذ المدُّ راجعًا إلى أن يرجع القمر إلى الأفق الشرقي . هذا قولهم في [8/ب] مدُّ البحار وجزرها⁽³⁷⁾ .

قلت : المناسب لكلامه الأول أن يسند المدُّ والجزر للشمس لا للقمر وخصوصًا لما أخذ في تعليل المدُّ بقوله : سَخُنَتْ تلك المياه ولطفت الخ . فإن السَّخَانَةَ واللَّطَافَةَ تناسب الشمس لا القمر . كيف وقد قال في خواص القمر : زعموا أن تأثيراته بواسطة الرطوبة كما أن تأثيرات الشمس بواسطة الحرارة . لكن قال بعده : من خواص القمر أنه إذا صار في أفق من آفاق البحر أخذ ماؤه في المدُّ مقبلًا مع القمر ، ولا يزال كذلك إلى أن يصير القمر في وسط سماء ذلك الموضع ، فإذا صار هنالك انتهى المدُّ منتهاه . فإذا انحط القمر من وسط سمائه جزر الماء ولا يزال كذلك راجعًا إلى أن يبلغ القمر مغربه فعند ذلك ينتهي الجزر منتهاه . فإذا زال القمر من مغرب ذلك الموضع ابتدأ المدُّ مرَّة ثانية إلا أنه أضعف

(31) في عجائب المخلوقات : « فداغت أجزاؤها بعضها بعضًا » ، 185/1 .

(32) أي القزويني وفي عجائب المخلوقات « ذكره » .

(33) في الأصول : « أشرق » .

(34) في الأصول : « قراره » .

(35) زيادة من عجائب المخلوقات للتوضيح .

(36) في الأصول : « سطوحها » ، والثبت من عجائب المخلوقات .

(37) أنظر فيما سبق عجائب المخلوقات ، 185/1 - 186 .

[9/أ]

من الأولى ثم لا يزال كذلك إلى أن يصير القمر في وتد الأرض فحينئذٍ ينتهي المدّ منتهاه في المرة الثانية في ذلك الموضع ثم يتبدى بالجزر والرجوع ولا يزال كذلك حتى يبلغ القمر أفق مشرق ذلك الموضع فيعود المدّ إلى مثل ما كان عليه أولاً فيكون في كل يوم ليلة بمقدار / سِير القمر فهما في ذلك البحر مدّان وجزران (38) انتهى ، والله أعلم .

ثم قال : وأما هيجانها فكهيجان الأخلاط في الأبدان فإنك ترى صاحب الدم (والصفراء وغيرها) (39) (عند نزول حمى أو غيرها) (40) يحتاج به الخلط ثم يسكن قليلاً قليلاً ، فللبحر موادّ تمدّه حالاً فحالاً فإذا قويت هاجت ثم تسكن قليلاً قليلاً (41) وقد عبّر النبي ﷺ عن ذلك بعبارة لطيفة فقال : إن الملك الموكل بالبحر يضع رجله في البحر (42) فيكون منه المدّ ثم يرفع فيكون منه الجزر . انتهى (43) . قلت : ولا مانع من إرادة الحقيقة إذ العقل يميزه ، وما أخبر به الصادق ولم يكن لحمله على حقيقته وظاهره مانع فالحمل عليه أولى ، أما مع وجود المانع الصارف فالعمل على مقتضاه واجب ، ثم أن في الخمس الأول (44) من الشهر والعشر الوسطى والخمس الأخيرة يقوى المدّ والجزر ، وتسمّى تلك الأيام أيام حياة البحر وفيما عدا (45) ذلك يقلّ ذلك فتسمّى تلك الأيام أيام موته ، وهذا الجزر والمدّ لا يظهر غاية الظهور إلا في أقاصير البحار ، ولصيّادي السمك خبرة زائدة بذلك ، لأن اصطيادهم يتيسّر في مُدّة الحياة ، لأن السمك يدخل مع قوّة دخول الماء فيحصل فيما نصبوا (46) له من الأعمال المُعِدّة لاصطياده ، فإذا جزر الماء نزلوا فأخذوا ما حصل (47) في مصائدكم (48) ، والظاهر أن

(38) أنظر عجائب المخلوقات ، 31/1 - 32 .

(39) في الأصول : «صاحب الدّم الأصفر أو غيره» والمثبت من عجائب المخلوقات .

(40) إضافة من المؤلف بالنسبة لعجائب المخلوقات .

(41) إضافة من المؤلف بالنسبة لعجائب المخلوقات .

(42) هكذا في ت و ش ، وفي ط وعجائب المخلوقات : «بالبحر» .

(43) النقل من عجائب المخلوقات 1/186 .

(44) هكذا في ش و ط ، وفي ت : «الأولى» .

(45) هكذا في ط ، وفي ت و ش : «وفي عدى» .

(46) في ت و ط : «نصبوه» .

(47) في ت : «ما حصل لهم» .

(48) تلك هي أهم طريقة لصيد السمك على سواحل صفاقس في الماضي ، وكذلك في جزر قرقة وجربة والسواحل القصيرة الأخرى من خليج قابس حيث المدّ والجزر قويّان ، وهي طرق يعلمها المؤلف ونرى أنه عممه على كل المناطق الساحلية كما نفهم من نصّه .

هذه الحياة والممات راجعة بعد مراعاة / التدبير الإلهي إلى القمر ، والسرّ فيه أن القمر [9/ب] إذا كان في غاية امتلائه ، وذلك في العشر الوسطى أو غاية نقصانه وذلك في الخمس الأولى والخمس الأخيرة حصلت الحياة وإذا⁽⁴⁹⁾ كان بين بين ، وهو فيما سوى ذلك حصل الموت ، فسبحان من جعل لكل شيء قدرًا ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾⁽⁵⁰⁾.

حدود البحر الشامي :

وأما تحديد هذا البحر فقد أشار إليه في «نزهة المشتاق» بقوله : وأما البحر الثاني الكبير المعروف بالبحر الشامي فإن مخرجه من البحر المظلم الذي هو في⁽⁵¹⁾ جهة المغرب ومبدأه في الاقليم الرابع ، ويسمى هناك بحر الرُّقَاق لأن سعته هناك تكون ثمانية عشر ميلاً ، وكذلك طول الرُّقَاق من جزيرة طرّيف إلى الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلاً ، فيمرّ مشرقاً من جهة بلاد البربر بشمال الغرب⁽⁵²⁾ الأقصى إلى أن يقرب⁽⁵³⁾ بالمغرب الأوسط ويصل إلى أرض افريقية إلى وادي الرّمل إلى أرض برقة وأرض لويّة⁽⁵⁴⁾ ومراقبة إلى اسكندرية إلى شمال أرض التيه وأرض فلسطين وسائر بلاد الشام إلى أن ينتهي طرفه إلى السوديّة⁽⁵⁵⁾ وهو نهايته ، ومن هناك ينعطف البحر راجعاً إلى جهة المغرب فيتصل بالخليج القسطنطيني إلى جزيرة بلبنوس برزّة وهناك يخرج الخليج البنادقي ويتصل إلى مجاز صقلية إلى بلاد / رومية إلى بلاد سغونية⁽⁵⁶⁾ إلى أرثونة . ويحتاز بجبل البركات⁽⁵⁷⁾ فيمرّ بشرقى بلاد الأندلس إلى جنوبي وسطها وينتهي إلى الجزيرتين من حيث بدأ . وطول هذا البحر الشامي من ابتدائه إلى انتهائه ألفاً⁽⁵⁸⁾ فرسخ ومائة وستة وثلاثون

(49) في ت و ط : «وان» .

(50) سورة يس ، 38 وأولها : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ .

(51) في ت : «من» .

(52) في ت و ط : «المغرب» .

(53) في ط : «بحر» .

(54) في الأصول : «لونية» والمثبت من معجم البلدان للحموي ، وهي مدينة بين الاسكندرية وبرقة .

(55) كذا في ت و ط ، ونزهة المشتاق والروض المطار للجيميري ، بيروت ، 1975 «مدينة هي فرضة انطاكية على

البحر» ص 330 . وفي ش : «سودية» .

(56) في ط : «شعونية» وفي ت : «سقونية» .

(57) في ط : «البركات» .

(58) في ط : «ألف» .

فرسحاً وفيه من الجزائر نحو مائة جزيرة بين صغار وكبار ومعورة وخالية ، ويخرج من هذا البحر الشامي خليجان أحدهما خليج البنادقين ومبدؤه من شرقي بلاد قَلَوْرِيَّة من بلاد الروم من عند مدينة أذَرَنْت⁽⁵⁹⁾ فيمرُّ في جهة الشمال مع تغريب يسير فيمرُّ بأرض ماري إلى ساحل شِنْتْ أَنْجَل⁽⁶⁰⁾ ثم يأخذ في جهة المغرب إلى بلاد أَنْكُونَة إلى أن يمر بساحل البنادقة ، وينتهي طرفه إلى بلد انكلاية ، ومن هناك ينعطف ريفه راجعاً مع المشرق إلى بلاد جراسوسه⁽⁶¹⁾ وطاسية وبلاد أسقلونية إلى أن يتصل بالبحر الشامي من حيث ابتداء . وطول هذا الخليج من حيث ابتداء إلى أقصى انتهائه ألفان ومائة ميل . ويخرج أيضاً من البحر الشامي الخليج الثاني المسمى ببحر نيطنس⁽⁶²⁾ ومبدؤه من البحر الشامي حيث فم أُنْدَة وعرض فوهته هناك رمية سهم ولسير ثلاث بحار يتصل⁽⁶³⁾ بالقسطنطينية فيكون عرضه هناك أربعة أميال ، ويمرُّ كذلك ستين ميلاً حتى يصل إلى بحر نيطنس⁽⁶²⁾ في جهة / المشرق فيتصل من جهة الجنوب بأرض هرقلية إلى أرض أَسْترويلي إلى سواحل أَطْرَابَرْزُنْدَة إلى أرض أشكالَة إلى أرض لانية ، ويمرُّ فينتهي طرف الخليج هناك حيث الخزرية ومنه ينعطف ريفه راجعاً فيتصل ببلاد الرُوسية⁽⁶⁴⁾ وبلاد برجان وموقع نهر ديابوس ، ويمرُّ إلى موضع نهر دتو⁽⁶⁵⁾ إلى أن ينتهي إلى مضيق فم الخليج القسطنطيني ويتصل بالقسطنطينية ويمرُّ بشرقي بلاد مَقْدُونِيَّة⁽⁶⁶⁾ إلى أن يتصل بالموضع الذي بدأ منه . وطول بحر نيطنس من فم المضيق إلى حيث ينتهي ألف ميل وثلاثمائة ميل . انتهى .

[10/ب]

(59) في الأصول : « أذرنه » والتصويب من معجم البلدان 132/1 .

(60) في ت : « شت انجل » وفي ش : « شنت الجل » .

(61) في ت : « جراسوست » .

(62) في الأصول : « نيطنش » . والتصويب من الروض المعطار ص 585 .

(63) في ط : « ويمر ثلاث بحار فيتصل » .

(64) في ط : « بلاد الروسية » .

(65) في ت و ط : « صح تو » .

(66) في ش : « مقدونة » .

الباب الثاني

في الكلام على ضبط بر المغرب الأقصى وما يليه من الغرب الأوسط وذكر ما فيه من البلاد والعباد

فَنَقُولُ⁽¹⁾ : إن فيما ذكر من بلاد السُّوس الأقصى مدينة تَارْدَانَت وتَبُورِين⁽²⁾ وَتَانِمَلْت⁽³⁾ وفيه من بلاد الصحراء نُول لمطة⁽⁴⁾ وتَارْكَغْت⁽⁵⁾ وَأَغْرُنُو . وفيه من بلاد البرِّ سِجْلَمَاسَة وَدَرْعَة ، ودَاي ، وتَادِلَة⁽⁶⁾ وقَلْعَة مهدي ابن تَوَالَة⁽⁷⁾ وفَاس ومِكنَاسَة وَسَلَا وسائر المراسي⁽⁸⁾ التي على البحر الأعظم ومدينة تِلْمَسَان وتِطْن⁽⁹⁾ وَفَرْي⁽¹⁰⁾ وَصَفَرْوِي وَمَغِيلَة وآقْرِسِف⁽¹¹⁾ وكرانطة⁽¹²⁾ ووجدة ومَلِيلَة⁽¹³⁾ ووَهْرَان وتَاهِرْت وَأَشِير .

وفيهِ من بلاد الغرب الأوسط تَنَس وبرَشْك وجَزَاثِر بني مَزْعَنَّا وتَدْلَس / وبجَايَة وجِيَجَل ومِلْيَانَة والقَلْعَة والمَسِيلَة والغدير ومَقْرَة⁽¹⁴⁾ ونقاوس وطُبْنَة⁽¹⁵⁾ وَقُسْنَطِينَة وتيجس⁽¹⁶⁾ وبَاغِيَة وتيفَاش ودور مَدِين⁽¹⁷⁾ وَدَارِ ملول ومِيلَة⁽¹⁸⁾ .

- (1) ما سيأتي نقل من نزهة المشتاق ص 56 وما بعدها .
- (2) في الأصول : «تبورين» والمثبت من ن . م . ص 56 .
- (3) في الأصول : «تينملت» والمثبت من ن . م . ، وفي الروض المعمار للحميري ص 128 ، والمسالك والممالك للبكري ص 88 : «تاملت» وفي كتاب العبر : «تينمل» .
- (4) كذا في نزهة المشتاق وفي ط : «نول لمط» وت : «نول ملط» .
- (5) كذا في بعض نسخ ن . م . وفي غيرها : «تاركاغت» .
- (6) كذا في ط ، في ت وش : «تاذلة» .
- (7) في الأصول : «وقلعة مهدي وتواله» والمثبت من ن . م .
- (8) في الأصول : «البلاد» والمثبت من ن . م .
- (9) في الأصول : «تطاوان» ، والمثبت من نزهة المشتاق ، وعلق محمد الحاج صادق عنها بقوله : «وتطن مدينة بين تلمسان وصفرو وي على 4 مراحل من تادلة» ، راجع هامش المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق ، بلجيكا 1983 م . ص 202 .
- (10) في الأصول : «وفري» والمثبت من ن . م .
- (11) في الأصول : «أكريسف» والمثبت من ن . م .
- (12) في الأصول : «كرناطة» والمثبت من ن . م .
- (13) في الأصول : «مليبا» والمثبت من ن . م .
- (14) في الأصول : «مغرة» والمثبت من ن . م .
- (15) في الأصول : «طنبة» والمثبت من ن . م .
- (16) في الأصول : «بنجس» والمثبت من ن . م .
- (17) في الأصول : «دار مدين» والمثبت من ن . م .
- (18) في الأصول : «مليلة» والمثبت من ن . م .

البربر وأصولهم وافريقية وتسميتها :

وكان الغالب على ما ذكرناه من البلاد البربر⁽¹⁹⁾ وهم جيلٌ من الناس كما قال في «القاموس»⁽²⁰⁾ والجمع البرابرة وهم كما قال بالمغرب ، وأمة أخرى بين الحبشة والزنج ، وكلهم من ولد قيس عيلان ، وهم بطنان من حِمير صنهاجة وكُتامة بضم أولهما صاروا⁽²¹⁾ إلى المغرب أيام فتح افريقش⁽²²⁾ الملك افريقية .

قال ابن خلكان⁽²³⁾ : « افريقية سُميت بافريقين بن قيس بن صبي الحِميري وهو الذي افتتح افريقية وسُميت به وقتل⁽²⁴⁾ ملكها جرجير ويومئذٍ سُميت البربر بربراً . قال لهم ما أكثر بربرتكم ويقال افريقين وافريقش . » اهـ . وقيل أن افريقش الذي ملك افريقية هو ابن أبرهة ذي المنار بن الاسكندر ذي القرنين ، فلما تملك افريقش بعد أبيه أبرهة نُقِلَ البربر من أرض فلسطين ومصر والسَّاحل إلى مساكنهم اليوم . وكانت البربر بعثت يوشع - عليه السلام - .

وأفريقش هو الذي بنى افريقية وبه سُميت وكانت مدة ملكه مائة وأربعاً وستين سنة . وقال التجاني⁽²⁵⁾ : إن بلاد البربر كانت أرض فلسطين وما جاورها من الشَّام . وكان ملكهم جالوت الذي قتله داوود - عليه السَّلام - ، وتفرَّقوا في البلاد / وتوجَّه أكثرهم الى افريقية وبلاد المغرب ، وكانت افريقية للروم فأجلتهم العرب البرابر عنها إلى جزائر البحر كصقلية وغيرها ، ثم تراجعت الروم إلى بلادها على مُوادة⁽²⁶⁾ وصلح مع البربر ، فاختارت البربر سكنى الجبال والرَّمال وأطراف البلاد . وصار⁽²⁷⁾ الرُّوم إلى البلدان والعمائر حتى جاء الإسلام وافتتحت البلاد ففرَّ جميع من فيها إلا من أسلم أو أذى

[11/ب]

(19) كذا في الأصول ، وفي نزهة المشتاق : «برابر» .

(20) القاموس المحيط ، 1/ 370 - 375 . مط . السعادة بمصر .

(21) في الأصول : «صار» .

(22) في الأصول : «افريقس» والمثبت من وفيات الأعيان ، أفريقش بالشين المعجمة في آخره .

(23) في وفيات الأعيان (القاهرة 1367/1948) 1/ 38 في آخر ترجمة أبي اسحاق ابراهيم الحصري . 1/ 213 - 214

حيث ضبط لفظة افريقية .

(24) في الأصول : «وقيل» ، والمثبت من وفيات الأعيان .

(25) ما سيأتي نقل من رحلة التجاني تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، تونس 1378/1958 ، ص 160 .

(26) في الأصول : «مواعدة» ، والمثبت من رحلة التجاني .

(27) في ت و ط : «وصارت» .

الجزية. وقال: أهل⁽²⁸⁾ توزر من بقايا الروم الذين كانوا بافريقية قبل الفتح الاسلامي وكذلك أكثر أهل بلاد الجريد⁽²⁹⁾ لأنهم من⁽³⁰⁾ حين دخلوا⁽³¹⁾ الإسلام أسلموا على أموالهم وفيهم قوم من العرب الذين سكنوها بعد الفتح⁽³²⁾ وفيها أيضًا من البربر الذين دخلوها في قديم الزمان عند خروجهم من بلادهم أه⁽³³⁾.
واسم جالوت⁽³⁴⁾ ضريس ابن لاوي بن نفجار بن لاوي الأكبر بن لوي بن قيس ابن الياس بن نصر.

ولما دخلت قبائل البربر إلى المغرب تفرقوا فترلت مَرَّاتٍ ومَغِيلَةً وضَرِيسَةَ الجبال ونزلت لَوَاتَةَ أَرْضَ بَرَقَةٍ ونزلت طائفة من هَوَّارَةِ جبال نَقُوسَةَ ونزل الغير منهم بالمغرب الأقصى، ونزلت معهم قبائل مصمودة، فعمرُوا تلك البلاد (وقبائل البربر كثيرة، تُذكر كل قبيلة عند ذكر بلادها وأمها) ⁽³⁵⁾ القبائل زَنَاتَة، وَنَفَزَة، وَنَفَزَاوَة، وَلَمَطَة، وَمَطْمَاطَة، وَصَنَهَاجَة، وَهَوَّارَة، وَكَتَامَة، وَلَوَاتَة، وَوَرَفَجُوم ⁽³⁶⁾ وَمَرَّاتَة / وَصَدْرَاتَة، وَبِضَلَّاسِينَ ⁽³⁷⁾، وَمَدْيُونَة، وَرَبُوحَة، وَمَدَاسَة ⁽³⁸⁾، وَقَالَمَة ⁽³⁹⁾، وَأَوْرَبَة ⁽⁴⁰⁾، وَهَطِيطَة، وَوَلِيطَة، وَبَنُو مَنهُوس، وَبَنُو سَمَجُون، وَبَنُو وَارْقَلَان، وَبَنُو يَسْدِرَان ⁽⁴¹⁾، وَوَرْدَاسَا، وَبَنُو زِيرَجِي ⁽⁴²⁾، وَزَرْهُون، وَزَنَاتَة، كُلُّهُمْ أَبْنَاءُ جَالُوت ⁽⁴³⁾ بن ضريس، وَنَفَزَاوَة أَبْنَاءُ

[12/أ]

(28) في ت: «أن أهل».

(29) في رحلة التجاني: «في».

(30) في ط: «دخل».

(31) في رحلة التجاني: «الافتتاح».

(32) ينتهي النقل من رحلة التجاني ص 160.

(33) نسب جالوت عند التجاني ص 143. وهو يخالف ما ذكره المؤلف وجعل نسبة يتصل بالبربر من الخرافات التي لا أساس لها واعتمد المؤلف على نزعة المشتاق مع اختلاف يسير في الألفاظ. ويبدأ نص الإدريسي هكذا:

«وكان ملكهم جالوت بن ضريس بن جانا...» ص 57 ويستمر في النقل من الإدريسي بتصرف.

(34) اختصر نزعة المشتاق وزاد عليها ما بين القوسين وبداية كلامها: «وقبائل البربر زناتة» .. ص 57.

(35) في الأصول «وورنجوم» والمثبت من ن. م.

(36) في الأصول «سيلاص» والمثبت من ن. م. ولعل الصواب ويطلاسن.

(37) في الأصول: «مراسة» والمثبت من ن. م.

(38) في الأصول: «قسالة» والمثبت من ن. م. ص 57.

(39) في الأصول: «وارنية» والمثبت من ن. م.

(40) في الأصول: «بنو سيدان» والمثبت من ن. م.

(41) في الأصول: «بنو ربرحي» والمثبت من ن. م.

(42) في ت: «جالونا»، وفي ش: «جانا» والمثبت من ن. م.

نفجار ، وصنهاجة⁽⁴⁴⁾ ولمطة أنخوان لأب واحد وأم واحدة ، وأبوهما لمط بن زعزاع⁽⁴⁵⁾ من أولاد حِمير ، وأمهم تازكاي⁽⁴⁶⁾ العرجاء ، وأبوهما زناقي . وكان المسور بن المثني⁽⁴⁷⁾ بن كلاع بن أيمن بن سعيد بن حمير ، من أمراء العرب ساكنًا مع قومه في بلاد الحجاز ، فضاغت له إبل فخرج يطلبها ويبحث عنها إلى أن عبر نيل مصر ، وسار في بلاد المغرب يطلبها ، فرجى جبال طرابلس ، فقال لغلامه : أين نحن من الأرض ؟ فقال له الغلام : نحن بأرض إفريقية ، فقال : لقد تهوّرنا . والتهوّر عند العرب الحُمق ، فسمي لهذا اللفظ هوّارًا ، ونزل المسور المذكور بقوم من زناتة فحالفهم ، ورأى بأرضهم تازكاي أم صنهاج ولمط ، وكانت امرأة جميلة بدنة بارعة الكمال ، فولع بها المسور ، فسأل عنها ، فوجدها خلوة عن الأزواج ، فرغب في زواجها وتزوّجها ومعها ابناها⁽⁴⁸⁾ صنهاج ولمط (وهما ابنا لمط الأكبر)⁽⁴⁹⁾ فولد للمسور منها ولد سمّاه المثني (فسمّى أولاده هواره لما قاله أبوه المسور)⁽⁵⁰⁾ ثم مات المسور عنها وبقي ولده المثني مع أخويه صنهاج ولمط / عند أمهم تازكاي وعند أخوالهم من زناتة . ثم ولد للمط وصنهاج أولاد كثيرة فكثر نسلهم وتسلبوا على الأمم ، فاجتمع عليهم قبائل البربر فازعجهم إلى الصّحارى المجاورة للبحر المظلم الأعظم ، فزولوها وبها قبائلهم متفرقة بنواحيها وهم أصحاب إبل ونُجُب عتاق ، رحالة لا يقيمون بمكان واحد . ولباس الرّجال منهم والنساء أكسية الصّوف ويربطون على رؤوسهم عمام الصّوف المسماة بالكرازي وعيشهم من ألبان الإبل ولحومها مُقدّدة وربّما جلبت إليهم الحنطة والزبيب ، لكن الزبيب أكثر لأنهم كثيرًا ما ينقعون الزبيب في الماء بعد دقّه ويشربون صفوه نقيعًا حلواً . وفي بلادهم عسل كثير وليس عندهم مدينة يأوون إليها إلا مدينة نول لمطة⁽⁵¹⁾ ومدينة ازقي للمطة⁽⁵²⁾ .

(44) في الأصول : «صنهاج» والمثبت من ن . م . ص 57 .

(45) في ط : «عارج» ، وفي ت وش : «عرجاء» والمثبت من ن . م .

(46) كذا في ط ونزعة المشتاق ، وفي ش وت : «تراكاي» .

(47) كذا في ش ونزعة المشتاق ، وفي ط وت : «المكني» .

(48) كذا في ش وط ونزعة المشتاق ، وفي ت : «أبنائها» .

(49) في الأصول : «المتقدما الذكر» والمثبت من نزعة المشتاق رفعًا للالتباس .

(50) اضافة من المؤلف للتفسير .

(51) في الأصول : «نول لمط» والمثبت من ن . م . ص 59 .

(52) في الأصول : «أزكي لمط» وفي نزعة المشتاق كما كتبناها في النص . ولعلها بالقاف المعقدة كالجم المصرية وهذه الحروف ، الكاف الفارسية والقاف المعقدة والجم كثيرًا ما تتعاقب كلفظة انكلترا ومن لا يعرف هذا يقع في الغلط والاشتباه .

نول لمطة :

(فأما مدينة نول فنما إلى البحر ثلاثة أيام)⁽⁵³⁾ ومنها إلى سجلماسة ثلاثة عشرة مرحلة ، ومدينة نول كبيرة عامرة على نهر يأتي إليها من جهة المشرق وعليه قبائل لمطة وقبائل لمتونة . (ولمتونة قبيلة من صنهاجة)⁽⁵⁴⁾ وبهذه المدينة تصنع الدرق اللمطية التي لا شيء أبدع منها ولا أصلب منها ظهراً ولا أحسن منها صنعا ، وبها يقاتل أهل المغرب لحصانها وخفة حملها⁽⁵⁵⁾ وبهذه المدينة يصنع السرج⁽⁵⁶⁾ واللجم وأقتاب الإبل ، وتباع بها الأكسية المسماة / بالسفسارية⁽⁵⁷⁾ والبرانس⁽⁵⁸⁾ التي يساوي الزوج منها خمسين درهماً ديناراً وأقل وأكثر. وعند أهلها الغنم والبقر الكثير جداً ، وكذا السمن واللبن ، وإلى هذه المدينة يلجأ أهل تلك الجهات فيما يُعرض لهم من مهمات حوائجهم . ومن قبائل لمطة مسوفة ووشان وتماثلة [ومن قبائل صنهاجة بنو منصور ، وتمية وجدالة ، وملتونة وبنو ابراهيم]⁽⁵⁹⁾ وبنو تاشفين وبنو محمد [وجمل من صنهاجة]⁽⁶⁰⁾ .

آزكي :

وأما مدينة آزكي وتسمى تازكغت⁽⁶¹⁾ فإنها من بلاد مسوفة وهي أول مرافي الصحراء ، ومنها إلى سجلماسة ثلاثة عشرة مرحلة ، ومنها إلى نول سبع مراحل ، وهذه المدينة ليست بالكبيرة لكنها متحضرة وأهلها يلبسون مقندرات⁽⁶²⁾ ثياب الصوف ويسمونها بلغتهم القداور وهذه المدينة تسمى أيضاً قوقدم⁽⁶³⁾ باللغة الجناوية .

(53) اضافة من المؤلف عن نزعة المشتاق .

(54) اضافة من المؤلف .

(55) في نزعة المشتاق : «محملها» ص 59 .

(56) في نزعة المشتاق : «قوم يصنعون السروج» .

(57) في الأصول : «السفاسر» . كتبها المؤلف كما تنطق عند العوام بمدبنته وتعني اللحاف الذي تستعمله المرأة عند

خروجها . والمثبت من ن . م . ص 59 .

(58) في الأصول : «برانس» . كتبها أيضاً كما تنطق في صفاقس عند العوام والمثبت من ن . م .

(59) اضافة من نزعة المشتاق للتوضيح .

(60) اضافة من نزعة المشتاق للتوضيح .

(61) اضافة من المؤلف ، وقال الادريسي فيها بعد «وتسمى هذه المدينة بالبربرية آزي» .

(62) كذا في ط ونزعة المشتاق ، وفي ش : «مغزلات» ، وفي ت : ساقطة .

(63) في الأصول : «قوقودم» والمثبت من ن . م . ص 60 .

ومن أراد الدخول إلى بلاد سلا وتكرور وغانة من بلاد السودان فلا بدّ له من هذه المدينة .

سِجْلَمَاسَة :

وأما سِجْلَمَاسَة فهي بلاد كبيرة كثيرة العامر وهي مقصد الوارد والصّادر ، كثيرة الحضر والجَنّات ، رائقة البقاع والجهات ، ولا حصن لها ، وإنما هي قصور وديار وعمارات متّصلة على نهر كثير المياه يأتيها من جهة المشرق من الصحراء ، يزيد في الصيف كزيادة النّيل سواء ، ويزرع على مائه حسبما يزرع فَلَاحُومِصر ، ولزراعته إصابة كثيرة معلومة . وفي الأعوام الكثيرة المياه المتواترة بخروج هذا النهر ، ينبت لهم ما حصدوه في العام السابق / من غير بذر إن أبقوا جذوره نابتة بأرضها ، وحكى الحوقلي⁽⁶⁴⁾ أن البذر بها⁽⁶⁵⁾ يكون عامًا واحدًا والحصاد منه في كل سنة إلى تمام سبع سنين ، لكن⁽⁶⁶⁾ تلك الحنطة التي تنبت من غير تجديد بذر تتغير عن حالها حتى تكون بين الحنطة والشعير وتسمّى هذه الحنطة بِرَدَنْ تيزواو⁽⁶⁷⁾ وبها نخل كثير ، وأنواع من التمر لا يشبه بعضها بعضًا . وفيها الرطب المسمّى بالبرّني أخضر اللون ، شديد الحلاوة ، صغير النوى وبها الحنّاء والكمّون ، والقطن والكروياء ، فيتجهّز به منها إلى غيرها وبناءاتها حسنة .

دَرَعَة :

ومن سِجْلَمَاسَة إلى أَغْمَات وَرِيكَة⁽⁶⁸⁾ (نحو من ثماني مراحل)⁽⁶⁹⁾ . ومن سِجْلَمَاسَة إلى دَرَعَة ثلاث مراحل . ودرة ليست بمدينة يدور بها سور ولا حفير ، وإنما هي قرى متّصلة وعمارات متقاربة ، ومزارع كثيرة يتناول ذلك فيها جمل وأخلاط من البربر . وهي على نهر سِجْلَمَاسَة النازل إليهم⁽⁷⁰⁾ ، وعليه يزرعون الحنّاء

(64) في الأصول : «الجولقي» والمثبت من ن . م .

(65) في الأصول : «ربما» والمثبت من ن . م .

(66) في الأصول : «لأن» والمثبت من ن . م .

(67) في الأصول : «يزدن» والمثبت من ن . م .

(68) كذا في ش ونزهة المشتاق ، وفي ت وط : «وريطه» ، وما نقله ممّا يتعلق بنول وأزكي وسجلماسة ينظر عنها

المغرب ... من كتاب نزهة المشتاق ص 60-61 .

(69) كذا في ش ونزهة المشتاق ، وفي ت : «نحو ثمانين فرسخًا» ، وفي ط : «ساقطة» .

(70) «التي تروى عليها» ، وفي ش : «اليها» والمثبت من ن . م . ص 61 .

والكمّون والكروياء والنبيلج (وهو النيلة)⁽⁷¹⁾ [وشجر]⁽⁷²⁾ الحِناء يكبر بها حتى يكون في قوام الشجر يصعدون إليه ومنه يأخذون بذره ويتجهّز به إلى كل الجهات لعدم وجوده بغيرها.

السُّوس :

ومن أرض درعة إلى السُّوس الأقصى أربعة أيام. ومدينة السُّوس هي تَارُودَنْت⁽⁷³⁾ وبلاد السُّوس قرى كثيرة وعمارات مُتّصلة بعضها ببعض وبها من الفواكه الجليلة أجناس كثيرة مختلفة كالجوز والتّين والعنب العذاري / والسّفرجل والرُّمان [الامليسي]⁽⁷⁴⁾ والأترج الكبير المقدار ، الكثير العدد والمشمش والتّفاح [المنهد]⁽⁷⁵⁾ وقصب السُّكر الذي ليس على قرار الأرض مثله طولاً وعرضاً⁽⁷⁶⁾ وحلاوة وكثرة ماء فيعمل منه سكر يعم الأرض ، ويشف على أنواع سكر غيره في الصفاء والطيب ، ويُعمل ببلاد السوس الأكسية الرقيقة والثياب الرفيعة التي لا يقدر أحد على عمل مثلها بغيرها من البلاد ، ورجالها ونساؤها⁽⁷⁷⁾ سمر ، وفي نسائهم جمال فائق وحسن بارع ، وحذق صناعات.

وهي بلاد حنطة وشعير وأرزّ ممكن بأيسر ثمن وأسعارها رخيصة⁽⁷⁸⁾ ، والغالب على أهلها الجفء وغلظ الطبع وقلة الانقياد. وهم أخلاط من البربر المصامدة ولباسهم الأكسية من الصُّوف التفافاً وعلى رؤوسهم الشعور الكثيرة.

وبين تارودنت وتيويوين⁽⁷⁹⁾ يوم في جنات ويساتين وكروم وأشجار وثمار وفواكه ، واللحوم عندهم رخصية جدّاً. والغالب عليهم الشره⁽⁸⁰⁾ والبطر.

ومن مدينة السوس إلى مدينة أغمات ست مراحل في قبائل من البربر المصامدة

(71) اضافة من المؤلف للتوضيح ، تصرف في النقل بالحذف ، عن درعة انظر المغرب من نزهة المشتاق ص 61.

(72) اضافة من نزهة المشتاق.

(73) في الأصول : «تارودانت» ، والمثبت من ن. م.

(74) إضافة من نزهة المشتاق للتدقيق.

(75) إضافة من نزهة المشتاق للتدقيق.

(76) في الأصول : «غلظاً» والمثبت من ن. م. ص 62.

(77) في الأصول : «نساؤهم» . والأشمل : «نساؤها» كما في نزهة المشتاق ص 62.

(78) في الأصول : «رخيصة» .

(79) كذا في ط ونزهة المشتاق ، في ش وت : «تيويدين» .

(80) في الأصول «الأشر» والمثبت من ن. م. ص 63.

[يقال لهم أنتي نثات] (81) وبنو واسنو (82) وأنكوطاون (83) وأنسطيط (84) وأرعن وأكنفيس (85) وأنتوزكيت (86) وكل هذه القبائل من البرابر المصامدة المعمرين لهذه البلاد والجهات .

ومن السوس نفيس الجبل ، وهي مدينة صغيرة حولها عمارات وطوائف من قبائلها المنسوين إليها ، وبها الحنطة والفواكه ما لا / يوجد في غيرها كثرة . وبها جامع وسوق نافقة وبها من الزبيب ما لا نظير له منظرًا وحلاوة وكثرة وغلظًا . [14/ب]

جبل دَرَن :

والطريق من تارودنت (87) السوس إلى مدينة أغمات وريكة مع أسفل جبل دَرَن الأعظم الذي ليس جبل مثله إلا القليل في السمو وكثرة الخير وطول المسافة ، واتصال العمارات ، ومبده من البحر المحيط في أقصى السوس ويمر مع الشرق مستقيمًا حتى يتصل بجبل نفوسة فيسمى هناك بذلك ، ويتصل بعد ذلك بجبال طرابلس ، ثم يرق هناك ويقطع أثره . وقد حكى غير واحد أن طرف هذا الجبل يصل إلى البحر [حيث الطرف] (88) المسمى أوثنان من برقة . وفي هذا الجبل كل طريفة من الثمار وغرائب الأشجار ، والماء يطرد منه وبوسطه وجوانبه يوجد النبات أبدًا مخضرًا في كل الأزمان ، وعلى أعلاه جمل من قلاع وحصون تنيف على بضع وسبعين حصنًا ، ومنها الحصن المنيع القليل مثله في حصون الأرض بنية وتحصينًا ومنعة ، وهو في أعلى الجبل ومن حصانه وثقافة مكانه أن أربعة رجال يُمكنون ويمنعون الصعود إليه ، لأن الصعود إليه من مكان ضيقٍ وعمر المرتقى لأنه يشبه الدَّرج الحرج . ولا ترتقي إليه دابة إلا بعد جهدٍ ومشقة . واسم هذا الحصن تَانِمَلَّت (89) وهو كان عمدة محمد بن تومرت حين ظهر بالمغرب

(81) إضافة من نزهة المشتاق للتدقيق . ص 63 .

(82) في ش وت : «وانسو» ، في ط : «واسوار» . والمثبت من ن . م . ص 63 .

(83) في الأصول : «أنكوطاون» والمثبت من ن . م .

(84) في الأصول : «واسطيط» والمثبت من ن . م .

(85) في الأصول : «لكنفيس» والمثبت من ن . م .

(86) في الأصول : «وبنوا ، وزكيت» والمثبت من ن . م .

(87) في الأصول : «رودانة» والمثبت من ن . م . ص 63 .

(88) إضافة من نزهة المشتاق للتدقيق . ص 64 .

(89) في الأصول : «يتنملت» والمثبت من ن . م . ص 64 .

- كما يأتي إن شاء الله - وهو الذي زاد في تشييده ونَظَرَ/ في تحصينه وجعله مُدْخَرًا [15/أ] لأمواله وبه قَبْرُهُ لِأَمْرِهِ بذلك ، ولما مات يحبل الكواكب احتمله المصامدة إليه ودفنوه به فقبره هناك يزار من جميع بلادهم وعليه قُبَّةٌ عالية بلا تزويق ولا كلفة بل متقنة الصنع محكمة البناء.

وفي هذا الجبل من الفواكه التي لا توجد في غيره ، تينًا وعنبًا مستطيلًا عسليًا لا يوجد في أكثره نوى ، ومنه يتخذ زبيب يتنقل⁽⁹⁰⁾ عليه ملوك المغرب لِرَقَّةِ قشَرته⁽⁹¹⁾ وعذوبة طعمه واعتدال غذائه ، وفيه الجوز واللوز ، وأما السَّفرجل والبرقوق فيباع الحمل منه بغير طرا واحد لكثرتة ، وبه من الأجاص والمشمش والكمثرى والأترج والقصب الحلوى كثير حتى أن أهل هذا الجبل لا يبيعونه بينهم ولا يشترونه لكثرتة⁽⁹²⁾.

أغمات وريكة :

ومدينة أغمات وريكة⁽⁹³⁾ أسفل هذا الجبل من شماله في فحوص أفصح طيب التراب كثير النَّباتِ والأعشاب والمياه تَحْتَرِقُ يَمِينًا وشمالًا وتطرد بساحاته ليلاً ونهارًا ، وحوها جَنَاتٌ مُحْدَقَةٌ وبساتين وأشجار ملتفة ومكانها أحسن مكان من الأرض فرجة الأرجاء طيبة الثرى عذبة الماء صحيحة الهواء ، ولها نهر ليس بالكبير يشق المدينة ويأتيها من جنوبها⁽⁹⁴⁾ ، فيمرُّ إلى أن يخرج من شمالها⁽⁹⁴⁾ عليه أرحاء طحينهم ، فيدخل النهر المدينة يوم الخميس والجمعة والسبت والأحد وباقي الجمعة يأخذونه لسقي جَنَاتِهِمْ / وأرضهم ، فيقطعونه عن البلد فلا يجري منه إليها شيء⁽⁹⁵⁾.

وهذا الجبل⁽⁹⁶⁾ المشرف على المدينة إذا جاء الشتاء نزل عليه الثلج فإذا سخن الهواء ، وذهب الشتاء تحلَّتْ الثلوج النازلة فيسيل دَوَانُهَا إلى المدينة وريماً جمده به النهر في وسط المدينة حتى يحتاز عليه الأطفال فلا يتكسر لشدَّة جموده.

(90) في الأصول : « يشغل » والمثبت من ن . م . ص 64 .

(91) في الأصول : « بشرته » والمثبت من ن . م . ص 64 .

(92) عن جبل دَرَن ، أنظر النص الكامل في نزعة المشتاق ص 63 - 65 .

(93) في الأصول : « أريكة » والمثبت من ن . م . ص 65 .

(94) في الأصول : « جنوبها ... شمالها » والمثبت من ن . م . ص 65 - 66 .

(95) عن أغمات . أنظر النص الكامل من ن . م . ص 65 - 66 .

(96) هو جبل دَرَن .

وأهل هذه المدينة هَوَّارة المتبررون بالمخاورة وهم أُملياء تُجَّار مياسير ، يدخلون بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطر الأموال من أنواع النحاس [الأحمر]⁽⁹⁷⁾ والأكسية والثياب والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار والعطر وآلات الحديد المصنوع ، وما منهم رجل يسفر⁽⁹⁸⁾ عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المائة جمل والسبعون [والثمانون]⁽⁹⁹⁾ جملاً كلها مُوقرة⁽¹⁰⁰⁾ . ولم يكن في دولة المثلثين أحد أكثر منهم أموالاً ، ولا أوسع أحوالاً ، وعلى أبوابهم علامات تدلّ على مقادير أموالهم وذلك أنّ الواحد منهم إذا ملك أربعة آلاف دينار يمسكها مع نفسه ، وأربعة آلاف دينار يصرفها في تجارته ، أقام عن يمين بابه ويساره عرصتين مبينتين بالأجر والطوب والطّين ، من الأرض إلى أعلى السقف ، وكلما ازداد أربعة آلاف دينار زاد عرصه ، فإذا مر أحد بدار ونظر إلى تلك العُرض مع الأبواب قائمة عدّها⁽¹⁰¹⁾ فيعلم من عددها⁽¹⁰²⁾ كم مبلغ مال صاحب تلك الدّار ، وبعد انقراض دولة المثلثين / وتولّي المصامدة تغيّرت أحوالهم ومع هذا فهم لم يزالوا مياسير أُملياء ، لهم نخوة واعتزاز لا يتحوّلون عنه⁽¹⁰³⁾ .

مراكش :

وعلى اثني عشر ميلاً من أغمات مدينة استجدها يوسف بن تاشفين في صدر سنة سبعين وأربعمائة⁽¹⁰⁴⁾ بعد أن اشترى أرضها من أهل أغمات بجملة أموال ، وهي مرّاكش اختطّها له ولبنى عمّه وهي في وطى من الأرض ، ليس حولها شيء من الجبال إلا جبل صغير يسمّى ايجليز⁽¹⁰⁵⁾ ، ومنه قطع الحجر الذي بني منه قصر أمير المسلمين علي ابن يوسف بن تاشفين وهو المعروف بدار الحجر . وليس في مدينة مرّاكش حجر البتّة إلا ما

(97) إضافة من نزهة المشتاق للتدقيق ص 66 .

(98) في الأصول : «يسافر» والمثبت من نزهة المشتاق كما يقتضيه المعنى .

(99) إضافة من نزهة المشتاق ص 66 .

(100) في الأصول : «مافورة» والمثبت من ن . م . ص 66 .

(101) في الأصول : «عددها» والمثبت من ن . م . ص 67 .

(102) في الأصول : «عدتها» والمثبت من ن . م . ص 67 .

(103) ولتمة الحديث عن أغمات أنظر النص الكامل للادريسي ص 67 .

(104) 470 هـ / 1077 م . وتاريخ تأسيسها هذا لا يوافق ما ذكره فيها بعد نقلاً عن ابن خلكان .

(105) في ش و ت : «الجليز» ، في ط : «الجليز» ، والمثبت من ن . م . ص 67 .

(106) في الأصول : «ينسكب على» والمثبت من ن . م . ص 68 .

كان من هذا الجبل ، وإنما بناؤها من الطُّوب والطِّين والطَّوَابِي المقامة من التُّراب ، وماؤها الذي تسقى به البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة من استخراج عبيد الله بن يونس المهندس ، وذلك أن ماؤهم ليس يبعد الغور ، يوجد إذا احتفر قريبًا من وجه الأرض ، فجاء عبيد الله المذكور إلى مراكش في أول بنائها وليس بها إلا بستان واحد لأبي الفضل مولى أمير المسلمين المقدم الذكر ، فقصده إلى أعلى الأرض ممّا يلي البستان فاحتفر فيه بئرًا مربعة كبيرة الترييع ، ثم احتفر منها ساقية متصلة الحفر على وجه الأرض وهو يحفر بتدرّج من أرفع إلى أخفض متدرّجًا إلى أسفله بميزان إلى أن وصل الماء / إلى البستان وهو [16/ب] ينسكب مع (106) وجه الأرض يصبُّ فيه ، فهو دائم مع الأيام لا يفتر. وإذا نظر الناظر إلى سطح الأرض لم يرَ بها كبير ارتفاع يوجب خروج الماء من قعرها إلى وجهها ، وإنما يدرك ذلك من علم وزن الأرض ، فاستحسن ذلك أمير المسلمين من فعل المهندس المذكور وأحسن إليه بأموال وأثواب ، وأكرم مثواه مدة مُقامه عنده ، فلما نظر الناس ذلك استخرجوا مياهًا ، وأنشؤوا البساتين الكثيرة والجنّات ، واتّصلت بذلك عمارات مراكش وحسُن منظرها.

ومدينة مراكش في وقت بنائها من أكبر مُدُنِ المغرب الأقصى ، وكانت دار مُلْكٍ لمتونة ومدار ملكهم ، وبها عدة قصور لكثير من الأمراء والقوَّاد وخُدَّام الدَّولة ، وأزقتها واسعة ورحابها فسيحة ، ومبانيها سامية ، وأسواقها مختلفة (107) جدًّا ، وسلعها نافقة ، وبني جامعها يوسف بانيها وأميرها ، فلما تغلبت عليها المصاميد وتملكوها - حسبما يأتي إن شاء الله تعالى - تركوا ذلك المسجد (108) عَطْلًا مغلق الأبواب ، ولا يقيمون فيه صلاة ، وبنوا لأنفسهم مسجدًا جامعًا يُصلُّون فيه (109). وشرب أهل مراكش من الآبار ومياهها كلها عذبة وآبارها قريبة مَعِينة. وكان علي بن يوسف قد جلب إليها عَيْنًا بينها وبين المدينة عدة أميال ، ولم يستم ذلك فأتته المصامدة فأدخلوا الماء إلى المدينة / وجعلوا منه سقايات بقرب دار الحجر وهي الحاضرة التي فيها القصر منفردًا متحيزًا بذاته خارج عن المدينة (110).

[17/أ]

(107) في ط : «مختلفة».

(108) في نزهة المشتاق : «الجامع».

(109) بعدها : أسقط المؤلف ما يتعلق بسلوك المصامدة في هذا الجامع ، راجع نزهة المشتاق ص 68.

(110) عن مدينة مراكش راجع النص الكامل للدريسي ص 68 - 69.

نهر تانسيفت :

وعلى ثلاثة أميال من مراكش نهر يسمّى تانسيفت⁽¹¹¹⁾ وليس بالكبير لكنه دائم الجري. وزمن الشتاء يحمل بسيل كبير لا يبيق ولا يذر، وبنى عليّ بن يوسف [بن تاشفين] عليه قنطرة عجيبة البناء متقنة الصنع فجلب إلى عملها صناع الأندلس وجملًا من أهل المعرفة بالبناء فشدوها وأتقنوا بنائها حتى كملت ، فلم تلبث أعوامًا يسيرة حتى أتى السيل على أكثرها وحلّ عقدها ورمى بها في البحر الزاخر ، وهذا الوادي يأتي إليه الماء من عيون ومياه منبعثة من جبال دَرَن من ناحية مدينة أغمات أَيْلان .

أغمات أَيْلان :

ومدينة أغمات أَيْلان صغيرة في أسفل جبل دَرَن ، وهي في الشرق من أغمات وريكة⁽¹¹²⁾ وبينهما ستة أميال ، وبهذه المدينة يسكن يهود تلك الناحية ، وهي مدينة حسنة كثيرة الخصب ، كاملة النعم ، وكانت اليهود لا تسكن مدينة مراكش عن إذن أميرها علي بن يوسف ولا تدخلها إلا نهارًا ، وتنصرف عنها عشية ، وليس يدخلهم إليها في النهار إلا لأمر له وخدم تختصّ به ، ومتى عثر على واحد منهم بات فيها استبيح ماله ودمه ، فكانوا ينافرون البيت فيها حيطة على أنفسهم وأموالهم .

عود إلى ذكر مراكش :

وأهل مراكش يأكلون الجراد ويبيع منه بها كل يوم الثلاثون حملًا فادونها / بقبالة عليه ، وكانت أكثر الصنائع بمراكش متقبلة ، عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصّابون والصّفّر والمغازل ، وكانت القبالة على كلّ شيء يُباع دقّ أو جلّ ، كل شيء على قدره⁽¹¹³⁾ .

فلما ولي المصامدة وصار الأمر إليهم قطعوا القبالات بكل وجه وأراحوا منها (وتوعدوا عليها بالقتل)⁽¹¹⁴⁾ .

(111) في الأصول : « تاشفيت » والمثبت من ن . م . ص 69 .

(112) في الأصول : « أريكة » والمثبت من ن . م . ص 69 .

(113) في الأصول : « بحسبه » والمثبت من ن . م . ص 70 .

(114) في مكانها نجد في نزهة المشتاق : « واستحلوا قتل المتقبلين لها ولا تذكر الآن القبالة ذكرًا في شيء من بلاد المصامدة » .

الطريق من مراكش إلى أم ربيع :

ويسكن قبلة⁽¹¹⁵⁾ مراكش قبائل البربر أيلان وهم مصاميد ، وجوها من قبائل البربر أيضًا نفيس وبنو يذفر ، ودكالة ورجرجة وزودة وهسكورة⁽¹¹⁶⁾ وهزرجة ، ويسكن بغربي أغمات وشرقها مصاميد وريكة .

ومن مدينة مراكش إلى مدينة سلا على ساحل البحر تسع مراحل أولها تونين ، وهي قرية على أول فحص أفيح لا عوج به ولا أمثا ، وطول هذا الفحص مرحلتان ويسكنه من قبائل البربر قزولة ولمطة وصدراتة .

ومن تونين إلى قرية تيقطين⁽¹¹⁷⁾ مرحلة إلى غفسيق مرحلة ، وهي قرية على آخر الفحص المذكور ، وصحن هذا الفحص المذكور كله (نبات السدر المثمر للنبق)⁽¹¹⁸⁾ وفيه السلاحف البرية التي تفوق السلاحف البحرية كبيرًا وعظمًا ، وأهل تلك النواحي يتخذون من صدفها⁽¹¹⁹⁾ دساتر⁽¹²⁰⁾ للغسل ، ومعاجن للدقيق .

ومن قرية غفسيق إلى قرية أم ربيع⁽¹²¹⁾ مرحلة ، وهي قرية كبيرة جامعة ، وبها انحلاط من برابر رهونة وبعض زناتة وتامسنا .

وقبائل تامسنا / شتي فمنهم برغواطة ومطماطة وبنو تسلت⁽¹²²⁾ وبنو ويغمران⁽¹²³⁾ ، وزقارة وبعض من زناتة ، وبنو يحفش من زناتة . وكل هذه القبائل أصحاب حرث ومواشي وجمال . والغالب عليهم الفروسية . وآخر سكانهم⁽¹²⁴⁾ مرسى فضالة .

ومرسى فضالة على البحر المحيط الغربي ، وبينها وبين وادي أم ربيع ثلاث مراحل . وأم ربيع على وادٍ كبير خزرار يحاز بالمرابك ، سريع الجري ، كثير الانحدار ، كثير الصخور والجنادل ، وبهذه القرية ألبان وأسبان ، ونعم رغبة⁽¹²⁵⁾ ، وحنطة في نهاية

(115) في الأصول : « قيل » والمثبت من ن . م . ص 70 .

(116) في الأصول : « سكورة » والمثبت من ن . م . ص 70 .

(117) في ت وش : « يتقطن » ، في ط : « يتقط » ، والمثبت من ن . م . ص 70 .

(118) في مكانها نجد في نزهة المشتاق : « نبات الشوك المسمى بالسدر المثمر بالنبق » .

(119) في الأصول : « خزفها » والمثبت من ن . م .

(120) في نزهة المشتاق : « دساتر » .

(121) في الأصول : « أم ربيعة » والمثبت من ن . م . ص 70 .

(122) في الأصول : « بنوا سلب » والمثبت من ن . م .

(123) في ش وت : « يعمران » ، في ط : « يعمران » ، والمثبت من ن . م . ص 70 .

(124) في الأصول : « مساكنهم » والمثبت من ن . م . ص 71 .

(125) في الأصول : « ونعم ورغبة » والمثبت من ن . م . ص 71 .

الرخص ، وبها بقول ومزارع المقائى⁽¹²⁶⁾ والقطن والكتان⁽¹²⁷⁾ ، وهي في جنوب الوادي ، ويحتاز هذا الوادي إلى غيطة كبيرة من الطرفاء والأنشام ، وهي غابة كبيرة ملتفة والأسود بها كثيرة ، وربما أضرت بالمار ، غير أن أهل تلك النواحي لا يهابونها ، وقد تمهروا في مقاتلتها بأنفسهم من غير سلاح ، وإنما يلقونها بأنفسهم عراة ، يلقون أكسيهم على أذرعتهم ، ويمسكون معهم قتات من شوك السدر ، وسكاكينهم بأيديهم لا غير ، وقد لقيت الأسود منهم هناك نكايات فلا مهابة لها عندهم بذلك .
ومن أم ربيع إلى قرية ايجيسل⁽¹²⁸⁾ مرحلة ، وهي قرية حسنة وبها عيون كثيرة دفاعة بالماء بين صخور صلدة ، وهذا الماء يصرف في كثير من زروعهم .

آنقال :

ومن هذه القرية إلى قرية آنقال مرحلة ، ويقال لها دار / المرباطين ، وبها عين عليها أقباء ، ومائها معين ، وهي حسنة في موضعها ، كثيرة الزرع والمواشي والإبل والبقر ، ويقابلها فحص طويل قد انحشرت إليه طيور النعام⁽¹²⁹⁾ ، فهي في أكنافه سارحة ، وعلى مراقبه دارجة ، وهي آلاف لا تعد ولا تحدد ، وأهل تلك النواحي يصيدونها طرداً بالخيول فيقبضون منها جملاً كثيرة كباراً وصغاراً ، وأما بيضها الموجود في هذا الفحص فلا يحاط به كثرة ولا يحصى ، ومنه يحمل إلى كل البلاد ، وطعامها وخيم يفسد المعدة ، وأما لحوم النعام فباردة يابسة وشحومها نافعة من الصمم تقطيراً ومن سائر الأوجاع البدنية .
مَكُول :

ومن آنقال إلى قرية مكول مرحلة ، وقرية مكول على بَطْح⁽¹³⁰⁾ ، ويتصل بها فحص يقال له فحص خَرَّاز وطوله اثنا عشر ميلاً لا ماء به ، وقرية مكول كالحصن الكبير ، عامرة بالبربر ، ولها سوق نافقة ، يجلب إليها جميع الجملوبات من السلع والمتاجر التي يحتاج إليها ، وبها زروع كثيرة ومواشي وأنعام .

(126) في نزهة المشتاق : «القطاني» وهو تصويب من المؤلف .

(127) في نزهة المشتاق : «الكمون» وهو تصويب من المؤلف .

(128) في الأصول : «الجيل» والمثبت من ن . م .

(129) كذا في ط ونزهة المشتاق ، وفي ش وت : «الأنعام» .

(130) في الأصول : «سطح» والمثبت من ن . م . ص 72 .

ايكيس :

ومن مكول إلى قرية ايكيس⁽¹³¹⁾ مرحلة صغيرة ، والطريق على فحوص خَرَاز ، وفي آخر الفحص واد ماؤه جار دائماً ، وعليه غابات ثمار ، والأسود فيها ظاهرة للناس ، عادية عليهم بالليل والنهار ، لا تستر في غياضها ، وفي قرية ايكيس بيت مُتخذ لصيد الأسود حتى انه ربّما صيد منها في الجمعة الثلاثة والأربعة ، والأسود تفر من النار / إذا رأتها ولا سبيل لها إلى صاحب نار.

سلا :

ومن قرية ايكيس إلى مدينة سلا [مرحلة ، ومدينة سلا]⁽¹³²⁾ الحديثة على ضفّة البحر ، وكانت في قديم الزمن مدينة شالّة⁽¹³³⁾ على ميلين من البحر ، وموضعها على ضفّة نهر أسمير الذي يتصل الآن بمدينة سلا الحديثة ، وهناك مصبّه في البحر. وأما شالّة القديمة فهي الآن خراب ، وبها بقايا بنيان قائم وخراب وهياكل سامية ، ويتصل بخرابها عمارات متصلة وزروع ومواش⁽¹³⁴⁾ لأهل سلا الحديثة. وسلا الحديثة على ضفّة البحر ، منيعة من جهة البحر ، لا يقدر أحد من المراكب على الوصول إليها من جهته⁽¹³⁵⁾ وهي مدينة حسنة حصينة في أرض رمل ، ولها أسواق نافقة وتجارات ودخل وخرج وتصرف لأهلها وسعة أموال ونمو أحوال ، والطعام بها كثير رخيص جدّاً ، وبها كروم وجنّات وحدائق وبساتين وغلّات ومزارع ، ومراكب أهل إشبيلية وسائر المدن الساحلية من الأندلس يقلعون عنها ويحطّون بها بضروب من البضائع ، وأهل إشبيلية يقصدونها بالزّيت الكثير ، وهو بضاعتهم ، ويتجهزون منها بالطعام إلى سائر بلاد الأندلس السّاحلية ، والمراكب الواردة عليها لا ترسي منها في شيء من البحر لأنّ مرساها مكشوف ، وإنما ترسي المراكب بها في الوادي الذي قدّمنا ذكره ، وتجاوز المراكب على فمه بدليل لأن في⁽¹³⁶⁾ فم الوادي أحجاراً وتروشاً تنكسر عليها

(131) في الأصول : «ايكيس» والمثبت من ن. م.

(132) اضافة من نزهة المشتاق كي يستقيم المعنى.

(133) في الأصول : «سالة» والمثبت من ن. م.

(134) في الأصول : «مناشر» والمثبت من ن. م. ص 72.

(135) في ت : «من جهة البحر».

(136) ساقطة من الأصول.

[19/ب] المراكب / وفيه أعطاف لا يدخلها إلا من يعرفها ، وهذا الوادي يدخله المدّ والجزر في كل يوم مرتين ، وإذا كان المدّ دخلت المراكب به إلى داخل الوادي ، وكذلك تخرج في وقته ، وفي هذا الوادي أنواع من السمك وضروب الحيتان ، وهو بها لا يكاد يباع ولا يشتري لكثرة ، وجودته ظاهرة ، وكل شيء من المأكولات في مدينة سلا موجود بأيسر القيمة وأهون الثمن⁽¹³⁷⁾.

فضالة :

ومن مدينة سلا مع البحر إلى جزائر الطير اثنا عشر ميلاً ، ومنها في جهة الجنوب إلى مرسى فضالة اثنا عشر ميلاً ، ومرسى فضالة ترده المراكب من بلاد الأندلس وحائط البحر الجنوبي فتحمل منه أوساقها طعاماً شعيراً وحنطة وفولاً وحمصاً وكذا تحمل منه الغنم والمعز⁽¹³⁸⁾ والبقر.

الطريق من فضالة إلى آسني :

ومن فضالة إلى مرسى أنفا أربعون ميلاً ، وهو مرسى مقصود تأتي إليه المراكب وتحمل منه الحنطة والشعير وتتصل به في ناحية البر⁽¹³⁹⁾ عمارات من البربر من بني يدفر ودكالة⁽¹⁴⁰⁾ وغيرهما .

ومن أنفا إلى مرسى مازيغن [خمسـة وستون ميلاً روسية .

ومن مازيغن⁽¹⁴¹⁾ إلى البيضاء جون ثلاثون ميلاً .

ومن البيضاء⁽¹⁴²⁾ إلى مرسى الغيط خمسون ميلاً ، وهو جون ثان .

ومن الغيط إلى آسني خمسون ميلاً .

ومن آسني⁽¹⁴³⁾ إلى طرف جبل الحديد ستون ميلاً .

ومن طرف جبل الحديد إلى الغيط الذي في الجون خمسون ميلاً وكذلك من طرف

[20/أ] مازيغن إلى آسني روسية / خمسة وثمانون [ميلاً]⁽¹⁴⁴⁾ وتقويراً مائة وثلاثون ميلاً .

(137) عن مدينة سلا ، أنظر الادريسي ص 72 - 73 .

(138) اضافة من نزهة المشتاق ص 73 .

(139) في الأصول : « البحر » والثبت من ن . م . ص 73 .

(140) في نزهة المشتاق : « دكال » .

(141) ما بين الحاصرتين اضافة من نزهة المشتاق . (143) في الأصول : « ومن أنفا » .

(142) في ت : « البيض » . (144) اضافة من نزهة المشتاق للتدقيق ، ص 74 .

آسني :

ومرسى آسني كان فيما سلف آخر مرسى تصل إليه المراكب ، وأما الآن فهي تجوزه بأكثر من أربعة بحار ، وآسني عليه عمارات وبَشَرٌ⁽¹⁴⁵⁾ كثير من البرابر : رجراجة وزودة ، وأخلاط من البرابر ، والمراكب تحمل منه أسواقها في وقت السفر وسكون موج البحر المظلم .

وإنما سمّي هذا المرسى بآسني لأنه اجتمع ثمانية رجال أبناء عم بلشبونة⁽¹⁴⁶⁾ من بلاد الأندلس يسمون المغرورين لاغترارهم بانشأهم مركبًا حملاً ، وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيم لأشهر ثم دخلوا البحر المظلم في أول طاروس الرياح الشرقية ، فجزوا بها نحو احد عشر يوماً ، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج ، كرية الرائحة كثير الشوز ، قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف فردّوا قلاعهم في اليد الأخرى وجزّوا مع الرّيح في ناحية الجنوب اثني عشر يوماً فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل ، وهي سارحة بلا راعٍ ولا ناظر عليها ، فقصدوا الجزيرة فتلّوا فيها ، فوجدوا عين ماء جارية ، وعليها شجرة تين برّي ، فأخذوا من تلك الغنم ، فذبحوا فوجدوا لحومها مرّة لا يقدر أحد على أكلها ، فأخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب اثني عشر يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة ، فنظروا فيها إلى عمارة وحِث / فقصدوا إليها ليروا ما فيها ، فما كان [20/ب] غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق هناك ، فأخذوا وحملوا في مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر ، فأنزلوا بها [في دار]⁽¹⁴⁷⁾ فأروا فيها رجالاً شُقرّاً زُعراً ، شعورهم سَبْطة ، وهم طوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب فاعتقلوا منها في بيت ثلاثة أيام ، ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلّم باللسان العربي ، فسألهم عن حالهم ، وفيما جاؤوا وأين بلدهم ، فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيراً ، وأعلمهم أنه ترجمان الملك ، فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم أحضروا بين يدي الملك ، فسألهم عمّا سألهم الترجمان عنه فأخبروه بما أخبروا الترجمان بالأمس من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به⁽¹⁴⁸⁾ من الأخبار والعجائب ويقفوا على نهايته ، فلما علم الملك ذلك ضحك وقال للترجمان : أخبر القوم

(145) في الأصول : «شيء» والمثبت من ن . م . ص 74 .

(146) في الأصول : «القبنوة» والمثبت من ن . م . ص 74 وص 185 .

(147) اضافة من ن . م . ص 184 .

(148) في الأصول : «ما فيه» والمثبت من ن . م . ص 185 .

أن أبي أمر قومًا من عبيده فركبوا هذا البحر⁽¹⁴⁹⁾ وأنهم جَرَوْا في عرضه شهرًا إلى أن انقطع عنهم الصَّوء ، وانصرفوا⁽¹⁵⁰⁾ من غير فائدة تجدي ، ثم أمر الملك التُّرجمان أن يعد القوم خيرًا ، وأن يحسن ظَنَّهُم بالملك ففعل ، ثم صُرفوا⁽¹⁵¹⁾ إلى موضع حبسهم إلى أن بدأ جري الرياح الغربية ، فعمر بهم زورقًا ، وعُصِّبَت أعينهم ، وجروا بهم في البحر برهة من الدهر ، قال القوم : قَدَرْنَا أنه جُرِّي بنا ثلاثة أيام بلياليها حتى جيء بنا إلى البر ، فأخرجنا وَكَيْفُنَا إلى خلف / وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار ، وطلعت الشمس ونحن في ضنك وسوء حال من شدة الكِتَاف ، حتى سمعنا غوغاء وأصوات الناس ، فصحبنا بجملتنا ، فأقبل القوم إلينا فوجدونا بتلك الحال السيئة ، فحلُّونا من وثاقنا وسألونا⁽¹⁵²⁾ فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا برابر ، فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا : لا ، فقال : إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين ، فقال زعيم القوم : وأسنى ، فسَمِّي المكان⁽¹⁵³⁾ إلى اليوم آسفي⁽¹⁵⁴⁾ .

[21/أ]

مرسى ماست :

ومن مرسى آسفي إلى مرسى ماست في طرف الجون مائة وخمسون ميلًا . ومرسى ماست⁽¹⁵⁵⁾ مرسى حسن يَكِينٌ من بعض الرياح ، والمراكب تصل إليه فتخرج منه الحنطة والشعير ، ويتصل به من قبائل البربر دُكَّالة ، وأرض دكالة كلها منازل وقرى ، ومناهل ومياهها قليلة .

داي وتادلة :

ومن مدينة أغمات مع الشرق والشمال إلى مدينة داي وتادلة أربعة أيام ، وبين داي وتادلة مرحلة .

-
- (149) في ت : « فركبوا هذا البحر ودخلوا فيه » .
 (150) في ت : « وانصرفوا راجعين » .
 (151) كذا في ط ونزهة المشتاق ، وفي ت : « انصرفوا » .
 (152) في ت : « وسألونا عن حالنا » .
 (153) في ت : « ذلك المكان » .
 (154) قدم المؤلف هذا التفسير عن موضعه في نزهة المشتاق اذ يتحدث عنه الادريسي عند كلامه عن مدينة لشبونة ، وعن قصة الفتية المغرورين . أنظر نزهة المشتاق ص 184 - 185 .
 (155) في الأصول ونزهة المشتاق : « الغيط » . والأرجح ماست طبقًا لما سبق ولما حققه محمد حاج صادق لكتاب المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق ص 92 .

ومدينة داي في أسفل جبل خارج من جبل دَرَن ، وهي مدينة بها معدن النحاس [الخالص]⁽¹⁵⁶⁾ الحلو ، ولونه إلى البياض يحتمل التزويج ويدخل في لحام الفضة وهو إذا طُرُق جاد ، ولم يتشرح⁽¹⁵⁷⁾ كما يتشرح غيره من أنواع النحاس ، وهذا المعدن ينسبه العوام إلى السوس ، وليست مدينة داي من بلاد السوس ، لأن بينهما مسافات أيام كثيرة ، ومن هذا المعدن يحمل إلى سائر البلاد ، ويتصرف به في كثير من الأعمال . ومدينة داي صغيرة ، لكنها كثيرة العامر ، والقوافل عليها / واردة ومنها صادرة ، ويزرع بها وبأرضها كثير القطن ، ومدينة تادلة أكثر ، فيخرج منها إلى كل الجهات ، ومنه كل ما يعمل من الثياب القطنية ببلاد المغرب [الأقصى]⁽¹⁵⁸⁾ .

وهذين البلدين أرزاق ومعاش وخصب ونعم شتّى ، وأهلها أخلاط من البربر . وفي شرقي تادلة وداي من البرابر بنو وليم⁽¹⁵⁹⁾ وبنو ويزكون⁽¹⁶⁰⁾ ، ومنذاسة . ويسكن بهذا الجبل النازل⁽¹⁶¹⁾ إلى داي قوم من صنهاجة يقال لهم أمّلو⁽¹⁶²⁾ .

الطريق من تادلة إلى فاس :

ومن مدينة تادلة إلى مدينة تَطَن وُقُرَى أربع مراحل ، وهي مدينة صغيرة ، لكنها متحضرة يسكنها قوم من أخلاط البربر ، وبها مزارع وحنطة كثيرة ولها مواش وأغنام . ومن مدينة تَطَن وُقُرَى إلى مدينة سلا التي على الساحل يومان . ومن مدينة سلا إلى مدينة فاس أربع مراحل .

فَاس :

ومدينة فاس منقسمة بمدينتين بينهما نهر كبير يأتي من عيون تسمى عيون صنهاجة ، وعليه في داخل المدينة أرحاء كثيرة لطحن الحنطة بلا ثمن له خطر ، والمدينة الشمالية منهما تسمى القرويين ، والجنوبية تسمى الأندلسيين ، وماء الأندلسيين قليل ، يشقها نهر

(156) إضافة من ن . م . ص 74 .

(157) في ت : « يشترح » .

(158) إضافة من نزهة المشتاق ص 75 .

(159) في الأصول : « وليهم » والمثبت من ن . م . ص 75 .

(160) في الأصول : « وركون » والمثبت من ن . م .

(161) في الأصول : « يجبل نازل » والمثبت من ن . م .

(162) عن داي وتادلة ، أنظر نزهة المشتاق ص 74 - 75 .

[22/أ]

واحد ، يمر بأعلاها ويتنفع ببعض منه ، وأما مدينة القرويين فيهاها كثيرة تجري منها في كل شارع وزقاق ساقية متى شاء أهل الموضع فجروها فغسلوا مكانهم منها ليلاً ، فتصبح أزقتها ورحابهم مغسولة ، وفي كل دار ، صغيرة كانت أو كبيرة ساقية / ماء [نقياً كان أو غير نقي] (163) ، وفي كل مدينة منهما جامع ومنبر وإمام ، وبين المدينتين أبداً (164) فتن ومقاتلات ، وبمدينة (165) فاس ضياع ومعائش ومبان سامية ودور وقصور ، ولأهلها اهتمام بجوائجهم ومبانيهم وجميع آلائهم ، ونعمها كثيرة ، والحنطة بها رخيصة الأسعار جداً دون غيرها من البلاد القريبة منها ، وفواكهها كثيرة ، وخصبها زائد ، وبها في كل مكان منها عيون نابعة ومياه جارية ، وعليه قباب مبنية ، ودواميس محنية ، ونقوش وضروب من الزينة ، وبخارجها الماء نابع مطرد من عيون غزيرة ، وجهاتها مخضرة مونقة ، وبساتينها عامرة ، وحدائقها ملتفة ، ورياضها مزهرة ، وفي أهلها عزة ومنعة (166) .

ومنها إلى مدينة تاودا (167) ، وقد خربت ، مرحلتان ، كان ابتناها أمراء الملثمين . ومنها إلى سجلماسة ثلاثة عشرة مرحلة . والطريق على صفروي إلى قلعة مهدي إلى تادلة إلى داي إلى شعب الصفا (168) . ويشق الجبل الكبير إلى جنوبه ، ومن هناك إلى سجلماسة .

صفروي :

فأما مدينة صفروي فنما إلى فاس مرحلة ، وكذلك منها إلى قلعة مهدي مرحلتان . و صفروي مدينة صغيرة (169) متحضرة ، بها أسواق قليلة (170) وأكثر أهلها فلاحون ، وزروعهم كثيرة ، ولهم جمل مواش وأنعام ، ومياههم عذبة غدقة .

(163) ما بين الحاصرتين ، إضافة من ن . م . ص 75 .

(164) في ت : «دائماً» .

(165) في الأصول : «وبمدينتي» .

(166) في ت : «منفعة» ، وعن مدينة فاس أنظر نزمة المشتاق ص 75 - 76 .

(167) في الأصول : «تاود» والمثبت من ن . م .

(168) في الأصول : «الصفا» والمثبت من ن . م . ص 76 .

(169) في ت : «صغيرة جداً» .

(170) في ت : «جليلة» .

قلعة مهدي :

وأما قلعة / مهدي فهي حصن حصين فوق جبل شامخ ، ولها أسواق وعمارات ، [22/ب] ومزارع وغلّات ، وبقر ، وغنم ، ويسانين⁽¹⁷¹⁾ واسعة .

ومن قلعة مهدي إلى تادلة ، مرحلتان ، ويسكن قبلة قلعة مهدي قبائل من زناتة من بني سمجون⁽¹⁷²⁾ وبني عجلان وبني تسكدلت⁽¹⁷³⁾ ، وبني عبد الله ، وبني موسى ، وبني ماروي⁽¹⁷⁴⁾ وتكلمّان⁽¹⁷⁵⁾ وأريّلوشن⁽¹⁷⁶⁾ وأنتقفاكن⁽¹⁷⁷⁾ ، وبني سامري .

مغيلة :

وبين فاس ومدائن مكناسة أربعون ميلاً في جهة الغرب . ومكناسة مدائن عدة وهي في طريق سلا ، والطريق إليها من فاس إلى مدينة مَغِيلَة .

ومَغِيلَة كانت متحصّرة ، كثيرة التجارات ، متّصلة العمارات ، وهي في فحص أفصح كثير الأعشاب والخضر والنواوير والأشجار والثمار ، وبقي منها عمارات ، وخراباتها متّصلة ، والمياه تخرق في كل جانب منها ، ومكانها حسن ، وهوؤها معتدل . ومن مَغِيلَة إلى وادي سنات ، إلى فحص النخلة ، إلى مكناسة .

مكناسة :

ومكناسة هي المسماة تاكررت⁽¹⁷⁸⁾ وهي باقية على حالها لم يدركها كثير تغير ، وهي مدينة حسنة مرتفعة على الأرض ، يجري في شرقها نهر صغير ، وعليه أرحاء ، وتّصل بها عمارات وجنات وزروع ، وأرضها طيبة للزّراعة⁽¹⁷⁹⁾ ، ولها مكاسب ،

(171) في نزهة المشتاق : «وأحوال» ص 76 .

(172) في الأصول : «مسجون» والمثبت مر ن . م .

(173) في ط : «بسكرات» ، وفي ت : «بسكدات» والمثبت من ن . م .

(174) في الأصول : «ماري» والمثبت من ن . م .

(175) في الأصول : «دكلمان» والمثبت من ن . م .

(176) في الأصول : «أريّلوشن» والمثبت من ن . م .

(177) في الأصول : «أسفقاكن» والمثبت من ن . م .

(178) «تاكررت» بالكاف الفارسية مثل القاف المقوودة وهي كالجيم المصرية وكتبت «تاقررت» فيما بعد طبقاً لنص الادريسي .

(179) في نزهة المشتاق : «للزراعات» .

[i/23]

وأحوالها طائلة ، وسميت مكناسة باسم مكناس البربري لما نزلها مع بنيه عند دخولهم (180) المغرب ، وأقطع كل ابن / من بنيه قطعة (181) يعمرها مع ولده ، وكل هذه المواضع التي أحلهم فيها تتجاور وتتقارب أمكنة بعضها من بعض ، وبلاد مكناسة منها التي تسمى بني زياد ، وهي مدينة عامرة لها أسواق عامرة ، وحمامات وديار حسنة ، والمياه تخرق أزقتها ، ولم يكن في أيام المثلث بعد تاقرت (182) أعمر قطراً من بني زياد ، وبينهما نحو من ربع ميل (183) .

بني تاورة :

ومنها إلى بني تاورة نحو ذلك ، وبين تاورة وتاقرت نحو ذلك ، وكانت مدينة تاورة متحضرة جامعة عامرة ، والماء يأتيها من جنوبها (184) من نهر كبير ، فينقسم في أعاليها (185) ويمر ما انقسم هناك من المياه فيخترق جميع أزقتها [وشوارعها] (186) وأكثر دورها ، وبين تاورة وبني زياد مدينتان صغيرتان إحداهما القصر ، وهي مدينة صغيرة في الطريق .

السوق القديمة :

ومن تاقرت إلى السوق القديمة على رميتي سهم ، وهذه المدينة بناها بعض أمراء المثلثين (187) وجعل لها سوراً حصيناً ، وبني بها قصرًا حسناً ، ولم تكن بها أسواق كثيرة ولا طائل تجارات ، وإنما كان ذلك الأمير يسكنها مع جملة (188) بني عمه ، والمدينة الأخرى في شرقي هذه المدينة ، وتعرف ببني عطوش ، وهي ديار متصلة ، وعمارات في بساتين لهم ، ولهم هناك أشجار وغللات وزيتون كثير وتين وأعنان وفواكه جمّة رخيصة في أسعارها ، وفي أسفل هذه المنازل قبيلة من مكناسة على مجرى الماء الذي يأتي من بني

(180) في نزهة المشتاق : « حلولهم بالمغرب » .

(181) في نزهة المشتاق : « بقعة » .

(182) في الأصول : « تاغورت » .

(183) عن مكناسة أنظر النص الكامل للادريسي نزهة المشتاق ص 76 - 77 .

(184) في الأصول : « جوانها » والمثبت من ن . م . ص 77 .

(185) في نزهة المشتاق : « أعلاها » .

(186) إضافة من ن . م .

(187) في نزهة المشتاق : « أمير من أمراء المثلثين » .

(188) في الأصول : « جملة » والمثبت من ن . م .

عَطُوش ، وتسمّى / [هذه القبيلة]⁽¹⁸⁹⁾ بنو بُرْئُوس ، وهي منازل وديار [لهم] وبها مزارع [23/ب] وكروم ، وعمارات وزيتون⁽¹⁹⁰⁾ ورُمّان وتين كثير ، وفواكههم تباع لكثرتها بالثمن اليسير. وفي شمال قصر أبي موسى سوق يقصد إليها في كل يوم خميس فيجتمع إليها جميع قبائل بني مكناس ، وهي سوق نافقة لما جلب إليها ، وهي تقصد من قريب وبعيد ، وتسمّى السوق القديمة.

ومن قبائل بني مكناس المجاورة لهذه البلاد بنو سعيد وبنو موسى ويسكنها من غير قبائل مكناسة بنو بسيل ومغيلة ، وبنو مصعود⁽¹⁹¹⁾ وبنو علي ووزياغل ودمّر وصبغاوة⁽¹⁹²⁾ ، وهي من أخصب البقاع أرضًا وأنماها زرعًا ، وأكثرها خيرًا ، وأنجبها نتائجًا ، وهم برابر يلبسون الأكسية ، ويربطون الكرازي على رؤوسهم.

قصر عبد الكريم :

ومن بلاد مكناسة في جهة الغرب⁽¹⁹³⁾ إلى قصر عبد الكريم ثلاث مراحل. ويسكن هذا القصر قوم من البربر يسمّون دنهاجة ، وهي مدينة صغيرة عامرة بأخلاط دنهاجة ، وهي على نهر أولكس⁽¹⁹⁴⁾ ويجري هذا النهر من جهة الجنوب وبينها وبين البحر نحو (من ثلاثة أميال)⁽¹⁹⁵⁾.

ومن قصر عبد الكريم إلى مدينة سلا [التي على البحر المالح]⁽¹⁹⁶⁾ مرحلتان من القصر إلى المعمورة ومن المعمورة إلى سلا. ونهر أولكس نهر كبير من أنهار الغرب المشهورة ، وتمتدّه أنهار كثيرة وعيون نابغة ، وعليه عمارات وقرى وديار.

عود إلى ذكر فاس :

ومدينة فاس قطب ومدار لمدين المغرب الأقصى ، ويسكن حولها قبائل من البربر ،

(189) إضافة من نزهة المشتاق للتأكيد.

(190) في نزهة المشتاق : «شجر زيتون كثيرة» ص 78.

(191) في الأصول : «مصعود» والمثبت من ن. م. ص 78.

(192) في الأصول : «صفارة» والمثبت من ن. م.

(193) في ت : «المغرب».

(194) في الأصول : «أولكش» والمثبت من ن. م. ص 78.

(195) كذا في ط ، وفي ت : «ثلاثة مراحل أميال» وفي نزهة المشتاق : «ثمانية أميال».

[24/أ] يتكلمون بالعربية ، وهم بنو يوسف وفندلاوة⁽¹⁹⁷⁾ وبهلل وزواوة ومجاصة / وصباية وسلاجون⁽¹⁹⁸⁾ ، ومدينة فاس حضرته الكبرى ، ومقصدها الأشهر ، وإليها تشدُّ الركائب وتقصّد القوافل ، ويحلب إلى حضرته كل غريبة من الثياب والبضائع والأمتعة الحسنة ، وأهلها مياسير ، ولها من كل شيء حسن أكبر نصيب ، وأوفر حظ . ومن مدينة فاس⁽¹⁹⁹⁾ إلى مدينة سبتة التي على بحر الزقاق شمالاً ، سبع مراحل .

الطريق من فاس إلى تلمسان :

ومن فاس إلى مدينة تلمسان تسع مراحل ، والطريق بينهما أن تخرج من فاس إلى نهر سبو⁽²⁰⁰⁾ وهو نهر عظيم يأتي من نواحي جبل القلعة لابن تواله⁽²⁰¹⁾ ، ويمرّ حتى يجاذي فاس من جهة شرقها وعلى ستة أميال منها ، وهناك يقع نهر فاس مع ما اجتمع معه من سائر العيون والأنهار الصغار ، وعليه قرى وعمارات .

ويمرُّ الطريق منه إلى نمالة⁽²⁰²⁾ مرحلة ، وهي قرية وعمارات على نهر لها يأتيها من جهة الجنوب يقال له وادي ايناون .

ومنها إلى كرائطة⁽²⁰³⁾ مرحلة ، وكانت فيما سلف من الزمن مدينة لها كروم كثيرة وفواكه ومزارع على السقي .

ومنها إلى باب زناتة نحو من عشرة أميال ، وهو واد عليه حرث يسقى به ، وبه أغنام وأبقار وزروع كثيرة تقرب من نهر ايناون⁽²⁰⁴⁾ .

ومنها إلى قلعة كرمطة مرحلة ، وبها سوق وزروع وضرع ، وهذه القلعة مطلة على نهر ايناون .

(196) إضافة من نزعة المشتاق للتدقيق .

(197) في الأصول : «قبلاوة» والمثبت من ن . م . ص 79 .

(198) كذا في ط ونزعة المشتاق ، وفي ت : «سلاجون» ، وفي ش : «سلاجون» .

(199) في الأصول : «سلا» والمثبت من ن . م . ص 79 .

(200) في الأصول : «سبو» والمثبت من ن . م .

(201) في الأصول : «بني نواله» والمثبت من ن . م .

(202) في الأصول : «نمالة» والمثبت من ن . م .

(203) في الأصول : «كرائطة» والمثبت من ن . م .

(204) في الأصول : «ايناون» والمثبت من ن . م .

ومن كرمطة في أسفل الجبل إلى مزاور⁽²⁰⁵⁾ وهي قلعة صغيرة أكثرها خلاء / مرحلة ، [24/ب] وبها القمح والشعير كثير.

ومنها إلى وادي مسون مرحلة ، والطريق عليه إلى⁽²⁰⁶⁾ تابريدا⁽²⁰⁷⁾ ، وهو حصن منيع على أكمة مطلة على وادي ملوية .

ووادي ملوئية يصل⁽²⁰⁸⁾ إلى وادي صاع فيجتمعان ويصُبَّان بالبحر ما بين جَراوة ابن قيس ومَلِكَلَة⁽²⁰⁹⁾ .

ومنها إلى صاع مرحلة ، وهي مدينة لطيفة على نهر كبير يشقُّ أرباضها ويخترق ديارها ، وقد أخربها المصامدة .

ومنها إلى جِراوة مرحلة ، وبين جِراوة والبحر ستة أميال ، وكانت عامرة .

ومنها إلى ترنانة⁽²¹⁰⁾ مرحلة ، وهي قلعة عليها حصن منيع ، ولها سوق عامرة ، وبها مياه كثيرة ، ولها جنَّات وكروم .

ومنها إلى العلويين مرحلة ، وهي قرية كبيرة على نهر يأتيا من القبلية ، وفواكهها فاضلة ، وخيراتها شاملة ، ومنها إلى تلمسان مرحلة لطيفة .

تلمسان :

وتلمسان مدينة قديمة⁽²¹¹⁾ ولها سور حصين ، متقن الوثاقفة ، وهي مدينتان في واحدة ، يفصل بينهما سور ، ولها نهر يأتيا من جبلها المسمَّى بالصخرتين ، وهذا الوادي يمر بشرقي المدينة ، وعليه أرحاء كثيرة ، وما جاورها من المزارع كلها (تسقى منه)⁽²¹²⁾ وغلاتها ومزارعها كثيرة ، وفواكهها جمّة ، وخيراتها شاملة ، ولحومها سمينة ، وبالجملة فهي حسنة لرخص أسعارها ونفاق أشغالها ، وريح تجارتها ، ولم يكن في بلاد المغرب

(205) في الأصول : «مزاور» والمثبت من ن . م . ص 79 .

(206) في نزهة المشتاق : «اليه على» والصواب ما أثبتنا .

(207) في الأصول : «تابوندا» والمثبت من ن . م . ص 80 .

(208) في نزهة المشتاق : «يقع» .

(209) في الأصول : «مليليا» والمثبت من ن . م .

(210) في الأصول : «بوقانة» والمثبت من ن . م .

(211) في نزهة المشتاق نجد مكانها : «أزلية» .

(212) في نزهة المشتاق نجد مكانها : «سقي» .

بعد مدينة أغمات [وفاس أكثر من أهلها أموالاً ولا أرفه منهم حالاً] (213).
وفاس أكبر من تلمسان / قطراً ، وأجلّ منها قدراً ، وأكثر خيراً ومالاً (214) وأعلى
همة في المباني ، واتخاذ الديار الحسنة ، وجبل الصخرتين معترض في قبلتها وفيه كروم
وأرجاء (215) في سفحه على ساقية كبيرة عذبة قوية ، تسمى ساقية النصراي ، وعليها
روابط ومتعبدات ومباني للصالحين (216) ، وجنّات عظيمة القدر ، وهناك عين تسمى
الفوّارة (217) ، ويصل ماؤها إلى المدينة .

وبقربة من المدينة عين مشهورة تسمى عين أم يحيى ، تدخل منها للمدينة ساقية
تصبّ في جاية في المدينة ، ومن هناك تنصرف للديار والسقايات والحمامات والخانات
وغير ذلك (218) .

وعلى جبل الصّخرتين حصن بناه المصامدة قبل أخذ تلمسان ، ولم يزلوا قاطنين به
إلى أن فتحوا تلمسان .

ومدينة تلمسان قبل بلاد المغرب ، وهي على طريق ، الداخل فيه والخارج منه فلا
بدّ له منها والاجتياز بها على كل حال .

الطريق من تلمسان إلى تنّس :

والطريق من تلمسان إلى مدينة تنّس سبع (219) مراحل ، تخرج من تلمسان إلى
قرية العلوين وهي قرية كبيرة عامرة على ضفة نهر ، ولهم بها جنّات ومياه جارية .
ومنها إلى قرية بابلوت مرحلة ، وهي قرية جلييلة كثيرة الأهل والعمارات على نهر
تسقى منه مزارع .

ومن بابلوت إلى قرية سي (220) التي على نهر مرغيت مرحلة ، وهي صغيرة (والعيون

(213) إضافة من نزهة المشتاق ليستقيم المعنى .

(214) بعدها كتب المؤلف : «ولا أرفه من أهلها حالاً» . أسقطناها عمداً رجوعاً للنص الإدريسي وتفادياً للغموض الذي سقط فيه المؤلف .

(215) كذا في ط ونزهة المشتاق ، وفي ت و ش : «أرجية» .

(216) كذا في نزهة المشتاق ، في الأصول : «الصالحين» . (217) في ت : «الفوارت» .

(218) عن مدينة فاس أنظر النص الكامل في نزهة المشتاق ص 80 - 81 .

(219) في الأصول : «تسع» والمثبت من ن . م .

(220) كذا في الأصول وفي نزهة المشتاق ، في نسخ أخرى من التزّهة : «مسي ، سني ، وسي» أنظر هامش نزهة المشتاق ص 82 .

والمياه بها تطرد⁽²²¹⁾ في كل وجهة.

ومنها إلى رحل الصفاصف مرحلة ، وهو رحل عامر آهل / على نهر يأتي من أفكان [25/ب] من جهة المشرق.

ومن الرحل إلى أفكان مرحلة ، وأفكان هذه مدينة (فيها أرحايات وحمّامات وخضر وفواكه كثيرة)⁽²²²⁾ وواديها يشقّها نصفين ، ويمضي منها إلى تاهرت .

ومنها إلى المعسكر مرحلة ، والمعسكر قرية عظيمة لها أنهار وثمار.

ومنها إلى جبل فرحان مارًا في أسفله إلى قرية عين الصفاصف ، وبها فواكه كثيرة وزروع ونعم دائرة ، مرحلة .

[ومنها]⁽²²³⁾ إلى مدينة يلل مرحلة ، ومدينة يلل بها عيون ومياه كثيرة ، وفواكه وزروع ، وبلادها جيدة للفلاحة ، وزروعها نامية .

ثم إلى مدينة غزة ، وهي مدينة صغيرة القدر ، مشهورة ، وبها حمّام وديار حسنة ولها مزارع .

ومنها إلى سوق ابراهيم مرحلة ، وهي على قدر غزة .

ومن سوق ابراهيم إلى بلدة التين⁽²²⁴⁾ مرحلة ، وهي بلدة صغيرة حسنة كثيرة شجر التين جدًّا ويعمل بها من التين شرائح مثل الطوب ، وبذلك تسمّى ، ويحمل منها إلى كثير من الأقطار.

تنسّ :

ومنها إلى مدينة تنسّ مرحلة ، وهي مدينة على مقربة من ضفة البحر الملح⁽²²⁵⁾ ، على ميلين منه ، وبعضها على جبل ، وقد أحاط بها سور ، وبعضها في سهل الأرض ، وهي قديمة سورها حصين ، وعليها حظائر مانعة دائرة بها ، وشرب أهلها من عين ، ولها في جهة المشرق وادٍ كثير الماء وشربهم منه في أيام الشتاء والربيع ، وبها فواكه وخصب واقلاع وحط ، ولها أقاليم وعمارات وأعمال وزروع⁽²²⁶⁾ ، وبها الحنطة رخيصة⁽²²⁷⁾

(221) في نزهة المشتاق : «والعيون بها والمياه تطرد» .

(222) في نزهة المشتاق : «كانت لها ارحاء وحمّامات وقصور ، وفواكه كثيرة» .

(223) إضافة من ن . م .

(224) في نزهة المشتاق : «باجة» .

(225) في نزهة المشتاق : «مزارع» .

(226) في نزهة المشتاق : «المالح» والثبت من ن . م .

(227) في نزهة المشتاق : «ممكنة جدًّا» .

جدًا ، وسائر الحبوب موجودة وتخرج منها إلى سائر الآفاق في المراكب ، وبها من الفواكه كل طريفة ، ومن السفرجل الطيب ما يفوت الوصف / . [أ/26]

وهران :

والطريق من تلمسان إلى وهران الساحلية مرحلتان كبيرتان ، وقيل ثلاث مراحل ، وذلك بأن تخرج من تلمسان إلى وادي وارو مرحلة ، (ومنها)⁽²²⁸⁾ إلى قرية تانيت مرحلة ، (ومنها إلى وهران)⁽²²⁹⁾ .

وهران على مقربة من ضفة البحر ، وعليها سور من تراب متقن ، وبها أسواق مقدرة وصنائع كثيرة وتجارات نافقة ، وهي تقابل مدينة المرية من ساحل بر الأندلس ، وسعة البحر بينهما مجريان . ومنها أكثر ميرة أهل ساحل الأندلس . ولها على بابها مرسى صغير لا يستر شيئاً⁽²³⁰⁾ .

وعلى ميلين منها المرسى الكبير ، وبه ترسي المراكب الكبار والسفن السفرية ، وهذا المرسى يستر من كل ريح ، وليس له مثال في سائر⁽²³¹⁾ حائط البحر من بلاد البربر . وشرب أهلها⁽²³²⁾ من وادٍ يجري إليها من البر ، وعليه بساتين وجنات ، وبه فواكه ممكنة ، وأهلها في خصب ، والعسل بها موجود ، وكذلك السمن والزبد⁽²³³⁾ والغنم والبقر بها رخيصة ، ومراكب الأندلس إليها مختلفة ، وفي أهلها دهقنة وعزة أنفس ونخوة ، (وكثيراً ما يتغلب عليها إفرنج الأندلس من أيدي المسلمين ثم يفتحها المسلمون منهم وساعة تاريخ الكتاب سنة 1207 سبع ومائتين وألف⁽²³⁴⁾ بأيدي المسلمين ، فتحها الأمير محمد باي⁽²³⁵⁾ أحد أمراء الجزائر سنة 1205⁽²³⁶⁾ خمس ومائتين وألف أثنائه الله

(228) في الأصول : «ومنه» والمثبت من ن . م .

(229) في الأصول : «ومنها إلى قرية تانيت ومنها إلى وهران مرحلة» ، والمثبت من ن . م .

(230) عن مدينة وهران أنظر النص الكامل في نزعة المشتاق ص 84 .

(231) في ن . م : «مراسي» .

(232) أي وهران .

(233) في الأصول : «الزيت» .

(234) 1792 م .

(235) خلال القرن الثامن عشر ، قامت عدة جهات وعروش من الجزائر على سلطة الدايات بانتفاضات استقلالية ، فحدث من سلطتهم وقد تمكن الداوي محمد بن عثمان (1766 - 1791) من اخماد بعضها وادخل تحت طاعته القبائل ومنطقة وهران التي انتفضت بزعامة أصحاب الطريقة الدرقاوية ، ربما بايعاز من مولاي سلطان

وتقبل عمله ، وهو رجل مسلم حسن الإسلام محبٌّ لأهل الخير وكل من ذكره ذكره بخير ، أدام الله بقاءه وأعانه على طاعته ، وأجرى / الصالحات على يديه ، ونصره على [26/ب] الكفرة أعداء الدين ، وحفظه ورعاه⁽²³⁷⁾.

المَسِيلَة :

ومن مدينة تَنَسُّ إلى المَسِيلَة من بلاد بني حمّاد بالغرب الأوسط ، وهي مدينة استحدثها علي بن الأندلسي في ولاية ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن⁽²³⁸⁾ بن علي ابن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - وهي عامرة في بسيط من الأرض ، ولها مزارع ممتدة ، ولأهلها سواثم خيل وأنعام ، ولها جَنّات وعيون وفواكه ، وبقول ولحوم ، ومزارع قطن وجبوب ، ويسكنها من البربر بنو بَرْزَال ، وبنو زَنْدَاح ، وهَوَّارَة⁽²³⁹⁾ ، وصدراة⁽²⁴⁰⁾ ، ومزاةة⁽²⁴¹⁾ ، وهذه المدينة عامرة بالتجارة وهي على نهر فيه ماء كثير منبسط على وجه الأرض ، وليس بالعميق ، وهو عذب ، وفيه سمك صغير ، عليه طرق حمر حسنة ، ولم يُرَ في معمور الأرض سمك على صفته ، وأهل المسيلة يفتخرون به ويكون مقداره من شبر فذُون وربما صيدَ منه الكثير ، فاحتمل منه إلى قلعة بني حمّاد ، وبينهما اثنا عشر ميلاً .

الطريق من وازلفن إلى مليانة :

فالطريق أن تخرج من تَنَسُّ إلى بني وازلفن مرحلة لطيفة في جبال وعرة شواهِق متصلة ، وهي قرية كبيرة لها كروم وجَنّات ذوات سوان لزراع البصل ، والحناء ، والكمُون ، ومعظمها على نهر شلف .

= فاس ، وصارت وهران منذ سنة 1792 مركز البليك الغربي أحد الولايات الثلاث التي كانت تتكون منها إيالة الجزائر. راجع على سبيل المثال شارل أ. جوليان (Ch. A. Julien) تاريخ شمال افريقيا (Histoire de l'Afrique du Nord) ، باريس 1961 ، 292/2 - 294 .

(236) 1790 .

(237) ما بين القوسين اضافة من المؤلف عمّا في نزعة المشتاق ، تتعلق بأحداث معاصرة له .

(238) في الأصول : «حسين» ، والمثبت من نزعة المشتاق ص 85 . ومن المعروف أن السلالة الادريسية حسينيون لا حسينيون ، ويُفهم من كلام البكري ، ص 59 ، أنها أسست في عهد أبي القاسم اسماعيل بن عبيد الله الفاطمي لا في عهد الأدارسة .

(239) كذا في ط ونزعة المشتاق وفي ت : «سورة» ص 86 .

(240) في ت : «صدارة» ، ص 86 . (241) في الأصول : «مزاةة» والمثبت من ن . م .

ومن تنسّ إلى شلف مرحلتان .

ومن بني وازلفن إلى الخضراء مرحلة ، وهي مدينة صغيرة حصينة على نهر صغير عليه عمارات متصلة وكروم ، وبها من السفرجل كل بديع ، ولها سوق وحمّام ، وسوقها / يجتمع إليه أهل تلك الناحية . [1/27]

مليانة :

ومن الخضراء إلى مدينة مِلْيَانَة مرحلة ، وهي قديمة البناء ، حسنة البقعة ، كريمة المزارع ، ولها نهر يسقي أكثر زروعها⁽²⁴²⁾ وحدائقها وجنّاتها ، وعليه أرحاء ، ولأقاليمها حظ من سقي نهر شلف وعلى ثلاثة أميال منها ، وفي جنوبها الجبل المسّمي بجبل وانشريس يسكنه قبائل من البربر منها مكناسة وحرسون⁽²⁴³⁾ وأوربة⁽²⁴⁴⁾ وبنو أبي خليل وكنامة ومطماطة وبنو مَلَيْت⁽²⁴⁵⁾ وبنو وارتجان⁽²⁴⁶⁾ وبنو أبي خليفة ويصلاتن⁽²⁴⁷⁾ وزولات وبنو واتمشوس⁽²⁴⁸⁾ وزواوة ونزار⁽²⁴⁹⁾ ومطقوره⁽²⁵⁰⁾ ووارترين⁽²⁵¹⁾ وبنو أبي بلال⁽²⁵²⁾ وايزكرو وبنو أبي حكيم وهوارة وطول هذا الجبل أربعة أيام وينتهي طرفه إلى قرب تاهرت⁽²⁵³⁾ .

الطريق من كَرْنَايَة إلى المسيلة :

ومن مدينة مليانة إلى كَرْنَايَة مرحلة ، وهو حصن قديم له مزارع وأسواق ، وهو على نهر شلف وله سوق يوم الجمعة⁽²⁵⁴⁾ ، يقصده بشر كثير .

(242) في نزهة المشتاق : «مزارعها» ، ص 85 .

(243) في بعض النسخ من نزهة المشتاق : «حوشون» ، أنظر هامش النزهة ص 85 .

(244) في الأصول : «وواربة» والمثبت من ن . م .

(245) في الأصول : «مليلة» والمثبت من ن . م .

(246) في الأصول : «والجان» والمثبت من ن . م .

(247) في الأصول : «يصلان» والمثبت من ن . م .

(248) في الأصول : «وبنو تموس» والمثبت من ن . م .

(249) في الأصول : «ونزار» والمثبت من ن . م .

(250) كذا في بعض نسخ ن . م . وفي غيرها : «مطفرة» .

(251) في الأصول : «وارتدين» والمثبت من ن . م .

(252) في الأصول : «بني هلال» والمثبت من ن . م .

(253) عن جبل وانشريس أنظر النص الكامل بنزهة المشتاق ص 85 .

(254) في الأصول : «وله سوق يوم في الجمعة» والمثبت من ن . م .

ومن سوق كزناية إلى قرية رِبْعَة⁽²⁵⁵⁾ مرحلة ، ولهذه القرية أرض مَسْعَة وحروث ممتدة ، وفواكه وبساتين ، ولها سوق حسنة تقصد في [يوم معلوم من]⁽²⁵⁶⁾ كل جمعة يباع بها⁽²⁵⁷⁾ ويشترى . (وبهذه القرية كروم ومزارع)⁽²⁵⁸⁾ وعيون مطردة . ومنها إلى ماورغة⁽²⁵⁹⁾ مرحلة وهي قرية حسنة . ومنها⁽²⁶⁰⁾ إلى مدينة نقاوس مرحلتان ، وهي مدينة صغيرة كثيرة الشجر والبساتين ، وأكثر فواكهها الجوز ، ومنها يتجهز به إلى ما جاورها من الأقطار ، وبها سوق قائمة ومعاش⁽²⁶¹⁾ كثيرة .

[27/ب]

ومن نقاوس إلى المسيلة أربع مراحل / وقيل ثلاث . ومن مدينة نقاوس إلى حصن بسكرة مرحلتان ، وهو حصن منيع في كدية تراب عال ، وبه سوق وعمارة ، وفيه من التمر كل غريبة وطريقة . ومنه إلى حصن ماوس ، وهو في أسفل جبل أوراس ثلاث مراحل ، وهو حسن عامر بأهله ، وكانت العرب تملك أرضه وتمنع أهله من الخروج منه إلا بخفارة رجل منهم ومنه إلى مدينة المسيلة أربعة أميال .

قلعة بني حمّاد وما جاورها :

(وفي الشرقي من قلعة بني حمّاد مدينة ميلة)⁽²⁶²⁾ على أربع مراحل منها ، وقلعة بني حمّاد من أكبر البلاد قطراً ، وأكثرها خلقاً ، وأغزرها خيراً ، وأوسعها أموالاً ، وأحسنها قصوراً ومساكن ، وأعمّها فواكه وخصباً ، وحنطتها رخيصة ، ولحومها طيبة ، وهي في سند جبل يسمى قاقريست⁽²⁶³⁾ ، وأعلى هذا الجبل متصل بيسيط من الأرض ، ومنه

(255) في الأصول : « رِبْعَة » والمثبت من ن . م .

(256) إضافة من نزهة المشتاق للتدقيق .

(257) في الأصول : « به » ، جرى المؤلف على تذكير ضائر السوق . وهي من الألفاظ المؤنثة في العربية ، ولعله مشى على المعروف في اللهجة الدارجة ، إذ أن السوق عندها مذكر .

(258) إضافة من المؤلف عما في نزهة المشتاق .

(259) في الأصول : « ماء ورغة » والمثبت من ن . م . ص 85 .

(260) تصرف المؤلف في نقله بالحدف وقد اختل عنده مرجع الضائر ، وفي نزهة المشتاق : « ومن مدينة طبة إلى مدينة نقاوس » ، فالضمير اذن لا يرجع إلى ماورغة التي سبق الكلام عنها .

(261) في الأصول : « معاش » والمثبت من ن . م . ص 94 .

(262) في الأصول : « وفي الشرقي من مدينة المسيلة قلعة بني حمّاد » والمثبت من ن . م . ص 94 .

(263) في الأصول : « قاقريست » والمثبت من ن . م . ص 86 .

ملك القلعة ، وبهذه القلعة⁽²⁶⁴⁾ عقارب سود كثيرة تقتل في الحال ، فيتحصن من ضررها بشرب نبات الفوليون الحرّاني ، وهو بتلك القلعة كثير ، فيزعمون أنه ينفع شرب درهمين منه لعام كامل⁽²⁶⁵⁾ فلا يصيب شاربها شيء من ألم تلك العقارب ، وأول من بنى هذه القلعة حمّاد⁽²⁶⁶⁾ بن بلقين وإليها تنسب دولة بني حمّاد ، وكانت قبل عمارة بجاية دار الملك لبني حمّاد ، وفيها كانت ذخائرهم وجميع أموالهم وسلاحهم ، وتبقى الخنطة بها إلى ستين ، وبها من الفواكه والنعم (شيء كثير)⁽²⁶⁷⁾ كله رخيص . [وبلادها وجميع ما ينضاف إليها]⁽²⁶⁸⁾ تصلح فيها السوائم لخصبها وإذا كثرت فلاحتها / أغنت وإذا قلت كفت ، وأهلها أبداً شباع ، وأحوالهم صالحة ، وهي متعلقة بجبل عظيم مطّل عليها ، وقد احتوى سورها المبني على جميع الجبل طولاً وعرضاً ، وفي جنوبها⁽²⁶⁹⁾ أرضٌ سهلة⁽²⁷⁰⁾ لا يرى الناظر فيها جبلاً عالياً ولا شارقاً إلا على بعيد⁽²⁷¹⁾ ، وعلى مسيرة أربع مراحل ترى جبالا لا تتبين أرضها .

ومن مدينة القلعة في جهة الشرق مدينة الغدير وبينهما ثمانية أميال .
وبين الغدير والمسيلة (اثنا عشر ميلاً)⁽²⁷²⁾ .

[وفي الشرقي من مدينة قلعة بني حمّاد مدينة ميلة]⁽²⁷³⁾ ومدينة ميلة⁽²⁷⁴⁾ حسنة كثيرة الأشجار والثمار ، ومحاسنها ظاهرة ومياها غدقة وأهلها من أخلاط البربر جملة ، وكانت في طاعة يحيى بن العزيز صاحب بجاية .

(264) في نزعة المشتاق : « المدينة » ،

(265) في الأصول : « قابل » والمثبت من ن . م .

(266) في الأصول : « حمد » ، والمعروف حماد بن بلقين بالقاف المقعدة كالجيم المصرية ولذلك تكتب بالقاف أو بالكاف .

(267) ما بين القوسين ساقط في ط وش .

(268) إضافة من نزعة المشتاق للتدقيق ص 86 .

(269) في نزعة المشتاق : « وأمامها في جهة الجنوب » .

(270) في الأصول : « سهلاً » .

(271) عن قلعة بني حماد أنظر النص الكامل في نزعة المشتاق ص 86 .

(272) في الأصول : « ثمانية عشر ميلاً » والمثبت من ن . م .

(273) إضافة من ن . م . للتوضيح إذ أن المؤلف خلط بين ميلة ومسيلة .

(274) في الأصول : « مسيلة » والمثبت من ن . م . ص 94 .

قسنطينة وما جاورها :

ومنها في الشرق إلى مدينة قُسْطِنَينَ الهَوَاء (275) ثمانية عشر ميلًا ، ويصل بينهما جبل ، والطريق به .

ومدينة قُسْطِنَينَ عامرة ، وبها أسواق وتجارَات (276) ، وأهلها مياسير ذووا أموال وأحوال واسعة ، ومعاملات للعرب ومشاركة في الحرث والادُّخار ، والحنطة تقيم بها في مطاميرها مائة سنة لا تفسد ، والعسل بها كثير وكذلك السمن ، يتجهَّز بهما إلى سائر البلاد .

وقسنطينة على قطعة جبل منقطع مُرَبَّع فيه بعض استدارة لا يتوصَّل إليه من مكان إلا من جهة باب في غربها ليس بكثير السعة ، وهناك مقابر أهلها حيث يدفنون موتاهم ، ومع المقابر أيضًا بناء قائم من بناء الروم الأوَّل ، وبه قصر قد تهدَّم كلُّه إلا قليل منه ، وبه دار ملعب من بناء الروم / شبيه بملعب ثرمة (277) من بلاد صقلية .

[28/ب]

وقسنطينة يحيط بها الوادي من جميع جهاتها كالعقد مستديرًا بها ، وليس للمدينة من داخلها سور يعلو أكثر من نصف قامة إلا من جهة القنطرة فإنه من أعجب البناءات (278) لأن علوَّها يشف على مائة ذراع [بالذراع] (279) الرشاشي ، وهي من بناء الروم قِسِيَّ [عُلِيَّا] (280) على قسي سُفلى ، وعددها في سعة الوادي خمس ، والماء يدخل على ثلاث منها ممَّا يلي جانب الغرب ، وهي كما وُصفت قوس على قوس ، والقوس الأولى يجري بها الماء أسفل الوادي (والقوس الأخرى) (281) فوقها وعلى ظهرها المشي والجواز إلى البر الثاني ، وبافي القوسين اللتين من جهة المدينة فإنما هما مفردتان عن الجبل ، وبين كل قوسين أرجل تدفع مضرة الماء ومصادرتة عند حمله بسيوله ، وعلى رقاب الأرجل قِسِيَّ فارغة كالبنات صغار ، فربَّما زاد الماء في بعض الأوقات عند سيله فعلا الأرجل ومَر في تلك الفرجات (282) ، وهي من أعجب ما رُئي من البناء .

(275) في الأصول : «الهوى» والثبت من ن . م .

(276) في نزعة المشتاق : «تجارة» .

(277) كذا في ط ونزعة المشتاق ، في ش : «تمرمة» ، وفي ت : ساقطة .

(278) حذف وتغير المعنى شيئًا ، والمخدوف هو : «وللمدينة بابان» .

(279) إضافة من ن . م . ص 95 .

(280) ساقطة في كل الأصول .

(281) في الأصول : «والقوس القصوا الجبل» والثبت من ن . م . 95 .

(282) كذا في ش ونزعة المشتاق ، في ت : «الفرنصات» وفي ط : «الفرضات» .

وليس في المدينة كلها دار كبيرة ولا صغيرة إلا وعتبة بابها حجر واحد ، وكذلك جميع عضادات الأبواب فمنها ما يكون من حجرين ومنها ما يكون من أربعة أحجار ، وبنائها من التراب ، وأرضها كلها حجر صلد ، وفي كل دار منها مطمورتان وثلاث وأربع منقورة في الحجر ، ولذلك تبقى بها الحنطة لبرودتها واعتدال هوائها ، وواديها يأتي من جهة الجنوب فيحيط بها من غربها ويمر شرقاً مع دائر / المدينة ويستدير في جهة الشمال إلى أن يصب في البحر في غربي وادي سهر . [29/أ]

وقسطنطينة من أحصن بلاد الله ، وهي مطلة على فحوص متصلة بها ، ولها مزارع الحنطة والشعير ممتدة في جميع جهاتها ، ولها في داخل المدينة ومع سورها (283) مستقى يستقون منه ويتصرفون في أوقات حصارها ممن يطرقهم . وبين قسطنطينة وباغاي (284) ثلاث مراحل ، وبين قسطنطينة وبجاية ستة أيام ، أربعة منها إلى جيجل .

ومن جيجل إلى بجاية خمسون ميلاً ، وكذلك من قسطنطينة إلى أبرس خمس مراحل (285) .

ومنها إلى بجاية أربع مراحل .

ومنها إلى قلعة بشر يومان .

ومنها إلى تيفاش يومان كبيران .

ومنها إلى قالمة يومان كبيران .

ومنها إلى القصرين ثلاثة أيام .

ومنها إلى دور مدين ستة أيام .

ومنها إلى مرسى القلّ يومان [في أرض العرب] (286) .

والطريق من قسطنطينة إلى بجاية ؛ من قسطنطينة إلى النهر إلى فحوص فارة إلى قرية بني خلف إلى حصن كلديس .

(283) في الأصول : « أسواقها » والمثبت من ن . د . م . ص 96 .

(284) في الأصول : « وباغية » والمثبت من ن . د . م ، وفي المسالك والممالك للبكري ص 50 - 51 وفي كتاب العبر لابن خلدون : « وباغاية » .

(285) عن قسطنطينة أنظر النص الكامل في ن . د . م . ص 95 - 96 .

(286) إضافة من ن . د . م .

وحصن كلديس منيع جدًا ، ومنه لقسنطينة عشرون ميلاً وليس بينهما جبل ولا خندق ، وكلديس على جرف مطل على نهر قسنطينة .

جبل سحاو:

ومن حصن كلديس إلى جبل سحاو ثمانية أميال ، وهو من أعظم الجبال علوًا وأسماها ارتقاء وأصعبها مسلكًا وعلى أعلاه حصن ، ويصعد إلى أعلاه نحو من خمسة أميال ، ويسار في أعلاه أيضًا نحو من ثلاثة أميال ، وينحدر منه إلى أسفل واد هناك / [29/ب] يسمى وادي شال ، ويمرّ معه إلى سوق يوسف وهي قرية في سند جبل ممتنع السلوك اثنا عشر ميلاً ، وهو جبل تخترقه مياه عذبة .

سوق بني زندي:

ومنه إلى سوق بني زندي⁽²⁸⁷⁾ وهو حصن في بسيط من الأرض قليل الحصانة ، وهي سوق لها يوم في الجمعة ، وأهل تلك الناحية يقصدونها في ذلك اليوم ، وهذه القبيلة تعمّر تلك الجهات ، ولهم منعة وتحصن ، وهم أهل خلاف وقيام بعض على بعض ، والجبايات التي يلتزمونها لا يؤدونها إلا بعد نزول الخيل والرّجال عليهم في تلك النواحي . ومن عوائدهم التي هم عليها⁽²⁸⁸⁾ أن صغيرهم وكبيرهم لا يمشي من موضع إلى غيره إلا وهو شاكي السلاح .

جيجل:

ومن هذا الحصن إلى تالة وهو حصن خراب ، وبه المنزل [ومنه]⁽²⁸⁹⁾ إلى المغارة إلى ساحل البحر [إلى مسجد بهلول ، إلى المزارع]⁽²⁹⁰⁾ إلى مدينة جيجل ، وهي مدينة على ضفة البحر ، والبحر يحيط بها ، ولها ريف . ومن⁽²⁹¹⁾ مدينة جيجل إلى طرف مزغيطن إلى جزائر العافية إلى فج الزرور ، إلى

(287) في الأصول: «بني يزيد» والمثبت من ن. م .

(288) في ت: «عليها الآن» .

(289) ساقطة من الأصول ، عن بني زندي أنظر نزّه المشتاق ص 97 .

(290) إضافة من ن. م. ص 97 .

(291) تصرف في النقل بحذف كل ما له صلة باحتلال رجار لها ، وحياة السكان بعد الاحتلال ومتوجاتها الفلاحية أيضًا ، والمؤلف سيحذف أيضًا فيما بعد كل ما يتعلق برجار الترماني ربما لشدة كراهيته له .

حصن المنصورة⁽²⁹²⁾ على البحر إلى مَنُوسَة ، وهي قرية عامرة وبها معدن⁽²⁹³⁾ الجص ومنها يحمل إلى بحاية ، وبينهما اثنا عشر ميلاً ، وكذلك من جيجل إلى بحاية الناصرية خمسون ميلاً .

ومدينة جيجل لها مرسيان ، مرسى منهما في جنوبها وهو مرسى وعر ، والدخول إليه صعب لا يدخل إلا بخير⁽²⁹⁴⁾ حاذق / ومرسى من جهة الشمال ، ويسمى مرسى الشعراء ، وهو ساكن الحركة كالخوض ، يحسن الإرساء به ، لكنه لا يحتمل الكثير من المراكب لصغره ، وهو رمل⁽²⁹⁵⁾ .

ومن جيجل إلى مدينة القُلّ سبعون ميلاً . والقُلّ قرية عامرة وهي مرسى وعليه عمارات ، والجبال تكتنفها من جهة البر .

مدن أخرى :

ومن القُلّ إلى قسنطينة مرحلتان جنوباً ، وعلى مقربة من بحاية إلى جهة الجنوب حصن سطيف وبينهما مرحلتان ، وهو حصن كبير القطر كثير الخلق كالمدينة ، كثير المياه والشجر والفواكه ، ومنه يحمل الجوز لكثرتة به إلى سائر الأقطار ، وهو بالغ الطيب . ومنه إلى أشير زيري مرحلتان ، وهو حصن حسن البقعة ، كثير المنافع ، وله سوق يوم معروف يجلب إليه كل طريفة ، ويبيع به كل لطيفة . ومنه إلى تامزكيدة مرحلة ، ثم إلى المسيلة مرحلتان . والطريق من مدينة تلمسان إلى مدينة المسيلة⁽²⁹⁶⁾ . ومن تلمسان إلى مدينة تاهرت أربع مراحل . وتخرج من تلمسان إلى تادرة ، وهي قرية في حضيض جبل فيه عين ماء خَرَّارة مرحلة .

ومنها إلى قرية نَدَّاي مرحلة ، وهي قرية صغيرة في فحص أفيج ، بها بئران مَعِينان .

(292) كذا في ن . م . وفي ط وش ، في ت : « المنصورة » .

(293) في نزهة المشتاق : « معادن » .

(294) في نزهة المشتاق : « دليل » .

(295) عن جيجل أنظر النص الكامل في نزهة المشتاق ص 98 .

(296) رجع المؤلف إلى الوراق بحيث أن صنّعه يومهم أن الكلام متصل ببعضه خلافاً للواقع ، لأن الكلام عن جيجل والقُلّ وسطيف وقع ص 97 - 98 من نزهة المشتاق ، والكلام عن أشير ص 85 - 86 . والكلام عن تلمسان وتادرة ونداي في ص 87 - 88 . وهذا الصنيع يتعب المحقق وربما يوقع في الغلط .

ومنها إلى مدينة تاهرت⁽²⁹⁷⁾ مرحلتان ، وبين تاهرت والبحر أربع مراحل . وتاهرت كانت فيما سلف من الزمن مدينتين كبيرتين [إحداهما]⁽²⁹⁸⁾ قديمة [والأخرى]⁽²⁹⁹⁾ محدثة ، والقديمة عامرة ولها مزارع وضياع / جمعة ، وبها من نتاج الخيل والبراذين كل [30/ب] حسن . والبقر والغنم كثير جدًا ، وكذا السمن والعسل . وجميع غلاتها كثيرة ، وبها مياه متدفقة ، وعيون جارية ، تدخل أكثر ديارهم ، ويتصرفون بها ، وعلى هذه المياه بساتين وأشجار تحمل ضروريًا من الفاكهة الحسنة ، وبالجملة فهي بقعة حسنة .
ومن تاهرت إلى قرية أعبر مرحلة .

[ومنها إلى قرية دارست مرحلة]⁽³⁰⁰⁾ وهي قرية صغيرة على نهر صغير جدًا وزروعها كثيرة ومواسيها عامة .

ومنها إلى مدينة ماما⁽³⁰¹⁾ مرحلتان ، وهي مدينة صغيرة لها سور تراب وأكثره طوب ، ولها بما استدار بسورها⁽³⁰²⁾ خندق محفور ، ولها واد عذب عليه مزارع وغللات ، واصابتها في الحنطة كثيرة .

ومن مدينة ماما إلى قرية ابن مخبر⁽³⁰³⁾ مرحلة ، وهي قرية كثيرة الزرع ، عذبة المياه ، وشربهم من العيون وسكانها زناتة .
ومنها إلى أشير زيري مرحلة .

ومن أشير زيري إلى قرية سطيت⁽³⁰⁴⁾ مرحلة ، وبها عين ماء جارية .
ومنها إلى قرية هاز⁽³⁰⁵⁾ في فحص رمل مرحلة ، وبها (عيون ومياه)⁽³⁰⁶⁾ وقد خربت .

ومنها إلى المسيلة مرحلة .

(297) في الأصول : «زارة» والمثبت من ن . م . ص 87 .

(298) اضافة من نزهة المشتاق للتدقيق .

(299) اضافة من نزهة المشتاق للتدقيق .

(300) اضافة من نزهة المشتاق ليستقيم المعنى اذ يحذف قرية دارست يختل مرجع الضمائر ، ص 87 .

(301) في الأصول : «ملها» والمثبت من ن . م .

(302) في الأصول : «بسوقها» والمثبت من ن . م .

(303) كذا في بعض نسخ ن . م . وفي غيرها : «ابن مخبر» .

(304) في الأصول : «سعيد» والمثبت من ن . م .

(305) في الأصول : «كهان» والمثبت من ن . م .

(306) في نزهة المشتاق : «مياه عيون» .

وبين مدينة تلمسان وتاهرت تسكن قبائل من بني مرين⁽³⁰⁷⁾ وزيري وورثيد⁽³⁰⁸⁾ وماني⁽³⁰⁹⁾ وأومانوا وسنجاسة ، وغمرة ، ويلومان⁽³¹⁰⁾ ، وورماكسين ، وتجين⁽³¹¹⁾ وورثيفان⁽³¹²⁾ ، ومغراوة ، وبني راشد ، وتطلاس ، ومنان⁽³¹³⁾ ، وزقارة ، وكل هذه القبائل / بطون زناتة ، وهم أصحاب هذه الفحوص ، وهم قوم رحالة ظواعن ينتجعون من مكان إلى غيره لكنهم متحضرون ، وأكثر زناتة فرسان يركبون الخيل ، ولهم عادة لا تؤمن ، ولهم معرفة بارعة وحذق وكياسة ، ويد جيدة في علم الكف ، ولا يدري أحد من الأمم أعلم من زناتة بعلم الكف ، وهم منسوبون إلى جانا بن ضريس ، وهو جالوت [الذي قتله داود - عليه السلام -]⁽³¹⁴⁾ ، فجانا أبو زناتة كلها حسبما مرّ.

ولنرجع إلى [ذكر]⁽³¹⁵⁾ وهران فنقول⁽³¹⁶⁾ : منها إلى مدينة تنس مجريان ، وهما من الأميال مائتا ميل وأربعة أميال (كل مجرى مائة ميل وميلان)⁽³¹⁷⁾.

ومن مدينة تنس (إلى برشك على الساحل ستة وستون ميلاً.

ومن مدينة تنس)⁽³¹⁸⁾ إلى مليانة في البر مرحلتان.

وبين مليانة وتاهرت ثلاث مراحل ، ومدينة برشك مدينة صغيرة على تلّ ، وعليها سور تراب ، وهي على ضفة البحر⁽³¹⁹⁾ ، وشرب أهلها من عيون ، وماؤها عذب وبها فواكه وجمل مزارع وحنطة كثيرة وشعير.

ومنها إلى شرشال عشرون ميلاً ، ويصل بينهما جبل منيع تسكنه قبيلة من البربر تسمى ربيعة ، ومدينة شرشال صغيرة القدر ، وأهلها كلهم متحضرون ، وبها مياه جارية وآبار عذبة ، وبها فواكه حسنة كثيرة ، وبها كروم وبعض [شجر]⁽³²⁰⁾ تين وما دار بها

(307) في الأصول : «مدین» والمثبت من ن. م.

(308) في الأصول : «ووتیل» والمثبت من ن. م. ص 88.

(309) في الأصول : «وماوي» والمثبت من ن. م.

(310) في ط : «تعلومان» ، وفي ش : «تلوحان» والمثبت من ن. م.

(311) في الأصول : «تجن» والمثبت من ن. م.

(312) في الأصول : «ورسفان» والمثبت من ن. م.

(313) في الأصول : «بنان» والمثبت من ن. م.

(314) اضافة من نزهة المشتاق للتوضيح.

(315) اضافة من نزهة المشتاق.

(316) يقول لكن على لسان الادريسي بتصريف ، النقل هنا يبدأ من ص 88.

(317) اضافة من المؤلف.

(318) ما بين القوسين ساقط من ت و ط.

(319) أسقط المؤلف ما يتعلق باحتلال رجار لها.

(320) اضافة من ن. م.

من السكان فهم بوايدٍ لهم مواشيٍ وغنم كثيرة / والنخل والعسل عندهم كثير، وأكثر [31/ب] أموالهم الماشية.

ومن شرشال إلى جزائر بني مزغنا سبعون ميلاً⁽³²¹⁾.

الجزائر:

ومدينة الجزائر على ضفة البحر، وشرب أهلها من عيون عذبة على البحر، ومن آبار، وهي عامرة أهلة، وتجاراتها رابحة، وأسواقها قائمة، وصناعاتها نافقة، ولها بادية كبيرة، وجبال فيها قبائل من البربر، وزراعتها الحنطة والشعير، وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم، ويتخذون النحل، فكثرت عندهم السمن والعسل فيتجهز بهما إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم، وأهلها قبائل، ولهم حرمة مانعة، هذا ما وصفها به في النزهة⁽³²²⁾.

وأقول⁽³²³⁾: إن مدينة الجزائر -أدامها الله تعالى للإسلام، وأيد عساكرها بالنصر⁽³²⁴⁾ على أعداء الدين - ليس في بلاد المغرب زمن التاريخ أنكى منها للكفار، فهي حصن المغرب الحصين وقفله المتين منذ دخلتها العساكر العثمانية المنصورة المحمية، ولقد قصده أعداء الدين مراراً فهزمهم الله⁽³²⁵⁾، وكبتهم وقهرهم حتى رمى طاغيتهم تاجه عن رأسه وحرّم لبسه فدل⁽³²⁶⁾ على استمرار نحسه، وآخر خروجهم أواخر مائتين وألف⁽³²⁷⁾ فيما لا يحصى عدّه من المراكب والعدد. واستعانوا بجميع أجناسهم، واستلّفوا

(321) عن شرشال أنظر النص الكامل في ن. م. ص 89.

(322) ص 89.

(323) إضافة من المؤلف عما هو موجود بترهه المشتاق.

(324) ساقطة في ت.

(325) بعدها في ت: «وهزم».

(326) في ت: «وحرّم لبس يدل»، وهو تحريف من الناسخ.

(327) 1785. إن تهقر الايالة الجزائرية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر أدى بالدول الأوربية إلى محاولة فرض نفوذها عليها، ومن المحاولات ما قامت به اسبانيا عن طريق دون انجلو (Don Angelo Barcelo) محاولتان حريتان فاشلتان في أوت 1783 وجويلية 1784 وكانتا امتداداً لمحاولة اورابي (O. Reilly) التي فشلت رغم كثرة العساكر (25000 عسكري) التي أنزلها قرب حراش في جويلية من سنة 1775، وانتهت المناورات الحربية الاسبانية بامضاء عقد صلح سنة 1785 بين الجزائر واسبانيا لصالح الجزائر. وعمود مقديش سيتكلم عن هذه الأحداث القريبة منه بشيء من الفخر، راجع على سبيل المثال ش. جوليان، تاريخ شمال افريقيا 2/297.

[32/أ]

من بعضهم قناطر الأموال ، واستمدوا بالخيول والمال والرجال / طمعاً في أخذ الجزائر لا ظفروهم الله لظنهم أنهم إذا غلبوا عليها فقد انحلَّ قفل المغرب واستولوا على جميعه ، قطع الله آمالهم ولا ظفروهم إلا باللعة والخزي والهوان وسوء المقلب والخسران. فلما وصلوا نزلوا ليلاً ، ونصبوا حصوناً وأسواراً من أخشاب⁽³²⁸⁾ وحديد تمشي على وجه الأرض بأشغال أحكموها بمكرهم وكيدهم ، فدفعوا ذلك على عربات فشى وهم من خلفه ، فجعلوا يرمون المسلمين بالنيران وأنواع الصواعق والمدافع بشيء خارج عن الطاقة ، فتوجهوا نحو المدينة وعساكر المسلمين ، فلما رأى المسلمون مكر الكفرة جعلوا لهم أسواراً من الإبل ، فأكثرها منها وقدموها بين أيديهم ، وضربوا من خلفها بالطبول والبوقات ، وركبوا الخيول ، وزنقوا الإبل ، فتوجهت نحو العدو ، فصار ضرب العدو في الإبل وسلم المسلمون ، ثم دفعوا الإبل على الكفرة⁽³²⁹⁾ فرفضتهم أسوارهم ، ووقعت الهزيمة على الكفار ، وجاء للمسلمين النصر⁽³³⁰⁾ ، فغنم المسلمون ما حصل بالبر من العدو ، ولم ينج منهم إلا من أشرع قلاعه بالمراكب ، وفرُّوا منهزمين. وفي السنة الثانية⁽³³¹⁾ رجعوا بأكثر ممَّا تقدم ولكن يشسوا من نزول البر ، وعملوا حيلة ثانية وهي الإفساد وهم في البحر بأن أنشأوا أجفاناً وجعلوا فيها المدافع والبونة ، وطمعوا أن يرموا على المدينة وحصونها وعساكر الإسلام ليطحنوه ويحرقوه / بالنار فركب المسلمون في مثل ما قدموا من الأجفان ، وأرهقوه عسكراً وعاجلوهم بالرمي فاشتغلوا بأنفسهم ففرق منهم جمع وهلك آخرون ، فلبثوا غير ساعة حتى جاء النصر ووقع على الكفرة اللثام⁽³³²⁾ الهزيمة والكسر فولَّوا⁽³³³⁾ مدبرين وتفصيل هاتين الواقعتين ممَّا يعد من أكبر غزوات المسلمين. ولما أعيت الكفرة الحيلة ورد الله كيدهم في نحرهم فأخذتهم القهرة والدلة ، وكثر نهب المسلمين لمراكبهم وقطعوا عليهم أسفارهم بالبحر ، وطلبوا السلم يبذل أموالهم للمسلمين ليأمنوا في أسفارهم ولتتاروا ويطمثوا في أنفسهم ، فأبى المسلمون عليهم ذلك ، فجعلوا يلتجئون ويستغيثون بسلاطين الإسلام وبأولي الجاه من المسلمين حتى صالحوهم على ذلة الكفر وعزة

[32/ب]

(328) في ت : «خشب».

(329) في ت وط : «الكفرة اللثام».

(330) في ت : «النصر والظفر».

(331) في سنة 1784 كما ذكرنا.

(332) ساقطة من ت.

(333) بعدها في ت : «جميع اللثام منهزمين» ، وظاهر أنها زيادة من النسخ لا في الجملة من نقل.

الإسلام⁽³³⁴⁾ ، امتثالاً لقوله علت كلمته : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾⁽³³⁵⁾ وبالجمللة فالجزائر ساعة التاريخ فريدة الدنيا ووحيدة العصر في صغر الجرم ، وقوة النكاية في الكفر ، مع شدة الحزم لا يماثلها في ذلك غيرها . فهي قامعة لجميع أنواع الكفار مع كثرتها ﴿كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾⁽³³⁶⁾ وفي الجزائر من أسارى النصارى ما يعجز اللسان عن احصائه وذلك كله / فضل من الله أفاضه عليها منذ دخلتها العساكر العثمانية - زادها الله عزاً ونصراً - ، وأمدهم الله وجميع عساكر الإسلام بالنصر والتأييد وروح منه ، إنه عزيز حكيم . وتفصيل أحوال الجزائر وفتوحاتها ومغازيها وغنائمها وجملة أحوالها مفرد بالتأليف ، وإنما المعنى ببرقة⁽³³⁷⁾ من سحائب فضائلها ليدعو المؤمن لهم بالنصر على أعداء الدين وقبول العمل وحسن الجزاء يوم الدين .

تَامَدُفُوس :

ولنرجع إلى ما نحن بصده فنقول⁽³³⁸⁾ : من الجزائر إلى تَامَدُفُوس شرقاً ثمانية عشر ميلاً ، وتَامَدُفُوس مرسى حسن ، عليه مدينة حصينة صغيرة خراب ، وبها بقايا بناء قديم وهيكل وأصنام وحجارة ويذكر أنها كانت من أعظم البلاد قدراً⁽³³⁹⁾ وأوسعها قطراً .

مرسى الدجاج :

ومن تَامَدُفُوس إلى مرسى الدجاج عشرون ميلاً ، ومدينة مرسى الدجاج كبيرة القطر لها حصن دائر بها وبها⁽³⁴⁰⁾ مرسى مأمون ومزارع متصلة ، وإصابة أهلها في زراعتهم واسعة ، وفيها من جميع الفواكه واللحوم أشياء كثيرة ، تباع بالثمن اليسير ، والتين يحمل منها مثوراً وشرايح إلى سائر الأقطار ، وأقاصي المداين والأمصار ، وهي بذلك مشهورة .

(334) وقع الصلح بين الجزائر والأسبان لصالح الجزائر كما ذكره مقديش سنة 1785 .

(335) سورة الأنفال : 61 .

(336) سورة البقرة : 249 .

(337) من البرق ويعني بها بسرعة خاطفة .

(338) يرجع للنقل من نزهة المشتاق يتصرف كعادته فيما سبق . ص 89 .

(339) في نزهة المشتاق : «كبرا» .

(340) تصرف في النقل بالحذف ، والمحذوف يكشف عن قلة سكانها .

تدلس :

ومن مرسى الدجاج إلى مدينة تدلس أربعة وعشرون ميلاً ، وهي على شرف متحصنة ، لها سور حصين ، وديار ومنتزهات ، وبها من رخص الفواكه والأسعار ما لا يوجد / بغيرها مثله ، ويقرها وأغنامها كثيرة تباع بثمن رخيص ، وتخرج من أرضها إلى كثير من الأراضي والآفاق⁽³⁴¹⁾ . [ب/33]

بجاية :

ومن تدلس إلى مدينة بجاية في البر سبعون ميلاً ، وفي البحر تسعون ميلاً ، ومدينة بجاية على البحر فوق جرف حجر ، ولها من جهة الشمال جبل يسمى مسيون⁽³⁴²⁾ ، وهو سامي العلو ، صعب المرتقى ، وفي أكنافه جمل من النبات المنتفع به في صناعة الطب مثل شجر الحوض⁽³⁴³⁾ والسقُولُوفندوريون⁽³⁴⁴⁾ والبرباريس⁽³⁴⁵⁾ والقنطوريون⁽³⁴⁶⁾ الكبير والزراوند⁽³⁴⁷⁾ والقسطون⁽³⁴⁸⁾ والأفستين⁽³⁴⁹⁾ وغير ذلك من الحشائش .

(341) عن تامدغوس ، ومرسى الدجاج ، وتدلس أنظر النص الكامل في نزهة المشتاق ص 89 - 90 .

(342) في الأصول : «ميون» والمثبت من ن . م . ص 90 .

(343) ومن الأسماء التي ذكرها ابن البيطار «عرقده» وهو الاسم المعروف به في الجزائر ويسمى أيضاً حضاض الجن ، حضض ، حضيض ، أنظر إحياء التذكرة لرمزي مفتاح ، القاهرة 1372/1953 ص 463 ، ويسمى الخولان بمصر ، نفس المرجع ص 252 ، ويسمى بتونس الخولان المكي (حل الرموز خط ، لتونسي مجهول) ص 62 أعارنيه شيخنا العلامة المرحوم محمد المصيري ومزئة هذا الكتاب أنه يذكر الحشائش باللهجة التونسية . (م . محفوظ) .

(344) كذا في ن . م . وش . في ط و ت : «اسقُولُوقيدوريون» وفي تذكرة الأنطاكي «سقولوقندريون» بالواو والتون وقد يدلان بياء . والأول يسمى كف النسر وكف الضبع (التذكرة 178/1) ويسمى بتونس سوط الخيل ، ويسمى بالجريد النشر شانة ، ويسمى عند بعضهم وول الماء . راجع حل الرموز ص 100 .

(345) البربارس أو الأمير بارس وهو نبات شائك ، يعرف في العطار المصرية باسم القشرة ، وثماره حامضة عنبة يصنع منها نبيذاً . راجع إحياء التذكرة ص 104 وفي تونس يعرف بإسمين الصوة . حل الرموز ص 19 ، التذكرة 53/1 .

(346) بالفرنسية «La grande Centaurée» والقنطوريون أصناف كثيرة تقارب الثلاثين ومنه نوع في تونس يسمى أرجيقن أو أرجيقنة ، ويستعمل للصبغة باللون الأصفر . راجع إحياء التذكرة ص 521 - 523 . والقنطوريون الكبير يسمى بتونس جناح الغراب ، وقصة الحية ، وبالاسم الأخير يعرف في الجزائر راجع حل الرموز ص 41 ، وكشف الرموز لعبد الراق بن أحمدوش الجزائر 1347/1928 ، ص 137 - 138 .

(347) هو البيرالة ، الزراوند الطويل بلغة إفريقية . بطرس السطاني . محيط المحيط 63/1 . وانظر عنه أيضاً إحياء التذكرة ص 533 والتذكرة 162/1 ويسمى في تونس بوزردوم والترياق ، راجع حل الرموز ص 92 .

(348) في الأصول : «الأقسط» ، والمثبت من الادريسي ص 90 . لم نثر على هذا الاسم في كتب الحشائش ولعله قسوس .

وفي هذا الجبل كثير من العقارب صفر اللون ، إلا أن ضررها قليل .

ومدينة بجاية كانت مدينة الغرب الأوسط وعين بلاد بني حمّاد ، والسفن إليها مقلعة ، وبها القوافل وإليها منحة ، والأمتعة إليها برًا وبحرًا مجلوبة ، والبضائع بها نافقة ، وأهلها مياسير تجار ، وبها من الصناعات والصنائع ما ليس بكثير من البلاد ، وأهلها يجاسون تجار الغرب الأقصى ، وتجار الصحراء وتجار المشرق ، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة ، ولها بوادٍ ومزارع ، والشعير والحنطة بها كثير ، والتين وسائر الفواكه بها ما يكفي لكثير البلاد وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل للقتال ، ولإنشاء السفن الحاملة ، والمراكب النقلة ، لأن الخشب في جبالها⁽³⁵⁰⁾ وأوديتها كثير موجود ، ويحب إليها من أقاليها / الرّفّ البالغ الجودة والقطران ، وبها معادن الحديد الطيب ، [أ/34] موجودة ممكنة ، وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة وعلى بعد ميل منها نهر يأتيها من جهة المغرب من نحو جبال جرّجرة ، وهو نهر عظيم يجتاز عند فم البحر [المراكب]⁽³⁵¹⁾ وكلّمًا بعد عن البحر كان ماؤه قليلًا فيجوزه كل من شاء في كل موضع (منه وقد انمحي في هذه الأعصار أكثر معالمها ، واندرس جل مفاخرها وانتقل جميع مآثرها لمدينة الجزائر ، فهي اليوم الجامعة لجميع ما ذكر لبجاية وزيادة فوق ذلك)⁽³⁵²⁾ وبجاية قطب لكثير من البلاد وذلك (من)⁽³⁵³⁾ بجاية إلى أيكيجان⁽³⁵⁴⁾ يوم وبعضه .

ومن بجاية إلى بلزّمة مرحلتان وبعض .

ومن بجاية إلى سطيف يومان .

وبين بجاية وباغية ثمانية أيام .

وبين بجاية وقلعة بشر خمسة أيام . وهي من أعمال⁽³⁵⁵⁾ بسكرة .

وبين بجاية وتيفاش ست مراحل .

(349) هو شجرة مريم في تونس والجزائر والمغرب الأقصى : العجوز . أنظر كشف الرموز ص 26 ، وحل الرموز ص 119 ، والتذكرة 47/1 ويسمى باللغة العربية الخرف بالألمانية فرموت . وبالفرنسية «absinthe» وبالانكليزية «worwood» راجع احياء التذكرة ص 96 .

(350) في الأصول : «واديها» والمثبت من ن . م . ص 91 .

(351) اضافة من ن . م . للتدقيق . ص 91 .

(352) اضافة من المؤلف عما هو موجود بترجمة المشتاق .

(353) كذا في ش و ط وترهه المشتاق . وفي ت : «... أن بجاية بينها وبين أريخان...» .

(354) في الأصول : «أريخان» والمثبت من ن . م .

(355) في ن . م : «عمالة» .

وبين بجاية وقالة ثماني مراحل .
 وبين بجاية وتبسة ستة أيام .
 وبين دورمدين وبجاية إحدى عشرة مرحلة .
 وبين بجاية والقصرين ستة أيام .
 وبين بجاية وطبنة⁽³⁵⁶⁾ سبع مراحل .
 وأصل عمارة بجاية في ذاتها كان بخراب قلعة حمّاد .

الطريق من بجاية إلى القلعة :

والطريق من بجاية إلى القلعة : تخرج من بجاية إلى المضيق إلى سوق الأحد⁽³⁵⁷⁾ إلى وادي وهت إلى حصن تاكلات وبه المنزل ، وهو حصن منيع على شرف مطل على جبل بجاية / وبه سوق دائمة وبه فواكه ولحوم كثيرة رخيصة ، وبحصن تاكلات قصور حسان وبساتين وجنّات كانت ليحيى بن العزيز صاحبها . ومن حصن تاكلات إلى تادرت⁽³⁵⁸⁾ إلى سوق الخميس إلى حصن بكر ، وبه المنزل .

وحصن بكر حصين (وله مزارع)⁽³⁵⁹⁾ ممتدة ، والوادي الكبير يجري مع أصلها ويحتويها ، وفيه سوق وبيع وشراء .

ومن حصن بكر إلى حصن وأرفو ويسمى أيضاً وافو إلى القصر ، وهو قرية ، وهناك تترك وادي بجاية غرباً وتمرّ في الجنوب إلى حصن الحديد مرحلة إلى الشعراء⁽³⁶⁰⁾ إلى قصر بني تراكش⁽³⁶¹⁾ إلى تاورّت ، وهي قرية كبيرة عامرة على نهر ملح⁽³⁶²⁾ ، وبها المنزل ، وشرب أهلها من عيون محتفزة ببطن وادٍ يأتيها من جهة المشرق ، وهذا الوادي لا ماء به . ومن تاورّت إلى الباب وهي جبال يخترق بينها الوادي الملح . وهناك مضيق وموضع مخيف .

(356) في الأصول : «طنبة» والمثبت من ن . م . ص 91 .

(357) في الأصول : «سوق الأربع» والمثبت من الادريسي ص 92 .

(358) في الأصول «تادركت» والمثبت من نزهة المشتاق ، تادرت ولعله بالقاف المعقدة كالجم المصرية لأن الكاف والقاف في هذه الحالة كثيراً ما يتعاقبان .

(359) في نزهة المشتاق : «مراع» .

(360) في الأصول : «الشعر» والمثبت من ن . م . ص 92 .

(361) في الأصول : «بني برانس» والمثبت من ن . م . ص 92 .

(362) في الأصول : «مالح» والمثبت من ن . م .

ومنه إلى السقائف ، وهو حصن ، ثم إلى حصن الناظور إلى سوق الخميس ، وبه المتزل .

وهذه الأرض كلها تجولها العرب وتضر بأهلها . وسوق الخميس حصن في أعلى جبل وبه مياه جارية ، ولا تقدر العرب عليه أبدًا لمنعته ، وبه من المزارع والمنافع⁽³⁶³⁾ قليل .

ومنه إلى الطماطة⁽³⁶⁴⁾ وهو فحوص⁽³⁶⁵⁾ في أعلى جبل .

ومنه إلى سوق الاثنين ، وبه المتزل / وهو قصر حصين ، والعرب محدقة بأرضه ، [أ/35] وفيه رجال يحرسونه مع سائر أهله .

ومنه إلى حصن تافلكانت⁽³⁶⁶⁾ وهو حصن حصين إلى تازكا ، وهو حصن صغير . ومنه إلى قصر عطية ، وهو حصن على أعلى جبل ، ثم إلى حصن القلعة مرحلة . وجميع هذه الحصون أهلها مع العرب في مهادنة ، وربما أضرَّ بعضهم ببعض ، غير أن أيدي الأجناد بها مقبوضة ، وأيدي العرب مطلقة⁽³⁶⁷⁾ في الإضرار ، وموجب ذلك أن العرب لها دية مقتولها ، وليس عليها دية فيمن تقتل .

ومدن أخرى :

ومن المسيلة إلى طنبنة مرحلتان ، وطبنة مدينة الزَّاب وهي مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين والزُّروع والقطن والحنطة والشَّعير ، وعليها سور من تراب ، وأهلها أخلاط ، وبها صنائع وتجارات ، وأموال أهلها مُتصرِّفة في ضروب من التجارات ، والثَّمر بها كثير وكذلك سائر الفواكه .

ثم تخرج من المسيلة إلى مقرة⁽³⁶⁸⁾ مرحلة ، وهي مدينة صغيرة ، وبها مزارع وحبوب ، وأهلها يزرعون الكتَّان ، وهو عندهم كثير . ومن مقرة إلى طبنة ومدينة بجاية ست مراحل .

(363) في ت : « المنفعة » .

(364) في الأصول : « مطماطة » والمثبت من ن . م . ص 93 .

(365) في الأصول : « حصن » والمثبت من ن . م . ص 93 .

(366) في الأصول : « تافلكانت » والمثبت من ن . م .

(367) كذا في نزهة المشتاق وفي ش و ط ، وفي ت : « بها مطلوقة » .

(368) في الأصول : « مقرة » والمثبت من ن . م .

وكذلك من طبنة إلى باغاية⁽³⁶⁹⁾ أربع مراحل .

ومن طبنة شرقاً إلى دار ملؤل مرحلة كبيرة ، وكانت فيما سلف من الدهر مدينة عامرة ، وأسواقها / قائمة ، ولها مزارع وغللات جمّة ، وفيها حصن مطلق فيه مرصد من البلد ، ينظر إلى محال العرب في بلادهم ويتطلع منه إلى ما بعد من الأرض ، وشربهم من ماء عيون بها جارية ، وبين دار ملؤل ونقاوس ثلاث مراحل ، وجبل أوراس منها على مرحلة وزايد . [35/ب]

ومن دار ملؤل إلى القلعة ثلاث مراحل .

وجبل أوراس (قطعة يقال إنها متصلة من جبل درن بالمغرب كالأم مخني الأطراف)⁽³⁷⁰⁾ وطوله نحو من اثني عشر ميلاً ، ومياهه كثيرة ، وعماراته متسعة [وفي أهله نخوة وتسلسط على من جاورهم من الناس]⁽³⁷¹⁾ .

وبين سطيف وقسنطينة أربع مراحل ، وبقرب سطيف جبل به قبائل كتامة ، وبه حصن حصين ومعقل منبع ، وكان سابقاً من عمالة بني حمّاد ، ويتصل بطرفه من جهة المغرب جبل يسمّى جلالة ، وبينه وبين بجاية مرحلة ونصف .
وقبيلة كتامة تمتدّ عمارتها إلى أن تتجاوز أرض القل وبونة⁽³⁷²⁾ .

بلزمة :

وبمقرية من قسنطينة حصن يسمّى بلزمة ، وبينهما يومان ، وهو حصن لطيف ، وفي أهله عزة ومنعة ، وله ربض وسوق ، وبه آبار طيبة ، وماؤه غدق ، وهو في وسط فحوص أفيج ، وبنائوه بالحجارة الكبار القديمة ، ويذكر أهل تلك الناحية أنه من أيام المسيح - عليه السلام - وهذا السور يراه الراؤون من خارج عاليًا ، والمدينة في ذاتها مردومة بالتراب والأحجار ، فإذا نظر الناظر / من خارج رأى سوراً كاملاً ، وإذا دخل المدينة لم يجد سوراً لأن أرض الحصن متساوية لشرفات السور ، وهذا غريب في البناء . [36/أ]

(369) في الأصول : «باغاية» والمثبت من معجم البلدان 325/2 والمسالك والممالك للبكري ص 50 وكتبا الادريسي «باغاي» .

(370) كذا في ش و ن . م . وفي ت و ط : «يقال أنه قطعة من جبل درن المغرب وهي كالأم منحنية الاطراف» .

(371) اضافة من نزهة المشتاق هامة للتعرف على سكان جبل أوراس .

(372) حذف المؤلف ما يتعلق بقبيلة كتامة ، وهو نصف صفحة تقريباً ولعله حذفه لأن فيه من عاداتهم ما يخل بالمروءة والآداب .

حصن بشر:

وأما حصن بشر فهو قلعة عامرة من أعمال بسكرة ، وهو في ذاته حصن جليل ومعقل جميل ، وله عمارات ، وبينه وبين بحاية أربعة أيام ، وهو إلى قسنطينة أقرب ، وبينهما يومان⁽³⁷³⁾ . وقد ذكرنا من صفات البلاد وغرائب البقاع التي تضمنها هذا الباب ما فيه كفاية .

فلنرجع إلى ذكر سواحل ما تضمنه ، وأجوانه ، ومراسيه ، فنبدأ من فم الزقاق داخلاً في البحر الشامي مع ذكر مبادئ البحر المحيط من فم الزقاق ، ونعرض عن باقيه غير ما تقدمت الإشارة إليه وذلك لأن الحاجة ماسة كثيراً إلى مراسي البحر الشامي أكثر من مراسي المحيط⁽³⁷⁴⁾ .

سبتة:

فنعول⁽³⁷⁵⁾ : والابتداء من سبتة ، قد تقدم أن سبتة تقابل الجزيرة الخضراء ، وهي سبعة جبال صغار متصلة ، طولها من المشرق إلى المغرب نحو ميل ، ويتصل بها من جهة المغرب وعلى ميلين [منها]⁽³⁷⁶⁾ جبل موسى بن نصير فاتح الأندلس في صدر الإسلام ، سمي به لتزوله به عند إرادته عبور الأندلس ، (وتجاه هذا الجبل)⁽³⁷⁷⁾ جنات وبساتين ، وأشجار وفواكه كثيرة ، وقصب سكر ، وأترج ، فيتجهز به إلى ما جاور سبتة من البلاد لكثرة الفواكه بها ، ويسمى / هذا المكان الجامع لهذا كله بليونش⁽³⁷⁸⁾ وبهذا [36/ب] الموضع مياه جارية ، وعيون مطردة ، وخصب زائد ، وبلي المدينة من جهة المشرق جبل عال ، يسمى جبل المينة⁽³⁷⁹⁾ ، وأعلاه بسيط ، وبأعلاه سور بناه محمد بن أبي عامر عندما جاز إليها من الأندلس وأراد أن ينقل المدينة إلى أعلى الجبل فأتى عند فراغه من بناء السور وعجز أهل سبتة عن الانتقال إلى هذه المدينة المسماة بالمينة فكثروا في مدينتهم وبقيت المينة خالية ، وإنما سميت سبتة بهذا الاسم لأنها جزيرة منقطعة ، والسبت

(373) في نزهة المشتاق : «مرحلتان» .

(374) نقل بالمعنى : ص 99 .

(375) يقول لكن على لسان الادريسي بتصرف ، النقل هنا يبدأ من ص 166 .

(376) اضافة من نزهة المشتاق للتدقيق ص 167 .

(377) في نزهة المشتاق : «تجاوره» .

(378) في الأصول : «بليونش» والمثبت من ن . م . ص 167 .

(379) في الأصول : «المينة» والمثبت من ن . م . والبكري ص 66 .

القطع ، لإحاطة البحر بها من جميع جهاتها ، إلا من جهة المغرب فإن البحر يكاد يلتقي بعضه ببعض ، ولم يبق بينهما إلا أقل من رمية سهم .
واسم البحر الذي يليها شمالاً «بحر الزقاق» ، واسم البحر الذي يليها من الجنوب «بحر بسول» ، وهو مرسى حسن يرسى به فيمكن من كل ريح .

الجزر والمدن والمراسي والمواقع الساحلية من سبتة إلى بونة :

ومن مدينة سبتة إلى قصر مصمودة في جهة المغرب اثنا عشر ميلاً .

ومن قصر مصمودة إلى مدينة طنجة غرباً عشرون ميلاً .

ومن مدينة طنجة ينعطف البحر المحيط آخذاً في جهة الجنوب إلى أرض تشمش (380) .

[ومن تشمش إلى] (381) قصر عبد الكريم وهو على مقربة من البحر ، وبينه وبين طنجة يومان .

ومن مدينة طنجة إلى مدينة أزيلا مرحلة [خفيفة جداً] (382) / وعلى مقربة منها في طريق القصر مصب نهر سقّدد (383) وهو كبير تدخله المراكب (384) .

ومن سبتة بين جنوب وشرق إلى حصن تطاون مرحلة ، وبينه وبين البحر الشامي خمسة أميال وتسكنه قبيلة من البربر تسمى بحكسة (385) .

ومنه إلى أنزلان وهو مرسى عامر ، وهو أول بلاد غمارة .

وبين سبتة وفاس على طريق زجان ثمانية أيام (386) .

ومن تيقساس إلى قصر تازكا خمسة عشر ميلاً (وله مرسى .

ومنه إلى حصن مسيطاسة نصف يوم .

ومن مسيطاسة إلى حصن كركال خمسة عشر ميلاً (387) .

(380) في الأصول : «تشمش» والمثبت من ن . م .

(381) ساقطة من الأصول والاضافة من نزهة المشتاق للتدقيق .

(382) ساقطة من الأصول والاضافة من نزهة المشتاق للتدقيق .

(383) في الأصول : «صفرده» والمثبت من ن . م . ص 169 .

(384) حذف المؤلف ما يتعلق بالنهر ، والبصرة ، ومدينة قرت ، وقرية ماسة ومدينة الحجر ، أنظر نزهة المشتاق ص 169 - 170 .

(385) في الأصول : «حككة» والمثبت من ن . م . ص 170 .

(386) حذف المؤلف ما يتعلق ببلاد غمارة وأهلها أنظر ص 170 . (387) ما بين القوسين ساقط من ش .

ومن مدينة بادس⁽³⁸⁸⁾ إلى مرسى بوزكور عشرون ميلاً.
 وبين بوزكور ومدينة بادس جبل مُتَّصل يعرف بالأجراف ، ليس فيه مرسى .
 ومن بوزكور⁽³⁸⁹⁾ إلى المزمة عشرون ميلاً.
 ومن المزمة إلى وادٍ بقرها ، ومنه إلى طرف تغلال اثنا عشر ميلاً.
 وهذا الطرف يخرج في البحر كثيراً ، ومنه إلى مرسى كرت عشرون ميلاً ، وبشرقي
 كرت وادٍ يأتي من جهة صاع .
 ومن كرت إلى جهة⁽³⁹⁰⁾ جون داخل في البحر عشرون ميلاً.
 ومن كرت إلى مدينة مليلة⁽³⁹¹⁾ في البحر اثنا عشر ميلاً وفي البر عشرون ميلاً⁽³⁹²⁾ .
 ومن مليلة إلى مصبّ الوادي الذي يأتي من آقرسيف⁽³⁹³⁾ عشرون ميلاً ، وأما
 مصبّ هذا الوادي⁽³⁹⁴⁾ جزيرة صغيرة ، ويقابل هذا الموضع من البرية مدينة
 جراوة⁽³⁹⁵⁾ .
 ومن مصبّ وادي آقرسيف إلى مرسى تافركنيت⁽³⁹⁶⁾ ، على البحر ، وعليه حصن
 منيع صغير أربعون ميلاً .
 ومن تافركنيت إلى حصن تاجريت⁽³⁹⁷⁾ / ثمانية أميال ، وهو حصن حصين ، [37/ب :
 حسن أهل ، وله مرسى مقصود .
 ومن تاجريت إلى هنين⁽³⁹⁸⁾] على البحر أحد عشر ميلاً .
 ومن هنين⁽³⁹⁹⁾ على الساحل إلى مرسى الوردانية ستة أميال .

-
- (388) حذف المؤلف ما يتعلق بمدينة بادس ، أنظر ن . م . ص 171 .
 (389) حذف ما يتعلق ببوزكور ، أنظر ن . م . ص 171 .
 (390) في نزهة المشتاق : «طرف» .
 (391) في الأصول : «مليليا» والمثبت من ن . م . ص 171 .
 (392) حذف المؤلف ما يتعلق بمليلة ، أنظر ن . م . ص 171 .
 (393) في الأصول : «أكريسيف» والمثبت من ن . م . ص 172 . ولعل القاف معقدة كالجيم المصرية . إذ كثيراً ما
 يتعاقب هذان الحرفان .
 (394) في نزهة المشتاق : «النهر» .
 (395) في الأصول : «جزاوة» والمثبت من ن . م . ص 172 .
 (396) في الأصول : «تافركنيت» والمثبت من ن . م . ص 172 .
 (397) في الأصول : «تاجريت» والمثبت من ن . م .
 (398) في الأصول : «هنينا» والمثبت من ن . م . بعدها حذف المؤلف عدة جمل تتعلق بندرومة فاختلف المعنى .
 (399) ما بين الحاصرتين إضافة من نزهة المشتاق ليستقيم الربط والمعنى ص 172 .

ومنها إلى جزيرة القشقار⁽⁴⁰⁰⁾ ثمانية أميال ، ومنها إلى جزيرة أرشقول⁽⁴⁰¹⁾ [ويروى أرجكون]⁽⁴⁰²⁾ ومرساها فيه مياه ومواجهل كثيرة للمراكب .

ومن مصبّ الوادي إلى حصن أسلان ستة أميال على البحر .
ومنه إلى طرف خارج في البحر عشرون ميلاً ، ويقابل هذا الطرف في البحر جزيرة الغنم .

وبين جزيرة الغنم وآسلان اثنا عشر ميلاً .

ومن جزيرة الغنم إلى بني وزّار⁽⁴⁰³⁾ سبعة عشر ميلاً ، وبنو وزّار حصن منيع في جبل على البحر .

ومنه إلى الدفالي ، وهو طرف خارج في البحر اثنا عشر ميلاً .

ومن طرف الدفالي إلى طرف الحرشا اثنا عشر ميلاً .

ومنه إلى وهران اثنا عشر ميلاً .

ومن وهران⁽⁴⁰⁴⁾ إلى طرف مشانة روسية ، خمسة وعشرون ميلاً ، وعلى التقوير اثنان وثلاثون ميلاً .

ومن طرف مشانة إلى مرسى أرزاو⁽⁴⁰⁵⁾ ثمانية عشر ميلاً ، وهي قرية كبيرة تجلب إليها الحنطة فيسير بها التجّار إلى كثير من البلاد .

ومنها إلى مُستغانم على البحر مع الجون ، وهي مدينة صغيرة لها أسواق وحمّامات وبساتين وجنّات ومياه كثيرة ، وسور على جبل مطل إلى ناحية المغرب ، وهذا الجون تقويره أربعة وثلاثون ميلاً ، وروسية أربعة وعشرون / ميلاً .

[1/38]

ومن مستغانم إلى حوض فروج تقويراً أربعة وعشرون ميلاً ، وروسية خمسة عشر ميلاً . وهو مرسى حسن وعليه قرية عامرة ، ويلي حوض فروج في البحر ومع الشرق مدينة مازونة ، على ستة أميال من البحر . وهي مدينة (بين أجبل في أسفلها)⁽⁴⁰⁶⁾ مزارع

(400) في الأصول : « قشقال » والثبت من ن . م . ص 172 .

(401) في الأصول : « أشكول » والثبت من ن . م . ص 172 .

(402) إضافة من نزهة المشتاق للتدقيق .

(403) في الأصول : « والزّان » والثبت من ن . م .

(404) يرجع إلى الورا ليتقل إلى سواحل المغرب الأوسط ، راجع ابتداء من ص 100 .

(405) كذا في ط ونزهة المشتاق ، وفي ش وت : « أرزلو » .

(406) ساقطة في ت وفي مكانها : « كبيرة لها » .

ويساتين ، وأنهار وأسواق عامرة ، ومساكن مونة ، ولسوقها يوم معلوم في الشهر وبها أصناف من البربر ولها ضروب من الفواكه والألبان ، والسمن والعسل بها كثير ، وهي من أحسن البلاد بقعة⁽⁴⁰⁷⁾ ، وأكثرها فواكه ، وأرخصها .

ومن حوض فروج إلى طرف البحر تقويراً أربعة وعشرون ميلاً ، وفي البر اثنا عشر ميلاً ، ومن هذا الطرف تأخذ جوناً إلى جهة الجنوب .

فن هذا الطرف مع الجون إلى جزائر الحمام ، أربعة وعشرون ميلاً تقويراً وثمانية عشر روسية .

ومن جزائر الحمام إلى مصبّ وادي شلف اثنان وعشرون ميلاً .

ومنه إلى قلع الفراتين في وسط الجون اثنا عشر ميلاً ، والقلوع جباه بيض .

ومن القلوع إلى مدينة تنس اثنا عشر ميلاً مع الجون .

ومنها إلى طرف الجون ستة أميال ، فذلك من طرف جوج إلى طرف الجون تقويراً ستة وستون ميلاً وروسية أربعون ميلاً .

ومن الطرف إلى مرسى أمتكوا عشرة أميال .

ومن أمتكوا طالعا في الجون إلى مرسى وقور تقويراً أربعون ميلاً . / وروسية ثلاثون [38/ب] ميلاً ، وهو مرسى ضيق يستر من الريح الشرقية ولا يستر من غيرها ، ووقور في آخر الجون .

ومن وقور إلى مدينة برشك عشرون ميلاً .

وشرشال على البحر متصل بجبل كبير منبع يسكنه قوم من البربر يسمون ربيعة كما تقدّم .

ومن شرشال إلى طرف البطال وهو خارج في البحر اثنا عشر ميلاً ، ويقابل هذا الطرف جزيرة صغيرة في البحر .

ومن طرف البطال ابتداء (جون هور)⁽⁴⁰⁸⁾ ، وهذا الجون يقطع روسية بأربعين ميلاً وتقويره بستين ميلاً ، وهور⁽⁴⁰⁹⁾ قرية صغيرة في وسط الجون على بعد من البحر ، وبها قوم صيادون للحوت ومكانه أقصار لا يسقط فيه أحد ويتخلص منه البتة .
ومن آخر جون هور إلى جزائر بني مزغنا ثمانية عشر ميلاً .

(407) في نزهة المشتاق : «صفة» .

(408) في الأصول : «سون» والمثبت من ن . م . ص 101 .

(409) في الأصول : «هور» والمثبت من ن . م .

ومنها إلى تامدفوس ثمانية عشر ميلاً ، وهو مرسى ، وعليه عمارات ومزارع متصلة .
 ومنه إلى مرسى الدجاج⁽⁴¹⁰⁾ عشرون ميلاً .
 ومنه إلى طرف بني جناد ، وهو أيضاً يدخل في البحر اثنا عشر ميلاً .
 ومن مدينة تدلس إلى طرف بني عبد الله أربعة وعشرون ميلاً تقويراً ، وروسية
 عشرون ميلاً .
 ومن طرف بني عبد الله إلى جون زفون⁽⁴¹¹⁾ [روسية عشرون ميلاً وتقويراً ثلاثون
 ميلاً .
 ومن زفون]⁽⁴¹²⁾ إلى الدهس⁽⁴¹³⁾ الكبير تقويراً ثلاثون ميلاً ، وروسية خمسة
 وعشرون ميلاً ، ومنه إلى الدهس الصغير ثمانية أميال / . [أ/39]
 ومن الدهس إلى طرف جربة⁽⁴¹⁴⁾ خمسة أميال وهي مزارع كثيرة .
 ومن طرف جوبة⁽⁴¹⁵⁾ إلى مدينة بجاية في البر ثمانية أميال ، وفي البحر اثنا عشر
 ميلاً ، ومدينة بجاية في جون ينظر إلى الشرق .
 ومن مدينة بجاية إلى متوسة اثنا عشر ميلاً على التقوير ، وروسية ثمانية أميال .
 ومن متوسة إلى المنصورية في وسط الجون على التقوير عشرة أميال .
 ومن المنصورية إلى فج الزرور اثنا عشر ميلاً ، ومنه إلى مزغيطن ، وهو طرف
 خارج في البحر أحد عشر ميلاً .
 ومن مزغيطن إلى مدينة جيجل خمسة أميال .
 ومن متوسة إلى فج الزرور روسية خمسة وعشرون ميلاً .
 ومن فج الزرور إلى جيجل على التقوير عشرون ميلاً .
 ومن جيجل إلى وادي القصب عشرون ميلاً ، وهناك مسقط وادٍ يأتي من ظهر ميلة
 مع الجنوب .

(410) في ت : «الرجاج» وكذلك في نسخ أخرى من ن . م . أنظر هامش ص 102 .

(411) في الأصول : «أرفون» والمثبت من ن . م . ص 102 .

(412) ساقطة من ت .

(413) في الأصول : «الدميس» والمثبت من ن . م . ص 102 .

(414) كذا في البيان المغرب للبكري ص 19 ، وفي ن . م . ص 102 وفي معجم البلدان لياقوت : «جربة» . 118/2

وقال عنها : «قرية من قرى المغرب» .

(415) في الأصول : «ومن طرف جوبة وهي مزارع كثيرة» ، والمثبت من نزهة المشتاق . ويقتضيه السياق أيضاً اذ
 قدم الناسخ كلمات وأخر أخرى أنظر ن . م . ص 102 .

ومن وادي القصب إلى مرسى الزُّيتونة⁽⁴¹⁶⁾ على التقوير ثلاثون ميلاً وروسية عشرون ميلاً ، ومرسى الزيتونة أول [جبال الرحمان ، وهي]⁽⁴¹⁷⁾ جبال عالية مشرفة على البحر. ومنها إلى القلّ ، وبها ديار وأناس ساكنون. ومن القلّ إلى مرسى أستورة⁽⁴¹⁸⁾ عشرون ميلاً. ومن أستورة إلى مرسى الروم ثلاثون ميلاً تقويراً وروسية ثمانية عشر ميلاً. ومن مرسى الروم إلى تكوش ثمانية عشر ميلاً ، وهي رابطة ، وبها قوم ساكنون. ومنها إلى رأس الحمراء ثمانية عشر ميلاً. ومن رأس الحمراء إلى بونة في قاع الجون / ستة أميال ، وسندكر بونة فيما بعد [39/ب] - إن شاء الله تعالى - ، فمن بجاية إلى بونة روسية مائتا ميل⁽⁴¹⁹⁾.

(416) في الأصول : «الزيتون» والمثبت من ن. م. ص 102.

(417) إضافة من نزهة المشتاق للتدقيق.

(418) في الأصول : «ستورة» والمثبت من ن. م. والبكري ، ص 83.

(419) هنا ينتهي الجزء الأول من الاقليم الثالث من ترتيب الادريسي والباب الثاني من ترتيب المؤلف.

الباب الثالث :

في الكلام على بقية الغرب الأوسط⁽¹⁾ وجميع الغرب الأدنى

وفيه من المدن والقلاع⁽²⁾ والحصون وأجناس الأمم ما نذكر - إن شاء الله تعالى - .
فمن المدن باغاية⁽³⁾ ، ومِسْكِيَانَة ، ومِحَانَة ، وباجة ، وبونة ، ومرسى الخرز ،
وبنزرت ، والأربُس ، وقَسْطَلِيَّة ، وتَقْيُوس ، وزَرُود ، وسيبلة ، وقفصة ، والحمة⁽⁴⁾ ،
وتونس ، وقرطاجنة ، وقلبيية ، وهرقلية⁽⁵⁾ ، والقيروان ، وصبرة ، وسوسة ، والمهدية ،
وصفاقس ، وقابس ، ورغوغا ، وطرابلس ، ولبنة مع ما سيذكر بعد - إن شاء الله
تعالى -⁽⁶⁾ .

باغاية :

فأما مدينة باغاية⁽³⁾ ، فهي كبيرة عليها سوران من حجر ، وربض عليه سور ،
وكانت به الأسواق ، خلي الربض ، ونقل السوق إلى المدينة ، وهي أول بلاد التمر ولها وادٍ
يجري إليها من جهة الجنوب ، منه شربهم ومن آبار عذبة ، وكانت لها بواذٍ وقرى ،
وعمارها برابر يعاملون العرب ، وأكثر غلاتهم الحنطة والشعير ، ويتصل بها قريئاً جبل
أوراس ، وطوله نحو من إثني عشر يوماً⁽⁷⁾ وأهله مسلطون على من جاورهم .
ومن باغاية⁽³⁾ إلى قسنطينة ثلاث مراحل .
ومن باغاية⁽³⁾ إلى طينة الزاب أربع مراحل .

(1) في تزهة المشتاق : الجزء الثاني من الأقليم الثالث ، ص 103 .

(2) في الأصول : « قلع » .

(3) في الأصول : « باغاية » وفي ن . م . « باغاي » . والتصويب من كتاب العبر ومعجم البلدان 325/1 . والبكري في المسالك ص 50 - 51 . والروض المعطار . ويصح باغاي وباغاية .

(4) كتبها : « حامة » وكتبها حمة فيما بعد طبقاً للتزهة .

(5) في الأصول : « وهريغاية » والمثبت من ن . م .

(6) بالنسبة لتزهة المشتاق أسقط المؤلف « قودة » ، ومراجنة ، وييلقان ، ونفطة » ، وزاد عليها سيبلة وقرطاجنة .

(7) في الأصول : « ميلا » والمثبت من ن . م .

توزر:

[40/أ] ومن باغاية إلى مدينة قسطلية أربع مراحل وهي تسمى توزر ولها سور حصين / وبها نخل كثير جدًا ، وتمرها يعم بلاد إفريقية ، وبها أترج كثير ، حسن طيب مع كثرة ، فواكهة حسنة في نهاية الجودة ، وماؤها غير طيب ولا مُرّو⁽⁸⁾ ، وسعر الطعام بها غال في أكثر الأوقات لأنه يجلب إليها ، ولا يزرع بها من الحنطة والشعير إلا اليسير. وبقرها بين جنوب وشرق الحمّة بينهما مرحلة صغيرة (وقد يقال حمّة البهاليل احترازًا من حمّة مطاطة)⁽⁹⁾ وماء الحمّة غير طيب لكنه مشروب قنع به أهلها (ونخلها كثير وتمرها غزير)⁽¹⁰⁾.

ومنها إلى تقيوس نحو من عشرين ميلاً ، وهي مدينة حسنة عامرة ، لها غلات الحنّاء والكمون والكروياء ، وبها نخل وتمر حسن ، وجملة بقول طيبة ناعمة.

قفصة:

ومن تقيوس إلى قفصة مرحلة ، وقفصة مدينة حسنة (كانت)⁽¹¹⁾ ذات سور (حصين) فهدمه أبو فارس الحفصي ثم أعادوه من تراب يتحصنون به من أعدائها)⁽¹²⁾ ، ولها نهر جار أطيب من ماء قسطلية ، وفي وسطها العين المسماة بالطرميد⁽¹³⁾ ، وأسواقها عامرة ، ومتاجرها كثيرة ، وصناعتها قاعة ، ويطيف بها نخل كثير يشتمل على ضروب من التمر العجيب ، وبها جنّات وبساتين ، وقصور قاعة معمورة ، وبها بزر الحنّاء والكمون والقطن.

الطرق من قفصة إلى ما جاورها:

ومن مدينة قفصة إلى جهة الغرب ومع الجنوب مدينة قاصرة ، ومدينة نقاوس ، ومدينة / جمونس⁽¹³⁾ في الشرق منها ، وهذه البلاد كلها تتقارب في صفاتها ، ونخلها ، ومياهها ، وغلاتها ، والحنطة بها أبدًا قليلة لأنها تُجلب إليها من غيرها ، ومدينة قفصة مركز والبلاد بها دائرة.

(8) في بعض النسخ من ن. م. : «مُر» ، ص 104.

(9) إضافة من المؤلف عما هو موجود بنزعة المشتاق أراد بها الدقة.

(10) إضافة أخرى من المؤلف.

(11) إضافة من المؤلف لها بعد تاريخي.

(12) في الأصول : «الطرميل» واللبث من ن. م. ص 104.

(13) في الأصول : «حمدنس» واللبث من ن. م. ص 105.

فن قفصة إلى مدينة القَيْرَوان شمالاً مع الشرق أربع مراحل ، وعلى جهة المغرب مع الجنوب مدينة ييلقان⁽¹⁴⁾ على خمس مراحل ، وقد استولت عليها يد الخراب فهي متغلبة بوادي الأعراب .

ومن قفصة في جهة الجنوب إلى ناحية جبل نفوسة مدينة زرّود ، وبينهما خمس مراحل .

ومن قفصة إلى نفطة مرحلتان صغيرتان ، وهي مدينة متحضرة عامرة بأهلها ، لها أسواق وتجارات ونخيل وغلات ، ومياه جارية .

ومن قفصة⁽¹⁵⁾ إلى نزاوة جنوباً يومان وبعض يوم .

ومن توزر إلى نزاوة يوم ونصف يوم كبير .

جبل نفوسة :

ومن قفصة إلى جبل نفوسة في الجنوب نحو من ستة أيام ، وهو جبل عال يكون نحواً من ثلاثة أيام ، وفيه منبران لمدينتين تسمى إحداهما شروس⁽¹⁶⁾ وهي في الجبل ، وبها مياه جارية وكروم وتين ، وأكثر زروعهم الشعير الطيب المتناهي في الطيب ، ولأهلها في صناعة الخبز منه حذق ومهارة فاقوا في ذلك على الناس⁽¹⁷⁾ .

وفيما بين جبل نفوسة ومدينة نزاوة مدينة لوحقة⁽¹⁸⁾ ، وتتصل / بها غرباً مدينة بسكرة وبادس⁽¹⁹⁾ وكل هذه البلاد تتقارب في مقاديرها وصفاتها ومتاجرها وأسواقها . ومن جبل نفوسة إلى وارقلان اثنا عشر مرحلة .

[41/أ]

قابس :

(ومن قفصة إلى مدينة قابس مرحلة وبعض منها)⁽²⁰⁾ .

وقابس مدينة جبلية عامرة حفت بها من نواحيها غابات وجنات ملتفة ، وحدائق مصطفة ، وفواكه عامة رخيصة ، وبها من التمر والزروع والصنائع والضياع ما ليس بغيرها

(14) في الأصول : «يتلاق» والمثبت من ن . م . ص 105 .

(15) في الأصول : «نفطة» والمثبت من ن . م .

(16) في الأصول : «شروسا» والمثبت من ن . م .

(17) بعدها أسقط المؤلف ما يلي : ومن مدينة قفصة إلى مدينة صفاقس ثلاثة أيام .

(18) في الأصول : «لوحقة» والمثبت من ن . م . ص 105 .

(19) في الأصول : «نقاوس» والمثبت من ن . م . والبكري ص 102 .

(20) غير المؤلف ما جاء في نزهة المشتاق وهو : «ومن نفطة إلى مدينة قابس ثلاث مراحل وبعض منها» .

من البلاد (وكان)⁽²¹⁾ عليها سور منيع محيط بها ، ومن ورائه⁽²²⁾ خندق ، ولها أسواق عامرة وتجارات راجحة وبضاعات نافقة وكان بها فيما سلف طرز يعمل به الحرير الحسن ، وبها إلى الآن مدايع للجلود ويتجهز بها منها ، ولها وادٍ يأتيها من غدير كبير ، وعلى هذا الغدير⁽²³⁾ قصر [سَجَّة]⁽²⁴⁾ بينه وبين قابس ثلاثة أميال ، وهو مدينة صغيرة متحضرة وبها من ناحية البحر أيضًا سوق وباعة ، وكان به حَرِيرِيون كثيرون وشربهم من الوادي ، وهو غير طيب لكنه مشروب ، وبين قابس والبحر ستة أميال من جهة الشمال ، ويتصل بغابة أشجارها إلى البحر رملة متصلة بمقدار ميل ، وهذه الغابة أشجار وكروم (وكان)⁽²⁵⁾ بها زيتون⁽²⁶⁾ يعتمر منه زيت كثير يتجهز به إلى سائر / النواحي ، وبها نخل ملتف به من [41/ب] الرطب الذي لا يوجد مثله (وذلك أنهم يحنون نخيلهم طرية فيودعون جنينها في جرار الفخار ، ويسدون عليها سدًا محكمًا ، فإذا كان بعد مدة خرجت عليه عسلية سكنجينية بين حلاوة وحموضة ، وإذا كان صالحًا علته سكرية)⁽²⁷⁾ ومرساها في البحر ليس بشيء لأنه لا يستر من ربح ، وإنما ترسي القوارب بواديتها ، وهو نهر صغير يدخله المد والجزر ، وترسي به السفن الصغار وليس بكثير السعة ، فإن الذي يدخله المد ويرسي به نحو من رمية سهم ولا يدخل فيه ولا يخرج منه إلا وقت المد إذ وقت الجزر تبقى السفن غير عاتمة ، وفي أكثر أهل قابس (شراسة أخلاق)⁽²⁸⁾ وقلة دِمَانَة (وكانوا ذوي)⁽²⁹⁾ زي ونظافة ، وفي باديتها عتو وفساد وقطع سبل ، (وبين أهلها عداوة ومقاتلة على ما هم وهي منقسمة بقسمين سواء ، فيستبيحون دماء بعضهم مع أن بها فقهاء وصالحين لغلبة أهل البغي والفساد على أهل الفضل والصلاح كما هو شأن أهل الزمان)⁽³⁰⁾ .

(21) اضافها المؤلف عما هو موجود بالترجمة لتسجيل البعد التاريخي .

(22) في ترجمة المشتاق : «خارجة» . (24) اضافة من ترجمة المشتاق للتدقيق .

(23) في الأصول : «الوادي» والتصويب من ن . م . ص 106 . (25) اضافة من المؤلف لما بعد تاريخي .

(26) في ت : «زيتون طيب» .

(27) ما بين القوسين دققه الادريسي هكذا : «وذلك أن أهل قابس يحنونها طرية ثم يودعونها في دنانير . فإذا كان بعد مدة من ذلك خرجت لها عسلية تعلو وجهها بكثير . ولا يقدر على تناول منها الا بعد زوال العسل عنها من أعلاها . وليس في البلاد المشهورة بالتمر شيء من التمر يشبهه ولا يناكبه ويطابقه في علوكه وطيب مذاقه» .

ص 106 - 107 .

(28) اضافة من المؤلف عما هو موجود بترجمة المشتاق .

(29) اضافة من المؤلف لمقارنة الحاضر بالماضي اذ قال الادريسي : «ولهم زي ونظافة» . ص 107 .

(30) اضافة من المؤلف عما هو موجود بترجمة المشتاق .

صفاقس :

[42/1]

ومن مدينة قابس إلى مدينة صفاقس⁽³¹⁾ نازلاً مع الجون سبعون ميلاً .
وبين قصعة وصفاقس بين جنوب وغرب ثلاثة أيام ، ومدينة صفاقس / قديمة
(اسلامية)⁽³²⁾ عامرة ، لها أسواق كثيرة ، وعمارة شاملة ، وعليها سور حصين من
حجارة ، في غاية السمو ، وأبوابها مصفحة بصفائح من حديد منبوعة ، وعلى سورها
محارس نفيسة للرباط ، وأسواقها نافقة ، وشرب أهلها من المواجهل (وكان)⁽³³⁾ يجلب إليها
من قابس نفيس الفواكه ، وعجيب أنواعها ، ويُصاد بها من السمك ما يعظم خطره
ويكبر قدره (قبل أن تدخله الأمكاس وظلم الأنجاس)⁽³⁴⁾ وأكثر صيدهم بالزروب
المنصوبة لهم في الماء الميت بضروب من الحيل ، وأكثر غلاتها (في سابق الزمن)⁽³⁵⁾
الزيتون والزيت . وبها منه ما ليس يوجد غيرها مثله ، وبها مرسى حسن ميت الماء . قال
في «نزهة المشتاق»⁽³⁶⁾ : «وبالجملة فهي من عز البلاد ، ولأهلها نخوة ، وفي أنفسهم
عزة ، وهي الآن معمورة وليست مثل ما كانت عليه من العمارة والأسواق والمتاجر في
الزمن القديم» أهـ . يعني وقت تأليفه لكتابه .
وكان⁽³⁷⁾ زمن استيلاء الخبيث لجار عليها وغيرها ، - عليه لعنة الملك الجبار -
فإنها في تلك المدة⁽³⁸⁾ قتلت أبطالها وعلمائها جهاداً في سبيل الله حسبما يأتي إن شاء الله
تفصيل ذلك في المقالة الثامنة .

(31) كتبها الادريسي بالسين في أولها ، وكذلك كانت تكتب إلى القرن الثامن ، ثم أبدلت السين صاداً كما نقرأه في
رحلة التجاني . وتاريخ ابن خلدون ، وهي كلمة بربرية الأصل ، واللغة البربرية لا صاد فيها وفي اللهجة
الدارجة تنطق بالسين موافقة للغة البربرية .

(32) اضافة من المؤلف . ويقصد بها أن صفاقس اسلامية المنشأ كما سيبينه في الجزء الثاني من كتابه .

(33) اضافة تسجل بعداً تاريخياً ، في القرن الثامن عشر الذي عاش المؤلف لثله الأخير امتدت الأراضي الفلاحية
حول صفاقس ، وصارت هذه المدينة تنتج من الثمار والفواكه عديدها ، وتصدر منها الكثير داخل الإالة
وخارجها نحو طرابلس ومصر و«بلاد الترك» .

(34) اضافة من المؤلف ، ويشير بها إلى مختلف الضرائب التي كانت تدفع على مختلف المنتجات الفلاحية ويزيد فيها
القياد والأزامون الذين اشتروها لزمة من حكام البلاد طلباً للربح ظلماً .

(35) اضافة من المؤلف لها بعد تاريخي . إذ في زمانه تعددت الأشجار المثمرة وتنوعت كما ينص عليه في الفقرة
الوالية . وفي الجزء الثاني من كتابه .

(36) ص 107 ، تصرف في النقل كعادته بشيء يسير في هذه المرة .

(37) هنا يبدأ محمود مقديش تأليفاً خاصاً به .

(38) من سنة 543 - 551 هـ / 1148 - 1156 ، راجع رحلة التجاني . ص 74 - 75 ، وشارل جوليان (Ch.A.) =

وقال التجاني⁽³⁹⁾ في «رحلته» وصلنا ظهرًا إلى صفاقس فرأيت / مدينة حاضرة [42/ب] ذات سورين يمشي الراكب بينهما ، ويضرب البحر في الخارج منها ، وكانت بها غابة زيتون ملاصقة لسورها فأفسدتها العرب ، فليس بخارجها الآن شجرة قائمة ، وفواكهها مجلوبة إليها من قابس⁽⁴⁰⁾.

قلت⁽⁴¹⁾ : وهذا كان في تلك الأعصار وأما الآن منذ دخلت العساكر العثمانية⁽⁴²⁾ ، ولا سيما في دولة سيدي حسين باي بن علي⁽⁴³⁾ وعترته ، فصفاقس لها بساتين وجنات مشتملة على غرائب الأشجار ، وبدايع الثمار خصوصًا الفستق⁽⁴⁴⁾ الذي لا يوجد مثله إلا مجلب ، والتين والكروم المختلفة الألوان والأشكال ، والكمثرى بجميع أنواعها ، خصوصًا السكرى منها ، والتفاح بجميع طعمه ، والمشمش الفائق الحصر ، واللوز بجميع أنواعه ، والمقاني ، والبطيخ بجميع أنواعه وأشكاله ، وعيون

(Julien) . تاريخ شمال إفريقيا (... Histoire) . 107/1 .

(39) أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني . ولد بتونس العاصمة ما بين 670 - 1272/675 - 1276 ونشأ في بيئة محزنة راقية ، قام برحلته في البلاد التونسية والقطر الطرابلسي من سنة 706 - 708 / 1306 - 1308 . راجع مقدمة حسن حسني عبد الوهاب . محقق الرحلة . ص 19 وما بعدها . رحلة التجاني . تونس 1958 .

(40) رحلة التجاني . تحقيق حسن حسني عبد الوهاب . تونس 1958/1378 ص 68 .

(41) ما يلي خاص بالمؤلف .

(42) دخلت صفاقس مع عدة مدن تونسية تحت النفوذ العثماني . على يد درغوث باشا . قبل دخول تونس العاصمة تحت نفوذهم بنحو عشرين سنة . وألحقت صفاقس نهائيًا بعاصمتها تونس في رجب 1002 هـ / مارس 1593 بعد فترة طويلة بقيت فيها مرتبطة إداريًا بطرابلس .

راجع علي الزواوي : صفاقس في القرن السادس عشر . مجلة القلم . صفاقس 1974 عدد 2 . ص 4 وما بعدها . وأنظر عزيز سامح : الأتراك العثمانيون بشمال إفريقيا . ترجمة من التركية . عبد السلام أدهم . بيروت 1969 . ص 86 .

(43) أسس الدولة الحسينية في سنة 1705 إلى أن افتكها منه ابن أخيه علي باشا في سنة 1740 بعد مدة من الاضطرابات بدأت سنة 1728 . والمؤلف من المجددين للدولة الحسينية كما يتبين من تأليفه . وربما لأن الولاية التونسية وصفاقس . مدينة المؤلف . مشى على درب التقدم أشواطًا خلال القرن الثامن عشر أي منذ انتصاب الحسينيين . وخاصة مدة حكم حمودة باشا الذي عاصره محمود مقدش .

(44) كتب المؤلف «فردق» . هذا في عصر المؤلف . أما الآن فإن انتاجها منه قليل لأن شجرة الفستق تحتاج إلى عناية كبيرة ، وأهم غراسه للفستق الآن موجودة بضعة الشمال الحكومية التي بها ما يقرب من 30 000 شجرة . والطقس وطبيعة التربة بمنطقة صفاقس يساعدان على نمو هذه الشجرة لذلك بدت الرغبة الآن في غراسها من جديد وجرت بين الزيتون كما في الماضي فتعايشت معه .

البقر بأنواعه ، وأنواع الرياحين من الورد والفل ، والياسمين⁽⁴⁵⁾ ، والقرنفل إلى غير ذلك . وبالجملية فساتين صفاقس في هذه الأعصار مشهورة ، ولأهلها بها قصور⁽⁴⁶⁾ يسكنونها زمن الحر ، ولا يتخلف أحد عن الخروج بجميع أهله ، ويعملون من شرائح التين والزبيب والفستق واللوز ما يعم أكثر البلاد ، وبساتينها محيطة بها كنصف دائرة من البحر / إلى البحر ، تبعد من السور إلى منتهاها شمالاً بقدر سبعة أميال أو أزيد ، فتتصل بساتينها بزيتون الساحل القريب من قصر الجلم ، وهذا القصر أحد عجائب الدنيا من أبنية الأوائل .

[43/أ]

قصر الجلم :

قال التجاني⁽⁴⁷⁾ : هو أعظم حصون إفريقية بناءً وأشهرها على القدم ، وليس بعد الحنايا التي بقرطاجنة بناءً أضخم منه ولا أعجب ، وشكله مستدير ، وارتفاعه في الهواء مائة ذراع ، وذكر البكري أن تكسير دائرته في الأرض ميل⁽⁴⁸⁾ ، ويقال أن الكاهنة المعروفة بكاهنة لَوَاتة حصرها عدوها في هذا الحصن فحفرت منه سرباً في الحجر الصلد نفذت به إلى مدينة سَلْقُطَة ، يعني التي على البحر ، وكانت أختها هنالك فكان الطعام يُجلب إليها في ذلك السرب على ظهور الدواب ، وقد قاتل أهله يحيى بن إسحاق الميورقي - الآتي ذكره إن شاء الله - فأعياه وارتحل عنه خائباً ، ويذكر أنهم رموه منه بعد الحصر الطويل بالسَّمَك حياً ، وأنهم جلبوه من ذلك النقب النافذ إلى سلقطة ، فحينئذٍ أيس منهم ، وارتحل عنهم .

وإلى جانب هذا الحصن قرية عامرة بها جنّات ، ومزارع متسعة ، ومسجد جامع ، وأسواق نافقة ، يسكنها قوم من البربر كانوا قبل هذا ساكنين بقصر مِلَيْتَة ، من أرض زُورَة بأرض / طرابلس ، فأخلته العرب وأجلتهم منه ، فسكنوا بهذه الأرض .

[43/ب]

45 في ت : «الياسمين الأبيض» ومن الواضح أن الناسح زاد الأبيض . ففي صفاقس لا يوجد ياسمين له غير هذا اللون .

46 تسمى الأبراج ج : برج . وهي هرمية الشكل . راجع محمد المصمودي ، المسكن التقليدي في أحواز مدينة صفاقس . (L'habitation traditionnelle dans la banlieue de Sfax) ، مجلة مركز الفنون والتقاليد الشعبية

بتونس ، عدد 1 ، 1968 ص 11 - 39 .

47 سينقل المؤلف عن رحلة التجاني بتصرف . ص 57 - 66 .

48 الكتاب المغرب من المسالك والممالك ، ص 31 .

ومن هذا الموضع يظهر الكوكب المعروف بسُهَيْل ، وليس يظهر بتونس ولا ما قاربها ، قيل وقد يظهر من جبل سهيل من أعمال مالقة ، وبه سمي الجبل واليه ينسب أبو القاسم السهيلي⁽⁴⁹⁾ العالم . ثم قال⁽⁵⁰⁾ : وكان مبسرينا منذ فارقنا الجبل في الزيتون القديم المتصل المعروف بزيتون الساحل وقد أذهب إفساد العرب أكثره ، وغير بعد الاستواء أسطره ، فكأنه كان مغروساً على «قالة»⁽⁵¹⁾ معلومة ، وأسطر متناسبة منظومة ، فأبطل الإفساد أكثر ذلك ، وعلى هذا الزيتون كان مدار غلات إفريقية في القديم ، وقد روى أن (ابن أبي سرح)⁽⁵²⁾ لما افتتح إفريقية ، وقتل ملكها وجد أكثر أموالهم الذهب والفضة ، فغنم منها ما ملأ أيدي جنده ، وسألهم أتى لكم هذا ؟ فجعل أحدهم يلتمس شيئاً في الأرض حتى أتاه بئوة⁽⁵³⁾ زيتون فقال له : من هذا أصبنا هذه الأموال . قال الرشاطي في كتابه المسمى «بأقتباس الأنوار» : إنما سُمِّي هذا الموضع الساحل وليس بساحل بحر لكثرة ما فيه من سواد الزيتون والشجر والكرم ، ولما قتل عبد الله بن الزبير جرجيراً أصاب الروم الرعب فلعجوا إلى الحصون والقلاع فاجتمع / أكثرهم بحصن الجبل وطلبوا من عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير عساكر الإسلام أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطاراً ذهباً على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم ، فقبل ذلك منهم وقبض المال⁽⁵⁴⁾ . وذكر⁽⁵⁵⁾ بعض أهل هذا الحصن أنه مبني على سبعة أدوار من وسطه إلى خارجه ، فالدور الخارج أقواس متصلة بعضها ببعض بين كل قوسين دعامة عدة أقواس السفلى أربعة وستون ، ثم الدور الذي فوق هذا كذلك أربعة وستون ، ثم كذلك الثالث ، فجعلتها مائة واثنان وتسعون قوساً . قال : وهكذا الدور الأدخل منه ثم الذي يليه ، وهكذا إلى الوسط ، فعلى هذا تكون أقواس السطر الخارج أكبر ، وأقواس الدور الذي في الوسط ألطف ، وفي جهة الغرب من هذا الحصن كان أصل المدينة ، وهي إلى الآن

(49) هو أبو القاسم عبد الرحمان بن عبد الله بن أحمد السهيلي صاحب كتاب «الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية» لابن هشام .

(50) يعني التجاني . ويستمر النقل بتصرف .

(51) بالعامية الصفاقسية . وتعني هنا الفرجة أو المسافة . وفي الرحلة : «حالة» .

(52) في ت : «أن الأمير عبد الله بن أبي سرح رضي الله عنه» .

(53) كذا في ط ورحلة التجاني . وفي ت وش : «نوبة» .

(54) رحلة التجاني ص 58 .

(55) تأليف خاص بالمؤلف . اعتمد فيه كما ذكر على أقوال أهل مدينة الجبل ، ولا ينطبق على الواقع الأثري لهذا الملعب .

يستخرج منها غرائب الرُخام الذي كان عضادة أبواب الدُّور وغيرها ، ويجمل منه الحُكَّام ما يحتاجون إليه ، ولم يبق من هذه المدينة بناء قائم على وجهه⁽⁵⁶⁾ الأرض إنما يستخرج الرخام من تحت الأرض. ولقد حاول⁽⁵⁷⁾ بعض الأمراء هدم هذا الحصن عقوبة لأهله فخرس أموالاً فائتة الحصر ، ولم يؤثر فيه شيئاً فعجز عنه ، وتركه ومسافة ما بين صفاقس والجلم خمسون ميلاً⁽⁵⁸⁾.

جمال :

ومنه إلى جمال ثمانية وعشرون ميلاً ، / وهي بلدة عظيمة كثيرة الزَّيتون ، وإصابة الشعير والحنطة ، وبها سوق في الجمعة يوم السبت ، يقصد من كل مكان ، ويبيع به كل شيء ، وللناس به اعتناء للتجارة . ومن جَمَال لسوسة ثمانية عشر ميلاً⁽⁵⁹⁾.

[44/ب]

المهدية :

ومن صفاقس إلى المهدية مرحلتان ، وكانت⁽⁶⁰⁾ مدينة ذات حَطٍّ وإقلاع للسفن الحجازية القاصدة إليها من بلاد المشرق ، وسفن المغرب والأندلس ، وبلاد الروم ، وغيرها من البلاد ، وإليها تُجلب البضائع الكثيرة بقناطير الأموال على مرَّ اللَّيالي والأَيَّام ، (ثم انقطع ذلك بعد اخراب الإفرنج لها كما يأتي - إن شاء الله تعالى -)⁽⁶¹⁾ وهي ممَّا أحدثه عبيد الله المَهْدِي فُسِّمَتْ باسمه ، وهي في نحر البحر ، وهي من القيروان على مرحلتين ، وكانت فيما سلف كثيرة السفَّار والتُّجَّار ، مقصودة بالبضائع من سائر الأقطار ، وتجارها نافقة ، والهمم على أهلها موقوفة ، وإليها راجعة ، ولها حسن مبان ، نظيفة المنازل ، وديارها حسنة ، وحمَّاماتها جليلة وبها خانات كثيرة ، وهي في ذاتها حسنة الداخل والخارج بهية المنظر ، وأهلها حسان الوجوه ، نظاف الثَّياب ، ويعمل بها من الأكسية الحسنة الرقيقة الجيدة ، المنسوبة إليها ما يجمل ويُنَجِّهُ به إلى جميع الآفاق ،

(56) ساقطة من ت وش .

(57) في ت وش : «حال» .

(58) وبالأُميال المعاصرة 64 والجلم وسط الطريق بين صفاقس وسوسة .

(59) ينتهي من تأليفه ويرجع للنقل من نزهة المشتاق بتصرف ص 107 .

(60) في الأصول : «وهي كانت» .

(61) إضافة من المؤلف عما هو موجود بترجمة المشتاق .

في كل وقت / وكل حين ما ليس يقدر على عمل مثله في غيرها من البلاد والأمصار لجودته [45/أ] وحسنه ، وشرب أهلها من المواجهل⁽⁶²⁾ وآبارها غير عذبة وكان يحيط بها سور حسن مبني من الحجارة ، وعليها بابان من حديد لُفَّقَ بعضه على بعض من غير خشب ، وليس يدرى في معمور الأرض مثلهما صنعة وثيقة ، وهما من عجائبها الموصوفة (ولم تكن)⁽⁶³⁾ لها جنات ولا بساتين ، وإنما يجلب إليها من قصور المنستير ما تحتاجه من الثمار ، وبينهما في البحر ثلاثون ميلاً .

والمنستير قصور ثلاثة يسكنها العباد والصلحاء والأعراب لا تضرهم في شيء من شجرهم ولا من عماراتهم (لأنها محل رباط وعبادة ، والمنستير سيأتي اسم من عمل عليها سوراً)⁽⁶⁴⁾ .

وكان أهل المهديّة يدفنون موتاهم بالمنستير (تبركاً بها)⁽⁶⁵⁾ يجلبونهم في الزوارق إليها فيدفنهم بها ، ثم يعودون إلى بلدهم ، (ولم تكن)⁽⁶⁶⁾ بالمهديّة جبانة معروفة .
(وفي المهديّة كانت وفاة الإمام المازري - رحمه الله تعالى ونفعنا به - ومنها نقل للمنستير)⁽⁶⁷⁾ .

وكانت المهديّة مدينتين إحداهما المعهودة⁽⁶⁸⁾ والثانية زويلة ، فالمهديّة يسكنها السلطان وجنوده وبها قصره الحسن البناء العجيب الإنقان ، والارتقاء (وكانت قبل استيلاء الإفرنج عليها)⁽⁶⁹⁾ بها طيقان الذهب / التي تفتخر بها ملوكها .

[45/ب] وفي «خريدة العجائب»⁽⁷⁰⁾ : ولها أبواب من حديد في كل باب ما يزيد على مائة قنطار ولما بناها وأحكمها قال : الآن أَمِنْتُ (على الفاطميين)⁽⁷¹⁾ ﴿فَإِذَا﴾⁽⁷²⁾ جَاءَ وَعَدُّ رَبِّي جَعَلَهُ دَكًّا وَكَانَ وَعَدُّ رَبِّي حَقًّا⁽⁷²⁾ .

(62) في الأصول : «مواجه» .

(63) في نزهة المشتاق : «وليس لها» .

(66) إضافة من المؤلف .

(67) إضافة من المؤلف .

(68) في نزهة المشتاق : «أحداهما مدينة المهديّة» ص 109 .

(69) في نزهة المشتاق : «وكان بها قبل أن يفتحها الملك المعظم رجار في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة»

1148 - 1149 م .

(70) خريدة العجائب وفريدة الغرائب لعمر بن الوردى ، مصر بلا تاريخ ، ص 16 .

(71) كذا في ش وخريدة العجائب والضمير يعود على المهدي الفاطمي .

(72) في الأصول : «ولما جاء... سورة الكهف : 98 .

وكان (73) بمدينة زُوَيْلَة الأسواق الجميلة ، والمباني الحسنة والشوارع الواسعة والأزقة الفسيحة ، وأهلها تجار مياسير نبلاء ، ذوو أذهان ثاقبة ، وأفهام ذكية ، وجل لباسهم البياض . ولهم هممٌ في أنفسهم وملابسهم ، وفيهم (74) الجمال ، ولهم معرفة زائدة في التجارة وطريقتهم حميدة في المعاملات . ولهذه المدينة أسوار عالية حصينة جداً (75) تُطيف بها من جميع جهاتها البرية والبحرية ، وجميعها مبني بالحجارة ، وفيها فنادق كثيرة ، وحمّامات جمّة ، ولهذه المدينة من جهة البر خندق كبير يستقرّ به ماء السماء ، وبخارجها من جهة غربها حِمَى كان قبل دخول العرب لأرض إفريقية وإفسادهم لها (في أيام صنهاجة كله) (76) جنّات وبساتين يجمع الثمار العجبية والفواكه الطيبة ، ولم يبق منها بهذا الحمى شيء (ثم تراجع الأمر في هذا الأعصار ، وكثرت بها بساتين الفواكه والزيتون الذي في غاية الجودة / وكثرة الإصابة) (77) . [46/أ]

وبمقربة من هذه المدينة قرى كثيرة ، ومنازل وقصور ، (ورباطات للعباد يطول تتبعها) (78) . وسكانها بَوَادٍ (متحضرة) (79) لهم زروع كثيرة ، ومواش وأغنام ، وأبقار ، وإصابات كثيرة من الزروع ، وبها زيتون كثير ، يُعْتَصَر منه زيت طيّب يعم سائر بلاد إفريقية . (وقد اندرس أكثرها لاستيلاء مفسدو البوادي عليها ، والمهدية قاعدة بلاد إفريقية وقطب مملكتها في سالف الزمن .

فأما زويلة فلم يبق لها أثر ، وأما المدينة المعهودة فقد أخرجها الإفرنج ، على يد الحسن آخر الملوك الصنهاجيين (80) - حسبما يأتي ذلك إن شاء الله - وهي الآن تعد من القرى ، وسيأتي لها مزيد بيان - إن شاء الله تعالى - (81) .

(73) يرجع للنقل من نزهة المشتاق بتصرف . انظر ص 109 .

(74) في ت : «وعندهم» .

(75) بعدها أسقطنا جملة زائدة : «وفها خندق عظيم» . نخل بالمعنى الذي ورد في نزهة المشتاق ولأن المؤلف يكررها في النص فيما بعد .

(76) إضافة من المؤلف عما هو موجود بنزهة المشتاق .

(77) إضافة من المؤلف عما هو موجود بنزهة المشتاق .

(78) إضافة من المؤلف عما هو موجود بنزهة المشتاق .

(79) إضافة من المؤلف عما هو موجود بنزهة المشتاق .

(80) كذا في ش و ط وهو الصحيح أما في ت : «الحفاصة» .

نفزاوة :

ولنرجع⁽⁸²⁾ الآن إلى نفزاوة فنقول : إن مدينة سبيطة كانت مدينة جرجيس ملك الروم الأفارقة ، وكانت من أحسن البلاد منظرًا ، وأكبرها قطرًا ، وأكثرها مياهًا ، وأعد لها هواء ، وأطيبها ثرى ، وكان بها بساتين وجنات فافتتحها المسلمون في صدر الإسلام ، وقتلوا بها ملكها جرجيس كما يأتي .
ومنها إلى مدينة قفصة مرحلة وبعضها .
ومنها إلى القيروان سبعون ميلًا .

القيروان :

والقيروان أم أمصار / وقاعدة أقطار (أسسها الصّحابة الأخيار - رضي الله تعالى [46/ب] عنهم وعني بهم -)⁽⁸²⁾ فكانت أعظم مدن المغرب قطرًا ، وأكثرها بشرًا ، وأيسرها أموالًا ، وأوسعها أحوالًا ، وأتقنها بناءً ، وأربحها تجارةً ، وأكثرها جبايةً ، وأنفقها سلعةً ، وأنماها ربحًا ، (وهي مأوى الأولياء والصالحين ، والأتقياء العابدين ممن غلب عليه)⁽⁸³⁾ التمسك بالخير ، (والعلم والعمل)⁽⁸⁴⁾ والوفاء بالعهد ، والتخلي عن الشبهات والمحظورات ، ومنبع العلوم والولاية والصّلاح والهداية ، فهي لأهل المغرب أصل كل خير ، والبلاد كلها عيال عليها ، فما من غصن في الآفاق المغربية مطلقًا إلا منها علا ، ولا فرع في جميع نواحيها إلا عليها ابنتى ، فضلها ظاهر على جميع البلاد ، وإليها ينتمي فضلاء جميع العباد ، كيف لا ومنها خرجت علوم المذهب ، وإلى أممتها كل عالم ينتسب ، ولا ينكر هذا الفضل خاص ولا عام ، ولا يزاحمها في هذا الفضل أحد على طول الأمد والأيام ، (قال سيدي أبو إسحاق الجبينياني)⁽⁸⁵⁾ - نفعنا الله به وبأمثاله آمين - :
القيروان رأس وما سواها جسد . ما قام بردّ الشبه والبدع إلا أهلها ، ولا قاتل وقتل على

(81) ما بين القوسين اضافة من المؤلف عما هو موجود بنزّه المشتاق .

(82) اضافة من المؤلف عما هو موجود بنزّه المشتاق .

(83) اضافة من المؤلف عما هو موجود بنزّه المشتاق .

(84) اضافة من المؤلف عما هو موجود بنزّه المشتاق .

(85) في ت : « قال الشيخ أبو إسحاق إبراهيم الجبينياني رضي الله تعالى عنه » وعن الليدي : انه أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن علي بن أسلم البكري من رجالات القرن الرابع الهجري . حج في سنة 314/926 انظر عنه على سبيل المثال أبو القاسم الليدي : مناقب أبو إسحاق الجبينياني . تحقيق هادي إدريس . باريس 1959 .

أحياء السنة إلا أتمتها ، فجزاهم الله عنا وعن المسلمين أحسن الجزاء ، اللهم انفعنا بحببتهم واحشرنا يا ربنا / في زمرةهم وأعد علينا من بركتهم⁽⁸⁶⁾. [أ/47]

ولما اختلفت الأمراء وانتقلت الدولة تسلط عليها أهل البغي والفساد من البرابر والبدو والشيع ، فتوالت عليها الحوائج حتى بكت عليها العيون وقرحت القرائح لما صارت ملعبة لأهل الطغيان والفجور ، فتسلطوا عليها بالتخريب والتثريب ، فلم يبق بها⁽⁸⁷⁾ من أصول أختيارها إلا التزر القليل مستضعفين ، واستولت عليها أخلاط بغاة ، أجهر الناس عصياناً ، وأكثرهم طغياناً ، وكذا شأن كل بلاد يضعف أختيارها ، ويطنى فجارها ، فإننا لله وإننا إليه راجعون ، قيل انها سترجع إلى ما كانت عليه وهيئات .

(أما عمارة الأسواق وسعة الأرزاق فهي - والحمد لله - قد تراجعت بعض تراجع . وأما العمارة وسعة البلاد فألى الآن ما رجعت لأنه قيل أن المسجد الأعظم كان بها وسطاً ، وهو الآن في ركن من أركانها . وأما العلم فبعيد أن ترجع كما كانت ، ولكن فضل الله واسع وليس لما يعطي الله مانع ، وسيأتي ذكر شيء مما نالها من الحن فيكون كالشرح لما ذكر)⁽⁸⁸⁾.

ومياه⁽⁸⁹⁾ القيروان قليلة وشرب أهلها من فساق بني الأغلب ، فمنها الماجل الكبير ، وهو من عجيب البناء لأنه مبني على تريب ، وفي وسطه بناء قائم كالصومعة ، وذرع كل جهة / منه مائتا ذراع ، فيمتلئ كله ماء إذا سالت الأودية. [ب/47]

والقيروان كانت مدينتين إحداهما اسمها القيروان ، والثانية صبرة ، (وهي في دولة صنهاجة الذين بنوها)⁽⁹⁰⁾ كانت دار الملك ، قيل كان فيها من أيام عمارتها ثلاثمائة حمام ، وأكثرها للديار وباقيها مبرز للناس قاطبة ، وهي الآن خراب ، ليس بها ساكن ، وعلى ثلاثة أميال منها قصور رقادة الشاهقة الذرى الحسنة البناء ، الكثيرة البساتين والثمار ، وبها كانت الأغلبة تربع في أيام دولتهم ، وزمن بهجتهم ، وهي الآن خراب لا ينتظر جبرها . (والقيروان لا يحتاج لوصفها بكثرة الحنطة والفلاحة لأنها مشهورة بذلك ، وأما اللحوم والعسل والسمن والزيت فأمر خارج عن الوصف ، وثمارها من غيرها لأن الفتن لم

(86) بعدها في ت «آمين يا رب العالمين» .

(87) ساقطة من ت .

(88) اضافة من المؤلف عما هو موجود بنزعة المشتاق .

(89) يرجع للنقل من الادريسي بتصرف ص 110 .

(90) توضيح من المؤلف .

تبقى لها أشجارًا تنتج ثمارًا ، لكن فيما يجلب إليها من غير [ها] كفاية جعلها الله دار بركة ، وحماها من كل فتنه ، وأكثر فيها الأخيار ، وطهرها من الأشرار⁽⁹¹⁾ .

تونس :

ومن⁽⁹²⁾ مدينة القيروان إلى مدينة تونس مرحلتان وبعض مرحلة بسير القوافل ، وهي مدينة في غاية الحسن تحيط بها من جميع جهاتها فحوص ومزارع الحنطة والشعير ، وهي أكبر غلاتها ، وكان عليها سور تراب / وثيق ولها أبواب ثلاثة وجميع جناتها ومزارع [48/أ] بقولها في داخل سورها ، (ولم يكن)⁽⁹³⁾ لها خارج السور شيء يعول عليه ، والعرب تجاور أرضها وتأتي بأنواع الحبوب إليها ، والسمن والعسل ما يكتفي أهلها غدقًا ، ويعمل بها من الخبز وأنواعه ما لا يمكن عمله في غيرها من البلاد .

ومدينة تونس في ذاتها قديمة واسمها في التواريخ ترشيش⁽⁹⁴⁾ . ولما افتتحها المسلمون وأحدثوا بها البناء سموها تونس . (وكان)⁽⁹⁵⁾ شرب أهلها من آبار شتّى لكن أعظمها قدرًا ، وأعلاها سرًا ، ماء بئران احتفرتهما بعض سيدات⁽⁹⁶⁾ المسلمين ابتغاء الثواب ، وهما في نهاية من سعة القدر ، وكثرة الماء ، هذا ما ذكرها به في التزهة⁽⁹⁷⁾ .

(وأقول : إن تونس - حرسها الله تعالى من كل سوء - هي الآن كرسي إفريقية ولا كرسي بها غيرها ، إذ هي مقرّ ملكها ودار سلطانها ، وجميع ما ذكر من أوصاف الحسن لغيرها ، من بهجة الدنيا والعلماء والصلحاء والملوك والخيرات ، والمتاجر ، والعزة والنخوة والمراكب والأرزاق وكل شيء يذكره اللسان⁽⁹⁸⁾ في سائر البلاد ، احتوت تونس في عصرنا هذا منه على الحظ الأوفر ويكتفي في وصفها أن السفار قالوا : لم يرَ الرّاؤون مثلها ، والنفوس فيها راغبة ، والطباع إليها مائلة ، والخارج / منها يعد نفسه بالرجوع إليها ، [48/ب]

(91) إضافة من المؤلف عما هو موجود بتزهة المشتاق .

(92) رجع للنقل من تزهة المشتاق بتصرف كعادته ص 111 .

(93) في تزهة المشتاق : «وليس لها» وتغيير المؤلف لكلمة الادريسي له أهميته التاريخية لتغير الحالة .

(94) كذا في معالم الإيمان 60/1 وفي رياض النفوس 48/1 . ونقل باقوت عن معجم البلدان عن ابن رشيق القيرواني :

«أن ترشيش اسم مدينة تونس بالرومية» . وفي تزهة المشتاق «طرشيش» .

(95) في تزهة المشتاق : «وشرب» وتغيير المؤلف له بعد تاريخي .

(96) في ش : «سادات» وفي ت : «سيدان» والمثبت من ن . م . ص 111 .

(97) عن تونس . انظر النص الكامل في ن . م . ص 111 .

(98) في ط : «الانسان» .

واسمها مشتق من الأنس ، فهو اسم طابق مسمّاه ، وهي وإن أصابها من نوائب الدهر من المهرج والمرج ما أصاب غيرها إلا أنها بفضل الله تنقضي فتنها في أقرب حين ، وترجع إلى أحسن ممّا كانت عليه من الوثاقة والتمكين . وأما مراكب التجارة من جميع الأقطار من بر الإسلام وجميع بلاد النصارى فأمر معلوم مشهور ، وأما حسن البناء ونزهات الطرقات ، ونظافة الثياب ، وجمال الصورة ذكرنا وإناثا ، وحسن الأصوات ، ونجابة الخيل المسوّمة ، فهي بذلك مشهورة ، وكذا أنواع الطيب فهو بها تجارة⁽⁹⁹⁾ واستعمالاً أكثر ممّا غيرها ، ولا سيّما عطر الورد الذي لا نظير له في معمور الأرض ، وأكثر عمل أهلها عمل القلائس المسمّاة بالطاقيّة⁽¹⁰⁰⁾ ، فهو شيء فاقوا به على أهل الأرض قاطبة حسناً وإتقاناً ، فكم حاول أهل المغرب وأنواع النصارى قريباً منه فما قدروا⁽¹⁰¹⁾ ، ومنها يحمل ما يعمّ أقطار الدنيا . فإن ملوك الأرض لا يلبسون إلا منها⁽¹⁰²⁾ ، ولهم فيها⁽¹⁰³⁾ حذق زائد وافتخار بين صناعها ، وإن أحدهم يخدم فيها باتقان ، وحسن صنع وصنع ، ولو تعمّن عليه الخسران⁽¹⁰⁴⁾ خوفاً من سقوط اسمه ، ولا يخرج صنعه إلا وعليه ختمه / وعليهم (أمناء)⁽¹⁰⁵⁾ يرجع إليهم فيما يختلفون فيه من ضرورات الصنعة .

[49/أ]

وأما العلوم من معقول ومنقول ولا سيّما فقه الإمام مالك - رضي الله تعالى عنه - وكذا المنطق والكلام ، والعلوم الأدبية العربية . فحدث عن البحر⁽¹⁰⁶⁾ ، وهي وإن

(99) في ت : « تجارة عظيمة » .

(100) الشاشية . وبالعامية « كبوس » وهو تحريف لكلبوش . وكانت هذه اللفظة رائجة إذ ذاك بجانب لفظة طاقيّة . حسب ما ترشدنا إليه وثائق الحكومة التونسية ووثائق متحف صفاقس للفنون والتقاليد الشعبية . وفي مصر تعني الطاقيّة غطاء للرأس من القطن . وتنتع الطاقيّة التونسية بالطربوش المغربي .

(101) يشير إلى محاولة جنوب فرنسا في صناعة الشاشيّة . هاته المحاولة التي أريد بها منافسة صناعة الشاشية التونسية والحلّة من رواج متوجّاهتا في بلدان شرق البحر الأبيض المتوسط . عن هذه المحاولة . أنظر على سبيل المثال ماسون (L. Valensi) *La Provence au XVIII^e siècle*, P. Masson) باريس 1966 . ولوسيت فلانسي (Islam et capitalisme, Revue d'histoire moderne et contemporaine) ج. 16 . 1969 ، ص 376 - 400 . وروني دوزي . (R. Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes, 2/71)

(102) مبالغة . (103) ساقطة من ش .

(104) في ش وط : « خسر » .

(105) ساقطة من ش وت . ج . أمين . وأمناء الشواشين بتونس كانوا أهم الأمناء وأقواهم سلطة لأهمية صناعة الشاشية إذ ذاك .

(106) كان جامع الزيتونة يقوم بدور أساسي في نشر العلم والمعرفة . والمؤلف يشير إلى النهضة العلمية والتعليمية التي عرفتها تونس خلال القرن الثامن عشر .

أصاها هذه المدة طاعون جارف آخر المائة الثانية عشرة⁽¹⁰⁷⁾ ونقصت عما كانت عليه إلا أن الله جعل البركة فيمن بقي ، وفي أهلها اعتقاد في أهل الفضل⁽¹⁰⁸⁾ والخير ، ولا سيما أموات الصالحين ، ولهم لطف بالخطاب وحسن سياسة ، وآداب مشهورة ، والمسؤول من الله تعالى أن يحميها وجميع بلاد الإسلام من عيون⁽¹⁰⁹⁾ سوء ، وأن يؤمن أوطانها وينصر سلطانها ، ويجري الصالحات على يديه ، ويصبره لمصالح الخلق ، ويعينه على نصرته الحق ، ويحنيه أهل الطغيان والفجور ، ويحول بينه وبين كل رذيلة ونقيصة وغرور آمين ، آمين ، آمين ، ورحم الله من قال آمين ، فإن هذا دعاء ينفع البلاد والعباد ، ويقمع آثار أهل البغي والفساد⁽¹¹⁰⁾ .

وتونس⁽¹¹¹⁾ في وسط جون (داخل من البحر في البر على نحر بحيرة)⁽¹¹²⁾ عرضها أكثر من طولها فطولها ستة أميال وعرضها ثمانية أميال ، ولها فم يتصل بالبحر وهو المسمى فم الراعي⁽¹¹³⁾ وهي لم تكن قبل (وإنما احتفرها سيدنا حسان بن النعمان الغساني ، وذلك أنه لما أجلى / الكفار عن إفريقية جعلوا يغيرون على رادس ومن به من المسلمين بالمرائب ، وليس عند المسلمين مراكب يلاقون بها العدو ، وكان استقراره بالقىرون ، فانتقل لرادس يرباط ومحرس المسلمين ، وكتب بذلك إلى عبد الملك (بن مروان)⁽¹¹⁴⁾ وأرسل مع كتابه أربعين رجلاً من أشرف العرب يخبرونه بما نال المسلمين من الجهد ، فعظم ذلك عليه فبعث عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز ، وهو أميره على مصر ، فأمره أن يوجه إلى حسان ألف نبطي وألف قبطي يستعين بهم ، فجملهم عبد العزيز في البر ، (وسار بهم)⁽¹¹⁵⁾ فلما وصلوا إلى حسان أثبت كثيراً منهم في رادس ، وفرق كثيراً منهم في مراسي

(107) قال أحمد بن أبي الضياف في الانحاف: «وفي سنة 1783/1198 وقع بالملكة طاعون جارف ، وهو المعروف عند أهل الحاضرة بالوباء الكبير ، مات بسببه أعيان من الحاضرة ، وأثر في عمران البلاد نقصاً فادحاً» ، انحاف أهل الزمان ، تونس 1963 ، 14/3 .

(108) ساقطة من ت وش .

(109) في ت : «عين» .

(110) إضافة من المؤلف تخص القرن الثامن عشر .

(111) يرجع للنقل من نزهة المشتاق ص 111 .

(112) في نزهة المشتاق : «جون خارج عن البحر وهي على بحيرة محفورة» ، ص 111 .

(113) في نزهة المشتاق : «فم الوادي» .

(114) ساقطة من ش و ط .

(115) ساقطة من ش و ط .

افريقية ، وأمر عبد الملك حسان أن يخرق البحر إلى تونس من جهة رادس ، وكان موضع البحيرة الآن ، على ما ورد في التواريخ ، مزارع وبساتين ، فحفره حفرًا وخرقه إلى دار صنعتها ، وأنشأ فيها مراكب ، فكان يغير فيها على ساحل الروم ، فشغلهم بأنفسهم عن الإغارة إلى افريقية ، وكان صفة حفره أنه جعل⁽¹¹⁶⁾ سعة⁽¹¹⁷⁾ هذا الحفر نحو من أربعين ذراعًا ، وعمقه أيضًا نحو من أربع قِيم ، وقعره طين ثم أجرى ماء البحر في ذلك الحفر ، فعلا على الحفر حتى جاوز أعلاه بربع قامة وأكثر⁽¹¹⁸⁾ إلى أن بلغ الماء حدّه ، فوقف ، وعند آخر هذا الحفر يتسع الماء ويعمق ، ويسمى ذلك الموضع وقور/ وإليه تصل المراكب الحَمَّالة فترسي هنالك ، ويتصل فيض الماء في البحر المحفور إلى مدينة تونس ، فهو على نحر البحيرة وأوساق المراكب تفرغ بوقور في زوارق صغار ، وتعم في أقاصير الماء إلى مدينة تونس ، ودخول السفن من البحر إلى البحيرة لا يكون إلا واحدة بعد واحدة لأن سعة الفم⁽¹¹⁹⁾ لا تحتل أكثر من ذلك (وهو المسمى بحلق الوادي)⁽¹²⁰⁾ .

قرطاجنة :

ومن هذا الفم إلى⁽¹²¹⁾ مدينة قرطاجنة في جهة الغرب ثلاثة أميال ونصف ، ومدينة قرطاجنة الآن خراب ، والمعمور منها قطعة يسيرة مرتفعة تسمى المعلّقة ، يعمرها ناس من العرب يسمّون بني زياد ، وكانت قرطاجنة في أيام عمارتها من غرائب البلاد لما فيها من عجائب البناء ، وإظهار القدرة في ذلك ، وكان بها الطباطر⁽¹²²⁾ التي ليس لها نظير في مباني الأرض قدرة واستطاعة ، وهي من بناءات الروم الأفارقة ، وذلك أن هذه الطباطر هي بناء مستدير فيه نحو من خمسين قوسًا قائمة في الهواء سعة كل قوس منها أزيد من ثلاثين شبرًا ، وبين كل قوسين سارية وعضداتان ، وسعة

(116) ما بين القوسين اضافة من المؤلف عما هو موجود بنزهة المشتاق .

(117) في ت : «صفة» . يرجع للنقل من ن . م . بتصرف ص 112 .

(118) في ن . م . : «وأقل وأكثر» .

(119) في ن . م . : «النهر» .

(120) ما بين القوسين اضافة من المؤلف أراد بها التفسير .

(121) في ن . م . : «ومن فم هذه البحيرة» .

(122) في الأصول : «طباطير» وربما أراد بها المؤلف جمع طباطر ، والمثبت من ن . م . ، والبكري في البيان المغرب :

ص 43 - 44 ، ودوزي (Dozy) في قاموسه ، وحسب دوزي ، الإدريسي هو أول من استعمل هذه الكلمة

التي هي تحريف لكلمة Théâtre أي المسرح ، 76/2 ، باللاتينية «Théatrum» .

السارية والعضادتين أربعة أشبار ونصف ، وتقوم على كل قوس من هذه الأقواس خمسة أقواس ، قوس على قوس ، صفة واحدة وبناء واحد من الكذان⁽¹²³⁾ الذي لا يجانسه شيء في الجودة. وفوق كل قوس / من هذه القسي حجر دائر ، وقد صورت في الحجر الدائر على القسي السفلى أنواع من الصور ، وضروب من التماثيل العجيبة الثابتة⁽¹²⁴⁾ في الصخر من صفات الناس والضبياع⁽¹²⁵⁾ والمراكب ، والحيوانات ، وكل ذلك قد أُنقش بأبداع صنعة وأحذق حكمة ، وسائر البناء الأعلى أُمس لا شيء به ، ويقال أن هذا البناء كان ملعبًا ومجتمعا في فصل ما ، ويوم ما من السنة. ومن عجائب بناءات قرطاجنة الدواميس التي تبلغ عدتها أربعة وعشرين داموسًا ، في سطر واحد وطول واحد ، طول كل داموس منها مائة وثلاثون خطوة في عرض ستين⁽¹²⁶⁾ خطوة (وارتفاع كل واحد أزيد من مائتي ذراع)⁽¹²⁷⁾ بين كل داموسين أثقاب محكمة تتصل بها المياه من بعضها إلى بعض في العلو الشاهق بهندسة عجيبة وإحكام بليغ ، وكان الماء يأتي إلى هذه الدواميس من عين شوقار ، وهي بقرب القيروان ، ومسافة جري هذا الماء من العين إلى الدواميس ثلاث مراحل ، وكان جري الماء من هذه العين إلى هذه الدواميس على عدة قناطر لا يحصى لها عدد ، وجري الماء بوزنة⁽¹²⁸⁾ معتدلة ، وهذه القناطر قسي مبنية بالصخر ، فما كان منها في نشر الأرض كان قصيرًا ، وما كان منها في متواطئ الأرض كان عاليًا جدًا ، وهذا من أغرب شيء رأي على وجه الأرض ، وقد تعطلت / هذه الأقواس وماؤها ودواميسها لخراب قرطاجنة ، وبعد خرابها بقي الناس سنين متطاولة يحفرون على ما تهدم من قصورها وأصول بنائها ، فيستخرجون من أنواع الرخام ما يكل عنه الواصف ، وربما استخرج منها ألواح من رخام طول الواحد أربعون شبرًا في عرض عشرة أشبار⁽¹²⁹⁾ (ويستخرج منها أنواع الرخام والمرمر المجزّع والمملون ما يشتهي الناظر شيء كثير)⁽¹³⁰⁾ ويستخرج منها أعمدة

(123) في الأصول : « كذال » كما تنطق في اللهجة العامية بصفاقس والمثبت من ن. م. ص 113.

(124) كذا في نزهة المشتاق ، وفي نسخ أخرى من النزهة « نائة » انظر هامش ن. م. ص 113.

(125) في الأصول : « سبع » والمثبت من ن. م. ص 113.

(126) في نزهة المشتاق : « ستة وعشرون ».

(127) ما بين القوسين اضافة من المؤلف عما هو موجود بنزهة المشتاق.

(128) في الأصول : « بركة » والمثبت من ن. م. ص 113.

(129) في نزهة المشتاق : « سبعة أشبار ».

(130) ما بين القوسين ، اضافة من المؤلف عما هو موجود بنزهة المشتاق.

طول كل عمود يزيد على أربعين شبرًا فما دون ذلك ، ولم تكن مركب تسافر إلا وفيها شيء من رخامها حتى انقطع أثر ذلك .

بنزرت :

وتحيط بمدينة قرطاجنة أوطية من الأرض وسهول ، ولها مزارع وضروب غلات ، ومنافع جمّة (131) .

ويتصل بقرطاجنة من جهة المغرب إقليم سطفورة (132) وهو إقليم جليل به ثلاث مدن . فأقربها إلى تونس أشلونة وتينجة وبنزرت ، وهي مدينة على البحر أصغر من مدينة (سوسة) (133) في ذاتها (وكانت غير مُسوّرة حتى سورها المرحوم علي باشا في نيف وخمسين ومائة وألف) (134) .

وبين تونس وبنزرت يوم كبير في البر ، وهي مدينة عامرة بأهلها وبها مرافق وأسواق قاعة ، وبجهة الشرق منها بحيرتها المعروفة بها ، والمنسوبة إليها ، وطولها ستة عشر ميلاً ، وعرضها ثمانية أميال ، وفها متصل / بالبحر ، وكلما أخذت في البرية اتسعت وما قربت من البحر ضاقت وانخرطت . وهذه البحيرة من عجائب الدّنيا ، وذلك أن بها اثنا عشر نوعاً من السمك ، يوجد منها في كل شهر نوع واحد لا يمتزج بغيره من أنواع السمك ، فإذا تمّ الشهر لم يوجد شيء من ذلك النوع في الشهر الذي بعده ، بل يوجد فيه نوع آخر غير الأول لا يمتزج بغيره ، هكذا لكل شهر نوع إلى تمام السنة ، فهي اثنا عشر نوعاً في السنة ترجع عوداً على بدء ، وتلك الأنواع هي البُوري ، والقاجوج ، والميجل ، والطنلطة ، والأشبلينيات ، والشّلبة ، والقاروص ، واللّاج ، والجوجة ، والكحلّاء ، والطنفلوا ، والقلّاء . [51/ب]

وتتصل بهذه البحيرة من جهة الجنوب مع انحراف إلى الغرب بحيرة ثانية تسمّى بحيرة تينجة ، طولها أربعة أميال في عرض مثلها ، وبينهما فم تتصل منه [مياه] (136) إحداها بالأخرى . وفي هاتين البحيرتين أمر عجيب ، وذلك أن ماء بحيرة تينجة عذب (من مياه

(131) عن قرطاجنة انظر النص الكامل في نزهة المشتاق ص 113 - 114 .

(132) في الأصول : «سطفورة» والمثبت من ن . م . ص 114 .

(133) كذا في الأصول ونزهة المشتاق طبعة ليدن وفي نسخ أخرى من ن . م . «تونس» انظر هامش النزهة ص 114 .

(134) 1738 م ، ما بين القوسين اضافة من المؤلف عما هو موجود بنزهة المشتاق .

(135) في الأصول : «الغرب» والمثبت من ن . م . وهو الأصح جغرافياً .

(136) اضافة من نزهة المشتاق .

الأمطار⁽¹³⁷⁾، وماء بحيرة بنزرت ملح (من البحر)⁽¹³⁸⁾ وكل واحدة منهما تصب في أختها ستة أشهر حتى ينعكس جريها فتمسك الجارية عن الجري ، وتصب البحيرة الثانية إلى الأولى ستة أشهر أخرى ، فلا بحيرة تينجة يملح ماؤها ، ولا بحيرة بنزرت يعذب ماؤها ، (وذلك أن زمن الخريف والشتاء تكثر السيول / وتهب ريح الدبور ، فتغلب تينجة ، [1/52] وزمن الربيع والصيف تقل السيول ، وتهب ريح الصبا ، فتغلب بحيرة بنزرت⁽¹³⁹⁾ والسلك بتونس كثير مجلوب إليها من بنزرت .

طبرقة :

ومن بنزرت إلى طبرقة سبعون ميلاً . وطبرقة حصن على البحر ، قليل العمارة وحوله عرب ، وبها مرسى للمراكب ، ومراكب الأندلس تسافر إليها وتأخذها روسية في قطعها (وكانت معمورة بطائفة من الإفرنج ، فافتتحها المرحوم علي باشا - رحمه الله تعالى - قبل بناء سور بنزرت ، فهدمها لئلا يعودوا إليها)⁽¹⁴⁰⁾ .

باجة :

وعلى بعض الطريق بين طبرقة وتونس مدينة باجة ، وهي مدينة حسنة في وطاء⁽¹⁴¹⁾ من الأرض كثيرة القمح والشعير ، وبها من ذلك ما ليس مثله بالمغرب كثرة وجودة . وهي بذلك كثيرة الرّخاء ، وبها عين في وسطها ينزل إليها بأدراج ومنها شرب أهلها ، وليس لها في خارجها عود نابت إلا فحوص⁽¹⁴²⁾ ومزارع . وبين باجة وطبرقة مرحلة وبعضها .

مرسى الخرز :

وتقابل باجة في جهة الشمال وعلى نحر البحر مدينة مرسى الخرز ، وبينهما مرحلة كبيرة ، وهي مدينة صغيرة عليها سور حصين ، ولها قصبة وحوها عرب كثير ، وعمارة

(137) تفسير من المؤلف .

(138) اضافة من المؤلف عما هو موجود بنزرة المشتاق .

(139) اضافة من المؤلف عما هو موجود بنزرة المشتاق .

(140) أخذ علي باشا طبرقة في سنة 1740/1153 وهدم القرية التي بناها أهل جنوة التمسكين بها . وعن هذه الحادثة

راجع مثلاً أحمد بن أبي الضياف ، الاتحاف تونس 1963 ، 2/124 .

(141) كتبها : «وطء» وأصلحناها كما أثبتنا فيما يلي من النص دون الإشارة لذلك .

(142) في ت : «فحوص كبيرة» .

أهلها على صيد المرجان لكثرتة بها ، وهو أجل من جميع⁽¹⁴³⁾ المرجان بسائر الأقطار من صقلية وسبته وغيرها . ويقصد التجار من سائر الأقطار / إلى هذه المدينة فيخرجون منه الكثير إلى جميع الجهات ، ومعدن المرجان بهذه المدينة مخدوم في كل سنة ، ويعمل به في كل الأوقات الخمسون قاربًا وأقل وأكثر ، وفي كل قارب نحو العشرين رجلاً ، والمرجان ينبت كالشجر في قعر البحر ثم يتحجر فيصايد بالآلات ذات ذوائب كثيرة تُصنع من القنب تدار هذه الآلات في أعلى القوارب فتلتف الخيوط على ما قاربها من نبات المرجان فيجذبه الرجال إلى أنفسهم ، ويستخرجون منه الشيء الكثير ، ممّا يباع بالأموال الطائلة ، وعمدة أهلها على عمله ، وشرب أهلها من الآبار ، وهي قليلة الزرع ، وإنما يجلب إليها قوتها من بوادي العرب⁽¹⁴⁴⁾ المجاورة لها ، وكذلك الفواكه ريمًا جلبت إليها من بونة وغيرها .

بونة :

وبين مدينة بونة ومرسى الخرز مرحلة خفيفة ، وفي البحر أربعة وعشرون ميلاً روسية . ومدينة بونة متوسطة ، ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ، ونعتها في بقعتها كالأربس ، وهي على نحر البحر ، وكانت لها أسواق حسنة وتجارة مقصودة ، وأرباح موجودة ، وبها كثير من الخشب موجود ، جيد الصفة ، وبها بساتين وشجر ، وأنواع الفواكه ما يعم أهلها وأكثر فواكهها من باديتها ، والقمح بها والشعير في أوقات الإصابة كثير جداً ، وبها معادن حديد جيد⁽¹⁴⁵⁾ ، ويزرع / بأرضها الكتان ، والعسل بها موجود وكذلك السمن ، وأكثر سواهم البقر ، ولها أقاليم وأرض واسعة تغلبت العرب عليها . وقد ضعفت وذهبت عمارتها (ثم رجعت الآن وهي المسماة الآن بمدينة العناب)⁽¹⁴⁶⁾ وبقرب بونة جبل يدوغ⁽¹⁴⁷⁾ وهو عالي الذروة ، سامي القمة وبه معادن الحديد .

(143) ساقطة من ت .

(144) في ت : «الأعراب» .

(145) ساقطة من ش .

(146) ما بين القوسين إضافة من المؤلف عما هو موجود بنزهة المشتاق .

(147) في الأصول : «يروغ» والمثبت من ن . م . ص 117 .

الأربس :

ومن مدينة باجة إلى مدينة الأربس مرحلتان [خفيفتان] (148).
 ومن الأربس إلى القيروان ثلاث مراحل ، وكذلك بين باجة والبحر.
 ومدينة الأربس في وطاء عليها سور ، وفي وسطها عين ماء جارية لا تجف ، وشرب
 أهلها من تلك العيون واسم عين منها رباح ، والأخرى عين زياد ، وماء عين زياد أطيب
 من ماء عين رباح ، وماؤها صحيح ، ولها معدن حديد وليس حولها من خارجها عود
 نابت البتة ، وهي على مزارع الحنطة والشعير ، ويدّخر منه الشيء الكثير.

ومدن أخرى :

ومنها على اثني عشر ميلاً مدينة أبة ، وبها عين جارية منها شربهم ، وهي غدقة
 وماؤها غزير ، وكان عليها سور من طين ، وهي الآن خراب (149).
 ومن الأربس إلى مدينة صغيرة تسمى تامديت مرحلتان ، وعليها سور تراب ،
 وشرب أهلها من عيون بها ، وغلات أهلها من الحنطة والشعير المقدار الكثير.
 وبين الأربس ومدينة تامديت مدينة صغيرة / تسمى مرماجة ولأهلها من القمح [53/ب
 والشعير المقدار الكثير ما يعم بالكفاف وزيادة.

ومن تيجس (150) إلى بونة الساحلية ثلاث مراحل.

ومن الأربس إلى تونس مرحلتان.

ومن مدينة تيجس (151) إلى قسنطينة يومان.

وبين الأربس ومدينة باجة اثنا عشرة مرحلة.

ومن مرماجة (152) إلى مدينة مجانة مرحلة كبيرة وهي مدينة صغيرة عليها سور
 تراب ، وكان يزرع بها قديماً بصل الزعفران ، ولهم وادٍ غزير الماء ، يأتي من جبل بمقربة
 منها ، يزرعون عليه غلاتهم ، وهو جبل شاهق تقطع منه [أحجار] (153) الطواحن التي

(148) إضافة من ن. م.

(149) في نزهة المشتاق : «وأكثرها الآن خراب» ص 117.

(150) في الأصول : «تيجس» والمثبت من ن. م. ص 118.

(151) ما بين القوسين ساقط من ش.

(152) في الأصول : «باجة» والمثبت من ن. م. ص 118.

(153) إضافة من نزهة المشتاق للضبط ص 118.

إليها الانتهاء في الجودة وحسن الطحين ، حتى أن الحجر منها ربّما مرّ عليه ⁽¹⁵⁴⁾ عمر الانسان فلا يحتاج إلى نقش ولا إلى صنعة لصلابته ودقة أضراسه ، وأرض بجانة تغلبت عليها العرب فتخترن بها طعامها .
وبينها وبين قسنطينة ثلاث مراحل . ومنها إلى بجاية الناصريّة ست مراحل .

جزيرة باشو:

وبين تونس والحمّات مرحلة كبيرة ، وهذه المرحلة هي عرض الجزيرة المسماة بجزيرة باشو ⁽¹⁵⁵⁾ . وهي أرض مباركة طيبة ذات أشجار وعمارات متصلة ، وبركات وخيرات ، ومياه ليست بعيدة من وجه الأرض ، فهي ممكنة بالآبار ، وفيها خصب كثير زائد . وهذه الجزيرة إقليم بها مدينة باشو . ولم يبق الآن إلا مكانها ، وفيه قصر معمور [ومنها قصر على البحر يسمّى نابل] ⁽¹⁵⁶⁾ ، وكذلك قصر توسيهان ، وبالقرب منها أثر / [54/أ] مدينة كانت عامرة في أيام الروم خربت ، وبقي مكانها .

جبل زغوان :

وبين تونس والقيروان جبل زَغَوَان وهو عالٍ جدّاً ، تقصده المراكب من ظهر البحر لعلّوه وارتقائه في الجو ؛ وهو من أكثر الجبال ماء ، وفيه خصب ومزارع ، ومياه جارية ، وعمارة ، ويعمر في أماكن منه عبّاد المسلمين ، ينفردون بأنفسهم .

جبل وسلات :

وكذلك جبل وسلات (وبينه وبين تونس يومان) ⁽¹⁵⁷⁾ ، وبينه وبين القيروان خمسة عشر ميلاً ، وفيه عمارات كثيرة ، ومياه جارية ، وفيه من الحصون حصن الجوزات ، وحصن تيفاف ، وحصن القيطنة ، ودار اسماعيل ، ودار الدّواب ، وكل هذه البلاد (كان) ⁽¹⁵⁸⁾ يعمرها قبائل من البربر ، وهم أهل هذه النّاحية ، وهم في خصب ولهم

154 في الأصول : «على» والمثبت من ن . م .

155 في الأصول : «باشق» والمثبت من ن . م . ص 118 .

156 اضافة من نزهة المشتاق أكيدة ، تفادياً للخلط ص 118 .

157 في الأصول : «وطوله يومان» والمثبت من ن . م . ص 119 .

158 في نزهة المشتاق : «وكل هذه البلاد يعمرها» والتغيير الصادر عن المؤلف يسجل الفارق الحاصل بين الماضي وحاضره .

مواشي أبقار ، وأغنام وبغال ، ورمالك⁽¹⁵⁹⁾ (وساعة التاريخ غضب سلطان تونس المرحوم سيدنا علي باشا ابن سيدنا حسين (بن علي)⁽¹⁶⁰⁾ - رحمهما الله تعالى - على أهل وسلات وأخرجهم⁽¹⁶¹⁾ من هذا الجبل ، فلم يبق به أنيس)⁽¹⁶²⁾ .

ومدن أخرى :

ولنذكر الآن (الطرقات)⁽¹⁶³⁾ المسلموكة بين هذه البلاد .

فالطريق من القيروان إلى تاهرت⁽¹⁶⁴⁾ . فن القيروان إلى الجهنين وهي قرية مرحلة ، إلى مدينة سيبية مرحلة وهي مدينة قديمة ، كثيرة المياه والجنات ، وعليها سور من حجارة ، ولها ريف في الأسواق والخانات وشربهم (من عيون جارية كثيرة)⁽¹⁶⁵⁾ عليها جناتهم / ومنها إلى مرماجة وهي قرية لهواة مرحلة .

ومنها إلى مدينة بجانة مرحلة ثم إلى مسكيانة⁽¹⁶⁶⁾ مرحلة وهي [قرية]⁽¹⁶⁷⁾ عامرة قديمة ، وبها زروع ومكاسب وعيون ، ولها سوق ممتدة كالسماط وهي أكبر من مرماجة⁽¹⁶⁸⁾ .

ومنها إلى باغاية⁽¹⁶⁹⁾ وهي مدينة عامرة - كما تقدم - .

وطريق ثانية تأخذ من القيروان إلى المسيلة على غير الطريق الأولى .

فن القيروان إلى جلولا⁽¹⁷⁰⁾ مرحلة خفيفة ، وهي مدينة صغيرة عليها سور وبها عين ماء جارية ، عليها بساتين كثيرة ونخل كثير .

(159) ج . رمكة وهي الفرس التي تتخذ للنسل . انظر تاج العروس 137/7 .

(160) ساقطة من ش وط .

(161) في ش وط : « فأخرجوا » .

(162) ما بين القوسين إضافة من المؤلف عما هو موجود بنزعة المشتاق . وبعدها في ت : « أبدا إلى الآن » وهي زيادة من الناسخ كما هو ظاهر .

(163) في ت : « الطريق » .

(164) بعدها في الأصول : « بأن تخرج » أسقطناها طبقاً لنزعة المشتاق وليستقيم المعنى .

(165) في نزعة المشتاق : « من عين جارية كبيرة » ص 119 .

(166) في الأصول : « مسكانة » والمثبت من ن . م . ص 119 .

(167) إضافة من ن . م .

(168) في الأصول : « بجانة » والمثبت من ن . م .

(169) في الأصول : « باغاية » والمثبت كما أشرنا فيما سبق .

(170) كذا في الأصول وفي البيان المغرب للبكري ص 31 - 33 . وكتبها الإدريسي في نزعة المشتاق بالتاء ص 120 .

ومنها إلى آجر⁽¹⁷¹⁾ مرحلة ، وهي قرية حسنة مأوها من الآبار ، وفيها زروع وحنطة ، وشعير كثير .

ومنها إلى قرية طابحة⁽¹⁷²⁾ مرحلة ، ولها فحوص كبير ، وحنطتها وشعيرها كثير ، رخيص جدًا .

ومنها إلى مدينة الأريس مرحلة .

ومن الأريس إلى تيفاش مرحلة ، وهي أيضًا مدينة قديمة عليها سور قديم بالحجارة والجير ، وبها عين جارية ، ولها بساتين ورياضات وأكثر غلاتها الشعير .

ومن تيفاش إلى قصر الافريقي مرحلة ، ولا سور لها ، ولها مزارع وإصابات جمّة من الحنطة والشعير .

ومنها إلى قرية أركو مرحلة ، ولها جنّات وعيون ومياه وبساتين .

ومنها إلى قرية البردوان مرحلة ، وكانت قرية كبيرة ، وهي من أقاليم القمح والشعير . [i/55]

ومنها إلى قرية النهروين مرحلة وهي في وطاء من الأرض ، وفيها آبار عذبة ، والغالب عليها البربر من كتامة ومزاةة .

ومنها إلى قرية تامسيت مرحلة وبها أشجار وعمارات .

ومنها إلى دكمة مرحلة وهي (قرية لها أسواق وأصلها من كتامة .

ومنها إلى أوسحنت مرحلة وهي⁽¹⁷³⁾ قرية للبربر ، وبها مياه جارية ، ومزارع حنطة وشعير .

ومنها إلى المسيلة أقل من مرحلة .

ومن المسيلة إلى وارقلان⁽¹⁷⁴⁾ اثنتا عشرة مرحلة كبار ، وهي مدينة فيها قبائل مياسير ، وتجّارها أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة وبلاد ونقارة ، فيخرجون منها

التبر ، ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم وهم وهبيّة إباضية نُكّارة⁽¹⁷⁵⁾ خوارج في دين

(171) في الأصول : «أخرى» والمثبت من ن . م . ص 120 ، وفي مراصد الاطلاع «أجر» .

(172) في ت : «ماجنة» ، وفي ش : «صابحة» ، وفي ط : «سمجة» والمثبت من ن . م . ص 120 .

(173) ما بين القوسين ساقط من ت . وفي نزهة المشتاق عوض أسواق نجد «سوق» ص 120 .

(174) بالقاف المقودة كالجيم المصرية ، وهي المعروفة بورقلة ، وهي واحة في الجنوب الجزائري .

(175) هكذا في الأصول وفي بعض نسخ نزهة المشتاق ، وفي طبعة ليدن منها «نكار» .

الإسلام. قاله في «نزهة المشتاق»⁽¹⁷⁶⁾.

ومن وارقلان إلى غانة ثلاثون مرحلة.

ومن وارقلان إلى كوغة⁽¹⁷⁷⁾ نحو من شهر (ونصف)⁽¹⁷⁸⁾.

ومن وارقلان إلى قفصة ثلاثة عشرة مرحلة.

طرابلس:

ومن قابس إلى طرابلس⁽¹⁷⁹⁾ ست مراحل⁽¹⁸⁰⁾ (وكلها كانت آهلة، وهي الآن

خراب، استولت عليها قبائل الأعراب كانوا فيما مضى يسمون مرداس ورياح. ومدينة

طرابلس كانت حسنة حصينة وهي الآن خراب)⁽¹⁸¹⁾ وهي في نحر البحر (كانت)⁽¹⁸²⁾

يضاء حسنة الشوارع متقنة الأسواق، وبها صنّاع وأمتعة يتجهّز بها / إلى كثير من [55/ب]

الجهات، وكانت متّصلة⁽¹⁸³⁾ العمارة من جميع جهاتها، كثيرة شجر التين والزيتون وبها

فواكه جمّة، ونخل إلا أن العرب أضرت بها وبما حولها من ذلك وأجلت أهلها وأخلت

بواديا وغيّرت أحوالها، وأبادت أشجارها، وغوّرت مياهها، وكانت⁽¹⁸⁴⁾ عديمة المثال

في إصابة الزرع، ولا يدرى في معبور الأرض مثلها في ذلك، وكان ذلك عندهم

معلوماً مشهوراً (ثم إن هذه المدينة أهلكت بالمرّة حتى أتى السلطان⁽¹⁸⁵⁾ درغوث باشا

— رحمه الله تعالى — أحد أمراء السلطنة العثمانية فأنشأ مدينة جديدة بالقرب من

الأولى⁽¹⁸⁶⁾، وهي مدينة لطيفة جليلة في قدر مدينة سوسة)⁽¹⁸⁷⁾.

176 انظر ن. م. ص 121. 177 في الأصول: «كوتة» والمثبت من ن. م. ص 121.

178 كذا في ط ونزهة المشتاق. وساقطة في ت وش.

179 كتبها الادريسي والبكري «اطرابلس» وكذلك في مختلف كتب التراث.

180 لم يذكر الادريسي عدد المراحل بين قابس وطرابلس. وحذف المؤلف جملاً قبل ذلك تتعلق بمنازل اندثرت.

راجع ن. م. ص 121.

181 اضافة من المؤلف عما هو موجود بنزهة المشتاق. وينطبق على واقع طرابلس القديمة التي اندثرت ولا ينطبق

على طرابلس الشبيطة في القرن الثامن عشر.

182 اضافة من المؤلف تسجل بعداً تاريخياً.

183 في نزهة المشتاق «مفضلة العمارات» ص 121.

184 حذف المؤلف تاريخ فتح الملك النزماني رجار لطرابلس ص 122 - 123.

185 لم يكن درغوث باشا سلطاناً على طرابلس بل كان والياً عليها، تابعاً للسلطنة العثمانية من سنة 1556 - 1565.

أتوري روسي: «ليبيا»، تعريب خليفة محمد التليسي، بيروت 1974، ص 181 - 186.

186 دخل العثمانيون مدينة طرابلس في 14 أوت 1551. ولم تذكر كتب التاريخ إحداث مدينة جديدة قريبة من =

الطرق من طرابلس إلى ما جاورها :

ومن مدينة طرابلس في جهة الشرق إلى مدينة سرت مائتا ميل وثلاثون ميلاً ، وهي إحدى عشرة مرحلة ، فيخرج السائر من مدينة طرابلس إلى المجتنى عشرون ميلاً . ومن المجتنى إلى ورداسا اثنان وعشرون ميلاً . ومن ورداسا إلى رغوغا خمسة وعشرون ميلاً .

ومن رغوغا إلى تاورغا اثنان وعشرون ميلاً (ثم إلى المنصف خمسة وعشرون ميلاً) (188) ثم إلى قصر حسان بن النعمان الغساني - رضي الله تعالى عنه - أربعون ميلاً ، ثم إلى الأصنام ثلاثون ميلاً ، ثم إلى سرت ستة وأربعون ميلاً ، وهذا الطريق يبعد عن الساحل تارة ويقرب أخرى ، وساكن (189) ذلك كله قبيلتان من العرب / وهما عوف ودباب . [1/56]

وبين مدينة سرت والبحر ميلان ، وعليها سور تراب ، وما استدار بها رمل ، وبها بقايا نخيل ، ومياها من المطر في المواجل وآبارها قليلة وعليها قبائل من البربر .

ومن مدينة طرابلس إلى جبل نفوسة ست مراحل ، وكذلك من جبل نفوسة إلى صفاقس تسع مراحل ، وبأعلى طرابلس جبل مقددة (190) (وهو غريان) (191) ثلاث مراحل . ومن جبل نفوسة إلى قسطنطية (192) ست مراحل ، وأهل جبل نفوسة كلهم إسلام ولكنهم خوارج نكّار على مذهب ابن منبّه اليماني كأهل وارقلان .

= الأولى ، على يد درغوث باشا . بل ذكرت أنه عمل جاهداً على تجديد بناء طرابلس التي تدهور عمرانها في الفترة السابقة وتجميلها . وجلب السكان إليها . كما عمل على تشييد القلاع والحصون للدفاع عنها . راجع على سبيل المثال : شارل فيرو (Ch. Féraud) الحوليات الطرابلسية (Les annales Tripolitaines) . تونس . باريس 1927 ، ص 49 - 57 . وطرابلس الغرب لمحمد ناجي . ومحمد نوري . تعريب اكمال الدين محمد إحسان ، طرابلس 1973 ، ص 166 . واتوري روسي . المرجع السابق ص 187 . يقول « ووجه درغوث عناية خاصة وكبيرة إلى التحصينات العسكرية وشيد المسجد الذي يحمل اسمه . وشرع في إقامة البرج الذي عرف فيما بعد باسم « برج التراب » .. كما رُم القلعة وبنى قصراً كبيراً في قلب المدينة اتخذ منه سكناه » .

(187) إضافة من المؤلف عما هو موجود بنزهة المشتاق تدقق الفارق بين طرابلس القديمة التي تحدث عنها الادريسي وطرابلس التي جدها درغوث باشا وبعث فيها النشاط .

(188) كذا في توط وفي ن . م . . ساقطة من ش . وفي المغرب العربي من نزهة المشتاق تحقيق محمد حاج صادق .

(189) في نزهة المشتاق : « وكل ذلك في ملك قبيلتين من العرب » ص 122 .

(190) في الأصول : « مغرة » والمثبت من ن . م .

(191) تفسير من المؤلف ، أضافه عما هو موجود بنزهة المشتاق .

(192) في الأصول : « قشيلية » والمثبت من ن . م . . والبيان المغرب من المسالك .. للبكري . ص 4 - 48 .

جبل دمر:

ومن جبل نفوسة إلى جبل دمر ثلاث مراحل في رمل متصل ، وفي أطراف هذا الجبل قوم من البربر يسمّون رهانة⁽¹⁹³⁾ وهم قوم ينتجون الإبل ، ويركبون أمصاها وأسرعها خطأ ، ويسرون فرقًا إلى ما تباعد منهم من قبائل العرب ، فيغيرون عليهم وعلى إبلهم ويعودون بغنائمهم إلى جبلهم ومواضع مساكنهم التي يأوون إليها ، وليس لهم شغل إلا هذا ، وليس أحد من العرب المجاورين لهم إلا ويشتكى أذيتهم ، وقليلًا ما يظفر بأحد منهم لسرعة جري نجبهم ، ودلاتهم تلك الأرض ، وتحصّينهم في أمكنتهم⁽¹⁹⁴⁾.

وتتصل هذه البلاد في جهة الجنوب ببلاد ودّان ، ثم بعد هذه البلاد تنقطع العمارة / إلى اسكندرية ، فأكثر هذه الأراضي خالية ، وفيها من البلاد زويلة ابن خطاب⁽¹⁹⁵⁾ وزالة ، ومستريح وأوجلة وبرقة ، وعلى الساحل⁽¹⁹⁶⁾ جمل من القصور يحيط بها التفصيل ، وبها من البلاد المشهورة سرت وأجدابية .

برقة :

فأما مدينة برقة فمدينة متوسطة المقدار ، ليست بكبيرة القطر ، وتخرج منها التربة المنسوبة إليها ، فينتفع بها الناس ، ويتعاجلون بها مع الزيت للجرب والحكة وداء الحية ، وهي تربة غبراء ، وإذا ألقيت في النار ظهرت⁽¹⁹⁷⁾ لها رائحة كريهة كرائحة الكبريت ، وهي فظيعة الدخان كريهة الطعم⁽¹⁹⁸⁾.

الطريق من برقة إلى العين :

ومن برقة إلى مدينة أوجلة في البرية عشر مراحل بسير القوافل ، وكذلك من برقة إلى أجدابية ست مراحل ، وهي من الأميال مائة واثنان وخمسون ميلًا .

(193) في الأصول : «زيانة» والمثبت من ن . م . ص 123 .

(194) عن جبل دمر انظر النص الكامل في نزهة المشتاق ص 123 . وجبل دمر سلسلة جبلية في الجنوب الليبي والتونسي تمتد من حدود طرابلس إلى جنوب قابس ، ويطلق خاصة على الجهة الغربية ، وتقابل جهة بني خداش . راجع على سبيل المثال «نظام العزابة عند الأماضية الوهية في جربة» ، ص 160 ، هامش 11 ، لفرحات الجعبري .

(195) في الأصول : «بني خطّاب» والمثبت من ن . م . ص 130 .

(196) في نزهة المشتاق : «وعلى ساحل البحر الشامي من القصور جمل...» .

(197) في نزهة المشتاق : «فاحت» .

(198) عن برقة انظر النص الكامل في نزهة المشتاق ص 131 - 132 .

ومن برقة إلى الاسكندرية إحدى وعشرون مرحلة وهي من الأميال خمسمائة ميل وخمسون ميلاً⁽¹⁹⁹⁾.

فإذا خرج الخارج من طرف قانان صار إلى قصور حسّان وقطع في البرية أربع مراحل كبارا ، ليس بها من الماء شيء.

ومنها إلى الأصنام ثلاثون ميلاً ، ويُسمّى هذا الجون جون زديك⁽²⁰⁰⁾ ، والماء يوجد بها في خروق أحساء محفورة في الرمل على ضفة البحر.

ومن الأصنام إلى القرنين⁽²⁰¹⁾ وهو قصر كبير عامر وفي وسطه بئر عميقة وإليها تصب مياه الأمطار.

ومنها إلى قصر العبّادي على البحر أربعة وثلاثون ميلاً / .

[أ/57]

ومن قصر العبادي إلى اليهودية أربعة وثلاثون ميلاً.

ومن اليهودية إلى قصر العطش (أربعة وثلاثون ميلاً وفيه ثلاث جباب .

ومن قصر العطش)⁽²⁰²⁾ إلى منهوشة ثلاث مراحل ، لا ماء فيها ، وهي سباح وطنة ، ومنهوشة على البحر ، ومياهاها أحساء .

ومن منهوشة إلى بئر الغنم نحو من ثلاث عشر ميلاً ، وهي على آخر السبخة المنسوبة إلى منهوشة .

ومنها إلى الفاروخ مرحلة ، وهي من الأميال ثلاثون ميلاً.

ومن الفاروخ إلى حرّقة⁽²⁰³⁾ خمسة وعشرون ميلاً ، ثم إلى توسمت⁽²⁰⁴⁾ عشرون

ميلاً ، ثم إلى سلّوق أربعة وعشرون ميلاً ، ثم إلى أورار⁽²⁰⁵⁾ ثلاثون ميلاً ، ثم إلى قصر العسل اثنا عشر ميلاً ، [ثم إلى مليتية سبعة وعشرون ميلاً] ثم إلى برّقة خمسة عشر ميلاً.

والطريق من سلّوق إلى قافر مرحلة ، وقافر في وسط وطاء برنيق ، وفي شرقها غابة متصلة إلى البحر وبينها وبين البحر أربعة أميال .

(199) حذف المؤلف ما يتعلق بأجدابية وأوجلة ومستبح ، أنظر ن . م . 132 - 134 .

(200) في نزهة المشتاق : «جون زديك» (لعل الكاف فارسية والقاف معقودة).

(201) في الأصول : «الفرس» والمثبت من ن . م . ص 135 .

(202) ما بين القوسين ساقط من ت . و ط .

(203) في الأصول : «جرقة» والمثبت من ن . م . ص 135 .

(204) كذا في بعض نسخ ن . م . وفي غيرها : «برسمت» .

(205) في ش : «أوراز» في ت و ط : «أورار» والمثبت من ن . م .

وبعقربة من قافر في جهة الشرق بحيرة مع طول البحر يحجزها تل رمل ، وماؤها عذب ، وطولها ستة عشر ميلاً ، وفي سعتها نحو من نصف ميل .
ومنها إلى قانوس⁽²⁰⁶⁾ ، وهو قصر ، عشرة أميال .
ومنه إلى أوْطِيط ، وهو قصر عامر بالناس نصف يوم .
ومنه إلى أربعة أبراج ، وهو قصر ، يوم .
ومنه إلى قصر العين عشرة أميال ومنه إلى قصر ظلميته .

الطريق من برقة إلى الإسكندرية :

ونقول⁽²⁰⁷⁾ إن من مدينة برقة إلى الإسكندرية على طريق مستقيم إحدى وعشرون مرحلة / وذلك من برقة إلى قصر الندامة ستة أميال ، ومنها إلى تاكنست⁽²⁰⁸⁾ ستة عشر ميلاً ، إلى مغار الرقيم خمسة وعشرون ميلاً ، وهنا يجتمع هذا الطريق بالطريق الأعلى .

ومن مغار الرقيم إلى جب حليلة خمسة وثلاثون ميلاً .
ومن جُبِّ حليلة إلى وادي مخيل⁽²⁰⁹⁾ خمسة وثلاثون ميلاً .
ومن وادي مخيل إلى جُبِّ الميدان خمسة وثلاثون ميلاً .
ومن جُبِّ الميدان إلى جناد الصغير خمسة وثلاثون ميلاً ، ثم إلى جُبِّ عبد الله ثلاثون ميلاً ، ثم إلى مرج الشيخ ثلاثون ميلاً ، ثم إلى العقبة عشرون ميلاً ، ثم إلى حوانيت أبي حليلة عشرون ميلاً .
ومن حوانيت أبي حليلة إلى خربة القوم خمسة وثلاثون ميلاً ، ثم إلى قصر الشماس (خمسة عشر ميلاً .

ومن قصر الشماس⁽²¹⁰⁾ إلى سكة الحمام خمسة وعشرون ميلاً .
ومن سكة الحمام إلى جُبِّ العوسج ثلاثون ميلاً .

(206) في الأصول : «مماقس» والمثبت من ن . م . ص 135 .

(207) يتكلم على لسان الادريسي دائماً ، يدخل في باب الجزء الرابع من الاقليم الثالث من ترتيب الادريسي بترهه المشاقق وينقل منه ص 136 .

(208) في ش : «ماكنست» وفي ت و ط : «ماكنت» والمثبت من ن . م . ص 136 .

(209) في الأصول : «تحيل» والمثبت من ن . م . ص 137 .

(210) ما بين القوسين ساقط من ش .

ومن جبّ العوسج إلى كنائس الحرير إلى الطاحونة أربعة وعشرون ميلاً .
ومن الطّاحونة إلى حنية الروم ثلاثون ميلاً .

ومن حنية الروم إلى ذات الحمام أربعة وثلاثون ميلاً ، وإلى ثونية ثمانية عشر ميلاً ،
ثم إلى الاسكندرية عشرون ميلاً ، وهذه الطريق هي الطريق العلّيا في الصحراء .

الطريق الساحلي من بونة إلى نابل :

ولنرجع ⁽²¹¹⁾ إلى ذكر ما تضمنه هذا الباب من مراسي البحر وقراطيله ، وما عليه من
القصور المعمورة والبلاد المقصودة ، وبالله الإستعانة وعليه التكلان .

فمن مدينة بونة الغربية إلى الطّرف ستة أميال إلى جون الأزقاق ⁽²¹²⁾ ، وهو
جون ⁽²¹³⁾ صغير وفي آخره مرسى الخرز ، وهذا القرطيل داخل في البحر أربعون / ميلاً .
ومن مرسى الخرز إلى طبرقة أربعة وعشرون ميلاً ، ومنها إلى طرف الجون خمسة
عشر ميلاً روسيةً ، وعلى التقوير أربعة وعشرون ميلاً ، وهناك طرف ⁽²¹⁴⁾ يسمّى المنشار ستة
عشر ميلاً .

ومن طرف المنشار إلى قلعة أبي خليفة عشرة أميال ، ومنها قطع جون روسيةً عشرون
ميلاً ، وتقويراً ثمانية وعشرون ميلاً .

وإلى رأس الطرف اثنا عشر ميلاً ، ومنها إلى بنزرت ثمانية أميال ، ومنها إلى مرسى
بني وجّاص اثنا عشر ميلاً .

ومن مرسى بني وجّاص إلى رأس الجبل ثلاثة عشر ميلاً جوناً ، وعلى هذا الجون
قصور .

فمن أول رأس بني وجّاص إلى قصر مرسى الوادي ثلاثة أميال ، وهو مسقط نهر
صغير ، ومنه إلى قصر مرسى داود ⁽²¹⁵⁾ ثلاثة أميال ، ومنه إلى قصر موسى ⁽²¹⁶⁾ خمسة

(211) هنا يخالف المؤلف ترتيب الادريسي ، ويرجع لينقل ما أخره فيها يتعلق بالسواحل ، وذلك من بونة إلى
طرابلس وهذه الفقرة توجد في الجزء الثاني من الاقليم الثاني من ترتيب الادريسي ص 123 - 130 .

(212) في الأصول : « الزقاق » والمثبت من ن . م . ص 123 .

(213) ساقطة من ش .

(214) كذا في بعض نسخ ن . م . وفي غيرها : « رملة » .

(215) في نزهة المشتاق : « ترشة داود » ص 124 .

(216) في نزهة المشتاق : « قصر صونين » ص 124 .

أميال ، ومنه إلى طرف الجبل ميلان ، وهذا الطرف يُعرف بالكنيسة ، وهو أول الجون الذي في وسطه مدينة تونس وبحيرتها .

فن طرف الجبل مع التقوير إلى موقع نهر مجردة⁽²¹⁷⁾ ستة أميال .

ومن موقع الوادي إلى قصر جلّة أربعة⁽²¹⁸⁾ أميال ، ومنه إلى قصر جردان ميلان ، ومنه إلى قرطاجنة ميلان ، ومنها إلى حلق وادي تونس ثلاثة أميال ، وهذا الوادي في نصف الجون .

ومن فم الوادي إلى قصر فهم⁽²¹⁹⁾ اثنا عشر ميلاً ، وإلى قصر قُرْبُص ستة عشر ميلاً ، وإلى طرف أفران أربعة عشر ميلاً ، وهو قرطيل داخل في البحر ، فجميع تقوير هذا الجون أربعة وسبعون ميلاً / وقطعه روسيّة .

[58/ب]

ومن رأس الجبل إلى طرف أفران ثمانية وعشرون ميلاً ، وكذلك من وسط الجون حيث فم وادي تونس إلى طرف أفران إذا قطع روسيّة ثمانية وعشرون ميلاً ، وتقويراً ستة وخمسون ميلاً .

ومن طرف أفران إلى مرسى قصر النخلة ستة أميال ومنه إلى قصر بترت⁽²²⁰⁾ اثنا عشر ميلاً ، ومنه إلى قصر بُونة ثلاثون ميلاً .

فن فم وادي تونس إلى نوبة سبعون ميلاً ، ويوازي نوبة في البحر الجامور الكبير والجامور الصغير ، وبينهما سبعة أميال ، ومن الجامور الكبير إلى نوبة اثنا عشر ميلاً ، ومن نوبة روسيّة إلى رأس الرخيمة ميل واحد جونا ، وهذا الجون على التقوير ستة أميال ، وكله قصير .

ومن رأس الرخيمة إلى طرف البقلة⁽²²¹⁾ وهو طرف الجبل المسمّى أدارون⁽²²²⁾ ، وهو من ناحية اقليبية في المشرق .

ومن رأس الرخيمة إلى الجامور الصغير ستة أميال ، وهذان الجاموران جبلان قائمان

(217) في نزهة المشتاق : « مجردة » وهو الاسم القديم لهذا النهر .

(218) في نزهة المشتاق : « نحو من أربعة أميال » ص 124 .

(219) كذا في بعض نسخ ن . م . وفي غيرها : « جهم » .

(220) في الأصول « متروت » والمثبت من ن . م . ص 124 .

(221) في ش و ت « البلغة » وفي ط : « النخلة » والمثبت من ن . م .

(222) في ت « ما دار » وفي ش و ط : « أدار » والمثبت من ن . م . ص 124 .

في البحر ، ويرسى بهما عند انغلاق⁽²²³⁾ الرياح ، فجميع ما بين نوبة واقليبية ثلاثون ميلاً .

ومن طرف اقليلية إلى المنستير مجرى (مائتان وخمسون ميلاً)⁽²²⁴⁾ .

فن اقليلية إلى قصر أبي مرزوق⁽²²⁵⁾ سبعة أميال ، ومنه إلى قصر لبنة ثمانية أميال .

ومن لبنة إلى قصر سعد ، أربعة أميال .

ومن قصر سعد إلى قصر قرية ثمانية / أميال إلى طرف توسيهان عشرة أميال ،

[I/59]

وطرف توسيهان يدخل في البحر ميلاً ونصفه ، وهو كالضرس الخارج .

ومن هذا الضرس⁽²²⁶⁾ الخارج إلى قصر توسيهان في الجون أربعة أميال .

نابل :

ومن توسيهان إلى قصر نابل ثمانية أميال ، وكانت نابل مدينة للروم ، كبيرة جداً عامرة ، فلما فتحت الجزيرة في صدر الإسلام استبيحت جميع محاسنها حتى لم يبق لها رسم ولا أثر إلا مكان قصر فقط ، وبقيت بقايا خرابها دالة عليها⁽²²⁷⁾ .

الطريق الساحلي من نابل إلى سوسة :

ومن قصر نابل إلى قصر الخياط ثمانية أميال ، وبينه وبين البحر نحو من ميلين .

ومن قصر الخياط إلى قصر النخيل ستة أميال ، ثم إلى طرف الحمامات سبعة

أميال ، وهذا الطرف المسمى طرف الحمامات هو قصر مُشيد على طرف يدخل⁽²²⁸⁾ في البحر نحواً من ميل .

ومن الحمامات إلى المنار وهو قصر خمسة أميال ، وهذا القصر على بُعد من البحر .

ومنه إلى قصر المرصد إلى قصر المرابطين ستة أميال ، وهذا القصر في قاع جون

المدفون .

ومنه إلى طرف قرطيل المدفون ستة أميال ، ومن لقرطيل المذكور إلى حصن أهرقلية

ثمانية أميال .

(223) كذا في ش و ط ، وفي ت : « انغلاق » وفي ن . م . « انقلاب » .

(224) اضافة من المؤلف عما هو موجود في ن . م .

(225) في الأصول : « أبي منصور » والمثبت من ن . م . ص 125 .

(226) في الأصول : « القصر » والمثبت من ن . م . ص 125 .

(227) بعدها حذف المؤلف ما يتعلق بقصر الخياط والحمامات ، انظر ن . م . ص 124 .

(228) كذا في ت و ط ون . م . ، وفي ش : « يخرج » .

سوسة :

ومن أهرقلية إلى مدينة سوسة ثمانية عشر ميلاً ، وهي مدينة عامرة كثيرة المتاجر ، والمسافرون إليها قاصدون وعنها صادرون ، ويعمل بها من أنواع الثياب المنسوبة إليها / ما [59/ب] يعدم نظيره ، وبها أسواق عامرة ومباهم من المواجهل ، وعليها سور من حجر حصين (وشجر الزيتون محيط بها من جميع جهاتها إلا ما أحاط به البحر ، فأكثر غلاتها الزيتون وما يعتمر من زيتة ، وفواكهها كثيرة من بساينها ومن قراها المحيطة بها ، وبها من الحنطة والشعير كثير منها ، ومما يجلب إليها من غيرها ، وأهلها مياسير متشبهون بأهل تونس⁽²²⁹⁾ في الزي والوضع ، وهي في سند روبة من الأرض مواجهة للبحر من جهة المشرق ، ووضعت كذلك طلباً لنسيم البحر⁽²³⁰⁾ ليصلح هواؤها ويذهب فسادة ، ولا تبقى بها مياه الأمطار ولا مستنقعات الطرقات ، فبذلك خفت على النفس ، وجلبت النشاط ، وبها من أهل الخير والصّلاح بقية خاملون ، كما هو شأن غالب هذا الزّمان لغلبة الفساد وأهله ، وقلة الصّلاح وأهله ، لأن الأرض قد ملئت جوراً ، والله المستعان⁽²³¹⁾ .

الطريق الساحلي من سوسة إلى صفاقس :

ومن سوسة إلى قصر شقانس ثمانية أميال .
[ومن شقانس إلى قصر ابن الجعد أربعة أميال]⁽²³²⁾ .
ومنه إلى قصر⁽²³³⁾ المنستير ميلان .
ويقابل المنستير في البحر جزيرة قُورية ، ومنها إلى المنستير تسعة أميال .
ومن هذه الجزيرة إلى كمطّة عشرة أميال ، ومنها إلى الديماس اثنا عشر ميلاً ،
ومنه⁽²³⁴⁾ إلى المهديّة ثلاثون ميلاً .
ومن المنستير إلى قصر كمطّة سبعة أميال .
ومن قصر كمطّة إلى الديماس ثمانية أميال .

(229) ساقطة من ت .

(230) كذا في ش و ت ، وفي ط : «الريح» .

(231) ما بين القوسين اضافة من المؤلف عما هو موجود بترجمة المشتاق .

(232) اضافة من ترجمة المشتاق يقتضيا السياق .

(233) في ن . م . : «قصور» .

(234) أي المنستير .

ومن الديماس إلى المهديّة / (عشرون ميلاً)⁽²³⁵⁾ ، والمهديّة مما أحاط به البحر ،
فنها يبتدئ التجوين في جهة جنوبها .

فن المهديّة إلى قصر سَلْقَطَة ستة أميال ، ومنه إلى قصر العالِيّة ستة أميال ، إلى
قبوْدِيّة⁽²³⁶⁾ ثلاثة عشر ميلاً .

وقبوْدِيّة قصر حسن ، ويصاد به من الحوت كل طريفة ، وهو بها كثير .

ومن قبوْدِيّة إلى قصر مُلَيّان (ثمانية أميال .

ومن قصر مُلَيّان)⁽²³⁷⁾ إلى قصر الرُّيْحَانَة أربعة أميال ، إلى قصر قَنَاطَة أربعة
أميال ، (وكان)⁽²³⁸⁾ يعمل بقصر قَنَاطَة فخّار كثير⁽²³⁹⁾ ساذج (من الدهن)⁽²⁴⁰⁾

ويتجهّز به إلى المَهْدِيّة وغيرها وطينه أحمر [ثم] إلى قصر اللُّوْزَة أربعة أميال ، إلى قصر
زياد ستة أميال .

ومن قصر زياد إلى قصر مجدونس ثمانية أميال .

ومن قصر مجدونس إلى قصر قاساس (ثمانية أميال .

ومن قصر قاساس)⁽²⁴¹⁾ إلى قصر قزل ميلان ، فن قصر زياد إلى قصر⁽²⁴²⁾ قزل ثمانية
عشر ميلاً . (وقصر قزل هو المسمّى بقصر عمار ، اسم رجل كان يحرسه ، واليوم صار

مشهوراً بسيدي منصور الغلام - نفعنا الله به - لأن ضريحه تحت القصر المذكور)⁽²⁴³⁾ .

ومن قصر قزل إلى قصر جِبَلَة ميلان ، وهو في جون ، ومنه إلى قصر⁽²⁴⁴⁾ صفاقس

في الجون خمسة أميال .

فن قبوْدِيّة⁽²⁴⁵⁾ إلى صفاقس ثمانية وأربعون ميلاً تقويراً ، وروسية ثلاثون ميلاً .

(235) في ن . م . : «ثمانية أميال» ص 126 .

(236) رأس قبوْدِيّة على ساحل مدينة الشابة بين المهديّة وصفاقس .

(237) كذا في ط وفي ن . م . ، ساقطة من ش وت .

(238) إضافة من المؤلف تضبط الفارق التاريخي لصناعة الفخار بقَنَاطَة .

(239) في ت : «كبير» .

(240) إضافة من المؤلف عما هو موجود بنزّه المشتاق .

(241) ما بين القوسين ساقط من ت .

(242) كذا في الأصول وفي بعض نسخ ن . م . . انظر هامش ن . م . ص 126 وفي نصها المثبت «طرف» .

(243) إضافة من المؤلف عما هو بنزّه المشتاق .

(244) كذا في الأصول ، وفي بعض نسخ ن . م . . وفي نسخ أخرى من النزّهة : «مدينة» . انظر ن . م . ص 126

وهامشها .

جزيرة قرقنة :

ومقابلة قصر زياد في البحر من المشرق جزيرة قرقنة ، وموضعها من قصر زياد وصفاقس (وسطاً) (246) ، وذلك لأن من قرقنة إلى قبودية (247) عشرون ميلاً ، ومن قرقنة إلى صفاقس نحو خمسة عشر ميلاً ، وهي جزيرة حسنة / عامرة بأهلها ، (ولم يكن) (248) بها مدينة (وكان) (249) سكانهم في أخصاص (إلا أنها في هذه المدة اشتملت على قرى بكل قرية جماعة بنوا لهم دياراً ، وسورها من الأعراب بحرّها ، ومن عدو الدين (250) قصر بحرّها (251) ، على أنها غير مأمونة منهم ، وهي كثيرة الأغاب والرطب والتين (252) وفي (الطرف الغربي منها) (253) كهوف وغيران يتحصنون فيها ممن يريد منهم من (النصارى) (254) وتسمى القرمدي (255) ، وهناك يتصل به بحر (256) قصير عشرون ميلاً . ومن القرمدي إلى بيت القصير (257) خمسة وثلاثون ميلاً ، وطول هذه الجزيرة ستة

245 في ن. م. : «فن قصر زياد...» والأصح ما ذكره مقديش.

246 اضافة من المؤلف أتى بها وصفاً لموضعها.

247 كذا في الأصول وفي بعض نسخ من ن. م. ، وفي نزهة المشتاق طبعة ليدن «قصر زياد». انظر ص 126 وهامشها.

248 في نزهة المشتاق : «وليس بها» ، وتغيير المؤلف يسجل تغييراً تاريخياً.

249 اضافة من المؤلف اشارة للبعد التاريخي.

250 أي المسيحيون المتمثلون في الزمان ، والاسبان ، وفرسان مالطا ، الذين تعرضوا للأرخبيل القرقي بالغزو عديد المرات.

251 جزر قرقنة كصفاقس لها حصانة طبيعية في قصر بحرّها فلذلك لا تتمكن سفن العدو من الاقتراب من شواطئها.

252 اضافة من المؤلف عما في نزهة المشتاق تسجل حالة قرقنة في عصره.

253 في الأصول : «وفي جهة المشرق» والثبت من ن. م. وهو الصحيح ص 127 ، والقرمدي جزيرة مقابلة لقرية العطايا بالشرقي . وبها صهاريج رومانية هي ولا شك التي نعتها المؤلف بالكهوف والغيران ، راجع أندري لويس (A. Louis) جزر قرقنة (Les Iles Kerkena) تونس ، 1861 ، 4/1 - 8 .

254 اضافة من المؤلف عما في ن. م.

255 في نزهة المشتاق : «القربدي» وفي هامشها الفرندي ، والصحيح ما ذكره مقديش وهي جزيرة صغيرة من جزر قرقنة . وتعرف بالقرمدي إلى اليوم ، والنون والميم كثيراً ما يتعاقبان في اللهجة الدارجة لتقارب مخرجيهما.

256 في نزهة المشتاق : «حجر» والصحيح ما أثبتته المؤلف.

257 قال عنه البكري : «على رأس القصير بيت مشرف مبني بينه وبين البر الكبير نحو أربعين ميلاً فإذا رأى قلب البيت أصحاب السفن الواردة من الاسكندرية والشام وبرقة أداروها إلى مواضع معلومة» المصدر السابق

عشر ميلاً ، وعرضها ستة أميال (وهي منقسمة على جزيرتين : كبراهما الشرقية⁽²⁵⁸⁾ وصغراهما الغربية⁽²⁵⁹⁾) ، ويمكن المشي بين الجزيرتين على الأرجل في وسط الماء وقت الجزر⁽²⁶⁰⁾ ، وتشي دواب هذه إلى هذه والعكس ، وليس لهم في جزيرتهم سوق وإنما سوقهم صفاقس ، ومعائشهم من البحر ، وبها إسْفَنج⁽²⁶¹⁾ الماء الذي لا يوجد بغيرها ، وبها جميع أنواع السمك وخصوصاً القَرْيُط⁽²⁶²⁾ ، ومن اصطيداه تيسر أحوالهم في الشِّدة ، ومنها يتجهز به إلى الآفاق⁽²⁶³⁾ ، وخصوصاً القَرْيُط ، فإنه يُحمل منه إلى جزر القريق⁽²⁶⁴⁾ مراكب ، يأكلونه⁽²⁶⁵⁾ أيام صيامهم لأنهم يزعمون أن الصَّيام إنما هو عن أكل الحيوان الذي له دم ، وهذا القَرْيُط لا دم له ولا شوك فياً كونه عوضاً عن اللحم ، وبقية أنواع السمك التي يزعمون تحريمها عليهم وكذا الأنعام / إنما حرموها بأنفسهم افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين⁽²⁶⁶⁾ .

[أ/61]

الطريق الساحلي من صفاقس إلى جربة :
ومن صفاقس إلى حد⁽²⁶⁷⁾ الرملة أربعة أميال .
ومن طرف الرملة راجعاً في جهة الجنوب وهو أول الجون إلى قصور⁽²⁶⁸⁾ الجوس (وهو الكبله)⁽²⁶⁹⁾ أربعة أميال .
ومنها إلى قصر ينقة⁽²⁷⁰⁾ (وهو المسعودة)⁽²⁷¹⁾ عشرة أميال .

- (258) تسمى الآن «الشرقي» .
(259) تسمى الآن «الغربي» .
(260) بين الجزيرتين قنطرة من مخلفات الرومان .
(261) في ت : «السميح» ، وفي ش و ط : «السميح» .
(262) هو الأخطبوط ، ويكثر على سواحل جزر قرقة .
(263) بعد تجفيفه وربطه .
(264) في ش : «دقريق» وفي ط : «جزيرة دقريق» . والقريق تحريف للكلمة الأجنبية Grec وتنطق بقاف معقودة كالجيم المصرية ، والمراد بها أهل اليونان .
(265) أي اليونانيون .
(266) ما بين القوسين إضافة من المؤلف ، وعن جزر قرقة أسقط المؤلف من نزهة المشتاق ما يتعلق ببعض غلاتها ، وفتحها من طرف الزماني رجار . راجع ن . م . ص 127 .
(267) في نزهة المشتاق : «طرف» .
(268) كذا في الأصول . وفي ن . م . وفي بعض نسخ من النزهة : «قصر» انظر نزهة المشتاق وهامشها ص 127 .
(269) إضافة تفسيرية من المؤلف عما في ن . م .
(270) في الأصول : «بيعة» وفي نزهة المشتاق : «بنقة» ، والصحيح : «بنقة» كما كتبها المؤلف فبا بعد (بضم الباء بنقطتين من أسفل وسكون النون وفتح القاف المعقودة كالجيم المصرية ، وبنقة حصن بيزنطي في غربي صفاقس على ساحل البحر على مقربة من ضريح ابن خاراجة عبسة بن خاراجة الغافقي .
(271) إضافة تفسيرية من المؤلف عما في ن . م .

ومن قصر ينقة إلى قصر تليدة⁽²⁷²⁾ ثمانية أميال .
 ومنه إلى قصور⁽²⁷³⁾ الروم أربعة أميال ، (وقصر تليدة هو طرف الكنائس⁽²⁷⁴⁾ وهناك وادي⁽²⁷⁵⁾ المالطين)⁽²⁷⁶⁾ .
 ومن قصور⁽²⁷⁷⁾ الروم إلى قابس أربعة⁽²⁷⁸⁾ وسبعون ميلاً (فالجملة من صفاقس إلى قابس مائة تقريباً ، ومن صفاقس لقابس روسية سبعون ميلاً - حسبما تقدّم - وقد سُميت جزيرة الكنائس جزيرة بصيلة)⁽²⁷⁹⁾ .
 ومن قابس إلى قصر ابن عيشون ثمانية أميال ، إلى قصر زجونة ثمانية أميال .
 [ومن قصر زجونة إلى قصر]⁽²⁸⁰⁾ بني مأمون عشرون ميلاً .
 [ومن قصر بني مأمون]⁽²⁸¹⁾ إلى أمرود أحد عشر ميلاً ، [ومنه]⁽²⁸²⁾ إلى قصر الجرف ثمانية عشر ميلاً .

جربة :

ومن طرف الجرف إلى جزيرة جربة في البحر أربعة أميال ، وهي جزيرة عامرة بقبائل من البربر ، وكلامهم⁽²⁸³⁾ بالبربرية أكثر ، وكان طولها من المشرق إلى المغرب ستين ميلاً ، وعرض الرأس الشرقي خمسة عشر ميلاً .
 ومن هذا الطرف إلى البر الكبير عشرون ميلاً ، وهذا الرأس⁽²⁸⁴⁾ الضيق يسمى

(272) في نزهة المشتاق : « تنبذة » ، ويبدو أن المؤلف عارف لهذه الأماكن الموجودة بجهة مدينته فرسمة هو الصحيح .
 وبعدها نجد في الأصول : « وهي يونقة » أسقطناها عمداً ليستقيم المعنى .

(273) في بعض نسخ نزهة المشتاق : « قصر » انظر هامش ن . م . ص 127 .

(274) يقصد جزر الكنائس التي في عرض البحر ، غربي ينقة ، وسميت هكذا لوجود بقايا معابد مسيحية من العصر الروماني .

(275) في ت : « واد » .

(276) ما بين القوسين اضافة من المؤلف عما هو موجود بنزهة المشتاق .

(277) في الأصول : « واد » والمثبت من ن . م . ، وأيضاً طبقاً لنص المؤلف فيما سبق .

(278) في نزهة المشتاق : « خمسة » ص 127 .

(279) ما بين القوسين اضافة من المؤلف عما هو موجود بنزهة المشتاق .

(280) اضافة من ن . م . رفقا للالتباس .

(281) اضافة من ن . م . رفقا للالتباس .

(282) اضافة من ن . م . رفقا للالتباس .

(283) حذف المؤلف خاصة ما فيه قدح لأهل جربة وتاريخ اختاح الملك الزماني رجار لها .

(284) في ن . م . : « الرأس » ص 128 .

رأس كرين ، ويسمى الطرف الواسع أنتيجان ، ويتصل بهذه الجزيرة في جهة الشرق جزيرة زيزو⁽²⁸⁵⁾ وهي صغيرة نحو من ميل ، ويقابلها قصر بني خطّاب⁽²⁸⁶⁾ ، وغالب أهلها وهيبية / (وقد فشا فيها مذهب الإمام مالك - رضي الله تعالى عنه - ونزر قليل من مذهب أبي حنيفة - رضي الله تعالى عنه - من حين دخلت العساكر العثمانية ، وحُكي في «نزهة المشتاق» و«رحلة التجاني» عن أوائل هذه الجزيرة أمورًا لا تليق ينتزهون اليوم عن أكثرها ، فقد استصلحوا - والحمد لله - عن تلك الرذائل وربنا يوفقنا وإياهم وعامة المسلمين لما فيه سعادة الدنيا والدين⁽²⁸⁷⁾ ففهم حسن عهد وكرم نفس وضيافة ، ويسلمون الناس ما سالوهم في أموالهم ولا يخونون ، ولهم صبر زائد على الاغتراب في الأوطان ، فكثرت بذلك أموالهم ، فهم أيسر الناس⁽²⁸⁸⁾ ، ولهم رفق زائد في معاشهم فيصبرون على الشدة أكثر من غيرهم ، ويعمل بهذه الجزيرة من أصناف ثياب الصوف الساذج ، والممزوج بالحرير كل مفتخر يعم آفاق الدنيا وأقطارها ، وإليها تجلب قناطير الأموال ، فتحمل طيا السهم وأكسيتم وأحزمتهم وبرانسهم لجميع الأراضى . وبها من جميع أنواع الثمار ما لا يوجد في غيرها وتستمر ثمارها على حول السنة ، وتبقى ثمارها في أشجارها إلى إنتهاء نضجها لقوة الأمن بها وقلة الخيانة . وخيل أهلها البغال ، فهي بها أكثر من غيرها ، وبها الحمر الفارحة التي لا توجد في غيرها وتحمل منها إلى غيرها من البلاد ، وبها من الزيتون وزيته ما يعم الآفاق . وبالجملة فهي من غزر / الجزر وربنا يحميها وسائر بلاد الإسلام من عدو الدين . ويعمل بها من أنواع الفخار ساذجًا ومطليًا كل غريب يعم الآفاق ، وخصوصًا أوعية الزيت والماء⁽²⁸⁹⁾ وسيأتي لنا - إن شاء الله تعالى - التنبيه على ما وقع لها من عدو الدين . وهي الآن - والحمد لله - في حماية الله ورسوله ، منذ دخلت

[6/ب]

[62/أ]

(285) في ت : «رمزو» ، وفي ط : «ريزو» ، وفي ش : «ريزا» والمثبت من ن . م .

(286) في الأصول : «خطار» طبقًا لبعض نسخ ن . م . واختارنا «خطاب» طبقًا لطبعة ليدن لأن المؤلف كتبها كذلك في نصه فيما بعد .

(287) بعدها في ت : «وآمين» .

(288) تيسرت أحوال جربة كثيرًا خلال القرن الثامن عشر بفضل أعمالها الصناعية والتجارية ، وخاصة التجارة الشرقية مع مصر و«بلاد الترك» كما تذكر الوثائق وخاصة منها اسلامبول ، وازمير وكذلك مع جزر اليونان .

(289) على الخزف في جربة راجع لويس كومباس (J.L. Combès) وأندري لويس (A. Louis) الخزافون بجربة

(Les potiers de Jerba) ، تونس 1967 .

العساكر العثمانية⁽²⁹⁰⁾ ، ربّنا يمدّهم بالنصر ويعينهم على أعداء الدين⁽²⁹¹⁾ ويجعلهم نكاية عليهم إلى يوم الدين .

وأهل هذه الجزيرة يستنبتون جميع الحبوب والبقول حتى أن جميع الناس يحتاجون إليهم في البذر⁽²⁹²⁾ كلها ، وهم لا يحتاجون إليهم فيها . وأكثر زروعهم على السقي من الآبار ، وشربهم من المواجل⁽²⁹³⁾ .

الطريق الساحلي من جربة إلى لبدة :

ومن طرف هذه الجزيرة المسمّى أنتيجان⁽²⁹⁴⁾ إلى قصر البيت (من جهة قرقة)⁽²⁹⁵⁾ تسعون ميلاً . وكذلك من طرف أنتيجان إلى القنطرة التي بقرقة اثنان وستون ميلاً . ومن طرف الجرف المتقدم إلى رأس الأودية على الساحل أربعة وعشرون ميلاً . ومنها إلى قصور الزارات [عشرون ميلاً] . ومن قصور الزارات⁽²⁹⁶⁾ إلى قصر بني ذكومين خمسة وعشرون ميلاً . ومن بني ذكومين إلى قصر الهواء⁽²⁹⁷⁾ ستة أميال . ومنه إلى قصر جرجيس ستة أميال .

(290) لقد كانت جربة أثناء التنافس الإسباني العثماني هدفاً استراتيجياً سعى إليه الطرفان المتنازعان ، استولى درغوث باشا على جربة في سنة 1556 وفي سنة 1560 لم تفلح الحملة الإسبانية لاحتلال جربة ، وبقيت جربة تابعة للحكم العثماني بطرابلس إلى أن ألحقت نهائياً بتونس بعد أن وقع احتلالها من طرف العثمانيين في سنة 1574 . راجع أنوري روسي ، ليبيا منذ الفتح العربي ، ص 184 وما بعدها . وشارل فيرو (Ch. Feraud) الحوليات الطرابلسية (Les annales Tripolitaines) ص 70 ، وبرودال . (Braudel: La Méditerranée et le Monde méditerranéen, Paris 1967)

(291) بعدها في ت : « آمين » .

(292) في ط : « الدور » .

(293) ما بين القوسين اضافة عما هو موجود بترجمة المشتاق وتكلم المؤلف على جربة باعجاب واطناب وما قاله ينطبق عنها خلال القرن الثامن عشر ومعرفته لها جيدة إذ أقام بها مدة ، كان يتعلم فيها بالزاوية الجمينية التي كانت تتكفل بالانفاق على الطلبة المقيمين بها من ريع أوقافها ومن تبرعات أهل الفضل والاحسان ، فهو من هذه الناحية مدين لأهل جربة . راجع محمد محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين ، دار الغرب الإسلامي 1985 ، 356/4 .

(294) في ش و ط : « أيتجان » . وفي ت : « أتيجان » والمثبت من ن . م .

(295) اضافة من المؤلف .

(296) اضافة من ترجمة المشتاق لل ضبط .

(297) كذا في الأصول وفي بعض نسخ من ترجمة المشتاق وفي الترجمة طبعة ليدن : « هري » انظر ص 128 وها مشها .

ومنه إلى قصر بني خطّاب خمسة وعشرون ميلاً ، وقصر بني خطّاب هو على آخر
سباخ الكلاب من جهة المغرب ، ويقابل قصر بني خطّاب في البحر اسقالة جزيرة زيزو ،
وطولها أربعون ميلاً ، وعرضها [نحو] ⁽²⁹⁸⁾ نصف ميل ، وبعضها معمور به نخل وكروم
وباقيا تحت الماء ، والماء يشف على وجهها / نحو قامة أو أقرب من ذلك .
ومن قصر بني خطّاب إلى قصر شَمَاخ خمسة وعشرون ميلاً ، وبينهما جون صغير
يسمى جون صلب الحمار .

ومن قصر شَمَاخ إلى قصر صالح عشرة أميال ، وقصر صالح على قرطيل يأخذ من
المشرق إلى المغرب طوله خمسة أميال ، ويسمى رأس المخبز . ومنه إلى قصر كوطين
عشرون ميلاً .
ومن قصر كوطين إلى قصر بني ولول عشرون ميلاً . ومنه إلى مرسى مركيا عشرون
ميلاً .

ومن قصر مركيا إلى قصر عسقلات ⁽²⁹⁹⁾ عشرون ميلاً .
ومن قصر عسقلات ⁽²⁹⁹⁾ إلى قصر سرية ⁽³⁰⁰⁾ أربعة أميال ، ومنه إلى قصر سنان
ميلان ومنه إلى قصر البنداري ⁽³⁰¹⁾ ثلاثة أميال . [ثم] إلى قصر غرغرة عشرة أميال . ومنه
إلى قصر صَيَّاد ستة أميال ، ثم إلى مدينة طرابلس عشرون ميلاً .
ومن مدينة طرابلس إلى قصر على رأس قاليوشا أربعة عشر ميلاً ، ومنه إلى قصر
الكتاب ثمانية أميال ، ومنه إلى قصر بني غسان اثنا عشر ميلاً ، إلى مصب وادي لادس
ثمانية عشر ميلاً ، ومنه إلى طرف رأس الشعراء أربعة عشر ميلاً .
فن رأس قاليوشا إلى رأس الشعراء روسية أربعون ميلاً ، وعلى التَّقْوِير اثنان
وخمسون ميلاً .

ومن رأس الشعراء إلى قصر شريكس أربعة عشر ميلاً ، إلى قرطيل المِسَن ، وهو
طرف داخل في البحر ، أربعة أميال ، ومنه إلى لبدة أربعة أميال .

(298) تدقيق من ن . م .

(299) كذا في الأصول ، وفي بعض نسخ ن . م . وفي غيرها : « عسقلات وعسقلات » ، ص 129 .

(300) في الأصول : « سوية » والمثبت من ن . م .

(301) في الأصول : « البندار » والمثبت من ن . م . ص 129 .

لبدة :

وكانت مدينة لبدة كثيرة العمارة مشتملة على الخيرات ، وهي على بعد من البحر ،
فستلّط بدو الأعراب عليها وعلى أرضها فغيّرت ما كان بها من النعم ، وأجلّت أهلها إلى
غيرها / فلم يبق منها (إلا) ⁽³⁰²⁾ قصران كبيران ، وعمارهما قوم من هوارة البربر ، ولها ^[أ/63]
على نحر البحر قصر كبير عامر ⁽³⁰³⁾ آهل ⁽³⁰⁴⁾ به صناعات وسوق عامرة ، وفي لبدة نخل
كثير ، وزيتون .

الطريق الساحلي من لبدة إلى الإسكندرية :

ومن لبدة إلى قصر بني حسن سبعة عشر ميلاً ، ومنه إلى قصر باكرو ⁽³⁰⁵⁾ ميل واحد
وهو مرسى حسن يُكنّى من كل الرياح ، ومنه إلى قصر هاشم إلى قصر سامية اثنا عشر
ميلاً .

ومن قصر سامية إلى سويفة ابن مذكود ⁽³⁰⁶⁾ اثنا عشر ميلاً .

ومن السويفة إلى طرف قانان المشهور عشرون ميلاً .

فن طرابلس إلى طرف قانان روسية مائة وثمانون ميلاً ، وعلى التقوير مائتان وعشرة
أميال . والسويفة تنسب إلى ابن مذكود ، ويسكنها وما حولها قبائل من هوارة البرابر ⁽³⁰⁷⁾
وبها سوق ⁽³⁰⁸⁾ مشهورة مشهودة ، وهي قصور كثيرة وأهلها يجرتون الشعير ⁽³⁰⁹⁾ والعرب
يخزنون بها طعامهم .

(وبقية هذه المراسي إلى الاسكندرية على أن نبتدئ من الاسكندرية إلى ما وقفنا
عليه) ⁽³¹⁰⁾ أن نقول ⁽³¹¹⁾ : فن الاسكندرية إلى مرسى الكنائس ثلاث مجار .

(302) ساقطة من ش . (303) كذا في ن . م . ساقطة من ش .

(304) بعدها في ت و ش : « بأهله » أسقطناها طبقاً لبقيّة الأصول و ن . م . وللخفيف ص 130 .

(305) في الأصول : « ياكور » والمثبت من ن . م . ص 130 .

(306) في الأصول : « بني مذكور » والمثبت من ن . م . ص 130 . وفي بعض نسخ نزهة المشتاق « مذكود ومكتود »
انظر هامش ص 130 .

(307) في ط : « برابر » ، وفي ن . م . : « برابر تحت طاعة العرب » .

(308) في ت : « أسواق » .

(309) بعدها في ن . م . : « على السني » ص 130 .

(310) هنا يرجع المؤلف إلى حيث خالف الإدريسي في ترتيبه ليواصل نقله من نزهة المشتاق فيما يتعلق بسواحل
الإسكندرية الموجود في الجزء الرابع من الإقليم الثالث من ترتيب الإدريسي ، أنظر ص 137 وما قبلها .

(311) يقول المؤلف نقلاً عن الإدريسي بتصرف ، ص 137 .

ومن مرسى الكنائس إلى مرسى الطرفاوي [بحرى .
 ومن مرسى الطرفاوي] (312) إلى أول جون رمادة خمسون ميلاً .
 ومن عقبة السلم إلى مرسى عمارة عشرة أميال .
 ومن مرسى عمارة إلى الملاحة ثلاثون ميلاً .
 ومن الملاحة إلى لكّة عشرة أميال ، ومما يلي لكّة في البرية قصران يسمّى أحدهما
 كيب والثاني قمار .
 ومن لكّة إلى مرسى طرقة (313) خمسون ميلاً .
 ومن طرقة إلى مرسى رأس تيني (314) بحرى (315) ونصف .
 ومن رأس تيني / إلى البندرية بحريان .
 ومن البندرية ينعطف البحر ماراً في جهة المغرب على استواء إلى طرف (316) التعدية
 بحريان لا عمارة بها (317) ،
 ومن طرف التعدية يأخذ جون زديق في الإبتداء إلى آخره ، وهذا الجون الذي أوله
 البندرية إلى أن ينتهي إلى اسكندرية قطعه روسية ستة بحار ، وهو ستائة ميل . وطول هذا
 الجون إلى الإسكندرية على التقوير احد عشر بحرى ونصف ، وهي من الأميال ألف ومائة
 وخمسون ميلاً .

الإسكندرية :

(وأما الاسكندرية فهي آخر مدن المغرب) (318) «وهي على ضفة البحر وبها الآثار
 العجيبة والرسوم الهائلة التي تشهد لبانيها بالملك والقدرة والحكمة (وكانت) (319) حصينة

(312) ساقطة من الأصول . والاضافة من ن . م . ص 137 .

(313) في ن . م . طبعه ليدن : «طريقة» وفي نسخ أخرى «طبرونة» انظر ص 137 وهامشها ومن المستبعد أن تكون
 طريقة الموجودة في الشمال التونسي .

(314) في ط : «يني» ، وفي ش : «لشيني» ، وفي ت : «شيني» والمثبت من ن . م . ص 137 .

(315) في الأصول : «ميل» والمثبت من ن . م .

(316) في الأصول : «رأس» والمثبت من ن . م .

(317) كذا في الأصول وبعض نسخ ن . م . وفي غيرها : «بهما» . انظر ص 137 وهامشها .

(318) اضافة من المؤلف قصد بها الدقة ، والاسكندرية في رأيه الحدّ بين المغرب والمشرق .

(319) في ن . م . : «وهي» وتغيير المؤلف يشير إلى ما حصل بالإسكندرية من تغيير .

الأسوار ، عامرة الديار»⁽³²⁰⁾ . ذكر الطبري⁽³²¹⁾ في «تاريخه» أن عمرو بن العاص لما افتتحها أرسل إلى عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنهما - يقول : قد افتتحت لك مدينة عظيمة فيها اثنا عشر ألف حانوت يبيع البقل⁽³²²⁾ (323) .

وبهذه المدينة⁽³²⁴⁾ المسلمان وهما حجران مربعان ، وأعلاهما ضيق حاد ، طول كل واحد منهما خمس قامات⁽³²⁵⁾ ، وعرض قواعدها في كل واحد من وجوهها عشرة أشبار . ومحيط كل الجهات الأربع أربعون شبرًا ، وعليهما كتابات بالخط السرياني . وحكى أنهما منحوتتان من جبل بریم⁽³²⁶⁾ في غربي بلاد مصر ، وعليها مكتوب أنا يعمر بن شدّاد ، بنيت هذه المدينة حين لا هرم فاش ولا موت / ذريع ، ولا شيب ظاهر ، وإذا الحجارة كالطين وإذا الناس لا يعرفون لهم ربًّا . فأقت اسطواناتها ، وفجرت أنهارها وغرست أشجارها ، وأردت أن أطول على الملوك بما أجعله فيها من الآثار المعجزة ، فأرسلت الثبوت بن مرة العادي ، ومقدام بن القمر⁽³²⁷⁾ بن أبي رغال الثودي إلى جبل بریم⁽³²⁶⁾ الأحمر ، فاقتطعا منه حجرتين وحملاهما على أعناقهما ، فانكسرت ضلع الثبوت ، فوددت أن أهل مملكتي كانوا فداء له ، وأقامهما لي الفطن بن جارود المؤتفكي في يوم السعادة . وهذه المسلة الواحدة في ركن البلد من الجهة الشرقية ، والثانية منهما في بعض المدينة ، وقيل إن المجلس الذي يجنوبي الإسكندرية المنسوب إلى سليمان بن داود - عليهما السلام - أن يعمر بن شدّاد بناه ، وقيل إن بانيه سليمان بن داود - عليهما السلام - واسطواناته وعضاداته (قد ذهب في هذه الأعصار المتأخرة)⁽³²⁸⁾ .

(320) ما بين الظفرين نقله عن خريدة العجائب بتصرف ص 24 .

(321) أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (224 - 838/310 - 922) ، أمل اسمه على التاريخ وكتابه المعروف بتاريخ الطبري يشمل تاريخ الرسل والملوك .

(322) لم نثر على هذا الخبر في تاريخ الطبري . ولعل المؤلف نقله بالمعنى من الفصل المخصص لفتح مصر والإسكندرية ، راجع تاريخ الطبري تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار سويدان ، بيروت ، 104/4 .

(323) لم يذكره الإدريسي ، وذكره ابن الوردي في خريدة العجائب ص 24 .

(324) أي الإسكندرية . يرجع للنقل من ن . م . بتصرف وحذف فقرات تتعلق بالإسكندرية ص 140 .

(325) في ت : «خمسون قامات» وفي ن . م : «قيم» عوض قامات .

(326) في الأصول وفي بعض نسخ ن . م : «تريم» وفي نسخ أخرى : «يديم» والمثبت من خريدة العجائب ص 24 .

(327) في الأصول : «بن عمر» . والإصلاح من ن . م . وخريدة العجائب .

(328) ما بين القوسين إضافة من المؤلف عما هو موجود بنزهة المشتاق وخريدة العجائب .

[64/ب]

وصفته على ما حكى صاحب خريدة العجائب أنه مجلس مربع الطول⁽³²⁹⁾ في كل رأس منه ستة عشر سارية ، وفي الجانبين المتطاولين سبع وستون سارية ، وفي الركن الشمالي منه اسطوانة عظيمة ورأسها عليها ، وفي أسفلها قاعدة رخام في محيط تربيع ودورها ثمانون شبراً⁽³³⁰⁾ وطولها من القاعدة إلى رأسها تسع قامات⁽³³¹⁾ ، والرأس محرم / بأحكام صنعة وأتقن وضع ، ولا أخت لها ولا يعلم أحد من أهل الإسكندرية ، ولا من أهل مصر ، ما المراد بوضعها مفردة في مكانها ، وهي الآن مائلة ميلاً كثيراً ، لكنها ثابتة آمنة من السقوط أهر⁽³³²⁾.

(قلت : ولقد وقفت عليها سنة احدى ومائتين وألف فلم يبق لهذا المجلس أثر ، وأن هذه الاسطوانة المفردة باقية ، احتضر تحتها أصحاب الطمع رجاء أن يجدوا تحتها بعض الكنوز ، فلما لم يجدوا شيئاً ردموا ما احتفروه ، ولقد رأيت بأعلى الاسطوانة عوداً منصوباً فيه قدر ذراع من قماش على صورة الرؤية ، ولم تكن نعهدده قبل ذلك من السنين ، فسألت عنه فأخبرت أن بعض تجار الإفرنج كان له مركباً مشحون⁽³³³⁾ فاجتمع مع بعض تجارهم ، وجرى بينهما اختلاف⁽³³⁴⁾ في أنه هل يمكن الوصول إلى أعلى هذه الاسطوانة . فقال صاحب المركب المشحون⁽³³³⁾ لا يمكن . فقال الآخر : يمكن . فقال له : إن طلعت إلى أعلاه ، فلك مركبي بما فيه فأحضر جماعة ، وأشهد عليه وذهبوا ، فأخذ نشاباً وربط به خيطاً طويلاً بحيث يصل إلى أعلى الاسطوانة ، وينزل حتى يصل إلى الأرض ، ومسك طرفه عنده ورمى به فوق من الجهة الثانية ، فربط بطرف الخيط حبلاً وثيقاً وجذب الخيط حتى وصل الحبل ، فربطه بالأرض ربطاً محكمًا من الجهتين ، وطلع معه حتى وصل ، فوضع تلك الرؤية⁽³³⁵⁾ وأخذ المركب ، فمات صاحب المركب أسفاً . واليوم لم يبق بهذه المدينة إلا القليل ، ولم يبق من الأشجار خارجها شيء ، لم يبق إلا شيء قليل من شجر الكبر ، بعدما كانت في سالف الأعصار⁽³³⁶⁾ نزهة للناظرين⁽³³⁷⁾ ، عامرة

[65/أ]

(329) كلمة لا توجد بالخريدة وتوجد بنزهة المشتاق .

(330) بعدها أسقط المؤلف جملاً تتعلق بالآقيسة ، وفي خريدة العجائب نجد : «قاعدة من الرخام جرمها» ، ونفهم

من هنا أن المؤلف ينقل عن الادريسي لا عن خريدة العجائب .

(331) كذا في خريدة العجائب وفي الأصول ، وفي ن . م . : «قيم» ، والقامات ج قائمة هو المناسب .

(332) انتهى نقله من ن . م . (334) في ت : «خلاف» .

(333) في الأصول : «مشحونة» . (335) في ت : «الراية هناك» .

(336) ما بين القوسين اضافة من المؤلف عما هو موجود بنزهة المشتاق .

(337) يربط مع خريدة العجائب وينقل منها ص 25 .

الديار، كثيرة الأشجار، غزيرة الثمار، وبها يعمل من الثياب الفاخرة كل عجيب، ومن الأعمال الباهرة كل غريب، وليس في معمور الأرض مثلها، وهي إلى الآن مزدحم الرجال ومحط الرحال، ومقصد التجار، من سائر القفار والبحار، والنيل يدخل إليها من تحت أقبية إلى معمورها، ويدور بها وينقسم في دورها بصنعة عجيبة، وحكمة غريبة، يتصل بعضها ببعض أحسن اتصال، لأن عمارتها تشبه رقعة الشطرنج في المثال، واحدى عجائب الدنيا فيها، وهي المنار التي لم ير مثلها في الجهات والأقطار. وبين (338) المدينة (339) والمنار ميل واحد [في البحر] (340) وفي البر ثلاثة أميال، أحجارها من صميم الكذبان، وقد أفرغ الرصاص في أوصالها، فبعضها مرتبط ببعض (341) معقود لثلاث (342) ينفك البناء، والبحر يصدم أحجارها من الجهة الشمالية. وارتفاع هذه المنارة ثلاثمائة ذراع بالرشاشي (343) وهو ثلاثة أشبار وذلك أن طولها مائة قامة، وستة وتسعون قامة إلى القبة التي بأعلاها، وطول القبة أربع قامات. ومن الأرض إلى الحزام الأوسط / سبعون قامة، ويصعد إلى أعلاها من درج عريض في [65/ب] وسطها كالعادة في أدراج الصوامع، وينتهي الدرج الأول إلى نصفها، ثم ينقبض البناء في نصفها من الأربعة أوجه. وفي جوف هذا البناء وتحت أدراجها بيوت مبنية. ومن هذا الحزام الأوسط يطلع بناؤها إلى أعلاها، مقبوضاً على مقدار البناء الأسفل بمقدار ما يستدير به الانسان من كل ناحية. ويصعد أيضاً إلى أعلاها من هذا الحزام في أدراج أقل أقبية من الأدراج السفلى، وفيه زراقات وأضواء في كل وجه منها، يدخل الضوء عليها من خارج إلى داخل بحيث يبصر الصاعد فيها حيث يضع قدميه حتى يصعد، والمنفعة فيها أنها علم توقد النار بها في وسطها، بالليل والنهار، في أوقات سفر المراكب، فيرى أهل المراكب تلك النار، فيعملون عليها وترى من بعد مجرى، لأنها تظهر بالليل كالنجم وبالنهار يرى منها دخان، وذلك أن الاسكندر في آخر الجون متصلة بها أوطية وصحار متصلة (344)، لا جبل بها ولا علامة يستدل بها (245) عليها. ولولا تلك النار لضلت أكثر

(338) يرجع للنقل من ن. م. ص 139.

(339) كذا في ن. م. وفي خريدة العجائب: «وبين المنار والنيل» ص 25.

(340) إضافة من ن. م. للدقة. (341) في ت «وبعضها».

(342) في الأصول: «لا» والاصلاح من عندنا.

(343) في الأصول: «الرشاشي» والمثبت من ن. م. ص 139 ومن معجم دوزي. وفي خريدة العجائب: «بالرشاشي»

لا بالساعدي». (Dozy: Supplément aux dictionnaires arabes, 529/1).

(344) ساقطة من ش. (345) ساقطة من ط.

المراكب عن القصد إليها ، وهذه النار تسمى فانوساً⁽³⁴⁶⁾ .
ويقال⁽³⁴⁷⁾ إنه كان في أعلاها مرآة ترى فيها المراكب من مسيرة شهر ، وكان
بالمرآة أعمال وحركات تحرق المراكب في البحر إذا كان عدواً بقوة⁽³⁴⁸⁾ شعاعها ، فارسل
صاحب الروم يخدع صاحب / مصر ويقول له إن الاسكندر قد كثر بأعلى المنارة كثرًا [66/أ]
عظيمًا من الجواهر واليواقيت⁽³⁴⁹⁾ والأحجار التي لا تقوم⁽³⁵⁰⁾ خوفًا عليها فإن صدقت
فبادر إلى إخراجها ، فإن شككت فأنا أرسل إليك مركبًا موسوقًا من ذهب وفضة وقماش
وأمتعة لا تُقَوَّم⁽³⁵¹⁾ ومكّني من استخراجها⁽³⁵²⁾ ولك من الكثر ما تشاء ، فانخدع لذلك ،
وظنه حقًا⁽³⁵³⁾ ، فهذم القبة فلم يجد شيئًا مما ذكر ، وفسد طلسم المرأة . ونُقِلَ أنَّ هذا
المنار⁽³⁵⁴⁾ كان في وسط المدينة ، وأن المدينة [كانت]⁽³⁵⁵⁾ سبع قصبات متوالية ، وأنها
أكلها البحر ، ولم يبق منها إلا قصبة واحدة ، وهي المدينة الآن ، وصار المنار في البحر
لغلبة البحر⁽³⁵⁶⁾ على قصبة المنار .
ويقال إن مساجدها حُصِرَت في وقت من الأوقات فكانت عشرين ألف
مسجد⁽³⁵⁷⁾ ، ويقال⁽³⁵⁸⁾ أيضًا المنار من بنيان الاسكندر (ذي القرنين)⁽³⁵⁹⁾ عند بنيان
الاسكندرية والله أعلم بصحة ذلك⁽³⁶⁰⁾ .

(346) ينتهي نقل المؤلف من ن . م . ، عن الإسكندرية أنظر النص الكامل في النزهة ص 138 - 141 .

(347) يرجع للنقل من خريدة العجائب بتصرف .

(348) في ت : بعدها «بقوة شغالة يحرق بشعاعها» والظاهر أنه تحريف من الناسخ .

(349) في ت و ط : «ياقوت» .

(350) في الأصول : «لا قيمة لها» ، وأصلحناها ليستقيم المعنى وكذلك طبقًا لمثلثتها فيما يلي من النص .

(351) كذا في ش و ط ، وفي ت : «لا قيمة لها» .

(352) في ت : «إخراجها» .

(353) في ت : «وظن أنه حقًا» .

(354) في خريدة العجائب : «منارة» ص 124 .

(355) إضافة من خريدة العجائب يقتضها السياق .

(356) في خريدة العجائب : «الماء» .

(357) ينتهي النقل من خريدة العجائب المتعلق بالمنارة ص 124 .

(358) يرجع للنقل من ن . م . ص 140 .

(359) ساقطة من ش و ط .

(360) بعدها في ط : «وأحكم» .

الباب الرابع : في الكلام على جزيرة (1) الأندلس (2)

جغرافية الأندلس :

وهي من المغرب الأوسط ، قال ابن خلكان (3) في ترجمة ابراهيم بن خفاجة «والأندلس بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الدال المهمله وضم اللام ، وبالسین المهمله ، هي جزيرة متصلة بالبر الطويل ، وهو متصل بالقسطنطينية العظمى ، وإنما قيل للأندلس جزيرة لأن البحر محيط بها من جميع جهاتها ، إلا الجهة الشمالية ، وهي مثلثة الشكل فالركن الشرقي منها / متصل بجبل يسلك منه إلى إفرنجة ، ولولاه لأحاط البحر بها من جميع الجهات ، وحكي أن أول من عمرها بعد الطوفان أندلس بن يافث بن نوح - عليه السلام - ، فسُميت باسمه» أهـ (4) بالمعنى .

فالرأس (5) الشرقي يضيق حتى يكون بين البحر الشامي والبحر المظلم المحيط خمسة أيام ، والرأس العريض في أقصى المغرب عرضه من نحو سبعة عشر يوماً ، وهو محصور بالبحر المظلم والبحر الشامي .

اليونان ودورهم بالأندلس :

وأول من أظهر شأن الأندلس اليونان (6) . وهم الطائفة المشهورة بالحكمة . وذلك أنهم كانوا يسكنون بلاد المشرق قبل عهد الاسكندر ، فلما ظهر الفرس واستولت على البلاد ،

(1) كذا في ش و ط ، وفي ت : «جزائره» .

(2) هذا العنوان يدخل في باب الجزء الأول من الاقليم الرابع من ترتيب الادريسي في ن . م . ص 165 .

(3) هو أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر بن خلكان (608 - 1211/681 - 1282) وكتابه المشار إليه هو «وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان» .

(4) وفيات الأعيان : دار الثقافة بيروت ، 40/1 . (5) يرجع للنقل من ن . م . ص 165 .

(6) منذ الألف الثانية قبل ميلاد المسيح ، أسس الفينيقيون ثم اليونان مستعمرات تجارية على سواحل اسبانيا المتوسطية وفي القرن الثالث قبل الميلاد ، سيطرت قرطاج على القسم الشرقي منها ثم حل الرومان محل قرطاج في سنة 201 قبل الميلاد لكن سلطة الرومان لم تتركز من جراء المقاومة المحلية إلا في سنة 19 بعد الميلاد وبقيت السلطة في أيدي الرومان إلى أن حل محلهم الفيزيغوث (Visigoths) الذين استنجدت بهم روما لمقاومة الغزو الوندالي بإسبانيا ، وهكذا فإن ما ذكره المؤلف فيما يلي من نصه نقلاً عن غيره من المؤرخين العرب أن اليونان نزحوا إلى الأندلس تحت وطأة الاكتساح الفارسي هو محض خيال .

وزاحمت اليونان فيما كان بأيديهم من الممالك ، انتقل اليونان إلى أرض الأندلس لكونها طرفاً في آخر العمارة ، ولم يكن لها ذكر يومئذٍ ولا ملكها أحد من الملوك ، ولا كانت عامرة في الغاية إلا ما عمره فيها أندلس بن يافث - كما تقدم - .

وفي بعض التواريخ نقلاً عن المسعودي⁽⁷⁾ في «مروج الذهب» أن الناس تنازعوا في نسب اليونان ، فذهبت طائفة إلى أنهم ينتمون إلى الرُّوم ، ويضافون إلى العيص بن إسحاق ، وقالت طائفة إن يونان من أولاد يافث بن نوح - عليه السلام - ، وذهب قوم⁽⁸⁾ إلى أنهم جيل متقدم في الزمن الأول ، ينتمون إلى جدِّهم إبراهيم - عليه السلام - ، لأن الديار كانت مشتركة ، والمواطن كانت متساوية ، وكان الروم قد شاركوا القوم / في السَّجِّية والمذهب ، ولذلك غلط من غلط في النسبة ، وجعل الأب واحداً⁽⁹⁾ . [أ/67]

وكانت اليونان من أعقل الناس ، وجميع العلوم العقلية مأخوذة عنهم ، مثل العلوم المنطقية والطبيعية والإلهية والرياضية ، وكانت خزائن ملوكهم بقبرس ، فحُمِلت إلى المأمون ، فأمر بنقلها إلى العربية ، فهي التي في أيدي الناس اليوم من العلوم المذكورة . والعالم بهذه العلوم يُسمَّى فيلسوفاً أي (محب للحكمة)⁽¹⁰⁾ وكانت ملوكهم من أعظم الملوك ، حتى غلبت عليهم الروم ، قيل كان⁽¹¹⁾ مسكنهم على الخليج القسطنطيني ، من شرقه وغربه إلى البحر المحيط .

وذكر المسعودي : أن يونان أخو قحطان ، وأنه من ولد عابر أخي أرفخشذ ، وأنه انفصل عن ديار أخيه في جماعة من أهله وولده ، فخرج من أرض اليمن ، حتى وافى المغرب ، فأقام هناك ، ونسل في تلك الأماكن ، واستعجم لسانه فنسي نسبه⁽¹²⁾ . وكانت عمارة الأرض بعد الطوفان على شكل طائر رأسه المشرق ، ورجلاه الشمال والجنوب ، وما بينهما بطنه ، والمغرب ذنبه ، فكانوا يزدرون المغرب لنسبته لإخراج الطائر . وكانت اليونان لا ترى فناء الأمم بالحروب لما فيه من الأضرار والاشتغال عن العلوم

(7) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي توفي في سنة 958/347 . وكتابه في التاريخ هو «مروج الذهب ومعادن الجوهر» والنسخة المعتمدة طبعة مصر ، 1948/1367 ، 185/1 .

(8) ساقطة من ت .

(9) إلى هنا ينتهي كلام المسعودي .

(10) في ت : «محب الحكمة» وفي ط : «صاحب حكمة» .

(11) في ت : «كان مسكنهم في الزمان السابق» .

(12) مروج الذهب ، 285/1 .

التي كان أمرها عندهم أهم الأمور. فلذلك انحازوا بين يدي الفرس إلى الأندلس، فلما صاروا إليها أقبلوا على عمارتها، فَشَقُّوا الأنهار، وبنوا المعازل، وغرسوا الجَنَات والكروم / [67/ب] وشيّدوا الأمصار وملئوها حرثًا ونسلًا وبنينا، فعظمت وطابت، حتى قال قائلهم لما رأى بهجتها: إن الطائر الذي صُورَ العمارَة على شكله، وكان المغرب ذنبه كان طاووسًا، معظم جماله في ذنبه، فاغتنبوا بها أتمَّ اغتباط، واتخذوا دار الملك والحكمة بها مدينة طليطلة، لأنها وسط البلاد، وكان أهمُّ الأمور عندهم تحصينها عن يتصل به خبرها من الأمم، فنظروا فإذا لم يحسداهم على رغد العيش إلا أرباب الشظف والشقاء، وهم يومئذٍ طائفتان: العرب والبربر، فخافوهم على جزيرتهم المعمورة، فعزموا أن يتخذوا لهُذينِ الجَنسين من الناس طليسمًا، فرصدوا لذلك أرسادًا، ولما كان البربر بالقرب منهم، وليس إلا بتعدية البحر، وترد عليهم منهم طوائف منحرفة الطَّبَاع، خارجة عن الأوضاع ازدادوا منهم نفورًا وكثر تحذيرهم من مخالطتهم في نسل أو مجاورة، حتى استقرَّ ذلك، وثبت في طباعهم، فصار بغضهم طبيعيًا.

فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس لهم وبغضهم، بغضوهم وحسدوهم، فلا تجد أندلسيًا إلا مبغضًا بربريًا، ولا بربريًا إلا مبغضًا أندلسيًا، إلا أن البربر أخرج إلى أهل الاندلس من أهل الأندلس إلى البربر، لكثرة وجود الأشياء بالاندلس وعدمها ببلاد البربر.

وكان بنواحي / غربي جزيرة الأندلس ملك يوناني بجزيرة يقال لها قادس⁽¹³⁾ [68/أ] وكانت له ابنة في غاية الحسن والجمال، فسامع بها ملوك الأندلس، وكانت جزيرة الأندلس كثيرة الملوك لكل بلدة أو بلدين ملك تناصفًا منهم في ذلك، فخطب البنت كل ملك منهم، وكان أبوها يخشى من تزويجها لواحد منهم سخط الباقين، ففتح في أمره، وأحضر ابنته المذكورة.

وكانت الحكمة مركبة في طباع القوم ذكرهم وأنتاهم، ولذلك قيل إن الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض، على أدمغة اليونان، وأيدي أهل الصَّين، وألسنة العرب.

(13) في الأصول: «قابوس». عن قادس انظر الروض المعمار للحميري ص 448 - 449. ففيه تفاصيل عن بنائه وتاريخه وهدمه في النهاية، وأنظر كذلك ياقوت الحموي. معجم البلدان، 4/290.

فلما حضرت بين يديه قال لها : يا بنية ، إني قد أصبحت في حيرة من أمري ، قالت : وما خبرك ؟ قال : قد خطبتك جميع ملوك الأندلس ومتى أرضيت واحداً أسخطت الباقيين . قالت : اجعل الأمر لي تخلص من اللوم . قال : وما تصنعين ؟ قالت : أقترح لنفسني أمراً فمن فعله كنت زوجته ، ومن عجز عنه فليس يحسن به السخط ، فقال : وما الذي تقترحين ؟ قالت : أقترح أن يكون ملكاً حكيماً . قال : نعم الذي اخترته لنفسك . فكتب في أجوبة الملوك الخطاب : أني قد جعلت الأمر إليها فاخترت من الأزواج الملك الحكيم . فلما وقفوا على الأجوبة سكنت عنها كل من لم يكن حكيماً ، وكان في الملوك رجلان حكيমান ، فكتب كل واحد منهما إليه أنا الملك الحكيم ، فلما وقف على كتابيهما قال : يا بنية بقي الأمر / على اشكاله ، وهذان ملكان حكيماً أيهما أرضيت أسخطت الآخر ، قالت : سأقترح على كل واحد منهما أمراً يأتي به ، فأيهما سبق إلى الفراغ ممّا التسته ، تزوجت به ، قال : وما الذي تقترحين عليهما ؟ قالت : إنا ساكنون بهذه الجزيرة ، وأنا محتاجون إلى رحي⁽¹⁴⁾ تدور بماء ، وإني مقترحة على أحدهما إدارتها بالماء العذب الجاري إليها من ذلك البر ، ومقترحة على الآخر أن يتخذ لي طلّساً يحصن به جزيرة الأندلس من البربر⁽¹⁵⁾ .

[ب/68]

فاستظرف أبوها اقترحها وكتب إلى الملكين بما قالت ابنته ، فأجابا إلى ذلك ، وتقاسماه على ما اختارا ، وشرع كل واحد في عمل ما قبله من ذلك . فأما صاحب الرّحى فإنه عمد إلى خرز عظيمة اتخذها من الحجارة ، ونضد بعضها إلى بعض في البحر المالح الذي بين الأندلس والبر الكبير ، في الموضع المعروف بزقاق سبتة وسد الفرج التي بين الحجارة بما اقتضته حكمته ، وأوصل تلك الحجارة من البر إلى الجزيرة⁽¹⁶⁾ ، وبقيت آثارها في الزقاق الذي بين سبتة والجزيرة الخضراء ، وأكثر أهل الأندلس يزعمون أن هذا أثر قنطرة كان الاسكندر قد عملها ليعبر الناس عليها من سبتة إلى الجزيرة والله أعلم بأصح القولين ، فلما تمّ تنضيد الحجارة للملك الحكيم ، جلب إليها الماء العذب من موضع عال في الجبل بالبر الكبير ، وسلّطه على ساقية محكمة ، وبني بجزيرة الأندلس رحي على هذه / الساقية⁽¹⁷⁾ . وأما صاحب الطلسم فإنه أبطأ عمله

[أ/69]

(14) رحي بضم الراء ، صيغة جمع وواحد رحي بفتح الراء .

(15) في ت : « البربر والعرب » .

(16) في ت : « تلك الجزيرة » .

(17) في ت : بعدها « وأتمها » .

بسبب انتظار الرصد الموافق لعمله ، غير أنه عمل أمره وأحكمه ، وابتنى بنياناً مربعاً من حجر أبيض ، على ساحل البحر ، في رمل حفر أساسه إلى أن جعله تحت الأرض مقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت ، فلما انتهى البناء المربع إلى حيث اختار ، صَوَّرَ من النحاس الأحمر والحديد المصقَّى⁽¹⁸⁾ مخلطين بأحكام الخلط صورة رجل بربري له لحية ، وفي رأسه ذؤابة من شعر جعد قائم في رأسه بمجودته ، متأبط بصورة كساء ، قد جمع طرفيه على يده اليسرى بأضبط تصوير وأحكمه ، وفي رجله نعلان ، وهو قائم على رأس البناء على مستهدف⁽¹⁹⁾ بمقدار رجله فقط ، وهو شاهق في الهواء ، طوله ينيف على ستين ذراعاً ، وهو محدودب⁽²⁰⁾ الأعلى إلى أن ينتهي إلى ما سعت ذراع ، وقد مدَّ يده اليمنى بمفتاح قفل قابضاً عليه كأنه يقول : لا عبور ، فكان من أمر هذا الطلسم في البحر الذي تجاهه أنه لم ير قط ساكناً ، ولا كانت تجري فيه قط سفينة بربري ، حتى سقط المفتاح من يده . وكان الملكان العاملان للرحى والطلسم يتسابقان إلى إتمام عملهما ، إذ كان بالسبق يستحق التزويج ، وكان صاحب الرحي قد فرغ لكنه يخفي أمره عن صاحب الطلسم حتى لا يعلم به فيبطل الطلسم ، وكان يود عمل الطلسم حتى يحظى بالمرأة والرحى / والطلسم . فلما علم باليوم الذي يفرغ صاحب الطلسم في آخره ، أجرى الماء [69/ب] بالجزيرة من أول واد إلى الرحي⁽²¹⁾ وأشهر⁽²²⁾ ذلك ، فاتصل الخبير بصاحب الطلسم وهو في أعلاه يصقل وجهه ، وكان الطلسم من ذهب⁽²³⁾ فلما تحقق أنه مسبوق ضعفت نفسه ، فسقط من أعلى البناء ميتاً ، وحصل صاحب الرحي على المرأة والرحى والطلسم⁽²⁴⁾ .

وسياقي خبر بيت الحكمة التي وضعها اليونان بطليطلة عند التعرض لذكرها في غزوة موسى بن نصير لبلاد الأندلس - إن شاء الله - .

(18) في ت : « المصفى التي » .

(19) في الأصول : « مستدق » .

(20) في الأصول : « ممدد » .

(21) في ت : « من أوله وأدار الرحي » .

(22) في ت : « وأشهر » .

(23) في ت و ط : « مذهباً » .

(24) عن هذه القصة أنظر نفع الطيب ، 229/1 - 231 . وياقوت الحموي في معجم البلدان عند تقديمه لقادس ،

بيروت ، بدون تاريخ ، 291/4 .

وطول⁽²⁵⁾ بلاد الأندلس من كنيسة الغراب التي على البحر المظلم إلى الجبل المسمى بهيكل الزهرة ألف ومائة ميل ، وعرضها من كنيسة شنت ياقوب⁽²⁶⁾ التي على أنف بحر الانقليشين⁽²⁷⁾ إلى مدينة المرية التي على البحر الشامي ستائة ميل .

طليطلة وما جاورها :

وبلاد الأندلس مقسومة من وسطها في الطول يجبل طويل يسمى الشارات ، وفي جنوب هذا الجبل مدينة طليطلة ، وهي مركز لبلاد الأندلس ، (وهي قاعدة ملك اليونان⁽²⁸⁾ ، ولها بساتين محدقة وأنهار مخترقة ، ورياض وجنان ، وفواكه حسان ، مختلفة الطعم والألوان ، ولها من جميع جهاتها أقاليم وسبعة)⁽²⁹⁾ وهي⁽³⁰⁾ من بناء العمالقة العادية ، ولها أسوار حصينة ، وهي على ضفة البحر الكبير ، يشقها نهر يسمى تاجة ولها / قنطرة عجبية على قوس واحد ، والماء يدخل من تحته بشدة جري ، وفي آخر النهر ناعورة طولها تسعون ذراعاً بالرشاشي ، يصعد الماء إلى أعلى القنطرة ، فيجري على ظهرها ، ويدخل إلى المدينة ، ولها رساتيق مرتبة ، وضياح وسبعة ، وقلاع منيعة ، ويجبل الشارات الذي في شمالها من الغنم والبقر ما يعم البلاد كثرة ونمواً . وما خلف الجبل في جهة الجنوب يسمى اشبانياً ، وما خلفه في جهة الشمال يسمى قشتالة .

ومن مدينة طليطلة إلى مدينة قرطبة بين غرب وجنوب تسع مراحل .

(25) عاد إلى النقل من نزهة المشتاق بتصرف ص 173 وهذه القصة هي مثال للأساطير التي أدخلها المؤرخون العرب في تأليفهم دون نقد وتحصيص ، وليس من المستبعد ان العرب أخذوا هذه الأساطير من سكان الأندلس ، بعد فتحهم لها ، وتاريخ الاسبان مشحون بكثير من هذه الخرافات .

(26) في الأصول : « سنت ياقوت » والمثبت من ن . م . والروض المعطار ، ص 348 ، وفي معجم البلدان : « شنت ياقب » ، 369/4 .

(27) في الأصول : « الانقليسين » والمثبت من ن . م .

(28) يخلط بين اليونان والفيزيقوت والمقدود هم الآخرون فطليطلة كانت قاعدتهم قبل الاحتلال العربي الاسلامي لبلاد الاندلس .

(29) ما بين القوسين اضافة من المؤلف عما هو موجود بنزهة المشتاق .

(30) يعود إلى النقل من نزهة المشتاق ، وعن طليطلة أنظر النص الكامل بنزهة المشتاق ، ص 173 - 184 ثم

ومنها أيضًا إلى مدينة المَرِيَّة (بفتح الميم وكسر الراء المخففة)⁽³¹⁾ ، وهي على البحر الشامي تسع مراحل .

ومن طُلَيْطَلَة إلى لَشْبُونَة غربًا تسع مراحل .

ومن طُلَيْطَلَة إلى شنت ياقوب⁽³²⁾ على بحر الانقليشين تسع مراحل .

قرطبة :

(ولما صارت الأندلس في ملك الإسلام ، وتولاها بنو أمّية ، جعلوا قاعدة الأندلس مدينة قرطبة عوضًا عن طُلَيْطَلَة فيما سبق من أيّام اليونان والروم ، فكانت قرطبة دار الخلافة الإسلامية ، وهي مدينة عظيمة ، وأهلها أعيان البلاد ، وسادات الناس في كمال الحسن والملابس ، والمراكب وعُلُوّ الهِمَمِ ، وبها أعلام العلماء ، وسادات الفضلاء ، وأجلاء القراء ، وأمجاد الحروب)⁽³³⁾ وهي⁽³⁴⁾ في نفسها خمس مدن ، يتلو بعضها بعضًا / وبين المدينة والمدينة سور حصين حاجز ، لكل مدينة منها ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات والصناعات ، وطولها ثلاثة أميال ، وعرضها ميل واحد [وهي] في سفح جبل مُطَلٍّ عليها يسمّى جبل العروس⁽³⁵⁾ ، وعمديتها الثالثة ، وهي الوسطى ، باب القنطرة .

وبها الجامع الذي ليس في معمور الأرض مثله ، فيه من السواري الكبار ألف سارية ، وفيه مائة وثلاثة عشرة ثريا للوقيد ، أكثر ما تحمل الواحدة⁽³⁶⁾ ألف مصباح ، وفيه من النقوش والرقوم ما لا يُقدَّر على وصفه⁽³⁷⁾ ، ويقبلته صناعات تدهش العقول ، وعلى فرجة المحراب سبع قسي قائمة على عمد ، طول كل قوس فوق القامة ، قد تحير الرُّوم والمسلمون في وصف حسنها ، وفي عضادتي المحراب أربعة أعمدة ، اثنان أخضران ، واثنان لازورديان⁽³⁸⁾ ، (لا تُقوَّمُ بـمال)⁽³⁹⁾ وبه منبر ليس على معمور الأرض مثله في

(31) إضافة من المؤلف أراد بها الضبط . وانظر في ضبطها بالحركات مرادف الاطلاع 1264/2 .

(32) في الأصول : « سنت ياقوت » انظر الهامش السابق .

(33) إضافة من المؤلف عما هو موجود بترجمة المشتاق . (34) يعود إلى النقل من ترجمة المشتاق ص 208 .

(35) في الأصول : « أنقروم » ، والمثبت من ن . م . ص 208 .

(36) في ن . م . : « أكبرها واحدة منها تحمل ... » .

(37) في ن . م . : « زرزوريان » .

(38) في ت : « وصفه واصف » .

(39) مثبتة من ن . م . وفي الأصول : « ليس لها قيمة » وهو تعبير عامي كيفه المؤلف ، ويقصد به نفس المعنى الذي

حسن صنعته ، وخشبه ساج وآبنوس وبقس (عود قاقلي)⁽⁴⁰⁾ ويذكر في تاريخ بني أمية أنه أحكم عمله ونقشه في سبع سنين ، وكان يعمل فيه ثمان⁽⁴¹⁾ صناع ، لكل صانع في كل يوم نصف مثقال مُحَمَّدي ، فكانت⁽⁴²⁾ جملة ما أصرف على المنبر أجرة لا غير ، عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالاً . وفي الجامع حاصل كبير فيه آنية الذهب والفضة لأجل الوقود ، وبهذا / الجامع أربع ورقات من مصحف⁽⁴³⁾ عثمان بن عفان - رضي الله تعالى عنه - بخط يده⁽⁴⁴⁾ ، وفيه نقط من دمه⁽⁴⁵⁾ ، وله عشرون باباً مُصَفَّحة⁽⁴⁶⁾ بالنحاس⁽⁴⁷⁾ الأندلسي ، محزمة⁽⁴⁸⁾ تحزيمًا يعجز عن وصفه البشر ، وفي كل باب حلقتان⁽⁴⁹⁾ في نهاية الصُّنعة والحكمة ، وبه الصومعة التي هي من عجائب الدنيا ، وارتفاعها مائة ذراع بالملكي المعروف بالرشاشي⁽⁵⁰⁾ كل ذراع بثلاثة أشبار ، وفيها من أنواع الصنائع الرقيقة ما يعجز الواصف عن وصفه واتقانه ، (وبهذا الجامع ثلاثة أعمدة مكتوب على كل واحد اسم محمد ﷺ وعلى الآخر صورة عصا موسى - عليه السلام - وأهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح - عليه السلام⁽⁵¹⁾ - الجميع خلقة ربانية).⁽⁵²⁾

وبمدينة قرطبة القنطرة العجيبة ، التي فاقت قناطر الدنيا حسناً وارتفاعاً ، وعدد أقواسها سبعة عشر قوساً ، سعة كل قوس منها خمسون شبرًا ، وبين كل قوسين خمسون شبرًا ، ومع هذا فحساسها أعظم من أن يحيط بها وصف .

ومن عجائب قرطبة الزَّهراء بالألف الممدودة ، قال ابن خلكان⁽⁵²⁾ : فهي من

(40) في ن . م . : «وعود الجمر» ص 210 .

(41) في ن . م . : «وكان عدد صنائه 6 رجال غير ما يخدمهم تصرفاً» ص 210 .

(42) في الأصول : «فكان» . (45) بعدها في ت : «رحمه الله» .

(43) بعدها في ت : «أمير المؤمنين» . (46) في الأصول : «مصنفات ... وعزمات» .

(44) بعدها في ت : «المباركة» . (47) بعدها في ط : «الأحمر» .

(48) في الأصول : «حلقة» والمثبت من ن . م . ص 211 .

(49) في الأصول : «الرشاشي» والمثبت من ن . م . ومعجم دوزي كما أشرنا سابقاً ، ولم يزد دوزي أي تفسير عن الادريسي إذ اعتمده كمرجع وضبط الذراع بثلاثة أشبار .

(50) ساقطة من ط و ت .

(51) إضافة من المؤلف عما هو موجود بنزهة المشتاق .

(52) وفيات الأعيان 117/4 ، والمؤلف تصرف في النقل بالحذف وإبدال بعض العبارات كما دته مع المحافظة على المعنى ، والصحيح أنه نقل مما في وفيات الأعيان لابن خلكان . وانظر عن قرطبة نزهة المشتاق ص 208 - 212 وعن الزهراء ص 212 ، وانظر عن قرطبة أيضاً الروض المعطار ص 456 - 458 لأنه فيما يبدو أخذ كثيراً من نزهة المشتاق للاتفاق في العبارات والتفاصيل وإن لم يصرح بالنقل .

أعاجيب أبنية الدنيا أنشأها أبو المظفر عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله ، الملقَّب بالناصر⁽⁵³⁾ ، أحد ملوك بني أمية بالأندلس بالغرب من قرطبة ، أول سنة خمس وعشرين وثلاثمائة⁽⁵⁴⁾ ومسافة ما بينهما أربعة أميال وثلاث ميل : / وطول الزَّهراء من الشَّرق إلى الغرب ألفان وسبعمائة ذراع ، وعرضها من القبلة⁽⁵⁵⁾ إلى الجنوب ألف وخمسمائة ذراع ، وعدد السَّواري التي بها أربع آلاف سارية وثلاثمائة سارية ، وعدد أبوابها يزيد على خمسة عشر بابًا⁽⁵⁶⁾ .

وكان النَّاصر يقسم جباية البلاد أثلاثًا ، فثلث للجند وثلث مُدَّخر وثلث ينفقه على عمارة الزَّهراء ، وكانت جباية الأندلس [يومئذٍ] خمسة آلاف ألف دينار ، وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق المستخلص سبعمائة ألف [وخمسة وستون ألف]⁽⁵⁷⁾ دينار ، وهي من أهول ما بناه ملوك الأندلس⁽⁵⁸⁾ وأجله قطرًا وأعظمه شأنًا .

المرية :

وأما المرية⁽⁵⁹⁾ فكانت مدينة الإسلام في أيام المثلثين من شيعة يوسف بن تاشفين ، وكان بها من جميع الصَّناعات كل غريبة وكان بها نسج طراز الحرير ثمانمائة نول⁽⁶⁰⁾ ، ولحلل الحرير النفيسة والديباج الفاخر ألف نول⁽⁶¹⁾ والسقلاطون كذلك ، وللثياب الحركانية كذلك والأصبهاني كذلك ، وللعباني⁽⁶²⁾ كذلك وبها يصنع المعاجر المدهشة والستور المكحلة ، وكان يصنع بها جميع آلات الحديد والنحاس والزجاج ما لا يوصف .

(53) (300 - 912/350 - 961) المعروف أيضًا بعبد الرحمان الثالث أكبر أمراء بني أمية بالأندلس ، وأول خليفة بها ، راجع ليني بروفنسال (L. Provençal) دائرة المعارف الإسلامية (Encyclopédie de l'Islam) ، باريس 1975 ، 85/1 .

(54) 936 م ، في الأصول : «خمس وعشرين ومائة» وهو غلط تاريخي .

(55) في الأصول : «الشمال» والمثبت من ابن خلكان .

(56) في ت : «خمس عشرة ألف باب» ، خلافًا لما ورد في النصوص التاريخية ، وما يقبله المنطق .

(57) اضافة من الوفيات .

(58) بعدها في ت : «ولا ثم أعظم وأهول منها» .

(59) يرجع إلى النقل من ن . م . بتصرف ص 197 بعد أن نقل عن ابن خلكان .

(60) في ن . م . : «طراز» .

(61) لم يذكر الادريسي عدد الطرز (الأنوال) .

(62) ج عبانة ، غطاء من الصوف ، وفي ن . م : «العتابي» .

وكان بها من أنواع الفاكهة العجيبة تأتيها من وادي بجانة⁽⁶³⁾ ما يقصر عنه الوصف حسناً وطيباً ، وكثرة واتساعاً ، وتباع بأرخص ثمن .

وهذا الوادي طوله أربعون ميلاً في مثلها / كلها بساتين مغلقة ، وجنات وأنهار مطردة ، وطيور مفردة ، ولم يكن في بلاد الأندلس أكثر مالأً من أهلها ، ولا أكثر متاجر ، ولا أعظم ذخائر .

وكان بها من الفنادق والحمامات ألف فندق إلا ثلاثين .

وهي بين جبلين⁽⁶⁴⁾ بينهما خندق معمور ، على الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة ، وعلى الجبل الآخر ربضها ، والسور محيط بالمدينة والربض ، وبغربها ربض آخر يُسمَّى ربض الحوض ، ذو أسواق وحمامات ، وفنادق وصناعات ، وقد استدار بها من كل جهة حصون مرتفعة ، وأحجار قديمة ، وكأنها غُرِبَت تربتها ، وبها مدن وضياع عامرة ، مُتصلة الأنهار .

أقاليم الأندلس :

واعلم أن جزيرة الأندلس تشتمل على أقاليم كثيرة ومدة وحصون ، فأول⁽⁶⁵⁾ أقاليمها إقليم البحيرة ، وهو إقليم مبدؤه من البحر المظلم ، ويمر مع البحر الشامي ، وفيه من البلاد جزيرة طريف والجزيرة الخضراء ، وجزيرة قادس ، وحصن أركش ، وبكة⁽⁶⁶⁾ ، وشريش ، وطشانة⁽⁶⁷⁾ ، ومدينة ابن السليم⁽⁶⁸⁾ ، وحصون كثيرة كالمدن [عامرة] . فأما جزيرة طريف⁽⁶⁹⁾ فهي على البحر الشامي في أول المجاز المسمَّى بالزقاق ، ويتصل غربها ببحر الظلمة ، وبها مدينة صغيرة ، وأمامها جزيرتان ، وهما على مقربة من البر .

وأما الجزيرة الخضراء فهي أول جزيرة افتتحت من الأندلس في صدر الإسلام

(63) في الأصول : «باجة» والمثبت من ن . م .

(64) في ن . م . : «والمرية في ذاتها جبلان وبينهما خندق معمور» .

(65) يرجع إلى وراء ويستمر في النقل من ن . م . ص 174 .

(66) في الأصول : «ريكة» والمثبت من ن . م . ص 174 .

(67) في الأصول : «طشانة» والمثبت من ن . م . ص 174 .

(68) في الأصول : «ابن سلام» والمثبت من ن . م . ص 174 .

(69) حذف المؤلف كثيراً قبل الكلام عن جزيرة طريف ، ويبدو أنه بنقل الكلام عن الأماكن المشهورة فقط

(على يد طارق بن عبد الله بن ونمو الزناتي مولى موسى بن نصير)⁽⁷⁰⁾ وبهذه الجزيرة مدينة ، وعلى باب البحر منها / مسجد يُسمَّى بمسجد الرّيايات ، ويقال إن هناك [72/ب] اجتمعت رايات القوم للرأي ، وكان وصولهم إليها من جبل طارق ، سمي بذلك لأن طارقًا لما نزل بمن معه من البرابر وتحصّنوا بهذا الجبل أحس في نفسه أن العرب لا تثق به ، فأراد إزاحة ذلك عنه ، فأمر بإحراق المراكب التي جاز فيها ، ففترأ بذلك ممّا أتهم به (وغلّب اليوم عليه التسمية بجبل الطارق فرخم في غير الندا وأدخل عليه ال)⁽⁷¹⁾ .
ويتلو هذا الإقليم إقليم شَدُونَة ، وهو من إقليم البحيرة شمالاً ، وفيه من المدن إشبيلية ومدينة قرمونة ، وغلسانة ، وحصون كثيرة .

ويتلوه إقليم الشرف ، وهو ما بين إشبيلية ولبلة والبحر المظلم ، وهو أربعون⁽⁷²⁾ ميلاً في مثلها ، يمشي فيه السائر في ظلّ التّين والزّيتون فيه ثمانية آلاف قرية بالأسواق والحمامات ، والفنادق والديار الحسنة ، وفيه من المعامل⁽⁷³⁾ حصن القصر ، ومدينة لبلة وولبة ، وجزيرة شلطيّش ، وجبل العيون .
ثم يليه إقليم الكنبانية وفيه من المّدن قرطبة ، والزّهراء وأستجة⁽⁷⁴⁾ ، وبيّانة ، وقبرة ، واليشانة⁽⁷⁵⁾ .

ويلى إقليم الكنبانية إقليم أشونة ، وفيه حصون عامرة كالمّدن ، مثل لورة ، وأشونة ، وهو إقليم صغير .

ويليه مع الجنوب إقليم ريّة ، وفيه من المدن مدينة مالقة ، وهي⁽⁷⁶⁾ مدينة واسعة الأقطار ، عامرة الديار ، قد استدار بها من جميع جهاتها شجر التّين ، المنسوب / إلى [73/أ]

(70) في نزهة المشتاق : «وافتحها موسى بن نصير من قبل المروانيين ومعه طارق بن عبد الله بن ونمو الزناتي» ص 176 .

وهو طارق بن زياد الذي فتح جلّ بلاد الأندلس في سنة 711/92 ثم التحق به موله موسى بن نصير في سنة 712/93 فأتم ما شرع طارق في فتحه .

(71) إضافة من المؤلف عما هو موجود بنزهة المشتاق .

(72) انتقل إلى الموضع الأول من الكلام عن إقليم الشرف ص 178 .

(73) عاد إلى النقل من الموضع الأول من الكلام عن إقليم الشرف ص 174 . وعن إقليم شدونة انظر نزهة المشتاق ص 174 وكذلك عن إقليم الشرف .

(74) في الأصول : «أسجة» وفي نسخ أخرى «أسجة» والمثبت من ن . م . ص 174 .

(75) في الأصول : «السيانة» والمثبت من ن . م . ص 174 .

(76) ينتقل إلى ص 200 .

رَّيَّة ، وهو من أحسن التَّين لونا ، وأكبره جرماً ، وأنعمه شحماً ، وأحلاه طعمًا ، حتى يقال إنه ليس في الدنيا مدينة عظيمة ، يحيط بها سور من حلاوة ، عرض السُّور يوم للمسافر ، إلّا مالقة ، يعني أن شجر تينها الشبيه بالحلاوة ، يحيط بها إحاطة السور ، ويحمل من تينها إلى سائر الأقاليم حتى للهند (والصَّين ، وذلك مسافة سنة ، لحسنه وحلاوته ، وعدم دخول السُّوس فيه ، وصحة بقائه) (77) ولها رمضان عامران ، رضى عامر بالناس (78) وريض التبانين (79) .
وفي إقليم رَّيَّة (80) ، وأرشدونة ، ومربَّلة ، وبُيشتر (81) ، وبشكصار (82) وغيرها من الحصون .

ويتلو هذا الإقليم اقليم البشارات ، وفيه من المُدن جَيَّان ، وجملة حُصُون وقرى كثيرة تشِفُّ على ستمائة قرية ، يُتخذ بها الحرير .
ثم إقليم بَجَّانة ، وفيه من المُدن المرية ، وبرجة ، وحصون كثيرة منها مُرشانة ، وبرُشانة ، وطر جالة ، وبالش .

ويتلو في جهة الجنوب اقليم البيرة (83) وفيه من المُدن غرناطة ، وهي مدينة (84) أحدثها حبوس (85) الصَّنَاجي ، وبَنَى قصبته وأسواقها ، ثم زاد في عمارتها ابنه باديس بعده ، وهي مدينة يشقها [نهر يسمَّى حدرُّو وعلى جنوبها] (86) نهر التَّلج المسمَّى شنيل (87) ، ومبدؤه من جبل شلير (88) ، والتَّلج بهذا الجبل لا يبرح . وبهذا الإقليم وادي آش والمنكب وحصون وقرى كثيرة ، ثم كورة تَدْمِير ، وفيها من المدن مرسية ،

(77) إضافة من المؤلف عما هو موجود بنزعة المشتاق .

(78) في ن . م : «ريض فتنالة» .

(79) في الأصول : «التين» والمثبت من ن . م .

(80) يرجع إلى ص 174 .

(81) في ش : «ويشتر» في ط و ت : «بيشتر» والمثبت من ن . م . ص 174 و 204 .

(82) كذا في بعض نسخ ن . م . وفي غيرها : «يسكصار» .

(83) في الأصول : «الفيرة» والمثبت من ن . م . ص 175 .

(84) في ت : «مدينة عظيمة» عن غرناطة انظر النص الكامل بنزعة المشتاق ص 203 .

(85) في الأصول : «حسن» والمثبت من ن . م .

(86) إضافة من ن . م . ليستقيم المعنى .

(87) في الأصول : «سيدل» والمثبت من ن . م . ص 203 .

(88) في الأصول : «يشكور» والمثبت من ن . م .

وأوريولة⁽⁸⁹⁾ ، وقرطاجنة ، ولورقة ، ومولة ، وجنحالة ويتصل / بكورة كونكة⁽⁹⁰⁾ ، [73/ب] وفيها ألس ، ولقنت ، وكونكة وشقورة .

ويليه إقليم مرباطر ، وفيه من البلاد بلنسية ، ومرباطر ، وبُريانة ، وحصون كثيرة .
ويليه مع الجوف إقليم القواطم ، وفيه من البلاد شنت مارية المنسوبة لابن رزين⁽⁹¹⁾ .

ويتصل به إقليم الوحة ، وفيه من البلاد سرّة وفتة⁽⁹²⁾ وقلعة رباح .
ويلي هذا الإقليم إقليم البلالطة وفيه حصون كثيرة ، ومن أكبرها بطروش وغافق ،
وحصن ابن هارون ، وغيرها دونها في الكبر .
ويلي هذا الإقليم غربًا إقليم الفقر⁽⁹³⁾ ، وفيه من البلاد شنت مارية⁽⁹⁴⁾ ، ومارتلة ،
وشلب ، وحصون كثيرة وقرى .

ويلي هذا الإقليم [إقليم القصر وفيه القصر]⁽⁹⁵⁾ المنسوب لأبي⁽⁹⁶⁾ دانس ، وفيه
يابورة ، وبطلبوس ، وشريشة ، وماردة ، وقنطرة السيف وقورية .
ويليه إقليم البلاط ، وفيه مدينة البلاط ، ومدّكين .
ويلي هذا الإقليم إقليم بلاطة ، وفيه شنترين⁽⁹⁷⁾ ، ولشونة ، وشنترة .
ويليه إقليم الشارات وفيه طليبة ، وطليلة ، ومحريط⁽⁹⁸⁾ ، والفهمين ، ووادي
الحجارة ، وأقلّيش ووبّدة .

ويليه أيضًا إقليم أرنيط ، وفيه من البلاد قلعة أيوب ، وقلعة دروقة ، ومدينة
سرقسطة⁽⁹⁹⁾ .

(89) في الأصول : «أوريولة» والمثبت من ن . م . ص 175 - 196 .

(90) في الأصول : «فوتكة» والمثبت من ن . م . ص 175 .

(91) في الأصول : «ابن زريق» والمثبت من ن . م . ص 175 .

(92) في الأصول : «مية» والمثبت من ن . م . ص 175 .

(93) في ت : «العقر» .

(94) في الأصول : «شتنمية» والمثبت من ن . م . ص 175 .

(95) إضافة من ن . م . ليستقيم المعنى .

(96) في الأصول : «لابن أبي دانس» .

(97) في الأصول : «شنترين» والمثبت من ن . م .

(98) في الأصول : «مجلط» والمثبت من ن . م . ص 175 .

(99) في الأصول : «سرقطة» والمثبت من ن . م . ص 176 .

ثم يليه اقليم الزيتون ، وفيه جاقّة ، ولاردة ، ومكناسة ، وإفراغة .
ويليه اقليم البُرّات ، وفيه طُرطُوشة ، وطركونة ، وبرشلونة .

ويلى هذا الإقليم غرباً / اقليم مرمريّة ، وفيه حصون خالية ومما يلي البحر حصن [174/أ] طشكر وكشطالي ، وكندة⁽¹⁰⁰⁾ .

فهذه كلها أقاليم [أشبانيا المسمّى جملتها]⁽¹⁰¹⁾ الأندلس (ولولا خشية السّامة لذكرنا مسافة ما بين هذه البلدان ، لكن لا فائدة لنا في ذكرها هنا ، لأن الأندلس ساعة التاريخ في يد العدو - أعادها الله تعالى للإسلام - والكلام عليها يطول ، وتتبعه هنا يعد من الفضول .

مدن ساحلية :

واعلم أن جنوبي بلاد الأندلس متصل بالبحر الشامي - كما تقدم - وتقدم أنه ما بين بلاد الأندلس وبلاد العدو⁽¹⁰²⁾ .

فالقلة⁽¹⁰³⁾ من بلاد الأندلس يقابلها من العدو المزمّة ، وبادس ، وبينهما عرض البحر مجرى يوم بالريح الطيبة المعتدلة .

وكذلك المرية من الأندلس يوازيها من العدو هُنيّ ، وعرض البحر بينهما مجريان . وكذلك أيضاً مدينة دانية يقابلها من العدو مدينة تنس ، وبينهما ثلاث بحار . وكذلك مدينة برشلونة تقابلها من [عدوة المغرب الأوسط]⁽¹⁰⁴⁾ مدينة بجاية ، وبينهما أربع بحار في عرض البحر ، والمجرى مائة ميل .

جزر البحر الشامي :

وبين بر الأندلس وبر العدو جزر كثيرة ، صغيرة وكبيرة ، معمورة ومغمورة ، فمن الجزر الكبيرة جزيرة سردانية وجزيرة قرسقة ، وجزيرة صقلية ، ومن الصغار جزيرة مالبة وبانوشة⁽¹⁰⁵⁾ ، وأسقرنجلو ، وجبل اليركان ، ثم جزيرة اليركان ، وجزيرة لبس ، وجزيرة

(100) في الأصول : « كندة » والمثبت من ن . م . ص 176 .

(101) إضافة من ن . م . للضبط .

(102) ما بين القوسين إضافة من المؤلف عما هو موجود بترجمة المشتاق .

(103) رجع إلى النقل من ن . م . بتصرف ص 214 .

(104) إضافة من ن . م . للضبط .

(105) لعل الصواب : « أنبدوشة » .

دندمة ، وجزيرة أم الحمار ، وجزيرة الطرفانية ، وجزيرة أنكوذة ، وأشتقة ، والبالية ، وجزيرة الراهب ، ومليطمة ، وقوصرة⁽¹⁰⁶⁾ ، / والكتاب ، ونموشة ، وكمونة ، ومالطة ، وغودش ، ولنبدوشة . ولندكر بعض هذه الجزر المشهورة ، ونعرض عن الباقي لطول الكلام عليها .

وهذه الجزر العامرة كلها فتحها الإسلام ، ثم رجعت الآن في يد العدو ، وقال⁽¹⁰⁷⁾ في رحلة التجاني : « وجزيرة شريك يعني (من أرض تونس)⁽¹⁰⁸⁾ اجتمع الروم عند دخول عبد الله بن سعد بن أبي سرح المغرب ثم ارتحلوا إلى اقلبيية وركبوا منها إلى جزيرة قوصرة فيقال أنهم أقاموا بها إلى خلافة عبد الملك بن مروان فأغزى عبد الملك ابن قطن في البحر فافتتح جزائر افريقية كلها⁽¹⁰⁹⁾ .

فأما جزيرة⁽¹¹⁰⁾ يابسة ، فهي حسنة ، وأقرب مدن الأندلس إليها دانية ، وبينهما بحرى .

وفي شرقي جزيرة يابسة جزيرة مئورقة ، وبينهما بحرى .

وتقابل منورقة شرقاً ، مدينة برشلونة من الأندلس ، وبينهما بحرى .

ومن منورقة إلى جزيرة سردانية أربع بحار شرقاً⁽¹¹¹⁾ .

وسردانية جزيرة كبيرة القطر ، كثيرة الجبال ، قليلة المياه ، طولها مائتان وثمانون ميلاً وعرضها من المغرب إلى المشرق ، وطولها مار من الجنوب إلى الشمال مع قليل تشريق ، وفيها ثلاث مدن ، منها القيطنة ، وهي مما يلي جنوبها ، وهي عامرة ، ومنها مدينة خالدة وهي رأس المجاز إلى جزيرة قرسقة ، ومنها إلى قشتالية .

وأهل جزيرة⁽¹¹²⁾ سردانية في الأصل روم أفارقة متبررون . وفي جزيرة سردانية / [75/أ]

(106) كذا في معجم البلدان وكتبها التجاني في رحلته ص 13 . وابن حوقل في صورة الأرض والادريسي على خارطته : « قوصرة » وهي المعروفة في اللغات الأوروبية « Pantellaria » .

(107) أي التجاني في رحلته .

(108) تفسير إضافي من المؤلف ويقصد بها الوطن القبلي كما فسرنا سابقاً .

(109) رحلة التجاني ص 13 .

(110) رجع إلى النقل من ن . م . ص 214 .

(111) هنا ينهي النقل عن « المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » المأخوذ من كتاب نزهة المشتاق والذي أشرنا إليه اختصاراً ب (ن . م .) .

(112) في ت : « مدينة » .

معادن الفضة الجيدة ، ومنها تخرج الفضة إلى كثير من بلاد الروم .
وبين سردانية وجزيرة قرسقة⁽¹¹³⁾ مجاز طوله عشرون ميلاً .

صقلية :

وأما جزيرة صقلية⁽¹¹⁴⁾ وتوصف بسيسليا⁽¹¹⁵⁾ فهي مثلثة الشكل ، فالجهة الشرقية منها من مدينة مسينة إلى جزيرة الأرنب مائتا ميل ، ومن جزيرة الأرنب إلى اطرابنش⁽¹¹⁶⁾ أربعمائة وخمسون ميلاً ، وهو الوجه الجنوبي ، والوجه الثالث من اطرابنش إلى الحراش إلى الغار مائتان وخمسون ميلاً ، فمساحة محيطها تسعمائة ميل ، وانتهت عمارتها سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة⁽¹¹⁷⁾ إلى مائة بلد وثلاثين بلدًا ، وكان فتحها أسد بن الفرات - رحمه الله تعالى - وهي اليوم بيد العدو أعادها الله للإسلام .

وأول مدنها المشهورة بلرم⁽¹¹⁸⁾ ، وهي المدينة العظمى على ساحل البحر في الجانب الغربي ، والجبال محدة بها ، وهي على قسمين ، قصر وربض ، فالقصر هو القديم المشهور ، وهو في ذاته على ثلاثة أسطمة ، وكل سباط مشتمل على قصور ، والربض مدينة أخرى تحلق بالمدينة من جميع الجهات ، وبه المدينة القديمة المسماة بالخالصة⁽¹¹⁹⁾ التي كان بها مسكن السلطان والخاصة في أيام المسلمين ، وبها دار الصناعة للانشاء ، والمياه بجميع جهات مدينة صقلية مخترقة ، وعيونها جارية متدفقة ، وبخارج الربض من الجهة الجنوبية منها نهر⁽¹²⁰⁾ عباس ، وهو جار ، عليه جمل من الأرحاء الطاحنة ما لا يحتاج معها إلى غيرها / وبالشرق من المدينة على مرحلة منه قلعة ثرمة⁽¹²¹⁾ وبها حمتان

[75/ب]

(113) كتبها ابن حوقل في صورة الأرض «قرسقة» ص 113 .

(114) قال ياقوت في معجم البلدان : «ثلاث كسرات وتشديد اللام والياء أيضًا ، وبعض يقول بالسين ، وأكثر أهل صقلية يفتحون الصاد واللام» 416/3 .

(115) الاسم العامي لصقلية .

(116) في ش : «اطرابش» ، في ت و ط : «أطرابنش» والمثبت من معجم البلدان لياقوت 218/1 ، وكتبها : «طرابنش» عند حديثه عن صقلية 417/3 .

(117) 1148 م .

(118) Palerme .

(119) أنظر عنها : ابن حوقل ، صورة الأرض ، بيروت 1979 ، ص 114 .

(120) في صورة الأرض : «وادي عباس» ص 114 .

(121) كذا في ش وت ومعجم البلدان ، وفي ط : «ثرمة» . قال ياقوت : «بالكسر لم بالسكون بلد في جزيرة صقلية كثيرة البراغيث شديدة الحر» . 76/2 .

متقاربتان من أجل الحمّامات ، وعليها بنيان قديم الزمان ، ويجانبها الغربي محل يعرف بالتّربية ، وهو من المنازه البديعة .

وبشرقي جزيرة صقلية مدينة مَسِينَا ، والجبال من الناحية الغربية محدقة بها ، ومرساها من أعجب المراسي المتحدّث به في سائر البلاد ، لأن أكبر ما يكون من السفن العظام يرسي من الشاطئ بحيث يتناول ما فيها من البر بالأيدي ، ومن بلاد صقلية شكلة ، وهي قلعة في أعلى جبل على البحر بنحو ثلاثة أميال ، وبها العين المعروفة بعين الأوقات ، ومن غريب أمرها أنها تجري في أوقات الصّلاة ، وتجف في غير ذلك .
ومنها مازر واليها ينسب الإمام المازري - رحمه الله تعالى - والخراز واليها ينسب الخَرّازي⁽¹²²⁾ .

وأما جزيرة مليطمة ، فهي توازي تونس . وفي شرقي مليطمة ، قوصرة⁽¹²³⁾ ، وبين قوصرة و برّ افريقية بحري ، وقوصرة جزيرة حصينة فيها آبار وسواحل وأشجار زيتون ، وهي توازي نابل ، وتوازي بين الشاقة ومازر ، وبينهما بحري .
ومن قوصرة في عين الشرق جزيرة غودش ، وبينهما مائة ميل وفيها مرسى مأمون .
ومن جزيرة غودش إلى جزيرة كمونة وهي كبيرة .

ومنها في شرقها جزيرة مالطة - دَمَرها الله - وهي جزيرة كبيرة وفيها مرسى مأمون / [76/أ] وبينها وبين (أقرب بر من)⁽¹²⁴⁾ صقلية ، وهو موضع يقال له أكرنته ، ثمانون ميلاً ، وليس بعد مالطة للاحية الشرق والجنوب إلّا جزيرة أفریطش .

وأما جزيرة لنبدوشة⁽¹²⁵⁾ فبينها وبين أقرب بر من أفريقية وهو قبودية⁽¹²⁶⁾ مَجَرَيان ، وبالأنبدوشة مرسى مأمون يُكِنُّ من كل ربح ، ويحمل الأساطيل الكثيرة ، وهذا المرسى منها في الغرب والجنوب . ومنها في جهة الشمال جزيرة لطيفة هي جزيرة الكتاب ، بينهما خمسة أميال وفيها ذكرناه⁽¹²⁷⁾ كفاية والله سبحانه وتعالى أعلم⁽¹²⁸⁾ وأحكم .

(122) ذكر ابن حوقل أن عثمان بن الخراز ولي قضاء بلرم ... صورة الأرض ص 118 .

(123) أو قوصرة كما أشرنا .

(124) ساقطة من ت .

(125) Lampedusa .

(126) بالفتح ثم بالتشديد والضم ، وواو ساكنة ، ودال مهملة ، وياء خفيفة ، معجم البلدان : 208/4 ، ويقال رأس قبودية .

(127) بعدها في ت : «في هذا الأمر» . (128) في ت وط : «أعلم بغيره وأحكم» .

المقالة الثانية

في ذكر الخلفاء وخلفاء الصحابة بعد رسول الله ﷺ
ومن بعدهم من خلفاء بني أمية بالشرق وفتوحات
المغرب في أيامهم وفيه ثلاثة أبواب

الباب الأول

في الخلافة وخلافة النبي ﷺ والخلفاء الأربعة
- رضي الله تعالى عنهم أجمعين -

مفهوم الخلافة :

ف نقول إن الخلافة التي جعلها الله لآدم - على نبيينا وعليه ⁽¹⁾ أفضل الصلاة والسلام - في الأرض ، ولذريته الصالحين من بعده ، هي إقامة الله تعالى بشرا من خلقه لإقامة أحكام الله وتنفيذ قضاياه بين خلقه تعالى ، وعمارة أرضه وسياسة عباده ، وتكميل نفوسهم ، رحمة منه تعالى لا حاجة به تعالى إلى من ينوبه ، بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه ، تعالى ، وتلقي أمره بلا واسطة ، ولذلك لم يكن النبي ملكا ، وفي ذلك لطف ورفق بالعباد . هذه هي الخلافة الحقيقية ، وعليها تقع المبايعة ، وهي المعاهدة على القيام على موجب الكتاب والسنة ، حسبما يرشد إليه قوله علت كلمته : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ مُبَايَعُوكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا

[76/ب]

(1) في ت : « عليه أفضل الصلاة » .

يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴿٢﴾ الآية (2) وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ (3). فالكتاب والسنة طريق الخلافة الحقيقية ، فمن قام بهذه الخلافة على حقها سمي خليفة راشداً ، كالخلفاء الراشدين بعد رسول الله ﷺ فهذا هو الإمام العادل ، وإليه الإشارة بقوله علت كلمته : ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ (4) الآية . ومن كان مخالفاً لما بُويع عليه من الكتاب والسنة فهو غير راشد ، وإن أخذها بغير حقها ، بل جبروتاً وغضباً فهو مستخلف لا خليفة ، وهو باسم الملك أحق من اسم الخليفة ، وإطلاق الخليفة عليه من حيث اظهار صورة البيعة التي عقدت له غضباً . واعلم أن منصب الخلافة عظيم ، وخطب جسيم ، إلا على من وفقه الله وعصمه وحفظه ، فروي البغوي (5) في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ (6) : أن لقمان كان نائماً نصف النهار/ فتودي يا لقمان : هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض لتحكم بين الناس بالحق ، فأجاب الصوت وقال : إن خيرني ربي قبلت العافية ، ولم أقبل البلاء ، وإن عزم علي فسمعتاً وطاعةً ، فأني أعلم إن فعل ذلك بي أعاني وعصمني (7) . فقالت الملائكة بصوت لا يراهم : لم يا لقمان ؟ قال : لأن الحاكم بأشقي المنازل وأكدرها يغشاه الظلم من كل مكان إن يعن فبالخري (8) أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن في الدنيا ذليلاً خيراً من أن يكون شريفاً ، ومن تحير الدنيا على الآخرة تفتنه (9) الدنيا ولا يصيب الآخرة ، فعجبت الملائكة من حسن منطقه ، فنام نومة ، فأعطي الحكمة ، فانتبه وهو يتكلم بها اهـ (10) .

ولا بد في خلافة الاسلام من شرط (11) كون الخليفة قُرَيْشِيًّا ، لقوله - عليه

(2) سورة الممتحنة : 12 .

(3) سورة الفتح : 18 .

(4) سورة البقرة : 124 .

(5) هو الحسين بن مسعود الفراء الملقب بمجيبى السنة (ت . 516 هـ / 1122 م) وتفسيره يسمى «معالم التنزيل» وهو مطبوع .

(6) سورة لقمان : 12 .

(7) في ت : «أعاني عليه وعصمني» وفي ط : «ربي أعاني عليه وعصمني» .

(8) في الأصول : «أن يعدل فالأخرى أن ينجو» . معالم التنزيل 178/5 بهامش لباب التأويل للهازمي (مصر بدون تاريخ) .

(9) في ت وط : «أنته» .

(11) في ت : «شروط» .

(10) البغوي : «معالم التنزيل» .

الصلاة والسلام - الخلافة في قريش ، والفرق بين الخليفة الحقيقي ، والمملك والسلطان ، أن الخليفة يأخذ بالحق ويعطي بالحق ، والمملك من لا يبالي من أين أخذ ولا فيما أعطى ، حسبما تُرشد له قصّة عمر - رضي الله تعالى عنه - حين قال لبعض أصحابه : أَمَلِكُ أنا أم خليفة ؟ فقليل له إذا وضعت شيئاً من بيت المال في غير حقه ، وأخذته من غير حقه ، مصادرة أو غصباً قصد الأخطاء فأنت مَلِكٌ لا خليفة ، وذلك لأن المملك يعسف الناس ولا يبالي بما فعل ، وأما السلطان فهو من يأخذ ويعطي مطلقاً / وفي ولايته أمراء يكون ملكهم تحته ، ويكون عسكره عشرة آلاف فأكثر ويملك ممالك متعددة ، كالشام ومصر ، فإن زاد مملكة أو جيشاً كان أعظم في السلطنة ، وجاز أن يطلق عليه سلطان السلاطين ، والسلطان الأعظم . ويشترط أن يخطب له في ممالك متعددة أقلها ثلاثة أيام ، وأكثرها ثلاثة أشهر ، فما فوق اهد من حسن المحاضرة ⁽¹²⁾ بالمعنى .

وقد أرشدنا لمدة الدنيا ولحكمة الخلافة ما روي عن ابن عباس ⁽¹³⁾ - رضي الله تعالى عنهما - دنياكم هذه أسبوع من أسابيع الآخرة ، وانكم في آخر يوم منه ، فإن الله يبعث في كل ألف سنة نبيّاً بمعجزات واضحة ، وبراهين قاطعة ، لرفع أعلام دينه القويم ، وظهور سراطه المستقيم ، فكان في الألف الأولى آدم - عليه السلام - وفي الثانية ، ادريس - عليه السلام - ، وفي الثالثة نوح - عليه السلام - وفي الرابعة ابراهيم - عليه السلام - ، وفي الخامسة موسى - عليه السلام - وفي السادسة عيسى - عليه السلام - وفي السابعة محمد - عليه الصلاة والسلام - وبه ختمت النبوة وتَمَّت به آلاف الدنيا ، كذا قال في «أصول التواريخ» ، ولم يبق بعد النبوة إلا الخلافة من الأمة المحمدية ، وفي هذه اشارة إلى أن ما بعد الألف السابعة (لا يبلغ ألفاً بل كسور ألف) ⁽¹⁴⁾ وإلا لم يكن أسبوعاً ، ولا يشترط في الرسول صاحب الألف / أن يكون على رأس الألف ، ولا أن يكون بينه وبين غيره ألف .

12 حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطي تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة 1387/1968 ، 2/125 - 126 .

13 عبد الله بن العباس ، اختصار ابن عباس المعروف بالخير وبالبحر أيضاً لسعة اطلاعه ، يعتبر أكبر علماء الطبقة الأولى ، أول المفسرين للقرآن الكريم . ولد قبل الهجرة النبوية بثلاث سنوات ، أنظر عنه دائرة المعارف الإسلامية

(L'encyclopédie de l'Islam) ، باريس 1975 ، 1/41 - 42 .

14 في ت وط : «طور ألف» .

وذكر الشيخ محي الدين بن العربي⁽¹⁵⁾ في «مسامرته» نقلاً عن ابن عباس أن ما بين آدم ونبينا محمد ﷺ خمسة آلاف سنة ، وخمسمائة وخمسة وسبعون سنة ، وعلى ما رواه الكلبي عن أبي صالح أنه ستة آلاف سنة وتسعة عشرة سنة ، وتفصيل ذلك من آدم إلى نوح - عليهما السلام - ألف سنة ومائتا سنة ، ومن نوح إلى إبراهيم - عليهما السلام - ألف ومائة سنة ، ومن إبراهيم إلى موسى - عليهما السلام - خمسمائة وخمسة وسبعين سنة ، ومن موسى إلى داود - عليهما السلام - ألف وثلاثمائة وخمسة وستون سنة ، ومن عيسى إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - ستمائة سنة ، وللناس من الأمم في ذلك اختلاف كثير.

آدم عليه السلام أول الخلفاء :

وأول خلفاء هذا النوع الإنساني في الأرض هو أبو البشر آدم - عليه السلام - حسبما يرشد إليه قوله علت كلمته ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾⁽¹⁶⁾ فلما نزل إلى الأرض نزل حزينا كئيبا لمفارقة دار الكرامة ، ووحشته في الأرض ، اذ لم يكن فيها أحد من هذا النوع غيره وزوجه ، ونزل هو بجبال سرنديب⁽¹⁷⁾ من أرض الهند ، ونزلت هي بجدة ، وقد جعل الله سكون الزوج لزوجته كما قال : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾⁽¹⁸⁾ الآية . واستصحب في خروجه من الجنة سفرجلة⁽¹⁹⁾ فشتمها فحصل له من طيها مبي في صلبه ، خلقه الله

[ب/78]

(15) كذا في ت و ط : وفي ش «بن عربي» وهو محي الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن العربي الحاتمي الطائفي

(560 - 638 / 1165 - 1240) وبعضهم يكتب اسمه «ابن عربي» وبعض المصادر تعطيه كنية أبو بكر ، بينا

يسمي نفسه بأبي عبد الله فقط . صوفي مشهور ، من أنصار وحدة الوجود .

له تصانيف ، بني من كتبه أكثر من 150 مؤلفاً ويبدو أن هذا نصف عدد ما كتبه وطبع منها عدد . انظر

دائرة المعارف الإسلامية (L'encyclopédie de l'Islam) ، باريس وليدن 1975 ، 3/ 729 - 734 .

(16) سورة البقرة : 30 .

(17) راجع الكامل لابن الأثير ، بيروت 1965 ، 1/ 37 . وتاريخ الطبري 122/1 . أنظر قصص الأنبياء المعروف

«بعرانس المجالس» لإسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ، طبع محمد أفندي مصطفى ، مصر

1301/1884 ، ص 26 .

(18) سورة الرُّوم : 21 وبداية الآية من النص مُحَرَّقة : «وجعلنا لكم...» .

(19) لم نثر على خبر السفرجلة في أي كتاب من كتب التراث ولعل المؤلف أخذها عن الأساطير الشعبية كما يفعل في

لتناسل النوع البشري ، فتحركت فيه الشهوة ، فاشتد شوقه لحواء ، حِكْمَةً إلهية ، فطلب حواء فوجدها بِعَرَفَةٍ فتغشَّاهَا ، فحملت بذكر وأُنْثَى في بطن واحد ، واستمر التوالد بينهما حتى بلغ عشرين بطنًا ، بذكر وأُنْثَى في كل بطن⁽²⁰⁾ ، ثم أمره الله تعالى بتزويج الذَّكَر من هذا البطن بأنْثَى البطن الآخر ، وأنْثاه بذكر الآخر وهكذا .

ولما أراد الله تعالى خروج نور نَبِيِّنَا مُحَمَّد ﷺ أوحى الله إليه بعد قتل قابيل أخاه هَابِيل⁽²¹⁾ ، أَنِّي مخرج منك نورًا أَجعله خاتم الأنبياء وخيار الأئمة والخلفاء ، أختم الزمان بمدته فشمِّر يا آدم وتطهَّر وقَدِّس وسَبِّح ، ثم اغش زوجك على طهارة منكما فإن وديعتي ونوري ينتقل إلى الولد الكائن بينكما ، فَغَشَّيْهَا - عليهما السَّلام - فحملت لوقتها بشيث⁽²²⁾ - عليه السَّلام - وهو عوض عن هابيل الذي قتله قابيل ، فتلاًلُ النور في وجهها ، فلما وضعته كان أكمل الأولاد خَلْقًا وَخُلُقًا ، وصورة وبشرًا ، فسَمَّاهُ آدم عليه السَّلام شَيْث ، ومعناه هَيْة الله فكان وصِيَّه وولي عهده بنبوءته ، فلما حضرته الوفاة ، أوصى لابنه شيث بالقيام بالشرعية ، وعمر آدم تسعمائة سنة وثلاثين سنة على ما نقل / عن «التوراة» وقال وهب : عاش آدم ألف سنة وقبره قيل بأبي قُيُس⁽²³⁾ بغار فيه يقال له غار الكثر ، فلما جاء الطُوفان حملة نوح في السَّفينة ، فلما نزل منها رَدَّه إلى ذلك الغار⁽²⁴⁾ ، وقيل إن قبر آدم في بيت المقدس ، رأسه عند مسجد ابراهيم - عليه السَّلام - ورجلاه عند الصَّخْرة الشَّريفة ، وقيل غير ذلك وعاشت حواء بعده سنة واحدة ودفنت معه ، وقيل بِجَدَّةٍ وَعُمُرُهَا تسع مائة وسبع وستون سنة ، فكان فيه وفي بنيه النبوة ، وأوصى لابنه كَيُومَرُث⁽²⁵⁾ بالملْك والسياسة .

= : بعض الأحيان عندما يتحدث عن أصل الخليقة وعصورها الأولى ويؤيد هذا أن آدم حين هبط من الجنة كان له ولدان هابيل وقايل كما ذكره المؤرخون .

(20) قصص الأنبياء ، ص 33 ، والطبري 133/1 مع بعض الاختلاف .

(21) عن قصة قابيل وهابيل أنظر على سبيل المثال تاريخ الطبري 137/1 ، والثعلبي : قصص الأنبياء ص 5 .

(22) الكامل لابن الأثير . 47/1 ، والطبري 152/1 .

(23) في ت : «قيس» .

(24) الكامل 52/1 .

(25) في الطبري وفي كتب التاريخ التعرانية : جيومرت بالياء المثناة وبالفارسية : كيومرث كما كتبها المؤلف ، انظر هامش الكامل لابن الأثير ، 45/1 . وعن كيومرث ومختلف الأقوال في نسبه وتقليكه ، راجع على سبيل المثال :

الطبري 153/1 .

كيومرث :

فكان كيومرث أول ملوك بني آدم ، كما أن شيث أول نبيء بعد آدم ، وسبب ذلك أن آدم - عليه السَّلام - ما حضرته الوفاة إلّا وقد بلغ عدد أولاده وأولاد أولاده أربعين ألفاً ، ومن ضرورة الكثرة الاختلاف والتنازع ، والتغالب لاختلاف الطباع ، وتنافي الاختيارات ، فلما كان آدم قائم الحياة كان يسوسهم بحق الأبوة والنبوة ، ولما حضرته الوفاة اختار خلاصة أولاده ، وهما شيث وكيومرث ، فأقام كل واحد منهما فيما خلقه الله لأجله ، ثم أن آدم - عليه السَّلام - أعطاهما أربعين صحيفة ليعملا بما فيها ، فولى شيث حفظ أمور الدين والآخرة ، وكيومرث حفظ الممالك ونظامها التام ، والسياسة بالضبط وتعمير الأرض .

مهلائيل :

فأما كيومرث فكان ملكه مائتي سنة وثلاث وعشرين سنة ، وعمره ألف سنة فعهد لولده⁽²⁶⁾ ، وولده لولده حتى / أفضى الملك للخامس ، وهو مهلائيل⁽²⁷⁾ بن قينان⁽²⁸⁾ ، فكثُر الخلق في زمنه ، وتضايقوا وتزاحموا ، وكان سكناهم بالكهوف والغابات والجبال ، ففرق الخلق للأقطار فنزل مهلائيل⁽²⁷⁾ مع من كان معه إذ ذاك من أولاد شيث بأرض بابل ، فابتدأ ببناء مدينة بابل ، فهو أول من بنى المدائن ، وقيل إن كيومرث هو الذي ابتدأ ببناء مدينة اصطخر ، ومدينة نهاوند .

شيث وذريته :

وأما شيث فكان بأرض مصر ، فلما مات وعمره تسعمائة سنة واثنا عشر سنة ، دفن بقرب آدم - عليه السَّلام - وكان أوصى بعهدته إلى ابنه أنوش ، ثم إلى ابنه قينان ،

(26) في ت : « فعهد بعده لولده » .

(27) كذا في الكامل ، في ط : « مهيايل » 57/1 .

(28) في الأصول : « قينان » والمثبت من الكامل 57/1 .

ثم إلى ابنه مهلائيل⁽²⁹⁾ ثم إلى ابنه يرد⁽³⁰⁾ ، ثم إلى ابنه أخنوخ⁽³¹⁾ ، وهو ادريس - عليه السلام - ثم إلى متوشلخ ، ثم إلى ابنه لامك⁽³²⁾ ، ثم إلى ابنه نوح النبي - عليه السلام - فكانت الوصية تارة تجتمع مع النبوة وتارة مع الولاية والحكمة ، وتملك فيهم عشرة آباء من أكابر أولاد آدم ، فكانوا على شرع آدم ووصيته وعهده ، وكان فيهم النبوة والولاية ، والحكمة والملك ، وكان لهم سلاطين وملوك على شرائعهم إلى آخر أيام نوح - عليه السلام - وكان ملك زمانه فرعان الذي قام عليه الطوفان .

ادريس :

وادريس - عليه السلام - هو أول من دبر الأرض ووزن الماء وأجرى النيل للزراعات ، ونصب الجر عليه لمعاملات القرى ، وصعد إلى أول مسيل / النيل ، لأنه وُلِدَ بمصر ، فخرج منها وطاف الأرض ، ودعا الخلق إلى الله ، ثم رحل إلى المشرق وأطاعه جميع الملوك ، وابتنى مائة وأربعين مدينة ، ثم عاد إلى مصر ، ودبر أمر النيل من أول مجراه إلى موضع انصبابه في البحر الرومي بقرب دمياط⁽³³⁾ وكان جَمَعَ أهل مصر ، وأمرهم باصلاح الأرض من خفض المرتفع ورفع المنخفض بما رآه في علم النجوم والهيات ، وهو أوّل من تكلم في هذه العلوم ، وأخرجها من القوة إلى الفعل ووضع فيها الكتب ، ورسم فيها التعاليم ، ثم سار إلى أرض الحبشة والنوبة ، وجمع أهلها وزاد في مسافة جري النيل ، ونقّص بحسب بطئه وسرعته في طريقه ، حتى كمل حساب جريه ووصله إلى أرض مصر في أول زمان الزراعة على ما هو عليه الآن ، فهو أول من دبر جري النيل إلى أرض مصر ، وهو الهرمس الأول ، النبوي الحكمي السلطاني ، الفلكي

(29) في الأصول : «مهيائيل» والمثبت من الكامل 54/1 ، واليعقوبي .

(30) في الأصول : «يزد» والمثبت من الكامل 54/1 .

(31) كذا في الأصول ، وفي مروج الذهب ، وتاريخ اليعقوبي ، وفي الكامل : «حنوخ» 55/1 . وفي غير الكامل حنوخ هو غير أخنوخ الذي ورد ذكره .

(32) كذا في الأصول وفي الكامل ، وفي الكامل أيضًا وفي مروج الذهب : «ملك» عن أخبار هذه السلسلة انظر الكامل 54/1 - 55 .

(33) في الأصول : «دمياط» والمثبت من معجم البلدان 472/2 - 473 قال الحموي : مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل ، والوفيات 258/6 قال ابن خلكان «ولفظه دمياط سريانية وأصلها بالذال المعجمة ، ويقولون : «دمط» .

الملكي ، الرّوحاني العقلي الإنساني ، ويسمّى هرمس الهرماسة ، أي حكيم الحكماء المشهورة ، فله ثلاث مناصب : نبوة آدمية ، وحكمة إلهية ، وسلطنة أرضية ، وله تجرد ملكي وسياسة فلكية⁽³⁴⁾ ، عرج إلى الأفلاك ، وشاهد أطوارها وأدوارها ، غلبت روحانيته بشريته ، فصار كثير الإنسلاخ عن البدن ، وهو صاحب المعراج الملكي ، خالط الملائكة الكرام ، والأرواح المجردة ، ولم يأكل ، قيل لم يتم ستة عشر عاماً حتى بقي عقلاً / مجرداً وروحانية في فلك الشمس ، وهو وسط الأفلاك حسبما يرشد إليه علت كلمته بقوله : ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾⁽³⁵⁾ تحته ثلاثة أفلاك ، وفوقه مثلها ، حسبما ذكره الشيخ الأكبر في الفصل الادريسي .

[80/ب]

وادريس هو أوّل من كتب الكتب في أسرار الهياكل ، وأدوار الأفلاك ، وأطوار الأرواح المجردة ، وأول من صنف كتاب «كتر الأسرار في علم الحروف» ولما صنف الكتب الكثيرة ، حرصاً على تخليد علومه ، أخذ جبريل أكثرها ، فألقاه في البحر لحكمة الالهية ، لما فيها من اظهار أسرار الرّبوبيّة التي اقتضت الحكمة اخفاءها عن العامة ، فن أراد أخذ تلك العلوم أخذها بالقوة العاقلة القليلة القدسيّة ، مما بقي من كتبه ، فإنها اقتبس⁽³⁶⁾ منها أساطين الحكماء أحكام علوم الأفلاك ، وأسرار الحروف ، والخواص الفلكية والأرضية ، ثم خلطت طوائف أرذال الحكماء من الدهريّة والطبيعيّة ، زخارف الفلسفة بتلك العلوم ، فيجب الاحتراز عن علومهم المزخرفة ، فإنها لا تخفى على العقلاء ، وإلا وقع الإنسان في سوء الاعتقاد كما وقع لابن سينا والفارابي ومن تبعهم . وهو - عليه السّلام - أول من خاط بالابرة ، واشتهر بالحرفة . ولما ظهر في زمنه عبادة أولاد قابيل لغير الله تعالى أرسله الله تعالى نبياً بعد شيث ، فزجر وأمر ونهى ، وجاهد وسبى وهو أول من أرسل بالدعوة / القهرية ، فسن الجهاد والقتل والسّي لمن كفر ، واستخرج آلات القتال من السيف والسرّج ، وما يتوقف عليه الجهاد ، واستنبط علوم الكتابة من الأوضاع الحرفية والأقلام . وهو أول من أسّس الهياكل ، ومعجّد الله فيها ، وبنى الأهرام والمنابر ، وصور فيها جميع الصنائع والآلات ، ورسم فيها العلوم ، حرصاً على تخليدها لمن بعده ، لما تحقق وقوع الطوفان . ولما مضى من عمره ثلاثمائة سنة وستون

[81/أ]

(34) في ت : «سياسة ملكية» .

(35) سورة مريم : 57 .

(36) في ت : «استبين» .

سنة ، رفعه الله إلى السماء من أرض مصر ، فهو الآن فيها ، والعامّة تزعم أنه مات بمصر ، وأن أحد أهرام مصر قبر شيث ، والآخر قبر ادريس - عليهما السّلام -⁽³⁷⁾ .
وبأرض مصر ثمانية عشر أهرامًا ، قيل في كل واحد منها قبر ملك من ملوكها ، البعض قبل الطوفان ، والبعض بعده ، كذا قيل ، وفي أمرها اختلاف كثير ، والله أعلم .
وفي الخبر النبوي أن ادريس هو الياس ، وقيل ينزل مرّة أخرى كما ينزل عيسى - عليه السّلام - قال مشايخ الصّوفية : له جَولَانٌ في الأرض ، وقُطَيْبَةٌ بَرِّيَّةٌ ، مع خلافة مَحْمُودِيَّةٍ كما للخضر أخيه قُطَيْبَةٌ بحرية ، وبينهما اجتماع برًا وبحرًا ، عند سد ياجوج وماجوج ، وفي مكة وعرفات ، كما ورد في أحاديث أوردها السيوطي - رحمه الله تعالى - في « الجامع الصغير والجامع الكبير » وتواترت عليهما أخبار الصّوفية كشفاً ومشاهدةً واجتماعاً بهما ، كما ذكر ابن العربي في « الفتوحات / المكية » .

[81/ب]

وبعد الطوفان أول ملوك مصر هو مصر بن حام بن نوح - عليه السّلام - ، وهو أبو القبط كلهم ، وبه سُمِّيَت تلك البلاد ، وبعث هود - عليه السّلام - في زمنه فدعاه إلى التّوحيد فما آمن ، فهو أول الفراعنة بعد الطوفان .

إبراهيم وإبنيه :

ومن الفراعنة فرعون إبراهيم - عليه السّلام - قال الثّعلبي في كتاب « العرائس »⁽³⁸⁾ من قصص الأنبياء ، لما نَجَّى الله خليله إبراهيم من نار النمرود ، وآمن به من آمن ، خرج مهاجرًا إلى ربّه ، وتزوج ابنة عمه سارة ، وسار ومن معه فقدم إلى مصر ، وبها فرعون الفراعنة الأولى⁽³⁹⁾ ، وكانت سارّة من أحسن النساء ، وكانت لا تعصي إبراهيم ، وبذلك أكرمها الله تعالى ، فأتى إبليس إلى فرعون وقال له : إن ههنا رجلاً ومعه امرأة من أحسن النساء ، فأرسل الجبار إلى إبراهيم - عليه السّلام - فقال له : ما هذه المرأة منك؟⁽⁴⁰⁾

(37) أخذ بعض ما قاله عن أدريس من قصص الأنبياء للثّعلبي ، ص 37 .

(38) وقت الإشارة إليه ، وللتذكير الكتاب هو : قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس ، وعن قصة إبراهيم وسارّة وفرعون مصر أنظر : قصص الأنبياء ص 61 .

(39) الكامل 100/1 قال ابن الأثير بعدها : « كان اسمه سنان بن علوان بن عبيد بن عولج ، بن عملاق بن لاوذ بن

سام بن نوح » .

(40) في ت : « ما تقرب هذه المرأة » .

فقال : هي أختي ، وخاف إن قال هي امرأتي أن يقتله ، فقال له : زينها وأرسلها إلي ، فرجع إبراهيم إلى سارة فقال لها : إن هذا الجبار قد سألني عنك ، فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده ، فإنك أختي في كتاب الله ، فإنه ليس مسلم في هذه الأرض غيري وغيرك ، ثم أقبلت سارة إلى الجبار وقام إبراهيم يُصَلِّي وقد رفع الله الحجاب بين إبراهيم وسارة ، ينظر إليها منذ أن فارقتة إلى أن / عادت إليه ، اكراماً له وتطييباً لقلب إبراهيم - عليه السَّلام - فلما دخلت سارة على الجبار ورآها ، دهش في حسنها ، ولم يملك نفسه أن مدَّ يده إليها ، فبيست يده على صدره ، فلما رأى ذلك أعظم أمرها ، فقال لها : سَلِّي رَبِّكَ أَنْ يَطْلُقَ يَدِي عَنِّي فوالله اني لا أُوذِيكَ فقالت سارة : اللهم إن كان صادقاً فاطلق يده ، فأطلقها الله تعالى ، فوهب لها هاجر ، وهي جارية قَبْطِيَّة جميلة ، وردها إلى إبراهيم ، فأقبلت إلى إبراهيم - عليه السَّلام - فلما أحس بها انتقل من صلاته ، وقال : هيه ؟ قالت : كفى الله كيد الفاجر ووهبني هاجر ، وقد وهبتها إليك فلعل الله يرزقك منها ولداً صالحاً ، وكانت سارة قد مُنِعَتِ الولدَ حتى أيسَت ، فَتَغَشَّى إبراهيم هاجر فحملت وولدت له اسماعيل .

[1/82]

وأقام إبراهيم بأرض فلسطين بين الرَّمْلَةِ وإيليا ، وهو يُضَيِّفُ من يأتيه ، وقد وَسَّعَ الله عليه وبسط له في الرِّزْقِ والمال والخدم .

قيل إن فرعون مصر لما وهب هاجر وهب معها تلك الأرض فأقطعها إبراهيم ، فبقيت له ولبنيه من بعده ، فهو يستطعم وَيُضَيِّفُ منها ، فظهر من هذا أن الفراعنة كانت تُعَظِّمُ الأنبياء ، وكانوا يعترفون بملكوت السموات (والأرض) ⁽⁴¹⁾ وبه صدر أمر الأنبياء - عليهم الصَّلاة والسَّلام - وامتنعوا من تصديق الأنبياء احتجاجاً بالكهانة والسحر والنجوم والسيماء / ودعوا الألوهية من يدعيها ، إنما هو طغيان وعُتُوٌّ واطهار للناس مع الاعتراف في أنفسهم بالعجز والافتقار ، ثم إن الله - تعالى - تَفَضَّلَ على سارة بأن رزقها اسحاق ، وأرسل الملائكة لإبراهيم ولها بالبشارة ، فَرَزَقَ إبراهيمُ اسماعيلَ من هاجر ، واسحاقَ من سارة .

[2/82]

قيل إن اسماعيل واسحاق تهاوشا وتضاربا كما يتهاوش الأطفال ، فقالت سارة : فَرِّقْ بَيْنَ ابْنَيْكَ ، فأوحى الله إلى إبراهيم - عليه السَّلام - أن يأتي بهاجر وابنها إلى مكة ، فذهب بها حتى قدم مكة وهي اذ ذاك عضاة وسلم ، وموضع البيت رَبْوَةٌ حمراء ، فعمد

بها إلى موضع الحجر - بسكون الجيم - ، فأنزلهما فيه ، وأمرهما أن يتخذا عريشاً ، ثم انصرف فتبعته هاجر فقالت : أمرك بهذا ربك ؟ قال : نعم . قالت : اذن لا يضيعنا ، فرجعت عنه وكان معها شن ماء فنفذ ، فعطشت وعطش ولدها ، حتى نزلت في الوادي ، فقابت عنه فهولت حتى صعدت الجانب الآخر وهو موضع الصفاء فرأته واستمرت إلى أن صعدت مكان المروة فما رأت أحداً وتردّدت كذلك سبعة ، فعادت إلى ولدها وقد نزل جبريل - عليه السلام - فضرب موضع زمزم يحنّاه فنبع الماء ، فبادرت هاجر إليه وحبسته من السيلان كي لا يضيع⁽⁴²⁾ . روي لولا أنها / حبسته لكانت عيناً معيناً ، فشربت وأروت ولدها وقال لها جبريل : لا تخافي الضيعة فإن هنا بيتاً لله بينه هذا الغلام وأبوه ، فإن الله لا يضيع أهله .

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي في «تفسيره»⁽⁴³⁾ : لا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا في جواز طرح ولده وعياله بأرض مضيعة اتكالاً على الله العزيز الرحيم ، واقتداء بفعل إبراهيم - عليه السلام - فإنه فعل ذلك بأمر الله اهـ⁽⁴⁴⁾ . ولأنه قيل إن إبراهيم - عليه السلام - سخر الله له البراق ، فكان إبراهيم يركبه متى أراد فيتفقداه ويرجع من ساعته⁽⁴⁵⁾ .

ثم إنه مرت فرقة من جرهم قبيلة من عرب اليمن كانوا قاصدين الشام ، فاستاذنوا هاجر في المقام معها ليؤنسوها ، ويشربون من زمزم على جهة الفضل على أن الماء ماؤها فأذنت (لهم بذلك)⁽⁴⁶⁾ ثم شب اسماعيل وتزوج منهم⁽⁴⁷⁾ وتكلم بلسانهم لنشأته معهم ، فتعرب وولد من بنات جرهم أولاداً يتكلمون بلغة جرهم ، فن ثم يقال لبني اسماعيل : العرب المستعربة ، ويقال لجرهم وقحطان : العرب العاربة ، والعرب العرباء ، وكان لسان إبراهيم عبرانياً ، ولسان اسماعيل عربيّاً .

(42) عن قصص الأنبياء بتصرف ص 62 - 63 .

(43) القرطبي ، ينقل عنه بواسطة الثعلبي .

(44) انتهى نقله من قصص الأنبياء ص 55 - 64 .

(45) في ت : «ويرجع إلى مقره من ساعته» .

(46) ساقطة من ش وط .

(47) قصص الأنبياء ص 63 .

العرب : طرف من أصلهم وبعض من أخبارهم :

ولما جرى ذكر جرهم فلا بد من ذكر طرف من أصلهم ، وبعض من أخبارهم . فنقول : « ذكر صاحب ⁽⁴⁸⁾ » المختصر في أخبار البشر ⁽⁴⁹⁾ أن المؤرخين قسمت / العرب [83/ب] ثلاثة أقسام بائدة ⁽⁵⁰⁾ وعاربة ومستعربة .

أما البائدة فهم العرب الأولى الذين ذهبت عنا تفاصيل أخبارهم لتقدم عهدهم وهم عاد وثمود وجرهم الأولى ، فكانت على عهد عاد فبادوا ⁽⁵¹⁾ ودُرسَتْ أخبارهم ، وأما جرهم الثانية فهم أولاد قحطان بن الهميشع بن ثابت بن اسماعيل ، وبجرهم الثانية اتصال ⁽⁵²⁾ اسماعيل النبيء - عليه السلام - ولم يبق من العرب البائدة إلا القليل . وأما العرب المستعربة فهم ذرية اسماعيل النبيء - عليه السلام - .

وأما العرب العاربة فهم عرب اليمن والحجاز من ذرية قحطان المتقدم ، وذلك أنه خلف واحداً وثلاثين ذكراً أمهم واحدة ، كانوا نزلوا أولاً بالهند ، فلما هلك عاد وبقي من عقبهم طائفة من مكة وهم عاد الأخرى هلكوا ، وفي الحديث أنهم مُسِخُوا نَسَائِس ⁽⁵³⁾ ، لكل واحد منهم يد ورجل بشق واحد ، يتقرون كما ينقر الطيور ، ويرعون كما ترعى البهائم ، وقيل أولئك انقرضوا ، والموجود من النَسَائِس خلق على صفتهم كالقردة ، والخنازير الموجودين الآن ، غير المسوخ من بني اسرائيل .

وأصل جرهم الثانية أنهم نَجَبَ من أولاد قحطان اثنان أحدهما جرهم الثاني المُقَدَّم الذِّكْر ، فلك الحجاز ثم ملك بعده ولده عبد ياليل ابن جرهم ، ثم ابنه جرهم ،

(48) هو الملك المؤيد اسماعيل بن علي الأيوبي المعروف بأبي الفداء (672 - 1273 / 732 - 1331) ، ملك حماة وألف كتابه المختصر في أخبار البشر ، طبعة أولى ، مصر بدون تاريخ ، 99/1 و 104 .

(49) في الأصول : « أنباء » وهو ما يخالف العنوان الأصلي .

(50) في ش : « يادية » .

(51) في ت : « فبادوا كلهم » .

(52) « وهم اتصال اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليه السلام » تصرف المؤلف في النقل بال حذف ص 105 .

(53) النستاس بكسر النون وفتحها نوع من القردة ، أنظر حياة الحيوان الكبرى للدميري 352/2 - 354 وذكر الحديث بدون بيان لمخرجه . وفي حديث أبي هريرة « ذهب الناس وبني النستاس » : قيل هم ياجوج وماجوج وقيل خلق على صورة الناس أشبهوهم في شيء وخالفوهم في شيء وليسوا من بني آدم وقيل هم من بني آدم . ومنه الحديث « إن حيا من عاد عصوا رسولهم فسخهم الله نسناساً لكل رجل منهم يد ورجل من شق واحد ينقرن كما ينقر الطائر ويرعون كما ترعى البهائم » ، من كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير - ج 5 ص 50 تحقيق محمود محمد الطناحي .

ثم بعد جرهم ابنه المدان / ثم بعد المدان ابنه نفيلة ، ثم بعد نفيلة ابنه عبد المسيح ، ثم [1/84] بعد عبد المسيح نفيلة ، ثم عمر بن مضااض ، ثم بعده أخوه الحارث بن مضااض مائة سنة ، ثم ابنه عمر بن الحارث مائة وعشرين سنة ، ثم أخوه البشر بن الحارث ، ثم مضااض الأصغر أربعين سنة وجُرُّهُم المذكورون هم الذين اتصل بهم اسماعيل النبي - عليه السَّلام - ، وقد انقرضوا⁽⁵⁴⁾ .

وثاني نجبا: أولاد قحطان ابنه يَعْرُب بن قَحْطَان وسيأتي خبره .

ولاية الكعبة :

ثم إن إبراهيم - عليه السَّلام - تزوّج بعد وفاة سَارَّة قَطُورًا بنت يقطن الكنعانية⁽⁵⁵⁾ فولدت له ستة أولاد ، وولد⁽⁵⁶⁾ لاسماعيل بن إبراهيم من زوجته رعلة⁽⁵⁷⁾ ابنة مضااض ابن عمرو الجرهمي اثنا عشر رجلاً منهم نابت بن اسماعيل ، وقيدار⁽⁵⁸⁾ ووطور⁽⁵⁹⁾ ، فلما بلغ اسماعيل مائة وثلاثين سنة مات ، ودفن بالحجر مع أمّه - عليه السَّلام - فولي البيت بعده نابت بن اسماعيل ، ونشر الله العرب من نابت فكثروا ونَمَوْا ثم توفي نابت ، فتولى البيت بعده جده لأمه مضااض بن عمرو الجرهمي ، وضمَّ إليه بني نابت بن اسماعيل ، وصار ملكاً عليهم وعلى جرُّهُم ، ونزلوا بقيقعان⁽⁶⁰⁾ بأعلى مكّة ، وكانوا أصحاب سلاح كثير ، ونزل العمالقة بأسفل مكّة ، فصاروا إلى رجل منهم ولوه ملكاً عليهم يقال له السَّمِيدِع ، ونزلوا بأجباد ، وكانوا أصحاب خيل ، وكان الأمر بمكة لمضااض بن عمرو دون السَّمِيدِع إلى أن حدث بينهما البغي واقتتلوا ، فقتل السَّمِيدِع ، وتم الأمر لمضااض بن

(54) المختصر 73/1 - 74 .

(55) الطبري 309/1 .

(56) النقل عن الأزرق بواسطة الإعلام بأعلام بيت الله الحرام لقطب الدين النهروالي ، مكتبة خياط ، بيروت - لبنان 1964 ، ص 39 .

(57) في الطبري : «السيدة» 314/1 ، وفي تاريخ يعقوبي : «الحيفاء» 27/1 .

(58) كذا في بعض كتب التاريخ ، ونص عليها الطبري على أنها صيغة من الصيغ وفي نصه قيدر 314/1 . وقال يعقوبي في تاريخه «وهذه الأسماء تختلف في الهجاء واللغة لأنها مترجمة من العبرانية» 222/1 .

(59) في الأصول : «أبطور» والثبت من الطبري 314/1 وعن أسماء أولاد اسماعيل كلهم انظر نفس المرجع . وفي الإعلام : «قطور» .

(60) في الإعلام : «قيقعان» .

[84/ب] عمرو ، وفي ذلك يقول قائلهم : /

[طويل]

ونحن قتلنا سيّد الحيّ عَنوة
 (وما كان ينبغي أن يكون خلفنا
 فأصبح فيها وهو حَيْرَانُ مُوجَّعُ
 بها ملك حتى أتانا السَّمِيدُ) (61)
 وفذاق وَبَالًا حين حاول ملكنا
 فنحن عمرنا البيت كَنًّا وَلَاتَهُ
 ندافع عنه من أَتَانَا وَنَمْنَعُ (62)
 ولم يك حي قبلنا ثم يَدْفَعُ (64)
 ورثنا ملوكًا لا تُرَامُ فتوضعُ
 وكنا ملوكًا في الدُّهور التي مَضَتْ

ثم نشر الله بني اسماعيل وأخوانهم جُرْهُمَا ، فكانت جُرْهُمُ ولاةَ البيت لا ينازعهم بنو اسماعيل لَخَوْلَتِهِمْ وقرباتهم ، فلما ضاقت مَكَّةُ وانتشروا في الأرض ، فلا يأتون قومًا ولا يتزلون بلدًا إِلَّا أظهرهم الله عليهم بدينهم ، وهو يومئذ دين ابراهيم - عليه السَّلام - حتى ملَّؤوا البلاد ونفوا عنها العمالقة ، وكانوا ضَيَّعُوا الحرم ، بل حرمة الحرم (65) ، ثم أن جُرْهُمًا استخفوا بأمر البيت الحرام ، وارتكبوا الأمور العظام ، وأحدثوا فيها ما لم يكن قبل ذلك ، فقام فيهم مُضاض (66) بن عمرو بن الحارث بن مُضاض (67) خطيبًا ، فقال : يا قوم احذروا البَغْيَ ، فقد رأيتم من كان قبلكم من العمالقة كيف استخفُّوا بأمر البيت ، فلم يُعْظَمُوهُ ، فسَلَطَكُم الله عليهم فأخرجتموهم ، فتفرقوا في البلاد ، وتمزقوا كل ممزق ، فلا تستخفوا بحق الله فيخرجكم منه . فلم يطيعوه ، وقالوا : من يخرجنا ونحن أَعَزُّ

(61) في الأصول :

وما كان ينبغي أن يكون بها إذا لها ملك حتى أتانا السَّمِيدُ

والثبت من الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص 39.

(62) في الإعلام : «وندفع» .

(63) في الإعلام : «وما كان ينبغي» .

(64) في الإعلام : «يجمع» .

(65) بعدها في ط : «واستحلوها واستخفوا بأمر البيت فأخرجهم الله بعد من أرض الحرم» ، وعن هذا الخبر أنظر اليقوي 222/1 .

(66) اختصر نسبه . أنظر عن نسبه الكامل اليقوي 222/1 .

(67) هو «المضاض بن عمرو الجرهمي جد ولد اسماعيل ، ولي البيت ، ونازع فيه السמיד بن هوبر ثم ظهر عليه المضاض فضي السَّمِيدُ إلى الشام وهو أحد ملوك العمالقة واستقام الأمر لمضاض حتى توفي» اليقوي ، 222/1 .

العرب ، وأكثر رجالاً وسلاحاً ، فقال لهم : إذا جاء أمر الله بطل ما تقولون . واعتزل / [85/أ]
جرهما وأخذ معه بني اسماعيل ، فسَلَّطَ الله على جُرْهُم خزاعة فحاربوهم واعتزل عمرو مع بني
اسماعيل حَرَبَهُمْ ، فغلبت خزاعة وأخرجت جرهما من الحرم⁽⁶⁸⁾ ، فاستأذن عمرو خزاعة
أن يساكنهم ، فأبت خزاعة ذلك وقالوا : من قارب الحرم من جرهم فدمه هدر ، وأبقوا
معههم بني اسماعيل .

ثم نزلت ابل لمضا بن عمرو ، ودخلت مكة فأخذتها خزاعة ، ونحرتها
وأكلتها ، فتبع أثرها مُضَاض فوجدها دخلت مكة ، فسلك الجبال حتى طلع على جبل
أبي قُبَيْس ، فقبضَ ابله في بطن الوادي ، فرأى الابل تُنَحِر وتُوكَل ، ولا سبيل إليها ،
ورأى أنه إن هبط الوادي قُتِل فولى منصرفاً إلى أهله⁽⁶⁹⁾ ويقول :

[طويل]

أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سامرٌ⁽⁷⁰⁾
نطوف بهذا البيت والخير ظاهِرُ
فأبناؤه مِنَّا ونحن الأصاهرُ
كذلك بين⁽⁷²⁾ الناس تجري المقادرُ
كذلك عَصَّنا السنون الغوايرُ
بها حَرَمٌ آمِنٌ وفيها المشاعرُ
ولا ينفرن يوماً لديه العصافرُ
(إذا خرجت منها فما أنت غادرُ)⁽⁷⁶⁾

كَأَنَّ لم يكن بين الحَجَّون إلى الصَّفَا
وَكُنَّا وِلَاةَ البيت من بعد نابت
(وَكُنَّا لاسماعيل صهراً وجيرة)⁽⁷¹⁾
فأخرجنا منها المليك بِقُدْرَةٍ
وصرنا أحاديثاً وكنا بِغِيْطَةٍ⁽⁷³⁾
وسحَّت دموع العين (تبكي لبلدة)⁽⁷⁴⁾
بواد أنيس لا يطار حَمَامُهُ
(وفيها وحوش)⁽⁷⁵⁾ لا تراب أنيسة

(68) البقوي 238/1 .

(69) بعدها في ت : « حيرانا من ذلك وهو ينشد ويقول » .

(70) خلافاً لما جاء في النص ، نسبت هذه الآيات لعامر بن الحارث الجرهمي ، أنظر المختصر الذي ذكر منها البيت
الأولين ، 105/1 ، والقطعة بالأعلام مع أبيات ناقصة ص 14 .

(71) في الأصول : « وكنا لإبراهيم صهراً وخيرة » والمثبت من الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص 41 .

(72) في الأصول : « ما » والمثبت من نفس المصدر .

(73) في ط : « بقبلة » ، في ت وش : « بغيفة » والمثبت من نفس المصدر .

(74) في الأصول « منا لبلدة » والمثبت من نفس المصدر .

(75) في الأصول : « وفيه الوحوش » والمثبت من نفس المصدر .

(76) في الأصول : « إذا قربت منه فما أن تغادر » والمثبت من نفس المصدر .

فيا ليت شعري هل يُعمر بعدنا (جساد ويقضي سيله والظواهر)⁽⁷⁷⁾ وهل فرح يأتي بشيء نريده وهل جزعُ ينجيك مما نخاذرُ/

فانطلق مُضاض بمن معه إلى اليمن⁽⁷⁸⁾ وهم محزونون على مفارقة مكة ، وصارت خراعة حُجَّابَ بيت الله الحرام⁽⁷⁹⁾ ، وولاة أمر مكة ، وفيهم بنو اسماعيل لا ينازعونهم في شيء ، ولا يطلبونه ، إلى أن كبر شأن قُصَيِّ بن كلاب بن مرة ، فاستولى على حجابة البيت وأمر مكة ، وقالوا : قُصَيٌّ أول رجل من بني كِنانة أصاب مُلكًا بمكة ، فكانت إليه الحجابة والوفادة ، والسقاية والدنوة ، واللواء والقيادة وهو الذي جمع أمر قريش فسمي مجممًا ، بكسر الميم المشددة ، وفي ذلك يقول القائل :

[طويل]

أبوكم⁽⁸⁰⁾ قُصَيٌّ كان يدعى مجممًا به جمَّع الله القبائل من فِهرِهم ملكوا البطحاء مجدًا وسوددًا وهم طردوا عنها غزاة بني عمرو

قبل سميت قُرَيْشًا لاجتماعهم على قُصَيِّ ، والتَّقرُّشُ هو الاجتماع ، وقيل لغير ذلك ، واستمرَّ بنو قُصَيِّ كذلك إلى زمن ظهور النبي ﷺ .

رُوِيَ عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - أنه قال : كان بِمَكَّةَ حَيٌّ يقال لهم العمالقة ، كانوا في عز ثروة ، وكانت لهم خيل وابل ومواشٍ ترعى حول مكة ، وكانت العضاة ملتفة والأرض مبقلة ، وكانوا في عيش رخي ، فبغوا في الأرض وأسرفوا على أنفسهم ، وأظهروا الظلم والاحاد ، وتركوا شكر الله ، فسلبوا نعمتهم ، وكانوا يكرون الظِّل ، ويبيعون الماء ، فأخرجهم الله من مكة بأن سلَّط عليهم النمل حتى خرجوا من

(77) في الأصول : « جبال وتمضي سيله والطوائر » والمثبت من الإعلام ص 41 .

(78) يختلف مع اليعقوبي ، ووقع الاشكال لتكرار نفس الإسم ، ونورد ما قاله اليعقوبي تفاديًا للخلط « فبعد المضاض بن عمرو الجهمي ملك الحارث بن مضاض ، ثم ملك عمرو بن الحارث بن مضاض ، ثم ملك المعتشم ابن الظلم ، ثم ملك الحواس بن جحش بن مضاض ، ثم ملك عدد بن صداد بن جندل بن مضاض ، ثم ملك فحص بن عداد بن صداد ، ثم ملك الحارث بن مضاض بن عمرو ، وكان آخر من ملك جرهم » اليعقوبي : 222/1 ، إذا حسب اليعقوبي الحارث بن مضاض بن عمرو هو آخر من ملك بالبيت من جرهم بينا مقديش يذكر أنه مضاض بن عمرو بن الحارث ، ولعل الناسخ قلب الأسماء بالتقديم والتأخير .

(79) الإعلام : ص 42 واليعقوبي 238/1 .

(80) في الأصول : « أبوهم » والإصلاح من الإعلام ص 42 ، وتاريخ اليعقوبي 240/1 وتاريخ الطبري 256/2 ومن النص فبا بعد .

الحرم⁽⁸¹⁾ ، ثم ساقهم بالجدب حتى ألحقهم الله بمساقط رأس آبائهم من بلاد اليمن ،
فتفرقوا وهلكوا / وأبدل الله بعدهم الحرم بجُرْهُم فكانوا سكانه إلى أن بغوا فيه أيضًا ، [86/أ]
فأهلكوا جميعًا اهـ⁽⁸²⁾.

فَظَاهِرُ هذا الأثر يقتضي سبق العمالة على جُرْهُم ، وكان مبدأ قُصَيِّ وَتَرْيَةَ أن أباه
كِلَاب بن مُرَّة تَزَوَّج فاطمة بنت سعد بن سيل⁽⁸³⁾ فولدت له زهرة وقُصَيَّا ، فهلك
كِلَاب وقُصَيِّ صغير واسمه زيد ، فسمي قُصَيَّا ، مصغر قُصَيِّ ، لأنه أُبعد عن أهله ووطنه
مع أمه لما توفي أبوه ، فتزوجها ربيعة بن حَرَام⁽⁸⁴⁾ ، فرحل بها إلى الشام ، وولدت له
رُزَاحًا⁽⁸⁵⁾ ، فلما كبر قُصَيِّ وقع بينه وبين آل ربيعة شر ، فعبروه بالغرابة ، وقالوا له : ألا
تلحق بقومك ؟ وكان لا يعرف له أبا غير ربيعة بن حَرَام زوج أمه ، فشكا إليها ما عيروه
به فقالت له : يا ولدي أنت أكرم أبا منهم ، أنت ابن كِلَاب بن مُرَّة ، وقومك بمكة
عند البيت الحرام⁽⁸⁶⁾ فقدم مكة فعرف (له قومه فضله)⁽⁸⁷⁾ وقدموه وأكرموه وكانت
خزاعة مستولية على البيت ومكة ، وكان كبيرهم حَلِيل⁽⁸⁸⁾ بن حُبْشَةَ الخزاعي بيده
[مفتاح]⁽⁸⁹⁾ البيت الشريف والسدانة فخطب إلى حَلِيل ابنته ، فعرف حَلِيل نسبه فزوجه
ابنته حُمَيَّ⁽⁹⁰⁾ ، فتزوجها قُصَيِّ فكثر أولاده وأمواله ، وعظم شرفه ، وهلك حَلِيل ،
فأوصى بمفتاح البيت الشريف لابنته حُمَيَّ ، فقالت : لا أقدر على السدانة ، فجعلت
ذلك لأبي غُبْشَانَ وكان سَكَّيْرًا يحب الخمر ، فأعوزته في بعض الأوقات ما يشربه من
الخمر ، فباع المفتاح / بزق خمر ، فاشتراه منه قُصَيِّ ، وسار في الأمثال : «أخسر من [86/ب]

(81) أنظر عن العمالة بالحجاز ، المختصر 98/1.

(82) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص 43.

(83) في الأصول : «شبل» والمثبت من الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص 44 ، وفي تاريخ اليعقوبي : «بن بسيل الأزدي» 237/1.

(84) في ش : «خزام» وفي ت وط : «حزام» والمثبت من الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص 44.

(85) كذا في الأصول وهو الصحيح ، في الإعلام : «دواجا» وفي أخبار مكة للأزرقي : «رزاح».

(86) وردت هذه القصة في تاريخ اليعقوبي 237/1.

(87) في ت : «عُرف قومه وأتوا إليه وقدموه».

(88) في الأصول : «خليل» والمثبت من اليعقوبي 239/1 وكذلك بالإعلام للنهروالي ص 44.

(89) إضافة من الإعلام للتدقيق.

(90) كذا في ش وفي اليعقوبي 239/1 في ط : «صبي» وفي ت : «صبا».

صفقة أبي غُبْشان»⁽⁹¹⁾. فلما صار المفتاح إلى قُصَيٍّ ، تناكرته خزاعة وكثر كلامها عليه ، فاجتمع على حربهم ، فحاربهم وأخرجهم من مكة ، وولي قصي أمر الكعبة⁽⁹²⁾ ، وجمع قومه فلكوه على أنفسهم وكانوا يحترمون أن يسكنوا مكة ويعظمونها عن أن يبنوا بها بيتاً مع بيت الله فكانوا يكونون بها نهراً فإذا أمسوا خرجوا إلى الحل ، ولا يستحلون الجنباة بمكة ، فلما جمع قصي قومه إليه أذن لهم أن يبنوا بمكة بيوتاً وأن يسكنوها ، وقال لهم : ان سكنتم الحرم هابتكم العرب ولم تستحل قتالكم ، ولا يستطيع أحد إخراجكم ، فقالوا له : أنت سيدنا ورأينا تبع لرأيك ، فجمعهم حول البيت وفي ذلك يقول قائلهم : «أبوكم قُصَيٍّ كان يدعى مجمعا...»⁽⁹³⁾.

وابتدا فبنى دار الندوة⁽⁹⁴⁾ والندوة في اللغة الاجتماع ، فكانوا يجتمعون فيها للمشورة وغيرها من المهمات ، فلا تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش إلا فيها ، ولا يدخلها من قريش ولا غيرهم إلا ابن أربعين سنة ، وبنو قُصَيٍّ يدخلونها كلهم ، وقسم جهات البيت الشريف بين طوائف قريش ، فبنوا دورهم حول الكعبة من الجهات الأربع⁽⁹⁵⁾ ، وتركوا للطواف⁽⁹⁶⁾ بيت الله مقداراً ، وهو المسمى بالمطاف ، فاجتمع لقُصَيٍّ ما لم يجتمع لغيره / من الحِجَابَةِ والسِّقَاية ، والرِّفَادَةِ⁽⁹⁷⁾ ، والندوة ، واللواء ، والقيادة - حسباً مر - . [أ/87]

فالحجابه هي سدانه البيت بتولي مفتاحها ، والسِّقَاية سقي الحجاج كلهم الماء العذب ، وكان عزيزاً بمكة فيجلب إليها ليسقى الحجاج منه ، ويُنْبَدُّ لهم بالتمر والزبيب لتقوى حلاوته ، فكانت وظيفة فيهم ، وأما الرِّفَادَةِ فإطعام الطعام لسائر الحجاج ، تَمَدُّ لهم الأسمطة أيام الحج ، وكانت السِّقَاية والرِّفَادَةِ مُسْتَمِرَّة إلى أيام الخلفاء ومن بعدهم

(91) وفي ت وط : «أحسن» .

(92) الإعلام 45 واليعقوبي 239/1 - 240 وأورد رواية أخرى في صعود قصي إلى ولاية البيت أنظر نفس المرجع ص 238 .

(93) مطلع يتين سبق ذكرها .

(94) لما ثبت البيت في يد قصي «بنى داره بمكة ، وهي أول دار بنيت بمكة ، وهي دار الندوة» اليعقوبي 239/1 والنقل من الإعلام كما أشرنا .

(95) اليعقوبي 239/1 والطبري 259/2 .

(96) كذا في ت ، في ش : «للطوائف» ، وفي ط : «الطوائف» .

(97) في الأصول : «الوفادة» والمثبت من الإعلام ص 46 واليعقوبي 241/1 والطبري 259/2 . عن قصي ووظائفه أنظر أخبار مكة للأزرق 92/1 - 96 والإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص 45 - 46 ، المؤلف ناقل لما في الإعلام .

من الملوك والسلاطين. قال التقي الفاسي⁽⁹⁸⁾ - رحمه الله - : إن الرِّفَادَةَ كانت أَيَّامَ الجاهلية وصدر الإسلام ، واستمرَّتْ إلى أيامنا ، وهي الطعام يُصْنَعُ بأمر السُّلْطَانِ بِمَنَى للناس حتى ينقضي الحج اهـ⁽⁹⁹⁾ . وأما الآن فقد انقطع ذلك .

وأما اللِّوَاءُ⁽¹⁰⁰⁾ فرأية تعقد إلى محاربة عدو ، ويجتمعون تحتها ، وأما القيادة فإِمَارَةُ الجيش إذا خرجوا إلى حرب ، فاجتمعت هذه كُلُّهَا لِقُصَيٍّ ، فلما كبر سنه ، وضعف بدنه ، قَسَمَهَا بين أولاده ، وكان عبد الدار أكبر أولاده ، وكان عبد مناف شرف في زمن أبيه . فقال قُصَيٌّ لعبد الدار : لألْحَقَنَّكَ يا بني بالقوم وإن شرفوا عليك ، فأعطاه الحِجَابَةَ بإسلام مفتاح البيت إليه ، وقال : لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تفتحها له أنت ، وأعطاه السِّقَايَةَ واللِّوَاءَ . وقال : لا يشرب أحد إلَّا / من سقايتك ، ولا يعقد لواء لقريش لحرَبها إلَّا أَنْتَ بيدك ، وجعل له الرِّفَادَةَ وقال : لا يأكل أحد من أهل الموسم طعامًا إلَّا من طعامك ، وكانت الرِّفَادَةُ خرجًا تخرجه قريش من أموالها في كل موسم ، فندفعه إلى قُصَيٍّ ، فيصنع به طعامًا للحجَّاج ، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ، وكان قُصَيٌّ فرض ذلك على قريش جميعهم وقال لهم : يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل حرمة ، وإن الحجَّاج ضيفان الله وَزُورَآءُ بيته ، وهم أحقُّ الاضياف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أَيَّامَ الحج حتى يصدروا عنكم ، فجعل قُصَيٌّ كل ما كان بيده من أمر قومه إلى عَبْدِ الدَّارِ⁽¹⁰¹⁾ ، وكان قُصَيٌّ لا يخالف ولا يرد عليه شيء صنعه لعظم شأنه ، وعز سلطانه .

قال ابن اسحاق : ثم إن قُصَيًّا هلك فأقام على أمره بنوه من بعده ، ثم إن بني عبد مناف : هاشمًا وعبد شمسَ والمُطَّلَبَ ونُوفَلًا ، أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدَّارِ من الحِجَابَةِ واللِّوَاءِ والسِّقَايَةِ والرِّفَادَةِ ، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم ولفضلهم ، وتفرقت قريش ، فكانت طائفة منهم يرون أن بني عبد مناف أحقُّ من بني عبد الدار ، وطائفة يرون أن إبقاء بني عبد الدار على ما جعله قُصَيٌّ لأبيهم أولى / فأجمعوا على الحرب ، ثم أصطلحوا على أن تكون السِّقَايَةَ والرِّفَادَةَ لبني عبد مناف ،

(98) كذا في ت وط ، في ش : «العباسي» والمثبت من الإعلام.

(99) الأعلام ص 46 ووردت هذه الأخبار أيضًا في تاريخ يعقوبي 242/1 .

(100) يستمر في النقل من الأعلام ص 46 .

(101) في تاريخ يعقوبي : قسم قصي المهام بين أولاده ولم يجمعها في يد عبد الدَّار . فجعل السقاية والرياسة

لعبد مناف ، والدار لعبد الدار ، والرِّفَادَةَ لعبد العزى ، وحافتي الوادي لعبد قصي 241/1 .

والحجابة واللواء والنُدوة لبني عبد الدار ، وتحالفوا على ذلك ، فولى الرِّقادة والسِّقاية هاشم ، وكان عبد شمس مقلداً ذا ولد ، وكان هاشم موسراً ، وهو أول من سنّ الرحلتين لقريش ، (رحلة الشتاء إلى الشام ورحلة الصيف إلى الحبشة)⁽¹⁰²⁾ ، وهو أول من أطعم الثريد بمكة ، واسمه عمرو ، فسُمِّي هاشماً لهشمه الخبز وثرده لقومه .

ثم هلك هاشم بغزاة من أرض الشام تاجرًا ، فولى السِّقاية والرِّقادة أخوه المطلب ابن عبد مناف ، فكان ذا شرف وكرم ، وكان أصغر من عبد شمس ، فتوفي المطلب برومان⁽¹⁰³⁾ من أرض اليمن⁽¹⁰⁴⁾ ، وتوفي عبد شمس بمكة ، وتوفي نوفل بالعراق .

ثم ولي عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه المطلب ، فأقام لقومه ما كانت تقيمه آبائهم من قبله ، وشرف في قومه شرقاً لم يبلغه أحد من آبائهم ، فأحبه قومه وعظم خطره فيهم ، وكان أكبر أولاده الحارث ، لم يكن له أول أمره غيره ، وبه كان يُكنى ، ثم كثر بنوه حتى بلغوا عشرة ، وكان أصغرهم سناً عبد الله أبو رسول الله ﷺ وكان أحبهم لأبيه⁽¹⁰⁵⁾ .

ولنذكر الآن خبر يعرب بن قحطان⁽¹⁰⁶⁾ ، أخيه جرهم - المقدم الذكر - فإنه أول من تملك بالملك والرياسة بأرض اليمن ، لأنه جمع إخوته فاستولى على جميع اليمن سنين / متطاولة وهو أول من نطق بالعربية ، وأول من حيّاه ولده بتحية الملك ، أبيت اللعن وأنعمت صباحاً⁽¹⁰⁷⁾ ، وذكر السيوطي إن أول من كتب بالعربية حرب بن أمية . قيل له : من أين تعلمته ؟ قال : من عبد الله بن جدعان ، وهو أخذه عن طريق كاتب الوحي هود - عليه السلام - فلما هلك يعرب ملك بعده ابنه يشجب بن يعرب ، فملك سنين كثيرة ، ثم ملك بعده ابنه عبد شمس ، فلما ملك ، أكثر الغزو في أقطار الأرض ، وسبى خلقاً كثيراً ، وهو أول من فعل ذلك من ولد قحطان فسمي لذلك سبباً ، وهو أول من بنى السد بأرض مأرب باليمن ، وفجر إليه سبعين نهراً ، وساق إليه السيول من مدنى بعيد على بعض الأقوال ، وقيل بنته بلقيس ، وكان فرسخاً في فرسخ ، وكانت مدة ملكه

[88/ب]

(102) في الأصول : «رحلة الشتاء لليمن ورحلة الصيف للشام» والمثبت من يعقوبي .

(103) كذا في الأصول وهو الصحيح . وفي يعقوبي 246/1 «برذمان» .

(104) عن هذه الأخبار أنظر يعقوبي 246/1 - 247 .

(105) انتهى نقله من الإعلام ص 48 .

(106) عن نسبهم ونسب سلالته أنظر يعقوبي 195/1 .

(107) في يعقوبي : «أنعم صباحاً وأبيت اللعن» 195/1 .

أربعمئة سنة⁽¹⁰⁸⁾ وهو المذكور في سورة سبأ بقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ﴾⁽¹⁰⁹⁾ الآية ، وكانت هذه المدينة بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث .
ولما هلك سبأ ملك بعده الملك ابنه حَمِيرٌ ، فكان أشجع النَّاسِ في وقته وأكثرهم جمالاً ، وكان أوَّل من وضع تاج الذهب على رأسه من ملوك اليمن⁽¹¹⁰⁾ ، وإنما سمي حَمِيرًا لكثرة لباسه الثياب الحمر ، وكان ملكه خمسمائة سنة .
ولما توفي تولى ملكه أخوه كَهْلَان بن سبأ⁽¹¹¹⁾ ، وكانت مدة ملكه تقرب من ثلاثمئة سنة .

ولما توفي تولى بعده واثل بن حَمِيرٌ ، ثم تولى بعده ابنه / السَّكْسَك⁽¹¹²⁾ بن واثل ، [أ/89] ثم ملك بعده ابنه يَعْفَر بن السكسك .
ثم وثب على ملك اليمن ذورباش⁽¹¹³⁾ وهو عامر بن باران بن عوف⁽¹¹⁴⁾ بن حمير .
ثم نهض من بني واثل النعمان بن يعفر بن [السكسك بن واثل]⁽¹¹⁵⁾ بن السكسك .

ثم ملك بعده ابنه أشمخ⁽¹¹⁶⁾ بن النعمان ، (ثم ملك بعده عاد بن عوض ، ثم ولده الأكبر شديد)⁽¹¹⁷⁾ ، ثم شدَّاد بن عاد فهما أبناء عاد . وشدَّاد هو الذي بنى مدينة إرم ذات العِمَاد ، ببعض صحارى عدن ، في خمسمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة ، وملك الأرض كلها على ما قيل . (وملك بعده ابنه مرثد بن شدَّاد . وكان على دين هود - عليه السلام - على كتمان من قومه ، ثم بعده ولده عمر بن مرثد ، وهو على دين أبيه ، فملك مائة سنة ، ثم بعده ملك عم أبيه نعمان بن عاد ، عاش دهرًا طويلاً)⁽¹¹⁸⁾ ثم بعده

(108) ينقل عن المختصر لأبي الفداء بتصرف 66/1 .

(109) سورة سبأ : 15 وتامها «آيَةً جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ» .

(110) ذكرها اليعقوبي أيضًا 195/1 .

(111) في المختصر : «تولى بعده واثل بن حمير» .

(112) في الأصول : «سكسك» والثبت من المختصر 66/1 .

(113) في الأصول : «زورباش» والثبت من المختصر 66/1 .

(114) في الأصول : «مازان بن عون» والثبت من المختصر 66/1 .

(115) إضافة من المختصر لأبي الفداء للتوضيح 66/1 .

(116) في ت : «أفسخ» في ش : «أفسح» في ط : «أمسح» والثبت من المختصر 67/1 .

(117) ما بين القوسين غير موجود في المختصر .

(118) يختلف عن اليعقوبي 165/1 . والمختصر 67/1 بالزيادة .

أخوه ذو سدد⁽¹¹⁹⁾ بن عاد ، ثم بعده ابنه الحارث ، وهو تبع الأول ، وذكر أئمة التفسير عند قوله تعالى ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَرْقٍ﴾⁽¹²⁰⁾ من قصة سبأ .

وعلى ما رواه الكلبي عن أبي صالح أن عمر بن عامر من أولاد سبأ ، وبينهما اثنا عشر أباً وهو الذي يقال له مُزَيْقِيَا بن ماء السماء ، أخبرته زوجته طريفة الكاهنة بخراب سد مأرب وتغريق سيل العرم الجنتين ، وعن أبي زيد الأنصاري أن عمر رأى جرذاً يحفر السد فعلم أنه لا بقاء له بعد . وقيل إنه كان كاهناً وقد عَلِمَهُ بكهانه ، فباع أملاكه وسار بقومه وهم ألوف من بلد إلى بلد حتى انتهى / إلى مكة المشرفة ، وأهلها جرهم ، وكانوا قد قهروا الناس وحازوا ولاية البيت على بني اسماعيل وغيرهم ، فأرسل إليهم ثعلبة بن عمرو بن عامر ، يسألهم المقام معهم إلى أن يرجع إليه رواده الذين أرسلهم إلى أصقاع البلاد يطلبون له موضعاً يسعه ومن معه من قومه فأبوا ، فاقتتلوا فانهزمت جرهم ولم يفلت منهم إلا الشديدي ، وأقام ثعلبة بمكة وما حولها في قومه وعساكره حولا ، فأصابتهم الحمى فاضطروا إلى الخروج ، وقد رجع إليه رواده فاقتروا فرقتين ، فرقة توجهت نحو عُمان ، وهم الأزدي وكندة وحِمير ومن يتلوهم ، وسارت ثعلبة نحو الشام فتل الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة بالمدينة ، وهم الأنصار ، ومضت غسان فتلوا بالشام وانخرعت خزاعة بمكة ، فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر وهو لحي ، فولي أمر مكة وحجابة البيت ، ثم جاءهم أولاد اسماعيل - عليه السلام - فسألوهم السكنى معهم حولهم ، فأذنوا لهم في ذلك .

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن فروة بن مسيكة القطيفي سأل النبي ﷺ عن سبأ ، فقال - عليه الصلاة والسلام - هو رجل كان له عشرة أولاد ، ستة منهم سكنوا اليمن ، وهم مذحج ، بالذال المعجمة ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وحمير / وأنمار ، منهم بجيلة وخثعم⁽¹²¹⁾ ، وأربعة منهم سكنوا الشام وهم لخم وجذام ، وعاملة ، وغسان .

ولما هلكت أموالهم وخربت بلادهم تفرقت أيادي سبأ شذراً مذراً ، فنزلت طوائف منهم بالحجاز ، ففهم خزاعة نزلت بظاهر مكة ، ونزلت الأوس والخزرج ببيثرب فكانوا

(119) في الأصول : « وسيد » والمثبت من المختصر 67/1 .

(120) سورة سبأ : 19 . وأول الآية « فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » .

(121) كذا في ش واليعقوبي 201/1 في ط : « ختم » وفي ت « خشم » وعن هذه الأخبار أنظر نفس المراجع .

أول من سكنها ، ثم نزلت عندهم ثلاث قبائل من اليهود ، بنو قَيْنِقَاع وبنو قُرَيْصَةَ والنَضِير ، فحالفوا الأوس والخزرج ، وأقاموا عندهم ، ونزلت أخرى بالشَّام ، وهم الذين تَنَصَّرُوا فيما بعد ، وهم غسان وعاملة ولخم وجذام ، وتَنَوَّخَ وثعلب وغيرهم . وسبأ تجمع هذه القبائل كُلِّهَا .

والجمهور على أن جميع العرب قسمان : قحطانية وعدنانية ، والقحطانية شعبان : سبأ وحضرموت ، والعدنانية شعبان : ربيعة ومضر ، وأما قضاة فختلف فيها ، فبعضهم ينسبها إلى قحطان ، وبعضهم إلى عدنان والله أعلم .

ثم إن العرب انقسمت إلى شعوب وقبائل كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ ⁽¹²²⁾ فالشَّعب الجمع العظيم المنتسب إلى أصل واحد ، وهو يجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العِمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطن تجمع الأفخاذ ، والفخذ يجمع الفصائل . فخزيمية شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصي بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة .

الخلافة الأكبر محمد ﷺ :

فإذا تمَّ هذا ⁽¹²³⁾ ، لنرجع إلى ما نحن بصدده من ذكر خلفاء الإسلام / [90/ب] وأتمتهم ، فنقول : إنَّ الخلافة الأكبر الذي لولاه ما خُلِقَت شمس ولا قمر ، بل لا دُنْيَا ولا آخرة ، فهو نتيجة مقدِّمات الكون واكسير معدن الكائنات ، وروح جسد المخلوقات ، وسرَّ وجود المخترعات ، هو نبينا محمد ﷺ بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قُصَي ، بن كِلَاب ، بن مَرَّة ، بن كَعْب ، بن لُؤَي ، بن غالب ، بن فِهْر ، بن مالك ، بن النَضِير ، بن كِنَانَة ، بن خُزَيْمَة ، بن مُدْرِكَة ، بن الياس ، بن مُضَر ، بن زَرَار ، بن مَعَدَّة ، بن عدنان ⁽¹²⁴⁾ . هذا هو النسب الذي اتفقت أئمة النسب على معرفته ، وما وراءه وقع فيه اختلاف واضطراب في تعيين الأسماء وزيادة بعضها ، وأما النسب الشريف فصحيح إلى آدم - عليه الصَّلَاة والسَّلَام - قال ﷺ :

(122) سورة الحجرات : 13 .

(123) بعدها في ت : « فقد تمَّ الأمر » .

(124) عن بقية النسب اتصالاً بآدم مروراً بإسماعيل وشيث . أنظر مروج الذهب 2 / 265 .

«خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي ، لم يصبني من سفاح الجاهلية شيء»⁽¹²⁵⁾ قال الإمام⁽¹²⁶⁾ الأجهوري في «شرح ألفية العراقي» عند قولها :

[رجز]

وهو ابن عدنان وأهل النسب قد أجمعوا إلى هنا في الكتب
وبعده خلف كثير جم أحصاه حواه هذا النظم

قال الحافظ⁽¹²⁷⁾ في «الفتح»⁽¹²⁸⁾ بعد أن ساق نسب سيدنا ابراهيم إلى نوح - عليهما الصلاة والسلام - كما سيأتي : «لا يختلف جمهور أهل النسب ولا أهل الكتاب في ذلك إلا في النطق ببعض هذه الأسماء» ، نعم ساق ابن حيّان⁽¹²⁹⁾ في «تاريخه» خلاف ذلك وهو/ شاذ اهـ⁽¹³⁰⁾ [91/أ]

وقال ابن دُرَيْد⁽¹³¹⁾ في كتاب «الاشتقاق» : وأما نسب ابراهيم إلى آدم - عليهما الصلاة والسلام - فصحيح لا خلاف فيه لأنه مُنزَلٌ في التّوراة ، ومذكور فيها نسبهم ، ومبلغ أعمارهم ، وعلى هذا فقول الناظم وبعده خلف الخ ، أي في بعض ما بعد عدنان ، وهو ما بينه وبين ابراهيم .

(125) كذا عند العدني وابن عدي في الكامل والطبراني في الأوسط عن علي ، وعن ابن سعد عن ابن عباس «خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح» . وعن ابن سعد في الطبقات عن عائشة «خرجت من نكاح غير سفاح» الجامع الصغير حرف الحاء لجلال الدين السيوطي .

(126) بعدها في ت : «العلامة الفاضل الشيخ سيدي علي الأجهوري» .

(127) إذا أطلق الحافظ بدون بيان أو تقييد فالمقصود به ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي توفي سنة 852 هـ / 1448 م .

(128) هو فتح الباري شرح صحيح البخاري .

(129) ابن حبان محمد بن أحمد السبي توفي 965 م ، مؤلف ومحدث عربي ، تولى منصب القضاء بسمرقند لكنه صرف عنه منهجاً بالزُّندقة ، أهم مصنفاته مجموعة الأحاديث التي اشتهرت بترتيبها المسماة كتاب التقاسيم والأنواع : الموسوعة العربية الميسرة ص 13 ، دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بإشراف محمد شفيق غربال .

(130) فتح الباري .

(131) ابن دريد محمد بن الحسن 837 - 933 م لغوي أديب ولد بالبصرة ومات ببغداد وله مؤلفات كثيرة في اللغة والأخبار الأدبية واشتهر كتابه «الاشتقاق» في إبانة أصول ومعاني أسماء القبائل والرجال وله المعجم الكبير «الجمهرة» ، الموسوعة العربية الميسرة ص 13 .

وقال الحرالي في «المقدمة»: النسب فيما بين آدم وإسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - صحيح لا خلاف فيه ، ولا خلاف إلا في أسماء الآباء لأجل ثقلها على الألسنة ، وأصح ما قيل في عدد وأسماء ما فوق عدنان⁽¹³²⁾ ، أنه ابن أدَد ، وقيل عدنان ابن أد بن أدد بن مقوم⁽¹³³⁾ بن ناحور⁽¹³⁴⁾ بن مشر⁽¹³⁵⁾ بن يعرب بن يشجب بن ثابت بن إسماعيل بن إبراهيم بن تارح وهو آزر بن ناحور بن شاروخ⁽¹³⁶⁾ بن أرغو⁽¹³⁷⁾ بن فالع⁽¹³⁸⁾ بن عبيد⁽¹³⁹⁾ بوزن جعفر بن شالغ بن أرفخشذ⁽¹⁴⁰⁾ بن سام بن نوح بن لامل⁽¹⁴¹⁾ بن متوشلخ بن أخنوخ وهو أدريس بن يرد⁽¹⁴²⁾ بن مهلائيل⁽¹⁴³⁾ بن قينان⁽¹⁴⁴⁾ بن أنوش⁽¹⁴⁵⁾ بن شيث بن آدم - عليه السلام - . وقال العلامة الأجهوري⁽¹⁴⁶⁾ - انظر ما حكم معرفة نسبه - ﷺ إلى عدنان ، وأما ما زاد عليه فهو مكروه عند مالك لقول مالك : ومن يخبره أن فلان بن فلان قال : ورأيت في «شرح عقيدة ابن الحاجب» للمكي عن القرافي ما يفيد أن معرفة نسبه إلى عدنان واجب ، ونحوه مستفاد من «شرح عقيدة ابن الحاجب» لابن زكرياء ، بل يستفاد منه أن معرفة نسبه من جهة أمه واجب إلى كلاب إذ ما بعده يشترك / فيه نسب أبيه وأمه . قال : وقد ذكر القرافي في «ذخيرته» أن جميع الأحوال المتعلقة برسول الله ﷺ ، فضلاً عما به

- [91/ب]
- (132) تختلف الشجرة باختلاف الرواة وقد ذكر الطبري بعضها 274/2 . والرواية التي أوردتها المؤلف قرية من الرواية التي وردت في مروج الذهب مع تحريف في الأسماء 265/2 - 266 .
- (133) في مروج الذهب : «المقوم» .
- (134) كذا في الأصول وفي تاريخ يعقوبي وفي مروج الذهب : «ناخور» .
- (135) في ت : «يترح» وفي ش : «يبرح» .
- (136) كذا في الأصول وتاريخ يعقوبي وفي مروج الذهب : «ساروخ» .
- (137) كذا في الأصول وفي مروج الذهب : «أرعواء» .
- (138) في الأصول : «فالغ» والمثبت من مروج الذهب .
- (139) في مروج الذهب 265/2 والكامل 48/1 : «عابر» .
- (140) كذا في الكامل 48/1 وفي مروج الذهب : «أرفخشذ» و «أرفخشذ» أيضاً .
- (141) في الأصول : «ملك» أنظر هامش 4 ص 137 .
- (142) في الأصول : «يزد» والمثبت من مروج الذهب وتاريخ يعقوبي 10/1 .
- (143) في الأصول : «مهليل» والمثبت من مروج الذهب ، والكامل والطبري .
- (144) في ت وش : «قيتين» ، وفي ط : «قيقن» ، والمثبت من مروج الذهب 266/2 .
- (145) في الأصول : «يانش» والمثبت من مروج الذهب 266/2 والكامل 54/1 وتاريخ يعقوبي 10/1 .
- (146) بعدها في ت : «رحمه الله تعالى» .

يتعين ترجع إلى العقائد لا إلى العمل ، فيجب البحث عن ذلك لتحصيل كمال المعتقد بذلك» اهـ.

فهو ﷺ ختم الله (147) به الرسالة ، وأنقذ به الخلق من الكفر والضلالة ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، فآتم الله به على خلقه النعمة ، وظهر من معجزاته ما قامت به الحجة ، وقد اعتنى الأئمة بضبط نسبه ومولده وبعثته ، وهجرته ومغازيه ، وفتوحاته وشرائعه ، وشأئله وحياته ما هو مشهور مسطور.

وأما وفاته ففي «طبقات المناوى» ابتداء مرضه ﷺ في العشر الأخيرة من صفر سنة إحدى عشرة (148) في بيت أم المؤمنين ميمونة - رضي الله تعالى عنها - فلما اشتد وجهه تحرك لبست أم المؤمنين عائشة - رضي الله تعالى عنها - . فأقام مريضاً نحو اثني عشر يوماً . وتوفي يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول (149) عند الجمهور اهـ ، فتوفي ﷺ وعمره ثلاث وستون سنة .

خلافة أبي بكر - رضي الله عنه - :

فقام بالأمر بعده خليفته أبو بكر بن أبي قحافة ، الصديق الأكبر ، أفضل هذه الأمة بعد نبينا .

قال ابن اسحاق : لما توفي رسول الله ﷺ عظمت به مصيبة المسلمين ، فصاروا كالغنم المطيرة في الليلة / الشتائية لفقد نبيهم ، حتى جمعهم الله على أبي بكر - رضي الله تعالى عنه - فبويع يوم الثلاثاء ، فنظم النثر ، وجبر الصدع ، وأقام عماد الدين ، وردّ للإسلام أهل الردّة من الأعراب بعد وفاة النبي ﷺ ، وقاتل مانعي الزكاة من الأعراب . وقال : والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلهم عليه . فجهاز لهم جيوش الاسلام ولم ترعه كثرتهم ، وضرب المرتدّين مع كثرتهم بقليل المسلمين ، فردّ

[92/أ]

(147) ساقطة من ش و ط .

(148) 632 م .

(149) كذا في مروج الذهب 2/280 ، وفي كتاب «التوقيفات الإلهامية في مقارنة التواريخ المصرية» لمحمد مختار باشا ، مصر 1980 ، 43/1 الموافق 7 جوان 632 م وأكثر المصادر الأخرى ، وفي تاريخ يعقوبي : «للبلتين خلنا من شهر ربيع الأول» ، 113/2 .

المرتدين ومانعي الزكاة راغمة الأنوف ناكسة الرؤوس ، فاستقرّ الدين ، وثبتت قواعده⁽¹⁵⁰⁾ ، ولم يتعد في أيامه أحد إلى المغرب غازياً . ومآثره ومفاخره قد ملأت الكتب والدفاتر ، ولا تجد للنبي ﷺ تجدّد حال إلّا والصدّيق - رضي الله تعالى عنه - مصاحب له فيه ، وله به تعلّق حتى لم تفتّه معه ﷺ صلاة . وكان ثانيه في الغار . ولما مرض قيل له : ألا ندعوك طبيباً ؟ فقال : رأيّ الطبيب ، فقال : اني فعّالٍ لِمَا أريد ، فمات سنة ثلاث عشرة⁽¹⁵¹⁾ عن ثلاث وستين سنة⁽¹⁵²⁾ على الأصح .

خلافة عمر - رضي الله عنه - :

وبعد عهده⁽¹⁵³⁾ [بويغ]⁽¹⁵⁴⁾ لعمر بن الخطاب فاروق هذه الأمة - رضي الله تعالى عنه - فرست قواعد الاسلام وعظمت بخلافته ، وهو أوّل من تسمّى بأمر المؤمنين / وماتته في الدين أشهر من أن تُذكر حتى أنه إذا سلك فجّاً سلك الشيطان^[92/ب] خلفه⁽¹⁵⁵⁾ ، وفتحت في خلافته الفتوح فآتم ما ابتدأه الصدّيق من فتوح الشام فعظّم الفتح ، ثم العراق ، فأوقع بالفرس وقعة القادسيّة بالقرب من الكوفة ، فانكسر بها عمود عز الأكاسرة ، ثم توالى الفتوح كمصر واسكندرية وبرقة⁽¹⁵⁶⁾ ، وطرابلس على ما يأتي - إن شاء الله - بيان ذلك . ومآثره وكراماته وزهده وحكمه ملأت الكتب محل استيفاء

(150) بعدها في الأصول : « ثم خطب الناس وعرض عليهم غزو الشام ، فنفر الناس متوجهين إليها فوقعت بينهم وبين الروم وقعة تبوك » ، أسقطناها من النص لتناها مع الحقيقة التاريخية ، فغزوة تبوك وقعت في أيام الرسول عليه الصّلاة والسّلام في سنة 9 من الهجرة لا في ولاية أبي بكر . راجع على سبيل المثال الكامل 276/2 وحسن ابراهيم حسني : تاريخ الإسلام . القاهرة 1953 . 155/1 .

(151) 634 - 635 م .

(152) كذا في مروج الذهب مع الإشارة أنه توفي ليلة الثلاثاء ثمان بقين من جمادى الآخرة / 23 أوت 634 م .

(153) بعد خلافة أبي بكر .

(154) إضافة للتدقيق .

(155) من حديث طويل رواه الشيخان وذكره الشيخ منصور علي ناصف في كتاب التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ج 3 . ص 312 . وفيه قال رسول الله ﷺ : « أيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما ليك الشيطان سالكاً فجا قط إلّا سلك فجّاً غير فجك » .

(156) في الأصول : « طبقة » فمن المعروف أن في سنة 22 هـ / 642 م سار عمرو بن العاص إلى برقة وصالح أهلها على الجزية .

ذلك كتب السير. توفي - رضي الله تعالى عنه - في آخر سنة ثلاث وعشرين (157)، وسنه ثلاثة وستون سنة. قتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة في المسجد وقت الغلّس.

خلافة عثمان - رضي الله عنه - :

وجعل الأمر بعده شورى في ستة (158): عثمان، وطلحة، وعلي، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف - رضي الله تعالى عنهم - فوقع الاتفاق على عثمان بن عفان ذي النورين، شهيد الدار، من استحييت منه ملائكة الرحمان. وفي أيامه - رضي الله تعالى عنه - تواردت أمراؤه على إفريقية، ووقع في المغرب الفتح العظيم، - حسبما يأتي إن شاء الله تعالى - ومآثره ومفاخره لا تُحصى، أعتق نحو ألفين وجهاز جيش العسرة (159) فقال له - عليه الصلاة والسلام - «ما على عثمان ما فعل بعد اليوم» (160) وقال عليه الصلاة والسلام - «اللهم اغفر له ما أقبل وما أدبر وما أخفى وما أعلن وما أسر وما أجهر» / قتل بداره شهيداً أيام التشريق سنة خمس وثلاثين (161)، وسنه اثنان وثمانون سنة.

[1/93]

(157) في 26 من شهر ذي الحجة / 3 نوفمبر 643 م.

(158) في ت: «سنة رجال».

(159) وذلك في غزوة تبوك، وفي الأصول: «العشرة».

(160) ونقل ابن حجر في فتح الباري عن الطبراني قال رسول الله ﷺ: «لا يضر عثمان ما فعل بعدها»، مطبعة السلفية مصر 111/8. وجاء في السيرة النبوية لابن هشام، ط دار الجليل، بيروت، ج 4 ص 119 تحت عنوان: ما أنفق عثمان، قال ابن هشام حدثني من أثنى به أن عثمان بن عفان أنفق في جيش العسرة في غزوة تبوك ألف دينار. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أرض عن عثمان فإنني عنه راض» جاء في كتاب التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول للشيخ منصور علي ناصف، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 4 ص 330. وقال عبد الرحمن بن خبّاب: شهدت النبي ﷺ وهو يث على جيش العسرة فقام عثمان وقال: يا رسول الله علي مائة يعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش فقام عثمان فقال: يا رسول الله علي ثلاثمائة يعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله تعالى فأنا رأيت رسول الله ﷺ يثزل عن المنبر وهو يقول: ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه (رواه الترمذي).

ونقل صاحب التاج في نفس المرجع ص 329 عن الترمذي «جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار في كفه حين جهز جيش العسرة فينثرها في حجره فأرأيت النبي ﷺ يثزلها في حجره ويقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم».

(161) في 18 ذي الحجة / 17 جوان 655 م.

خلافة علي - رضي الله عنه - :

ثم ولي الخلافة بعده الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه وكرّم وجهه - بابُ مدينة عِلْم رسول الله ﷺ زوج البتول ، وابن عمّ الرسول ، حكمه وأحكامه وخطبه وغرائب علومه ، معقولاً ومنقولاً أمر خارق للعادة ، خارج عن طوق البشر ، لولا اكرام الله له بهذه الكرامة العظيمة والمنقبة الجسيمة حتى افتتن به الشيعة الرافضة ، ونقل الخلافة إلى الكوفة لعظم العساكر والجنود ، ولم تكن في أ أيامه فتوح بل كان اشتغاله بقتال الخوارج والبغاة. قتله عبد الرحمان بن ملجم في رمضان سنة أربعين (162) ، وقد نيف عن الستين (163).

وقصة قتله مبسطة في السير حاصلها أنه - رضي الله تعالى عنه - لما أباد الخوارج في سنة أربعين إلّا واحداً (164) اجتمع بمكة ثلاثة من بقاياهم ، وتعاهدوا على احتساب انفسهم في إراحة الناس من علي ومعاوية وعمرو بن العاص - رضي الله تعالى عنهم - وكان تواعدهم ليلة سبع وعشرين من رمضان ، فانطلق أحدهم (165) إلى معاوية ولقبه «البرك» فطعن به بخنجر وهو يصلي ، فأصاب إِيَّته فسلمه الله منه ، وانطلق الثاني ويعرف بزاودية (166) فقتل قاضي مصر وهو خارجة (167) لشبهه بعمرو ، فظنه إياه ، وانطلق الأشقى عبد الرحمان بن ملجم فأخذ علي بن علي بعض / زوايا المسجد ، فكن به فلما خرج علي ضربه ابن ملجم بالسيف على رأسه فقبض عليه واحتمل علي إلى منزله فتوفي في السابع عشر (168) من رمضان من السنة المذكورة.

(162) في 17 رمضان / 24 جانفي 661 م.

(163) أنظر عن الإختلاف في سِيَّته «اثنان وسبعون واثنان وستون» مروج الذهب 414/2.

(164) 659 - 660 م وفي مروج الذهب : «سنة أربعين».

(165) وهو الحجاج بن عبد الله الصريمي ولقبه «البرك» مروج الذهب 411/2 و 417.

(166) في الأصول : «زاودية» والمثبت من مروج الذهب 411/2 وقال : «وزادوية مولى بني العنبر» وقيل أنه عمرو بن بكر النيمي. مروج الذهب 417/2 أنظر أيضاً التوقيفات الإلهامية 72/1.

(167) خارجة بن حذافة. أنظر حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام 295/1. ومروج الذهب 417/2.

(168) في الأصول : «ليلة إحدى وعشرين» والمثبت حسب ما اتفقت عليه الروايات . وذكر يعقوبي ومات ليلة الجمعة أول ليلة من العشر الأواخر من شهر رمضان 212/2.

خلافة الحسن بن علي - رضي الله عنه - :

وتولى الخلافة⁽¹⁶⁹⁾ بعده الإمام الحسن ابن الإمام علي - رضي الله تعالى عنهما - فأقام في الخلافة خمسة أشهر وخمسة وعشرين يوماً. فزاحمه سيدنا معاوية فرأى الإمام الحسن - رضي الله تعالى عنه - صلاح الناس في تفويض الأمر إلى معاوية - رضي الله تعالى عنه - وفي ذلك مصداق قوله - عليه الصلاة والسلام - : «إن ابني هذا سيد يُصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»⁽¹⁷⁰⁾. فكانت خلافة الحسن - رضي الله تعالى عنه - تمام الثلاثين التي وعد بها رسول الله ﷺ بقوله «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً»⁽¹⁷¹⁾ في تفسير البغوي لقوله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾⁽¹⁷²⁾ الآية. خلافة أبي بكر الصديق ستان وخلافة عمر عشرة ، وعثمان اثنا عشر ، وعلي ست⁽¹⁷⁴⁾ اهـ. فاندرجت خلافة الحسن في خلافة أبيه (رضي الله تعالى عنهم جميعاً)⁽¹⁷⁴⁾. وفي «الكشاف»⁽¹⁷⁵⁾ عنه - عليه الصلاة والسلام - «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم⁽¹⁷⁶⁾ يُمَلِّكُ الله من يشاء ، فتصير ملكاً ، ثم تصير بزي⁽¹⁷⁷⁾ قطع سبيل وسفك دماء وأخذ أموال بغير حقها»⁽¹⁷⁸⁾ انتهى .

(169) يبيع الحسن بالكوفة بعد وفاة علي بيومين في شهر رمضان سنة أربعين ، مروج الذهب 426/2 .

(170) إن ابني هذا (أي الحسن بن علي) سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين. رواه أحمد والبخاري والترمذي وأبو داود والنسائي من حديث أبي بكر رضي الله عنه (حديث صحيح) .

(171) أورد الحديث كاملاً فيما يلي من نصه .

(172) سورة النور: 55 .

(173) أنظر معالم التنزيل للبغوي 71/5 .

(174) ساقطة من ت وط .

(175) الكشاف للزحشري محمود بن عمر ، من أعلام اللغة والأدب والإعترال توفي سنة 1143/538 - 1144 م .

(176) أخرجه الطبري من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية ، أنظر الكافي الشاف في تخریج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر العسقلاني ، المطبوع مع الكشاف .

(177) اسم من بزه بزا إذا سلّبه ، والبزري مثل الخصيصي ، أنظر حاشية محمد بن عليان المرزوقي المطبوعة مع الكشاف .

(178) أنظر الكشاف 198/3 في تفسير الآية 55 من سور النور: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ .

(1) في خلافة سيدنا معاوية - رضي الله تعالى عنه - /
بالشَّام ودولة بني أمية⁽²⁾

معاوية :

فالأول هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن [أمية] بن عبد شمس ، يلتقي مع رسول الله ﷺ في عبد مناف ، وله المجد المسطور والفخر⁽³⁾ المشهور ، كَتَبَ الوحي لرسول الله ﷺ وصهره على أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي ﷺ وهو كسرى العرب⁽⁴⁾ وأول سلاطين الاسلام ، وأما حلمه ودهاؤه فأمر مشهور ، توفي - رضي الله تعالى عنه - في رجب سنة ستين⁽⁵⁾ ، وله ثمانون سنة⁽⁶⁾ .

يزيد :

وتَوَلَّى بعده ولده يزيد فكان حائداً عن الصواب والعدل ، فهو أول من شرب الخمر جهاراً من ملوك الإسلام ، واتخذ الملاهي واستحل محارم الله ، واختلف في اسلامه وزندقته . قالوا لما ولي يزيد اتفق رأي أهل المدينة على خلعه واخراج من بها من بني أمية ، وجعلوا أمرهم إلى عبد الله بن حنظلة ، فجهز يزيد إليهم الجيوش وأمر عليهم مسلم⁽⁷⁾ بن عقبة المُرِّي فأحاط بالمدينة ثلاثة أيام ، وعطلت الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ وبلغ عدد من قتل من قريش والمهاجرين والأنصار ، ووجوه الناس ألف رجل وسبعمئة رجل ، ومن سائر الناس عشرة آلاف رجل سوى النساء والصبيان . ولم يبق بعدها بدري

(1) في ط : « في ذكره » .

(2) نقل المؤلف هذا الباب بتصرف دون أن يذكر ذلك خلافاً لعادته ، عن « رقم الحلل في نظام الدول » لابن

الخطيب ، تونس 1316 - 1317 ص 15 - 20 .

(3) في ت : « والفخر العظيم » .

(4) ساقطة من ش .

(5) في الأصول : « إحدى وستين » أنظر اليعقوبي 238/2 وغيره ، 679 - 680 م .

(6) ومن يقول 77 سنة ، نفس المرجع ص 239 . (7) في ش وت : « سلم » وهو غلط .

من الصحابة . وفي أيامه قتل الحسين ابن الإمام علي (بن أبي طالب) ⁽⁸⁾ - رضي الله تعالى عنهما - ، وذلك أنه لما مات معاوية أرسل أهل الكوفة يستقدمونه فلحق بمكة / ووجهه مُسْلِم بن عَقِيل إلى الكوفة فخطابه في القُدوم ، فتوجه نحو الكوفة وكتب اليزيد إلى عبد الله بن زياد ، فخرج من البصرة مسرعاً حتى لحق بالكوفة ، وقتل مسلم بن عَقِيل والحسين متوجه إلى الكوفة ولا علم عنده ، وذلك يوم ثامن الحجة ⁽⁹⁾ ، فلقبته خيل عبد الله بن زياد بِكَرْبَلَاء وكَاثَرْتِه العساكر ، فلم يزل يقاتل حتى قتل ، وقتل معه سبعة وثمانون من أهل بيته يوم عاشوراء ⁽¹⁰⁾ ، واحتملت نساؤه أسارى على الإبل ، وبعث إلى يزيد برأسه .

وأراح الله الخلق من يزيد الخبيث لأربع عشرة خلت من ربيع الأول سنة أربع وستين ⁽¹¹⁾ .

بقية خلفاء بني أمية :

ثم تولى بعده ولده معاوية بن يزيد بعهد من أبيه ، وهو ابن عشرين سنة ، فلبث فيها أربعين يوماً محتجباً مستخيراً ، وكان زاهداً منقبضاً ، ثم خرج وجمع الناس وترك لهم خلافتهم ومضى لأيامه .

فقام ⁽¹²⁾ بعده مروان بن الحَكَم بن أبي العاص بن أمية في أربع وستين ⁽¹³⁾ وهو ابن اثنين وستين ⁽¹⁴⁾ سنة ، فكثت تسعة ⁽¹⁵⁾ أشهر وأياماً .

وصار الأمر إلى ولده عبد الملك بن مروان ، وهو أبو الملوك الأموية ، وصاحب السياسة ودعا على عهده لنفسه عبد الله بن الزُّبَيْر بالحجاز وما يليه ، واستقامت له الخلافة ، ودخل في أمره العراق ، وبعث إليه عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفي ⁽¹⁶⁾ ،

(8) ساقطة من ت وط .

(9) من سنة 60 هـ / 680 م .

(10) 10 محرم 61 هـ / 10 أكتوبر 680 م .

(11) 10 نوفمبر 683 م .

(12) ساقطة من ش .

(13) 683 م .

(14) في اليعقوبي : «إحدى وستين سنة» 258/2 .

(15) في ت : «سبعة» وهو غلط . (16) ساقطة من ش وط .

[95/أ] فحاصر مكة ورمى البيت بالمجانة، ودخلها لخمسين ليلة / من حصاره ، وقاتل عبد الله بن الزبير بإزاء البيت حتى قتل يوم الثلاثاء لأربع عشرة من جمادى الأولى⁽¹⁷⁾ سنة ثلاث وسبعين⁽¹⁸⁾ . وصلب الحجاج جثته وكذا عمر بن سعيد بن العاص ، دعا لنفسه بدمشق . وقد خلفه عبد الملك بها ، فكر إليها واستتره عن صلح ثم اغتاله فقتله ، وكذا ابن الأشعث بن قيس ، فخلع طاعته وتوجه إليه الحجاج ، والتقى بدير الجمام ، فكانت الدائرة على ابن الأشعث سنة نيف وثمانين ، فتفانى فيها الخلق ، ثم كما ساءت طاعة أهل العراق قلده الحجاج فكان من أمره ما هو مشهور . وفي مدة عبد الملك كان معظم فتوحات المغرب كما يأتي - إن شاء الله تعالى - وتوفي عبد الملك بدمشق يوم السبت لأربع عشرة من شوال سنة ست وثمانين⁽¹⁹⁾ .

وتولى بعده ولده الوليد بن عبد الملك⁽²⁰⁾ فكان ملكاً عظيماً ، فارس بني أمية ، وولى موسى بن نصير إفريقية ، وأغزاه الغرب الأقصى ، وأجاز البحر مولاه طارقاً ففتح الأندلس . ومات الوليد بدير مروان . ودُفن بدمشق منتصف جمادى الأخيرة سنة ست وتسعين⁽²¹⁾ .

فقام بعده أخوه سلمان بن عبد الملك ، فكان قيماً برسوم الشريعة ، فارساً صحيحاً ، إلا أنه كان منهوياً كثير الأكل ، فياكل القنطار أكلة واحدة ، توفي سنة تسع وتسعين⁽²²⁾ .

فتولى الخلافة ثاني العُمَين ويلقب «الأشج» لشجّة في وجهه ، وهو عمر بن عبد العزيز بن مروان / أحد الخلفاء الراشدين ، أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، فهو جدّه لأُمّه فكان ثانيه في الزهد والورع والعدل ، وكان من خيار الأُمّة - رضي الله تعالى عنه - أفردت مآثره بالتأليف⁽²³⁾ . توفي بدير سمعان من عمل حمص ، أواخر رجب⁽²⁴⁾ سنة إحدى ومائة . وقبره مشهور ، يزار ويترك به .

(17) وقيل من جمادى الثانية 962 م .

(18) 1 أكتوبر 692 م .

(19) 8 أكتوبر 705 م .

(20) في ت : «عبد الملك بن مروان» .

(21) 25 فيفري 714 . وفي الأصول : «ثلاث وتسعين» وهو غلط .

(22) 717 م وفي الأصول : «ست وتسعين» وهو غلط .

(23) في ش وت : «التأليفات» .

(24) على الأرجح في 25 منه / 719 م .

ثم تَوَلَّى بعده اليزيد بن عبد الملك ، فكان مُضَيِّعًا للأمر⁽²⁵⁾ لاشتغاله بلهوه
فخلع⁽²⁶⁾ فتولى⁽²⁷⁾ بعده أخوه هشام بن عبد الملك فكان ملكًا حازمًا صلبًا ، جمع
الأموال وعمر الأرض واصطنع الرجال .
وتَوَلَّى⁽²⁸⁾ الوليد بن يزيد بعد عمه ، فكان صاحب شراب ولهو وبطالة ، بلغ خُبْنُهُ
أَنَّهُ قرأ في المصحف الكريم ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾⁽²⁹⁾ عند استفتاحه ،
فجعل المصحف غرضًا لنشابهه ، وأقبل يرميه لما تَوَعَّد به وأنشد يقول :

[وافر]

تهددني بجبار⁽³⁰⁾ عنيد فهذا أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني⁽³¹⁾ الوليد

فَسَمَّه⁽³²⁾ يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فبطش به امتصاصًا للدين .

فتَوَلَّى بعده⁽³³⁾ ، فكان خيرًا ، ذا عدل ونسك وورع ، حَزِمًا ولكن كان جَمَاعًا
بخيلًا ، فَلَقِبَ بالناقص لكونه نَقَصَ الجند عطاءهم ، ويقال الأشج والناقص أعدلا بني
مروان ، أي عادلاهما إذ لا عدل إلَّا فيهما ، وكانت ولايته خمسة أشهر وليلتين .
وَوَلَّى⁽³⁴⁾ بعده أخوه ابراهيم بن الوليد ، فكانت أيامه / كثيرة الهرج ، فلم تطل
مُدَّتُهُ حتى خُلِعَ⁽³⁵⁾ .

[أ/96]

فقام بعده⁽³⁶⁾ مَرْوَان بن محمد بن الحكم ، وَيُسَمَّى مروان الحمار⁽³⁷⁾ ، أقبل من
الجزيرة ودخل الشام ، فَقَتَلَ ابراهيم بن مُحَمَّد بن علي بن عبد الله بن عباس بعدما سجنه
أربعة أشهر خوفًا من قيام بني العباس بالأمر . فكان ما خافه . وكان مروان شهيمًا عظيم

(25) بعدها في ت : «ليس له بال عليه» .

(26) المخلع مخالف للرواية التاريخية ، يقول المسعودي ان هشام أخ اليزيد «بني في جواره مخافة أهل البغي والسعاية حتى مات يزيد» مروج الذهب 202/3 .

(27) تولى هشام بعد وفاة أخيه يزيد بن عبد الملك في 25 شعبان سنة 105 هـ / 28 جانفي 724 م .

(28) في ربيع الثاني 125 هـ / فيفري 743 م . (31) في مروج الذهب : «خرفني» .

(29) سورة ابراهيم : 15 . (32) لم يقتل سُمًّا .

(30) في مروج الذهب : «أتوعد كل جبار» . (33) في جمادى الثانية 126 / مارس 744 م .

(34) 7 ذو الحجة 126 / 20 سبتمبر 744 .

(35) في محرم 127 / أكتوبر 744 .

(36) بويج بدمشق في صفر 127 / نوفمبر 744 .

(37) لأنه كان لا يحف له لبد في محاربة الخارجين عليه . حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام 1 / 361 .

الدَّهَاءَ عَارِفًا بِالسَّيْرِ وَالْأَخْبَارِ ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَمَرًا هُوَ بِالْغَةِ . فلما كانت سنة اثنتين وثلاثين ومائة⁽³⁸⁾ ، يبيع أبو العباس عبد الله بن محمد السفاح بالخلافة - حسبما يأتي تفصيل ذلك في خلافة بني العباس - وفرَّ مروان حتى قطع النيل ، وأغرق الجسور ، فنزل ببوصير ، فجاءه صالح بن علي فقتله وفرغت بموته خلافة بني أمية من المشرق ، وفر باقيهم إلى المغرب .

سئل بنو أمية : ما أقوى أسباب زوال ملككم ؟ فقالوا : إِنَّا اعْتَمَدْنَا عَلَى الْمَالِ وَاسْتَهْوَيْنَا بِالرِّجَالِ ، فَوَقَرْنَا الْمَالَ وَقَلَّلْنَا الرِّجَالَ ، فَأَخَذَ الْعَدُوُّ مَالَنَا وَتَقَوَّى بِهِ عَلَيْنَا ، وَأَبْعَدَنَا الصَّدِيقَ اعْتِمَادًا عَلَى صِدَاقَتِهِ ، وَقَرَّبَنَا الْعَدُوَّ اسْتِجْلَابًا لِحُبَّتِهِ ، فَصَارَ الصَّدِيقُ عَدُوًّا بِالْأَبْعَادِ ، وَلَمْ يَصِرِ الْعَدُوُّ صَدِيقًا بِالْإِحْسَانِ ، كَمَا يَقَالُ :

[مجزوء الكامل]

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديق فصار أدرى بالمضرة

فكانت عدة بني أمية من معاوية إلى مروان أربعة عشر ، والمدة اثنتين وتسعين سنة⁽³⁹⁾ .

(38) 749 م .

(39) من سنوات الهجرة و89 من سنوات الميلاد ، بعدها في ط : « والله تعالى أعلم » ، وفي ت : « وزال ملكهم وتشتت شملهم في كل مكان » .

الباب الثالث :

في ذكر فتوحات المغرب الواقعة في أيام الصحابة⁽¹⁾ / ومن بعدهم من بني أمية

[96/ب]

غزوات عمرو بن العاص :

فأقول : « إن أول من دخل المغرب غَازيًا سيدنا عمرو بن العاص - رضي الله تعالى عنه - في «رحلة التجاني»⁽²⁾ كان افتتاح طرابلس في القديم على يد عمرو بن العاص - رضي الله تعالى عنه - بعد افتتاحه لمصر والاسكندرية وذلك سنة اثنين وعشرين⁽³⁾ . سار إليها في جيشه فتزل على شرفها من الجهة الشرقية وأقام عليها شهرًا لا يقدر منهم على شيء ، وقد كان أهلها استعانوا بقبيل من البربر يعرفون بنفوسة دخلوا معهم في دين النصرانية ، فخرج ذات يوم من عسكر عمرو رجل من بني مُدْلَج يتصَيّد في نقر معه فأمن عن العسكر إلى جهة غربي المدينة ومال إلى شاطئ البحر ، والبحر لاصق بالمدينة ، وليس بالمدينة إذ ذاك من جهة البحر سور ، بل كانت سفنهم شارعة إلى بيوتهم ، فنظر المدلجي وأصحابه إلى البحر قد حسر (أي جزر)⁽⁴⁾ من جهة المدينة عن مسلك يمكن النفوذ إليها منه ، فندبوا معهم جماعة واقتحموا المدينة فلم يكن للروم مفرج إلا سفنهم ، (وأبصر عمرو أصحابه)⁽⁵⁾ في جوف المدينة فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم ، فلم يفلت من الروم سوى من خف في سفينته ، واحتوى عمرو على المدينة فهدم سورها وارتحل عنها ثم (إنه لما أتى من افريقية)⁽⁶⁾ جدد بناء سورها من البر⁽⁷⁾ أهـ .

(1) بعدها في ت : « رضي الله تعالى عنهم » .

(2) ص 239 .

(3) 642 - 643 م .

(4) تفسير من المؤلف .

(5) في الأصول : « فأبصرهم عمرو وأصحابه » ، والمثبت من الرحلة ص 239 .

(6) إضافة من المؤلف عما هو موجود بالرحلة .

(7) رحلة التجاني ص 239 .

فعمرو - رضي الله تعالى عنه - افتتح بَرْقَة وطَرَابْلُس وما قاربهما من المغرب الأدنى ومفاخر/ عمرو بن العاص ومآثره - رضي الله تعالى عنه - وغزواته وفتوحاته مشهورة ، [أ/97] وفي كتب السير مسطورة .

غزوة عبد الله بن سعد بن أبي سرح :

ثم غزا المغرب بعد عمرو بن العاص أبو يحيى عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن الحسام القُرشي العامري - رضي الله تعالى عنه - قال في «معالم الإيمان»⁽⁸⁾ أسلم عبد الله قبل الفتح وهاجر وكان أخاً لعثمان بن عفان من الرضاع وكان يكتب الوحي للنبي ﷺ وكان أحد العقلاء النُجَبَاء من قُرَيْش ، وكان فارس بني عامر ، والمقدم فيهم ، شهد فتح مصر ، وكان صاحب ميمنة عمرو بن العاص في فتوحاته ، ثم ولّاه عثمان غزوة إفريقية سنة سبع وعشرين⁽⁹⁾ ، فسار إليها من مصر ، فدخلها في عشرين ألفاً من المسلمين فيهم جماعة من الصُحابة منهم العبادلة السبعة ، ولذلك تسمى غَزْوَةُ العبادلة ، فنزل السَّبْخَةُ التي في شرق القيروان ، ولذلك يسمى ذلك المكان بباب عبد الله . قال : «وكانت وفاته سنة ست أو سبع وثلاثين⁽¹⁰⁾ قبل اجتماع الناس على معاوية . قلت⁽¹¹⁾ : واختلف أين توفي فقيل بإفريقية والصَّحیح بعسقلان»⁽¹²⁾ .

وقال : «روى الواقدي عن ربيعة بن عباد الديلي ، قال : أغزانا عثمان - رضي الله تعالى عنه - إفريقية ، فخرجنا مع الناس حتى قدمنا مصر ، فخرج عبد الله بن سعد بن أبي سرح - وهو أمير الناس - من مصر بمن كان معه وبمن قدم عليه من المدينة ، فكانوا عشرين ألفاً ونحن نريد بطريق / الروم من إفريقية يقال له جَرْجِير . كان قد غلب على ما [أب/97] هنالك من أرض المغرب فلما فصل عبد الله من مصر ، كان يقدم الطلائع [والمقدمات

(8) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان تأليف عبد الرحمان بن محمد الأنصاري الأسدي الديبّاع (ت. 696 هـ/ 1296) ينقل بتصرف .

(9) 647 - 648 م .

(10) 656 - 657 م .

(11) كذا في المعالم .

(12) أنظر ترجمة عبد الله بن سعد بن أبي سرح في معالم الإيمان 137/1 - 140 . نشر مكتبة الخانجي بمصر 1968 . تحقيق وتعليق إبراهيم شوح .

أمامه ، وكثيراً ما أكون في الطلائع⁽¹³⁾ فوالله إنا لبطربائلس ، إذا مراكب قد أرسى بالساحل ، فشدنا عليهم ، فأقاموا ساعة ثم استوسرُوا ، فكثفناهم وهم مائة ، حتى لحقنا ابنُ أبي سرح فقتلهم . وقد تحصن منا أهلُ طربائلس ، ولم يعرضوا لنا ، فأخذنا ما في السفن ، فكانت هذه أول غنيمة أصبناها ونحن في وجهتنا ، ثم لحق بنا الناس وأقاموا أياماً ، وكانت السرايا في كل وجهة تأتي بالبقر والشاة والعلف ، ثم تمادينا حتى وردنا افريقية فأقنا أياماً تجري بيننا وبين جرجير ملكهم الرُّسل ، ندعوه إلى الإسلام ، وكلما دعواناه إلى الإسلام نخر⁽¹⁴⁾ ، ثم استطال وقال : لا أقبل هذا أبداً . فقلنا له : تُخرج خراجاً في كل عام ، فقال : ولو سألتوني درهماً واحداً لم أفعل ، ثم إنا تهيأنا للقتال بعد الأعذار إليه فهيأنا⁽¹⁵⁾ عبد الله بن أبي سعد فجعل ميمنة وميسرة وقلبا ، وسار بأصحابه فقال له رجل من قُبط مصر كان معه : إن القوم لا يُصافونك ، وهم يهربون ، فأجعل لهم كميناً وفرقهم في أماكن ففعل ذلك عبد الله وغدا بنا على تعبئة ، والروم قد رفعوا الصليب وعليهم من السلاح ما الله به عليم⁽¹⁶⁾ ومعهم / من الخيل ما لا يحصى ، فتصاولنا ساعة من النهار حتى صارت الشمس قد رُمحين أو أكثر ، ثم حمل عبد الله بالناس وحملنا [معه] فكانت الهزيمة عليهم ، وكرَّ الكمين عليهم في كل مكان فأكثروا فيهم القتل والأسر ، فطلبوا الصلح فصالحهم عبد الله بن أبي سرح على خراج . روي عن أسامة بن زيد [الليثي] أن الذي صالحهم عليه عبد الله بن سعد⁽¹⁷⁾ ألفا ألف دينار .

وذكر بعض المؤرخين أن عبد الله بن سعد غزا افريقية في جماعة من الصحابة ، فلقى جرجيراً في سَيْطَلَة وهي مدينة على سبعين ميلاً من القيروان ، فقتل جرجيراً وهو في مائة ألف ، وصالح ابن أبي سرح أهل الحصون وأهل المدائن على مائة ألف⁽¹⁸⁾ رطل من الذهب .

(13) إضافة من المعالم ليستقيم المعنى . 34/1 .

(14) في الأصول : «نكص» والمثبت من المعالم .

(15) في الأصول : «تهيأنا» والمثبت من المعالم ليستقيم المعنى .

(16) في الأصول : «أعلم» .

(17) في الأصول : «عبد الله بن أبي سرح» والمثبت من معالم الإيمان .

(18) في الأصول : «مائة ألف ألف» والمثبت من المعالم 35/1 .

قال أبو عثمان سعيد بن عفير⁽¹⁹⁾ في «تاريخه»: «لما سمعت الرُّوم والأفارقة⁽²⁰⁾ ، بخروج عبد الله بن سعد ووصله إلى إفريقية ، خرجوا إليه ومعهم جرّجير في جمع من الرُّوم . فلما التقى بهم المسلمون بادر جرّجير بالبراز ، فبرز إليه عبد الله بن الزبير ومروان بن الحَكَم ، فقتله ابن الزبير ، ومنهم من قال قتلاه جميعاً . ثم كانت الهزيمة ، واتخذ المسلمون ذلك المنزل معسكراً ومنزلاً ، وأصابوا لهم غنائم كثيرة ، وقسم عبد الله النبيء على الصحابة ، فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الرَّاجِل ألف دينار»⁽²¹⁾ وتولى قسم الغنيمة / عبد الله بن عباس بن عبد المطلب - رضي الله تعالى عنهما - ونَقَلَ عبد الله ابن أبي سَرَح عبد الله بن الزبير ابنة جرّجير لأنه قتل جرّجيراً . وبلغ الخُمُسُ أربعمئة ألف دينار واجتمعت الرُّوم بعد قتل جرّجير إلى كُورَة من الكور حصينة (هو قصر الجمل)⁽²²⁾ فسار إليهم عبد الله بن سعد بن أبي سَرَح بمن معه (من المسلمين)⁽²³⁾ فصالحوه على ثلاثمئة قنطار (ذهباً وهي)⁽²⁴⁾ ألف ألف دينار وخمسمئة ألف دينار ، فقبضها منهم وانصرف عنهم .

وسُئِل يومئذ بعض النَّصارى من أين كُثرت أموالكم ؟ فبادر إلى شجرة زيتون كانت بين يديه فأخذ منها عوداً وقال : من هذا جمعنا هذه الأموال ، نُصِيب الزيت فيأتينا أهل البحر والجزائر [والصحارى]⁽²⁵⁾ فيبتاعونه منا ، فنه كُثرت أموالنا . ثم قال⁽²⁶⁾ : وأقام ابن أبي سَرَح بسُيْطِلَة ، وهو الأمير على عسكره والحاكم بينهم ، فلما رأى [الرُّوم]⁽²⁷⁾ الذين بالساحل ما حل بجرّجير وأهل سُيْطِلَة ، غارت

(19) هو أبو عثمان سعيد بن كثير بن عفيرة . مصري من أصحاب مالك . كان علامة بأخبار الناس (147 - 226/764 - 840 . 841) عن محقق رياض النفوس للمالكي ، دار الغرب الإسلامي ، هامش 52 ، ص 19 .

(20) في نص معالم الإيمان : «الأزارقة» ، وكذا في الرياض وقال عنها المحقق في هامشه «ولعلها الأفارقة» وهي تسمية قديمة استعملها ابن عبد الحكم والبكري وغيرهما . أنظر هامش 1 ، 35/1 .

(21) في الأصول وفي معالم الإيمان : «مثقال» والمثبت من محقق معالم الإيمان اعتياداً على ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وإفريقية والأندلس . أنظر هامش 2 ، 35/1 .

(22) ما بين القوسين تفسير من المؤلف زائد عما هو موجود بمعالم الإيمان .

(23) إضافة من المؤلف .

(24) كذا في ط ومعالم الإيمان 35/1 . في ت : «من الذهب وألف ألف» .

(25) إضافة من معالم الإيمان وفي مكانها من الأصول : «التجارة» .

(26) معالم الإيمان 42/1 . إضافة من معالم الإيمان 42/1 .

[1/99]

أنفسهم وتجمعوا وكاتب بعضهم بعضاً ، (وَأَمَّلُوا حَرْبَ) (28) ابن أبي سَرَح ، فخاف منهم لما معه من الغنائم ، فكتب إلى خليفته بمصر يأمره أن يوجه (29) إليه مراكب في البحر يجعل فيها غنائم المسلمين ، فوصل كتابه إلى مصر ، وأخذ خليفته فيما أمره به ، واتصل بالروم قصد ابن أبي سرح إياهم واستقبله (30) حربهم ، فخافوه وراسلوه ودار بينهم / تشاجر ، فجعلوا له جعلاً على أن يرتحل بجيشه ولا يعترضون لشيء معه فأجابهم إلى ذلك ، ووجهوا إليه مائة قنطار ذهباً فقبضها منهم وانصرف عنهم راجعاً إلى مصر بعد أن أقام بأفريقية سنة وشهرين ، فلما وصل إلى طرابلس وأقته المراكب ، فحمل فيها أثقال جيشه ونفذ هو وأصحابه سالمين إلى مصر ، ووجه إلى عثمان - رضي الله تعالى عنه - بالأموال التي معه (31) من الخمس وغيره ، فوَقعت الفِتْنَةُ في اثر ذلك واستشهد عثمان - رضي الله عنه - .

وَوَلَّى بعده علي - رضي الله تعالى عنهما - ، وبقيت افريقية على حالها إلى ولاية معاوية .

ولاية معاوية بن خديج :

«فلما ولي معاوية عزل عبد الله بن سعد بن أبي سرح عن مصر وإفريقية ، وولى عليهما معاوية بن خديج الكندي كان من أصحاب رسول الله ﷺ (32) وهو (33) بضم الخاء مصغر ، بن جَفْنَةَ بن قُتَيْبَةَ (34) بن حَارِثَةَ بن عَبْدِ شَمْسٍ بن مُعَاوِيَةَ بن جَعْفَر بن أسامة بن سَعْد بن أَشْرَس بن شبيب (35) بن السَّكُون (36) بن كِنْدِي (37) السَّكُونِي

(28) في الأصول : «استقلوا حزب» وهي غير ذات معنى والمثبت من المعالم 42/1 .

(29) في المعالم : «يندب» .

(30) في الأصول : «استقبله» والمثبت من المعالم 42/1 .

(31) في الأصول : «عنده» والمثبت من المعالم .

(32) أنظر معالم الإيمان 42/1 .

(33) يتقل إلى موضع آخر من المعالم ، أنظر المعالم 140/1 .

(34) في الأصول : «عقبه بن قيس» والمثبت من المعالم بعد تحقيق وإصلاح ، أنظر هامش 2 ، المعالم 140/1 .

(35) في الأصول : «شعيب» وكذلك في أصول المعالم والمثبت من محقق المعالم ، أنظر هامش 3 ، المعالم 140/1 .

(36) في الأصول : «السكن» والمثبت من المعالم 141/1 .

(37) في الأصول : «كندة» والمثبت من المعالم 141/1 .

الكِنْدِي ، هكذا سرد نسبه أبو نصر⁽³⁸⁾ بن مأكولا الكرخي . فن نسب معاوية بن خديج إلى جدّه الأقرب قال : السَّكُونِي ، ومن نسبه إلى جدّه الأبعد ، قال : الكِنْدِي⁽³⁹⁾ واختلف في كُنْيَتِهِ ، فقيل أبو عبد الرحمان وقيل أبو نُعَيْم ، وقد على النبي ﷺ وشهد فتح مصر وكان هو الوارد بفتح الإسكندرية على عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - وغزا افريقية ثلاث غزوات / احداهن سنة أربع وثلاثين⁽⁴⁰⁾ في خلافة عثمان ، فترل بمكان القيروان اليوم واحتفر بها آباراً تُسمَّى آبار خُدَيْج إلى الآن غلب عليها⁽⁴¹⁾ اسم أبيه⁽⁴²⁾ وهذه الآبار خارج باب تونس منحرفة عنه إلى المشرق عند مُصَلَّى الجنائز ، وكان معه في هذه الغزوة عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وجبلة بن عمرو الساعدي ، وأبو زَمْعَةَ البَلَوِي ، فات أبو زَمْعَةَ ودفن بالبلوية أحد مقابر القيروان الآن فسميت به . ثم غزا معاوية افريقية سنة إحدى وأربعين⁽⁴³⁾ وستة خمسين⁽⁴⁴⁾ ، في إحداهما نزل القَرْن⁽⁴⁵⁾ وأقام بها ثلاثة أعوام ، وبنى هنالك بيوتاً وذلك قبل أن تحتط القيروان⁽⁴⁶⁾ . وتوفي سنة اثنين وخمسين⁽⁴⁷⁾ .

ولما ولاه⁽⁴⁸⁾ معاوية بن أبي سفيان على مصر أراد معاوية غزو افريقية ، فأغراه إياها ، فخرج ابن خديج من مصر ومعه جماعة من الصَّحابة والتابعين وكان معه عبد الملك بن مروان ويحيى بن الحَكَم ، والأَكْدَر بن حُمَام⁽⁴⁹⁾ اللخمي ، وخالد بن ثابت الفَهْمِي⁽⁵⁰⁾ وأشرف من جند مصر حتى وصل افريقية ، فقصده جلولاً⁽⁵¹⁾ وعليها

(38) في الأصول : « بن نصر » والمثبت من المعالم 141/1 .

(39) معالم الإيمان 141/1 .

(40) 654 - 655 م .

(41) في الأصول وفي أصول معالم الإيمان : « عليه » والمثبت من محقق المعالم اعتياداً على الرياض .

(42) حديد . عن الفريق بين معاوية بن خديج وأوله معاوية بالحاء المهملة مصغراً وهو ما ضبطه ابن حجر في الإصابة بالحرف ، أنظر هامش ابراهيم شيوخ بالمعالم ، 1 - 140/1 .

(43) 661 م . (44) 670 م .

(45) في الأصول : « القيروان » والمثبت من المعالم 142/1 إذ القيروان لم تتأسس بعد .

(46) المعالم 142/1 .

(47) 672 م . أخذ الخبر عن المعالم 144/1 .

(48) ينقل عن الرياض 28/1 بتصرف يسير . تحقيق البشير البكوش - دار الغرب الإسلامي 1983 .

(49) في الأصول : « همام » والمثبت من الرياض 28/1 والمعالم 43/1 .

(50) في الأصول : « فهري » والمثبت من الرياض 28/1 والمعالم 43/1 .

(51) في المعالم وفي الرياض « جلولاء » .

عامل لخرجير الرُومي الذي كان ملك سببلة ، فتنزل بجيشه على قَمُونِيَّة (52) وهي قيروان إفريقية . فرحل (53) منها إلى جبل يقال له القرن ، قيل إنما سُمِّيَ بذلك لقول معاوية : ارحلوا بنا إلى ذلك القرن ، ويقال إنّه نزل جبلاً بإفريقية يقال له مَمْطُور في غربي / [100/أ] مدينة قَمُونِيَّة على فراسخ منها ، فأصابه مطر شديد فقال : إنَّ جبلنا هذا المَمْطُور فسمي إلى اليوم بذلك . وقال : إذهبوا بنا إلى ذلك القرن .

ثم رحل منه إلى مدينة جلولا ، فلما وصل إليها امتنعوا منه وتحصنوا فحاصروهم حتى فتحها وكان سبب فتحها أن معاوية لما طال مقامه عليها ، رحل عنهم يريد القفول ، فلما سار عنهم قليلاً ، ذكر رجل من عسكره أنه نسي قوساً بمعسكره ، فرجع في طلبها فرآى ركنًا من أركان جلولا قد انهدم ، فلحق معاوية فأخبره . ويقال إنّه لما انصرف جعل فرسان الناس وحماتهم على ساقه للعسكر ، فساروا غير بعيد ، ثم نظروا فإذا خلفهم غبار شديد . ورهج ، فوقف العسكر وزحف من كان على الساقه نحو ذلك الغبار حتى وقفوا على المدينة ، فإذا هي قد وقع حصنها من ناحية واحدة من ركن إلى ركن ، فلم يبق منه شيء إلا لصق بالأرض ، فانصرف المعسكر إليها ، فتنزلوا على حصنها من جهة الهدم ، وألقوا بأنفسهم على الموت ، فقاتلوهم قتالاً شديداً فانهزم الروم ، وقتل رجالهم وأنجادهم ، ودخلوها بالسيف ، فأصابوا بها سبياً كثيراً وغنائم ، ويقال إنَّ معاوية بن خديج مضى إليها بجميع عسكره ، فغنم كل ما كان فيها ، ثم أنفذ الغنائم إلى معاوية بن أبي سفيان بالشام . ويقال إنَّ الذي نسي القوس عبد الملك بن مروان (54) .

ونقل في «معالم الإيمان» (55) / عن أبي العرب (56) «إن معاوية بن خديج غزا إفريقية ثلاث غزوات أما الأولى فسنة أربع وثلاثين (57) ، في خلافة عثمان - رضي الله تعالى عنه - (وكانت تلك الغزوة لا يعرفها كثير من الناس) (58) وأما الثانية فسنة أربعين (59) ، وأما الثالثة فسنة خمسين (60) من الهجرة .

(52) في الأصول : «القيروان» والمثبت من الرياض 29/1 والمعالم 43/1 .

(53) في الأصول : «فدخل» والمثبت من الرياض 29/1 والمعالم 43/1 .

(54) من رياض النفوس للمالكي مع اختلاف يسير في الألفاظ 29/1 - 30 .

(55) معالم الإيمان 44/1 والمالكي في رياض النفوس (ط / 1) 30/1 .

(56) المعالم 44/1 . (57) 654 - 655 م . (58) ما بين القوسين موجود في رياض النفوس ، والمعالم .

(59) في الأصول : «خمس وأربعين» والمثبت من معالم الإيمان 44/1 ، ورياض النفوس «سنة أربعين أيضاً» 30/1 .

40 هـ / 660 - 661 م ، وفي معالم الإيمان 165/1 «سنة إحدى وأربعين» متقارباً مع ما سبق منه .

(60) 670 م .

وقال محمد بن يوسف الورّاق القيرواني : «إنّ معاوية بن خديج غزاها سنة أربع وثلاثين⁽⁶¹⁾ .

وأول غزوة غزاها عقبة بن نافع بن عبد القيس بن عامر بن أمية بن الحارث بن فهر بن مالك سنة اثنين وأربعين⁽⁶²⁾ ، وقيل سنة إحدى وأربعين⁽⁶³⁾ ، ثم غزاها معاوية بن خديج وهي حرب كلها .

وغزا معاوية بن خديج جزيرة صقلية في مائتي مركب وأصاب بها غنائم كثيرة⁽⁶⁴⁾ ، وانصرف إلى قُمُونِيَّة فقسم عليهم فيأهم ، وبعث بالخمس إلى معاوية بن أبي سفيان ، وهو إذ ذاك خليفة وهذه الغزوة هي غزوة معاوية بن خديج الثانية ، كانت سنة خمس وأربعين⁽⁶⁵⁾ وقيل كانت سنة إحدى وأربعين⁽⁶⁶⁾ اهـ كلام الورّاق⁽⁶⁷⁾ .

قال أبو بكر المالكى : فلما وصلت الغنائم إلى معاوية بن أبي سفيان ، أعاد معاوية ابن خديج بجيوش الشّام ومصر إلى إفريقية وكان ذلك في سنة خمسين⁽⁶⁸⁾ ومعه عبد الملك ابن مروان ، فوصل إلى إفريقية ، واحترف الآبار التي تسمى الآن آبار خُديج بباب تونس ، وإنّما احتفرها إذ كان عسكره هناك .

ولاية أبي المهاجر :

«ثم غزا منها بَنَزَرَتْ وغنم غنائم كثيرة من نواحيها ، ورجع قافلاً / إلى قُمُونِيَّة وبنى بناحية القرن⁽⁶⁹⁾ مساكن وسَمّاها قيروانا ، وموضع القيروان غير مسكون ولا معمور . ثم

(61) 654 - 655 م .

(62) 662 - 663 م .

(63) كذا في المعالم 44/1 - 45 وفي ص 166 «وقيل سنة ست وأربعين» وهو الأصح .

(64) عن غزوة معاوية بن خديج لصقلية أنظر المؤنس لابن أبي دينار نشر المكتبة العتيقة ، بدون تاريخ ، ص 28 .
وال مؤلف ناقل عن معالم الإيمان بتصرف 45/1 ، في أول كلامه عن إفريقية ، وأنظر البيان المغرب لابن عذاري : دار الثقافة بيروت 18/1 .

(65) 665 - 666 م .

(66) بعدها في المعالم : «وقيل سنة واحد وخمسين» 45/1 .

(67) نقلًا عن معالم الإيمان 45/1 .

(68) 670 م .

(69) في الأصول : «القيروان» والمثبت من معالم الإيمان .

رحل معاوية بن خُديج من إفريقية إلى معاوية بن أبي سفيان ، فدفع الغنائم إليه ، ثم عزله معاوية عن مصر وولى عليها مَسْلَمَةَ بن مُخَلَّد الأنصاري ، فوجه مَسْلَمَةَ خالد بن ثابت الفهمي⁽⁷⁰⁾ إلى إفريقية وكان من التابعين . فخرج في محرم سنة خمسين⁽⁷¹⁾ ، فانتهى إلى مواضع منها ، وأصاب غنائم كثيرة ، ثم عزله مسلمة وولى أبا المهاجر مولاة بجيش من قبَلِه ، فوصل إلى إفريقية ، فأخذ عقبة بن نافع الفهري ، فحبسه وضيق عليه ، فبلغ خبره معاوية ، فكتب إلى أبي المهاجر يأمره بتخليته ويعنفه⁽⁷²⁾ فيما صنع به ، فأطلقه أبو المهاجر وأرسله يرُسِّل من قبله ، حتى أخرجه من قابس ، فضى وهو حَتَقٌ على أبي المهاجر ، فدعا الله عز وجل أن يُمَكِّنَه منه ، فلم يزل أبو المهاجر خائفًا من دعائه ، وقال هو عبد لا تُردُّ له دَعْوَةٌ .

ثم إن أبا المهاجر صالح برابر إفريقية وفيهم كَسَيْلَةُ الأوربي⁽⁷³⁾ وأحسن إليه واتَّخَذَهُ صديقًا وصالح عجم إفريقية ، وخرج يجوشه نحو المغرب ففتح كل ما مرَّ به ، حتى انتهى إلى العيون التي تسمى الآن عيون أبي المهاجر ، نحو تِلْمَسَانَ ، ولم يستخلف على القيروان أحدًا ينظر فيها لأن أكثرهم خرج معه ولم يبق إلا شيوخ ونساء وأطفال ، ثم رجع إليها وأقام بها⁽⁷⁴⁾ .

ولاية عقبة بن نافع وغزواته :

(وحبس أبي المهاجر لعقبة وأخذه له / لأن عقبة سبقه لإفريقية)⁽⁷⁵⁾ في غزوته الثانية التي كانت في سنة ست وأربعين⁽⁷⁶⁾ من الهجرة ، قال محمد بن يوسف الوراق : إن عقبة بن نافع الفهري غزا إفريقية غزوته الثانية في سنة ست وأربعين⁽⁷⁶⁾ من الهجرة ، فاقتح كثيرًا من حصونها ، وأنخن في قتل الروم والبربر ، واختط مدينة القيروان ، وتحوّل بها أيامًا ، ثم قدّم أبو المهاجر دينار مولى مَسْلَمَةَ بن مُخَلَّد الأنصاري إلى إفريقية سنة

[101/ب]

(70) في الأصول : « الفهري » والمثبت من معالم الإيمان 46/1 .

(71) في الأصول : « أربع وخمسين » والمثبت من معالم الإيمان 46/1 .

(72) كذا في معالم الإيمان وفي رياض النفوس : « ويعقبه مما صنع من ذلك » 23/1 .

(73) في الأصول : « اللوزي » والمثبت من معالم الإيمان .

(74) معالم الإيمان 45/1 - 46 . رياض النفوس 33/1 .

(75) ما بين القوسين إضافة من المؤلف . (76) 666 م .

خمس وخمسين⁽⁷⁷⁾، فعزل عقبة وقيده وحبسه وأخرب ما كان اختطه بالقيروان ، واختط مدينة تآكروان⁽⁷⁸⁾ وهي بجوفي⁽⁷⁹⁾ افريقية على نحو ميلين ، وجد في بناءها وتشبيدها ، ولم يزل عقبة في حبسه حتى أتاه كتاب الملك الخليفة معاوية بن أبي سفيان يأمره باطلاقه .

قال أبو بكر المالكى⁽⁸⁰⁾ : ولما سرح عقبة من وثاقه⁽⁸¹⁾ توجه إلى معاوية بن أبي سفيان فوجده قاتل . توفي . وولي بعده يزيد ، فدخل عليه وأخبره بما صنع⁽⁸²⁾ أبو المهاجر بالقيروان ، وما حل به منه . وقال : فتحت افريقية وبنيت مسجد الجامع فبعثت عبد الأنصار فأهانني وأساء عزلي⁽⁸³⁾ فغضب اليزيد وقال أدركوها قبل أن يُخربها ، ورد عقبة إليها وأزال ولاية مسلمة عنها وأقره بمصر ، وذلك سنة اثنين وستين⁽⁸⁴⁾ من الهجرة ، فقدم عقبة إليها في عشرة آلاف فارس ، فوصل إلى القيروان ، وأخذ أبا المهاجر وحبسه وقيده وأخذ / منه ما وجد بيده من الأموال ، فبلغ ذلك مائة ألف دينار ذهباً ، وجدد بناء [102/أ] القيروان وشييدها ونقل إليها الناس ، فعمرت (وعظم بناؤها)⁽⁸⁵⁾ وعلا قدرها وأعز الله بها الإسلام وأقر بها أعين الأنام .

ثم إن عقبة خرج بأصحابه وبكثير من أهل القيروان إلى المغرب ، واستخلف عليها عمر بن علي القرشي ، وزهير بن قيس البكوي ، وخرج بأبي المهاجر معه موثقاً . ولما خرج عقبة دعا بأولاده فقال لهم : إني بعث نفسي من الله ولا أدري ما يقضي علي في سفري ، ثم قال : يا بني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضعوها : إياكم أن تملؤوا صدوركم شعراً وتتركوا القرآن ، املؤوا صدوركم من كتاب الله فإنه دليل على الله ، وخذوا من كلام العرب ما تهتدي به ألسنتكم ، ويدلكم على مكارم الأخلاق ، ثم انتهوا عما وراءه ، وأوصيكم أن لا تدأبنوا ولو لبستم العباء ، فإن الدين ذلٌّ بالنهار وهم

(77) 674 م .

(78) في الأصول : « تآكروان » والمثبت من معالم الإيمان 47/1 .

(79) الجوف هو الشمال في لهجة أهل المغرب والأندلس .

(80) لا ينقل عنه مباشرة كمادته وإنما هذا من كلام معالم الإيمان وأنظر رياض النفوس 33/1 .

(81) معالم الإيمان 47/1 والرياض 33/1 : « ثقافه » .

(82) كذا بالأصول . ورياض النفوس وفي المعالم : « فعل » .

(83) في الأصول : « عزلي » والمثبت من معالم الإيمان 47/1 .

(84) 681 - 682 م . (85) في مكانها في المعالم : « وصلح شأنها » 47/1 .

بالليل ، فدعوه تسلم لكم أقذاركم وأعراضكم ، وتبقى لكم الحرمة مع الناس ما بقيتم ، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين ، فَيُجْهَلُوكُمْ⁽⁸⁶⁾ دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله ، ولا تأخذوا دينكم⁽⁸⁷⁾ إلا من أهل الورع والحيلة فإنه أسلم لكم ، ومن احتاط سلم ونجا (فيمن نجا ثم عليكم سلام الله)⁽⁸⁸⁾ وأراني لا تروني بعد يومكم هذا⁽⁸⁹⁾ .
ثم سار⁽⁹⁰⁾ حتى انتهى إلى باغاية⁽⁹¹⁾ والرُّوم يهرون بين يديه⁽⁹²⁾ يمينا وشمالا ، فحاصرها وقد اجتمع بها الرُّوم ، فقاتلهم وحاصرهم أشد القتال / ثم انهزم عدوهم فقاتلهم قتلاً ذريعاً وغنم أموالهم ، ثم كره أن يقيم عليهم ، فرحل عنهم ونزل على تِلْمَسَان ، وهي من أعظم مدائنهم ، وانضم إليها من حولها ، فخرجوا إليه في عدد لا يحصى ولا يعلم عددهم إلا الله ، فقاتلهم حتى ظن المسلمون أنه الفناء ، فضرب الله في وجوه الرُّوم ، فقاتلهم إلى باب حصنهم ، وأصاب الناس منهم غنائم كثيرة ، ثم كره المقام عليهم ، فرحل يريد الزَّابَ ، فسأل عن أعظم مدائنه فقبل له مدينة يقال لها آذنة ، وهي (مدينة ملكهم)⁽⁹³⁾ ، وكان حولها ثلاثمائة قرية ، وستون قرية ، كلها عامرة ، فلما بلغهم قدم المسلمين عليهم هربوا إلى حصنهم وإلى الجبال ، فلما قدم عقبة نزل على واد منها على ثلاثة أميال أو أكثر قليلاً ، فلقوه عند الوادي في وقت المساء ، - وكان وقت نزوله - فكره قتالهم بالليل ، فتواقف القوم الليل كله ، لا راحة لهم ولا فترة ولا نوم فسماه الناس إلى اليوم وادي سَهَر⁽⁹⁴⁾ لأنهم سهروا عليه فلما أصبح عقبة صَلَّى الصُّبح ، ثم أمر المسلمين بقتالهم فقاتلوهم قتالاً ما رآه المسلمون قط حتى يشس المسلمون من أنفسهم ، ثم أعطاهم الله - عز وجل - الظفر ، فانهزم الرُّوم وقتل فرسانهم وأهل النِّكاية والبأس منهم ، واستولت الهزيمة على بقيتهم .

[102/ب]

(86) في الأصول : « فيحلوا لكم » وفي أصول المعالم : « فيحلوكم » والمثبت من المحقق في المعالم من الرياض أنظر هامش المعالم 48/1 والرياض 34/1 .

(87) في المعالم : « 48/1 » .

(88) في مكانها في المعالم : « ثم قال : وعليكم سلام الله » 48/1 .

(89) وجاء في الرياض تنمة الدعاء هكذا « ثم قال اللهم تقبل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي من دار كرامتي عندك » وأثبتها محقق معالم الإيمان في النص استناداً إلى حاشية أحد أصوله وإلى الرياض أيضاً .

(90) بعدها في المعالم : « لا يدافعه أحد » 48/1 .

(91) في الأصول : « باغاي » وفي المعالم : « باغاي » والإصلاح طبقاً لما أثبتنا سابقاً .

(92) في المعالم : « من طريقه » .

(93) في المعالم : « دار ملكها » 49/1 . (94) في الأصول : « السهر » والمثبت من المعالم 49/1 والرياض 37/1 .

[103/أ] وفي هذه الغزوة ذهب عزُّ الرُّومِ / من الزَّابِ وذُلُّوا ، فكره عقبة المقام عليهم وقد تحصَّنوا فرحل عنهم يريد المغرب حتى نزل تَاهِرْت فاستغاث الرُّومُ بالبربر فأجابوهم ونصروهم ، فقام [عقبة] في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إن أشْرَافَكُم وخيارَكُم الذين رضي الله عنهم وأنزل عليهم كتابه ، بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على قتال (95) من كفر بالله إلى يوم القيامة وهم [أشرافكُم] (96) والسَّابِقون منكم إلى البيعة باعوا أنفسهم من رَبِّ العالمين بيمينته بيعة رابحة وأنتم اليوم في دار غُرْبَةٍ ، وإنَّما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد إلَّا طلباً لرضاه واعزازاً لدينه ، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذلَّ إن شاء الله وربكم - عزَّ وجل - لا يُسْلِمُكُم ، فالقوهم بقلوب صادقة فإن الله - عزَّ وجل - جعلكم بأسه الذي لا يُردُّ عن القوم الجرمين ، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه .

فالتقى المسلمون بهم فاقتلوا قتالاً شديداً فلم يكم لهم بقتال العرب من طاقة ، فولوا (97) هارين ، فقاتلهم المسلمون قتالاً ذريعاً أبادوا فيه فرسان البربر ، وتفرق جمعهم وقليل من نجا منهم .

ثم رحل حتى نزل طَنْجَة فنزل على البحر المحيط ، وهو بحر الأندلس ، فقبل له : ذلك بحر لا يرام ، وعليه ملك عظيم الشأن ، وما أظنك تقدر أن تجوز هذا البحر ، فقال لهم : دُلُّوني على رجال البربر والرُّومِ ، فقالوا له : قد / تركت خلفك الروم وقد أَفْنِيَتْهُمْ ، وما أملك إلَّا البربر وهم في عدد لا يعلمه إلَّا الله . فسألهم عن موضعهم فقالوا له : السُّوس الأدنى فلقى البربر في عدد لا يعلمه إلَّا الله تعالى ، فانهزموا وقتلهم قتلاً ذريعاً وأمعنت خيل المسلمين في البلاد ، ثم رحل عنهم إلى السُّوس الأقصى ، فأجتمع عليه البربر في عدد لا يحصى فاقتلوا قتالاً شديداً حتى كثر القتلى من الفريقين ، ثم ضرب الله في وجه الكُفَّار ، فهزمهم المسلمون وقتلهم وغنموا أموالهم وسبوا نساءهم ، (وهنَّ في غاية الحسن والأدب) (98) فبلغ (99) ثمن الجارية منهن بالمشرق ألف دينار ، ثم هربوا من بين يديه .

(95) زائدة عن المعالم .

(96) إضافة من المعالم 50/1 .

(97) أي الروم وفي المعالم : «فول الرُّوم» 50/1 .

(98) إضافة من المؤلف عما هو موجود في المعالم .

(99) في المعالم : «بلغنا أن» 51/1 ، وفي الرياض : «بلغت الجارية» 38/1 .

ورحل يريد البحر المحيط ، فانتهى إليه وأقحم فيه فرسه - لا يقف بين يديه أحد ، ولا يرومه بشر - ثم نادى بأعلى صوته وهو يشير بسوطه : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فقال له بعض أصحابه : على من تسلم يا ولي الله ؟ فقال : على قوم يُونس من وراء هذا البحر ، ولولاه لوقفت بكم عليهم ، ثم رفع يديه إلى السماء وقال : اللّهم اشهد أنّي قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في الأرض أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك ، ثم انصرف راجعاً يريد افريقية ، وداخل البربر منه خوف⁽¹⁰⁰⁾ عظيم ، وتفرقوا في الجبال / فلما دنا منها أمر أصحابه أن يتفرقوا ، فتفرقوا أفواجاً أفواجاً إلى افريقية ، فلما انتهى إلى ثغر افريقية وهو طُبْنَة⁽¹⁰¹⁾ ، وبينها وبين القيروان⁽¹⁰²⁾ ثمانية أيام ، أذن لمن بقي معه في الانصراف إلى القيروان (ومال في خيل يسيرة يريد تهودة)⁽¹⁰³⁾ فلما انتهى إليها ، نظر الروم في خيل يسيرة (فقرب لينظر إليها)⁽¹⁰⁴⁾ ويعرف قدر ما يكفيا من الخيل ، فيقطع ذلك إليها ، وجيوشها مُتِيسِرة عن طبنة⁽¹⁰¹⁾ فلما انتهى إليها نظر الروم إلى قلة ما معه من الخيل ، فقالوا : في قتل هذه الخيل قتل أهل الأرض كلهم وظنوا أن ذلك هو عسكره فأغلقوا باب حصنهم دونه ، وأقبلوا يرمونه بالحجارة وهم في ذلك يشتمونه ، وكل ذلك وهو يدعوههم إلى الله وإلى رسوله ، فلما توسط البلاد نزل . وبعث الروم إلى كَسِيلَةَ الأَوْزَبِي ، فأعلموه بقلّة من معه ، فجمع له جمعاً كثيراً من الروم والبربر وتسارعوا إليه ثم زحف إليه ليلاً حتى نزل بالقرب منه وأحاط بعسكر عقبة وأقام كذلك حتى أصبح فلما رأى ذلك عقبة استعد له وأمر أصحابه أن لا يركب منهم أحد ويثس المسلمون من أنفسهم ، وقاتل المشركون قتالاً شديداً حتى بلغ البلاء ، وتكاثرت في المسلمين الجراح ، وتكاثر عليهم العدو ، فاستشهد عقبة - رضي الله عنه - وجميع من معه - رضي الله تعالى عنهم جميعاً - / واستشهد معه أبو المهاجر وكان موثقاً في الحديد⁽¹⁰⁵⁾ .

[104/أ]

[104/ب]

(100) في المعالم : «رعب» 51/1 .

(101) في الأصول : «طنجة» والمثبت من المعالم 51/1 والرياض 39/1 .

(102) في الأصول : «افريقية» والمثبت من المعالم .

(103) في الأصول : «ومال هو متيسر لطنجة» وفي المعالم : «وقال هو متيسر عن طبنة» وقال عنها محقق المعالم : ورد هذا النص مضطرباً في جميع الأصول وصوابه كما في الرياض هامش 3 - 51/1 وما أثبتناه من الرياض .

(104) في الأصول : «فقرب إليها ينظرها» والمثبت من المعالم 51/1 .

(105) معالم الإيمان 52/1 .

فلما (106) استشهد عقبة وأصحابه ، جمع كَسِيلَةَ أهل المغرب ، وزحف بهم يريد القيروان ، فاشتعلت (107) افرقية ناراً ، وعظم البلاء على المسلمين ، ومضى كَسِيلَةَ بالعساكر حتى جاوز (108) القيروان فخرجت العرب منها هاربة ، ولم يكن لهم مجر به من طاقة لعظم ما اجتمع عليه من الروم والبربر ، وأسلموا القيروان وبقي بها أصحاب العيال ، وكل مُثْقَلٌ من التجار وأهل الذمة ، فحار الناس ولم يدروا كيف يفعلون فأرسلوا إلى كَسِيلَةَ يسألونه الأمان فأجابهم إلى ذلك ، ودخل القيروان (109) إلى الموضع الذي كان فيه عقبة فنزله وأقام بها أميراً ، وصارت بَقِيَّةُ المسلمين تحت يده ، ومضى الذين هربوا حتى قدموا على يزيد فوجدوه قد مات ، وذلك في سنة أربع وستين (110) . «قال في «معالم الإيمان» (111) : وقيل إن زهير بن قيس البلوي - خليفة عقبة - ثبت بالقيروان حين (112) زحف إليه كَسِيلَةَ البربري ، وخرج الروم من حُصُونِهِمْ ، ونقضوا العهود ، وزحف كَسِيلَةَ وقاتله زهير قتالاً شديداً ، فانهزم كَسِيلَةَ وقُتِلَ من أصحابه ما لا يُحصى ، ومضت عنه تلك الجموع فهرب الروم وتفرقت جموعهم فأقام زهير يسيراً بالقيروان ، ثم خرج إلى مصر ، وذلك في سنة خمس وستين (113) ، فوجد يزيداً قد مات وعبد الله بن الزبير خليفة / بمكة ومروان بن الحكم أميراً (114) بالشام (115) .

(واعلم أن عقبة بن نافع - رضي الله تعالى عنه -) (116) وُلِدَ على عهد رسول الله ﷺ ولم يرو عنه شيئاً ، وكان رجلاً صالحاً ، مستجاب الدعاء ، وله كرامات ، منها ما رواه عبد الرحمان بن عبد الله بن عبد الحكم (117) ، أن عقبة بن نافع أصابه في بعض مغازيه بالمغرب عطش شديد هو وأصحابه أشرفوا منه على الموت ، فصلى عقبة ودعا الله - عزَّ

[105/أ]

- (106) النقل من 51/1 .
- (108) في الأصول : «وصل» والمثبت من المعالم 55/1 .
- (109) بعدها في ت : «وسار» .
- (110) 683 - 684 م . تصرف المؤلف في النقل عن المعالم بالحذف وتبديل بعض الكلمات .
- (111) في مكانها في المعالم : «وذكر أبو العرب أن» 55/1 وتصرف المؤلف بعد ذلك بالحذف قرابة صفحة .
- (112) في المعالم : «حتى» . (113) 784 - 785 م .
- (114) في الأصول : «خليفة» والمثبت من المعالم 57/1 .
- (115) نقل الفقرة التي انتهت بتصرف حذفاً وتلخيصاً 55/1 - 56 .
- (116) إضافة من المؤلف إذ انتقل بعدها إلى موضع آخر من المعالم حيث يُترجم فيه لعقبة 164/1 .
- (117) ابن عبد الحكم : الفتوح 195 ، ونقله الدباغ عن المالكى : الرياض 98/1 والنص في فتوح مصر 194 - 195 . ومسالك البكري 13 - 14 وهو أوفى من نص ابن الحكم المطبوع .

وجل - فجعل فرسه يبحث بيده في الأرض حتى كشف عن صفاة ، فانفجر منها الماء فجعل الفرس يمص ذلك الماء فانصرف عقبة فنأدى في الناس أن احتفروا ، فاحتفروا سبعين حِشياً⁽¹¹⁸⁾ فشربوا واستقوا وصار ذلك ماء معيناً ، فسمي ذلك الماء «ماء فرس» إلى اليوم . قال⁽¹¹⁹⁾ : وروى أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم قال : حدثنا حبيب بن نصر ، وأحمد بن أبي سليمان ، وعيسى بن مسكين ، قالوا : أخبرنا سَحْنُون بن سَعِيد - رحمه الله تعالى - عن عبد الله بن وهب ، عن اللَّيْث بن سَعْد أَنَّ عُقْبَةَ بن نَافِع الفِهْرِي لما قدم من عند يزيد بن معاوية في جيش لغزو المغرب مرَّ على عبد الله بن عَمْرٍو وهو بمصر فقال عبد الله بن عمرو : يا عقبة ، لعلك من الجيش الذين يدخلون الجنة برحاهم ؟ قال : ففضى⁽¹²⁰⁾ عقبة بجيشه حتى قابل البربر وهم كفار ، فقتلوا جميعاً .

قال أبو العرب : كان هذا في غزوة عقبة الثالثة⁽¹²¹⁾ ، قُتِلَ هو وأصحابه وكان كَسِيلَةً نَصْرَانِيًّا / وقبر عقبة ظاهر بالزَّاب يُتَبَرَك به . وكان دخوله إفريقية ثلاث مرات ، الأولى سنة إحدى وأربعين ، فأقام بها ثلاث سنين ، وقيل سنة ست وأربعين ، وهو الأصح ، وعلى كل حال كان ذلك في دولة معاوية بن أبي سفيان .

والمرّة الثانية سنة خمسين وفيها اختط القيروان ومن جعلتها الجامع الأعظم ودار الإمارة وهي في قبلة الجامع المسمى اليوم بالمَخْزَن ، وترك ما أسسه (معاوية بن خديج بالقرن⁽¹²²⁾) . وغزوته هذه في مدة معاوية أيضاً .

والمرّة الثالثة سنة إحدى وستين وقيل سنة اثنين وستين وكانت غزوته هذه في خلافة يزيد بن معاوية ، وكان - رحمه الله تعالى - حريصاً على الجهاد بلغ في مغازيه إلى سُوس المغرب وإلى بلاد السودان ، وفتح سائر إفريقية وَوَدَّان وعَامَّة بلاد البربر (ولم يختلف أنه كان مجاباً - رضي الله تعالى عنه -)⁽¹²³⁾ .

(118) في الأصول : «سقتين» والمثبت من المعالم 165/1 والرياض 98/1 .

(119) أي الدياغ في معالم الإيمان 165/1 .

(120) في الأصول : «فشى» والمثبت من المعالم 165/1 .

(121) في المعالم : «الثانية» والصحيح الثالثة .

(122) في الأصول : «عقبة بن عامر بالقيروان» والتحريف بين عقبة ومعاوية بعيد ، وورد في بعض مخطوطات معالم الإيمان : «عقبة بن نعيم» و«قير» بالقاف وهو اسم لم يرد في حركة نفتح الإسلامي لإفريقية مطلقاً أنظر تعليقات إبراهيم شيوخ ، محقق معالم الإيمان هامش 2 - 166/1 .

(123) في المعالم : «ولم يختلفوا في أنه كان مستجاباً» نقل المؤلف ما ورد في ترجمة عقبة بن نافع في معالم الإيمان مع تبديل بسيط 164/1 - 167 .

غزوة عقبة بن عامر الجهني :

كان من أكابر الصحابة . قال في «المعالم»⁽¹²⁴⁾ : «يُكنى أبا حمّاد»⁽¹²⁵⁾ ، وقيل أبا الأسود وقيل أبو أسيد⁽¹²⁶⁾ ، وقيل أبو أسد ، (وقيل أبو عمران)⁽¹²⁷⁾ ، وقيل أبو سعاد ، وقيل أبو عمّار ، وقيل أبو عامر .

قال : سكن مصر وكان واليًا عليها وابتنى بها دارًا ، وغزا منها إفريقية قبل عقبة بن نافع . وروى سحنون بن سعيد عن عبد الله بن وهب ، عن الليث بن سعد ، قال : بلغني أن عقبة / بن عامر الجهني لما غزا إفريقية أتى إلى وادي القيروان ، فبات عليه حتى إذا أصبح وقف على رأس الوادي فقال : يا أهل الوادي أظعنوا ، فإننا نازلون ، قال ذلك ثلاث مرات ، فجعلت الحيات والعقارب وغيرها ، مما لا يفر⁽¹²⁸⁾ من الدواب يخرجون وهم قيام ينظرون إليها من حين أصبحوا حتى أوجعهم حرّ الشمس ، (وحتى لم يروا)⁽¹²⁹⁾ منها شيئًا ، فنزلوا الوادي عند ذلك . قال الليث : حدثني زياد بن عجلان أن أهل إفريقية أقاموا [بعد ذلك] أربعين سنة ، ولو التمسّت حية أو عقرب بألف دينار ما وُجدت ، هكذا روى الليث . وقال عبد الله بن كهيععة : إنّما هو عقبة بن نافع عندما أراد أن يخطط القيروان وهو الأشهر من القولين .

وتوفي عقبة بن عامر بالشّام سنة ثمان وخمسين⁽¹³⁰⁾ في خلافة معاوية . وقال : والواقدي توفي بمصر⁽¹³¹⁾ .

غزوة رُوَيْفِع بن ثابت :

هو رُوَيْفِع بن ثابت بن السّكن بن عدي بن حارثة⁽¹³²⁾ بن عمرو بن زيد مناة بن

(124) النقل من 120/1 وما بعدها . (126) في الأصول : «أبا يسيد» والمثبت من المعالم .

(125) في الأصول : «أبا حامد» والمثبت من المعالم . (127) إضافة من المؤلف عما هو موجود بالمعالم .

(128) كذا في الأصول . وفي أصول المعالم ، والطبقات ، وقد أصلحها إبراهيم شيوخ في تحقيقه للمعالم : «يعرفون» 120/1 .

(129) في الأصول : «وما يرون» وفي أصول المعالم : «وما يرونه» والإصلاح من محقق المعالم .

(130) 677 - 678 م .

(131) معالم الإيمان في ترجمة عقبة بن عامر 120/1 - 122 .

(132) في الأصول : «خارجة» والمثبت من المعالم 122/1 .

عَدَى بن عمرو بن مالك بن النَجَّار⁽¹³³⁾ الأنصاري. قال أبو سعيد بن يونس: كانت لرؤَيْفِع بالمغرب وافريقية ولايات وفتوحات، وشهد قبلها فتح مصر واختط بها داراً. وقال أبو عمر بن عبد البر: ولي معاوية بن أبي سفيان رؤَيْفِع بن ثابت على طرابلس سنة ست وأربعين⁽¹³⁴⁾، فغزا منها افريقية سنة سبع وأربعين⁽¹³⁵⁾، ودخلها وانصرف من عامه. قال في «المعالم»: حدثنا أبو القاسم عبد الرحمان بن مكي⁽¹³⁶⁾ قال: أخبرنا أحمد بن محمد⁽¹³⁷⁾ الأصبهاني، قال: أخبرنا محمد بن أحمد⁽¹³⁸⁾ / الرّازي، قال: «أخبرنا مُحَمَّد بن أحمد⁽¹³⁹⁾ السَّعدي، قال: أخبرنا عبيد الله بن محمد العُكْبَرِي⁽¹⁴⁰⁾ قال: أَخْبَرْنَا أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدَ اللَّهِ بن مُحَمَّدَ الْبَغَوِي عن هَارُونَ الْحَرَبِي قال: حدثنا أحمد ابن خالد السَّرْحَسِي، قال: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بن إِسْحَاق عن يَزِيد بن أَبِي حَبِيب، عن أَبِي مَرْزُوق مَوْلَى تُجِيب⁽¹⁴¹⁾، قال: أَخْبَرْنَا حَنْشَ الصَّنْعَانِي، قال: غَزَوْنَا الْمَغْرِبَ وَعَلَيْنَا رُؤَيْفِعُ ابْنُ ثَابِتِ الْأَنْصَارِي، فَافْتَتَحْنَا جَزِيرَةَ⁽¹⁴²⁾ يُقَالُ لَهَا جَرَبَةٌ، فَقَامَ فِينَا رُؤَيْفِعٌ خَطِيبٌ فَقَالَ: «إِنِّي لَا أَقُولُ⁽¹⁴³⁾ فَيْكُمْ إِلَّا بِمَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَامَ فِينَا يَوْمَ خَيْبَرٍ حِينَ افْتَتَحْنَاهَا، فَقَالَ: «لَا يَحِلُّ لِأَمْرِي أَنْ يَأْتِيَنِي الْيَوْمَ الْآخِرُ أَنْ يَسْقِيَ مَاءَهُ زَرْعَ غَيْرِهِ - يَعْنِي آتِيَانِ الْحَبَالَى مِنَ الْفَيْءِ - وَلَا يَحِلُّ لِأَمْرِي أَنْ يَأْتِيَنِي الْيَوْمَ الْآخِرُ أَنْ يَصِيبَ امْرَأَةً مِنَ السِّيِّئَاتِ حَتَّى يَسْتَبْرَهَا⁽¹⁴⁴⁾، وَلَا يَحِلُّ لِأَمْرِي أَنْ يَأْتِيَنِي الْيَوْمَ الْآخِرُ أَنْ يَرْكَبَ دَابَّةً

[106/ب]

-
- (133) في الأصول: «النجاري» والمثبت من المعالم 122/1.
- (134) 666 - 667 م.
- (135) 667 - 668 م.
- (136) هو سبط الحافظ السلفي.
- (137) في ط: «حمد» وفي ت وش: «أحمد» والمثبت من المعالم 123/1 وهو الحافظ السلفي.
- (138) في الأصول: «أحمد بن محمد» والمثبت من المعالم.
- (139) في الأصول: «أحمد بن محمد» والمثبت من المعالم.
- (140) في الأصول وفي أصول المعالم: «البكري» والمثبت من محقق المعالم 123/1 هامش 1.
- (141) في الأصول وفي أصول المعالم: ابن مرزوق موسى التجيبي» والمثبت من محقق المعالم 123/1 هامش 5.
- (142) في الأصول وفي أصول المعالم: «قرية» والمثبت من محقق المعالم هامش 6.
- (143) في الأصول: «لا أقوم» والمثبت من المعالم.
- (144) في الأصول: «من كان منكم... يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يأتيَن شيئا من السيِّئ حتى يستبرئها» والمثبت من محقق المعالم 124/1 هامش 1 عن أسد الغابة.

من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها ردّها فيه⁽¹⁴⁵⁾ [ولا يحل لأمرئ⁽¹⁴⁶⁾] يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوباً من فيء المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه⁽¹⁴⁷⁾.

غزوة زهير بن قيس البلوي :

وتوفي رُوَيْفِع بن ثابت ببرقة وهو وَاَلِ عليها ، وتوفي سنة ثلاث وخمسين⁽¹⁴⁸⁾ وقبره بها معروف⁽¹⁴⁹⁾. ولما بلغ أهل الشام وفاة عقبة بن نافع اجتمع⁽¹⁵⁰⁾ المسلمون إلى مروان ابن الحكم فسألوه أن يبعث الجيوش إلى إفريقية لخلّاص من فيها من المسلمين من يد كَسِيلَة وأن يعز بها الإسلام كما كان في أيام عقبة بن نافع ، فقال لهم : ومن يوجد مثل عقبة ؟ فاتفق رأيهم ورأي المسلمين على زهير بن قيس البلوي (نسبته إلى بَلِي)⁽¹⁵¹⁾ قبيلة من العرب / ، كان - رضي الله تعالى عنه - من رؤساء العابدين - وأشرف المهاجرين ، فوجه إليه عبد الملك يأمره بالخروج على أَعْنَة الخيل فيمن معه من المسلمين لغزو إفريقية حتى يعود إليها الإسلام كما كان.

فلما اتصل ذلك بزهير سرّه وسارع إلى الجهاد ، وكتب إلى عبد الملك يخبره بقلّة من معه من الرّجال وقلة الأموال ، فأرسل عبد الملك رجال العرب وأشرفهم يحشدون عليه الناس من مدائن الشام⁽¹⁵²⁾ وأفرع عليه الأموال ، فسارع الناس إلى الجهاد واجتمع منهم خلق كثير ، فأمرهم أن يلحقوا بزهير ، فلما وصلوا إليه خرج بهم إلى إفريقية ، فلما دنا من القيروان نزل بقرية يقال لها قلشانة⁽¹⁵³⁾ ، وكان ذلك في سنة تسع وستين⁽¹⁵⁴⁾ ،

(145) في الأصول : «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها ردّها فيه» والمثبت من المعالم.

(146) في مكانها في الأصول : «ومن كان» والمثبت من محقق المعالم.

(147) ورد في السيرة النبوية لابن هشام - نشر دار الجليل ، وقدمها وعلق عليها وضبطها طه عبد الرؤوف سعد ج 3 ص 113 - 114 .

(148) 672 - 673 م .

(149) معالم الإيمان - من ترجمة رُوَيْفِع بن ثابت 122/1 - 125 .

(150) النقل من 57/1 مع تغيير بسيط في بعض الكلمات .

(151) تفسير من المؤلف .

(152) في الأصول : «الناس» والمثبت من المعالم 57/1 .

(153) في المعالم : «قرشانة» . (154) 688 - 689 م .

فبلغ ذلك كَسِيلَةَ وكان في خلق عظيم من الرُّوم والبربر ، فدعا كبارهم وشاورهم في أمره ، وقال لهم : إني رأيت أن أرحل إلى مَمَسَّ⁽¹⁵⁵⁾ فَأَنْزِلُ عليها لَأَتِي أَخاف إذا التقينا مع القوم⁽¹⁵⁶⁾ والتحم القتال أن يركبنا من في القيروان من المسلمين فنهلك ، ولكن ننزل بعسكرنا على مَمَسَّ⁽¹⁵⁵⁾ لأن ماءها كثير ، فهو يحمل عسكرنا ، فإن هزمناهم رَحَلْنَا⁽¹⁵⁷⁾ معهم لطرابلس وقطعنا آثارهم من الدنيا وتكون إفريقية لنا وفي ملكنا إلى آخر الدهر ، وإن هزمونا كان الجبل منا قريباً فَتَحَصَّنَا به ، فأجابوه إلى ذلك فرحل إلى مَمَسَّ فقتل بها .

فبلغ ذلك زهيراً وكان ينتظر أن يخرج إليه من القيروان ، فلما نزل كَسِيلَةَ مَمَسَّ رحل زهير بعسكره فنزل القيروان وأقام بها ثلاثة أيام / حتى استراح وأراح أصحابه خيلهم ، ونظر إلى ما يعمل كَسِيلَةَ فإذا به يريد⁽¹⁵⁸⁾ قتاله ، فَزَحَفَ إليه زهير يوم الأربعاء صَبَاحاً ، فسار نهاره أجمع حتى أشرف على عسكر كَسِيلَةَ في آخر النهار ، فأمر الناس بالتزول فنزلوا ، وبات الناس على مصافهم ، فلما أصبح زهير صَلَّى الصُّبح غَلَسَا ثم زحف إليه بمن معه ، فالتقى الفريقان فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثر البلاء في الفريقين جميعاً ، فغضب الله في وجه⁽¹⁵⁹⁾ كَسِيلَةَ فانهزم هو وأصحابه وقُتِلوا قتالاً ذريعاً ، وأُخِنَ العرب فيهم القتل ، وَقُتِلَ كَسِيلَةَ بِمَمَسَّ وَلَمْ يتجاوزها ، وتمادت العرب في طلب أصحابه حتى سقوا خيلهم من مَلَوِيَّة «وَاد بطنية»⁽¹⁶⁰⁾ وأفنوا رجال الروم ، وفتح شَقْبَنَارِيَّة⁽¹⁶¹⁾ وقلاعاً [أخرى]⁽¹⁶²⁾ ثم رحل إلى القيروان وقد فرغ منه جميع⁽¹⁶³⁾ الرُّوم والبربر .

ثم إن زهيراً رأى من إفريقية رَفَاهِيَةَ العيش وملكا عظيماً فأبى من المقام . وقال : إنما قدمت إلى الجهاد ولم أقدم لحب الدنيا ، - وكان - رضي الله تعالى عنه - من رؤساء

(155) في الأصول : «معسكر» والمثبت من المعالم 57/1 .

(156) في الأصول : «المسلمين» والمثبت من المعالم 58/1 .

(157) في المعالم : «دَحَلْنَا» .

(158) في الأصول : «أراد» والمثبت من المعالم 58/1 .

(159) في الأصول : «وجوه» والمثبت من المعالم 58/1 .

(160) في المعالم : «طنجة» وهو مستبعد .

(161) ويقال شَقْبَنَارِيَّة وهو تعريب لاسمها الروماني «Sicca Venéria» .

(162) الرياض 47/1 .

(163) في الأصول : «فرغ جمع» والمثبت من المعالم 58/1 والرياض 47/1 .

العابدين - فراوده أصحابه على المقام بإفريقية فأبى ورجع إلى المشرق ونزل ببرقة ، وكانت له بها وقائع كثيرة مع المشركين .

وكانت الروم لما بلغهم أن زهيراً خرج غازياً إلى إفريقية لقتال الروم والبربر وأيقنوا أنه خرج من برقة أمكنهم ما يريدون ، فخرجوا إليها في مراكب كثيرة ، وقوة عظيمة ، فأغاروا على برقة / وأصابوا منها سبياً كثيراً وأفسدوا وذهبوا فوافق ذلك قدوم زهير من [108/أ] إفريقية إلى برقة فأخبروه بالذي حلّ بهم من الروم ، فأمر عسكره أن يمضي على الطريق ، وعدل هو إلى الساحل في خيل يسيرة من فرسان أصحابه وأنجادهم ، وطمع أن يدرك شيئاً من سبي المسلمين ، فلما انتهى إلى الساحل أشرف على الروم فإذا هم في خلق كثير ، ولم يقدر أن يرجع ، واستغاث ذراري المسلمين وصاحوا والروم يدخلونهم في المراكب ، وعسكر الروم بوفرة في البر ، فنادى زهير بأصحابه وقال : أنزلوا رحمكم الله ، فنزل المسلمون وبرز الروم لقتالهم ، فالتقى الفريقان فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى عانق بعضهم بعضاً ، وتكاثر عليهم الروم فاستشهد زهيرٌ وكلٌ من معه من المسلمين - رضي الله تعالى عنهم أجمعين - ولم يفلت منهم إلا رجل واحد ، فأدخل الروم خيلهم وسلاحهم والسبي الذي كان معهم في المراكب ، فلما وصل الخبر إلى عبد الملك بن مروان اشتد عليه وعلى المسلمين ذلك ، وكانت المصيبة بزهير وأصحابه - رضي الله تعالى عنهم - [مثل المصيبة بعقبة بن نافع وأصحابه - رضي الله عنهم أجمعين] - (164) .

ولاية حسان بن النعمان وغزواته :

فسأل (165) عبد الملك أشراف المسلمين أن ينظروا إلى أهل إفريقية من يؤمنهم من عدوهم ويبعث الجيوش إليهم ، فقال عبد الملك : « ما أعلم أحداً أكفأ بإفريقية من حسان بن النعمان الغساني » فبعثه عبد الملك أميراً على إفريقية في سنة تسع وستين (166) / في جيش فيه نحو من ستة آلاف وهو أول من دخل إفريقية من أهل الشام في زمن بني أمية فخرج حسان بجيوشه حتى وصل إفريقية فسأل أهل إفريقية عن أعظم ملك بإفريقية فقالوا : « صاحب قرطاجنة » ، فرحل إليه حسان ، وفي قرطاجنة من الروم ما لا يعلمه إلا

(164) إضافة من المعالم 59/1 .

(165) في الأصول : « قال » والمثبت من المعالم . (166) 688 - 689 م .

الله ، وهي على شاطئ البحر ، (قرب مدينة تسمى ترشيش)⁽¹⁶⁷⁾ ، وهي من مدينة القيروان على مائة ميل وميل ، فشى حسان حتى نزل على مدينتهم ترشيش ، ووجه خيله إلى قرطاجنة ولم يكن فيها بحر ، فضيق عليهم حسان ، وتواقف القوم فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل رجالهم وفرسانهم .

واجتمع رأي الروم على أن يهربوا في البحر في سفن كثيرة ، فحملوا فيها ، فنهزم من هرب إلى صقلية ومنهم من هرب إلى الأندلس ، فدخلها حسان بالسيف فسيهاها وغنم ما فيها وقتل الرجال وأرسل إلى ما حولها من العمران فاجتمعوا إليه مسرعين خوفاً منه ، فأمرهم بهدم قرطاجنة وقطع القناة عنها ، ثم اجتمع عليه الروم وعقدوا عليه عسكراً عظيماً لا يعلمه إلا الله ، ومعهم البربر وذلك بموضع يسمى سطفورة⁽¹⁶⁸⁾ ، فرحف إليهم حسان وقتلهم قتالاً شديداً ، وأصيب من أصحابه رجال كثيرون - رضي الله تعالى عنهم - .

ثم ضرب الله في وجوه الروم والبربر ، فانهزموا بعد بلاء عظيم ، فقتلهم حسان / قتلاً ذريعاً ، واستأصلهم وحمل بأعنة الخيل عليهم فما ترك في بلادهم موضعاً إلا وطأه بخيله ، ولجأ بقية الروم خائفين هاربين إلى مدينة باجة ، فتحصنوا فيها ، وهرب البربر⁽¹⁶⁹⁾ إلى إقليم بونة ، واخترق حسان البحر فاحتفره وجعل دار (صناعة لإنشاء المراكب)⁽¹⁷⁰⁾ وأخرج البحر إليها - حسبما مر - ثم انصرف إلى مدينة القيروان فأقام بها حتى برئت جراح أصحابه .

ثم سأل حسان عن أعظم ملك بإفريقية ، ف قيل له ليس بإفريقية أعظم قدراً ولا أبعد صيتاً ولا أشد حرباً من امرأة يقال لها الكاهنة (وهي كاهنة لوانة)⁽¹⁷¹⁾ وهي في جبل أوراس⁽¹⁷²⁾ ، وجميع من بإفريقية يخافها والروم سامعون لها مطيعون ، فإن قتلها يثس الروم والبربر من إفريقية فإنها لهم ملجأ . فلما سمع ذلك حسان عزم على غزوها ، فخرج إليها بجيوشه ، فلما بلغ موضعاً يقال له مجانة نزل به وكانت قلعة بجانة لم

[109/أ]

(167) تفسير من المؤلف إذ أن معالم الإيمان تفهم القارئ أن ترشيش هي قرطاجنة إذ أن «ترشيش» هو اسم مدينة تونس القديم .

(168) هي في بعض ولاية بنزرت .

(169) في الأصول : «الروم» والمثبت من المعالم 61/1 .

(170) في المعالم : «دار الصناعة» .

(171) تفسير من المؤلف .

(172) في الأصول : «أوراسن» والمثبت من المعالم 61/1 .

تفتح - فتحصن بها الروم ، ففضى وتركهم ، وبلغ الكاهنة أمره فزحفت من جبل أوراس في عدة لا يعلمها إلا الله تعالى ، فترلت بمدينة باغاي⁽¹⁷³⁾ فأخرجت من بها وهدمتها لظنها أن حسناً يريد حصناً يتحصن به ، ثم أقبل حسّان حين بلغه الخبر إلى واد يقال له مسكيانة⁽¹⁷⁴⁾ فقيل له أنها أقبلت في عدد لا يُحصى ، فقال لهم : دلّوني على ما يسع العسكر الذي أنا فيه ، قالوا به إلى نهر فترل عليه / وزحفت إليه الكاهنة حتى أتت إلى أسفل النهر فترلت عليه ، فكان شربه هو وأصحابه من أعلى النهر وتشرب هي من أسفله ، فلما دنا بعضهم من بعض تواقفت الخيل ، وأبى حسان أن يقاتلها بالليل ، فوقف كل فريق على مصافه ، فلما أصبحوا زحف بعضهم إلى بعض واقتتلوا قتالاً شديداً فعظم البلاء بينهم وظن المسلمون أنه الفناء ، وانهمز حسّان بعد بلاء عظيم ، وقُتل من العرب خلق كثير ، فسمي ذلك النهر «نهر البلاء» ، فأتبعت الكاهنة بمن معها حتى خرج من حد قابس ، فأسلم افريقية ومضى على وجهه ، وأسرت من أصحابه ثمانية رجال ، وقيل إنها أسرت ثمانين رجلاً ، منهم (خالد بن يزيد)⁽¹⁷⁵⁾ العبسي وكان رجلاً مذكوراً .

فلما فصل من قابس كتب إلى أمير المؤمنين يخبره بما نزل بالمسلمين من البلاء وبخبر الكاهنة ، وطفق يرفق في سيره طمعاً فيمن نجا من أصحابه أن يلحقوا به . ثم إن أمير المؤمنين عبد الملك كتب إليه : إنه بلغني أمرك وما لقيت ولقي المسلمون ، فحيثما لقيك كتابي هذا فأقم ولا تبرح حتى يأتبك أمرى ، فلقية كتابه وهو نازل بالموضع الذي يقال له اليوم قُصور⁽¹⁷⁶⁾ حسّان من بربرة ، فابتنى هناك قصرًا لنفسه وأقام بذلك الموضع هو ومن معه ثلاث سنين . وملك الكاهنة افريقية كلها .

[110/أ] وكانت الكاهنة حين أسرت / أصحاب حسان أساءت أسرهم إلا رجلاً واحداً وهو (خالد بن يزيد)⁽¹⁷⁵⁾ العبسي فإنها تبنته ثم عمدت إلى دقيق شعير مقلّى⁽¹⁷⁷⁾ ، فأمرت به

(173) في الأصول : « غائر » والمثبت من المعالم 61/1 .

(174) في الأصول ، وفي بعض أصول المعالم : « ميكناسة » والمثبت من محقق المعالم اعتماداً على البكري ، أنظر هامش 1 - 62/1 ، والرياض 501/1 هامش 178 .

(175) في الأصول : « يزيد بن خالد » والمثبت من المعالم 62/1 . ووقع الإضطراب في اسمه عند المؤرخين فهو يزيد أو خالد أنظر تحقيق اسمه من طرف البشير البكوش ، الرياض ، هامش 185 ، 51/1 .

(176) في الأصول : « قصر » والمثبت من المعالم 63/1 .

(177) وهذه الأكلة معروفة إلى الآن وتُسمّى في بعض الجهات « بسيسة » وتسمى في غيرها مثلاً صفاقس « زميط » أو « زميطه » .

قُلْتُ أيزيت والبربر تسمي ذلك بسياسة ، ثم دعت (خالد بن يزيد)⁽¹⁷⁵⁾ وابنيها فأمرتهم ، فأكل ثلاثتهم ، وقالت لهم : أنتم الآن قد صرتم اخوة ، وذلك عند البربر⁽¹⁷⁸⁾ من أعظم العهود في جاهليتهم إذا فعلوه .

ثم أن حَسَّانًا بعث لخالد رسولاً وهو عند الكاهنة فقال : إن حَسَّانًا أرسلني إليك وهو يقول لك : ما منعك من الكتب إلينا بخبر الكاهنة ؟ فكتب خالد كتاباً إلى حسان مع رسوله في خُبْزَةٍ إمْلَأَةٍ قد أنفضجها ثم دفعها إلى الرسول ليخفي الكتاب وليظن من رأى الخبزة أنه زاد للرجل ، فلم يغب شخص الرسول عنهم حتى خرجت الكاهنة ناشرة شعرها وهي تقول : يا معشر بني ، ذهب ملككم وَدَنَا هلاككم فيما يأكل الناس ، فكرَّرته ثلاث مرات .

ومضى الرسول حتى قدم على حَسَّان بالكتاب وفيه كل ما يحتاج إليه من خبر الكاهنة ، يقول له فيه ، إن البربر يعقدون عساكرهم بالنهار ويفترقون بالليل ، وليس لهم حزم في الرأي ، وإنما ابتلينا بأمر أَرَادَهُ اللهُ ، وأكرم به من أراد منا بدرجة الشهادة ، فإذا نظرت في كتابي هذا فاطو⁽¹⁷⁹⁾ المراحل وجدَّ السير فإن الأمر إليك ، ولست أسلمك إن شاء الله تعالى ، ولا حول ولا قوة / إلَّا بالله العلي العظيم .

[ب/110]

ثم إن خالدًا كتب بعد ذلك إلى حَسَّان بخبر الكاهنة ، ثم عمد إلى قربوس⁽¹⁸⁰⁾ فنقره ثم وضع فيه الكتاب وأطبق عليه القُربوس وأخفى مكان النقر منه ثم حمل رسولاً على دَابَّةٍ بالكتاب إلى حَسَّان فلما فصل الرسول بالكتاب خرجت الكاهنة ناشرة شعرها وهي تقول : يا بني قد دنا هلاككم في شيء من نبات الأرض ، وهو بين خشبتين ، وكانت أعلم أهل زمانها بالكهانة ، ومضى الرسول حتى قدم على حسان ، فلما بلغ الكاهنة أن حَسَّانًا مقيم بقصره لا يبرح ، قالت للروم والبربر : إنما طلب حسان من افريقية المدائن والذهب والفيضة والشجر ، ونحن نريد المراعي والمزارع ، فما نرى لكم إلَّا خراب افريقية ، فوجهت البربر يقطعون الشجر ويهدِّمُون الحصون التي بها ، وكانت افريقية ظلاً واحداً من طَرَابُلس إلى طَنْجَة⁽¹⁸¹⁾ [قرى متصلة]⁽¹⁸²⁾ وقد استأصلت ذلك

(178) في الأصول وأصول المعالم : « العرب » والمثبت من محقق المعالم أنظر هامش 2 - 63/1 . وهو المنطقي .

(179) في الأصول : « وأطل » والمثبت من المعالم 64/1 .

(180) كتبها المؤلف « قربوس » كما تنطق باللغة العامية وهو حنو السرج .

(181) في الأصول : « طبنة » والمثبت من المعالم 64/1 .

(182) إضافة من المعالم .

كله وأخبرته الكاهنة ، فخرج من النصارى ثلاثمائة رجل يستغيثون بحسّان مما نزل بهم من الكاهنة (من خراب الحصون وقطع الشجر وكان قد وجه إليه عبد الملك رسولا يأمره بالهوض إلى افريقية قبل أن تجربها الكاهنة)⁽¹⁸³⁾ ، فوافق ذلك وصول الروم إليه وقدم رسول خالد بن يزيد ، فرجع بجميع عسكره إلى افريقية ، فيقال إنه لما رحل من قصوره بجميع عسكره خرجت الكاهنة ناشرة / شعرها ، فقالت يا بني : انظروا ماذا ترون في السماء ؟ قالوا : نرى شيئا من سحب أحمر ، فقالت لهم : لا والاهي ، إنما هورج⁽¹⁸⁴⁾ خيل العرب أقبلت إليكم ، ثم قالت لخالد بن يزيد : إنما تبنيك لمثل هذا اليوم ، أما أنا فمقتولة ، ولكن أوصيك بأخويك هذين خيرا - تريد ولديها - فانطلق بهما⁽¹⁸⁵⁾ إلى العرب فخذ لهما أمانا .

فلما وصل حسان قابسا لقيته الكاهنة في جيوش عظيمة ، فقالتهم حسان فهزمهم الله ، وهربت الكاهنة منهزمة تريد قلعة بشر⁽¹⁸⁶⁾ لتحصن بها ، فأصبحت القلعة لاصقة بالأرض فذهبت تريد جبال أوراس ومعهما صنم عظيم من خشب كانت تعبده ، يُحمَل بين يديها على جمل ، فتبعها حسّان حتى قرب من موضعها فلما كان الليل قالت الكاهنة لابنها : إني مقتولة وأرى رأسي تركض به الدواب يُمنّصى به إلى المشرق من حيث تطلع الشمس وأراه موضوعا بين يدي ملك العرب الأعظم الذي بعث إلينا بهذا الرجل . فقال لها خالد بن يزيد وولداها : فإذا كان الأمر هكذا عندك فارحلي وخلي له البلاد ، فقالت : وكيف أفر وأنا ملكة ، والملوك لا تفر من الموت ، فأقلد قومي عارا إلى آخر الدهر ؟ فقالوا لها : ألا تخافين على قومك الموت ؟ فقالت : إذا أنا مت فلا أبقي الله أحدا منهم في الدنيا . فقال لها خالد بن يزيد وولداها : فما نحن صانعون ؟ فقالت : / أما أنت يا خالد بن يزيد ، فستنال ملكا عظيما [عند الملك الأعظم ، وأما أولادي فسيذكرون ملكا بإفريقية]⁽¹⁸⁷⁾ مع الملك الذي يقُتلي ، ثم قالت لهم : اركبوا واستأمنوا إليه . فركب خالد بن يزيد وولداها بالليل متوجهين إلى حسّان .

(183) ما بين القوسين ساقط من ت .

(184) في الأصول : «وهج» والمبت من المعالم ، والرهج هو الغبار .

(185) في الأصول : «بها» .

(186) كذا بالأصول والمعالم ، وجاء في المسالك للبكري : «قلعة بشر بن أرطاة» ص 145 والأصح «بسر» نسبة

لفانحها بسر بن أرطاة العامري كما جاء في كتب التراجم والطبقات .

(187) إضافة من رياض النفوس يقتضيا ضبط المعنى 55/1 .

فلما أصبح حَسَّان زحف إلى الكاهنة وأقبلت زاحفة إليه ، فلقيت أعنة الخيل خالداً وولديها فسلموا عليهم ومضوا بهم إلى حَسَّان فدخل خالد بن يزيد على حَسَّان وأخبره بما قالت الكاهنة وأنها وجهت إليه بولديها فأمر بهما حسان فأدخلهما عسكره ووَكَّلَ بهما قوماً ، وقَدَّم خالد بن يزيد على أعنة الخيل ، فالتقى القوم ووضعوا السلاح ووقع الصبر حتى ظن المسلمون أنه الفناء ، فانزمت الكاهنة وقتلت عند بئر سماء الناس بئر الكاهنة ، فنزل حَسَّان على الموضع الذي قتلت فيه . وقيل إنها قتلت عند طَبْرَقَة فعجب الناس من خلقتها ، فكانت الأنرجة تجري فيما بين عجيزتها (188) وأكتافها .

ثم إن الروم تَحَزَّبوا على قتال حَسَّان ، واجتمعوا فزحفوا إليه وقاتلوه فهزمهم الله تعالى ، فخافه البربر ، واستأمنوا إليه ، فلم يقبل أمانهم حتى يعطوه من جميع قبائلهم اثنا عشر ألف فارس تكون مع العرب برسم الجهاد ، فأجابوه إلى ذلك وأسلموا على يديه ، فعقد لولدي الكاهنة بعد اسلامهما لكل واحد منهما ستة آلاف فارس من البربر [وجعله] (189) واليًّا عليهم / وأخرجهم مع العرب [يفتتحون افريقية] (190) ، فن ذلك صارت الخِطَطُ بافريقية للبربر ، فكان يُقَسِّمُ اليء والأراضي بينهم فَحَسَّنَتْ طاعتهم له ، ودانت له افريقية ودَوْن الدَّوَاوين .

[أ/112]

ثم قدم القيروان فأمر بتجديد بناء الجامع الأعظم (191) فبناه بناء حسناً وجدده ، وذلك في شهر رمضان المعظم سنة أربع وثمانين من الهجرة (192) . قال في «معالم الإيمان» : «ثم رحل يريد قرطاجنة فانتهى إلى طُنْبُدَة (193) فَوَجَّهَ أبا صالح مولاة إلى قلعة زَعُوَان (194) فنزل بموضع يسمى (فَحْصُ أَبِي صَالِح) (195) فأقام به شهراً ، فقاتل أهلها ثلاثة أيام ، فلم يقدر عليهم ، فَخَلَّى حَسَّان عسكره بِطُنْبُدَة ، ثم رحل إلى زغوان في خيل

(188) في الأصول : «فخذيها» وفي المعالم عجزتها وهو تصحيف والمثبت من الرياض 56/1 وفي تاج العروس «العجيزة» هي العجز وتقال للمرأة 49/4 .

(189) إضافة من المعالم 67/1 . (191) في المعالم والرياض : «المسجد الجامع» .

(190) إضافة من المعالم 67/1 . (192) سبتمبر 703 م .

(193) في الأصول : «طنبة» وفي أصول المعالم : «طنجة» وفي أصول الرياض : «طنبة» ، والاثبات من محقق المعالم استناداً إلى المسالك ، أنظر هامش 3 - 67/1 . ومن محقق الرياض ، هامش 233 - 56/1 . وعن طنبة أنظر معجم البلدان ، والروض المعطار ص 387 ، وصلة السمط 143/4 .

(194) في الأصول وفي أصول المعالم : «زعفران» والمثبت من الرياض 57/1 .

(195) في الأصول : «يسمى بفحص أبي صالح» وفي المعالم : «بموضع فحص أبي صالح» وفي الرياض : «فسي فحص أبي صالح» 57/1 .

بجردة فافتتحها صلحاً وانصرف إلى طنبذة. ثم سار إلى قرطاجنة فترز بموضع دار الصنعة ، فخرج إلى حسان أهل قرطاجنة بأجمعهم ، فحاربوه حرباً شديدة ، فهزمهم الله - عز وجل - بين يديه ، فلما رأى الروم (شدة قهره لهم) (196) وعلموا أنهم لا طاقة لهم به سألوه الصلح وأن يضع لهم الخراج ، فأجابهم حسان إلى ذلك ، ووافقهم عليه ، فأدخلوا عند ذلك ثقلهم في مراكب كانت معدة عندهم في البحر ، وهربوا ليلاً بأجمعهم من باب يقال له باب النساء ، وحسان لا علم عنده بما فعلوه من هربهم ، وتركوا مدينتهم خاليه لا أحد فيها ، ونزلوا بجزيرة صقلية ، ومضى بعضهم إلى بلاد الأندلس ، فدخل عند ذلك حسان إلى المدينة / وبنى بها مسجداً وأخرب بناءها (197). وذكر التجاني في «رحلته» أن مرنّاق كان صاحب قرطاجنة فلما دخل المسلمون لأرض افريقية وكان ملكه للبلاد المسماة بمرناق بخديعة تمتّ على حسان بن النعمان وذلك أن مرنّاق الملك المذكور نهض له حسان - رضي الله تعالى عنه - بعد فتح تونس يريد قتاله ، فكان يغدو كل يوم له ثم يروح إلى تونس ، وكانوا إذا غدّوا للقتال ، قابلتهم الشمس فأذتهم في أعينهم ، فكتبوا بذلك إلى أمير المؤمنين فأمرهم بقتالهم بعد الزوال ، فضاقت الروم بها ، وكانت لهم سفن بباب النساء فحملوا فيها نساءهم وأولادهم ليلاً ، وأسلموا المدينة ، ولم يبق بها إلا الملك المسمي بمرناق وأهله وولده ، فكتب إلى حسان هل لك أن تعاهدني في أهل لي وولدي ، وأشترط لنفسي ما شئت من المنازل ، وأسلم لك المدينة ولا علم عند المسلمين بفرار من فر منها؟ فأجابهم حسان إلى ذلك ، فاشترط الأرض المسماة بمرناق وهي إذ ذاك قرى كثيرة (198) ، ثم أمكنهم من المدينة فلم يجدوا فيها غيره وغير ولده وأهله ، فوقى له حسان بما أعطاه من العهد ، وأقام مرنّاق مالكاً لهذه الأرض» اهـ (199).

ثم «إن حسان بن النعمان رحل عن قرطاجنة راجعاً إلى مدينة القيروان ، فأقام بها وعمرّها المسلمون وبنوا بها المساكن وانتشروا فيها وكثروا وأمنوا من أعدائهم / وقطعوا شوكتهم .

(196) في المعالم : «شدته وقهره لهم» 68/1 وكذلك في الرياض 57/1.

(197) معالم الإيمان بتصرف 66/1 - 69.

(198) في الرحلة : «فاشترط هذه الأرض المسماة به الآن وهي إذ ذاك قرى كثيرة» ص 11.

(199) الرحلة ص 10 - 11.

وولي حسان على صدقات الناس والسعي عليهم حَنَّشَ بن عبد الله الصنعاني [التابعي] ⁽²⁰⁰⁾ سُمِّيَ ⁽²⁰¹⁾ صنعانياً لأنه ولد بصنعاء كان من أهل الفضل والدين .

يروى عن علي أبي طالب - رضي الله تعالى عنه وكرَّم وجهه - وكذا يروى عن عبد الله بن عمر وابن عباس وعبد الله بن عمرو ، ورُوِّقَ بن ثابت الأنصاري - رضي الله تعالى عنهم - وروى عنه خلق شهد غزوة الأندلس مع موسى بن نصير ، وله بافريقية آثار محمودة ومقامات ، وهو الذي فتح جزيرة بني شريك ⁽²⁰²⁾ (التي مبدؤها مرقا إلى الحمامات) ⁽²⁰³⁾ ، ثم سَكَنَ الْقَيْرَوَانَ ، وكانت وفاته بافريقية سنة مائة ⁽²⁰⁴⁾ وإنما سميت بجزيرة بني شريك ، لأن شريك العبسي كان أحد العاملين عليها ، وهو والد قره بن شريك والي مصر من قبل الوليد بن عبد الملك ⁽²⁰⁵⁾ .

ولما تَمَهَّدت ⁽²⁰⁶⁾ (بلاد افريقية وأمن أهلها رحل حَسَّان بن النعمان عنها بما معه من الغنائم) ⁽²⁰⁷⁾ والأموال والناس قاصداً إلى عبد الملك بن مروان ، ومعه خمسة وثلاثون ألف فارس من سَيِّ البربر ، وكان معه من الذهب ثمانون ألف دينار جعلها في قرب الماء حياطة عليها .

واستقامت افريقية كلها وأمن أهلها وقطع الله منها (ثائرة الكفر) ⁽²⁰⁸⁾ من المغرب غير الأندلس في ذلك الوقت .

فتح الأندلس :

والآن نذكر فتح الأندلس على يد طارق مولى موسى بن نصير اللخمي بالولاء . كان موسى ⁽²⁰⁹⁾ بن نصير من التابعين - رضي الله تعالى عنهم - .

- (200) إضافة من المعالم 69/1 . (201) ينقل من المعالم بتصرف 187/1 .
- (202) كذا في الأصول وفي معالم الإيمان 188/1 ، في رحلة التجاني وفي المغرب للبكري : « جزيرة شريك » وفي طبقات أبي العرب : « جزيرة أبي شريك » ، وهي ما يعرف اليوم في البلاد التونسية بالوطن القبلي وهو شبه جزيرة .
- (203) تفسير من المؤلف إضافة عن الرحلة . (204) ما يتعلق بجزيرة شريك أنظر رحلة التجاني ص 11 .
- (205) يرجع إلى النقل من المعالم 69/1 بتصرف . (206) م 718 .
- (207) ما بين القوسين ساقط من ش .
- (208) في ش : « ثائرة الكافرين » ، وفي المعالم 69/1 والرياض 57/1 : « مدء أهل الكفر » .
- (209) النقل بتصرف يسير من ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت مطبعة الغرب ، 318/5 وما بعدها .

وروى عن تميم الدَّارِي : وكان عاقلاً كريماً شجاعاً ورعاً تقيّاً لله تعالى لم يهزم له جيش قط / وكان والده نُصَيْر على حَرَس معاوية بن أبي سفيان ، ومنزلته عنده مكيّنة ، [113/ب] ولا خرج معاوية لقتال علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - لم يخرج معه ، فقال له [معاوية] : ما منعك من الخروج معي ولي عندك يد لم تكافئني عليها ؟ فقال : لم يمكني أن أشكرك بكفر من هو أولى بشكري ، فقال : ومن هو ؟ قال : الله عز وجل (210) فأطرق معاوية مليّاً ، ثم قال : استغفر ورضي عنه .

وكان عبد العزيز بن مروان ، والياً على مصر وأفريقية ، فبعث ابن أخيه الوليد بن عبد الملك أيام خلافته يقول : أرسل موسى بن نُصَيْر إلى أفريقية وذلك في سنة تسع وثمانين للهجرة (211) .

وقال الحافظ أبو عبد الله الحميدي (212) في كتاب «جدوة المقتبس» (212) : إن موسى بن نصير تولى أفريقية والمغرب سنة سبع وتسعين (213) ، فأرسله إليها ، فلما قدمها ومعه جماعة من الجند ، بلغه أن بأطراف البلاد جماعة خارجين عن الطاعة ، فوجّه إليهم ولده عبد الله ، فأتاه بمائة ألف رأس من السبّايا ، ثم وجّه ولده مروان إلى جهة أخرى فأتاه بمائة ألف رأس .

قال الليث بن سعد : بلغ الخمس ستين ألف رأس .

وقال أبو شبيب (214) الصدفي : لم يسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير . ووجد أكثر مدن أفريقية خالية لاختلاف أيدي الربرر عليها ، وكانت / البلاد في قحط شديد فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين ، وخرج بهم إلى الصَّحراء ومعه سائر الحيوانات ، ففرّق بينها وبين أولادها ، ووقع البكاء والضجيج ، وأقام على ذلك إلى

(210) أسقط المؤلف شيئاً من الحوار : «تال : وكيف ؟ لا أم لك قال : وكيف لا أعلمك هذا ، فأعص وأمص» الوفيات 319/1 .

(211) 707 - 708 م .

(212) الحميدي الأزدي (1029 - 1095 م) ولد في ميورقة وتوفي في بغداد ، فقيه محدث ومؤرخ وأديب درس في الأندلس والقروان وزار بلاد المشرق لم يبق من مؤلفاته إلا «جدوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس» «وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر» والمؤلف ينقل عن الوفيات 319/5 لا عن الحميدي .

(213) 715 - 716 م . وفي الوفيات : «سبع وسبعين» ومن الصعب ضبط بداية ولاية موسى بن نصير بإفريقية لاختلاف المصادر على اتساع مدة عشر سنين وسنة 704/85 هي في ذلك أكثر اعتماداً .

(214) كذا في ت وط والوفيات ، في ش : «شيب» وفي بعض نسخ من الوفيات : «شيث» أنظر هامش المحقق

منتصف النهار ، ثم صلى وخطب بالناس فلم يذكر الوليد بن عبد الملك ، فقليل له : ألا تدعوا لأمير المؤمنين؟ فقال : هذا مقام لا يُذكر فيه إلا الله عز وجل . فسُقوا حتى رَووا . ثم خرج موسى غازيًا وتبع البربر ، وقتل منهم قتلاً ذريعاً وسبى سبيّاً عظيماً وسار حتى وصل إلى السوس الأدنى لا يدافعه أحد فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا وبذلوا له الطاعة فقبل منهم ، وولى عليهم والياً ، واستعمل على طنجة وأعمالها موله (طارق بن عبد الله البربري ، ويقال ابن زياد ، قيل أنه من الصّديف) ⁽²¹⁵⁾ فترك عنده تسعة عشرة ألف فارس من البربر بالأسلحة والعدّة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسّن إسلامهم ، وترك موسى خَلْقاً يسيراً من العرب لتعليم البربر القرآن وفرائض الاسلام ، ورجع إلى افريقية ولم يبق في البلاد من ينازعه من البربر ولا من الرّوم .

فلما استقرّت له القواعد كتب إلى طارق وهو بطنجة يأمره بغزو بلاد الأندلس في جيش من البربر ليس فيه من العرب إلا قدر يسير ، فامثل طارق أمره وركب البحر من سبتة إلى الجزيرة الخضراء من بلاد / الأندلس ، وصعد إلى جبل يعرف بجبل طارق نسب إليه ، وكان صعبه إليه يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين وتسعين ⁽²¹⁶⁾ من الهجرة ، في اثني عشر ألف فارس خلا اثني عشر رجلاً .

وذكر عن طارق أنه كان نائماً في المركب وقت التّعدية ، وأنه رأى رسول الله ﷺ والخلفاء الأربعة - رضي الله تعالى عنهم - يمشون على الماء حتى مرّوا به ، فبشّره رسول الله ﷺ بالفتح وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد ، ذكر ذلك ابن بشكوال ⁽²¹⁷⁾ في «تاريخ الأندلس» .

وكان صاحب طليطلة ومعظم بلاد الأندلس ملك يقال له لذريق ، ولما حلّ طارق بالجبل المذكور كتب إلى موسى بن نصير يقول له : إني فعلت ما أمرتني به ، وسهّل الله - سبحانه - في الدّخول ، فلما وصل الكتاب إلى موسى دم على تأخّره وعلم أنه إن فتح الله تعالى على طارق نسب الفتح إليه دونه ، فأخذ في جمع العساكر وولّى على القيروان ولده عبد الله ، وتبعه فلم يدرکه إلا بعد الفتح ، وكان لذريق المذكور قد قصد عدواً له ،

(215) في الوفيات : « طارق بن زياد البربري ، ويقال إنه من الصّديف » 320/5 .

(216) 28 أفريل 711 م .

(217) هو أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بشكوال (494 - 578/1101 - 1182 م) كان من علماء

الأندلس ، له كتاب «الصلّة» وله تاريخ صغير في أحوال الأندلس وتصانيف أخرى ، أنظر ترجمته في الوفيات 240/2 - 241 .

واستخلف في المملكة شخصاً يقال له تُدمير إلى هذا الشخص تنسب بلاد تُدمير بالأندلس⁽²¹⁸⁾ ، فلما نزل طارق من الجبل بالجيش الذي معه ، كتب تُدمير إلى لذريق الملك أنه وقع بأرضنا قوم لا ندري من السماء هم أم من الأرض ، فلما بلغ / ذلك [أ/115] لذريق رجع من قصده في سبعين ألف فارس ومعه العجل يحمل الأموال والمتاع ، وهو على سريره بين دابتين عليه قبة مكللة بالدر والياقوت والزُّرْجَد ، فلما بلغ طارقاً دنوه قام في أصحابه فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حثَّ المسلمين على الجهاد ورغبهم في الشهادة ، ثم قال : «أيها الناس ، أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، فليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللثام ، وقد استقبلكم عدوكم يحيشه وأسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم ، ولا أقوات⁽²¹⁹⁾ لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم وإن امتدت بكم الأيام [على افتقاركم]⁽²²⁰⁾ ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكم ، وتعوّضت القلوب بروعتها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذه الطاغية فقد ألفت به إليكم مدينته المحصنة وأن انتهاز الفرصة (فيه لمُمكن لكم)⁽²²¹⁾ إن سمحتم بأنفسكم للموت ولا أحملكم⁽²²²⁾ على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا أبداً فيها بنفسي ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلاً استمتعتم بالأرفه الألدّ طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فاحظكم فيه بأوفر من حظي وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسنان / من بنات اليونان الرافلات في الدرّ والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عرباناً ، ورضيكم للملك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه لارتياحكم للطعان ، واستباحكم بمجادلة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه معكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، ويكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم ، والله تعالى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذخراً⁽²²³⁾ في

(218) ما يتعلق بتدمير أنظر الوفيات 321/5 .

(219) في الأصول : «قوة» والمثبت من الوفيات .

(220) إضافة من الوفيات ليكتمل المعنى .

(221) في الأصول : «منه لكم تمكّن» وهي غير ذات معنى ، والمثبت من الوفيات 321/5 .

(222) في الوفيات : «وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ولا حملتكم على» .

(223) في الوفيات : «ذكرًا» .

الدَّارين ، واعلموا أني [أول]⁽²²⁴⁾ بجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وإني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية قومه⁽²²⁵⁾ لذريق فقاتله - إن شاء الله تعالى - فاحملوا معي ، فإن هلك بعدة فقد كُفيتُم⁽²²⁶⁾ أمره ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه بعدي وإن هلك قبل وصولي إليه ، فاخلفوني في عزمي⁽²²⁷⁾ هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا⁽²²⁸⁾ المهّم من فتح هذه الجزيرة بقتله فإنهم بعده يخذلون .

فلما فرغ طارق من تحريض أصحابه على الصّبر في قتال لذريق وأصحابه وما عدّهم من النّيل الجزيل انبسطت نفوسهم ، وتحقّقت آمالهم وهبت ريح النصر عليهم وقالوا له : قد قطعنا الآمال (مما يخالف)⁽²²⁹⁾ ما عزمت عليه ، فاحضر إليه فإنّا معك وبين يديك ، فركب طارق وركبوا وقصدوا مُناخ لذريق وكان قد نزل بمتسع / من الأرض ، فلما تراءى الجمعان نزل طارق وأصحابه ، وباتوا ليلتهم في حرس إلى الصبح . فلما أصبح الفريقان ركبوا وعَبَّوا كتائبهم وحِيلَ لذريق على سريره ، وقد رَفَعَ على رأسه رواق ديباج يُظِلُّه ، وهو مقبل في غاية من البند والأعلام وبين يديه المقاتلة والسلاح ، وأقبل طارق وأصحابه عليهم الزرود ، ومن فوق رؤوسهم العمام البيضاء ، وبين أيديهم القسي العربية ، وقد تقلدوا السيوف ، واعتقلوا الرماح ، فلما نظر إليهم لذريق قال : أما والله هذه الصور التي رأيت في بيت الحكمة ببلدنا ، فداخله منهم رعب⁽²³⁰⁾ .

بيت الحكمة بالأندلس :

فَلْتَكَلِّمْ هُنا على بيت الحكمة ما هو ، ثم نكمل بعده حديث هذه الواقعة .
وأصل⁽²³¹⁾ بيت الحكمة أن اليونان كان من تقدم ملوكهم يخشى على جزيرة

(224) في الأصول : «إني بجميكم» والمثبت من الوفيات 322/5 .

(225) في الأصول : «القوم» والمثبت من الوفيات 227 في الوفيات : «عزيمتي» .

(226) في الوفيات : «كفيتكم» . في الأصول : «والتقوا» والمثبت من الوفيات .

(229) في الأصول : «فلا تحالف» والمثبت من الوفيات .

(230) أخذه من ترجمة موسى بن نصير ، الوفيات : 318/5 - 323 .

(231) يرجع للنقل من الوفيات بتصرف 327/5 في المقال المخصص لبيت الحكمة ، وطرح المؤلف الجزء الأول من هذا الباب المتعلق خاصة بملك قادس وابنته التي قدمها المؤلف فيما سبق من حديثه .

الأندلس من البربر والعرب لما بينهم من المنافرة ، وتباين الطباع فاتفقوا وعملوا طلسمات في أوقات اختاروها أرساداً ، وأودعوا تلك الطلسمات تابوتاً من الرُّخام وتركوه في بيت بمدينة طُلَيْطَلَة ، وركبوا على ذلك البيت باباً وأقفلوه وعهدوا إلى كل ملك منهم بعد صاحبه أن يلقي على ذلك الباب قفلاً ، تأكيداً لحفظ ذلك البيت فاستمر أمرهم على ذلك .

ولما كان وقت انقراض دولة اليونان ودخول العرب والبربر إلى جزيرة الأندلس ، وذلك بعد مضي ستة وعشرين ملكاً من ملوك اليونان من يوم عملهم / الطلسمات بمدينة طليطلة وكان الملك لذريق المذكور السابع والعشرين من ملوكهم ، فلما جلس في ملكه قال لوزرائه⁽²³²⁾ وأهل الرأي من دولته قد وقع في نفسي شيء من أمر هذا البيت الذي عليه ستة وعشرون قفلاً ، وأريد أن أفتحه لأنظر ما فيه ، فإنه لم يعمل عبثاً فقالوا : أيها الملك صدقت ، فإنه لم يعمل عبثاً ولا أقفل سدى ، فالمصلحة أن تلقى أنت أيضاً عليه قفلاً أسوة بمن تقدمك من الملوك ، وكانوا آباءك وأجدادك ولم يهملوا هذا فلا تهمله وسر سهرهم ، فقال : إن نفسي تنازعني إلى فتحه ، ولا بد لي منه ، فقالوا : إن كنت تظن فيه مالاً فقدره ونحن نجتمع ذلك من أموالنا فخذ ، ولا تُحدث علينا بفتحه حَدَثاً لا نعرف عاقبته فأصرَّ على ذلك - وكان رجلاً مهيباً - فلم يقدرُوا على مراجعته ، وأمر بفتح الأقفال وكان على كل قفل مفتاحه معلق فيه ، فلما فتح الباب لم ير في البيت شيئاً سوى مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكللة بالجواهر وعليها مكتوب : هذه مائدة سليمان بن داود - عليهما السلام - ورأى في البيت ذلك التابوت ، وعليه قفل ومفتاحه معلق ، ففتحه ، فلم يجد فيه سوى رَق ، وفي جوانب التابوت صور فرسان مصورة بأصباغ محكمة التصوير ، على أشكال [العرب]⁽²³³⁾ وعليهم الفراء ، وهم مُعَمَّمُونَ على ذوائب جعد ، ومن تحتهم الخيل / العربية ، وبأيديهم القسي العربية ، وهم متقلِّدون السيوف الحلاَّة ، ومُعْتَقِلُونَ بالرماح ، فأمر بنشر ذلك الرَق ، فإذا فيه : متى فتح هذا البيت وهذا التابوت المقفلان بالحكمة دخل القوم الذين صوَّروهم في التابوت إلى جزيرة الأندلس ، وذهب مُلك اليونان من أيديهم ، ودرست حكمتهم ، فهذا هو بيت الحكمة⁽²³⁴⁾ .

(232) في الأصول : «لوزيره» والمثبت من الوفيات . (233) إضافة من الوفيات ليستقيم المعنى .

(234) وفيات الأعيان 323/5 - 328 وأنظر أيضاً عن بيت الحكمة نفح الطيب 227/1 - 232 والروض المعطار

تمة الحديث عن فتح الأندلس :

ونعود الآن⁽²³⁵⁾ إلى حديث لذريق وجيش طارق بن زياد ، فلما رأى طارق لذريق قال لأصحابه : هذا طاغية القوم ، فحمل وحمل أصحابه معه ، فتفرقت المقاتلة من بين يدي لذريق ، فخلص إليه طارق ، وضربه بالسيف على رأسه فقتله على سريريه ، فلما رأى أصحابه مصرع ملكهم التحم الجيشان ، فكان النصر للمسلمين ولم تقف هزيمة اليونان على وضع بل كانوا يسلمون بلدًا بلدًا ومعقلًا ومعقلًا .

فلما سمع بذلك موسى بن نصير عبر الجزيرة بمن معه ، ولحق بمولاه طارق ، فقال له : يا طارق ، إنه لا يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلاتك بأكثر من أن يبيحك الأندلس ، فاستبجها هنيئًا مريئًا ، فقال طارق : أيها الأمير ، والله لا أرجع عن قصدي هذا حتى أنتهي إلى البحر المحيط وأخوض فيه بفرسي ، فلم يزل طارق يفتح وموسى معه إلى أن بلغ إلى جليقية⁽²³⁶⁾ وهي على ساحل البحر المحيط ، ثم رجع .

وقال الحميدي في « جذوة المقتبس »⁽²³⁷⁾ : إن موسى نقم على طارق إذ غزا بغير إذنه وسجنه وهم بقتله / ثم ورد عليه كتاب الوليد باطلاقه فأطلقه ، وخرج معه إلى الشام ، وكان خروج موسى من الأندلس وافدًا على الوليد يخبره بما فتح الله سبحانه على يديه ، وما معه من الأموال في سنة أربع وتسعين⁽²³⁸⁾ للهجرة ، فكانت معه مائدة سليمان بن داود - عليهما السلام - التي وجدت في بيت الحكمة على ما حكاه بعض المؤرخين ، قال : كان عليها طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد ، وهي مصنوعة من الذهب والفضة ، وكانت عظيمة بحيث حملت على بغل فها سار إلّا قليلاً حتى تفشخت⁽²³⁹⁾ قوائمه ، وكان معه تيجان الملوك الذين تقدّموا من اليونان ، وكلها مكلّلة بالجواهر واستصحب ثلاثين ألف رأس⁽²⁴⁰⁾ من الرقيق .

ولما وصل موسى بن نصير إلى الشام ومات الوليد بن عبد الملك وقام من بعده أخوه سليمان وحج في سنة سبع وتسعين⁽²⁴¹⁾ للهجرة وقيل سنة تسع وتسعين⁽²⁴²⁾ ، حج معه

(235) يستمر في النقل من الوفيات 328/5 .

(236) في الأصول : « خليقة » والمثبت من الوفيات 329/5 .

(237) المؤلف ينقل عن الوفيات لا عن « جذوة المقتبس » .

(238) 712 - 713 م . في الأصول : « فارس » والمثبت من الوفيات .

(239) في الوفيات : « تفشخت » . (241) 715 - 716 م .

(242) في الأصول : « ست وتسعين » والمثبت من الوفيات وهو ما يوافق سنة 717 - 718 م .

موسى بن نصير ومات في الطريق بوادي القرى ، وقيل بمر الظهران ، على اختلاف فيه . وكانت ولادته في خلافة عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - [في سنة تسع عشرة⁽²⁴³⁾ للهجرة] ⁽²⁴⁴⁾.

وفي خريدة العجائب «أن طليطلة من بناء العمالقة إلى أن ذكر بيت الحكمة وأنه مما وجد فيه مائة وسبعون تاجاً من الدر والياقوت والأحجار النفيسة واويان تلعب فيه الرماح برماحهم قد ملئ بأواني الذهب والفضة ما لا يحيط به الوصف وذكر أن المائدة من زمرد أخضر وأن / هذه المائدة إلى الآن في مدينة رومة باقية وأوانها من الذهب وصحافها من اليشم والجزع⁽²⁴⁵⁾».

(قلت ولعل وصولها إلى رومة كان في مدة استيلاء الروم على الديار الشامية والله أعلم بغيه)⁽²⁴⁶⁾ قال : «ووجد «الزُّبور» بخط يوناني في ورق من الذهب مفصل بجوهر ووجد مصحفاً يحكي فيه منافع الأحجار والنبات والمعادن واللغات والطلاسم ، وعلم السِّيمياء ، وعلم الكيمياء ، ووجد كتاباً فيه صناعة أصباغ اليواقيت والأحجار وتركيب السُّوم والزيافات ، وصورة شكل الأرض والبحار والبلدان والمعادن ، والمسافات . ووجد قاعدة كبيرة مملوءة من الأكسير يَرَدُّ الدرهم منه ألف درهم من الفضة ذهباً ابريزاً ، ووجد مرآة [مستديرة]⁽²⁴⁷⁾ مدبَّرة عجبية من أخلاط ، قد صُنِعَتْ لسليمان بن داود - عليهما السلام - إذا نظر الناظر فيها رأى الأقاليم السبعة عياناً ، ووجد مجلساً فيه من الياقوت البهرمانى⁽²⁴⁸⁾ وسِتَقَ بعير فحمل ذلك كله إلى الوليد بن عبد الملك⁽²⁴⁹⁾».

ولاية عبد الله بن موسى بن نصير:

ولما رجع موسى إلى الشام استخلف ولده عبد الله بن موسى بن نصير . قال في «معالم الإيمان» في مناقب عبد الله بن المُعِيرة بن أبي بُرْدَةَ الكِنَانِي قاضي

(243) 640 م . (244) إضافة من الوفيات إتماماً للفائدة ، انتهى نقله من الوفيات 329/5 .

(245) خريدة العجائب بتصرف يسير ص 21 - 22 .

(246) ما بن القوسين إضافة من المؤلف كما نص عليه .

(247) إضافة من خريدة العجائب .

(248) كذا في ش ، وفي ط : «الياقوت والبهرمان» والياقوت البهرمانى نوع من اليواقيت يشبه لون البهرمان وبهرام اسم

للمريخ ، تاج العروس 208/8 .

(249) خريدة العجائب ص 22 .

عمر بن عبد العزيز [بالقيروان] (250). «سبب ولايته القضاء بالقيروان ، أن سليمان بن عبد الملك كان قد وَجَّه إلى عبد الله بن موسى بن نصير عامل إفريقية ، أن يوجه إليه ما تحصيل عنده من خراج إفريقية صعبة عشرة / من عدول القيروان ، يشهدون عنده أن هذا المال أخذه من وجهه ، ففعل ذلك ، فلما دخلوا على سليمان سألهم عن ذلك ، فقالوا : لم يأخذ إلا من وجهه - وعبد الله بن المغيرة ساكت لم يتكلم بشيء - وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً لذلك المجلس ، فعلم أنه إنما منعه من الكلام الورع والخوف من الله تعالى ولا يتكلم إلا بحق ، فسأل عنه عمر بعد انصرافهم فَعَرَفَ بدينه وورعه وفضله . فلما أفضت الخلافة إلى عمر ولَّى عبد الله قضاء إفريقية ، وذلك سنة تسع وتسعين (251) ، فاقام بها قاضياً إلى زمن كلثوم بن عياض (252) ، فاستعفى من القضاء وذلك سنة ثلاث وعشرين ومائة» (253) .

ولاية علي بن رباح :

«ومن ولي إفريقية عُلَيَّ بن رباح (254) ، كانت له منزلة من (255) عبد العزيز بن مروان فأولاه إفريقية ، فقدمها مجاهداً في سبيل الله . روى أنه حضر مجلساً مع موسى بن نصير ، فقال موسى بن نصير إنه ورد علي بشارت ثلاث ، منها كتاب أمير المؤمنين ، ومنها كتاب ولدي يخبرني بفتح عظيم بالأندلس ، ومنها ما صحبني من الأموال في مقدمي هذا ، فَهَنَّا جميع الناس ، وعُلَيَّ بن رباح ساكت ، فقال له موسى ألا تتكلم ؟ فقال له أيها الأمير ، ما من دار امتلأت حَبْرَةً إِلَّا امتلأت عَبْرَةً ، ولا انتهى شيء إِلَّا رجع ، فارجع قبل أن يرجع بك ، فانكسر موسى بعد ذلك ونفعه بموعظته (256) . مات بإفريقية سنة أربع / عشرة ومائة والله أعلم . [أ/119]

(250) إضافة من المعالم لل ضبط .

(251) 717 - 718 م .

(252) في الأصول : «عاصم» والمثبت من المعالم 210/1 .

(253) 740 - 741 م أخذ ما سبق من ترجمة عبد الله بن المغيرة من المعالم 210/1 .

(254) علي بن رباح بن قصير اللخمي ، أنظر ترجمته بالمعالم ص 199 والمؤلف ينقل منها .

(255) في الأصول : «عنده» والمثبت من المعالم .

(256) معالم الإيمان 200/1 .

المقالة الثالثة

في ذكر خلفاء بني العباس وبعض أمرائهم بالعراق وأمرائهم بالمغرب وفيها ثلاثة أبواب

الباب الأول

في ذكر خلفاء بني العباس

قيام الدولة وخلافة أبي العباس السفاح :

قال ابن جرير الطبري⁽¹⁾ كان بدء أمر بني العباس أن رسول الله ﷺ أعلم عمه العباس أن الخلافة ترجع⁽²⁾ إلى ولده ، فلم يزل أولاده يتوقعون ذلك [ويتحدثون به بينهم]⁽³⁾ إلى أن بويج لمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، فلما مات محمد عهد لولده إبراهيم ، فسجنه مروان الحمار آخر ملوك بني أمية ، وقتله في السجن⁽⁴⁾ .
فعهد إبراهيم لأخيه عبد الله أبي العباس السفاح ، بويج له في الكوفة في شهر ربيع الأول سنة اثنين وثلاثين ومائة⁽⁵⁾ ، وكان القائم بهذه الدعوة أبو مسلم عبد الرحمان بن

(1) النقل بتصرف واختصار كبير من باب «خلافة أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس» 421/7 وعدة أبواب قبلها .

(2) في تاريخ الطبري : «تؤول» وكذلك في الكامل لابن الأثير 408/5 .

(3) إضافة من تاريخ الطبري لإتمام المعنى 421/7 .

(4) الطبري 423/7 .

(5) نوفمبر 749 أنظر الكامل 408/5 .

مسلم الخُرَّاساني⁽⁶⁾ وذلك أنه كان قائماً بخدمة إبراهيم بن محمد - المقدم الذكر - لما سجنه مروان الحمار بالكوفة . فلما قدم على إبراهيم نقيب أبيه محمد بن علي⁽⁷⁾ سأله رجلاً يقوم بأمر خراسان ، فقال : إني جرت هذا الأصهباني وعرفت ظاهره وباطنه فوجدته حَجَرَ الأرض ، ثم دعا أبا مسلم وقلده الأمر وأرسله إلى خراسان⁽⁸⁾ فكان أول ظهوره يوم الجمعة لسبع بقين وقيل لخمس من شهر رمضان سنة تسع وعشرين ومائة⁽⁹⁾ . والوالي بخراسان نصر بن سيار⁽¹⁰⁾ الليثي من جهة مروان بن محمد ، فكتب نصر إلى مروان يقول :

أرى جذعاً ان يثن لم يقوريض / عليه فبادر قبل أن يثنى الجذع [ب/11]

وكان مروان مشغولاً عنه بغيره من الخوارج بالجزيرة وغيرها فلم يجبه عن كتابه ، وأبو مسلم إذ ذاك يؤم في خمسين رجلاً ، فكتب إليه ثانياً :

[وافر]

أرى بين⁽¹¹⁾ الرماد وميض نار⁽¹²⁾ ويوشك⁽¹³⁾ أن يكون له ضرام
فإن النار (بالعودين تذكى)⁽¹⁴⁾ وإن الحرب أولها⁽¹⁵⁾ كلام
(فإن لم يُطفئها عقلاء قوم يكون وقودها جُثث وهام)⁽¹⁶⁾
أقول⁽¹⁷⁾ من التعجب ليت شعري أأيقاظ أمية أم نيام
(فإن كانوا لحينهم نياماً)⁽¹⁸⁾ (فقل قوموا)⁽¹⁹⁾ فقد حان القيام

فأبطأ عليه الجواب واشتدت شوكة أبي مسلم ، فهرب نصر بن سيار من خراسان ، وقصد

(6) أنظر عن نسب أبي مسلم الكامل 254/5 . (8) الطبري 344/7 وكان ذلك في سنة 128هـ/745م .

(9) أنظر الكامل 255/5 . (746 - 747 م .

(10) في الأصول : «نصر بن يسار» والمثبت من تاريخ الطبري ، ولأه الوليد على خراسان وأفرده بها . 224/7 .

(11) كذا في الكامل والطبري ، في مروج الذهب والأصول «خلل» .

(12) كذا في الكامل والأصول ، في الطبري ومروج الذهب «جمر» .

(13) كذا في الأصول ومروج الذهب ، في الكامل «أخشي» .

(14) كذا في الكامل والطبري ومروج الذهب ، في الأصول : «بالزندان توري» .

(15) كذا في الأصول ومروج الذهب ، في الكامل : «مبدأ» وفي الطبري : «مبدؤها» .

(16) كذا في الأصول ، في مروج الذهب : «فإن لم تطفئوها تجن حرباه ، مشمة يشيب لها الغلام» .

(17) كذا في الأصول ومروج الذهب ، بالطبري والكامل : «وقلت» .

(18) كذا في الأصول ، في مروج الذهب : «فإن يكن قومنا أضحو نياماً» .

(19) في الأصول : «فقوموا» والمثبت من مروج الذهب . 240/3 .

العراق فأتت في الطريق بناحية ساوة في يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من المحرم سنة اثنتين وثلاثين ومائة⁽²⁰⁾.

ووثب أبو مسلم على ابن الكرماني⁽²¹⁾ بنيسابور فقتله بعد أن قيده وحسبه وقعد في الدست وسلم عليه الأمانة وصلّى وخطب ودعا لأبي العباس السفاح بالكوفة وصفت له خراسان وانقطعت منها ولاية بني أمية.

فبويح لأبي العباس عبد الله السفاح بالكوفة في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة⁽²²⁾. ثم أرسل العساكر لقتال مروان بن محمد الملقب بالحمار بعدما ظهر السفاح بالكوفة، فجهز القواد في تسعة آلاف فارس وأمر عمه عبد الله بن علي بقتال مروان فاقتتلا بالزّاب وذلك أن علياً لما قدم على / أبي عون تحول له عن سُراده⁽²³⁾ فترل بها وجاء مروان ونزل الزّاب فأمر عبد الله بن عتبة فعبر إلى عسكر مروان في خمسة آلاف فاقتتلوا إلى الليل، ورجع عتبة فعبر المخاضة وأصبح مروان عند الجسر، وعبر عبد الله بن علي. فقال مروان لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: إن زالت الشمس اليوم ولم يقاتلونا كنا الذين ندفعها لعيسى ابن مريم، وإن قاتلونا قبل الزوال فإننا لله وإنا إليه راجعون⁽²⁴⁾. فقطع عبد الله بن علي الزّاب في اثني عشر ألف وكان مروان في سبعين ألف وكان السفاح عمل بيتين وقال لرجل إذا التقى الجمعان فاصعد على رأس جبل وأنشدهما وهما:

[بسيط]

يا آل مروان إن الله مهلككم ومبديل ملككم خوفاً وتشريداً
لا عمر الله من أولادكم أحداً ويثكم في بلاد الخوف تطريداً

فلما سمع ذلك أهل الشام انزعجوا وارتاع مروان وكان سبب خذلانه، فحمل الوليد ابن معاوية بن مروان، فكشف ميمنة عبد الله فأنحاز أبو عون إلى عبد الله وصاح عبد الله: الأرض الأرض، فترلوا وجثوا على الركب ونزعوا الرماح فانهزم مروان وأهل الشام، ووقف عبد الله على الزّاب وقرأ: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ الآية⁽²⁵⁾.

(20) أوت 749 م. والأرجح في 13 ربيع أول / 30 أكتوبر 749.

(21) الطبري 432/7.

(22) أنظر الكامل لابن الأثير 383/5.

(23) نفس المرجع، ص 433.

(24) سورة البقرة: 50 ونماها: ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾. انظر عن هذه الحوادث تاريخ

الطبري 432/5 - 434 والكامل 417/5 - 421.

وسار عبد الله بن علي يطلب مروان فوصل فلسطين⁽²⁶⁾ ، وسير أخاه صالح بن علي خلف مروان ، فسار إلى مصر وتبع عبد الله بن علي أولاد خلفاء بني أمية / فأخذ منهم سبعين قتلهم على الرملة ، وجعل عليهم الموائد وهو يأكل ويسمع أنيهم ، ولا يرق لهم ، والناس يكون⁽²⁷⁾ ، وقطع مروان النيل وأغرق الجسور ، فنزل بؤصير فجاءه صالح فقتله وبعث برأسه مع ما وجد في خزائنه من بردة رسول الله ﷺ وقضيه لبني العباس : فتوارثوها إلى خلافة المقتدر فكان آخر العهد بهما .

وفرغت بموت مروان بن محمد خلافة بني أمية من المشرق ، ولم يفلت منهم إلا القليل فصفت الخلافة للسفاح ، وتواطأت له الممالك من المشرق إلى المغرب الأقصى حتى الأندلس وكان كثير التعظيم لأبي مسلم الخراساني لما صنعه ودبره وكان توليه الملك وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، وكان كثير سفك الدماء فلذلك لقب « السفاح » لأن السفح هو السفك ، ومنه قوله علت كلمته ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾⁽²⁸⁾ .

وجرت عادة الله في الملوك والسلاطين تعجيل هلاك من أسرف في الدماء . وكان بدولاً للأموال وما شأنه إلا سفك الدماء ، فتوفي السفاح بالجُدري في ذي الحجة الحرام سنة ست وثلاثين ومائة⁽²⁹⁾ . فكانت مدة إمارته أربعة أعوام [وثمانية أشهر]⁽³⁰⁾ .

أبو جعفر المنصور :

وولي بعده الخلافة أخوه أبو جعفر عبد الله المنصور ، وهو أسن من السفاح . بويع له بعهد من أخيه سنة ست وثلاثين ، وكان ظلوماً غشوماً ، وهو أول من أدخل الفتنة بين العباسيين والعلويين / وقتل الأخوين محمداً وإبراهيم ابني محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنهم - وكانا خرجا عليه⁽³¹⁾ وآذى

(26) مر المؤلف عن ذهاب مروان إلى الموصل وغيرها قبل أن يصل إلى بلاد الشام اختصاراً ، أنظر عنه الكامل 424/5

وتاريخ الطبري 439/7 .

(27) تاريخ الطبري 430/7 .

(28) سورة الانعام : 145 .

(29) في 13 منه / 9 جوان 754 م ، أنظر عن موت أبي العباس تاريخ الطبري 470/7 .

(30) بالتاريخ الهجري . (31) الكامل 521/5 - 526 الطبري 539/7 - 551 .

بسببهما خلقاً كثيراً من العلماء قتلاً وضرباً ممن أفتى بجواز الخروج عليهم ، منهم الإمام أبو حنيفة - رضي الله تعالى عنه - وأكرهه على القضاء فأبى ، فسجنه فمات في السجن⁽³²⁾ ، وقيل إنه سمّه في السجن لكونه أفتى بالخروج عليه ، ويسمى لبخله أبا الدوانيق فيحاسب العمّال والصنّاع على الدّانق⁽³³⁾ والحجّة⁽³⁴⁾ .

ومن مساوئه قتل أبي مسلم القائم بدعوتهم لأسباب غيرت قلبه عليه ، ولمّا عزم على قتله تحيّر في الاستبداد برأيه في أمره والاستشارة فقال يوماً لمسلم بن قتيبة : ما ترى في أمر أبي مسلم ؟ فقال ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾⁽³⁵⁾ . فقال حسبك يا ابن قتيبة ، لقد أودعتها أذنًا واعية .

ولم يزل المنصور يخدع أبا مسلم حتى أحضره إليه . وكان أبو مسلم ينظر في كتب الملاحم ويجد خبره فيها ، وأنه مُميت دولة ومحبي دولة ، وأنه يُقتل في بلاد الروم ، وكان المنصور يومئذ برومية المدائن التي بناها كسرى ، ولم يخطر ببال أبي مسلم أنّها موضع قتله ، بل راح وهمه إلى أنها بلاد الروم ، فلمّا دخل على المنصور رحّب به ، ثم أمره بالانصراف إلى محبّته ، وانتظر المنصور فيه الفرصة والغوائل ، ثم إن أبا مسلم ركب إليه مراراً ، فأظهر له التّحنّن ، ثم جاءه يوماً فقبل له : إنه يتوضّأ للصلاة ، فقعد / تحت الرّواق ورثب المنصور جماعة يقفون وراء السرير الذي خلف أبي مسلم ، فإذا عاتبه لا يخرجون ، فإذا ضرب يداً على يد خرجوا وضربوه بسيفهم ، ثم جلس المنصور ودخل عليه أبو مسلم فسلم فردّ عليه السلام وأمره بالجلوس وحادثه ثم عاتبه وقال : فعلت وفعلت فقال أبو مسلم : ما يقال لي هذا بعد سعيي واجتهادي وما كان مني ، فقال : يا ابن الخيثة إنما فعلت ذلك بجِدنا وحقّينا ، ولو كانت مكانك سوداء لعملت عملك ، ألسنت الكاتب إليّ تبدأ بنفسك قبلي ، وعدد عليه أشياء فأخذ أبو مسلم يعرك يده ويفتلها ويعتذر إليه ، فقال له المنصور وهو آخر كلامه : قتلني الله إن لم أقتلك ، ثم صفّق بإحدى يديه على الأخرى ، فخرج إليه القوم فخبطوه بأسياهم ، والمنصور يصيح : إضرّوه ،

(32) كتب السعودي في مروج الذهب : «وفي سنة خمسين ومائة مات أبو حنيفة النعمان بن ثابت ... في أيام المنصور ببغداد ، توفي وهو ساجد في صلاته وهو ابن تسعين سنة» 304/3 .

(33) الدانق : جاء في المنجد للويس معلوف : فارسية ، ج دوانق ودوانيق والدانق سدس الدرهم ص 226 .

(34) عند دوزي (Suppléments... Dozy) 241/1 الحبة قطعة نقدية صغيرة وفي المنجد قطعة نقدية لها وزن

الشعيرتين ، وتساوِي سدس عشر الدينار .

(35) الإستدلال بآية قرآنية وتامها : ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ سورة الأنبياء : 22 .

قطع الله أيديكم ، وكان أبو مسلم قال عند أول ضربة : استبقني يا أمير المؤمنين لعدوك قال : لا أبقاني الله أبدًا ، وأيَّ عدوّ أعدى منك ! فقتلوه⁽³⁶⁾ . وكانت ولادة أبي مسلم سنة مائة⁽³⁷⁾ من الهجرة ، وقتل يوم الخميس لخمس بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة⁽³⁸⁾ وقيل غير ذلك .

فكان المنصور أسدًا شهيمًا ذا علم وتدبير فارس الدولة ، ولم يبق له ضدّ ، وحجّ غير مرّة ، فكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف آخر الليل ، يطوف ويصلي على عادته ، ويرجع ولا يعلم أحد ، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة فيجيء المؤذّنون / ويسلمون عليه ويؤذّنون للفجر ويقىمون الصلاة فيخرج ويصلي بالناس ، فخرج ذات ليلة بالسحر وشرع يطوف ، فبينما هو كذلك إذ سمع رجالاً عند الملتزم يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحقّ وأهله من الظلم والطمع ، فأسرع المنصور في مشيته حتى ملأ مسامعه من كلامه ، ثم خرج من الطواف إلى ناحية من المسجد ثم أرسل إلى ذلك الرجل يطلبه فجاء وصلّى ركعتين وقبل الحجر ، وأقبل مع الرسول وسلّم على المنصور فقال له المنصور : ما هذا الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحقّ وأهله من الظلم والطمع ، فوالله لقد حشوت مسامعي ما أقلقني وأمّرّضني ، وأشغل خاطري ، فقال : يا أمير المؤمنين إن أمّنتني على نفسي وأصغيت إليّ بأذن واعية أنبأتك بالأمر من أصلها وإلا احتجبت عنك بقدرة الله تعالى فلا تصل إليّ واقتصرت على نفسي فيها لي شغل شاغل عن غيري ، فقال : أنت آمن على نفسك ، فقل : إني ألتى إليك السمع وأنا شهيد بالقلب ، فقال : إن الذي داخله الطمع حتى حال بينه وبين الحقّ ومنع من إصلاح ما ظهر من الفساد والبغي في الأرض هو أنت ، فقال : أيها الرجل كيف يداخلني الطمع والصفراء والبيضاء بيدي ، والحلو والحامض في قبضتي ، ومن يحول بيني وبين ما أريد من ذلك . فقال : هل داخل الطمع أحدًا من الناس ما داخلك يا أمير المؤمنين؟ إن الله - عزّ وجلّ - استرعاك أمور المسلمين وأنفسهم / وأموالهم ، فأغفلت أمورهم واهتممت بجميع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم

[122/أ]

[122/ب]

(36) لخص المؤلف خبر مقتل أبي مسلم وتصرّف فيه عن الطبري 495 - 479/7 . أنظر أيضًا الكامل لابن الأثير 481 - 468/5 .

(37) 718 - 719 م .

(38) 13 فبري 755 م . عن قتل أبي مسلم أنظر الطبري 491/7 - 522 .

حجائباً من الحجر والطين ، وأبواباً من الخشب والحديد وحُجَّاباً⁽³⁹⁾ معهم السِّلَاح ، واتَّخَذَتْ وزراء فجرة وأعواناً ظلمة ، إن نسيت لا يذكرك ، وإن أحسنت لا يعينوك ، وقوتهم على ظلمهم للناس بالأموال والسلاح والرجال ، وأمرت أن لا يدخل عليك غيرهم من الناس ، ولم تأمر بإيصال المظلوم إليك ، ومنعت من إدخال الملهوف عليك ، وحجبت الجائع والعاري⁽⁴⁰⁾ ، وما أحد منهم إلّا وله حقّ في هذا المال ، فما زال هؤلاء النفر الذين استخلصتهم⁽⁴¹⁾ لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرت أن لا يجحبوا عنك يقولون في أنفسهم : هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه ، فاتفقوا على أن لا يصل إليك من أخبار الناس إلّا ما أرادوه ، ولا يخالف أمرهم عامل إلّا أقصوه⁽⁴²⁾ عنك وأبعدوه ، فلمّا انتشر⁽⁴³⁾ ذلك عنك وعندهم عَظَمَهم الناس وهايوهم⁽⁴⁴⁾ وأكرمواهم وهادوهم ، وكان أول من صانعهم وداراهم عمالك بالأموال والهدايا والرشا ، ففقوا بها على ظلم رعيتك ليظلموا من دونهم ، فامتلات بلاد الله بالظلم والغش ، وزاد بغيمهم وطمعهم وكثر فسادهم فصار هؤلاء شركاؤك في سلطانك وأنت غافل ، فإن جاءك متظلّمٌ حيل بينه وبين الوصول إليك ، وإن أراد رفع قضيته إليك وصرخ بين يديك ضُرب ضرباً مبرحاً (ليكون نكالاً لغيره وأنت تنظر بعينك ولا ترحم)⁽⁴⁵⁾ فإن سألتهم / عنه قالوا : أساء معنا الأدب فأدّبناه ، وجَهَل مقامك فضربناه (فما بقاء بالإسلام)⁽⁴⁶⁾ على هذه المظالم والآثام ، فإني سافرت لأرض الصّين فقدمتها وقد أصاب ملكهم آفةٌ أَذْهَبَتْ سمعه ، فجعل يبكي ، فقال له وزراؤه : لم تبكي لا بكت عينك؟ فقال : أنا لا أبكي على فَقْدِ سمعي ، ولكن أبكي على المظلوم يصرخ يبالي يطلب رفع ظلامته فلا أسمع صوته وحِسّه ، وحيث ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب ، فنادوا في الناس أن لا يلبس الأحمر إلّا مظلوم لأمّيزه بالنظر فأعينه ، وكان يركب الفيل كلّ يوم ليرى المظلوم ليستدنيه ويرفع عنه ظلامته ، أنظر يا

[123/أ]

(39) بعدها في ت : « من الأحرار والعبيد ».

(40) في ط : « والعاري والمحتاج ».

(41) في ت : « استخلصتهم ».

(42) في ط : « أمضوه ».

(43) في ت : « اشتهر ».

(44) في ت : « هاوهم ».

(45) ساقطة من ط .

(46) في ط : « بقاء الإسلام » وفي ت : « فما بقاء في الإسلام ».

مسكين هذا مشرك بالله غلبت رأفته بالمشركين على رأفتك بالمسلمين ، وأنت تؤمن بالله وابن عمّ نبيه ، وإن الأموال لا تجمع إلا لأحد أمور ، فإن قلت أجمعها لولدي فقد أراك الله تعالى عيبراً في الطفل ، يخرج من بطن أمه عرياناً ما له على وجه الأرض مال ، وما من مال إلا وله يد شحيحة تحويه وتصوره من كل أحد ، فما زال الله يلطف بذلك الغلام حتى يسوق إليه ما قدره له من المال فيملكه ويحويه كما حواه غيره ، ولست الذي تعطي ، بل الله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، وإن قلت أجمع المال ليشدّ به سلطاني فقد أراك الله عيبراً فيمن كان قبلك ، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب / والفضّة وما أعدّوا من السلاح والكراع ، وما أضرك ما كنت فيه ، فوالله ما فوق ما أنت فيه منزلة إلا بالعمل الصالح ، واعلم انك لا تعاقب أحداً من رعيّتك إذا عصاك بأعظم من القتل ، وإن الله يعاقب من عصاه بالعذاب الأليم ، وإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، فكيف يكون وقوفك غداً⁽⁴⁷⁾ بين يدي الله وقد نزع ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب ، هل يغني عنك ما كنت فيه شيئاً؟ قال : فبكي المنصور بكاءً شديداً حتى ارتفع صوته ثم قال : كيف احتيالي فيما خولت ، ولم أر من الناس إلا خائناً؟ قال : يا أمير المؤمنين عليك بالأعلام الرّاشدين . قال : ومن منهم؟ قال : العلماء العاملون . قال : فإنهم قد فرّوا مني ، قال : نعم ! فرّوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر لهم من طريقتك ، فإذا فتحت الباب وسهّلت الحجاب ، ونصرت المظلوم ومنعت الظالم ، وظهرت بالعدل ونشرت الفضل ، فأنا ضامن لمن هرب منك أن يعود إليك ، فجاء حينئذ المؤذّنون وسلّموا عليه ، وأذّنوا للفجر وأقاموا الصّلاة . فقام المنصور للصّلاة ، وصلى بالناس وإذا بالرجل قد غاب من بين أيديهم ، فلمّا فرغ المنصور من الصّلاة سأل عنه فقالوا : ذهب . فقال : إن لم تأتوني به عاقبتكم عقاباً شديداً ، فذهبوا يلتمسونه فوجدوه في الطّواف ، فتقدّم إليه الحرسى فقال له : انطلق معي الآن وإلا هلكك وهلك من معي ، قال : كلاً ، فلست بذاهب معك ، فقال له : يقتلني إن لم / آت بهك ، قال : كلاً ، لا يقدر عليك ، وأخرج من جيبه ورقة وقال : ضعها في جيبك فلا يصيبك منه سوء فإنه دعاء الفرج ، وقال : هذا دعاء لا يرزقه الله تعالى إلا للسّعداء ومن دعا به صباحاً ومساءً هدمت ذنوبه ، واستجيب دعاؤه ، ويسط الله رزقه عليه ، وأعطاه أمله ، وأعاناه على عدوّه ، وكتب عند الله

[123/ب]

[124/أ]

صديقاً ، فقال : اقرأه لي لآخذه عنك (48) ، وأنقله منك ، قال : قل : «اللهم كما لطف في عظمتك دون اللطفاء ، وعلوت بعظمتك على العظماء ، وعلمت ما تحت أرضك كما علمت ما فوق عرشك ، وكان وسواس الصدور كالعلانية عندك ، وعلانية القول كالسر في علمك ، وانقاد كل شيء لعظمتك ، وخضع كل سلطان لسلطانك ، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك ، اجعل لي من كل هم أمسيت فيه فرجاً ومخرجاً ، اللهم إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي ، وسترك عن قبيح عملي أطمعني أن أسألك ما لا أستوجهه منك ، فصرت أدعوك آملاً وأسألك مُستأنساً ، وإنك المحسن إليّ وأنا المسيء لنفسي فيما بيني وبينك ، تتوّد إليّ بالنعم وأبتغض إليك بالمعاصي ، ولكن حملني على الجرأة عليك حلمك ، فعد إليّ بفضلك وإحسانك ، إنك أنت التّوّاب الرحيم » ، قال : فقرأته وأخذت الورقة في جيبِي وإذا بالرسَل قد أتت إليّ لتحملني ، فأتيتها فإذا هو جمر يتلظى ، فلمّا وقع بصره عليّ سكن غضبه (49) وتبسّم وقال لي : ويلك أنتحسن السحر؟ قلت : / لا والله يا أمير المؤمنين ، ثم قصصت عليه أمري ، ثم قال : [124/ب] هات الورقة ! فناولته إياها ، فأخذها وصار يبيكي إلى أن بلّ لحيته وأمر لي بعشرة آلاف درهم ، ثم قال لي : أتعرف الرجل؟ قلت : لا ، قال : ذلك الخضر - عليه السلام - اهـ (50) .

وأن الخليفة المنصور هو الذي بنى مدينة بغداد ، ومولده سنة خمس وتسعين (51) ، ومدة ملكه اثنان وعشرون سنة إلا أربعة أيام (52) ، وعاش أربعاً وستين سنة (53) وكان رأى مناماً يدلّ على قرب أجله فعهد إلى ولده محمد (54) وسار إلى الحجّ في سنة ثمان وخمسين ومائة (55) وكان يريد قتل سفيان الثوري - رضي الله تعالى عنه - فلمّا وصل إلى

(48) في ت : «لآخذه عنك صحيحاً» .

(49) في ت : «غضبه» .

(50) لم يذكر الطبري هذه القصة في سيرة المنصور .

(51) 713 - 714 م .

(52) في الأصول : «اثنان وعشرون سنة وثلاثة أشهر» والإصلاح اعتماداً على تاريخ ولايته وموته . في اختلاف مدة خلافته قال ابن الأثير : «فكانت مدة خلافته اثنين وعشرين سنة إلا أربعة وعشرين يوماً ، وقيل إلا ثلاثة أيام ، وقيل إلا يومين» الكامل 22/6 .

(53) عن اختلاف الأحوال في سنة يوم توفي أنظر الطبري 61/8 .

(54) هو المهدي واسمه محمد .

(55) 774 - 775 م .

بئر ميمون بعث إلى الخشابين وقال لهم : إن رأيتم سفيان الثوري فاصلبوه ، فجاؤوا ونصبوا له الخشب وكان جالساً بفناء الكعبة ورأسه في حجر الفضيل بن عياض ، ورجلاه في حجر سفيان بن عيينة ، فقيل له : يا أبا عبد الله قم واختف ولا تشمت بنا الأعداء ، فتقدم إلى أستار الكعبة وأخذها وقال : برئت منه ان دخلها أبو جعفر المنصور ، وعاد إلى مكانه فركب أبو جعفر المنصور من بئر ميمون ، فلما كان بين الحَجَوَيْن سقط عن فرسه فاندقت عنقه فمات (56) سابع ذي الحجة (57) من التاريخ المتقدم ، فحفر له مائة قبر ودفنوه في أحدها ليعموا (58) قبره .

محمد المهدي :

وَتَوَلَّى بعده ولده أبو موسى محمد المهدي ، فكان - لما شب - أولاه أبوه طبرستان والري وما يليهما ، فتأدب وتميز وجالس العلماء (59) / وكان كريماً وسيماً شجاعاً محباً للعلماء ، وكان يقول : أدخلوا علي العلماء والقضاة وأحضروهم عندي ، فلولم يكن من حضورهم إلا ردّ المظالم حياءً منهم لكان فيه خير كثير وكان يكره الزنادقة وقتل منهم خلقاً كثيراً وأوصى ابنه الهادي (60) بقتلهم حيث وجدهم ، وكان مولده في جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة (61) ، ومدة ملكه عشر سنين وشهراً (62) ، وعاش ثلاث وأربعين سنة ، ومات ثمان بقين من محرم سنة تسع وستين ومائة (63) .

[أ/125]

(56) ذكر ابن الأثير روايات في كيفية موت المنصور ومنها موته بسقوطه عن دابته ودفنه ببئر ميمون بينما كان نازلاً في آخر منزل بطريق مكة ، ولم يتعرض ابن الأثير إلى خبر سفيان الثوري ، الكامل 22/6 . وذكر الطبري أنه صار إلى بئر ميمون ومات بمرض في بطنه ، الطبري 60/8 وعن الثوري أنظر الطبري 58/8 وقصته تختلف عما أوردته مقديش في كتابه .

(57) 8 أكتوبر .

(58) في الكامل : « ليغموا » وهو تحريف . وذكر ابن الأثير أنه « دفن في غيرها » 22/6 .

(59) في ت : « وجالس العلماء كثيراً والقضاة » .

(60) موسى الهادي .

(61) مارس 745 م .

(62) في الأصول : « إحدى عشر سنة » والمثبت من الكامل 82/6 وغيره من المراجع ، وزاد ابن الأثير : « وقيل عشر سنين وتسعة وأربعون يوماً » .

(63) 4 أوت 785 م وذكر المسعودي : « لسبع بقين من شهر محرم » 324/3 .

محمد موسى الهادي :

فتولّى بعده ابنه محمد موسى الهادي ، ولد بالريّ سنة سبع وأربعين ومائة⁽⁶⁴⁾ ، وكان حين موت أبيه يجرّجان ، وقد عهد إليه أبوه بالخلافة ، فأخذ له البيعة أخوه هارون الرشيد لما مات أبوه ، ولم يل أحد الخلافة قبله في مقدار سنة⁽⁶⁵⁾ ، وتوفي شاباً عمره أربع وعشرون سنة ، منتصف ربيع الأول سنة سبعين ومائة⁽⁶⁶⁾ .

هارون الرشيد :

فتولّى بعده أخوه هارون الرشيد بعهد من أبيه بتاريخه⁽⁶⁷⁾ ، وكان فصيحاً بليغاً أديباً ، كثير العبادة والحجّ والغزو ، يحجّ عاماً ويغزو عاماً ، وقد يجمع بينهما في عام واحد ، ويصليّ في خلافته كلّ يوم مائة ركعة لا يتركها إلّا لعلّة ، ويتصدّق كلّ يوم بألف درهم ، ويحبّ العلم وأهله ، ويعظّم حرّامات الإسلام ، وبلغه عن بشر المريسي⁽⁶⁸⁾ أنه كان يقول بخلق القرآن ، فقال : لئن ظفرت به لأضربن عنقه ، وكان يأتي بنفسه إلى بيت الفضيل بن عياض / - رضي الله عنه - ويعظّمه وكان يبكي على نفسه وإسرافه وذنوبه ، وكان يعظّم قاضيه أبا يوسف كثيراً ويمثّل أمره .

وأراد الرشيد أن يوصل ما بين بحر الرّوم والقُلزُم ليتّها له أن يغزو الرّوم ببلادهم ، فقال له يحيى بن خالد البرمكي : لو فعلت ذلك وصلت سفن الرّوم أرض العرب واختطفوا المسلمين من المسجد الحرام فتركه .

وكان الرشيد قسّم مملكته بين أولاده الأمين والمأمون ، والمؤمن⁽⁶⁹⁾ دون بقية

(64) 764 م .

(65) عن اختلاف الأقوال في مدة خلافته أنظر الكامل 101/6 .

(66) في الأصول : «إحدى وسبعين» والثبت من مروج الذهب 324/3 والمراجع الأخرى ، وقيل إنه توفي في منتصف ربيع الأول كما ذكر المؤلّف ، واختلف فيه ، وذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء ص 280 أنه قيل توفي في ربيع الآخر ، وعن اختلاف الأقوال عن هذا أنظر الكامل 101/6 .

(67) ذكر السيوطي : «أنه تولّى الخلافة ليلة السبت لأربع عشرة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة» ص 283 . وأقرّ المسعودي أنه تولّى الخلافة صبيحة الليلة التي مات فيها الهادي 336/3 .

(68) كذا في توط ، في ش : «المريسي» .

(69) ابنه القاسم ، وسماه المؤمن ، الطبري 276/8 .

أولاده ، فجعل الأمين وليّ عهده بعده ، ثم المأمون ، ثم المؤمن (70) ، وطوى الرّشيد الملك عن ولده الرابع وهو المعتصم لكونه أميًا ، فأراد الله خلاف ما أراد الرّشيد لكون الخلافة صارت بعد المأمون للمعتصم ، وصار الخلفاء بعده كلّهم من نسله ، ولمّا كمل عهد أولاده الثلاثة جمع الجموع وأمرهم بمبايعة أولاده المذكورين ، فبايعوهم وعاهدوهم ، وكتب بذلك عهدًا مَحْكَمًا وكتبًا مُبَرَّمًا ، ووضع الأعيان خطوطهم عليه ، وبعد ذلك جهّزه إلى بيت الله تعالى وأمر بتعليقه في وسط الكعبة المشرفة ليشعّد الوثوق به ولا يقع في ذلك خلاف (71) ، ولم يغن التدبير عمّا سطره قلم التدبير في لوح المقادير .

ثم إن الرّشيد رأى في منامه أنه يموت بطّوس فلمّا وصل إلى طّوس غلب عليه الوعد ، وعرف أنه ميّت بكى واختار لنفسه مدفنًا بطّوس ، فمات بها (72) وصلى عليه ولده صالح (73) لثلاث مضيّن من جمادى / الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة (74) . فكانت مدة ملكه ثلاثًا وعشرين سنة وشهرين ونصف (75) .

[126/أ]

محمد الأمين :

فتولّى الخلافة بعده ولده محمد الأمين ، فكان وسيماً سيء التدبير كثير التّبذير ، ضعيف الرّأي فاتخذ الخُمور واللّهو ديدنًا ، واشترى مغنيّة بمائة ألف دينار ، وعزل أخاه المؤمن ، وأخاه المأمون ، وأرسل إلى الكعبة المعظّمة من جاءه بصحيفة عهد والده لإخوته فَمَرَّقَهَا ، وعهد إلى ولد له رضيع سمّاه الناطق بالحق ، ودعا له على المنابر فنصحه ومنعه

(70) كان ذلك لما طلب الحج في سنة 186هـ/802م أنظر الطبري 275/3 .

(71) «كتابين لعبد الله المأمون» : «الأول فيما اشترط على ابنه الأمين من الوفاء بما فيه من تسليم ما ولّى عبد الله من الأعمال ، والثاني نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد ... وجعل الكتابين في البيت الحرام بعد أخذه البيعة على محمد» . الطبري 277/8 .

(72) «وتوفي - فيما يذكر - بموضع يدعى المثقّب» الطبري 345/8 .

(73) ابن الأثير 212/6 .

(74) في الأصول : «سنة إحدى وتسعين» والمثبت من الطبري 345/8 ومروج الذهب 336/3 . وتاريخ الخلفاء للسيوطي 296 ، في مروج الذهب : «يوم السبت لأربع ليال خلون من جمادى الآخرة» وفي الطبري : «لثلاث ليال» .

(75) عن اختلاف الأقوال في مدة خلافته أنظر مروج الذهب 336/3 .

عن هذا الغدر والنكت خزيمة بن خازم⁽⁷⁶⁾ فقال له : يا أمير المؤمنين لن ينصحك من كذّبك ، ولن يغشّك من صدّك ، وإني أنصحك : لا تُجِرِ القوّاد على الخلع فيخلعوك ، ولا تحملهم على نكت العهد ، فينكثوا عهدهك ، وإن الغدر شؤم والنكت منكوث مغلوب ، وصاحب الحق مظلوم ، وجرت عادة الله بنصر المظلوم ، وتوجّه القلوب إليه ورقة النفوس عليه ، ولذلك تأثير في الظاهر والباطن ! فأبى الأمين ذلك منه ، ونبذ كلامه وعمل بسقم رأيه ، وأرسل جيشاً مع علي بن عيسى إلى أخيه المأمون عدّتهم أربعون ألفاً ، وأرسل المأمون لقتاله طاهر بن الحسين ومعه أربعة آلاف ، فانهزم علي بن عيسى وقتل وذبح وشئت عساكره ، وجاء طاهر بن الحسين برأسه إلى المأمون⁽⁷⁷⁾ ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾⁽⁷⁸⁾ .

[126/ب] فقوي قلب المأمون بذلك وكثر أتباعه ، / ومال الناس إليه ، فجمع الجموع وسار إلى بغداد لقتال الأمين ، ولا زال أمر المأمون يزيد لحسن تدبيره وانتقال الناس إليه ، وأمر الأمين يضعف لكثرة لوه وتقصيره ونفور القلوب عنه إلى أن حُوصِر في بغداد ، وتفرقت عنه جنوده وهربوا منه إلى المأمون ، كلّ ذلك والأمين في لوه وغفلته ولعبه مع جواريه واحتجابه عن أهل دولته⁽⁷⁹⁾ إلى أن هجم طاهر بن الحسين ، ودخل بغداد فجاء مسرور الخادم إلى الأمين وهو في جنب حوض ماء مع جواريه يصيد معهن السمك في ذلك الحوض ، وكان وضع في أنف كلّ سمكة دُرّة نفيسة شبّكها بقضبان الذهب ، فكلّ من صادت من جواريه سمكة كانت الدُرّة التي في أنفها لها ، فرفع الأمين رأسه إلى مسرور فقال له : إن طاهر بن الحسين دخل بعسكره إلى بغداد ، فقال له : دعني فإن الجارية فلانة صادت الآن سمكتين⁽⁸⁰⁾ وأنا ما صدت شيئاً ، فرجع مسرور باهتاً ، وإذا بالجند قد

(76) في الأصول : «حازم بن خزيمة» والمثبت من الكامل 228/6 . وفي الطبري وفي مروج الذهب : «هرثة بن حازم» 389/3 .

(77) عن محاربة علي بن عيسى وطاهر أنظر مثلاً الكامل 239/6 . والطبري 390/8 - 397 .

(78) سورة البقرة : 249 .

(79) عن صفات الأمين أنظر مروج الذهب 394/3 .

(80) في ت : «مشفتين» وفي ط : «مشعتين» والمثبت من الكامل 245/6 . قال ابن الأثير : «لما أتى نعي علي بن عيسى الأمين وهو يصطاد السمك ، قال للذي أخبره : ويليك دعني ، فإن كوثراً قد صادت سمكتين ، وأنا ما صدت شيئاً» ، وهذا يخالف ما ذكره مقديش من أن طاهر بن الحسين دخل بغداد والأمين يصطاد السمك ، فدخل طاهر إلى بغداد وقع بعد ثلاث سنوات من حادثة السمك ، إذ تمت في سنة 198 هـ/813 - 814 بينما تمّ قتل علي بن عيسى في سنة 195 هـ/810 - 811 م .

أحاطوا بدار الخلافة ونهبوها ومسك طاهر بن الحسين الأمين بيده وجبسه ، فلما شاهد الأمين هذا الحال قال لطاهر بن الحسين : يا طاهر اعلم أنه ما قام لنا قائم قط فكان جزاؤه عندنا إلا السيف ، فانظر لنفسك أو دَعْ يَلُوحْ بأبي مسلم الخراساني وأمثاله الذين بذلوا أنفسهم وأمواهم في قيام الدُّول ، فكان مآلهم القتل ، وهذه عادة الله في مقيمي الدُّول ، كعمر بن سعيد أقام دولة عبد الملك بن مروان فقتله ، ووقع بعد ذلك / لأبي عبد الله الشَّيعي حيث قام بدعوة عُبيد الله المهدي ، فلما تَمَّتْ قتلته (حسبما يأتي تفصيله)⁽⁸¹⁾ فأثَّرت هذه الكلمة في قلب طاهر ، وصار يحذِّرُ منها إلى أن قتله المأمون⁽⁸²⁾ .

[127/أ]

ثم أن طاهر بن الحسين لما رأى أن الفتنة لم تسكن بالإستيلاء على الأمين وجبسه أدخل أعجاًماً لا يعرفون اللسان على الأمين ، وأمرهم بقتله فقتلوه وأخذَ رأسه فطيف به في مدينة بغداد ، ونُوِّدي عليه : هذا رأس المخلوع⁽⁸³⁾ إلى أن سكنت الفتنة ، وكان ذلك في المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة⁽⁸⁴⁾ .

المأمون وقضية خلق القرآن :

فأل الأمر إلى أخيه عبد الله المأمون ، فكان من أجَلِّ بني العباس حزمًا وعلمًا وفراصة وفروسية وأقواهم ذكاءً وفهَمًا ، سمع الحديث على جماعة ، وتأدَّب وتفقه وبرع في فنون التاريخ والأدب ، ولَمَّا كبر اعتنى بالفلسفة وعلوم الأوائل ، فَضَّلَ وأُضِلَّ ، وامتنح الناس بالقول بخلق القرآن ، ولولا ذلك لَعُدَّ من الخلفاء الرَّاشدين ، وكان يُضْرَبُ المثلُ بجلمه ، فمن حلمه أنه خرج لبعض حروبه وخلف عنه خليفة ، فثار عليه إبراهيم بن محمد ابن طباطبا⁽⁸⁵⁾ ، دعا لنفسه ببغداد ثم أظفره الله به ، ووقف بين يديه ، واستشار في أمره

(81) ما بين القوسين يثبت أن ما سبق من تذكير الأمين لطاهر بن كان مثله في خدمة الخلفاء وقتل ، زيادات من المؤلف عن الواقع التاريخي.

(82) هذه الرواية تخالف ما ذكرته كتب التراث ، فطاهر بن الحسين « مات ... من حمى أصابته » الكامل 381/6 . وذكر الطبري « أنه وجد في فراشه ميتاً » 593/8 . توفي جمادى أولى 207 هـ / 822 - 823 .

(83) يشك في الطواف برأس الأمين في مدينة بغداد .

(84) سبتمبر 813 م .

(85) في الأصول : « محمد بن المنصور » والمثبت من الطبري أنظر عن خروجه الطبري 528/8 .

الحسن بن سهل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن قتلته عملت بما عمله الملوك قبلك وإن عفوت عنه عملت ما لم يعمله الملوك قبلك ، فعفا عنه وناداه بعد ذلك ، وكان كثير الجهاد ، افتتح عدة حصون ، وكان كثير العبادة ، قيل إنه ختم في شهر رمضان ثلاثاً وثلاثين ختمة ، ولما جبر العلماء على القول بخلق القرآن دعوا عليه ، فأهلكه الله / وهم [127/ب] أولاً بخلع نفسه من الخلافة ليؤكِّمها للرَّية الإمام علي لكونهم أولى بذلك ، فلم يتم له ذلك ، فجعل وليَّ عهده علي بن موسى الكاظم⁽⁸⁶⁾ عين أعيان العلويين في ذلك الوقت ، فمات ولم يتيسر له إقامة علوي بعده ، فتوفي المأمون لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين⁽⁸⁷⁾ بأرض الروم غازياً فدفن بطرسوس .

المعتصم :

فولي الخلافة أخوه أبو إسحاق محمد المعتصم ، وكان يقال له المثنى لأنه ثامن الخلفاء ، وثامن أولاد الرشيد ، والثامن من ولد العباس ، واستخلف سنة ثمان عشرة ومائتين ، وملك ثمانية أعوام وثمانية أشهر وثمانية أيام⁽⁸⁸⁾ ، وكان أمياً . وروى الصولي : كان مع المعتصم غلام في المكتب يتعلم معه القرآن ، فمات الغلام ، فقال له الرشيد : يا محمد مات غلامك ، قال : نعم يا سيدي ، وقد استراح من المكتب ، فقال : يا ولدي ، إن المكتب يبلغ بك هذا المبلغ ٩١ وقال لمعلمه اتركه لا تعلمه شيئاً ، فنشأ عامياً يكتب كتابة مشوشة ، ويقرأ قراءة ضعيفة .

وهو أول من أدخل الأتراك الدواوين وكان يتشبه بملوك الأعاجم ، وبلغت غلمانة الأتراك ثمانية عشر ألفاً ، وبعث إلى سمرقند وفرغانة أموالاً كثيرة لشراء الأتراك وألبسهم أطواق الذهب والفضة والديباج⁽⁸⁹⁾ ، فكانوا يركضون الخيل في بغداد ويؤذون الناس وضاعت بهم البلاد ، فشكاهم أهل بغداد إلى المعتصم واجتمعوا / على بابهِ وقالوا : لئن لم تخرج جنودك الأتراك عنا حاربناك ، قال : وكيف تحاربوني وأنتم عاجزون عن محاربتي ؟

[128/أ]

(86) الطبري 554/8 .

(87) 10 أوت 833 م . وذكر الطبري هذا التاريخ كرواية من الروايات ، وعن اختلاف الأقوال فيه أنظر الطبري

650/8 .

(88) أنظر مروج الذهب 459/3 .

(89) أنظر مروج الذهب 465/3 .

قالوا: نُحَارِكُكَ بِسَهَامِ الْأَسْحَارِ وَنُسِيلُ عَلَيْكَ سِیُوفَ الدَّعَاءِ ، فقال : والله لا أطيق ذلك ولكن أنظروني حتى أنظر بلداً أنتقل بهم إليها ولا تنصرون بي وكفوا عني سهام دعائكم ، فبنى مدينة سماها (سُرٌّ مَنْ رَأَى) ⁽⁹⁰⁾ بقرب بغداد وانتقل إليها سنة عشر ومائتين ⁽⁹¹⁾ . وللمعتصم عدة غزوات مع الكفار من أشهرها غزوة عمورية ⁽⁹²⁾ ، ظهرت له فيها اليد البيضاء ونصر فيها الجيلة الحمّدية ، وملخصها أن ملك الروم إذ ذاك من أكبر ملوك النصاري أرسل كتاباً إلى المعتصم يهدّده ، فاستشاط المعتصم غضباً ، وأمر بجوابه فكتب له الجواب ، فلم ترضه عدة كتب كتبها فزق الكتاب الذي ورد عليه ، وأمر أن يكتب في ظهر قطعة منه : «بسم الله الرحمان الرحيم ، الجواب ما تراه لا ما تقرؤه ، وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار» ⁽⁹³⁾ ، ونجّه من ساعته ففنه المنجمون وقالوا له : إن الطالع نحس ، فقال لهم : هو نحس عليهم لا علينا ، وسار يومه وتلاحقته العساكر ⁽⁹⁴⁾ ، ووقع حرب عظيم قتل فيه سبعين ألفاً وأسر منهم ستين ألفاً ، وهرب ملكهم ، وتحصن بحصن عمورية ، فحاصره المعتصم ، ونزل به إلى أن فتحها ، وأسر ذلك الملك الكافر وقتله وكان ذلك من أعظم فتوح الإسلام .

ولكن شأن ملكه بالتعصب لأخيه في القول بخلق القرآن ولولا سابق القضاء والقدر لما دخل في هذه المضائق / وهو أمّي ، ووصلت هذه البدعة حتى لبلاد المغرب ، ودافعها رجال السنة كمحمد بن سحنون - رضي الله تعالى عنه - وأضرابه ، حتى أخذ الله نارها وانقطع شرارها بموت أشرارها ، وانطمست آثارها بهلاك فجّارها .

ولمّا احتضر قال : اللهم [إنك تعلم] أي أخافك من قبلي ، ولا أخافك من قبلك ، وأرجوك من قبلك ، ولا أرجوك من قبلي ، فيا من لا يزول ملكه ، إرحم من زال ملكه ، وتوفي - رحمه الله - يوم الخميس لإحدى عشر ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين ⁽⁹⁵⁾ .

[128/ب]

(90) أي سامرا . مروج الذهب 466/3 . (91) 835 م . أنظر الحديث الكامل لابن الأثير 451/8 .

(92) مروج الذهب 472/3 - 473 .

(93) سورة الرعد : 42 . وفي قراءة : «وسيعلم الكفار...» .

(94) والسبب الذي ذكرته المراجع الزائية يختلف عما قدّمه مقدّيش ، ففي مروج الذهب 472/3 - 473 ، وفي تاريخ الطبري 57/9 - 71 ، يرجع سبب هذا القتل إلى خروج «توفيل ميخائيل ملك الروم إلى بلاد الإسلام واضرا به أهل زبطرة وغيرها» .

(95) 7 جانفي 842 م أنظر الكامل لابن الأثير 524/6 ومروج الذهب 459/3 .

الوائق بالله :

فولّي بعده ولده أبو جعفر هارون ولقب بالوائق بالله ، واستخلف تركياً اسمه أشناس⁽⁹⁶⁾ ولقبه بالسُلطان ، وهو أول خليفة استخلف سلطاناً وألبسه وشاحين مجوهرين وتاجاً مجوهرًا⁽⁹⁷⁾ وتبع أباه [في القول] بخلق القرآن ، ورجع عنه في آخر أمره ، وذلك أنه كان القائم له بهذه البدعة أحمد بن أبي دؤاد لاستيلائه على الواثق حتى رفع إليه أبو عبد الرحمان [عبد الله بن محمد الأهرمي]⁽⁹⁸⁾ بن محمد الأزدي شيخ النسائي ، فقال الشيخ وهو مكبل بالحديد في مناظرته : أخبروني عن هذا الرأي الذي دعوتكم الناس إليه ، هل هو شيء علمه رسول الله ﷺ فلم يدع الناس إليه ، أو هو شيء لم يعلمه ؟ فقال ابن أبي دؤاد : بل علمه ، فقال : أفكان يسهه أن لا يدعو الناس إليه وأنتم لا يسعكم ؟ فبهتوا وضحك الواثق وقام قابضاً على فمه ودخل بيته ومدّ رجله وهو يقول / وسع النبي أن يسكت ونحن لا يسعنا ! وأمر أن يعطى الشيخ ثلاثمائة دينار ، وأن يُردّ إلى بلده ، ولم يمتحن بعدها أحدًا ، وسقط مقام ابن أبي دؤاد من يومئذ⁽⁹⁹⁾ .

وكان الواثق عالمًا⁽¹⁰⁰⁾ شاعرًا مات بِسُرٍّ مَنْ رَأَى يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومائتين⁽¹⁰¹⁾ .

المتوكل على الله :

فولّي بغداد أخوه جعفر المتوكل على الله ، وكان سُنِّيًّا كريماً ، أظهر السنة وأكرم علماء الحديث ، وأمات البدع ، وشنع على الجَهْمِيَّة والمعتزلة⁽¹⁰²⁾ ، وأمر نائبه بمصر أن

(96) في الأصول : « أشناس » والمثبت من الطبري 58/9 . والمعتمد هو الذي قدم أشناس كما مكّنه من القيام بدور حربي هام في فتح عمورية ، نفس المرجع .

(97) أنظر الطبري 124/9 .

(98) إضافة من الطبري .

(99) أنظر الطبري 135/9 - 138 .

(100) في ت : « عالمًا أدبيًا » .

(101) كذا بالأصول والصحيح سنة اثنين وثلاثين ومائتين كما في مروج الذهب 477/3 وابن الأثير 29/9 وغيرهما من المراجع ، ويوافق بالتاريخ الميلادي 30 جويلية 847 .

(102) أنظر مروج الذهب 3/4 .

يخلق لحية قاضي القضاة بمصر أبي بكر محمد بن أبي الليث⁽¹⁰³⁾ ويطاف به الأسواق بمصر على حمار لأنه كان جهمياً معتزلاً ، يقول بالجهة وخلق القرآن ، ففعل به ذلك . ولما كثرت الممالك الأتراك دخلوا في أمر الملك ، واستولوا على المملكة وصار بأيديهم الحلّ والعقد والولاية والعزل ، إلى أن حملهم الطغيان أن سطوا على الخليفة المتوكل لما أراد أن يصادر مملوك أبيه وصيفاً التركي لكثرة ماله وخزائنه [وأقطعها الفتح بن خاقان]⁽¹⁰⁴⁾ فتعصب بيغا⁽¹⁰⁵⁾ التركي وقد انحرف الأتراك عنه ، فدخل باغر⁽¹⁰⁶⁾ عليه ومعه عشرة أتراك وهو في مجلس أنسه وعنده وزيره الفتح بن خاقان بعد أن مضى من الليل ثلاث ساعات فصاح الفتح ، وقال : ويلكم هذا سيدكم وابن سيدكم وهرب من كان حوله من الغلمان والندماء على وجوههم ، وبقي الفتح ، وصار المتوكل غائباً عن حسه من السكر فضره باغر⁽¹⁰⁷⁾ ضربة بالسيف على عاتقه ففداه إلى خاصرته فطرح الفتح نفسه عليه فضرهما باغر / ضربة ثانية فاتا جميعاً⁽¹⁰⁸⁾ فلقيهما معاً في بساط ، ومضى هو ومن معه ولم ينتطح فيها عتزان ، وكان قتله ليلة الأربعاء لليلتين خلتا من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين⁽¹⁰⁹⁾ في القصر الجعفري الذي بناه المتوكل ، ولما قتل دفن فيه وكانت خلافته أربعة عشر عاماً [وعشرة أشهر وثلاثة أيام]⁽¹¹⁰⁾ وعمره إحدى وأربعون سنة⁽¹¹¹⁾ .

المنتصر بالله :

[129/ب]

وولي بعده [بعهد منه]⁽¹¹²⁾ ولده أبو جعفر محمد المنتصر بالله ، فلم يستقل بالملك لاستيلاء الممالك الأتراك على المملكة ، ويقال إنه تواطأ مع الأتراك على قتل أبيه ليُليَ

(103) في الأصول : «محمد بن أبي بكر بن الليث» .

(104) إضافة من ابن الأثير للإيضاح 95/7 .

(105) في الأصول : «باغر» والمثبت من الكامل 97/7 .

(106) أنظر الكامل في التاريخ لابن الأثير 98 - 99 .

(107) ورد في الكامل والطبري أن الذي ضربه بغلول ، وباغر مشارك .

(108) عن خبر مقتل المتوكل ، واشترك باغر وبغا وغيرهما من الأتراك في قتله أنظر الطبري 222/9 - 230 ، ومروج الذهب 33/4 - 40 .

(109) 9 ديسمبر 861 م ، وقبل لأربع خلون من شوال ، الطبري 230/9 . والكامل 100/7 وفي مروج الذهب : «ثلاث خلون من شوال» 3/4 .

(110) المصدرين السابقين اعتماداً على أنه توفي لأربع خلون من شوال .

(111) في الطبري : «أربعون سنة» وفي ابن الأثير : «نحو أربعين سنة» . (112) ساقطة من ت .

الخلافة بعده ، وكان حَذِرًا من الأتراك يسبهم ويقول : هؤلاء قتلوا الخلفاء فلم يؤمنوه وأرادوا قتله فما أمكنهم الإقدام على ذلك لشدة محاذرتهم ، فدرسوا إلى طبيبه ابن طيفور⁽¹¹³⁾ ثلاثين ألف دينار عند توقعه ليسمّه فقصده بمبضع مسموم فأحسن بذلك وأراد قتله ، فقال له إنك تصبح طبيباً وتندم على قتلي ، فامهلني إلى الصبح ، فأمهله فأصبح ميتاً⁽¹¹⁴⁾ . وحكى أنه بات ليلة في وعكه وانتبه فزعاً وهو يبكي ، فسأله أمه⁽¹¹⁵⁾ : ما يبكيك ؟ فقال : أفسدت ديني ودياري ، رأيت أبي الساعة وهو يقول : قتلني يا محمد لأجل الخلافة والله لا تتمتع بها إلا أياماً قلائل ، ثم مصيرك إلى النار⁽¹¹⁶⁾ ، فاستمرّ مهموماً من هذا المنام فما عاش بعد ذلك إلا أياماً قليلة .

وذكر علي بن يحيى المنجم أن المنتصر جلس يوماً للهو ، وأمر بفرش بساط من ذخائر الخزانة / تداولته الملوك ففرش ، فرأى فيه صورة رأس عليه تاج وعليه كتابة [130/أ] بالفارسية ، فطلب من يستخرج تلك الكتابة ، فأحضر لذلك رجل من الأعاجم فقرأها بلسانه وعبّس عند قراءتها ، فسأله المنتصر عنها ، فقال : لا معنى لها ، فألح عليه ، فقال : أنا الملك شيرويه بن كسرى بن هرمز ، قتلت أبي فلم أتمتع بالملك بعده إلا ستة أشهر وهي مشهورة ، فتغيّر وجه المنتصر لذلك وقام من ذلك المجلس ، وترك اللهو الذي أراد ، وصار مغتماً لذلك مهموماً ، فكانت خلافة المنتصر ستة أشهر⁽¹¹⁷⁾ كما توهّمه فأت مفصوداً ، لخمس مضي من ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين⁽¹¹⁸⁾ وكان عمره خمساً وعشرين سنة⁽¹¹⁹⁾ .

ثم ولي بعده عمّه⁽¹²⁰⁾ أبو العباس أحمد المستعين بالله بن المعتصم ، وإنما قدّمه الترك واختاروه على أولاد المتوكل لأنهم كانوا قتلوه فخافوا أن ولي أحد من أولاده أخذ

(113) في الكامل والطبري : « ابن الطيفوري » .

(114) اختلفت الروايات في موت المنتصر ومنها أنه مات من علة الذبحة والمبضع المسموم ... أنظر الكامل 114/7 والطبري 251/9 - 252 .

(115) في الكامل : « سأله عبد الله بن عمر البازيار » 115/7 .

(116) أورد ابن الأثير هذه القصة 115/7 .

(117) الكامل 115/7 .

(118) كذا في الكامل ، « وقيل توفي لأربع خلون من شهر ربيع الآخر » الطبري 251/9 . 8 جوان 862 .

(119) في الأصول : « ست وأربعين سنة » . وفي الكامل والطبري : « وكان عمره خمساً وعشرين سنة ، وقيل أربعاً وعشرين سنة » 115/7 ، 253/9 . وفي تاريخ الخلفاء : « ست وعشرين » ص 357 .

(120) في الأصول : « أخاه » .

بثأر أبيه ، فما كان للمستعين إلا الإسم ، وكانت الممالك الأتراك متولية على الملك ، وكان الأمر كله لوصيف التركي وبغا⁽¹²¹⁾ التركي ، فاستمر كذلك وهو يترصد لهما إلى أن ظفر بوصيف التركي فقتله وبقي بغا التركي الذي كان فتك بالمتوكل وسفك دمه ، وتنكرت حالة الأتراك فخاف [المستعين] وخرج من سر من رأى إلى بغداد فأرسلوا إليه يعتذرون ويسألونه في العود إلى سر من رأى وهو محل الأتراك فامتنع ، وكان فاضلاً ديناً ، اخبارياً مطلعاً على التواريخ / متجمللاً في ملبسه .

المعتر بالله :

ولما امتنع المستعين من العود إلى سر من رأى قصد الأتراك خلعه ، فأتوا إلى الجوسق⁽¹²²⁾ واستخرجوا منه أبا عبد الله محمد بن المتوكل على الله بن المعتصم ، ولقبوه «المعتر بالله» ، وبايعوه وعمره تسعة عشر عاماً ، ولم يل الخلافة أصغر منه سناً ، وخلعوا المستعين بالله في أول سنة إحدى وخمسين ومائتين⁽¹²³⁾ ، وجيشوا إلى بغداد جيشاً كثيفاً على المستعين بالله ، وتقاتل معهم شهراً ، وكثر القيل والقال ، وغلت الأسعار ، وعمّ البلاء ، وتلاشى أمر المستعين بالله إلى أن خلع نفسه وأشهد العدول والقضاة على نفسه بذلك⁽¹²⁴⁾ ، فأخذوه وانحدروا به إلى واسط وحبسوه بها تسعة أشهر ، ثم ندب له سعيد الحاجب فذبجه في الحبس في ثالث شوال سنة اثنين وخمسين ومائتين⁽¹²⁵⁾ ، وله خمس وثلاثون سنة⁽¹²⁶⁾ .

واستمر المعتر بالله خليفة ، وكان جميل الصورة ، مستضعفاً مع الأتراك ، وكان صالح بن وصيف متواريًا على المعتر خائفاً منه ، فاجتمع الجند عليه وطلبوا أرزاقهم ، ووعده أنه إذا أنفق عليهم أرزاقهم ركبوا معه على صالح بن وصيف وقتلوه ، ويصفوه له

(121) في الأصول : «باغر» والمثبت من مروج الذهب 76/4 ، وباغر هو أحد قواد بغا ، وأمر المستعين بغا ووصيف بقتل باغر فقتل سنة إحدى وخمسين ومائتين ، الكامل 137/7 - 138 والطبري 278/9 - 279 .

(122) في الأصول : «الجر» والمثبت من الطبري 284/9 وفي مروج الذهب : «لؤلؤة الجوسق» 77/4 حيث كان المعتر معتقلاً مع أخيه المؤيد .

(123) في الأصول : «اثنين وخمسين ومائتين» ، والمثبت من مروج الذهب والطبري .

(124) الطبري 348/9 .

(125) وفي السعدي : «لست خلون من شوال» 17 أكتوبر 866 .

(126) في الأصول : «إحدى وثلاثون سنة» والمثبت من مروج الذهب 79/4 .

الملك ، ولم يكن له في خزانته مال يصرفه عليهم ، فطلب من أمِّه وكانت تركية اسمها «قبيحة» لفرط جمالها⁽¹²⁷⁾ بين النساء فأبت عليه بالمال وسمحت بولدها وهو خليفة وكان معها مال عظيم ، فاتفق الأتراك على خلعه ، وركب معهم / صالح بن وصيف ، ومحمد ابن بُغا⁽¹²⁸⁾ التركي ، وأتوا إلى دار الخلافة وهجموا على المعتز ، وجَرَّوه برجله وأوقفوه في الشمس ، وعَذَّبوه حتى خلع نفسه⁽¹²⁹⁾ وأدخلوه الحَمَّام ومنعوه شرب الماء حتى مات عطشاً⁽¹³⁰⁾.

المهتدي بالله :

وأحضروا⁽¹³¹⁾ أبا عبد الله محمد بن الواثق بن المعتصم ، ولقبوه المهتدي بالله ، وبايعوه بالخلافة الليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين⁽¹³²⁾ وله بضع وثلاثون سنة⁽¹³³⁾.

وصار صالح بن وصيف إلى قبيحة أمَّ المعتز وعَذَّبها حتى أخذ منها ألف ألف دينار ذهباً ، ونصف أردب⁽¹³⁴⁾ لؤلؤ ومثله زُمُرْد وسدسه ياقوتاً أحمر ثم خرجت إلى مكة فأقامت بها إلى أن ماتت⁽¹³⁵⁾ وقُلِّل الناس الترحُّم عليها حيث ظهر عليها هذا المال ، وشحَّت به على ولدها⁽¹³⁶⁾.

وكان المهتدي بالله كثير العبادة ، ليس له من الأمر شيء ، وكان قد طرَح الملاهي ، ومنع الظلمة من الظلم ، فاتفق الأتراك على خلعه ، وركبوا إلى داره فخرج

(127) سمَّاها المتوكل ، الكامل 200/7 .

(128) في ت : «باغور» وفي ط : «باغر» والمثبت من الطبري 389/9 .

(129) خلع نفسه لثلاث بقين من رجب سنة 255 هـ/868 م الطبري 389/9 مروج الذهب 81/4 .

(130) عن هذه الأخبار أنظر الكامل 195/7 - 196 والطبري 389/9 - 390 . قال : «أدخلوه سرداباً وأطبقوا عليه بابه فأصبح ميتاً وكانت وفاته لليلتين خلتا من شعبان سنة 255 هـ» .

(131) تمَّت بيعته قبل موت المعتز كما أشرنا .

(132) 3 أوت 869 م .

(133) «وله يومئذ سبع وثلاثون سنة ، وقبل تسع وثلاثون سنة» مروج الذهب 96/4 .

(134) الأردب بكيل القاهرة : 6 وبيات .

(135) أنظر الكامل 199/7 - 200 والطبري 393/9 - 394 .

(136) من استنتاج المؤلف .

إليهم وقاتلهم بنفسه إلى أن أمسكوه باليد ، وعروا عليه بطنه إلى أن مات - رحمه الله - في رجب⁽¹³⁷⁾ سنة ست وخمسين ومائتين⁽¹³⁸⁾ فكانت خلافته سنة إلا خمسة عشر يوماً .

المعتمد وحركة الزنج :

ثم ولي الخلافة بعده ابن عمه أحمد - الملقب بالمعتمد - بن أبي جعفر⁽¹³⁹⁾ المتوكل على الله ، أخرجه الترك من الحبس وباعوه على الخلافة في رجب من التاريخ السابق ، فانهمك في اللهو واللذات فقدم أخاه طلحة ابن المتوكل على الله ، ولقبه الموفق بالله ، وجعله ولي عهدده وولاه المشرق والحجاز / واليمن وفارس وطبرستان وسجستان والسند ، وكان [للمعتمد] ولد صغير اسمه جعفر ، لقبه الموفق إلى الله⁽¹⁴⁰⁾ وولاه المغرب والشام والجزيرة وعقد لهما لوائين أبيض وأسود وعقد لهما البيعة ، وشرط على أخيه الموفق أنه إن حدث به حدث الموت وولده صغير ، كان الموفق ولي عهدده ، وكتب له بذلك عدة كتب على كل منها خطه ، وكتب عليها القضاة والعدول خطوطهم ، وأرسلها إلى مكة لتعلق في الكعبة ، فعلفت فيها ، وما أفاد مع هذه التدابير حذر عن قدر ، وما وقع إلا ما قدره الله تعالى ، وكان الموفق عاقلاً مدبراً شجاعاً مشغلاً بأمر المملكة ملتفتاً لحال الرعية ، وكان أخوه المعتمد منكباً على لهو ولذاته ، مهملاً لأحوال رعيته فكرهه الناس وأحبوا أخاه الموفق وظهرت فيه نجاحات كثيرة ، وكان ميموناً مظفراً في الحروب فظهر في أيامه الزنج فتغلبوا على المسلمين وكان صاحب الزنج اسمه يهود ، يدعي أنه أرسله الله إلى الخلق وادعى علم الغيبات فذكر الصولي : أنه قتل من المسلمين ألف ألف وخمسمائة ألف⁽¹⁴¹⁾ ، وكان يستأسر نساء المسلمين ، ويبيعهن بأبخس الأثمان وكان ينادي على العلوية والشيعة بدرهين ، وكان عند الزنجي الواحد عشرة من العلويات الأشراف يطوئن ويخدمون في الخدمة التافهة ، وكان ذلك من أعظم مصائب الإسلام .

وتملك هذا الكافر ، مدناً كثيرة ، أخذها من المسلمين واستأصل أهلها ، كواسط

[131/ب]

[132/أ]

(137) لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب « الكامل 228/7 .

(138) جوان - 870 م .

(139) في الأصول : « أبو جعفر أحمد » والمثبت من الطبري 474/9 . وفي مروج الذهب : « أحمد بن جعفر المتوكل »

وفي الكامل : « أحمد بن المتوكل » .

(140) أنظر مروج الذهب 123/4 .

(141) مبالغة .

ورام هرمرز وما والاها⁽¹⁴²⁾، فانتدب لقتاله الموفق⁽¹⁴³⁾، وجمع العساكر والجنود، وخرج لقتال الزنج فكانت الواقعة عليهم، فقتل كبيرهم يهود واستراح منهم العباد واسترد البلاد التي كانوا استولوا عليها، ورجع الموفق مؤيداً منصوراً ورأس ذلك الكافر ورؤوس كباره على الرماح، فدعا المسلمون للموفق وامتدحه الشعراء، واستمر أخوه منهمكاً، وجميع الأمور جارية على يد الموفق بقلب منشرح، ثم وقعت بينهما وحشة، فكاتب المعتمد أحمد بن طولون صاحب مصر يستنجد على قتال الموفق، فانتدب له وأرسل له العساكر، فجرت بينهم وبين عساكر الموفق حروب وطالت على ذلك أعوام، وكان للموفق ولد نجيب اسمه أحمد جعله وليّ عهده، واستعان به في حروبه ثم خشي منه على نفسه لقوة بطش الولد وبسالته، فأودعه بطن الحبس، ووكل به من يثق به في أموره واستمرّ محبوساً إلى أن حضر أجل الموفق فلما اشتدّ مرضه، وتحقق غلمانه موته بادروا إلى الحبس وكسروه، وأخرجوا منه ولده أحمد وآووه ونصروه⁽¹⁴⁴⁾ ولقبوه المعتضد بالله، وجاءوا به إلى والده الموفق، فلما رآه أيقن بحلول الأجل وقال له: يا ولدي لهذا اليوم خباؤك، وفوّض إليه⁽¹⁴⁵⁾ وأوصاه بعمه المعتمد وكان قبل الموت بثلاثة أيام، فمات سنة ثمان وسبعين ومائتين⁽¹⁴⁶⁾ فشمت في موته المعتمد / فما حال عليه الحول إلا وقد لحق به ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين⁽¹⁴⁷⁾.

المعتضد بالله :

فتولى الملك والخلافة المعتضد، وكان ملكاً مهيباً، ظاهر الجبروت، وافر العقل، شجاعاً يقدم على الأسد وحده، حسن السياسة قليل الرحمة، إذا غضب على أحد ألقاه

(142) اختصر المؤلف خبر قيام الزنج اختصاراً كبيراً حتى بانث وأنها ثورة قصيرة لا حركة متداخلة متشعبة كانت فيها وقائع وحروب بين الزنج والعباسيين على مستويات عدة قبل أن يتحمل الموفق مسؤولية قتالهم، أنظر عن هذه الحركة الثورية الطبري 478/9، 488، 504، 534، 536، 542، 554، 588، 589، 591، 594.

(143) أنظر عن هذه الواقعة الطبري 602/9 والكامل 343/7، 345، 359، 374، 377، 399، 406. بمكة، أنظر الكامل 395/7.

(145) أنظر مروج الذهب 139/4 - 140 والكامل 442/7.

(146) «وخلع الموفق على ابنه أبي العباس» الكامل 443/7.

(147) كذا في الكامل 455/7، 15 أكتوبر 892 م وقبل موته خلع المعتمد ولده المفوض من ولاية العهد وقدم ابن أخيه المعتضد على ولده المفوض، الكامل 452/7 - 453.

في حفرة وطمَّ عليه التراب وأسقط المكوس في أيَّامه ، ورفع الظلم عن رعيتِه فجَدَّد ملك بني العباس بعدما وهى ووهن وأظهر عزَّ الملك ، فكان يسمَّى السَّفاح الثاني حيث جَدَّد كلَّ منهما ملك بني العباس ، ومع ذلك كان يتوخى العدالة ، ويظهر أمورًا في صورة الجبروت والعنف ، وهو في الباطن محقّ فيما يفعله ، وهذا هو الرأي السَّديد للحاكم الرُّشيد لجمعه بين سياسة الدنيا والآخرة بمراعاة ما هو حقّ عند الله تعالى .

نقل الحافظ السيوطي - رحمه الله تعالى - في «تاريخ الخلفاء» عن عبد الله بن حمدون قال (148) : «خرج المعتضد للصَّيْد يومًا وأنا معه فَرَّ بِمَقْتَاة ، فدخلت بعض خيوله فيها ، وصاح صاحبها بالمعتضد ، فأحضره وسأله عن سبب صياحه ، فقال : ثلاثة من غلمانك نزلوا المقتاة فأخربوها ، فأمر عبيده بإحضارهم ، فضرب أعناقهم ومضى وهو يحدثني ، ثم قال : أصدقي يا عبد الله ما الذي ينكر الناس علي من أحوالي ؟ قلت : تسفك الدماء كثيرًا ، فقال : ما سفكت دمًا حرامًا قط منذ وُلِّيت الخلافة ، / فقلت : لم قتلت أحمد بن الطَّيِّب ؟ فقال : إنه دعاني إلى الإلحاد ، وظهر لي منه الإلحاد فقتلته لنصرة الدِّين ، قلت : فالثلاثة الذين نزلوا المقتاة الآن بم استحللت دماءهم ولأني شيء قتلتم ؟ فقال : والله ما قتلتم وإنما أحضرت ثلاثة من قطاع الطريق وأوهمت الناس أنهم هم الذين نزلوا المقتاة وأمرت بضرب أعناقهم ، (ثم انه أحضر صاحب الشرطة فأمره بإحضار الثلاثة الذين نزلوا المقتاة فأحضرهم بأنفسهم وشاهدتهم ، ثم أمر بإعادتهم إلى الحبس) (149) .

وهكذا ينبغي تدبير السياسة وإظهار النصفة وتخويف الجند وإرهابهم ، وأبطل الموارث مما كانوا يأخذونه ظلمًا ، وكتب به إلى الآفاق لأنه كان لا يصل لصاحب الحقّ إلا بعض حقّه وبعض ذلك باق في بعض البلاد خصوصًا مصر ، وكان من قضاته أبو خازم (150) بالخاء المعجمة والراء المهملة ، وهو من أكابر العلماء وأهل الدِّين والتقوى ، فكان من بعض ثباته في الدين أن شخصًا انكسر عليه مال كثير وثبت عليه ذلك عند القاضي المذكور ، فأمر بتوزيع ماله على الغرماء بالمُحَاصَّة ، وكان قد انكسر على ذلك المديون مال للمعتضد أيضًا ، فأرسل للقاضي يطلب أن يشركه مع الغرماء

(148) النقل من ص 368 ، وتصرف المؤلف في النقل بتغيير قليل من الألفاظ وبالزيادة .

(149) ما بين القوسين غير موجود في تاريخ الخلفاء .

(150) في تاريخ الخلفاء : «أبي حازم» .

بالمخاصة ويقول: اجعلني كأحدهم، فقال: لا أحكم المدع بدون بينة عادلة، فأرسل وكيلًا وبينة أرضاها فتكون كأحدهم، فأمر المعتضد شهودًا يشهدون عند القاضي وكانوا من أكابر أمرائه فما حضر أحد منهم إلى القاضي / خوفًا من ردّ شهادتهم، فلم يحكم القاضي للمعتضد فأعجب من ديانته وعدم ميله⁽¹⁵¹⁾ وما أحوج زماننا إلى قضاة مثل هذا خصوصًا في أطراف البلاد، يقول الحقّ ويشته ولا يميل لخواطر الخلق.

وتوفي المعتضد - رحمه الله تعالى - يوم الإثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع⁽¹⁵²⁾ وثمانين ومائتين⁽¹⁵³⁾، فكان مدة ملكه تسع سنين وتسعة أشهر ونصفًا⁽¹⁵⁴⁾.

المكتفي بالله وظهور القرامطة:

ثم تولى بعده ولده أبو محمد علي ولقبَ المكتفي بالله وأخذت له البيعة قبل موت أبيه بثلاثة أيام، وكان المكتفي غائبًا بالرقّة، فقام له بالبيعة الوزير القاسم بن عبيد الله⁽¹⁵⁵⁾، وكتب إليه فوصل إلى بغداد من الرقّة لثمان خلون⁽¹⁵⁶⁾ من جمادى الأولى، وكان حسن السيرة ففرح الناس بخلافته ودعواله.

ومن أعظم الحوادث في أيامه ظهور القرامطة الملقّين⁽¹⁵⁷⁾، الكفرة المفسدين، فأول من خرج منهم يحيى [بن زكرويه]⁽¹⁵⁸⁾ بن مهرويه القرمطي⁽¹⁵⁹⁾ وحل ظهورهم ودار ملكهم هجر، وهم طائفة يستحلون دم الحجاج والمسلمين، يزعمون أن الإمام الحقّ بعد النبي ﷺ محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب⁽¹⁶⁰⁾ - رضي الله تعالى عنهما -

(151) تاريخ الخلفاء ص 371 - 372.

(152) في الأصول: «ست» والمثبت من الكامل 513/7 وغيره من المراجع.

(153) 6 أبريل 902 م.

(154) في مروج الذهب: «ويومين» 143/4.

(155) في الأصول: «أبو الحسن عبد الله بن سليمان» والمثبت من الكامل 513/7 ومروج الذهب 187/4 والطبري 88/10.

(156) في الأصول: «سابع جمادى الأولى»، والمثبت من الكامل والطبري، وفي مروج الذهب: «السبع لبال خلون».

(157) ظهور القرامطة سبق خلافة المكتفي إذ كان ظهورهم في سنة 278 في آخر أيام المعتمد أنظر الطبري 23/10.

(158) إضافة من الطبري للدقة 94/10 - 95، وفي مروج الذهب: «ذكروبة» 190/4.

(159) عن بداية الحركة القرمطية أنظر الطبري 23/10 - 27.

(160) أنظر الطبري 25/10.

فَيَتَسَبَّوْنَ إِلَيْهِ بِالْبَاطِلِ ، وَيَنْسُبُونَ إِلَيْهِ أَقَاوِيلَ لَا أَصْلَ لَهَا ، وَيُكْفِّرُونَ مِنْ عَادَاهُمْ ﴿هُمُ
لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ (161) ، طغاة بغاة فجرة ، وَلَمَّا أَظْهَرَ بِحَيِّى الْقُرْمَطِيُّ
الْخُرُوجَ ، جَهَّزَ الْمَكْتَنِيَّ لَهُ جَيْشًا وَاسْتَمَرَّ الْقِتَالُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ إِلَى أَنْ قُتِلَ الْقُرْمَطِيُّ ، فَقَامَ
بَعْدَهُ أَخُوهُ / الْحُسَيْنُ الْقُرْمَطِيُّ ، وَأَظْهَرَ شَامَةً فِي وَجْهِهِ ، وَزَعَمَ أَنَّهَا آيَتُهُ ، وَظَهَرَ ابْنُ عَمِّهِ
عِيسَى بْنُ مَهْرُوبٍ وَتَلَقَّبَ بِالْمُدَّثِّرِ ، وَزَعَمَ أَنَّهُ الْمُرَادُ فِي السُّورَةِ الشَّرِيفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ (162) وَلَقَّبَ
غُلَامًا لَهُ «بِالْمَطْوُوقِ بِالنُّورِ» ، وَتَسَمَّى بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَزَعَمَ أَنَّهُ الْمَهْدِيُّ ، وَدَعَا لِنَفْسِهِ عَلَى
الْمَنَابِرِ ، وَأَفْسَدَ بِالشَّامِ وَعَاثَ ، فَحُورِبُوا وَقُتِلَ الثَّلَاثَةُ وَطِيفَ بِرُؤُوسِهِمْ فِي الْبِلَادِ سَنَةً
إِحْدَى وَتَسْعِينَ وَمِائَتَيْنِ (163) ، وَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ظَهَرَتْ مِنْهُمْ مَفَاسِدُ يَأْتِي تَفْصِيلُهَا
إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَكَانَتْ مَدَّةُ خِلَافَةِ (164) الْمَكْتَنِيِّ تِسْعَةَ أَعْوَامٍ وَنِصْفًا (165) ، فَلَمَّا أَيقِنَ بِالْمَوْتِ سَأَلَ
عَنْ أَخِيهِ أَبِي الْفَضْلِ جَعْفَرَ بْنِ الْمُعْتَصِدِ فَقِيلَ لَهُ : قَدْ احْتَلَمَ ، فَجَعَلَهُ وَلِيًّا عَهْدَهُ وَلَقَّبَهُ
«الْمُقْتَدِرَ» وَبَوَّعَ لَهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْخَلِيفَةَ بَعْدَهُ (166) ، قَالَ الصُّوْلِيُّ : «سَمِعْتُ الْمَكْتَنِيَّ
يَقُولُ فِي عُلَّتِهِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا : وَاللَّهِ مَا أَسْنَى إِلَّا عَلَى سَبْعِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ صَرَفْتُهَا مِنْ بَيْتِ مَالِ
الْمُسْلِمِينَ فِي أَسْنَى وَأَبْنِيَّةٍ وَعِمَارَاتٍ لَا أَحْتَاجُ إِلَيْهَا» (167) . وَمِنْ جُمْلَةِ مَخْلَفَاتِهِ مِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ صَرَفْتُهَا مِنْ بَيْتِ مَالِ
عَيْنًا ، وَأَمْتَعَهُ وَعَقَارَاتٍ وَأَوَانَ ، فَفِي جُمْلَةِ الْأَمْتَعَةِ سَبْعُونَ أَلْفَ ثَوْبٍ دِيْبَاجَ ، وَكَانَتْ وَفَاتِهِ
لَيْلَةَ الْأَحَدِ لاثْنَتَيْ (168) عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ الْحَرَامِ سَنَةَ خَمْسٍ وَتَسْعِينَ
وَمِائَتَيْنِ (169) .

المقتدر بالله وقيام أبي طاهر القرمطي :

وَوَلَّى بَعْدَهُ أَخُوهُ أَبُو الْفَضْلِ جَعْفَرُ الْمُقْتَدِرُ بِاللَّهِ ابْنُ الْمُعْتَصِدِ بِاسْتِخْلَافِ أَخِيهِ ، بَايَعَهُ
النَّاسَ وَعَمَرَهُ ثَلَاثَةَ عَشَرَ عَامًا .

(161) سورة آل عمران : 167 . أنظر الديري 108/10 . 903 - 904 م .

(162) المدثر . (164) في الأصول «ملك» .

(165) في مروج الذهب : «ست سنين وسبعة أشهر واثنين وعشرين يومًا وقيل ست سنين وستة أشهر وستة عشر يومًا
على تباين الناس في تواريخهم» 4/186 ، وفي الكامل : «ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يومًا» .

(166) الكامل 8/9 - 8 .

(167) هنا ينتهي كلام الصولي ، أنظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 377 .

(168) في مروج الذهب : «لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة» .

(169) 13 أوت 908 م .

ووليّ الخلافة ثلاث مرات : هذه الأولى / فتغلّب عليه الجند لصغر سنّه فخلعوه [134/ب] وعقدوا البيعة لأبي العباس عبد الله بن المعتزّ بن المتوكلّ بن المعتصم ، ولقبوه «الراضي بالله»⁽¹⁷⁰⁾ وبابعهو عشر بقيت من ربيع الأول سنة ست وتسعين ومائتين⁽¹⁷¹⁾ ، وخلّج من يومه فكانت الأولى إسقاطه من الخلفاء ولكن ذُكرَ لفضله ، قال المعافى بن زكرياء : لما بويع ابن المعتز دخلتُ على شيخنا محمد بن جرير الطبري المحدث المشهور فقال لي : ما الخبر؟ فقلت له : بويع بالخلافة لعبد الله بن المعتز ، قال : فمن رشّح لوزارته؟ قلت : محمد بن داود قال : فمن قاضيه؟ قلت : أبو المثنى ، فأطرق قليلاً ثم قال : هذا أمر لا يتّيم ، قلت ولم؟ قال : كلّ أحد ممّن ذكرت ذوشأن عظيم متّقدّم في علمه وفضله ، وإن الدنيا مؤبّنة والزّمان مُدبّر ، ولا مناسبة لأحد ممن ذكرت برئاسة في مثل هذا الزّمان ، وما أرى هذا العِقد إلّا إلى الإِنْحلال ، فقدّر الله أنهم خلعوه في ذلك اليوم⁽¹⁷²⁾ .

فإن عبد الله بن المعتز لما عقدت له الخلافة أرسل إلى المقتدر يأمره بإخلاء دار الخلافة⁽¹⁷³⁾ ، وأن يذهب إلى دار محمد بن طاهر لينظر في أمره ، فلمّا جاء الرسول إلى المقتدر وبلغه الرّسالة قال : ليس له عندي جواب إلّا السّيف ، ولبس السلاح وركب معه جماعة قليلة من خدمه وهم مستسلمون للقتال في غاية الخوف والرّعب ، وهجموا على عبد الله بن المعتز فهاله ذلك وألقى الله في قلبه / الرعب فانهزم هو ووزيره⁽¹⁷⁴⁾ وقاضيه ، وكلّ من في ديوانه ظناً أن خلف هؤلاء أعواناً وأنصاراً ، وقبض المقتدر على عبد الله بن المعتز⁽¹⁷⁵⁾ وعلى بعض الأمراء والفقهاء ، فقتل منهم من أراد وحبس عبد الله بن المعتز ثم أخرج من الحبس ميّتاً واستقام الأمر للمقتدر .

وهذه ثاني ولايته : فسار أحسن سيرة واستقام أمره بعد الإضمحلال ، واستوزر أبا الحسن علي بن محمد بن الفرات⁽¹⁷⁶⁾ فسار أحسن سيرة ، واستقرّ في الخلافة إلى سنة سبع عشرة وثلاثمائة⁽¹⁷⁷⁾ .

(170) في الأصول : «الغالب بالله» والمثبت من الطبري الذي عاش هذه الأحداث .

(171) 908 م .

(172) أنظر الكامل : 14/8 .

(173) «التي كان يقيم فيها المعتز» الكامل 15/8 .

(174) محمد بن داود بن الجراح .

(175) قبل ذلك هرب ابن المعتز إلى الصحراء .

(176) في سنة تسع وتسعين ومائتين . مروج الذهب 213/4 . (177) 929 م .

فخرج مؤنس الخادم⁽¹⁷⁸⁾ على المقتدر ، فركب ومعه الجيش والأمراء وجاءوا إلى دار الخلافة فهرب خواص المقتدر من داره ونهبوا دار الخلافة ، فكان مما نهبوا ستائة ألف دينار لأم المقتدر فأشهد المقتدر على نفسه بالخلع لأربع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة سبعة عشر وثلاثمائة⁽¹⁷⁹⁾ وأحضر أخوه أبو منصور محمد بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل ابن المعتصم ، وبايعه مؤنس والأمراء ولقبوه «القاھر بالله» وفوضت الوزارة إلى أبي علي بن مقلّة الكاتب المشهور ، وجلس القاھر يوم السبت فكتب ابن مقلّة⁽¹⁸⁰⁾ إلى سائر البلاد ، وعمل يوم الإثنين الديوان ، فجاء الجند يطلبون منه انعام الجلوس ، فارتفعت الأصوات ، فنعهم الحاجب من الدخول إلى الخليفة ، فقتلوه ومالوا إلى دار مؤنس وأخرجوا المقتدر من الحبس ، وحملوه على أعناقهم إلى دار الخلافة ، وجلس على السرير / وأتوا بأخيه مُحَمَّد القاھر إليه وهو مقهورٌ يبكي ، ويقول : الله الله يا أخي في روجي⁽¹⁸¹⁾ ، فاستدناه المقتدر وقبله بين عينيه وقال له : يا أخي لا ذنب لك ، وأنت مغلوب على أمرك والله لا ينالك مني ما تكره فطبّ نفساً وقرّ عيناً . ولما زال روعه آوى إليه أخاه وقال : ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾⁽¹⁸²⁾ وبذل المقتدر الأموال للجند واسترضاهم وثبتت له الخلافة .

[135/ب]

وهذه المرّة الثالثة : وهي الثابتة لآخر عمره ، وكان كثير الجود والعطاء في الحجّ وغيره بشيء خارج عن المعتاد ، وله أبهة عظيمة ، فن ذلك أنه قدِمَتْ عليه رُسُلُ ملك الروم يهدايا يطلب الهدنة ، فعمل المقتدر موكباً عظيماً لإرهاب العدو⁽¹⁸³⁾ فأقام مائة وستين ألف مقاتل بالسِّلاح الكامل سِمَاطين من باب الشَّماسية إلى دار الخلافة بتعداد يَمُرُّ الرسل بينهما في هذه المسافة ، وأقام بعدهم الخدّام وهم سبعة آلاف خادم ، ثم الحجاب وهم سبعمائة حاجب ، وكانت الستور التي نصبت على حيطان دار الخلافة ثمانمائة وثمانين ألف ستر من الدِّيَّاج ، وكانت البسط التي فرشت على الأرض اثنين وعشرين ألف بساط ، وفي الحضرة مائة سبع بسلاسل الذهب والفضّة ومن ذلك برد فيه شجرة

(178) ابن الأثير 200/8 - 201 .

(179) فيفري 929 م .

(180) الكامل 202/8 ، مروج الذهب 221/4 .

(181) في الكامل : «نفسى» ، أذكر الرحم التي بيني وبينك » 206/8 .

(182) سورة يوسف : 69 .

(183) عن حرب المقتدر مع الروم أنظر الكامل : 233/8 - 235 .

صيغت من الذهب والفضة والجواهر ، تشتمل على ثمانية عشر غصناً أوراقها من الذهب والفضة وأغصانها تتأيل بحركات مصنوعة ، وعلى الأغصان طيور من ذهب وفضة تنفخ فيها الريح ، فيسمع لكل طير / تغريد وصفير خاص .

وفي أيام المقتدر كان ظهور أبي طاهر القرمطي⁽¹⁸⁴⁾ في عسكر جرّار ، فدخلوا بخيلهم وسلاحهم إلى المسجد الحرام ، ووضعوا السيوف في الطائفين والمصلين والناس مجردون محرمون في إحراماتهم ، إلى أن قتلوا في المسجد الحرام ومكة وشعابها ثلاثين ألف إنسان ، وركض أبو طاهر بسيفه مشهوراً في يده وهو سكران يُصفرُ بفرسه عند البيت الحرام ، فبالَ وراثَ والحجّاج يطوفون حول البيت العتيق والسيوف تنوشهم ، فقتل في المطاف الشريف ألف وسبعمائة طائف وطمي بأشلاء الشهداء بثر زمزم⁽¹⁸⁵⁾ وما بمكة من آبار وحفر قد ملئت بهم ، وطلع أبو طاهر إلى الكعبة وقلع بابها وهو يقول :

[رمل]

أنا بالله وبالله أنا نخلق الخلق وأفنيهم أنا

وصاح في الحجّاج «يا حمير أنتم تقولون ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾⁽¹⁸⁶⁾ فأين الأمن ؟ وقد فعلنا ما فعلنا » فأخذ شخص بلجام فرسه فقال وقد استسلم للقتل : معنى الآية الشريفة ليس ما ذكرت ، وإنما معناها من دَخَلَهُ فَأَمِنُوهُ ، فلوى أبو طاهر عنان فرسه عنه ولم يلتفت إليه وصانه الله تعالى ببركة بذل نفسه في سبيل الله وتوكّله عليه ، وأراد قلع الميزاب وكان من ذهب فأطلع قرمطياً ليقبله⁽¹⁸⁷⁾ فأصيب بسهم من أبي قبيس فما أخطأ نحره وخر ميتاً وأمر آخر مكانه فسقط من فوق إلى أسفل على رأسه ميتاً ، فهاب الثالث الإقدام على القلع / فضى أبو طاهر وتركه على رغم أنفه ، وقال : أتركه حتى يأتي صاحبه ، أعني المهدي الذي يزعمون أنه يخرج فيهم ، وقتل من فقهاء المذاهب وعلماء الأمة وأعيان الصوفية ومن الحجّاج الأفاكية : مغاربة وخرّسانيين وما بين ذلك ، ما لا يحصى ولا يعد ولا يستقصى ، وسُبيت نساؤهم وذرايرهم ، ونُهبت دور أهل مكة حتى افترقوا بعدها ، ولم يقف بالجلبل هذه السنة إلّا نفر يسير فوقفوا بدون إمام ، سمحوا بأنفسهم ابتغاء مرضاة الله

(184) أنظر الكامل 207/8 - 208 .

(185) الكامل 208/8 .

(186) سورة آل عمران : 97 .

(187) في الأصول : «ليقه» والمثبت من الكامل 208/8 .

فَسَلَّمَهُمُ اللَّهُ حَتَّى أَكْمَلُوا حَجَّهْمُ ، وَأَخَذَ أَبُو طَاهِرٍ خَزَائِنَ الْكَعْبَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَكِسَاةَ الْكَعْبَةِ وَحِلْيَتِهَا مَعَ مَا نَهَبَهُ مِنَ الْحِجَّاجِ فَقَسَّمَهُ فِي أَصْحَابِهِ ، وَأَرَادَ أَخَذَ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ فَغَيَّبَهُ السُّدَنَةُ فِي بَعْضِ شُعَابِ مَكَّةَ فَتَأَلَّمَ وَدَعَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي سِلَاحِ الْبَنَاءِ وَأَمْرَهُ بِقَلْعِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ مِنْ مَحَلِّهِ فَقَالَهُ بَعْدَ الْعَصْرِ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ لِأَرْبَعِ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ وَصَارَ يَتَرَدَّدُ فِيهِ بِقَوْلِهِ - قَاتَلَهُ اللَّهُ - :

[طويل]

فَلَوْ كَانَ هَذَا الْبَيْتُ لِلَّهِ رَبَّنَا لَصَبَّ عَلَيْنَا النَّارُ مِنْ فَوْقُنَا صَبًّا
لَأَنَا حَجَجْنَا حَجَّةَ جَاهِلِيَّةٍ مَحَلَّةٍ لَمْ تَبْقَ شَرْقًا وَلَا غَرْبًا
وَأَنَا تَرَكْنَا بَيْنَ زَمَرٍ وَالصَّفَا جَنَائِزَ لَا تَبْغِي سِوَى رَبِّهَا رَبًّا

وَقَلَعَ ذَلِكَ الْكَافِرُ قُبَّةَ زَمَرٍ وَبَابَ الْكَعْبَةِ وَأَقَامَ بِمَكَّةَ أَحَدَ عَشْرِ يَوْمًا وَقِيلَ سِتَّةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى بَلَدِ هَجَرَ وَحَمَلَ / مَعَهُ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ⁽¹⁸⁸⁾ يَرِيدُ أَنْ يُحَوِّلَ الْحَجَّ إِلَى مَسْجِدِ ضِرَارٍ الَّذِي سَمَّاهُ دَارَ الْهَجْرَةِ وَعَلَّقَهُ فِي الْأُسْطُوَانَةِ السَّابِعَةِ مِمَّا يَلِي حَجْرَةَ الْجَامِعِ الْغُرِّيَّةِ مِنَ الْمَسْجِدِ ، وَبَقِيَ مَوْضِعُ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ خَالِيًا يَضَعُ النَّاسُ أَيْدِيَهُمْ فِيهِ وَيُلْثَمُونَهُ تَبَرُّكًا بِمَحَلِّهِ ، وَأَمْرُ هَذَا الْفَاجِرِ أَنْ يَكْتُبَ لِعُبَيْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ أَوَّلَ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الْفَاطِمِيِّينَ الْقَائِمِينَ بِالْمَغْرِبِ ، - حَسْبَمَا يَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ شَرْحَ حَالِهِ - وَكَانَ أَوَّلَ ظَهْوَرِهِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُبَيْدُ اللَّهِ الْمَذْكُورُ فَكُتِبَ إِلَيْهِ : « إِنْ أَعْجَبَ الْعَجَبُ إِرْسَالَكَ بِكِتَابِكَ إِلَيْنَا مِمَّنَّا بِمَا ارْتَكَبْتَ فِي بَلَدِ اللَّهِ الْأَمِينِ مِنْ انْتِهَاكَ حَرَمَةَ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ مُحْتَرَمًا جَاهِلِيَّةً وَإِسْلَامًا ، وَسَفَكَتَ فِيهِ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ ، وَفَتَكْتَ بِالْحِجَّاجِ وَالْمُعْتَمِرِينَ ، وَتَجَرَّأْتَ وَتَعَدَّيْتَ عَلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَقَلَعْتَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدَ الَّذِي هُوَ بَيْمَنُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ يَصَافِحُ بِهَا عِبَادَهُ وَحَمَلْتَهُ إِلَى أَرْضِكَ ، وَرَجَوْتَ أَنْ أَشْكُرَكَ ، فَلَعْنُكَ اللَّهُ ثُمَّ أَبْعَدَكَ اللَّهُ ، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ سَلَّمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَقَدِمَ فِي يَوْمِهِ مَا يَنْجُو بِهِ فِي غَدِهِ » ، فَلَمَّا وَصَلَ كَتَبَ عُبَيْدُ اللَّهِ الْمَهْدِيُّ إِلَى أَبِي طَاهِرٍ الْقَرْمَطِيِّ ، وَعَرَفَ مَا فِيهِ انْحِرَافٍ عَنْ طَاعَتِهِ وَاسْتَمَرَّ الْحَجَرُ عَنْدهُمْ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ سَنَةً⁽¹⁸⁹⁾ ، يَسْتَجْلِبُونَ بِهِ النَّاسَ طَمَعًا أَنْ يُحَوِّلَ الْحَجَّ إِلَى بِلَدِهِمْ ، وَيَأْبَى اللَّهُ ذَلِكَ ، وَهَذِهِ مِنْ أَعْظَمِ مَصَائِبِ الْإِسْلَامِ ، / وَاسْتَمَرَّتْ حَسْرَتُهَا فِي

[137/أ]

[137/ب]

(188) الكامل 207/8 .

(189) ذكر ابن الأثير : « أَنَّهُ لَمَّا وَصَلَهُ كِتَابُ الْمَهْدِيِّ أَعَادَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدَ عَلَى مَا نَذَرَهُ وَاسْتَعَادَ مَا أَمَكَنَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ

مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ » . الكامل 208/8 .

قلوب أهل الإيمان إلى أن دمر الله تلك الطائفة ، وابتلى الله أبا طاهر هذا بأكلة فصار يتناثر لحمه بالدود ومات أسوأ ميتة بعد أن عذَّب بأنواع العذاب ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ (190) . ولما يثست القرامطة من تحويل الحجاج حجَّهم ردَّوا الحجر الأسود إلى محلِّه ، وورد سنبر بن الحسن القرمطي إلى مكة يوم النحر يوم الثلاثاء عاشر ذي الحجة سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة (191) ومعه الحجر الأسود (192) ، فلما بلغ الكعبة حضر معه أمير مكة أبو جعفر محمد بن الحسن بن عبد العزيز العبَّاسي ، فأظهر سقفاً أخرج منه الحجر الأسود وعليه ضباط من فضة في طوله وعرضه لضبط شقوق فيه ، وأحضر معه جصاً يشده به ، فوضع حسن بن المزوق البناء الحجر في مكانه الذي قُلِعَ منه ، وقيل وضعه سنبر بيده ، وقال : أخذناه بقدرة الله تعالى وأعدناه بمشيئته ، وقد أخذناه بأمر ورددناه بأمر ، ولما أعيد الحجر الأسود إلى مكة حمل على قُعود هزيل فسمن ، وكان لما ذهبوا به مات تحته أربعون رجلاً ، وكانت مدة استمراره عند القرامطة اثنين وعشرين سنة إلا أربعة أيام ، وكان المنصور بن القائم بن المهدي العبَّيدي ، أرسل أحمد بن أبي سعيد القرمطي - أخا طاهر - بخمسين ألف دينار ذهباً في الحجر الأسود لرده فلم يفعل ، وكذا بذل بجكِّم التركي مدبر الخلافة خمسين ألف دينار للقرامطة على ردِّ الحجر فأبوا ، وقالوا : أخذناه بأمر ولا نردّه إلا بأمر / حتى أراد الله رده فرُدَّ ، ثم إن الحجة خافوا على الحجر الأسود من استطالة يد خائن إليه لعدم استحكام بنائه فقلعوه وجعلوه في البيت العتيق حفظاً له ، ثم أمروا صانعين فصنعوا له طوقاً من فضة وزنه ثلاثة آلاف وسبعة وثلاثون درهماً ، فطوقوا به الحجر وشدّوا عليه به وأحكموا بناءه في محلّه كما كان كذلك قديماً وكما هو الآن .

ثم إن المقتدر وقع بينه وبين مؤنس حرب (193) فتوغل في المعركة فضربه واحد من البربر من خلفه فسقط إلى الأرض ، فقال لضاربه : ويليك أنا الخليفة ، فقال : أنت المطلوب ، فذبحه بالسيف سنة عشرين وثلاثمائة (194) ورفع رأسه على الرمح وسلب ما عليه

(190) سورة طه : 127 .

(191) 20 ماي 951 وفي التوقيفات الإلهامية في مقارنة التواريخ المجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية لمحمد مختار باشا :

«رجع الحجر الأسود إلى مكانه في محرّم من نفس السنة» . 371/1 .

(192) عن رجوع الحجر الأسود أنظر الكامل 486/8 .

(193) سماها الكامل : «وحشة» وتعدّدت ، أنظر 224/8 و 232 و 237 .

(194) 932 م .

وحفر له ودفن وأخفى أثره ، فكانت مدة خلافته من أولها أربعاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وستة عشر يوماً⁽¹⁹⁵⁾ .

القاهر بالله والراضي بالله :

وولي مكانه أخوه أبو منصور محمد بن المعتضد ، ولقب القاهر بالله ، ثم سملوا عينه⁽¹⁹⁶⁾ . وجاءوا بأبي العباس محمد⁽¹⁹⁷⁾ بن المقتدر بالله بن المعتضد ولقبه «الراضي بالله» ، وبابعه سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة⁽¹⁹⁸⁾ .

المتقي بالله :

وبويح لأخيه أبي العباس⁽¹⁹⁹⁾ إبراهيم بن المقتدر بعده ، ولقب «المتقي بالله»⁽²⁰⁰⁾ [وذلك سنة تسع وعشرين وثلاثمائة]⁽²⁰¹⁾ . وقبض عليه تُوْزُون التركي ، وسمل عينيه في صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة⁽²⁰²⁾ [ونخلعه]⁽²⁰³⁾ .

المستكفي بالله :

وبويح بعده لابن عمّه أبي القاسم عبد الله بن المكني بالله بن المعتضد بالله ، ولقب «المستكفي بالله» واستمرّ في خلافته سنة واحدة ، وقبض عليه معز الدولة بن بُوَيْه ، وسمل

(195) في الأصول : «خمساً وعشرين سنة إلا أياماً» والثبت من الكامل ومروج الذهب 202/4 .

(196) «كانت خلافته سنة وستة أشهر وستة أيام» مروج الذهب 221/4 .

(197) كذا عند السيوطي في تاريخ الخلفاء ص 390 ، وفي مروج الذهب 221/4 ، والأوراق للصولي ص 1 وعند ابن الأثير 244/8 ، وابن كثير: البداية والنهاية 178/11 ، وعند أبي الفداء الأيوبي في المختصر : «أحمد بن المقتدر» 80/2 .

(198) 933 م .

(199) في مروج الذهب : «أبو إسحاق» 247/4 .

(200) في مروج الذهب : «المتقي لله» 247/4 .

(201) 940 م .

(202) 944 م . (203) مروج الذهب 247/4 ، وابن الأثير 418/8 - 419 .

عينه [وخلع في شعبان سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة⁽²⁰⁴⁾] ، وضّمه إلى / الممتني بالله والقاهر [138/ب] بالله وصاروا ثلاثة أثافي⁽²⁰⁵⁾ في العمي .

المطيع لله :

وولي الخلافة أبو القاسم الفضل بن المقتدر بن المعتضد ، ولُقّب «المطيع لله» وبويع له بالخلافة في سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، وكان ردّ الحجر الأسود من بلاد هَجَرَ إلى الكعبة في أيام المطيع هذا ، وتمّ أمره على ضعف الخلافة واستيلاء بني بويه على الملك ، وطالت أَيْامُهُ إلى أن خلع نفسه [في منتصف ذي القعدة سنة ثلاث وستين⁽²⁰⁶⁾] .

الطائع لله :

وبويع لولده أبي الفضل عبد الكريم سنة ثلاث وستين وثلاثمائة⁽²⁰⁷⁾ ، ولُقّب «الطائع لله» ، وكان مغلوباً عليه من قبل أمرائه ، وما كان له من العظمة إلّا ظاهراً لا غير ، بحيث لما ورد في سنة تسع وستين وثلاثمائة⁽²⁰⁸⁾ رسول العزيز بالله بن المعز العبيدي صاحب مصر إلى بغداد ، سأل عضد الدولة بن بويه وهو يومئذ ملقّب بالسلطنة من الطائع ويده أمر المملكة أن يزيد في ألقابه ، ويقال له «تاج المِلَّة» ويحدّد له الخلع ويلبسه التاج فأجابه إلى ذلك ، فجلس الطائع على سرير عال ، وأوقف حوله مائة سيف مسلول وبين يديه مصحف عثمان - رضي الله تعالى عنه - وعلى كتفه بُرْدَةُ النَّبِيِّ ﷺ ويده قضيبه ﷺ متقلداً سيفه ﷺ وكان جميع ذلك مما يتوارثه الخلفاء ويجعلونه

(204) أنظر مروج الذهب 276/4 والكمال 450/8 - 451 ، 945 - 946 .

(205) في الأصول : «أنا في العمي» والأثافي ، ويقال أثاف مفردة أثفية ، حجر مثل رأس الإنسان ، والحجر توضع عليه القدر وهو المقصود في النص ، أنظر تاج العروس 58/10 .

(206) 8 أوت 974 م . قال ابن الأثير في خبر خلع المطيع : «وكان به مرض الفالج وقد ثقل لسانه ، وتعدّرت الحركة عليه ، وهو يستر ذلك ، فأنكشف حاله لسبكتكين هذه الدفعة فدعاه إلى أن يخلع نفسه من الخلافة ويسلمها إلى ولده الطائع لله» ، الكامل 637/8 .

(207) 973 م .

(208) 979 - 980 م .

[139/أ]

لما كبرهم العامة ، واحتجب بستارة عالية حتى لا يقع عليه نظر الجند قبل رفع الستارة ، وحضر الجند من الأتراك والدَّيْلَم ، ووقف / أرباب المراتب صفين ، ثم أذن لعضد الدولة فدخل ، ثم رفعت الستارة وقبّل الأرض ، ودخل رسول العزيز صاحب مصر فهاله ما رأى وارتاع وقال لعضد الدولة : هذا⁽²⁰⁹⁾ هو الله ؟ فقال له : بل هو خليفة الله في أرضه ثم استمرّ عضد الدولة يمشي ويُقبّل الأرض سبْعًا ، فالتفت الطائع إلى خادمه المُقَرَّب منه واسمه خالص وقال له : استندنه وقَرِّبه ، فصعد عضد الدولة وقبّل الأرض دفعتين وقال له الطائع : أدن إلي ، فدنا وقبّل رجله ، فثنى الطائع يمينه عليه وأمره فجلس على كرسي وضع له قريبًا من السَّرِير ، فاستغفى عضد الدولة من ذلك ، فأقسم عليه فجلس وقبّل الكرسي لما جلس عليه ، فلما استقرّ جالسًا قال له الطائع : قد فوّضت إليك ما وكلّ الله إليّ من أمور الرعية في مشرق الأرض ومغربها فقال : يعينني الله على طاعة أمير المؤمنين وقبّل الأرض فأمر أن يفاض عليه سبع خلع فأفيضت عليه وهو يقبّل الأرض في كلّ واحدة ، وانصرف فانصرف الناس خلفه وقد هالهم ما رأوه واستعظموا ما شاهدوه ، وما كانت هذه العظمة إلّا صورة صناعية لا حقيقة لها .

فإن السُّلْطَنَةَ لَمَّا آلت إلى أبي نصر⁽²¹⁰⁾ ، ركب الطائع إليه وخلع عليه سبع خلع فأفيضت عليه ، وطوّقه بطوق مجوهر وسوّره بسوارين ولقّبه « بهاء الدولة » و« ضياء الدولة »⁽²¹¹⁾ في سنة تسع وسبعين وثلاثمائة⁽²¹²⁾ . [وفي محرّم سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة]⁽²¹³⁾ جاء بهاء الدولة إلى الطائع / وقبّل الأرض بين يديه ، وأمر خدّامه من الدَّيْلَم فجذبوا الطائع من سريه ولقّوه في كساء وأمره بهاء الدولة أن يخلع نفسه ففعل .

[139/ب]

(209) في تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 408 ، أن قائل ذلك هو زياد القائد لا رسول العزيز صاحب مصر .

(210) بعد أن تولّاها في العراق شرف الدولة أبو الفوارس شيرزِيل بن عضد الدولة . ابن الأثير 61/9 .

(211) الكامل 62/9 .

(212) 989 - 990 م .

(213) إضافة للتوضيح ، مارس 991 م .

القادر بالله :

وَأُتِيَ بِأَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنَ إِسْحَاقَ بْنِ الْمُقْتَدِرِ ، وَلَقِبَهُ « الْقَادِرُ بِاللَّهِ » ⁽²¹⁴⁾ وَبُيْعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ لِعَشْرِ مَضِينَ مِنْ رَمَضَانَ ⁽²¹⁵⁾ مِنْ ذَلِكَ الْعَامِ ، وَكَانَ عَلَى غَايَةِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالذِّيَانَةِ وَالصَّيَانَةِ وَالْفَضْلِ ، صَنَّفَ كِتَابًا فِي الرَّدِّ عَلَى الْقَائِلِينَ بِخُلُقِ الْقُرْآنِ ، وَأَمَرَ أَنْ يُقْرَأَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ فِي حِلَقِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ [بِجَامِعِ الْمَهْدِيِّ] ⁽²¹⁶⁾ بِحَضْرَةِ النَّاسِ ، وَعَدَّهُ ابْنُ الصَّلَاحِ فِي كِبَارِ الشَّافِعِيَّةِ وَذَكَرَهُ فِي طَبَقَاتِهِ ، وَطَالَتْ مَدَّةُ خِلَافَتِهِ حَتَّى نَفِثَ عَلَى إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ [وَعَشْرُونَ يَوْمًا] ⁽²¹⁷⁾ وَتَوَفَّى - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَعَشْرِينَ وَأَرْبَعِمِائَةَ ⁽²¹⁸⁾ .

القائم بأمر الله :

وَوَلَّى بَعْدَهُ بَعْهْدٍ مِنْهُ وَلَدُهُ أَبُو جَعْفَرٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْقَادِرِ بِاللَّهِ ، وَلَقَّبَ « الْقَائِمُ بِاللَّهِ » وَكَانَ خَيْرًا دِينًا ، بُيْعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ يَوْمَ مَوْتِ أَبِيهِ بِحَضْرَةِ الْإِمَامِ الْكَبِيرِ الْوَلِيِّ الشَّهِيرِ ، أَبِي إِسْحَاقَ الشِّيرَازِيِّ أَحَدِ أُمَمَةِ الشَّافِعِيَّةِ ، وَكَانَ خَيْرَ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَصَالِحِهِمْ ، وَمِنْ جَمَلَةِ صَلَاحِهِ وَبِرْكَتِهِ أَنَّ السُّلْطَانَ مَلِكَ شَاهٍ مِنْ آلِ سُبُكْتِكِينَ قَصَدَ أَنْ يَتَحَكَّمَ عَلَيْهِ وَيُظْهَرَ لَهُ الْحَيْفَ وَالْخَلْفَ عَلَى الْخَلِيفَةِ الْمَذْكُورِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ : لَا بَدَأَ أَنْ تَتْرَكَ لِي بَغْدَادَ ، وَتَذْهَبَ إِلَى أَيْ بِلَدٍ شِئْتَ ، فَأَرْسَلَ الْخَلِيفَةُ إِلَيْهِ يَتَلَطَّفُ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَأَبَى إِلَّا شِدَّةً وَغِلْظَةً ، فَقَالَ لِرَسُولِهِ : اسْأَلْهُ / الْمَهْلَةَ لِي وَلَوْ شَهْرًا ، فَأَبَى وَقَالَ : وَلَا سَاعَةً ، [140/أ] فَأَرْسَلَ إِلَى وَزِيرِهِ فَاسْتَمَهَلَهُ عَشْرَةَ أَيَّامٍ فَأَمَهَلَهُ ، فَصَارَ الْخَلِيفَةُ يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ ، وَيَتَضَرَّعُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَيَضَعُ خَدَّهُ عَلَى التُّرَابِ وَيُنَاجِي رَبَّ الْأَرْبَابِ ، وَيَدْعُو عَلَى مَلِكِ شَاهٍ ، فَنَفَذَ دَعَاؤَهُ فَهَلَكَ السُّلْطَانُ مَلِكُ شَاهٍ قَبْلَ مَضِيِّ الْعَشْرَةِ أَيَّامٍ ، وَكَانَتْ وَفَاةُ الْخَلِيفَةِ الْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ فِي [الثَّلَاثِ عَشَرَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ سَبْعٍ وَسِتِينَ وَأَرْبَعِمِائَةَ] ⁽²¹⁹⁾ وَوَلَّى

(214) ويعرف بالإمام القادر بالله ، لمعرفة بأمور الدين وتصنيفه كتابًا على مذهب السنة .

(215) في الكامل : « دخل دار الخلافة ثاني عشر رمضان » 81/9 .

(216) ابن الأثير 414/9 .

(217) ابن الأثير 414/9 - 415 .

(218) 1030 - 1031 م .

(219) 3 أفريل 1075 م أنظر الكامل 96/10 .

بعده ابنه المقتدي بأمر الله ، عبد الله بن مُحَمَّد وتوفي في خامس عشر المُحَرَّم [220] سنة سبع وثمانين وأربعمائة (221).

المستظهر بالله :

وولِّي بعده ولده أبو العباس أحمد ولُقِّب «المستظهر بالله» ببيع له بالخلافة يوم موت أبيه (222) ، وكان كريم الأخلاق حافظاً للقرآن ، عالماً فاضلاً ، وكان قد غلب عليه سلاطين آل سلجوق ، ومُدَّة خلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر ، وتوفي يوم الأربعاء سادس عشر ربيع الآخر (223) سنة اثنتي عشرة وخمسمائة (224).

المسترشد بالله :

وولِّي بعده ولده أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله ، ولُقِّب «المسترشد بالله» ، وببيع له بالخلافة يوم مات والده ، وكان شجاعاً دِيناً مشغولاً بالعبادة ، حفظ القرآن والحديث (225) وخرج لقتال مسعود بن محمد (226) بن ملك شاه السلجوقي ، فلم يقاتله معه أحد (227) إلى أن قتل في ذي القعدة الحرام سنة تسع وعشرين وخمسمائة (228).

(220) إضافة لما أسقطه المؤلف ، وهو خلافة المقتدي بأمر الله.

(221) 4 فيفري 1094 م.

(222) الكامل 534/10.

(223) في الأصول : «لست بقين من ربيع الآخر» والأرجح هو ما أثبتناه من ابن الأثير 534/10.

(224) 6 أوت 1118 م.

(225) ترجم له ابن الصلاح في طبقات الشافعية والسبكي في طبقات الشافعية ، وذكر أنه في أول أمره تنسك ولبس الصوف وانفرد في بيت للعبادة.

(226) في الأصول : «محمود بن مسعود» والمؤلف خلط بين مسعود وأخيه محمود ، والمثبت من الكامل 27/11.

(227) لأن أكثر العسكر غدر بالخليفة ، فظفر به السلطان مسعود وأمره مع خواصه ، وجسهم بقلعة قرب همدان ، وأرسل السلطان سنجر السلجوقي إلى ابن أخيه مسعود بإطلاق سراح الخليفة وإرجاعه معزراً إلى مقره ، وبينما مسعود مستعد لتلبية اقتراح عمه والعسكر ما زال مخيماً والخليفة في خدمته ، اندس في العسكر سبعة عشر من الباطنية قبل أن السلطان مسعود ما علم بهم ، وقبل بل هو الذي دسهم فهجمو على الخليفة وقتلوا به وقتلوا جميعاً من أصحابه وهو آخر خليفة رؤي خطيئاً. أنظر الكامل 27/11 - 28.

(228) أوت 1135 م.

الراشد بالله :

وولي بعده ولده أبو جعفر المنصور ولقب « الراشد بالله » ، بويج به بالخلافة يوم قتل أبيه ، ولم تطل مدته بل قبض عليه السلطان مسعود بن محمد⁽²²⁶⁾ / ، وخلعه من الخلافة يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة الحرام⁽²²⁹⁾ سنة ثلاثين وخمسمائة⁽²³⁰⁾ (وخلعه ، وقتل فيما بعد)⁽²³¹⁾ .

المقتني لأمر الله :

وولي عمه أبا عبد الله محمد بن المستظهر بالله ، ولقبه «المقتني لأمر الله» بويج له يوم خلع ابن أخيه ، وكان عالماً فاضلاً حسن السيرة والأخلاق ، شجاعاً ، توفي يوم الأحد ليلتين خلتا من ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة⁽²³²⁾ .

المستنجد بالله :

وولي بعده ولده المظفر يوسف ابن المقتني ولقب «المستنجد بالله» ، بويج له يوم وفاة أبيه ، وتوفي - رحمه الله - يوم تاسع ربيع الثاني⁽²³³⁾ سنة ست وستين وخمسمائة⁽²³⁴⁾ .

(229) وقيل منتصف ذي القعدة .

(230) أوت 1136 م .

(231) في مكانها في الأصول : « وجسه ثم قتله في حبسه » أسقطنا هذه الجملة لأنها تخالف الحقيقة فالسلطان مسعود لم يقتل الراشد بل قتله جماعة من الخراسانيين كانوا في خدمته عند مسيره إلى أصفهان أثناء الحرب التي قامت بين مسعود وبينه مع الملك داود وملوك تلك الأطراف محاولة منهم لاسترجاع الخلافة . أنظر الكامل لابن الأثير 62/11 .

(232) 12 مارس 1160 م .

(233) في الأصول : « ليلتين خلتا من ربيع الثاني » والثبت من الكامل 360/11 . وابن الأثير متفق مع عدة مراجع .

(234) 20 ديسمبر 1170 م .

المستضيء بالله :

وَوَلَّى بعده ولده أبو محمد الحسن بن المستنجد ، وَلَقِبَ «المستضيء بالله» ، ببيع له يوم وفاة أبيه ، وكان حسن السيرة كريم النفس ، أسقط المكوس في أيامه في جميع مملكته ، وكثر الثناء عليه ، وتوفي مستهل⁽²³⁵⁾ ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة⁽²³⁶⁾ .

الناصر لدين الله :

وَوَلَّى بعده ولده أبو العباس أحمد وَلَقِبَ «الناصر لدين الله» ، ببيع له بالخلافة [إثر]⁽²³⁷⁾ موت أبيه ، وفي أيامه [زادت قوة]⁽²³⁸⁾ السلطان صلاح الدين بن أيوب المستخلص لبيت المقدس من أيدي الإفرنج ، المستولي على مصر والشام ، المزيل للدولة الفاطمية⁽²³⁹⁾ المعيد للخطبة بمصر للدولة العباسية ، فخطب بها للناصر⁽²⁴⁰⁾ / ، وطالت مدة الناصر العباسي⁽²⁴¹⁾ ، وكان قبيح السيرة في رعيته ، (فأحیی رسوم الخلافة ، [141/أ]

(235) 2 ذي القعدة ، الكامل 459/11 .

(236) في الأصول : «سنة سبعين وخمسمائة» والمثبت من الكامل 459/11 . 29 مارس 1180م .

(247) في مكانها في الأصول : «ثمان بقين من ذي القعدة الثاني ليوم» أسقطنا هذه الجملة لأنها تخالف ما أثبتته التاريخ وتتضارب مع ما أثبتته المؤلف من تاريخ وفاة المستضيء بالله .

(238) في مكانها في الأصول : «ظهر» وأسقطنا هذه الكلمة لأنها تخالف الحقيقة التاريخية ، فصلاح الدين الأيوبي استوزر في مصر من طرف الخليفة العاضد الفاطمي وَلَقِبَهُ بالملك الناصر في 22 جمادى الثاني 564هـ/23 مارس 1169م وذلك في أيام الخليفة العباسي المستنجد بالله ، الكامل لابن الأثير 343/11 - 344 .

(239) تم ذلك في محرم سنة 567 / سبتمبر 1171م إذ قطعت الخطبة للعاضد الفاطمي وأقيمت الخطبة العباسية ، الكامل 368/11 .

(240) بعدها أسقطنا «ثم وقع بينه وبين الناصر العباسي منافرة بسبب تلَقَّب صلاح الدين بالناصر لدين الله» أسقطناها لمخالفتها الحقيقة التاريخية ، فالخليفة الفاطمي العاضد هو الذي خلع عليه لقب الملك الناصر ، أنظر الكامل 344/11 .

(241) «كانت خلافته ستاً وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوماً . فلم يل الخلافة أطول مدة منه إلا ما قيل عن المستنصر بالله العلوي ، صاحب مصر ، فإنه وَلَّى ستين سنة ، ولا اعتبار به فإنه وَلَّى وله تسع سنين فلا تصح ولايته» ، ابن الأثير 439/12 .

وامتلاأت الأرض من هيئته ، وكان ذا فكرة صائبة ، وكانت أيامه من غرر الزمان⁽²⁴²⁾ ، وكانت وفاته سلخ شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين وستائة⁽²⁴³⁾ .
 ووُلِّي بعده ولده محمد بن الناصر ولقب الظاهر [بأمر] الله ، بويع له بالخلافة يوم موت أبيه بعهد منه إليه ، فأظهر العدل والإحسان ، وأبطل المكوس ، وكان العمال يكيلون بكيل زائد للديوان على ما يكيلون به للناس ، فأبطل الظاهر ذلك ، وكتب إلى وزيره ﴿وَيْلُ الْمُطْغَفِينَ﴾⁽²⁴⁴⁾ ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾⁽²⁴⁵⁾ إلى ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽²⁴⁶⁾ فقال الوزير إن تفاوت الكيل يتوفر عليه ثلاثون ألف دينار ، فأعاد الجواب إليه أنه يبطل ولو بلغ ثلاثمائة ألف دينار ، وفرق ليلة عيد النحر على الفقراء مائة ألف دينار ، فلامه الوزير على ذلك ، وقال : اتركني أفعل الخير فإني لا أدري كم أعيش فلم يلبث أن توفاه الله في رجب سنة ثلاث وعشرين وستائة⁽²⁴⁷⁾ .

المستنصر بالله :

ووُلِّي بعده ولده أبو جعفر المنصور بن الظاهر ، ولقب «المستنصر بالله»⁽²⁴⁸⁾ بويع له بالخلافة يوم موت أبيه ، فنشر العدل وقرب أهل العلم ، وبنى المساجد والربط والمؤسسات والمدارس ، وهو الذي بنى المدرسة المستنصرية⁽²⁴⁹⁾ ببغداد التي لم يُبنَ مثلها

(242) ما بين القوسين ينطبق على صلاح الدين أكثر مما ينطبق على الخليفة الناصر لدين الله ، فبالنسبة لأبي الفداء وابن الأثير هو ظالم خرب في أيامه العراق ، وتفرق أهله في البلاد ، وكان منصرف المهمة إلى رمي البندق ولبس سراويلات الفتوة ، وأعظم سيئاته أنه كاتب التار وأطمعهم في البلاد ، ورأى فيها ابن الأثير «الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم» . أنظر على سبيل المثال الكامل 440/12 .

(243) 5 أكتوبر 1225 م .

(244) سورة المطففين : 1 .

(245) سورة المطففين : 2 «ساقطة من ط وش» .

(246) سورة المطففين : 6 .

(247) في الأصول : «ثلاث وثلاثين» والمثبت من الكامل 456/12 وغيره ، 14 رجب / 11 جويلية 1226 م .

(248) في الأصول : «المستنصر» والمثبت من الكامل 458/12 وغيره .

(249) في الأصول : «المستنصرية» والمثبت من المختصر لأبي الفداء 171/3 .

في مدائن الإسلام ، ولم يوجد في المدارس أكثر كتباً منها ولا أكثر أوقافاً عليها ، وكان لهذه المدرسة / أربعة مدرّسين يدرّسون فيها المذاهب الأربعة ، ورُتّب فيها الخبز واللّحم والفاكهة وكسوة الشتاء والصيف ، وأوقف على ذلك ضياعاً وقرى كثيرة ، وجعل عليها ثلاثين قيمّاً وكانت مدارس بغداد يُضرب بها الأمثال في ارتفاع العماد وسعة الطّعام والشّراب ، وقد حكى أن أول مدرسة بنيت في الدنيا مدرسة نظام الملك في بغداد ، فبلغ علماء ما وراء النهر هذا الخبر ، فاتّخذ العلماء مأتماً وحزنوا على سقوط حرمة العلم ، فسئلوا عن ذلك فقالوا : إن العلم ملكة شريفة وحلية لطيفة ، لا تطلبه إلّا النفوس الفاضلة الشريفة لمادة الشرف الدّائمي والمناسبة الطبيعية ، ولما جعل عليه أجرة ، طلبته النفوس الرذيلة وجعلته مكسباً لحطام الدّنيا ، وتزاحمت عليه لا لتحصيل شرف العلم ، بل لتحصيل المناصب الدّنيوية الفانية ، فزدل العلم برذالتهم ، ولم يشرفوا بشرفه ، أنظر إلى علم الطبّ فإنه مع كونه علماً شريفاً ، طلبه أرذال اليهود فزدل برذالتهم ، ولم يشرف أرذال اليهود بشرف علم الطبّ ، وهذا حال أكثر طلبة العلم في هذه الأعصار الفاسدة ، وهذا شأن طلاب هذه العلوم المتداخلة في هذا السوق الكاسد الخاسر تجارّه ، فإنك ترى أكثرهم مع دأبه في الطّلب وانكبابه على فنون العلم والأدب يزدداد كلّ وقت / عجباً وكبراً ، ويتعاضم على كلّ أحد بهاءً وفخراً ، ولم ينتقل عن الأخلاق الرذيلة ولو اكتسب من العلم ما اكتسب من الفضيلة ، وقلّما يتحلّى أحد منهم بحلي الأخلاق الحسنة الجميلة والمزايا الجليلة ، وما ثمرة كسب العلوم غير التّخلق بحسن الأخلاق ، والعمل بطيب الأصول والأعراق .

وهذا المستنصر (248) هو الذي دعا له (250) بالأندلس الأمير أبو عبد الله محمد بن هود (251) ووصلت إليه من قبله الخلعة والرّاية وغير ذلك من طرائف العراق ، وكانت وفاته يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة سنة أربعين وستائة (252) .

(250) ثار ابن هود على الموحدين بالأندلس وزحف إلى مرسية فدخلها واعتقل السيد (أبا العباس والي مرسية) وخطب للمستنصر صاحب بغداد . أنظر تاريخ العبر لابن خلدون ، دار الكتاب اللبناني 1968 ، 362/4 .

(251) أنظر نسبه في نفس المرجع ص 361 .

(252) وقيل في 11 منه ، 7 نوفمبر 1242 م .

المستعصم بالله :

وولّي (253) بعده ابنه أبو فهر (254) عبد الله بن المستنصر ولقب «المستعصم بالله» ، فكانت أيامه خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً ، وهو آخر الخلفاء العباسية ببغداد (255) .

فعدة الخلفاء العباسية بعد انقراض بني أمية ثمان وثلاثون وإن ضم إليهم محمد وإبراهيم الأولان كانوا أربعين .

التار :

وفي سنة ست وخمسين وسبعمائة تحرك خاقان التتار (256) لأخذ بغداد من يد المستعصم بالله ، وسبب ذلك أن محمد بن محمد بن عبد الملك العلقمي صار وزيراً للمستعصم ، وكان رافضياً سباباً للشيخين ، مستولياً على المستعصم عدواً له ولأهل السنة ، يوافقهم في الظاهر وينافقهم في الباطن ، وكان قصد بتدبيره إزالة خلافة بني العباس وجعل الخلافة في الشيعة ، فطمس آثار أهل السنة وأطلق نورهم ، ورفع منار البدعة ، فجعل يسعى في توقيف أمرائها وتعمير ديارها وذلك بمكاتبة / هولاكو خان آخر [142/ب] السلاطين المغولية وأولهم جنكيز خان (257) ، كان خروجه سنة تسع وتسعين وخمسمائة (258) .

وأصل هذا الجنس أنهم ترك رحالة يسكنون الخيام من اللبود لشدة برد بلادهم ،

(253) في الأصول : «وملك» .

(254) كذا في ط وفي ش : «أبومهد» .

(255) قتل ببغداد على يد هولاكو الذي دخل هذه المدينة في 20 محرم 656 هـ/ 28 جانفي 1258 م .

(256) جاء في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة العربية «تتر وتكتب تار ، واسم مدلوله يختلف باختلاف العصور» وفي

النص يشير إلى القبائل المغولية 236/9 .

(257) في الأصول : «جنكر» والمبت من دائرة المعارف الإسلامية النسخة الفرنسية 42/3 والنسخة العربية 379/12

وكتاب العبر اعتماداً على مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري وقال : «وزايه بين الكاف والخاء ليست صريحة» 1117/5 . وتكتب عادة جنكيز خان وسنكتها كما أشرنا فيما يلي من نص المؤلف دون الإشارة إلى

ذلك .

واكثر دوابهم الخيل قوتهم الأرز ولحوم الخيل وألبانها ، وكل من ملكهم يسمّى خان ، وهم من بقايا ياجوج وماجوج ، سمّوا تركّا لأن الإسكندر تركهم خارجين عن سدّ ياجوج وماجوج ، قيل مسيرة مساكنهم ثمانية أشهر طولاً في مثلها عرضاً ، متهارجون كالحيوان الهاملة لا يجمعهم دين ولا حاكم ، وهم طوائف يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً ، يعبدون الأوثان والشمس والنجوم والجن ، لباسهم جلود الكلاب ، فأول ملوكهم الأخباث ، رأس الخبث جنكز خان ، اسم قبيلته قتاة .

وفي مسالك الأبصار⁽²⁵⁹⁾ أن جدّة جنكز امرأة اسمها مودنجة⁽²⁶⁰⁾ مات زوجها فحملت بعده ، فأنكروا عليها ، فقالت : كنت ذات يوم فرأيت نوراً دخل في فرجي ثلاث مرات ، وإن في بطني ثلاثة ذكور ، فوضعت ثلاثة كما قالت ، فصدّقوها ، أحد الثلاثة اسمه برق⁽²⁶¹⁾ ، والثاني قونا⁽²⁶²⁾ ، والثالث نجعو⁽²⁶³⁾ وهو جدّ جنكز خان⁽²⁶⁴⁾ ، وابتداء أمره أنه خدم عند ملوك الخطأ المسمّى أزيك خان⁽²⁶⁵⁾ ، فقربه وأدناه فحسده الوزراء حتى أثر كلامهم فيه ، فتنبعه حتى كبر أزيك خان فقتله واحتوى على جميع كنوزه سنة تسع وتسعين وخمسمائة⁽²⁶⁶⁾ ، ثم تقوى فقصده ملك الصين بعدد كالرمال ، فقبض عليه سنة / إحدى وستائة⁽²⁶⁷⁾ ، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فأسس قواعد سياسته يذعن لها العقلاء ، ثم قهر ملوك الأرض قياصرة وأكاسرة ، وعسكره من كل

[143/أ]

(259) لابن فضل الله العمري ، يذكره المؤلف وكأنه ينقل عن غيره ، قال نالينو (Nallino) في دراسة محمود مقديش ونزّهته «ذكر مقديش أنه أخذ من ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار ما يتعلّق بمحدود جنكز خان ، وأظن أنه استعمل مراجع أخرى دون أن يلتجأ إلى المسالك كما زعم» . Venezia E sfax Nel Secolo XVIII في مائوية أماري ص 317 .

(260) في الأصول : «قوي» والمثبت من كتاب العبر 1118/5 .

(261) في الأصول : «يوقز» والمثبت من كتاب العبر 1118/5 .

(262) في الأصول : «قوناخي» والمثبت من كتاب العبر 1118/5 .

(263) في الأصول : «بودنجر» والمثبت من كتاب العبر 1118/5 .

(264) أورد ابن خلدون هذه القصة عن كتاب ابن فضل الله العمري فيما نقله عن شمس الدين الأصفهاني .

(265) في الأصول : «ياونك» و«أونك» والمثبت من كتاب العبر 1119/5 . وزيادة عن هذه الرواية التي تخصّ انطلاق جنكز خان أورد ابن خلدون رواية أخرى عن بداية هذا الرجل . لزيادة الاطلاع أنظر دائرة المعارف الإسلامية

الطبعة الفرنسية 42/3 .

(266) 1202 - 1203 م .

(267) 1204 - 1205 م .

مِلَّةٌ ، وكان يعظّم علماء كلّ مِلَّةٍ مسلمين ويهود ونصارى ومجوس ، فلم يتعرّض لأحد في دينه ، ولم يكن لقومه مِلَّةٌ ولا كتاب ، فأمر أكابره فوضعوا له قلمًا يسمّى «قلم العقل» ، وجعلوا له كتابًا يسمّى «إلياسي الكبير» ، فجعل له مِلَّةٌ على ما خيّل له شيطانه ، فن أحكامه صلب السّارق وخنق الزاني ، وإن شهد عليه واحد ، وإن السابق بالشكوى على الحق مطلقًا ، واستعباد الأحرار ، وعدم العدة ، ونكاح الرجل ما شاء فلا ينحصر في أربع ، والأخذ بقول الجوّاري والصبيان ، وغير ذلك من الأوهام ، وكسري مملكته قراقرم ، ولمّا استقرّ أمره توجّه لمحاربة السّلطان خوارزم شاه⁽²⁶⁸⁾ من سلاطين الخلفاء العباسية ، وقاتله مرارًا حتى غلبه وقتله⁽²⁶⁹⁾ ، ثم خرج بعساكره المختلطة من كلّ الأديان واستولوا على ما توجّهوا إليه من بلاد الإسلام حتى انتهوا إلى بخارى سنة سبع عشرة وستائة⁽²⁷⁰⁾ ، فجمع العلماء والعباد والصّالحاء والزهاد ، ودخل جنكز خان المدينة حتى انتهى إلى باب الجامع فقال : هذا بيت السّلطان لِمَا رأى من حسنه ، فقالوا : بل بيت الرّحمان فنزل عن دابّته وكذلك جماعته ، واستدعى الخمر والبطول والمزامير ، فجلس مع كفّاره في مجالس العلم والعلماء واستمروا على شرب الخمر ، والعلماء حاضرون مقهورون ، ثم أدخلوا الخيل / إلى المسجد الجامع وربطوا لها مرابط وبقيت الكتب والمصاحف تحت أرجل الخيل والحمير والبغال ، ثم استخلص مال الناس وأمر بقتلهم وأسّر النساء والأطفال ، ثم أمر بالنهب وهدم البلاد ، ثم توجّهوا لسمرقند وفعّلوا بها كذلك ، ثم استمرّ على عراق العجم فأهلكوا أمّهات الأمصار فضلًا عن القرى ثم مات جنكز الخبيث بعدما أهلّك الأرض سنة أربع وعشرين وستائة⁽²⁷¹⁾ ، ومُدّة مُلكه ثلاثة وعشرون سنة .

وخلف عدة أولاد فرّق بينهم البلاد ، وأوصى بالتخت لولده الصغير تولي خان⁽²⁷²⁾ ، فقام أبناؤه الخباث على ما كان عليه أبوهم من التخريب والإفساد .

(268) خوارزم شاه محمد بن تكتش .

(269) لم يُقتل بل إن التّرتّ تبيّه وهو هارب إلى أن وصل إلى جزيرة في بحر طبرستان فأقام بها وطرقه المرض ... ثم هلك بها في سنة 617 هـ / 1220 - 1221م أنظر ابن خلدون : كتاب العبر 236/5 - 238 .

(270) 1220 - 1221م ، أنظر عن مسير التّرتّ إلى أذربيجان كتاب العبر 244/5 - 247 .

(271) 1226م .

(272) كذا في الأصول : «تولي» وفي كتاب العبر 1120/5 : «طولي» وقال : «طولي بين التاء والطاء» وعن أولاد جنكيز خان وتقسيم الممالك بينهم ، أنظر كتاب العبر 1121/5 .

هولاكو وسقوط بغداد وانقراض الدولة العباسية :

فلَمَّا مات طولي خان قام مقامه ولده هولاكو خان⁽²⁷³⁾ ، وكان هولاكو أحد الدَجَّالين الموعودين في الأخبار النبويَّة ، وكان كبار المغولية من الجوس أَضْلَوْهُ وأعادوه بعد الإسلام إلى المِلَّة الجوسية فإل إليهم وأراد قلب المِلَّة الإسلامية إلى الجوسية ، - مِلَّة أجداده والعباد بالله - ، فأراد الخروج على جميع البلاد الإسلامية ، وسلَّ السَّيف على جميعها ، فلَمَّا جلس على سرير الملك ، قصد بغداد ، وتواترت عليه الرسل من العلقيي ويُطْمِعُهُ في ملك بغداد ، ويظالعه بأخبارها ، ويُعَرِّفُهُ بصورة أخذها⁽²⁷⁴⁾ وَضَعَفَ الخليفة والحلال العسكر ، وصار يحسن للمستعصم توفير الخزانة وعدم الصَّرف على العسكر والإذن لهم بالتفرُّق والذهاب أين شاءوا / ويقطع أرزاقهم ويشيِّتُ شملهم ، بحيث أذن مرَّة لعشرين ألف مقاتل أن يذهبوا أين أرادوا ، ووَفَّرَ علوفاتهم للخزانة ، وأظهر للمستعصم أنه وفَّر من علوفاتهم خزائن أموال عظيمة توفَّرت في بيت المال ، فأعجب المستعصم رأيه وتوفيره وكان يحبُّ المال ويجمعه وما علم أنه يجمعه لعدوه فرحف هولاكو على بلاد الإسلام بعسكر جرَّار ، لا يعلم عدده إلا الله ، وكان أقوى سلاطين الإسلام أولاد السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، وكان أبوهم يملك من العراق إلى بلاد المشرق ، وكانت له قوَّة وشوكة وعسكر وافر وجند متكاثر ، فقاتلهم هولاكو مرارًا وهو يُكسِّرهم إلى أن قتلهم هولاكو وبَدَّدَ ومزَّق جنودهم⁽²⁷⁵⁾ وخيولهم قتلاً وأسراً ، واستباح كثيرًا من بلاد الإسلام ، وأهلك من فيها بالقتل العام ، وصار هولاكو يحول⁽²⁷⁶⁾ الدِّيار والمستعصم ومن معه في غفلة عنه لإخفاء ابن العلقيي عنه سائر الأخبار إلى أن وصل هولاكو إلى بلاد العراق ، واستأصل من بها قتلاً وأسراً ، وتوجَّه إلى بغداد ، وأرسل إلى الخليفة يطلبه إليه ، فاستيقظ الخليفة من نوم الغرور⁽²⁷⁷⁾ وندم على غفلته حيث لا ينفعه الندم ،

[1/144]

(273) قام قبل هولاكو «منكوفان بن طولي» نفس المرجع .

(274) كتاب العبر 1149/5 .

(275) في ت : «وبَدَّدَ شملهم ، ومزَّق جموعهم وجنودهم» .

(276) كذا في ط وفي ش : «يحوِّز» .

(277) بعدها في ت : «وصار حائر العقل مذهولاً ما يعرف من أمره ولا يحسن ما يقول ، وعلم أن الحيلة تَمَّت عليه ، وذهب الملك من بين يديه ، فصار متحيراً في أمره ولا يعرف ما يعمل في هذه المصيبة ، فأرسل إلى كبراء دولته ووزرائه وأهل بيته وقال لهم : ما عندكم من الرأي في هذه الواقعة وكيف يكون انفصالها علينا وتزحزحها من

وجمع من قدر عليه ، وبرز إلى قتال هولاء ، فجمع من أهل بغداد وخاصة عبيده ونُحْدَامُهُ ما يقارب أربعين ألفاً ، لكنهم مرفهون بلين الأنهار ، ساكنون على شطّ بغداد في ظلّ ظليل ، وماءٍ معينٍ / وفاكهة وشراب واجتماع أحباب وأصحاب ، ما كابدوا حرباً ولا دافعوا طعناً ولا ضرباً ، وعساكر التتار ينيفون على مائتي ألف مقاتل ما بين فارس وراجل ، وسالب وباسل وفاتك وقاتل يشون وثوب القردة ، ويتشكّلون بأشكال المردة ، يقطعون المسافات الطويلة في ساعات قليلة ، ويخوضون الأحوال ويتعلّقون بالجبال ، ويصبرون على العطش والجوع ، ويهجرون الغمض والمجوع ، ولا يباليون بالحرّ والبرد ، والسَّهْل والوعر ، والبرّ والبحر ، طعامهم كفٌّ من شعير وشرهم (278) حما البير ، يكاد أحدهم يتقوّت بطرف أذن فرسه يقصّها ويأكلها نيّةً ويصبر على ذلك أياماً عديدة ، ويكتفي هو وفرسه بحشيش الأرض مدة مديدة ، فوقع المصاف والتحم القتال ، وأوقد نار الحرب والزّال ، وزحف الجيش للجيش في يوم الخميس عاشر محرّم الحرام سنة نيف (279) وخمسين وسنّة ، وثبت أهل بغداد مع ترفهم على حدّ السيف ، وصبروا على حرّ الختوف ، واستمرّوا كذلك من قبل الفجر إلى ادبار النهار ، فعجزوا وفرغ الاصطبار فانكسروا شرّ انكسار ، وولّوا الأدبار ، وغرق كثير منهم في دجلة وقتل أكثرهم أفضع قتلة وأعقبهم التتار بالسيف والنّار ، ونهبوا الخزائن والأموال ، فأخذ هولاء بغداد (280) واحتوى على ذخائرها فاستصفي النّقد ، وأمر بإحراق الباقي ، ورموا كتب مدارس بغداد في بحر الدجلة ، فكانت لكثرتها / جسراً ، يمرّون عليها ركباناً ومشاة ، وتغيّر لون الماء بمداد الكتابة إلى السواد ، وكانت هذه الفتنة من أعظم مصائب الإسلام ، وسبق المستعصم هو وأولاده وأماؤه إلى هولاء أسارى ذليلين ، فقرأ : فسبحان المعزّ المذلّ القادر القاهر تعالى شأنه وعزّ سلطانه ، فاستبقى هولاء الخليفة أيّاماً إلى أن استصفي أمواله وخزائنه وذخائره

= بين يدينا فقالوا له : يا أمير المؤمنين وخليفة ربّ العالمين أنت الذي فعلت تلك الأمور وتركت عساكرك ذهبت من بين يديك ، وأخربت بيت شرفك حتى ذهبت جلالة الملك عليك ونحن وقت الذي نصحبناك وقتنا لك سر في ملكك كما سارت آباتك ولا تسمع قول القائلين ، وصن حرمتك وحسن ملكك ودولتك فأبيت عن هذا الكلام وأتبع كلام ذلك العلقي الخائن الوهّان ، فلمّا سمع منهم ذلك الكلام فاق من نومه .

(278) ج حمّاة : الطين الأسود المتن . قال الله تعالى ﴿ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ وفي كتاب المقصود والمدود لأبي علي القالي : « الحماء » : الطين المغير ، تاج العروس لمحمد مرتضي الزبيدي ، دار مكتبة الحياة بيروت لبنان 58/1 .

(279) في كتاب العبر : « ست وخمسون وسنّة » 1258 م .

(280) في 20 محرّم ، وعن أخذ بغداد أنظر كتاب العبر 1150/5 .

[144/ب]

[145/أ]

ودَفَائِنِهِ ، ثم رمى رقاب أولاده دونه ، وأمر أن يوضع الخليفة في غَرَارَةٍ وتُرْفَسَ إلى أن يموت ، ففعل ذلك واستشهد - رحمه الله - يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة ست وخمسين وستمائة⁽²⁸¹⁾ ، وكانت القتل من أهل بغداد ما ينيف على ألفي ألف وثلاثمائة ألف وثلثين ألفاً⁽²⁸²⁾ ممن قَدَّرَ الله له الشهادة من المؤمنين منهم ثلاثة عشر ألف فقيه وأقام القتل والنهب ببغداد نحو من ثمانين يوماً ، ثم أحضر هولاكو الوزير العلقمي وعاتبه وقال : يا خائن خنت أستاذك ، لا يرجى منك صلاح ، فقتله شرَّ قتلة⁽²⁸³⁾ .

ثم ان هولاكو أراد قلب المِلَّةَ الإسلامية إلى الجوسية ، فندارك الله عباده بلطفه ، قال البيضاوي في «تاريخه» إن الله مَنَّ على عباده المؤمنين ببركة سيد المرسلين ، فألهم بعض أوليائه بفيض فضله أن يظهر من كرامات الأمة الحمديدية عند هولاكو ، منهم أبو يعقوب ، ومحمد خوجة ، وربندي⁽²⁸⁴⁾ - قدس الله سرهم - فوصلوا / حضرة هولاكو ودخلوا النار وشرَبوا السَّموم والنحاس المذاب ، فلَمَّا عاين هولاكو الأمر كذلك رجع عن مذهب الكفر والزُّندقة ، وخاف من الأولياء وعظَّم المِلَّةَ الإسلامية وأهلها وهلك من الكفرة المضلَّة عند هولاكو من رهابين الجوس جماعة ، لما دخلوا النار بأمر هولاكو فاحترقوا ، وشرَبوا السموم فتمزَّقوا ، وهلك هولاكو بعِلَّة الصرع ، فكان يعتريه في اليوم الواحد مراراً ، فرض ولم يزل ضعيفاً نحو شهرين ، وكانت وفاته في سابع ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وستمائة⁽²⁸⁵⁾ بيلد مراغة ، وكان عمره نحو ستين سنة .

وخَلَّفَ من الأولاد سبعة عشر ذكوراً ، وتولَّى الملك بعده ولده أبغا ، وقيل أخوه قبلاي⁽²⁸⁶⁾ فامتدَّت أيامه⁽²⁸⁷⁾ إلى أن توفي سنة خمس وتسعين وستمائة⁽²⁸⁸⁾ ، وكان كرسِيَّ مملكته مدينة ماليتق أم بلاد الخطأ ، وكانت مدة ملك قبلاي اثنين وثلثين سنة .

[145/ب]

(281) 20 فيفري 1258 م .

(282) في كتاب العبر: «ألف ألف وثلاثمائة ألف» 1150/5 .

(283) «استبقى هولاكو ابن العلقمي على الوزارة ... فبقي على ذلك مدة ثم اضطرب وقته» كتاب العبر 1150/5 .

(284) كذا في ش وت ، في ط : «زبندي» .

(285) جاني 1265 . وفي كتاب العبر: «اثنين وستين» 1154/5 .

(286) لم يذكر ابن خلدون هذا الإحتال ، وجعل أبغا خليفة هولاكو ، ومات في سنة 681 هـ/1282 - 1283 م ، وخلفه أخوه تكدار ، ثم خلف تكدار أرغو بن أبغا الخ ... أنظر كتاب العبر 1155/5 وما بعدها .

(287) أي قبلاي كما نفهم من سياق الحديث ، وهو عكس ما أثبت ابن خلدون كما أشرنا في الهامش السابق .

(288) 1295 م .

واتفق المؤرخون على أنه لم يبق من بني هولاكو من يتحقق نسبه لكثرة ما وقع فيهم من القتل غير على الملك ومن بقي طلب الإختفاء بنفسه ، ولمّا توفي قبلاي ملك ابنه أرغون ، وبعده ابنه قازان⁽²⁸⁹⁾ . وستأتي بقية أخبارهم قريباً إن شاء الله تعالى .

والمقصود هنا بيان انقراض الدولة العباسية من بغداد على يد هذه الطائفة الخبيثة على أفطع الأحوال ﴿وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾⁽²⁹⁰⁾ ﴿وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾⁽²⁹¹⁾ .

[146/أ] وهذه الواقعة من أعظم / معجزات رسول الله ﷺ قال في «شرح الصحائف» وروى أبو بكر - رضي الله تعالى عنه - أن النبي ﷺ قال : «يتزل أناس من أمتي بغائط يسمونه البصرة عند نهر يقال له دجلة يكون عليه جسر ، يكثر أهلها ويكون من أمصار المسلمين ، فإذا كان في آخر الزمن جاء بنو قنطورا ، عراض الوجوه ، صغار الأعين ، حتى يتزلوا على شطّ النهر ، فيتفرّق أهلها ثلاثاً ، فرقة يأخذون أذنان البقر بالبرية وهلكوا ، وفرقة يأخذون لأنفسهم وهلكوا ، وفرقة يجعلون ذرارهم خلف ظهورهم ويقاثلونهم وهم الشهداء»⁽²⁹²⁾ قال : وهذه صفة بغداد فإنها على شطّ دجلة وعليه الجسر ، وتسمّى تلك النواحي غائط البصرة ، وهي ما كانت زمان النبي ﷺ بناها خلفاء بني العباس - رضي الله تعالى عنهم - وجاءهم من المشرق هولاكو بن تولي بن جنكز خان سنة ست وخمسين وسبعمائة هجرية⁽²⁹³⁾ ، وعسكره على الوصف الذي وصفه النبي ﷺ وتفرّق أهل بغداد ثلاث فرق كما قال ﷺ وهذا من أبين المعجزات اهد .

العباسيون بمصر :

وكانت مدة ملك بني العبّاس خمسمائة سنة وأربعة وعشرون سنة غير أربعة وثلاثين يوماً ، ولم ينج من بني العباس في هذه الوقعة إلا الفرد النادر منهم ، أبو العباس أحمد بن

(289) هذه السلسلة غير السلسلة التي قدّمها ابن خلدون .

(290) سورة آل عمران : 173 .

(291) سورة البقرة : 156 .

(292) رواه أبو داود في باب ذكر البصرة بشرح عون المعبود شرح سنن أبي داود للأبدي الجزء الحادي عشر ص 417

عدد 4284 الحديث مع اختلاف يسير في الألفاظ .

(293) 1258 م . في الأصول «أربع وخمسين» .

[146/ب]

الظاهر بن الناصر بن المستضيء / بن المستنجد بن المقتني بالله ويلقب «بالمستنصر بالله»
 فوصل إلى مصر وافداً على سلطانها الملك الظاهر بيبرس⁽²⁹⁴⁾ في سنة تسع وخمسين
 وستائة⁽²⁹⁵⁾، فأكرمه وأثبت نسبه، وجَهَّز له جيشاً توجه به إلى بغداد فقتل، ثم توجه
 من بغداد إلى مصر من بني العباس أحمد ولقب «بالحاكم بأمر الله»⁽²⁹⁶⁾ فأكرمه الملك
 الظاهر أيضاً، بعد إثبات نسبه، وأجرى عليه نفقة وسكن مصر، وليس له من الأمر
 شيء، وإنما اسمه الخليفة وأولاده من بعده على هذا المنوال ليس لهم إلا اسم الخلافة
 فيأتون به إلى السلطان الذي يريدون توليته يبايعه ويقول: ولئيك السلطنة، وهكذا كانوا
 يلقبون بالقباب الخلافة واحداً بعد واحد، فكانت سلاطين الأقاليم يتبركون بهم
 ويراسلونهم أحياناً يطلبون منهم تفويض السلطنة باللسان، فيكتبون لمن راسلهم تقليداً،
 ويعهدون إليه بالسلطنة عهداً، ويولونه سلطنة الجهة التي هو فيها، فيتبرك بهذا التقليد،
 ولا يخفى أن هؤلاء ليس لهم من الخلافة إلا الصورة كما كان لآخر الخلفاء العباسيين
 ببغداد، واستمر أمرهم هكذا إلى دخول السلطان سليم خان - رحمه الله - إلى مصر
 فاستصحب معه أبا عبد الله محمد بن يعقوب الملقب «بالتوكل على الله» ثم رجع بعد وفاة
 السلطان سليم من القسطنطينية إلى مصر، وبقيت ذريته بمصر إلى أن تقلبت الأحوال /
 وذكر السيوطي: أن الخلافة استمرت بمصر إلى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة⁽²⁹⁷⁾
 ففي السابع والعشرين من رجب انقطعت (بتنازل)⁽²⁹⁸⁾ المتوكل على الله (عنها لسليم
 الأول)⁽²⁹⁸⁾.

[147/أ]

- (294) في 16 ذي القعدة 1260/658م بويج لبيبرس من المماليك في مصر، وتلقب بالقاهر، ولتشاؤمه من هذا
 اللقب استبدله بالظاهر، وأضاف إليه أبا الفتوح، التوفيقات الإلهامية 692/1.
- (295) 1260 - 1261م في الأصول: «سنة ست وستين» والثبت من التوفيقات الإلهامية 692/1.
- (296) قدم في سنة 659 هـ/1260 - 1261م ببايعه الظاهر بيبرس ولقبه الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، وقد اختلف في
 نسبه، التوفيقات الإلهامية 693/1.
- (297) 1517م وفي الأصول: «سنة ثمان وثمانين وثمانمائة» وهو غير صحيح. فالتوكل على الله استمر عليها حتى دخول
 سليم الأول العثماني إلى مصر في محرم سنة 1517/923. أنظر الهامش الوالي.
- (298) في الأصول: «انقطعت بوفاة المتوكل على الله» والمعروف أنه تنازل عنها لفائدة سليم العثماني «وسلمه الآثار
 النبوية الشريفة وهي البيروق والسيف والبردة». أنظر تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك المحامي. تحقيق
 إحسان حق، دار النفائس بيروت 1981، ص 194.

تيمورلنك :

ولنرجع إلى الكلام على بقية أخبار المغولية الذين عَمَّت بهم البلية فإنهم استمرت منهم بحار الفتن تمور إلى أن نبع الأعرج تيمور⁽²⁹⁹⁾ ، فأهلك الحرث والنسل ، وأفسد في الأرض ، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسَادَ﴾⁽³⁰⁰⁾ ، فهو أحد الدجالين . ذكر صاحب المنتخب أن له نسباً يصل به إلى جنكزخان من جهة النساء ، فهو فرع خبيث نشأ عن أصل خبيث ، وكان رجلاً له قامة شاهقة كأنه من بقايا العمالقة ، عظيم الجبهة والقامة ، شديد القوة والبأس ، قيل إن طول قامته تسعة وعشرون ذراعاً⁽³⁰¹⁾ وكان من أبهته أن ملوك الأطراف مع استقلالهم بالخطبة والسكة كانوا إذا قدموا عليه بهدياتهم يجلسون على أعتاب العبودية نحوه من مد البصر من سرادقته ، وإذا أراد منهم واحداً أرسل من الخدمة نحوه قاصداً ، فيدعون ذلك الواحد باسمه فيغدو نحوه .

وكان بدء خروجه في حدود الستين والسبع مائة⁽³⁰²⁾ ، وهو من قرية تسمى خواجا أبغار من أعمال كش⁽³⁰³⁾ وهي مدينة من مدن ما وراء النهر ، ذكر أنه لما ولد سقط على الأرض فرفع فإذا كفاه مملوءتان من الدم العبيط ، فقال بعضهم ، يكون شرطياً ، وقال بعضهم ينشأ لصاً حرامياً ، وقال قوم يكون قصاباً سفاكاً / وقالوا : بل يصير جلاًداً [147/ب] وكان أبوه فقيراً إسكافياً⁽³⁰⁴⁾ فنشأ هو شاباً جليداً لكنه من القلة يتلصص ، ففي بعض الليالي سرق غنماً فشر به الراعي فضربه بسهمين أصاب بأحدها فخذه فأخطأها وبالأخر

(299) هو تيمورلنك واللتك هو الأعرج ، ثم خَفِفت قليل لك ، راجع الضوء اللامع للسخاوي 46/3 - 50 والسخاوي هو شمس الدين بن محمد بن عبد الرحمان (ت. 902 / 1496 - 1497) وهو محدث مؤرخ ، وانظر شذرات الذهب لعبد الحمي بن العباد الحنبلي (1089 هـ / 1678 م) ، وعجائب المقدور في أخبار تيمور لابن عرب شاه ، وأنباء العمر للحافظ ابن حجر العسقلاني 301/2 - 304 ، وعن غزوة حلب وما ارتكب فيها من العظائم ، أنظر روضة المناظر لأبي الوليد محمد بن الشحنة بهامش الكامل لابن الأثير 191/12 - 197 وابن الشحنة كان حاضراً في مجلس تيمورلنك مع علماء حلب ليعينهم بمسائله ، وانظر دائرة المعارف الإسلامية الطبعة العربية 298/10 ، 303 .

(300) البقرة : 205 .

(301) شاهد آخر على ميل المؤلف إلى الأساطير الشعبية واستعمالها كمرجع تاريخي .

(302) 1358 - 1359 م .

(303) في الأصول : «الكش» والمثبت من دائرة المعارف الإسلامية 298/10 .

(304) وقيل انه ابن راع من الرعاة ، نفس المرجع .

كفنه فأبطلها فازداد كسرًا على فقره ولم يملك سوى ثوب قطن فباعه واشترى بشفته ماعزًا وقصد الشيخ شمس الدين الفاخوري بمدينة كش ، وقد ربط بطرف جبل عتق الماعز وربط عنقه بالطرف الآخر وجعل يتشحط على عصا من جريد حتى دُخل على الشيخ فصادفه هو والفقرء مشغولين بالذكر ، فلم يزل قائمًا في صف النعال حتى فرغوا مما هم فيه ، فلما وقع نظر الشيخ عليه سارع إلى تقبيل يديه ورجليه ففكر الشيخ ساعة ، ثم قال لتلامذته : هذا الرجل استمدنا فيما لا يساوي عند الله جناح بعوضة ، فزى أن نمدّه ولا نخرمه ، فأمدّوه بالدعاء فدعوا له ، ولمّا قدم خراسان اجتمع بالشيخ أبي بكر الخوافي فأكبّ على رجله ، فوضع الشيخ يديه على ظهره فقال تيمور : لولا أن الشيخ رفع يديه بسرعة لخلت⁽³⁰⁵⁾ أرتض ، ولقد تصوّر لي أن السماء وقعت على الأرض وأنا بينهما رضضت أشدّ رضّ ، ثم إنه جلس بين يديه وقال : يا مولانا الشيخ فما تأمرن مملوككم أبالعدل والإنصاف ، وأن لا يميل إلى الجور والإعتساف؟ فقال له الشيخ : أمرناهم بذلك / فلم يأتروا فسُلطانك عليهم ، فخرج من فوره من عند الشيخ وهو يقول : ملكت الدنيا وربّ الكعبة ، وكان كثيرًا ما يقول بعد ذلك : كلّ ما نلتّه هو بدعوة الشيخ الفاخوري وهمة الشيخ الخوافي والسيد بركة⁽³⁰⁶⁾ فكان من أمره أن له رفقاء يتلصّصون ويقطعون الطريق ببلاد ما وراء النهر حتى شعر بهم السلطان حسن حاكم هراة فظفر بهم ، فبعد ضربه أمر بصلبه ، وكان للسلطان ولد رأيه غير متين يدعى الملك غياث الدين ، فشفع فيه فقال له أبوه : هذا حرامي مادّة الفساد ، لئن بقي ليخرب البلاد وليلكنّ العباد ، فقال له ابنه : وما عسى أن يصدر من نصف آدمي وقد أصيب بالدّواهي ، فوجه له ، فوكّل به من داواه إلى أن اندمل جرحه ، فكان في خدمته ، فقرّبه وزوّجه بشقيقته فغاضبها في بعض الأيام فقتلها ، فلم يسعه إلّا الخروج والعصيان والتمرد والطغيان ، فكان من أمره ما كان ، فاستصفى ممالك ما وراء النهر ، ثم شرع في استخلاص البلاد من ملوكها واسترقاق العباد ، فدبّ في البلاد ديب السّم في

[148/أ]

(305) لعلّ الأصوب «لبقيت أرتض».

(306) أعطى المؤلف أهمية كبرى لهذه القصة التي هي من جملة الأساطير التي تتعلّق بتيمورلنك وجاء في دائرة المعارف

الإسلامية في شأنها : «وقد غلب ابن عريشاه في الخطّ من شأن تيمورلنك ، فقال إنه ابن راع من الرعاة ،

عاش أول حياته على السلب والنهب» . 299/10 .

الأجساد ، ومن رأيه أنه صاهر المغول وصافاهم وتزوج بنت ملكهم⁽³⁰⁷⁾ فأمن شرهم ، ثم أرسل إلى محدومه سلطان هراة الملك غياث الدين فطلب منه الدخول في طاعته فأرسل غياث الدين يقول صحبة الرسول : أمّا كنت خادماً لي وأحسنيت إليك بعد أن نجيتك من الصّلب فإن لم تكن إنساناً تعرف / الإحسان فكُنْ كلباً ، فعبر جيحون وتوجّه إليه فلم يكن لغياث الدين قوة الوقوف له ، فحصر نفسه في القلعة ، فأمنه ثم قبض عليه ، وكان تحلف أن لا يريق له دمًا ، فقتله جوعاً في الحبس ، ثم عاد إلى خراسان وعمل على الانتقام من أهل سجستان فوضع السيف فيهم عن بكرة أبيهم ، وأخرب المدينة فما أبقى بها شجرة ولا مدرّاً ، ولا عيناً ولا أثراً ، فارتحل عنها بعد أن جعلها قاعاً صفصفاً .

ثم بلغه أن فيروز شاه ملك الهند انتقل إلى رحمة الله ولم يكن له ولد يخلفه ، فسعى لتولي تلك الوظيفة ، فوصل إليها وقتل أقبالها⁽³⁰⁸⁾ ، وقدم عليه المبشر بأن أحمد⁽³⁰⁹⁾ [أمير بغداد والعراق] والملك الظاهر برقوق حاكم مصر والشام انتقلا إلى دار السلام ، فسرّ بذلك صدره وفرح .

فأقام بالهند نائياً وتوجّه نحو مدينة سيواس⁽³¹⁰⁾ ، وكان بعد وفاة واليها استولى عليها الأمير سليمان ابن السلطان بايزيد بلدرم خان ابن عثمان ، فوصل إليها تيمور فقال أنا فاتح هذه المدينة وكانوا قد حصّنها فأقام في محاصرتها ثمانية عشر يوماً ، ثم فتحها بعد أن حلف لأهل البلد أن لا يريق دمههم ، فلما دخل المدينة حفر لهم في الأرض خندقاً ، وألقى فيه ثلاثة آلاف نفس أحياء وأطبقه عليهم⁽³¹¹⁾ ، فكان قبرهم ، ثم نهب البلد وسكّط عليها حكم التدمير فصارت خاوية على عروشها .

(307) كان تيمورلنك يعرف أيضاً باسم كوركان أي زوج ابنة الخاقان والأمير الكبير وصاحب قران ، دائرة المعارف الإسلامية الطبعة العربية 299/10 .

(308) في رجب 800 هـ / مارس - أبريل 1398 .

(309) في الأصول : «أحمد حاكم سيواس» هو أحمد جلاير أمير بغداد والعراق ، وسيواس في أرمينيا ، أنظر تاريخ الدولة العلية العثمانية 146 ، وسبب إغارة تيمورلنك على الدولة العثمانية أن أحمد جلاير أغار على أذربيجان والتجأ إلى بايزيد حينما هاجمه المغول في بلاده .

(310) في الأصول : «سواس» والمثبت من المرجع السابق ودائرة المعارف 300/10 .

(311) في دائرة المعارف أبقى تيمورلنك على الجند المسلمين ، ولكنه دفن أربعة آلاف من جند النصاري ، ومقديش في سرده الأحداث ، يخلط بين الواقع التاريخي والأسطورة .

[149/أ]

ثُمَّ تَوَجَّهَ نَحْوَ الْمَمَالِكِ الشَّامِيَةِ / فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَمَانِمِائَةٍ (312) أَصْبَحَ تَيْمُورْلَنكُ مُحِيطًا بِجَلْبِ ، فَتَقَابِلِ التَّنَارِ مَعَ أَهْلِهَا ، ثُمَّ إِنْ النَّوَابِ وَغَالِبِ عَسْكَرِ الْمَمَالِكِ بَرَزَتْ إِلَيْهِمْ ، فَأَخَذَ نَائِبُ الشَّامِ الْمِيمَنَةَ ، وَنَائِبُ حَلَبِ الْمِيسَرَةَ ، وَبَقِيَّةُ النَّوَابِ بِالْقَلْبِ ، وَقَدَّمُوا الْعَامَةَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فَزَحَفَ عَلَيْهِمْ تَيْمُورٌ بِجِيُوشِهِ ، فَمَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ثُمَّ وَلَّوْا مَدْبِرِينَ نَحْوَ الْبَلَدِ ، فَاتَّحَمَتِ عَسْكَرُ التَّنَارِ الْمَدِينَةَ ، فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ فَالْتَجَأَتِ الْمَخْدَرَاتُ (313) إِلَى الْمَسَاجِدِ فَالَوْا عَلَيْهِمْ وَقَرَنُوهُمْ فِي الْحَبَالِ ، وَشَرَعُوا فِي قَتْلِ الْأَطْفَالِ وَنَهَبِ الْأَمْوَالِ ، وَتَخْرِبِ الْمَنَازِلِ وَافْتِضَاضِ الْأَبْكَارِ ، فَاسْتَمَرَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ يَوْمِ السَّبْتِ إِلَى يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ ، وَقَدْ تَحَصَّنَ بِالْقَلْعَةِ النَّوَابُ مَعَ خَلْقٍ كَثِيرٍ ، فَتَوَجَّهُوا نَحْوَهُمْ بِرَدَمِ الْخَنْدَقِ وَنَقَبِ الْأَسْوَارِ ، فَتَزَلَّ دَمْرِدَاشُ نَائِبُ حَلَبٍ فِي طَائِفَةِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْقَلْعَةِ يَطْلُبُونَ الْأَمَانَ فَأَجَابَهُمْ تَيْمُورْلَنكُ وَخَلَعَ عَلَيْهِمْ فَاطْمَأْنَنَتْ نَفُوسُهُمْ ، فَتَزَلَّ بَقِيَّةُ أَصْحَابِهِمْ مِنَ الْقَلْعَةِ كُلِّ طَائِفَةٍ مَعَ نَائِبِهَا فَقَرَنَهُمْ فِي الْأَصْفَادِ ، فَأَقَامَ بِجَلْبِ نَحْوَ شَهْرٍ (314) وَأَصْحَابُهُ فِي نَهَبٍ وَإِفْسَادٍ ، وَهَدَمَ حَلَبَ وَقَرَاهَا وَقَطَعَ أَشْجَارَهَا وَقَلَعَ أَحْجَارَهَا وَبَنَى مِنْ رُؤُوسِ الْقَتْلِ مَنَارًا مَرْتَفَعًا دَوْرَهُ نِيفَ وَعِشْرُونَ ذِرَاعًا وَارْتِفَاعَهُ نَحْوَ الْعِشْرَةِ أَذْرَعٍ ، وَبَنَى عِدَّةَ مَنَاطِرٍ مِثْلَ تِلْكَ ثُمَّ تَرَكَهَا خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا .

[149/ب]

وَفِي الْيَوْمِ السَّادِسِ مِنْ جَمَادَى الْأُولَى دَخَلَ السُّلْطَانُ فَرَجُ بْنُ بَرْقُوقٍ صَاحِبُ مِصْرَ / إِلَى دِمَشْقَ ، فَأَقَامَ بِهَا يَوْمَيْنِ وَخَرَجَ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ فَخِيمَ [بِسَاحَةِ قُبَّةِ بِلْبَغَا] (315) ثُمَّ ظَهَرَ فِي أَثْنَاءِ النَّهَارِ بَعْضُ جَمَاعَةٍ عَلَى الْخَيْلِ مِمَّا يَلِي عَقِبَهُ دَمْرٌ مِنْ عَسْكَرِ تَيْمُورٍ مَقْدَارُ أَلْفِ فَارَسٍ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَسْكَرِ دُونَ الْمِائَةِ فَارْتَفَعُوا مَعَهُمْ ، فَانْكَسَرَ أَصْحَابُ تَيْمُورٍ (316) كَسْرَةً قَوِيَةً ثُمَّ إِنَّهُمْ مَسَكُوا مِنْ عَسْكَرِ السُّلْطَانِ فَرَجَ ثَلَاثَةَ فَرَسَانٍ وَأَضْرَمُوا تِلْكَ اللَّيْلَةَ نَارًا كَثِيرَةً ، فَخُيِّلَ لِلْسُّلْطَانِ أَنَّ التَّنَارَ مَلَأَ الْأَرْضَ بِقَدْرِ أَمَاكِنِ النَّارِ ، وَأَخَذَ تَيْمُورُ اثْنَيْنِ مِنَ الْأَسَارَى وَسَلَخَهُمْ وَشَوَاهِمَ عَلَى النَّارِ ، وَأَطْلَقَ الثَّلَاثَ فَرَجَ وَأَخْبَرَ السُّلْطَانُ بِذَلِكَ

(312) 1400 - 1401 م .

(313) ج مخدرة أي الملازمة للبيت .

(314) في دائرة المعارف : « 3 أيام » .

(315) في الأصول : « بقية بليغيا » والمثبت من كتاب العبر 1201/7 .

(316) قال ابن خلدون الذي كان شاهداً حاضراً لهذه الأحداث ، « ويشس الأمير يُرْمَى مِنْ مَهَاجِمَةِ الْبَلَدِ ، فَأَقَامَ بِمَرْقَبٍ عَلَى قَبَّةٍ يَلْبَغَا يَرِاقِبَانَا وَتَرَاقِبَهُ أَكْثَرَ مِنْ شَهْرٍ ، نِجَالُ الْعَسْكَرَانِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ مَرَاتٍ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا ، فَكَانَتْ حَرْبُهُمْ سَجَالًا » نفس المرجع .

فانقطعت قلوب العسكر ، ففي تلك الليلة رجع السلطان إلى الديار المصرية هارباً⁽³¹⁷⁾ وصحبه الأمراء والخليفة مع كل أمير مملوك كان أو ثلاثة ، وليس معهم خيل ولا فاش ، وتشتت بقية العسكر حفاة عراة ، وأما أهل دمشق فلم يشعروا برجوع السلطان ، فأصبحوا ورأيهم جميعاً على مناشبة الحرب ، فركبوا الأسوار وأعلنوا بالنداء يستحث بعضهم بعضاً على الجهاد وتراموا على التتار من فوق الأسوار وقتلوا منهم وغنموا من خيلهم ، فكانت بينهم مقاتلة هائلة حتى قتلوا من التتار نحو ألف فارس وآخر النهار حضر اثنان من أصحاب تيمورلنك ينادي أحدهما بطلب الصلح⁽³¹⁸⁾ وأن يحضر أحد ممن يعقل حتى يُكَلِّمَ الملك ، فوقع الإختيار على إرسال القاضي [برهان الدين] ابن مفلح الحنبلي⁽³¹⁹⁾ ، فغاب ثم رجع فأخبر أنه اجتمع بتيمورلنك ، وأنه / تَلَطَّفَ معه وقال له : هذه بلد [150/أ] الأنبياء ، وقد اعتقتها صدقة عن أولادي ، وأخذ ابن مفلح يحلّ عزائم الناس حتى صاروا فرقتين ، فرقة ترى ما يراه القاضي من بذل الطاعة ، وهم الفقهاء ، وفرقة باقية على المحاربة وهم سواد الناس⁽³²⁰⁾ فباتوا تلك الليلة على حالتهم تلك ثم أصبحوا وقد غلب رأي ابن مفلح ، ومن عادة تيمور إذا أخذ بلدًا صلحاً أن يخرج إليه أهل البلد من كل نوع تسعة أشياء ويسمون ذلك الظفران⁽³²¹⁾ ، فطلب منهم تجهيز ذلك ، وهما بإخراجه من باب النصر ، فنعمهم نائب القلعة وهذّدهم بإحراق البلد ، فأعرضوا عن ذلك وتدلّوا من أعلى السور فباتوا في محيّم تيمورلنك ، ورجعوا وقد تقرّر منهم قضاة ووزير ومستخرج

(317) تطابق هذه الرواية رواية ابن عربشاه التي اعتمدها L. Bouvat في مقاله في دائرة المعارف ، أما ابن خلدون الذي عاش الأحداث كما أشرنا فإنه يقول « ثم نعى الخبر إلى السلطان وأكابر أمرائه أن بعض الأمراء المنغمسين في الفتنة يحاولون الحرب إلى مصر للثورة بها ، فأجمع رأيهم للرجوع إلى مصر خشية من انتفاض الناس وراءهم واختلال الدولة بذلك » كتاب العبر 1201/7 .

(318) مرّ ابن خلدون عن الحرب بين أهل دمشق وتيمورلنك وكتب أن أهل دمشق لما علموا أن السلطان رجع إلى مصر اتفقوا على طلب الأمان 1202/7 .

(319) هو برهان الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح الراميني الأصل ثم الدمشقي (749 - 1389/803 - 1400 م) وكان يحسن اللغتين التركية والفارسية ولعلهم لذلك اختاروه للسفارة « أنظر هامش كتاب العبر 1 - 1202/7 ، ووقعت بينه وبين عبد الجبار المعتزلي أمام تيمور مناظرات وإلزامات بحضرة تيمورلنك فأعجبه ومال إليه فتكلّم معه في الصلح فأجاب إلى ذلك ثم غدر فتألم صاحب الترجمة إلى أن توفي ... شذرات الذهب 22/7 - 23 .

(320) حسب ابن خلدون وقعت المناشبات قبل خروج القاضي إلى تيمورلنك ، ووافق القضاة والفقهاء على طلب الأمان ، ورفض نائب القلعة وأنكره عليهم . نفس المرجع .

(321) سمّاها ابن خلدون : « التقدمة » كتاب العبر 1202/7 .

للأموال ، ومعهم فرمان وهو مرسوم⁽³²²⁾ فيه تسعة أسطر يتضمن الأمان لأهل دمشق خاصة ، فقرئ ذلك على المنبر وفتحوا الباب الصغير ، ودخل أمير من أمراء تيمور ثم شرعوا في جباية الأموال التي قررها عليهم ، وهي ألف ألف دينار ، فحملت إليه ، فلما وضعت بين يديه غضب وأمر بأن يحمل له ألف تومان ، والتومان عشرة آلاف دينار ، فرجعوا آخذين في جباية الأموال ، فتزايد البلاء⁽³²³⁾ .

وفي هذه المدة كلها لم تقم الجمعة إلا مرة واحدة ، وفي أثناء الجباية خرب ما بين الجامع والقلعة بالنار ، وذلك نحو ثلث البلد ، ثم سلمت القلعة بعد تسع وعشرين يوماً من الاستيلاء على البلد ، وجمعت الأموال التي قررها ثانياً⁽³²⁴⁾ ، وأحضرت بين يديه / فقال لابن مفلح وأصحابه : هذه ثلاثة آلاف دينار ببلادنا ، وقد بقي عليكم سبعة آلاف دينار⁽³²⁵⁾ وأراكم عجزتم عن الإستخلاص ثم طلب منهم ما تركه العسكر من كل شيء ثم طلب جميع ما في البلد من الأموال والدواب وكان عدتها نحو الإثني عشر ألفاً ، ثم جميع ما فيها من السلاح ، فلما انقضى ذلك كله أمر باستكتاب خطط دمشق ، فكتب بها أوراقاً وفرّقها في أمراهه فحينئذ طمّت الأمواج فنزل كل أمير في خط ، وطلب سكان ذلك الخط فكان الرجل يطالب بالمال الثقيل الذي لا يقدر عليه ، فإذا امتنع عوقب بأنواع العذاب ثم تُخرج نساؤه وبناته فيوطأن بين يديه ، فأقاموا على ذلك تسعة عشر يوماً حتى علموا أنهم قد أتوا على مال البلد ، فخرجوا منها ثم صحّ فيهم عذاب الله المنزل ، فهجموا عليهم كالجراد⁽³²⁶⁾ المنتشر ، فنهبوا ما بقي وسبوا النساء والشباب والرجال ، وألقوا

[150/ب]

(322) سماها ابن خلدون : «رقاع الأمان» نفس المرجع .

(323) لخص ابن خلدون هذا الخبر بقوله : «وخرج القاضي برهان الدين بن مفلح الحنبلي ومعه شيخ الفقهاء فاجابهم إلى التأمين ، وردّهم باستدعاء الوجوه والقضاة فخرجوا إليه متدلين من السور بما صحّهم من التقدمة ، فأحسن لقاءهم وكتب لهم الرقاع بالأمان ، وردّهم على أحسن الآمال ، واتفقوا معه على فتح المدينة من الغد» .

ونلمح من نص ابن خلدون ونص مقديش الفرق بين مؤلف مركز وعلمي ومؤلف يميل إلى الملحمة والأسطورة فيتعد بتأليفه عن الواقع التاريخي .

وتدكّي ابن خلدون أيضاً وكان لقاءه مع تيمورلنك التاريخي بصفته القاضي المالكي المغربي كما قدّموه له

أنظر كتاب العبر 1203/7 - 1222 .

(324) في ط «التي قدرها» .

(325) في ش وط : «سبعة آلاف ألف دينار» .

(326) في ت : «كالجراد في بيوتهم» .

الأطفال ، وأطلقوا النار في الجامع والبلد فأُحرقت حتى صارت النار ترمي بشررها ، واستمر ذلك ثلاثة أيام حتى اندرست رسومها⁽³²⁷⁾ ، وفي ثالث شعبان ركب تيمورلنك وسار نحو حلب راجعاً إلى بلاده ، وكانت مدة إقامته في دمشق أربعة وسبعون يوماً ، ولم يتوجه إلى مصر.

وكان قبل هذه المدة في سنة تسع وتسعين وسبعمائة⁽³²⁸⁾ في أيام الملك الظاهر سيف الدين برقوق الجركسي حضر في ثلاثة عشر/ من صفر⁽³²⁹⁾ أربعة رُسلٍ من تيمورلنك ومعهم كتابه للسلطان المشار إليه ، نسخة الكتاب بعد البسملة الشريفة : «**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ**»⁽³³⁰⁾ «**قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**»⁽³³¹⁾ اعلموا أننا جُند الله في أرضه ، مخلوقون من سخطه ، مسلطون على من يحلّ به غضبه ، لا نرقّ لشاك ولا نرحم عبدة باك ، نزع الله الرحمة من قلوبنا ، فالويل كلّ الويل لمن لم يكن من جهتنا ، قد حرقنا البلاد ويّتمنا الأولاد ، وأظهرنا في الأرض الفساد ، خيولنا سوابق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، ملكنا لا يرام ، وجارنا لا يظام ، من سلمنا سلم ، ومن حاربنا ندم ، فإن أنتم قبلتم شرطنا واصطلحتم معنا فلکم ما لنا وعليکم ما علينا ، وإن أنتم خالفتم وعلى بغيکم تماديتم فلا تلوموا إلّا أنفسکم ، فالحصون لا تمنع والعساكر لا تنفع ، ودعاؤکم لا يُسمع لأنّکم أكلتم الحرام وضيعتم الجمع ، فابشروا بالمذلة والهوان «**فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ**»⁽³³²⁾ فقد غلب عندكم أنا كفره ، وثبت عندنا أنکم فجرة ، وقد سلطنا عليكم الإلاه بأمور مُقدّرة وأحكام مدبّرة ، فعزیزکم عندنا ذلیل ، وكثیرکم لدينا قليل ، وقد أوضحنا لکم الخطاب فأسرعوا برّد الجواب قبل

(327) جاء في دائرة المعارف : «وسقطت مدينة دمشق ، فأعمل فيها السلب واستعبد أهلها ، واغتصب من علماءها فتوى «تؤيد مسلكه» الطبعة العربية 301/10 ولم يتعرض إليه ابن خلدون الذي أعطانا فكرة أخرى عن تيمورلنك في حسن معاملته له.

(328) 1396م.

(329) 16 نوفمبر.

(330) سورة آل عمران : 26.

(331) سورة الزمر : الآية 46.

(332) سورة الأحقاف : آخر الآية 19.

أن ينكشف الغطاء وترمي الحرب نارها⁽³³³⁾ وتلقي أوزارها ، ولم تبق لكم باقية ، وينادي عليكم منادي الفناء : ﴿ هَلْ تُحْسِنُ / مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾⁽³³⁴⁾ ، الآن قد أنصفناكم إذ راسلناكم فردوا رسلنا بحواب هذا الكلام والسلام .

[151/ب]

فلما سمع السلطان هذا اغتاظ غيظاً شديداً وأمر بكتب جوابه فكتب بإنشاء ابن فضل الله⁽³³⁵⁾ - رحمه الله - ونسخته : « بعد البعدي والاصدار حصل الوقوف على الكتاب مخبر الحضرة السلطانية ما وقفنا عليه ، فقولكم : إنا مخلوقون من سخطه مُسلطون على من يحلُّ عليه غضبه ، وإنكم لا ترقون لشاك ولا ترحمون عبدة باله وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم فهذا من أكبر عيوبكم ، وهذه صفات الشياطين لا صفات السلاطين ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾⁽³³⁶⁾ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾⁽³³⁷⁾ فأني كتاب كريم ذكرتم ، وعلى لسان أي رسول بعثتم ، وبكل قبيح وصفتم ، وعندنا خبركم من حين خلقتم ، وزعمتم أنكم كفرة ﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾⁽³³⁸⁾ من تمسك بالأصول لن يبالى بالفروع ، نحن المؤمنون حقاً ، القرآن على نبينا أنزل ﷺ وهو بنا رحيم لم يزل ، إنما النار لكم خلقت ، ولخلودكم أضرمت إذا السماء انفطرت ، ومن أعجب العجائب تهديد الرتوت بالتوت ، والسياع بالضباع ، والكماة بالكراع ، ونحن خيولنا برقية ، وسهامنا يمانية وسيوفنا شديدة المضارب ، ذكرها في المشرق والمغرب ، إن قتلناكم فنعم البضاعة وإن قتلنا بيننا وبين الجنة ساعة ، ﴿ وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾⁽³³⁹⁾ . وقولكم : قلوبنا كالجبال ، وعددنا / كالرمال ، فالقصاب لا يبالى بكثرة الغنم وكثير من الخطب يكفيه قليل من الضرم ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾⁽³⁴⁰⁾ فالفرار الفرار من المنايا لا

[152/أ]

(333) في ت بعدها : « وترى شرارها » .

(334) سورة مريم : 98 .

(335) ابن فضل الله العمري صاحب « مسالك الأبصار » وهو أحمد بن يحيى الدمشقي (ت 1349/749) كتب المطبوعة : مسالك عباد الصليب ، والتعريف بالمصطلح الشريف في مراسم الملك وما يتعلق به . أنظر الأعلام

لخير الدين الزركلي 268/1 (ط 5) .

(336) سورة الكافرون : 1 .

(337) سورة الكافرون : 2 .

(338) في الأصول : « ألا لعنة ... » سورة البقرة : 89 .

(339) سورة آل عمران : 169 .

(340) سورة البقرة آخر الآية 249 .

الرزايا ، ونحن من الطمأنينة على غاية الأمانة ، إن قُتِلنا فشهداء ، وإن عشنا كنا سعداء ، ﴿فَإِنْ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾⁽³⁴¹⁾ ، أبعُد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين تطلب منا طاعة ؟ لا سَمْع ولا طاعة ، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أن ينكشف الغطاء ، هذا الكلام في نظمه تركيك ، وفي سبكه تفكيك ، لو كشف لَبَان بعد البَيَان ، أكفر بعد إيمان أم اتخذتم ربًّا ثان ؟ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾⁽³⁴²⁾ ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾⁽³⁴³⁾ قل لكاتبك الذي وضع رسالته ووصف مقالته وجعل كتابه كصيرير الأبواب أو كطنين الذباب ، ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾⁽³⁴⁴⁾ .

فلما وصل إليه الكتاب غضب غضبًا شديدًا ، إلا أن الله حال بينه وبين ما أراد من مصر ، فلم يتعدّ منهم أحد جسر يعقوب .

فرجع بعد الفراغ من الشّام على طريقته العوجاء حتى وصل إلى الموصل وهو يمحو آثار الإسلام ، ثم توجه إلى مدينة بغداد ، فلما سمع السلطان أحمد⁽³⁴⁵⁾ ذلك استتاب مكانه نائبًا ، ولحق هو إلى سلطان الرّوم بايزيد فأخذ بغداد عنوة يوم عيد الأضحى⁽³⁴⁶⁾ ، فتقرّبوا بزعيمهم بأن جعل المسلمين قرايين ، ثم أمر عسكره بأن يأتيه كلّ واحد منهم برأسين من أهل بغداد ، فأتوا بهم وطرحوا أبدانهم في تلك الميادين ، وجمع رؤوسهم فبنى منها / مآذن⁽³⁴⁷⁾ ، ومن عجز من الجند عن رؤوس الرجال قطع رؤوس النساء والأطفال ، ثم خرّب مدينة بغداد بعد أن أخذ ما بها من الأموال ، ثم توجه ناحية قرى بآغ ونوى المسير نحو ممالك الرّوم ، فراسل سلطانها بايزيد المجاهد الغازي وجعل السلطان أحمد حاكم بغداد ، وقره يوسف حاكم أذربيجان سببًا ، وذكر أنهما من سطوات سيوفه هربًا ، فتوجه نحوه ، فكان لا يدخل قرية إلا أفسدها ، ولا ينزل على مدينة إلا بددها ، فلما بلغ السلطان بايزيد⁽³⁴⁸⁾ بجيئه توجه إلى ملاقاته ، فدخل تيمورلنك حدود الرّوم

(341) في الأصول «ألا إن حزب الله...» سورة المائدة : 56 .

(342) في الأصول : «فستكتب...» سورة مريم : 79 .

(343) سورة مريم : 89 .

(344) أحمد جلائر الإشارة السابقة .

(345) سورة مريم : 90 .

(346) وقيل أخذها في السابع والعشرين من ذي القعدة 803 هـ/9 جويلية 1401 ، دائرة المعارف الإسلامية 301/10 .

(347) في الأصول : «مياذين» .

(348) في الأصول : «أبايزيد» وأثبتناها كما تكتب في النصوص التاريخية وهي تكتب بالوجهين ، وقد كتبها المؤلف

بايزيد فيما بعد من نصّه .

أواخر سنة أربع وثمانمائة⁽³⁴⁹⁾ وأرسل إلى الملك بايزيد في الصُّلح على عادته من المكر والدَّهاء ، وقال : إنك رجل مجاهد في سبيل الله ، وأنا لا أحبُّ قتالك ولكن أنظر إلى البلاد التي معك من أيك وجدك فاقنع بها وسلِّم لي البلاد التي كانت من إرثنا ، فاستشاط بايزيد⁽³⁴⁸⁾ غضباً عندما وقف على كتابه ، وكان السلطان على مدينة القسطنطينية⁽³⁵⁰⁾ محاصراً لها ، وقد قارب فتحها ولكن جعل الله الفتح على يد غيره فتركها وتوجَّه لقتاله ، وخاف من الهجوم على بلاد الروم فأجرى من عساكره السيول ، وأخذ بهم على قفار غير عامرة خوفاً على رعاياه من وطء عساكره ، وكان شفوفاً على الضعفاء والفقراء ، وكان غالب عسكره التتار وهم قوم ذووا يمين ويسار ، فأرسل تيمور إلى زعمائهم والكبار من رؤسائهم يستميلهم ويذكرهم الجنسية / ويعدهم ويُمَنِّيهم ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾⁽³⁵¹⁾ ، فوعده بالمعاونة وكان تيمور قد نزل أنكورية⁽³⁵²⁾ فلم يفق السلطان من رقادِهِ إِلَّا وتيمور قد دَمَّر معظم بلاده ، فقامت عليه القيامة وتدانَّت الجيوش ، فلَمَّا التقى الجمعان⁽³⁵³⁾ اندفعت من العساكر العثمانية التتار⁽³⁵⁴⁾ فاتَّصَلت بعسكر تيمور وكانوا هم صلب العسكر بل كانوا نحواً من جند تيمور ، وكان مع السلطان من أولاده أكبرهم ، السلطان سليمان ، فلَمَّا رأى ما فعله التتار أخذ باقي العسكر وتقهقر عن ميدان المصاف ، فرجع إلى بروسا ، فلم يبق مع السلطان بايزيد إِلَّا المشاة وبعض الشُّجعان وقليل ما هم ، فثبت للمجادلة بمن معه من الرِّفاق ، فأحاطت به أساور الجنود ، فلَمَّا عجزوا عن الدُّنُو منه ألقوا عليه بساطاً ومسكوه ، وكانت هذه الواقعة على نحو ميل من مدينة أنقرة يوم الأربعاء سابع عشر ذي الحِجَّة سنة أربع وثمانمائة⁽³⁵⁵⁾ ، ولَمَّا صفا لتيمور الأمر فعل ما سَوَّلَ له نفسه ، وأما السلطان سليمان ابن السلطان بايزيد فوصل إلى بروسا

(349) 1402 م.

(350) في الأصول : «اسلامبول» وأثبتناها حسب تسميتها الضرفية التاريخية ، إذ أن هذه المدينة ما زالت إذ ذاك تحت نفوذ الروم.

(351) سورة النساء : 120 .

(352) هي مدينة أنقرة .

(353) في سهل أنقرة .

(354) فرق أيدين ، ومنتشا ، وصاروخان ، وكرميان ، أنظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ص 146 .

(355) 18 جويلية 1402 م ، وفي تاريخ الدولة العلية ص 146 : «تاسع عشر» .

معقل آل عثمان ، فاحتاط على ما فيها من الخزائن والأموال والحريم والأولاد ونفائس الأثقال فاشتغل بنقل ذلك إلى أدرنة⁽³⁵⁶⁾.

وكان للسلطان بايزيد من الأولاد سليمان المذكور وهو أكبرهم وعيسى ومصطفى ومحمد وموسى وهو أصغرهم ، وكلّ طلب مهرّباً لنفسه [إلا موسى الذي سقط مع أبيه أسيراً]⁽³⁵⁷⁾ فأحاز إليه من العسكر طائفة نجا بها فكان محمد⁽³⁵⁸⁾ في قلعة أماسية وهي الخرشنة الشاهقة / القاصية ، وأما عيسى فإنه لجأ إلى بعض الحصون ، وأما مصطفى فإنه قُفِدَ فقتل بسببه نحو ثلاثين نفساً.

ثم إن تيمور قسّم بلاد الروم على زعمه للملوك الذين خلفهم السعيد بايزيد ما كان لهم⁽³⁵⁹⁾ ، وأطلق ابن قرمان من السجن وسلّم له مقاليد أبيه وفوّض بلاد الأناضول على زعمه إلى موسى وعيسى ابني بايزيد ، ثم مضى إلى سبيله بعدما خان وأهلك العباد ، وأخرب البلاد وهتك الستور وأباح البكور ، ولم يسلم من شرّه من رعايا الروم الثلث ولا الربع ، وصارت جماعاتهم ما بين منخقة وموقودة ومتريدي ونطيحة وما أكل السبع ، وكان أمر أن يخطب باسمه وكتب أيضاً اسمه على السيكة . وحصل جميع مآربه فعند ذلك توجه إلى بلاده⁽³⁶⁰⁾ [واستقرّ بها مدة ، ثم دبر حملة جديدة انفذها على الصين]⁽³⁶¹⁾ فلما وصل إلى مدينة اترار⁽³⁶²⁾ لحقه المرض ، فأخذ بمبادئ حتفه فاشتدّ به الحال ، فجعل يتعلّل بشرب الخمر⁽³⁶³⁾ ويتداوى ويتسلّى به وفي ذلك هلاكه فلم يزل به حتى قُتِل كبده ولم ينفعه ماله ولا ولده ، وصار يتقايأ الدّم فانتقل إلى لعنة الله ليلة الأربعاء سابع

(356) في الأصول : «برادرته» .

(357) إضافة للدقة التاريخية ، وتوفي بايزيد في 15 شعبان 805/10 مارس 1403 م وكان قد عامله تيمورلنك بالحسنى ثم شدّد عليه بعد أن شرع في الهروب ثلاث مرات .

(358) في الأصول : «محمد وموسى» وأسقطنا الثاني لأنه أسرع مع والده كما أشرنا .

(359) أعاد تيمورلنك إلى أمراء قسطنطيني وصاروخان ، وكريمان ، وآيدين ، ومنتشا ، وقرمان ، ما فقدوه من البلاد ، أنظر عن هذا تاريخ الدولة العلية ص 147 .

(360) مدينة سمرقند وصلها في 807 هـ/1404 م .

(361) إضافة اقتضاها تسلسل الأحداث ، المرجع السابق .

(362) في الأصول : «أنذار» والثبت من الضوء اللامع 49/3 وفي دائرة المعارف الإسلامية : «أوترار» 301/10 وفي التوقيعات الإلهامية : «أورنارة» 843/2 .

(363) في بعض النصوص : «يتعلّل بشرب روح الخمر» .

عشر شعبان سنة سبع وثمانمائة⁽³⁶⁴⁾ بنواحي مدينة أترار، ثم نقل إلى مدينة سمرقند وقد
 جاوز السبعين⁽³⁶⁵⁾ ومدة ملكه واستيلائه مستقلاً ست وثلاثون سنة. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽³⁶⁶⁾.
 فتولّى بعده ابنه شاهرخ واستولى على ممالك ما وراء النهر وجميع عراق العجم⁽³⁶⁷⁾
 والله أعلم بغيه وأحكامه.

(364) 18 فيفري 1405م.

(365) في الأصول: «الثمانين» وفي النصوص التاريخية واحد وسبعون سنة، أنظر على سبيل المثال دائرة المعارف الإسلامية، النسخة العربية 301/10.

(366) سورة الأنعام: 45.

(367) في ت: «العجم وما حوله».

/ الباب الثاني في ذكر بعض أمراء بني العباس بالمشرق

ف نقول ذكر البيضاوي في «زبدة التواريخ» أن طوائف السلاطين الذين ظهروا في الدولة العباسية ثمانية : أولها الصفارية ، ثم السامانية ، ثم الغزنوية ، ثم الديلمية ، ثم السلجوقية ، ثم السلقلدية ، ثم الخوارزمية ، ثم المغولية ، فكلها في العراق وما وراء النهر . أما المغولية فقد فرغنا منها الآن ، وهي التي كان انقراض الدولة العباسية من بغداد على أيديها .

الصفارية :

وأما الصفارية فأولهم يعقوب بن الليث وأول ظهوره في سنة خمس وخمسين ومائتين⁽¹⁾ وتهدد⁽²⁾ بغداد واستولى على فارس⁽³⁾ [ومات تاسع شوال سنة خمس وستين ومائتين وخلفه أخوه عمرو بن الليث]⁽⁴⁾ وهلك [عمرو] في حبس المعتضد⁽⁵⁾ بالله حين أسر على يد اسماعيل الساماني بأمر الخليفة المعتضد وآخر الصفارية طاهر بن محمد .

(1) 868 - 869 م وعن خروج يعقوب انظر ابن الأثير 191/7 .

(2) في الأصول : «وخطب في بغداد» وهو منافي للوقائع التاريخية .

(3) في الأصول : «على العراق» والمثبت من المرجع السابق .

(4) إضافة اقتضاها التوضيح إذ أن المؤلف خلط بين يعقوب الذي مات بالقولنج وأخيه عمرو الذي أسير على يد اسماعيل الساماني وقتل . أنظر ابن الأثير 325/7 .

(5) ذكر ابن الأثير أن المعتضد أمر بقتل عمرو عندما كان على فراش الموت ولكنه لم يقتل إلا في خلافة المكتفي بالله في اليوم الذي دخل فيه بغداد ، ابن الأثير 516/7 .

السامانيون :

وأما السَّامَانِيَّة فَأُولَهم نصر بن أحمد وآخروهم عبد الملك بن نوح⁽⁶⁾ ، ملكوا ديار الترك وفارس والعراق إلى حدود الهند ، وكان كرسي مملكتهم بُخَارَى ، وعدَّتْهم عشرة وكانوا في طاعة العبَّاسيين⁽⁷⁾ .

الغزنويون :

وأما الغزنوية فهم منسوبون إلى غَزَنَة (مدينة في خراسان)⁽⁸⁾ فأول سلاطينهم السلطان أبو القاسم محمود بن ناصر الدَّولة أبي منصور سُبُكْتِكِين⁽⁹⁾ ، الملقَّب أولاً سيف الدَّولة ، ثم لقَّبه الخليفة القادر بالله العبَّاسي لما سلطنه بعد أبيه «يَمِين»⁽¹⁰⁾ الدَّولة وأمين الأَمَة⁽¹¹⁾ فهو قائد الجيوش / العبَّاسية وناصر دولتهم وفي طاعتهم ، «ولما انتظم الأمر للسلطان محمود ، كان في بعض بلاد خراسان نواب لصاحب ما وراء النهر من ملوك بني سامان ، فجرى بين السلطان محمود وبينهم حروب انتصر فيها عليهم ، وملك بلاد خراسان ، وانقطعت الدَّولة السَّامَانِيَّة منها ، وذلك في سنة تسع وثمانين وثلاثمائة»⁽¹²⁾ ، واستتبَّ له الملك ، وسيرَّ له القادر بالله خلعة السُّلطنة ، وتبوَّأ سرير المملكة ، وقام بين يديه أمراء خراسان [سماطين مقيمين]⁽¹³⁾ برسم الخدمة ، ملتزمين حكم الهيبة ، وأجلسهم بعد الاذن على مجلس الأُنس ، وأمر لكل واحد منهم ولسائر

[154/ب]

(6) في الأصول : «المتنصر بالله اسماعيل» والمثبت من الكامل 145/9 .

(7) انتهت دولتهم على يد محمود بن سُبُكْتِكِين في سنة 389 هـ / 98 - 999 م ابن الأثير 147/9 وكذلك في الوفيات لابن خلكان .

(8) في الأصول : «بلد بالعراق» والمثبت من معجم ياقوت 201/4 . قال : «ويقال لمجموع بلادها زابلستان وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان ، وهي الحد بين خراسان والهند» .

(9) النقل الآتي من الوفيات لابن خلكان من ترجمة محمود بن سُبُكْتِكِين 175/5 ، وأخبار محمود موجودة أيضًا في ابن الأثير ، وابن خلدون والشذرات الخ ..

(10) في الأصول : «بأمين» والمثبت من الوفيات .

(11) في الوفيات 175/5 : «في الملة» .

(12) 999 م .

(13) اضافة من الوفيات يقتضيها اكمال المعنى 177/5 .

غلماناه وخاصته ووجوه أوليائه وسائر حاشيته من الخلع والصلوات ونفائس الأمتعة بما لم يسمع بمثله. واتسعت الأمور عن آخرها في كنف إيايته، واستوسقت الأعمال في ضمن كفائته، وفرض على نفسه في كل عام غزو الهند، ثم انه ملك سجستان في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة⁽¹⁴⁾، بدخول قوادها وسائر ولاتها في طاعته من غير قتال.

ولم يزل يفتح في بلاد الهند حتى انتهى إلى ما لم تبلغه في الاسلام راية، ولم تتل به سورة ولا آية، فلدحض عنها أرجاس⁽¹⁵⁾ الشريك وبنى بها مساجد وجوامع، ونفصيل ذلك كما قال ابن خلكان يطول. ولما فتح⁽¹⁶⁾ بلاد الهند كتب إلى الديوان العزيز ببغداد كتاباً يذكر فيه ما فتح الله على يديه من بلاد الهند، وأنه كسر الصنم المعروف بسومنات⁽¹⁷⁾ وذكر في كتابه⁽¹⁸⁾ أن هذا الصنم عند الهندو/ يحمي ويميت بزعمهم [155/أ] ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وأنه اذا شاء أبرأ من جميع العلل، وربما كان يتفق لشقوتهم ووصول عليل يقصده فيواقفه طيب الهواء وكثرة الحركة فيبرأ، فيزيدون به افتنائاً ويقصدونه من أقاصي البلاد رجالاً وركبائاً، ومن لم يصادف منهم انتعاشاً احتج بالذنب، وقال: انه لم يخلص له الطاعة، ولم يستحق منه الاجابة، ويزعمون أن الأرواح اذا فارقت الأجسام اجتمعت لديه على مذهب التناسخية، فينشئها فيمن يشاء، وأن مد البحر وجزره عبادة له وطاعة، وكانوا يحكم هذا الاعتقاد يحجونه من كل صقيع بعيد، ويأتونه من كل فج عميق ويحجونه⁽¹⁹⁾ بكل مال جزيل، ولم يبق في بلاد الهند والسند على تباعد أقطارها وتفاوت أديانها ملك ولا سوق الا وقد تقرب لهذا الصنم بما يعز عليه من أمواله وذخائره حتى بلغت أوقافه عشرة آلاف قرية مشهورة في تلك النواحي، وامتلاّت خزائنه من أصناف الأموال، وفي خدمته من البراهمة ألف رجل يخدمونه، وثلاثمائة رجل يخلقون رؤوس حجيجه ولحاهم عند الورد عليه، وثلاثمائة رجل وخمسمائة امرأة يغنون ويرقصون عند بابيه، ويجري من مال الأوقاف المرصدة له لكل طائفة من هؤلاء رزق معلوم.

(14) 1002 - 1003 م.

(15) في الوفيات: «أدناس» 178/5.

(16) في الأصول: «بلغ» والمثبت من الوفيات وطبقاً لما يأتي به النص بعدها.

(17) في الأصول: «دسوسات» والمثبت من الوفيات 178/5 ومن طبقات الشافعية للسبكي 14/1.

(18) كذا في الوفيات.

(19) في الوفيات: «ويتحفونه».

وكان بين المسلمين وبين القلعة التي فيها الصَّْنَم المذكور⁽²⁰⁾ مفازة موصوفة بقلعة المياه وصعوبة المسالك واستيلاء الرمال على طرفها ، فسار إليها السلطان [محمود] في ثلاثين ألف فارس جريدة مختارة من عدد كثير / وأنفق عليهم من الأموال ما لا يُحصى ، فلما وصلوا إلى القلعة وجدوها حصناً منيعاً ، وفتحوها في ثلاثة أيام ، ودخلوا بيت الصَّْنَم وحوله من أصنام الذهب المرصَّع بأنواع الجواهر عدد كثير محيطة بعرشه ، يزعمون أنها الملائكة وأحرق المسلمون الصَّْنَم المذكور ووجدوا في أذنيه نِكْفاً وثلاثين حلقة ذهب ، فسألهم السلطان محمود عن معنى ذلك فقالوا : كل حلقة عبادة ألف سنة ، وكانوا يقولون بِقَدَم العالم ويزعمون أن هذا الصَّْنَم يُعْبَد منذ أكثر من ثلاثين ألف سنة ، كلُّما عبده ألف سنة علقوا في أذنه حلقة⁽²¹⁾.

والحاصل أن هذا السلطان من أَوْتَاد الرِّجال عند الأولياء ، وكان ملوك الدَّيْلَم قد عظم أمرهم وزاد شرُّهم في ممالك العراق فأظهر الله هذا السلطان ومكَّنه من رقابهم وسلَّط السَّيف عليهم وصلب أعيان الشَّيعة والزَّنادقة والرَّافضة وقاتل اليهود والمجوس والصَّابئة ، وأحرق الأصنام ، وقتل ملوك الهند والصَّين ، ويقال إنه اسكندر هذه الأمة ، وظهرت له في تلك الأسفار والغزوات خوارق عادات وكرامات ملأت دفاتر التَّواريخ ، وأخذ من الغنائم من بيوت الأصنام للمجوس مالاً عظيماً لا يحصى من الجواهر ، فأخذ أربعين قنطاراً من الجواهر الألباسية والياقوتية .

وقد جمع سيرته أبو النصر⁽²²⁾ محمد بن عبد الجبَّار العتيبي⁽²³⁾ الفاضل ، في كتاب [سَمَّاهُ «البيني»]⁽²⁴⁾ وذكر في أوَّله أن السلطان المذكور ملك الشَّرْق بجنبيه ، والصَّدر من العالم ويديه لانتظام / الأقليم الرابع بما يليه من الثَّالث والخامس في حوزة ملكه وحصول ممالكها الفسيحة وولايتها العريضة في قبضته وملكه ، ومصير أمرائها وذوي الألقاب الملوكية من عظمائها تحت حمايته وجبايته ، واستظلالهم⁽²⁵⁾ من آفات الزَّمان بظلّ ولايته ورعايته ، واذعان ملوك الأرض لعزَّته ، وارتياحهم بفائض هيئته ، وقد كان منذ لفظه

(20) في الوفيات : «مسيرة شهر في مفازة» 179/5 .

(21) الوفيات لابن خلكان 179/5 .

(22) في الأصول : «الرضا» والمثبت من الوفيات .

(23) في الأصول : «العتبي» والمثبت من الوفيات 179/5 .

(24) اضافة من الوفيات .

(25) في الوفيات : «واستدراهم» 179/5 .

المهد وجفاه الرضاع ، وانحلت عن لسانه عقدة الكلام ، واستغنى عن الإشارة بالافهام ، مشغول اللسان بالذكر والقرآن ، مشغوف النفس بالسيف والسيان ، ممدود⁽²⁶⁾ الهمة إلى معالي الأمور ، معقود الأمنية بسياسة الجمهور⁽²⁷⁾ اهـ .

مولده ليلة عاشوراء سنة احدى وعشرين وثلاثمائة⁽²⁸⁾ وتوفي سنة احدى وعشرين وأربعمائة⁽²⁹⁾ بغزنة - رحمه الله تعالى - .

وتولى بعده مسعود⁽³⁰⁾ وجرى له مع بني سلجوق خطوب يطول شرحها ، وقتل سنة ثلاثين وأربعمائة⁽³¹⁾ ، واستولى على المملكة بنو سلجوق لكن بقيت للغزنوية بقية ملوك إلى سنة خمس وخمسين وخمسائة⁽³²⁾ ومن بقيتهم خسرو شاه بن بهرام شاه⁽³³⁾ ، وابتداء سلطنة السلطان محمود من سنة سبع وثمانين وثلاثمائة⁽³⁴⁾ .

السلاجقة :

وأما السلجوقية فأولها أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق⁽³⁵⁾ ، الملقب ركن الدين طغرل بك كان هؤلاء القوم قبل استيلائهم على الممالك [يسكنون] فيما وراء النهر بموضع بينه وبين بخارى مسيرة عشرين فرسخاً ، وكانوا عددًا يحل عن الحمر والاحصاء وكانوا لا يدخلون تحت طاعة سلطان ، وإذا قصدهم / جمع ما لا طاقة لهم به [156/ب] دخلوا المفاوز وتحصنوا بالرمال ، فلمّا عبر السلطان محمود بن سُبُكْتِكِين الغزنوي - المندم

(26) في الأصول : «محدود» والمثبت من الوفيات 180/5 .

(27) انتهى النقل من الوفيات أنظر ترجمة محمود بن سبكتكين 175/5 - 181 ، نقل منها المؤلف أجزاء مع تغيير في بعض الكلمات .

(28) 933 م وفي الكامل لابن الأثير : «سنة ستين وثلاثمائة» 398/9 .

(29) في الأصول : «اثنين وعشرين» والمثبت من ابن الأثير 398/9 ، 1030 م .

(30) لم يخلف مسعود والده اثر موته مباشرة بل قام بالأمر قبله أخوه محمد بوصية من أبيه ، ولكنه كان سيء التدبير منهمكًا في ملاذه فعزله الجند سريعًا .

(31) كذا في الأصول والوفيات وفي الكامل : «اثنين وثلاثين» 486/9 ، 1040 - 1041 م .

(32) 1160 م .

(33) انظر ابن الأثير 262/11 .

(34) 997 م انظر ابن الأثير 657/9 .

(35) أخذ المؤلف ترجمته من الوفيات 63/5 - 68 .

الذكر - إلى ما وراء النهر وكان سلطان خراسان وغزاة وتلك النواحي وجد زعيم بني سلجوق قوي الشوكة كثير العدة ، يتصرف في أمره بالمخاتلة والمراوغة⁽³⁶⁾ وينتقل من أرض إلى غيرها ، ويغير في أثناء ذلك على بعض البلاد ، فاستماله وجذبه ولم يزل يخدعه حتى أقدمه إليه ، فأمسكه وحمله إلى بعض القلاع [واعتقله]⁽³⁷⁾ وشرع في أعمال الحيلة في تدبير [أمر]⁽³⁷⁾ أصحابه ، واستشار أعيان دولته في شأنهم ، ففهم من أشار باغراقهم في نهر جيحون ، ومنهم من أشار بقطع إنبهام كل رجل منهم ليتعذر عليه الرمي والعمل بالسلاح ، واختلفت الآراء في ذلك ، وآخر ما وقع الاتفاق عليه أن يعبر بهم جيحون إلى أرض خراسان ويفرقهم في النواحي ، ويضع عليهم الخراج ، ففعل ذلك ، ودخلوا في الطاعة واستقاموا ، وأقاموا على ذلك مدة ، فطمع فيهم العمال وظلموهم وامتدت إليهم أيدي الناس وتهمسوا جانبهم ، وأخذوا من أموالهم ومواشيهم ، فانفصل منهم ألفا بيت ومضوا إلى بلاد كرمان⁽³⁸⁾ وملكها يومئذ الأمير أبو الفوارس ابن بهاء الدولة ولد عضد الدولة بن بويه ، فأقبل عليهم وخلع على وجوههم ، وعزم على استخدامهم فلم يستموا عشرة أيام حتى مات أبو الفوارس ، وخافوا من الدليم ، وهم أهل ذلك الاقليم ، فبادروا / إلى أصبهان ونزلوا بظاهرها ، وصاحبها علاء الدولة أبو جعفر بن كاكويه⁽³⁹⁾ فرغب في استخدامهم ، فكتب إليه السلطان محمود يأمره بالايقاع بهم ، فوافقوا وقتل من الطائفتين جماعة ، وقصد الباقون أذربيجان ، وانحاز الذين بخراسان إلى جبل قريب من خوارزم ، فجرد السلطان محمود جيشاً وأرسله في طلبهم ، فتبعوهم في تلك المفاوز مقدار سنتين ، ثم قصدهم محمود بنفسه ولم يزل في أثرهم حتى شردهم وشتهم . ثم توفي محمود عقب ذلك في تاريخ وفاته المتقدم ، فلما قام بعده ولده مسعود احتاج إلى الاستظهار بالجيش ، فكتب إلى الطائفة التي بأذربيجان لتتوجه إليه ، فجاءه منهم ألف فارس ، فاستخدمهم ومضى بهم إلى خراسان ، فسألوه في أمر الباقين الذين شتتهم والده محمود ، فراسلهم وشرط عليهم لزوم الطاعة ، فأجابوه لذلك وأمنهم وحضروا لديه ورتبهم على ما كان والده قد رتبهم أولاً ، ثم دخل مسعود بلاد الهند لاضطراب أحوالها عليه ، فخلت لهم البلاد وعادوا إلى الفساد .

[157/أ]

(36) في الأصول : «مواعدة» والمثبت من الوفيات .

(37) اضافات من الوفيات لل ضبط .

(38) في الأصول : «الدليم» والمثبت من الوفيات .

(39) في الأصول : «خالويه» والمثبت من الوفيات .

هذا كله والسُّلطان طغرل بك المذكور وأخوه داود ليسا معهم ، بل كانا في موضعهم من نواحي ما وراء النهر ، وجرت بينهما وبين ملك شاه صاحب بُخَارَى وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من أصحابهما ، ودعت حاجتهما إلى اللّٰه في الحقوق بأصحابهما الذين بخراسان فكاتبوا مسعودًا وبذلوا له الطّاعة وضمّوا له أخذ خوارزم من صاحبها ، فطيب قلوبهم وأفرج عن الرسل الواصلين من جهة ما وراء النهر وسألوه / أن يفرج عن زعيمهم الذي اعتقله أبوه محمود في أول الأمر ، فأجابهم إلى سؤالهم وأنزله من تلك القلعة ، وحمله إلى بلخ مقيدًا واستأذن مسعودًا في مراسلة ابني أخيه طغرل بك وداود⁽⁴⁰⁾ المقدم ذكرهما فأذن له ، فراسلهما . وحاصل الأمر أنهما وصلا إلى خراسان ومعهما جيش كبير ، فاجتمع الجميع ، وجرت لهما مع ولات⁽⁴¹⁾ خراسان ونواب مسعود في البلاد أسباب وخلاصة الأمر أنهم استظهروا عليهم وظفروا بهم ، وأول شيء ملكوه من البلاد طوس ، وقيل الري ، وكان تملكهم في سنة تسع وعشرين وأربعمائة⁽⁴²⁾ ، ثم بعد ذلك بقليل ملكوا نيسابور ، إحدى قواعد خراسان في شهر رمضان⁽⁴³⁾ من السنة المذكورة ، وكان السُّلطان طغرل بك كبيرهم ، واليه الأمر والنهي في السّلطنة ، وأخذ أخوه داود⁽⁴⁰⁾ مدينة بلخ ، وهو والد ألب أرسلان ، واتّسع لهم الملك [واقسموا البلاد]⁽⁴⁴⁾ وانحاز مسعود إلى غزنة وتلك النواحي ، وكانوا يخطبون له في أول الأمر ، ثم عظم شأنهم إلى أن بعث لهم الامام القائم بأمر الله رسولاً وهو القاضي أبا الحسين علي بن محمد بن حبيب الماوردي⁽⁴⁵⁾ ، وأوصاهم بتقوى الله العظيم ، والعدل في الرعية والرفق بهم وبث الاحسان إلى الناس .

وكان طغرل بك حليماً كريماً محافظاً على الصلوات الخمس في أقاتها جماعة ، ويصوم الخميس والاثنين ويكثر الصدقات ويبنى المساجد ، ويقول : أستحي من الله أن أنبي لي داراً ولا أنبي إلى جانبها مسجداً .

(40) كتبها المؤلف بواوين ووضح ذلك وقد اتبعنا الرسم المألوف .

(41) في الأصول : «ملوك» والمثبت من الوفيات 65/5 .

(42) 1037 - 1038 م .

(43) جوان .

(44) اضافة من الوفيات 66/5 .

(45) مصنف «الحاوي» انظر ترجمته في الوفيات 282/3 .

[158/أ]

ولمّا تمّهّدَت له البلاد وملك العراق / وبغداد ، سَيرَ إلى الامام القائم يخطب ابنته ، فشق ذلك على القائم واستعفى منه ، وتردّدت الرسل بينهما سنة ثلاث وخمسين [وأربعمئة] (46) ، فلم يجد من ذلك بُدّاً فزوجه بها ، وعقد العقد بظاهر مدينة تبريز ، ثم توجّه إلى بغداد سنة خمس وخمسين وأربعمئة (47) ولمّا دخلها طلب الرّفاف وحمل مائة ألف دينار يرسم حمل القماش فزُفَّت إليه ليلة الاثنين خامس عشر صفر (48) بدار الملكة ، وجلست على سرير ملبّس بالذهب ، ودخل السُّلطان إليها وقبل الأرض بين يديها ولم يكشف البرقع عن وجهها وقدم لها تحفّاً يقصر الوصف عن ضبطها ، وقبل الأرض وخدّم وانصرف وظهر عليه سرور عظيم . ابن خلكان (49) .

وبالجملة فأخبار الدّولة السلجوقية كثيرة ، وقد اعتنى بها جماعة من المؤرخين فالفوا فيها تآليف كثيرة اشتملت على تفاصيل أمرهم وما قصدت (50) من الاتيان بهذه النبذة الا التنبيه على مبدأٍ حالهم ، ليكشف جلية ذلك من يروم الوقوف عليه .

وتوفي طغرل بك يوم الجمعة ثامن شهر رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمئة (47) بالرّي ، وعمره سبعون سنة ، ونقل إلى مرو ودُفِنَ عند قبر أخيه داود وقيل غير ذلك (51) . ولمّا حضرته الوفاة قال : أنما مثلي مثل شاةٍ شدّت قوائمها لجزر الصّوف ، فتظنُّ أنها تذبح فتضطرب حتى اذا أطلقت فرحت ، ثم تشدُّ للذبح فتظنُّ أنه لجزر الصّوف فتسكن فتذبح وهذا المرض الذي أنا فيه هو شدُّ القوائم للذبح ، فأت منه - رحمه الله - ولم تقم بنت الامام القائم في صحبته / الا قدر ستة أشهر ، ولم يخلف ولداً ذكراً بل انتقل ملكه لابن أخيه ألب أرسلان ، وماتت زوجته بنت الامام القائم في سنة ست وتسعين وأربعمئة (52) سادس محرم .

[158/ب]

وطغرل بك : بضم الطاء المهملة وسكون العين المعجمة وضم الراء وسكون اللام وفتح

(46) 1061 م .

(47) 1063 م .

(48) وفي الأصول : « رجب » والمثبت من الوفيات . 17 فيفري .

(49) الوفيات 67/5 .

(50) ابن خلكان هو الذي يتكلم 67/5 .

(51) قال ابن خلكان : « وقال ابن الهمداني في تاريخه إنه دفن بالرّي في تربة هناك . وكذا قال السمعاني في « الذيل » في ترجمة السلطان سنجر .

(52) في الأصول : « ست وخمسين » والمثبت من الوفيات الذي ينقل عنه المؤلف 20 اكتوبر 1102 م .

الباء الموحدة وبعدها كاف ، وهو اسم علم تركي مركب من طُغْرُل وهو اسم علم بلغة الترك لطائر معروف عندهم ، وبه سمي الرجل ، وبك معناه الأمير .
وسَلْجُوق بفتح السين المهملة .

وَجَيْحُون بفتح الجيم وسكون الياء المثناة تحت وضمّ الحاء المهملة وسكون الواو وبعدها نون ، وهو النَّهْر العظيم الفاصل ما بين خوارزم وبلاد خراسان وبين بخارى وسمرقند وتلك البلاد ، وكل ما كان من تلك الناحية فهو ما وراء النَّهر ، والمراد من النَّهر هو النَّهر المذكور ، وهو أحد أنهار الجنة التي جاء ذكره في الحديث «أنه يخرج من الجنة أربعة أنهار : نهران ظاهران ونهران باطنان ، فالظاهران النيل والفرات ، والباطنان سيحون وجيحون» (53) .

وسيحون بضم الحاء المهملة وسكون الواو وبعدها نون ، وهو وراء جيحون فيما يلي بلاد الترك وبينهما مسافة خمس وعشرين يوماً ، وهذان النهران مع عظمهما يجمدان في زمن الشتاء ، وتعبّر القوافل عليهما بدوائهم وأثقالهم ويقمان كذلك مدة ثلاثة أشهر (54) .

وكان ألب أرسلان (55) بعد عمه (56) استولى على الممالك ، فعظمت مملكته ورهبت سطوته ، وفتح من البلاد ما لم يكن لعمه طُغْرُك / مع سعة ملكه ، وقصد بلاد الشام وانتهى إلى مدينة حلب وصاحبها يومئذ محمود بن نصر بن صالح بن مرداس الكلابي . فحاصره مدة ثم جرت المصالحة [بينهما] . فقال ألب أرسلان : لا بد له من (57) بساطي ، فخرج إليه محمود ليلاً ومعه أمه . فتلقاهما بالجميل وخلع عليهما وأعادهما إلى البلد ورحل عنها .

(53) جاء في شرح النووي علي صحيح مسلم ج 10 ص 292 ط بولاق عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة . وعلق النووي على الحديث فقال : فيه تأويلان أحدهما أن الايمان عم بلادها والثاني وهو الأصح أنه على ظاهرها وأن لها مادة في الجنة .

وروى مسلم في حديث الإسراء والمعراج أن نبي الله رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت يا جبريل ما هذه الأنهار؟ فقال : أما النهران الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات . صحيح مسلم بشرح الأبي . ج 1 ص 318 . ط . السعادة .

(54) انتهى ما جاء في ترجمة طغرل بك في الوفيات 68/5 .

(55) ينقل من ترجمته في الوفيات 69/5 بشيء من التصرف .

(56) بعد أن نازع أخاه سليمان وتغلب عليه . الوفيات 69/5 .

(57) في الوفيات : «دوس» .

قيل⁽⁵⁸⁾ إنه لم يعبر الفرات في قديم الزمان ولا حديثه في الاسلام ملك تركي قبل ألب أرسلان ، فانه أول من عبره من ملوك الترك ، ثم رجع من بلاد الترك وقد كمل عسكره مائتي ألف فارس أو يزيدون فدّ على جيحون جسراً ، وأقام العسكر يعبر عليه شهراً ، وعبر هو بنفسه ومدّ السّماط في بليدة يقال لها «فربر» ، وبذلك البليدة حصن على شاطئ جيحون ، في السادس من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وأربعمائة⁽⁵⁹⁾ ، فأحضر إليه أصحابه مستحفظ الحصن يقال له «يوسف الخوارزمي» [وكان] قد ارتكب جريمة في أمر الجيوش ، فحمل إليه مقيداً ، فلمّا قرب منه أمر بضرب أربعة أوتاد وتشدّ أطرافه الأربعة إليها ويعذب ثم يقتل ، فقال يوسف المذكور : ومثلي يفعل به مثل هذه المثلة ؟ فغضب ألب أرسلان ، وأخذ قوسه ، وجعل فيه سهماً ، وأمر بجعل قيده ورماء فأخطاه وكان مُدلاً برميّه ، وكان جالساً على سريه ، فنزل عنه فغثر ووقع على وجهه فبادر يوسف المذكور وضربه بسكين كانت معه في خاصرته ، فوثب عليه فراش أرمني فضربه / في رأسه بمزبزة فقتله ، فانتقل ألب أرسلان إلى خيمة أخرى مجروحاً ، وأحضر وزيره نظام الملك أبا [علي] الحسن ، وأوصى إليه ، وجعل ولده ملك شاه وليّ عهده ، وتوفي يوم السبت عاشر الشهر⁽⁶⁰⁾ ، وكانت ولادته سنة أربع وعشرين وأربعمائة⁽⁶¹⁾ ، ومدة ملكه تسع سنين وأشهرًا .

فتولّى بعده ملكشاه أبو الفتح بن ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دُقاق الملقب «جلال الدّولة»⁽⁶²⁾ .

ولمّا توفي والده ألب أرسلان - في التاريخ المذكور - كان ملكشاه في صحبته ، ولم يصحبه قبلها في سفر غير هذه السّفرة ، فولّي الأمر من بعده بوصيته وتحليف الأمراء والأجناد على طاعته ، وأوصى وزيره نظام الملك على تفرقة البلاد بين أولاده ، ويكون مرجعهم للملكشاه . ففعل ذلك وعبر [بهم] نهر جيحون راجعاً إلى البلاد .

فلمّا وصل إلى البلاد وجد بعض أعمامه [وهو قاروت بك]⁽⁶³⁾ قد خرج عليه . فعاجله وتصافا بالقرب من همدان . فنصره الله على عمّه . فتبعه بعض جند ملكشاه

(58) نقلاً عن المأمون في تاريخه . كما ذكر ابن خلكان .

(59) 4 أوت 1082 م . (60) 8 أوت 1082 م .

(61) 1032 - 1033 م .

(62) النقل من ترجمة ملكشاه السلجوقي في الوفيات 283/5 .

(63) الاضافة من الوفيات 284/5 .

فأسرّه وحملوه إلى ملكشاه ، فبذل التوبة ورضي بالاعتقال وأن لا يقتل ، فلم يجبه ملكشاه فأنفذ له خريطة مملوءة من كتب أمرائه وأنهم حملوه على الخروج عليه وعن طاعته وحسنوا له ذلك ، فدعا السلطان بالوزير نظام الملك وأعطاه الخريطة ليفتحها ويقرأ ما فيها ، فلم يفتحها / وكان هناك كانون نار فرمى الخريطة فيه فاحترقت الكتب ، فسكنت [160/أ] قلوب العساكر [وأمنوا]⁽⁶⁴⁾ ووطنوا أنفسهم على الخدمة ، بعد أن كانوا خائفين من الخريطة لأن أكرههم [كان قد]⁽⁶⁴⁾ كاتبه ، وكان ذلك سبب [ثبات]⁽⁶⁴⁾ قدم ملكشاه وكانت هذه معدودة في جميل آراء نظام الملك .

ومن جميل آرائه ما ذكره صاحب كتاب «فضل الحبيب والنديم اللبيب» أن نظام الملك⁽⁶⁵⁾ لما استوزره بالعراق السلطان أبو الفتح السلجوقي قام بالدولة أحسن قيام ، فشيد أركانها وأسس بنيانها ، ووالى الأولياء واستمال الأعداء ، وعمّ احسانه الولي والصديق والقريب والبعيد ، وكان أقبل اقبالاً عظيماً على العلماء والصالحين والفقهاء ، وبنى المدارس العظيمة والخانات العالية ، وأجرى الخيرات الكثيرة والكساوي الجليلة الفاخرة لطبقات طلبة العلم والمشايع الصوفية وغيرهم ممن يتوهم فيهم الدين والصلاح ، وعمّ بذلك سائر الأقطار من بلاد العراقيين إلى الحرمين الشريفين ، بحيث كان يخرج من خاصة الخالصة السلطانية والخزائن الديوانية في هذه الوجوه ما ينيف على ستائة ألف مثقال ذهباً غير الذي ينفقه من خاصة أمواله ومحصلات غلاته وما كان يدخل عليه من الهدايا وغيرها ، ولعلّه كان يفوق القدر الذي يخرج من مال السلطنة ، فطار بذلك صيته في الآفاق ، وكثر حسّاده ولا يخلو السعداء من الحساد في كلّ زمان كما هو مشاهد بالعيان ، وما وجدوا للطعن على نظام الملك / طريقاً غير اجحافه في الاخراج من الأموال السلطانية من هذه الوجوه فوشوا إلى السلطان أبي الفتح السلجوقي من طرق شتى ، وكرّروا في سمعه أن نظام الملك أضر بيت المال ، والأولى أن يصرف في جمع جيش كثيف تركز رايته في سور القسطنطينية⁽⁶⁶⁾ وكان ذلك قبل أن يفتحها السلطان المرحوم برحمة الحي

(64) اضافات من الوفيات تقتضيها دقة المعنى .

(65) أبو علي الحسن بن علي بن اسحاق بن عباس . ونظام الملك لقبه . انظر ترجمته على سبيل المثال في ابن خلكان 128/2 . وعن علاقه بملكشاه 287/5 .

(66) ذكر ابن خلكان نقلاً عن صاحب «الدول المنقطعة» ومن جملة ما سعى تاج الملك (صاحب خزائن السلطان) في نظام الملك الوزير أن قال للسلطان : انه ينفق في كل سنة على أرباب المدارس والرباطات ثلاثمائة ألف دينار . ولو جيش بها جيشاً بلغ باب القسطنطينية» 287/5 .

القيوم محمد خان⁽⁶⁷⁾ - أعاد الله علينا من سحائب بركاته - فلماً تكرر ذلك الوشي في آذان السلطان أبي الفتح أثر كلامهم في قلبه واعتقد نصحهم فطلب نظام الملك وقال له : يا أبي - وكان يخاطبه بذلك تعظيماً له لكبر سنّه وعقله - بلغني أنك تُخرج من بيت المال في كل سنة ستمائة ألف دينار إلى من لا ينفعنا ولا يغني عنا ، فبكى نظام الملك وقال : يا بني أنا شيخ عجمي لو نودي عليّ في السوق ما سويت خمسة دنانير⁽⁶⁸⁾ ، وأنت شاب تركي⁽⁶⁹⁾ لو نودي عليك عساک تساوي ثلاثين ديناراً ، وقد اختارنا الله تعالى وفوّض أمور بلاده وعباده إلينا فلم نقابله بالشكر ، ولا عرفنا قدر نعم الله تعالى ، فاستمررت أنا في كتابتي وضبطي ، وأنت منهمك في لذاتك ولهوك ، وأكثر ما يصعد إلى الله تعالى معاصينا دون طاعتنا وشكرنا ، ويوشك الذين أعددتهم للنواب إذا حشروا يوماً كافحوا عنك بسيف طوله ذراعين وسهم لا يبعد مرماه ، وهم مع ذلك منهمكون في المعاصي والخمور والملاهي ، وهم أخرى بنزول القهر من نزول الفتح / والنصر فاتخذت لك جيشاً كثيفاً وعسكراً منيفاً يسمّى جيش الليل وعسكر السحر ، إذا نامت جيوشك ليلاً قامت هذه الجيوش على أقدامها صفوفًا بين يدي ربهم ، وأرسلوا دموعهم ، وأطلقوا بالدعاء ألستهم ، ومدّوا إلى الله أكفهم فرموا سهامًا تخرق الأرضين ، وسلّوا سيوفًا يعمل في كل حين طوالاً ، تبلغ إلى الصين ، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون ، وبركاتهم تمطرون وبدعائهم تنصرون ، فبكى السلطان أبو الفتح بكاء شديداً وقال : شاباشر - أي يا أبي - استكثر لنا من هذا الجيش ، فانه هو الذي لا بد لنا منه⁽⁷⁰⁾ ، ولما كانت هذه النفوس لها قابلية الخير لم يؤثر فيها كلام الحساد الا قليلاً زال [ما بها] في الحال ، وعادت إلى حبّ الخير الذي جُلبت عليه ، فرحم الله تلك الأرواح الطاهرة ، فلقد زالوا وما زالت أخبارهم تروى ، وأحاديثهم تنشر على السنة الرواة ولا تطوى .

ثم إن ملكشاه⁽⁷¹⁾ أمر بقتل عمّه الذي قام عليه وطلب الاعتقال دون الموت فختق

[أ/161]

67 محمد الثاني الفاتح . وتم فتح القسطنطينية في سنة 957 هـ / 1453 م وسجيت المدينة اسلامبول أي «تحت الاسلام أو مدينة الاسلام» تاريخ الدولة العلية العثمانية ص 164 .

68 في ابن خلكان : «ثلاثة دنانير» 287/5 .

69 في ابن خلكان : «حدث» .

70 يختلف النص في الوفيات مع نفس المعنى 287/5 .

71 رجع إلى النقل من الوفيات 284/5 .

بوتر قوسه واستقرت القواعد للسلطان ملكشاه ، وفتح البلاد واتسعت [عليه] المملكة ، وملك ما لم يملكه أحد من ملوك الاسلام بعد الخلفاء المتقدمين ، فانه ملك من كاشغر بفتح الكاف وبعد الألف شين معجمة ساكنة وغين معجمة مفتوحة بعدها راء - وهي مدينة⁽⁷²⁾ في أقصى بلاد الترك - إلى بيت المقدس طولاً ، ومن القسطنطينية إلى بلاد الخزر [وبحر الهند] عرضاً .

وكان من أحسن الملوك سيرة حتى لقب «بالسلطان العادل» / وكان منصوباً في [161/ب] الحروب ، ومُعزماً بالعمائر ، فحفر كثيراً من الأنهار ، وعمر كثيراً من البلدان بالأسوار ، وأنشأ في المفاوز رباطات وقناطر ، وهو الذي بنى جامع السلطان ببغداد سنة خمس وثمانين وأربعمائة⁽⁷³⁾ ، وبنى له نظام الملك المدرسة المشهورة ببغداد ، وهي أول مدرسة بنيت - كما تقدم - وزاد في دار السلطنة بهاء ووضع في طريق مكة مصانع ، وبذل فيها أموالاً كثيرة خارجة عن الحصر ، وأبطل المكوس والخفارات في جميع البلاد . وكان لهجاً بالصيد حتى قيل إنه ضبط ما اصطاده بيده فكان عشرة آلاف ، فتصدق بعشرة آلاف دينار بعد أن نسي كثيراً منه ، وقال : إني خائف من الله تعالى من أجل ازهاق أرواح لغير ما كُلهَا⁽⁷⁴⁾ ، وصار⁽⁷⁵⁾ بعد ذلك كلماً قتل صيدا تصدق بدينار .

وخرج من الكوفة لتوديع الحاج ، فجاوز العذيب وشيعهم بالقرب من الواقعة ، وصاد في طريقه وحشاً كثيراً فبنى هنالك منارة من حوافر حُمُر الوحش وقرون الطيِّاء التي صادها في ذلك الطريق وكانت تعرف بمنارة القرون ، وذلك سنة ثمان وسبعين وأربعمائة⁽⁷⁶⁾ .

وكانت السبل في أيامه سالكة والمخاوف آمنة ، تسير القوافل من ما وراء النهر إلى أقصى الشام وليس معها خفير ، يسافر الواحد والاثنان من غير خوف ولا رهبة .

(72) في الأصول : «بلاد» والمثبت من الوفيات 284/5 ، وقال عنها ياقوت : «وهي مدينة وقرى ورساتيق ...» معجم البلدان - 430/4 .

(73) 1092 م .

(74) في الوفيات «مأكلة» .

(75) في الأصول «وجعل» والمثبت من الوفيات .

(76) 1085 - 1086 م .

ولمّا توجّه إلى حرب [أخيه] تتش⁽⁷⁷⁾ اجتاز بقبر⁽⁷⁸⁾ علي بن موسى الرضا - رضي الله تعالى عنهما - [بطوس] فدخل المشهد مع نظام الملك فصليا فيه / وأطالا الدّعاء ، ثم قال لنظام الملك : بأي شيء دعوت ؟ فقال : دعوت الله أن ينصرك وأن يظفرك بأخيك قال : أما أنا فقلت «اللهم أنصر أصلحنا للمسلمين وأنفعنا للرعية» .

وحكي أن واعظاً دخل عليه ووعظه ، فكان من جملة ما حكي له أن بعض الأكاسرة اجتاز منفرداً عن عسكره على باب بُسْتَان ، فتقدّم إلى الباب وطلب ماء يشربه ، فأخرجت له صبية اناء فيه ماء قصب السُّكر والثلج ، فشربه واستطابه ، فقال : كيف يعمل هذا الماء ؟ [فقال : ان قصب السُّكر يزكو عندنا حتى نعصره بأيدينا فيخرج منه هذا الماء]⁽⁷⁹⁾ فقال : ارجعي واحضري شيئاً آخر ، وكانت الصّبية غير عارفة به ، فذهبت فقال في نفسه : الصّواب أن أعوضهم عن هذا المكان وأصطفيه لنفسي ، فما كان بأسرع من خروجها باكية ، وقالت : إن نيّة السُّلطان قد تغيّرت ، فقال : ومن أين علمت ذلك ؟ قالت : كنت آخذ من هذا ما أريد من غير تعسّف ، والآن قد أجهدت في عصر القصب فلم يسمح ببعض ما كان يأتي ، فعلم صدقها ، ثم رجع عن تلك النيّة ، ثم قال : ارجعي الآن فانك تبلغين الغرض ، وعقد على نفسه أن لا يفعل ما نواه ، فخرجت [الصّبية] بما شاءت من [ماء] قصب السُّكر وهي مستبشرة ، فقال السُّلطان للواعظ : ولم لا تذكر للرعية أن كسرى اجتاز على بستان فقال للنّاظر : ناولني عتقوداً من الحصرم ، فقال له : ما يمكنني ذلك ، فان السُّلطان ما أخذ حقّه ولا تجوز لي خيانتة ، فعجب الحاضرون من مقابلته للحكاية بمثلها ، ومعارضته بما أوجب الحق له لما أوجب الحق عليه .

ولقيه سوادى وهو ييكي ، فسأله / السُّلطان عن سبب بكائه فقال : ابتعت بطيخاً بدرهيمات لا أملك غيرها ، فلقيني ثلاثة غلمان أترك فأخذوه مني ، وما لي حيلة سواه ، فقال : أمسك ، واستدعي فرّاشاً ، وكان ذلك عند باكورة البطيخ ، وقال له : ان نفسي قد تاقت إلى البطيخ ، فطف في العسكر وانظر من عنده شيء فأحضره ، فعاد ومعه

(77) كذا في الأصول وتاريخ الدولة العلية ص 67 ، وفي الوفيات 285/5 وتاريخ الخلفاء للسيوطي وكتاب العبر لابن

خلدون : «تكش» .

(78) في الوفيات : «بمشهد» .

(79) اضافة من الوفيات يقتضيا السياق .

بطيخ ، فقال : عند مَنْ لَقِيْتَهُ ؟ قال : عند الأمير فلان ، فأحضره وقال : من أين لك هذا ؟ قال : جاء به الغلمان ، فقال : أريدكم الساعة ، فضى وقد عرف نية السلطان فيهم ، فهرَّبهم وعاد وقال : لم أجدهم ، فالتفت إلى السوادي وقال : هذا مملوكي وقد وهبته لك حين لم يحضر الغلمان الذين أخذوا متاعك ، والله لئن خليته لأضربن عنقك ، فأخذ السوادي بيده وأخرجه من بين يدي السلطان [فاشترى الأمير نفسه بثلاثمائة دينار]⁽⁸⁰⁾ ثم رجع السوادي وقال : يا سلطان قد بعث المملوك بثلاثمائة دينار . فقال : أو قد رضيت ؟ قال : نعم ، قال : امض مصاحباً .

وكانت البركة واليمن مقرونين بناصيته ، فكان إذا دخل أصبهان وبغداد وأي بلد من البلاد دخل معه عدد لا يحصى لكثرة فيرخص السعر وتنحط أثمان الأشياء عما كانت عليه قبل ، ويكتسب المتعيشون مع عسكره الكسب الكثير .

وأحضرت إليه مغنية وهو بالري ، فأعجب بها واستطاب غناءها ، فهمَّ بها فقالت : يا سلطان ، اني أغار على هذا الوجه الجميل أن يُعذَّب بالنار ، وإن الحلال أيسر ، وبينه وبين الحرام كلمة ، فقال : صدقت / ودعا القاضي فتزوجها وابتنى بها وتوفي عنها .

وتزوج الامام المقتدي⁽⁸¹⁾ بأمر الله أمير المؤمنين ابنة السلطان ، وكان السَّفير بالخطبة الشيخ أبا اسحاق الشيرازي - رحمه الله تعالى - أنفذه الخليفة إلى نيسابور لهذا السبب ، لكون السلطان كان هناك ، فلما وصل إليه أدَّى الرسالة ونَجَزَ الشغل . ولما أراد الانصراف من نيسابور ، خرج امام الحرمين لوداعه ، وقد كان ناظره فأخذ بركابه حتى ركب أبو اسحاق ، وظهر له في خراسان منزلة عظيمة ، حتى كانوا يأخذون التراب الذي يطوّه نعلاه⁽⁸²⁾ فيتبركون به .

وكان زفاف ابنة السلطان إلى الخليفة في سنة ثمانين وأربعمائة⁽⁸³⁾ ، وفي صبيحة دخوله عليها أحضر الخليفة عسكر السلطان على سباط صنعه لهم كان فيه أربعون ألف من السَّكر ، وفي بقية هذه السنة وُلِدَ له ولد من ابنة السلطان سمَّاه أبا الفضل جعفر ، ورُيِّنت ببغداد لأجله .

(80) إضافة من الوفيات لاكمال المعنى . 286/5 .

(81) في الأصول : «القائم» والمثبت من الوفيات التي ينقل عنها المؤلف 287/5 .

(83) 1087 - 1088 م .

(82) في الوفيات : «الذي وطنته بقلته» .

وكان السُّلطان قد دخل بغداد دُفْعَتَيْن ، وهي من جملة بلادها التي تحتوي عليها مملكته ، وليس للخليفة فيها سوى الاسم ، فلما عاد إليها في الدُّفْعَة الثالثة أول شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة⁽⁸⁴⁾ ، وخرج من فورهِ إلى ناحية دُجَيْل⁽⁸⁵⁾ لأجل الصَّيد ، فاصطاد وحشا وأكل من لحمه فابتدأت به العِلَّة ، فافتصد ، ولم يكثر من اخراج الدَّم ، فعاد إلى بغداد مريضاً ، ولم يصل إليه أحد من خاصَّته ، فلما دخلها توفِّي بها ثاني يوم دخوله ، وهو السَّادس عشر من شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة⁽⁸⁶⁾ ولمَّا مات / لم تشهد له جنازة ولا صلَّى عليه أحد في الصُّورة الظَّاهرة ، ولا جلسوا للعزاء ، ولا حلق⁽⁸⁷⁾ عليه ذنب فرس كعادة أمثاله بل كأنه اختلس من العالم .

[163/ب]

وحمل تابوته إلى اصبهان ودفن بها في مدرسته العظيمة الموقوفة على طلبة الشَّافعية والحنفية ، وانما أُخمد ذكره عند موته عقوبة من الله ، وذلك أنه لما دخل بغداد في هذه المرَّة وكان للخليفة [المقتدى]⁽⁸⁸⁾ ولدان أحدهما الامام المستظهر بالله والآخر أبو الفضل جعفر ابن بنت السُّلطان ، وكان الخليفة قد بايع لولده المستظهر بولاية العهد من بعده ، فألزمه السُّلطان أن يخلعه وأن يبايع لابن ابنته ، ويُسَلِّمَ بغداد إليه ، ويخرج الخليفة إلى البصرة ، فشقَّ ذلك على الخليفة ، وبالع في استئزال السُّلطان عن هذا الرأي فلم يفعل ، فسأله المَهْلَّة عشرة أيام ليتجهز فأملهه ، فقبل إن الخليفة في تلك الأيام جعل يصوم ويصلي⁽⁸⁹⁾ واذا أفطر جلس على الرَّماد للافطار ، وهو يدعو الله سبحانه وتعالى على السُّلطان ، ففرض [السُّلطان] في تلك الأيام ومات ، وكفى الله الخليفة أمره ، وتزوج الامام المستظهر ابنة السُّلطان واسمها خاتون [العصمة]⁽⁹⁰⁾ في سنة اثنتين وخمسمائة⁽⁹¹⁾ . وقد خلف ملكشاه ثلاثة أولاد اقتسموا مَمْلَكَته ، بَرْكياروق ، وسَنْجَر ، ومحمَّد ، ولم يكن لسنجر ومحمَّد الشقيقان حديث ولا ذكر مع وجود بركياروق ، لأنه كان هو

(84) 4 نوفمبر 1092 م .

(85) في الأصول : « رحل » والمثبت من الوفيات 288/5 ومعجم البلدان 443/2 .

(86) 19 نوفمبر 1092 م .

(87) في الوفيات : « حذف » .

(88) اضافة من الوفيات .

(89) في الوفيات : « ويطوي » 289/5 .

(90) اضافة من الوفيات 289/5 ، وفي بعض النسخ : « العظمة » .

(91) 1108 - 1109 م . انتهى نقله من ترجمة ملكشاه بالوفيات .

السُّلطان المشار إليه وهما كالأتباع له ، ثم اختلف محمد وبركياروق ، فدخل محمد وأخوه سنجر إلى بغداد / وخلع عليهما الامام المستظهر بالله ، وكان [محمد] قد التمس من أمير المؤمنين أن يجلس له ولأخيه سنجر ، فجلس لهما في قبة التاج وحضر أرباب المناصب وأتباعهم ، وجلس الخليفة على سدة ، ووقف سيف الدولة [صدقة]⁽⁹²⁾ بن مزيد صاحب الحلة عن يمين السدة ، وعلى كتفه بردة النبي ﷺ وعلى رأسه العمامة وبين يديه القضيبي ، وأفيض على محمد الخلع السبع التي جرت عادة السلاطين بها ، وألبس الطوق والتاج والسيّارين ، وعقد له الخليفة اللواء بيده وقلده سيفين ، وأعطاه خمسة أفراس بمراكبها ، وخلع على أخيه سنجر خلعة أمثاله ، وخطب لمحمد بالسلطنة في جامع بغداد على جاري عادتهم [في] ذلك الزمان ، وتركوا الخطبة لبركياروق ، كان ذلك سنة خمس وتسعين وأربعمائة⁽⁹³⁾ ، وقيل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة⁽⁹⁴⁾ . واستمرت السلطنة فيهم إلى أن كملت عدة السلاطين السلجوقية أربعة عشر سلطاناً وآخرهم السلطان مُغيث الدين طغرل بن أرسلان بن طغرل بك⁽⁹⁵⁾ وظهورهم وعُلُو شأنهم في خلال خمسين وأربعمائة⁽⁹⁶⁾ . وأما السلجوقية ببلاد الرُّوم فأولَّهم قتلَمَش⁽⁹⁷⁾ فقد ذكر صاحب الدُّول الإسلامية⁽⁹⁷⁾ إن السلجوقية لمَّا انتشروا في البلاد طالبين المُلْك دخل منهم قتلَمَش⁽⁹⁸⁾ ابن اسرائيل إلى بلاد الرُّوم وملك مدينة قونية وأقصرا⁽⁹⁹⁾ ونواحيهما ، ثم توجه إلى بلاد الري ليأخذها فانهزم جيشه ووجد هو بين القتل⁽¹⁰⁰⁾ .

(92) اضافة من الوفيات 72/5 .

(93) 1101 - 1102 م .

(94) 1098 - 1099 م .

(95) انظر الكامل لابن الأثير 196/11 .

(96) 1058 - 1059 م .

(97) في الأصول وفي كتاب العبر 342/5 : « قتلَمَش » وفي تاريخ الدولة العلية : « قتلومش » ص 66 والمثبت من الوفيات 69/5 ، والكامل لابن الأثير 625/9 - 630 . وبروكلمان : « تاريخ الشعوب الإسلامية » ، 7/3 .

(97 مكرر) دول الإسلام في التاريخ لشمس الدين الذهبي المتوفى سنة 746 (والصواب 748) - كشف الظنون ، 762/1 .

(98) هو شهاب الدولة قتلَمَش بن اسرائيل بن سلجوق ، الوفيات 71/5 ، وكتاب العبر 342/5 ، وابن الأثير يقول : « قتلَمَش ابن عمر طغرلک وتارة يقول : ابن اسرائيل بن سلجوق » ، العبر 342/5 .

(99) في الأصول « وأقصرامي » والمثبت من كتاب العبر 342/5 .

(100) انظر الوفيات 71/5 كان ذلك في محرم 456 / ديسمبر - جانفي 1064 م .

فقام بعده ولده سليمان⁽¹⁰¹⁾ فسار لحرب حلب فهزِمَ وطعن نفسه بخنجر .
 فملك بعده ابنه قَلِجَ أرسلان⁽¹⁰²⁾ فملك زيادة على ما خلفه أبوه الموصل وديار بكر
 وأعمالهما فسار لقتال جاولي⁽¹⁰³⁾ فقتل قَلِجَ أرسلان .
 فملك بعده ولده مسعود فتوفي [سنة احدى وخمسين وخمسمائة]⁽¹⁰⁴⁾ .
 فملك ولده قَلِجَ أرسلان بن مسعود فقسَّم ممالكه بين أولاده السبعة وابن أخيه⁽¹⁰⁵⁾ .
 وملك بعد وفاته ولده غياث الدين كيخسرو⁽¹⁰⁶⁾ فعظم شأنه وقتله أشكر⁽¹⁰⁷⁾
 صاحب قسطنطينية في حروبه معه سنة سبع وستائة⁽¹⁰⁸⁾ .
 فملك بعده ولده كيكاوس⁽¹⁰⁹⁾ فقاتل عمه طغرل شاه فقتله سنة عشرة
 وستائة⁽¹¹⁰⁾ .
 فتولَّى بعده أخوه السلطان المجاهد علاء الدين كيقيباد ، وكان محبًّا للغزو فاتسعت
 رقعة ملكه ببلاد الروم ، ومدَّ يده إلى ما يحاوره من البلاد وخدم عنده عسكر جلال الدين
 خوارزم شاه بعد مهلكه ، توفي سنة أربع وثلاثين وستائة⁽¹¹¹⁾ ومُدَّة ملكه أربع وعشرون .
 ثم ملك بعده ابنه غياث الدين فمات سنة أربع وخمسين وستائة⁽¹¹²⁾ .
 فملك بعده ابنه علاء الدين كيقيباد ، وكان ولي عهده ، وكان اذ ذاك هلك
 جنكزخان ، وولي مكانه ابنه تولي خان⁽¹¹³⁾ ، فملك أكثر بلاد الروم ، وكان ملوك الروم
 تحت حكم التتار .

- (101) أسس دولة سلجوقية بقونية استمرت إلى أن فتحها العثمانيون . انظر بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية 7/3
 وكتاب العبر 342/5 .
 (102) في كتاب العبر : « قليج أرسلان » 343/5 خلافاً لعدة مصادر أخرى كابن الأثير 607/8 .
 (103) انظر كتاب العبر : 345/5 - 348 .
 (104) إضافة من نفس المرجع 349/5 . 1156 م .
 (105) انظر كتاب العبر : 352/5 .
 (106) في الأصول : « كيخسرو » وفي كتاب العبر : « كسنجر » 353/5 وفي ابن الأثير : « خسرو شاه » . والمثبت من
 تاريخ الشعوب الاسلامية 7/3 .
 (107) في الأصول : « المشكري » والمثبت من كتاب العبر 356/5 وفي مكان آخر ص 366 من كتاب العبر :
 « الشكري » .
 (108) 1210 - 1211 م .
 (109) في الأصول : « كيكاوس » والمثبت من كتاب العبر 356/5 وتاريخ الشعوب الاسلامية 9/3 .
 (110) 1213 م . انظر كتاب العبر 356/5 .
 (111) 1236 - 1237 م .
 (112) 1256 م .
 (113) في كتاب العبر « طلوخان » 362/5 .

وآخر من تَوَلَّى الملك من السُّلْجُوقِيَّةِ بِالذِّيارِ الرُّومِيَّةِ مسعود بن كيكائوس في سنة ثمان عشرة وسبعمائة⁽¹¹⁴⁾ فاضمحل أمره ، وبقي الملك بها للتتار .

ثم فشل أمرهم فاستولى على غالب بلادهم بَنُو عُثْمَانَ ، ثم استولوا عليها جميعاً / [165/أ] - رحمهم الله تعالى ونفعنا بهم - .

وعلاء الدين الثاني هو صاحب السُّلْطَانِ عُثْمَانُ جَدُّ آلِ عُثْمَانَ ، وتوفي علاء الدين المذكور سنة سبعمائة⁽¹¹⁵⁾ .

الدَّيْلَمِيَّةُ :

وأما الدَّيْلَمِيَّةُ فأول ملوكهم عماد الدولة أبو الحسن علي بن بويه بن فناخسرو⁽¹¹⁶⁾ والدَيْلَمِيَّةِ⁽¹¹⁷⁾ بن تمام بن (كوهي بن شيرزيك الأصغر بن شيركوه بن شيرزيك الأكبر ابن سران شاه بن سيرقند بن سيسانشاه)⁽¹¹⁸⁾ .

فعماد الدولة صاحب بلاد فارس ، وكان أبوه صياداً وليست له معيشة إلا من صيد السَّمَكِ ، وكان أحد ثلاثة أخوة ، فهو أكبرهم ، ثم ركن الدولة الحسن والد عضد الدولة ، ثم معز الدولة أحمد ، والجميع ملوكوا ، وسبب سعادتهم عماد الدولة وبه انتشار صيتهم ، فاستولوا على البلاد ، وملكوا العراقيين والأهواز وفارس ، وساسوا أمور الرُّعْيَةِ أحسن سياسة ، وشاركوا الخليفة العبَّاسي في الخُطْبَةِ ببغداد لنصرتهم وطاعتهم للخليفة ، وكانت وفاة عماد الدولة يوم الأحد لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين⁽¹¹⁹⁾ بشيراز ، وأقام في المملكة ست عشرة سنة ، وعاش سبعا وخمسين سنة ، ولم يعقب .

(114) 1318 م .

(115) 1300 - 1301 م .

(116) في الأصول : « فناخر » وفي كتاب العبر 909/4 . « فناخس » وهو تحريف والصواب ما أثبتناه .

(117) في ط : « والدَيْلَمِي » .

(118) في الأصول : « لوهي بن شيرل الأصغر بن شيركوه بن شيرل بن شرين شاه بن شيرمية بن ساسان شاه » والمثبت من كتاب العبر 909/4 . اعتقاداً من ابن خلدون على ابن ماكولا . ويقدم أيضاً رواية ابن مسكويه . ويرى ابن خلدون أن هذا النسب مصنوع تقرب إليهم به لا يعرف طبائع الأنساب في الوجود .

(119) في الأصول : « جمادى أولى » والمثبت من ابن الأثير 482/8 . 949 م . وفي كتاب العبر : « توفي منتصف سنة

ثلاث وثلاثين » 934/4 .

وأما أحمد معز الدولة فكان وصوله إلى بغداد من جهة الأهواز ، فدخلها متملكاً يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة⁽¹²⁰⁾ في خلافة المستكفي ، وملكها بلا كلفة .

[ب/165]

وذكر أبو الفرج بن الجوزي في كتابه «شذور العقود» / أن معز الدولة أحمد كان في أول أمره يحمل الخطب على رأسه ، ثم ملك البلاد هو وأخوه ، وكانت مدة ملكه بالعراق احدى وعشرين سنة واحد عشر شهراً ، وتوفي يوم الاثنين سابع عشر⁽¹²¹⁾ ربيع الآخر سنة ست وخمسين وثلاثمائة⁽¹²²⁾ ببغداد ، ولمّا توفي تولّى موضعه ولده عز الدولة أبو منصور بختيار ، وتزوَّج الطائع لله ابنته سارة ريان على صداق مبلغه مائة ألف دينار ، وذلك سنة أربع وستين وثلاثمائة⁽¹²³⁾ ، وكان بين عز الدولة [بختيار] وابن عمّه عضد الدولة منافسات في الممالك أدّت إلى التنازع والتّصاف والمحاربة ، فالتقى يوم الأربعاء ثامن شوال سنة سبع وستين وثلاثمائة⁽¹²⁴⁾ فقتل عز الدولة ، وكان عمره ستاً وثلاثين سنة ، وحُمل رأسه في طشت ووضع بين يدي عضد الدولة ، فلمّا رآه وضع يديه على وجهه وبكى .

وكان عدّتهم ستّة عشر سلطاناً آخرهم أبو علي بن عز الملوك .

السُلْقدية :

وأما السُلْقدية فأخبرهم أثابك⁽¹²⁵⁾ معظم بن سعد بن أبي بكر سنقر بن زنكي ممدوح ذكره الشيخ السّعدي في كتابه الشهير «بكستان» ، وهو أكرم السُلْقدية ، ذكره البيضاوي وغيره .

(120) 19 ديسمبر 945 م .

(121) في ابن الأثير : «ثالث عشر» 575/8 .

(122) 1 أبريل 967 م .

(123) 974 - 975 م .

(124) 19 ماي 978 م .

(125) في ت : «أثابك» .

الخوارزمية :

وأما الخوارزمية فأولهم خوارزم شاه محمد بن أنوشتكين⁽¹²⁶⁾ ، وآخرهم السلطان غياث الدين محمود خوارزم شاه ، وهم ثمانية نفر ، خرج من طاعة المقتدر بالله وأرسل إليه يقول : اخرج من بغداد إلى أي مكان تريد ، فأرسل إليه المقتدر يقول : أصبر عشرة أيام ، فلبس / المقتدر جبّة من الصوف وكان بحاجب الدّعوة ، فدعا عليه فمات خوارزم شاه في اليوم العاشر فجأة ، وفي رواية : حين رجع من بغداد قامت عليه صواعق بسبب دعوة الشيخ غضبان عليه ، فقامت قيامة الصّواعق عليهم وقلعت الرّياح خيامهم .

[أ/166]

(126) في الأصول : «أنو شركين» والمثبت من الكامل في التاريخ.

الباب الثالث في مشاهير أمراء بني العباس بالمغرب

يزيد بن حاتم :

فمنهم أبو خالد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي . قال ابن خلكان : (1) قال أبو سعيد [بن يونس] في تاريخه : ولي يزيد بن حاتم مصر سنة أربع وأربعين ومائة (2) زاد غيره في منتصف ذي القعدة (2) .
ثم إن المنصور خرج إلى الشام في زيارة بيت المقدس في سنة أربع وخمسين (3) ، ومن هناك سار يزيد بن حاتم إلى إفريقية لحرب الخوارج الذين قتلوا عامله عمر بن حفص ، وجّهز معه خمسين ألف مقاتل ، واستقرّ يزيد المذكور واليًا بإفريقية من يومئذ ، وكان وصوله إليها واستظهاره على الخوارج في سنة خمس وخمسين (4) ، ودخل القيروان في هذا التاريخ . وكان جوادًا سريًا مقصودًا ممدوحًا ، قصده جماعة من الشعراء فأحسن جوائزهم ، وقال الطرطوشي في كتاب «سراج الملوك» قال سحنون بن سعيد : كان يزيد بن حاتم حكيماً يقول : والله ما هبت شيئاً قط هبتي لرجل ظلمته وأنا أعلم أنه لا ناصر له الا الله تعالى ، فيقول : حسبك الله ، الله بيني وبينك .
وذكر أبو سعد السمعاني في كتاب «الأنساب» (5) أن المشهّر التميمي الشاعر / وفد على يزيد بن حاتم بإفريقية فأنشده :

[ب/16]

(1) النقل من ترجمة يزيد بن حاتم المهلبى في الوفيات بتصرف في اللفظ 321/6 .

(2) 14 فيفري 762 م ، وذكر ابن خلكان رواية أخرى تقول أنه ولي في سنة 143 هـ / 760 - 761 م .

(3) 770 - 771 م .

(4) 771 - 772 م .

(5) في الأصول : «الأمثال» والمثبت من الوفيات 324/6 .

[طويل]

إليك قَصَرْنَا النصفَ من صلواتنا مسيرة شهر ثم شهر نواصلُهُ
فلا نحن نخشى أن يخيبَ رجاؤنا لديك ولكن أهناً⁽⁶⁾ البرَّ عاجلُهُ
فأمر يزيد بوضع العطاء في جنده وكان معه خمسون ألف مرتزق ، فقال : من أحب أن
يسرني فليضع لزارتي هذا من عطائه درهمين ، فاجتمع له مائة ألف درهم ، وضم يزيد
لذلك مائة ألف درهم أخرى ودفعها إليه⁽⁷⁾ .
ولمّا قدم عليه ابن المولى أنشدته وهو أمير مصر :

[مجزوء الكامل]

يا واحدَ العرب الذي أضحى وليس له نظير
لو كان مثلك آخرُ ما كان في الدنيا فقيرُ
فدعا يزيد بخازنه وقال : كم في بيت مالي؟ قال : فيه من العين والورق عشرون ألف
دينار ، فقال : ادفعها إليه ، ثم قال : يا أخي ، المَعْدرة إلى الله ثم إليك ، [والله] لو
كان في ملكي غيرها ما ادخرتها عنك .
ولم يزل يزيد والياً بافريقية إلى أن توفي بها يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من
رمضان سنة سبعين ومائة⁽⁸⁾ ، ودفن بباب سلّم ، واستحلف على افريقية [ولده] داود بن
يزيد (ابن زائدة وهو ابن أخي معز بن زائدة)⁽⁹⁾ .

هرثمة بن أعين :

وتولّى هرثمة ابن أعين الهاشمي عن هارون الرشيد ، فقدم على افريقية يوم الخميس
ثالث شهر ربيع الآخر سنة تسع وسبعين ومائة⁽¹⁰⁾ . (فبنى القصر الكبير)⁽¹¹⁾ في سنة
ثمانين ومائة⁽¹²⁾ .

(6) في الأصول : «أحسن» والمثبت من الوفيات 325/6 .

(7) بعدها في ت وزيادة عن ابن خلكان : «ودفعها إليه فأخذها من عنده ودعا له» .

(8) 13 مارس 787 م .

(9) إضافة من المؤلف عمّا هو موجود بالوفيات .

(10) كذا في ابن الأثير 139/6 ، 26 جوان 795 م .

(11) في الأصول : «سور» والمثبت من ابن الأثير وغيره اذ أن هرثمة هو الذي يرجع إليه بناء قصر المنستير .

(12) 796 - 797 م .

بداية بني الأغلب :

[167/أ] ومن أشهر أمراء بني العباس بالمغرب بنو الأغلب وهم عدة / سلاطين وجدُّهم الذي ينتمون إليه هو الأغلب [ابن ابراهيم] بن سالم ، وأوَّلهم ابراهيم ، كان رئيساً شريف النفس فاضلاً نبيلاً عالماً فصيحاً حسن السيرة ولاه افریقیة هارون الرشيد ليضايق على مولاي ادريس جد أشراف المغرب ، وهو ادريس ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - فاحتال عليه ابراهيم في خبر طويل .

أبو العباس عبد الله :

ولمّا فرغت مدّة ابراهيم تولّى بعده ابنه أبو العباس عبد الله⁽¹³⁾ [في سنة 197]⁽¹⁴⁾ نقل التجاني «أنه أراد أن يحدث على الناس مظالم من جعلتها أن يرفع على الناس طلب العشر ويضع على كل زوج ثمانية دنانير أصابوا أو لم يصيبوا ، فاشتد ذلك على الناس ، وقدم حفص بن حميد⁽¹⁵⁾ الجزري ومعه قوم صالحون من أهل جزيرة شريك وغيرها ، فاستأذنوا عليه - وكان من أجمل الناس - فكلّمه حفص وقال له : اتق الله أيها الأمير ، وارحم جمالك وشبابك فان النار أمامك ، فلم يجبه لشيء ممّا أراد ، وأظهر الاستخفاف به وبمن معه ، فخرج حفص وأصحابه فلمّا صاروا ببعض الطريق قال لهم : انا يشنا من الخلق ولن نياس من الخالق ، فما فُتح باب الدعاء حتى فُتح باب الاجابة ، فزلوا وأسبغوا الوضوء ، فصلّى بهم حفص ركعتين ودعوا على ابن الأغلب أن يمنعه الله ممّا أراد من أذية المسلمين ، ويكف عنهم جورهم ، فبعد خمسة أيام خرجت له قرحة تحت أذنه فقتلته في اليوم السابع من دعائهم ، [قال] : فحكى المتولي غسله أنه كشف عنه ثوبه فوجده أسود كأنه / زنجي بعد ذلك الجمال العظيم⁽¹⁶⁾ .

[167/ب]

(13) في الأصول : «أبو العباس أحمد» والمثبت من محمد الطالبي ، الدولة الأغلبية ترجمة المنجي الصيادي ، دار الغرب الاسلامي 171 ، وابن خلدون كتاب العبر 420/4 .

(14) اضافة من عندنا . 813 م .

(15) كذا في ت ، وفي ط وش : «حمير» كما في بعض أصول رحلة التجاني ، وفي النص المحقق من الرحلة : «حميد» أيضاً اعتماداً على البيان المغرب لابن عذاري .

(16) رحلة التجاني ص 11 - 12 .

زيادة الله :

فتولّى بعده أخوه زيادة الله [الأول] ⁽¹⁷⁾ فكان ملكاً جليلاً على عهد المأمون وإبراهيم ابن المهدي القائم على المأمون ، وتوفي زيادة الله يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثلاث وعشرين ومائتين ⁽¹⁸⁾ .
 وولي الأمر بعده أخوه أبو عقّال الأغلب بن إبراهيم ⁽¹⁹⁾ ، فكان مثله في الخير ، وغير حوادث كثيرة .

أبو العباس محمد :

ثم تولّى بعده ابنه أبو العباس محمد ⁽²⁰⁾ بن أبي عقّال الأغلب بن إبراهيم ⁽²¹⁾ فكان جاهلاً ⁽²²⁾ وتوفي سنة اثنتين وأربعين ومائتين ⁽²³⁾ .
 ثم تولّى بعده ولده أبو إبراهيم أحمد ، فأحسن السيرة وأكثر عطاء الجند ، وكان مولعاً بالعمارة ، فبنى بافريقية أكثر من عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب الحديد ، واتخذ العبيد جنداً ، وخرج عليه بناحية طرابلس خوارج من البربر فغلبهم عاملها ، وهو يومئذ أخوه عبد الله بن محمد بن الأغلب ، سرح إليهم أخاهما زيادة الله فحاربهم واستلحمهم وكتب إلى أخيه أبي إبراهيم بالفتح ، وفي أيامه افتتح قصر يانة ⁽²⁴⁾

(17) يبيع في ذي الحجة من سنة 201 هـ/ جوان 817 .

(18) 11 جوان 838 م .

(19) في الأصول : « أبو عقّال محمد » والمثبت من الدولة الأغلبية ص 239 وكتاب العبر 428/4 .

(20) في الأصول : « أحمد » والمثبت من المرجع السابق وولي الإمارة سنة 226 هـ/ 840 - 841 م .

(21) في الأصول : « محمد بن الأغلب » والمثبت من نفس المرجع .

(22) وصفه ابن الأبار بالحلم والجود . ووصف أيضاً أنه « كان مظفراً في حروبه » ومن جهة أخرى ذكر ابن عذاري أنه

« كان قليل العلم » وذكر النوري : « أنه كان من أجهل الناس ، لكنه أعطي في إمارته ظفراً على ما نواه » وعلق

محمد الطالبي في أطروحته « الدولة الأغلبية » على هذا القول بقوله : « ويبدو أن المؤلف لم يفهم جيداً انتصاراته » .

ويميل محمد الطالبي إلى موقف ابن عذاري فاستخلص ما يلي بعد نقاش : « كان شاباً عديم التجربة . قليل

العلم ، لم تسعفه طبيعة خلقه إلا قليلاً » ، أنظر الدولة الأغلبية ، ص 245 .

(23) 856 - 857 م .

(24) في الأصول : « قصر بالة » والمثبت من كتاب العبر 430/4 .

من مدن صقلية في شوال سنة أربع وأربعين ومائتين⁽²⁵⁾، وبعث بفتحها إلى المتوكل ، وأهدى له من سببها ، ثم توفي أبو ابراهيم آخر سنة تسع وأربعين ومائتين⁽²⁶⁾ ، فكانت مدته ثمان سنين .

زيادة الله الأصغر :

وتولّى بعده زيادة الله بن أبي ابراهيم بن محمد ، ويعرف بزيادة الله الأصغر ، فجرى على سنن أسلافه ، ولم تطل أيامه فتوفي سنة خمسين ومائتين⁽²⁷⁾ .

أبو الغرائق :

فتولّى مكانه / ابن أخيه⁽²⁸⁾ محمد [الثاني] ويُلقب «بأبي الغرائق» لشغفه بصيدها ، فغلب عليه اللهو والشرب ، وكانت أيامه حروب وفتن ، وفتح جزيرة مالطة سنة خمس وخمسين⁽²⁹⁾ ، وتغلب الروم على مواضع من جزيرة صقلية ، وبنى محمد حصوناً ومحارس على ساحل البحر بالمغرب على مسيرة خمسة عشر يوماً من برقة إلى جهة المغرب وهي الآن معروفة ، ثم توفي أبو الغرائق منتصف احدى وستين⁽³⁰⁾ لاحدى عشر سنة من ولايته⁽³¹⁾ .

[1/168]

(25) جاني - فيفري 859 م . وفيما يتعلق بأبي ابراهيم أحمد نقله المؤلف حرفياً من كتاب العبر 429/4 - 430 .

(26) 863 - 864 م .

(27) 864 - 865 م . النقل من كتاب العبر 430/4 .

(28) في الأصول تبعاً لابن خلدون «أخوه» العبر 430/4 اذ «اعتبره ابناً لزيادة الله الثاني الذي قيل أنه ابن لأخ ، لأبي ابراهيم أحمد» الدولة الأغلبية ، المرجع السابق هامش 149 ، ص 283 .

(29) 868 - 869 م .

(30) دقق محمد الطالبي تاريخ وفاته فقال «سمي الميت لأن خير وفاته شاع مسبقاً عدة مرات يوم الأربعاء 6 جمادى الأولى 261/فيفري 875 م» ص 291 .

(31) نقل المؤلف ما يتعلق بأبي الغرائق من كتاب العبر حرفياً 430/4 ، وحدد محمد الطالبي طيلة حكمه فقال «دام حكمه عشرة أعوام وخمسة شهور وستة عشر يوماً» ص 291 .

ابراهيم :

فتولّى بعده أخوه ابراهيم بن أحمد وكان أبو الغرائيق عهد لابنه أبي عقال ، واستحلف أخاه ابراهيم المذكور على أن لا ينازعه ولا يتعرّض له ، بل يكون نائباً عنه إلى أن يكبر ، فلمّا مات عدا عليه أهل القيروان ، وحملوه على الولاية عليهم لحسن سيرته وعبدله فامتنع ، ثم أجاب وترك وصيّة أبي الغرائيق في ولده أبي عقال ، وهو الذي نقل القصور إلى رقادة خارج القيروان ، وقام في أول الأمر أحسن قيام ، فكان عادلاً حازماً قطع أهل البغي والفساد ، وجلس لسماع شكوى المتظلمين فأمنت البلاد ، وبنى الحصون والمخارس بسواحل البحر حتى كانت النار توقد في سواحل سبّعة للندير بالعدو فيتصل ايقادها بالاسكندرية في الليلة الواحدة ، وفي أيامه كان مسير العباس بن أحمد بن طولون مخالفاً على أبيه صاحب مصر سنة خمس وستين ومائتين⁽³²⁾ ، فملك برقة من يد محمد بن قُهرْب⁽³³⁾ قائد ابن الأغلب ، ثم ملك لبدة ثم حاصر طرابلس واستمدّ ابن قهرْب نفوسة فأمّده ولقي العباس بن طولون / بقصر حاتم سنة سبع وستين ومائتين⁽³⁴⁾ فهزمه ، ورجع [168/ب] إلى مصر ، ثم خالفت هواره ولواته وغيرها وقتل ابن قهرْب⁽³³⁾ في حروبهم ، فشرح ابراهيم ابنه أبا العباس عبد الله إليهم في العساكر سنة تسع وستين⁽³⁵⁾ ، فأُخِنَ فيهم . وفي سنة ثمانين ومائتين⁽³⁶⁾ كثر الخوارج وفرّق العساكر إليهم فاستقاموا ، واستركب العبيد السودان واستكثر منهم فبلغوا ثلاثة آلاف .

وفي سنة احدى وثمانين ومائتين⁽³⁷⁾ انتقل إلى سكنى تونس ، واتخذ بها القصور ثم تحرك إلى مصر سنة ثلاث وثمانين⁽³⁸⁾ لمحاربة ابن طولون ، فاعترضته نفوسة فهزمهم وأُخِنَ فيهم ، ثم انتهى إلى سرت فانفضت عنه الحشود فرجع ، وبعث ابنه أبا العباس عبد الله على صقلية سنة سبع وثمانين ومائتين⁽³⁹⁾ ، فوصل إليها في مائة وستين مركباً وحصر طرابنة⁽⁴⁰⁾ ، وانتقض عليه يليم وأهل كبريكت ، وكانت بينهم فتنه فأغراه كل [واحد

(32) 878 - 979 م .

(33) في الأصول : « مذهب » والثبت من كتاب العبر الذي ينقل عنه المؤلف 434/4 .

(34) 880 - 881 م .

(35) 882 - 883 م .

(36) 893 - 894 م .

(40) في المعاجم : « طَرَابُنْش » باقوت 26/4 وقال عنها الحميري : « بجزيرة صقلية والنصارى يسمونها «اطرابنة» الروض

منهم] بالآخر ، ثم اجتمعوا لحربه ، وزحف إليه أهل بليرم في البحر فهزمهم واستباحهم (وملك بلدهم) ⁽⁴¹⁾ وبعث جماعة من وجوهها إلى أبيه ، وفرّ آخرون من أعيانهم إلى القسطنطينية وآخرون إلى طرابنة ⁽⁴²⁾ فأتبعهم وعاث في نواحيها ، وتجهز سنة ثمان وثمانين ومائتين للغزو فغزا دمشق ثم مسينا فهدم سورها ، ثم جاء في البحر إلى ريو ⁽⁴³⁾ ففتحها عنوة ، وشحن مراكبه بغنائمها ، وجاء مدد القسطنطينية في المراكب فهزمهم ، وأخذ لهم ثلاثين مركباً ⁽⁴⁴⁾ .

[169/أ]

/ ثم ان ابراهيم بن أحمد غلب عليه خلط سوداوي فتغيّر وأسرف في القتل ، فقتل أصحابه وكفاته وحجّابه ، وقتل ثمانية إخوة له صبراً بين يديه ، وقتل بناته ، ثم أظهر النسك ⁽⁴⁵⁾ ومات لثمان بقين من شهر ربيع الأول ⁽⁴⁶⁾ سنة تسع وثمانين ومائتين ⁽⁴⁷⁾ .

عبد الله بن ابراهيم :

وولي بعده ابنه أبو العبّاس عبد الله بن ابراهيم على عهد المعتصم ، فردّ المظالم وتنسك ولبس الصوف إلى أن قتل بتدبير ابنه زيادة الله ⁽⁴⁸⁾ ، وكان في سجنه وبادر بقتل من شاركه في دمه ، وأظهر التبرّي منه ، فعاقبه الله تعالى فلم يتمّع بالملك ، ولم يصف له بل خرج مهزوماً ومات طريداً شريداً في البلاد بظهور بني عبيد الشيعة ، فلقيت جيوشه جيوشهم فلم تقم له قائمة ففرّ إلى المشرق ⁽⁴⁹⁾ وترك البلاد ، فاستولى عليها الشيعة بعدما ملكها بنو الأغلب مائة سنة واثنى عشرة سنة وعدّتهم أحد عشر سلطاناً .

(41) اضافة من المؤلف عما هو موجود بكتاب العبر .

(42) في العبر 435/4 : «طرميس» قال عنها الحموي «انها من قرى دمشق» 32/4 .

(43) في الأصول وفي كتاب العبر : «ريو» ، وليس لها ذكر في المعاجم والتصويب من معجم البلدان 116/3 وقال الحموي «يفتح أوله وضم ثانيه .. مدينة للروم مقابل جزيرة صقلية من ناحية الشرق» وكذلك في الرّوض المطّار ص 280 قال الحميري : «مدينة من بلاد قلورية على ضفة المجاز إلى صقلية» .

(44) ما سبق ذكره عن ابراهيم الثاني نقله المؤلف من كتاب العبر حرفياً مع اسقاط جمل يسيرة 434/4 - 436 .

(45) ونحلى عن الحكم انظر «الدولة الأغلبية» المرجع السابق ص 348 .

(46) في الأصول : «لاثنى عشرة بقيت من ذي القعدة» والمثبت من نفس المرجع وكتاب العبر 439/5 .

(47) مارس 902 م .

(48) في 28 شعبان سنة 290 / 27 جويلية 903 م .

(49) انظر كتاب العبر 441/5 .

المقالة الرابعة

في ذكر ملوك الشيعة بالمغرب وكيفية انتقالهم لمصر وما يتبع ذلك

عبيد الله المهدي وقيام الدولة الفاطمية :

أقول الشيعة فرقة مبتدعة يرون أفضليّة علي - رضي الله تعالى عنه - على الشّخين أبي بكر وعمر - رضي الله تعالى عنهما - ويرون استحقاق ذريّة علي للخلافة دون بني أميّة والعبّاس ، والنّسبة إلى الشيعة شيعة ، وأول من ظهر منهم بالمغرب فادعى الخلافة لنفسه أبو محمد عبيد الله الملقّب «بالمهدي» . نقل ابن خلّكان⁽¹⁾ عن صاحب «تاريخ القيروان»⁽²⁾ أنّه عبيد الله بن الحسن بن علي بن محمّد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد / بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنهم - وقيل هو عبيد الله بن التّقي⁽³⁾ بن الوفي⁽⁴⁾ بن الرّضي ، وهؤلاء الثلاثة يقال لهم المستورون في ذات الله ، والرّضي المذكور ابن محمد بن اسماعيل بن جعفر المذكور ، واسم التّقي⁽⁵⁾ الحسين ، واسم الوفي أحمد ، واسم الرّضي عبد الله ، وانما استتروا خوفاً على أنفسهم لأنهم كانوا مطلوبين من جهة خلفاء بني العبّاس ، لأنهم علموا أن فيهم من يريد الخلافة أسوة بغيرهم من العلويين ، ووثائعهم في ذلك مشهورة ، وانما تسمّى المهدي عبيد الله تستراً .

(1) الوفيات 117/3 .

(2) لا نعرف من يقصد اذ كثير هم الذين كتبوا عن القيروان ولعله ابن شداد لأنّه قضى قسماً من حياته في الشرق واشتهر تأليفه بينهم .

(3) ذكر ابن خلّكان روايات أخرى في نسبه 117/3 .

(4) في الأصول : «الموفي» والمثبت من نفس المرجع .

(5) في الأصول : «التّقي» والمثبت من الوفيات 117/3 .

وكانت ولادة عبيد الله سنة تسع وخمسين ومائتين⁽⁶⁾ بالكوفة⁽⁷⁾ ، «وكان داعيته ببلاد المغرب أبو عبد الله بن أحمد بن زكرياء المعروف بالشييعي ، سُمِّيَ بذلك لأن الشييعي هو المنتسب للشيعة وهو من صنعاء اليمن ، كان من الرجال الدهاة الخبيرين بما يصنعون»⁽⁸⁾ ، كان تَعَرَّفَ بالحجاز بجماعة من كُتامة وترأس فيهم رئاسة دينية ، وقرر عندهم مذهب الشيعة ، فَعَرَّهم برأيه ومذهبه ، ووعدهم الملك بالمغرب فأتبعوه ، فن ثَمَّ كان أخصَّ النَّاسِ بدولة العبيديين ، ثم لَمَّا تمكَّن من قلوب أولئك الكتاميين دخل معهم المغرب بلا مال ولا رجال بل بالوعد⁽⁹⁾ والأُماني ، فلم يزل يسعى بالمغرب حتى استنزل زيادة الله آخر ملوك بني الأغلب ، فهرب - حسباً تقدم أنفاً - ولمَّا فرَّ زيادة الله ومهَّد قواعد البلاد أبو عبد الله الشييعي أقبل المهدي من المشرق / متوجهاً إلى سجلماسة⁽¹⁰⁾ فأحسَّ به اليسعُ آخر ملوك بني مِدرار⁽¹¹⁾ فسكَّه واعتقله ، ومضى إليه أبو عبد الله الشييعي فأخرجه من الاعتقال ، وفوض إليه أمر المملكة ، وقيل إن أبا عبد الله الشييعي لَمَّا سمع باعتقاله حشد جمعاً كثيراً من كُتامة وغيرهم وقصد سجلماسة لاستنقاذه ، فلمَّا سمع اليسعُ بقدومهم قتل المهدي ، فلمَّا دخل أبو عبد الله السِّجْنَ وجد المهدي مقتولاً وعنده رجل من أصحابه كان يخدمه ، فخاف أبو عبد الله أن ينتقض عليه ما دَبَّره من الأمر ان عرفت العساكر بقتل المهدي ، فأخرج الرَّجُل وقال : هذا هو المهدي⁽¹²⁾ .

[أ/170]

فمن هنا نشأ اختلاف كثير في نسب المهدي ، وأهل العلم من المحقِّقين ينكرون دعواه في النسب حتى أن ابن طباطبا لما ملك المعزَّ من العبيديين مصر كما يأتي - ان شاء الله - قال له : إلى من ينتسب مولانا؟ فقال : سنعتقد مجلساً ونجمعكم ونسرد عليكم نسبنا ، فلمَّا استقرَّ المعزُّ بالقصر جمع النَّاسَ في مجلس عام .جلس لهم فقال : هل بقي من

(6) 872 - 873 م .

(7) الوفيات : 119/3 .

(8) الوفيات لابن خلكان 192/2 .

(9) في الأصول : «الأوعادي» كما ينطقها بعض العوام ، وجاء في تاج العروس : «الوعد من المصادر المجموعة ويقال الوعود ، وتجمع عدة على عدات والوعد لا يجمع» 536/2 .

(10) بعدها في الأصول : «بلاد كُتامة» أسقطناها لأن سجلماسة في المغرب وهي ساقطة أيضاً في الوفيات .

(11) هو «اليسع» صاحب سجلماسة ، الوفيات 118/3 وكتاب العير 72/7 .

(12) نقل حرفي من الوفيات 118/3 .

رؤسائكم أحد؟ فقالوا: لم يبق معتبر، فسلّ عند ذلك نصف⁽¹³⁾ سيفه وقال: هذا نسي ونثر عليهم ذهبًا كثيرًا، وقال: حسبي، فقالوا جميعًا: سمعنا وأطعنا⁽¹⁴⁾. قال ابن خلكان: وفيه دليل على عدم صحة نسبه إذ لو عرفه لذكره⁽¹⁵⁾.

وقال الجلال السيوطي في «تاريخه» إن الخلفاء العبيديين إمامتهم غير صحيحة لأمر منها أنهم غير قرشين لأن جدّهم مجوسي، وقال القاضي عبد الجبار البصري: اسم جدّ الخلفاء / المصريين سعيد كان أبوه يهوديًا حدّادًا بسكّميّة⁽¹⁶⁾ بفتح السين المهملة واللام وكسر الميم وتشديد الياء المثناة تحت وتخفيفها أيضًا، بليدة بالشّام، وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: القدّاح جدّ عبيد الله الذي يسمّى المهدي كان مجوسيًا، ودخل عبيد الله المغرب وادّعى أنه علوي، ولم يعرفه أحد من علماء النسب وسمّاهم جهلة النّاس فاطميين⁽¹⁷⁾، وقال الذهبي: [اتفق] المحققون على أن عبيد الله المهدي ليس بعلوي⁽¹⁸⁾.

ولمّا دخل عبيد الله الشّيعي افرريقية، ونزل رقّادة ترك جبّلة بن حمّود سكنى الرّباط، ونزل القبروان، فكلم في ذلك فقال: كنّا نحرس عدوّا بيننا وبينه البحر، والآن حلّ هذا العدو في ساحتنا، وهو أشدّ علينا من ذلك، فكان إذا أصبح وصلى الصّبح خرج إلى طرف القبروان من ناحية رقّادة معه سيفه وترسه وفرسه وسلاحه، وجلس محاذيًا لرقّادة إلى غروب الشّمس ثم يرجع إلى داره ويقول: أحرس عورات

(13) في الأصول: «نصل» والمثبت من تاريخ الخلفاء ص 5، وابن خلكان 82/3.

(14) النقل من الوفيات في ترجمة عبد الله بن طباطبا، 82/3، ووردت القصة باختصار في تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب «القسم الخاص» من كتاب عيون الأخبار للداعي ادريس عماد الدّين» تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي 1985، ص 5.

(15) غير موجود في الوفيات.

(16) في الأصول: «سكّميّة» وهذه الكتابة لا تتأشّى مع شكلها الموصوف في النص وكتبها الطبري سكّميّة كما في معجم البلدان 230/3 «سكّميّة» بفتح أوله وثانيه وسكون الميم وباء مثناة من تحت خفيفة، ولا يعرفها أهل الشام إلا بسكّميّة كما وصفها المؤلّف، وكتبها على هذا النحو الحميري في الروض المطّار ص 320، وهي بلدة من أعمال حمص الشام.

(17) السيوطي «تاريخ الخلفاء» ص 4. وقول الذهبي ذكره السيوطي في تاريخ الخلفاء ص 5.

(18) الخلاف في نسب الفاطميين كبير بين الشيعة وأهل السّنة، فالشيعة مثبتون وأهل السّنة نأفون، ما عدا ابن خلدون وتلميذه المقرئزي، والمقرئزي في كتابه: «انعاظ الحنفاء» ذكر أقوال النافين تحت عنوان «ما قيل في أنساب الخلفاء الفاطميين انعاظ الحنفاء» بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء «22/1 - 34 تحقيق الرحوم الدكتور جمال الدّين الشّيال، القاهرة 1387 هـ / 1967 م، وللمحقق تعليقات طويلة مفيدة، وذكر أقوال المستشرقين المؤيدين لصحة النسب، ونفهم لأقوال أهل السّنة.

المسلمين منهم. وكان ينكر على من يخرج من القيروان إلى سوسة أو نحوها من الثغور ويقول: جهاد هؤلاء أفضل من جهاد أهل الشرك. قال أبو بكر المالكى⁽¹⁹⁾ لم يكن في وقته - رحمه الله - أكثر اجتهداً منه في مجاهدة عبيد الله الشيعي، فسلّمه الله - عز وجل - منه قال: واتصل به أن بعض أهل القيروان خرجوا ليلتقوا عبيد الله الشيعي تقيّة من شرّه ومداراة له فقال جبلة بن حمود: اللهم / لا تسلّم من خرج يسلم عليه، واغتمّ لذلك غمّاً شديداً فلما انتهوا إلى وادي أبي كريب جرّدوا وأخذت ثيابهم، فلماً عرفوا جبلة بذلك قال ما غمّني فيهم الا رجل واحد⁽²⁰⁾ هو حماس بن مروان القاضي. ولمّا دخل عبيد الله القيروان «دعي له بالخلافة على منابر رقّادة والقيروان يوم الجمعة لتسع بقين من ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين»⁽²¹⁾ بعد رجوعه من سيجلماسة⁽²²⁾ بالسّين المهملّة وسكون الجحيم وفتح اللام والميم وبعد الألف سين مهملة وهاء تأنيث، وتقدم التعريف بها صدر الكتاب.

ثم ان العبيديين لمّا استولوا على افريقية انضاف إليهم طوائف كثيرة من الشيع الغالبة قدموا عليهم من كل بلاد متوسلين إليهم بحب أهل البيت والتعصّب لهم حتى ولّوهم الولايات ورفعوا منازلهم، أظهروا مذهبهم الفاسد في سب الصحابة - رضي الله عنهم - وتبدّل الشرائع والاضرار بأهل السنّة، فن المتعصّبين محمد بن عمر المروذي⁽²³⁾ القاضي، وعبد الله بن محمد بن أبي خنزير الكتّامي وكان محمّد بن عمر المروذي القاضي معتقداً للمذهب الشيعة معروفاً بذلك، فلماً دخل الشيعي بادر إليه، ودخل في دعوته

(19) النقل عن المالكى وموجود في معالم الايمان في ترجمة جبلة بن حمود 270/2 وانظر رياض النفوس 27/2 - 45.

(20) بعدها في رياض النفوس: «فيه خير ولا دنيا له» 42/2.

(21) كذا في «تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب»: القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار وفي كتاب-اليعرب في رجب سنة ست وتسعين» وهو التاريخ الذي اعتمده فرحات الدشراوي في أطروحة *Le Califat fatimide au Maghreb*، ص 112.

(22) «سجلماسة»: «بكسر أوله وثانيه وسكون اللام وبعد الألف سين مهملة» وكذا تعرف وكتبت في مختلف النصوص، معجم البلدان 192/3.

(23) في الأصول: «مروزي» والاصلاح من تاريخ الخلفاء، و«مروذي» نسبة إلى «مرو الروذ» وهي مرو الصغرى وأما الكبرى فالنسبة إليها مروزي بالزاي، راجع معجم البلدان لياقوت 32/8 وموقعها الآن بالاتحاد السوفياتي على مقربة من حدود إيران وأفغانستان غربي بخارى. أنظر أطلس التاريخ الإسلامي للمازارد (تعليقات د. محمد الأحمدى أبو النور ومحمد مازور على معالم الايمان 289/2 هامش 4).

ولزمه وولاه قضاء افريقية ، فنصّب وتكبر وتجبّر ، وكانت أيامه صعبة جدًّا على أهل السنة ، فأخافهم ، ولمّا خرج أبو عبد الله الشيعي / إلى سِجْلَمَاسَة ، واستخلف مكانه أخاه أبا العباس ، أطلق يد المروزي وقوى أمره ، فأخذ أبا العباس بطريقة قاضي طرابلس - وكان من الفقهاء العالمين - ، وأبا القاسم الطوزي قاضي صقلية ، واحتسب بمدينة القيروان ، فضرهم وقتل ابن هذيل ، وإبراهيم بن البردّون ، وأول ما ولي زاد في الآذان : «حي على خير العمل» ، وترك الناس يصلّون برمضان سنة واحدة ، ثم منعهم ، وترك أكثر الناس الصلّة بالمساجد ، وأخذ أموال الأقباس والحصون ، وأخذ السّلاح الذي بالحصون التي على البحر ، وأمر الفقهاء أن لا يكتبوا وثيقة ولا يفتوا فيمن سرق وكفر ، وأمر أن تزال من الحصون والمساجد أسماء الذين بنوها وأمر بينائها السّلاطين ، ويكتب اسم المهدي (24) .

واختلف في سبب قتل ابن هذيل وإبراهيم بن البردّون «فقيل : لمّا وصل عبيد الله إلى رقّادة أرسل إلى القيروان من أتاه بهما ، فلمّا وصلا إليه وجداه على سرير ملكه جالسًا ، وعن يمينه أبو عبد الله الشيعي ، وعن يساره أخوه أبو العباس ، فلمّا وقفا بين يديه قال لهما أبو عبد الله وأخوه : اشهدا أن هذا رسول الله ، وأشار إلى عبيد الله ، فقالا جميعًا بلفظ واحد : والله الذي لا إله إلا هو لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره يقولان أنه رسول ما قلنا أنه رسول الله ، فأمر عبيد الله حينئذ بذبحهما جميعًا ، وأمر بربطهما إلى أذنان البغال ، فقيل إن / إبراهيم لمّا جرّ للقتل قال له ابن أبي خنزير [172/1] عامل القيروان : أترجع عن مذهبك ؟ فقال له : أعزّ الاسلام تَسْتَيْبِنِي ؟ فقتل .

وقال أبو بكر المالكي (25) انه لمّا امتنع هو وصاحبه من ذلك قال لهما : اخرجا إلى الناس فقولوا أنه قد فعلنا ولا تفعلوا فأبيا عليه [ذلك] واعتلا بأنه يُقْتَدَى بهما ، وقالوا : عذاب الدنيا أيسر من عذاب الآخرة ، فأمر بضربهما بالسّوط حتى ماتا (26) وقيل ضرب أعناقهما وطيف بهما مسحوبين على وجوههما قد ربطا إلى بغل فجرحهما من باب تونس إلى باب أبي الرّبيع فصلبا هنالك . أما ابن البردّون ، فنُقِل عنه أنه قال : كان علي بن أبي

(24) عن القاضي المروزي انظر معالم الايمان 291/2 - 292 والمؤلف ناقل ما فيه .

(25) رياض النفوس والقتل من معالم الايمان عن المالكي 264/2 - 265 (ط 2) .

(26) معالم الايمان 264/2 .

طالب - رضي الله تعالى عنه - يقيم الحدود بين يدَي عمر بن الخطاب ، أو أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنهما - ويعينه على أموره ، فلو لم يكن عنده امام هُدى مستحقاً للتقدمة ما فعل ، فبلغ قوله إلى أبي العباس الشيعي ، فقال : كان يوسف الصديق من أعوان العزيز في أموره فما كان فيه نقص ليوسف ولا زيادة في مقدار العزيز ، وكان قتلها في سنة تسع وتسعين ومائتين⁽²⁷⁾ - رحمة الله عليهما - وسعى القاضي المروزي إلى المهدي بأبي جعفر محمد بن محمد بن خيرون المَعافري الأندلسي القرطبي ، فأمر المهدي عامله ابن أبي خنزير بقتله فعذَّبه إلى أن مات .

«حكى الشيخ أبو الحسن القاسبي - رحمه الله تعالى - قال : أخبرني من أثق به أنه كان جالساً عند ابن أبي خنزير اذ دخل عليه شيخ / ذو هيئة جميلة ، وقد علاه اصفراء مع حسن سمت وخشوع ، فلما رآه ابن خنزير بكى ، فقال : ما الذي يبكيك ؟ قال : السلطان - يعني عبيد الله - وجَّه الي يأمرني بدوس هذا الشيخ حتى يموت - يعني ابن خيرون - ، ثم أمر به فأُدخل إلى مجلس ، وبُطِح على ظهره ، وطلع السودان فوق سرير ، فقفزوا عليه بأرجلهم حتى مات ، وذلك من أجل جهاده على دين الله وبغضه لبني عبيد الله⁽²⁸⁾ .

[172/ب]

قال أبو بكر المالكي⁽²⁹⁾ : ولما مات أخذوه وحملوه على بغل وألقوه في حفير ، ونهب ابن أبي خنزير ماله ، وأخذ مولدة كانت له ، وجعلها مع خدمه⁽³⁰⁾ « فلم يمر الا شهر حتى أخذ عبيد الله القاضي المروزي فسجنه وعذَّبه حتى مات ، وسبب أخذه انه لما طال على ابن أبي خنزير كثرة من يأتي به المروزي من العلماء والصلحاء ليقتلهم سعى به عند عبيد الله ، ومضى به إلى المهديّة ، فقبل عبيد الله قوله ، ومكَّنه منه فأخذه وألبسه ملابساً ، ورماه في اصطبل الدواب تمشي عليه فركضت في بطنه حتى قتَلته ، فكانت

(27) 911 - 912 م هذا التاريخ غير دقيق لأن أبا العباس قتل مع أخيه أبي عبد الله في جمادى 298 ، وجميع النقول تقول على أنهما بدأ في دم هذين الشيخين فلا بد أن يكون استشهادهما قبل قتل الآخرين والراجع أنه سنة 297 لأنهما من أول ضحايا ذلك الانقلاب ، تعليق محقق معالم الإيمان د. محمد أحمددي أبو النور ومحمد ماضور . 263/2 .

وترجمة ابن البرذون وابن هذيل في معالم الإيمان الذي اقتصر عليه المؤلف 261/2 - 269 .

(28) كذا في توط وفي ش : «وبغضه لعبيد الله» وفي معالم الإيمان : «وبغضه لبني عبيد» 290/2 .

(29) نقل من معالم الإيمان 290/2 .

(30) معالم الإيمان 290/2 وفي آخر الترجمة من ص 291 أخبار القاضي محمد بن عمر المروزي .

مولدة ابن خيرون تأتبه وهو تحت أرجل الدواب فيقول لها : إنك بسبي صيرت عند السلطان ؟ فنقول له : يا شيخ السوء ! قتل سيدي ابن خيرون شيخ القيروان ، وأزلتني من عنده ، ورددتني عند خنزير ابن خنزير ، وتأمر خدماها فيلطمنه ويعضضنه⁽³¹⁾ ، وكانت هي المتولّية لعذابه حتى هلك . قيل إنه لما ضرب مائة سوط / وعُذِبَ قِلِيلٌ له : هات الأموال التي جمعت ، فقال : والله لو أن تحت قدمي جبًّا مملوءًا بمال الدنيا كلِّها ما أخرجت لكم منه درهماً ، واني قد عصيت الله تعالى فيكم فسَلَطَكُم علي ، فاضربوا ما شتم وعذِّبوا كيف شتم هذا ما كان من أمر القاضي⁽³²⁾ .

وأما أبو عبد الله الشيعي وأخوه أبو العباس - وكان هو الأكبر - فانهما لما اجتمعا بعد تمكين عبيد الله من المملكة لام أبو العباس أخاه على ما فعل من تمكينه عبيد الله بالمملكة وقال له : تكون صاحب البلاد والمستقلّ بأمورها وتسلّمها إلى غيرك وتبقى أنت من جملة الأتباع ؟ وكرر عليه القول ، فندم أبو عبد الله على ما صنع وأضمر الغدر فاستشعر منهما المهدي ذلك ، فدرس عليهما من قتلها في ساعة واحدة وذلك في منتصف جمادى الآخرة سنة ثمان وسبعين ومائتين⁽³³⁾ بمدينة رقّادة بين القصرين .

وأما ابن أبي خنزير ، فانه لما اطمأن عبيد الله واستقرّت له المملكة بعث على جزيرة صقلية ابن أبي خنزير ، فوصل إلى مازرة سنة سبع وتسعين ومائتين⁽³⁴⁾ ، فولّى أخاه على كبرمكيت⁽³⁵⁾ وولّى اسحاق بن المنهال قضاء صقلية ، وشكا أهل صقلية سوء سيرة ابن أبي خنزير ، وثاروا به وحبسوه ، وكتبوا إلى المهدي معتردين ، فقبل عذرهم ، وولّى عليهم علي بن عمر البلوي ، فقدمها آخر سنة سبع وتسعين ومائتين⁽³⁶⁾ ، وكان شيخاً كبيراً فعزلوه ، وولّوا عليهم أحمد بن قهر⁽³⁷⁾ فدعا الناس إلى طاعة المقتدر العباسي ، فأجابوه وقطع خطبة المهدي ، وبعث أسطوله إلى افرقية فلقوا أسطول المهدي وقائده ابن أبي خنزير فقتلوه وأحرقوا الأسطول ، وسار أسطول ابن قهر⁽³⁷⁾ إلى صفاقس فأخربها وجاءت

(31) في معالم الايمان : «ويعطونه قدره» 291/2 .

(32) معالم الايمان 291/2 .

(33) 24 سبتمبر 891 م .

(34) 909 - 910 م .

(35) في الأصول : «كرميت» والمثبت من كتاب العبر 442/4 .

(36) 911 - 912 في كتاب العبر : «سبع وتسعين» 442/4 .

(37) في الأصول : «ابن مذهب» والمثبت من كتاب العبر 443/4 .

الخلع والألوية من المقتدر إلى ابن قهرب فاستقل ، وانقطعت طاعة المهدي من صقلية⁽³⁸⁾ واختلف الأئمة في جواز مقاتلة العبيدين .

حركة القيروانيين المضادة للفاطمين :

قال في المعالم⁽³⁹⁾ : « كان أبو الفضل عباس الممسي من خرج لقتال بني عبيد مع أهل القيروان لِمَا كان يعتقد من كفرهم ، قال أبو بكر المالكي : رأى أن الخروج مع أبي يزيد الخارجي - الآتي خبره - وقطع دولة بني عبيد فرضا لأن الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم الاسلام ويَرِثون ويورثون وبني عبيد ليسوا كذلك لأنهم مجوس زال عنهم اسم المسلمين فلا يتوارثون معهم ولا ينسبون إليهم »⁽⁴⁰⁾ وقال⁽⁴¹⁾ : « عتب ربيع بن القطان في خروجه مع أبي يزيد إلى حرب بني عُبيد فقال : وكيف لا أفعل وقد سمعت الكفر بأذني ؟ فمن ذلك أني حضرت اشهادًا وكان فيه جمع كثير - أهل سنة ومشاركة - وكان بالقرب مني أبو قضاة الداعي فأتى رجل مشرقى [من أهل الشرق ومن أعظم المشاركة فقام إليه رجل مشرقى]⁽⁴²⁾ وقال : إلى هاهنا يا سيدي إلى جانب رسول الله ﷺ يعني أبا قضاة الداعي ويشير بيد ، إليه ، فما أنكر أحد شيئًا من ذلك ! فكيف ينبغي أن أترك القيام عليهم ؟ ووُجد بخطه قال : لِمَا كان في رجب سنة احدى وثلاثين ، قام الصبي المكوكب يقذف الصّحابة / ويطعن على النبي ﷺ وعلقت عظام رؤوس أكباش وحمير وغيرها على أبواب الحوانيت والدروب عليها قراطيس معلقة فيها أسماء يعنون بها رؤوس الصّحابة - رضوان الله عليهم - فلمّا رأى ربيع ذلك لم يسعه التأخر عن الخروج عليهم - وكذلك كان جميع الشيوخ يتأولون أبا اسحاق السبائي وغيره ولما اجتمعوا للخروج عليهم قال ربيع القطان : أنا أول من يشرع في هذا الأمر ويخرج فيه ويندب المسلمين ويحضهم عليه ، وتسارع جميع الفقهاء والعباد لذلك ، فلمّا كان بالغد خرج

[174/أ]

(38) عن هذه الأخبار أنظر كتاب العبر 442/4 - 443 .

(39) معالم الايمان 29/3 (ط . 2) .

(40) معالم الايمان : 29/3 .

(41) معالم الايمان : 31/3 - 32 (ط 2) .

(42) اضافة من المعالم ليستقيم المعنى .

الربيع وجماعة الفقهاء ووجوه التجار إلى المصلّى بالسلاح الشاك⁽⁴³⁾ والعدّة العجيبة التي لم ير مثلاً ، وضاق بهم الفضاء وتواعد الناس أن ينظروا في الرّاد وآلة السّفَر إلى يوم السبت - وذلك يوم الاثنين - وركب بعض الشيوخ من الموضع إلى الجامع بالسّلاح ، وشقّقوا السّماط بالقيروان ، وزادوا في استنهاض⁽⁴⁴⁾ الناس ، فلمّا كان يوم الجمعة اجتمعوا في الجامع وركبوا بالسّلاح الكامل وعملوا البنود والطبول⁽⁴⁵⁾.

«قال أبو الحسن علي بن سعيد الخراط الفقيه : لما بلغني أن الفقهاء قد تجمّعوا في الجامع في تدبير الخروج إلى المهديّة في أيام أبي يزيد بكرت إلى الجامع فأصبت أبا العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تَمَام التّميمي ، وأبا الفضل عبّاس الممّسي ، وريع القطّان ، وأبا اسحاق السيّاني ، ومروان بن نصر وغيرهم جلوساً عند المنبر فتكلموا / في الخروج على بني عبّيد فاختلفوا وتناظروا حتى قال أبو العرب : اسكتوا ، فسكت الناس فقال : حدّثني عيسى بن مسكين عن مُحَمَّد بن عبد الله الجُرْجاني بإسناده إلى النّبي ﷺ أنه قال : «يكون في آخر الزمان قوم يقال لهم الرّافضة فإذا أدركتموهم فاقتلوهم فانهم كفّار»⁽⁴⁶⁾ فلمّا أتمّ الحديث كبر النّاس وعلّت أصواتهم في الجامع حتى ارتجّ ، ثم خرجوا لقتال بني عبّيد ، وهذا يدلّك على كمال عدالته وصحّة نقله ، ولولا ذلك لما اتفقوا بعد الاختلاف على الخروج على من ذكر»⁽⁴⁷⁾. ولم يتخلّف من العلماء والفقهاء أحد «وكانت عدة بنودهم سبعة ركّزوها قبالة مسجد الجامع المعروف بالحدّادين ، بنداً أصفر لربيع القطّان مكتوب عليه البسملة ومعها لا إلّاه إلا الله محمد رسول الله ، وفي الثاني - وهو لربيع أصفر أيضاً - نصر من الله وفتح قريب على يد أبي يزيد اللهم انصره على من سبّ نبيك ، وفي الثالث - وهو أصفر أيضاً لأبي الربيع - بعد البسملة - ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يُتَنَّهُونَ﴾⁽⁴⁸⁾ وفي الرّابع - وهو أحمر لأبي الفضل عبّاس الممّسي - لا إلّاه إلا الله محمد رسول الله ، وفي الخامس - وهو

(43) في الأصول : «شائك» والمثبت من معالم الإيمان 32/3.

(44) في الأصول : «أشخاص» والمثبت من المعالم 32/3.

(45) النقل من المعالم 32/3.

(46) روى أحمد بن حنبل في سننه أن علياً قال : قال رسول الله ﷺ : «يظهر في آخر الزمان قوم يسمون الرافضة يرفضون الإسلام». مسند أحمد ج 1 ص 103.

(47) النقل من نفس المرجع ص 35.

(48) سورة التوبة : 12 وأولها ﴿وَإِنْ نَكُوثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنَا فِي دِينِكُمْ...﴾.

أخضر لمروان العابد - بعد البسملة - ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَبْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ (49) وفي السادس - وهو أبيض بعد البسملة - لا إله إلا الله محمد رسول الله أبو بكر الصديق / عمر الفاروق ، وفي السابع - وهو لآبراهيم ابن الحشاش (50) - وكان أكبر البنود لونه أبيض ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ (51) الآية ، فلما اجتمع الناس وحضرت الجمعة ، طلع الامام على المنبر - وهو أحمد بن محمد بن أبي الوليد ، وكان أبو الفضل الممسي هو الذي أشار به - وخطب خطبة أبلغ فيها وحرّض الناس على الجهاد ، وأعلمهم بما لهم فيه من الثواب وتلا ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾ (52) الآية ، وقال : يا أيها الناس ، جاهدوا من كفر بالله ، وزعم أنه رب من دون الله ، وغير أحكام الله ، وسب نبيه وأصحاب نبيه وأزواج نبيه ، فبكى الناس بكاء شديداً ، وقال في خطبته : اللهم ان هذا القرمطي الكافر الصنعاني المعروف بأبي عبيد الله المدعي الربوبية من دون الله جاحد لنعمك ، كافر بربوبيتك ، طاعن على أنبيائك ورسلك ، مكذب لمحمد نبيك وخيرتك من خلقك ، ساب لأصحاب نبيك وأزواج أمهات المؤمنين ، سافك لدماء أمته ، هاتك لمحارم أهل ملته افتراء عليك واغتراراً بجلحك ، اللهم فالعنه لعناً وبليلاً ، واخزه خزيًا طويلاً ، واغضب عليه بكره وأصيلاً ، واصله في جهنم وساءت مصيراً ، بعد أن تجعله في الدنيا عبرة للسائلين وأحاديث الغابرين ، وأهلك اللهم متبّعه وشيّت كلمته وفرّق جماعته واكسر شوكته واشف صدور قوم مؤمنين منه ، ونزل ، فجمع الجمعة ركعتين وسلّم وقال : إن الخروج غداً يوم السبت / إن شاء الله تعالى ، وركب ربيع القطان فرسه وعليه آلة الحرب وفي عنقه المصحف وحوله جماعة من الناس من أهل القيروان متأهبون مستعدون لجهاد أعداء الله عليهم آلة الحرب ، فنظر إليهم ربيع القطان فسرّ بهم ، وقال : الحمد لله الذي أحياهم حتى أدركت عصاة من المؤمنين (53) اجتمعوا لجهاد أعدائك وأعداء نبيك ، يا ربّ بأي

[175/أ]

[175/ب]

(49) سورة التوبة 14.

(50) في الأصول : «ابن المثنى» والمثبت من المعالم 33/3.

(51) سورة التوبة : 40.

(52) سورة النساء : 95.

(53) كذا في ط ومعلم الايمان 33/3 وفي ت وش : «المسلمين».

عمل وبأي شيء وصلت إلى هذا ، ثم أخذ في البكاء حتى جرت دموعه على لحيته ثم قال : والله لو رأيكم محمد ﷺ لسرّ بكم .

قال الشيخ أبو الحسن القابسي : فلما تلاقوا للقتال ، أقبل ربيع وهو يطعن فيهم ويضرب وهم يتوقفون عن طعنه طمعاً أن يأخذوه حياً ، فلما أثنهم بالضرب والطعن عمد إليه جماعة منهم فقتلوه ، واستشهد معه أئمة وعباد وصلحاء ، عدتهم خمسة وثمانون رجلاً .

وقال أبو الحسن أيضاً عن شيوخه الذين أدركهم : إن الذين ماتوا في دار البحر بالمهدية من حين دخل عبيد الله إلى الآن أربعة آلاف رجل في العذاب ما بين عالم وعابد ورجل صالح» اهـ .

وكان القرويون⁽⁵⁴⁾ غلبوا من كان بالمهدية ، وطمعوا في أخذها فكر بهم أبو يزيد فقال لجيشه : القرويون إذا حكموا على بني عمنا واستأصلوهم رجعوا علينا فلا نقدر عليهم ، فإذا كان من الغد والتحم الناس في القتال انهزموا⁽⁵⁵⁾ عنهم حتى تقع الكسرة⁽⁵⁶⁾ عليهم فترتاحوا من شوكتهم ، أو نحو هذا الكلام ، ففعلوا ذلك ، فوقعت الهزيمة عليهم / لما سبق في سابق علم الله فاستشهد من استشهد كأبي الفضل الممسي⁽⁵⁷⁾ ، وربيح القطان . قيل إن ربيع القطان قُتل قرب المهدية بالوادي المالح ، وقُطِعَ رأسه وأُتي به إلى أبي القاسم بن عبيد في طشت⁽⁵⁸⁾ ، فلما كشفوا عنه فتح الرأس عينيه وفه ، فقال أبو القاسم : أبعدوه عني ، وكانت وفاته في رجب سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة⁽⁵⁹⁾ .

قال أبو محمد التبان : رأيت ربيعاً القطان في المنام بعد أن قُتل ، فسألته عن حاله ،

(54) يستمر في النقل من المعالم 34/3 .

(55) في المعالم : «انغزلوا» .

(56) في المعالم : «الكسرة» .

(57) هو عباس بن عيسى المسي نسبة إلى ممس وقيل بتشديد الميم الثانية وهي Mamma البيزنطية ، وتقع غربي القيروان على بعد 50 كلم منها ، و 33 كلم من سبيلة ، وهي التي تحصن بها كسيلة عند زحف زهير بن قيس البلوي نحو القيروان ، توفي المسي سنة 333 هـ وترجمته في الأعلام 363/3 - 4 (ط/5) وترتيب المدارك 313/3 - 323 والديباج 317 وشجرة النور الزكية 33 وطبقات علماء افريقية للبخشي 34 ومعالم الايمان 27/3 - 30 (ط/2) وغير ذلك ، وانظر تراجم المؤلفين التونسيين لمحمد محفوظ 381/4 - 383 .

(58) في المعالم : «طست» ، والطشت لغة في معنى الطست (فارسية) .

(59) فيفري 945 م .

فقال : تارة يُزَخرف لنا الجنان ، وتارة [تشرف علينا الحور والولدان]⁽⁶⁰⁾ ، وتارة تبسط⁽⁶¹⁾ لنا الحجب ، فقلت له : مَنْ أَعْلَى درجة أنت أو الممسي ؟ فقال جُمِعنا في حديقة واحدة . قال أبو بكر المالكي⁽⁶²⁾ : وكان يكثر من الإشارة بأنه يستشهد ، فكان ذلك في قتال بني عبيد ، وكان يقول : والله لَيَدَارَنَّ بهذا الرأس ، فقدّر الله أن أُدير برأسه بطرابلس » وهذا كله مبني على القول بكفر بني عبيد⁽⁶³⁾ .

أقوال بعضهم في الفاطميين والمجادلة حول رميهم بالكفر والزندقة وتبرئتهم منها :

قال الجلال السيوطي⁽⁶⁴⁾ : إن أكثر الخلفاء العبيديين زنادقة خارجون عن الاسلام منهم من أظهر سب (الصّحابة)⁽⁶⁵⁾ والأنبياء ، ومنهم من أباح الخمر ، ومنهم من أمر بالسّجود له ، والخيرُ منهم رافضي خبيث لثم بسبّ الصّحابة ، ومثل هؤلاء لا تنعقد لهم بيعة ، ولا تصحُّ لهم امامة .

قال القاضي أبو بكر الباقلاني⁽⁶⁶⁾ : كان المهدي عبيد الله باطنياً⁽⁶⁷⁾ خبيثاً حريصاً على إزالة ملّة الاسلام ، أعدم العلماء والفقهاء ليتمكن من إغواء الخلق ، وجاء أولاده على أسلوبه أباحوا الخمر والفروج / وأشاعوا الرّفص .

وقال الذهبي : كان القائم بن المهدي أشراً⁽⁶⁸⁾ من أبيه زنديقاً ملهوناً ، أظهر سبّ الأنبياء ، وقال : وكان العبيديون على ملّة الاسلام أشراً⁽⁶⁹⁾ من التتر ، وقال أبو الحسن

[176/ب]

60 في الأصول : « وتارة يشرق علينا » والاضافة من المعالم 36/3 .

61 في الأصول : « تصطك » والمثبت من نفس المرجع .

62 يستمر في النقل من المعالم 36/3 .

63 انتهى النقل من المعالم 36/3 وعن ربيع القطان انظر النص الكامل في المعالم 30/3 - 36 (ط 2) وترجمته في الأعلام للزركلي 15/3 (ط 5) وترتيب المدارك 323/3 وشجرة النور الزكية ص 83 ، ورياض النفوس ومحمد محفوظ ، معجم المؤلفين التونسيين 92/4 - 93 .

64 تاريخ الخلفاء ص 5 .

65 زائدة عن نص السيوطي .

66 النقل من تاريخ الخلفاء .

67 في الأصول : « إباحيا » والمثبت من تاريخ الخلفاء .

68 في تاريخ الخلفاء : « شرا » .

69 في تاريخ الخلفاء : « شرا » .

القاسبي : إن الذين قتلهم عبيد الله وبنوه من العلماء والعبياد أربعة آلاف رجل ليردّوهم عن الترضي عن الصحابة ، فاختاروا الموت ، فجا حبّذا لو كان رافضياً فقط ، ولكنه زنديق .

وقال القاضي عياض : سئل أبو محمد القيرواني والكثير من علماء المالكية عمن أكرهه بنو عبيد - يعني خلفاء مصر - على الدخول في دعوتهم أو يقتل ؟ قال يختار القتل ، ولا يعذر أحد في هذا الأمر ، كان [أول دخولهم] ⁽⁷⁰⁾ قبل أن يعرف أمرهم ⁽⁷¹⁾ وأما بعد فقد وجب الفرار ، فلا يعذر أحد بالخوف بعد إقامته ، لأن المقام في موضع يطلب من أهله تعطيل الشرائع لا يجوز ، وإنما أقام من أقام من الفقهاء مع المبانية لهم (لثلا يخلو بالمسلمين عدوهم فيفتنهم عن دينهم) ⁽⁷²⁾ .

وقال يوسف الرعيني : أجمع العلماء بالقيروان [على] أن حال بني عبيد حال المرتدين والزنادقة ، لِمَا أَظْهَرُوا من خلاف الشريعة .

وقال ابن خلكان ⁽⁷³⁾ : قد كانوا يدعون علم المغيبات وأخبارهم في ذلك مشهورة ، حتى أن العزيز صعد يوماً على المنبر فرأى ورقة فيها مكتوب :

[مخلع البسيط]

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحقاقة
ان كنت أعطيت علم غيب ⁽⁷⁴⁾ بين لنا كاتب البطاقة

وكتبت إليه امرأة رقعة فيها مكتوب بالذي أعز اليهود بمشأ ⁽⁷⁵⁾ / والنصارى بابن نسطور ⁽⁷⁶⁾ وأدّل المسلمين بك ، الا نظرت في أمري ، وكان قد ولي منشأ اليهودي عاملاً على الشام وابن نسطور النصراني على مصر اهـ ⁽⁷⁷⁾ .

(70) ساقطة في الأصول .

(71) في الأصول : « الأمر منهم » والمثبت من الخفاء ص 6 .

(72) في تاريخ الخلفاء : « لثلا تخلو للمسلمين حدودهم فيفتنهم عن دينهم » .

(73) النقل من تاريخ الخلفاء على لسان ابن خلكان ص 6 ، أنظر في ذلك : الوفيات 373/5 - 374 .

(74) في الأصول : « الغيب » والمثبت من تاريخ الخلفاء ص 6 .

(75) في تاريخ الخلفاء : « ميثا » والأصوب كما في النص اذ هو اسم معروف عند اليهود .

(76) في الأصول : « نسطور » والمثبت من تاريخ الخلفاء .

(77) تاريخ الخلفاء ص 5 - 6 .

وقيل الأبيات للحاكم بن العزيز المذكور ، ففي تاريخ الذهبي : أن الحاكم ادّعى علم الغيب في وقت ، فكان يقول فلان قال في بيته كذا وكذا ، وفعل كذا وكذا ، وأكل كذا وكذا ، وكان ذلك بانفاق اعتمده مع العجائز اللاتي تدخلن بيوت الأمراء وغيرهم ، ويُعرفونه بذلك ، فرفعت إليه رقعة فيها بالجور والظلم قد رضينا⁽⁷⁸⁾ إلى آخر البيتين ، فحين رآها سكت عن الكلام في المغيبات ، وكان هو وأسلافه بمصر يدعون الشرف ويقولون : نحن أولاد فاطمة وأبونا علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وكان الحاكم في كل سبعة أيام يقول ذلك على المنبر ، وكانت الرفاع ترفع إليه وهو على المنبر ، فرفعت إليه رقعة مكتوب فيها :

[رجز]

انا سمعنا نسبا منكرا	يتلى على المنبر في الجامع
إن كنت فيما قلت ⁽⁷⁹⁾ صادقا	فانسب لنا نفسك كالطائع ⁽⁸⁰⁾
أو كان حقا كلما تدعي	فاذكر أبا بعد الأب السابع ⁽⁸¹⁾
أو لا فدع الأنساب مستورة	وادخل بنا في النسب الواسع
فإن أنساب بني هاشم	يقصر عنها طمع الطامع

فرماها من يده ولم ينتسب فيها بعد ، وكان الحاكم الخبيث يعمل الحسبة بنفسه فيدور في الأسواق على حمار له فمن وجده غش في معيشته أمر عبدا أسود معه يفعل به الفاحشة العظمى ، وهذا أمر منكر لم يسبق إليه اهـ⁽⁸²⁾.

وقال في معالم / الايمان⁽⁸³⁾ : « فان قلت وهل يعذر أحد بالاكراه على الدخول في

[177/ب]

(78) ساقطة في ط .

(79) تدعي .

(80) هو الطائع الخليفة العباسي ، ووردت رواية أخرى .

وإن ترد تحقيق ما قلته فانسب لنا نفسك كالطائع

(81) رواية أخرى للبيت :

إن كنت فيما تدعي صادقا فاذكر أبا بعد الأب الرابع .

والأبيات وردت في وفيات الأعيان 9/5 - 10 في ترجمة العزيز بالله . وذكرها السيوطي في تاريخ الخلفاء ص 4 - 5 نقلاً عن ابن خلكان .

(82) تاريخ الخلفاء ص 6 .

(83) ما نقله عن معالم الايمان موجود في 265/2 في أواخر ترجمة أبي اسحاق بن البرذون .

مذهبهم؟ قلت: قال يوسف بن عبد الله الرُّعيني في كتابه: قال الشيوخ أبو محمد بن أبي زيد، وأبو القاسم بن شبلون، وأبو الحسن القاسبي، وأبو علي بن خلدون، وأبو محمد الضبي⁽⁸⁴⁾، وأبو بكر بن عذرة: لا يعذر أحد في ذلك، لأنه قام بعد علمه بكفرهم - وكفرهم ارتداد وزندقة - بخلاف غيرهم.

وقال الشيخ أبو القاسم بن الدَّهَّان: لأن كفرهم خالطه سحر، فن اتصف بهم⁽⁸⁵⁾ ونخالطهم خالطه السحر، والسحر كفر.

ولما حمل أهل طرابلس لبني عُبيد أظهرُوا أن يدخلوا في دينهم عند الإكراه ثم ردُّوا من الطريق سالمين، فقال ابن أبي زيد: هم كُفَّار لاعتقادهم ذلك.

قلت: الأقرب أنهم ليسوا بكفار، وإنما صرح أبو محمد بما ذكر، مبالغة لتنفير العامة لأن المطلوب سدُّ هذا الباب، وأما فيما بينهم وبين الله فما قلنا والله أعلم⁽⁸⁶⁾.

وقال أيضًا: ولم يزل أهل القيروان في جهاد مع الفرق الضالة والفئة المارقة، ولم يزل الشيخ الأوحِد أبو عثمان سعيد بن الحداد، وأبو محمد عبد الله بن اسحاق التَّبان، يناظران على مذهب أهل السنة ويرون ذلك من أعظم الجهاد حتى أحمد الله نارهم، وقلَّ عدُّهم، وظهر حزب الحق وأعلى الله كلمته والحمد لله رب العالمين.

قال⁽⁸⁷⁾: وكان أبو اسحاق إبراهيم بن حسن بن يحيى المعافري التونسي امتُحن

بسبب أنه «ورد عليه سؤال من مدينة / باغية⁽⁸⁸⁾ استفتى فيه، وكانت المسألة مسألة طلاق ومراجعة، وذكر السائل أن ولي النِّكاح كان من الفرقة المعروفة بأفريقية بالمشاركة وهم دعاة بني عبيد - فأجاب الشيخ أبو اسحاق - رحمه الله تعالى - أن هذه الفرقة على قسمين أحدهما كافر مباح الدِّم، والقسم الآخر وهم الذين يقولون بتفضيل علي بن أبي طالب على سائر الصحابة، لا يلزمهم القتل ولا يبطل نكاحهم، وأنكر عليه جميع فقهاء أفريقية بالقيروان وغيرها ذلك، واحتجوا عليه بجماعة من أهل الزُّهد والعلم والعبادة بالقيروان كانوا أشدَّ النَّاس مبيانة بالعداوة والتكفير لبني عبيد وأتباعهم، منهم أبو اسحاق

(84) في الأصول: «بن الطيبي» والمثبت من المعالم 265/2.

(85) في الأصول: «انضاف لهم» والمثبت من المعالم 265/2.

(86) معالم الايمان: 265/2.

(87) معالم الايمان 177/3.

(88) في الأصول: «باغية» والمثبت من معالم الايمان 177/3 وكتاب العبر، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

السبائي ، ومروان العابد ، وربيح القطان وأضرابهم ، وأرسلوا إليه أن يعاود النظر ، وأن يرجع عن هذا القول فأبى ذلك ، وانتهت القضية إلى المعز بن باديس (الذي كان سبياً في قطع مذهب الشيعة)⁽⁸⁹⁾ فجمع بعض الجمع عنده في المقصورة وناظره فأظهر الانابة إلى قولهم والرجوع ، ثم خلا بأصحابه فأنكروا عليه رجوعه إلى قولهم وأنه على الحق الذي لا يجب سواه ، وكان رأي الفقهاء سدّ هذا الباب للعمامة على هؤلاء الكفرة بني عبيد الزنادقة ، وأن الدّاخل في دعوتهم - وإن لم يقل بقولهم - كافر لتوليه الكفر ، فأظهر أبو اسحاق التّماردي على قوله وإنكار الرجوع عنه ، فأطلق الفقهاء الفتيا بسبب مقالته / هذه بالتّضليل والتّبديع ، وقال فيها الشعراء قصائد كثيرة تضمنت التّبرّي من أبي اسحاق ، وأنشدوا الشعراء والطلبة عند الفقهاء في دورهم (وجمعهم)⁽⁹⁰⁾ ، وأمر السّلطان بسجل في القضية من التبري من قوله ، وقيل فيه ما يعظم به أجره ، وأمر بقراءته يوم الجمعة على المنبر قبل الصّلاة مستهل صفر عام ثمان وثمانين وأربعمائة⁽⁹¹⁾ ثم أمر السّلطان باحضاره بالمقصورة في ذلك اليوم اثر الصّلاة ، وأحضر معه الفقهاء : أبا القاسم الليدي فقيه مشيخة الفقهاء وكبيرهم ، والفقيه أبا الحسن ، والقاضي أبا بكر بن أبي محمد بن أبي زيد خاصّة من بين سائر الفقهاء ، وكان هذان الفقهاء من أشدّ الناس في ذلك إلى مذهب الجماعة ، وحكم في المسألة الليدي ، فحكم أن يُقرّ بالتّوبة على المنبر بمشهد جميع النّاس وأن يقول : كنت ضالاًّ فيما رأيته ورجعت عن ذلك إلى مذهب الجماعة ، فاستعظم الأمر على المنبر وقال : ها أنا أقول هذا بينكم ، فساعدوه وقنعوا منه بقول ذلك بمحضر السّلطان والجماعة ، وأن يقول بمجلسه ويُشيّعه عنه ، وافترقوا على ذلك ، وحصلت على الشّيخ منه غضاضة فخرج في صبيحة يومه متوجّهاً إلى منستير الرّباط ، وهو المراد بقول من قال : خرج إلى قصر الرّباط ، ولا يحمل على ظاهره ، وهو قصر الرّباط بسوسة⁽⁹²⁾ . [وكان] ذلك يوم السبت الثاني من صفر من السنة المذكورة ، / وأنما خرج على الفور مُسَكِّناً للقضية ومُنْسِياً لها فتغيب بشخصه ثم عاد إلى القيروان . قال عياض : ولا امتراء عند كلّ منصف أن الحق فيما قاله أبو اسحاق ، ولا امتراء أن مخالفته أولاً لرأي أصحابه في حسم الباب لمصلحة العامة لحاج وأن رأي الجماعة كان

(89) زيادة عن معالم الايمان.

(90) زيادة عن معالم الايمان.

(91) كذا في المعالم وفي ط : «وثلاثين» 10 فيفري 1095 .

(92) ما يتعلق بفتوى أبي اسحاق التونسي ورد في ترجمته من معالم الايمان 177/3 - 179 (ط/2) .

أَسَدٌ للحال وأولى ، وفتواه هذه جرى على العلم وطريق الحكم ، ومع هذا فما نقصه هذا عند أهل التحقيق ولا حط منصبه عند أهل التوفيق .

ولما دخل عبيد⁽⁹³⁾ الله القيروان ، وخطب أول جمعة وجبلة بن حمود جالس عند المنبر فلما سمع⁽⁹⁴⁾ كفرهم قام قائماً وكشف عن رأسه حتى رآه الناس ، وخرج يمشي إلى آخر الجامع وهو يقول : قطعوها قطعهم الله ، فما حضرها أحد من أهل العلم بعد ذلك . وهو أول من تَبَّه على هذا⁽⁹⁵⁾ .

ولمَّا لعن الشيخ ابن الدُّبَاغ من ذكر من الشيعة ، ونقل كفرهم ورضيه ولم ينكره حسباً نقل في معالم الايمان ، قال الشيخ ابن ناجي : ما ذكره من لعنه لمن ذكر ، ونسبتهم بهذا إلى الكفر والزندقة ، قال العواني : أفرط في ذمهم في هذا الكتاب ، ثم أنه في كتابه المسمى « واسطة النظام في تواريخ ملوك الاسلام » ذكر ضد ذلك ، ووصفهم بأوصاف من تغيير المنكر والنهي عن شرب الخمر ، وبرأهم من المذام⁽⁹⁶⁾ كلها التي نسبت إليهم ونسبها لبعض دعائهم ، وانهم لما اتصل بهم ما اتصل من بعض دعائهم عاقبوه أشد العقوبة / على ذلك وتبرؤوا منهم ، وأن المنصور بالله اسماعيل بن القائم بن محمد بن عبيد الله المهدي كان محسناً لرعيته فصيح اللسان خطيباً مُنْصِفاً ، ولم يزل على الحالة الحسنة من العدل والعفو والحلم ، وأسقط الخراج عن الرعية حتى صَحَّت أحوالهم ، وكان قاضيه محمد بن أبي المنظور⁽⁹⁷⁾ في غاية الدين والورع والصَّلافة في الحق إلى أن مات .

فولي بعده عبد الله بن هشام القاضي فكان من أفضل الناس .

ولم يزل المنصور هذا شأنه من حفظ المسلمين وتولية أهل الورع والدين ومحبة⁽⁹⁸⁾ الفقهاء والصَّالحين . ولمَّا سار إلى الساحل مرَّ بقرية عيسى بن مسكين القاضي فصلَّى في مجلسه ركعتين تبركا به وأوصى العامل بحفظ القرية . هكذا ذكر ابن الدُّبَاغ في تأليفه اهـ .

(93) الثقل الموالي من ترجمة جبلة بن حمود في معالم الايمان 273/2 .

(94) في الأصول : « فسمع » .

(95) معالم الايمان 273/2 .

(96) في ت : « الذمام » .

(97) في الأصول : « بن أبي المنصور » .

(98) كذا في ت و ط ، وفي ش : « صحبة » .

قلت لا منافاة بين كلامي الشيخ ابن الدباغ - رحمه الله - فان العبيدين كثيرون منهم صريح الفسق ، ومنهم صريح الكفر ، ومنهم المستور ، فان من ثبت عنه سب الصحابة ولم يتب فاسق ، ومن ثبت عنه سب الأنبياء ولم يتب كافر ، ومن سلم من ذلك فهو مستور ، صالح في سياسته ، فاسق في اعتقاده الا من سلم ظاهراً وباطناً من الكفر والابتداع ، وقليل ما هم ، وقد تقدّم قول السيوطي أن أكثرهم زنادقة خارجون عن الاسلام منهم من أظهر سب الصحابة والأنبياء ومنهم من أباح الخمر ، ومنهم من أمر بالسجود له ، والخير منهم رافضي خبيث لئيم يأمر بسب الصحابة ، وأما اظهار العدل والانصاف من بعضهم وتولية قضاة الحق وفصاحة الخطبة فلا يدل على شيء ، فان أكثر الكفرة اذا استولوا على الخلق غلبة وأدخلوهم تحت حكمهم أمراً ونهياً فانقادوا لهم يظهرون العدل فيهم والانصاف سياسة لا ديانة وطاعة لله ، فكم ظهر من عدل في بعض أحكام فرعون ، وبعض الأكاسرة مع انكار الصانع أو دعوى الربوبية وقد يكون تمدينا من بعض النصارى مع صريح كفرهم الذي لا شك فيه .

[180/أ]

تأسيس المهديّة :

«وفي سنة ثلاث وثلاثمائة لخمس خلت من ذي القعدة⁽⁹⁹⁾ ابتدأ المهدي بناء المهديّة المدينة المشهورة فلذا نسبت إليه ، وعندما كمل بناؤها قال : الآن آمنت على الفاطميات»⁽¹⁰⁰⁾ «قال أبو اسحاق ابراهيم بن القاسم بن الرقيق في كتابه⁽¹⁰¹⁾ : خرج عبيد الله المهدي بنفسه في سنة ثلاثمائة إلى مدينة تونس فاجتاز على قرطاجنة وغيرها ، ومراً على جميع السواحل يرتاد موضعاً على ساحل البحر يتخذ فيه مدينة تحصّنه ، وتحصّن بنيه من بعده ، وقد كان عنده علم (حدثاني بقيام قائم)⁽¹⁰²⁾ على ذريته ، فأقام يلتبس ذلك مدّة ، فلم يجد موضعاً أحسن ولا أحصن من موضع المهديّة فبناها هنالك ، وجعلها دار مملكته . قال : وكان أول ما ابنتى منها سورها الغربي الذي في أبوابها ، وعندما وضع

(99) 11 ماي 916 م ، انظر رحلة التجاني ص 320 ، وانتقل إليها في شهر شوال من سنة ثمان وثلاثمائة فسكنها ، تاريخ الخلفاء الفاطميين ، المرجع السابق ص 209 .

(100) نقلاً عن التجاني بتصرف يسير .

(101) النقل من رحلة التجاني ص 320 .

(102) في الأصول : «حدثان بقائم» والمثبت من رحلة التجاني ص 321 .

أول حجر منه وهو حاضر أمر ناشبًا كان بين / يديه أن يوتر قوسه ويقف على ذلك [180/ب] الحجر ويرمي بسهمه ، ففعل الرّامي ذلك ، فانتهى السهم إلى المصلى ، ووقع قائمًا على نصله⁽¹⁰³⁾ ، فقال المهدي : إلى ذلك الموضع ينتهى صاحب الحمار - يعني أبا يزيد - فقد كان وصول أبي يزيد إلى ذلك الموضع ولم يتجاوزه .

قال معلم الفتیان⁽¹⁰⁴⁾ في تاريخه : وأمر المهدي بقياس مسافة هذه الرّمية فكانت مائتي ذراع وثلاثًا وثلاثين ذراعًا ، فقال المهدي : هذا منتهى ما نقيم المهدية في أيدنا من السنين ، قال : ولمّا تم بناء السور هنّا أولياؤه⁽¹⁰⁵⁾ بذلك ، فقال لهم : ان جميع ما ترون انما عميل لساعة واحدة يعني ساعة وصول أبي يزيد إلى المهدية - قال : وكان يقف على فرسه فيأمر الصّناع بما يصنعون ، [قال] وأمر بعمل باب الحديد للمدينة فجعل صفائح مُصمّنة من غير خشب ثم أثبتت فيها المسامير ، فبقيت تتقلّل ، فقال للصّناع : ما عندكم في هذا ، فقالوا : لا ندري ، فأمرهم بتسميرها كذلك ، ثم أمر بإيقاد النار تحت الباب كلّهُ حتى التهبّت واتّصلت المسامير بالصفائح فعادت كلها قطعة واحدة . ولمّا تمّ الباب على هذه الصفة أحب اختبار وزنه فكلهم أخبره أن لا سبيل إلى ذلك لفطر ثقله ، فأمرهم أن يضعوا أحد مصراعيه على ظهر سفينة ففعلوا ذلك ، ونظر إلى منتهى غوص السفينة في الماء ، ثم أنزل وشجّنت السفينة بالرّمْل والحجارة إلى أن / [181/أ] وصل منها ما وصل أولاً ، واستخرج الرّمْل والحجارة منها فوزنا على كرّات ، فكان وزن كل مصراع منهما مائة قنطار ، وفي كثير من نسخ المؤرخين ألف قنطار ، وكذا حكى أبو عبيد⁽¹⁰⁶⁾ في «المسالك»⁽¹⁰⁷⁾ ولمّا علموا قدره وحاولوا تحريكه⁽¹⁰⁸⁾ صعب عليهم فتحه واغلاقه ، فلم تكن المائة من الرجال تستطيع ذلك ، فأمر المهدي بأن يكون مداره على الرّجّاج ، فهان أمره وصار الرجل الواحد يتولّى منه ما كانت المائة تعجز عنه ، فعجب من هذا كله ومن فطنة المهدي [ونفوذ فكرته]⁽¹⁰⁹⁾ .

(103) في الأصول : «نعله» والمثبت من رحلة التجاني .

(104) النقل من الرحلة وتساءل حسن حسني عبد الوهاب محقق الرحلة : «لعله محرز بن خلف المعلم المتوفي سنة 413 هـ/ 1022 - 1023 م» .

(105) في توش : «ولايته» ، وفي ط : «ولائه» والمثبت من الرحلة .

(106) أبي عبيد الله ابن عبد العزيز البكري .

(107) المسالك والممالك .

(108) في الرحلة : «تركبه» .

(109) اضافة من الرحلة .

وأمر المهدي بحفر مرسى المهديّة وكان حجراً صلباً ، فحفر نقراً وجعله حصناً لمراكبه الحربية⁽¹¹⁰⁾ ، وأقام على قم هذا المرسى سلسلة من حديد ، يرفع أحد طرفيها عند دخول السفن ثم تعاد كما كانت تحصيناً للمرسى من طروء⁽¹¹¹⁾ مراكب النصارى⁽¹¹²⁾ ، وابنتى دار الصنّاعة ، وهي من عجائب الدنيا ، ثم شرع في حفر الأهراء بداخل المدينة ، وبني الجباب⁽¹¹³⁾ والمصانع ، واختزن الأهراء بالطعام ، وملأ الجباب⁽¹¹³⁾ بالماء ، ثم أمر بحفظها ولم⁽¹¹⁴⁾ تفتح إلا في أيام أبي يزيد ، ولولا ذلك لما أطاقوا الحصار ، وكان اتساع المهديّة في أول بنائها من الشمال⁽¹¹⁵⁾ إلى الجنوب⁽¹¹⁶⁾ قدر غلوة سهم فاستصغرها المهدي عند ذلك فردم من البحر مقدارها وأدخله في المدينة فأتسعت ، والجامع الأعظم والدار المعروفة في القديم بدار المحاسبات من جملة ما رُدم من البحر .

وأخذ عبيد الله / في بناء قصوره بها فبنى القصر الكبير المعروف الذي كلّله بطيقان الذهب ، وبني ابنه أبو القاسم بازائه قصره المعروف به [أيضاً] وبينهما فسحة ، وبشرقي قصر عبيد الله حيث كان هي دار الصنّاعة [الآن] .

[181/ب]

ولما كمل سور البلد⁽¹¹⁷⁾ وقصورها أراد عبيد الله الانتقال، إليها فقتل ذلك على أوليائه وجنده ، وصعب عليهم استبدالهم بالموضع الذي استوطنوه ، فقال لهم : ان صعب عليكم ذلك فنحن ننتقل ونترككم هاهنا ونجري عليكم الأرزاق والصّلات ، وعمّا قليل ستنتقلون إلينا مسارعين . قال المؤرخون : فلم يكن بعد ذلك إلاّ زمان يسير حتى أرسل الله السّماء بأمطار غزيرة أخرت مساكن رِقّادة وأهدمت دورها وأهلكت خلقاً عظيماً من

(110) في الأصول : «مجرية» .

(111) في الرحلة : «دخول» .

(112) قال البكري في خصوص مرسى المهديّة : «ومرساها منقور في حجر صلد يسع ثلاثين مركباً على طرفي المرسى برجان بينهما سلسلة من حديد فإذا أريد ادخال سفينة فيه أرسل حراس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة ثم مدوها كما كانت بعد ذلك لثلا يطرقها مراكب الروم» كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من المسالك) تحقيق دي سلان (De Slane) باريس 1965 ص 30 .

(113) في الرحلة : «الجباب» وعند مقديش «المصانع» والجباب لها نفس المعنى ، وكذلك كانت تطلق كلمة المصانع على صهاريج الناصرية بصفاقس ، واستعمل البكري كلمة «مواجهل» في نفس المعنى .

(114) في الأصول : «وأن لا» والمثبت من الرحلة ص 322 .

(115) في الرحلة : «الجوف» .

(116) في الرحلة : «القبلة» .

(117) في الرحلة : «المدينة» . وفي لهجة صفاقس وكما سيكتبها المؤلف في عدة مواضع من هذا الكتاب : «البلاد» وتعني المدينة .

أهلها ، فخرج الناس في الأخبية ، وكتبوا إلى المهدي يسألونه الانتقال إلى المهديّة ، فأجابهم إلى ذلك ، فانتقلوا إليها وتمّت عمارتها .

وابتني لعامة الناس مدينة أخرى سمّاها زُوَيْلَة ، وبينهما غلّوة سهم ، وجعل بها الأسواق والفنادق وأدار بها خنادق مُتّسعة تجتمع بها مياه الأمطار ، فكانت كالرّيض لمدينة المهديّة ، ولَمّا جاء المعز⁽¹¹⁸⁾ بن باديس جعل عليها سوراً لما دخل العرب افريقية⁽¹¹⁹⁾ سنة أربع وأربعين وأربعمائة⁽¹²⁰⁾ ، وقد خربت هذه المدينة فلا أثر لها الآن ، (فهو اسم بلا رسم)⁽¹²¹⁾ وكان بخارجها الحمى المعروف بحمى زويلة كله جَنّات وبساتين بسائر الثمار / وأنواع الفواكه فأفسدته العرب .

وأقام المهدي ساكناً بالمهديّة بقية عمره حتى مات بها (وقيل بقرادة)⁽¹²²⁾ سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة⁽¹²³⁾ .

القائم وثورة أبي يزيد :

فولي بعده ولده محمّد أبو القاسم ولُقّب «القائم» فأخفى موت أبيه سنة⁽¹²⁴⁾ حتى أحكم أمره ، وكان شهماً ذا بطش ، غزا جنوة فافتتحها عنوة⁽¹²⁵⁾ ، فكان فتحاً جليلاً ، وفي آخر أيامه ابتلي بأبي يزيد مَخْلَد بن كيداد النُّكَاري ، كان رجلاً من الإباضية يظهر الزُّهد والقيام غضباً لله تعالى ، ولا يركب غير حمار ولا يلبس غير الصُّوف تصنعاً واطهاراً للتَّنسُّك والصِّلَاح مع تمسُّكه بأقبح البدع ، وشاع جميع أمره من بلاد افريقية ، ولَمّا سمع القائم بتوجهه إلى باجة وجّه خادمه بُشْرَى الصَّقْلِي⁽¹²⁶⁾ ليبادره «بدخول»⁽¹²⁷⁾ باجة

(118) في الأصول : «العزير» والمثبت من الرحلة ص 324 .

(119) في رحلة التجاني : «أرضه» .

(120) 1052 - 1053 م .

(121) اضافة من المؤلف .

(122) اضافة من المؤلف .

(123) 933 - 934 م ينتهي النقل من الرحلة 320 - 324 .

(124) الحلال السندسية 26/2 .

(125) نفس المرجع .

(126) في الأصول : «بشريا الصقلي» والمثبت من الرحلة ص 24 .

(127) يرجع إلى النقل من الرحلة ص 24 .

فيضبطها ويعسكر بها ، فها وصل أبو يزيد إلّا وقد وجد بشرى⁽¹²⁶⁾ فاقتتلا فانهمز أبو يزيد هزيمة فاحشة ، فلمّا رأى أبو يزيد ما حلّ به نزل عن فرسه وركب حماره الأشهب وقال لمن بقي معه : هذه ليست حال من يريد الهروب بل حال من يطلب الموت [ثم] خالف بشرى⁽¹²⁶⁾ إلى أنحيته فجازها ، فعلم بشرى بذلك ، فأدركه رعب فولى منهزماً وتبعه أصحاب أبي يزيد يأسرون ويقتلون ، ووصل بشرى إلى تونس منهزماً ودخل أبو يزيد باجة بالسيف ، ثم خرج بشرى من تونس بعد أن ولى عليهم والياً من قبله ، وسار حتى وصل سوسة ، فلمّا علم القائم بالهزيمة أمده بالجيوش والأموال وأمره / أن يستعد⁽¹²⁸⁾ للقاء أبي يزيد ثانية ، فكتب أهل تونس لأبي يزيد يلتمسون تأمينه فأمنهم ، وخرج بشرى من سوسة فوصل إلى المرصد⁽¹²⁹⁾ [وهي] قرية كانت قرب المنارة ، فلمّا علم أبو يزيد وجهه للقاءه أيوب⁽¹³⁰⁾ بن خيران ، فوصل إلى المرصد فتقهقر بشرى إلى اهريقيلة فتحيّز بسور القلعة ، ولحقه أيوب فالتقيا فانهمز أيوب وقتل من أصحابه ألوف وأسّر منهم مئون فوجههم بشرى إلى المهدية فقتلهم العامة بالعصي والحجارة ، وانقلب أيوب إلى أبي يزيد منهزماً فسأه ذلك ورحل بنفسه قاصداً بشرى فوجده انصرف إلى المهدية ، فوقف على المعترك وترحم⁽¹³¹⁾ على قتلاه وأمر بمواراتهم⁽¹³²⁾ .

ثم توجه إلى القيروان فلحقها وجهه مستوية⁽¹³³⁾ النكارى إلى تونس لما بلغه من مخالفتهم عليه بعدما كانوا دخلوا في طاعته فعلم بذلك القائم فوجه عمار بن علي بن الحسين ليسبقه إليها فها قرب إليها إلّا وقد علم أن مستوية⁽¹³³⁾ قد دخلها وقتل كثيراً من أهلها وأخرب كثيراً من مساجدها فعزم على الرجوع فخرج إليه مستوية⁽¹³³⁾ فيمن معه من النكارية فالتقوا بصلتان⁽¹³⁴⁾ قرب سليمان « فانهمز عمار بن علي والكتاميون هزيمة شنيعة ، وقتل منهم جماعة ، وحال الليل بينهما ، فلجأ عمّار إلى جبل الرصاص ،

(128) في الأصول كما في بعض أصول الرحلة : « يعتد » والمثبت من محقق الرحلة ص 25 .

(129) هو مرصد شريك من طرف الجزيرة وطرف الجزيرة المذكور في النص هو بدون شك الطرف الغربي أي في جهة بئر بورقية ، (المصدر السالف ، تعليق 77) المحقق .

(130) في الأصول : « أبا أيوب » والمثبت من الرحلة ص 25 وكتاب العبر 89/4 ، وهو أيوب بن خيران الزويلي أبو سليمان ، وهو رجل كثير الش . من مزاة .

(131) في الأصول « متأسفاً » والمثبت من الرحلة ص 25 .

(132) الرحلة : ص 24 - 25 .

(133) في الأصول : « مستاوية » والمثبت من الحلل 27/2 والرحلة ص 22 .

(134) عن واقعة صلتان انظر الحلل السندسية 27/2 .

وامتنع ليلته تلك وأصبح مرتحلًا فأتبعه مستوية⁽¹³³⁾ بجنوده ، فالتقوا ثانية فأنهزم النكارة / [183/أ]
وقتل بشر⁽¹³⁵⁾ كثير منهم وجرح مستوية⁽¹³³⁾ .

وبلغ ذلك أهل تونس فأخرجوا من كان عندهم من النكارة ، وقتلوا كثيرًا منهم ، ولم تزل الحرب بين عساكر القائم وأبي يزيد سجالا مرة لهذا وأخرى للآخر⁽¹³⁶⁾ ، وآخر الأمر استعلى أبو يزيد على القائم واحتوى على كثير من البلاد ، واجتمع عليه أكثر العباد ، وقام معه جماعة القيروان فزحف بجنوده نحو المهديّة سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة⁽¹³⁷⁾ فعلم⁽¹³⁸⁾ القائم بذلك فأمر بجفر خندق حول المهديّة وزويلة ، ووصل أبو يزيد في جيوشه فأحاط بالمهديّة وعسكر بخربة جميل⁽¹³⁹⁾ على أميال قريبة من المهديّة ، فكانت خيله تصل إلى أرباضها ، فتقتل وتنهب ، فلجأ جميع الناس إلى المهديّة ، وأخلوا أرباضها . قال الشيخ أبو الحسن القاسبي : « وأبصر القائم ذات يوم غرة من أبي يزيد لتفرق أكثر جيشه للنهب فأخرج طائفة من جيشه الكتامين وغيرهم فقصدوا أبا يزيد ، وسبق الخبر إلى أبي يزيد بذلك ، فوافق ذلك وصول ابنه الفضل يجمع عظيم من ضريسة ، فأمرهم بلقائهم وأن يكفّ عن قتالهم ما كفوا عنه ، فان أبوا الا قتاله وجه إليه من يعلمه بذلك ، فالتقوا بسوق الأحد وهو موضع بين سور المهديّة ومعسكر أبي يزيد وسطا ، فأبى الكتاميون الا قتال فضل ، فوجّه إلى أبيه يعلمه بذلك ، فركب أبو يزيد من حينه يجمع من معه فوافاهم وهم يقتتلون وقد هزم ابنه فضل وقتل من أصحابه جماعة ، فلما / رآه الكتاميون انهزموا من غير قتال ولجأوا إلى المهديّة فدخلوا [183/ب] إليها .

ووصل أبو يزيد في أثرهم إلى أن أشرف على المهديّة ، فأحب نقل مآربه⁽¹⁴⁰⁾ إلى موضعه ذلك فأشار عليه أصحابه بالرجوع إلى معسكره وأن تكون اقامته به إلى أن

(135) في الأصول : « بشرى » وفي الحلل : « خلق » ، والمثبت من الرحلة ص 23 .

(136) انظر كتاب العبر 89/4 .

(137) 944 - 945 م .

(138) النقل الموالي من رحلة التجاني ص 325 .

(139) كذا في رحلة التجاني ص 325 ، وهي على خمسة عشر ميلاً من المهديّة ، وفي تاريخ الخلفاء من كتاب عيون الأخبار : « خربة جميلة » ص 304 ، وهي غير مذكورة في المصادر الأخرى وقال محمد العلوي : « ويبدو أن التجاني والداعي ادريس يستقيان من منبع واحد ، وربما استخدم ابن الأثير أيضًا هذا المصدر المفقود » أنظر هامش 136 ص 304 من تاريخ الخلفاء .

(140) في الرحلة : « فازاته » .

يستقصي الأمور فرجع إليه وأقام هنالك أياماً ، ثم انتقل منه وزحف إلى المهديّة فوصل إلى خندقها واقتحم⁽¹⁴¹⁾ الماء بمن معه ، فوصل الماء إلى صدور خيلهم وجيوش القائم في ذلك كله متقهرة عنه ، ووصل أبو يزيد بنفسه في تلك الخطرة⁽¹⁴²⁾ إلى مصلى المهديّة فلم يبق بينه وبين المهديّة إلاّ رمية سهم حسبما أنذر به المهدي عند بناء سورها ، فلمّا رأى الناس ذلك لم يشكّوا في تغلبه على المهديّة فاجتمعوا على القائم وعظموا له⁽¹⁴³⁾ الأمر وسألوه الخروج إلى أبي يزيد فقال لهم : انه قد بلغ إلى أقصى غايته ولن يتجاوزوه ولينجزن الله وعده ، ثم قال [لبعض] من بين يديه : اصعد إلى السور فاذا رأيت أبا يزيد انتقل عن مكانه من المصلى فأشر إلينا بإشارة نعرف ذلك بها ففعل الرجل ما أمر به ، فقال لهم القائم : أبشروا فلن يعود أبو يزيد إلى مكانه ذلك أبداً ، وانتقل أبو يزيد إلى الموضع المعروف «بِترنوط» وهو على خمسة أميال من المهديّة فعسكر هنالك ، واتّصل حصاره لها فقتل بين الفريقين في ذلك على توالي الأيام أم لا تحصى أكثرها من جيوش القائم . وذكر البكري [أن]⁽¹⁴⁴⁾ في كتاب الحدّثان : ويل لأهل السواد⁽¹⁴⁵⁾ ، / من محلة ابن كيداد» ويقال من مخلد بن كيداد⁽¹⁴⁶⁾.

[184/أ]

ولمّا طال على جيش⁽¹⁴⁷⁾ أبي يزيد المقام وشموا التغرب على بلادهم وتحققوا حصانة المهديّة [وامتناعها] وذلك في شهر صفر سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة⁽¹⁴⁸⁾ انفصلوا عن أبي يزيد بأجمعهم فلم يبق معه إلاّ طوائف من هؤارة وزناتة ، فأقلع عن المهديّة ، ومات القائم في آخر هذه السنة وأبو يزيد محاصر لسوسة⁽¹⁴⁹⁾ .

وسبب محاصرته لها أنها امتنعت منه سنة⁽¹⁵⁰⁾ اثنين وثلاثين وثلاثمائة⁽¹⁵¹⁾ فلم يزل

(141) كذا في ط والرحلة ، وفي ت وش : «لجمعهم» .

(142) في ش : «حضرة» والمثبت من الرحلة ص 326 .

(143) في ش : «عليه» والمثبت من الرحلة .

(144) النقل من الرحلة وفي الأصول : «وذكر البكري في كتاب الحدّثان» مما يوهّم أن للبكري كتاب الحدّثان ، والاضافة من الرحلة لأن الصحيح أن البكري نقل عن كتب الحدّثان .

(145) أهل السواد : «أهل الساحل» الرحلة نقلاً عن البكري ص 326 .

(146) انظر الكتاب المغرب من المسالك والممالك المرجع السابق ص 30 .

(147) في الرحلة : «جند» .

(148) سبتمبر 945 م .

(149) الرحلة 325 - 327 .

(150) ينتقل إلى صفحة 27 من الرحلة . (151) 943 - 944 م .

معها حتى تغلب عليها ، ففعل بهم الأفعال الشنيعة من قتل الرجال وسي النساء وقطع الأعضاء وبقر البطون ، فلمّا ارتحل عنهم خالفوا عليه ووجهوا عامله إليه فلمّا يئس من المهديّة رجع⁽¹⁵²⁾ إلى حصار سوسة حصاراً شديداً ، فكان يقاتلها كل يوم ، فيوم له ويوم عليه⁽¹⁵³⁾ .

المنصور وفشل ثورة أبي يزيد :

فلمّا مات القائم⁽¹⁵⁴⁾ وولي ابنه اسماعيل الملقب « بالمنصور » بادر بانقاذ جيش بري وجيش بحري إلى أبي يزيد⁽¹⁵⁵⁾ بعد أن أحبّ النهوض بنفسه ففنه أولياؤه [منه] فتوجهت جيوشه إلى سوسة ، وكان ما أخذه التحصيل من جند أبي يزيد المحاصرين لها مائة ألف خصّ ، يسكن الخص الواحد والاثنان والثلاثة والأربعة فصاعداً ، وكان جيش المنصور البري أربعمائة فارس لا تزيد على ذلك ، فهجموا على جيش أبي يزيد في معسكره في يوم كثير الغيم ، وأطلقوا النار في مجتمع حطب كان هناك فتطاير شرارها إلى أخصاص⁽¹⁵⁶⁾ أبي يزيد / فأظلم الجو ، وتخاذل البربر ، وأسلموا أبا يزيد ، فقتل من [184/ب] أتباعه أم كثيرة ، وتوجه أبو يزيد منزماً إلى القيروان فلم يقبلوه ، وقتلوا جماعة من أصحابه خارج القيروان ، فهرب عنهم .

وخرج المنصور من المهديّة في طلبه بشجاعة قوية ، قال المؤرخون : فلم يزل يهزمه ويقتني أثره إلى أن أخذه جريحاً في جبل كيّانة⁽¹⁵⁷⁾ وذلك في شهر محرم سنة ست وثلاثين⁽¹⁵⁸⁾ ، فسلخ⁽¹⁵⁹⁾ جلده وجعل فيه ما ملأه حتى عاد صورة هائلة فطيف به من

(152) سنة 333 هـ/ 944 - 945 م .

(153) في الرحلة : «قرة له ومرة عليه» ص 28 انتهى نقله فيما بين صفحتي 27 - 28 .

(154) النقل من الرحلة ص 327 .

(155) عن حملتي المنصور لتخليص سوسة انظر أيضاً تاريخ الخلفاء الفاطميين المرجع السابق ص 352 - 356 .

(156) كذا في الأصول والرحلة وفي تاريخ الخلفاء : «الخصوص» ص 354 .

(157) في الأصول وفي بعض أصول الرحلة : «كتامة» . والمثبت من محقق الرحلة انظر هامش 1 ص 327 .

(158) جويلية 947 م .

(159) سلخ جلده بعد أن مات من أثر جراحه .

جبال صنهاجة بالمغرب (الأوسط إلى المهدية) ⁽¹⁶⁰⁾ ثم صُلب بها إلى أن مَرَّقته الرِّيح بعد أن مَرَّق شمل العالم في البلاد ، وكان يبيع دم أهل القبلة ويستحل الفروج ويفعل في الاسلام أشدَّ مما يفعل في دار الحرب» ⁽¹⁶¹⁾.

قال التجاني في رحلته ⁽¹⁶²⁾ : «ومن قرية الزَّارات ⁽¹⁶³⁾ كان ابتداء سيرنا بسلوك

منازل البربر المستمسكين بمذهب الخوارج المستحلين لدماء المسلمين وأموالهم ، وهذا المذهب هو الغالب على جميع البقاع التي بين قابس وطرابلس وخصوصًا أهل السَّاحل منهم ، فهم بهذا المذهب المذموم يتقربون ببيع ⁽¹⁶⁴⁾ من يمر بهم من المسلمين للروم فتجد النَّاس لأجل ذلك يتحامون الانفراد في قراهم ويتجنبون ايواءهم وقراهم ، وهم من بقايا الشِرْذمة الضَّالة التي قام بها أبو يزيد محمَّد بن كَيْداد في إفريقية ، فانه لما أظفر الله

[185/أ]

به وأراح البلاد والعباد منه تفرَّقت أتباعه في الأفطار فسكنت هذه الشِرْذمة / هذه البقاع ، وسكنت طائفة أخرى يجبال بجاية وقسنطينة وما والاها إلى بونة ⁽¹⁶⁵⁾ ، ومالت طائفة أخرى إلى بلاد الجريد فاستوطنت نفطة ونفزاوة وما والاها من البلاد» اهـ ⁽¹⁶⁶⁾.

قلت : وقد طهر الله من هذا المذهب نفزاوة وكثيرًا من البلاد ، وربنا يحسن خلاص الباقيين من أسر هذه البدعة ، وأشدَّ الناس به تعلقًا في هذه الأعصار جبل نفوسة ويسمونه اليوم «فساطو» لتعاصيه عن أحكام سلاطين تونس وطرابلس لبعده عنهما وشدة حصانته ، وما ذكر من بيع المسلمين للكفار لم يبق ذلك وقطع الله آثار الكفر والله الحمد ، وكذلك استحلال الفروج ودماء المسلمين ، وربنا يطهر المسلمين من هذه البدعة وشنائعها .

ثم ان المنصور بنى موضع الوقعة مدينة سمَّاها المنصورية وهي صَبْرَة التي كانت ملاصقة للقيروان ، فاستوطنها وبنى بها قصرًا ، ثم خرج في شهر رمضان سنة احدى وأربعين من المنصورية إلى جلولا يتنزَّه بها ومعه حظية كان مُغرَمًا بها ، فأمطر الله عليهم

(160) في الأصول وفي بعض أصول الرحلة : «إلى وسط المهدية» والمثبت من محقق الرحلة انظر هامش 1 ص 328 .

(161) انتهى نقله من الرحلة ص 327 - 328 .

(162) النقل من الرحلة ص 119 بشيء من التصرف .

(163) في الأصول : «زواره» والمثبت من الرحلة ، وقد تكلم عنها التجاني فيما سبق من الكلام الذي نقله مقديش .

(164) في الأصول : «يبيعون» والمثبت من الرحلة .

(165) في الأصول : «من جبل بجاية» والمثبت من الرحلة .

(166) انتهى نقله من الرحلة 119 - 120 .

بردًا كثيرًا وسلَّط عليهم ريحًا عظيمًا فأخرج منها إلى المنصورية فاشتد عليهم البرد فأوهى جسمه ومات أكثر من معه ووصل إلى المنصورية فاعتل بها ، ومات (167) يوم الجمعة آخر شوال سنة احدى وأربعين وثلاثمائة (168) ، ودفن بالمهدية ، ومولده بالقيروان سنة اثنتين وثلاثمائة (169) ، فكانت مدة ملكه سبع (170) / سنين وستة أيام.

[185/ب]

المعز لدين الله وانتقال الفاطميين إلى مصر.

وقام بعده ولده أبو تميم معذ الملقب «بالمعز لدين الله» وهو واسطة عقدهم. «كان ببيع (171) بولاية العهد في حياة أبيه المنصور (172) ، ثم جُدِّدت له البيعة بعد وفاة أبيه في التاريخ المذكور لوفاة أبيه ، ودبَّر الأمور وساسها وأجراها على قانون السياسة إلى يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة احدى وأربعين وثلاثمائة (173). فجلس يومئذ على سرير ملكه (174) ، ودخل عليه الخاصة وكثير من العامة ، وسلَّموا عليه بالخلافة ، وتسمَّى «بالمُعزِّ» ولم يظهر على أبيه حزنًا.

ثم خرج إلى بلاد افرقية يطوف فيها ، ليمهِّد [قواعدها] (175) ويقرر أسبابها ، فانقاد له جميع العباد ، في سائر البلاد (176) ودخلوا تحت طاعته (177) ، وعقد لغلमानه

(167) قال ابن خلدون : «أصابه الجهد من مطر وثلج تجلَّد على ملاقاته ، ودخل على أثره الحمام فبغت حرارته ، ولازمه السهر فمات» العبر 95/4.

(168) كذا في تاريخ الخلفاء الفاطميين ، 19 مارس 953 ، وفي كتاب العبر : «ثم توفي المنصور سلخ رمضان سنة احدى وأربعين» 95/4.

(169) 914 - 915 م.

(170) في الأصول : «تسع» وهو مخالف للحقيقة اذ كانت خلافته من سنة 334 هـ إلى سنة 341 هـ وأثبت ابن خلدون : «وتوفي لسبع سنين من خلافته» 95/4 ، والمختصر : 99/2.

(171) النقل من ترجمة المعزَّ العبيدي في الوفيات 225/5 بتصرف.

(172) انظر أيضًا تاريخ الخلفاء الفاطميين.

(173) 25 أبريل 953 م.

(174) كتم المعزَّ وفاة أبيه المنصور شهرًا وعشرة أيام. تاريخ الخلفاء الفاطميين ص 541.

(175) اضافة من الوفيات.

(176) في الوفيات : «فانقاد له العصاة من أهل تلك البلاد».

(177) انظر كتاب العبر 96/4.

وأتباعه الأعمال واستنوب⁽¹⁷⁸⁾ لكل ناحية من يعلم كفايته وشهامته ، وضّم إلى كل واحد منهم جمعًا كثيرًا من الجند وأرباب السّلاح .

ثم جَهّز أبا الحسن جوهر⁽¹⁷⁹⁾ القائد ، ومعه جيش كثير⁽¹⁸⁰⁾ لفتح ما استعصى عليه من بلاد المغرب ، فسار إلى فاس ، ثم منها إلى سجلماسة ففتحها ، ثم توجه إلى البحر المحيط وصاد من سمكه وجعله في قلال الماء ، وأرسله إلى المعزّ ، ثم رجع إلى المعزّ⁽¹⁸¹⁾ ومعه صاحب فاس [أحمد بن بكر]⁽¹⁸²⁾ وصاحب سجلماسة [ابن واسول]⁽¹⁸³⁾ أسيرين في قفصي⁽¹⁸⁴⁾ حديد ، وما رجع [إلى المعزّ] حتى وطّد له⁽¹⁸⁵⁾ البلاد (وطوّع العباد من باب المهديّة إلى البحر المحيط ، من أقصى المغرب / وإلى أعمال مصر من المشرق)⁽¹⁸⁶⁾ . ولم يبق بلد من هذه البلاد إلّا وقد أقيمت فيها دعوته (وخطبت في جميعها خطبته)⁽¹⁸⁷⁾ إلّا مدينة سبتة ، فانها بقيت لبني أميّة أصحاب الأندلس .

[186/أ]

ولمّا وصل الخبر إلى المعزّ بموت كافور الإخشيدي صاحب مصر (واشتغال بني العباس بقتال الديلم)⁽¹⁸⁸⁾ تقدم المعزّ إلى القائد جوهر ليتجهز إلى الخروج إلى مصر ، فخرج أولاً إلى جهة المغرب لاصلاح أموره⁽¹⁸⁹⁾ ، وكان معه جيش عظيم ، وجمع قبائل العرب الذين يتوجه بهم إلى مصر ، وجبى القطائع التي كانت على البربر ، فكانت خمسمائة ألف دينار .

(178) في الرحلة : «استنوب» .

(179) عن ترجمة جوهر انظر الوفيات 375/1 - 380 وتاريخ الخلفاء الفاطميين ص 604 .

(180) في الوفيات «كثيف» .

(181) في الأصول : «المغرب» والمثبت من الوفيات .

(182) اضافة من كتاب العبر للتوضيح .

(183) اضافة من كتاب العبر للتوضيح .

(184) انظر كتاب العبر 98/4 وفي تاريخ الخلفاء الفاطميين : أن المعز اخترع لهما قفصين تفنن في صنعهما لعرض

الأسيرين على الرعايا ، ص 613 .

(185) في الأصول : «ولم» والمثبت من الوفيات .

(186) في الوفيات : «وحكم على أهل الزنغ والعناد من باب افريقية إلى البحر المحيط في جهة الغرب ، وفي جهة

الشرق من باب افريقية إلى أعمال مصر» 225/5 .

(187) في الوفيات : «وخطب له في جمعته وجماعته» .

(188) اضافة من المؤلف عما هو موجود بالوفيات .

(189) في كتاب العبر : «لحشد كتامة ... وذلك سنة خمس وخمسين» 99/4 .

وخرج المعزّ بنفسه في الشتاء إلى المهديّة فأخرج من قصور آبائه خمسمائة حمل دنانير وغيرها ، وعاد إلى قصره .

ولمّا عاد جوهر بالأموال والرجال ، وكان قدومه على المعزّ يوم الأحد لثلاث بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة⁽¹⁹⁰⁾ ، أمره المعزّ بالخروج إلى مصر « فخرج⁽¹⁹¹⁾ من افريقية يوم السبت رابع عشر ربيع الأول من السنة المذكورة » ومعه⁽¹⁹²⁾ أصناف القبائل فأنفق المعزّ على هذا العسكر المسير صحبته أموالاً كثيرة ، فأعطى من ألف دينار إلى عشرين دينار وغمر الناس بالعطاء ، وتصرفوا في القيروان في شراء جميع حوائجهم ، ورحلوا ومعه ألف حمل من المال والسلاح ، [ومن] الخيل والعدد ما لا يوصف ، وكان بمصر في تلك السنة غلاء عظيم ووباء ، حتى مات من مصر وأعمالها / في تلك المدة ستائة ألف إنسان على ما قيل .

فانتهى جوهر بمن معه إلى مصر « فتسلمها⁽¹⁹³⁾ يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان السنة المذكورة⁽¹⁹⁴⁾ ، فصعد المنبر يوم الجمعة ودعا لمولاه المعزّ⁽¹⁹⁵⁾ وهو بافريقية ، « ولمّا كان⁽¹⁹⁶⁾ منتصف رمضان من السنة المذكورة ، وصلت البشائر إلى المعزّ بفتح الديار المصرية ، ودخول عساكره إليها ، ثم وصلته النجب بعد ذلك تخبره بصورة الفتح . » فأقام⁽¹⁹⁷⁾ جوهر بمصر نافذ الأمر ، [وسرّ عسكرياً إلى دمشق وغزاها فملكها]⁽¹⁹⁸⁾ ، وبنى القاهرة⁽¹⁹⁹⁾ باذن سيّده ، وانما سُمّيت القاهرة لأنه أراد وضع أساسها عند طالع مُعين لتكون لدرية سيّده لآخر الدّهر ، فحفر الأرض لوضع الأساس فعمل أحجار الأساس لجماعة ، وجعل لهم حبالاً مُتصلاً بعضها ببعض ، دائرة بدور حفر الأساس ، وجعل في الحبال أجراساً ، وأمر حملة الأحجار برميها اذا سمعوا صوت

(190) 21 ديسمبر 968 م.

(191) النقل من ترجمة جوهر الصقلي بالوفيات 375/1 .

(192) يرجع إلى النقل من ترجمة المعز العبيدي 226/5 .

(193) يرجع إلى النقل من ترجمة جوهر الوفيات 375/1 .

(194) جويلية 969 م.

(195) في الوفيات : « بالجامع العتيق » وهو جامع عمرو بالفسطاط ، أنظر تاريخ الخلفاء الفاطميين 685 .

(196) يرجع إلى النقل من ترجمة المعز العبيدي 226/5 .

(197) يرجع إلى النقل من ترجمة جوهر الوفيات 376/1 .

(198) إضافة من الوفيات .

(199) الوفيات 224/5 - 226 و 375/1 - 376 .

الأجراس وقعد⁽²⁰⁰⁾ يرصد استحقاق الرمي ليحرك لهم الأجراس ليرموا الحجارة ، فخطر غراب على تلك الجبال فتحركت الجبال بالأجراس فصوتت ، فسمعها حملة الأحجار فحسبوا أن الذي يرصد الطالع هو الذي حركها فرموا [الأحجار]⁽²⁰¹⁾ قبل [ظهور]⁽²⁰¹⁾ الطالع المقصود ، وكان الطالع وقت رمي الأساس⁽²⁰²⁾ نجم يسمى القاهر فسميت القاهرة ، فهي إلى الآن تقهر المعتدين والجبابرة ولو ساعدتهم بعض الأيام فلا بد من دائرة السوء عليهم . ثم صارت / كتبه ترد⁽²⁰³⁾ إلى المعز باستدعائه إلى مصر ، ثم أخبره بانتظام الحال بمصر والشام⁽²⁰⁴⁾ والحجاز ، واقامة الدعوة له بهذه المواضع ، فسر المعز بذلك سرورا عظيما ، ولما تقررت قواعده بالذيار المصرية استخلف على افرقية بلقين بن زيري بن مناد الصنهاجي⁽²⁰⁵⁾ ، وخرج المعز متوجها إلى مصر بأموال جلييلة المقدار ، ورجال عظيمة الأخطار ، وكان خروجه من المنصورة - دار ملكه اذ ذاك - يوم الاثنين ، ثمان بقين من شوال سنة احدى وستين وثلاثمائة⁽²⁰⁶⁾ ، ولم يزل في طريقه يقيم بعض الأوقات في بعض البلاد أياما ، ويحذ السير في بعضها ، وكان اجتيازه على برقة ، ودخل الاسكندرية لست بقين من شعبان⁽²⁰⁷⁾ ، فدخل الحمام وقدم عليه بها قاضي مصر أبو طاهر محمد بن أحمد ، وأعيان أهل البلاد ، وسلموا عليه وجلس لهم عند المنارة ، وخطبهم بخطاب طويل يخبرهم فيه أنه لم يرد دخول مصر زيادة في ملكه ولا مال ، وانما أراد اقامة الحق والحج والجهاد ، وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة ، ويعمل بما أمره به جدّه عليه السلام ووعظهم وأطال حتى بكى بعض الحاضرين ، وخلع على القاضي وبعض الجماعة ، وحملهم وودّعه وانصرفوا ، ثم رحل من الاسكندرية أواخر شعبان . ونزل يوم السبت ثاني شهر رمضان بالجيزة بساحل النيل مقابل مصر⁽²⁰⁸⁾ ، فخرج إليه القائد جوهر ، وترجل عند لقائه وقبّل الأرض بين يديه ، وبالجيزة / اجتمع به الوزير

[187/أ]

[187/ب]

(200) في ت وش : «قصد» .

(201) اضافتين من عندنا للتوضيح .

(202) كذا في ط وفي ت وش : «الأجراس» .

(203) رجع إلى النقل من الوفيات 326/5 ، وفي الأصول : «تردد» .

(204) انظر أيضا كتاب العبر 102/4 .

(205) في كتاب العبر : «واستخلفه على افرقية والمغرب ، وأنزله القيروان وسماه يوسف ، وكناه أبا الفتوح» 103/4 .

(206) 6 أوت 972 م . وفي كتاب العبر : «آخر شوال» 103/4 . وبعدها أسقط ما يتعلق بمرور المعز بسردانية .

(207) في الأصول : «شوال» والمثبت من الوفيات 227/5 ومن تاريخ العبر 103/4 .

(208) مصر هي القاهرة .

أبو الفضل جعفر بن الفرات ، وأقام المُعِزُّ هناك ثلاثة أيام ، وأخذ العسكر في التعدية بأنقالهم إلى ساحل مصر العتيق - وكانت قد زُيِّنَتْ له - وظَنُّوا أنه يدخلها ، وأهل القاهرة لم يستعدوا للقائه لأنهم بنوا الأمر على دخوله مصر⁽²⁰⁹⁾ أولاً ، ولمَّا دخل القاهرة ، ودخل القصر ودخل مجلساً منه خرَّ ساجداً لله تعالى ، ثم صَلَّى فيه ركعتين ، وانصرف النَّاس عنه .

وفي يوم الجمعة لثالث عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة أربع وستين⁽²¹⁰⁾ عزل المُعِزُّ قائده جوهراً عن دواوين مصر وجباية أموالها والنَّظر في سائر أمورها . وكانت ولادة المُعِزِّ بالمهدية⁽²¹¹⁾ ، ووفاته بمصر يوم الجمعة⁽²¹²⁾ حادي عشر شهر ربيع الآخر⁽²¹³⁾ وقيل الثالث عشر منه سنة خمس وستين وثلاثمائة⁽²¹⁴⁾ ولم يَقم المُعِزُّ بمصر القاهرة إلَّا سَتين ونصفًا وكانت مدة ملكه بالمغرب والقاهرة ثلاثًا وعشرين سنة ونصفًا⁽²¹⁵⁾ .

الفاطميون بمصر :

واستمرت ولاية العبيديين بمصر إلى أن بلغوا أربعة عشر خليفة⁽²¹⁶⁾ حسبما نقل السيوطي عن الذهبي . وذكر منهم عدة فقال : « قام⁽²¹⁷⁾ بعد المُعِزِّ ابنه العزيز نزار ومات سنة ست وثمانين⁽²¹⁸⁾ ، وقام ابنه الحاكم بأمر الله المنصور⁽²¹⁹⁾ » وكان شيطاناً مريداً سيء الاعتقاد سفاكاً للدماء ، قتل خلقاً كثيراً بغير ذنب⁽²²⁰⁾ وادعى

(209) في الأصول : « العتيق » والمثبت من الوفيات 227/5 .

(210) 7 أكتوبر 974 م .

(211) « يوم الاثنين حادي عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمائة » ، الوفيات 228/5 .

(212) في الأصول : « الاثنين » والمثبت من الوفيات .

(213) 18 ديسمبر 975 م .

(214) « وقيل لسبع خلون منه » الوفيات ، وفي كتاب العبر : « وفي منتصف ربيع الآخر ثلاث وعشرين سنة من خلافته » 107/4 ، وفي التوقيفات الالهامية « في يوم الجمعة 10 ربيع ثاني » 397/1 .

(215) انتهى نقله من الوفيات 228/5 .

(216) في الأصول : « ملكاً » .

(217) نقل من تاريخ الخلفاء للسيوطي مع حذف .

(218) 996 م .

(219) يتوقف عن النقل من تاريخ الخلفاء .

(220) الوفيات بتصرف من ترجمة الحاكم العبيدي 292/5 - 293 .

الألوهية⁽²²¹⁾ ، وأمر بسبّ الصّحابة ، قال ابن الجوزي⁽²²²⁾ : « ادّعى الحاكم المذكور الرُّبوبيّة ، وكان قوم من الجاهلين إذا رأوه / قالوا : يا واحد يا أحد ، يا محيي يا مميت⁽²²³⁾ ، وصنّف بعض الباطنية⁽²²⁴⁾ كتاباً ذكر فيه أن روح آدم - عليه السلام - انتقلت إلى علي بن أبي طالب ، وأن روح علي انتقلت [إلى أبي الحاكم ثم انتقلت]⁽²²⁵⁾ إلى الحاكم ، وقرئ هذا الكتاب بجامع القاهرة ، فقصّد الناس قتل مؤلفه فصيره الحاكم إلى جبال الشام ، فترل بوادي تيم⁽²²⁶⁾ وناحية⁽²²⁷⁾ بانياس ، فاستمال قلوب النّاس ، وأباح لهم الخمر والزنا ، وأقام عندهم يدعّوهم فأضلّ منهم خلقاً كثيراً⁽²²⁸⁾ ، وفي وادي التيم⁽²²⁶⁾ ونواحي الشّرق إلى يومنا هذا يُدعّون بالدروز ، يعتقدون خروج الحاكم ، ولهم كتب يتدارسونها فيما بينهم ، ويعتقدون أنه لا بدّ أن يعود ويُمهّد الأرض ، وتلك خيالات فاسدة وظنون كاذبة ، وكانت له شنائع وقبائح وأفعال منكّرة خارجة عن الطّبع والعرف والشرع ، فمن ذلك أنه أمر بغلق الأسواق نهائاً وفتحها ليلاً ، فامتلأوا ذلك دهرًا طويلاً ، حتى اجتاز مرة بشيخ يعمل النجارة بعد العصر فوقف عليه وقال : أما نهيتكم عن هذا؟ فقال يا سيدي : أما كانوا يستهزؤون ويسخرون⁽²²⁹⁾ بهذا من ذاك؟ فأعاد النّاس إلى أمرهم الأول ، وبالجملّة فهو أخبث القوم⁽²³⁰⁾ » وقتل في⁽²³¹⁾ سنة احدى عشرة وأربعمائة⁽²³²⁾ .

- (221) قال ابن خلدون : « وكان حاله مضطرباً في الجور والعدل ، والإخافة والأمن ، والنسك والبذعة ، وأما ما يرمى به من الكفر ، وصدور السجلات باسقاط الصلوات فغير صحيح » كتاب العبر 125/4 .
- (222) « أبو الفرج عبد الرحمان بن علي » علامة في التاريخ والحديث مكثّر من التّأليف ، أنظر الأعلام للزّركلي 316/3 - 317 (ط . 5) .
- (223) النجوم الزّاهرة : 183/4 .
- (224) جاء في النجوم نقلاً عن ابن الجوزي : « رأيت في بعض التواريخ بمصر أن رجلاً يعرف بالدُرزي قدم مصر وكان من الباطنية القائلين بالناسخ » والدُرزي هو محمد بن اسماعيل داع أعجمي كما في تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي . أنظر هامش النجوم 1 ، 184/4 .
- (225) الاضافة من النجوم .
- (226) في الأصول : « سم » والثبت من النجوم 184/4 .
- (227) في النجوم : « من أعمال » .
- (228) كذا في ش وفي ت وط : « يسهرون ويسخرون » .
- (229) في كتابه مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، وورد الخبر في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي 184/4 .
- (230) يرجع إلى القتل من تاريخ الخلفاء ص 524 .
- (231) 1020 - 1021 م ، عن فقدانه ثم وجوده ميتاً خارج القاهرة انظر كتاب العبر 127/4 .

وقام ابنه الظاهر لاعزاز دين الله علي ، ومات سنة سبع وعشرين⁽²³³⁾ .
 وقام ابنه المستنصر⁽²³⁴⁾ معد ، ومات سنة سبع⁽²³⁵⁾ وثمانين .
 فأقام في الملك ستين سنة⁽²³⁶⁾ . قال الذهبي : ولا أعلم أحداً في الاسلام - لا خليفة ولا سلطاناً - / أقام هذه المدة .
 وقام بعده ابنه المستعلي [بالله] أحمد ومات سنة خمس وتسعين⁽²³⁷⁾ .
 وقام [بعده] ابنه الأمر⁽²³⁸⁾ بأحكام الله منصور⁽²³⁹⁾ وقتل سنة أربع وعشرين وخمسمائة⁽²⁴⁰⁾ .
 وقام ابن عمه الحافظ لدين الله ثم الظافر ، ثم الفائز ، ثم العاضد . (وخلع سنة سبع وستين وخمسمائة ، ومات بها)⁽²⁴¹⁾ ثلاثة بالمغرب والباقي بالقاهرة .
 وانقرضت الدولة العبيدية ، وأقيمت العباسية على يد صلاح الدين بإشارة نور الدين كما يأتي - إن شاء الله تعالى - « قال الذهبي : كانوا أربعة عشر متخلفاً لا مستخلفاً » اهـ⁽²⁴²⁾ .

[قال] ابن خلكان⁽²⁴³⁾ : آخر العبيديين العاضد ، سمعت جماعة من المصريين يقولون : إن هؤلاء القوم في أول دولتهم قالوا لبعض العلماء : تكتب لنا ورقة تذكر فيها

(233) في الأصول وفي تاريخ الخلفاء : « ثمان » والمثبت من تاريخ العبر 129/4 ، وابن الأثير 447/9 والنجوم الزاهرة 282/4 ، 1035 - 1036 م .

(234) في الأصول : « المتنصر » والمثبت من تاريخ الخلفاء .

(235) 1094 م .

(236) كذا في كتاب العبر وزاد : « ويقال لخمس وستين » وفي تاريخ الخلفاء الذي ينقل عنه المؤلف : « ستين سنة وأربعة أشهر » .

(237) في منتصف صفر / ديسمبر 1101 م .

(238) في الأصول : « القائم » والمثبت من تاريخ الخلفاء وكتاب العبر .

(239) « طفل له خمس سنين » نفس المرجعين .

(240) 1129 - 1130 م .

(241) في الأصول : « وقام ابن عمه الحافظ لدين الله (وخلع سنة سبع وستين وخمسمائة ، ومات بها) » وما بين القوسين يهتان العاضد آخر الفاطميين بمصر ، والجملة مأخوذة من تاريخ الخلفاء وأصلحنا النص على هذا الأساس .

(242) نقلها عن تاريخ الخلفاء ص 524 - 525 .

(243) ترجمة 110/ .

ألقاباً تصلح للخلفاء ، حتى إذا تولّى واحد لَقَّبُوهُ ببعض تلك الألقاب ، فكتب لهم ألقاباً كثيرة ، وآخر ما كتب في الورقة «العاضد»⁽²⁴⁴⁾ اهـ .
ولمّا خشنا الخروج عن المقصود باستقصاء جميع أحوال كل فرد ، أعرضنا عمّا زاد عن الغرض المهم وبالله تعالى التوفيق ، لا رب غيره ولا معبود سواه .

(244) بعدها في الوفيات : «فاتفق أن آخر من ولي منهم تلقب بالعاضد ، وهذا من عجيب الاتفاق»
ص 110 - 111 .

المقالة الخامسة

في ذكر ملوك ضهاجة بالمغرب وصالح الدين بمصر وفيهما بابان

الباب الأول

في ذكر ملوك ضهاجة

زيري بن مناد :

أول⁽¹⁾ من ملك في أيام العبيدين من ضهاجة «زيري بن مناد بن منقوش بن زناك⁽²⁾ بن زيد الأصغر [بن واشفال بن وزغني بن سري بن وتلكي بن سليمان بن الحارث ابن عدي الأصغر]⁽³⁾ وهو المثنى⁽⁴⁾ ، ابن المسور بن يحصّب بن مالك بن زيد بن الغوث⁽⁵⁾ الأصغر بن سعد وهو / عبد الله بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سد⁽⁶⁾ بن زرعة ، وهو حمير الأصغر بن سبأ الأصغر بن كعب بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث⁽⁷⁾ بن حيدان⁽⁸⁾ ابن قطن بن عوف بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهُمَيْسَع بن عمرو بن حمير [وهو

(1) النقل الآتي من ترجمة تميم بن المعز الصنهاجي في الوفيات 304/1

(2) في الأصول : «ريان» والمثبت من الوفيات .

(3) اضافة من الوفيات .

(4) في الأصول : «بن المثنى» والمثبت من الوفيات .

(5) في الأصول : «الغور» والمثبت من الوفيات .

(6) في الأصول : «مسدد» والمثبت من الوفيات .

(7) في الأصول : «الضرب» والمثبت من الوفيات .

(8) في الأصول : «حيران» والمثبت من الوفيات .

العرنجج⁽⁹⁾ بن سبأ الأكبر بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر ، وهو هود - عليه السلام - بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح - عليه السلام -⁽¹⁰⁾ وزيري هذا هو الذي بنى مدينة آشور⁽¹¹⁾ «بمدّ الهمة وكسر الشين المثلثة وسكون الياء المثناة تحت وبعدها راء مهملة ، بليدة⁽¹²⁾ بافريقية بين بجاية وقلعة بني حماد⁽¹³⁾ بناها وحصّنها⁽¹⁴⁾ في أيام أبي يزيد الخارجي ، لما خرج على القائم بن المهدي وعلى ولده المنصور اسماعيل وملكه أياها وما حولها . وأعطاه المنصور تاهرت وما حولها ، وهي بفتح التاء المثناة الفوقية وبعد الألف هاء مفتوحة وراء ساكنة ثم تاء فوقية ، مدينة بافريقية ، ابن خلكان ، وثم أيضاً أخرى تسمى باسمها واحداهما تسمى القديمة ، والأخرى الجديدة ولا أدري أي المدينتين ملكها زيري⁽¹⁵⁾ اهـ ، «وكان زيري حسن السيرة تام السياسة شجاعاً صابراً⁽¹⁷⁾ ، وكانت بينه وبين جعفر بن علي الأندلسي ضغائن وأحقاد أفضت إلى الحرب ، فلما تصافا انجلى المصاف عن قتل زيري المذكور برمضان سنة ستين وثلاثمائة⁽¹⁸⁾ ، كبا به فرسه فسقط إلى الأرض فقتل ، وكانت مدة ملكه/ ستاً وعشرين سنة⁽¹⁹⁾ .

[189/ب]

بلكين بن زيري :

فلك بعده ولده «بُلُكَيْن»⁽²⁰⁾ بن زيري ، ويسمى يوسف ، إلا أن بُلُكَيْن أشهر وهو الذي استخلفه المعز العبّدي عند توجهه إلى مصر ، فأمر الناس بالسمع والطاعة له ،

(9) ساقطة من الأصول .

(10) وختم ابن خلكان سلسلة نسب زيري بقوله : «هكذا قاله العماد في الخريدة الحميري الصنهاجي» ، الوفيات 304/1 .

(11) الوفيات 343/2 .

(12) في الأصول : «بلدة» والمثبت من الوفيات .

(13) الوفيات 63/1 و 343/2 .

(14) النقل الموالي من ترجمة زيري بن مناد الصنهاجي في الوفيات 343/2 - 344 .

(15) الوفيات 344/2 .

(16) النقل دائماً من الوفيات 343/2 .

(17) في الأصول : «ضارياً» والمثبت من الوفيات .

(18) جوان - جويلية 971 م .

(19) الوفيات 343/2 .

(20) أوله وثانيه مضموم والكاف مشدّدة مكسورة ، وتكتب أحياناً كاف وهي معقدة تلفظ كالجيم المصرية ، والقاف المعقدة والكاف كثيراً ما يتعاقبان .

فَتَسَلَّمَ البلاد ، وخرجت العمَّال وجُباة الأموال باسمه ، وأوصاه المعزّ بأمر كثيرة ، وأكَّد عليه في فعلها ، ثم قال : إن نسييت ما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء : إيتاك أن ترفع الجباية عن أهل البادية ، والسَّيف⁽²¹⁾ عن البربر ، ولا تولّ⁽²²⁾ أحدًا من أخوتك وبني عمِّك ، فانهم يرون أنَّهم أحقُّ بهذا الأمر منك ، وافعل مع أهل الحاضرة خيرًا ، وفارقه على ذلك ، وعاد من وداعه ، وتصرّف في الولاية .

ولم يزل حسن السيرة ، تام النَّظر في مصالح دولته ورعيّته إلى أن تُوفي يوم الأحد لسبع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة⁽²³⁾ ، بموضع يقال له : وَارَكْلَان مجاور افريقية ، وهو يفتح الواو وبعد الألف راء مفتوحة أيضًا ثم كاف ساكنة وبعد الألف نون كلاهما بعد لام مفتوحة⁽²⁴⁾ .
فولي بعده ولده المنصور .

باديس :

ثمّ بعد المنصور ولده باديس ، وممّا وجد في مناقب العارف بالله تعالى سيدي محرز بن خلف المتوفي سنة ثلاث عشرة وأربعمائة⁽²⁵⁾ المدفون بباب السويقة من تونس - نفعا الله به - أنّه أتاه رجل⁽²⁶⁾ مستجير من مظلمة نالته من قَيْل باديس بن المنصور فكتب له المؤدّب سيدي محرز بعد البسملة والصلاة على النبي ﷺ : من محرز بن خلف / إلى باديس ، أما بعدُ ، فإنَّ الله حقق الحق في قلوب المؤمنين من عباده ، ونقل المذنبين إلى ما افترض عليهم من طاعته ، أنا رجل عرف كثير من الناس اسمي ، وهذا من البلاء⁽²⁷⁾ ، وأنا أسأل الله أن يتغمّدني برحمته ، وربّما أتاني المضطر يسأل الحاجة ، فان رددتها خفت ، وإن التزمت ذلك كثر عليّ ، وقد ورد عليّ رجل يزعم أنه طلب في دراهم

(21) النقل من ترجمة بلكين بن زيري في الوفيات 286/1 .

(22) في الأصول : « ولا تولّ » والمثبت من الوفيات .

(23) 27 ماي 984 .

(24) الوفيات 286/1 وانظر البيان المغرب لابن عذارى (ت في القرن 7 هـ) دار الثقافة بيروت 339/1 .

(25) كذا في المناقب ص 174 ، وبالسنة الميلادية 1022 م .

(26) النقل من مناقب أبي اسحاق الجبنياني ، مناقب سيدي محرز بن خلف ، تحقيق هادي روجي ادريس ، باريس

1959 ص 140 .

(27) في الأصول « البلاء » والمثبت من المناقب .

وخاف ، وليس عنده شيء ، فاعمل على رضى من لا بدّ لك من لقائه ، واستحي ممّن بنعمته وُجِدَتْ لذاثد العيش ، ولا يغرّنك حلم الله تعالى عليك ، ولا تعاد من أنت محتاج إليه ، وحاذر بطانة السوء فانهم يأكلون مالك ويقربون من النار لحملك ، وشاور في أمرك من يتقي الله ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾⁽²⁸⁾ الآية ، وخف ممّن لا يحتاج عوناً عليك بل لو شاء اتلافك لأخرجك عن نفسك ، حتى يكون هلاكك عن يدك ، سالم تسلم ، فأنت على رحيل ، فخذ في الزاد ، والسلام»⁽²⁹⁾.

«وممّا⁽³⁰⁾ وقع في أيام باديس أنه أتاه قوم من بطانته فرغموا أن أهل تونس مبغضون فيه وفي دولته ، فبعث نجيباً إلى عامل له كان بتونس وهو يقول : إقبض على من يشار إليه من أهل تونس من العلماء وأهل الدنيا ، فخذ أموالهم واضرب رقابهم ، وكان بالقيروان رجل من أهل السنة ، مُحبّاً لأهل تونس (وكان صديق الشيخ - رضي الله تعالى عنه - وكان لذلك الرجل القروي صديق بتونس ، وكان عند كل من المتصادقين القروي والتونسي في بلده حمام ضار ، فكان كلّما طرأ عند أحدهما/ خبر في بلده كاتب به صاحبه وأرسله مع حمامه فيصل الخبر في يومه فالحمامان مقبوضان عند صاحبيهما برسم الارسال بالأخبار ، فلما سمع القروي ما أنفذ به باديس إلى تونس)⁽³¹⁾ كتب كتاباً وعلقه على الحمام ، وبعثه إلى صديقه بتونس ، فلما وصل الحمام لداره أخذ الكتاب وقرأه ومضى به لأهل العلم وأوقفهم عليه ، فلما نظروا إليه قال بعضهم لبعض : ما لنا في هذا الأمر إلاّ المؤدّب سيدي محرز بن خلف ، فأتوه وقرأوا عليه الكتاب ، فلما سمع ما فيه قال : أكتبوا فيه : «قالت طائفة ليست من أهل العلم والكتاب أن أعيان تونس يؤخذون فيطلبون في أموالهم وأرواحهم وعلى السلطان النظر في ذلك ، فاحذر [رأي] وزراء السوء الذين يأكلون مالك ، ويقربون لحملك وعظمك إلى النار ، وأنت على سفر ، فخذ في الزاد ، والسلام على من أتبع الهدى».

[190/ب]

(28) سورة الطلاق آخر الآية 2.

(29) المناقب 140.

(30) ينتقل إلى ص 144 من المناقب.

(31) في المناقب : «وكان له صديق فيها ، وكان عند الرجل حمامان ضاريان حمام بتونس ، وحمام بالقيروان ، فما جرى من خبر بالقيروان كتب به إلى تونس لصديقه ، وما جرى من خبر بتونس كتب به إلى القيروان ، فلما سمع الرجل الساكن بالقيروان هذا الخبر وما أنفذه باديس إلى تونس» ص 144 - 145.

وبعث الرجل الكتاب مع الحمام إلى القيروان ، فلما وصل أخذه وقراه ومضى به إلى القاضي ، فقرأ على من حضر المجلس ، فاتفق أهل المجلس على أنهم يكتبون كتاباً يمجّدون فيه السلطان ، فلما استوى رأيهم قام رجل من أهل المجلس وقال : يا قوم ، لا تغيروا كتاب الرجل ، فالذي كتبه عرف لمن كتب ، والذي يصل إليه الكتاب يعلم من كتبه ، فحمل الكتاب ولم يُغيّر فيه شيء حتى وصل إلى باديس ، فلما قرئ عليه الكتاب قال وزيره : لم يزل أبو كسية في بغضه / ونفاقه ، فقال له باديس : وبلغ من قدري [191/أ] وقدرك عند الشيخ محرز بن خلف حتى يكتب إلينا ، إنما هي هدية من الله سبحانه أهداها لنا ، ونكّل بالوزير وأمر بقلع أسنانه ثم دعا بعض خدّامه وقال : خذ هذا الكتاب واحمله إلى السيدة وقل لها : هذا كتاب سيدي محرز بن خلف فاحتفظي به ، ولعلّ بركته تعود علينا وعليك ، فلما وصل الكتاب إلى السيدة طيّبته وخرزت عليه وعلقته عليها وكانت حاملاً ، فقالت : لعلّ بركته تعود عليّ ، فعادت بركته عليها وولدت المعزّ بن باديس بالمنصورية يوم الخميس لخمس مضت من جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة⁽³²⁾ ، ثم قال باديس : سبحان الله ، (والذي بعثنا إلى تونس ما وصل إليها)⁽³³⁾ (ثم كتب من ساعته إلى العامل بتونس وأرسل إليه أن لا ينتقم من المسلمين وناول الكتاب للذي ناوله كتاب الشيخ فأخذه وعلّقه على الحمام وبعثه به فوصل الكتاب)⁽³⁴⁾ إلى تونس قبل وصول الرسول ، كل ذلك في يوم واحد ، فلما قدم الرسول بعث العامل إلى أهل المدينة ليعلمهم بما أمر به السلطان ، فأتوه والكتاب معهم ، فلما نظر العامل للكتاب سقط في يده وسرح أمورهم ولم يعاقب أحداً⁽³⁵⁾ ، «وتوفي باديس سلخ ذي القعدة سنة ست وأربعمائة⁽³⁶⁾ .

(32) 17 جانفي 1008 م . وانظر الوفيات 234/5 .

(33) في الأصول : «ومن كتب إلى تونس» والمثبت من المناقب ص 146 .

(34) في المناقب : «وكتب من ساعته إلى تونس : قد عفا عنكم ببركة كتاب المؤدّب محرز بن خلف ، كتاباً إلى الرسول الذي بعثه ينتقم من المسلمين ، فأعطاه الذي أتى بالكتاب وعلقه على الحمام ، ووصل الحمام....»

(35) المناقب : ص 144 - 147 .

(36) الوفيات : 266/1 . 10 ماي 1016 م .

المعز بن باديس : قَطَعَهُ الدَّعْوَةُ لِلْفَاطَمِيِّينَ وَاجْتِيَا حَ الْعَرَبَ اَفْرِيقِيَّةَ

فَتَوَلَّى بَعْدَهُ الْمَعزُّ بْنُ بَادِيسٍ [وَكَانُوا قَدْ أَخْفَوْا مَوْتَ بَادِيسٍ وَرَتَبُوا] (37) عَمَهُ (38) كَرَامَتِ (39) بَنِ الْمَنْصُورِ ظَاهِرًا / حَتَّى وَصَلُوا إِلَى الْمَعزِّ فَوَلَّوهُ ، وَتَمَّ أَمْرُهُ بِالْمُحَمَّدِيَّةِ يَوْمَ السَّبْتِ لثَلَاثِ مَضِينَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ سِتٍّ وَأَرْبَعِمِائَةٍ (40) ، «وَكَانَ الْمَعزُّ وَاسِطَةً عَقْدَ جَمَاعَتِهِ ، وَهُوَ الَّذِي قَطَعَ مَذَاهِبَ الشَّيْعَةِ ، وَاسْتَأْصَلَ شَأْفَتَهَا وَقَطَعَ آثَارَهَا بِقَتْلِ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهَا ، ابْنَ خُلْكَانٍ» (41) .

وَلَمَّا تَوَجَّهَ الْمَعزُّ الْعَبِيدِي إِلَى مِصْرَ اسْتَخْلَفَ بُلْكَيْنَ بْنَ زَيْرِي - حَسْبًا شَرْحَنَاهُ - وَكَانَتِ الْخُطْبَةُ فِي تِلْكَ النِّوَاحِي جَارِيَةً عَلَى عَادَتِهَا لِهَذَا الْبَيْتِ إِلَى أَنْ قَطَعَهَا الْمَعزُّ بْنُ بَادِيسٍ فِي أَيَّامِ الْمُسْتَنْصِرِ (42) وَذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ (43) . وَقَالَ فِي تَارِيخِ الْقَيْرَوَانِ : أَنَّ ذَلِكَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ (44) ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ (45) .

وَلَمَّا قَطَعَ خُطْبَتَهُ وَخَلَعَ طَاعَتَهُ ، خُطِبَ لِلْإِمَامِ الْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ الْعَبَّاسِيِّ خَلِيفَةِ بَغْدَادَ فَكُتِبَ إِلَيْهِ الْمُسْتَنْصِرُ (42) يَتَهَدَّدُهُ وَيَقُولُ لَهُ : هَلَا اقْتَضَيْتَ آثَارَ آبَائِكَ فِي الطَّاعَةِ وَالْوَلَاءِ ، فِي كَلَامٍ طَوِيلٍ ، فَأَجَابَهُ الْمَعزُّ : إِنَّ آبَائِي وَأَجْدَادِي كَانُوا مُلُوكَ الْمَغْرِبِ قَبْلَ أَنْ يَمْلِكَهُ أَسْلَافُكَ ، وَلَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنَ الْخِدْمِ أَعْظَمُ مِنَ التَّقْدِيمِ ، وَلَوْ أَخْرَوْهُمْ لَتَقَدَّمُوهُمْ بِأَسْيَافِهِمْ ، وَاسْتَمَرَّ عَلَى قَطْعِ الْخُطْبَةِ لَهُ ، وَلَمْ يَخْطُبْ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَفْرِيقِيَّةَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمَصْرِيِّينَ إِلَى الْيَوْمِ .

وَكَانَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - بِأَفْرِيقِيَّةَ أَظْهَرَ الْمَذَاهِبِ ، فَحَمَلَ الْمَعزُّ الْمَذْكَورَ جَمِيعَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ عَلَى / التَّمَسُّكِ بِمَذْهَبِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - ، وَحَسَمَ مَادَّةَ الْخِلَافِ فِي الْمَذْهَبِ ، قَالَ : وَاسْتَمَرَّ الْحَالُ فِي ذَلِكَ إِلَى الْآنَ (46) اهـ .

(37) زِيَادَةُ لِلتَّوْضِيحِ .

(38) أَيَّ عَمِّ الْمَعزِّ .

(41) الْوَفِيَّاتُ بِتَرْصُفٍ 233/5 - 234 .

(42) فِي الْأَصُولِ : «الْمُتَنَصِّرُ» وَالتَّحْتِ الْمَثْبُوتُ مِنَ الْوَفِيَّاتِ 234/5 .

(43) 1051 - 1052 م .

(44) 1043 - 1044 م .

(45) مِنْ تَرْجُمَةِ الْمُسْتَنْصِرِ الْعَبِيدِيِّ ، الْوَفِيَّاتُ 229/5 - 230 .

(46) مِنْ تَرْجُمَةِ الْمَعزِّ بْنِ بَادِيسٍ الصَّنَهَاجِيِّ ، الْوَفِيَّاتُ 233/5 - 234 .

(39) فِي الْأَصُولِ : «كِرَامَةُ» وَالتَّحْتِ الْمَثْبُوتُ مِنَ الْوَفِيَّاتِ 266/1 .

(40) 13 مَآي 1016 م .

قلت هذا في زمانه ، وأما الآن فقد رجع مذهب أبي حنيفة - رضي الله تعالى عنه - إلى المغرب منذ دخلت العساكر العثمانية إلى المغرب ، ولكن مذهب الامام مالك - رضي الله تعالى عنه - أشيع .

وقال في معالم الايمان : «لَمَّا قَدِمَ الْمُعَزِّينُ بِادِيسِ الْقَيْرَوَانِ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ وَاسْتِفْتَا حَ لَاحَ وَلَايَتِهِ ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مُتَتَصِفِينَ بِمَحْرَمٍ عَامٍ سَبْعَةٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ⁽⁴⁷⁾ ، قَتَلَتْ⁽⁴⁸⁾ الْعَامَّةُ الرَّافِضَةَ بِالْقَيْرَوَانِ أَقْبَحَ قَتْلٍ ، وَحَرَقُوهُمْ ، وَانْتَهَبُوا أَمْوَالَهُمْ وَهَدَّمُوا دِيَارَهُمْ ، وَقَتَلُوا نِسَاءَهُمْ وَصَبْيَانَهُمْ ، وَجَرَّوهُمْ بِالْأَرْجُلِ ، فَكَانَتْ صَبِيحَةً مِنَ اللَّهِ سَلَطَهَا عَلَيْهِمْ ، وَخَرَجَ الْأَمْرُ مِنَ الْقَيْرَوَانِ إِلَى الْمَهْدِيَّةِ وَسَائِرِ بِلَادِهِمْ ، فَقَتَلُوا حَيْثُ وَجَدُوا ، وَأَحْرَقُوا بِالنَّارِ ، فَلَمْ يَتْرَكْ مِنْهُمْ بَعْدَئِذٍ أَفْرِيقِيَّةً إِلَّا مَنْ اخْتَفَى وَلَحَاتِ الرَّافِضَةَ إِلَى مَسَاجِدِ الْمَهْدِيَّةِ ، فَقَتَلُوا فِيهَا ، وَهَدَّمُوا دَارَ الْإِمَارَةِ ، وَتَعَدَّتِ الْعَامَّةُ ذَلِكَ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ ظَنًّا أَنَّهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَلَقَدْ حَكِيَ أَنَّ الْعَامَّةَ جَاءَتْ مُتَعَلِّقَةً بِرَجُلٍ اتَّهَمُوهُ بِرَأْيِهِمْ فَمَرُّوا بِهِ عَلَى شَيْخٍ مِنَ الْعَامَّةِ ، فَسَأَلُوهُ عَنْ تَعَلُّقِهِمْ بِهِ فَقَالُوا : نَسِيرُ بِهِ إِلَى الشَّيْخِ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ خَلْدُونَ فَنَنْظُرُ مَا يَأْمُرُنَا بِهِ ، فَقَالَ لَهُمُ الشَّيْخُ الْعَامِّيُّ : لَا ، اقْتُلُوهُ الْآنَ فَإِنْ كَانَ / رَافِضِيًّا أَصَبْتُمْ ، [192/ب] وَإِنْ كَانَ سُنِّيًّا عَجَّلْتُمْ بِرُوحِهِ إِلَى الْجَنَّةِ الْآنَ ، أَوْ كَمَا قَالَ : فَانْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ بِعَامَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَتَلُوهُمْ كُلَّ مُقْتَلٍ ، فَرَعِبَ الْمُعَزِّينُ مِنْهُمْ ، وَرَأَى كَسْرَ شَوْكِهِمْ ، فَدَبَّرَ قَتْلَ زَعِيمِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَشَيْخِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ - يَعْنِي حَسَنَ بْنَ خَلْدُونَ - فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْخَمِيسِ ثَانِي عَشَرَ شَوَالٍ مِنَ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ⁽⁴⁹⁾ ، أَتَى عَامِلُ الْقَيْرَوَانِ مَعَ الشَّرْطَةِ وَخَيْلٍ وَرِجَالٍ إِلَى مَسْجِدِ الشَّيْخِ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ خَلْدُونَ الْبُلُوِّيِّ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ⁽⁵⁰⁾ ، فَدَخَلُوا الْمَسْجِدَ عَلَى الشَّيْخِ وَهُوَ فِي مَسْجِدِهِ وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ النَّاسِ فَقَتَلُوا أَبَا مُحَمَّدٍ الْغُرْيَانِيَّ الْفَقِيهَ ، وَآخَرَ بَدْوِيًّا ظَانِينَ أَنَّهُ أَبُو عَلِيٍّ ، فَلَمَّا عَرَفُوهُ مَالُوا عَلَى أَبِي عَلِيٍّ بِسَكَكِيْنِهِمْ وَجَرَّدُوا جَمَاعَةً مِمَّنْ كَانَ بِالْمَسْجِدِ ، فَحَمَلَ أَبُو عَلِيٍّ إِلَى دَارِهِ وَقَدْ وَقَعَ فِيهِ ثَلَاثُ جَرَاحَاتٍ إِحْدَاهَا فِي صَدْغِهِ أَخَذَتْ إِلَى قَفَاهُ ، وَاثْنَتَانِ فِي جَانِبِهِ الْأَيْسَرِ أَنْفَذَتَا مُقَاتِلَهُ ، تَوَفَّى فِي دَارِهِ بَعْدَ الْعِشَاءِ .

(47) 24 جوان 1016 م .

(48) ممَّا بَلِي صَنْفَهُ الْمُؤَلِّفُ كَوَاقِعَ مَقْتَلِ الشَّيْعَةِ أَيَّامَ الْمُعَزِّينِ بِادِيسِ . ذَكَرَهُ الدِّيَاغُ كَسِبَ قَتْلَ أَبِي عَلِيٍّ حَسَنَ بْنَ خَلْدُونَ الْبُلُوِّيِّ ، انْظُرْ تَرْجُمَتَهُ فِي الْمَعَالِمِ 151/3 - 156 .

(49) 4 مارس 1107 م .

(50) بَعْدَهَا أَسْقَطْنَا : «يَوْمَ الْخَمِيسِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ شَوَالٍ سَنَةِ سَبْعٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ» لِأَنَّهَا تَكَرَّرَ سَابِقَتُهَا فِي نَفْسِ الْجُمْلَةِ .

فلَمَّا توفي - رحمه الله - إِرْتَجَّت المدينة ، وثارت الصيحة من نواحي القيروان ، فقال أهل المنصورة⁽⁵¹⁾ من الرجال والعبيد فنبهوا جميع ما في حوايتها حتى لم يتركوا حائوتًا ، وألقيت النار في كبار الأسواق ، ونهبت أموال التجار ، فذهب الناس واشتغلوا بأنفسهم عن مقتل الشيخ أبي علي وخبره ، وأراد عامل القيروان استرضاء الناس فجاء برجلين فقال : إنهما اللذان / قتلاه فقتلتهما . [أ/193]

وما تقدم من قوله خرج الأمر من القيروان إلى المهديّة وسائر بلادهم خلاف ما كان يقول شيخنا أبو الفضل أبو القاسم البرزلي⁽⁵²⁾ أن الوقت الذي قام عليهم فيه أهل القيروان قام فيه كلّ شيخ على من في بلده كالشيخ محرز على أهل تونس ، من غير أن يكون اتفاق منهم على ذلك ، بل هي كرامة في حقّ جميعهم قال : « ولم يُبقِ المعزّ من آثار بني عبيد إلاّ أسماءهم على السيّكة والبند ، فسأله أبو عمران الفاسي عن ذلك ، فاعتذر بالخوف على الحُجّاج لبيت الله الحرام والمسافرين »⁽⁵³⁾ اهـ .

يعني لو أزال ذلك من السيّكة لأدّى إلى إضرار بني عبيد ملوك مصر بالحُجّاج الواردين عليهم من المغرب والمسافرين أما بقتل ، أو أخذ مال ، أو منع الطريق ، أو غير ذلك .

وممّا وجد مسطوراً في مناقب سيدي محرز بن خلف⁽⁵⁴⁾ - نفعنا الله به - قال : « كان السّلاطين يأتونه في كل الأوقات يتبرّكون به ويحضرّون مجلسه ويسألونه الدّعاء فلَمَّا كان سنة ستّ وأربعمائة قتل الناس المَشَارِقَة واستأصلوهم فكان يؤتى بالرجل منهم إلى حضرته فيشهد عليه فيقتل بشهادة الشّيوخ خاصة لا يحضر غيره من العدول ، أو يترك إذا لم يثبت عليه شيء »⁽⁵⁵⁾ قال الشيخ أبو محمد من الله : « كنت عند المؤدّب محرز بعد قتله المشاركة بتونس ، فقلت له قتلوا المشاركة بتونس ولم يُقتلوا عندنا ، فقال أرجو أن يُقتلوا

(51) كذا في معالم الايمان ، والصواب « المنصورية » نسبة إلى المنصور العبيدي ، وهي المسماة « بصيرة » أيضاً .
(52) أبو الفضل أبو القاسم بن أحمد بن المعتل البلوي المعروف بالبرزلي القيرواني (740 - 1339/841 - 1440) من أعلام المالكية في العصر الحفصي ويلقب بشيخ الاسلام ومن أشهر مؤلفاته الحاوي في الفتاوي ويعرف بنوازل البرزلي ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس رقم 4851 اختصره تلميذه حلولو . انظر محمد محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين ، 115/1 - 117 .

(53) نقل من معالم الايمان بتصرف يسير 154/3 - 155 (ط/2) .

(54) بعدها في ت : « رضي الله تعالى عنه » والنقل من المناقب ص 142 .

(55) المناقب ص 142 - 143 .

عندكم ، ثم دعا لنا وقال : غسل الله عنكم العار وألحقكم بالناس ، / قال : فوصلت إلى [193/ب] باجة يوم الخميس ، وقتل المشاركة يوم الاثنين⁽⁵⁶⁾ وكتب المَعزّ ظهيراً للشيخ سيدي محرز صورته : « هذا ظهير كريم من القائم الناصر لدين الله ، المَعزّ بن باديس للشيخ الصالح الكبير القدر محرز بن خلف ، لطف الله به ، قصد به وجه الله العظيم ، ورجاء ثوابه الجسيم ، وما أمر به السلف المتقدم من إكرام أهل الدين والعلم ، لأن من تبع طريقهم خلص من الشكّ واقتدى ، ومن قصد طريقهم أخرج من الضلالة واهتدى ، وأنقذ من الجهالة والردى ، فإن القصد أن يؤولوا إلى معرفته ويعرفوا اثبات برهانها ، ويراقبوا وحدانيته ، ويتحققوا حقائق ربوبيته وجبروته ، ويحافظوا على أوليائه ، وقد ذكر الله العظيم في كتابه وتزيله ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾⁽⁵⁷⁾ وقال - عز وجل - ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽⁵⁸⁾ . فقد أعلى درجاتهم وأعز منزلتهم ، وأسبغ عليهم نعمه ، وضاعف لهم مواهبه ، ووعدهم برحمته ، فقال وهو أصدق القائلين ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾⁽⁵⁹⁾ الآية ، فأنتم أفاضل أوليائه وأصفيائه وأتقيائه لأن الله جعل من عرف وتبصّر وفتح على باطنه وقلبه بخصوصيتكم فقد أفلح ونجح ، فالله سبحانه يمن على من يشاء من عباده ، ويخص من يشاء بخصوصيته ، وقد جعلكم من أهل اختصاصه بالعلم والعبادة ، ولحظكم بحمّل ملاحظاته ، فأنتم أغصان/ بسقت [194/أ] وفروع شجرتكم التي غرست في أطيب تربة ، ثم سقيت من أعذب الماء ، وغذاؤها بالهواء من الأرض إلى السماء ، ثم نقلت إلى الحضرة السعيدة .

فاقتضى النظر بهذا الظهير لجماعتكم بحفظكم ورعايتكم وحمايتكم وحسن معاملتكم ، وحفظ الأنصار الصائرة إلى حضرتكم وحسم الأيدي الممتدة إلى اساءتكم وأهلكم وأموالكم ورعاياكم بحضرة تونس وباديته وشركائكم وأتباعكم ، ومن عرف بكم ، وانتسب إلى نسبكم ، وأوى إلى جنابكم ، ورفع الأيدي عن عشوركم في قرية أو سانية وقرية الفول وطراش ومابنة⁽⁶⁰⁾ ، ومنزل خارجة ، وقرية الحمام ، وما أطاف

(56) المناقب ص 112 .

(57) سورة يونس : 62 .

(58) سورة النحل : آخر الآية 43 .

(59) سورة البقرة أول الآية 269 ونماها : ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ .

(60) كذا في ت وط ، وفي النص المحقق من المناقب ، وفي ش كما في بعض أصول المناقب : «مابنة» .

بمدينة تونس ، وحرّم دياركم وزاويتكم ورفع الأيدي عن الاعتراض عليكم بدخول النساء بجماماتكم ، وحوانيتكم ، وأجرائكم ومحلكم ، وتسريح أعشاركم ، وأجرائكم على [فارط] رسمكم (وجري عادتكم)⁽⁶¹⁾ طاعين لجميع ما تضمّنه هذا الظهير الكريم ، فلا يغيره مغير عليكم ، ولا يُكذِّره مكدر لديكم ، ولا يخيل فيه متخيل عليكم ، ولا يتناول فيه متناول ، فن وقف على هذا الظهير من العُمّال وسائر الولاة أمره بذلك القائم بالله ، الناصر لدين الله ، وليعمل به ممثلاً لشروطه ، إن شاء الله ، واقفاً عند حدوده وزواجه ، غير عاجل لنفسه بالعقوبة لمخالفته أو مخالفة شيء منه ، إن شاء الله - تعالى - بتاريخ عشر بقين من ربيع الآخر عام سبع [عشرة]⁽⁶²⁾ وأربعمائة⁽⁶³⁾ .

[194/ب] وفي سنة تسع وأربعين وأربعمائة⁽⁶⁴⁾ أخرجت الأعراب مدينة القيروان . قال في «معالم الايمان» : وسببه دعاء الشيخ الواعظ عبد الصّمد فانهم سلطان القيروان - يعني المُعزّ - مع كثرة عساكره وقلة من جاءه ، وذلك أنه كان لعبد الصّمد هذا ولد اسمه مُحَمَّد ، ويُكنى أبا الحسن ، ورد على القيروان ، وكان رجلاً صالحاً فاضلاً واعظاً زاهداً صوفياً عالماً عاملاً ، وكان له مجلس بالجامع الأعظم بالقيروان يجتمع إليه فيه ، ويسمع كلامه ، وله لسان فصيح ، وقلب قريح ، كثير الحزن والبكاء ، والخوف من أولياء الله تعالى المنقطعين إليه ، الخائفين الخاشعين المتبتلين القائمين الصّائمين ، قد ركب طريقة القوم من الزّهد والورع والخشية وصدق المقال في الوعظ ، لم يسلكها في وقته غيره ، فطبق ذكره الآفاق ، وكثر ازدهام الناس عليه في مجلسه لاستماع وعظه ، ومالت إليه القلوب والأسماع ، وكثرت له الأتباع ، حتى حذرّه السلطان ، وخاف على نفسه منه ، فاستعار السلطان منه بعض كتبه وأظهر أنه أحب مطالعة شيء منها ، فأقامت عنده أياماً ثم أمر برديّها ، فتصفح الواعظ أوراقاً منها فوجد فيها ورقة بخط السلطان كأنه نسبا بين أوراق كتابه ، فاذا فيها : زعمت ملوك الفرس وحكماء السيّر والسياسة أن أهل التنمس والوعظ وتأليف العامة واقامة المجالس أضّرّ الأصناف⁽⁶⁵⁾ على الملوك وأقطعهم / أثراً في [195/أ]

(61) كذا في ت و ط ، وفي النص المحقق من المناقب وفي ش «وجريكم على اعدانكم» .

(62) ساقطة من الأصول .

(63) 10 جوان 1026 م .

(64) 1057 - 1058 م .

(65) ساقطة من ش .

الدُّول فيجب أن يُتدارك أمرهم ، ويُبادر إلى حسم الأذى منهم ، فلمَّا قرأ الواعظ أبو الحسن محمد بن عبد الصَّمد البطاقة علم أنها أمر⁽⁶⁶⁾ استعمل له ، وقصد به وَثَّه على الرَّأي فيه ، فاستعمل الحجَّ ، وخرج معه عامَّة وخاصة من أهل القيروان ، وأمر له السلطان بزد فخرج متوجَّهاً إلى الحجَّ في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شهر رجب الفرد سنة إحدى وأربعين وأربعمائة⁽⁶⁷⁾ ، ومعه رجال رُكِّلوا به ليصلوا معه إلى مدينة قابس ، ونهى أن يُشيعه أحد أو يخاطبه الخطاب ، وكان الرفقة الخارجة إلى مصر قد قرب خروجها ، فأمر أن ينتظرها بمدينة قابس إلى أن يصحبها وكتب⁽⁶⁸⁾ عامل قابس بأن لا يدخل إليه أحد هناك ، ولا يجتمع عنده اثنان ، ولا يخرج من المكان الذي يتزل فيه إلا يوم سفره ، فخرج وهو غير آمن على نفسه ، وأظهر السلطان ما كان⁽⁶⁹⁾ يخفيه من أمره ، وصار من ذكره بخير ، أو قال فيه جميلاً مبخوساً⁽⁷⁰⁾ مذموماً حتى صار من كان يفرط في مدحه يظهر الإفراط في ذمِّه خوفاً على نفسه من السلطان ، فلما فصل عن مدينة قابس قتله رجل من الأعراب في طريقه ذلك ، فكثُر الظنُّ من الناس على السلطان أنه دس عليه من قتله ، واختلف النَّاس في ذلك فبعضهم⁽⁷¹⁾ يثبت ذلك له وبعضهم ينفيه عنه ، فلمَّا بلغ الخبر أباه عبد الصَّمد ، وكان في آخر درس وعظه بمسجد عمرو بن العاص بمصر نعا له من عرفه بسبب قتله ، فخرج من وقته قبل أن يرجع لبيته مُكْبِياً / 195/ فحجَّ ذلك العام وجعل يطوف ويتعلَّق بأستار الكعبة⁽⁷²⁾ ويصيح يا ربَّ المُعَزِّ عليك بابن باديس ، فكانت الهزيمة الواقعة بالقيروان في العام الثاني من حجِّه ، وذكر عياض⁽⁷³⁾ أنه حجَّ ورجع اهـ⁽⁷⁴⁾.

هذا هو السَّببُ الباطن ، وأما السَّببُ الظاهر فهو ما أشار إليه ابن خلدون في تاريخه بقوله : « كان المعزُّ ابن باديس قد انتقض دعوة العبيدين بافريقية وخطب للقائم

(66) في ت : « من ».

(67) 1049 - 1050 م.

(68) في ش وت : « وكتب ».

(69) ساقطة من ش.

(70) في ش : « منجوساً ».

(71) في ت : « حتى أن ».

(72) في ن : « البيت الحرام » ، وفي ط : « البيت ».

(73) في ت : « القاضي عياض ».

(74) معالم الإيمان 4. وانظر البيان المغرب لابن عذاري 279/1 - 280.

العَبَّاسِي وقطع الخطبة للمستنصر العلوي سنة أربعين وأربعمائة⁽⁷⁵⁾ ، فكتب إليه المستنصر يتهده ثم إنه استوزر أبا محمد الحسن بن علي اليازوري⁽⁷⁶⁾ بعد الجرجاني⁽⁷⁷⁾ ولم يكن في رتبته ، فخاطبه المعزّ دون ما كان يخاطبه به من قبله ، كان يقول في كتابه إليهم «عبد» ويقول في كتاب اليازوري «صنيعته» فحدد ذلك عليه ، وأغرى⁽⁷⁸⁾ به المستنصر وأصلح بين زُغْبَة ورياح من بطون هلال ، وبعثهم إلى إفريقية وملّكهم كلّ ما يفتحونه ، وكتب : [أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً ، وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً]⁽⁷⁹⁾ ، فساروا إلى برقة فوجدوها خالية ، لأن المعزّ كان أباد أهلها من زناته ، فاستوطن العرب برقة واستحقر المعزّ شأنهم ، واشترى العبيد ، واستكثر منهم ، حتى اجتمع له منهم ثلاثون ألفاً ، وزحف بنو زُغْبَة إلى طرابلس فلكوها سنة ست وأربعين وأربعمائة⁽⁸⁰⁾ ، وجازت رياح والأشبح⁽⁸¹⁾ وبنو عدي إلى إفريقية ، فأضرموها ناراً / ثم سار أمراؤهم إلى المعزّ وكبيرهم مؤنس بن يحيى من بني مرداس من رياح ، فأكرمهم المعزّ وأجزل لهم عطاياه ، فلم يغن شيئاً ، وخرجوا إلى ما كانوا عليه من الفساد ، ونزل بافريقية بلاء لم ينزل مثله بها ، فخرج إليهم المعزّ في جموعه من صنهاجة والسودان نحو من ثلاثين ألف والعرب في ثلاثة آلاف فهزموه وأثنوا في صنهاجة بالقتل واستباحوهم ، ودخل المعزّ القيروان مهزوماً ثم وقع القتال بينهم يوم النحر وهم في صلاتهم فهزموه أعظم من الأولى .

[196/أ]

(75) 1048 - 1049 ، العبر 325/6 .

(76) في الأصول : «علي بن الحسن التازوري» والمثبت من كتاب العبر 30/6 .

(77) في الأصول وفي العبر : «جرجاني» والمثبت من معجم الأنساب والأسر الحاكمة ، ومن رحلة التجاني ص 18 ، وفي بعض أصول العبر : «جرجاني» ، أنظر هامش 1 من كتاب العبر 29/6 .

(78) أي اليازوري ، وفي رحلة التجاني : «الجرجاني هو الذي كان سبب بعث بني هلال» ص 19 ، ويني ابن خلدون ذلك وينسبه إلى اليازوري ، قال : «وقيل إن الذي أشار بذلك وفعله وأدخل العرب إلى إفريقية إنما هو أبو القاسم الجرجاني ، وليس ذلك بصحيح» العبر 30/6 - 31 .

(79) يبدو أن مقديش ينقل من مصدر آخر نقل عن ابن خلدون به تحريف في الأصول نجد «فقد أرسلنا إليك خيولاً ، وحملنا عليها رجالاً فحولاً ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً» والمثبت من كتاب العبر 31/6 ورحلة التجاني ص 19 .

(80) 1054 - 1055 م .

(81) في الأصول : «الأشبح» والمثبت من العبر 30/6 والرحلة 18 .

ثم سار إليهم بعد أن احتشدت زناتة معه فانهزم ثالثة وقُتِل من عسكره نحو من ثلاثة آلاف ، ونزل العرب بمُصَلَّى القيروان ، ووالوا عليهم الهزائم وقُتِل منهم أمماً ، ثم أباح لهم المُعَزُّ دخول القيروان للميرة ، فاستطالت عليهم العامة ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وأدار المُعَزُّ السور على القيروان سنة ست وأربعين وأربعمائة⁽⁸²⁾ ، ثم ملك مؤنس بن يحيى مدينة باجة في التاريخ المذكور ، وأمر المُعَزُّ أهل القيروان بالانتقال إلى المهدية للتحصن بها ، وولى عليها ابنه تيماً ، ثم انتقل إليها سنة تسع وأربعين وأربعمائة⁽⁸³⁾ ، وانطلقت أيدي العرب على القيروان بالنهب والتخريب ، وعلى سائر الحصون والقرى اهـ⁽⁸⁴⁾.

وقال التجاني في رحلته : أنصف الله من الجرجاني⁽⁸⁵⁾ فهو الذي أمكن العرب - يعني المفسدين -⁽⁸⁶⁾ من الدُّخول إلى هذه البلاد ، وعن مكره⁽⁸⁷⁾ / الشيء نشأ بافريقية ما نشأ من الفساد ، فانهم كانوا قبل ذلك نازلين بصعيد أرض مصر ، لا يُحَدِّثُونَ أنفسهم بالجواز إلى هذه الأرض إلى أن ندهبهم الجرجاني⁽⁸⁵⁾ إلى ذلك وأفرج لهم عن طريقهم⁽⁸⁸⁾ ، فأغص منهم أهل هذه البلاد بريقهم⁽⁸⁹⁾ لحاجة كانت في نفسه من افساد هذه البلاد تعجل قضاءها ، ووجد عند⁽⁹⁰⁾ الله بما لقيه من جزائها .

قال ابن بسام في «الذخيرة» : لَمَّا تَغَلَّبَ بنو عَيْدِ الناجمون بافريقية على مصر فخلص لهم صميمها ، وَتَمَّ لهم ملكها ونعيمها ، وأراد معد بن اسماعيل بن محمد بن عبيد الله المُتَلَقَّبُ⁽⁹¹⁾ بالمُعَزِّ لدين الله اقتعاد صهوتها⁽⁹²⁾ وإثبات قدمه على ذروتها⁽⁹³⁾ دعا

(82) 1054 - 1055 م .

(83) 1057 - 1058 م .

(84) حوصل كلام ابن خلدون ، انظر كتاب العبر 28/6 - 35 و 325 - 326 .

(85) في الأصول : «الجرجاني» وفي الرحلة : «الجرجاني الأقطع» وكذلك في كتاب العبر ، قال ابن خلدون : «يلقب بالأقطع ، بما كان أقطعه الحاكم بجناية ظهرت عليه في الأعمال وانتفضته السيدة بنت الملك عمة المستنصر» 29/6 .

(86) زيادة من المؤلف .

(87) في رحلة التجاني «فكرة» ص 16 .

(88) أشرنا سابقاً أن ابن خلدون يني هذا عن الجرجاني ويعمله البازوري .

(89) في الأصول : «يريد بهم حاجة» والمثبت من الرحلة ص 16 .

(90) ساقطة من الأصول .

(91) بعدها في الأصول : «كان من الألقاب السلطانية» أسقطناها تقريباً للسياق وطبقاً للرحلة التي ينقل عنها المؤلف .

(92) في ط : «صوتها» وفي ش : «صموتها» والمثبت من الرحلة .

(93) في الأصول : «دولتها» والمثبت من الرحلة .

زيري بن مناد وهو يومئذ من صنهاجة بمكان السَّنام من الغارب ، وبمنزلة الوجدان من نفس الطالب ، وكان له عشر من الولد آساد شَرى وأقمار سَرى فقال له : ادع لي بنيك ، فقد عملت رأيي فيهم وفيك ، وكان أصغرهم سَيّا ، وأهونهم شَأنا ، يوسف بن زيري فدعا ولده ما عداه ، والمُعزّ ما يريد سواه ، وكان عند المُعزّ إثارة من علم الحدّثان ، وقد عرف بها مصاير أحواله ، وأهل الغناء⁽⁹⁴⁾ من أعيان رجاله ، وكانت عنده لخليفته على إفريقية⁽⁹⁵⁾ إذا صار إليه ملك مصر علامة⁽⁹⁶⁾ يَأْنَس بها أنس الكبير بذكر شبابه ، ويعرفها عرف العاشق بدار / أحبابه ، فنظر في وجوه بني زيري فأنكرها حين تفقد تلك العلامة ، فلم يرها فقال لزيري : هل غادرت من أبنائك أحداً . فلست أرى لمن هاهنا منهم أيدا [ولا بدا]⁽⁹⁷⁾ فقال له : لا الا غلاما [وطفق]⁽⁹⁸⁾ يصغّر شأنه ، والمقدار قد عناه وأعانه ، ويطوي أخباره والاختيار يدير عليه مداره ، فقال له المُعزّ : لا أراك حتى أراه ، فلست أريد سواه ، فلما رآه عَرَفَه ، وقوّض إليه من حينه واستخلفه ، فاستولى من وقته على الأمور ، وزاحمت مهابته الأهواء في الصدور ، وبعدت أسفاره ، واشتهرت أخباره ، واشتمل على طرف الليالي والأيام إirاده وإصداره ، فبلغ بغزواته سيّئة ، ثم أجاب صوت مناديه ، وخلع الامارة على أعطاف بنيه ، حتى انتهت منهم إلى المُعزّ بن باديس شرف⁽⁹⁹⁾ العشيّة ، وآخر ملوكهم المشهورة ، فأول ما افتتح به شأنه وأثبت به - فيما زُعم⁽¹⁰⁰⁾ - سلطانة ، قتل الرافضة ومراسلة أمير المؤمنين ببغداد ، فكذب إليه بعهدده ، وجاءت الخلعة⁽¹⁰¹⁾ واللقب من عنده ، واتّصل ذلك بالجرجرائي وهو المتحكّم في الدّولة العبيدية ، فاضطّغنها عليه ، وفوّق سهام مكروهه إليه⁽¹⁰²⁾ ، وكان بطون من بني عامر بن صعصعة زغبة ، والأثبج⁽¹⁰³⁾ ، وعدي ، ورياح ، وغيرهم تنزل بالصّعيد لا يباح لها

(94) في الأصول : « العناية » والمثبت من الرحلة ص 17 .

(95) ساقطة من الأصول .

(96) في الأصول : « علامات » والمثبت من الرحلة .

(97) في الأصول : « يدا » والمثبت والاضافة من الرحلة ص 17 .

(98) اضافة من الرحلة .

(99) في الأصول : « مترف » والمثبت من الرحلة .

(100) في الأصول : « زعم » والمثبت من الرحلة .

(101) في الأصول : « الخلافة » والمثبت من الرحلة ص 17 .

(102) كذا في ط وفي الرحلة ، وفي ت وش : « عليه » .

(103) في الأصول : « الأشج » والمثبت من الرحلة ص 18 .

بالرحيل ، ولا يخلى بينها وبين إجازة النيل ، فأفرج لهم الجرجرائي عن السَّيْل ، وأذن لهم في المعزّ أمنية طالما سرت إليها أطماعهم ، فغشيه / منهم سَيْلُ العرم ، ورماه منهم بدؤلُول⁽¹⁰⁴⁾ وابنة الرّقم⁽¹⁰⁵⁾ وتهاون المعزّ بهم أولاً فشغلهم بخدمته ، وأثقلهم بأعباء نعمته ، وهم في خلال ذلك يتحرسون لحياته⁽¹⁰⁶⁾ ، ويدبّون إلى أنصاره وحماته ، ويطلعون على مقاتله وعوراته ، حتى بان لهم شأنه وهان⁽¹⁰⁷⁾ عليهم سُلْطَانه ، فجأهروه بالعداوة ، وأرادوه على الإتاوة⁽¹⁰⁸⁾ ، وجرت بينهم أثناء ذلك حروب كان من أفرأها لأديمه ، وألصقها بصميمه وقعة «حيدران»⁽¹⁰⁹⁾ سنة أربع وأربعين وأربعمائة⁽¹¹⁰⁾ فانها أوهنت بطشه ، وثلّت عرشه ، وأحاط الأعراب بالقيروان وانبسطوا في البلاد يخطفون حريمها ، ويتعرّضون راحلها ومقيمها ، إلى أن أعطاهم الدّية⁽¹¹¹⁾ وناشدهم التّقية ، واشترط المهدية ، وقد كان نظر في ماله وفكر (فيمن بازائه من أقباله)⁽¹¹²⁾ فزَفَ إلى زعمائهم بنات كُنَّ نجوم اللّيلي ، وأماني المغالي فأصبحوا له أصهارا ، وقاموا دونه أنصارا ، ثم استجاش من قبله ، واحتمل حرمه وثقله وترك الملك لمن حمّاه وحمله⁽¹¹³⁾ ، وجاء بأنصاره فكانوا بحيث يسمعون نثيمه⁽¹¹⁴⁾ ويمنعونه ممّن عساه أن يكيدّه أو يضيّمه ، حتى بلغ المهدية أسقط من الشمس في الميزان (وأوهن من الفقر عند العيان)⁽¹¹⁵⁾ .

قوله في هذا الفصل فأول ما افتتح به شأنه ، وثبت به - فيما زعم⁽¹¹⁶⁾ - سلطانه ، قتل الرافضة ، كان المعزّ لا يزال يتحامل على بني عبّيد ، وبلغهم خفية ، / ويؤذي

(104) في الأصول : «زهلول» والمثبت من الرحلة ص 18 .

(105) في الأصول : «أرقم» .

(106) في الرحلة «يتحرسون بجهاته» .

(107) في الأصول : «وعز» .

(108) في الأصول : «الاثارة» .

(109) في ش : «جندار» والمثبت من الرحلة ص 18 .

(110) 1052 - 1053 م .

(111) في الرحلة : «الدنية» .

(112) في الأصول : «برأيه من إقباله» .

(113) في الأصول : «حرمه» .

(114) في الأصول : «قيمه» .

(115) في الرحلة : «وأوهن من الفقير على القيان» .

(116) في الأصول : «عزم» .

أشباعهم حتى آل الأمر به إلى التصريح بلعنهم على المنابر (جهره) ⁽¹¹⁷⁾ وقتل أشباعهم المرة بعد المرة ، وتتبعهم في الأقطار بالقتل ، وكان قبل ذلك يكاتب الوزير الجرجاني مستملاً له ومعرضاً بالتحزب معه على بني عبيد ، وإنما يفعل ذلك رمزاً وتعريضاً له [لعله] ⁽¹¹⁸⁾ يرى منه قبولاً له فيجد في السعي معه على القوم ، وكتب إلى الجرجاني مرة بخطه قطعة تمثل بها منها :

[بسيط]

وفيك صاحبت قوماً لا خلاق لهم ، لولاك ما كنت أذري أنهم خلّقوا

يشير إلى بني عبيد الله ، ويزعم أنه إنما أبقي عليهم بعض الإبقاء من أجل حبه فيه ، فلما وقف الجرجاني عليها قال : ألا تعجبون من أمر ⁽¹¹⁹⁾ صبي مغربي بزري يحب أن يخدع شيخاً بغدادياً عريئاً ، وإنما اتهمه بأنه فعل ذلك ليوقع بين القوم ووزيرهم إن عثروا على هذه الرموز ، ثم قال الجرجاني : والله لا جيشت له جيشاً ولا تحملت فيه نصباً ، وكلف العرب العبور بمجاورة النيل ، ولم يأمرهم بشيء لعلهم أنهم لا يحتاجون إلى وصاية ، وكتب إليه معهم : «أما بعد فقد أرسلت إليك خيلاً ⁽¹²⁰⁾ فحولا ، وحملنا ⁽¹²¹⁾ عليها رجالا كهولا ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً» ⁽¹²²⁾ ، وقد كان كتب إليه قبل ذلك كتاب تهديد ووعيد وقال فيه : إن لم ترجع عن رأيك أتتك الجيوش موصلة بسنابك خيلها ، ناسخة بنقعها ووميضها ⁽¹²³⁾ حكم نهارها وليها .

وقوله : فأفرج لهم عن السبيل أمنية طالما سرت إليها أطماعهم ، ليس كذلك ، فالمنقول أنه لما كلفهم العبور امتنعوا ، / فجعل لكلّ عابر فرّوا وديناراً فحينئذ جازوا ، ثم لمّا وصلوا إلى بلاد إفريقية واستطابوها كتبوا لآخوانهم في اللحاق بهم فلم يتركهم الجرجاني أو يؤدي كلّ عابر فرّوا وديناراً ، فأخذ بذلك أكثر ممّا أعطى ، وقوله : وكانت

(117) إضافة من المؤلف .

(118) إضافة من الرحلة .

(119) في الرحلة : «من هذا الأمير ، صبي...» .

(120) ساقطة من الأصول .

(121) في الأصول : «مطلقاً» .

(122) سبق أن ذكر هذه القولة في النص الذي أخذ من ابن خلدون وهي من التكرار الذي تعدد بالنسبة لعدة أحداث نقلها مرتين ، مرة عن ابن خلدون ومرة عن التجاني .

(123) في الأصول : «ووميضها» .

من أفرأها لأديمه وقعة «حيدران»⁽¹²⁴⁾ - حيدران -⁽¹²⁴⁾ اسم جبل معروف بمقربة من القيروان ، كانت الواقعة به وكان جيش المَعزِّ ثلاثين ألفاً ومبلغ جيش الأعراب ثلاثة آلاف ، فهزم جيش المَعزِّ ومن سلم منهم من القتل لم يسلم من التَّهَب ، وفي ذلك يقول علي بن رزق⁽¹²⁵⁾ الرِّياحي أحد أولائك الأعراب من قصيدة⁽¹²⁶⁾ .

[طویل]

ثلاثة آلاف لنا غلبت له ثلاثين ألفاً إنَّ ذَا لِنِكَالٍ⁽¹²⁷⁾

واسم الجرجرائي أحمد بن علي ، ويُكنى بأبي القاسم ، كان أحد رجال الدنيا سياسة ودهاء وبعْدَ غور ونفوذ فكرة ، ووَزَرَ للظاهر العبيدي بمصر ثم لابنه المستنصر ، وعُتِبَ عليه الظَّاهِر في أمر فِطْطِ يَدَيْهِ مَعًا ففُطِّعَتَا فخرج من فوره وجلس بدسته لخدمته⁽¹²⁸⁾ على عادته ، وقال : إن الخليفة إنما أمر بقطع يدي عقوبة لي ولم يعزلي ، فاستعظم له الظَّاهِر ذلكَ وشَرَفَ لديه ، وكان ذلك سبباً لارتقائه إلى الوزارة ، وكان كثير المصادرة للعمَّال وربما صرَّح لهم بقوله : أَيْتِمَ الا الخيانة ، فقال فيه أبو طالب محمد بن عبد الله الأنصاري :

[مجزوء الكامل]

[1/199]

اغْمِذْ لِسَانَكَ وَتَزِمِ طُرُقَ السَّلَامَةِ ⁽¹²⁹⁾ وَالصَّيَانَةَ /
كَمْ ذَا تَقُولُ أَبَيْتُمْ إِلَّا الْجَنَائِيَةَ ⁽¹³⁰⁾ وَالْحَيَانَةَ
أَتْرَاهُمْ قَطَعُوا يَدِيكَ عَلَى التَّزَاهَةِ وَالْأَمَانَةِ

(124) في الأصول : «جندار».

(125) في الأصول : «زروق».

(126) في الرحلة: «من قصيدة اشتهرت في زماننا أولها» أي زمن التجاني.

(127) وفي رواية أخرى :

[طویل]

ثلاثون ألفاً منكم هزمهم ثلاث آلاف اذا لتكـال

راجع البيان المغرب 290/1.

(128) في الأصول: «لديست خدمته» والمثبت من الرحلة ص 21.

(129) في الأصول : «الصيانة» .

(130) في ت : «الجيانة» ، وفي ش : «الجبانة» ، وفي ط : «الجباية» والمثبت من الرحلة .

وتوفي سنة ست وثلاثين وأربعمائة⁽¹³¹⁾.

ومن الناس من نسب إجازة العرب لغير الجُرْجَرَانِي واستدلَّ على ذلك بما ذكر من تاريخ موت الجرجرائي ، وإنَّما كان جواز العرب بعد ذلك بأعوام ، وقال : إن المجيز لهم أبو محمد الحسن بن علي اليازوري ، وقد كانت وزارته بعد الجُرْجَرَانِي ، ولا يبعد أن يكون هذا هو الصحيح⁽¹³²⁾.

فلما رأى⁽¹³³⁾ المُعِزُّ اختلال الأحوال ، وتغلَّب الأعراب على البلاد علم أن صَبْرَةَ لا تحصى منهم ، فبنى على الانتقال إلى المهديَّة ، فولَّى ابنه تيميا عليها ، وذلك في سنة خمس وأربعين وأربعمائة⁽¹³⁴⁾ ، وجعل ينقل إليها أهله وذخائره شيئاً فشيئاً ، وكان رجاله وخاصته حذروه من تولية ابنه تيميا ، وخوفوه أن يستبدَّ بنفسه ويمتنع بالمهديَّة من أبيه ، فلم يسمع منهم ، ووصل تميم إلى المهديَّة فوجد بها عبيداً لأبيه كان قد أعدَّهم هنالك لضبطها ، قد قويت شوكتهم ، وكثر ملاهم⁽¹³⁵⁾ ، ف وقعت بين عبيده وبينهم فتنة ومنازعة ، فأطلق عليهم أبدي العامة فقتلوا أكثرهم ، وفرَّ من بقي منهم إلى المعزِّ بصبرة ، فاتبعهم تميم طائفة من الأعراب لحقوهم قبل وصولهم إلى صبرة فقتلوهم أجمعين ، وبلغ المُعِزُّ ذلك فقوي⁽¹³⁶⁾ في نفسه ما كان يذكر له عن تميم من الإستبداد والاستئثار / بما حصلَ لديه من الذخائر ولكِنَّه لم يجد بُدّاً من مداراته ، والاعضاء له عن فعلته .

[199/ب]

فلما كانت سنة تسع وأربعين وأربعمائة⁽¹³⁷⁾ توجَّهَ إلى المهديَّة في خفارة رجلين من العرب قد كان صاهرهما ببنْتَيْهِ يعرف أحدهما الفضل بن أبي علي وهو مرداسي ، ويعرف الآخر بفارس بن أبي الغيث توجها إليه فاستخرجاه من صَبْرَةَ سِرّاً ، وأحس باقي الأعراب بخروجه فلحقوه في أثناء الطريق فواقفهم⁽¹³⁸⁾ فارس بن أبي الغيث في جماعة من قومه ، وجعل يؤيَّبُهُم على الاستخفاف بخفارته ، فقالوا له : إنك قد أعظمت التحامل علينا في خفارة مثل المُعِزِّ ، وترَكْنَا له عظيم ، والفائدة في أخذه كبيرة فلا

(131) 1044 - 1045 م .

(132) نقل بتصريف سير في الالفاظ واسقاط بعض الجمل من الرحلة 16 - 22 .

(133) الانتقال إلى ص 328 من الرحلة .

(134) 1053 - 1054 م .

(135) في الأصول : « مالم » والمثبت من الرحلة ص 329 .

(136) في الأصول « فقرأ » .

(137) 1057 - 1058 م .

(138) في الأصول : « يدافعهم » .

تمنعنا منه ، فلم يزل يوافقهم⁽¹³⁸⁾ ويراجعهم إلى أن خلّص المُعزّ وصاحبه الفضل بن أبي علي ودخل المهديّة ، ويقال أنه قد كان أخرج بعض قطعه البحرية وسيرّها في البحر مُحاذية له خوفاً ممّا عساه أن يعرض له في طريقه ، فلماً لحقه الأعراب ناداه أرباب القطع بالبدار إليهم ليعتصم بالبحر من أولئك الأعراب فليجّ في السير وأبى من الدخول إليهم (وأنفت منه نفسه)⁽¹³⁹⁾ ، إلى أن خلّص ، فدخل المهديّة وهو خائف من ولده تميم أن يقبض عليه ، فخرج تميم للقائه ، وترجّل وقبّل الأرض بين يديه ، ومشى أمامه ، ولم يزل في خدمته وبره إلى وفاته⁽¹⁴⁰⁾ .

«وكان⁽¹⁴¹⁾ / أهل سوسة خالفوا على المعزّ سنة خمس وأربعين وأربعمائة⁽¹⁴²⁾ [أ/200] ومنعه ما كانوا يحملون إليه من المال وقالوا : نحن أولى به لنذبّ عن بلدنا ، وتوفّت أخت المعزّ عندهم فضمّوا أموالها ، وأبوا توجيهاً إليه ، فبعث إليهم المعزّ في ذلك ، فقالوا لرسوله : كيف ندفع له أموالاً نتقوى بها نحن عن مدافعتة وحرّبه ، وبعث إليهم المعزّ من المهديّة أسطولاً ضخماً فأصبح بمرسى سوسة ، فأحرق ما فيه من المراكب ، وكانت نيفاً وستين مركباً أكثرها لأهل سوسة ، فعمد أهل سوسة إلى من كان عندهم من أهل القيروان فأخذوا أموالهم ، وأهانوهم أشدّ الإهانة ، فوجّه إليهم المعزّ جيشاً فيه مائة فارس وأمرهم أن يتظافروا مع الأسطول على حصار سوسة ليأخذوا بمخنفها برّاً وبحراً ، فكان من قدر الله الغريب الاتفاق أن اجتاز على سوسة يوم خروج هذا الجيش أسطول من قبل صاحب صقلية فتبيّه⁽¹⁴³⁾ أسطول المعزّ ، فانصرف راجعاً إلى المهديّة ولا علم عند المعزّ بذلك ، فوصل جيش المعزّ إلى سوسة فسألوا عن الأسطول فأخبروا باقلاعه ، فسقط في أيديهم ، فخرج أهل سوسة ومن حف بها من الأعراب فأدخلوهم إلى المهديّة وأعلوا⁽¹⁴⁴⁾ السيف على جميعهم ونصبوا رؤوسهم على السور ، قال ابن شرف : أخبرني من شاهدها أن عدتها نيف وخمسون رأساً ، وإتّما سلم من سلم من

(139) بعدها في الأصول : «فجد في السير» أسقطناها لأنها تكرر سابقتها ، وفي رحلة التجاني التي ينقل عنها : «وأبى من الدخول إليهم أنفة منه وجلدا» .

(140) رحلة التجاني بتصرف يسير 328 - 330 .

(141) ينتقل إلى موضع آخر من الرحلة ص 28 .

(142) 1053 - 1054 م .

(143) في الأصول : «فتبيّأ له» واللبت من الرحلة ص 29 .

(144) في رحلة التجاني : «فأجلوا» .

[200/ب] الجيش لضعف في دوابهم منهم / من اللحاق باخوانهم ، فلمّا تحقّقوا الخبر ولّوا راجعين فسلّموا بذلك ، فمات (145) المعزّ وسوسة مخالفة [عليه] .

تميم بن المعزّ:

فلما ولي ابنه تميم أنابوا له فعفا عنهم وتغمّد ذنوبهم وذلك سنة ست وخمسين وأربعمائة (146) «[وتوفي المعزّ بضغف الكبد (147) وكان موته بالقيروان ولم تطل مدّة أحد من أهل بيته في الولاية كمُدَّتِه» (148) .

ولما تولى تميم استبدّ بالملك (149) «ولمّا (150) كانت سنة ثمانين وأربعمائة (151) وقع ما وقع من (استيلاء الافرنج) (152) على المهديّة وزُوِيْلَة وأَسْرُوا (153) أهلها وقتلوا من شاقوا منهم وأحرقوه بالنار ، وكانت عِدَّة القطع التي نزلوا بها عليها ثلاثمائة قطعة تشتمل على ثلاثين (154) ألف مقاتل ، قال أبو الصِّلْت : وكَسَفَت الشَّمْس في هذا العام ببرج الأسد طالع تخطيط المهديّة كسوفًا كليًا مزج بهذا الواقع (155) بأثر ذلك ، قال : وكان من أعظم الأسباب [فيه] - مع قضاء الله تعالى الذي لا يَرُد - غِيْبُهُ عسكر السُّلْطَان عن المهديّة ومفاجأة الروم دون استعداد لهم وأخذ أهبة للقائهم وخُلُو كَافَّة النَّاس عن السِّلَاح والعُدَد وقصّر الأسوار وتهدّد بها وتكذيب تميم بما يَرِد عليه من أخبار النُّصَارَى وسوء رأي فلان (156) متولّي البلاد ومدبّرهما اذ ذاك في المنع من الخروج إليهم ولقائهم في الماء فتركوا إلى أن نزلوا

(145) في 4 شعبان 454/13 أوت 1062 م الرحلة ص 29 ، الوفيات 342/5 ، وقيل في سنة 455 .

(146) 1063 - 1064 م رحلة التجاني ص 28 - 29 بتصرف يسير .

(147) كذا في ت وط والوفيات . وفي ش : «الكبر» .

(148) وفيات الأعيان 234/5 .

(149) بعدها في ت : «ووقف لتنظيمه» .

(150) ينتقل إلى موضع آخر من الرحلة ص 331 .

(151) 1087 - 1088 م .

(152) في الرحلة : «من نزول أهل يشرّ وجنوة من النُّصَارَى» .

(153) في الرحلة : «وسبوا» .

(154) في الأصول : «ثلاثمائة» والمثبت من الرحلة التي ينقل عنها المؤلف ، وكذا عدد المقاتلين في البيان المغرب 301/1 .

(155) في الرحلة : «فجرى بها هذا» .

(156) هو عبد الله بن منكور كما في البيان المغرب 301/1 .

في البرّ ، وكان من تغلبهم على المهديتين⁽¹⁵⁷⁾ وعيشهم فيهما ما هو مشهور ، قال التجاني :
«ولجأ تميم إلى قصره المعروف / بقصر المهدي وهو قصر حصين ، فأقام به إلى أن وقع [أ/201]
الصلح بينه وبينهم على مائة ألف دينار تدفع لهم ويقلعون بما حصل في أيديهم من
المسلمين ، فدفعت لهم وأقلعوا بأموال المسلمين ونسائهم وأبنائهم ، وفي ذلك يقول
أبو الحسن [علي] بن محمد بن الخلدّاد في قصيدة طويلة .

[منسرح]

غزا حمانا العدو في عدد هم الدبا⁽¹⁵⁸⁾ كثرة أو النّغف⁽¹⁵⁹⁾
عشرون ألفا ونصفها اثتلفوا⁽¹⁶⁰⁾ من كل أوب⁽¹⁶¹⁾ لبشما⁽¹⁶²⁾ اثتلفوا
جـاؤوا على غرة إلى نفر قد جهلوا في الحرب ما عرفوا

وأقام تميم بعد ذلك بالمهدية⁽¹⁶³⁾ .

قال في «معالم الايمان» : «إن الشيخ عبد الحميد الصابغ قيرواني سكن سوسة ، وأن
العزّ صاحب المهديّة لمّا أراد تولية أبي الفضل بن شعلان قضاء المهديّة شرط ابن شعلان
أن لا يتقلد ذلك إلّا باستجلاب عبد الحميد إلى المهديّة ليقوم بفتواها - اذ لا يرى
استفتاء أحد من فقهاء الأمور - فجلب له ولزم المهديّة ودارت عليه فتواها ، فلمّا (تغير
أهل)⁽¹⁶⁴⁾ سوسة على تميم قبض على جماعة فيها ابن عبد الحميد ، فضربه وغرمه
خمس مائة دينار ، فباع فيها عبد الحميد كتبه ، فكانت سبب اقتباض عبد الحميد عن
الفتيا ، فلقبه بعد ذلك تميم واعتذر إليه ، فلم ينفعه ، ولزم الانقباض ولزم داره ولم يفت
في شيء ، وجعل لا يجالس أحدًا وتَحَيَّل في الخروج إلى سوسة بعلّة المداواة لحسن
هوائها ، فبقي على حالته تلك ستة أعوام إلى أن دخل / الافرنج المهديّة واستباحوا أهلها [ب/201]

(157) كذا في الأصول والرحلة ، وفي البيان المغرب : «المدينتين» 301/1 .

(158) في الأصول : «بنت الرّبي» والتصويب من الرحلة ص 332 .

(159) في ش : «النّفقا» وفي ط : «النّفق» .

(160) في الأصول : «لبنثلّوا» .

(161) في ط : «أرب» .

(162) في الأصول : «بشما» .

(163) وبعدها في الرحلة : «إلى أن مات سنة إحدى وخمسمائة 1107 - 1108 م» ، انظر الرّحلة ص 332 - 333 ، نقل
عنها بتصرف يسير .

(164) في المعالم : «شقت سوسة» .

ودخلوا قصر صاحبها⁽¹⁶⁵⁾ فانكسر بعد ذلك تميم ودائرته وهان على الناس ، فظهر⁽¹⁶⁶⁾ عبد الحميد ورجع إلى حالته الأولى وأفتى ودرس وانتفع به إلى أن مات - رحمه الله تعالى - اهـ⁽¹⁶⁷⁾.

وكانت ولادة تميم بالنصورية⁽¹⁶⁸⁾ يوم الاثنين ثالث عشر⁽¹⁶⁹⁾ رجب سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة⁽¹⁷⁰⁾ ، وتوفي ليلة السبت منتصف رجب سنة إحدى وخمسمائة⁽¹⁷¹⁾ ، ودُفِن في قصره ، ثم نُقل إلى قصر السيدة بالمنستير ، وخلف من البنين أكثر من مائة⁽¹⁷²⁾.

أبو زكرياء يحيى :

فتولّى بعده ولده أبو زكرياء يحيى بالمهدية .
كان تولّى عن أبيه يوم الجمعة لأربع بقين من ذي الحجة سنة سبع وتسعين وأربعمائة⁽¹⁷³⁾ والطلّال الدرجة السابعة من الجدي ، واستقلّ بالأمر يوم وفاة أبيه ، وكان عمره يوم استقلاله ثلاثاً وأربعين سنة وستة أشهر وعشرين يوماً .
ونقل ابن خلكان عن «أخبار الجمع والبيان في أخبار القيروان»⁽¹⁷⁴⁾ أن الأمير تميم قبل وفاته بمدة يسيرة دعا ولده يحيى المذكور ، وكان في دار الامارة مع خاصّته وجلسائه ففضى يحيى ومن معه إليه فوجدوا تميمًا في بيت المال ، فأمرهم بالجلوس ، ثم قال

(165) في المعالم : «ودخلوا جلّ قصورها» .

(166) قال العلامة الحَجَوِي في «الفكر السامي» 51/4 : «وأنا لا أعجب من انبساطه وانقباضه لقد فسدت أحوال وأخلاق ذلك الزمان ، ولذلك كانت دولة افريقية في اضمحلال حيث صارت أفكار أكابر علمائها وأعمال أمرائها إلى ما سمعت» .

(167) معالم الايمان 200/3 - 201 .

(168) في الأصول : «بالنصورة» والمثبت من الوفيات 305/1 .

(169) ساقطة من الأصول .

(170) 6 جويلية 1031 م .

(171) 1 مارس 1108 م .

(172) نقل المؤلف ترجمة تميم من الوفيات 305/5 - 306 .

(173) 19 سبتمبر 1104 م .

(174) لعز الدين عبد العزيز بن شدّاد بن تميم بن المعز بن باديس ، وهذا الكتاب مفقود الآن .

لأحدهم : قمّ وادخلْ ذلك البيت وخذْ منه الكتاب الذي صفته كذا في مكان كذا ،
فقام وأتى به ، وإذا هو كتاب مَلْحَمَة ، فقال له : عدّ من أوله كذا وكذا ورقة ، وقرأ
الصفحة التي تنتهي / إليها ، [فقرأها] ⁽¹⁷⁵⁾ فإذا فيها «الملك المغدور وهو الطويل القامة
الذي بوركه الأيسر خال وفي جنبه ⁽¹⁷⁶⁾ الأيسر شامة» فقال له الأمير تميم : «أمّا العلامتان
فقد رأيتهما ، وقد بقيت عليّ الثالثة ، قمّ أنت يا شريف وأنت يا فلان حتى تُحقّقا ⁽¹⁷⁷⁾
عندي خبر العلامة الثالثة ، فقاموا وقام يحبى معهم إلى موضع مسْتَوٍ عن تميم ، وكشف
لهم عن جسمه ، فرأوا على جنبه الأيسر [شامة] هلالية الشكل ، فأتوا تيميا فعرفوه ،
فقال : لم أعطه أنا شيئاً ، الله الذي أعطاه» اهـ ⁽¹⁷⁸⁾.

ولما ⁽¹⁷⁹⁾ جلس في الملك قام بالأمر وعدل في الرّعية وفتح قلاعاً لم يتمكّن أبوه من
فتحها .

وفي سنة سبع وخمسمائة ⁽¹⁸⁰⁾ أتى إلى المهديّة قوم ⁽¹⁸¹⁾ غرباء قصدوا يحبى بمطالعة
زعموا فيها أنهم من أهل الصّناعة الكُبرى ⁽¹⁸²⁾ الواصلين إلى نهايتها ، فأذن لهم في الدّخول
عليه (فلما مثلوا بين يديه طال بهم بأن يُظهِروا له من الصّناعة ما يقف عليه) ⁽¹⁸³⁾ فقالوا :
(نُدبِر القَصْدِير) ⁽¹⁸⁴⁾ حتى يرجع لا فرق بينه وبين الفِضّة وَلَمَوْلَانَا من السُّروج ⁽¹⁸⁵⁾
والقُضْب والبنود والقياب ⁽¹⁸⁶⁾ والأواني قناطير من الفِضّة يُجعل عوضها [منها] ما تُريد
وتستعمل جميع ذلك في مُهمّاتك ، وسألوه أن يكون ذلك في خلوة ، فأجابهم وأحضرهم
للعمل ، ولم يكن عند الأمير يحبى سوى الشريف أبي الحسن علي والقائد إبراهيم قائد

(175) ساقطة من الأصول .

(176) في الأصول : «جانيه» .

(177) في الأصول : «يتحقق» والمثبت من الوفيات .

(178) وفيات الأعيان من ترجمة يحبى بن تميم 211/6 - 212 .

(179) عود إلى النقل من الوفيات .

(180) كذا في الوفيات 1113 - 1114 م ، وفي البيان المغرب : «تسع وخمسمائة» .

(181) رجلاّن أو ثلاثة ذكروا أنهم من طلبة المصامدة ، البيان المغرب 305/1 .

(182) أي صناعة الكيمياء التي تقلب المعادن الخسيسة إلى معادن شريفة (الذهب والفضة) .

(183) ساقطة من ش .

(184) في الوفيات : «نحن نزيل من القصدير التدخين والصيرير حتى» .

(185) في الأصول : «سرج» .

(186) زيادة من المؤلّف عمّا هو موجود بالوفيات .

[202/ب]

الأعنة. وكانوا هم ثلاثة ، وكانت بينهم اماره ، فأمكنتهم الفرصة ، فقال أحدهم : دارت البوتقة فتواثبوا⁽¹⁸⁷⁾ وقصد⁽¹⁸⁸⁾ كل واحد منهم واحدًا بسكاكينهم ، / فأما الذي قصد الأمير يحيى فقال : أنا سراج ، وكان يحيى جالسًا على مصطبة فضربه فجاءت على رأسه⁽¹⁸⁹⁾ ، فقطعت طاقات من العمامة ، فلم تؤثر في رأسه ، وانجرت⁽¹⁹⁰⁾ يده بالسكين على صدره فخدشته ، وضربه يحيى برجله ، فألقاه على ظهره⁽¹⁹¹⁾ فسمع الخدم الجلبة ففتحوا باب القصر من عندهم ، فدخل يحيى وأغلق الباب دونهم ، وكان زعيم زبي أهل الأندلس ، فقتلوا وقتل في البلد جماعة ممن كان على زعيمهم ، وخرج الأمير يحيى في الحال ، وركب في البلد ، وسكن الفتنة ، وتحقق نعته في كتاب الملاحم بالمقدور في هذه الواقعة .

وكان عادلاً في دولته ضابطاً لأمر رعيته عارفاً بدخله وخرجه ، مُدبراً في جميع ذلك على ما يوجب النظر العقلي ، وكان كثير المطالعة لكتب الأخبار والسير عارفاً بها ، رحيماً للضعفاء شفيقاً على الفقراء يطعمهم في الشدائد ويرفق بهم ، ويُقرب أهل العلم والفضل من نفسه ، وساس العرب في بلاده فهابوه وانفكت⁽¹⁹²⁾ أطماعهم ، وكان له نظر حسن في صناعة النجوم والأحكام ، وتوفي يوم الأربعاء عيد النحر سنة تسع وخمسمائة⁽¹⁹³⁾ فجأة وكان ولده علي نائباً على صفاقس [فأخضر] وعقدت له الولاية ، ودفن يحيى بالقصر على ما جرت به العادة ، ثم نُقِلَ بعد سنة لقصر السيدة بالمنستير ، وخلف ثلاثين ولداً ذكوراً .

علي بن يحيى وابنه الحسن :

[203/أ]

وكانت ولادة علي بالمهدية / صبيحة يوم⁽¹⁹⁴⁾ الأحد لخمس عشرة ليلة خلت من صفر سنة تسع وتسعين وأربعمائة⁽¹⁹⁵⁾ ، وكان أبوه قد ولّاه صفاقس ، فلما مات أبوه

(187) في ت وط : «فتوا» ، وفي ش : «فتوا» والمثبت من الوفيات .

(188) في ت : «وثق» وفي ط وش : «فقد» والمثبت من الوفيات .

(189) في الوفيات : «على أم رأسه» .

(190) في الوفيات : «أسترخت» .

(191) وفي البيان المغرب : «بقي يعاني جرحه حتى مات وقال له حين جرحاه : أيها الكلب نحن أخواك فلان وفلان ، نفيتنا وبقيت في الملك» 305/1 .

(192) في الوفيات : «انكفت» . في الأصول : «ليلة» .

(193) 25 أبريل 1116 م . (194) 27 أكتوبر 1105 م .

اجتمع أعيان دولته على كتاب كتبوه إليه عن أبيه يأمره بالوصول إليه مسرعاً ، فوصل الكتاب ليلاً ، فخرج لوقته ومعه طائفة من أمراء العرب ، وجدَّ في السير ، فوصل الظهر يوم الخميس الثاني من يوم العيد ، ودخل القصر ولم يقدم شيئاً على تجهيز أبيه والصلاة عليه ، ودُفنه صبيحة يوم الجمعة ثالث عشر ذي الحجة ، ولم يزل علي على أمورٍ جارية على السَّداد إلى أن توفي يوم الثلاثاء لسبع بقين من ربيع الآخر سنة خمس عشرة وخمسمائة⁽¹⁹⁶⁾ ودُفن بالقصر بعد أن فُوض الأمر من بعده إلى ولده الحسن بن علي ، المولود بسوسة في رجب سنة اثنتين وخمسمائة⁽¹⁹⁷⁾ ، وتولى وعمره اثني عشرة سنة وتسعة أشهر ، وعليه خرج لبحار الكافر اللعين من صقلية⁽¹⁹⁸⁾ وسيأتي تفصيل ذلك - إن شاء الله - في المقالة الثامنة في ذكر دولة الموحِّدين ، والله أعلم .

(196) 11 جويلية 1121 م .

(197) فيفري 1109 م .

(198) الوفيات بتصرف 212/6 - 217 .

الباب الثاني :

في ذكر دولة نور الدين وصلاح الدين القاطعين لمذهب الشيعة الفاطميين من مصر والشام

نور الدين :

أما نور الدين فهو أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي بن آق⁽¹⁾ سنقر⁽²⁾ « بن عبد الله ، وهو وأبوه وجدته كلهم ملوك ».

« أما آق سنقر فانه كان مملوك السلطان ملك شاه/ بن ألب أرسلان السلجوقي - المتقدم الذكر - فكان آق سنقر نائباً في حلب عن تتش السلجوقي ، ثم عصى عليه فقتله في محارباته »⁽³⁾.

وأما زنكي فانه كان صاحب الموصل وما والاها فتوجه إلى قلعة جعبر⁽⁴⁾ ، ومالكها يومئذ سيف الدولة أبو الحسن بن ملك شاه⁽⁵⁾ ، فحاصرها وأشرف على أخذها ، فأصبح يوم الأربعاء خامس شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة⁽⁶⁾ مقتولاً ، قتله خادمه وهو راقد على فراشه ، وكان نور الدين محمود في خدمته⁽⁷⁾ فلك هو بعد أبيه مدينة حلب ، وحماة ، وحمص ، ومنبج⁽⁸⁾ وحرّان في ذلك التاريخ ، وملك أخوه سيف الدين غازي مدينة الموصل وما والاها من تلك النواحي .

ثم ان محمود نور الدين ملك دمشق سنة تسع وأربعين وخمسمائة تاسع صفر⁽⁹⁾ ، ثم

(1) في توش : « أن ».

(2) الوفيات ترجمة الملك العادل نور الدين 185/5.

(3) الوفيات من ترجمة آق سنقر الحاجب بتصرف 241/1.

(4) في الأصول : « جعفر » والمثبت من الوفيات 328/2.

(5) في الوفيات : « أبو الحسن علي بن مالك ».

(6) 14 سبتمبر 1146 م وتطبيقاً لتقويم كتاب التوفيات الالهامية يكون يوم السبت.

(7) الوفيات 328/2.

(8) في الأصول : « منبج » والمثبت من الوفيات 185/5.

(9) 25 أبريل 1154 م.

استولى على بقية بلاد الشام كبلبك ، وهو الذي بنى سورها ، وغيرها من البلاد ، وافتتح من بلاد الروم عدة حصون منها مرعش وهسنا سنة ثمان وستين وخمسمائة⁽¹⁰⁾ بذى القعدة وذى الحجة ، وتلك الأطراف ، وفتح أيضاً من بلاد الافرنج حارم أواخر شهر رمضان سنة تسع وخمسين وخمسمائة⁽¹¹⁾ وفتح بانياس وغير ذلك ممّا تزيد عدته على خمسين حصناً⁽¹²⁾.

ثم سار الأمير شيركوه إلى مصر - كما يأتي قريباً إن شاء الله -⁽¹³⁾.

[204/أ]

وكان نور الدين عادلاً زاهداً عابداً ورعاً ، مستمسكاً بالشريعة مائلاً إلى أهل الخير / مجاهداً في سبيل الله تعالى ، كثير الصدقات ، بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبير⁽¹⁴⁾ مثل دمشق وحلب وحماة وحمص وبلبك ومنبج والرحبة ، وبنى بمدينة الموصل الجامع النوري ، وبجماة الجامع الذي على نهر العاصي وجامع الرها وجامع منبج ، وبيمارستان دمشق ، ودار الحديث بها ، وله من المناقب والمآثر والمفاخر ما يستغرق الوصف .

وكانت ولادته يوم الأحد عند طلوع الشمس سابع شهر شوال سنة إحدى وعشرين وخمسمائة⁽¹⁵⁾ ، وتوفي يوم الأربعاء حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة⁽¹⁶⁾ ، بدمشق بعلّة الخوانيق - ابن خلكان -⁽¹⁷⁾.

وسمعت من جماعة من أهل دمشق يقولون أن الدعاء عند قبره مستجاب ولقد جرّيت ذلك فصيح⁽¹⁸⁾.

(10) جوان - جويلية 1173 م .

(11) أوت 1164 م .

(12) حروبه مع الافرنج وتسييره للأمير أسد الدين شيركوه إلى مصر يدخل في باب الحروب الصليبية الثانية ، أنظر على سبيل المثال : محمد العروسي المطوي «الحروب الصليبية في المشرق والمغرب» دار الغرب الإسلامي ، 8/ 65 - 76 .

(13) زيادة من المؤلف عن الوفيات .

(14) في الأصول «الكثيرة» والمثبت من الوفيات .

(15) 16 أكتوبر 1127 م .

(16) 15 ماي 1174 م .

(17) الوفيات من ترجمة الملك العادل نور الدين بتصرف 184/5 - 187 .

(18) نفس المرجع ص 187 .

عماد الدين إسماعيل :

وكان قد عهد بالملك إلى ولده الصَّالح [عماد الدين] إسماعيل فقام [بالأمر] من بعده ، ولمَّا خرج صلاح الدين إلى الشَّام ، لم يبق له إلَّا حلب ، فلم يزل بها حسن السَّيرة إلى أن توفي في الخامس والعشرين من رجب⁽¹⁹⁾ سنة سبع وسبعين وخمسمائة⁽²⁰⁾ - رحمة الله عليه - .

عود إلى ذكر نور الدين :

وفي تاريخ ابن أبي الهيجاء قال : «إن نور الدين كان يخطط الكوافي ، ويعمل سكاكير الأبواب ، وله عجائر يبيعنها ولا يدري بهن أحد ، فكان يصوم ويفطر على أثمانها وخرج يتصيد فإذا بأعجمي قد أقبل من ناحية دمشق ، وكان صاحبًا لنور الدين فقدم بخيل ومماليك ، وفيهم مملوك مستحسن جدًا ، فقبله وردًا الباقي ، وكان له خادم أبيض اسمه سُهَيْل ، فقال له : خذ هذا المملوك / وادفع لصاحبه خمسمائة دينار وخلعة وبغلة ، فقال سهيل في نفسه : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾⁽²¹⁾ ، هذا ما اشترى مملوكًا قط بخمسين دينارًا ففعلت ما أمرني⁽²²⁾ ، وتركني أيامًا وقال : احضر المملوك مع المماليك كل يوم يقف في الخدمة ، قال : فأحضرتة ، فلمَّا كان بعد أيام قال لي : احضره وقت العشاء الآخرة إلى الخيمة ، وقمَّ أنت وهو على باب البرج ، فقال الخادم : هذا الشَّيخ في أيام شبابه ما ارتكب معصية ، فلما كبر يقع فيها ، والله لأقتلنه ، - يعني المملوك - قبل أن يقع في معصيته ، وجئته بالمملوك إلى الخيمة فسهرت أكثر الليل ، ونور الدين في البرج ، فلما كان السَّحر نمت ثم انقلبت فوقعت يدي على جسد المملوك فاذا به مثل الجمرة قد أخذته حُمَّى ، فلمَّا أصبحت أحضرت الطبيب فرآه وقال : هذا مرضه سماوي ، فلمَّا كان وقت الظهر مات ، فدعاني نور الدين وقال : يا سهيل ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾⁽²³⁾ ، فاستحييت ، فقال نور الدين : والله لمَّا رأيت الغلام وقع في قلبي منه

[ب/204]

(19) في الأصول : «جمادى الأولى» والمثبت من الوفيات 188/5 .

(20) 4 ديسمبر 1181 م .

(21) سورة البقرة : 156 .

(22) سورة الحجرات : 12 .

(23) «به في الحين» .

مثل النار ، فقلت لك : اشتره لعلّ يذهب ما في قلبي فلم يذهب ، فقالت لي نفسي : أريد أن أراه كل يوم ، فأمرتك باحضاره ، فلما كان تلك الليلة ما تركتني أنام وبقيت أنا وإياها في حرب إلى وقت السّحر ، فهممت أن أفتح باب البرج وأصعده فكشفت رأسي وقلت : إلهي ! محمود عبدك يختم أعماله بمثل هذا ، فسمعت هاتفاً يقول : قد كفيناك / أمره فعلت أنه قد حدث عليه حادث ، ثم قدم سهيلاً وأحسن إليه » اهـ . [205/أ]

الحملات الصليبية الأولى واستقرار الافرنج بالشام :

«واعلم أن العبيدين الشيعة ملوك مصر لما أفضت دولتهم إلى أبي العباس أحمد المنعوت «المستعلي» بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز» (24) - الذي كان انتقل من المغرب إلى مصر - «وكان المستعلي ولي الأمر بعد أبيه بالديار المصرية والشامية [وفي أيامه] (25) اختلت أحوالهم ، وضعف أمرهم ، وانقطعت من أكثر مدن الشام دعوتهم ، وانقسمت البلاد الشامية بين الأتراك والافرنج - خذلهم الله تعالى - فانهم دخلوا الشام ونزلوا على انطاكية في ذي القعدة سنة تسعين وأربعمائة (26) . ثم تسلموها في سادس عشر من رجب سنة احدى وتسعين وأربعمائة (27) ، وأخذوا بيت المقدس سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة (28) وأخذوا مَعْرَةَ النُّعْمَانِ في السَّنة المذكورة وكان الافرنج أقاموا على بيت المقدس نَيْفًا وأربعين يوماً [قبل أخذه وكان] (29) أخذهم لها ضحوة يوم الجمعة ،

(24) الوفيات من ترجمة المستعلي الفاطمي 178/1 .

(25) زيادة من الوفيات يقتضها السياق .

(26) أكتوبر 1097 م وصلت في هذه السنة إلى بلاد الشام «أولى الحملات الصليبية وكانت تضم شخصيات بارزة من البلاد الأوروبية ، جاءت هذه الحملة عن طريق القسطنطينية ومنها عن طريق نيقية إلى أنطاكية ، وفي أثناء الطريق بعد معركة مع السلاجقة عند «أسكي شهر» انتصر فيها الصليبيون ، انقسمت الحملة إلى قسمين ، القسم الأول أتجه إلى النواحي الشرقية من آسيا الصغرى ، والقسم الثاني وُعيد أكثر الصليبيين أتجه نحو انطاكية في طريقه إلى بيت المقدس وانتهت الحملة الصليبية الأولى بتكوين الإمارات الصليبية» . أنظر على سبيل المثال : عمر عبد السلام تدمري ، تاريخ طرابلس ، 386/1 - 387 ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، المرجع السابق ، ص 45 - 58 .

(27) 19 جوان 1098 م .

(28) 1098 - 1099 م .

(29) اضافة من الوفيات .

وَقُتِلَ فيها من المسلمين خلق كثير في مُدَّة أسبوع ، وَقُتِلَ في الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً ، وأخذوا من عند الصَّخْرَةِ من أواني الذهب والفضَّة ما لا يضبطه الوصف ، وانزعج المسلمون في جميع بلاد الاسلام⁽³⁰⁾ بسبب أخذه غاية الانزعاج ، وكان الأفضل [شاهنشاہ]⁽³¹⁾ ابن «أمير الجيوش»⁽³²⁾ (وزير المستعلي)⁽³³⁾ قد تَسَلَّمَهُ من سُقْمَان⁽³⁴⁾ بن أُرْتُق يوم الجمعة لخمس بقين من شهر رمضان سنة إحدى وتسعين⁽³⁵⁾ وكان أحفظ لها لولا سابق قضاء الله ، فولى ابن أمير الجيوش / في القدس من قبله من لم تكن له طاقة بالافرنج فتسلَّموه منه ، ثم استولى الافرنج على كثير من البلاد السَّاحِلِيَّة في أيامه ، فملكوا حَيْفًا⁽³⁶⁾ في شوال سنة ثلاث وتسعين⁽³⁷⁾ ، وقيسارية سنة أربع وتسعين⁽³⁸⁾ ، فلما مات المستعلي سنة خمس وتسعين وأربعمائة⁽³⁹⁾ كان ولده الأمير أبو علي المنصور ويلقب «بالأمر»⁽⁴⁰⁾ بأحكام الله صغير السن ، ابن خمس سنين⁽⁴¹⁾ فأقاموه مقام أبيه ، واستمر الأفضل ابن أمير الجيوش وزيراً مدبِّراً للملك⁽⁴²⁾ ، «وكان المنصور سيء التدبير ، مقبلاً على لُهو وشهوته ، فنهاه الأفضل عن ذلك ، فحقد عليه ولم يمثّل للحق ، فلما قوي جأشه قتل الأفضل»⁽⁴³⁾ ، فخرّب الملك بِمَرَّةً⁽⁴⁴⁾ وغلب على أمره ، وأخذ أمر⁽⁴⁵⁾ الفاطميين في الهلاك ، «وأخذ الافرنج في أَيَّامِهِ عكا في شعبان سنة سبع وتسعين

[205/ب]

(30) في الأصول : «الشام بل وغيرها» .

(31) اضافة من الوفيات .

(32) تفسير من المؤلف .

(33) بدر الجمالي ، الوفيات 448/2 .

(34) كذا في نسخ من الوفيات وفي غيرها : «سقمان» الوفيات هامش 5-179/1 .

(35) 2 أوت 1098 م .

(36) في الأصول : «حماة» والمثبت من الوفيات الناقل عنها المؤلف .

(37) أوت 1100 م .

(38) 1100 - 1101 م .

(39) 1101 - 1102 م .

(40) في الأصول : «القائم» وهو الحاكم كما في النصوص التاريخية ، وفي الوفيات 180/1 ، 299/5 .

(41) وزاد عليها ابن خلكان : «وشهر وأربعة أيام» 180/1 .

(42) الوفيات من ترجمة المستعلي الفاطمي بتصرف 178/1 - 180 .

(43) الوفيات من ترجمة الأفضل ابن أمير الجيوش 450/2 .

(44) بالكسر ثم التشديد قرية بينها وبين دمشق نصف فرسخ . أنظر معجم البلدان 122/5 .

(45) في ط : «أمن» .

وأربعمائة⁽⁴⁶⁾ ، وأخذوا طرابلس الشام بالسيف يوم الاثنين لاحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وخمسمائة⁽⁴⁷⁾ ، ونهبوا ما فيها ، وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها ، وحصل في أيديهم من أمعتها وذخائرها وكتب دار علمها وما كان في خزائن أربابها ما لا يحصى عدده ولا يحصى ، وعوقب كثير⁽⁴⁸⁾ من أهلها ، واستصفيت أموالهم ، وهو في ذلك كله مقبل على لهوه ولذاته ، وبعد ما فات الأمر وصلتها نجاته⁽⁴⁹⁾ ، وفي هذه السنة ملكوا عرقة⁽⁵⁰⁾ ، وكان نزولهم عليها أول شعبان ، وكذا بانياس وجبيل⁽⁵¹⁾ بالأمان وأخذوا صيدا لأربع / وخمسمائة⁽⁵²⁾ وكذا قلعة تينين⁽⁵³⁾ يوم الجمعة ثمان بقين من ذي الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة⁽⁵⁴⁾ ، وتسلموا مدينة صور يوم الاثنين لسبع بقين من جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وخمسمائة⁽⁵⁵⁾ ، وأخذوا بيروت يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة⁽⁵⁶⁾ بالسيف . وفي أيام الأمر المذكور سنة أربع وخمسمائة⁽⁵⁷⁾ ، وقيل سنة إحدى عشرة وخمسمائة⁽⁵⁸⁾ ، قصد بلدوين الافرنجي الديار المصرية ليأخذها ، فانتهى إلى القرما فدخلها وأحرقها وأحرق جامعها ومساجدها ، ورحل عنها (وقد نفذ فيه وعد الله بهلاكه)⁽⁵⁹⁾ فهلك في الطريق قبل وصوله إلى العريش ، وكان بلدوين هذا اللعين هو المستولي على بيت المقدس وعكا ويافا

(46) ماي 1104 م .

(47) جويلية 1109 م .

(48) في الوفيات : « من بقي » .

(49) في الوفيات : « نجدة المصريين » .

(50) هي « Archas في الأصول » غزنة ، والتصويب من تاريخ طرابلس 390/1 ، معجم البلدان 109/4 ، قال الحموي : « بكسر أوله ، وسكون ثابته ، بلدة في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ » .

(51) في الأصول : « حنبل » والمثبت من الوفيات ومعجم البلدان 109/2 ، قال الحموي « بلد في سواحل دمشق ، وهو بلد مشهور في شرقي بيروت » .

(52) 1110 - 1111 م .

(53) في الأصول : « بنين » والمثبت من الوفيات ، ومعجم البلدان 14/2 قال الحموي : « بكسر أوله وسكون ثانيه ، بلدة في جبال بني عامر المطلّة على بلد بانياس بين دمشق وصور » .

(54) 11 أبريل 1118 م .

(55) 8 جويلية 1124 م .

(56) 7 أكتوبر 1129 م .

(57) 1110 - 1111 م .

(59) الزيادة من المؤلف عن الوفيات .

(58) 1117 - 1118 م .

وعِدَّة بلاد من ساحل الشَّام لأنه الذي أخذها من المسلمين»⁽⁶⁰⁾ حتى قيفض الله لنصرة هذا الدين وإعزازه وتطهير هذه الأرض المُقدَّسة من هذا الرّجس على يد الرجلين الصالحين نور الدين المذكور⁽⁶¹⁾ وصلاح الدّين ، فانهما استنقذا هذه البلاد من أيدي الكفرة اللثام وطهَّرها أرض مصر والشَّام من بدعة الشيعة وَرَدَّها للإسلام على طريق السُّنة فكانا نورًا على نور ، وصلاًحًا على صلاح لِإِذْهَابِهِمَا فَسَادَ ظِلْمَةِ الْكُفْرِ وَظِلْمَةِ الْبِدْعَةِ ، ونشرا نور الدين والسُّنة والحق ، فهما نور الدين وصلاحه ، فطابق اسماهما مساهما .

صلاح الدين وحرّويه مع الصليبيين :

ولما بَيَّنَّا نور الدين وجب علينا / أن نذكر صلاح الدين وكيفية إمامته البدعة ، وفتح بلاد الشَّام من أيدي الكفرة اللثام ، فنقول⁽⁶²⁾ : «إن صلاح الدّين هو السُّلطان الملك الناصر صلاح الدّين يوسف بن أيّوب بن شادي ، عزّ الدولة الأيووية الكردية ، وصاحب الدّيار المصرية والبلاد الشَّامية والعراقية⁽⁶³⁾ واليمينية ، وهو من بيت كلهم ملوك ، أولاده وأخوه الملك العادل ، وعمّه أسد الدين شيركوه ، ووالده .
وافتق أهل التَّاريخ على أن أباه وأهله من دُويْن بضم الدال المهملة وكسر الواو وسكون الياء المثناة تحت وبعدها نون ، وهي بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة أَران وبلاد الكرج وأنهم من رُؤَاد⁽⁶⁴⁾ بطن من الأكراد ، فولد شادي أسد الدين شيركوه ونجم الدّين أيّوب ، وخرج بهما إلى بغداد»⁽⁶⁵⁾ .
قال ابن الأثير⁽⁶⁶⁾ «كان أسد الدّين شيركوه ونجم الدّين أيّوب ، وهو الأكبر ، ابنا

[206/ب]

(60) من ترجمة الأمر بأحكام الله ، الوفيات بتصرف 300/5 - 301 .

(61) تألّق في الحروب الصليبية الثانية كما أشرنا .

(62) بل ينقل عن الوفيات من ترجمة صلاح الدين 139/7 .

(63) في الوفيات : «الفراتية» .

(64) في الوفيات : «وأنهم أكراد روادية» .

(65) الوفيات 139/7 .

(66) الوفيات 139/7 وانظر أيضًا الكامل لابن الأثير 141/11 في تاريخه الصغير في الدولة الاتابكية ، والمؤلف ينقل عنه بواسطة ابن خلكان الوفيات 141/7 .

شادي من بلد دُونَيْن وأصلهما من الأكراد الرّوادية ، فقدما العراق ، وخرجا
مجاهد الدين ، فتولى شحنة بالعراق من جهة السلطان مسعود غياث الدين محمد بن
ملكشاه السلجوقي .

فرأى مجاهد الدين في نجم الدين عقلاً ورأيًا حسنًا فجعله حافظًا على قلعة تكريت ،
وتبعه أخوه أسد الدين ، ثم أخرجهما مجاهد الدين من تكريت ، فقصدوا عماد الدين
زنكي فقبلهما وأحسن إليهما ، فلما فتح عماد الدين زنكي بعلبك جعل نجم الدين حافظًا
عليها فلما قتل زنكي حضر نجم الدين عسكر دمشق/ في بعلبك ، فلما خاف طلب
الصلح وسَلَّم القلعة ، وخرج بالأمان على اقطاع يأخذها من صاحب دمشق بحير الدين
محمد بن بوري بن الأتابك ظهير الدين طُغتكين⁽⁶⁷⁾ ، وصار عنده من أكبر
الأمرء⁽⁶⁸⁾ .

«واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بخدمة نور الدين بعد قتل أبيه زنكي ، فقرّبه
نور الدين وأقطعه ، وكان يرى منه في الحرب آثارًا يعجز عنها غيره لشجاعته وجراته ،
فصارت له حمص والرحبة وغيرهما ، وجعله مقدم عسكره .

ولما ملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي دمشق لازم نجم الدين خدمته
ومعه ولده صلاح الدين ، وكانت مخايل السّيادة⁽⁶⁹⁾ عليه لائحة ، ونور الدين يرى له
ذلك ويؤثره ، ومنه تعلّم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد في أمور
الجهاد .

ثم ان شاورا ، وزير المعتضد العبيدي صاحب مصر ، غلبه على وزارته أبو الأشبال
ضرغام⁽⁷⁰⁾ ، وقتل له ولده علي⁽⁷¹⁾ بن شاور ، فتوجه إلى نور الدين بالشّام ، مستغيثًا به
في رمضان سنة ثمان وخمسين وخمسمائة⁽⁷²⁾ ، فوجّه معه الأمير أسد الدين شيركوه بن
شادي في جماعة من عسكره ومعه ابن أخيه صلاح الدين في خدمته ، وهو كاره للسفر
معه ، وكان لنور الدين في إرسال هذا الجيش غرضان : أحدهما قضاء حق⁽⁷³⁾ شاور

(67) في الأصول : « طغتكين » والمثبت من الوفيات 143/7 .

(68) ينتهي نقل ابن خلكان من ابن الأثير ، وبعده يبدأ تأليفه الخاص به ، والمؤلف بخص ما قاله ابن خلكان .

(69) في الوفيات : « السعادة » .

(70) هو ابن عامر اللخمي الملقب فارس المسلمين .

(71) ولده الأكبر « طي » بن شاوره الوفيات : 145/7 .

(72) أوت 1163 م . (73) ساقطة من ت وش .

لكونه استغاث به ، والثاني كشف أحوال مصر فانه كان بلغه أنها ضعيفة من جهة الجند ، فجعل شريكوه صلاح الدين مقدم / عسكره ، وخرج معهم شاور ، فخرجوا من دمشق [207/ب] في جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وخمسمائة⁽⁷⁴⁾ ، فدخلوا مصر ، واستولوا على الأمر في رجب من تلك السنة وقتلوا ضرغامًا ، وحصل لشاور مقصوده من عده لمنصبه ، فلمّا تمهدت قواعده غدر بأسد الدين شريكوه ، واستنجد بالافرنج عليه ، وحَصَرُوهُ في بلبيس ، وكان أسد الدين قد شاهد البلاد وعرف أحوالها ، وأنها مملكة بغير رجال ، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيham⁽⁷⁵⁾ والمحال ، فطمع فيها ، وعاد إلى الشام في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وخمسين⁽⁷⁶⁾ ، فأقام بها مدّة مفكّرًا في تدبير عوده إلى مصر ، محدثًا نفسه بالملك لها ، مقررًا قواعد ذلك مع نور الدين ، إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة⁽⁷⁷⁾ ، وبلغ شاور حديثه وطمعه في البلاد ، فخاف عوده إليها ، وعلم أن أسد الدين لا بدّ له من قصدها ، فكتب الافرنج وقرّر معهم أنهم يحيثون إلى البلاد ويمكنهم منها تمكينًا كليلًا⁽⁷⁸⁾ ليعينوه على استئصال أعدائه .

وبلغ نور الدين وأسد الدين مكاتبة شاور للافرنج وما تقرر بينهم ، فخافا على الديار المصرية أن يملكوها ويملكوها بطريقها جميع البلاد⁽⁷⁹⁾ ، فتجهز صلاح الدين في خدمة عمّه أسد الدين ، وكان توجههم من الشام في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسمائة⁽⁸⁰⁾ ، فكان وصول أسد الدين إلى البلاد مقارنًا لوصول الافرنج / إليها ، واتفق شاور والمصريون جميعهم والافرنج على أسد الدين ، فجرت بينهم حروب كثيرة ووقائع شديدة ، فانفصل الافرنج عن البلاد وانفصل أسد الدين أيضًا راجعًا إلى الشام ، وسبب انفصال الافرنج عن البلاد أن نور الدين جرّد العساكر إلى بلادهم ، وأخذ المنيطرة⁽⁸¹⁾

(74) مارس - أبريل 1164 م .

(75) في الأصول : «الأوهام» والثبت من الوفيات 147/7 .

(76) في الأصول : «ثمان وخمسين» والثبت من ابن خلكان . وعلى ما سبق من نص المؤلف إذ أن دخولهم إلى مصر كان في سنة تسع وخمسين 12 نوفمبر 1164 م .

(77) 1166 - 1167 م .

(78) في الأصول : «تمليكًا» والثبت من الوفيات .

(79) يدخل في باب الحرب الصليبية الثانية .

(80) ديسمبر جانفي 1166 - 1167 م .

(81) في الأصول : «المعرة» والثبت من الوفيات 147/7 قال الحموي : «مصفر ، بالطاء مهمة حصن بالشام قريب من طرابلس» .

منهم في رجب من هذه السنة ، ولمّا علم الافرنج ذلك خافوا على بلادهم فانصرفوا ، وسبب انفصال أسد الدّين ضعف عسكره لتعصب الافرنج والمصريين ، فعان شداًند وأهوالاً لكن ما انفصل حتى صالح الافرنج على أن يفصلوا كلّهم عن مصر ، فعاد إلى الشّام في بقية السنة ، وقد انضاف إلى قوة الطمع في الديار المصرية شدّة الخوف عليها من الافرنج لعلمه بأنهم قد كشفوها كشفاً وعرفوها كما عرفها هو ، فأقام بالشّام على مضض وقلبه قلق ، والقضاء يسوقه إلى شيء قدّر لغيره وهو لا يشعر بذلك ، وكان عوده في ذي القعدة من هذه السنة إلى الشّام ، وقيل في ثامن عشر⁽⁸²⁾ شوال .

ثم إن الإفرنج جمعوا فارسهم وراجلهم⁽⁸³⁾ وخرجوا يريدون الديار المصرية ناكثين جميع ما استقرّ مع المصريين وأسّد الدّين طمعاً في البلاد ، فلمّا بلغ ذلك أسّد الدّين ونور الدّين لم يسعهما الصّبر دون أن يسارعا إلى قصد البلاد ، أما نور الدّين فبالمال والرجال ، ولم يُمكنه المسير بنفسه خوفاً على البلاد من الافرنج ، وأما أسّد الدّين فسار بنفسه / وماله وإخوته ورجاله ، قال السّلطان صلاح الدّين : كنت أكره النّاس للخروج في هذه الوقعة ، وما خرجت مع عمّي باختيار ، وهذا معنى قوله تعالى ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾⁽⁸⁴⁾ .

ثم إن شاور لمّا أحسّ بخروج الافرنج [إلى مصر] على تلك القاعدة أرسل إلى أسّد الدّين شيركوه يستصرّحه ويستنجده ، فخرج مسرعاً ، وكان وصوله إلى مصر في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسمائة⁽⁸⁵⁾ ، ولمّا علم الافرنج بوصول أسّد الدّين إلى مصر باتفاق بينه وبين أهلها رحلوا راجعين وعلى أعقابهم ناكصين ، وأقام أسّد الدّين بها يتردد إليه شاور في الأحيان ، وكان وعدهم بمال في مقابلة ما خسروه من النّفقة ، فلم يوصل إليهم شيئاً ، وعلقت محالب أسّد الدّين في البلاد ، وعلم أنه متى وجد الافرنج رخصة أخذوا البلاد ، وأن شاور يلعب به تارة وبالأفرنج أخرى ، وكان ملوكها على البدعة المشهورة ، وتحقّق أسّد الدّين أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور ، فأجمع رأيه على القبض عليه اذا خرج إليه ، وكان الأمراء الواصلون مع أسّد الدّين

(82) في الأصول : «ثاني» والمثبت من الوفيات 148/7 .

(83) في ت : «أرجلهم» .

(84) سورة البقرة : 214 .

(85) ديسمبر - جاني 1168 - 1169 م .

[209/أ]

يرددون إلى خدمة شاور، وهو يخرج في الأحيان إلى أسد الدين فيجتمع به، وكان يركب على عادة وزرائهم بالطَّبل والبوق والعَلَم، ولم يتجاسر على قبضه أحد من الجماعة إلا السلطان بنفسه، وذلك أنه / لمَّا سار إليهم تلقَّاه راكبًا وسار إلى جانبه وأخذ يحادثه، وأمر العساكر أن يقصدوا أصحابه، ففروا ونهبهم⁽⁸⁶⁾ العسكر وأنزل شاور في خيمة منفردة، وفي الحال ورد توقيع على يد خادم خاص من جهة المصريين يقولون: «لا بدَّ من رأسه»، جريًّا على عاداتهم في وزرائهم، فجزَّ رأسه وأرسله إليهم، وأرسلوا إلى أسد الدين خلع الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر وترتب وزيرًا، وذلك بسابع عشر ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسمائة⁽⁸⁷⁾ وراح أمرًا ناهيًّا، والسلطان صلاح الدين - رحمه الله - يباشر الأمور مقرَّرًا لها لِمَكان كفايته ودرايته وحسن رأيه وسياسته إلى الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة⁽⁸⁸⁾. فمات أسد الدين بعلة الخوانيق، ودُفِنَ بدار الوزارة ثم نقل إلى المدينة المنورة - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - وكانت مدة وزارته شهرين وخمسة أيام، وقيل إنه سمَّ في صكِّ الوزارة. فلما مات استقرت الأمور للسلطان صلاح الدين، وتمَّهَّدت القواعد، ومشى الحال على أحسن الأوضاع وبذل الأموال، وملك قلوب الرِّجال، وهانت عنده الدُّنيا فملكها، وكان سُنِّيَّ المذهب، ممارسًا لأهل السُّنة مجانبًا للبدعة التي عليها ملوك مصر الشَّيعة، وقصده النَّاس من كلِّ صوب فلا يُخَيَّب قاصدًا إلى سنة خمس وستين وخمسمائة⁽⁸⁹⁾.

[209/ب]

فلَمَّا عرف السلطان / نور الدين استقرار صلاح الدين بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين شيركوه في رجب سنة أربع وستين⁽⁹⁰⁾.

ولَمَّا علم الافرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم وما تمَّ للسلطان من استقامة الأمر بالديار المصرية، علموا أنه يملك بلادهم ويقلع⁽⁹¹⁾ آثارهم، لِمَا حدث له من القوة والملك فاجتمع الافرنج والرُّوم جميعًا وقصدوا الدِّيَّار المصرية، وقصدوا دمياط

(86) في الأصول: «وتبهم» والثبت من الوفيات 149/7.

(87) 19 ديسمبر 1168 م.

(88) الوفيات: 151/7.

(89) 1169 - 1170 م.

(90) أبريل 1169 م.

(91) في ش: «يقطع».

ومعهم آلات الحصار وما يحتاجون إليه من العُدَدِ ، ولَمَّا سمع افرنج الشَّام ذلك اشتدَّ أمرهم ، فأخذوا حصن عكا من المسلمين وأسروا صاحبها ، وهو مملوك لنور الدين يقال له خطلخ العلم دار ، وذلك في شهر ربيع الآخر من سنة خمس وستين⁽⁹²⁾ ولَمَّا رأى نور الدين ظهور الافرنج ونزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم ، فنزل على الكرك محاصراً لها في شعبان من السَّنة المذكورة ، فقصدته افرنج السَّاحل فرحل عنها وقصدهم ، فلم يقفوا له

ولَمَّا بلغ صلاح الدين قصد الافرنج دمياط استعد لهم بتجهيز الرِّجال وجمع الآلات إليها ، ووعدهم بالإمداد بالرجال ان نزلوا عليها ، وبالغ في العطايا والهبات وكان وزيراً متحكماً لا يرد أمره في شيء ، ثم نزل الافرنج عليها ، واشتدَّ زحفهم وقتالهم عليها ، وهو - رحمه الله - يشنُّ الغارات من خارج ، والعساكر تقاتلهم من داخل ، ونصر الله المسلمين به وبجسن تدبيره ، / فرحلوا عنها خائبين خائفين⁽⁹³⁾ ، فأُحرِقت بجانيقهم ، ونُهيت آلاتهم ، وقُتل من رجالهم خلق كثير ، واستقرت قواعد صلاح الدين ، وأرسل يطلب والده نجم الدين أيوب لِيَتِمَّ له السرور وتكون قصته مشاكلة لقصة يوسف - عليه السلام - فوصل إليه والده في جمادى الآخرة من سنة خمس وستين⁽⁹⁴⁾ ، وسلك معه من الأدب ما جرت به عادته ، وألبسه الأمر كلَّه ، فأبى أن يلبسه ، وقال : « يا ولدي ما اختارك الله تعالى لهذا الأمر الا وأنت كفء له ، ولا ينبغي أن يُغير موضعُ السعادة » فحكَّمه في الخزائن كلها⁽⁹⁵⁾ .

وثبت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه ، وهو نائب عن نور الدين ، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها ، لا يتصرَّفون الا عن أمره ، وكان نور الدين ي كاتب صلاح الدين ولا يفرده⁽⁹⁶⁾ ، بل يكتب للأمير صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا ، واستمال صلاح الدين قلوب الناس ، وبذل الأموال ممَّا كان قد جمعه عمَّه أسد الدين ، فقال الناس إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه ، وضعف أمر العاضد العبيدي صاحب مصر ذلك الوقت .

(92) ديسمبر جاني 1169 - 1170 م .

(93) عن نزول الإفرنج دمياط ومحاربة صلاح الدين لهم أنظر ابن الأثير 351/11 .

(94) فيفري - مارس 1170 م .

(95) الوفيات 153/7 .

(96) ينعت بالاصفهلار أو الاسفهلار أي مقدم العسكر . الوفيات 155/7 .

قال ابن الأثير⁽⁹⁷⁾ «قد اعتبرت التواريخ فرأيت كثيراً من التواريخ الإسلامية ، فرأيت كثيراً ممن يتندى الملك تنتقل الدولة عن صلبه إلى بعض أهله وأقاربه ، منهم بنو مروان انتقلت إليهم الدولة من بني عَمِيهِمْ ، ثم بعده السَّفَّاح أول من ملك من بني / العباس ، انتقل الملك من أعقابه إلى أخيه المنصور ، ثم يعقوب الصَّفَّار هو أول من ملك من أهل بيته ، فانتقل الملك عنه [إلى أخيه عمرو وأعقابه ثم عماد الدولة بن بويه أول من ملك من أهل بيته ثم انتقل الملك عنه]⁽⁹⁸⁾ إلى أخويه ركن الدولة ومعز الدولة ، ثم السلجوقية أول من ملك منهم طغرل بك ، ثم انتقل الملك إلى أولاد أخيه داود ، ثم شيركوه هذا - كما ذكرنا - انتقل الملك عنه إلى ولد أخيه نجم الدين أيوب ، ولولا خوف الاطالة لذكرنا أكثر من هذا ، والذي أظنه السبب في ذلك أن الذي يُكُون أول دولته يُكثِر القتل فيأخذ الملك وقلب الذي كان فيه متعلق به ، فلهذا يحرم الله تعالى أعقابه ويفعل ذلك عقوبة له لأجلهم» .

ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين إخوته فلم يجبه إلى⁽⁹⁹⁾ ذلك ، وقال : أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد .

ثم ان الافرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر⁽¹⁰⁰⁾ ، فأرسل نور الدين العساكر وفيهم أخوة صلاح الدين ، منهم شمس الدولة توران شاه بن أيوب - وهو أكبر من صلاح الدين - فلما أراد المسير قال له نور الدين : إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد ، فلا تسرف إنك تفسد البلاد ، وأحضرك حيثن وأعاقبك بما تستحقه وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم مقامي وتخدمه بنفسك كما تخدمني فسر إليه ، واشدد أزره / وساعده على ما هو بصده ، قال : أفعال معه من الطاعة والخدمة ما يتصل بك - إن شاء الله تعالى - ، فكان معه كما قال .

(97) لم ينقل عنه مباشرة وإنما بواسطة ابن خلكان 155/7 - 156 ، وأنظر ابن الأثير ، الكامل 129/11 تحت عنوان : ذكر ملك صلاح الدين مصر .

(98) ساقطة من الأصول والاضافة من الوفيات 156/7 .

(99) وقال ابن الأثير في الكامل 129/11 : «فأرسلهم إليه وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته وكلهم فعل ذلك» .

(100) يدخل في باب الحروب الصليبية الثانية .

وفي المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة⁽¹⁰¹⁾ قُطِعَت خطبة العاضد صاحب مصر ، وخطبَ فيها للامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين ، وسبب ذلك أن صلاح الدين لما ثبَّت قدمه في مصر وزال المُخالفون له ، وضَعُفَ أمر العاضد ، ولم يبق من العساكر المصرية أحد ، كتب إليه نور الدين يأمره بقطع خطبة العاضد واقامة الخطبة العباسية ، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر ، وامتناعهم عن الاجابة إلى ذلك لميلهم إلى دولة المصريين ، فلم يصغ نور الدين إلى قوله وأرسل إليه يُلْزِمُهُ بذلك إلزامًا لا فسحة فيه ، وأتفق أن العاضد مرض ، وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة ، فاستشار أمراءه كيف الابتداء بالخطبة [العباسية] فنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ، ومنهم من خاف ذلك الا أنه لا يمكنه الا الامثال لأمر نور الدين ، وكان قد دخل إلى مصر رجل أعجمي⁽¹⁰²⁾ ، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام قال : أنا أبتدئ بها ، فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطبة ، ودعا للامام المستضيء بأمر الله [فلم ينكر أحد ذلك ، فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد واقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله]⁽¹⁰³⁾ ففعلوا ذلك ، فلم ينتطح فيها عتران ، وكتب بذلك إلى سائر البلاد المصرية . وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك ، / وقالوا : إن سَلِمَ فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الأيام التي بقيت من أَجَلِهِ ، فتوفي يوم عاشوراء [ولم يعلم] .

ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على قصره وجميع ما فيه ، وكان قد رَتَّب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش وهو خصي يحفظه ، وحفظ ما فيه حتى تسلمه السلطان صلاح الدين ، ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد ، ووكل بحفظهم وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في ايوان القصر ، وجعل عندهم من يحفظهم وأخرج من كان فيه من العبيد ، فأعتق البعض ، ووهب البعض ، وأخلى القصر من ساكنه وأهله ، فسبحان من لا يزول ملكه ، ولا يغيره الأعصار وممر الليل والنهار ، وتقلبات الفلك الدوّار ، واختار من ذخائر القصر ما أراد ، ووهب أهله وأمراءه ، وباع منه كثيرًا ، وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك ، قد جمع على طول

(101) سبتمبر - أكتوبر 1171 م .

(102) يعرف بالأمير العالم ، قال ابن الأثير : «قد رأيناه كثيرًا بالموصل» الوفيات 157/7 .

(103) ساقطة في الأصول وهي اضافة يقتضيا السياق من نفس المرجع .

السَّيْنِ وممرّ الدهور ، فمن ذلك قضيب الزّمرّد ، طوله نحو قصبه ونصف ، والحبل الياقوت وغيرهما ، ومن الكتب المتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد . ولما خطب للمستضيء بأمر الله بمصر أرسل إليه نور الدين وعرفه بذلك ، فحل عند المستضيء أعظم محل ، وسير إليه الخلع الكاملة مع عماد الدّين صندل إكراماً له ، [212/أ] لأن عماد الدّين كان كبير المحل في الدولة / العبّاسية ، وكذلك أيضاً سير خلعا لصالح الدّين ، الا أنها أقل من خلع نور الدّين ، وسيرت الأعلام [السود]⁽¹⁰⁴⁾ لتتصب على المنابر ، وكانت هذه أعظم أبهة⁽¹⁰⁵⁾ عباسية دخلت مصر بعد استيلاء العبيديين عليها⁽¹⁰⁶⁾ .

وفي سنة ثمان وستين وخمسمائة⁽¹⁰⁷⁾ أخرج العساكر يريد بلاد الكرك والشّوبك وبدأ بها لأنها كانت أقرب اليه ، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية ، وكان لا يمكن أن تسير قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها⁽¹⁰⁸⁾ ، فأراد توسيع الطريق وتسهيلها ، فحاصرها في هذه السّنة ، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات ، وعاد ولم يظفر منها بشيء ، ولما عاد بلغه وفاة والده نجم الدّين أيوب قبل وصوله إليه ، ولما كانت سنة تسع وستين⁽¹⁰⁹⁾ ، رأى قوة عسكره وكثرة عدده ، وكان بلغه باليمن أنسان استولى عليها وملك حصونها ، يسمى عبد النّبي بن مهدي⁽¹¹⁰⁾ ، فأرسل أخاه توران شاه فقتله ، وأخذ البلاد منه ، ثم توفي نور الدّين سنة تسع وستين وخمسمائة⁽¹¹¹⁾ - كما تقدّم - .

وبلغ صلاح الدّين أن انساناً يقال له «الكنز» جمع بأسوان خلقاً كثيراً من السّودان وزعم أنه يعيد الدّولة المصرية ، وكان أهل مصر يؤثرون عودها ، فانضافوا إلى «الكنز» المذكور فجهّز إليه صلاح الدّين جيشاً كثيفاً وجعل مقدمه أخاه الملك العادل ، وساروا

(104) إضافة من الوفيات 159/7 ، والنّوادر هو اللون الذي اختاره العبّاسيون لهم .

(105) في الوفيات : «أول أبهة» 159/7 .

(106) المؤلّف تابع لابن خلكان عن قطع الخطبة للعاضد وإقامتها للمستضيء العبّاسي ، وهو ينقل بتصرف عن شيخه ابن الأثير . وانظر ابن الأثير : الكامل 368/11 - 369 .

(107) 1172 - 1173 م .

(108) في ش : «بغفر» وفي ت وط : «يفغرها» والمثبت من الوفيات 164/7 .

(109) 1173 - 1174 م .

(110) في الأصول : «مهري» والمثبت من الوفيات 165/7 .

(111) 1173 م - 1174 م .

فالتقوا بهم وكسروهم ، وذلك سابع صفر سنة سبعين وخمسمائة⁽¹¹²⁾ ، واستقرت له قواعد الملك / واحتوى على الشام بأسره ، وعلى حلب ، وعبر الفرات ، وملك ما هناك وقهر الملوك ، وافتك البلاد من أمرائها ممن ناوّه وحاربه . ثم بعد تمهيد البلاد ، وتطوير العباد رجع إلى مصر لتفقد أحوالها ، وكان مسيره إليها في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة⁽¹¹³⁾ وكان أخوه شمس الدولة توران قد وصل إليه من اليمن فاستخلفه بدمشق ثم تأهب للغزو⁽¹¹⁴⁾ وخرج يطلب الساحل حتى وافى الافرنج على الرملة⁽¹¹⁵⁾ وذلك في أول⁽¹¹⁶⁾ جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين⁽¹¹⁷⁾ ، فكانت الوقعة عليه ، ولم يحصل له فتح ، فرجع إلى مصر ، وأقام بها حتى لمّ شعثه وشعث أصحابه⁽¹¹⁸⁾ ، فلما كانت سنة ثلاث وثمانين⁽¹¹⁹⁾ وسط يوم الجمعة كانت وقعة حطين المباركة على المسلمين ، وكان كثيراً ما يقصد لقاء العدو في يوم الجمعة عند الصلاة تبركاً بدعاء المسلمين ، في الخطب على المنابر ، فسار في ذلك الوقت بمن اجتمع له من العساكر الاسلامية ، وكانت تغوت العدّ والحصار على تعبئة حسنة وهيئة جميلة ، وكان قد بلغه عن العدو أنه اجتمع في عدد كثير بمرج صفورية بأرض عكا عندما بلغهم اجتماع العساكر الاسلامية ، فسار ونزل على بحيرة طبرية على سطح الجبل ينتظر قصد الافرنج له ، اذ بلغهم نزوله بذلك الموضع يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر ، فلما رآهم / لا يتحركون تحرك جريدة

[212/ب]

[213/أ]

(112) 7 سبتمبر 1174 م.

(113) سبتمبر - أكتوبر 1176 م.

(114) في الوفيات : « للغزاة ».

(115) « لم يكن صلاح الدين أثناء توسع مملكته وتوطيد أركانها متجهاً كلياً إلى محاربة الصليبيين بل كانت تقع بينه وبينهم مناوشات وكان مع البعض هدنة ومسألة ، وفي سنة 58 / 1186 م اعتدى أرناط (Renaude de Chatillon) صاحب الكرك على قافلة تجارية تابعة لصلاح الدين فكان هذا الإعتداء الشرارة الأولى لاندلاع الحروب التي شنها صلاح الدين ضد الصليبيين والتي أذاقهم فيها الأمرين وذاع اسمه في أوروبا على مر الأجيال ويعرف عندهم بصلاح الدين (Saladin). وحروب صلاح الدين مع الافرنج تدخل في باب الحروب الصليبية الثالثة. أنظر على سبيل المثال الحروب الصليبية في الشرق والغرب ، ص 83 - 84 .

(116) في الوفيات : « أوائل ».

(117) في الأصول : « ثمان وسبعين » والمثبت من الوفيات 168/7 . 26 أكتوبر 1177 م وانظر الكامل لابن الأثير 442/11 - 443 .

(118) انظر الوفيات 168/7 .

(119) 1187 - 1188 م .

على طَبْرِيَّة ، وترك الأطلاب⁽¹²⁰⁾ على حالها قبالة العدو ، ونازل طَبْرِيَّة وهجمها فأخذها في ساعة واحدة ، وانتهب النَّاس ما بها ، وأخذوا في القتل والسبي ، وبقيت القلعة محتمية بمن فيها .

ولمَّا بلغ العدو ما وقع بطَبْرِيَّة قَلَقُوا ورحلوا نحوها ولحقوا بالعسكر ، والتقى بالعدو على سطح جبل طَبْرِيَّة الغربي منها ، وذلك في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر ، وحال الليل بين العسكرين فناما على مصاف ، إلى بكرة يوم الجمعة الثالث⁽¹²¹⁾ والعشرين منه ، وركب العسكران وتصادما ، والتجم القتال ، واشتدَّ الأمر ، وذلك بأرض قرية بـ «لوبيين»⁽¹²²⁾ وضاق الخناق بالعدو وهم سائرون ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾⁽¹²³⁾ ، وقد أيقنوا بالويل والثبور ، وأحسَّت نفوسهم أنهم في غد يومهم من زوار القبور ، ولم تزل الحرب تضطرم ، والفارس مع قرينه يصطدم ، ولم يبق الا الظفر ووقوع الويل والوبال على من كفر ، فحال بينهما الليل بظلامه ، وبات كل واحد من الفريقين بمقامه ، وتحقَّق المسلمون أن من ورائهم الأردن ومن بين أيديهم بلاد العدو ، وأنهم لا ينجيهم الا الجهاد بالحزم والاجتهاد فحملت أطلاب المسلمين من جميع الجوانب ، وحمل القلب ، وصاحوا صيحة رجل واحد⁽¹²⁴⁾ فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين ، وكان حقاً عليه نصر المؤمنين ، ولمَّا أحس القومص⁽¹²⁵⁾ بالخذلان هرب منهم في أوائل الأمر / وقصد جهة صور ، فتبعه جماعة من المسلمين ، فنجا منهم ، وكفى الله شره ، وأحاط المسلمون بالكافرين من كل جانب ، وأطلقوا عليهم السَّهام ، وحكَّموا فيهم السيوف ، وسقوهم كأس الحُتوف ، وانهمزت طائفة منهم بتلٍ يقال له تلّ حطين⁽¹²⁶⁾ ، وهي قرية عندها قبر النّبي شُعَيْب - عليه السلام - فضايقهم المسلمون وأشعلوا حولهم النيران ، واشتدَّ بهم العطش وضاق بهم الأمر ، حتى كانوا يستسلمون

[213/ب]

(120) في الأصول : «أطباب» والمثبت من الوفيات 174/7 ومما يوجد في نص المؤلف فيها بعد .

(121) كذا في ط و في الوفيات 175/7 ، وفي ش روت : «الثاني» .

(122) في الأصول والوفيات : «لوبياء» والصواب ما أثبتناه .

(123) سورة الأنفال : 6 .

(124) «الله أكبر» .

(125) في الكامل : «قص» 535/11 وهو تحريف للكلمة اللاتينية «Comes» ومعناه في مصطلح العصور الوسطى الأوروبية حاكم القلعة وحارسها ، وقومص طرابلس إذ ذاك هو الكونت (Comte) ريموند (Raymond) الثالث آخر حكام طرابلس من الأسرة التولوزية ، انظر تاريخ طرابلس 508/1 .

(126) عن هذه الواقعة ، انظر الكامل 535/11 - 536 .

للأمر خوفاً من القتل ، فأَسَرَّ مُقَدَّمُوهم ، وقُتِلَ الباقيون ، وكان مَمَّنْ أُسِرَ من مُقَدَّمِهِم الملك جعفري⁽¹²⁷⁾ وأخوه البرنس⁽¹²⁸⁾ أرناط⁽¹²⁹⁾ صاحب الكرك والشوبك ، وابن الهيفري⁽¹³⁰⁾ وابن صاحب طبرية ومقدم الدَّاوية⁽¹³¹⁾ ، وصاحب جبيل ومقدم الاستبارية⁽¹³²⁾ قال ابن شدَّاد⁽¹³³⁾ «ولقد حكى لي من أثق به أنه رأى بحوران شخصاً واحداً معه نيف وثلاثون أسيراً قد ربطهم بِطَنْب خيمة لما وقع عليهم من الخذلان» . ثم ان القومص الذي هرب في أول الأمر وصل إلى طرابلس⁽¹³⁴⁾ وأصابه ذات الجنب فهلك منها ، وأما مقدم الاستبارية⁽¹³⁵⁾ والدَّاوية فإن السُّلطان قتلها ، وقتل من بقي من صنفهما حياً⁽¹³⁶⁾ ، وأما البرنس⁽¹³⁷⁾ أرناط فإن السُّلطان كان قد نذر أنه إن ظفر به قتله ، وذلك لأنه كان قد/ عبر به بالشوبك قوم من الديار المصرية في حال الصُّلح فغدر بهم وقتلهم ، فناشدوه الصُّلح الذي بينه وبين المسلمين ، فقال ما يتضمَّن الاستخفاف بالنبي ﷺ وبلغ ذلك السُّلطان فحملته حمية دينية على أن نذر دمه . ولما فتح الله عليه بنصره جلس في دهليز الخيمة لأنها لم تكن نُصِبَتْ بعد ، وعرضت عليه الأسارى ، ونُصِبَتْ له الخيمة فجلس بها شاكراً الله تعالى على ما أنعم عليه ، فاستحضر الملك جعفري وأخاه والبرنس⁽¹³⁷⁾ أرناط ، وناول الملك جعفري شربة من

[1/214]

(127) Géoffri de Lusignan ، الوفيات 176/7 .

(128) في الأصول : «برقش» والثبت من الوفيات 176/7 وهي تحريف للكلمة «Prince» ومعناها الأمير .

(129) هو «Renaud de Chatillon» .

(130) «Humphray» .

(131) ومن يكتبها الديوية وتشير إلى فرسان المعبد (Les Templiers) وقد أنشأت ونظم قانونها منذ استقرار الصليبية الأولى .

(132) في الأصول : «الاستبار» وفي بعض المراجع كُتِبَتْ «استبارية» والثبت من تاريخ طرابلس 516/1 وغيره والاستبارية تعني (Les Hospitaliers) ويرجع تأسيسها إلى ما قبل الحروب الصليبية الأولى عندما طلب جماعة من تجار مدينة أمالني الإبطالية من الخليفة الفاطمي المستنصر معد سنة 440 - 1048 أن يسمح لهم بإقامة دير وييمرستان (Hôpital) ببيت المقدس على أن يكون مأوى وملجأ للحجاج النصارى للإقامة والعلاج أثناء زيارتهم لبيت المقدس «الحروب الصليبية» المرجع السابق ، ص 96 - 97 .

(133) ينقل عنه بواسطة ابن خلكان .

(134) أنظر تاريخ طرابلس 532/1 - 533 .

(135) في الأصول «الاستبار» .

(136) في الأصول : «صفهما طبرا» والثبت من الوفيات 176/7 .

(137) في ش و ط : «برقش» وفي ت : «برقش» والثبت من الوفيات .

حلاب بثلج فشرب منها ، وكان على أشد ما يكون من العطش ، ثم ناولها البرنس⁽¹³⁷⁾ وقال السلطان للترجمان : قل للملك أنت الذي سقيته أو أنا الذي سقيته ، وكان من عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير اذا أكل وشرب من مال الذي أسره أمن ، فقصده السلطان بقوله ذلك ، ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عينه لهم ، فأكلوا شيئاً ثم عادوا بهم ، ولم يبق عنده سوى بعض الخدم فاستحضرهم ، وأقعد الملك في دهليز الخيمة ، واستحضر البرنس أرناط وأوقفه بين يديه وقال له : ها أنا أنتصر لمحمد منك ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل ، فسل عليه النمشا⁽¹³⁸⁾ وضربه بها فحلّ كتفه وتم قتله من حضر ، وأخرجت جثته ورُميت على باب الخيمة / . فلما رآه الملك جفري على تلك الحال لم يشك أنه يلحقه به ، فاستحضره وطّيب قلبه ، وقال له : لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فانه تجاوز الحدّ على الأنبياء - عليهم صلوات الله وسلامه - وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور ترتفع أصواتهم بحمد الله تعالى وشكره وتهليله وتكبيره ، حتى طلع الفجر ، ثم نزل السلطان على طبرية يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر ، وتسلم قلعتها في ذلك النهار ، وأقام عليها إلى يوم الثلاثاء . ثم رحل عنها طالباً عكاً فكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلك شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين⁽¹³⁹⁾ فأخذها واستنقذ من فيها من المسلمين الأسارى ، وكانوا أكثر من أربعة آلاف أسير ، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضائع لأنها كانت مظنة التجار ، وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة ، فأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية⁽¹⁴⁰⁾ والناصرية⁽¹⁴¹⁾ ، وكان ذلك لخلوها من الرجال لأن القتل والأسر أفنى كثيراً منهم . ولما استقرت قواعد عكاً وقسم أموالها وأسارها سار يطلب تينين⁽¹⁴²⁾ فنزل عليها يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى ، وهي قلعة منيعة ، فنصب عليها المحانيق وضيق بالزحف خناق / من بها ، وكان فيها أبطال معدودون ، وفي دينهم متشددون ، فقاتلوا قتالاً شديداً ، ونصر الله - سبحانه وتعالى -

(138) في الأصول : «النهضة» .

(139) 8 جويلية 1187 ، وفي الأصول : «مستهل جمادى الأولى» وهو اليوم الذي قاتلها فيه ، انظر الوفيات 177/7 وتاريخ طرابلس 533/1 .

(140) في الأصول : «صفورية» .

(141) في الأصول : «الناصرية» .

(142) في الأصول : «سنا» والمثبت من الوفيات 177/7 ومعجم البلدان 14/2 .

المسلمين عليهم ، فتسلمها منهم يوم الأحد ثامن عشر [جمادى أولى] عنوة⁽¹⁴³⁾ ، وأسر من بقي فيها بعد القتل ، ثم رحل عنها إلى صيدا⁽¹⁴⁴⁾ في يوم الأربعاء ، وأقام عليها ريثا قرّر قواعدها ، وسار حتى أتى بيروت فنازلها ليلة الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى وركب عليها المجانيق ، وداوم الزحف والقتال حتى أخذها في (يوم الخميس وهو التاسع)⁽¹⁴⁵⁾ والعشرين من الشهر المذكور وتسلم أصحابه جليل⁽¹⁴⁶⁾ وهو على بيروت . ولمّا فرغ اله من هذا قصد عسقلان ، ولم ير⁽¹⁴⁷⁾ الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها ، ثم رأى أن العسكر تفرّق بالساحل ، وذهب كلّ واحد منهم يحصل لنفسه (محلا)⁽¹⁴⁸⁾ وكانوا قد ضجروا من القتال ، وملازمة الحرب واليزال ، وكان قد اجتمع في صور من بقي في الساحل من الافرنج فرأى أن قصده عسقلان أولى لأنها أيسر من صور ، فتنزل عسقلان يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة من السنة⁽¹⁴⁹⁾ ، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبريل والنظرون بغير قتال . وكان بين فتح عسقلان وأخذ الافرنج لها من المسلمين خمس وثلاثين سنة ، فإنهم كانوا أخذوها من المسلمين في السابع والعشرين من جمادى الآخرة / سنة ثمان وأربعين وخمسمائة⁽¹⁵⁰⁾ .

ولمّا تم تسلم عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجحد والاجتهاد في قصد القدس المبارك ، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل فصار⁽¹⁵¹⁾ نحوه معتمداً على الله تعالى مفوضاً أمره إليه تعالى [منهزاً الفرصة] في فتح باب الخير الذي حث عليه ﷺ بقوله «من فتح له باب خير فلينتهزه فانه لا يعلم متى يغلق دونه»⁽¹⁵²⁾ وكان نزوله عليه يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة⁽¹⁵³⁾ .

(143) في الأصول : «عدة» والمثبت من الوفيات 177/7 .

(144) ومثل صيدا أخذ الناصرة ، وقيسارية ، وحيفا ، ومعليا ، والسقيف ، والتولع ، والطور ، وبسطة ، ونبلس ، ويافا ، وصرخند ، أنظر تاريخ طرابلس 533/1 .

(145) في الأصول : «في اليوم الخامس وهو السابع» .

(146) في الأصول : «جنبلا» قال ياقوت : «بلد مشهور شرقي بيروت» 109/2 .

(147) في الأصول «يزل» والمثبت من الوفيات 178/7 .

(148) زائدة عن الوفيات .

(149) في يوم الخميس التاسع والعشرين من الشهر المذكور .

(150) 19 سبتمبر 1153 م .

(151) في الأصول : «فساروا نحوه معتمدين» .

(152) لم نجد لهذا الحديث ذكراً في كتب السير . (153) 20 سبتمبر 1187 م .

وكان نزوله بالجانب الغربي ، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الحَيَّالة والرجالة ، وحزر⁽¹⁵⁴⁾ أهل الخبرة من كان به من المقاتلة فكانوا يزيدون على ستين ألفاً غير النساء والصبيان ، ثم انتقل لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي يوم الجمعة العشرين من رجب ، ونَصَب عليه المجانيق ، وضايق البلد بالزحف والقتال حتى أخذ في نقب السور ممَّا يلي وادي جهنم ، ولمَّا رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا مدفع له عنهم ، وظهرت لهم امارات فتح المدينة وظهور المسلمين عليهم ، وكانوا قد اشتدَّ روعهم على أبطالهم وحماتهم من القتل والأسر وعلى حصونهم من التَّخريب والهدم ، وتحققوا أنَّهم صائرون إلى ما صار أولئك إليه ، فاستكانوا وأُخذوا⁽¹⁵⁵⁾ إلى طلب الأمان ، واستقرت القاعدة بالمراسلة / [216/أ] من الطائفتين فكان تسليمه⁽¹⁵⁶⁾ يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ، وكانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن الكريم ، فانظر إلى هذا الاتِّفاق العجيب كيف يَسِّر الله تعالى عوده إلى المسلمين في مثل زمان الاسراء بنبيهم ﷺ وهذه علامة قبول الله تعالى لهذه الطَّاعة ، وكان فتحاً عظيماً شهدته من أهل العلم [خلق]⁽¹⁵⁷⁾ ، وأرباب الخرق والزهد عالم كبير ، وذلك أنَّ الخلق⁽¹⁵⁸⁾ لمَّا بلغهم ما يَسِّر الله على يد هذا الرجل الصالح من فتوح الساحل وقَصْدُهُ القدس ، قَصَدَهُ العلماء من مصر والشَّام ، بحيث لم يتخلَّف أحد منهم ، وارتفعت الأصوات بالضَّجيج والدُّعاء والتَّهلِيل والتَّكبير ، وصليت⁽¹⁵⁹⁾ فيه الجمعة يوم فتحه - وخطب الخطيب [وقيل إن الخطبة أقيمت يوم الجمعة]⁽¹⁶⁰⁾ في رابع شعبان ، ونكَّس الصَّليب الذي كان على قُبَّة الصَّخرة ، وكان شكلاً عظيماً ، ونصر الله الاسلام ، وكان استيلاء الافرنج عليه يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة⁽¹⁶¹⁾ وقبل في ثاني شعبان وقيل يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر

(154) في الأصول : «حذر» .

(155) في بعض نسخ الوفيات : «أخذوا» .

(156) أي القدس الشريف .

(157) اضافة من الوفيات .

(158) في الوفيات : «الناس» .

(159) عن ابن شداد عزَّ الدِّين أبو عبد الله محمد بن علي (توفي 1285/684 م) الذي ينقل عنه ابن خلكان .

(160) ابن خلكان عن القاضي الفاضل انظر الوفيات 179/7 .

(161) 14 جويلية 1099 م ، وفي ضبط استيلاء الافرنج عليها في 22 شعبان انظر تاريخ طرابلس 395/1 ، وفي

التوقيعات الالهامية 21 شعبان 524/1 .

رمضان من تلك السنة ، ولم يزل بأيديهم حتى استنقذه السلطان صلاح الدين في التاريخ المذكور ، فتكون مدة بقاءه في أيديهم احدى وتسعين سنة .

وكانت قاعدة⁽¹⁶²⁾ الصلح بينهم أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرين دينار ، وعن كل امرأة خمس دنانير صورية / وعلى كل صغير ذكراً كان أو أنثى ديناراً واحداً ، فن أحضر قطيعته نجاً والا أخذ أسيراً ، وأُفرجَ عمن كان بالقدس من أسارى المسلمين ، وكانوا خلقاً كثيراً ، وأقام به يجمع الأموال ويُقرِّقها على الأمراء والرجال ، ويحبو بها الفقهاء والعلماء والزهاد والوافدين عليه ، ويقوم بايصال من قام بقطيعته⁽¹⁶³⁾ إلى مأمنه ، وهي مدينة صور ، ولم يرجل عنه ومعه من المال الذي جبي له شيء ، وكان يقارب مائتي ألف دينار وعشرين ألفاً ، وكان رجيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان من تلك السنة .

ولما فتح القدس حسنٌ عنده فتح صور وعلم ان آخرها ربما عسرَ عليه فتحها ، فسار نحوها حتى أتى عكا⁽¹⁶⁴⁾ فترها ونظر في أمورها ، ثم رحل عنها متوجهاً إلى صور يوم الجمعة خامس شهر رمضان ، فترل قريباً منها ، وأرسل لاحضار آلات القتال وضايقها ، واستدعى أسطول مصر ، فكان يقاتلها في البر والبحر ، ثم خرج أسطول صور ليلا فكبس على أسطول المسلمين ، فأخذوا المقدم والريس وخمس قطع للمسلمين ، وقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين في السابع والعشرين من الشهر ، فعظم ذلك على السلطان ، وكان الشياء قد هجم وتراكمت الأمطار ، فجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل ، فأشاروا عليه بالرحيل ليستريح الرجال ، ويحتمعوا للقتال / فرحل عنها ، وحمل من الآلات المعدة للحصار ما أمكن حمله ، وحرق ما عجز عن حمله لكثرة الوحل والمطر ، فرحل يوم الأحد ثاني ذي القعدة من تلك السنة ، وتفرقت العساكر ، وأعطى كل طائفة منهم دستوراً ، وسار كل قوم إلى بلادهم ، وأقام هو مع جماعة من خواصه بمدينة عكا إلى أن دخلت سنة أربع وثمانين وخمسائة⁽¹⁶⁵⁾ . ونزل على كوكب⁽¹⁶⁶⁾ في أوائل محرم من هذه السنة ، ولم يبق معه من العساكر إلا القليل ، وكان حصناً حصيناً وفيه من الرجال والأقوات كثير ، فعلم

(162) نقل عن ابن شداد بواسطة ابن خلكان الوفيات 188/7 .

(163) أي : دفع دينه .

(164) في الأصول : « عكة » .

(165) 1188 - 1189 م .

(166) في الأصول : « نول » والمثبت من الوفيات 189/7 .

أنه لا يؤخذ إلا بقتال شديد ، فرجع إلى دمشق ودخلها سادس [عشر] ربيع الأول من السنة .

وبعد خمسة أيام من قدومه بلغه أن الافرنج قصدوا جبيل⁽¹⁶⁷⁾ واغتاالوها ، فخرج مسرعاً وقد سير من يستدعي العساكر من جميع البلاد ، (فلماً وصل جبيل وعلم الإفرنج بوصوله كفوا عن ذلك)⁽¹⁶⁸⁾ .

ثم قدم عليه عماد الدين صاحب سنجار ومظفر الدين بن زين الدين وعسكر الموصل [إلى حلب] طالبين الجهاد ، فسار نحو حصن الأكراد .

ولمّا كان يوم الجمعة رابع جمادى الأول دخل السلطان بلاد العدو على هيئة صالحة⁽¹⁶⁹⁾ ، ورتّب الأطلاب ، وسارت الميمنة أولاً ومقدمها عماد الدين زنكي والقلب في الوسط ، والميسرة في الأخير ، ومقدمها مظفر الدين بن زين الدين ، فوصل إلى أنطرسوس⁽¹⁷⁰⁾ [ضحى] نهار الأحد سادس جمادى الأولى ، فوقف قبالتها⁽¹⁷¹⁾ ينظر إليها لأن قصده كان أخذ بلد جبلة / فاستهان بأمرها وعزم على قتالها ، فسير من رد الميمنة ، وأمرها بالتزول على جانب البحر ، والميسرة على الجانب الآخر ، ونزل هو موضعه ، والعساكر محدّقة بها من البحر إلى البحر ، وهي مدينة راكبة على البحر ولها برجان كالقلعتين ، فركبوا وقاربوا البلد وزحفوا واشتدّ القتال ، وباغتوها ، فما استتم نصف النهار⁽¹⁷²⁾ حتى صعد المسلمون سورها ، وأخذوها بالسيف ، وغنم المسلمون جميع ما فيها ومن بها ، وأحرقوا البلد ، وأقام عليها إلى رابع عشر جمادى الأولى ، وسلّم أخذ البرجين إلى مظفر الدين ، فما زال يحارب حتى أخذهما ، وقدم عليه ولده الملك الظاهر في عسكر عظيم .

ثم سار يريد جبلة فوصلها ثاني عشر جمادى الأولى ، فما استتم نزول العسكر عليها حتى أخذ البلد ، وكان فيه مسلمون مقيمون وقاض يحكم بينهم ، وقوتلت القلعة قتالاً شديداً ، ثم سلمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر جمادى الأولى من السنة ، وأقام عليها إلى الثالث والعشرين منه .

(167) في الأصول : «حتل» والمثبت من الوفيات .

(168) في الوفيات : «وسار يطلب جبيل ، فلماً عرف الفرنج بخروجه كفوا عن ذلك .»

(169) في الوفيات : «على تعبئة حسنة .»

(170) في ش : «طرطوش» وفي ط : «طرطوس» والمثبت من الوفيات .

(171) في ش : «قبلها» . (172) في الوفيات : «نصب الخيام» 190/7 .

ثم سار عنها إلى اللاذقية فترها يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى ، وهو بلد مليح ⁽¹⁷³⁾ غير مسور ، وله ميناء ⁽¹⁷⁴⁾ مشهور وقلعتان متصلتان على تل مشرف على البلد ، فاشتد القتال إلى آخر النهار ، فأخذ البلد دون القلعتين ، وغنم المسلمون غنيمة عظيمة لأنه كان / بلد التجار ، وجدوا في أمر القلعتين بالقتال والنقوب حتى بلغ طول [218/أ] النقب ستين ذراعاً وعرضه أربعة أذرع ، فلما رأى أهل القلعتين الغلبة طلبوا الصلح عشية يوم الجمعة الخامس والعشرين من الشهر على سلامة أنفسهم وذرائعهم وأموالهم ما خلا العين والدنانير والسلاح وآلات حرب فأجابهم إلى ذلك ، ووقع الصلح يوم السبت ، وأقام عليها إلى يوم الأحد السابع والعشرين من الشهر .

ثم رحل عنها إلى صهيون ⁽¹⁷⁵⁾ ، وقاتلهم فأخذ البلد يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة ، ثم تقدموا إلى القلعة ، وصدقوا القتال ، فلما عاينوا الهلاك طلبوا الأمان ، فأجابهم إلى ذلك ووقع الصلح ، بحيث يؤخذ من الرجل عشرة دنانير ومن المرأة خمسة دنانير ومن كل صغير ديناران ، الذكر والأنثى سواء ، وأقام بهذه الجهة حتى أخذ عدة قلاع منها بلاطنس ⁽¹⁷⁶⁾ وغيرها من الحصون المتصلة بصهيون ⁽¹⁷⁵⁾ .

ثم رحل عنها وأتى بكاس ⁽¹⁷⁷⁾ ، وهي قلعة حصينة ، ولها نهر يخرج من تحتها ، وذلك يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة ، وقاتلوها قتالاً شديداً إلى يوم الجمعة تاسع الشهر ، ثم يسر الله فتحها عنوة ، فقتل من قتل وأسر الباقون ، وغنم المسلمون جميع ما كان فيها ، ولها قلعة ⁽¹⁷⁸⁾ تسمى الشجر ⁽¹⁷⁹⁾ ، وهي في غاية المنعة يعبر إليها منها بحسر وليس عليها طريق فسلطت عليها المجانيق من جميع الجوانب ، ورأوا أنهم لا ناصر لهم فطلبوا

(173) في الوفيات : «خفيف على القلب» .

(174) في الأصول : «عين» والمثبت من الوفيات 190/7 .

(175) في ش : «صيدون» ، وفي ط : «صيحون» والمثبت من الوفيات ، أنظر عنها معجم البلدان 436/3 ملخصة : «حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص» .

(176) في الأصول : «بلاطس» والمثبت من الوفيات 191/7 ، ومعجم البلدان 478/1 قال عنها الحموي : «بضم الطاء والنون والسین مهمله ، حصن منبع ببلاد الشام مقابل اللاذقية من أعمال حلب» .

(177) قلعة من نواحي حلب على شاطئ العاصي انظر معجم البلدان 474/1 .

(178) في الأصول : «قلعة» والمثبت من الوفيات .

(179) في الأصول : «الشعراء» والمثبت من الوفيات 191/7 ومعجم البلدان 352/3 قال الحموي : «قلعة حصينة مقابلة أخرى يقال لها بكاس على رأس جبلين بينهما واد كالخندق .. وهما قرب أنطاكية» .

[218/ب]

الأمان يوم الثلاثاء / ثالث عشر الشهر ، ثم سار إلى برزية⁽¹⁸⁰⁾ ، وهي من الحصون المنيعه في غاية القوة ، يضرب بها المثل في بلاد الافرنج ، يحيط بها أودية من جميع جوانبها ، وعلوها خمسمائة ونيف وسبعون ذراعاً على ما ذكره ابن خلكان⁽¹⁸¹⁾ ، ولعلها كانت على شاهق جبل ، وكان نزوله عليها يوم السبت الرابع والعشرين من الشهر ، ثم أخذها عنوة يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه .

ثم سار إلى دريساك⁽¹⁸²⁾ فنزل عليها يوم الجمعة ثامن رجب ، وهي قلعة منيعة فقاتلها قتالاً شديداً وصعد العلم الاسلامي عليها يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب ، وأعطاه الأمير علم الدين سليمان بن جندر .

وسار عنها بكرة يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر ، ونزل على بغراس ، وهي قلعة حصينة تقرب من انطاكية ، فقاتلها قتالاً شديداً ، وصعد العلم الاسلامي عليها ثاني شعبان وراسله أهل انطاكية في طلب الصلح ، فصالحهم لشدة ضجر العسكر⁽¹⁸³⁾ ، وكان الصلح معهم على أن يطلقوا كل أسير عندهم ، ومدة الصلح سبعة أشهر ، فان جاءهم من نصرهم ، والا سلموا البلد .

ثم رحل السلطان فصار إلى دمشق⁽¹⁸⁴⁾ قبل شهر رمضان بأيام يسيرة .

ثم سار في أول شهر رمضان يريد صفد فنزل عليها ، ووالى عليها القتال حتى تسلمها بالأمان في رابع عشر شوال .

وفي رمضان سلمت الكرك عن نواب صاحبها .

[219/أ]

ثم سار إلى كوكب / وضايقها بالقتال الشديد ، مع شدة الوحل والمطر وعصف الأرياح ، فلما تيقنوا أنهم مأخوذون طلبوا الأمان فأجابهم ، وتسلمها منهم منتصف ذي القعدة من السنة .

ثم نزل إلى الغور ، وأقام بالمخيم بقية الشهر ، وأعطى الجماعة دستوراً ، وسار مع

(180) في الأصول : « برزة » والمثبت من الوفيات ومعجم البلدان 383/1 . قال الحموي : « برزويه » بالفتح وضم

الزاي وسكون الواو وفتح الباء ، والعامية تقول « برزیه » حصن على السواحل الشامية على من جبل شاهق .

(181) الوفيات : 192/7 والحموي أيضاً بنفس العبارات ، نفس المرجع .

(182) في الأصول : « دريساك » والمثبت من الوفيات 192/7 .

(183) في الأصول : « السلطان » والمثبت من الوفيات .

(184) بعد أن مر بحلب ، وحماة ، وسار على طريق بعلبك ، انظر الوفيات 192/7 .

أخيه [الملك] العادل يريد زيارة القدس ووداع أخيه لأنه كان متوجهاً إلى مصر ، فدخل القدس ثامن⁽¹⁸⁵⁾ ذي الحجة وصلى به العيد .

وتوجه في حادي عشر ذي الحجة إلى عسقلان لينظر في أمورها ، ثم مرَّ على بلاد الساحل متفقدًا أحوالها ثم دخل عكا ، وأقام بها معظم المحرم من سنة خمس وثمانين⁽¹⁸⁶⁾ يصلح أحوالها ، ورتب فيها الأمير بهاء الدين قراقوش واليًا بعمارة سورها . وسار إلى دمشق ، ودخلها في مستهل صفر من السنة ، وأقام بها إلى شهر ربيع الأول من السنة .

وخرج إلى شقيف أرنون⁽¹⁸⁷⁾ ، وهو موضع حصين فخيم به في مرج عيون بالقرب من الشقيف⁽¹⁸⁸⁾ في سابع عشر ربيع الأول ، وأقام ألياً يباشر قتاله كل يوم ، والعساكر تواصل إليه ، فلما تحقق صاحب شقيف⁽¹⁸⁸⁾ أن لا طاقة له به نزل إليه بنفسه ، فلم يشعر به إلا وهو قائم على باب خيمته ، فأذن له في دخوله إليه وأكرمه واحترمه ، وكان من أكبر الافرنج [وعقلائهم] وكان يعرف بالعربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث ، وكان حسن التآتي لما حضر بين يدي / السلطان وأكل معه الطعام ، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته ، وأنه يسلم إليه المكان من غير تعب ، واشترط أن يعطي موضعاً يسكنه بدمشق لأنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الافرنج ، واقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله ، وشروطاً غير ذلك فأجابه إلى ذلك . وفي أثناء شهر ربيع الأول وصله الخبر بتسليم الشوبك ، وكان السلطان قد أقام عليه جمعاً يحاصرونه مدة سنة كاملة إلى أن نفذ زاد من كان به ، فسلموه بالأمان . ثم ظهر للسلطان بعد ذلك أن جميع ما قاله صاحب الشقيف كان خديعة فرسم عليه .

ثم بلغه أن الافرنج قصدوا عكا ، ونزلوا عليها يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة خمس وثمانين وفي ذلك اليوم سار صاحب شقيف إلى دمشق بعد الاهانة الشديدة .

(185) في الأصول : «ثاني» .

(186) 1189 م .

(187) في الأصول : «ثقيف أريون» والمثبت من الوفيات 193/7 ومعجم البلدان 356/3 . قال الحموي : «قلعة حصينة قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل» .

(188) في الأصول : «ثقيف» والمثبت من الوفيات 194/7 .

وأتى عَكَّا⁽¹⁸⁹⁾ ودخلها بغتة لتقوى قلوب من بها ، وسير لاستدعاء العساكر من كل ناحية [فجاءته] وكان مقدار العدو أَلْفِي⁽¹⁹⁰⁾ فارسي وثلاثين ألف راجل ، ثم تكاثر الافرنج واستفحل أمرهم وأحاطوا بعكَّا ، ومنعوا الدخول إليها والخروج ، وذلك يوم الخميس سلخ رجب ، فضاقت صدور السُّلطان لذلك [ثم اجتهد في فتح الطريق]⁽¹⁹¹⁾ إليها لأجل الميرة والنجدة ، ثم جرى بين الفريقين مناوشات في عدة أيام .

ثم جاءت أمداد الافرنج من البحر فضايقوا من بها من المسلمين إلى أن غلبوا / عن حفظ البلد ، ففي يوم الجمعة السَّابع عشر من جمادى الآخرة من سنة سبع وثمانين وخمسمائة⁽¹⁹²⁾ خرج من عَكَّا رجل من المسلمين بالعموم ، ومعه كتب من المسلمين يذكرون ما هم فيه ويَقْنِئُهُم الهلاك ، وإن أخذوا البلاد عنوة ضربوا أعناقهم ، وأنهم صالحوا على تسليم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعُدَّة والسِّلاح والمراكب ومائتي ألف دينار ، وخمسمائة أسير مجاهيل ومائة أسير مُعَيَّنِينَ من جهتهم ، وصليب الصُّلبوت على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين ، وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وذرائعهم ونسائهم ، وضمنوا للمركيس⁽¹⁹³⁾ لأنه كان الواسطة في هذا الأمر أربعة آلاف دينار ، فلما وقف السُّلطان على الكتاب أنكر ذلك إنكارًا عظيمًا وعظم عليه هذا الأمر ، فجمع أهل الرّأي من أكابر الدَّولة وشاورهم فيما يصنع ، واضطربت الآراء⁽¹⁹⁴⁾ وعزم على أن يكتب مع العوام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه ، فبينما هو يتردد [لم يشعر] إلا وأعلام العدوّ وصلبانه [قد ارتفعت] على السُّور وذلك ظهيرة يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من السَّنة .

ثم خرج الافرنج من عَكَّا لقصد عسقلان إلى أن وصلوا إلى أرسوف ، فكان بينهم وبين المسلمين قتال شديد ، ثم ساروا على تلك الهيئة تنمة عشر منازل من مسيرهم من عَكَّا ، فأتى السُّلطان الرَّملة ، وأتاه من أخبره بالقوم على عزم عمارة يافا وتقويتها بالرجال والعدد ، فأحضر السُّلطان أرباب / مشورته وشاورهم في أمر عسقلان وهل الصَّواب

(189) في الأصول : «عكة» .

(190) في الأصول : «مائتي ألف» والمثبت من الوفيات 194/7 .

(191) اضافة من الوفيات يقتضيا السياق .

(192) 12 جويلية 1191 م .

(193) في الأصول . «المراكيش» والمثبت من الوفيات 197/7 ، ولعلها تحريف لكلمة Marquis الفرنسية .

(194) في الوفيات : «واضطربت آراؤه وتقسم فكره وتشوش حاله» .

خرباها أو بقاءها؟ فاتفقت آراؤهم على أن يبقى الملك العادل قبالة العدو، ويتوجه السلطان بنفسه ليخربها خوفاً من أن يصل العدو إليها ويستولي عليها وهي عامرة، ويأخذ بها القدس، وتنقطع بها طريق مصر، وامتنع⁽¹⁹⁵⁾ العساكر من الدخول، ورأوا أن حفظ القدس أولى، فتعين خرباها من عدة أمور، وكان الاجتماع سابع عشر شعبان سنة سبع وثمانين وخمسائة⁽¹⁹⁶⁾، فسار إليها يوم الأربعاء ثامن عشر الشهر فأخربها وأخرب الرملة وكذلك أخرب النطرون لما في ذلك من إصلاح الحال.

ثم ان النصارى طلبوا الصلح فصالحهم بعد جهد جهيد، وإباء شديد من السلطان، وكان⁽¹⁹⁷⁾ يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسائة⁽¹⁹⁸⁾ ونادى المنادي بانتظام الصلح، وأن البلاد الإسلامية والنصرانية [واحدة في]⁽¹⁹⁹⁾ الأمن والمسالمة⁽²⁰⁰⁾ فمن شاء من كل طائفة أن يتردد إلى بلاد غيره فعل من غير خوف عليه ولا محذور، وكان فيه صلاح للمسلمين لأنه اتفقت وفاة السلطان مع الصلح، فلولوا انعقاد الصلح ومات السلطان أثناء المقاتلة لكان الناس على خطر.

ثم أعطى العساكر الواردة عليه من البلاد البعيدة برسم النجدة دستوراً فساروا عنه، وتردد المسلمون إلى بلاد النصارى وجاؤوا هم⁽²⁰¹⁾ إلى بلاد المسلمين، وحملت البضائع / والمتاجر إلى البلاد، وحضر منهم خلق كثير لزيارة القدس لاشتراطهم ذلك في عقد الصلح.

وتوجه السلطان إلى القدس ليتفقد أحوالها، وأخوه الملك العادل إلى الكرك، وابنه الملك الظاهر إلى حلب، وابنه الملك الأفضل إلى دمشق، وأقام السلطان بالقدس يقطع الناس الإقطاعات ويعطيهم دستوراً، ولما صحَّ عنده أن الانكثار - أكبر ملوك الافرنج الذي وقع الصلح على يديه - سافر إلى بلاده، قوي عزمه على أن يدخل الساحل جريدة يتفقد القلاع البحرية، فلما فرغ من تفقُّد⁽²⁰²⁾ أحوال القلاع واصلاح خللها دخل

(195) في الأصول: «ويمتنع».

(196) 9 سبتمبر 1191 م.

(197) أي الصلح، وفي الوفيات نقلاً عن ابن شداد: «وكانت الأيمان» 199/7.

(198) 2 سبتمبر 1192 م.

(199) اضافة من الوفيات يقتضيا السياق.

(200) في الأصول: «السلامة».

(201) كذا في ط والوفيات، وفي ش: «أجلوهم».

(202) في الأصول والوفيات: «اتفقاد» وما وضعناه أخف.

دمشق بكرة الأربعاء سادس عشر شوال ، وفيها أولاده : الملك الأفضل ، والملك الظاهر ، والملك الظافر مظفر الدين الخضر المعروف بالمشمر ، سمي بذلك لأن السلطان لما قسّم البلاد بين أولاده الكبار دون المشمر ، قال : أنا مشمر ، فغلب الاسم عليه ، وبها أيضاً غيره من أولاده الصغار. وكان يحب البلد ويؤثره بالاقامة فيه على سائر البلاد ، وجلس للناس بكرة يوم الخميس السابع والعشرين من شوال ، وحضروا عنده وبلوا شوقهم [منه] ، وقصده عامة الناس وخاصّتهم ، فنشر عليهم جناح العدل والفضل ، وكشف سحاب الجور والظلم.

ولما أصلح الملك العادل أحوال الكرك سار قاصداً (إلى البلاد الفراتية) (203) - لأن السلطان أعطاه إياها ، كما أعطى أولاده الكبار البلاد المتقدمة ، وأعطاه / أيضاً البلاد الساحلية - (204) فوصل إلى دمشق يوم الأربعاء سابع عشر ذي القعدة (205) وخرج السلطان إلى لقائه ، ثم أقام معه أياماً يتصيدان مع أولاده ، فحصلت له راحة ممّا كان فيه من ملازمة التعب والسهر.

[221/ب]

فلما كانت ليلة السبت ابتدأه مرض حمى صفراوية ، فلما كان اليوم العاشر من مرضه يشس الأطباء منه فتوفي بعد صلاة الصبح يوم الأربعاء السابع والعشرين من [صفر] سنة تسع وثمانين وخمسمائة (206) ولم يُخلف في خزائنه الا سبعة وأربعين درهماً ناصرية وجرمًا (207) واحداً ذهباً صورياً ، ولم يخلف على ملكه داراً ولا غقاراً ، ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة الا الثناء الجميل ، ودُفن بدمشق في قبة شمالي جامع دمشق ، وكان - رحمه الله تعالى - من محاسن الدنيا وأصاب المسلمين من موته كآبة وحزن لم يصب المسلمين مثلها منذ فقد الخلفاء الراشدون - رضي الله تعالى عنهم وعنه - ورثاه الشعراء بمرثي كثيرة يطول تتبعها (208).

(203) في الأصول : «للديار المصرية» والمثبت من الوفيات 201/7 .

(204) بعدها في الأصول : «فلما قدم من الكرك فعدّ وصوله» أسقطناها لأنها تدخل اضطراباً على الانشاء .

(205) في الأصول : «ذي الحجة» .

(206) 4 مارس 1193 م .

(207) في الأصول : «دينارا» والمثبت من الوفيات 204/7 .

(208) وفيات الأعيان من ترجمة السلطان صلاح الدين الذي اعتمد فيها ابن خلكان خاصة على ابن الأثير وابن

شداد ، وقد نقل المؤلف عن ابن خلكان بتصرف بالحذف والاختصار ، 139/7 - 205 .

الملك الكامل والحروب الصليبية الخامسة :

«ثم ان الافرنج توجهوا لطلب بلاد المسلمين⁽²⁰⁹⁾ بعده في سنة خمس عشرة وستائة⁽²¹⁰⁾ ، فقصدوا أولاً لقاء الملك العادل بساحل الشام ، فتوجه أمامهم⁽²¹¹⁾ نحو دمشق يتجهز ويتأهب إلى لقاءهم ، فلما وصل إلى عالقين ، بفتح العين المهمة وبعد الألف لام فقاف مكسورين فياء مثانة من أسفل ساكنة فنون ، قرية بظاهر دمشق توفي بها ، فأعرض جميع الافرنج عن السلم وقصدوا الديار المصرية⁽²¹²⁾ «فتزلوا / على دمياط [222/أ] يوم الثلاثاء سادس عشر ذي القعدة من السنة. فأخذوها يوم الثلاثاء السابع⁽²¹³⁾ والعشرين من شهر شعبان سنة ست عشرة وستائة⁽²¹⁴⁾ ، «فتزل لمقاتلتهم⁽²¹⁵⁾ أبو المعالي محمد ابن الملك العادل الملقب «بالمملك الكامل» صاحب الديار المصرية ، وأخوه الملك المعظم صاحب الديار الشامية ، والملك الأشرف صاحب البلاد الشرقية ، فبعد تملك العدو دمياط خرجوا منها قاصدين القاهرة ونزلوا في رأس الجزيرة التي دمياط في برها ، وكان المسلمون مقابلين لهم في قرية المنصورة ، وبحر أشموم⁽²¹⁶⁾ حائل بينهم ، فلما التقى

(209) الدخول في الحرب الصليبية الخامسة ، وتشير إلى أن الحروب الصليبية الرابعة التي أثارها البابا اينوسان الثالث (Innocent III) تحولت عن طريقها إذ وجهها دوق البندقية هانري دندولو (Henri Dandolo) إلى القسطنطينية عوضاً عن بيت المقدس كما كان مقرراً ، والمتسبب في الحرب الصليبية الخامسة هو البابا هنوريوس الثالث (Honorius III) وكان الغرض منها انتقاد بيت المقدس واستخلاصها من أيدي المسلمين ، وكان صلاح الدين قد حررها منهم كما سبقت الإشارة إلى ذلك في النص .

انظر على سبيل المثال الحروب الصليبية .. ، المرجع السابق ص 101 - 108 .

(210) 1218 - 1219 م .

(211) في الأصول : «قدامهم» .

(212) انظر الوفيات ترجمة الملك العادل ابن أيوب أخو صلاح الدين 78/5 .

(213) في الأصول : «السادس» والمثبت من الوفيات 257/6 .

(214) 7 نوفمبر 1219 م : الوفيات من ترجمة تاج الدين الجراح (يحيى بن منصور) 257/6 انظر أيضاً الكامل لابن الأثير 323/12 - 325 .

(215) ينتقل إلى ترجمة الملك الكامل الأيوبي في الوفيات 80/5 .

(216) في الأصول : «أشمون» والمثبت من الوفيات ومعجم البلدان ، قال الحموي : «أشموم» بضم الميم وسكون الواو ، اسم لبلدين بمصر ، أشموم طناح قرب دمياط ، والأخرى أشموم الجريعات بالمنوفية ، أما أشمون ، وأهل مصر يقولون أشمونين هي مدينة قديمة بالصعيد الأدنى 200/1 وفي المختصر لأبي القداء : «أشمون طناح» .

الجمعان نصر الله عساكر الاسلام ليلة الجمعة سابع رجب سنة ثمان عشرة وستائة⁽²¹⁷⁾ وتمّ الصلح بينهم وبين المسلمين في حادي عشر الشهر المذكور، ورحل الافرنج عن البلاد بشعبان من السنة المذكورة، فكانت مدّة اقامتهم ما بين الشّام والديّار المصرية أربعين شهراً وأربعة عشر يوماً⁽²¹⁸⁾، واتفق «أن نزولهم على دمياط كان يوم الثلاثاء وكان يوم احاطتهم بها، وكذا يوم أخذها، وقد جاء في الخبر أن الله خلق المكروه يوم الثلاثاء»⁽²¹⁹⁾، ولما «رجع الملك الكامل منصوراً ودامت أيامه واتسعت مملكته الشرقية من آمِد، وحصن كيفا، وحرّان، والرّها، ورأس العين، وسروج، وما انضم إلى ذلك، أعطى ولده الملك الصّالح أبا الفتح أيوب الملقّب نجم الدّين البلاد الشرقية، وأعطى ولده الأصغر الملك العادل سيف الدّين أبا بكر الديّار المصريّة، ثم اتسعت / مملكة الملك الكامل حتى خطب الخطيب يوم الجمعة بمكّة المشرفة، ودعا للملك الكامل فقال: صاحب⁽²²⁰⁾ مكّة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والشّام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلّطان القبلتين، وربّ العلامتين، وخادم الحرمين الشّرفيين، الملك الكامل أبو المعالي ناصر الدّين محمد خليل أمير المؤمنين. ولم يزل على ملكه إلى أن توفي يوم الأربعاء بعد العصر، ودفن بدمشق يوم الخميس الثاني والعشرين من رجب سنة خمس وثلاثين وستائة»⁽²²¹⁾.

الملك الصّالح نجم الدّين أيوب والحروب الصليبية السادسة

ثم «تقلبت الأحوال بالملك الصّالح نجم الدّين أيوب إلى أن تملك مصر⁽²²²⁾ سنة سبع وثلاثين وستائة⁽²²³⁾، ثم أخذ دمشق⁽²²⁴⁾، ثم مضى إلى الشّام سنة ست

(217) 27 أوت 1221 م.

(218) الوفيات 80/5.

(219) الوفيات 258/6 من ترجمة يحيى بن منصور الجراح.

(220) في الأصول: «ملك» 82/5.

(221) 10 مارس 1238 وترجمة الملك الكامل محمد بن الملك العادل في وفيات الأعيان 79/5 - 83.

(222) عن تقلبات الأحوال بالملك الصّالح نجم الدّين أيوب وتملكه لمصر، انظر وفيات الأعيان 84/5 - 85 في آخر ترجمة الملك الكامل.

(223) 1239 - 1240 م، نازع فيها أخاه الملك العادل ابن الملك الكامل.

(224) من عمه الملك الصّالح.

وأربعين⁽²²⁵⁾ ، فدخل دمشق⁽²²⁶⁾ أوائل شعبان من السنة ، وسير العساكر لحصار حمص⁽²²⁷⁾ ، ثم رجع أول سنة سبع وأربعين وهو مريض .
وقصد الافرنج دمياط⁽²²⁸⁾ بعد اجتماعهم بجزيرة قبرس فتزل هو بأشموم ينتظر وصولهم فوصلوا يوم الجمعة العشرين من صفر سنة سبع وأربعين وستائة⁽²²⁹⁾ ، وملكوا بر الجزيرة يوم السبت وملكوا دمياط يوم الأحد ، ثلاثة أيام متوالية لأن العساكر وجميع أهلها هربوا منها ، ثم فككت منهم .

نهاية الأيوبيين :

وانتقل الملك الصالح من أشموم إلى المنصورة ، ونزل بها وهو في غاية المرض ، وأقام بها على تلك الحال إلى أن توفي هناك ليلة الاثنين نصف شعبان من السنة المذكورة ، وحُمِلَ إلى القلعة الجديدة في الجزيرة ، وترك في مسجدها هنالك ، وأُخِي موته / مقدار [223/أ]

(225) 1248 - 1249 م .

(226) لما مات الملك العادل اختلف أبناؤه الثلاثة : الملك الكامل صاحب مصر ، والملك الأشرف صاحب الجزيرة وصلاح ، والملك المعظم صاحب دمشق وبيت المقدس ، وتحالف الملك المعظم ضد أخويه مع جلال الدين ابن خوارزمشاه ونتيجة لهذا التخوف بعث الملك الكامل إلى الإمبراطور فريدريك الثاني يستقدمه إلى عكا ليشغل أخاه المعظم بما هو فيه ، ومات الملك المعظم قبل وصول الإمبراطور لكن فريدريك استولى على بيت المقدس صلحا مع شروط ، واستسلم الملك الكامل هذا الصلح للمصلحة نظرا للخلافات في البيت الأيوبي ، وتولى الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل ويعتبر آخر سلاطين بني أيوب ، وكانت له عداوة مع عمه الملك الصالح اسماعيل الذي استولى على دمشق وتحالف مع الصليبيين وتنازل لهم على بعض البقاع ، ونزلت قوات صليبية جديدة قادمة من فرنسا ، وجرت بين الملك أيوب مع عمه اسماعيل والصليبيين حروب واسترجع بيت المقدس ، وكل هذه الأحداث من احتلال بيت المقدس من طرف الصليبيين إلى حين استرجاعها من طرف الملك أيوب يدخل في باب الحرب الصليبية السادسة ، انظر الحروب الصليبية ، المرجع السابق ص 113 - 117 .

(227) في الأصول : «مصر» والمثبت من الوثبات 85/5 .

(228) كان استرجاع المسلمين بيت المقدس رد فعل في أوروبا المسيحية تتجلى في الحروب الصليبية السابعة ، التي قام بها ملك فرنسا لويس التاسع (St. Louis) التي تجهز لها تجهيزاً عظيماً ، واصطحب معه الكثير من الأمراء ، ومن مراحلها الاستيلاء على دمياط وأسّر الملك لويس التاسع ، عن هذه الحملة انظر الحروب الصليبية ، المرجع السابق ص 117 - 122 .

(229) 5 جوان 1248 م .

ثلاثة أشهر ، والخطبة باسمه ، إلى أن وصل ولده المعظم توران شاه (230) إلى المنصورة ، فعند ذلك أظهروا موته ، وخطب لولده المذكور ، ثم بنى له ولده بالقاهرة إلى جانب مدرسته تربة ، ونقل إليها في رجب سنة ثمان وأربعين وستائة (231) .

ثم شرع في قتال الكفار فكسّرهم بدمياط كسرة عظيمة ، وقتل منهم ألف نفس وأزيد من ذلك ، وأسر ملكهم الفرنسي (232) واعتقله بالمنصورة (233) ، ثم شرع المعظم في إبعاد أمراء والده ومماليكه فانفق الأمراء (234) على قتله ، فقتل (235) ، وكانت مدة ملكه أقل من شهر (236) ، فالسنة التي تولى فيها توفي فيها ، وكانت وفاة الملك المعظم بمصر ، فولوا بعده في التاريخ الملك المظفر موسى ، وهو ثامن الأيوبيين ، فأجلسوه على سرير الملك وهو ابن ست سنين ، فتغلب عليه مماليكهم الأتراك ، فانقرضت من مصر الدولة الكردية إلى الدولة التركية .

المماليك بمصر:

وتسلطن الأتراك بها يوم الأربعاء سابع عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وستائة (237) وفي بعض التواريخ (238) أن الأمراء بعد قتل الملك المعظم اتفقوا على سلطنة شجرة الدر أيبك (239) الصالحية (240) لما علموا أنها كانت أحسن تدبيراً من زوجها الصالح ، فكانت تعلم على المناشير والتواقيع ، فقال إليها جميع العسكر وخطب لها (241) ، وضربت

(330) وكان بحصن كيفا ، الوفيات : 86/5 انظر ترجمته في النجوم الزاهرة 364/6 - 373 .

(231) سبتمبر - أكتوبر 1250 م ، الوفيات 85/5 - 86 .

(232) في الأصول : «ملكهم الفرنسي» ، وهو كما أشرنا لويس التاسع ملك فرنسا .

(233) بطل منية أبي عبد الله قرب المنصورة ، أنظر الحروب الصليبية ، المرجع السابق ص 122 ، والنجوم الزاهرة 367/6 .

(234) المماليك البحرية الذين كان والده جعلهم بقلعة البحر بجزيرة الروضة ، انظر النجوم الزاهرة 367/6 .

(235) في 27 محرم 648 هـ / 1 ماي 1250 م الوفيات 89/5 والنجوم 371/6 .

(236) في الأصول : «سبعة وستين يوماً» والمثبت من النجوم 372/6 .

(237) 13 ديسمبر 1250 م .

(238) مثلاً النجوم الزاهرة 371/6 .

(239) انظر ترجمتها بالنجوم الزاهرة 373/6 - 377 .

(240) نسبة إلى زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكانت جاريته وزوجته وأم ولده خليل .

(241) كان الخطباء يقولون على المنبر بعد الدعاء للخليفة «واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة السلطان ملكة الصالح» ، ابن عمري يردي في النجوم الزاهرة عن الصفدي 374/6 .

للسِّكَّةَ باسمها ، وَوَلَّتْ وعزلت ، وجعلت عزَّ الدِّين أيبك التركماني نائباً عنها وأتابك
للعسكر ، وذلك بصفر سنة ثمان وأربعين وستائة⁽²⁴²⁾ ، / وأطلقت لويس⁽²⁴³⁾ ملك
[223/ب] لافرنج بعد مراسلات كثيرة ، واشترطت عليه أن يسلم دمياط للمسلمين ويحمل أموالاً
مقرَّرة ، وتوجَّه إلى بلاده بعد أن أقامت دمياط بيد الافرنج أحد عشر شهراً وتسعة أيام ،
ثم تزوجت بنائبها الأمير عزَّ الدِّين أيبك⁽²⁴⁴⁾ ، ثم اتفق رأي الأمراء أن يسלטوا التاسع من
بني أيوب ، وهو الملك الأشرف مظفر الدِّين موسى ابن الملك الناصر صلاح الدِّين ،
فجلس على سرير الملك يوم الأربعاء ثاني جمادى الأولى عام ثمانية وأربعين وستائة⁽²⁴⁵⁾ ،
وأشركوا إسمه مع إسم شجرة الدرَّ على السِّكَّة ، ويُعلِّمان معاً على المناشير وغيرها .
وفي ذلك الوقت عظم أمر الممالك البحرية⁽²⁴⁶⁾ فتسلطوا على المسلمين وكان ألف
مملوك تركي بالروضة ، فكانوا يسبون الحريم ، ويأخذون الأموال ، وكان كبيرهم الفارس
قطاي الصالحى وكلما طلب من الأموال أخذ من الخزائن حتى أقطع الاسكندرية
بمفرده ، وهاداه الأشرف المتقدم الذكر .

(وأول الأتراك زوج شجرة الدر أيبك المقدم الذكر)⁽²⁴⁷⁾ وسبب توليه أن الأشرف
عجز عن القيام بالملك لصغر سنه ، وبلغ أهل مصر قدوم التتار للبلاد فاتفقت الآراء على
قائمة أيبك بمفرده ، ولما تولى فرَّ منه جماعة البحرية إلى الشام⁽²⁴⁸⁾ .
ومن أعظم ملوك الأتراك رابعهم⁽²⁴⁹⁾ الملك الظاهر بيبرس⁽²⁵⁰⁾ فتح من بلاد الشام
ما بقي تحت يد الكُفَّار كقلعة بانياس ويافا وغيرها نحو الخمسة عشر بلداً ، وجميع
[224/أ] حصون / الاسماعيلية فكانت فتوحات مشهورة ، فلما كملت عدة الأتراك أربعاً وعشرين
في سنة أربع وثمانين وسبعمائة⁽²⁵¹⁾ وكان رابع العشرين الملك الصَّالح حجي بن الأشرف

(242) ماي/جوان 1250 م .

(243) في الأصول : «أفرنسيس» .

(244) النجوم 374/6 - 375 .

(245) 2 أوت 1250 م .

(246) البحرية ، والممالك البحرية هم أتراك ، وسماهم بحرية الملك الصَّالح أيوب ، وبهم حول دهليز . أنظر تاريخ
ابن الوردي المسمى تمة المختصر 263/2 - 264 لزين الدِّين عمر بن الوردي .

(247) ساقطة من ط .

(248) عن ولايته انظر مثلاً النجوم الزاهرة 3/7 - 40 .

(249) الملك المعز أيبك ثم الملك المنصور ثم الملك المظفر قطز .

(250) انظر ترجمته بالنجوم الزاهرة 94/7 - 256 (251) 1382 - 1383 م .

شعبان بن الأجد حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ، وقد كان قلاوون وأولاده استكثروا من شراء الممالك الجراكسة ، فاشترى الأتابك يلبغا⁽²⁵²⁾ العمري التركي مملوك بني أيوب برقوق ، سمي بذلك لبحوط عينيه فتنقلت به الأحوال إلى أن صار أمير مائة ألف مقدم ، فكان أتابك للملك الصالح⁽²⁵³⁾ ، فلما بلغ الملك الصالح عشر سنين ليس له من السلطنة غير الاسم ، ألزم الأمير الأتابك يلبغا⁽²⁵²⁾ العمري برقوق أن يخلع الملك الصالح ويتولّى السلطنة بدله فخلعه يوم الأربعاء سابع⁽²⁵⁴⁾ عشر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة⁽²⁵⁵⁾ ، وتولّى السلطنة بعده ، فكان أول الجراكسة⁽²⁵⁶⁾ ، السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق ابن أبيض العثماني الجركسي ، جلبه عثمان بن مسافر فنُسب إليه فتولّى من الجراكسة اثنان وعشرون ملكاً آخرهم الغوري الآتي ذكره ، عند ذكر الدولة العثمانية ، وكانت مدة ملكهم مائة وتسعة وثلاثين سنة ، فسبحان مفني الأمم ومزيل الدول⁽²⁵⁷⁾ .

(252) في الأصول «بليقاء والمثبت من النجوم الزاهرة 219/11 .

(253) الملك الصالح أمير حاج . أنظر ترجمته في النجوم الزاهرة 216/11 - 221 .

(254) في النجوم : «تاسع» .

(255) 24 نوفمبر 1382 م .

(256) جاء في النجوم الزاهرة : «وهو السلطان الخامس والعشرون من ملوك التُّرك بالديار المصرية والثاني من الجراكسة ، ان كان الملك المظفر بيبرس الجشكير جركسياً ، وان كان بيبرس تركي الجنس فبرقوق هذا هو الأول من الملوك الجراكسة وهو الأصح وبه نقول ..» 221/11 .

(257) بعدها في ط : «لا رب غيره ولا أحد سواه» .

في ذكر خلفاء بني أمية بالأندلس وذكر الطوائف بعدهم

بنو أمية :

ولما انقرضت دولة بني أمية من المشرق ، وانتقل بعض من أفلت منهم إلى المغرب كان / منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ويُسمَّى صقر⁽¹⁾ بني أمية ، وكانت أمه بربرية اسمها راح نفزية⁽²⁾ ، فلقى بأخواله من نفزة⁽³⁾ وكتب إلى من بالأندلس من صنائعهم ، ثم لحق بهم وملك الأندلس في السنة الثامنة أو التاسعة والثلاثين ومائة⁽⁴⁾ ، وأقام بالأندلس مُلكًا كبيرًا له ولعقبه ، وتوفي لخمس بقين من ربيع الآخرة في سنة اثنتين وسبعين ومائة⁽⁵⁾ .

وولي بعده ولده هشام ، فكان ملكًا جليلاً صالحًا متقشِّفًا ، وغزا وفتح الكثير ، ولم تطل أيامه فهلك في صفر سنة ثمانين ومائة⁽⁶⁾ .
وولي بعده ولده الحكم ولقب « بالرضي » ، وقام عليه أهل الرِّبَضِ⁽⁷⁾ ، فأظفروه

(1) فسرّها المؤلف في طرة كتابه « بالبازي » .

(2) من بربرة طرابلس ، كتاب العبر 262/4 .

(3) في كتاب العبر : « نفرة » .

(4) بالنسبة لابن خلدون في خلافة أبي جعفر المنصور 755/138 - 756 .

(5) 2 أكتوبر 788 م .

(6) أفريل 796 م .

(7) بعدها في ط : « الرِّبَضِ القبلي من قرطبة لأمور أنكروها عليه وكاثروه وكادوا يأتون عليه » ، انظر عنها كتاب العبر

274/4 .

الله بهم ، ووضع السيف فيهم ثلاثة أيام ، وتوفي لأربع بقين من ذي الحجة سنة ست ومائتين⁽⁸⁾.

وولي الأمر بعده عبد الرحمان ولده⁽⁹⁾ ، وهو أول من فخم الملك بالأندلس ، وتوّه الألقاب ، واستكثر الوزراء ، ثم توفي في ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومائتين⁽¹⁰⁾. وولي بعده مُحَمَّد ، فكان ملكاً كبيراً شبيهاً بعبد الملك بن مروان ، وكان آية في تحقيق الحساب ، أخذاً بحظ من الشعر والكتابة ، وتوفي في ربيع الأول⁽¹¹⁾ سنة ثلاث وسبعين ومائتين⁽¹²⁾.

وولي بعده ولده المنذر ، وكان شهماً حازماً ، ومات محاصراً ابن حفصون⁽¹³⁾. وولي بعده أخوه عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان ، وكان عفاً فاضلاً ، وفي أيامه تناهت الفتنة⁽¹⁴⁾ ، وضاعت عليه الحضرة / واشتدَّ عليه كلب ابن حفصون⁽¹⁵⁾ ، فشمَّر وبرز بمن معه ففتح الله عليه ، واستوسقت له الطاعة ، وابن حفصون هذا هو عمر بن حفصون كان أبوه من مسلمة أهل الذمة ، وكان شجاعاً ثائراً ، اشتهر وضمَّ إليه الأشرار ، وملك مدينة يشتر⁽¹⁶⁾ ، وانقادت إليه الجهات ، وتمادى الأمر فيه وفي عقبه أزيد من تسعين سنة شقيت بهم المروانية ما شاء الله.

ولما توفي عبد الله⁽¹⁷⁾ تولى الأمر بعده حفيده عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله ، النَّاصر لدين الله ، وكانت الأرض تضطرم ناراً وشقاقاً ، فأحمد نيرانها ، وسكَّن زلزالها ، وتسمَّى «بأمير المؤمنين» ، وكان كثير الغزو ، فأوقع الروم عليه هزيمة تسمَّى وقعة الخندق ، ثم⁽¹⁸⁾ أغزى قواده ، ففتح الله عليه فتوحات كثيرة ، وطال عمره ، فبنى

[225/أ]

(8) في الأصول : «ست وثمانين ومائة» والمثبت من كتاب العبر 277/4 وغيره 12 ماي 823 م.

(9) ويعرف بعبد الرحمان الأوسط.

(10) سبتمبر - أكتوبر 852 م.

(11) بالنسبة لابن خلدون في «صفر» كتاب العبر 287/4.

(12) أوت - سبتمبر 886 م.

(13) مجمل يشتر ستة وخمسين ومائتين لستين من امارته.

(14) ينغم ابن خلدون بالثور ، وأولهم ابن مروان بيطليوس وأشبونة ، انظر كتاب العبر 288/4.

(15) انظر عن نسبه وثورته كتاب العبر 292/4.

(16) في الأصول : «مدينة يشتر» والمثبت من كتاب العبر ، وجبل يشتر من ناحية رية ومالقة 292/4.

(17) في آخر المائة الثالثة من شهر ربيع الأول ، العبر 298/4.

(18) «ولم يغر الناصر بعدها بنفسه» انظر كتاب العبر 309/4.

مدينة الزهراء ، وله الأثر في مسجد قُرْطُبة وجسرها وغير ذلك⁽¹⁹⁾ ، وكانت وفاته سنة خمسين وثلاثمائة⁽²⁰⁾ .

وولي الأمر بعده ولده الحكم بن عبد الرحمان الملقب «بالمستنصر بالله» أبو العاص ، ولي الملك [وهو] ابن خمسين سنة ، وبلغ من تناهي الجلالة وحسن السيرة وبراعة العلم وتحليل الآثار ما لم يبلغه أحد من قومه ، ثم توفي سنة ست وستين وثلاثمائة⁽²¹⁾ .

وبويع بعده لولده هشام المؤيد وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، وعليه انشقت عصا الأمة ، عقد له البيعة أبو عامر مُحَمَّد بن أبي عامر المَعافري ، وجرت عليه / حجابته وحجابه ولديه من بعده إلى أن مضى لسبيله ، ولم تتحقق وفاته⁽²²⁾ .

وهذا مُحَمَّد ابن أبي عامر تلقب «بالمُنصور»⁽²³⁾ ، وكان صاحب السياسة المشهورة ، والغزوات العظيمة التي دَوَّخ بها البلاد ، ورَوَّع الأقطار ، وسبى المدن ، ذكر أنه انصرف من غزوة سمورة بتسعة آلاف فارس من السي .

ولمّا توفي تولى الحجابة بعده ولده المظفر عبد الملك ، فاقتفى سيرة أبيه في الجهاد والفتوحات العظيمة ، وتوفي منصرفاً من غزوته لشانجة بن غرسية ملك جليقية في صفر سنة تسع وتسعين وثلاثمائة⁽²⁴⁾ .

وتولّى الأمر بعده أخوه عبد الرحمان بن أبي عامر الملقب «بشنجوال» ثم قتل لما وثب ابن عبد الجبار بالخلافة ، وانقضت الدولة العامرية ، وانقضت بقضائها دولة الجماعة .

وابن عبد الجبار هذا هو المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمان الناصر لدين الله⁽²⁵⁾ ، وكان مقدماً جسوراً .

فلمّا توفي عبد الملك بن أبي عامر - المتقدم الذكر - ، وخرج أخوه عبد الرحمان

(19) عن مباتي الناصر انظر كتاب العبر 311/4 - 312 .

(20) في الأصول : «خمس وأربعين» والثبت من كتاب العبر 312/4 والمختصر لأبي الفداء 102/2 . 961 - 922 م .

(21) 976 - 977 م .

(22) في ط : «ولما تحقق وفاته» . قُتل هشام حوالي سنة 403 هـ اثر الحرب التي تواجه فيها المهدي والمستعين ، انظر

كتاب العبر 327/4 .

(23) عنه وعن أعماله انظر كتاب العبر 318/4 - 321 .

(24) اكتوبر 1008 م . بمدينة سالم منصرفاً من بعض غزواته ، كتاب العبر 321/4 .

(25) انظر ثورة المهدي ، كتاب العبر 323/4 - 324 .

إلى غزواته وخلقى البلد من الجند ، وثب هو⁽²⁶⁾ ، فلك القصر وأخذ بيعة الناس لنفسه ، وبلغ الخبر ابن أبي عامر فقفل ظاناً أن الريح تنشاله ، فقتل لما خذله الناس . فلما استوسق الأمر للمهدي أظهر جنازة ادعى أنها جنازة هشام ، وخالف أمراء عسكره البربر ، فنافروه ، وبايعوا سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمان الناصر [ولقبوه بالمستعين بالله]⁽²⁷⁾ واستعان بالجلالقة⁽²⁸⁾ ، / وقصد قرطبة فناها ، ولم يطق المهدي مدافعتة فأتقاه بالانحلاع ، وأخفى نفسه إلى أن لحق بطليطلة ، فاستجاش أيضاً يجمع الروم⁽²⁸⁾ وزحف إلى قرطبة فكان له الظهور على سليمان ، وجمع البربر وأزعجهم ، فانتدبوا إلى حوز الخضراء ، وخيّموا بوادي جازوت⁽²⁹⁾ يرومون الجواز إلى بلادهم ، وتبعهم عقب الظهور عليهم المهدي ، وناجزهم الحرب فاستاتوا واستبصروا في حربه ، فنصرهم الله عليه ، وهزموه أقبح هزيمة⁽³⁰⁾ ، وتبعوه إلى قرطبة وحاصروه واختلت أحواله ، وأعملت عليه الحيلة ، فقتل .

وأخرج هشام المؤيد للناس فلم يستقم الأمر [وقتل]⁽³¹⁾ .

واستولى سليمان بن الحكم أمير البربر على الخضراء فظهر عليه علي بن حمّود بن ميمون بن علي بن عبيد الله بن عمر بن أدريس بن أدريس بن حسن بن حسن بن علي ابن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - يقال إن هشاماً المحجوب لما شعر بالهلاك خاطب ابن حمّود بسبته يستنصر به ويقلّده دمه والطلب بثأره ، ويفضي إليه بعهد ، فتحرك سنة خمس وأربعمائة⁽³²⁾ وبرز إليه سليمان بن الحكم فانهزم سليمان وقبض عليه وعلى أخيه وأبيه وسبقوا إلى علي بن حمّود فضرب أعناقهم بيده وفاء لهشام .

وتمت البيعة لعلي بن حمّود ، وكان فظاً شديداً ، اغتاله صبيته من مماليكه الصقالبة في الحمام ، فقتلوه غرة ذي القعدة من سنة ثمان وأربعمائة⁽³³⁾ .

(26) أي المهدي .

(27) اضافة من كتاب العبر 325/4 .

(28) النصرانيون أصحاب جليقية ، (Galice) وهي مقاطعة في الشمال الغربي من اسبانيا .

(29) في ش : «يارود» .

(30) عن الخلاف والحروب بين المهدي والمستعين ، انظر مثلاً كتاب العبر 324/7 - 328 .

(31) اضافة للإيضاح .

(32) 1014 - 1015 م .

(33) مارس - أبريل 1018 م .

وتولّى أمره من بعده أخوه القاسم ، ثم نازعه يحيى بن علي بن حمود / وقرّ من [226/ب] قرطبة وتملكها منهم طائفة كثيرة ، فاجتمع الموالي العامريون بشرق الأندلس على مبايعة عبد الرحمان بن محمد الملقّب «بالمرتضي» وتحركوا به فقتلوا غرناطة وبها أمير صنهاجة ففناجزهم الحرب فهزّمهم ، وقتل الخليفة المرتضي ، ولما أعصى الناس نزاع بني حمود بقرطبة بايعوا من بقايا المروأية أبا البقاء عبد الرحمان بن هشام بن عبد الجبار ، وكان ذكياً أديباً بارعاً ، ولم يكن له عيب إلا أن نَقَمَ العامّة عليه لا يواء طائفة من البربر ، فوثبوا عليه ولم يشعر إلا وقد تسوّروا عليه من فوق حيطان القصر ، فقتل وبويع لابن عمّه «المُسْتَكْنِي» وهو محمد بن عبد الرحمان [بن عبيد الله بن] الناصر ، فلم يضطلع بالأمر ، وأخلد إلى الراحة فضعف أمره ، واتفق الملأ على خلعه فخرج على وجهه مستتراً ، فهلك بحصن أفلش⁽³⁴⁾ ، وكانت دولته سبعة عشر شهراً⁽³⁵⁾ .

فقام [وصار أهل قرطبة إلى طاعة المعتلي ، ثم نقضوها وبايعوا]⁽³⁶⁾ هشام بن محمد من ولد الناصر أخو المرتضي⁽³⁷⁾ وكان مقيماً بحصن البنت لجأ إلى أميره⁽³⁸⁾ عند هلاك أخيه المرتضي وبويع⁽³⁹⁾ له بقرطبة سنة عشرين وأربعمائة⁽⁴⁰⁾ ، واستدعي من حيث ذكر ، وتقلّد الأمر في سنّ الشيوخوخة وقعد على سرير الملك ، ثم اجتمع الملأ على خلعه ، وهو آخر الأمويين⁽⁴¹⁾ .

(34) في كتاب العبر : «هلك بمدينة سالم» 332/4 .

(35) انظر كتاب العبر 332/4 .

(36) اضافة للإيضاح ، العبر 332/4 .

(37) هو المعتمد .

(38) هو عبد الله بن قاسم الفهري .

(39) بايعة أهل قرطبة بمكانه من الثغر المذكور (أي حصن البنت) يوم الأحد لخمس بقين من ربيع الآخر سنة 418 ، وأقام كذلك سنتين وسبعة أشهر وثمانية أيام ، فخطب له بقرطبة غائباً عنها ، ثم أتى قرطبة في سنة 420 . ولم تطل مدته فخلع ...

لسان الدين بن الخطيب ، أعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام ، تحقيق وتعليق أ . لبني بروفنسال ، دار المكشوف ، بيروت ، ط . 2 آذار 1956 ، ص 138 .

(40) 1029 م .

(41) المعتز هو آخر خلفاء بني أمية بالأندلس ، العبر 343/4 .

ملوك الطوائف :

ولمّا تبدّد شمل الجماعة من بني أميّة جاءت دول⁽⁴²⁾ الطوائف ، فقام بكلّ خطة من بلاد الأندلس ملك ، فكان لكلّ ملك ما بيده ، فضبط أشراف العملات أزمّة^[227/أ] أمورهم ، وركبوا ظهور غرورهم ، فتنافسوا في انتحال الألقاب السلطانية ، / فأتوا بكلّ شيعة⁽⁴³⁾ ، فاقسم أقطار الأندلس الطوائف .

فضبط⁽⁴⁴⁾ قرطبة بعد خلع المعتز⁽⁴⁵⁾ أبو الحزم بن جهور⁽⁴⁶⁾ ولتوفر خصاله اجتمعوا⁽⁴⁷⁾ عليه فأعطوا القوس باريها ، فحمل أمرهم من السياسة ومسالمة من يحاوره من الملوك ، وتوفي أبو الحزم سادس مُحَرَّم سنة خمس وثلاثين وأربعمائة⁽⁴⁸⁾ .

وولي مكانه ولده أبو الوليد⁽⁴⁹⁾ ، فاقتفى سنن أبيه ولمّا أدركه الهرم استناب ولده عبد الملك⁽⁵⁰⁾ ، فاشتغل باللهو ، وطمع ابن ذي النون في قرطبة ، وتحرك إليها فاستغاث⁽⁵¹⁾ بنو جهور⁽⁴⁶⁾ بجارهم ابن عبّاد أمير إشبيلية ، فوجّه إليهم عددًا من جيشه لنظر وزيره فدخلها وحماها من ابن ذي النون ، فلمّا انصرف عنها ثار العباديون بعبد الملك بن جهور⁽⁴⁶⁾ واستولوا على المدينة في سنة اثنتين⁽⁵²⁾ وسبعين وأربعمائة⁽⁵³⁾ .

وقام في حمص⁽⁵⁴⁾ بنو عبّاد وأول من ترأس منهم رئاسة السيف⁽⁵⁵⁾ القاضي

(42) في الأصول : «دولة» .

(44) في كتاب العبر 343/4 : «استبد بقرطبة» .

(43) كذا في ط وفي ش وت : «شيعة» . (45) في الأصول : «هشام» والثبت من كتاب العبر .

(46) في الأصول : «جوهر» وهو كما أثبتناه من كتاب العبر : «أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور» انظر تمة نسبه بالعبر 342/4 - 343 . قال لسان اللّين بن الخطيب (م. سبق ذكره) ص 147 «واتفق الملاء على اسناد الأمور

بالخصرة إلى شيخ الجماعة وبقية الأشراف من بيوت الوزارة ، أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور» .

(47) أي الجند الذين دخلوا المعتز .

(48) 15 أوت 1043 م .

(49) أبو الوليد محمد .

(50) لما مات أبو الوليد بن جهور بقرطبة غلب عليها الأمير المأمون صاحب طليطلة فدبرها إلى أن مات بها (انظر الكامل لابن الأثير 106/9) .

(51) في الأصول : «فاستخرج» والثبت من كتاب العبر 344/4 .

(52) يوم الأحد لتسع بقين من شعبان سنة 461 ، أعمال الإعلام ، ص 150 .

(53) 1079 - 1080 م .

(54) حمص بالأندلس هي اشبيلية ، ومن أجداد القاضي أبو القاسم أول ملوك اشبيلية من بني عباد عاصف وهو

الداخل إلى الأندلس في طوابع لخم وأصلهم من جند حمص ، العبر 337/4 .

(55) ساقطة من ط .

أبو القاسم محمد بن عباد⁽⁵⁶⁾ بن محمد بن اسماعيل بن قريش بن عباد ، وكان رجل المغرب قاطبة ، له الإشارة والصيت ، ولما انقرضت الدولة [الأموية] أسند إليه أهل قُطْرَه النظر والتسيد ، فاستبد بالأمر.

ولما توفي سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة⁽⁵⁷⁾ قام بالأمر ولده أبو عمرو عباد [وتلقب] «المعتضد بالله» ، وهو أبعد ثوار الأندلس همة ، وأشدّهم بأساً ، وأفخمهم أثراً ، جمع خزانة مملوءة من رؤوس الملوك⁽⁵⁸⁾ البائدين بسيفه ، وكانت وفاته سنة إحدى وستين وأربعمائة⁽⁵⁹⁾.

وولي بعده ولده محمد «المعتد على الله» ، وعليه انقضى أمرهم / كما يأتي على يد يوسف بن تاشفين.

وقام بنو حمود الادريسيين بقرطبة وسبته وقد تقدّم خبرهم .
وقام بسرقة [والثغر الأعلى] منذر⁽⁶⁰⁾ [بن يحيى التجيبي]⁽⁶¹⁾ وكان كريماً وهاباً للقصّاد . وتولّى بعد موته [ابنه يحيى وتلقب المظفر ، ثم صارت إلى]⁽⁶²⁾ سليمان بن هود الجذامي⁽⁶³⁾ ، وله أعقاب لهم آثار وأخبار شهيرة ، فكان من أعقابه آخرهم⁽⁶⁴⁾ محمد ابن يوسف ، فاستولى على مرسية ، وملك منها الأندلس ، وقام بدعوة العباسيين ، وعليه كان قيام دولة بني نصر كما يأتي .

وقام يَطْلُبُوس الحاجب المنصور أبو بكر محمد بن عبد الله بن مسلمة [التجيبي]⁽⁶⁵⁾ المدعو بابن الأفطس أصله من نجيب⁽⁶⁶⁾ ، كان أديباً جليلاً ، وقال ابن حيان : كان

(56) أخذ المؤلف ما بهم دولة يحيى بن عباد من ترجمة المعتد بن عباد في وفيات الأعيان 21/5 - 39.

(57) 1041 - 1052 م.

(58) «وتحصلت في خزانته جملة من رؤوس ملوك البرابرة والأدارسة». اعمال الاعلام : ص 155.

(59) 1068 - 1069 م.

(60) يحيى بن منذر بن يحيى : اعمال الاعلام ص 170.

(61) في الأصول : «وقام سرقة منذ الثغر» والمثبت من كتاب العبر 350/4.

(62) اضافة للتوضيح من كتاب العبر 351/4. (63) هو «سليمان بن محمد بن هود» العبر 351/4.

(64) بعد يوسف بن احمد المؤتمن تولى ابنه احمد المستعين بالله ، ثم ولي بعده ابنه عبد الملك عماد الدولة ثم ولي بعده ابنه المستنصر بالله وعليه انقضت دولتهم على رأس الخمسمائة فصارت بلادهم جميعاً لابن تاشفين. أنظر مثلاً الكامل لابن الأثير 108/9. تاريخ ابن خلدون 351/4 - 352.

(65) اضافة من العبر.

(66) أصله من قبائل مكناسة قال ابن حيان ومن النادر الغريب اتناؤه في نجيب (المصدر السالف ، ص 182).

عبد الله أبوه رجلاً من مكناسة خدم سابور ببطلبوس ، وتغلب عليه ثم ورثه ملكه ، ثم أورثه المظفر أبا بكر ، ثم انتهى إلى عمر ولده ، وكان من هلاكه وولده صبراً عندما تغلب المثلثون على رؤساء الطوائف ما هو معروف .

وقام بغرناطة حبوس⁽⁶⁷⁾ بن بُلْكَيْن⁽⁶⁸⁾ بن زيري بن مناد ملك عمه الحاجب المنصور بن زيري بن مناد كورة البيرة⁽⁶⁹⁾ وما جاورها نحو سبع سنين ، ثم رحل⁽⁷⁰⁾ عن الأندلس إلى بلاده عام عشرين وأربعمائة⁽⁷¹⁾ ، واستخلف ابن أخيه حبوس بن بُلْكَيْن فتوسّع النظر إلى أن مات ، وولي بعده ولده باديس الحية الذكر ، فضخم ملكه واشتهرت سطوته ودهاؤه .

وولي بعده حفيده عبد الله بن بُلْكَيْن بن باديس ، فخلعه أمير المثلثين سنة ثلاث وأربعمائة⁽⁷²⁾ ، وغربه إلى أغمات .

وقام بالجوف⁽⁷³⁾ / بنو ذي النون⁽⁷⁴⁾ ، وأول من ثار بطليطة الحاجب الظافر اسماعيل بن عبد الرحمان [بن ذي النون]⁽⁷⁵⁾ الملقب بناصر الدولة ، ثم عهد إلى ابنه يحيى الملقب بالمأمون ذي المجددين ، ثم ملك بعده حفيده أيضاً يحيى الملقب «بالظافر» ومنه انتزع⁽⁷⁶⁾ الأدفونس⁽⁷⁷⁾ طليطة .

وقام بالمرية النجيب ذو الوزارتين أبو الأحوص [المعتصم] معن بن محمد بن عبد الرحمان بن صمادح [التجبي]⁽⁷⁸⁾ وكان رجل المشرق رأياً ودهاءً ولساناً ، وعارضه

(67) عن ملوك بني حبوس بغرناطة ، انظر كتاب العبر 366/6 - 373 .

(68) لعل الصواب بن ماكسن وكيف يكون متفقاً في اسم الأب مع ابن أخيه حبوس الوارد ذكره بعد قليل .

(69) في الأصول : «القيمة» والمثبت من كتاب العبر 345/4 .

(70) واتصلت أيامه إلى أن هلك في رمضان سنة 429 . وولي بعده الأمر ابنه باديس ، أعمال الإعلام ص 209 .

(71) 1029 م . (72) 1012 - 1013 م .

(73) الجوف في لهجة الأندلسيين والمغاربة هو الشمال ، والمقصود هنا «بالجوف» الثغر الجوفي بطليطة .

(74) وابن الخطيب يسميهم بني دُون ، وقال : «هؤلاء الملوك برايرة من قبيل البربر الذين كانوا يخدمون الدولة العامرية ، وأن اسم جدهم الذي يتسبون إليه زُنُون ، فغير بالبدال لطول المدة» . أعمال الاعلام ص 177 . ولاحظ أ . ليني بروفنسال في تعليق له على كلام ابن الخطيب أن مؤرخي ملوك الطوائف كابن حيّان وابن بسام وابن عفاري يسمونهم بَنِي ذِي النُون ، وهو تعريب اسم جدهم زُون البربري .

(75) أنظر كتاب العبر 350/4 .

(76) الصواب أن ابن ذي النون طلب من الأدفونس معاونته على العودة إلى طليطة والتكن منها لأن عليه مزية سابقة فشدد عليها الحصار إلى أن دخلها حفيد ذي النون .

(77) الفنسو السادس (Alphonse VI) . (78) انظر كتاب العبر 350/4 .

ولي المريّة بعد زهير الصقلي ، وقد خلفه عليها ، فامتنع عنه بها ، ثم تصير الأمر بعد إلى ابنه أبي يحيى محمد ، ومات زمن حصار المثلثين له ، وفرّ ولده حسام⁽⁷⁹⁾ الدولة إلى العدو الشرقيّة⁽⁸⁰⁾ ، فاستقرّ بها في جملته .

وقام بنو طاهر بشاطبة وغيرها من شرق الأندلس ، وقام طاهر وزعيم بينهم ذو الوزارتين أبو عبد الله ومدّ له في البقاء إلى أن أُسِرَّ عند التغلب على بلنسية .

وقام ذو الرئاستين أبو مروان عبد الملك بن رزيق ، ويدعى «حسام الدولة» فاستبدّ بالسلطة - وهي بلد كبير وسط بين الثغر الأعلى منها والأدنى - شهير بالمنع .

وقام من الصقالبة عدة كانوا مماليك المنصور بن عامر الذي ولّاهم البلاد ، ومنهم خيران ملك المريّة وما يليها ، وزهير وبجاهد ملكا مدينة دانية ، ومظفر ومبارك ملكا بلنسية ، وملك لبيب ما بعدهما .

ولمّا كثرت ملوك الطوائف اختلفت الكلمة ، وتباينت الآراء ، وانشقت العصا ، فصار أهل الدين في أيدي عدوهم / قتلا ونهباً وأسرا ، فاستولى الأدفونس على طليطلة [228/ب] أصل قاعدة الأندلس سنة ثمان وسبعين وأربعمائة⁽⁸¹⁾ ، وفي أخذها يقول أبو محمد عبد الله المعروف بابن العسال الطليطلي :

[بسيط]

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس فما المقام بها الا من الغلظ
السلك يُنثر من أطرافه وأرى سلك الجزيرة منشوراً من الوسط
ومن جاور الشر لا يأمن عواقبه كيف الحياة مع الحيات في سَقَطِ

وصار الخبيث متحكّماً على المسلمين ، وصاروا يؤدون له الضرائب ، ثم ردّها عليهم طمعاً في البلاد الأندلسية بأسرها ، فاتسع الخرق على الرّاقع ولم ينقطع أمل الطّامع إلى أن دخلها يوسف بن تاشفين رحمه الله تعالى .

(79) معز الدولة ابن المعتصم بالله : أعمال الاعلام ص 191 .

(80) يقصد الجزائر الشرقية بالأندلس جزائر البليار وأعمل الحيلة للخروج من جزيرة دانية من طريق البحر إلى أن ينزل بالجزائر حسب وصيّة والده ، قال ابن الخطيب : «نزل الجزائر على البخت وطائر اليمن إلى أن ملك بها وانقضت أيام بني صهاج» ، أعمال الاعلام ص 192 .

المقالة السابعة

في ذكر ملوك لتونة وهم المثلثون بالعدوة والأندلس

بداية المرابطين :

أصل هذه الطائفة أنهم قبيلة من حِمير⁽¹⁾ بن سبأ ، وهم أصحاب خيل وإبل وشاة ، يسكنون الصَّحارى الجنوبيَّة ، ويستقلون من ماء إلى ماء كالعرب ، ويوتهم من شعر ووبر ، ويسمُّون المرابطين لكثرة رباطهم ، فكانوا بالصَّحراء المجاورة للسودان ، وكان الذي جمع أمرهم وقرَّر قواعد الاسلام لديهم عبد الله بن ياسين⁽²⁾ الفقيه ، فهو الذي حرَّضهم على القتال⁽³⁾ وأطمعهم في البلاد ، وقتل في حرب ابن حواط فقام مقامه⁽⁴⁾ وعقد أمرهم يحيى بن عمر بن تلاككين⁽⁵⁾ المدعو «بأمير الجَن» .

-
- (1) الصحيح أنهم بربر من صنهاجة وأعقابهم موجودون إلى الآن ، ويعرفون بالطوارق بالقاف المعقدة كالجيم المصرية ، وفنَّد ابن خلدون انتسابهم إلى حِمير فقال : «وأما القول أيضًا بأنهم من حِمير من ولد التُّنمان أو من مُضَر من ولد قيس بن عيلان فنكر من القول وقد أبطله أمام النسَّابين والعلماء أبو محمد بن حزم» كتاب العبر 190/6 - 191 .
- (2) في الأصول : «عبد الله بن أنيس» وهو عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولي ، كتاب العبر 374/6 .
- (3) أخذ ابن ياسين يعلم لتونة أصول الدِّين ويعلمهم القرآن : «واستصعبوا علمه وتركوا الأخذ عنه ، فأعرض عنهم وترهَّب ، وتنسَّك معه يحيى بن عمر من رؤساء لتونة وأخوه أبو بكر» في رباط أقاموه في إحدى جزر وادي النيجر أو السنغال ، سباه ابن خلدون «بجر النيل» وانضم إليهم بعض الناس ولما كمل معهم ألف من الرجال وجههم ابن ياسين نحو القيام «بالحق والدعاء إليه» ، أنظر كتاب العبر 374/6 - 375 .

Ch. A. Julien: *Histoire de l'Afrique du Nord*, II, 78 - 79

- (4) ابن ياسين هو الذي جعل أمر العرب إلى الأمير يحيى بن عمر منذ قيام الدعوة المرابطية ، العبر 375/6 .
- (5) في كتاب العبر : «يحيى بن عمر بن تلاككين» 374/6 .

ثم بعده صار الأمر إلى أخيه أبي بكر بن عمر ، « وكان رجلاً ساذجاً خير الطباع ، مؤثراً لبلاده على بلاد المغرب ، غير مائل إلى الرفاهية »⁽⁶⁾ .
 وفي / بعض التواريخ كان أول مسير لمتونة من اليمن في زمن أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - سيرهم إلى جهة الشام ، ثم انتقلوا إلى مصر ، ثم إلى المغرب مع موسى بن نصير ، وأحبوا الانفراد فدخلوا إلى الصحراء واستوطنوها إلى سنة أربعين وأربعمائة⁽⁷⁾ .

[229/أ]

وكان من أمرهم أنهم ينتسبون إلى حمير ، فلما كانت هذه السنة توجه رجل منهم اسمه (يحيى بن ابراهيم)⁽⁸⁾ من قبيلة جدالة إلى افرقية طالباً للحج ، فلما عاد استصحب معه فقيهاً من القيروان يقال له عبد الله بن ياسين⁽⁹⁾ ليُعَلِّم أهل تلك البلاد دين الاسلام ، فانه لم يبق فيهم غير الشهادتين والصلاة في بعضهم ، فتوجه عبد الله مع يحيى⁽⁸⁾ حتى أتيا قبيلة لمتونة وهي قبيلة يوسف بن تاشفين ، فدعاهم إلى العمل بشرائع الاسلام فأجاب أكثرهم ، وامتنع أقلهم ، فقال الفقيه للمجيبين : يجب عليكم قتال المخالفين فأقيموا لكم أميراً فقالوا : أنت أميرنا ، فامتنع الفقيه وقال ليحيى بن ابراهيم⁽¹⁰⁾ : أنت الأمير ، فامتنع أيضاً ، ثم اتفقا على يحيى⁽¹¹⁾ بن عمر رأس قبيلة لمتونة فعرضاً عليه فقبل ، وعقدت له البيعة وسمّاه الفقيه « أمير المسلمين » واجتمع إليه خلق كثير ، وحرّضهم الفقيه على الجهاد وسمّاهم المرابطين⁽¹²⁾ ، فقتلوا المخالفين .
 ثم جرى بين المرابطين وبين أهل السوس قتال شديد ، قُتِل فيه الفقيه ، وكان برّ العدو لقبيلة زناتة وكان أمراؤهم ضعافاً ، فخرج أبو بكر بن عمر من الصحراء على أهل العدو / في ثلاثين ألف جمل مسرج ، وكانوا مشهورين بالرّمي والطعن ، فلم تقاومهم زناتة ، فأخذوا البلاد من أيديهم من باب تلمسان إلى ساحل البحر المحيط . وكان يوسف

[229/ب]

(6) الوفيات من ترجمة يوسف بن تاشفين 113/7 .

(7) في الأصول : « ثمان وأربعين وأربعمائة » والمثبت من المرجعين السابقين 1048 - 1049 .

(8) في الأصول : « جوهر » والمثبت من المرجعين السابقين .

(9) أصله من سبجلماسة ، وقد انتدبه أبو عمران الفاسي شيخ المذهب المالكي بالقيروان بعد أن طلب منه يحيى بن ابراهيم أحداً يعلم قومه قضايا دينهم . العبر 373/6 - 374 .

(10) في الأصول : « جوهر » .

(11) في الأصول : « اتفقا على أبي بكر » والمثبت من كتاب العبر وغيره ، اذ أن يحيى سبق أخاه أبو بكر في ذلك وتم ليحيى الأمر بعد وفاة يحيى بن ابراهيم وبعد أن صار للمرابطین بعض من قوة .

(12) سموا كذلك لالتزامهم بالرباط الذي أقاموه في أول أمرهم .

ابن تاشفين مقدّم جيش أبي بكر وكان خروجهم سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة⁽¹³⁾ ، ففتحوا سجلماسة بعد حصار ومقاتلة شديدة وحروب أجلت عن ظهورهم على زناته .

يوسف ابن تاشفين وحروبه الموقفة في الأندلس :

ثم خرج أبو بكر سنة أربع وخمسين وأربعمائة⁽¹⁴⁾ «لأنه سمع أن عجزاً في بلاده ذهبت لها ناقة ، فبكت وقالت : ضيّعنا أبو بكر بدخوله إلى بلاد المغرب ، فحمله على ذلك أن استخلف على بلاد المغرب يوسف بن تاشفين ورجع هو إلى بلاده الجنوبية»⁽¹⁵⁾ ومات في حرب السودان .

«وكان يوسف رجلاً شجاعاً عادلاً مقداماً [اختط بالمغرب مدينة مراكش]⁽¹⁶⁾ . فلما تمهدت له البلاد تأقت نفسه إلى العبور إلى بلاد الأندلس ، وكانت محصنة بالبحر ، فأنشأ شواني ومراكب وأراد العبور إليها ، فلما علم ملوك الأندلس بما يرومه أعدوا له عدّة من المراكب والمقاتلة وكرهوا إمامه بجزيرتهم ، إلّا أنهم استهولوا جمعه واستفطعوا مدافعته وكرهوا أن يصبحوا بين عدوين : الافرنج من شملهم ، والمثلثون من جنوبهم ، وكانت الافرنج تشدّ وطأتها عليهم ، إلّا أن ملوك الأندلس كانت تُرهب الافرنج باظهار موالاتهم للملك المغرب يوسف بن تاشفين ، وكان له اسم كبير لنقله دولة زناته وملك الغرب / إليه [230/أ] في أسرع وقت ، وكان قد ظهر لأبطال المثلثين في المعارك ضربات بالسيف تقدّ الفارس وطعنات تنظّم الكلى ، فكان لهم بذلك ناموس ورعب في قلوب المنتبدين لقتالهم .

وكان ملوك الأندلس يفيثون إلى ظلّ يوسف بن تاشفين ويُحذّرونه على ملكهم مهما عبر إليهم وعائين بلادهم ، فلما رأوا عزيمة متقدّمة على العبور أرسل بعضهم إلى بعض ، وتكاتبوا ليستنجدوا آراءهم في أمره ، وكان مفزعهم في ذلك إلى المعتمد بن عباد لكونه أشجع القوم وأكبرهم مملكة ، فوقع اتفاقهم على مكاتبته [وقد تحقّقوا أنه يقصدهم]⁽¹⁷⁾

(13) 1061 م .

(14) 1062 م .

(15) الوفيات 113/7 .

(16) اضافة من الوفيات لأهمية الموضوع وتم ذلك في سنة 450 هـ/1058 م ، والمؤلف ينقل من وفيات الأعيان من ترجمة يوسف بن تاشفين بتصرف .

(17) اضافة من الوفيات 114/7 .

يسألونه الاعراض عنهم وأنهم تحت طاعته ، فكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس كتاباً وهو : «أما بعد ، فانك إن أعرضت عنا نُسيبت إلى كرم ولم تنسب إلى عَجَز ، وإن أُجبتا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن ، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتي⁽¹⁸⁾ ، فاختر لنفسك أكرم نسبتيك⁽¹⁹⁾ ، فانك بالحلّ الذي لا يجب⁽²⁰⁾ أن تسبق فيه إلى مكرمة ، وإن في استبقائك ذوي البيوتات ما شئت من دوام أمرك وثبوته والسلام» .

فلما جاء ذلك الكتاب مع تحف وهدايا - وكان يوسف لا يعرف اللسان العربي ، لكنّه كان يجيد فهم المقاصد ، وكان له كاتب يعرف اللغة العربية والمرايطية - فقال له : أيها الملك ، هذا كتاب من ملوك الأندلس يعظّمونك فيه ويعرفونك أنهم أهل دعوتك [وتحت] طاعتك ، ويلتمسون منك / أن لا تجعلهم في منزلة الأعداء ، فانهم مسلمون ومن ذوي البيوتات ، فلا تغير لهم ، وكفاهم ما وراءهم من الأعداء الكفّار ، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر ، فاعرض عنهم إعراضك عمّن أطاعك من أهل المغرب ، فقال يوسف بن تاشفين لكتابه : فما ترى أنت ؟ فقال : أيها الملك ، اعلم أن تاج الملك وبهجته وشاهده الذي لا يردّ بابه خليف بما حصل في يده من الملك أن يعفو إذا استعني وأن يهب إذا استوهب ، وكلّما وهب جزيلاً كان أعظم لقدره ، [فاذا عظم قدره]⁽²¹⁾ تأصل ملكه ، وإذا تأصل ملكه تشرفّ الناس بطاعته ، وإذا كانت طاعته شرفاً جاءه الناس ولم يقتحم⁽²²⁾ المشقة إليهم ، وكان وارث الملك من غير إهلاك آخرته ، واعلم أن بعض الملوك الأكابر والحكماء البُصراء بطريق تحصيل الملك ، قال : من جاد ساد ومن ساد قاد ومن قاد ملك البلاد ، فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على يوسف بن تاشفين بلغته فهمه وعلم أنه صحيح ، فقال للكاتب : أجب القوم ، واكتب بما يجب⁽²³⁾ في ذلك ، وأقرأ عليّ كتابك ، فكتب الكاتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من يوسف بن تاشفين ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تحية من سألكم⁽²⁴⁾ ، وسلم إليكم ، وحكمه التأيد

(18) في الأصول : «نسبتنا» والمثبت من الوفيات .

(19) في الأصول : «نسبتك» والمثبت من الوفيات .

(20) في الأصول : «لا تحب» .

(21) اضافة من الوفيات .

(22) في الوفيات : «يتجشم» .

(23) في الأصول : «تحب» والمثبت من الوفيات .

(24) في الأصول : «من سالم» .

والتَّصَرُّفَ فيما حُكِّمَ عليكم ، وانكم بما في أيديكم من الملك في أوسع اباحة ، مخصَّصون مِنَّا بأكرم إيثار وسباحة فاستديموا وفاءنا / بوفائكم ، واستصلحوا إخواننا باصلاح إخوانكم ، والله تعالى ولي⁽²⁵⁾ التوفيق لنا ولكم ، والسلام . فلَمَّا فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه فاستحسنه ، وقرن به يوسف درقا لَمْطِيَّةً مِمَّا لا يكون إلَّا في بلاد - واللَّمْطِيَّةُ بفتح اللام وسكون الميم بعدها طاء مهملة ثم ياء مشددة مثناة من تحت بعدها هاء ساكنة ، نسبة إلى لَمْطَة ، وهي بليدة بالسوس الأقصى -⁽²⁶⁾ ، وأنفذ ذلك إليهم . فلَمَّا وصل كتابه أحبوه وعظموه وفرحوا بولايته ، وتقوت أنفسهم على دفع الافرنج ، وأزمعوا إن رأوا من ملك الافرنج ما يريهم أن يجيزوا إليه يوسف بن تاشفين ، ويكونوا من أعوانه على ملك الافرنج ، فتحصَّل ليوسف برأي وزيره ما أراد من محبة أهل الأندلس له ، وكفاه الحرب لهم .

ثم ان الادفونش⁽²⁷⁾ بن فردلند⁽²⁸⁾ صاحب طُلَيْطَلَة قاعدة ملك الافرنج ، أخذ يحوس خلال الدِّيَار ويفتح الأندلس ويشترط على ملوكهم ويطلب البلاد منهم ، خصوصًا المعتمد بن عباد ، فانه كان مقصودًا ، فنظر المعتمد في أمره فرأى أن الادفونش قد داخله طمع فيما يلي بلاده ، فأجمع أمره على استدعاء يوسف بن تاشفين إلى العبور ، على ما فيه من الخطر ، وعلم أن مجاورة⁽²⁹⁾ يوسف عين الخسر مؤذنة بالبور ، وكان الافرنج والمثلثون ضدين له ، إلَّا أنه قال : إن دُهِينا من مداخلة الأضداد فأهون الأمرين أمر المثلثين ، ولئن يرعى أولادنا / جمالهم أحب إليهم من أن يرعوا خنازير الافرنج ، ولم يزل هذا الرأي نصب عينيه مهما اضطُر إليه .

وان الادفونش خرج في بعض السنين يتخلل بعض بلاد الأندلس في جمع كثير من الافرنج فخافه ملوك الأندلس على البلاد ، وأجفل أهل القرى والرساتيق من بين يديه ولجأوا إلى المعقل ، فكتب المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين يقول له : إن كنت

(25) في الأصول : «متولي» .

(26) بعدها في الوفيات : «بينهما وبين سجلماسة عشرون يومًا ، قاله ابن حوقل في كتاب «المسالك والممالك» : «وهي معدن الدرق اللمطية ، ولا يوجد مثلها في الدنيا على ما يقال» 115/7 .

(27) القونسو السادس بن فرديناند ملك قشتالة أكبر ممالك اسبانيا النصرانية في ذلك العهد .

(28) في الأصول : «فرنند» والمثبت من الوفيات وهو فرديناند الأول كما أشرنا .

(29) في الوفيات : «وعلم أن مجاورة غير الجنس مؤذنة بالبور» 115/7 .

مؤثراً للجهاد فهذا أوانه ، فقد خرج الأذفونش إلى البلاد ، فاسرع في العبور إليه ، ونحن معاشر أهل الجزيرة بين يديك ، وكان يوسف بن تاشفين على أتم أهبة .

وقيل أن الأذفونش كاتب أيضاً يوسف⁽³⁰⁾ يتهده ، وصورة كتابه⁽³¹⁾ : باسمك

اللهم فاطر السموات والأرض ، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول

الفصيح ، أما بعد فانه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ، ولا على ذي عقل لازب ، أنك

أمير الملة الحنيفة ، كما أني أمير الملة النصرانية ، وقد علمت ما عليه أمراء الأندلس من

التخاذل والتواكل واهمال الرعية ، وإخلادهم إلى الراحة والامنية⁽³²⁾ ، وأنا أسومهم

بحكم القهر وجلاء⁽³³⁾ الديار ، وأسبي الذراري وأمّثل بالرجال ، ولا عذر لك في

التخلف عن نصرهم اذا أمكنتك يد القدرة ، وأنتم ترعمون أن الله تعالى فرض عليكم⁽³⁴⁾

قتال عشرة منّا بواحد منكم ، «فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً»⁽³⁵⁾ ،

ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منّا ، لا تستطيعون / دفاعاً ولا تملكون امتناعاً ،

وقد حكي [لي] عنك أنك أخذت في الاحتفال ، وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل

نفسك عامّاً بعد عام ، ثم تقدّم رجلاً وتؤخّر أخرى ، فلا أدري أكان الجبن أبطأ بك أم

التكذيب بما وعدك ربك ، ثم قيل لي انك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لعلّة لا تسوغ

لك التّقصم معها⁽³⁶⁾ ، فأنا أقول لك ما فيه الراحة لك ، وأعتذر لك وعنك [على] أن

تفي⁽³⁷⁾ بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرّهان⁽³⁸⁾ ، وترسل إليّ جملة من عبيدك

[أ/232]

(30) في الوفيات 6/5 ، الرسالة موجّهة إلى الأمير يعقوب بن عبد المؤمن الموحّدي الملقب «بالمصور» ونقلها ابن خلكان عن التّياشي وعلق عليها بقوله : «وذكر التّياشي بعد هذا ما يدل على أنه نقلها من خط ابن الصّيرفي الكاتب المصري فان كان كذلك فما يمكن أن تكون هذه الرسالة إلى يعقوب بن يوسف ، لان ابن الصّيرفي متقدم التاريخ على زمان يعقوب بكثير ، والله أعلم» الوفيات 7/7 ، وقد يكون المؤلف اعتمد على تعليق ابن خلكان ، واجتهد فيما ذهب إليه .

(31) «من انشاء وزير له يعرف بابن الفخار» الوفيات 6/7 .

(32) زائدة عن الوفيات .

(33) في الأصول : «خلال» والمثبت من الوفيات 6/7 .

(34) كذا في الوفيات وبعدها في ط : «في كتابكم» .

(35) اقتباس من سورة الأنفال : 66 .

(36) في الأصول : «التهجم» والمثبت من الوفيات .

(37) في الأصول : «ان نفسي» .

(38) في الأصول : «الرّهائن» .

بالمراكب والشواني والطرائد والمُسَطَّحات ، وأجوز بجملي إليك ، وأقاتلك في أعزّ الأمكنة لديك⁽³⁹⁾ فان كانت لك فغنيمة كبيرة جُئيت إليك ، وهديّة عظيمة مُثّلت بين يديك ، وان كانت لي كانت يدي العليا عليك ، واستحققت امارّة المِلَّتَيْن والحكم على البرّين ، والله يوفق للسعادة وَيُسَهِّل⁽⁴⁰⁾ الارادة ، لا ربّ غيره ولا خير إلّا خيره .
فلما وصل كتابه إلى الأمير يوسف⁽⁴¹⁾ مَزَقَهُ وكتب على ظهر قطعة منه ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ جُنُودٌ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾⁽⁴²⁾
الجواب ما ترى لا ما تسمع⁽⁴³⁾ .

[طويل]

ولا كُتِبَ الا المشرفية عنده ولا رُسِلُ الا الخميس العرمم⁽⁴⁴⁾

فلما وقف⁽⁴⁵⁾ عليه الأذفونش ارتاع لذلك وقال هذا رجل حازم . « فشرع⁽⁴⁶⁾ يوسف في إجازة عساكره ، فلما أبصر ملوك الأندلس عبور أهل المغرب يطلبون الجهاد ، وكانوا قد وعدوا من أنفسهم بالمساعدة ، اعتدوا أيضاً للخروج ، فلما رأى الأذفونش / [232/ب] اجتماع الغزائم على مناجزته علم أنه عام نطاح ، فاستنفر الافرنجة للخروج فخرجوا في عدد لا يحصىه إلّا الله تعالى . ولم تزل الجموع تتألف وتتدارك إلى أن امتلأت جزيرة الأندلس خيلاً ورجالاً من الفريقين ، كلّ أناس قد التفّوا على ملكهم . فلما عبرت جيوش يوسف بن تاشفين عبّر في آخرها وأمر بعبور الجمال ، فعبّر منها ما أغصّ الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملاً⁽⁴⁷⁾ قط ، ولا كانت خيلهم رأّت صُورَها ولا سمعت أصواتها ، فكانت تذعر منها وتقلق ، وكان ليوسف بن تاشفين في عبورها رأي مصيب ، فكان يحديق بها معسكره ، وكان يحضرها الحرب ، وكانت خيل الافرنج تمجج عنها .

(40) في الأصول: «وعسعد» .

(39) في الأصول: «عليك» .

(41) الوفيات: «يعقوب» ، إذ أن الرسالة في الوفيات موجهة إلى يعقوب لا إلى يوسف بن تاشفين .

(42) سورة النمل: 37 .

(43) كذا في ط والوفيات وبعدها في ش: «وسيعلم لمن عقى الدار» .

(44) البيت للمتنبي .

(45) الوفيات 7/7 .

(46) يرجع للنقل من ترجمة يوسف بن تاشفين بالوفيات حيث تركها قبل تقديم رسالة الأذفونش 116/7 .

(47) في الأصول: «جمالاً» والمثبت من نفس المرجع .

فلما تكاملت العساكر بالجزيرة قصدت الأذفونش وكان نازلاً بمكان أفيح من الأرض يسمّى الزلّاقة بالقرب من بطلّيوس ، بين المكانين أربع فراسخ ، وقدم يوسف بن يدي حربه للأذفونش كتاباً على مقتضى السنّة يعرض عليه الدخول في الاسلام أو الحرب أو الجزية ، ومن فصول كتابه : وبلغنا يا أذفونش أنّك دَعَوْتَ إلى الاجتماع بك ، وتمنّيت أن يكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا ، فقد أجزناه إليك ، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾⁽⁴⁸⁾ فلما سمع الأذفونش ما كتب إليه جاش [بحر] غيظه وزاد طغيانه وأقسم أنه لا يبرح من موضعه حتى يلقاه .

[233/أ]

ثم أن يوسف / ومن معه قصدوا الزلّاقة ، فلما وافاها المسلمون نزلوا تجاه الافرنج بها ، فاختار المعتمد بن عباد أن يكون هو المصادم لهم أولاً ، وأن يكون يوسف بن تاشفين اذا انهزم المعتمد بعسكره بين أيديهم وتبعوه ، يميل عليهم بعساكره ، وتتألف معه عساكر الأندلس ، فلما عزموا على ذلك وفعلوه خذل الله الافرنج وخالطتهم عساكر المسلمين واستمرّ القتل فيهم ، فلم يقلت منهم غير الأذفونش في دون الثلاثين من أصحابه ، فلحق بيلده على أسوء حال ، فغنم المسلمون من خيله وأسلحته وأثاثه ما ملأ أيديهم خيراً .

وكانت هذه الواقعة يوم الجمعة الخامس عشر من رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة⁽⁴⁹⁾ ، وقيل في شهر رمضان في العشر الأواخر⁽⁵⁰⁾ منه من تلك السنّة ، ونقل ابن خلكان⁽⁵¹⁾ عن البيّاسي أنه قال : كان حلول العساكر الاسلاميّة بالجزيرة الخضراء في المحرم سنة تسع وسبعين وأربعمائة⁽⁵²⁾ فحكى أن موضع المعترك على اتّساعه ما كان فيه موضع قدم الا على جسد أو دم ، وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام حتى جمعت الغنائم ، فلما حصلت عفّ يوسف بن تاشفين عنها وآثر بها ملوك الاندلس ، وعرفهم أنه ما كان مقصده الا الغزو ، لا النهب ، فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف بن تاشفين لهم بالغنائم استكرموه وأحبّوه وشكروا له .

(48) سورة غافر : آخر الآية 50 .

(49) 26 أكتوبر 1086 م .

(50) في الأصول : «الأول» والمثبت من الوفيات 117/7 .

(51) الوفيات 117/7 .

(52) افريل 1086 م .

ثم أن يوسف أزمع على الرجوع إلى بلاده ، وكان عند قصده ملاقة الأذفونش
تحرى السير/ بالعراء⁽⁵³⁾ ، من غير أن يمر بمدينة أو رستاق حتى نزل الزلاقة تجاه
الأذفونش ، وهناك اجتمع بعساكر الأندلس . وذكر أبو الحجاج يوسف بن محمد البياسي
في «كتاب تذكير العاقل وتنبية الغافل» أن ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر
العدو في يوم الأربعاء وكان الموعد في المناجزة يوم السبت الآتي فغدر الأذفونش ومكر ،
فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب من العام ، أقبلت طلائع ابن عباد والرّوم في
آثارها والنّاس على طمأنينة ، فبادر ابن عباد للركوب ، وانبث الخبر في العساكر فاجت
بأهلها ، ووقع البهت⁽⁵⁴⁾ ورجفت الأرض ، وصارت النّاس فوضى⁽⁵⁵⁾ على غير تعبئة ولا
أهبة ، ودهمهم خيول العدو ، فغمرت ابن عباد وحطمت ما تعرض لها ، وتركت الأرض
حصيداً خلفها ، وصرع ابن عباد وأصابه جرح أسوأه وفر⁽⁵⁶⁾ رؤساء الأندلس وأسلموا
محلاتهم ، وظنوا أنها وهنة لا ترقع ونازلة لا تدفع ، وظنّ الأذفونش أن أمير المسلمين في
المنهزمين ولم يعلم أن العاقبة للمتقين ، فركب أمير المسلمين وأحرق به أنجاد⁽⁵⁷⁾ خيله
ورجاله من صنهاجة ورؤساء القبائل ، وقصدوا إلى محلة الأذفونش ودخلوها وقتلوا
حاميتها ، فضربت الطبول واهتزّت الأرض وتجاوبت الآفاق وتراجع الرّوم إلى محلاتهم بعد
أن علّموا أن أمير المسلمين سالم فقصدوا أمير المسلمين فأفرج لهم عنها ، ثم كرّ فأفرجهم
منها ثم كرّوا عليه / فأفرج لهم عنها ، ولم تزل الكرات تتوالى بينهم إلى أن أمر أمير المسلمين
حشمه السّودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ، ودخلوا المعترك بدرق اللّمس وسيوف الهند
ومزاريق الزان فقطعوا الخيل فرمحت بفرسانها وأجمحت عن أقرانها⁽⁵⁸⁾ ، وتلاحق
الأذفونش بأسود⁽⁵⁹⁾ يقذف مزاريقه ، فأهوى ليضربه بالسيف ، فلصّق به الأسود وقبض
على أعتته وانتضى خنجرًا كان ممتنطًا به ، فأثبتته في فخذة فهتك حلق درعه وشكّ
فخذه مع بداد سرجه ، وكان وقت الزّوال من ذلك اليوم ، فهبت ريح النّصر وأنزل الله

(53) في الأصول : «الغداة» والمثبت من الوفيات 117/7.

(54) في الأصول : «النهب» والمثبت من الوفيات 117/7.

(55) في الأصول : «ترمي».

(56) في الأصول : «وبعضا».

(57) في ش : «أجناد».

(58) كذا في ط والوفيات وفي ش : «أقواتها».

(59) كذا في ط والوفيات 118/7 ، وفي ش : «السود».

سكينة على المسلمين ونصر دينه ، وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه ، وأخرجوهم عن محلتهم فولوا ظهورهم ، وأعطوا أعناقهم ، والسيوف تصفعهم إلى أن لحقوا بريرة فلبجأوا إليها واعتصموا بها ، وأحدقت بهم الخيل ، فلما أظلم الليل انساب الأذفونش وأصحابه من الربرة ، وأفلتوا بعدما نشبت فيهم أظفار النية ، واستولى المسلمون على ما كان في محلتهم من الأثاث والآنية والمضارب والأسلحة ، وأمر ابن عباد بضم رؤوس القتلى من الروم فنشر منها كالتلّ العظيم⁽⁶⁰⁾ .

قال ابن أبي الهيجاء : « جُمعت رؤوس القتلى فكانت عشرين ألف رأس ، فبنوها أربع منائر وأذن المسلمون عليها » ، ثم كتب⁽⁶¹⁾ ابن عباد إلى ولده الرشيد كتاباً وأطار الحمام به في يوم السبت سادس عشر المحرم يخبره بالنصر .

[234/ب]

وقد روي أيضاً / أن أمير المسلمين طلب من أهل البلاد المعونة على ما هو بصدد ، فوصل إلى المربة كتابه في هذا المعنى ، وذكر فيه أن جماعة أفتوه بجواز طلب ذلك اقتداء بعمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - فقال أهل المربة لقاضي بلدهم وهو أبو عبد الله بن الفراء⁽⁶²⁾ أن يكتب جوابه ، وكان القاضي من أهل الدين والورع على ما ينبغي ، فكتب إليه : أما بعد ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة [وتأخري عن ذلك]⁽⁶³⁾ وأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوا بأن عمر ابن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - اقتضاها ، وكان صاحب رسول الله ﷺ وضجيعه في قبره ولا يشك في عدله ، فليس أمير المسلمين [بصاحب رسول الله ﷺ ولا بضجيعه في قبره ولا]⁽⁶⁴⁾ ممن لا يشك في عدله ، فإن كان الفقهاء والقضاة أنزلوك هذه المنزلة في العدل فالله سائلهم عن تقلدكم فيك ، وما اقتضاها عمر حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ وحلف أن ليس عنده درهم واحد في بيت المال ينفقه عليهم ، فلتدخل أنت المسجد الجامع هناك بحضرة أهل العلم⁽⁶⁵⁾ وتحلف أن ليس عندك درهم واحد في بيت مال المسلمين ، وحيثئذ تستوجب ذلك ، والسلام⁽⁶⁶⁾ .

(60) ابن خلكان ، وفیات الأعيان 116/7 - 118 .

(61) يرجع إلى النقل من الوفيات 118/7 .

(62) في الأصول : « البراء » والثبت من الوفيات 119/7 .

(63) إضافة من الوفيات .

(64) إضافة من الوفيات .

(66) الوفيات 119/7 .

(65) في الأصول : « المسلمين » .

ولمّا قضى أمير المسلمين من هذه الوقعة ما قضى أمر أن تُشنّ الغارات على بلاد
الافرنج ، وأمّر عليهم سيّر⁽⁶⁷⁾ بن أبي بكر ، وطلب الرجوع في طريقه ، فتقدم⁽⁶⁸⁾ له ابن
عباد / فخرج به إلى بلاده وسأله أن يتزلّ عنده ، فأجابه يوسف إلى ذلك . فلَمّا انتهى إلى [235/أ]
اشبيلية مدينة المعتمد ، وكانت من أجمل المدن منظراً ، ونظر إلى موضعها وإلى نهر عظيم
[مستبحر]⁽⁶⁹⁾ تجرى فيه السفن بالبضائع جالبة من برّ المغرب وحاملة إليه ، في غرّيه
رستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخاً يشتمل على آلاف من الضياع كلّها تين وعنب
وزيتون ، وهذا الموضع هو المسمّى شرف اشبيلية وتمير بلاد المغرب كلّها من هذه
الأصناف ، وفي جانب المدينة قصور المعتمد وأبيه المعتمد في غاية الحسن والبهاء ، وفيها
أنواع ما يحتاج إليه من المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش وغير ذلك ، فأنزل المعتمد
يوسف بن تاشفين [في أحدها]⁽⁷⁰⁾ ولم يزل أصحابه⁽⁷¹⁾ ينبهونه على تأمل تلك الحال وما
هو عليه من النعمة ، ويغرّونه⁽⁷²⁾ باتّخاذ مثلها لنفسه ويقولون [له] : إن فائدة الملك قطع
العيش فيه بالتنعّم واللذة كما هو عليه المعتمد وأصحابه ، وكان يوسف بن تاشفين
مقتصدًا في أموره غير متناول ولا مبذّر ، ولا متوّق في صنوف⁽⁷³⁾ الملاذ بالأطعمة
وغيرها ، وكان قد ذهب صدر عمره في بلاده في شطف العيش ، فأنكر على مغريه
بذلك الاسراف ، وقال : الذي يُلَوّح من أمر هذا الرجل - يعني المعتمد - أنه مضيع لما
في يديه من المُلْك ، لأن هذه الأموال التي تعينه في هذه الأحوال لا بدّ أن يكون لها
أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل / أبدأ فأخذه بالظلم وأخرجه من [235/ب]
هذه التزهات وهذا من أفحش الاستهتار ، ومن كانت همّته في هذا الحدّ (من الاسراف
فيما لا يغزو إلّا جوفه)⁽⁷⁴⁾ فمتى يستجدّ همة في حفظ بلاده وضبطها وحفظ رعيّته والتوفير
على مصالحها .

(67) في الأصول : «سير» والمثبت من الوفيات 119/7 وكتاب العبر 385/6 .

(68) في الوفيات «وتكرم» .

(69) اضافة من الوفيات .

(70) اضافة من الوفيات .

(71) أي أصحاب يوسف بن تاشفين .

(72) كذا في ط والوفيات ، وفي ش «مغبرونه» .

(73) في الأصول : «أصناف» والمثبت من الوفيات ، و «صنوف» أدل على المقصود من أصناف الذي هو جمع قلة .

(74) في الوفيات : «من التصرف فيما لا يعدو إلّا جوفين» .

ثم أن يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد في لذاته هل تختلف عما هي عليه في بعض الأوقات؟ ف قيل له : بل كل زمانه هكذا ، فقال : أفكل⁽⁷⁵⁾ أصحابه وأنصاره على أعدائه ومنجديه على الملك ينال حظًا من ذلك؟ فقالوا : لا ، فقال : فكيف ترون رضاهم عنه؟ قالوا : لا رضا لهم عنه ، فأطرق يوسف [وسكت]⁽⁷⁶⁾ . وأقام على تلك الحال عند المعتمد أيامًا .

وفي بعض تلك الأيام استأذن رجل على المعتمد ، فدخل وهو ذو هيئة رثة ، وكان من أهل البصائر ، فلمّا دخل عليه قال [له] : أصلحك الله أيها الملك ، إن من أوجب الواجبات شكر النعمة ، وإن من شكر النعمة اهداء النصائح ، واني رجل من رعيتك ، حالي في دولتك إلى الاختلال أقرب منها إلى الاعتدال ، لكنني ملتزم لك من النصيحة ما يستوجبه المَلِكُ على رعيتيه ، فمن ذلك خبر⁽⁷⁷⁾ وقع في أذني من أصحاب ضيفك هذا يوسف بن تاشفين ما يدلّ على أنهم يرون أنفسهم ومليكهم أحقّ بهذه النعمة منك ، وقد رأيت رأيًا فان أثرت الاصغاء إليه قتلته ، قال المعتمد : قلّه ، قال : رأيت أن هذا الرجل الذي أطلعته على ملكك رجل مستأسد على الملوك ، قد حطّم ببر العدوّة زناتة / ، وأخذ الملك من أيديهم ولم يبق على أحد منهم ، ولا يؤمن أن يطمح إلى الطمّاعية في ملك جزيرة الأندلس كلّها لما قد عاينه من لذات عيشك ، وانه لمتخيل في مثل حالك سائر ملوك الأندلس ، وأن له من الولد والأقارب ممّن يؤثر مسراتهم ويود له الحلول فيما أنت فيه من خصب الجنات ، وقد أودى الأذفونش وجيشه واستأصل شأقتهم ، فقد كان لك منه أقوى عضد وأوقى مجن⁽⁷⁸⁾ وبعد فان فات الأمر في الأذفونش فلا بدّ أن تقبل الحزم فيما هو ممكن اليوم ، قال المعتمد : وما هو الحزم اليوم؟ قال : أن تجمع أمرك على قبض ضيفك هذا واعتقاله⁽⁷⁹⁾ في قصرك ، وتجزم أنك لا تطلقه⁽⁸⁰⁾ حتى يأمر كلّ من هو في جزيرة الأندلس من عسكره أن يرجع من حيث جاء حتى لا يبقى منهم في الجزيرة ظفر واحد ، ثم تتفق أنت وملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر من سفينة تجري فيه بغير

(75) في الأصول : «وكل» .

(76) اضافة من الوفيات 120/7 .

(77) في الأصول : «حين» .

(78) كذا في ط والوفيات ، في ش : «مجن» .

(79) في الأصول : «واعمالك له» والمثبت من الوفيات .

(80) كذا في ط والوفيات ، وفي ش : «يطلقه» .

إذن⁽⁸¹⁾، ثم بعد ذلك تستحلفه بأغلظ الأيمان أن لا يضر في نفسه عودًا إلى هذه الجزيرة إلا باتفاق منكم ومنه، وتأخذ على ذلك رهائن، فانه يعطيك من ذلك ما تشاء، فنفسه أعزّ عليه من جميع ما تلتمس⁽⁸²⁾ [منه] فعند ذلك يقنع هذا الرجل ببلاده التي لا تصلح إلا له، وتكون قد استرحت منه بعد ما استرحت من الأذفونش، وتقيم في موضعك على خير حال، ويرتفع ذكرك عند ملوك الجزيرة، ويتّسع ملكك وتنسب بهذا الاتفاق لسعادة وحزم، / ثم اعمل بعد هذا ما يقتضيه حزمك في مجاورة⁽⁸³⁾ من عامّلت هذه المعاملة، واعلم أنه قد تهيأ لك من هذا أمر سماوي تتفانى الأمم وتجري بحور الدّم دون حصول مثله.

فلما سمع المعتمد كلام الرّجل استصوبه وجعل يفكر في انتهاز الفرصة. وكان للمعتمد ندماء قد انهمكوا معه في اللذات، فقال أحدهم لهذا الرّجل النّاصح: ما كان المعتمد على الله، وهو إمام [أهل] المكرّمات ممّن يعامل بالحيف ويغدر بالضيف، فقال الرّجل: الغدر أخذ الحق من يد صاحبه لا دفع الرجل عن نفسه المحذور اذا ضاق به، فقال ذلك النّديم: لضميم مع وفاء خيّر من حزم مع جفاء، ثمّ أن ذلك النّاصح استدرك الأمر فتلافاه، فشكر [له] المعتمد ووصله بصلة حسنة، وانصرف. واتّصل الخبر ببيوسف فأصبح غاديا، فقدم له المعتمد الهدايا السّنية والتّحف الفاخرة فقبلها، ثم رحل فعبّر من الجزيرة الخضراء إلى سبتة.

وأقام عسكره بجزيرة الأندلس ريثا يستريح ثم تتبّع آثار الأذفونش فتوغّل في بلاده، ولما رجع الأذفونش إلى موضعه سأل عن أصحابه وشجعانه وأبطال عسكره فوجد أكثرهم قد قتلوا، ولم يسمع إلا نوح الشكالي⁽⁸⁴⁾ عليهم، فلم يأكل ولم يشرب حتى مات همًا وغمًا، ولم يُخلف إلا بنتًا جعل الأمر إليها، فتحصّنت بمدينة طليطلة. وأما عسكر ابن تاشفين فانهم في غاراتهم هذه كسبوا من الغنائم / ما لا يُحد ولا يُحصى ولا يوصف وأنفذوا ذلك إلى برّ العدو، واستأذن سير⁽⁸⁵⁾ بن أبي بكر الأمير

(81) في الوفيات: «بغزة له».

(82) في الأصول: «يلتمس» والمثبت من الوفيات 121/7.

(83) في الوفيات: «مجاورة».

(84) في الأصول: «الشكلى» والمثبت من الوفيات 122/7.

(85) في الأصول: «سير» والمثبت من الوفيات 119/7 وكتاب العبر 385/7 وكتبها المؤلف «سيرين» في بقية نصه وأصلحناها على اساس ما ذكرنا.

يوسف بن تاشفين في المقام بجزيرة الأندلس وأعلمه أنه قد افتتح معاقل في الثغور وربّ فيها مُستحفظين ورجالاً يسكنون فيها ، وأنّه لا يستقيم لهذه الجيوش أن تقيم بهذه الثغور في ضنك من العيش تُصايب العدو وتُماسيه ، وتحضى ملوك الأندلس من الأرياف برغد العيش فكتب إليه ابن تاشفين [بأمره] باخراج ملوك الأندلس من بلادهم والحاقهم بالعدوة ، فن استعصى عليه منهم قاتله ولم بنفس عليه حتى يُخرجه ، وليبدأ منهم بمجاوري الثغور ، ولا يتعرّض للمعتمد بن عباد ما لم يستول على البلاد ، ثم يولي تلك البلاد أمراء عسكره وأكابرهم ، فابتدأ سير بن أبي بكر بملوك بني هود من ملوك الأندلس يستترّهم من معاقلهم وهي رُوطة بضمّ الراء وسكون الواو ثم طاء مهملة بعدها تأنيث قلعة منيعة من عاصمات الذرى ، فلم يقدر عليها فرحل عنها ثم جند أجناداً على صور الافرنج وأمرهم أن يقصدوا هذه القلعة مغيرين عليها ، ويكن⁽⁸⁶⁾ هو وأصحابه بالقرب منها ، ففعلوا ذلك فراهم صاحب القلعة فاستضعفهم ونزل في طلبهم ، فخرج سير بن أبي بكر فقبض عليه وسلّم القلعة ، ثم نازل بني صمادح بالمرّة⁽⁸⁷⁾ ، وكانت قلعته حصينة إلا أنهم لم يكن عندهم أجناد / من الرجال فرحفوا عليهم⁽⁸⁸⁾ وغلبوهم ، فلما رأى المعتمد ابن صمادح أنه مغلوب دخل قصره فأدركه أسف فقضى عليه ، ومات من ليلته ، فاشتغل أهله به ، وسلّموا المدينة ، ثم نزلوا المتوكّل عمر بن الأفطس ببطليوس ، وكان رجلاً شجاعاً عظيم القدر ، كبير البيت ، كان أبوه المظفر بالله أبو بكر محمد بن عبد الله بن مسلمة التّجّبي من فحول العلماء ، وكان ملكاً له تصانيف من أعظمها وأشهرها الكتاب المنسوب إليه وهو «المظفري» في علم التاريخ ، [وكانت] مدينة بطليوس من أجمل البلاد فلم يدعن ولا أقبل على غير المدافعة والقتال إلى أن خامر⁽⁸⁹⁾ عليه أصحابه فقبض عليه باليد وعلى ولدين له ، فقتلوه صبراً ، وحمل أولاده الأصاغر إلى مراکش ، وسائر ملوك الجزيرة سلموا وتحولوا إلى برّ العدو إلا ما كان من المعتمد بن عباد ، فان سير بن أبي بكر لما فرغ من ملوك الجزيرة ، كتب إلى يوسف بن تاشفين أنه لم يبق بالجزيرة من ملوكها غير المعتمد بن عباد ، فأرسم في أمره بما تراه ، فأمره بقصده وأن يعرض عليه

[237/ب]

(86) في الأصول : «وكن» .

(87) كذا في ط والوفيات وأعمال الأعلام ص 191 ، وفي ش : «المرسية» .

(88) في الأصول : «لهم» .

(89) كذا في ط والوفيات ، وفي ش : «خلص» .

التحول إلى برّ العدو بأهله وماله ، فان فعل ونعمت ، وان⁽⁹⁰⁾ أبى فنازله فلما عرض عليه سير⁽⁹¹⁾ بن أبي بكر لم يعطه جوابه ، فنازله وحاصره أشهرًا ثم دخل عليه البلد قهراً واستخرجه من قصره قسراً ، فحمل إلى العدو مقيّداً ، فأنزل / بأغمت وأقام بها على أسوأ حال إلى أن مات ، ولم يعتقل من ملوك الأندلس سواه ، وتسلم سير⁽⁹¹⁾ بن أبي بكر الجزيرة كلّها واستحوذ عليها⁽⁹²⁾.

(وقيل ان الأمير يوسف بن تاشفين عاد إلى الأندلس بعد غزوة الزلاقة مرة أو مرتين⁽⁹³⁾ ، وأنه أخذ البلدان بنفسه وأن سير⁽⁹¹⁾ بن أبي بكر هو الذي استخرج ابن عباد آخر الأمر⁽⁹⁴⁾).

وفي سنة [أربع] وستين وأربعمائة⁽⁹⁵⁾ نزل يوسف على مدينة فاس ، وكانت اذ ذاك من قواعد بلاد المغرب العظام ، فضيّق على أهلها ثم أخذها فأقر العامة بها ونفى⁽⁹⁶⁾ البربر والجنّ ، بعد أن حبس بعضهم وقتل بعضهم ، فعند ذلك قوي شأنه ، وتمكّن بالمغرب الأقصى والأدنى سلطانه ، مع ما صار بيده من بلاد جزيرة الأندلس. وكان حازماً سائساً للأمور ضابطاً لمصالح مملكته ، مؤثراً لأهل العلم والدين كثير المشورة لهم ، ويحكمهم في بلاده ويصدر عن آرائهم. قيل إن الامام حُجّة الاسلام أبا حامد الغزالي - تغمّده الله برحمته - لما سمع ما هو عليه من الصفات الجليلة وميله إلى [أهل] العلم عزم على التوجه إليه ، فوصل الاسكندرية وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه ، فوصله خبر وفاته ، فرجع عن ذلك العزم.

وكان يجب العفو والصّفح عن الذّنوب العظام ، فمن ذلك أن ثلاثة أنفار اجتمعوا ، فتمنّى أحدهم ألف دينار يتجر بها ، وتمنّى الثاني عملاً يعمل فيه لأمر المسلمين ، وتمنّى الثالث زوجة أمير المسلمين / يوسف وكان لها الحكم في بلاده ،

(90) ساقطة من «ش».

(91) في الأصول: «سيرين» وأثبتناها كما سبق.

(92) ابن خلكان: وفیات الأعيان ، بتصرف 118/7 - 123.

(93) دخل ابن تاشفين الأندلس أربع مرات والمرة الرابعة كانت سنة 1103/497 م راجع كتاب العبر لابن خلدون 386/7.

(94) اضافة من المؤلف عما هو موجود بالوفيات.

(95) 1071 - 1072 م وفي أعمال الاعلام «سنة أربع وثمانين وأربعمائة» 1091 - 1092 م. وفي تاريخ شمال افريقيا (A. Julien, Histoire...) ، أخذها سنة 1069 م. 82/2.

(96) في الأصول: «وبقى» والمثبت من الوفيات 124/7.

فأعطى مُتَمَنِّي المال ألف دينار ، واستعمل الثاني ، وقال للذي تَمَنَّى زوجته : يا جاهل ، ما حملك على هذا الذي لا تصل إليه ؟ ثم أرسله إلى زوجته فتركته في خيمة ثلاثة أيام تحمل إليه كلَّ يوم طعاماً واحداً من جنس واحد ، ثم أحضرته وقالت له : ما أكلت في هذه الثلاثة أيام ؟ قال : طعاماً واحداً ، قالت : كلَّ النساء شيء واحد ، وأمرت له بمال وكسوة وأطلقته» (97).

«وبنى مدينة مراكش في سنة خمس وستين وأربعمائة» (98) ، وكان موضعها مزرعة لأهل نَقِيس - بفتح النَّون وتشديد الفاء وسكون الياء المثناة - تحت جبل مطل على مراكش ، وكانت تلك الأرض مأوى اللصوص فكان المارئون فيها يقولون لرفقائهم مراكش ، ومعنى هذه الكلمة بلغة المصامدة أمش مسرعاً ، فعرف الموضع بها . وسُمِّيَت المدينة باسم ذلك الموضع ، وذلك لأنه لما توطنت نفسه على الملك وأطاعته قبائل البربر وذهب من يخالفه من زناتة ولمتونة سَمَتِ هِمَّتَهُ إلى بناء هذه المدينة ، وكان في موضعها قرية صغيرة في غابة من الشجر ، وبها قوم من البربر» (99) . «ويقال إن الأرض كانت لعجوز من المصامدة فاخطت يوسف هذه المدينة» (100) «وبنى بها القصور والمساكن الأنيقة ، وهي في مرج فسيح» (101) ، وقيل إن شراءها عليه كان بسبعين / ألف درهم ، وجعل دَوْرَهَا سبعة أميال ، وأن ابنه علياً هو الذي بنى سورها وسقياتها وجامعها وقصر إمارتها ، وأن يوسف كان بنى مسجدها بالطوب . «ويوسف هو أول من تسمَّى بأمير المسلمين ، ولم يزل على حاله وعزّة سلطانه إلى أن توفي يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمسماية» (102) وعاش تسعين سنة (103) ، ملك منها مدة خمسين سنة - رحمه الله تعالى - (104) .

[239/أ]

(97) راجع ابن خلكان ، وفيات الأعيان 125/7 نقلاً عن تاريخ شيخه ابن الأثير ، وانظر الكامل 156/10 .

(98) 1073 - 1074 م .

(99) الوفيات : 124/7 ، وعندما نقل عن الإدريسي أحداث تأسيس مراكش ذكر : «..استجدها يوسف بن تاشفين في صدر سنة سبعين وأربعمائة بعد أن اشترى أرضها من أهل أغمات» .

(100) الوفيات : 123/7 .

(101) الوفيات : 124/7 .

(102) في الأصول : «خمس وتسعين وأربعمائة» والمثبت من الوفيات 125/7 والكامل لابن الأثير . 4 سبتمبر 1106 م .

(103) كذا في ط والوفيات ، وفي ش : «سبعين» وفي بعض الروايات : «عاش مائة سنة» انظر جوليان

(Ch. A. Julien) تاريخ شمال افريقيا (Histoire de l'Afrique du nord) ، 86/2 .

(104) الوفيات 125/7 .

نهاية المرباطين :

ثم أفضى⁽¹⁰⁵⁾ الملك بعده لولده علي بن يوسف ، فكان رجلاً حليماً وقوراً منقاداً للحق والعلماء ، تُجنى إليه الأموال من البلاد ، لم يزعه عن سريره حادث قط ، ولا طاف به مكروه ، حتى غشيه محمد بن تومرت صاحب عبد المؤمن - الآتي قريباً إن شاء الله خبره -⁽¹⁰⁶⁾ ، وكانت وفاة علي لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين وخمسمائة⁽¹⁰⁷⁾ ، وكان موته عند خروج عبد المؤمن عليه قاصداً أخذ جهة البلاد الغربية⁽¹⁰⁸⁾ [ليأخذها] من علي بن يوسف ، فكان مسير عبد المؤمن على طريق الجبال ، فسير علي في حياته ولده تاشفين ليكون في مقابلة⁽¹⁰⁹⁾ عبد المؤمن ، ومعه جيش فساروا في السهل وأقاموا على هذا مدة ، فتوفي علي (بن يوسف)⁽¹¹⁰⁾ بن تاشفين في أثناءها في التاريخ المذكور آنفاً ، فقدّم أصحابه ولده اسحاق بن علي بن تاشفين وجعلوه نائباً عن مراكش عن أخيه تاشفين ، وكان اسحاق صبيّاً ، فظهر أمر عبد المؤمن ودانت له الجبال / وفيها غمارة وتادلة والمصامدة ، وهم أم لا تحصى ، فخاف تاشفين بن علي [239/ب] واستشعر القهر ، وتيقن زوال دولتهم ، فأتى مدينة وهران ، وهي على البحر وقصد أن يجعلها مقره ، فان غلب عن⁽¹¹¹⁾ الأمر ركب منها في البحر إلى برّ الأندلس فيقيم بها كما أقامت بنو أمية بالأندلس عند انقراض دولتهم بالشّام وبقية البلاد ، وفي ظاهر وهران ربوة تسمى صلب الكلب ، وبأعلاها رباط يأوي إليه المتعبّدون .

وفي الليلة السابعة والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة⁽¹¹²⁾ ، صعد تاشفين إلى ذلك الرّباط ليحضر الختم في جماعة يسيرة من خواصه ، وكان عبد المؤمن يجتمع في تاجرة - وهي قرية صغيرة بساحل البحر من أعمال تلمسان ، هي مولد عبد المؤمن ، كما هو مقرر في ترجمته ، واتفق أنه أرسل منسراً⁽¹¹³⁾ أي

(105) يرجع إلى صفحة 123 من الوفيات .

(106) في ط : « ذكره » .

(107) 26 جانفي 1043 م .

(108) في الأصول : « القرية » والمثبت من الوفيات 126/7 .

(109) كذا في ط والوفيات ، وفي ش : « مقاتلة » .

(110) ساقطة من ش .

(111) في الأصول « على » .

(112) في الأصول : « مسيراً » والمثبت من الوفيات 126/7 .

(113) 23 مارس 1145 م .

جمعاً - إلى وهران ، فوصلوها في السادس⁽¹¹⁴⁾ والعشرين من شهر رمضان ، ومقدمهم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى صاحب المهدي ، فكمنوا⁽¹¹⁵⁾ عشية وأعلموا بانفراد تاشفين في ذلك الرباط ، فقصدوه وأحاطوا به ، وأحرقوا بابه ، فأيقن الذين فيه بالهلاك ، فخرج تاشفين راكباً فرسه ، وشدَّ الركض عليه ليشب الفرس فوق النار وينجو ، فترامى الفرس بالرَّوعة ، ولم يملكه اللجام حتى تردى في جرف هناك إلى جهة البحر على حجارة في وعر ، فتكسر / تاشفين وهلك في الوقت ، وقتل الخواص الذين كانوا معه ، وكان عسكره في ناحية أخرى ولا علم بما جرى في الليل . [240/أ]

وجاء الخبر بذلك لعبد المؤمن ، فوصل إلى وهران ، وسُمِّي ذلك الموضع الذي فيه الرباط «صلب الفتح» ، من ذلك الوقت نزل عبد المؤمن من الجبل إلى السَّهل ، ثم توجه إلى تلمسان ، ثم توجه إلى فاس فحاصرها ، وأخذها في سنة أربعين وخمسمائة⁽¹¹⁶⁾ ، ثم قصد مراكش في سنة إحدى وأربعين⁽¹¹⁷⁾ فحاصرها أحد عشر شهراً ، وفيها اسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين ، فأخذها ، وقد بلغ القحط من أهلها الجهد ، وأخرج إليه اسحاق بن علي ومعه سير بن الحاج⁽¹¹⁸⁾ ، وكان من الشجعان وخواص دولتهم ، وكانا مكتوفين ، واسحاق دون البلوغ ، فعزم عبد المؤمن أن يعفو عن اسحاق لصِغر سنِّه فلم يوافق خواصه ، وكان لا يخالفهم ، فخلى بينهم وبينهما فقتلوهما ، ثم نزل عبد المؤمن في القصر ، وذلك في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة⁽¹¹⁹⁾ ، وانقرضت من العدو دولة بني تاشفين ملوك لمتونة الملثمين⁽¹²⁰⁾ .

«وانما⁽¹²¹⁾ سمّوا ملثمين لأنهم قوم يتلثمون ولا يكشفون وجوههم ، وذلك سنّة لهم يتوارثونها خلفاً عن سلف ، وقيل سمّوا ملثمين لأن جِميّر الذين هم أصلهم ، كانت تتلثم

(114) في الأصول : «السابع» والمثبت من الوفيات 126/7 .

(115) في الأصول : «مكتنوا» .

(116) 1145 - 1146 م .

(117) 1146 - 1147 م .

(118) في الأصول : «يسر بن الحاج» والمثبت من الوفيات 127/7 .

(119) 1147 - 1148 م .

(120) بنصه من وفيات الاعيان 126/7 - 127 في ترجمة يوسف بن تاشفين ما عدا الحملة الأخيرة فقد تصرف فيها المؤلف .

(121) ينتقل إلى ص 129 من الوفيات .

لشدة الحرّ والبرد يفعلهُ الخواص منهم ، فكثُر ذلك فيهم حتى صار يفعلهُ عامتهم ، وقيل
 سبب ذلك أن قومًا من أعدائهم / كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم فيطرقون
 الحي فيأخذون المال والحريم ، فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يبعثوا النساء في زيّ
 الرجال ، وأن يقعدوا هم في البيوت مثلثين في زيّ النساء ، فاذا أتاهم العدو ظنّوهم
 نساء فيخرجون عليهم ، ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيف فقتلّوهم ، فمن ثمّ لازموا
 اللثام ، وقيل غير ذلك ، والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم لمراده ، لا اله غيره ، وقد يسمّون
 بالمرابطين لكثرة غزوهم ورباطهم .

المقالة الثامنة

في ذكر دولة الموحدين وأمرائهم بالعدوة والأندلس وإفريقية وفيهما ثلاثة أبواب

الباب الأول

في أول ملوكها ومن بعده من الملوك

المهدي بن تومرت :

أقول : إن أول من قام بهذه الدولة وثبت هذه الدعوة محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سُفْيَان⁽¹⁾ بن صفوان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن [بن الحسن]⁽²⁾ بن علي بن أبي طالب⁽³⁾ ، «وقيل إنه محمد بن عبد الله بن تومرت»⁽⁴⁾ وبقيّة النسبان

(1) في الأصول وفي إحدى نسخ تاريخ الدولتين للزركشي محمد بن ابراهيم ، نشر المكتبة العتيقة ، تونس 1966 ، ط 2 ، تحقيق محمد ماضور : «شعبان» والثبت من هذا الحق اعتمادًا على سياقة ابن خلدون . ص 3 هامش 1 ، وفي الوفيات : «عدنان بن صفوان بن سفیان» 46/5 .

(2) اضافة من تاريخ الدولتين للزركشي ، وهي ساقطة في بعض نسخ هذا الكتاب ، نفس المرجع .
(3) هذا النسب ينطبق مع النسب الوارد في تاريخ الدولتين وأورده ابن خلدون وعزاه لابن نخل وأشار إلى الاضطراب فيه بنقل سلاسل أخرى بأسماء بربرية عن ابن رشيق وابن القطان وغيرهما من مؤرخي العرب كما نقل الخلاف في نفس النسب الطالبي وجعله من زعم المؤرخين على افتراض التحامه في هرغة من قبائل المصامدة المنحدر منها المهدي تاريخ الدولتين هامش 1 من صفحة 3 ، انظر ابن خلدون كتاب العبر 465/6 ويختلف ابن خلكان مع الزركشي وابن خلدون بعد الجدد رباح ، يقول ابن خلكان في الوفيات : « بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد ابن الحسن بن علي بن أبي طالب » 46/5 .

(4) الوفيات 45/5 .

الحسن ، وهو المنعوت بالمهدي ، مولده سنة ست وثمانين وأربعمائة⁽⁵⁾ ، وقيامه بالدعوة سنة خمس عشرة وخمسمائة⁽⁶⁾ ، وساح بالمشرق مدة ولقي أبا حامد الغزالي وأخذ عنه ، وذكروا أن أبا حامد كان يتفرس فيه ، ومولده «عند ابن خلكان سنة أربع وثمانين⁽⁷⁾ ، وعند الغرناطي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، / وقرأ بقرطبة على القاضي ابن حمدون ، ثم ارتحل إلى المهديّة فأخذ عن الامام المازري ، ثم انتقل إلى الاسكندرية وهو ابن ثمانين عشرة سنة فأخذ عن الامام أبي بكر الطرطوشي ، ثم انتقل إلى بغداد فأخذ عن الامام الغزالي ، ولما وصل كتاب الأحياء إلى المغرب أشار من أشار على الملك المتولي على لتونة بتمزيقه فبلغ ذلك الغزالي فقال : اللهم مَزَقْ ملكهم ، فقال له [المهدي] على يدي يا سيدي ؟ فقال له على يدك⁽⁸⁾ فأكدت هذه الدعوة ما في علم المهدي من ذلك ، فتوجه المهدي إلى المغرب بعد أن قام⁽⁹⁾ بالمشرق خمسة أعوام⁽¹⁰⁾ .

وقال ابن خلكان⁽¹¹⁾ : «وهو من جبال السّوس من أقصى بلاد المغرب ، ونشأ هنالك ، ثم رحل إلى المشرق طالباً للعلم ، فانهى إلى العراق ، واجتمع بأبي حامد الغزالي ، والكنيا الهراسي⁽¹²⁾ ، والطرطوشي وغيرهم ، وحجّ وأقام بمكة مدة⁽¹³⁾ وحصل طرفاً صالحاً من علم الشريعة والحديث النبوي وأصول الفقه والدين .

وكان ورعاً ناسكاً متقشفاً كثير الإطراق بساماً في وجوه الناس ، مقبلاً على العبادة ، لا يصحبه من متاع الدنيا إلا عصاً وركوة ، وكان شجاعاً فصيحاً⁽¹⁴⁾ لا يتّنعّع

(5) 1093 م على رواية ابن الخطيب الأندلسي ، وعند ابن خلكان سنة خمس وثمانين ، وعند الغرناطي سنة إحدى وسبعين ، وعند ابن سعيد في البيان المغرب : «سنة إحدى وتسعين» وناقشها محمد ماضور ورأى في التسعين تصحيحاً عن السبعين لتقارب الحروف ، انظر تاريخ الدولتين ص 4 هامش 1 بها .

(6) 1121 م الزركشي ، تاريخ الدولتين ص 6 وفي الوفيات «سنة أربع عشرة وخمسمائة» 53/5 .

(7) هكذا نقلها عن الزركشي ، وفي الوفيات «سنة خمس وثمانين وأربعمائة» 53/5 . والنص الذي يلي ناقله عن الزركشي أيضاً .

(8) في الأصول : «يدبك» والمثبت من تاريخ الدولتين ص 4 .

(9) كذا في ش وتاريخ الدولتين ، وفي ط : «أقام» .

(10) انتهى النقل من الزركشي ص 4 .

(11) 46/5 .

(12) في ش : «الهراسي» وفي ط : «الهراسي» والمثبت من الوفيات ، 46/5 .

(13) في الوفيات : «مُدْبَذة» .

(14) «في لسان العربي والمغربي» الوفيات 53/5 .

في الشرع⁽¹⁵⁾ ولا يقنع في أمر الله بغير اظهاره. وكان مطبوعاً على الالتذاذ بذلك محتملاً للأذى من الناس بسببه ، وناله بمكة شيء من المكروه بسبب ذلك ، فخرج منها إلى مصر وبالغ في الإنكار ، فزید⁽¹⁶⁾ في أذاه ، وطرده الدولة ، وكان إذا خاف من البطش وإيقاع الفعل [به] خلط في كلامه فينسب إلى الجنون / فخرج من مصر إلى [241/ب] الاسكندرية ، وركب البحر متوجّهاً إلى بلاده ، وكان قد رأى في منامه وهو في بلاد المشرق كأنه شرب البحر جميعه كرتين ، فلما ركب في السفينة شرع في تغيير المنكر على أهل السفينة ، وألزمهم باقامة الصلاة وقراءة أحزاب من القرآن ، ولم يزل كذلك حتى انتهى إلى المهديّة⁽¹⁷⁾ ، فنزل بمسجد معلق على الطريق⁽¹⁸⁾ فجلس في طاق شارع إلى المحجة ينظر إلى المارة فلا يرى منكراً من آلة الملاحى أو أواني الخمر إلا نزل عليها وكسرها ، فتسامع الناس به في البلد ، فجاءوا إليه ، وقرأوا عليه كتباً من أصول الدين ، وبلغ خبره الأمير يحيى (بن تميم بن المعز بن باديس)⁽¹⁹⁾ فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء ، فلما رأى سيمته وسمع كلامه أكرمه وأجله وسأله الدعاء ، فقال له : أصلحك الله لرعتك ، ولم يقم بعد ذلك بالمهديّة إلا أياماً يسيرة ، وقيل كان دخوله المهديّة في مدة علي بن يحيى بن تميم بن المعز ، ثم انتقل إلى بجاية فأقام بها مدة وهو على حاله بالإنكار ، فأخرج منها إلى بعض قراها واسمها ملالة ، فوجد بها عبد المؤمن⁽²⁰⁾.

وفي «كتاب المغرب»⁽²¹⁾ عن سيرة [ملوك] المغرب أن محمد بن تومرت كان قد اطلع على كتاب علوم يُسمّى «الجفر» (المأثور عن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -)⁽²²⁾ وأنه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى ببلاد السوس (وهي بلاد المترجم)⁽²³⁾ من ذرية رسول الله ﷺ ، / يدعو إلى الله تعالى ، يكون مقامه ومدفته بموضع من المغرب يسمّى باسم هجاء حروفه (ت ي ن م ل) (وذلك لأن هذا الموضع بين

(15) في الوفيات : «شديد الإنكار على الناس فيما يخالف الشرع».

(16) في الوفيات : «فردوا».

(17) الوفيات 46/5.

(18) الوفيات 47/5.

(19) زيادة من المؤلف عما هو موجود بالوفيات.

(20) عبد المؤمن بن علي القيسي ، الوفيات 47/5.

(21) قال احسان عباس : «يتردد اسم هذا الكتاب في النسخ بين المغرب والمغرب» ، الوفيات 47/5 هامش 8.

(22) زيادة عما هو موجود بالوفيات.

(23) توضيح من المؤلف وفي ط : «مترجم» وفي ش : «التمزح».

قريتين اسم احدهما مل ، واسم الثانية تين - الذي هو اسم الفاكهة⁽²⁴⁾ ورأى فيه أيضاً أن استقامة ذلك الأمر وتعمُّه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه (ع ب د م و ن) ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة ، فأوقع الله في نفسه أنه القائم بأول الأمر ، وأن أوانه قد أزف ، فكان محمد لا يمر بموضع إلا سأل عنه ، ولا رأى أحداً إلا أخذ اسمه وتفقد حليته ، وكانت حلية عبد المؤمن معه ، فبينما هو في الطريق رأى شاباً قد بلغ أشده على الصِّفة التي معه ، فقال له محمد بن تومرت : ما اسمك ؟ فقال : عبد المؤمن ، فرجع إليه بعد ما كان جاوزة وقال : الله أكبر ، أنت بُغِيَّتِي ، فنظر في حليته فوافقت ما عنده ، فقال له : من أين أنت ؟ قال : من كومية ، فقال : أين قصدك ؟ قال : المشرق ، فقال له : ما تبغي ؟ قال : أطلب علماً⁽²⁵⁾ ، قال : وجدت علماً وشرفاً وذكرًا ، اصحبني تنله فوافقه على ذلك ، فألقى إليه ابن تومرت أمره وأودعه سرّه⁽²⁶⁾ .

قال ابن الخطيب⁽²⁷⁾ الأندلسي : وقالوا كان يزعم أنه مأمور بنوع من الوحي الالهامي ، وينكر كتب الرأي والتقليد ، وله باع في علم الكلام ، وجرت عليه نزعة خارجية وكان يتنحل القضايا الاستقبالية ، ويشير إلى الكوائن الآتية ، ورَّتب قومه ترتيباً غريباً فمنهم أهل الدار ، وأهل الجماعة ، وأهل خمسين ، وأهل سبعين ، والطلبة ، والحفَّاظ ، وأهل / السَّاقَة ، وأهل القبائل . [242/ب]

فأهل الدار للامتهان والخدمة ، وأهل الجماعة للتفاوض والمشورة والمباهاة ، وأهل خمسين وسبعين والطلبة⁽²⁸⁾ لحمل العلم والتلقي ، وسائر القبائل للدفاع العدو ، وكان يُعَلِّمهم أوجه العادات⁽²⁹⁾ ، وكان يأمرهم باتخاذ مرابط الخيل التي ينالون من فئ عدوهم⁽³⁰⁾ ، وأنه يعطي الرجل على قدر ما أعد من مرابطه⁽³¹⁾ فكان ذلك⁽³²⁾ ، ووافقت أيامه أيام المسترشد بن المستظهر بن القائم بن العادل « اهـ .

(24) زيادة من المؤلف عما هو موجود بالوفيات للتوضيح .

(25) في الوفيات : « علما وشرفاً » . (26) ابن خلكان ، وفیات الأعيان : 48/5 .

(27) من الطبيعي أن النقل عن ابن الخطيب الأندلسي لا يكون في ابن خلكان ذكر ذلك لسان الدين بن الخطيب في « رقم الحلل » . أنظر الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأحمد بن خالد الناصري السَّلاوي (1896/1315) ، 86/2 الدار البيضاء 1964 .

(28) « والحفَّاظ والطلبة » . (30) « من عدوهم » بعدها .

(29) أوجه العبادات والعادات . (31) المرابط .

(32) المصدر السالف 81/2 .

وكان حين خرج من ملالة ومعه عبد المؤمن لحق بوشَريس⁽³³⁾ - بفتح الواو وسكون النون وفتح الشين المعجمة وكسر الراء وسكون المثناة التحتية ثم سين⁽³⁴⁾ معجمة - بليدة من أعمال بجاية ، فصَّحَّه من برابرها جملة هم أجله أصحابه ، ثم لحق بتلمسان وقد تسامع الناس بخبره فرحل إلى فاس ، ثم إلى مكناسة ، ونهى فيها عن المنكر ، فأوجعه الأشرار ضرباً .

ابن خلكان: ⁽³⁵⁾ « كان ابن تومرت قد صحبه رجل يسمَّى عبد الله الونشريسي⁽³⁶⁾ ففاوضه فيما عزم عليه من القيام ، فوافقه على ذلك أتمَّ موافقة ، وكان الونشريسي⁽³⁶⁾ ممَّن تهذَّب وقرأ على الفقهاء ، وكان جميلاً فصيحاً في لغة العرب وأهل المغرب ، فتحادثا يوماً في كيفية الوصول إلى الأمر المطلوب ، فقال ابن تومرت لعبد الله : أرى أن تستر ما أنت عليه من العلم والفصاحة عن النَّاس وتظهر العي⁽³⁷⁾ واللَّكْن والحَصَر والتَّعَرِّي عن الفصاحة⁽³⁸⁾ ما تشتهر به عند الناس ، ليظهر ما أنت عليه دفعة واحدة / [243/أ]

وقت الحاجة إليه ، فيكون كالمعجزة والكرامة قُتِّصَدَّق بما تقوله ، ففعل ذلك عبد الله . ثم ان محمد استدنى أشخاصاً من أهل المغرب أجلاداً في القوى الجسانية أغماراً ، وكان إلى الأغمار أميل من أولي الفطن والاستبصار ، فاجتمع له منهم ستة سوى عبد الله الونشريسي⁽³⁹⁾ فتوجَّهوا إلى مراكش وملكها يومئذ أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين ، - المقدم الذكر - ملك المثلثين ، وكان علي ملكاً عظيماً حليماً ورعاً عادلاً متواضعاً وكان بحضرته رجل يقال له مالك بن وهيب⁽⁴⁰⁾ الأندلسي ، قاضي مراكش ، فشرع ابن تومرت في الإنكار على عادته ، حتى أنكر على الملك وعلى أهل بيته⁽⁴¹⁾ .

فبلغ ذلك الملك وأنه تحدث في تغيير الدولة ، فقال مالك بن وهيب للملك : نخاف من فتح باب يعسر علينا سده ، والرأي أن تُحضِر هذا الشخص وأصحابه لتسمع كلامهم

(33) في الأصول : « ونشريش » والمثبت من الوفيات 48/5 وتاريخ الدولتين ص 5 .

(34) في الأصول : « شين » .

(35) الوفيات 48/5 .

(36) في الأصول : « الونشريسي » .

(37) كذا في ط وفي ش : « العي » ، وفي الوفيات : « العجز » .

(38) في الوفيات : « الفضائل » .

(39) في الأصول : « عبد المؤمن » والمثبت من الوفيات التي ينقل عنها المؤلف .

(40) في الأصول : « وهب » .

(41) في الوفيات : « حتى أنكر على ابنة الملك » .

بمحضور جماعة من العلماء ، فأجاب الملك إلى ذلك ، وكان ابن تومرت وأصحابه مقيمين بمسجد خراب خارج البلد ، فطلبهم ، فلما ضمهم المجلس قال الملك لعلماء بلده أسألوا هذا الرجل ما يبغي منا ، فانتدب إليه قاضي المريّة محمد بن أسود فقال : ما هذا الذي يذكر عنك من الأقوال في حق الملك العادل الحلیم المنقاد إلى الحق المؤثر طاعة الله على هواه ؟ فقال له ابن تومرت : ما نقل عني فقد قلته ولي من ورائه أقوال ، وأما قولك انه يؤثر طاعة الله / على هواه وينقاد إلى الحق فقد حضر اعتبار صحة هذا القول [عنه] [243/ب] ليعلم بتعريبه عن (42) هذه الصفة أنه مغرور بما يقولون له ، مع علمكم (43) أن الحجة عليكم (44) فهل بلغك يا قاضي أن الخمر يباع جهاراً ، وتمشي الخنازير بين المسلمين ، وتؤخذ أموال اليتامى ؟ وعدّد من ذلك شيئاً كثيراً .

فلما سمع الملك ذلك ذرفت عيناه وأطرق حياء ، ففهم الحاضرون من فحوى كلامه أنه طامع في المملكة ، ولما رأوا سكوت الملك وانخداعه لكلامه لم يتكلّم أحد منهم ، فقال مالك بن وهيب ، وكان كثير الاجتزاء على الملك مخاطباً له فيما بينه وبينه : إن عندي لنصيحة إن فعلتها حمدت عاقبتها ، فقال الملك : وما هي ؟ فقال : إني خائف عليك من هذا الرجل ، (فاني أظنه صاحب الدرهم المربع - لأنه كان ينظر في علم النجوم -) (45) ثم قال له : أرى أن تعتقله وأصحابه وتنفق عليه كلّ يوم ديناراً لتكني شرّه وإن لم تفعل ذلك لتنفق عليه خزائنك ، ثم لا ينفعك ذلك فوافقه الملك ، ثم قال له (46) : يقبح عليك أن تبكي من موعظة هذا الرجل ثم تسيء إليه في مجلس واحد ، وأن يظهر منك الخوف منه مع عظم ملكك ، وهو رجل فقير لا يملك سدّ جوعته ، فلما سمع الملك كلامه أخذته عزّة النفس واستهون أمره وصرفه يسأله الدعاء .

ولما خرج من عند الملك لم يزل وجهه تلقاء وجه الملك إلى أن فارق / فليل له : [244/أ] نراك قد تأدّبت مع الملك إذ لم توله ظهرك ، فقال : أرتبت أن لا يفارق وجهي الباطل ما استطعت حتى أغيره .

فلما خرج ابن تومرت وأصحابه من عند الملك قال لهم : لا مقام لنا بمراكش مع

(42) في الأصول : « من » .

(43) كذا في ط والوفيات ، وفي ش : « علمه » .

(44) في الأصول : « عليه » .

(45) زيادة عما هو موجود بالوفيات وموجودة بتاريخ الدولتين للزركشي ص 5 وكتاب العبر لابن خلدون 469/6 .

(46) « فقال له وزيره » .

وجود مالك بن وهيب ، فما نأمن أن يعاود الملك ⁽⁴⁷⁾ في أمرنا فينالنا منه مكروه ، وإن لنا بأغمت أخا في الله ، فنقصد المرور به فلا نعدم منه رأيا ودعاء صالحا ، واسم هذا الرجل عبد الحق بن ابراهيم ، وهو من فقهاء المصامدة (ولمّا مرّ بهتاتة لقيه من أشياخهم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهتاني) ⁽⁴⁸⁾ ولمّا وصل للشيخ عبد الحق خرج إليه مع جماعة المصامدة وأنزلوه ، فأخبره ابن تومرت خبره ، وأطلعهم على مقصوده ، فقال عبد الحق : هذا الموضع لا يحميكم ، وإن أحسن المواضع المجاورة لهذا البلد تين مل ⁽⁴⁹⁾ وبيننا وبينها مسيرة يوم في هذا الجبل ، فانقطعوا فيه برهة ريثما يتناسى ⁽⁵⁰⁾ ذكركم ، فلما سمع ابن تومرت بهذا الاسم تجدد له اسم الموضع الذي رآه في كتاب الجفر ، فقصده مع أصحابه ، فلما أتوه رأهم أهله على تلك الصورة فعملوا أنهم من طلاب العلم ، فقاموا إليهم وأكرمهم وتلقوهم بالترحاب وأنزلوهم في أكرم منازلهم ، وسأل الملك عنهم بعد خروجهم من مجلسه ف قيل له : إنهم سافروا فسره ذلك ، وقال : تخلّصنا من الاثم بحبسهم .

[244/ب] ثم إن أهل الجبل تسامعوا بوصول ابن تومرت / إليهم ، وقد كان شاع ذلك فيهم ، فجاؤوه من كلّ فجّ عميق وتبرّكوا بزيارته ، وكان كل من أتاه استداناه وعرض عليه ما في نفسه من الخروج على الملك ، فان أجابه أضافه إلى خواصّه ، وإن خالفه أعرض عنه ، وكان يستميل الأحداث وذوي الضراوة ⁽⁵¹⁾ ، وكان أولوا العلم والعقل من أهاليهم ينهونهم ويحدّرونهم من أتباعه ويخوفونهم من سطوة الملك ، ولمّا لم يتمّ لابن تومرت مع ذلك حال ، وطالت المدة ، وخاف من مفاجأة الأجل قبل بلوغ الأمل ، وخشي أن يطرأ على أهل الجبل من جهة الملك ما يحوجهم إلى تسليمه إليه والتخلي عنه ⁽⁵²⁾ ، شرع في أعمال الحيلة فيما يشاركونه فيه ليعصوا على الملك بسببه ، فرأى بعض أولاد القوم شقرا زرق العيون ، وألوان آبائهم السمرة والكحل ، فسألهم عن سبب ذلك فلم يجيبوه ، فألزمهم بالإجابة فقالوا : نحن من رعيّة هذا الملك وله علينا خراج ، وفي كلّ

(47) بعدها في ش : «لف» .

(48) زيادة عما هو موجود بالوفيات التي ينقل عنها المؤلف ، انظر عنها ابن خلدون 469/6 .

(49) كذا في ط والوفيات ، وفي ش : «يزمل» .

(50) «ينسى» .

(51) في الوفيات : «ذوي الغرة» ، 51/5 .

(52) كذا في ط والوفيات ، وفي ش : «منه» .

سنة تصعد ممالكه إلينا ينزلون بيوتنا ويخلون بمن فيها من النساء ، فيأتي الأولاد على تلك الصفة ، وما لنا قدرة على دفع ذلك عنا ، فقال ابن تومرت : والله إن الموت خير من هذه الحياة ، وكيف رضيتم هذا وأنتم أضرب خلق الله بالسيف وأطعنهم بالحربة ؟ فقالوا : بالرغم لا بالرضا قال : أرايتم لو أن ناصراً نصركم على أعدائكم ما كنتم تصنعون ؟ قالوا : نقدم أنفسنا بين يديه للموت ، فمن هو ؟ قال : ضيفكم - يعني نفسه - قالوا : السمع والطاعة ، / وكانوا يغالون في تعظيمه ، فأخذ عليهم العهود والمواثيق واطمأن قلبه⁽⁵³⁾ [245/أ]

« قيل⁽⁵⁴⁾ إن المصامدة بايعوه يوم الجمعة الرابع عشر لشهر رمضان من عام خمس عشرة وخمسمائة⁽⁵⁵⁾ ، فأول من بايعه أصحابه العشرة تحت شجرة خرنوب وهم عبد المؤمن بن علي ، وعمر أصناك⁽⁵⁶⁾ الصنهاجي ، والشيخ أبو حفص عمر الهنتاتي واسماعيل بن مخلوف وابراهيم [بن اسماعيل]⁽⁵⁷⁾ واسماعيل بن موسى ، وأبو يحيى بن مكيث⁽⁵⁸⁾ ، ومحمد بن سليمان ، وأبو محمد⁽⁵⁹⁾ عبد الله بن ملويات⁽⁶⁰⁾ وعبد الله بن عبد الواحد المكني بالبشير ، والعاشر⁽⁶¹⁾ الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص ، ثم بايعه من هنتاتة يوسف بن وانودين ، وابن يغمور⁽⁶²⁾ وابن ياسين ، (ومن ينتمي إلى)⁽⁶³⁾ عمر بن تافراجين وجميع قبيلة هرغة ، ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي ، وكان لقبه قبل «الامام» وانتقل بعد بيعته بثلاث سنين إلى جبل تينمل⁽⁶⁴⁾ فأوطنه وبني داره ومسجده بينهم ، وقاتل من تخلف عن بيعته من المصامدة حتى استقاموا له⁽⁶⁵⁾ .

(53) الوفيات : 46/5 - 52 . (54) النقل الآن من تاريخ الدولتين للزركشي ص 6 .

(55) 26 نوفمبر 1121 م .

(56) كذا في كتاب العبر 470/6 وفي تاريخ الدولتين : « الشيخ ابو علي عمر الصنهاجي » .

(57) اضافة من تاريخ الدولتين ص 6 .

(58) كذا في تاريخ الدولتين ، وصوابه : « يكيث » كما في ابن خلدون 469/6 والاستقصا . انظر تعليق الشيخ محمد

ماصور هامش 2 ص 6 من تاريخ الدولتين .

(59) في الأصول : « ابن » .

(60) في ط وفي تاريخ الدولتين : « ملتوتات » وفي ش : « حلوتات » ، وعلق عليها الشيخ ماضور بقوله : صوابه « ملويات » كما في أولها ، وكتبها ابن خلدون ملويات أيضاً 470/6 .

(61) به صار العدد إحدى عشر خلافاً لما نص عليه المؤلف ، وما رتبته من الأسماء مطابق للعبر وتاريخ الدولتين .

(62) في ش : « ابن مغمور » وفي ط : « ابن مغور » .

(63) في الأصول : « ومن تين مل » والمثبت من تاريخ الدولتين ص 6 .

(64) كذا في ط ، وفي تاريخ الدولتين وفي كتاب العبر : « تينمل » 470/6 - 471 . وفي ش والوفيات : « تين مل » .

(65) انتهى النقل من تاريخ الدولتين ص 6 .

ثم قال لهم (66): استعدوا لحضور ممالك السلطان بالسلاح فاذا جاؤوكم فأجروهم على العادة وخلوا بينهم وبين النساء وميلوا عليهم بالخمر ، فاذا سكروا فأذوني بهم ، فلما حضر (67) الممالك فعل أهل الجبل ما أشار به ابن تومرت ، وكان ليلاً ، وأعلموه بذلك ، فأمر (68) بقتلهم ، فلم يمض من الليل ساعة حتى أتوا على آخرهم ، فلم يفلت منهم إلا مملوك واحد كان خارج المنازل لحاجة له ، فسمع التكبير عليهم / والوقع بهم [245/ب] فهرب عن غير الطريق حتى خلاص من الجبل ولحق بمراكش فأخبر الملك بما جرى ، فندم على فوات ابن تومرت من يده ، وعلم أن الحزم كان مع مالك بن وهيب (69) فيما أشار به ، فجهز من وقته خيلاً بمقدار ما يسع وادي تين مل (70) لأنه ضيق المسلك ، وعلم ابن تومرت أنه لا بد من وصول عسكر إليهم ، فأمر أهل الجبل بالقعود على أنقاب الوادي ومراصده ، واستنجد لهم بعض المجاورين فلما وصلت الخيل إليهم أقبلت عليهم الحجارة من جانبي الوادي مثل المطر ، وكان ذلك من أول النهار إلى آخره ، وحال بينهم الليل فرجع العسكر إلى الملك ، وأخبروه بما تم لهم ، فعلم أن لا طاقة له (71) بأهل الجبل ، فأعرض عنهم .

وتحقق ابن تومرت ذلك منه ، وصفت (72) له مودة أهل الجبل ، فعند (73) ذلك استدعى الونشريسي (74) وقال له : هذا أوان فصاحتك (75) دفعة واحدة ، تقوم لك مقام المعجزة لنستميل بك قلوب (76) من لا يدخل تحت الطاعة ، ثم اتفقا على أنه يُصلي الصبح ويقول بلسان فصيح - بعد استعمال العجمة واللكنة [في] تلك المدة - : إني رأيت البارحة في منامي أنه قد نزل ملكان من السماء وشقاً فؤادي وغسلاه وحشياه علماً

(66) عود إلى الوفيات 52/5 .

(67) كذا في ط والوفيات ، وفي ش : « جاء » .

(68) كذا في ط والوفيات ، وفي ش : « أمرهم » .

(69) في الأصول : « وهب » وأثبتناها كما أشرنا سابقاً .

(70) كذا في الأصول والوفيات ، وكتبها الزركشي : « تينمل » والمؤلف يكتبها حسب النص الذي ينقل عنه .

(71) في الأصول : « لهم » والمثبت من الوفيات 52/5 .

(72) في الأصول : « وصفى » .

(73) في الأصول : « ومن » .

(74) في الأصول : « الونشريسي » وأثبتناها كما سبقت الإشارة إليه .

(75) في الوفيات : « اظهار فضائلك » .

(76) في الأصول : « القلوب » .

[أ/246]

وحكمة وقرآنًا ، فلمّا أصبح فعل ذلك ، فانقاد له كلّ صعب القياد ، وعجبوا من حال وحفظه القرآن في النوم ، فقال له ابن تومرت : فعجّل لنا البشرى في أنفسنا وعرفنا أسعدنا نحن أم أشقياء ؟ فقال له : أما أنت فانك المهدي القائم بأمر الله / فمن تبعك سعد ومن خالفك هلك ، ثم قال : اعرض عليّ أصحابك حتّى أميّز أهل الجنة من أهل النار ، وعمل في ذلك حيلة فقتل بها من خالف ابن تومرت ، وأبقى من أطاعه ، قال ابن خلكان (77) : وشرح ذلك يطول ، وكان غرضه أن لا يبقى في الجبل مخالف لابن تومرت ، فلمّا قتل من خالفه علم ابن تومرت أن في الباقيين من له أهل وأقارب قتلوا وأن لا تطيب قلوبهم بذلك ، فجمعهم وبشّرهم بانتقال ملك مرّاكش إليهم ، واغتنامهم أموالهم ، فسرّهم ذلك وسلاّهم عن أهلهم ، (وقد تقدم ما أمرهم به من اتّخاذ مرابط للخيل التي يغنموها ، وكلّ ينال بقدر ما أعد) (78) .

ولم يزل ابن تومرت حتّى جهّز جيشًا عدد رجاله عشرة آلاف ما بين فارس وراجل ، (وقيل عدة الأفراس أربعين ، وقيل أربعمائة) (79) وفيهم عبد المؤمن والونشريسي (74) وأصحابه كلّهم ، وأقام هو بالجبل ، فتزل القوم لحصار مرّاكش ، وأقاموا عليها شهرًا ، (ثمّ خرج إليهم الملك بمن معه وصابريهم الحرب خارج الحصن) (80) فكسّرهم كسرة فاحشة وقتل الونشريسي (81) ، ونجا عبد المؤمن ورجعوا إلى الجبل وقد بلغ خبرهم لابن تومرت وحضرته الوفاة قبل وصولهم إليه ، فأوصى من حضر أن يبلغ الغائبين أن التصبر لهم ، وأن العاقبة حميدة ، فلا يضجروا وليعاودوا القتال ، وأن الله تعالى سيفتح على أيديهم ، والحرب سجال ، وأنكم ستقوون وتعلون وتكثرون ، وأنتم في مبدأ أمر وهم في آخره (82) .

[ب/246]

وكان يقول : «إن مثل هذا الأمر كالفجر يتقدمه / الفجر الكاذب وبعده ينبئ بالصّبح ويستعلي الضوء» (83) وهذه الواقعة أتت على معظم أصحابه ، وكادت تمحو أثرها إلّا أن لله مشيئته هو منفذها ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (84)

(77) الوفيات 53/5 .

(78) زيادة عما هو موجود بالوفيات .

(79) زيادة عن الوفيات من تاريخ الدولتين ص 7 .

(80) زيادة عن الوفيات ، نقلها المؤلف بتصرف عن تاريخ الدولتين ص 7 .

(81) في الأصول : «الونشريسي» .

(82) ابن خلكان الوفيات 52/5 - 53 .

(84) سورة يوسف : 21 .

(83) انظر الاستقصا للناصري 81/2 .

وتوفي سنة أربع وعشرين وخمسمائة⁽⁸⁵⁾ ، «وُدُن في الجبل ، وقبره هناك مشهور بزار»⁽⁸⁶⁾ ، «وكانت مدته»⁽⁸⁷⁾ من حين ببيع تسع سنين»⁽⁸⁸⁾ وكان «حصورًا لا يأتي النساء»⁽⁸⁹⁾ ومات ولم يبلغ أربعين سنة .
قال في حقه صاحب «المعرب في أحوال المغرب»⁽⁹⁰⁾ :

[وافر]

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
قدم في الثرى وهمّة في الثريا ، ونفس ترى⁽⁹¹⁾ إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء الحيا ،
وكان قوته كل يوم رغيفًا من غزل أخته بقليل زيت أو سمن ، ولم ينتقل عن هذا حين كثرت
عليه الدنيا ، ورأى أصحابه يومًا وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه ، فأمر بضمّ ذلك
جميعه وأحرقه وقال : من كان يبتغي الدنيا فما له عندي إلا ما رأى ، ومن يبتغي⁽⁹²⁾
الآخرة فجزاؤه على الله تعالى . وكان مع خمول زيه وبسطة [مهيبًا]⁽⁹³⁾ وجهه منبع
الحجاب [الا]⁽⁹⁴⁾ عند المظلمة⁽⁹⁵⁾ وكان يتمثل بقول المتنبي :

[وافر]

إذا غامرت في شرف⁽⁹⁶⁾ مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم⁽⁹⁷⁾

85 كذا بالأصول والوفيات وزاد عليها الزركشي : «لثلاث عشرة خلون من شهر رمضان» ص 7 ويقابله بالمسيحي 1129 - 1130 م وفي كتاب العبر : «هلك المهدي سنة اثنين وعشرين» 472/6 .

86 الوفيات 53/5 . 87 تاريخ الدولتين ص 7 ، وكتاب العبر 471/6 .

87 في ش : «مدة» . 88 الزركشي تاريخ الدولتين ص 7 .

89 في ش : «ترا» . 90 نقله بواسطة ابن خلكان ، الوفيات 53/5 - 54 .

91 في ش : «بيتغ» . 92

93 اضافة من الوفيات يقتضيه السياق . 94 اضافة من الوفيات يقتضيه السياق .

95 للمهدي ابن تومرت أخبار في كتب التاريخ المعروفة . ومن الغريب أن تاج الدين السبكي ترجم له في طبقات الشافعية الكبرى 71/5 - 74 . 96 في الأصول : «إذا ما كنت في أمر مروم» والمثبت من الوفيات وديوان المتنبي دار صادر ، بيروت .

97 انظر ديوان المتنبي ، دار صادر بيروت ص 232 والأبيات من قطعة بها 9 أبيات قالها عندما كبست انطاكية وهو فيها فقتل الطخور وأمه .

وبقوله أيضاً :

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغامُ .
ولم يفتح شيئاً من البلاد ، وإنما قرّر القواعد لعبد المؤمن ، فكانت الفتوحات له .
«ولمّا مات ابن تومرت كتم أصحابه موته وباعوا»⁽⁹⁸⁾ / الشيخ أبا علي عمر
الصنّهاجي عرف أصناك⁽⁹⁹⁾ ثم قال لهم بعد أيام : هذا هو الذي عهد إليه الامام - يعني
عبد المؤمن بن علي -⁽¹⁰⁰⁾ .

[247/أ]

عبد المؤمن :

«وهو عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى⁽¹⁰¹⁾ بن مروان بن نصر بن علي بن
عامر بن الأمير بن⁽¹⁰²⁾ موسى بن عبد الله بن يحيى بن ورنغ⁽¹⁰³⁾ بن صطفور⁽¹⁰⁴⁾ بن
نفور⁽¹⁰⁵⁾ بن مطماط بن هودج بن قيس عيلان بن مضر»⁽¹⁰⁶⁾ ، ويقال له الكومي نسبة
لقريته الكومية⁽¹⁰⁷⁾ ، والقيسي نسبة لقيس عيلان⁽¹⁰⁸⁾ . كان والده وسطاً في قومه ، وكان
صانعاً في عمل الطين ، يعمل منه الآنية ، فيبيعها ، وكان عاقلاً من الرجال وقوراً ، ابن
خلكان⁽¹⁰⁹⁾ : «يحكى أن عبد المؤمن في صباه كان نائماً وأبوه مشغول بعمل الطين ، فسمع

(98) في ش : «وباعوا» .

(99) كذا في الأصول وتاريخ العبر ، وفي تاريخ الدولتين : «عرف الصناكي» ص 7 .

(100) تاريخ الدولتين ص 7 .

(101) في الأصول : «بلا» والمثبت من ابن خلدون كتاب العبر الذي ينقل عنه المؤلف 258/6 .

(102) في الأصول : «أي» والمثبت من كتاب العبر .

(103) في الأصول : «وزرايغ» والمثبت من كتاب العبر .

(104) في الأصول : «ابن منصور» .

(105) في ط : «تينور» وفي ش : «بنور» والمثبت من كتاب العبر .

(106) هكذا ساق نسبه ابن خلدون نقلاً عن مؤرخي دولة الموحدين 258/6 . وقال : «وفي أسماء هذا العمود من نسب
عبد المؤمن ما يدل على أنه مصنوع ، إذ هذه الأسماء ليست من أسماء البربر ، وإنما هي كما تراه كلها عربية ،
والقوم كانوا من البرابرة معروفون بينهم ، وانتساب مطفور إلى مطماط تحليط أيضاً فانهما أخوان عند نسابة
البربر أجمع» .

(107) انظر عنها كتاب العبر 257/6 - 261 .

(108) فأما انتسابهم (أي البربر) في قيس عيلان فقد ذكرنا أنه غير صحيح . كتاب العبر : 258/6 .

(109) النقل من ترجمة عبد المؤمن صاحب المغرب بالوفيات لابن خلكان 237/3 وما بعدها .

أبوه ذويًا من السماء ، فرفع رأسه فرأى سحابة سوداء من نخل قد هوت مطبقة على الدّار ، فنزلت كلّها مجتمعة على عبد المؤمن وهو نائم ، فغطّته ولم يظهر من تحتها ولا استيقظ ، فرأته أمّه على تلك الحالة فصاحت خوفًا على ولدها ، فسكتها أبوه فقالت له : أخاف عليه ، فقال : لا بأس عليه ، بل إني متعجب مما يدل عليه ذلك ، ثم غسل يديه من الطّين ولبس ثيابه ووقف ينتظر ما يكون من أمر النّحل ، فطار عليه بأجمعه ، فاستيقظ الصّبي وما به من ألم ، فتفقّدت أمه جسده فلم تر به أثرًا ، ولم يشك لها ألمًا ، وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزّجر ، ففضى أبوه إليه فأخبره بما رآه من النّحل مع ولده ، فقال الزّاجر : يوشك أن يكون له شأن / يجتمع على طاعته أهل المغرب ، فكان من أمره [247/ب] ما اشتهر⁽¹¹⁰⁾ اهـ يعني من فتح البلاد ، وتطويع العباد بأرض المغرب ، وقد تقدّم كيفية انقراض دولة الملتئمين على يديه ، وفتح البلاد من وهران لمراكش ، وأخذه لمراكش وأوائل سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة⁽¹¹¹⁾ ، «وكانت هذه الغزوة المشتملة على هذه الفتوح من أربع وثلاثين إلى إحدى وأربعين⁽¹¹²⁾ ، واستوتق له الأمر وامتد ملكه إلى المغرب الأقصى والأدنى وكثير من بلاد الأندلس»⁽¹¹³⁾.

ومن أعظم فتوحاته فتح المهديّة والبلاد الساحلية من أيدي الكفّار حسبما يأتي تفصيل ذلك في الباب الذي يلي هذا إن شاء الله تعالى.

«وقدم على⁽¹¹⁴⁾ عبد المؤمن بمراكش وفد اشيلية يقدمهم القاضي أبو بكر بن العربي - بعد قتل ولده عبد الله في فتح اشيلية - فقبل طاعتهم وانصرفوا بالجوائز والاقطاعات لجميع⁽¹¹⁵⁾ الوفد سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة⁽¹¹⁶⁾ ، وتوفي القاضي أبو بكر في طريقه في جمادى الآخرة من سنة اثنتين وأربعين⁽¹¹⁷⁾ ، عند وصوله إلى مدينة فاس فدفن بروضة الجلياني⁽¹¹⁸⁾ بفاس وهو ابن خمس وسبعين سنة ، وقيل توفي في سابع ربيع

(110) الوفيات 238/3.

(111) رجع إلى النقل من تاريخ الدولتين ص 8.

(112) 1147 م.

(113) تاريخ الدولتين ص 7. (114) كنا في ط وتاريخ الدولتين ، وفي ش : «بجميع».

(115) الوفيات 239/3. (116) 1147 - 1148 م.

(117) في الاستقصا : «سنة ثلاث وأربعين».

(118) في تاريخ الدولتين : «الجلياني» «دفن خارج باب المحروق منها (أي فاس) بتربة القائد مظفر وقبره مزار إلى الآن وعليه قبة حسنة» الاستقصا 105/2. وفي الوفيات 239/5 «وقيل ، أنه حمل إلى نين مل ... ودفن هناك والله أعلم».

الأول ، وقيل في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين ، وقيل إنه سمّ ما بين فاس وسبّعة ، قال ابن الدباغ : بقي يفتي أربعين سنة .

وفي سنة اثنتين وأربعين المذكورة توفي القاضي الامام / أبو محمد عبد الحق بن غالب المعروف بابن عطية مفسر القرآن العظيم ، وقال الغبريني في «عنوانه» إنه توفي سنة إحدى وأربعين ، قال الشيخ القاضي المفتي أحمد بن محمد القلجاني⁽¹¹⁹⁾ إن بعض الأدباء دخل محلة عبد المؤمن فوجد أهل المرية يشكون قاضيه الامام أبا محمد عبد الحق ابن غالب وينسبونه إلى الزندقة فأنشد :

[بسيط]

قالوا تزندق عبد الحق قلت لهم والله ما كان عبد الحق زنديقاً
أهل المرية قوم لا خلاق لهم يُفسّقون قضاءَ الحق⁽¹²⁰⁾ تفسيقاً

وفي ليلة الجمعة سابع جمادى الآخرة من سنة أربع وأربعين وخمسمائة⁽¹²¹⁾ ، توفي القاضي أبو الفضل عياض بمرّاكش ، وقيل في شهر رمضان ، وقيل سنة اثنتين وأربعين ، ومولده بسبّعة منتصف شعبان سنة ست وسبعين وأربعمائة⁽¹²²⁾ ، وقيل سنة خمس⁽¹²³⁾ ، وولي قضاء سبّعة سنة خمس وعشرين وخمسمائة⁽¹²⁴⁾ ، ثم انتقل لقضاء غرناطة في صفر سنة إحدى وثلاثين ، وصرف عنها في رمضان من عام ثلاث⁽¹²⁵⁾ وثلاثين ، وأعيد لقضاء سبّعة سنة تسع وثلاثين⁽¹²⁶⁾ ، وقيل إنه لمّا ولي قضاء قرطبة ولم يطل مقامه بها ، ثم أعيد لها ، ثم أعيد لبلده .

ولمّا اجتمع بالخليفة عبد المؤمن وجده⁽¹²⁷⁾ تغير عليه ، فاستعطفه بالمنظوم والمثور

(119) كذا في تاريخ الدولتين ، والقلشاني ضبط صحيح نسبة إلى قرية قلشانة ويقال قلجانة .

(120) في تاريخ الدولتين : «العدل» .

(121) 12 أكتوبر 1149 م .

(122) 27 ديسمبر 1083 م «قاله ابن بشكوال وحفيده» تاريخ الدولتين ص 10 .

(123) عن ابن سعيد انظر تاريخ الدولتين ص 10 .

(124) 1130 - 1131 م .

(125) في الأصول «اثنتين» والمثبت من تاريخ الدولتين التي ينقل عنها المؤلف ص 10 . ماي 1139 م .

(126) 1144 - 1145 م .

(127) كذا في ط وتاريخ الدولتين ، وفي ش : «وجد» .

حتى رَقَّ له وعفا⁽¹²⁸⁾ عنه ، فلأزم مجلسه إلى أن رَدَّه لحضرة⁽¹²⁹⁾ مراكش ، فلَمَّا وصلها بقي ثمانية أيام وتوفي .

[248/ب] ومن نظمته في صيفية باردة - رحمه الله وسامحه - :

[بسيط]

كَانَ كَانُونَ أَهْدَى مِنْ مَلَابِسِهِ لَشَهْرٍ تَمُوزُ أَنْوَاعًا مِنَ الْحُلَلِ
أَوَالْغَزَالَةِ مِنْ طُولِ الْمَدَى⁽¹³⁰⁾ خَرِفْتُ فَهَا تَفَرَّقَ بَيْنَ الْجُلْدِيِّ وَالْحَمَلِ
وَمَنْ نَظَّمَهُ يَصِفُ خَامَةَ الزَّرْعِ - رَحِمَهُ اللَّهُ وَعَفَا عَنْهُ - :

[سريع]

انظر إلى الزرع وخاماته [تحكي]⁽¹³¹⁾ وقد مَاسَتْ أَمَامَ الرِّيحِ
كثيرة خضرَاءَ مَهْزُومَةٍ⁽¹³²⁾ شَقَاتُ النُّعْمَانِ فِيهَا جِرَاحٌ⁽¹³³⁾

«ولَمَّا انتهت أيام عبد المؤمن وكان بمدينة سلا⁽¹³⁴⁾ أصابه بها مرض شديد توفي منه في العشر الأخير من جمادى الأخرى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة⁽¹³⁵⁾ فكانت مدّة ولايته ثلاثًا وثلاثين سنة وأشهرًا ، وكان عند موته شيخًا نقي البياض»⁽¹³⁶⁾ .

أبو يعقوب يوسف :

«ثم تولى⁽¹³⁷⁾ بعده ولده مُحَمَّدٌ بعهد من أبيه واستخلافه له ونقش الدنانير باسمه ، فحصل منه اشتغال بالرّاحة وانهماك في البطالة فخلعه أخوه أبو يعقوب يوسف⁽¹³⁸⁾ (في

(128) كذا في ط وتاريخ الدولتين ، وفي ش : «عفى» . (131) إضافة من تاريخ الدولتين .

(129) في الأصول : «بحضرة» . (132) في الأصول : «مهذومة» .

(130) في الأصول : «المداء» . (133) تاريخ الدولتين للزركشي ص 8 - 10 .

(134) في الأصول : «سلى» .

(135) كذا في الوفيات ، ماي 1163 م ، وفي تاريخ الدولتين : «توفي ليلة الخميس العاشر لجمادى الآخرة من سنة ثمان وخمسين وخمسمائة» ص 13 .

(136) ابن خلكان الوفيات 239/3 .

(137) النقل من ترجمة يوسف بن عبد المؤمن بالوفيات بتصرف 130/7 .

(138) في تاريخ الدولتين : «ولما كانت سنة ثمان وخمسين استدعى عبد المؤمن ولده أبا يعقوب يوسف من الأندلس

لمراكش لولاية العهد عوضًا من أخيه محمد فلقح بمراكش وخرج مع أبيه للجهاد» .

شعبان سنة ثمان وخمسين وخمسمائة⁽¹³⁹⁾ وكان له أخ آخر اسمه أبو حفص [عمر] ولأه جزيرة الأندلس.

ولمّا خلع يوسف أخاه محمد تولى الملك فكان أحق به وأهله اذ هو فقيه حافظ متفنن لأن أباه هذّبه وجال⁽¹⁴⁰⁾ الحروب والمغازي⁽¹⁴¹⁾ فنشأ في ظهور الخيل بين أبطال الرّجال ، وفي قراءة العلم بين أفاضل العلّماء ، وكان ميله إلى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله إلى الأدب وبقية العلوم ، وكان جماعاً مناعاً ضابطاً لخارج مملكته عارفاً بسياسة رعيته ، وكان يحضر حتى لا يكاد يغيب ويغيب حتى لا يكاد يحضر ، وله في غيبته ثواب وخلفاء وحكّام وقد / فوّض الأمور إليهم لما يعلم من صلاحهم لذلك ، والدّنانير اليوسفية [249/أ] المغربية منسوبة إليه .

فلمّا تمّهّدت له الأمور واستقرّت قواعد ملكه دخل جزيرة الأندلس لكشف أحوال دولته وتفقد مصالحها ، وكان ذلك في سنة ست وستين وخمسمائة⁽¹⁴²⁾ وفي صحبته مائة ألف فارس من العرب والموحّدين ، فنزل باشيلية ، فخافه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد المعروف بابن مرّديش بفتح الميم وسكون [الراء وفتح] الدّال المهملة وكسر النّون وسكون المثناة تحت بعدها شين معجمة وهو بلغة الافرنج اسم العذّرة⁽¹⁴³⁾ صاحب شرق الأندلس : مرسية وما انضاف إليها ، وحمل على قلبه فرض مرضاً شديداً ومات ، وقيل إن أمّه سقته السّم لأنه كان قد أساء على أهله وكبراء دولته وخواصه العشرة ، فنصحته أمّه وأغلظت عليه في القول وهددها فخافت بطشه ، فعملت عليه وسقته السّم فقتله في رجب سنة سبع وستين وخمسمائة⁽¹⁴⁴⁾ باشيلية ، ومولده سنة ثمان عشرة وخمسمائة⁽¹⁴⁵⁾ في قلعة من أعمال طرطوشة يقال لها بُشْكَلَة بضمّ الموحدة والنون وسكون الشّين المعجمة وضمّ الكاف وفتح اللام بعدها هاء تأنيث⁽¹⁴⁶⁾ ، وهي من

(139) زائدة عن الوفيات .

(140) وخاض .

(141) في الوفيات : «لأن أباه هذّبه وقرن به وباخوته أكمل رجال الحرب والمعارف فنشأوا» .

(142) 1170 - 1171 م .

(143) الوفيات 133/7 .

(144) مارس 1172 م .

(145) 1124 - 1125 م .

(146) الوفيات 133/7 .

الحصون المنيعه. ولما مات محمد بن سعد جاء أولاده ، وقيل هم أخوته ، إلى الأمير يوسف بن عبد المؤمن وهو باشبيلية فسلموا له جميع بلاد شرق الأندلس التي كانت / [249/ب] لأبيهم أو أخيه فآحسن إليهم الأمير يوسف وتزوج أختهم فأصبحوا عنده في أعز مكان. ثم ان الأمير يوسف شرع في استرجاع بلاد المسلمين من أيدي الافرنج ، وكانوا قد استولوا عليها ، فاتسعت مملكته بالأندلس وصارت سراياه تصل (147) مغيرة إلى باب طليطلة ، ثم أنه حاصرها ، فاجتمع الافرنج عليه كافة ، واشتد الغلاء في عسكره ، فرجع عنها وعاد إلى مراکش. وفي سنة خمس وسبعين (148) قصد بلاد افريقية وفتح مدينة قفصة ، ثم دخل إلى جزيرة الأندلس في سنة ثمانين ومعه جمع كثيف ، وقصد غربي بلادها فحاصر مدينة شترين شهراً فأصابه مرض فمات منه في شهر ربيع الأول سنة ثمانين وخمسائة (149) وحمل في تابوت إلى اشبيلية - رحمه الله تعالى -.

أبو يوسف يعقوب :

وبعد وفاته اجتمع رأي أشياخ الموحدين وبني عبد المؤمن على تقديم ولده (150) أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن فبايعوه ، وعقدوا له الولاية ودعوه أمير المؤمنين ، ولقبوه المنصور فقام بالأمر أحسن قيام (151) ، «وكان من أهل العلم ، وحسن التوقيع ، طلب يوماً من قاضيه أن يختار له رجلين لغرضين : من تعليم ولد ، وضبط أمر ، فعرفه برجلين ، قال في أحدهما : هو برّ في دينه ، وقال في الآخر : هو بجر في علمه ، فاخترهما السلطان بنفسه فقصرًا بين يديه وأكذبا الدعوى (152) ، فكتب على رقعة القاضي التي سيرها / معهما بتعريفهما : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم [250/أ]

(147) في الأصول : «تصل» .

(148) 1179 - 1180 م .

(149) كذا بالوفيات ، جوان - جويلية 1184 وفي تاريخ الدولتين : «الثامن عشر من ربيع الآخر» ص 14 .

(150) ما يتعلق بالأمير يوسف بن عبد المؤمن نقله المؤلف من وفيات الأعيان لابن خلكان 130/7 - 132 .

(151) الوفيات من ترجمة «المنصور الموحدي» 3/7 .

(152) في الأصول : «الدعوة» .

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾⁽¹⁵³⁾. وهذا من التوقيع العزيز⁽¹⁵⁴⁾ في الاجادة والصنعة⁽¹⁵⁵⁾.

«وهو⁽¹⁵⁶⁾ الذي أظهر أهبة الملك ، ورفع راية الجهاد ، ونصب ميزان العدل ، وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ، ونظر في أمر الدين والورع ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته وأقاربه كما أقامها في سائر الناس أجمعين ، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات ، ولما مات أبوه كان معه في الصحبة ، فباشر تدبير المملكة هنالك ، وأول ما رتب قواعد الأندلس ، فأصلح شأنها ورتب المقاتلة في مراكزها ، ورتب أحوالها في مدة شهرين وأمر بقراءة البسملة في [أول] الفاتحة في الصلاة ، وأرسل بذلك إلى سائر بلاد⁽¹⁵⁷⁾ الاسلام التي في مملكته ، فأجابه قوم وامتنع آخرون (لاختلاف الآراء في كونها آية من الفاتحة ، وهي مسألة مشهورة محلها كتب الفروع)⁽¹⁵⁸⁾.

ولما رجع إلى مراكش كرسي ملكهم خرج عليه علي بن اسحاق⁽¹⁵⁹⁾ (وأخوه يحيى أولاد [ابن] غانية بقية المثلثين كما سيأتي نبؤهم في الباب الثالث)⁽¹⁶⁰⁾. «وفي سنة واحد وثمانين⁽¹⁶¹⁾ توفي القاضي الامام الشهير أبو محمد عبد الحق الاشيلي ببجاية وهو صاحب الأحكام والعاقبة وغيرهما»⁽¹⁶²⁾. «وفي سنة ست وثمانين⁽¹⁶³⁾ بلغه أن الافرنج ملكوا مدينة شلب⁽¹⁶⁴⁾ وهي في غرب

(153) سورة الروم : 41.

(154) في تاريخ الدولتين : «الغريب».

(155) ما بين الظفرين نقله بتصرف من تاريخ الدولتين للزركشي ص 15. وذكر ذلك لسان الدين بن الخطيب في «رقم الحلال» ، أنظر الاستقصا 179/2.

(156) رجع إلى النقل من الوفيات لابن خلكان 3/7.

(157) في ش : «البلاد».

(158) ما بين القوسين زيادة من المؤلف عن الوفيات.

(159) وفيات الأعيان 3/7 - 4.

(160) زيادة عن الوفيات.

(161) 1185 - 1186 م.

(162) نقل من تاريخ الدولتين ص 15.

(163) 1190 م.

(164) في الأصول : «سلف» والمثبت من الوفيات 4/7 «واستولوا على غيرها من مدن غرب الأندلس كجاجة ويابرة».

انظر الاستقصا 164/2.

جزيرة الأندلس ، فتجهز إليها بنفسه وحاصرها وأخذها ، وأنفذ في الوقت / جيشاً من [250/ب] الموحدين ومعهم جماعة من العرب ، ففتحوا أربع مدائن من مدن الافرنج كانوا أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سنة ، وخاف صاحب طليطلة وطلب الصلح ، فصالحه خمس سنين وعاد إلى مراکش» (165).

«وفي حدود تسعين وخمسمائة» (166) توفي الشيخ الصالح القطب أبو مدين شعيب بن الحسين (167) الأندلسي ببلد تلمسان بالموضع المعروف بالعباد ودفن هنالك» (168).

«ولما انقضت مدة الهدنة» (169) ولم يبق سوى القليل خرجت طائفة من الافرنج في جيش كثيف إلى بلاد المسلمين فنهبوا وسبوا وعاثوا عيثاً فظيعاً ، فانهى الخبر إلى الأمير يعقوب وهو بمراكش ، فتجهز لقصدهم [في] جحفل عرمرم من قبائل العرب والموحدين ، واحتفل وجاز إلى الأندلس ، وذلك في سنة احدى وتسعين وخمسمائة» (170) ، «فعلم الافرنج به فجمعوا خلقاً كثيراً من أقاصي بلادهم» (171) «وقصدوه فبلغ الأمير يعقوب خبر مسيرهم ، وكثرة جموعهم ، فما هاله ذلك ، وجدّ في السير نحوهم ، حتى التقوا في شمال قرطبة على قرب قلعة رباح» (172) في مرج الحديد وفيه نهر يشقه وعبروا إلى منزلة الافرنج وصافهم وذلك في يوم الخميس التاسع (174) من شعبان سنة احدى وتسعين وخمسمائة» (175) واقضى في ذلك أثر أيه وجدّه ، انهما كانا أكثر ما يصفون يوم الخميس ، ومعظم حركاتهم في صفر ، ووقع القتال وبرزت الأبطال

(165) الوفيات 4/7 .

(166) 1194 م .

(167) في تاريخ الدولتين ص 16 : «الحسن» .

(168) نقل حرفي من تاريخ الدولتين ص 16 وانظر الاستقصا 187/2 وفيه أنه توفي سنة 572 ولعله تحريف عن 92 وذكر الاستقصا في ص 189 أنه توفي سنة 594 وهو التاريخ الصحيح ، وهو الذي ذكره ابن قنفذ القسنطيني

في الوفيات (الجزائر) 146 .

(169) في الأصول : «المهديّة» والمثبت من الوفيات 4/7 .

(170) 1194 - 1195 م .

(171) الوفيات لابن خلكان 4/7 - 5 .

(172) في الأصول : «رياح» والمثبت من الوفيات 8/7 .

(173) كذا بالأصول والوفيات ، «وفحص الحديد» في المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي كان موجوداً سنة 621 . تحقيق محمد سعيد الريان ومحمد العربي العلمي . القاهرة 1949/1368 ص 282 .

(174) في الأصول : «السابع» والمثبت من الوفيات التي ينقل عنها المؤلف .

(175) 19 جويلية 1195 م .

[251/أ] وصبرت الرجال ، فأمر الأمير يعقوب فرسان / الموحدين وأمرأء العرب أن يَحْمِلُوا ففعلوا ، وانهمز الافرنج وعمل فيهم السَّيف فاستأصلهم قتلاً ، وما نجا⁽¹⁷⁶⁾ ملكهم الا في نفر يسير ، ولولا دخول الليل لم يبق منهم أحد ، وغنم المسلمون أموالهم ، حتى قيل ان الذي حُمِلَ⁽¹⁷⁷⁾ لبيت المال من دروعهم ستون ألف درع ، وأما الدَّواب على اختلاف أنواعها فلم يحصى لها عدد ، ولم يسمع في بلاد الأندلس بكسرة مثلها⁽¹⁷⁸⁾ .

ومن عادة الموحدين أنهم لا يأسرون مشركاً محارباً ان ظفروا به ولو كان ملكاً عظيماً ، بل تُضْرَب رقابهم قُلُوباً أو كثروا ، فلما أصبح جيش المسلمين اتبعوهم فألقوهم قد أخذوا⁽¹⁷⁹⁾ قلعة رباح لما داخلهم من الرّعب ، فلحقها الأمير يعقوب وجعل فيها والياً وجيشاً ، ولكثرة ما حَصَلَ له من الغنائم لم يمكنه الدّخول إلى بلاد الافرنج في ذلك الوقت ، فعاد إلى مدينة طُليطلة وحاصرها وقَاتَلَهَا أَشَدَّ الْقِتَالِ ، وقطع أشجارها وشن الغارات على بلادها ، وأخذ من أعمالها حصوناً كثيرة وقتل رجالها وسبى حريمها وخرّب مبانيها وهَدَم أسوارها ، وترك الافرنج في أسوء حال ، ولم يبرز إليه أحد من المقاتلة .

ثم رجع إلى اشبيلية وأقام بها إلى سنة ثلاث وتسعين⁽¹⁸⁰⁾ ، فعاد إلى بلاد الافرنج مرّة ثالثة ، وفعل بها كفعله المتقدم ، فلم يبق للافرنج قدرة على لقائه وضاعت عليهم الأرض بما رَحَبَتْ ، فأرسلوا إليه يلتمسون الصّـلح ، فأجابهم إلى ذلك لما اتصل به من أخبار يحيى بن اسحاق⁽¹⁸¹⁾ / الميورقي ابن غانية لما دخل افريقية عند اشتغال الأمير يعقوب بجهاد الأندلس ثلاث سنين ، فأوقع الصلح بينه وبين ملوك الافرنج بالأندلس

[251/ب]

(176) في ش : « نجى » .

(177) في الوفيات : « حصل » .

(178) وهذه الواقعة تعرف بوقعة الارك . قال عبد الواحد المراكشي في « المعجب » ص 283 : « وكانت هذه الهزيمة اختا لهزيمة « الزلاقة » » وسيدكرها المؤلف بعد قليل .

(179) في الأصول : « دخلوا » .

(180) 1196 - 1197 م .

(181) في الوفيات : « علي بن اسحاق » وعلي هو أخ يحيى ، وجاء في رحلة التجاني : « وفي مياومة الفاضل ابن اليبساني أن الخبر وصلهم في جمادى الاخرى من سنة خمس وثمانين ان يحيى بن اسحاق الميورقي وأبا زياد المغربي دخلا إلى جزيرة باشو بقرب من تونس واستأصلا أهلها فانتقلوا إلى تونس ودخلوا حفزة عراة فأت منهم بالجوع والبرد والافتقار نحو اثني عشر ألفا ، هكذا ذكر الفاضل ان ذلك من فعل يحيى بن اسحاق وفي الحديث المتقدم ان ذلك من فعل علي بن اسحاق أخيه فيمكن أن تكون قضية واحدة وقع الغلط في نسبتها ويمكن أن تكونا قضيتين وهذا هو الظاهر فان سنة اثنين وثمانين على ما ذكر ابن شدّاد انما كان الأمر فيها لعلي ابن اسحاق وبعده ولي أخوه يحيى والله أعلم » ص 14 - 15 .

جميعهم على ما اختاره لمدة خمس سنين ، ثم عاد إلى مراكش في أواخر سنة ثلاث وتسعين ، ولما وصل إليها أمر باتخاذ الأحواض والروايا⁽¹⁸²⁾ وآلة السفر للتوجه إلى بلاد إفريقية ، فاجتمع إليه أشياخ⁽¹⁸³⁾ الموحدين وقالوا له : يا سيدنا قد طالت غيبتنا بالأندلس ، فمنا من له خمس سنين ومنا من له ثلاث سنين وغير ذلك ، فتنعم علينا بالمهلة هذا العام وتكون الحركة سنة خمس وتسعين ، فأجابهم إلى سؤالهم وانتقل إلى مدينة سلا⁽¹⁸⁴⁾ وشاهد ما فيها من المنتزهات المعدة له ، وكان قد بنى بالقرب منها مدينة عظيمة سماها «رباط الفتح» على هيئة الاسكندرية في اتساع الشوارع وحسن التقسيم واتساع البناء وتحسينه وتحسينه ، وبنها على البحر المحيط الذي هناك ، وهي على نهر سلا⁽¹⁸⁴⁾ مقابلة لها من البر⁽¹⁸⁵⁾ ، وطاف تلك البلاد وتنزه فيها ثم رجع إلى مراكش⁽¹⁸⁶⁾ .

ابن خلكان⁽¹⁸⁷⁾ «ثم بعد هذا اختلفت الروايات في أمره فمن الناس من يقول إنه ترك ما كان فيه وتجرد وساح في البراري وانتهى إلى بلاد المشرق وهو مستخف لا يعرف ، ومات خاملاً ، ومنهم من يقول أنه رجع إلى مراكش كما ذكرنا ، وتوفي في غرة جمادى الأولى وقيل في شهر ربيع الآخر سنة / خمس وتسعين وخمسمائة بمراكش ، ولم ينقل شيء من أحواله بعد ذلك إلى حين وفاته ، وكانت ولادته يوم الأربعاء رابع عشر ربيع الأول سنة أربع وخمسين وخمسمائة⁽¹⁸⁸⁾ .

وقال ابن الخطيب⁽¹⁸⁹⁾ «لما تم له ما أراد من تهديد بلاد إفريقية صرف عنانه إلى الجهاد بالأندلس فأجاز البحر ، واحتل اشيلية⁽¹⁹⁰⁾ ، ولحقت به ارسال طاغية الروم ،

(182) في ط : «الروايات» ، وفي ش : «الروايات» .

(183) في الوفيات : «مشايخ» .

(184) في الأصول : «سلى» .

(185) في الوفيات : «البر القبلي» 9/7 .

(186) الوفيات 8/7 - 9 .

(187) ما سيذكره ابن خلكان في خصوص موت المنصور لا أساس له من الصحة ، بل توفي بقصره في مراكش في 22 ربيع الثاني سنة 595 . انظر مثلاً تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين تأليف يوسف أشباح ترجمة محمد عبد الله عنان ، القاهرة 1941/1360 ، 90/2 ، ويقابله بالسيحية 22 مارس 1199 م . وقال الزركشي : «اختلف في موته ... ثم توفي في ليلة الجمعة الثانية والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وتسعين» .

(188) الوفيات 9/7 - 10 .

(189) في رقم الحلل . أنظر أيضاً الاستقصا 168/2 .

(190) في الأصول : «باشيلية» .

فصرفهم وعرض الجيش ، وأخذ في التقرب بالقرب إلى الله بين يدي جهاده فاستبرأ⁽¹⁹¹⁾ السُّجون وأدَّر الأرزاق ، وعَيَّن الصَّدقات ، ورحل ونزل الأرك⁽¹⁹²⁾ وقد خيَّم بأحوازها محلات العدو يضيق عنها المتسع⁽¹⁹³⁾ ، وقام بعد أن اجتمع النَّاس فتحلل من المسلمين ، وقال : اغفروا لي فيما عسى أن يكون صَدْرَ مني ، فبكى النَّاس ، وقالوا منكم يطلب الرضا والغفران ، وخطب الخطباء بين يديه مُحَرِّضِينَ ، فَشَطَّ النَّاسُ ، وطابت النفوس ، ومن الغد صدع بالنداء وأخذ السَّلاح والبروز إلى اللقاء ، فكانت التعبئة تحت الغلس ، وكان اللقاء فسال العدو على المسلمين كالبحر ، فزلزل مسيرة المسلمين ، وعند ذلك أمر المنصور بالهجوم على العدو ، فاختلف الفريقان واعتراكا ، وصدقت حملات المسلمين ، حتى أخلت مراكز العدو ، فولوا الأدبار ضحى يوم الأربعاء التاسع من شعبان⁽¹⁹⁴⁾ عام واحد وتسعين وخمسمائة⁽¹⁹⁵⁾ ، وانتهت محلات العدو وانجلت المعركة عن حصيد من القتلى لا يحصى عدده ، فذكر المقلل / أنه بلغ ثلاثين ألفاً ، وصرف وجهه عزيزاً ظافراً رحمه الله . وفي الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وتسعين توفي⁽¹⁹⁶⁾ المنصور ودُفِنَ بمجلس سكناه من مراکش ، وكذب العامة بموته ولوعا وتمسكا به فادعوا أنه ساح في الأرض» اهـ .

[252/ب]

وكان⁽¹⁹⁷⁾ رحمه الله ملكاً جواداً عادلاً متمسكاً بالشرع المُطهر ، يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر من غير محاباة ، ويصلي بالناس الصَّلوات الخمس ، ويلبس الصُّوف ويقف للمرأة والضعيف ويأخذ لهم بالحق ، ابن خلكان⁽¹⁹⁸⁾ : أوصى أن يدفن على قارعة الطريق ليرحم عليه من يمرَّ به قال : وسمعت عليه حكاية يليق أن أذكرها هنا ، وهي أن الأمير الشيخ عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكرياء يحيى [بن عبد الواحد]⁽¹⁹⁹⁾ صاحب افريقية كان قد تزوج أخت الأمير المذكور ،

(191) في الأصول : «اسبرأ» .

(192) Alarcos وفي الأصول : «الارك» .

(193) في الأصول : «فضيق المتسع» .

(194) في الأصول : «التاسع عشر من شعبان» والاصلاح من ابن خلكان وغيره وقد ذكر المؤلف هذه الواقعة بالتاريخ هذا عندما نقل أحداثها عن ابن خلكان .

(195) 25 جويلية 1195 م .

(196) لقد ناقش المؤلف تاريخ وفاة المنصور فيما سبق وإعادة هذا تكرار .

(197) النقل من ابن خلكان ، وفيات الأعيان 10/7 .

(198) بل يستمر في النقل . (199) اضافة من الوفيات .

وأقامت عنده ، ثم جرت بينهما مشاجرة⁽²⁰⁰⁾ فجاءت إلى بيت أخيها الأمير يعقوب ، فسير الأمير عبد الواحد في طلبها فامتنعت عليه ، فشكى الأمير عبد الواحد [ذلك]⁽²⁰¹⁾ إلى قاضي الجماعة بمرّاكش ، وهو القاضي [أبو]⁽²⁰²⁾ عبد الله محمد بن علي بن مروان ، فاجتمع القاضي المذكور بالأمير يعقوب وقال له : ان الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله ، فسكت الأمير يعقوب ، ومضى على ذلك أيام⁽²⁰³⁾ ثم ان⁽²⁰⁴⁾ الشيخ عبد الواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الأمير يعقوب بمرّاكش وقال : أنت قاضي المسلمين ، وقد طلبت أهلي فما جاؤوني⁽²⁰⁵⁾ فاجتمع القاضي بالأمير يعقوب / وقال له : يا أمير المؤمنين ، الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية ، فسكت الأمير يعقوب ، ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبد الواحد القاضي بالقصر وقد جاء إلى خدمة الأمير يعقوب فقال له : يا قاضي المسلمين ، قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة : أطلب أهلي وقد منعوني عنهم⁽²⁰⁶⁾ ، فاجتمع القاضي بالأمير يعقوب وقال له : يا مولانا قد تكرّر طلبه لأهله ، فاما أن تُسَيّر إليه أهله والا فاعزّلني من القضاء ، فسكت الأمير يعقوب ، وقيل إنه قال له : يا [أبا] عبد الله ما هذا الآجد كثير⁽²⁰⁷⁾ ، ثم استدعى خادماً وقال له في السرّ : تحمل أهل الشيخ عبد الواحد إليه (فحملت إليه)⁽²⁰⁸⁾ في ذلك النهار ولم ينهر القاضي ولا قال له شيئاً يكرهه ، وتبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لأوامره ، وهذه حسنة تُعدّ له وللقاضي أيضاً فانه بالغ في اقامة منار الشرع والعدل .

وكان الأمير يعقوب شدّد في الزام الرعية باقامة الصّلوات الخمس ، «وقتل [في] بعض الأحيان على شرب الخمر ، وقتل العمّال الذين تشكوا الرّعايا⁽²⁰⁹⁾ منهم ، وأمر برفض فروع الفقه ، وأن العلماء لا يفتون الآ بالكتاب والسنة⁽²¹⁰⁾ ، ولا يقلّدون أحداً من

(205) في الأصول : «جاءتني» .

(206) كذا في ط والوفيات ، وفي ش : «عنها» .

(207) في الوفيات : «كبير» .

(208) ساقطة من ش .

(209) في ش : «الرعاية» .

(200) الوفيات : «منافرة» .

(201) اضافة من الوفيات .

(202) اضافة من الوفيات .

(203) في ش : «أياماً» .

(204) ساقطة من ش .

(210) أمر باحراق كتب المذهب المالكي كالدونة وتهذيب المدونة والواضحة وكان قصده نحو المذهب المالكي واحلال المذهب الظاهري محله ، وكان أبوه وجده يسيران في هذا الطريق الا أنّهما لم يخطوا هذه الخطوة ، وشجع على طلب علم الحديث ، ونالوا ما لم ينالوا في أيام أبيه وجده . انظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ، ص 78 و 280 .

الأئمة المجتهدين المتقدمين ، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والسنة والاجماع والقياس .

قال : وقد أدركتنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا إلينا إلى البلاد وهم على ذلك الطريق مثل أبي الخطاب بن دحية وأخيه أبي عمر ومحيي الدين ابن العربي⁽²¹¹⁾ / نزيل دمشق وغيرهم . [253/ب]

وكان يعاقب على ترك الصلاة ويأمر بالنداء في الأسواق بالمبادرة إليها ، فن غفل عنها واشتغل بمعيشته يعززه⁽²¹²⁾ تعزيراً هليغاً .

وكان قد عظم ملكه واتسعت دائرة سلطته حتى لم يبق يجمع أقطار المغرب من البحر المحيط إلى برقة إلا من هو على طاعته وداخل في ولايته ، إلى غير ذلك من جزيرة الأندلس وكان محسناً محباً للعلماء مقرباً للأدباء مصغياً إلى المدح مثبباً عليه . وإلى الأمير يعقوب تنسب الدنانير اليعقوبية المغربية .

وكان قد أرسل إليه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رسولاً من بني منقذ في سنة سبع وثمانين وخمسائة⁽²¹³⁾ يستنجده على⁽²¹⁴⁾ الافرنج الواصلين من بلاد المغرب إلى الديار المصرية وساحل الشام ، ولم يخاطبه بأمر المؤمنين بل خاطبه بأمر المسلمين ، فعز عليه ذلك ، ولم يجبه إلى ما طلبه⁽²¹⁵⁾ منه .

«ولما⁽²¹⁶⁾ حضرت الوفاة الأمير يعقوب وقضى نحبه بايع الناس ولده أبا عبد الله محمد بن يعقوب وتلقب «بالتناصر» (فاستوزر الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص)⁽²¹⁷⁾ واتصل⁽²¹⁸⁾ به ما فعل الميورقي ، فنهض إلى إفريقية وهزم الميورقي - كما يأتي ان شاء الله تعالى - ثم تحرك إلى جزيرة الأندلس (فلم يرزق فتحاً بل كانت الهزيمة

(211) في الأصول : «محيي الدين المغربي» والمثبت من وفيات الأعيان لابن خلكان 11/7 .

(212) يقصد يؤنبه .

(213) كذا في ابن خلكان ويوافقها بالملادي 1191 م وفي الاستقصا سنة 585 ، وفي الروضتين لابي شامة المقدسي سنة 586 ، انظر الاستقصا والتعليقات عليه 163/2 .

(214) قال ابن خلدون : «وفي هذا دليل على اختصاص ملوك المغرب يومئذ بالأساطيل الجهادية ، وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد بها» ، الاستقصا 163/2 - 164 .

(215) وفيات الأعيان بتصرف يسير 10/7 - 11 .

(216) انتقل إلى صفحة 15 من نفس المرجع .

(217) زيادة عما هو موجود بالوفيات ، ونقلها المؤلف عن تاريخ الدولتين ص 17 .

(218) في ط : «وامتثل» .

عليه⁽²¹⁹⁾ وتسمى وقعة العقاب⁽²²⁰⁾ سنة تسع وستائة⁽²²¹⁾.

المنتصر بالله :

« ثم ولي بعده ولده أبو يعقوب يوسف بن محمد ابن الأمير يعقوب ويلقب « بالمنتصر بالله »⁽²²²⁾ ولم يكن في بني عبد المؤمن أحسن منه / وجهًا ، ولا أبلغ في المخاطبة »⁽²²³⁾ فتولّى وسنه عشرة أعوام⁽²²⁴⁾ وغلب عليه وزيره ابن جامع ومشیخة الموحدين فقاموا بأمره وبقي مشغوفًا براحته⁽²²⁵⁾ فضعفت الدولة بخروج بني مَرّين - كما يأتي خبرهم - . ونزل الافرنج⁽²²⁶⁾ تونس على عهده فظهر من صَبْرِهِ وشدة جلاده ما طال به الحديث حتى انصرفوا ، ومات سنة عشرين وستائة⁽²²⁷⁾ ، ولم يخلف ولدًا .

العاذل :

« فاتفق⁽²²⁸⁾ أرباب الدولة على تولية أبي محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن⁽²²⁹⁾ لكبر سنه ، فلم يحسن التدبير ، ولا دارى⁽²³⁰⁾ أهل دولته فخلعوه وخنقوه

(219) زيادة عما هو موجود بالوفيات .

(220) بكسر العين ، هي من الوقائع الحاسمة في حركة الاسترداد الاسبانية المسيحية وفي انحسار المد الإسلامي من الأندلس ، وقد توالى بعدها الهزائم على المسلمين إلى أن أجلاوا من الأندلس ، والعقاب تسمى بالافرنجية Las Nas de Tolosa وبعد هذه الواقعة وموت الخليفة الناصر سارت الدولة الموحدية بخطى سريعة نحو الانحلال والاضمحلال بسبب تنازع الأسرة الخلافة على السلطة .

(221) 1212 - 1213 م .

(222) اتبعت «ش» في ذلك تاريخ الدولتين للزركشي . وفي الاستقصا والحلل السندسية «المنتصر» أيضًا ، وفي ط

وتاريخ ابن خلدون والوفيات : «المنتصر» واعتمد شارل جوليان في تاريخ شمال افريقيا 118/2 «المنتصر» .

(223) في الأصول : «المخاصمة» والمثبت من الوفيات من ترجمة الخليفة أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن 16/7 .

(224) وهو ابن ست عشرة سنة ، الاستقصا : 202/2 .

(225) «واشتغل عن تدبير الأمر والجهاد بما يقتضيه الشباب» نفس المصدر ، وتاريخ ابن خلدون 524/6 .

(226) لم يذكر أحد من المؤرخين نزول الافرنج تونس في عهد الخليفة المنتصر الموحدى ، ولا ندري على ما اعتمد المؤلف .

(227) 1223 م . (228) رجع إلى النقل من وفيات الأعيان 16/7 .

(229) هو أخو المنصور وهو المعروف بالملخوع ، تاريخ الدولتين ص 20 وكتاب المعبر 525/7 .

(230) في الأصول : «دارا» .

بعد تسعة أشهر من ولايته⁽²³¹⁾، وكان يوم ولايته أبو محمد عبد الله ابن الأمير يعقوب المذكور بالأندلس، فامتنع بِمُرْسِيَّة، ورأى أنه أولى بالأمر من عبد الواحد، وخرج إلى ما في جهته من بلاد الأندلس فاستولى عليها بغير كلفة وتلقب «بالعادل»، فلما خيّن عبد الواحد بمراكش، ثارت الافرنج بالأندلس على العادل وتوافقوا⁽²³²⁾، فانهزم أصحابه هزيمة شنيعة وهرب هو فركب البحر يريد مراكش، وخلف باشبيلية أخاه أبا العلاء⁽²³³⁾ ادريس ابن الأمير يعقوب، وقاسى⁽²³⁴⁾ العادل شداً في طريقه إلى مراكش [من العربان]⁽²³⁵⁾.

«ثم⁽²³⁶⁾ خلع العادل واقتحم عليه القصر وانتهبوه، وقتل العادل خنقاً في الثاني والعشرين من شوال سنة أربع وعشرين وستمائة⁽²³⁷⁾ فكانت مدته من حين بويج بمرسية ثلاث سنين وثمانية أشهر وعشرة أيام».

المعتصم:

«وبويج بعده بمراكش أبو زكرياء يحيى بن الناصر ولقب «المعتصم»⁽²³⁸⁾» وكان اذ ذاك كما بقل⁽²³⁹⁾ / وجهه (غير أنه)⁽²⁴⁰⁾ لم يُجَرَّب الأمور، ولم يلبث إلا أياماً قلائل حتى ورد الخبر من الأندلس أن أبا العلاء⁽²⁴¹⁾ ادريس ابن الأمير يعقوب ادعى الخلافة لنفسه باشبيلية وبايعه أهل الأندلس، ولقب «المأمون»، قال أمر المعتصم إلى أن حصره العرب بمراكش وهزموا عسكره مرة بعد أخرى، حتى ضجر منه أهل مراكش وتشاءموا به وأخرجوه، فهرب إلى جبل دَرَن، ثم أرسل في الباطن جماعة من أهل مراكش ليعود إليها ويقتل من بها من (العربان)⁽²⁴²⁾ أعوان المأمون، فحضر إليها وقتل المذكورين.

[254/ب]

(231) الوفيات 16/7.

(232) وفيات الأعيان التي ينقل عنها المؤلف: «وتوافقوا» 16/7 والصحيح توافقوا.

(233) في الأصول: «العلي» وفي الوفيات: «العلاء»، والمثبت من تاريخ الدولتين ص 22.

(234) في ش: «وقاس».

(238) تاريخ الدولتين ص 22.

(235) وفيات الأعيان 16/7.

(239) كذا في ط والوفيات، وفي ش: «نفل».

(236) رجع إلى النقل من تاريخ الدولتين ص 21.

(240) في الوفيات: «غير كم» 16/7.

(237) 5 أكتوبر 1226 م.

(241) في الأصول: «العلي».

(242) زائدة عن الوفيات التي ينقل عنها المؤلف.

المأمون ومن ولي بعده إلى نهاية الدولة الموحدية :

وجاء أبو العلاء⁽²⁴¹⁾ المأمون من الأندلس ، وقد خرج عليه بها الأمير محمد بن يوسف بن هود الجذامي ، ودعا بنفسه لبني العباس فقال إليه الناس ورجعوا عن المأمون ، فلما انتهى المأمون إلى مراكش وجد بها المعتصم ، فتواقفا فانهزم المعتصم إلى الجبل فاستولى المأمون على مراكش .

فجمع⁽²⁴³⁾ المعتصم رجالاً وقصد المأمون بمراكش فهزمه المأمون مراراً وضعفت جماعته ، فألحقت الضرورة إلى الاستجارة بقوم في حصن بجبهة تلمسان⁽²⁴⁴⁾ وكان لغلام منهم ثأر بأبيه فرصده يوماً وهو راكب فطعنه فقتله ، واستبد المأمون بالأمر .

وكان شجاعاً حازماً صارماً فتاكاً⁽²⁴⁵⁾ «استدعى الأشياخ وأهل الرأي من الموحدين واستظهر عليهم بعهودهم التي نبذوها واستفتى من حضر بمشهد منهم فأفتى الفقهاء بحكم الله فحمل عليهم السيف وأبادهم ، وظهر له⁽²⁴⁶⁾ أن يطمس أثر دعوة / المهدي فحما اسمه من السيكة ، وأعاد شكل الدرهم إلى معناه ، ولعنه فوق المنبر ، ولما قفل من حركته التي دوخ بها المغرب إلى مراكش بوادي العبيد⁽²⁴⁷⁾ أدركه المرض فأسرعوا به ثم مات المأمون في الغزو حتف أنفه «قيل سنة ثلاثين وستائة⁽²⁴⁸⁾ ، وأخفى ولده موته حتى دبر أمره وبلغ مأمنه ، وهو أبو محمد عبد الواحد بن المأمون ، ولُقِبَ الرشيد ، فتقدم بعد موت أبيه وغلب على أخيه الأكبر ، واستبد بالأمر ، وأعاد اسم المهدي في الخطبة ، فاستمال بذلك قلوب الناس ، فملك المغرب الأقصى ، وبعض الأندلس» ثم توفي سنة أربعين وستائة⁽²⁴⁹⁾ غريقاً ببركة من برك القصر وكنم حاجبه أمره حتى تولى بعده أخوه

(243) في ش «أجمع» .

(244) وكان يحيى بن الناصر لما نكت الخلط بيعته حتى يعرب معقل فأجاروه ووعدوه النصر ، وأشطوا في المطالب ، فأسف بعضهم بالمنع ، فاغتاله في جهة تازان وسبق رأسه إلى الرشيد بفاس (الاستقصا 2/219) تاريخ ابن خلدون 529/6 - 530 .

(245) وفيات الأعيان 16/7 - 17 .

(246) في ش : «لهم» .

(247) في تاريخ الدولتين : «بوادي أم الربيع» ص 26 .

(248) 1132 - 1133 م ، والنقل الآتي من الوفيات 17/7 .

(249) قالها ابن خلكان في شيء من التحفظ ، وقال : «قيل وكان إلى سنة إحدى وأربعين وستائة ملك المغرب الأقصى وبعض الأندلس» 17/7 .

لأبيه ويلقب السعيد وهو أبو الحسن علي بن ادريس⁽²⁵⁰⁾ ، ثم خرج إلى ناحية تلمسان ، وحاصر قلعة بينها وبين تلمسان مسافة يوم واحد ، فقتل هناك على ظهر فرسه في صفر سنة ست وأربعين وستائة⁽²⁵¹⁾ «- وفي هذه الواقعة ظهرت دولة بني زيان وقوي أمر بني مرين كما يأتي خبرهما - ان شاء الله تعالى -» .

وبعد وفاته تولى ابنه المرتضي أبو حفص عمر بن ابراهيم⁽²⁵²⁾ بن يوسف في شهر ربيع الآخر من السنة ، وفي الحادي والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستائة⁽²⁵³⁾ ، دخل الواثق أبو العلاء⁽²⁵⁴⁾ ادريس بن أبي عبد الله يوسف⁽²⁵⁵⁾ بن عبد المؤمن المعروف «بأبي دبوس» ، مراكش ، وهرب المرتضي إلى آزمور ، وهي من نواحي مراكش ، فقبض عليه عامله بها وبعث إلى الواثق بذلك / فأمر الواثق بقتله ، فقتله في العشر الأخير من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وستائة⁽²⁵⁶⁾ بموضع يقال له كتامة ، يبعد عن مراكش ثلاثة أيام .

[255/ب]

وأقام الواثق ثلاث سنين وقتل في الحرب التي كانت⁽²⁵⁷⁾ بينه وبين بني مرين⁽²⁵⁸⁾ ، ومنشأ هذه الحرب⁽²⁵⁹⁾ أن أبا دبوس لما كان المُلْك في يد المرتضي (هرب للملك بني مرين ، وانتدب إليه في اجتثاث أصل أبي حفص المرتضي)⁽²⁶⁰⁾ وعاهده على تسليم شطر ما يناله ، فعقد عليه الجيش ، وأصحبه إلى السلطان المرتضي في آخر عام أربعة وأربعين وستائة⁽²⁶¹⁾ فتغلب على الحضرة وفرَّ المرتضي ، فلما قُتِل استبدَّ أبو دبوس ،

(250) كذا بالوفيات ، وهو أدريس المأمون .

(251) كذا بالوفيات 18/7 ، وتاريخ الدولتين ص 31 . ماي جوان 1248 م .

(252) كذا بالوفيات التي ينقل عنها المؤلف ، وهو «ابراهيم اسحاق» أخ المنصور ، كتاب العبر 452/6 .

(253) 22 أكتوبر 1266 م .

(254) كذا بالأصول والوفيات وفي كتاب العبر : «أبو العلي» 547/6 .

(255) كذا بالوفيات 18/7 وفي كتاب العبر 547/6 «أبو العلي بن السيد أبي عبد الله محمد بن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن» .

(256) جانفي 1266 م .

(257) في ش : «الذي كان» .

(258) انتهى نقله من الوفيات 17/7 - 18 .

(259) عن هذه الحرب انظر ابن خلدون كتاب العبر 547/6 - 552 .

(260) ما بين القوسين ساقط من ط .

(261) 1247 م .

وخان عهد بني مرين فحاربوه بوادي اغفو⁽²⁶²⁾ ثاني شهر محرم فاتح سنة ثمان وستين وستائة⁽²⁶³⁾.

فلما بلغ خبر موته بايع الناس ولده عبد الواحد وخطب الجمعة واحدة من المحرم ، فرحف إليه أبو يوسف يعقوب المريني فخرج هارباً هو واخوته وبنو عمه وجميع الموحدين فنهبوا من ساعتهم فقتل وكانت مدته سبعة أيام⁽²⁶⁴⁾ ، وانقضت دولة بني عبد المؤمن فكان قتل عبد الواحد في المحرم سنة ثمان وستين وستائة تحت جبلها .
«وأما أبو دبوس فقتل بموضع بينه وبين مراكش مسيرة ثلاثة أيام في جهة الشمال منها»⁽²⁶⁵⁾.

واستولى بنو مرين على ملكهم والملك لله الواحد القهار ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ﴾⁽²⁶⁶⁾ . فكانت دولة عبد المؤمن وبنيه مائة سنة وأربعة وأربعين سنة / وأحد عشر شهراً وثلاثة وعشرين يوماً والله أعلم بغيه .

(262) في الأصول : «غفو» والمثبت من ابن خلدون 551/6 وفي الاستقصا : «دغفو» 24/2 .

(263) كذا في العبر . 1 سبتمبر 1269 م .

(264) في كتاب العبر «خمسة أيام» .

(265) كذا في كتاب العبر (سبتمبر 1269 م) . وبعدها في نص المؤلف : «فقتل يوم الجمعة غروب الشمس آخر يوم من ذي الحجة من سنة سبع وستين» أسقطناها اذ كيف يمكن محاربة بني مرين لأبي دبوس في محرم سنة 668 ويكون قتله في ذي الحجة سنة 667 ، وقد بويغ ابنه عبد الواحد في محرم لمدة خمسة أيام كما ذكر ابن خلدون والصحيح أن يعقوب بن عبد الحق استولى على مراكش في أوائل محرم سنة 668 أي اثر قتل أبي دبوس اذا اعتبرنا كلام ابن خلدون صحيحاً وفي الوفيات أيضاً قتل في سنة 668 هـ وأسقطناها أيضاً لأنه أعطى التاريخ الصحيح بعد أسطر .

(266) سورة آل عمران : 26 .

الباب الثاني

في فتح عبد المؤمن للمهدية والبلاد الساحلية
بعد استيلاء الافرنج عليها حسبما ذكره ابن الأثير
وغيره من أئمة التاريخ

أسباب احتلال الزمان للمهدية :

ذكر التجاني في رحلته⁽¹⁾ : « ان يحيى بن تميم الصنهاجي تولى بعد وفاة أبيه تميم سنة احدى وخمسمائة⁽²⁾ فكان مما حدث في أيامه من الأسباب المؤدية إلى تغلب النصاري على المهدية التغلب الثاني الذي أدى إلى انقراض دولة صنهاجة منها أن نصرانياً اسمه جرجير الأنطاكي⁽³⁾ ، كان قد هاجر إلى تميم من المشرق ، وكان قد عرف لسان العرب وبرع في الحساب وتهذب بالشام بأنطاكية وغيرها ، فحكّمه تميم في دخله وخرجه ، وجعل مصارف الأموال إلى نظره فصارت أموال المسلمين كلّها في يده وأيدي أقاربه ، وكان في غاية الاتّساع من الأموال ، فلمّا مات تميم خاف هذا النصراي من يحيى فكاتب لجار صاحب صقلية ، وأعلمه أنه يُحبّ الانتقال إليه ، (فوجه لجار إليه)⁽⁴⁾ قطعة أظهرت أنها وصلت في رسالة ، فخرج هذا النصراي وأقاربه في يوم جمعة⁽⁵⁾ عند اجتماع الناس للصلاة ، وتزيّوا بزّي البحرين ، فطلعوا فيها ، وتمّ لهم أمرهم ، فلم يفتن الناس لهم الاّ وقد أقلعوا ، ولما وصلوا إلى صقلية حكّمهم عبد الرحمان النصراي صاحب أشغالها⁽⁶⁾ في الجبايات فنصحوا وأظهروا نصحتهم ، واحتاج لجار أن يوجه رسولاّ إلى مصر فأشار عليه⁽⁷⁾ عبد الرحمان النصراي بـجرجير هذا فأرسله ونصح وأقبل بذخائر ملوكية أحفظته عند لجار .

(1) رحلة التجاني بتصرف يسير ص 333 - 334 .

(2) 1107 - 1108 م .

(3) كذا في الأصول وفي رحلة التجاني ، وفي كتاب العبر 344/6 والكامل لابن الأثير 126 : « جرجي » .

(4) في الأصول : « فجهز في » والمثبت من الرحلة ص 333 .

(5) كذا في ط والرحلة ، وفي ش : « الجمعة » .

(7) في الأصول : « إليه » .

(6) أي وزير ماليتها .

ثم مات يحيى بن تميم بالمهدية سنة تسع وخمسمائة⁽⁸⁾.

وولي بعده ابنه علي بن يحيى / فوَقعت الوحشة بينه وبين لُجار بسبب السَّفينة التي أنشأها رافع بن مكّي بن كامل بقابس حيث منعه منها علي ، فاستنصر رافع بلجار فوَقعت المقاتلة بين أسطول علي وأسطول لُجار بسببها⁽⁹⁾.

«وأصل⁽¹⁰⁾ رافع هذا ، أن قابس خالفت على تميم إلى طاعة العرب القادمين من مصر على المعز حين تغلبوا على بعض البلاد ، فوليا منهم مكّي بن كامل بن جامع ، ثم وليها بعد ابنه رافع بن مكّي فتوفي تميم ورافع هذا متولي قابس ، ثم ولي يحيى بن تميم فصالحه وداراه طول حياته ، ولما توفي يحيى وتولى بعده ابنه علي ، أنف من مصالحة رافعا .

وكان يحيى يحتمل⁽¹¹⁾ لرافع أمورا منها : أن رافعا أنشأ بساحله⁽¹²⁾ سفينة أعدها لما يعرض له في البحر من الأمور ، فلم يظهر يحيى انكارا لذلك ، بل أعانه عليها وأمدّه بما احتاج إليه فيها ، فلما ولي أنف من ذلك وكره أن يقاومه أحد من أهل إفريقية في اجراء السفن في البحر ، فأنفذ أسطولا إلى قابس يمنع هذه السفينة من الاقلاع وأخذها ان أقفلت ، وعلم بذلك رافع فكتب للجار يسأله الاعانة على علي ، ويخبره [أنه]⁽¹³⁾ انما أنشأ السفينة لهدية يجب أن يهديها إليه ، فبعث لُجار أسطولا ضخما إلى قابس لنصرة رافع ، فلما بلغ ذلك عليا جمع رجال دولته واستشارهم في ذلك فكلهم أشار⁽¹⁴⁾ عليه باسترجاع أسطوله والتغاضي عن رافع في هذه المسألة حفظا لما بينه وبين لُجار من المصالحة ، فرأى علي أن عليه وهنا في ذلك ، فأمر بقية أسطوله فأخرج في الحين ووجهه إلى قابس فوجدوا الروم قد نزلوا / من قطعهم لضيافة أعدّها رافع لهم ، فلم يرعهم الا وصول الأسطول ، فبادروا إلى قطعهم فغلبهم المسلمون على أكثرها وقتلوا منهم جماعة كبيرة⁽¹⁵⁾ ، ثم ان رافعا خرج إلى القيروان .

وملك قابس بعده محمد بن رشيد - مصغر راشد ، وهو من بني جامع - وغلب على دولته مولاة يوسف ، فاتفق أن يخرج محمد من قابس لحرب عدو له وترك أحد بنيهِ نائباً عنه فطرده يوسف ، واستولى على المدينة ، وانتسب إلى طاعة لُجار ، فقام عليه أهل

(12) بساحل قابس .

(13) اضافة من الرحلة يقتضيها الاملاء .

(14) في الأصول : «أشاروا» .

(15) في ش : «كثيرة» .

(8) 1115 - 1116 م .

(9) الرحلة ص 333 - 334 .

(10) انتقل إلى صفحة 97 منها .

(11) في الأصول : «يحتمل» .

قابس ودفعوه إلى العرب فعذبوه عذاباً شديداً وقطعوا مذاكره لأنهم نسبوه للتعرض لحرم مولاه ، وكان ليوسف أخ اسمه عيسى ففرّ إلى صقلية مستنصراً بطاغيها ، وزعم أن أخاه إنما فعل ما فعل لأنه منتسب إلى طاعته ، فأخرج لجار أسطوله لحصار قابس فحاصرها مدة ثم رجع⁽¹⁶⁾ ، فهذا ما كان من أحد الأسباب الموجبة لوحشة لجار الخبيث مع علي بن يحيى .

ثم إنه «وصل⁽¹⁷⁾ باثر ذلك رسول لجار إلى علي يقتضي أموالاً كثيرة كانت تثقت له بالمهدية ، وكان علي عند تلك الوحشة أمسك وكلاءه فسرّحهم له علي ووجههم إليه بأمواله ، فلما وصلت إليه وجّه رسولاً ثانياً بمكاتبة فيها إغلاظ وتهديد وتقصير على العادة وإساءة أدب ، فأغضب ذلك علياً وصرف رسوله دون جواب ، وبلغ علياً أن النصراني يتهده ويتوعده فأمر باستجداد الأساطيل والاستعداد لقتاله ، / فأنشأ أسطولاً قويت الأنفس به ، ولم تزل الفتنة متأكدة بينهما إلى أن مات علي وولي بعده ابنه الحسن ، فكتب أمير المثلثين بالمغرب علي بن يوسف بن تاشفين ، واتفق باثر ذلك أن وصل أسطول علي بن يوسف مع قائده علي بن ميمون إلى بلاد لجار ، فاستفتح منها حصوناً وسى منها سبايا كثيرة ، فلم يشك النصراني أن الباعث لعلي بن يوسف على ذلك إنما هو الحسن ، فاستجاش من كان قبّله وحشد أجناده ومقاتليه ، وبالغ في كتم أمره بمنع السفر إلى سواحل المسلمين ، ولم يخف عن الحسن مقصده وخشي أن يطرق بلاده دون تأهب له فأمرهم باتخاذ الأسلحة وتشديد الأسوار واستقدام القبائل من العرب وغيرهم للجهاد ، فوصلت الحشود إليه من كل جهة ونزلت الأعراب بظاهر المهدية .

[257/ب]

احتلال الزمان للمهدية :

فلما كان يوم السبت لخمس بقين من جمادى الأولى سنة سبع عشرة وخمسمائة⁽¹⁸⁾ وصل أسطول لجار إلى المهدية فأرسل بالجزيرة المعروفة هناك «بجزيرة

(16) عن أمراء بني جامع وأمراء المهدية من سلالة المعز بن باديس ورجار ملك صقلية أنظر رحلة التجاني ص 97 - 98 عند الكلام عن قابس ، ومنه نقل المؤلف نصه بتصرف .

(17) عاد إلى النقل مما ذكره التجاني عن المهدية ص 334 .

(18) 21 جويلية 1123 م .

الأحاسي»⁽¹⁹⁾ وهي على عشرة أميال من المهدية ، ونزل قائده عبد الرحمان وجرجير إلى الجزيرة ، وضربت لهما ولقديمي الافرنج مضارب هنالك ، وكان وصولهم آخر النهار فخرج منهم إلى البر تلك الليلة خلق كثير وانبسطوا حتى بعدوا عن البحر أميالاً ثم عادوا إلى الجزيرة ، ووصل القائدان في اليوم الثاني في البحر في بعض / قطعهم إلى المهدية [258/أ] فأطافا بها وانتبها إلى ساحل زويلة فهالهما⁽²⁰⁾ ما رأيا بالأسوار والسواحل من الناس وانصرفا عائدين إلى الجزيرة ، فوجدا طائفة من العرب ومن الأجناد قد دخلوا إليها وكشفوا من كان بها من الروم عن مواضعهم ، وقتلوا منهم قوماً وانتهبوا أسلحتهم .

فلما كان اليوم الثالث تمكن النصاري من القصر المعروف بقصر الديماس ، وحصل به زهاء⁽²¹⁾ مائة منهم باعانة بعض الأعراب لهم على ذلك لما مناهم به عبد الرحمان وصاحبه ، وقد كان لجار أمرهما⁽²²⁾ بالتزول بجزيرة الأحاسي والتحليل في أخذ قصر الديماس بمباطنة العرب ثم الزحف من هناك في البر بالرجال والخيال إلى المهدية .

فلما كان اليوم الرابع اجتمع المسلمون وخرجوا من المهدية وكبروا تكبيرة واحدة راعت من في الجزيرة ، فظنوا أنهم داخلون إليهم فانهزموا إلى مراكزهم وقتلوا بأيديهم كثيراً من خيلهم ، ودخل المسلمون الجزيرة وليس بها أحد منهم فوجدوا فيها خيلاً وآلات وأسلحة أعجلهم الحرب عن حملها ، وأحاطوا بقصر الديماس يقاتلونه والأسطول في البحر يعاين ذلك ولا يستطيع اغاثته من في القصر لكثرة ما اجتمع في البر من عساكر المسلمين ، فلما علموا أنهم غير قادرين على انقاذ⁽²³⁾ من في القصر أقبلوا عائدين إلى صقلية ، وأقام المسلمون يقاتلون من حصل بقصر الديماس منهم إلى أن اشتد عليهم الحصار وفي ماؤهم وطعامهم فخرجوا منه ليلة الأربعاء لرايع عشر من جمادى الآخرة ، فتخطفتهم سيوف الأعراب / فقتلوا عن آخرهم .

[258/ب]

(19) هي جزيرة كائنة في عرض رأس الديماس على نحو 10 أميال شمال المهدية ، والاحاسي ج حسي أو حسا بمعنى بر في أرض رملية ، أرض صلبة مغطاة بالتراب حيث تتسرب إليها المياه وحيث يوجد الماء فيها بسهولة وفي عمق قليل . أنظر : بلاد البربر الشرقية في عهد الزيريين لهاذي روجي ادريس ، باريس 1962 ، 335/1 .

La Berbérie orientale sous les Zirides

(20) في ش : «أهالهما» .

(21) في ش : «زهي» .

(22) في ش : «أمرهم» .

(23) في الرحلة «استنقاذ» .

وهنئ الحسن بهذا الفتح ، ولم يدر ما تحت طيه من المحنة التي خصته وعمت المسلمين لسببه .

ولما أقلع الأسطول إلى صقلية خائبًا خاسرًا أغاظ بلجار ذلك ، ثم اتفق باثره أن وصل أسطول المثلث من المغرب وقائده محمد بن ميمون ، فعاث في بلاد بلجار وقتل وحمل نساءها سبيًا إلى بلاده ، وكان بلجار كلما وصله أسطول من المغرب إلى بلاده نسبه إلى الحسن فعزم العزم المصمم على غزو المهديّة وأنشأ في ظاهر الأمر بينه وبين الحسن صلحًا وفي نفسه ما فيها لتم خديعته ويتمكّن من مراده ، وكان بين الحسن وبين ابن عمّه يحيى ابن العزيز بن باديس بن المنصور بن الناصر بن علّناس⁽²⁴⁾ بن حماد صاحب بجاية من المخالفة ما أوجب أن بعث يحيى في هذه المدة لمحاصرته⁽²⁵⁾ بالمهديّة أسطولاً في البحر وجيشاً في البر ، قائده مطرف بن علي بن حمدون الفقيه ، فحصر المهديّة بحرًا وبرًا ونزل مطرف بن علي بجيشه بظاهر زويلة فاستمدّ الحسن لجار فأمدّه بأسطول ، فعلم مطرف بذلك فارتحل عن المهديّة مسرعًا ، وكانت للجار جواسيس بالمهديّة فكتبوا إليه يعلمونه أن بمرساها مراكب قد استوفت وسقها ، فأمر جرجير قائد الأسطول المتوجه للنصرة بالهجوم عليها وأخذها ففعل ذلك غدرًا وحملها إلى صقلية ، ثم هجم بعد ذلك على مرسى المهديّة فأخذ منها مركبًا كان الحسن قد احتفل به وشحنه بذخائر ملوكية ليوجه بها إلى الحافظ / العبيدي صاحب مصر وكان ذلك المركب يسمّى «نصف الدنيا» .

[1/259]

ولم يزل يرسل الغزو عليها بأساطيله والمقدم عليها جرجير المذكور وهو العارف بالمهديّة حاضرة وبأديّة ويضعفه بذلك إلى أن دخلت سنة ثلاث وأربعين .
وقال ابن الأثير⁽²⁶⁾ في سنة احدى وأربعين وخمسمائة⁽²⁷⁾ سار أهل قابس إلى بلجار مستعينين⁽²⁸⁾ به على ردّ محمد بن رشيد⁽²⁹⁾ وكان بين بلجار وبين الحسن بن علي صاحب

(24) في الأصول : «علقاس» والمثبت من رحلة التجاني ص 339 .

(25) في الأصول : «لمحاصرة المهديّة» والمثبت من رحلة التجاني ص 340 .

(26) باختصار كبير من الكامل لابن الأثير 118/11 - 129 في حوادث سنة 541 و 542 وحوادث سنة 543 .

(27) 1146 - 1147 م . (28) في ش : «مستعين» .

(29) معمر (الكامل) وفي ص 120 محمد ولعل معمر تحريف ، وفي تاريخ ابن خلدون 342/6 «محمد» وفي المؤنس :

«معمر» ومحمد ومعمر أخوان من أبناء رشيد بن كامل صاحب قابس ، وهم من بني جامع ، ولم يأت في ابن الأثير ولا في كتاب العبر أن أهل قابس استعانوا برجار على ردّ محمد بن رشيد الذي خرج من قابس بعد أن استبد مولى أبيه يوسف بها ، بل أن أهل قابس ثاروا على يوسف واستجاشوا عليه بالحسن صاحب المهديّة وولوا معمر بن رشيد فاستجار واستغاث برجار عليهم أنظر الكامل 120/11 .

المهديّة صلح وعهود إلى مُدّة ستين فلماً كانت سنة اثنتين وأربعين⁽³⁰⁾ زاد ما نزل بالنّاس من شدّة الغلاء الذي ابتدأ جميع بلاد المغرب من سنة سبع وثلاثين ، ففارق النّاس البلاد والقرى ودخل أكثرهم إلى جزيرة صِقِلِيَّة ، وأكل النّاس بعضهم بعضاً⁽³¹⁾ ، وكثر الموت في النّاس ، وكان لجار يتمنى الاستيلاء والتّغلب على بلاد إفريقية (فاغتم الفرصة وقدر أنه لم يبادر في هذه الشدّة لم يأت له مطلوب)⁽³²⁾ «زاد غيره فأضعف الغلاء أكثر جند الحسن ، وأهلك خيلهم ومع ذلك فكانت بقية العسكر في محاربة ابن خُرّاسان صاحب تونس عضداً لحزب بن زياد صاحب المعلّقة»⁽³³⁾ ، فلماً كانت سنة ثلاث وأربعين⁽³⁴⁾ «عمر»⁽³⁵⁾ أسطولاً كبيراً وأكثر من المراكب فبلغ نحواً من مائتين وخمسين شينياً⁽³⁶⁾ وقيل ثلاثمائة مركب مملوءة رجالاً وسلاحاً وقوّتاً⁽³⁷⁾ وسار الأسطول عن صِقِلِيَّة فوصل إلى جزيرة قَوْصَرَة ، فصادفوا بها مركباً وصل من المهديّة فأخذ / أهله وأحضروا بين يدي جرجير⁽³⁸⁾ فسألهم عن حال إفريقية ووجد في المركب قفص حمام فسألهم هل أرسلوا منها شيئاً فحلفوا أنهم ما أرسلوا شيئاً ، فأمر الرّجل الذي كان الحمام صحبته أن يكتب بخطه أنه لما وصلنا إلى جزيرة قَوْصَرَة وجدنا بها مراكب من صِقِلِيَّة فسألناهم عن الأسطول المخدول ، فذكروا أنه أقبل إلى جزائر القسطنطينيّة .

وأُطلِقَ⁽³⁹⁾ الحمام فوصل إلى المهديّة ، فانخدع الأمير حسن والنّاس ، وفرحوا بذلك وأراد جرجير بذلك أن يَصِلَ بَعْتَة ، ثم سار - وقدر وصولهم إلى المهديّة وقت

(30) 1147 - 1148 م .

(31) تعبير مجازي أقرب للعامة منه للفصحى وقريب من المثل الشعبي : «حوت ياكل حوت وقليل الجهد يموت» وما بالنص يعبر عن اشتداد الأزمة .

(32) في الكامل : «فاغتم رجار هذه الشدّة» 125/11 .

(33) رحلة التجاني 341 .

(34) 1148 - 1149 م .

(35) رجع إلى النقل من الكامل 125/11 .

(36) وشيبي بالفرنسية (Galère) وبالإيطالية (Galèra) أقدم أنواع السّفن وردت في التاج للزبيدي «الشونة» المركب المدد للجهاد في البحر وجاء في المستدرك «الشين» المركب الطويل . وفي العصور الوسطى كانت أهم القطع التي يتركب منها الأسطول الاسلامي انظر سعاد ماهر ، «البحرية في مصر الاسلامية» ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، ص 352 .

(37) في الأصول : «وقوة» .

(38) في الكامل 125/11 وفي كتاب العبر 344/6 «جرجي مقدم الأسطول» .

(39) في ش : «وأطلقوا» .

السحر - ليحيط بها قبل أن يخرج أهلها ، فلو تمَّ له ذلك لم يفلت من النَّاس أحد فقَدَّر الله عليهم بارسال ريح هائلة عاكستهم⁽⁴⁰⁾ ، فلم يقدرُوا على المسير الأَّ بالمقاذيف ، فطلع النَّهار ثاني صفر من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة⁽⁴¹⁾ قبل وصولهم ، فرآهم النَّاس ، فلما رآهم جرجير⁽⁴²⁾ ، وعلم أن الخديعة فاتته ، أرسل إلى الأمير حسن يقول : إنما جئت بهذا⁽⁴³⁾ الأسطول طالبًا ثار محمد بن رُشيد صاحب قابس ورَّده إليها ، وأما أنت فيينا وبينك عهد وميثاق إلى مدة ، ونريد منك عسكريًا يكون معنا .

فجمع⁽⁴⁴⁾ الحسن النَّاس من الفقهاء والأعيان وشاورهم ، فقالوا : نقاتل عدونا فان بلدنا حصين ، فقال : أخاف أن يتزل إلى البر ويحصرنا برًا وبحرًا ، ويحول بيننا وبين الميرة ، وليس عندنا ما يقوتنا شهرًا ، فنؤخذ قهْرًا ، وأنا أرى سلامة المسلمين من القتل والأسر خيرًا / من الملك ، وقد طلب مني عسكريًا لقابس ، فان فعلت فما يحلّ [260/أ] لي معونة الكفَّار على المسلمين ، وإن امتنعت يقول : انتقض ما بيننا من الصُّلح ، وليس يريد الأَّ أن يشبطننا حتى يحول بيننا وبين البر ، وليس لنا بقتاله طاقة ، والرأي أن نخرج بالأهل والولد ونترك البلد ، فن أراد أن يفعل كفعلنا فليبادر معنا ، وأمر في الحال بالرَّحيل وأخذ معه من حضره [وما] خف حمله ، وخرج النَّاس على وجوههم بأهاليهم وأولادهم وما خف من أموالهم وأثاثهم ، ومن النَّاس من اختفى عند النَّصارى وفي الكنائس ، وبقي الأسطول في البحر تمنعه الرِّيح من الوصول إلى المهديَّة إلى ثلثي النَّهار ، ولم يبق في البلد من عزم على الخروج أحد ، فوصل الافرنج ودخلوا البلد من غير مانع ولا مدافع ، ودخل جرجير⁽⁴²⁾ القصر فوجده على حاله لم يأخذ الحسن منه الأَّ ما خفَّ حمله من ذخائر الملوك وفيه جماعة من حظاياه ، ورأى الخزائن مملوءة من الذخائر النفيسة وكل شيء غريب قلَّ وجود مثله ، فختم عليه ، وجمع سراري الحسن في قصره⁽⁴⁵⁾ فكان ولاية صنهاجة من زيري إلى الحسن (مائة سنة وثمانين سنة من سنة احدى

(40) في ش : «ريح هائل عاسفهم» وفي ط : «عاصفهم» والمثبت من الكامل 126/11 .

(41) 22 جوان 1148 م .

(42) في الكامل «جرجي» وفي رحلة التجاني جرجير كما أشرنا .

(43) في ش «بهذه» .

(44) في ش «أجمع» وفي ط «اجتمع» والمثبت من الكامل .

(45) في الأصول «القصر» .

وستين وثلاثمائة⁽⁴⁶⁾ إلى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة⁽⁴⁷⁾ ، وكان بعض القواد أرسله الحسن إلى لجار برسالة ، فأخذ لنفسه وأهله منه أماناً ، فلم يخرج معهم ، ولما ملك جرجير المهدية⁽⁴⁸⁾ نهبت مقدار ساعتين ، ونودي بالأمان ، فخرج من كان مستخفياً ، وأصبح جرجير من الغد ، فأرسل إلى من قرب من العرب مشاكليه⁽⁴⁹⁾ / فدخلوا عليه ، [260/ب] فأحسن إليهم وأعطاهم أموالاً جزيلة⁽⁵⁰⁾ ، وأرسل من جند المهدية الذين تخلفوا بها جماعة ، ومعهم أمان لأهل المهدية الذين خرجوا منها ، ودواب يحملون عليها الأطفال والنساء ، وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع والعطش والتعب⁽⁵¹⁾ ، ولهم بالمهدية خبايا وودائع ، فلما وصل إليهم الأمان رجعوا فلم تمض جمعة الا وقد رجع أكثر أهل البلد .

هروب الحسن الصنهاجي والتقاءه بعبد المؤمن :

وأما الأمير الحسن فانه سار بأهله وأولاده ، وكانوا اثني عشر ذكراً غير الاناث ، وخواص خدّامه ، قاصداً إلى محرز بن زياد ، وهو بالعلقة ، فلقبه في طريقه أمير من العرب يسمّى حسن بن ثعلب ، فطلب منه مالاّ انكسر له في ديوانه ، فلم يُمكن الحسن اخراج مال لثلاث يؤخذ ، فسلم إليه ولده يحيى رهينة وسار ، فوصل في اليوم الثاني إلى محرز الذي كان أرسل إليه عسكره فوجد عسكره هناك⁽⁵²⁾ ، «ولقيه محرز⁽⁵³⁾ بالبر والكرامة ، وأنزله عنده ، وتوجّع لما حلّ به ، فأقام عنده أشهراً ، والحسن كاره للاقامة لما رأى في عيني محرز من السامة فأراد المسير إلى مصر وواليا اذ ذاك الحافظ عبد المجيد⁽⁵⁴⁾

(46) في الأصول نقلاً عن ابن الأثير «مئتي سنة وثمانين سنين من سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة» وما أثبتناه هو الواقع التاريخي .

(47) 1148 - 1149 م .

(48) في الكامل : «المدينة» .

(49) زائدة عن الكامل .

(50) في ش : «جزيلة» .

(51) زيادة عن الكامل .

(52) الكامل لابن الأثير : 125/11 - 128 .

(53) النقل الآتي من رحلة التجاني ص 342 .

(54) كذا في ط ورحلة التجاني ، وفي ش : «عبد الحميد» .

[261/أ]

ابن محمد المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي ، وباسمه كان الحسن يخطب في بلاده ، فابتاع من تونس مركباً لسفره فعلم جرجير⁽⁵⁵⁾ بذلك فأعد له عشرين قطعة ترقب إقلاعه فتنبه ، وعلم بذلك الحسن فعدل عن السفر لمصر ، ونظر في التوجه للخليفة عبد المؤمن بن علي بالمغرب ، وأنفذ كبار أولاده يحيى وتميماً وعلياً إلى ابن عمه يحيى بن العزيز صاحب بجاية وهو من بني حماد وهما أولاد عم ، وكتب إليه يستأذنه في الوصول إلى حضرته وأن يكون توجهه إلى عبد المؤمن بعد الاجتماع به فتلقى بنيه ميمون بن حمدون وزير يحيى أحسن تلقى وكتب على لسان يحيى إلى الحسن بالتوجه على ما جرى عليه والتحريض على الوصول إليه والعدول على ما خطر بخاطره من قصد غيره ، فأعلم الحسن محرز بن زياد بما كتب إليه ابن عمه ، فأشار عليه بالتنكب عنه ، وأن يتوجه حيث شاء فهو خير له منه ، فلم يطعه الحسن ، وتوجه إلى بجاية ، فلما قرب منها ندب يحيى وزيره إلى لقاء الحسن فامتنع من ذلك ، فأمر أخاه قائد بن العزيز بالخروج إلى لقائه مع مشيخة البلد وأن يعدلوا به عن بجاية إلى الجزائر فيكون مقامه بها ، ففعل أخوه ذلك وأنزله هو وأولاده بمدينة الجزائر في أمكنة لا تليق بهم ، وأجرى عليهم جرايات لا تكفيهم ، وأمر ميموناً بمراعاة الحسن ومنعه من السفر والكتب إلى الخليفة عبد المؤمن لما توقعه من استعانة عبد المؤمن به في أخذ بجاية ، فبولغ في التشديد عليه في ذلك ، وأقام ساكناً بها إلى أن نزل عبد المؤمن المغرب الأوسط وقد تغلب على جميع بلاد المغرب الأقصى وجميع جزيرة الأندلس وذلك عام سبعة وأربعين وخمسمائة⁽⁵⁶⁾ فتغلب على مليانة والجزائر ، فاجتمع الحسن به هنالك ، وقد سار إليه وهو / بمدينة متيجة فأقبل عبد المؤمن عليه وقره⁽⁵⁷⁾ إليه واستصحبه معه وجعل الحسن يغريه بأخذ بجاية حسداً لابن عمه ورغبة في خراج الملك من يده ليتساويا⁽⁵⁸⁾ في ذلك ، فنزل عبد المؤمن إلى بجاية والحسن معه فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها ، وذلك بعد هزيمته لعساكر صنهاجة بجبل زيري وأعان أيضاً يحيى على نفسه بأنهماكه في لذاته وإهماله تدبير دولته وتفويض الأمر لغيره .

[261/ب]

(55) كذا في رحلة التجاني .

(56) 1152 - 1153 م .

(57) أنظر ابن الأثير ، الكامل 158/11 - 159 في حوادث سنة 547 .

(58) في الأصول وفي رحلة التجاني : « ليتساويا » وقد علق محقق الرحلة من جهته أن الصواب « ليتساويا » .

فلما استولى عبد المؤمن على بجاية فرَّ يحيى بن العزيز في البحر ، وكان مراده التوجه إلى برقة والنفوذ من ذلك إلى بغداد لعلمه أن الخليفة العبيدي بمصر ينقم عليه (59) الخلع الأول ، فلما وصل إلى بونة جعل الحارث يتأفف منه ويؤنبه على إهمال الملك فخرج منها يحيى إلى قسنطينة وبها اذ ذاك أخوه الحسن بن العزيز فأكرمه الحسن وتخلَّى له عن الأمر فأقام بقسنطينة أياماً يعمل رأيه إلى أن أناب الطاعة ، ودخل في ولاية الموحدين ، ووصل إلى الخليفة فأكرمه وأنزله مع ابن عمه الحسن بن علي .

ثم كانت لعبد المؤمن على العرب الواقعة المعروفة بوقيقة سطيف (60) هزم فيها طوائفهم ، وطلع إلى الحضرة بجميع من حكم عليهم ومن جملتهم الحسن ويحيى فأسكنها في مراكش في مساكن حسنة ورفاهية ورزق جار ، فلما كانت سنة ثمان وأربعين (61) وصل الخليفة إلى سلا (62) واستصحب يحيى معه فأسكنه بها / في قصور بني عشرة (63) وأقام بسلا (62) إلى أن مات هنالك ودفن في مقابرها الجوفية مما يلي البحر .

وأما الحسن فانه أقام بمراكش إلى أن عاد عبد المؤمن إليها وجعل يغريه بالحركة إلى إفريقية ويحضه على استنفاذ المهديّة من أيدي النصارى (64) .

احتلال الزمان لصفاقس والساحل :

«ولما استقر جرحير (65) بالمهديّة سير أسطولاً ، بعد أسبوع ، إلى مدينة صفاقس (66) ، وسير أسطولاً آخر إلى مدينة سوسة . قال التجاني (67) : «أما سوسة فان أهلها سمعوا خبر المهديّة ، وكان واليها علي بن الحسن بن علي الأمير ، فخرج إلى أبيه

(59) في الأصول : «عليهم» .

(60) انظر عنها مثلاً الكامل 185/11 - 186 .

(61) 1153 - 1154 م .

(62) في الأصول : «سلى» .

(63) في ط : «كنزه» وفي ش : «عزّة» والاصلاح من الرحلة ص 344 .

(64) إلى هنا ينتهي النقل من رحلة التجاني ص 342 - 343 .

(65) عن استقراره بالمهديّة وارساله أسطولاً إلى صفاقس وسوسة انظر الكامل 128/11 .

(66) في ابن الأثير : «صفاقس» كما كانت تكتب آنذاك .

(67) ولم يقل ذلك التجاني وإنما قاله ابن الأثير في الكامل 128/11 ، ولعل المؤلف انتقل ذهنه من النقل عن ابن الأثير إلى النقل عن التجاني بدون تنبه .

وخرج النَّاسُ لخروجه ، فدخلها الافرنج في [ثاني] (68) عشر صفر بلا قتال ، وأما صفاقس فان أهلها أتاها (69) كثير من العرب فامتنعوا بهم ، فقاتلهم الافرنج ، وخرجوا لظاهر البلد ، فأظهر الافرنج الهزيمة ، وتبعهم النَّاسُ حتى أبعدوا عن البلد ، ثم عطفوا عليهم ، فانهم قوم إلى البلد وقوم إلى البرية ، وقتل منهم جماعة ، ودخل الافرنج البلد فلكوه بعد قتال شديد وقتل كثيرة ، وأسّر من بقي من الرجال وسيي الحريم ، وذلك في الثالث والعشرين من صفر من السنة المذكورة (70) تملك الافرنج المهدية ، ثم نودي بالأمان ، فعاد أهلها إليها ، واقتكوا حريمهم وأولادهم (وسكن بالبلد طائفة من النصاري الذين افتكوها فأمَنوهم) (71) ورفقوا بهم وبأهل سوسة والمهدية ، وبعد ذلك وصلت كتب من لجار ، (عليه غضب الجبار) (72) لجميع أهل افريقية بالأمان / والمواعيد الحسنة (طمعاً في بقاء المسلمين تحت حكمه) ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ نُورُهُ﴾ (73) ولما استقرت أحوال الساحل سار جرجير (74) - اللعين - (75) في أسطول إلى قلعة اقليبية ، وهي قلعة حصينة ، فلما وصل إليها سمعت العرب فاجتمعوا إليه ، ونزل إليهم الافرنج فاقتتلوا فانهم الافرنج ، وقُتِل منهم خلق كثير ، فرجعوا خاسرين إلى المهدية ، وصار للافرنج من طرابلس الغرب إلى قريب تونس (76) .

وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة (77) مات الخبيث لجار (78) - فعجّل الله به إلى سخطه وعذاب النار ويشس القرار - ، وملك بعده ابنه اللعين غليالم (79) فكان فاسد الدين والتدبير خرج عن حكمه عدة من حصون صِقْلِيَّة .

(68) اضافة من ابن الأثير : الكامل ، 128/11 .

(69) في الأصول : «أتاها» .

(70) 14 جويلية 1148 م .

(71) زائدة عن الكامل ، وفي ش : «فأمَنوا لهم» .

(72) زائدة .

(73) سورة التوبة : 32 .

(74) جرجي في الكامل كما أشرنا .

(75) زائدة .

(76) وبعدها في الكامل : «ومن المغرب إلى دون القيروان» 129/11 .

(77) 1153 - 1154 م .

(78) انظر الكامل لابن الأثير 187/11 وهو روجار الثاني .

(79) الملقب «بالي» لسوء سياسته .

انتفاض صفاقس وغيرها من المدن على الزنمان :

فلما كانت سنة احدى وخمسين وخمسمائة⁽⁸⁰⁾ يَسَّرَ تعالى خلاص معظم البلاد ، فأول ما أنقذ من بلاد افريقية صفاقس⁽⁸¹⁾ ، فأظهروا مخالفة الكفار ، وتبعهم الناس ، وخالفت جربة وقرقة وطرابلس وقابس وغيرها ، وكيفية اظهار صفاقس الخلاف أن لجار - لعنه الله - لَمَّا تَغَلَّبَ على البلاد طلب الرهائن من البلدان فن جملة رهائن صفاقس الشيخ الولي الصالح العالم سيدي أبو⁽⁸²⁾ الحسن علي الفرياني ، بعد ما طلبوه أن يكون هو مقدم البلاد ، فادعى العجز ، وأقيم ولده الشيخ سيدي عمر - رحمه الله - فجعل مقدماً ، «ولمَّا أرادوا الخروج لصِقْلِيَّة قال الشيخ أبو الحسن⁽⁸³⁾ لولده : «يا بني أنا كبير السن / وقد قرب⁽⁸⁴⁾ أجلي ، فتى أمكنتك الفرصة في الخلاف على العدو فافعل ولا تراقبهم ولا تنظر الي فاني أقتل ، وأحسب أنني قد مُتَّ . فلما وجد الشيخ عمر فرصة دعا أهل المدينة إلى مخالفة الافرنج وجميع النصارى ، وقال : ليطلع منكم جماعة إلى السور ، وجماعة إلى مساكن الافرنج والنصارى جميعهم وليقتلوهم ، فقالوا له : إن الشيخ والدك يخاف عليه ، فقال : هو أمرني بهذا ، وإذا قتل بالشيخ ألوف من الأعداء فما مات ، فلم تطلع الشمس حتى قُتِلَ الافرنج عن آخرهم ، وكان ذلك أول السنة المذكورة ، (وذلك أوائل يناير)⁽⁸⁵⁾ (وما قاموا عليهم حتى جعلوا صهريجاً تحت الأرض شرقي المسجد الأعظم⁽⁸⁶⁾ في صورة مخزن للماء ، وصاروا كل ليلة يتزلون إليه لعمل السلاح ، وإلى الآن يُسمونه ماجل الصّاعة ، وكان بابه مكشوقاً ، فلما أحدثوا السّاباط الشرقي⁽⁸⁷⁾ من المسجد للموازين ، وجعلوا هناك حانوتاً صار يجانبه ، وهو تحت الطريق

(80) 1156 - 1157 م.

(81) قال ابن الأثير : «فلما كان هذه السنة قوي طمع الناس فيه ، فخرج عن طاعته جزيرة جربة وجزيرة قرقة ، وأظهروا الخلاف عليه وخالف عليه أهل افريقية ، فأول من أظهر الخلاف عليه عمر بن أبي الحسن الفرياني بمدينة صفاقس...» 203/11.

(82) انظر الكامل لابن الأثير 203/11 - 204 ورحلة التجاني 75 عند الكلام عن صفاقس ، وتاريخ ابن خلدون 344/6 - 345.

(83) الذي في ابن خلدون أنه كتب إلى ابنه عمر من صقلية ، المؤلف تابع فيما يبدو لابن الأثير.

(84) في الأصول : «وقد قارب أجلي» . (85) زيادة عما في ابن الأثير.

(86) يوجد هذا المسجد ويسمى «الجامع الكبير» في قلب المدينة المسورة طبقاً لتخطيط المدن العربية الاسلامية.

(87) جزء مغطى من الشارع ويسمى الرّمانة نسبة إلى آلات الوزن التي كانت تسمى كذلك ، وما يزال هذا الإسم قائماً وإن تغيرت خلال هذا القرن مهمة الساباط المشار إليه.

من جهة شرق المسجد ، ولما جاءن ليلة يناير عيد النصارى⁽⁸⁸⁾ ، أظهرها معهم الفرج بموسم النصارى ، وأمروا بطبخ الفول في كل دار ، وجعلوا جماعة يدورون على الدور في صورة شحّاتين يشحتون الفول ، وأمر كل صاحب دار أن يخرج من الفول بقدر ما عنده من الرّجال ، فجمعوا ما تحصّل وعدّوه وعرفوا ما عندهم ، وأعطوا كل أحد من السّلاح بقدر ما أعطاهم من الفول⁽⁸⁹⁾ ، وأحدثوا لعباً سموه لعب ضرب النّار⁽⁹⁰⁾ وإلى الآن يلعبن به الأصاغر ولما أتقنوا / وجه الحيلة مالوا على الكفرة ليلاً ، فلم تطلع الشمس حتى قتل الكفار عن آخرهم كما تقدم⁽⁹¹⁾ «وتبعهم أبو يحيى بن مطروح⁽⁹²⁾ بطرابلس ثم محمد بن رُشيد بقابس ، (ولم يبق تحت حكم الكفار غير المهديّة وزويلة)⁽⁹³⁾ فأرسل الشيخ سيدي عمر بن علي الفرياني إلى زويلة يُحرّضهم على الوثوب على من معهم فيها من النّصارى ، ففعلوا ذلك ، وقدم عرب البلاد إلى زويلة ، فأعانوا أهلها على من بالمهديّة من الافرنج ، وقطعوا الميرة على المهديّة ، فلما اتّصل الخبر بغليالم أحضر الشيخ أبا الحسن ، وعرفه بما فعل ولده ، وأمره أن يكتب إليه ينهاه عن ذلك ، ويأمره بالعود إلى طاعته ، ويُخوّفه عاقبة فعله ، فقال له الشيخ : من أقدم على هذا لا يرجع بكتاب ، فأرسل غليالم

[263/ب]

- (88) ما نسميه اليوم «عيد رأس السنّة الميلادية» وجاء في الحلال السندسية للوزير السراج «حسب زعم الروم ان أول يوم منه (أي يناير) هو سابع مولد المسيح وأنه يوم ختانه وهو من أكبر أعيادهم» 182/1.
- (89) طبخ الفول بمناسبة رأس السنة المسيحية حسب تقويم يوليوس قيصر عادة بربرية قديمة ، وما زالت موجودة إلى الآن ويسمونها الحاجوجة ويطلقونها أيضاً على نفس الليلة الجديدة من رأس العام وكلمة حاجوجة محرفة عن كلمة الحاجوز فاعول بمعنى فاعل كفاروق بمعنى فارق وتطلق هذه اللفظة على الليلة الأولى من السنة الجديدة لأنها تحجز بين السنة القديمة والجديدة وجاء في التقويم الشمسي لخارطة علي بن محمد الشرقي الصفاقسي المحفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس بالقسم العربي تحت عدد 2278 «وأول ليلة منه (أي يناير) ليلة العجوز وتسمى الحاجوز لأنها تحجز بين السنة والسنة» وانفرد علي الشرقي بادماج حاجوز في معنى العجوز واعتبر العجوز ليلة واحدة بينها يرى الوزير السراج في الحلال السندسية 85/1 ويرى الزبيدي في تاج العروس 49/4 وغيرهم أن أيام العجوز سبعة أيام ابتداء من السادس والعشرين من فيفري وأنها سميت كذلك لأنها عجز الشتاء.
- (90) لعب ضرب النار عادة بربرية قديمة أيضاً بقي أثرها بمناسبة الاحتفال بموسم عاشوراء. أنظر: بلاد البربر الشرقية في عصر الزيريين ، مصدر سبق ذكره 381/1.
- (91) ما بين القوسين لم يذكره المؤرخون المتقدمون كالتجاني وابن الأثير وابن خلدون ولعل المؤلف تلقّنه من الروايات الشعبية الشائعة في عصره.
- (92) كذا في الأصول وفي «ليبيا منذ الفتح العربي» لأتوري روسي ص 88 وفي «طرابلس الغرب» لمحمد ناجي ومحمد نوري ص 158 «أبو يحيى رافع بن مطروح» وفي الكامل لابن الأثير 204/11 «أبو محمد بن مطروح». والمؤلف ينقل عن ابن الأثير وخالفه في نقل كنية بن مطروح.
- (93) زيادة عما في الكامل.

اللعين رسولاً يتهدد الشيخ عمر ويأمره بترك ما ارتكبه ، فلم يمكنه الشيخ عمر من دخول البلد يومه ذلك ، فلما كان الغد خرج أهل البلد جميعهم ومعهم جنازة والرسول يشاهدهم فدفنوها» (94) «قال الرسول (95) : وصلت صفاقس فلم أتمكن من التزول إلى البر ، ولما كان من الغد سمعت في البلد ضجّة ، ثم فتح باب البحر ، وخرج الناس يكبرون ويهللون ومعهم نعش قد رفعوه على رؤوسهم فحطوه ، ثم تقدّم عمر فصلى عليه ودفنه وعزاه الناس وانفصلوا ، قال : فاستدعيت الجواب فقيل لي : إن الشيخ مشغول بالجزاء في والده الذي بصقيلة والنعش الذي رأيت نعشه ، وقد عزم على موته والسلو عنه ، وليس له / جواب إلا ما رأيت ، فلما بلغ ذلك طاغية صقيلة أمر بالشيخ أبي الحسن علي فسحب إلى المشقة بوادي عباس فشيق وهو يتلو كتاب الله إلى أن فاضت نفسه رحمه الله» (ورحمنا به ونفعنا به وبأمثاله) (96) .

قال التجاني (97) : وكان انتقاض صفاقس على النصاري سبباً في انتقاض سائر بلاد السواحل وزوالها من أيديهم ، وأقام عمر يدبر أمر البلد إلى أن قدم عبد المؤمن . «وأما أهل زويلة فانهم كثر جمعهم بالعرب وأهل صفاقس وغيرهم ، فحصبوا المهديّة وضيقوا عليها ، وكانت الأقوات بالمهديّة قليلة ، فسّر إليهم غليالم (98) عشرين شيئاً فيها الرجال والطعام والسلاح ، فدخلوا إلى البلد ، وأرسلوا إلى العرب مالا لينهزموا ثم خرجوا من الغد فاقتلوا هم وأهل زويلة فانهم بالعرب ، وبقي أهل زويلة وصفاقس يقاتلون الافرنج بظاهر البلد ، فأحاط بهم الافرنج (99) فركب أهل صفاقس مراكبهم في البحر لما تكاثر عليهم العدو (100) ، وذهب أهل زويلة لبلدهم فأرأوا أبوابها مغلقة ، فلحقهم العدو فقاتلوا تحت السور وصبروا حتى قتل أكثرهم ولم ينج منهم إلا القليل فتفرقوا ، ومضى بعضهم لعبد المؤمن ، ومن ثم فتحت أبواب زويلة وخرج من كان بداخلها من غير المقاتلة فن له قدرة على الفرار فر بنفسه ومن عجز أسر ونهبت الأموال واستقرّ الافرنج بالمهديّة» (101) .

(96) زيادة من المؤلف .

(94) الكامل 204/11 .

(97) رحلة التجاني 75 - 76 .

(95) رجع إلى النقل من رحلة التجاني ص 75 .

(98) في ش : «غليالم اللعين» .

(99) بعدها أسقط المؤلف من نص ابن الأثير «فانهزم أهل صفاقس» .

(100) في الكامل : «وركبوا في البحر فنجوا» .

(101) الكامل 205/11 .

عبد المؤمن يسير نحو افريقية ويخلصها من الزمان وتمثل لطاعته :

ولمّا (102) وصل من ذهب لعبد المؤمن من أهل زويلة إلى مراكش ودخلوا على عبد المؤمن أخبروه بما جرى على المسلمين وأنه ليس في ملوك / الاسلام من يُقصد سواه ، ولا يكشف هذا الكرب غيره مع ما كان يغريه الحسن على غزو افريقية وافتكالك المهديّة ، فأثر فيه كلامهم تأثيراً عظيماً حتى دمعت عيناه ، وأطرق ملياً وأخذته غير الدّين وعصبية الاسلام وعزة الملك فرجع رأسه وقال : أبشروا لأنصركم ان شاء الله ولو بعد حين ، وأكرم نزلهم وأطلق لهم ألني دينار ، ثم أمر بعمل الروايا (103) والقرب والحياض وما يحتاج إليه العساكر من آلة السفر ، وكتب إلى جميع نوابه بالمغرب ، وكان قد ملك إلى قرب تونس يأمرهم بحفظ جميع ما يحصل من الغلات ، وأن يترك في سبيلها ويخزن في مواضعه ، وأن يحفروا الآبار في الطّريق ، ففعلوا جميع ما أمرهم به فجمعوا غلات ثلاث سنين ونقلوها إلى المنازل ، وطينوا (104) عليها فصارت كالتلال .

فلمّا كان صفر من سنة أربع وخمسين وخمسمائة (105) سار عن مراكش ، وكان أكثر أسفاره في صفر ، فسار يطلب افريقية ، واجتمع معه من العساكر مائة ألف مقاتل ، ومن الأنباغ والسّوقة مثلهم (106) ، (وقيل الخيل مائة ألف وأما الرجال فلا يحصون كثرة) (107) وبلغ من حفظه لعساكره أنهم كانوا يمشون بين الزّرع فلا تتأذى بهم سنبلة ، وإذا نزلوا صلوا جميعهم مع امام واحد بتكبير واحدة لا يتخلف منهم أحد كائن من (108) كان . وقدم بين يديه الحسن بن علي صاحب المهديّة (109) « (110) ومن تاريخ ابن شدّاد أن عبد المؤمن لمّا سار إلى تونس بالجموع العظيمة / كانوا يمرّون بالمزارع في الطّريق الضيّقة فلا يؤذون شيئاً منها ، وكانت هذه العساكر تمتدّ أميالاً وكلّهم يصلي الصّلوات

[246/ب]

[265/أ]

(102) يتقل إلى ص 241 من نفس المرجع .

(103) في الأصول : «الروايات» والصواب : ما أثبتناه والروايا جمع روية .

(104) يقصد : «وطمّسوا عليها» .

(105) 1159 م .

(106) كذا في ط وفي الكامل ، وفي ش : «أمثالهم» .

(107) زيادة عما في ابن الأثير 242/11 ، وانظر رحلة التجاني ص 345 .

(108) في الأصول : «ما» .

(109) الكامل 241/11 - 242 .

(110) نقله من رحلة التجاني ص 346 - 347 .

الخمس وراء إمام واحد بتكبيره واحدة ، وكانت مقدمة هذا العسكر اثني عشر ألفاً قد كلّفوا بجفر الآبار واستخراج المياه ، فكانوا يمتدّون قبله بيومين ، فلا يأتي الآ وقد هُيئت الغلات ومُئِيت الأحواض بالمياه ، ولولا هذا التدبير لم يقدر على قطع هذه المسافة البعيدة بهذه الجيوش العظيمة ، وكان كلّما مرّ بأرض فيها عرب بادروا إليه فاستصحب أعيانهم معه ، وقد كانت وقعة سطيف أدلّتهم ، وكان أسطولهم في البحر سبعين مركباً قوّادها محمد ابن عبد العزيز بن ميمون من البيت المشهور⁽¹¹¹⁾ في قيادة البحر وابن الخراط⁽¹¹²⁾ وأبو الحسن الشاطبي ، وغير هؤلاء ممّن هو مثلهم في المعرفة والشهرة .

ولمّا⁽¹¹³⁾ وصل إلى باجة أقام بها ووجّه إلى أهل تونس بالتأمين التام والعفو ، فإزدادوا الأَعْصِيَاءُ ، وقد كانوا قاتلوا ولده عبد الله قبل ذلك ومزقوا جيشه وفعلوا به الأفاعيل لمّا وصل إلى محاصرته سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة⁽¹¹⁴⁾ وانفصل عنهم أسوأ انفصال ، فارتحل عبد المؤمن من باجة ونزل على طبرية⁽¹¹⁵⁾ وأعاد إليهم التّرجيب في الطّاعة والتّرهيب من المخالفة فلم يقبلوا ، فارتحل إلى تونس ، وكان نزوله عليها يوم السبت العاشر من جمادى الأولى ، وقيل في الرّابع والعشرين من جمادى الأخيرة من السّنة المذكورة ، واتصلت الأخبية من الحنايا / إلى حلق الوادي فعان أهل تونس أمراً عظيماً ، [265/ب] وأقام العسكر ثلاثة أيام لا يقاتلون ، فترّل إلى عبد المؤمن أشياخ [الطلب]⁽¹¹⁶⁾ السّلم من أهل تونس منهم بنو عبد السّيد : عمر ومعاوية وعبد السّيد ، ومنهم أبناء منصور اسماعيل وابن عمّه عتيق وغيرهم تمام الاثني عشر ، وقيل سبعة عشر ، فوصلوا إلى عبد المؤمن وطلبوا العفو فاستعفوا به بعد مكابدة شديدة ، فأمنّهم في أنفسهم وأهاليهم وأموالهم لمبادرتهم إلى الطّاعة وأما من عداهم من أهل البلد فيؤمّنهم في أنفسهم وأهاليهم ويقاسمهم في أموالهم وأملاكهم نصفين وأن يخرج صاحب البلد وهو أحمد بن خراسان هو وأهله إلى بجاية ، فاستقر ذلك⁽¹¹⁷⁾ لأهل تونس ، وأما غير أهل تونس من قراها وسائر بلادهم

(111) في الأصول : « مشهورة » .

(112) في الأصول : « ابني » والمثبت من رحلة التجاني .

(113) رحلة التجاني ص 345 .

(114) 1157 م .

(115) في الأصول : « طريقة » والمثبت من رحلة التجاني ص 345 .

(116) في مكانها في الأصول : « إلى » .

(117) في الرحلة : « ذلك » .

فانهم يشاطرون في أموالهم ، وتسلّم عبد المؤمن تونس ، وأخرج ابن خراسان من يومه فوات في الطريق» (118).

«ثم ان (119) عبد الله بن عبد المؤمن لما فعل به أهل تونس ما فعلوا حين نزل عليهم قبل هذا حلف أن يدخلها بالسيف ، ويقتل جميع من تقع عينه عليه من أهلها فأمر الناس في هذه الخطرة أن يدخلوا دورهم ولا يخرج أحد حتى يسمع النداء فدخل عبد الله البلد وسيفه في يده فلم يلق الاً شيئاً قتله وانصرف وقد برت يمينه (120) ومنع العسكر من الدّخول.

وأقام (121) عليها ثلاثة أيام ، وعرض (122) الاسلام على من بها من اليهود والنصارى فن أسلم / سلم ، ومن امتنع قتل.

[266/أ]

ثم ارتحل (123) إلى المهديّة وخلف بتونس أبا محمد عبد السلام الكومي ومعه أشياخ من المؤجدين لاستخلاص الأموال من أهل تونس فوقع البحث عن أموالهم ودخلت دورهم فحمل جميع ما فيها وبيع ما أمكن بيعه من رباعهم وأملاكهم وخرج الأمان إلى سائر بلاد افريقية لمشاطرة الرعيّة في جميع ما بأيديهم حتى لم يبق من افريقية بقعة الاً عمّا ذلك» (124) (وقيل أقام أهل تونس بها بأجرة تؤخذ من نصف مساكنهم) (125) «وسار عبد المؤمن (126) منها إلى المهديّة والأسطول يحاذيه في البحر فوصل إليها ثاني عشر رجب ضحوة يوم الأربعاء وكان حينئذ بالمهديّة أولاد (127) ملوك الافرنج وأبطال الفرسان ، وقد أخلوا زويلة ، فدخل عبد المؤمن زويله وامتلات بالعساكر والسوقة ، فصارت مدينة معمورة في ساعة واحدة ، ومن لم يكن له موضع من العسكر نزل بظاهرها ، (وانضاف إليهم من

(118) ما يتعلق بتونس نقله من رحلة التجاني 345 - 346.

(119) انتقل إلى صفحة 347 من رحلة التجاني.

(120) عن عبد الله بن عبد المؤمن في تونس انظر رحلة التجاني ص 347.

(121) الذي أقام بتونس بعد الفتح ثلاثة أيام هو عبد المؤمن بن علي (رحلة التجاني ص 346).

(122) في الأصول : «أعرض» الذي عرض الاسلام على اليهود والنصارى هو عبد المؤمن بن علي ، رحلة التجاني ص 347 والكمال لابن الأثير 242/11.

(123) رجع إلى صفحة 346 من الرحلة.

(124) رحلة التجاني ص 346.

(125) زيادة عما في رحلة التجاني.

(126) النص الموالي موجود في رحلة التجاني وابن الأثير : الكامل ، مع اختلاف بسيط والمؤلف ينقل عن ابن الأثير.

(127) كذا في الكامل 243/11 وفي الرحلة ص 347 نقلاً عن ابن شداد : «ولاة ملوك الافرنج».

صنهاجة والعرب وأهل البلاد ما يخرج عن الاحصاء⁽¹²⁸⁾ فأقبلوا يقاتلون المهديّة مع الأيام⁽¹²⁹⁾ فلا يؤثر⁽¹³⁰⁾ فيها لحصانتها وقوّة سورها وضيق موضع القتال منها لأن البحر دائر بأكثرها وكأنها كفّ في البحر وزندها متّصل بالبر ، فكانت الافرنج تخرج شجعانها إلى أطراف العسكر فتتال منه وتعود سريعاً ، فأمر عبد المؤمن أن يبني سور من غرب المدينة يمنعهم من الخروج ، وأحاط بها الأسطول في البحر ، وركب عبد المؤمن في شيني ومعه / الحسن بن علي الذي كان صاحبها فطاف بها في البحر ، فهاله ما رأى من حصانتها ، وعلم أنها لا تفتح بقتال برّاً ولا بحراً ، وليس لها إلا المطاولة ، وقال للحسن : كيف نزلت من مثل هذا الحصن ؟ فقال : لقلة من يوثق⁽¹³¹⁾ به وعدم القوت وحكم القدر ، قال : صدقت (فعاد من البحر ، وأمر بجمع الغلّات والأقوات وترك القتال فلم يمض غير قليل حتى صار في العسكر كالجبلين من الحنطة والشّعير ، فكان من يصل إلى العسكر من بعيد يقول : متى حدثت هذه الجبال ههنا ؟ فيقال لهم : هي حنطة وشعير ، فيعجبون من ذلك فتدأى الحصار)⁽¹³²⁾ .

وكان لما وصل إلى المهديّة عبد المؤمن «وصل إليه الشّيخ عمر الفرياني مع جماعة من مشايخ صفاقس فأذعنوا له بالطّاعة ، وعيّن لهم عبد المؤمن حافظاً من الموحّدين ، وأمر عمر بالرجوع إلى بلده وأن تكون الأشغال المخزنية تنصرف على يديه ، فأقام على ذلك إلى أن توفي⁽¹³³⁾ ، و «في⁽¹³⁴⁾ تلك المُدّة أطاع أهل طرابلس وجبال نفوسة وقصور إفريقية وما والاها ، وفتح مدينة قابس بالسيف ، وسير ابنه أبا محمد عبد الله في جيش ففتح بلاداً ، ثم أن أهل قفصة لما رأوا تمكن عبد المؤمن أجمعوا على المبادرة إلى طاعته ، وتسليم المدينة إليه فتوجه صاحبها يحيى بن تميم بن المُعْتَر⁽¹³⁵⁾ ، ومعه جماعة من أعيانها وقصدوا عبد المؤمن ، فلما أعلمه حاجبه بهم قال له عبد المؤمن : قد اشتبه عليك ، ليس هؤلاء أهل قفصة ، فقال له : ما اشتبه علي / ، فقال عبد المؤمن : كيف

(128) زيادة عما في رحلة التجاني وموجود حرفياً في الكامل 243/11 .

(129) كذا في الكامل ، وفي الرحلة : «الامام» .

(130) في الأصول : «يؤثر» والمثبت من الكامل والرحلة .

(131) كذا في ط والكامل ، وفي ش : «يثق» .

(132) ما بين القوسين زيادة عما في رحلة التجاني وهو موجود في الكامل لابن الأثير 243/11 .

(133) رحلة التجاني ص 76 .

(134) عاد إلى النقل من الكامل 243/11 . (135) ابن الرند كما في تاريخ الدولتين ص 12 .

يكون ذلك والمهدي يقول ان أصحابنا⁽¹³⁶⁾ يقطعون أشجارها ويهدمون أسوارها ، ومع هذا فقبل⁽¹³⁷⁾ منهم ونكف عنهم ﴿لَيَقْضِيََ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾⁽¹³⁸⁾ فلما دخلوا عليه أنشده شاعرهم⁽¹³⁹⁾ أبو محمد عبد الله بن أبي العباس التيفاشي قصيدة امتدحه بها أولها :

[بسيط]

ما هز عطفية بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

فوصله بألف دينار ، (وأشار إليه عند ذكر هذه البيت أن اقتصر)⁽¹⁴⁰⁾ .

ولما كان الثاني والعشرين من شعبان من السنة جاء أسطول صاحب صقلية في مائة وخمسين شينياً غير الطرائد وكان قدومهم من جزيرة يابسة⁽¹⁴¹⁾ ، وقد سبى أهلها وأسّرهم وحملهم معه ، فأرسل إليهم طاغية الافرنج يأمرهم بالمسير إلى المهديّة ، فقدّموا في التاريخ ، فلما قاربوا المهديّة حلوا⁽¹⁴²⁾ قلوبهم ليدخلوا الميناء ، فخرج أسطول عبد المؤمن ، وركب جميع العسكر ووقفوا [على] جانب البحر ، فاستعظم الافرنج ما رأوا من كثرة العساكر ، ودخل الرعب في قلوبهم ، وبقي عبد المؤمن يُمرّغ وجهه على الأرض ويكي ويدعو للمسلمين بالنصر ، واقتتلوا في البحر فانهمزمت⁽¹⁴³⁾ شواني الافرنج ، وأعادوا القلوع ، وتبعهم المسلمون ، فأخذوا منهم سبع شواني ، ولو كان معهم قلوع لأخذوا أكثرهم ، وكان أمراً عجيباً وفتحاً غريباً⁽¹⁴⁴⁾ ، وعاد أسطول المسلمين مظفراً منصوراً ، وفرق عبد المؤمن فيهم الأموال فيش⁽¹⁴⁵⁾ أهل المهديّة من النجدة وصبروا على هذا الحصار ستة أشهر إلى آخر ذي / الحجّة من السنة ، فنزل من فرسان الافرنج إلى عبد المؤمن عشرة وسألوه الأمان لمن فيها من الافرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها ويعودوا إلى بلادهم ، وكان قوتهم قد فني حتى أكلوا الخيل ، فعرض عليهم الاسلام ودعاهم إليه فلم يجيبوا ، فزالوا يترددون إليه ويستعطفونه بالكلام اللين ، حتى أجابهم

[267/ب]

(136) كذا في ش وفي الكامل ، وفي ط : « أصحابها » .

(137) في ط : « قبل » ، وفي ش : « يقبل » والاصلاح من الكامل لابن الأثير 244/11 .

(138) سورة الأنفال : 42 .

(139) اقتصر ابن الأثير 244/11 على قوله « مدحه شاعر منهم بقصيدة أولها » .

(140) زائدة عما في الكامل .

(141) من بلاد الأندلس (الكامل 92/11) وهي إحدى الجزائر الشرقية المعروفة بجزائر الباليار .

(142) في الكامل : « قريبا » 244/11 .

(143) في الكامل : « حطوا » .

(144) في الأصول : « فأيس » .

(145) في الأصول : « فانهمز » .

إلى ذلك ، وأمّهم وأعطاهم سُفُنًا فركبوا فيها ، وكان الزّمان شتاء فغرق أكثرهم ولم يصل منهم إلى صِقْلِيَّة إلا النّفر اليسير .

وكان صاحب صِقْلِيَّة قال : ان قُتِل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين عندنا بجزيرة صِقْلِيَّة ، وأخذنا حريمهم وأموالهم ، فأهلك الله الافرنج غرقاً وكان مُدَّة ملكهم للمهدية اثنتي عشرة سنة .

ودخل عبد المؤمن المهدية بكرة عاشوراء من المُحرّم سنة خمس وخمسين وخمسمائة⁽¹⁴⁶⁾ ، فسمّاها عبد المؤمن سنة الأحماس ، وأقام بالمهدية عشرين يوماً فرتب أحوالها ، وأصلح ما ثلم من سورها ، ونقل إليها الذخائر من الأقوات والرجال والعُدَد ، وولى عليها أبا عبد الله محمد بن فرج الكومي⁽¹⁴⁷⁾ ، وأسكن الحسن زويلة ، وأمر الكومي أن يقتدى به في أقواله وأفعاله وأقطع الحسن اقطاعاً ، وأعطاه دوراً نفيسة يسكنها ، وكذا فعل بأولاده ، ورحل عن المهدية أول صفر من السنة المذكورة إلى بلاد المغرب⁽¹⁴⁸⁾ .

«وأقام⁽¹⁴⁹⁾ الحسن وبنوه بعد عبد المؤمن عشر سنين على ما هم عليه إلى أن توفي عبد المؤمن / وولي ابنه أبو يعقوب فوصل أمره بطلوع الحسن إلى المغرب ، فطلع بأهله [268/أ] وولده وحاشيته سنة ست وستين وخمسمائة⁽¹⁵⁰⁾ ، فلما وصل إلى الموضع المسمى بتامسنا⁽¹⁵¹⁾ توفي هنالك⁽¹⁵²⁾ وبه قبره ، وكانت وفاته في شهر رجب من العام المذكور . وذكر التجاني⁽¹⁵³⁾ في «رحلته» ان عبد المؤمن لما وصل إلى إفريقية واستنقذ المهدية من أيدي النصارى ، وقام⁽¹⁵⁴⁾ أهل كل بلد على من عندهم امثال أهل سوسة ذلك ، ورحل⁽¹⁵⁵⁾ أشياخهم إلى عبد المؤمن ، ووصل إليه أيضاً جبارة بن كامل الذي كان مستولياً عليها ، فقدم على سوسة حافظاً من الموحدين يعرف بعبد الحق بن علّناس

(146) 21 جانفي 1160 م .

(147) لم يذكر اسمه ابن الأثير ، وذكره التجاني ص 349 .

(148) بتامسنا .

(149) النّقل من رحلة التجاني ص 349 .

(150) 1170 - 1171 م .

(151) في الأصول «بتاس» والمثبت من الرحلة ص 349 .

(152) ببقعة تعرف بآبار زلّو (رحلة التجاني ص 350) .

(153) رحلة التجاني ص 30 عند الكلام عن سوسة .

(154) في ش : «وأقام» .

(155) في الأصول : «ووصل» والاصلاح من رحلة التجاني .

الكومي ، فطرقهم أسطول النصارى ثانية وهم على غيرة ، فاستولى على البلد وقتل من أهله⁽¹⁵⁶⁾ من قتل وسى من سى ، وخرب البلد تخريباً عظيماً لأنه لم يكن على الإقامة فيه⁽¹⁵⁷⁾ ، وأسروا الحافظ المذكور وأهله وولده ، وتوجه بهم إلى صقلية فأقاموا بها مدة ، ثم افتدوا بعد ذلك ، وخرجوا ، ومن حينئذ استولى الخراب على مدينة سوسة .

وكفى فخراً لسوسة أن المنستير الذي وردت الأحاديث في فضله محرس من محارسها ومنسوب إليها . روى أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم في تأليفه⁽¹⁵⁸⁾ بسنده إلى سفيان بن عيينة عن عبد الله بن دينار عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « من رابط بالمنستير ثلاثة أيام وجبت له الجنة »⁽¹⁵⁹⁾ وبسنده إلى خالد بن معدان عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ « بمدينة يقال لها المنستير باب من أبواب الجنة »⁽¹⁶⁰⁾ /

[268/ب]

ينقطع الجهاد [في] آخر الزمان من كل موضع فكأنني أسمع صرير المحامل من مشارق الأرض ومغاربها إلى ساحل قونية⁽¹⁶¹⁾ ، وبسنده عن عباد بن كثير ، عن ليث بن أبي سليم ، عن مجاهد ، عن ابن عمر . قال : قال رسول الله ﷺ « بساحل قونية باب من أبواب الجنة » يقال له المنستير من دخله فبرحمه الله ، ومن خرج عنه فبغف الله عنه⁽¹⁶²⁾ . وعباد⁽¹⁶³⁾ بن كثير الواقع في هذا السند متروك الحديث عندهم ، وليث بن سليم⁽¹⁶⁴⁾

(156) في الأصول : « من أهلها » وما أثبتناه موجود بالرحلة وهو أحسن لتسويق الضمائر لأن المؤلف أعاد عليه ضمير التذكير بعد قليل .

(157) في الأصول : « ب » . (158) المصدر السالف ص 45 - 46 .

(159) كذا في الرحلة التي ينقل عنها المؤلف ولم نجد لهذا الحديث ذكراً في كتب الحديث .

(160) في رحلة التجاني التي ينقل عنها المؤلف « بمدينة قونية باب من أبواب الجنة يقال له المنستير » .

(161) الحديث بهذا السند غير موجود في طبقات أبي العرب .

(162) في الرحلة : « ... من دخله فبرحمه الله ومن خرج منه فبغف الله » .

(163) من كلام التجاني : أبي العرب وعباد بن كثير الثقفي البصري . قال الامام أحمد : روى أحاديث كذب : تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني 393/1 ، دار المعرفة بيروت ط 2 ، 1975 ، وفي طبقات أبي العرب ، هامش 2 لحققي الكتاب ذكر للمصادر التي ترجمت له وهناك عباد بن كثير آخر هو زلمي فلسطيني ويقال له التميمي ، وهو ضعيف الحديث . قال ابن عدي هو خير من عباد الثقفي ، مات في حدود 170 : ابن حجر ، المصدر السالف ، نفس الجزء والصفحة .

(164) ليث بن أبي سليم بن زعيم (مصغر الأب والجد) ، صدوق ، اختلط أخيراً ، ولم يتميز حديثه فترك ، مات سنة 148 ، ابن حجر المصدر السالف 38/2 ، وانظر هامش 13 ص 14 من طبقات أبي العرب ، ومن الشذرات 207/1 ، (وفيات 138) 212/1 ، (وفيات 143) ، العبر للذهبي 188/1 - 189 ، طبقات ، خليفة ابن خياط ، 196 - 197 .

ضعيف لا يحتج به اهـ (165) من كتاب أبي العرب .

وبسند أبي العرب (166) إلى عبد الرحمان بن زياد بن أنعم عن مُطَرِّف بن عبد الله قال : المنستير باب من أبواب الجنة ، فبينما هم في الصلاة اذ سمعوا هاتفاً (167) فبعثوا رسولهم ليأتيهم (168) بالخبر ، فما لبثوا أن انصرف (169) ، فقالوا له ما طرفك (170) قال (171) : سیرت الجبال ، فيخرون سجداً لله ، فيقول الله تبارك وتعالى « يا أهل المنستير لولا أن كتبت الموت على خلقي لأدخلتكم الجنة (172) يعني قبل الموت ، فتخرج عليهم ريح صفراء ما بين القبلة والمشرق فتخرج أرواحهم (173) فتلقاهم أزواجهم من حور العين وخدمهم . » وعبد الرحمان (174) بن زياد متروك الحديث أيضاً ضعفه ابن معين والبهيول ابن راشد . سمعت سفيان بن عيينة يقول : جاءنا عبد الرحمان بن زياد الافريقي بسة أحاديث رفعها إلى النبي ﷺ لم أسمع أحداً من العلماء ذكرها ورفعها .

وبسند أبي العرب (175) إلى سفيان بن عيينة موقوفاً عليه قال : الفضل في ثلاثة مواضع / المصيصة باب من أبواب الجنة ليحشرن (176) منها يوم القيامة سبعون ألف [269/أ] شهيد ، وعسقلان باب من أبواب الجنة ، وموضع هناك بالمغرب يقال له الياقوتة بالمنستير

(165) يعني الأحاديث التي أوردها ، لا الكلام عن عباد بك كثير وليث بن أبي سليم .

(166) في ش : « أبي العربي » وهو تحريف .

(167) الذي في رحلة التجاني التي ينقل عنها المؤلف ص 31 وطبقات أبي العرب ص 51 « هدة » وأشار محقق الرحلة في هامش 4 « في بعض الروايات « هاتفاً » بدل « هدة » .

(168) في الأصول : « رسلهم ليأتوهم » .

(169) في الأصول : « انصرفوا » .

(170) في الأصول : « فقالوا لهم ما طرفكم » والاصلاح من رحلة التجاني ص 31 .

(171) في الأصول : « قالوا » .

(172) في طبقات أبي العرب ص 51 بعد « الجنة » : « بأوساخ ثيابكم » .

(173) زيادة وفي رحلة التجاني التي ينقل عنها المؤلف : « فتخرج أزواجهم من الحور العين » وفي طبقات أبي العرب : « فتخرج أرواحهم فما يتزع عنهم أخلاقهم الا أزواجهم » .

(174) من كلام التجاني وعبد الرحمان بن زياد بن انعم المعافري السفياني الشعبي تولى قضاء القيروان مرتين (ت . سنة 156 أو 161) انظر طبقات أبي العرب ، ص 95 - 105 هامش 5 ص 95 ، ويزاد شذرات الذهب 140/1 ، العبر للذهبي 225/1 - 226 ، وفیات 156 .

(175) في ش : « أبي العربي » وهو تحريف .

(176) في الأصول : « يحشر » .

داخل في البحر إلى جانب سبخة على جانب⁽¹⁷⁷⁾ تلك السبخة قنطرة من قناطر⁽¹⁷⁸⁾ الأولين يحشر منها يوم القيامة سبعون ألف شهيد⁽¹⁷⁹⁾ ، وفي كتاب «الرقيق» قال : يقال إن⁽¹⁸⁰⁾ بافريقية ساحلاً يقال له المنستير هو باب من أبواب الجنة ، وبها جبل يقال له ممطور هو باب من أبواب جهنم⁽¹⁸¹⁾ ، اهـ كلام الرحلة⁽¹⁸²⁾ وذكرته لأنه لا يخلو من فائدة وإن ضعفت هذه الأحاديث ليعلم الواقف عليها حالها ، والله تعالى أعلم⁽¹⁸³⁾ .

(177) كلمة زائدة عن الرحلة .

(178) في ش : «قناطير» .

(179) هذا الأثر نقله التيجاني عن أبي العرب ولا وجود له في كتاب الطبقات المطبوعة .

(180) ساقطة من ش .

(181) قال التيجاني : وهذا الجبل وهو المعروف في وقتنا هذا بجبل وسلات يسكنه أخلاط من البربر .

(182) الكلام عن المنستير في رحلة التيجاني ص 30 - 32 والملاحظ أن أحاديث خصائص البلدان موضوعة فالأحاديث الواردة في بلدان المشرق وضعت في زمن الحروب الصليبية ، والأحاديث الواردة في خصوص بلدان افريقية وضعت في أزمان مختلفة من بداية الفتح أو بعد غارات الروم البيزنطيين على الشواطئ . والمنستير رباط يربط فيها العباد ويمرسون الشواطئ من غارات الأعداء .

(183) بعدها في ط : «بغية وأحكام» .

الباب الثالث

في ذكر ثوار افريقية على الموحدين

ثورة بني غانية :

وهم أولاد غانية⁽¹⁾ أبوهم اسحاق بن حَمُو⁽²⁾ -- بفتح الحاء بعدها ميم مشددة مضمومة ثم واو - بن علي الصنهاجي⁽³⁾ الملقب صاحب ميورقة ومالقة ويابسة ، فلما توفي اسحاق سنة ثمانين وخمسائة⁽⁴⁾ خلفه نجباء بنيه وهم أربعة : أبو عبد الله محمد ، وأبو الحسن علي ، وأبو زكرياء يحيى ، وأبو محمد عبد الله . فأما محمد فانه توجه بعد موت أبيه إلى الموحدين بالأندلس فأعطوه مدينة دانية ، وأحسنوا إليه غاية الإحسان ، وأما عبد الله وهو أصغرهم فانه تملك ميورقة إلى سنة تسع وتسعين وخمسائة⁽⁵⁾ ، فجهز إليه الناصر أسطولاً في البحر نزل بساحة ميورقة ، فبرز إليهم ، وكان شجاعاً كريماً فعثر به فرسه فسقط إلى / الأرض ، فقتلوه وعلّقوا جُثته على السور⁽⁶⁾ ، وحملوا رأسه إلى مراكش [269/ب] وأخذوا ميورقة ، فبقيت بأيديهم إلى أن تغلب الافرنج عليها في سنة سبع وعشرين وستائة⁽⁷⁾ ، وفعلوا فيها⁽⁸⁾ العظائم من القتل والأسر ، وأما علي ويحيى فخرجوا إلى افريقية وفعلوا الأفعال العجيبة المشهورة بين الناس من الحروب والعيث في البلاد ، وكان خروجهم من ميورقة في شعبان سنة ثمانين وخمسائة⁽⁹⁾ لما تولّى المنصور ، واشتغل بقتال الأندلس ثلاث سنين ، فوصلوا لبجاية في اثنتين وثلاثين قطعة على حين غفلة (وأهلها ومن

(1) وغانية اسم جدتهم ، لأن جدهم يحيى ، اذ تزوجه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بامرأة من أهل بيته تسمى غانية . انظر تاريخ ابن خلدون ، 360/11 .

(2) كذا في ط وفي ش : «حمود» وفي المؤنس ص 119 وفي الحلال السندسية 126/2 : «حمدية» .

(3) المسوفي .

(4) كذا في ط وكتاب العبر 391/6 . 1184 - 1185 م .

(5) 1202 - 1203 م .

(6) أي على سور ميورقة . انظر المؤنس لابن أبي دينار 119 - 120 والحلال السندسية 127/2 .

(7) 1229 - 1230 م .

(8) في ش : «بها» .

(9) 1184 - 1185 م .

والهيا⁽¹⁰⁾ [أبي الربيع]⁽¹¹⁾ بن عبد الله بن عبد المؤمن وكان⁽¹²⁾ خارجها في بعض مذاهبه فاستولوا عليها وعلى تونس ، وبلغوا إلى بلاد طرابلس - كما يأتي - ، ولمّا بلغوا تونس دخلوا على أميرها أبي زيد⁽¹³⁾ واعتقلوه ، وأخربوا البلاد ، وأهلكوا العباد ، فن شنائعهم أنهم لما نزلوا منزل باشو⁽¹⁴⁾ من جزيرة شريك سألهم⁽¹⁵⁾ أهله الأمان فأمّتهم ، ودخل عسكرهم المنزل المذكور فانتهبوا جميع ما فيه ، وسلبوا أهله حتى ثيابهم التي توارى عورتهم ، وامتدّت أيدي العبيد ، وجفّاة⁽¹⁶⁾ الأعراب ، واضطر أهله إلى الفرار ، ففروا بأجمعهم إلى تونس ونزلوا بين سورّيها ، فدخل عليهم الشتاء هنالك فأهلكهم البرد والماء ، فأحصي من مات منهم بتونس فكانوا اثني عشر ألفاً ، وقيل إن خراب المنزل كان على يد قراقش الأرميني⁽¹⁷⁾ . فقد نقل التجاني⁽¹⁸⁾ في رحلته عن الفاضل بن البيساني⁽¹⁹⁾ «ان الأجناد وصلت من الاسكندرية / في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة⁽²⁰⁾ وأن قراقش الأرميني⁽²¹⁾ عاث في جزيرة باشو⁽²²⁾ وأفسد قطرها وقطر⁽²³⁾ صفاقس والمهدية⁽²⁴⁾ ، والكل صحيح ، فان قراقش⁽²¹⁾ كان صديقاً للميورقيين لاجتماعهم على مخالفة

[270/أ]

(10) ساقطة من ش .

(11) ساقطة من الأصول وبعدها فيها : «أبي عبد الله» والإصلاح من كتاب العبر 392/6 .

(12) وكان بإيميلو من خارجها (المصدر السالف نفس الصفحة) .

(13) الذي يفهم من ابن خلدون 396/6 أن الخليفة المنصور الموحيدي نهض إلى تونس وسرح في مقدمته السيد أبا يوسف يعقوب بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن ومعه عمر بن أبي زيد من أعيان الموحدين ، ولما التقوا باين غانية انهزم الموحدون ، وقتل ابن أبي زيد وجماعة منهم .

(14) في الأصول : «باشق» والمثبت من رحلة التجاني ص 15 .

(15) رحلة التجاني ص 15 نقلاً عن ابن شداد .

(16) في الأصول : «حافت» .

(17) في الأصول : «قراقش الأرميني» .

(18) رحلة التجاني ص 15 .

(19) في الأصول : «البيساني» قال عنه حسن حسني عبد الوهاب محقق رحلة التجاني «هو القاضي الفاضل أبو علي عبد الرحيم بن محمد اللخمي الغساني المعروف بابن البيساني ، حرف اسمه في أكثر النسخ التي بأيدينا» .

(20) 1192 م .

(21) كذا في الأصول وفي كتاب العبر 394/6 ، وفي رحلة التجاني «قراقوش» وهو الرسم الشائع ونم من يكتبها «قرقوش» مثلاً : ليبيا لأنثوري روسي المصدر السابق ص 94 .

(22) في الأصول : «باشق» والمثبت من الرحلة .

(23) في رحلة التجاني : «نضرتها ونضرة» ص 15 .

(24) رحلة التجاني ص 15 .

الموحدين ، والدَّعوى لبني العبَّاس ، وسعوا جميعاً في فساد البلاد ، وهلاك العباد ، وكانوا يلتقون في كثير من الحروب وبينهم معاونة ومصالحة . وأصل قراقوش⁽²¹⁾ هذا وسبب دخوله من المشرق إلى المغرب «أن صلاح الدِّين⁽²⁵⁾ يوسف بن أيوب - المقدم الذكر - كان حصل بينه وبين نور الدِّين بعد تسلطه بمصر وحشة خاف بسببها أن يتزعها منه نور الدِّين فاحتاط لنفسه وبني [على]⁽²⁶⁾ الدفاع لنفسه أمامه ان وصل ، وذلك سنة ثمان وستين وخمسمائة⁽²⁷⁾ ، فانقسم أمره بين بلاد اليمن وبلاد المغرب فقال له أخوه تورانشاه⁽²⁸⁾ بن أيوب : أنا أتوجه إلى اليمن ، وأستفتحها وأعيد لها ان احتجت إليها⁽²⁹⁾ فتجهز إليها⁽³⁰⁾ في السنة المذكورة وافتتحها في السنة التي بعدها ، وقال له الملك المظفر تقي الدِّين ابن أخيه شاهنشاه بن أيوب : أنا أتوجه إلى المغرب فأفعل مثل ذلك ، فاشتغل تقي الدِّين بالنظر في حركته ثم انه زهد في بلاد المغرب وعرف ما بينه وبين إفريقية من العريان والمهالك فاستغنى من ذلك .

وقد كان سري خبر تغريبه إلى جمع من خواصه وجنده فاستشفوا⁽³¹⁾ لذلك وبنا عليه ، فلما امتنع⁽³²⁾ تقي الدِّين من التغريب فرمى ملكه شرف الدِّين قراقش الأرمني⁽³³⁾ بطائفة من قومه وإبراهيم بن قراتكين⁽³⁴⁾ بطائفة أخرى ، وكان سلاح دار⁽³⁵⁾ الملك المعظم شمس الدولة أخي صلاح الدِّين ، إلا أنه كان في أجناد / تقي الدِّين فجاز المذكوران بمن معهما إلى المغرب ، ولما جازا العقبة رأيا أن يفترقا لينفرد كل واحد بما قدر له من الملك والرئاسة⁽³⁶⁾ ، فأما إبراهيم⁽³⁷⁾ بن قراتكين فانه سار بجمعه ووقع في

(25) رحلة التجاني ص 111 - 112 .

(26) اضافة من الرحلة .

(27) 1172 - 1173 م .

(28) في الأصول : «تور شاه» والمثبت من رحلة التجاني ص 112 والكامل لابن الأثير 347/11 .

(29) اضافة من الرحلة يقتضيا التوضيح .

(30) في الأصول : «إليه» .

(31) في الرحلة : «فاشرا بوا» .

(32) كذا في ط والرحلة ، وفي ش : «اتقى» .

(33) في الأصول : «أرميني» .

(34) في الأصول وفي نسخة من رحلة التجاني أشار إليها المحقق «ابن قراتكين» والمثبت من رحلة التجاني النص المحقق

ص 112 وتاريخ ابن خلدون 397/6 .

(35) في الرحلة : «سلاح دار المعظمى وهو منسوب إلى الملك المعظم» ص 112 .

(37) رحلة التجاني 114 .

(36) رحلة التجاني 112 .

خاطره المهاجرة إلى بني عبد المؤمن والركوب عندهم فصده أشياء العرب المخالفون عليهم عن⁽³⁸⁾ ذلك وحملوه على الانفراد ، وطلب الرئاسة ، فساروا معه إلى قفصة واستولوا على جميع منازلها ، وأرسل إلى بني الرند⁽³⁹⁾ رؤساء قفصة فكنوه من البلاد لانحرافهم عن بني عبد المؤمن وحبهم في الخطبة العباسية التي ألفوها ، فدخلها إبراهيم وخطب فيها للخليفة العباسي ثم لصلاح الدين ، وقدر أن كان قتل إبراهيم المذكور وجملة من أصحابه على يد المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بعد ذلك بقفصة .

وأما قراقرش⁽⁴⁰⁾ فسار إلى سنترية⁽⁴¹⁾ فافتتحها وخطب فيها للسلطان صلاح الدين ولأستاذه تقي الدين بعده وكتب اليهما بذلك وفتح زلة⁽⁴²⁾ وأوجلة⁽⁴³⁾ وأزال من بلاد قرآن دولة «بني خطاب» الهواريين وكانت⁽⁴⁴⁾ قاعدة ملكهم زويلة وهي المعروفة «بزويلة بني الخطاب»⁽⁴⁵⁾ وعذب ملكها⁽⁴⁶⁾ محمد بن خطاب بن عبد الله بن زنفل بن خطاب آخر ملوكهم على المال حتى هلك ، وخطب فيها لصلاح الدين ولتقي الدين .

ولم يزل على هذه الطريقة يفتح البلاد ، ويخطب فيها لمن ذكر إلى أن وصل إلى طرابلس ، فاجتمع عليه الدّبايون ، ونهضوا معه إلى جبل نفوسة / فاستولى عليه ، واستخلص منه أموالاً عظيمة أرضى بها العرب ، وكان الاتفاق أن مسعود بن رمان⁽⁴⁷⁾ أمير الرياحيين خالف في ذلك الزمن على بني عبد المؤمن ، وفر أمامهم ووصل إلى هذه البلاد ، فكان تارة يكون مع زُغَب وتارة يكون مع دَبَاب ، فلما سمع بوصول قراقرش ومن عنده من رماة الغز سرّ بهم ، وتوجّه بمن معه من أبطال الرياحيين إليهم فحاصر قراقرش

[i/271]

(38) في الأصول : «من» .

(39) في ط : «الرنة» وفي ش : «رنة» والتصويب من الرحلة ص 114 .

(40) رحلة التجاني ص 112 .

(41) في الأصول : «سنترية» والتصويب من رحلة التجاني .

(42) في الأصول : «زويلة» وأثبت حسن حسني عبد الوهاب «زلة» عوض زويلة وقال «في بعض النسخ زويلة وهو غلط والأظهر أن تلك المدينة هي التي سُمّيها البكري زلي شيء واحد» .

(43) كذا في ط والرحلة ، وفي ش : «واجلة» .

(44) في الأصول : «وكان» .

(45) في ش : «ابن خطاب» وفي ط : «ابن الخطاب» والتصويب من الرحلة ص 112 .

(46) في الأصول : «ملكهم» .

(47) في الأصول : «ريمان» وأثبت حسن حسني عبد الوهاب في الرحلة : «رمان» وقال في الهامش : «في بعض النسخ

ابن زمان» وعند ابن خلدون : «ابن زمان» 394/6 .

طرابلس ، وصادف بلادًا لم تتوقع⁽⁴⁸⁾ تأثيرًا ولا مخالفاً فهي خالية من الأجناد ومن العُدَد والأقوات ، فاستولى عليها ، فغظم اذ ذاك أمره ، وتوقع من بتونس وغيرها شره ، ووصلت إليه العُربان من كل مكان ، فاحتاج إلى تكليف الرعية فوق طاقتهم ، فانفض الناس عنه بعد أن كانت القلوب مالت إليه ، وأقبلت عليه ، ثم زاد بعد ذلك ، ودخل إفريقية ، وتعاون في حروبه بالميورقيين عند مقاتلة الموحدين ومكث كذلك نحوًا من أربعين سنة⁽⁴⁹⁾ .

ولمّا اتصل بالخليفة المنصور يعقوب⁽⁵⁰⁾ ما نزل بإفريقية نهض من مراكش سنة ثلاث وثمانين⁽⁵¹⁾ لحسم هذه الدول ، فوصل إلى تونس واستراح بها ، ثم سرح مقدمه الشيخ أبا يوسف يعقوب⁽⁵²⁾ بن أبي حفص بن عبد المؤمن «فالتقوا قرب قفصة فانهمز الشيخ يعقوب وجماعته ، وأخذت أسلابهم ، وتسمى هذه الوقعة وقعة عمرة ، قتل فيها أكثر جيش المنصور ، وتحامل من سلم من القتل فوصل قفصة فاستدعاهم الميورقي موهماً⁽⁵³⁾ لهم بالأمان ، فلمّا اجتمعوا أجال⁽⁵⁴⁾ فيهم السيف ، فامتعض المنصور من ذلك ، / ونكب عن المشورة ، واستبدّ برأيه وتحرك من تونس واستخلف عليها أخاه السيد أبا اسحاق ونزل رادس متلومًا وقد ظهر تكاسل الناس ، فعاقب أقوامًا على تأخيرهم ، وتوجّه سنة ست وثمانين وخمسائة⁽⁵⁵⁾ فلمّا كان على فرسخين من الحمة سرح سرية إلى منازل العرب الذين مع الميورقيين ، فشنت الغارة عليهم واكتسحت أموالهم ، فقلّ ذلك شوكتهم ، ثم لبس المنصور لامته وناجزهم الحرب مباشرة بنفسه ، فاستوصلت الميورقية ، واتفق أن أصاب علي⁽⁵⁶⁾ بن غانية الميورقي سهم في رقبته فكانت فيه روحه ، وأفلت أخوه يحيى وقراقش فنبعهم الموحّدون سالكين سبيلهما حتى أشرفوا على توزر ، فوجدوهما

(50) يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن .

(51) وخمسائة 1187 م .

(48) في الأصول : «تستوقع» .

(49) رحلة التجاني ص 113 .

(52) وهو ابن عمه .

(53) في الأصول : «فاشد عليهم الميورقية موهمين» والتصويب من الرحلة ص 136 .

(54) في الأصول أجالوا .

(55) 1190 م .

(56) لم يقتل علي بن غانية في هذه الواقعة وإنما هلك قبل ذلك سنة 1188/584 م في حروبه مع أهل نفزارة ، أصابه سهم غرب كان فيه هلاكه فدفن هنالك وعني على قبره ، وحمل شلوه إلى نيورقة فدفن بها وقام بالأمر أخوه يحيى بن اسحاق ، انظر تاريخ ابن خلدون 397/6 والتجاني الذي ينقل المؤلف عباراته حرفيًا إلا في القليل ، لم يذكر ذلك بل ذكر أنه أفلت مع قراقش ، الرحلة ص 136 .

قد توغلا في صحرائها فرجعوا عنهما ، وانصرف المنصور لقابس فأحاط بها براً وبحراً إلى أن فتحوا له أبوابها واستسلموا .

ثم توجه المنصور إلى قفصة ، فحاصرها حصاراً شديداً إلى أن خرج إليه أهلها راغبين في العفو فشارطهم على تأمين أهل البلد في أنفسهم خاصة وتبقى أملاكهم في أيديهم على حكم المساقاة وجميع ما عندهم من الحشود والغرباء⁽⁵⁷⁾ يتزلون على الحكم ، فوقع الاتفاق على ذلك ، وخرج جميع من في البلد من أهله⁽⁵⁸⁾ وغيرهم حتى لم يبق فيه⁽⁵⁹⁾ إلا النساء فيز أهل البلد وأمرهم بالرجوع إلى بلدهم ، وبقي من كان به⁽⁶⁰⁾ من الغرباء⁽⁵⁷⁾ ، والحشود والجنود فثقفوا ساعة ، ثم جلس المنصور باثر صلاة الظهر بموضع جلوسه وأخذ الناس مراتبهم ، وأمر بأولئك / المثقفين فدُبحوا بين يديه أجمعين ، ولم يقلت منهم أحد ، وأمر المنصور بهدم سور قفصة وفرّق عليه الجند ، ففرغوا منه في يومين ، وعاد خبراً بعد عين ، وكان المنصور آلى على نفسه أيام حصارها أن يقطع كل يوم ألف نخلة ، فقطع أكثر نخيلها⁽⁶¹⁾ .

[أ/272]

فلما استعاد المنصور ما كان استولى عليه بنو غانية رجع لتونس ، ثم انصرف إلى مراكش فأظهر قراقش الإنابة ، وهاجر إلى الموحدين ، وذلك في سنة ست وثمانين وخمسمائة⁽⁶²⁾ «فاجتمع⁽⁶³⁾ قراقش بالسيد زيد ابن السيد [أبي]⁽⁶⁴⁾ حفص وهو اذ ذاك الوالي عليها من قبل المنصور ، فأقام بها زماناً تحت كرامته ، ثم انصرف فارّاً عنه إلى قابس ، وخادع⁽⁶⁵⁾ أهلها حتى دخلها فقتل جماعة منهم ، وأظهر الرجوع عن الإنابة ، واستدعى أشياخ العرب الدّبّايين⁽⁶⁶⁾ فقتل أعيانهم [بقابس]⁽⁶⁷⁾ ومن جملة من قتل منهم

(57) في الأصول : «الغرب» والتصويب من رحلة التجاني ص 138 .

(58) في الأصول : «أهلها» .

(59) في الأصول : «فيها» .

(60) في الأصول : «بها» .

(61) رحلة التجاني ص 136 - 138 .

(62) 1190 م .

(63) انتقل إلى صفحة 104 من رحلة التجاني حيث الحديث عن قابس .

(64) الزيادة من الرحلة ص 104 وكتاب العبر 398/6 وهكذا كتبها المؤلف فيما بعد في نصه .

(65) في ش : «وخادم» وهو تحريف .

(66) «والكعوب من بني سليم» ابن خلدون 398/6 .

(67) ساقطة من ش .

محمود بن طوق بن بقية وإليه تنسب المحاميد ، وحُميد بن جارية وإليه تنسب الجوّاري في سبعين من كبارهم ، وذلك بداخل قصر العروستين من قابس في موضع منها معلوم ، ثم توجه قراش بعد فتحها أيضًا إلى طرابلس فحصل تحت ولايته قابس وطرابلس ، ثم وقع بين يحيى بن غانية الميورقي وقراش تغير بعد وصول ابن غانية للجريد فسار إليه بطرابلس فخرج قراش وفرّ إلى الجبال ولم يدخل طرابلس خوفًا من الحصار⁽⁶⁸⁾ فرجع ابن غانية لطرابلس وحاصرها حصارًا شديدًا حتى فتحها بعد مقاساة ومدافعات ووقعات / «ثم أخذ⁽⁶⁹⁾ في الحركة إلى قابس ، وكان نائب قراش خرج منها لما انهزم قراش ، ووجه إليها الشيخ أبو سعيد بن أبي حفص من تونس حافظًا من الموحدين يعرف بابن تافراجين ، فتحرك ابن غانية إليها ووصل إلى المنزل المعروف بزريق - بتقديم الزاي على الراء - وكتب إلى أهل قابس ينذرهم ويحذرهم بما حاصله⁽⁷⁰⁾ : «ولمّا عزمنا على قرع بابكم ، والحلول بجنابكم ، رأينا تقديم الإنذار إليكم ، وإيراد النصيحة عليكم والكفّ عنكم ثلاثة أيام لا تُمد لكم فيها يد⁽⁷¹⁾ ، ولا يتقدم⁽⁷²⁾ إليكم بالإضرار أحد ، لنعلم ما عندكم ، ونتبين⁽⁷³⁾ غيكم من رشدكم ، فإن آثرتم الطاعة ، وتبعتم الجماعة ، مددنا لكم أكتاف العدل ، وأتبعنا فيكم كريم القول وصحيح الفعل ، وإن أيتّم الأّ خلاف ذلك فقد أبلغنا النفس عذرًا ، وأتينّا بالتبرئ من أمركم برّا ، ولا تغتروا بأهل طرابلس فلو كان لهم سواد يقطع ، أو مياه تصدع⁽⁷⁴⁾ وتمنع ، لجروا إلى الطاعة ، وحملوا أنفسهم منها فوق الاستطاعة» .

فلمّا انقضى أجله الذي حدّ ، (ولم يبرز إليه منهم أحد)⁽⁷⁵⁾ ، ولم ير منهم إجابة ولا أنس منهم إنابة ، زحف إليها بجموعه فحاصرها حصارًا شديدًا ، وقطع جميع غابتها ، فيقال إنه لم يترك منها الا نخلة واحدة تركها عبدة لهم ، فأناوبوا إليه بعد أن اشتروا عليه

(68) ورجع إلى بلاد الجريد فاستولى على أكثرها ، ابن خلدون 398/6 .

(69) عاد إلى النقل من رحلة التجاني ص 105 .

(70) في رحلة التجاني : «ومن بعض فصول كتبه في ذلك» .

(71) في الأصول : «يدا» .

(72) في الأصول : «تقدم» .

(73) في الأصول : «يتبين» .

(74) كذا بالأصول وبعض نسخ رحلة التجاني ، وفي النص المحقق منها «تصد» وهو أصوب ص 106 هامش 1 .

(75) زيادة عما في رحلة التجاني .

مسألة واليه بن تافراجين ، وان يتوجّه بماله وأهله في البحر ، فاشترط لهم ذلك ، ووفى به ، وأغرمهم ستين ألف دينار عقوبة / لهم⁽⁷⁶⁾ وكان ذلك سنة احدى وتسعين وخمسمائة⁽⁷⁷⁾ . [273/أ]

ثورة محمد بن عبد الكريم الرجراجي :

«وفي سنة خمس وتسعين⁽⁷⁸⁾ ثار بالمهديّة محمد بن عبد الكريم الرجراجي⁽⁷⁹⁾ على المنصور فلما توفي المنصور ليلة الجمعة ثاني ربيع الأولى من السنة المذكورة وولي ابنه بعده الناصر واستوزر أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص صاحب عبد المؤمن استبدّ ابن عبد الكريم بنفسه ، وقبض على والي المهديّة الشيخ أبي علي يونس بن الشيخ أبي حفص ابن عبد المؤمن ، وكان محمد بن عبد الكريم هذا ممن نشأ بالمهديّة وكان أبوه من جندها الساكنين بها المنظور⁽⁸⁰⁾ اليهم فيها ، وهو مضاف إلى قبيلة كُومية⁽⁸¹⁾ ، وكانت⁽⁸²⁾ لمحمد هذا شجاعة وبسالة ظهرت له في مواطن كثيرة مع الأعراب وغيرهم ، وكان قد جمع لنفسه خيلاً ورجالاً من الرعايا⁽⁸³⁾ يغزو بهم على الأعراب المفسدين ، فيكفّ ضررهم واعتداءهم ، وقد علم إقدامه وغناؤه فقدّمه الوالي على ذلك وأطلق يده فيمن⁽⁸⁴⁾ اعتدى منهم ، فكان يقبض عليهم فيقتل⁽⁸⁵⁾ منهم من يقتل ولا يطلق من حبسه⁽⁸⁶⁾ منهم إلّا بعد دفع أموال كثيرة واعطاء العهود والمواثيق على الكفّ عن العناد والفساد ، فكانت العرب تهابه ولا تنتجع أرضاً إلّا بأذنه ، فارتفع صيته بذلك وسما ذكره وحصل الأمن به في تلك

(76) رحلة التجاني ص 105 - 106 أثناء الكلام عن قابس ، والمؤلف نقل عباراته حرفياً الا في القليل .

(77) 1195 م وانتقل المؤلف إلى صفحة 350 من رحلة التجاني .

(78) 1198 م .

(79) كذا في الأصول ورحلة التجاني ، أو الزكراكي بالكاف الفارسية التي تلفظ كالجيم المصرية .

(80) في رحلة التجاني : «المرتبتين» .

(81) في الأصول : «كريمة» والتصويب من رحلة التجاني ص 350 .

(82) في الأصول : «وكان» .

(83) في ش : «الرعاية» .

(84) ساقطة من ش وفي ط : «في من» .

(85) في ش : «فقتل» .

(86) في الأصول : «حيي» والتصويب من رحلة التجاني .

الجهات ، فكان يُدعى له في المساجد وَعَقِب الصلوات .

[273/ب] فاتفق أن قدم الشيخ أبو سعيد ابن الشيخ أبي حفص على إفريقية / من قبل المنصور فولى أبو سعيد على المهديّة أخاه أبا علي يونس بن أبي حفص ، فلما وصل إليها واطلع على حال ابن عبد الكريم بها طالبه بأسهامه فما يناله من أموال الأعراب المفسدين ، فامتنع ابن عبد الكريم من ذلك وطلب من الشيخ أبي علي أن يجريه على ما أجراه عليه الولاة من قبله ، فقبض الشيخ أبو علي عليه وأهانته وامتنعته ، فبعث ابن عبد الكريم إلى أخيه الشيخ أبي سعيد يستشفع به فأعرض الشيخ أبو سعيد عنه ، واتفق باثر ذلك أن عظم فساد العرب في الساحل وكثر التشكي منهن ، فألح الناس على الشيخ أبي علي في إطلاق ابن عبد الكريم وكادت⁽⁸⁷⁾ تقوم بسبب ذلك فتنة فاضطر إلى إطلاقه ورد إليه جنده الذين كانوا متميزين بصحبته ، وأمره بالخروج لكف أولئك العربان عن الفساد ، فاغتم ابن عبد الكريم ذلك وخرج عن المهديّة مبادراً وضرب أخيبته بظاهاها ، وأقام هنالك يومين إلى أن اجتمع إليه الناس ، فشكا إليهم ما فعل الشيخ أبو علي به وعرفهم أنه عازم على الغدر به إن وقعت منهم موافقة له ، فأجابوه إلى ذلك وصوّبوا له رأيه ، فنهض بهم في ثلث الليل الأخير إلى المهديّة ، فلما فتح بابها دخل إليها بمن أحب من جنده وأمر بإغلاق الباب ، ثم بادر إلى قصر الشيخ أبي علي وكان ابن عبد الكريم مثلاً فأنكره البواب وأغلق باب القصر / فحسر عن وجهه فعرفه ففتح له وهرب فدخل ابن عبد الكريم وجماعته إلى القصر ، وسمع الشيخ أبو علي أصواتهم فخرج إلى رحبة القصر عزلاً⁽⁸⁸⁾ من السلاح ، فقبض ابن عبد الكريم عليه وأحب قتله فشفع فيه بعض أصحابه فاستحياه⁽⁸⁹⁾ وثقفه في موضع من القصر ، وذلك في شهر شعبان من سنة خمس وتسعين⁽⁹⁰⁾ المذكورة آنفاً ، فلم يزل هنالك إلى أن وصل فداؤه من قبل أخيه أبي سعيد ابن أبي حفص على يدي محمد بن عبد السلام الكومي [وذلك] خمسمائة دينار ذهباً ، فأطلقه ابن عبد السلام المذكور وكان صهراً لابن عبد الكريم .

(87) في الأصول : «وكاد أن» وكادت تقوم بحذف «أن» قبل تقوم كما في رحلة التجاني ، وهو الصحيح الفصيح قال تعالى : «إذا أخرج يده لم يكد يراها» .

(88) جاء في تاج العروس : «ومنه حديث سلمة بن الأكوع - رضي الله تعالى عنه - رآني رسول الله ﷺ بالحديبية عزلاً فأعطاني جحفة ، الحديث أي ليس معي سلاح» 15/8 . والأكثر استعمالاً : «أعزل» . في الرحلة «عارياً» .

(89) في الأصول : «فاستحيى» والمعنى أنه أبقي على حياته .

(90) جوان 1199 م .

ووصل الشيخ أبو علي لأخيه الشيخ أبي سعيد بتونس فزجره وهجره ولم يزل غاضباً⁽⁹¹⁾ عليه مدة من الدهر ، واستبد ابن عبد الكريم بمحسن المهديّة وتسمى من الأسماء السلطانية «بالمتموكل على الله» وكانت الكتب تنفذ عنه بذلك وقوي أمره ، ووصل إلى تونس والسيد أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن والياً عليها ، فعزم ابن عبد الكريم على محاصرته فحشد جموعه ووصل إلى تونس في شهر المحرم سنة ست وتسعين⁽⁹²⁾ ، وكان الشيخ أبو سعيد إذ ذاك معزولاً فدار ابن عبد الكريم بعسكره إلى قرطاجنة فضرب أخيبته وخيامه عند مدخل البحر⁽⁹³⁾ وهو حلق الوادي ، فأمر السيد أبو زيد عند ذلك بتسيير⁽⁹⁴⁾ القطع في البحر وخروج العسكر في البر ، وكان ابن عبد الكريم قد أكنن للجيش كميناً في بعض المواضع ، فلما وصل عسكر تونس / ووقع القتل بينه وبين ابن عبد الكريم خرج ذلك الكمين فولى العسكر منهزماً وقتل منه مقتلة عظيمة ، ولم ينج منه إلا القليل ، وترامى منه جماعة في البحر فقتلوا هنالك ، وانسبست جموع ابن عبد الكريم في تلك الجهات فأخذوا من المرسى المعروفة بمرسى البرج أموالاً كانت للناس هنالك وأمتعة ، وانتهبوا من تلك القرى ما قدروا عليه .

وبعث السيد أبو زيد والشيخ أبو سعيد إلى ابن عبد الكريم أشياء من الموحدين يعيون عليه فعله ويدكرون انتباهه للموحدين ويسألونه الرجوع عنهم ، فأجاب إلى ذلك ، ورجع إلى المهديّة فأقام بها أشهرًا ، ثم حدثه نفسه بحصار يحيى بن اسحاق الميورقي وهو إذ ذاك بقابس ، وقد حدثت بينهما وحشة ومنافرة ، فخلف على المهديّة ابنه عبد الله ، وتوجّه إلى قابس ، فلما أشرف عليها هاله أمرها وعلم أن لا طاقة له بها فارتحل عنها إلى قفصة وحكم عليها ، وعند استقراره بها وصل إليه الخبر أن الميورقي خرج إليه من قابس في اتباعه فخرج ابن عبد الكريم بجيوشه من قفصة ونزل بقصور لالة ، ووصل إليه الميورقي فالتقى هنالك فكانت⁽⁹⁵⁾ الهزيمة على ابن عبد الكريم وولى هارباً لا يلوي على شيء إلى أن حصل بالمهديّة ، وتسرب إليه من سلم من جنده فحصلوا بها واحتوى

(91) في الأصول «مغضباً» .

(92) أكتوبر - نوفمبر 1199 م .

(93) عند مدخل البحر إلى البحيرة وهو المكان المعروف بجلي الوادي : رحلة التجاني ص 352 .

(94) في الأصول : «تعمير» .

(95) في ش : «فكان» .

الميورقي⁽⁹⁶⁾ على أخيبته وجميع أمواله وأتبعه إلى المهديّة فنزل عليها / محاصراً لها أول سنة [275/أ] سبع وتسعين وخمسمائة⁽⁹⁷⁾.

يحيى الميورقي يستولي على المهديّة وتونس وغيرها :

وكان من دهاء الميورقي أن بعث إلى السيّد أبي زيد بتونس يسأله السلم ويطلبه في أثناء كتابه الاعانة بقطع في البحر يتمكن بها من ابن عبد الكريم ، وكان السيّد أبو زيد حقد على ابن عبد الكريم ، فأجابه إلى ذلك وبعث إليه قطعتين ، فلما رآهما ابن عبد الكريم سقّط في يديه فأجمع على توجيه ابنه عبد الله إلى الميورقي ليصالحه على تسليم المهديّة إليه ويشترط المسألة في نفسه وأهله وماله ، فأجابه إلى ذلك ، ورجع عبد الله فأخرج أباه من المهديّة وتوجها إلى يحيى للسلام عليه ، فلما وقعت عينه عليهما أمر بهما فصرفا إلى خيمتين ثقفا بهما مفترقين ، ودخل يحيى لحصن المهديّة ، واستولى على ما كان لابن عبد الكريم بها من الذخائر السنية ، ثم أدخله هو وولده المهديّة فثقفهما ببعض سجونها فلما كان بعد أيام يسيرة أخرج الأب من السّجن ميتاً لا أثر به فسُلّم إلى أهله فدفنوه بقصر قراضة ، وبقي ابنه عبد الله يتوقع الموت كل ساعة إلى أن أخرجه يحيى وأظهر نفيه إلى جزيرة ميورقة ليكون هناك تحت نظر أخيه فعمر له قطعة توجّه فيها ، فلما حاذى أرباب السّقينة به القلّ بمقرية من قسنطينة ألقوه بقيوده في البحر ، فانقضى أمر ابن عبد الكريم وولده⁽⁹⁸⁾.

[275/ب] وحصلت المهديّة للميورقي ولم يبق له بإفريقية منازع وحصلت تحت بيعته / طرابلس ، وقابس ، وصفاقس ، وبلاد الجريد كلّها ، والقيروان ، وتبسة ، ووصلت بيعته بونة فبنى على محاصرة تونس ، فنزل عليها يوم السبت من محرّم السنة المذكورة ، فنزل بالجبل الأحمر⁽⁹⁹⁾ جوفها ، وأقام هنالك أياماً ثم انتقل منه فنزل بابي السوقة وقرطاجنة ونزل أخوه الغازي على الموضع المعروف بخلق الوادي فردمه حتى عاد أرضاً يبساً

(96) يحيى .

(97) 1200 م .

(98) ما يتعلق بالرجاعي وابنه نقله المؤلف من رحلة التجاني ص 350 - 354 أثناء كلامه عن المهديّة ويستمر النقل منها .

(99) في الأصول : «الأخضر» والتصويب من رحلة التجاني ص 355 .

وَقَطَعَ تصرّف القوارب الداخلة إليه والخارجة عنه ، وترك عليه من يحرسه ، وتوجّه فترل بقلي المدينة بمقربة من باب الجزيرة وردم الخندق الذي هنالك ونصب أمام البلد مجانيق وآلات الحرب وأقام محاصراً لها كذلك أكثر من أربعة أشهر .

فلما كان يوم السبت السابع من شهر ربيع الآخر⁽¹⁰⁰⁾ استولى على البلد وقبض على السيّد أبي زيد⁽¹⁰¹⁾ وولديه وجماعته من الموحدين فثقفوا بدار بُنيت لهم داخل القصة وجعل عليهم من يحرسهم ، وأمن أهل تونس في أنفسهم ورباعهم ، وأغرمهم مائة ألف دينار ، ذكر أنها هي التي لزمته في النفقة عليها ، قسّطها أهل تونس على أنفسهم بحسب أحوالهم وسعة أموالهم . وجعل القابض لها أبا بكر بن عبد العزيز بن السكّاك من أهلها ، ولحقهم في استخلاصها من العنف والشدة على يدي ابن عصفور - ثقة الميورقي وكاتبه - مما أدى إلى قتل جماعة منهم أنفسهم ورأوا أن ذلك أروح لهم ، ومن جملتهم ابن عبد الرفيق المقدم على قبض مال المخزن وغيره / من الناس ، ولما علم الميورقي بذلك أمر برفع الطلب عن أهل تونس فيما بقي قبلهم⁽¹⁰²⁾ من مال المغرم وذلك خمسة عشر ألف دينار ، وعامل الناس بالإحسان ، ونادى فيهم بالأمان .

وفي أثناء ذلك بلغه عن أهل جبل نفوسة توقّف عن أداء مغرمهم ، فخرج بنفسه إليهم واستصحب معه السيّد أبا زيد وولديه يرحلون برحيله ويتزلون بتزوله إلى أن استوفى من أهل نفوسة مغرمهم وعاد إلى تونس ، واستقرّ بقصبتها ، فاتّصل⁽¹⁰³⁾ بالناصر ما دهم أهل افريقية منه ومن ابن عبد الكريم وقرافش فامتعض⁽¹⁰⁴⁾ لذلك وأخذ في الحركة إليها ، وكانت الأخبار تأتي على الميورقي بحركته فيدفعها إلى أن وصل رجاله فأخبروه بوصول الناصر إلى بجاية ، فوجّه حينئذ ذخيرته⁽¹⁰⁵⁾ وأمواله إلى المهدية لتكون تحت احاطة⁽¹⁰⁶⁾ ابن عمّه علي بن الغازي ، وخرج من تونس فوصل إلى القيروان وأقام بها أياماً ثم انتقل إلى قفصة ، فاجتمع بالعربان هنالك ، وأخذ مواثيقهم ورهائنهم على الخدمة معه .

(100) من سنة ستائة ديسبر - جانني 1203 - 1204 م .

(101) كذا في ط ورحلة التجاني ، وفي ش : «يزيد» .

(102) كذا في ط ورحلة التجاني ، وفي ش : «عليهم» .

(103) كذا في ط ورحلة التجاني ، وبعدها في ش : «الخبر» .

(104) أشار محقق الرحلة إلى أنها مختلفة باختلاف النسخ ، ووجد «فاتنص» و«فاتنعض» و«فاننعض» واختار الكلمة الأخيرة لنصه .

(106) في الرحلة : «حياطة» .

(105) في الرحلة : «ذخائره» .

يحيى الميورقي يستمر في ثورته ويصده عنها الناصر الموحد ويقتل منه إفريقية :

وبلغه في خلال ذلك أيضاً عن أهل طُرّة من بلاد نِفْزَاوَة ما أوجب أن ارتحل إليها ، فأطلق أيدي الجند عليها فقتلوا كثيراً من أهلها وانتهبوا أموالهم ، وأطلقوا النار في بعض دورهم⁽¹⁰⁷⁾ ، ثم انتقل إلى حَامّة مطماطة ، ووصله الخبر أن الناصر نكب عن طريق تونس وأخذ على طريق قفصة في أتباعه ، فانتقل إلى جبل دَمْر متحصناً به ، ووصل الناصر إلى قفصة / فأقام بها أياماً ثم توجّه إلى قابس مستفهماً عن أخبار يحيى [276/ب] فعرف بانتقاله إلى جبل دَمْر فولى على قابس بعض ولاته وتوجّه إلى المهدية ، (وكان الوالي عليها علي بن الغازي ابن عم يحيى)⁽¹⁰⁸⁾ فنزل عليها بمجموعه ونصب عليها الآلات الحربية ، وقدم في أثناء ذلك الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص لقتال الميورقي ، فتوجّه الشيخ أبو محمد بجيش ضخم إليه فأحب يحيى الفرار من الجبل إلى الصحراء فشجعه أصحابه وحرّضوه على الثبوت له فالتقيا ، فكانت للشيخ أبي محمد الواقعة المعروفة بوقعة «تاجراً» (جبل قرب قابس)⁽¹⁰⁹⁾ فاستأصل فيها أكثر أجناد يحيى ، وأجلت الحرب عن قتل أخيه جبارة ، وكتبه علي بن اللمطي ، وعامل له يقال له «الفتح بن محمد» وفرّ يحيى في شُرْذمة قليلة ، وكان قد قدم عياله وأهله على نحو خمسة فراسخ من المعركة فلما قرّ أخذهم بين يديه ولولا ذلك لسبوا ، واستنقذ الشيخ أبو محمد من يده السيد أبا زيد حياً بعد أن ضربه الموكل به بسيفه ضربات قصد بها قتله فأعجل عن الاجهاز عليه ، واستنقذ أيضاً جماعة من الموحدين سواه كانوا في يده وأخذ رايته السوداء ، وأحاط الموحّدون بجميع ما في العسكر من الأموال والأبل فانتهبوها ، ورجع الشيخ أبو محمد بجميع ذلك إلى الناصر وهو محاصر للمهدية ، وأركب الأمين الوكيل بثقاف الشيخ أبي زيد على جمل سام شهرة له ويده الزاية السوداء فطيف به⁽¹¹⁰⁾ على المهدية ، وكانت الهزيمة ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة / اثنتين وستائة⁽¹¹¹⁾ ، ووضع⁽¹¹²⁾ [277/أ]

(107) في الأصول : «دورها» والتصويب من الرحلة ص 356 .

(108) زيادة عما بالرحلة .

(109) تفسير من المؤلف .

(110) في الأصول : «بها» والتصويب من رحلة التجاني ص 358 .

(111) 2 أكتوبر 1205 م .

(112) في الرحلة : «ورفع» .

حمادى⁽¹¹³⁾ المالتى المشهور بالابداع في قطع الكاغذ هذين البيتين مقطوعتين [في الكاغذ]⁽¹¹⁴⁾

[وافر]

رأى⁽¹¹⁵⁾ يحبى أمام الحق⁽¹¹⁶⁾ يأتي فقَرَ⁽¹¹⁷⁾ أمام من وافى إليه
فشبهت الشقي بياء يرمى⁽¹¹⁸⁾ ولائُ الأمر قد دخلت عليه

وكمل⁽¹¹⁹⁾ التبريز بالغنائم على ملاحظة من المحصورين بالمهدية وهم مع ذلك مكذبون بهزيمة يحبى مفتحشون في السب ، فألحَّ النَّاصر في قتالهم ، وجمع المجانيق على جهة واحدة من السور ، حتى كثر الموت والجراحات فيهم وتحققوا انهزام يحبى فسقط في أيديهم وطلبوا الأمان فاستعفوا به ونزل علي بن الغازي وشيعته على أن يخلي سبيلهم ويسلموا البلد ويكونوا في أمان الموحدين إلى أن يصلوا إلى يحبى حيث كان ، وكان ذلك في السابع والعشرين من جمادى الأولى ، فكان بين هزيمة «تاجرا» وفتح المهدية أربعة وسبعون يوماً .

وخرج علي بن الغازي من المهدية يحملته وحاشيته فضرب أخبثته بقصر قُرَاضَة فبات هنالك تلك الليلة ثم دعته نفسه للدخول تحت طاعة الموحدين ، فبعث إلى النَّاصر يعرفه بذلك ويقول الآن أطعت بعد أن صرت في حكم نفسي فاستحسن النَّاصر ذلك منه واستدعاه وأحسن إليه وأنزله عنده ، ووافق ذلك وصول [مملوك النَّاصر]⁽¹²⁰⁾ ناصح صاحب ديوان سبته بالهدايا العظيمة التي جمعها في المدَّة الطويلة ، وكان فيها ثوبان قد نسجا بأنواع الجواهر وجعلت فيهما أعلام من الياقوت والأحجار النفيسة⁽¹²¹⁾ / فأمر النَّاصر بحمل جميع تلك الهدية إلى علي بن الغازي فمات ناصح⁽¹²²⁾ بأثر ذلك كمداً ،

[277/ب]

(113) في الأصول : «حماد» .

(114) زيادة من الرحلة يقتضيا السياق .

(115) في الأصول : «يفرى» .

(116) في مختلف نسخ الرحلة : «يفرى» و «يفرى» و «يفرى» .

(117) في الأصول : «وعمل» .

(118) زيادة من رحلة التجاني للتوضيح .

(119) في الأصول : «ياقوت وأحجار نفيسة» .

(120) كذا في ط والرحلة ، وفي ش : «ناصر» .

وترك ابنين كالبدرين⁽¹²³⁾ قال فيهما أبو الحسن علي بن محمد الاشيلي⁽¹²⁴⁾.

[رمل]

ناصر قد كان عبداً⁽¹²⁵⁾ ناصحاً في جميع الأمر⁽¹²⁶⁾ حتى [في] البنين
لم يَلِدْ الا هلالاً نيراً فاتناً حيث بدا للناظرين

وأقام علي بن الغازي مع الناصر إلى أن توجه إلى تونس فتوجه صحبته ثم طلع معه إلى
مراكش ، وتحرك الموحدون إلى غزو جزيرة الأندلس فتحرك معهم واستشهد بها مع من
استشهد من الموحدين - رحمهم الله ونفعنا بهم - .

وعفا الناصر على جميع من كان بالمهدية من المقاتلين وغيرهم واشتغل برم
سورها ، وترتيب أمورها ، ثم ترك الشيخ أبا عبد الله محمد بن يغمور الهنتاني والياً عليها
من قبله ، وكان انتقاله عنها موفى عشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وستائة⁽¹²⁷⁾ .
ونفذت كتب الفتح إلى المغرب والأندلس واستقر بتونس بغرة رجب فأقام بها بقية
العام المذكور وأكثر عام ثلاثة وستائة⁽¹²⁸⁾ .

نهاية قراقوش ويحيى الميورقي بن غانية :

«وسرح⁽¹²⁹⁾ أثناء ذلك أخاه السيد أبا اسحاق ليتبع المفسدين فسار إلى أن دوح ما
وراء طرابلس ، وشارف أرض سرت وبرقة ، وانتهى إلى سويقة ابن مذكور ، وقر ابن
غانية إلى صحراء برقة وانقطع خبره ، وانكفأ السيد أبو يوسف راجعاً إلى تونس ، وعزم

(123) في الأصول : « كالبدر » كما في بعض نسخ رحلة التجاني والتصويب طبقاً لتصويب محققها ص 359
هامش 2 .

(124) في رحلة التجاني : « أبو الحسن بن حجرى الاشيلي » .

(125) في الأصول : « عندنا » .

(126) في الأصول وفي بعض نسخ رحلة التجاني : « الأمور » والتصويب طبقاً لما صوبه محقق الرحلة ص 359
هامش 4 .

(127) 1 فيفري 1206 .

(128) نقل المؤلف عن رحلة التجاني قدوم الخليفة الناصر الموحدي إلى تونس وأمره بمطاردة يحيى بن غانية وابن
عبد الكريم الرجرجي بالمهدية وحصار تونس ، رحلة التجاني ص 350 - 360 أثناء كلامه عن المهدية ،
وحذف ما ليس له صلة بيحيى بن غانية .

(129) النقل الموالي من كتاب العبر لابن خلدون باختصار قليل 582/6 - 583 .

[278/أ]

النَّاصِر على الرحيل للمغرب»⁽¹³⁰⁾ «فنظر فيمن يوليه افريقية فوقع اختياره على الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص ، / فعقد له على ذلك ، وسار إلى المغرب سنة ثلاث وستمائة»⁽¹³¹⁾ ، فلما استقر بها وسافر النَّاصِر «جمع»⁽¹³²⁾ الميوري بن غانية العرب من الذواودة وغيرهم ، فجاء بهم إلى قتال الموحدين بتونس ، فخرج إليه الشيخ أبو محمد عبد الواحد مع بني عوف من سليم فالتقوا بنواحي تبسة⁽¹³³⁾ سنة أربع وستمائة⁽¹³⁴⁾ فانهمز الميوري⁽¹³⁵⁾ ولجأ إلى جهة طرابلس»⁽¹³⁶⁾ وكان يحیی بن غانية إذا رأى أحوال افريقية وما آل إليه الأمر يتمثل بقول القائل في الحجاج :

[وافر]

وقد كان العراق له اضطراب فثقف أمره بأخي ثقيف

«وفي هذه المدة⁽¹³⁷⁾ استقر قراقش بؤدان بعدما كسره يحيى بن غانية على طرابلس - كما تقدّم - فتوجّه الميوري إليه بمن استصحب معه من العرب الدّبايين الموتورين من قبل قراقش فحصره بها إلى أن فني طعامه وأعطى بيده سلما ، واشترط على العرب أن يقتلوه قبل قتل ولده ، وكان شديد المحبة له ، فلما خرج هو وولده اليهم قال له الولد : يا أبت إلى أين يروحون»⁽¹³⁸⁾ بنا ؟ فقال له : إلى حيث رحنا بآبائهم فقتلوه ثم قتلوا ولده بعده وصلبه الميوري بظاهر ودان سنة تسع وستمائة⁽¹³⁹⁾.

«(وفي سنة عشر توفي النَّاصِر ، وقام بالخلافة بعده ابنه يوسف المستنصر)⁽¹⁴⁰⁾

(130) كتاب العبر 583/6.

(131) 1206 - 1207 م والجملة التي بين ضفرين مشتركة بين صفحة 403 وصفحة 404 من كتاب العبر ج 6 ، الأولى في الخبر عن ابن غانية ، والثانية في باب الخبر عن اماره أبي محمد ابن الشيخ حفص بافريقية .

(132) النقل من صفحة 403 من كتاب العبر الجزء 6 .

(133) بشرو من نواحي تبسة ، نفس المصدر .

(134) 1207 - 1208 م .

(135) قصد أولاً بلاد زناتة من نواحي تلمسان ، وانفض عسكره بناهت ودخلوا افريقية فكانت هزيمة ساحقة دارت على الميوري وجموعه ولحق قتلهم بناحية طرابلس ، كتاب العبر : 585/6 .

(136) كتاب العبر 403/6 .

(137) النقل بتصرف بسيط من رحلة التجاني ص 110 أثناء الكلام عن قابس .

(138) كذا في ط وفي ش : «يريدون» وفي الرحلة : «يروحو» .

(139) 1212 - 1213 م .

(140) زيادة عما في رحلة التجاني .

وترك قراقش ولدًا آخر وكان شجاعًا كريمًا حسن الصورة جدًا تميل العيون إلى شخصه والأسماع إلى ذكره فرتبه المستنصر بالحضرة في أجناده وقدمه على طائفة منهم فحدثته نفسه بالثيابة وأراد النسج على منوال أبيه فأشعل تلك البلاد⁽¹⁴¹⁾ نارًا / فأنفذ إليه من⁽¹⁴²⁾ قتله وأراح تلك البلاد من فتنه وحمل رأسه إلى بلاده فطيف به⁽¹⁴³⁾ فيها⁽¹⁴⁴⁾. وفي يوم الخميس أول محرم فاتح سنة ثمان عشرة وستائة⁽¹⁴⁵⁾ توفي الشيخ أبو محمد فتولى بعده السيد أبو العلاء⁽¹⁴⁶⁾ ادريس بن يوسف بن عبد المؤمن فقام الميورقي وأشهر نعاقة فخرج إليه أبو زيد وتزاحفوا⁽¹⁴⁷⁾ بظاهر تونس أوائل سنة احدى وعشرين⁽¹⁴⁸⁾، فانهم ابن غانية (وجموعه وامتلات أيدي الموحدين من الغنائم⁽¹⁴⁹⁾)، ولم يزل ابن غانية⁽¹⁵⁰⁾ في شبل وحط بافساد وهزيمة عليه حتى مات بالبرية من قصر تلمسان⁽¹⁵¹⁾ أواخر شوال من سنة ثلاث وثلاثين وستائة⁽¹⁵²⁾ فكانت مدته من خروجه من ميورقة إلى موته ثلاثًا وخمسين سنة والبقاء لله وحده والله سبحانه وتعالى أعلم⁽¹⁵³⁾.

(141) يقصد ودان، وفي الرحلة «فهرب يجمع من أصحابه ولحق ببلاد ودان حيث قتل أبوه وأشعل تلك البلاد نارًا»، رحلة التجاني ص 111.

(142) فأنفذ إليه ملك الكانم من قتله.

(143) في الأصول: «بها».

(144) رحلة التجاني ص 111 عن ابن قراقش.

(145) 25 فيفري 1221 م.

(146) في الأصول: «أبو العلي» والمثبت من كتاب العبر 405/6.

(147) في الأصول: «تراجعوا».

(148) 1224 م.

(149) كتاب العبر 405/6.

(150) ما بين القوسين ساقط من ط.

(151) ويقال أنه توفي بوادي الرجوان قبله الأريس، ويقال بجهة مليانة من وادي شلف، ويقال بصحراء بادس من بلاد الزاب، كتاب العبر 406/6.

(152) جوان - جويلية 1236 م. حكى هذا ابن خلدون بصيغة التمريض (قيل)، وذكر أولاً أنه هلك لخمسين سنة من امارته سنة احدى وثلاثين وقيل ثلاث وثلاثين، ودفن وعفى اثر مدفته، المصدر السالف نفس الصفحة.

(153) عن ثورة بني غانية انظر المعجب لعبد الواحد المراكشي ص 266، 274 - 275، 317.

المقالة التاسعة

في ذكر دولة بني مرين وبني زيان وبني نصر وفيها ثلاثة أبواب

الباب الأول :

في ذكر دولة بني مرين بالعدوة

عبد الحق بن محيو ومن ولي بعده :

لَمَّا كَانَتْ أَيَّامُ الْمُتَنَصِّرِ ⁽¹⁾ خَامِسِ الْمُوحِدِينَ التَّوَلَّى سَنَةَ عَشْرَةَ وَسِتِّائَةَ ⁽²⁾ كَانَ ابْتِدَاءُ بَنِي مَرِينِ مُلُوكِ الْغَرْبِ الْأَقْصَى ⁽³⁾ ، وَكَانَ أَوَّلُهُمْ عَبْدِ الْحَقِّ بْنُ مَحْيُوبٍ [أَبِي] بَكْرُ بْنُ حَمَامَةَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ وَرْزِينِ بْنِ فُكُوسٍ ⁽⁴⁾ بْنِ كَرْمَاطِ بْنِ مَرِينِ ، يَكْنَى أَبُو مُحَمَّدٍ ظَهَرَ بِالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى فِي جَمَاعَتِهِ وَكَانُوا نَحْوَ أَرْبَعِمِائَةٍ فَاسْتَخْلَصَ الْمَلِكُ بَسِيفَهُ حِينَ ضَعَفَتْ دَوْلَةُ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ ، وَذَلِكَ بِاقْبَالِ الْمُتَنَصِّرِ عَلَى لَذَائِهِ - حَسْبَا مَرَّتِ الْإِشَارَةُ / إِلَيْهِ - وَكَانَ عَبْدِ الْحَقِّ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّهُ شَعْلًا أَرْبَعًا مِنْ نَارٍ خَرَجَتْ مِنْهُ فَعَلَتْ فِي جَوْ الْمَغْرِبِ ثُمَّ احْتَوَتْ عَلَى جَمِيعِ أَقْطَارِهِ ، فَكَانَ تَأْوِيلُ رُؤْيَاهُ تَمَلُّكَ أَرْبَعٍ مِنْ بَنِيهِ بَعْدَهُ ، وَكَانَ

[279/أ]

(1) سبق أن أشرنا إلى عدم اتفاق المراجع في هذا اللقب .

(2) 1213 - 1214 م ، وهذا التاريخ يتفق مع ما جاء في الحلل السندسية 130/2 وفي كتاب العبر لابن خلدون 523/6 سنة 611 هـ .

(3) يجهاث فاس سنة ثلاث عشرة 1216 - 1217 م أنظر ابن خلدون كتاب العبر 524/6 .

(4) ورزين بن فكوس انظر ابن خلدون ، الخبر عن بني مرين وأنسابهم وشعوبهم في التاريخ الكبير 343/13 والحلل السندسية 171/2 .

لعبد الحق من الولد ادريس وعثمان وعبد الله ومحمد وأبو يحيى [أبو بكر]⁽⁵⁾ ويعقوب ،
فلما توفي عبد الحق تولى بعده ابنه عثمان ثم بعده محمد ، ثم بعده أبو يحيى [أبو بكر]
فمات حتف أنفه⁽⁶⁾ بفاس في رجب سنة ست وخمسين وستائة⁽⁷⁾ .

أبو يوسف يعقوب :

وولي بعده رابع الأخوة أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق ، وهو الذي استخلص
جميع ملك بني عبد المؤمن من المغرب الأقصى ، وسبب ذلك ما تقدمت الإشارة إليه أنه
لما تولى المرتضي من بني عبد المؤمن في آخر دولتهم كانت بينه وبين بني مرين وقائع
وحروب فالتحق أبو دبوس آخر بني عبد المؤمن بسلطان المرينيين وانتدبه إلى اجتثاث
المرتضي وعاهده على تسليم شطر ما يناله ، فعقد له الجيوش وتحرك إلى آخر ما تقدم في انقراض
دولة بني عبد المؤمن⁽⁸⁾ .

ولما تملك أبو يوسف يعقوب المريني بمراكش⁽⁹⁾ وجميع أملاك بني عبد المؤمن شاع
صيته في الأقطار ، وكان المسلمون بالأندلس في تلك المدة عظمت فيهم نكابة
عدو الدين ، وكان ملك الأندلس اذ ذاك محمد بن محمد بن نصر فاشتد عليه الالتحاق
وذهبت عنه أوجه الخيل ، فاستصرخ أبا يوسف يعقوب المريني المترجم ، فأجاب /
الداعي وابتدر الجهاد في أوائل عام اثنين وسبعين وستائة⁽¹⁰⁾ ، فعبر البحر إلى جزيرة
طريف ، وعجل السير إلى الوادي الكبير من قبل أن يسبق للروم التدبير ، فقتل الكفار في
بطاحها ، وعجل محمد بن نصر المسير إليه ، وكان زعيم النصاري ذا النون⁽¹¹⁾ فاستعد

[279/ب]

(5) أبو بكر : الاستقصا 9/3 ، ابن خلدون 31/3 ، والحلل السندسية 136/2 ، وفي تاريخ شمال افريقيا لشارل أندري جوليان : أبو يحيى أبو بكر ، وهو كما قال السراج وجوليان أول من اشتهر من بني مرين .

(6) يقصد مَرَضًا .

(7) جويلية - أوت 1258 م وهو التاريخ الذي اعتمده جوليان في تاريخ شمال افريقيا 165/2 ، وفي الحلل السندسية توفي سنة ثلاث وخمسين وستائة ، 136/2 .

(8) أنظر كتاب العبر 547/6 - 551 .

(9) دخلها فاتح سنة ثمان وستين وستائة 1259 م . أنظر كتاب العبر 551/6 .

(10) 1273 م ، وفي تاريخ شمال افريقيا «كان خروج الصفوف المرينية الأولى إلى الأندلس في أبريل سنة 1275 ، ثم لحق بها أبو يوسف يعقوب مع بقية العسكر في 16 أوت من نفس السنة» ، 170/2 .

(11) هو Don Nuno Gonzales de Para المشهور وهو أحد قواد جيوش «قشيلية» ، تاريخ شمال افريقيا 170/2 .

للقائهم وقد جمع من الجموع ما لا يعد ، وكانت الوقعة على الروم بظاهر إسبجة⁽¹²⁾ ، فاستأصل من الروم ما يفوق ثمانية آلاف ، منهم زعيمهم ذا النون ، فقتل وطيف برأسه على البلاد ، ثم قُسمت الغنائم في عساكر المسلمين ، ثم توجه إلى جهاد حمص⁽¹³⁾ ثم إلى شريش ثم نزلوا بأعلى قرطبة فذوّخوا وأحرقوا وقطعوا آثار الكفر حيث وُجد ، ثم عبروا إلى الزهراء ثم نزلوا على جيّان ولما طوّع البلاد ، ومهد الأطواد ، دخل بين أبي يوسف المريني وبين محمد بن نصر جماعة بالفساد ، وذلك أن بني اشقبولة⁽¹⁴⁾ الرؤساء بمالقة ووادي آش وقراش كانوا قد خرجوا عن طاعة محمد بن نصر⁽¹⁵⁾ ، فلما جاز الأمير أبو يوسف إلى الأندلس لحقوا به ونصحوا له وأغروه بابن نصر سلطانهم فأفسدوا ما بين أبي يوسف ، وابن نصر ، وكان آخر أمرهم أن خرجوا له عن مدينة مالقة⁽¹⁶⁾ فملكوها السلطان أبا يوسف ، فولى عليها عاملاً من قبله فضاق ذرع ابن نصر بذلك ، وأعمل الحيلة في استئزال عامل⁽¹⁷⁾ أبي يوسف بمال بذله وعوّضه عن مالقة بحصن شلّوبانية⁽¹⁸⁾ ، ثم تدارك الله أمر المسلمين بصلاح ذات بينهم / واتصال أبيديهم ، ولولا فضل الله ورحمته لحلّ بابن نصر⁽¹⁹⁾ ما حلّ بابن عبّاد من يوسف بن تاشفين ، وتوفي السلطان أبو يوسف المريني بالجزيرة الخضراء سنة خمس وثمانين وستائة⁽²⁰⁾ .

(12) في ط : «السجة» وفي ش : «ماسجة» والمثبت من معجم البلدان ، قال ياقوت : «بالكسر ثم السكون ، وكسر

التاء فوقها نقطتان وجم وهاء اسم لكورة بالأندلس متصلة بأعمال رية بين القبة والمغرب من قرطبة...» 174/1 .

(13) بالأندلس وهم يسمون مدينة اشيلية حمص ، وذلك أن بني أمية لما حصلوا بالأندلس وملكوها سمو عدة مدن بها بأسماء مدن الشام ، معجم البلدان 304/2 .

(14) أي أهل تلمسان .

(15) المعروف بابن الأحمر وهو محمد بن يوسف بن نصر يدعى بالشيخ وولده المتولي بعده محمد المعروف بالفقيه وهو الذي استنجد بالمرينيين للجهاد في الأندلس .

(16) وكان ذلك في المرة الثانية التي رجع فيها أبو يوسف إلى الأندلس في سنة 1277 م ، عن هذه الأحداث أنظر مثلاً تاريخ شمال إفريقيا 172/2 .

(17) هو عمر بن يحيى بن محلى .

(18) وبذل له مالاً أيضاً وتنازل ابن محلى عن مالقة لابن الأحمر .

(19) وابن نصر هذا كان متقلّباً يميل مع الريح حيث مالت ، ولا يستنكف من مصادقة النصارى حفاظاً على ملكه وخوفاً من السلطان أبي يوسف ، ولما بان له سوء نية النصارى وتكاليفهم على بلاد المسلمين بادر إلى الصلح مع الأمير أبي يوسف المريني ، ومن هذا يظهر أنه انتهazy وصولي تهمة بالدرجة الأولى مصلحته الشخصية لا مصلحة الاسلام ومستقبل جزيرة الأندلس .

أبو يعقوب يوسف :

فتولى بعده ولده أبو يعقوب يوسف فكان ملكاً جليلاً ، فبدأ أمره أولاً بالجواز للأندلس ، فجاهد أعداء الدين ، وأفنى جموعهم ، وثّل عروشهم وبادر سلطانها ابن نصر للقائه فجدّد معه الودّ⁽²¹⁾ ثم رجع إلى محاصرة تلمسان وصيرّها دار ملكه⁽²²⁾ وأناخ عليها بكلّ كلفة وابتنى بها القصور والرّباع والمساجد⁽²³⁾ ولازم المدينة بالحصار سبع سنين حتى ذهب الأوامق وعجزت الحيل ، ونفذت الأقوات ، فبينما السّلطان مبتدل بين نسائه اذ دخل عليه عبد من أخابث الخصيان القصر ويده مدية فضربه ضربة مرّقت معدته ، وولى هارباً ، فكاد يفلت ويدخل البلد المحصور لولا أنه عوجل ، وعاش السّلطان بقية يومه ثم مات⁽²⁴⁾.

أبو ثابت عامر :

فتولى بعده حفيده ولد ابنه أبو ثابت عامر ابن عبد الله بن يوسف بعد أن فلك بعمّه أبي يحيى ، وشرع في الارتحال من تلمسان إلى مدينة فاس ، وبادر إلى معاودة المحصور موسى بن زيّان بتلمسان والافراج عنه ، فأتاهم⁽²⁵⁾ الفرج من حيث لم يحتسبوا وكتبوا على سكنتهم بعدها : ما أقرب فرج الله . وكان أبو ثابت هذا جريئاً سفاكاً للدماء⁽²⁶⁾ ، فعاجله الحمام على عادة الله في⁽²⁷⁾ كل من يعتدي في الدّماء فقصرت مدته⁽²⁸⁾ .

[280/ب]

- (21) ثم داخله شائجة زعيم النّصارى وخوفه من السّلطان يوسف وأنفقاً على أن يحتل شائجة طريف وأعانه ابن الأحمر بالمدد والرجال والسلاح على أن تكون طريف له بعد سقوطها ولم يوف شائجة بهذا الشرط ، انظر الاستقصا 71/3 .
- (22) لم يدخل أبو يوسف تلمسان بل « قتل وهو محاصر لها » كما ذكر المؤلّف فيما بعد وكما في مختلف المراجع التاريخية .
- (23) في مدينة سمّاها المنصورة بها بنو يُغْمَرّاسين من بني عبد الواد لما ارتحل السّلطان أبو ثابت المريني إلى فاس ، وكان التخريب سنة 707 السّنة التي استقرّ فيها في الملك .
- (24) في منتصف سنة سبع وسبعمئة 1307 م ، وعن سبب قتله - ويرجع إلى قضية نسائية - ، انظر مثلاً الحلل السندسية 137/2 .
- (25) أي أهل تلمسان .
- (26) أمر بقتل الخادم الذي كان قتل عمّه يوسف ، ثم أمر بقتل الخدام عن آخرهم وألقاهم في النيران ، ولم يترك أبو ثابت في مملكته خادماً خصباً حتى أباده .. ثم وثب على عمّه يحيى فقتله في ثاني يوم استقراره في الملك .
- الحلل السندسية 137/2 - 138 .
- (27) في ش : « على » .
- (28) توفي في نفس السنة أي 707 هـ / 1307 - 1308 م .

و الربيع سليمان :

وتولّى الأمر أخوه السلطان أبو الربيع سليمان ، فاستقرّ حاله وصارت إليه سبّعة وما
 بها مما كان تغلب عليه الأندلسيون ، في صفر عام تسعة وسبعمائة⁽²⁹⁾ ، وتوفي بتازا في
 عمادى الآخرة من عام عشرة وسبعمائة⁽³⁰⁾ .

و سعيد عثمان :

ثم تولى بعده أخو جده أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ، ببيع بعده ،
 وكانت أيامه أعياداً ومواسم ، وصرفت إليه الجزيرة وزُنْدَة ومربلة من بلاد الأندلس لما
 سُنُصرَخ لنصرها ، فأجاز إليها الحصص وكان تصييرها إليها متصّفاً ذي الحجة من عام
 سبعة وعشرين وسبعمائة ، وكان قد أطلق يد ولده عمر في الملك ، واتبعه الناس فرجع
 في بعض حركاته إلى مدينة أبيه فلحقها عليه ، وناهضه وخرج إلى لقائه ، فكان اللقاء
 بالقرمدة من أحواز تازا ، فانهزم السلطان فدخل تازا جريحاً مفلولاً وحاصره ابنه ، ثم
 قلع عن مهادثته وأصابه مرض اختلّ به أمره ، فنازل عليه البلد الجديد أشهراً ، ثم خرج
 عن عهده وسار إلى سجلماسة معوضاً بها (فأقام بها)⁽³¹⁾ إلى أن توفي أواخر ذي القعدة
 سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة⁽³²⁾ .

أبو الحسن المريني ودخوله إلى تونس :

وقد عهد لولده غير عمر ، وهو الأمير أبو الحسن علي بن عثمان ، فبادر إلى منازلة
 أخيه عمر فظفر به وقتله وبعث الجيوش إلى جبل الفتح فنازله حتى فتحه ، ونال الفخر
 والأجر وكان نسيج⁽³³⁾ وحده في العزّ والجلالة وبعد الصيت وفخامة⁽³⁴⁾ / الآثار ، فهُدّ
 الملك وأسدَى المنن ، وبني المدارس الظرفية ، والمباني الشريفة ، وقطع دهره في الجَدّ فلا
 يرى إلّا في مجلس معظّم إمّا لتدبير أو علم يدرس أو لحراسة بلد أو نسخ قرآن أو عرض
 حزب أو إصلاح عدة معدّة لحرب ، ولما نازل أبو تاشفين أمير بني زيّان مدينة بجاية ،

(29) أوت 1331 م .

(30) في ش : «سيح» .

(31) كذا في ط ، وفي ش : «مخافة» وهو تحريف .

(29) جويلية 1309 م .

(30) نوفمبر 1310 م .

(31) ساقطة من ط .

وضايق ملوكها الحفصيين استجاروا به وصاهروه ، فكتب إلى أبي تاشفين في الأفراج عن بلادهم والاقصار عن مضايقتهم ، فلجّ بما كان داعية لإعمال الحركة الثقيلة إليه ومنازلته ثلاث سنين على تلمسان ، لم يغن عن أبي تاشفين مع الحزم والمضايقة ما أعدّه ولا نفعه ما أدّخره حتى دخلها عنوة ، ولمّا فرغ - رحمه الله - من أمر تلمسان واستضاف بلادها إلى إيايته شرع في الاجازة إلى الأندلس ، وشمّر للجهد ، فأوقع بعدد البحر وأساطيل الروم الواقعة المشهورة يوم السبت سادس شوال من سنة أربعين وسبعمائة⁽³⁵⁾ وعبر إلى جبل الفتح⁽³⁶⁾ ونازل طريف⁽³⁷⁾ ثالث محرم ، وتمادى حصاره إياها فأعيتة ، وخرج ملكها المحصور يستمدّ العساكر من سلطان البرتغال⁽³⁸⁾ وسواه ، فأسرع السلطان أبو الحجاج بن نصر سلطان الأندلس للحاق به مُمِدّاً إياه ، فكان اللقاء بين الطائفتين بظاهر طريف⁽³⁹⁾ وساء التدبير فاختلف مصاف المسلمين ، وأضاعوا الحزم فانهزموا ، ولم يحصل فتح لهم ، وكان ذلك ضحوة يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة من عام واحد وأربعين وسبعمائة⁽⁴⁰⁾ ، وفي ليلة اليوم بعده لحق بسبته ، ثم لحق بمراكش آخذاً بالجدّ في تفقّد بلاده والاستعداد لطلب ثأره وجبر انكساره ، فرتّب الأمور ، واستطلع الأحوال ، ثم توجه إلى بلاده القبلية فاتّصل به ما كان من وفاة أبي بكر ملك تونس⁽⁴¹⁾ ، واختلاف أولاده وتوثّب ولده عمر⁽⁴²⁾ وسطوته في الناس ، ولحق به وجوه الدولة من الشيخ محمد ابن تافراجين⁽⁴³⁾ وأشباهه فأطمعوا السلطان في تملكها وتوسع نظره فيها ، وأوجبوا عليه

[281/ب]

(35) 5 أبريل 1340 م .

(36) جبل طارق .

(37) مدينة الأندلس على جبل طارق سميت باسم طريف بن مالك ، جاء في كتاب العبر 254/4 ونزل طارق بهم جبل الفتح فسّمى جبل طارق به ، والآخر على طريف بن مالك النخعي ونزل بمكان مدينة طريف فسّمى به «Tarifa» .

(38) في تاريخ شال افريقيا : «بفضل أسوارها المتينة ، ونجدة من بحرية جنوة ، قاومت مدينة طريف حتى أنها المدد المسيحية الحربية وجمعتها 35.000 مقاتل» 179/2 .

(39) على ضفاف نهر «Rio Salado» .

(40) 18 نوفمبر 1340 م .

(41) أبو يحيى أبو بكر المتوكل على الله الحفصي .

(42) عن اختلاف الأمراء أبناء السلطان الحفصي أبي يحيى أبي بكر بعد وفاته أنظر تأريخ الدولتين ص 79 - 81 .

(43) كذا في الأصول وتاريخ الدولتين وفي الحلل السندمية ، وكتبها ابن خلدون «تافراكين» وهو أبا محمد عبد الله شيخ الحضرة أولاً ، قدمه السلطان أبو بكر يحيى الحفصي على حجابته ولمّا توفي الحاجب الشيخ أبو القاسم بن عبد العزيز الغساني ، أنظر مثلاً تاريخ الدولتين 77 .

النَّظَرُ لِلْمُسْلِمِينَ بِهَا لِأَمْرِ قَدَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَلَوْ تَمَّ⁽⁴⁴⁾ فِي إِقْبَالِهِ⁽⁴⁵⁾ عَلَى الْجِهَادِ لَكَانَ أَوْفَقَ بِهِ ، وَلَكِنْ ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾⁽⁴⁶⁾ وَتَحَرَّكَ إِلَى تُونِسَ فِي صَفَرِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ⁽⁴⁷⁾ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى مَدِينَةِ بَجَايَا ، ثُمَّ قَسَنْطِينَةَ ، وَقَدْ ظَفَرَ بِعُضْضِ حَصَصِهِ بِعَمْرِ⁽⁴⁸⁾ صَاحِبِ الْأَمْرِ بِتُونِسَ فَأَرَا عَنْهَا فَقَتَلَ⁽⁴⁹⁾ ، وَاهْتَزَّتِ الْأَرْضُ لَطَاعَةَ السُّلْطَانِ مِنَ الْعَرَبِ وَالْبُلْدَانِ ، وَحَذَرَ الْمُلُوكَ بِمَصْرِ مَا شَاعَ مِنْ بَسْطَتِهِ وَانْفِسَاحِ إِيَالَتِهِ وَشَهْرَةِ ذِكْرِهِ .

وَدَخَلَ تُونِسَ فِي حِفْظٍ لَمْ يَسْمَعْ بِمِثْلِهِ فِي الثَّامِنِ مِنْ جَمَادَى الْآخِرَةِ مِنْ عَامِ ثَمَانِيَةِ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ⁽⁵⁰⁾ ، وَلَمَّا رَأَى سُكَّانَهَا مِنَ الْعَرَبِ الْمُعَوِّدِينَ هَضْمَ الدَّوْلَةِ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَزِّ الَّذِي غَمَرُ بِأَوْهَمٍ وَقَصُرَ خَطْوُهُمْ وَكَسَحَ آمَالُهُمْ ، نَفَرُوا مِنْهُ بِوَاحِدَةٍ وَشَرَعُوا فِي إِزَالَةِ الشُّحْنَاءِ وَاعْتَصَدُوا وَصَارُوا نَفْسًا وَاحِدَةً عَلَى تَبَايُنِ أَغْرَاضِهِمْ وَفُسَادِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ وَنَابِذِهِ وَجَهْرًا / بِخِلَافِهِ وَقَدْ نَهَكَ مَحَالَهُ طَوْلُ الثَّوَى ، وَغَلَاءُ الْأَسْعَارِ فَنَافَوْشُهُ الْحَرْبِ ، [282/أ] فَبَزَّ عَلَيْهِمْ وَاتَّبَعَ آثَارَهُمْ ، وَلَمَّا بَلَغَ ظَاهِرَ الْقَيْرَوَانِ اشْتَدَّ كَلْبُهُمْ عَلَيْهِ ، وَقَدْ نَصَبُوا لِاقَامَةِ أَمْرِهِمْ أَحْمَدَ بْنَ عُمَانَ بْنِ أَبِي دُبُوسَ ، وَخُذِلَ النَّاسُ ، وَفَرَّ مِنْ أَرْبَابِ الْأَمْرِ إِلَيْهِمْ كَثِيرٌ ، وَانْهَزَمَ السُّلْطَانُ هَزِيمَةً شَنِيعَةً تَخَلَّفَ لَهَا الْمَضَارِبُ وَالْعُدَدُ وَالْآلَاتُ ، وَلَحَأَ بِنَفْسِهِ إِلَى الْقَيْرَوَانِ ، فَاسْتَجَارَ بِهَا ، وَدَافَعَ عَنْهُ أَهْلُهَا ، وَكَانَتْ الْهَزِيمَةُ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ سَابِعَ مُحَرَّمٍ مِنْ عَامِ تِسْعَةِ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ⁽⁵¹⁾ ، وَأَخَذَتْ الْعَرَبُ بِمُخَنَقَةٍ وَيَثَسَ مِنَ النَّجَاةِ وَتَوَجَّهَ أَمِيرُهُمْ إِلَى مَنَازِلَةٍ مِنْ بَقْصَةِ تُونِسَ مِنْ خَوَاصِ السُّلْطَانِ وَالْأَمْنَاءِ عَلَى بَيْتِ مَالِهِ وَعِيَالِهِ ، وَقَدْ أَخَذُوا أَهْبَتَهُمْ ، فَكَانُوا أَمْلَكَ بِهَا إِلَى أَنْ أَزْمَعَ السُّلْطَانُ عَلَى الْفِرَارِ لَيْلًا مِنَ الْقَيْرَوَانِ لِسُوسَةٍ ، فَخَرَجَ وَالْعَرَبَانِ تُطَارِدُ أَذْيَالَهُ ، وَحِرَابُهَا تُنَوِّشُهُ إِلَى أَنْ أَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَقَدْ أَخَذَ مِنْ مَعِهِ النَّهْبُ ، وَمِنْهَا تَوَصَّلَ فِي الْبَحْرِ إِلَى تُونِسَ ، فَاسْتَقَرَّ بِهَا ، وَنَازَلَتْهُ الْعَرَبُ فَأَبْلَى أَهْلُهَا فِي الذَّبِّ عَنْهُ ، وَصَابِرَهُمْ بِمَنْ خَلَصَ مَعَهُ مِنْ ثِقَاتِهِ وَحَصَّنَ الْمَدِينَةَ ، ثُمَّ اتَّصَلَ بِهِ الْخَبِيرُ الْكَاسِرُ فِي عُضْدِهِ مِنْ اسْتِبْدَادِ وَلَدِهِ أَبِي عَنَانَ فَارَسَ بِالْأَمْرِ ، وَامْتَسَاكَ حَفِيدَهُ بَدَارَ مَلِكِهِ

(47) ماي 1347 م .

(48) أبي حفص عمر .

(49) قتل عند قابس : الحلل السندسية 169/2 .

(44) يقصد : استمر .

(45) في ش : «ولو أتم في قبالة» .

(46) سورة الأنفال : 42 .

(50) في الأصول : «الثالث عشر من جمادى الآخرة» ، والتصويب من الاستقصا 156/3 ، وتاريخ الدولتين ص 83 ،

وتاريخ شمال إفريقيا (Histoire...) ، 181/2 ، 15 سبتمبر 1347 م .

(51) 7 أبريل 1348 م .

[282/ب]

فأس مودع ماله ، فجعل يشكو منهما إلى غير منصت ، وطال به الأمر ، وأعشى من لديه الصبر ، فحملوه على الرّحيل عن إفريقية والحق ببلادهم يحسبون أن جبر حاله موصول بالوصول إليها ، ولم يعلموا أن كلام الناس معه / وسيوفهم عليه ، وقد كان ولده سلك سبيلاً من البذل والاستيلاء لم يسبق إليه ، ورحل إلى تلك الحضرة وسلم في تلمسان لعدوه ليكون من بها سداً بينه وبين أبيه ، فركب البحر في الفصل المخدور والوقت المشؤوم ، وعقد لابنه أبي الفضل على تونس خوفاً من الغوغاء ومعرات هيجتهم⁽⁵²⁾ ، فأقامه لنظر من خلص له من أهل الوطن وذلك بشوال من عام خمسين وسبعمائة⁽⁵³⁾ .

ولما فصل عن تونس طرق الأسطول الهول ففرقه شذر مذر وتكسر الجفن المختص بركوبه⁽⁵⁴⁾ ببعض السواحل من مدينة بجاية ، وقد صارت إلى عدوه ، ونجا بعد الغرق فتعلق بجحر قريب من البرّ عاري الجسد مباشراً للموت ، وهلك من كان معه من الفقهاء والعلماء والكتّاب والأشراف والخاصّة ، وهو يشاهد مصارعهم ، وينظر اختطاف البحر إياهم من فوق الصّخور التي تعلّق بها في البحر ، وعدوه بالساحل (متي) لقتاله وقد كان منعهم أهل بجاية من الماء وبعث إلى السواحل أن⁽⁵⁵⁾ يمنعهم ، فاستقوا بعد قتال ، ثم إن الله تعالى تداركه يحميل لطفه بإقبال جفن من بقية أسطوله حائر الوجه ، رفعه وقد سكن الهول فاستصحبه لمدينة الجزائر وقد تمسكت بطاعته - فاستنشق⁽⁵⁶⁾ بها ريح الحياة وأقام الرسم .

ولما اتصل الخبر بأبي العباس الفضل الحفصي وهو بالجريرد خبر السلطان أبي الحسن وخروجه في البحر أجدّ السير إلى تونس ، ونزل عليها محاصراً لابن السلطان أبي الحسن وهو أبو الفضل الذي كان السلطان عقد له على تونس ، فغلبه ومن كان / معه بعدما أحاط الحفصي وأهل تونس بالقصبة ، فاستزلوا الأمير أبا الفضل ابن السلطان أبي الحسن على الأمان من القصبة ، وخرج إلى بيت أبي الليل بن حمزة ، وأنفذ معه من بلغه مأمته فلحق بأبيه بالجزائر .

[283/أ]

(52) في تاريخ الدولتين : «خوفاً من توارث الغوغاء ومضرة هيجتهم» ص 89 .

(53) ديسمبر - جانفي 1350 م .

(54) أي السلطان .

(55) ما بين القوسين ساقط من ش .

(56) أخذ هذه العبارة من تاريخ الدولتين ص 89 ، وأخذ المؤلف خبر خروج السلطان أبي الحسن من تونس ونجاته من الغرق من تاريخ الدولتين بتصرف .

وقدم السلطان أبو الحسن بالجزائر عاملاً ، وخرج إلى المغرب بعد إقامة الرسم بالجزائر ، واستلحق واستركب والتف⁽⁵⁷⁾ عليه بعض العرب من أحوازها وأوباش من قبائلها ، ورحل إلى الجهات التلمسانية وقد برز من بها إلى قتاله ، فكان لهم الظفر وهزموه هزيمة شنيعة استوصل بها لله ، والبقية التي خلصت له ، وأصيب ولده الناصر ، وظهر يومئذ من بسالته وصدق دفاعه وشدة حملاته⁽⁵⁸⁾ حتى ارتكب ظاعنوه⁽⁵⁹⁾ ، وخلص ناجياً ، واحتمل ولده الناصر جريحاً وتوفي فواراه وأخفى مدفنه ، واتصل بمدينة مراكش فدخلها وارتاش بما علله به ولاته والمتوثقون بعهدده وغرته العرب والأطماع ، فتحرّك وقد أسرع إليه ولده في العساكر النقاوة⁽⁶⁰⁾ المختارة ، وكان اللقاء بجهة الغرب من ضفتي وادي أم الربيع في العام المذكور ، ولمّا التقى الجمعان وقعت الهزيمة على السلطان ، وأجاز الوادي «ولحق به أبطال بني مرين ، فرجعوا حياء منه وهيبة له ، وكبا به فرسه فسقط إلى الأرض والفرس تحوم حوله ، واعترض دونه الشيخ أبو دينار شيخ الدواودة فدافع عنه حتى ركب ، وخلص إلى جند هتاتة ومعه كبيرهم عبد العزيز / بن محمد بن علي ، فترل عليه وأجاره واجتمع عليه الملاً من هتاتة وبابعوه على الموت ، وجاء الأمير أبو عنان على أثره ونزل بعسكره على جبل هتاتة ، وطلب السلطان أبو الحسن من ابنه أبي عنان الابقاء وأن يبعث له حاجبه محمد بن أبي عمر ، فبعثه فحضر عنده واعتذر له على الأمير أبي عنان وطلب له الرضا ، فرضي عنه بولاية عهدده واعتلّ السلطان أبو الحسن خلال ذلك فرّضه أولياؤه وخاصّته وافتصد لاختراج الدّم ثم باشر الماء بعضده للطهارة فتورّم وهلك لليبالي قرية لثلاث وعشرين من ربيع الثاني من سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة⁽⁶¹⁾ ، وبعث أولياؤه بالخبر إلى أبي عنان ابنه بساحة مراكش ورفعوه على أعواد إليه فتلّقه حافياً حاسراً وقبل أعواده وبكى واسترجع ورضي عمن كان معه وأكرمهم ودفنه بمراكش إلى أن نقله إلى مقبرة سلفهم بشالة في طريقه إلى فاس»⁽⁶²⁾.

(57) في ش : «وألقت».

(58) في ش : «حمالته».

(59) في ش : «ارتكب صغانيه» وفي ط : «أركب ضعابته».

(60) في ش : «النقاوة».

(61) 19 جوان 1351 م.

(62) ما بين ظفرين نقله المؤلف من تاريخ الدولتين حرفياً ص 90 ، وعن أول الخبر عن رحيل السلطان أبي الحسن إلى المغرب نقله باختصار مع المحافظة على عباراته ص 89 - 90 .

أبو عنان وأعماله بافريقية :

ثم استبدَّ أبو عنان فارس بن علي بالأمر ، فكان سلطاناً عالمًا ، عليَّ الهمة ، مترافياً إلى الغاية ، جدد الملك ، وعدَّد الألقاب ، وصيَّر الإيالة في أضيق من خرت ، وبنى المدارس والزوايا ، واستجلب الأعمال ، وتحرك إلى تلمسان فهزم قبيلها ، وأعمل السيف فيهم ، وتقبض على سلطانها عثمان وأخيه أبي ثابت فقتلها ، واستضاف الإيالة الزياتية على ما كانت عليه أيام أبيه ، وللحين هذَّ أسوارها كي لا تكون محلَّ امتناع على قبيله⁽⁶³⁾ ولا دار ملك لعدوه.

«وفي سنة خمس وخمسين وسبعمائة عاشر ربيع الأول⁽⁶⁴⁾ أخذ النَّصارى مدينة طرابلس غدراً - أظهروا أنهم تجَّار فصدَّقهم صاحبها ابن ثابت - فلما كان عند الصُّباح نصبوا السلام وركبوا الأسوار واستولوا عليها ، وفرَّ صاحبها فحصل في أيدي العرب وقتلوه وأخاه لدم كان أصابهما⁽⁶⁵⁾ منهم ، وأسر [النَّصارى]⁽⁶⁶⁾ جميع [أهل]⁽⁶⁶⁾ البلد ، ومكث النَّصارى فيها نحوًا من أربعة أشهر ، وكان خروجهم منها ثاني عشر شعبان⁽⁶⁷⁾ من العام بعد أن نقلوا جميع ما فيها لبلدهم جنوة وتركوها خالية⁽⁶⁸⁾ ، والعرب أثناء ذلك يردون من أراد قتالهم من المسلمين ، إلى أن داخلهم ابن مكى صاحب قابس في فدائها فاشتروطوا عليه خمسين ألفًا من الذهب العين ، فبعث فيها للسلطان أبي عنان المترجم بطرفه بمثوبتها⁽⁶⁹⁾ ، ثم تعجَّلوا عليه فجمع ما عنده واستوهب ما بقي من أهل قابس والحامة وبلاد الجريد فوهبه له رغبة في الخير ، ومكنه⁽⁷⁰⁾ النَّصارى من طرابلس فلحكما ، وبعث السلطان أبو عنان إليه بالمال صبرة الخطيب أبي عبد الله بن مرزوق وأن

(63) في ش : «قبيله».

(64) 4 أبريل 1354 م.

(65) في الأصول : «أصابه» والتصويب من تاريخ الدولتين.

(66) اضافتان من تاريخ الدولتين ص 94.

(67) 1 سبتمبر.

(68) «وكانت الغنائم وفيرة - طبقًا لما تؤكد المصادر الإيطالية المعاصرة - وقد بلغت مليونًا ومئاة فيورين

(Florino) من الذهب ، بين نقود وبضائع ، وسبعة آلاف أسير» ليبيا منذ الفتح العربي المصدر السابق

ص 119.

(69) كذا في تاريخ الدولتين ص 94.

(70) في ش : «أمكنته» وفي ط : «أمكنه» والاصلاح من تاريخ الدولتين.

يردّ على الناس ما أخذ منهم وأن ينفرد هو بمثوبتها فامتنع ، وعقد السلطان أبو عنان على طرابلس لأحمد بن مكّي وعلى قابس وجربة⁽⁷¹⁾ لأخيه عبد الملك⁽⁷²⁾ .

وتحرك لافريقية ففتح قسنطينة بعد أن تملك على بجاية ، ودخل أسطوله تونس فلحقها ثقاته في رمضان / من عام ثمانية وخمسين وسبعمائة⁽⁷³⁾ واستقرّت دعوته بها إلى ذي القعدة من العام⁽⁷⁴⁾ .

وفي الرابع والعشرين من ذي الحجة من عام تسعة وخمسين وسبعمائة⁽⁷⁵⁾ كانت وفاة السلطان أبي عنان وسنه ثلاثون سنة ، ومدته عشر سنين .

نهاية المرينيين :

فولي بعده ولده السعيد ، ومن بعده غيره إلى أن أفضت الدولة إلى عبد الحق ابن السلطان أبي سعيد المريني ، « في سبع وعشرين من رمضان من سنة سبع وستين وثمانمائة⁽⁷⁶⁾ قام بمدينة فاس مزوار⁽⁷⁷⁾ الشرفاء بها محمد بن علي بن عمران الادريسي على السلطان عبد الحق ، وملك البلاد ، وذلك أن السلطان كان بمحلته خارج البلد ، فلما سمع فرّ عنه أصحابه ، ورجع هو إلى البلد في أناس قليلين فقبض عليه وقتل صبراً⁽⁷⁸⁾ ، وقتل معه رئيس دولته هارون اليهودي ، وسبب ذلك أنه كان في أيدي بني وطّاس كالحجور عليه وهم المتولّون أمر المملكة سنين كثيرة ، ثم أراد الاستقلال دون بني وطّاس فأخذهم ، وأخذ أموالهم ولا نجا من فرّ ، واستقلّ بأمر مملكته ، فباشر الأمور بنفسه ، وصار يسافر بمحاله ، وأوقف بين يديه في ذلك هارون اليهودي يتولى أمور المسلمين بفاس هو وجماعته ، فصاروا يحكمون في المسلمين ، بل ويهينونهم ، فوقع ذلك في الناس موقعاً عظيماً إلى أن خرج السلطان بمحلته ليهدن أوطانه ، وليضايق بني وطّاس الذين أخذوا له

(71) زائدة عمّا في تاريخ الدولتين .

(72) ما بين ظفرين وهو ما يتعلق باحتلال طرابلس من طرف النصارى نقله المؤلف من تاريخ الدولتين ص 94 - 95 .

(73) أوت 1357 م .

(74) أكتوبر - نوفمبر 1357 م .

(75) 27 نوفمبر 1358 م .

(76) 15 جوان 1463 م .

(77) المزوار في لسان زنّانة معناه الرئيس ، الاستقصا 118/3 .

(78) في ماي من سنة 1465 م .

[285/أ]

طنجة وتازا وغيرها ، / فتحدثت النَّاس مع مزوار الشُّرفاء وقاموا على من بفاس من اليهود فقتلوهم ، وتحوَّفوا من السُّلطان عبد الحق ومن هارون اليهودي ، فضبطوا البلاد إلى أن قدم عبد الحق عقب تلك الهبة ، فقتل هو واليهودي هارون صبرا ، وبويع الشُّريف على رضا من النَّاس ، واستقلَّ بالخلافة وعادت الخلافة في فاس ادريسية كما كانت .
وانقضت دولة بني مرين» (79).

السلطة بالمغرب الأقصى في عصر المؤلف :

وفي هذه الأعصار صارت في أيدي ذرية مولانا اسماعيل (80) الشُّريف - أبقاها الله فيهم - وأجرى الصَّالحات على أيديهم ، فاتَّفَق منهم سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله بن اسماعيل مع جميع أصناف الكفر على استخلاص أسرى المسلمين بأي بلد من بلدانهم ، وبذل لهم الأموال الخارجة عن ميزان الأنظار ، فبلغت الأسارى الذين استنقذهم من بلاد الكفرة وقاربت عشرين ألفاً ، وبذل لهم فيهم على أقدارهم من قنطار فضة على ما قيل إلى مائة دينار ذهباً ، واستمر فداؤه إلى أن حضرت وفاته في حدود ست ومائتين وألف (81) - رحمه الله تعالى - وهذا شيء لم يَتَّفَقَ لغيره من سلاطين الاسلام واستفتح بلاداً في بر العدو كان استولى عليها الكُفار وبَنَى مدينة جديدة سمَّاها صويرة (82) عظيمة الشأن ، وكان عالماً فاضلاً خيراً عفيفاً نزيهاً في غاية الكمال حتى قيل إنه المهدي المنتظر ، لأن اسمه على اسم النبي ﷺ واسم أبيه عبد الله كاسم أبي / النبي ﷺ رحمه الله تعالى وأحسن مثوبته وتقبَّل عمله .

[285/ب]

(79) إلى هنا ينتهي الكلام عن السلطان عبد الحق المريني وقد نقله المؤلف من تاريخ الدولتين ص 156 وما بعده من كلام المؤلف ويتعلق بأحداث عاشها .

(80) عنه وعن الدولة التي كونها أبوه مولاي الرشيد أنظر تاريخ شمال افريقيا (Histoire de l'Afrique du Nord) . 242 - 225/2 .

(81) 1791 - 1792 م . وعند جوليان (Julien) في تاريخ شمال افريقيا : «توفي في سنة 1790 م» .

(82) في ط : «صويرة» .

الباب الثاني في ذكر بني زِيَّان ملوك تلمسان

يغمراسن :

أول ملوكهم يغمراسن وَيُكْنَى أبا يحيى ، وقد يُسَمَّى يغمور ، وهو ابن زِيَّان ، بن ثابت بن محمد [بن زكدان]⁽¹⁾ بن تيدوكين⁽²⁾ بن طاع الله بن علي بن يمل بن فرقين بن القاسم .

وأول من عمل الحيلة في استخلاص تلمسان جابر بن يوسف بن محمد من هؤلاء ، وكان أمرها إلى صنهاجة ملوك الجهة الشرقية منها ، فتصيرت بعدهم إلى يغمور ، ثم لما كانت سنة ست وأربعين وستائة⁽³⁾ خرج السعيد أبو الحسن علي بن أدريس خليفة الموحدين - المقدم الذكر - في ذلك التاريخ وتوجّه إلى محاربة يغمور فاستجمع إلى حربه ، والتقى الجمعان بظاهر تلمسان ، فكانت الهزيمة على الخليفة السعيد ، فقتل هو وولده يوم الثلاثاء سلخ صفر من السنة وانتهت محلّته ، واحتوى عليها بنو عبد الوادي ، واختص يغمراسن سلطان بني زِيَّان بفسطاط السعيد ، وما فيه من الذخائر ومن جعلتها مصحف عثمان بن عفان - رضي الله تعالى عنه - أحد المصاحف العثمانية ، فكان في خزان قرطبة عند بني أمية ملوك الأندلس فانتقل للملثمين ثم للموحدين ثم إلى بني زِيَّان ، لكن لما تغلب عليهم المرينيون أخذوه منهم .

فمن وقعة السعيد مع يغمراسن تأثّلت بنو زِيَّان بما احتواوا عليه من الذخائر والعدد والآلات .

وكان يغمراسن هذا ملك / بني زِيَّان آية من الآيات في رجولته وجرائته وجزالته [86] ودهائه ، ومواقفه لأعدائه شهيرة ، وكانت بينه وبين الأمراء على عهده من بني مرين وقائع حتى هلك .

(1) إضافة من كتاب العبر 181/13 .

(2) في الأصول : «تيدوين» والمثبت من تاريخ العبر 181/13 .

(3) إلى أن تلف في البحر عند غرق الأسطول بالسلطان أبي الحسن براسي بحاية مرجعة من تونس ، كتاب العبر

170/13 - 171 . 1248 م .

عثمان ومن ولي بعده :

وتولّى بعده ولده عثمان إلى أن تحرك السلطان أبو يعقوب المريني الذي استخلص جميع ملك الموحّدين من الغرب الأقصى ، فتوجّه إلى منازلة تلمسان فشدّ حصارها - حسماً مر - وابتنى قصور الملك بخارجها ، وتوفي عثمان أثناء الحصار على انقضاء خمس سنين من منازلته .
فقام بالأمر بعده أبو زيان محمد ، ولم يلبث أيضاً أن هلك أثناء الحصار لعام فما دونه .

أبو تاشفين عبد الرحمان ودخوله تونس :

وقام بالأمر أخوه أبو حمو موسى بن عثمان ، وصنع الله له في التفريغ وحلّ الأزمة وهلاك عدوه - ما تقدمت الإشارة إليه - فأقلعت عنه الجيوش عن عهد توثقه وشرط أخذه ، فاستمرّ حال أبي حمو على وتيرة من استقبال السعد وتمهيد القطر ، ثم فتك به ولده عبد الرحمان المكنى بأبي تاشفين ، فاستقام له الأمر ، وتمهّد له القطر ، وأمكته من نواصيا الآمال ، وبلغ من تشييد القصور والمنتزهات الغاية البعيدة ، وتحلا له الجو بمسالة ملك المغرب على عهده أبي سعيد ، فهفا به الطمع إلى تملك بجاية ، وأقحم افريقية الجيوش ، فدخل جيشه تونس فعقد بها لأمر حفصي تحت طاعته ، ثم تطارح أربابها على السلطان أبي الحسن المريني - كما تقدم - وظاهره فطالب بني زيان بالافراج عن بلدهم فأبوا ، فتوجّه / إليهم وحصرهم ثلاث سنين هلك بها من الأمم ما لا يحصى ، وعظم أمر المجانيق فيما حواه السور من القصور العظيمة والقباب الرفيعة ، وياشر العمل بنفسه فألصق البناء بالأرض ، وفي ليلة سبع وعشرين لرمضان⁽⁴⁾ اقتحم الملعب المتخذ أمام البلد ، وفي عشرين من شوال تملك البلد عنوة ، فأقام أميرها عبد الرحمان وولده بازاء القصر مدافعين عن أنفسهم ، وقاما مقام الصبر ، وصدقا في الدّفاع عن أنفسهما إلى أن كثرتا وأعجلتهما ميتة العزّ عن شدّة الوثاق وامكان الشّمات .

[286/ب]

نهاية بني زِيَّان :

واستولى أبو الحسن المريني على تلك الايالة المؤتلة بما اشتملت عليه من نفيس الحلي وثمين الذخيرة وخطير العُدَّة وبديع الآنية وفاخر المتاع وصامت المال وضروب الرِّقيق ، وانقضى تلك الساعة مُلْكُ بني زِيَّان .

ولمَّا توجَّه أبو الحسن المريني لافريقية واستبدَّ أبو عنان بالأمر بعده ، ورحل قاصداً دار ملكه ، وترك بلمسان من يقوم له ببعض رسمه ، وجرت على أبي الحسن المريني الحوادث المتقدِّمة صرف القبيل الزِيَّاني وجوهمهم في جملة المنهزمين عن أبي الحسن ، وربما جروا عليه الهزيمة ولحقوا بوطنهم وهو شوكة ، وقدموا عليهم عثمان بن عبد الرحمان ابن يحيى بن يغمراسن شيخاً قد جربَ الأمور ، ومارس الدهور ، شهير الذكر ، متحلياً بالانقباض ، جانحاً للنسك ، مشمراً للتسديد ، مستعيناً على أمره بأخيه أبي / ثابت ، وهو مشار إليه بالبسالة والفتوة ، فاستقام الأمر ، وأعاد الدَّولة ، وأقامهم السُّلطان أبو عنان سُدَّاً بينه وبين أبيه ، ولمَّا قدم أبو الحسن المريني الجزائر - حسباً مر - وتوجَّه نحو المغرب ناجزوه الحرب ، فأوقعوا به ، وأثكلوه ولده الناصر ، ونجا منهم وبلغ البلاد المراكشية ، فتشاغل أبو عنان بما دهمه من جوار أبيه ، فتملَّى بنو زِيَّان الحظ أياماً يسيرة ارتاشوا فيها ، واكتسبوا⁽⁵⁾ الخيول والظهر والعدة ثم خلص أبو عنان بوفاة أبيه فصرف وجهه إليهم ، وتحرك في الجيش الذي يجرُّ الشَّجر ، وحملتهم ضرامة نفوسهم على مناجزته فخالطوا محلته على حين غفلة فكسروا قوتها ، وأوهوا هزيمتها ، فثبت أبو عنان بأهل الحفيظة وذوي الصِّدق ، فحمل عليهم غير مبالٍ بهيض جناحيه ، فنصر عليهم ، فكانت القاضية ، وأتى بعثان وقد أخفى نفسه ، وغير زِيَّه ، وأتبع من أفلت منهم مع أخيه وهم شوكة حادثة ، فجزَّت الهزيمة عليهم ذيلها ، وقبض عليه مع أشراف من قومه وأهل بيته ، فثقفوا جميعاً وقُتِلوا صبرا ، واستولى أبو عنان على الوطن ثانية ، وأخذ وجوه ذلك القبيل وأعيانه التثبيت والتعزيق .

فلمَّا توفي السُّلطان أبو عنان ، وولي الأمر ولده الصَّبي المسمَّى بالسَّعيد ، واضطرب الأمر ، تغلب جل هؤلاء الزِيَّانيين على الوطن ، فدخلوا مدينة بلمسان ، وأجفل من كان بها إلى مقرِّ ملكهم ، فعادت دولتهم ، مجتمعين على سلطانهم أبي حمو موسى بن يوسف

[287/ب]

ابن / عبد الرحمان بن يحيى بن يغمراسن ، وتحرك إليه أبو سالم ابراهيم بن علي بن عثمان المريني سلطان بني مرين ، فأصحروا وتركوا البلاد ، ولحقوا إلى أطرافها ، ولم يتكلموا على ما اتكل عليه آباؤهم من الركون إلى الأسوار فنجوا .

وبعد انجلائه عن وطنهم رجعوا لدار ملكهم ، ولم يزالوا مع بني مرين في رخاء وشدة حتى فرغت دولة بني مرين ، وبقوا بعدهم لقرب دخول العساكر العثمانية لأرض المغرب واستيلائهم على الجزائر ، فاستولوا على تلمسان فهي الآن تحت حكم العساكر العثمانية المقيمين بالجزائر ، وبها حافظهم ، وسبحان من بيده ملكوت كل شيء واليه رجوع⁽⁶⁾ جميع خلقه لا اله غيره ولا معبود بحق سواه .

(6) اقتباس من سورة يس : 83 ﴿فَسَبِّحْهُنَّ الَّذِي يَدُورُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

الباب الثالث : في ذكر دولة بني نصر بالأندلس

قد تقدّم أن من جملة ملوك طوائف الأندلس بعد بني أميّة بنو هود ، فلما انقضت دولة الملتّمين والموحّدين ، واضطرب أمر الأندلس ، وضعفت قوتها ، وتشاغل بفتن العدو الغريبة أمراؤها ببلد أرجونة ، وتكالب عليها النصارى ، وضاق أمر من بها من المسلمين ، وكان أمير الوقت محمد بن يوسف آخر بني هود الباقين من ملوك الطوائف تحت حكم الموحّدين ، ثم أنه ملك مُرسيّة ، وملك منها الأندلس ، وقام بدعوة العباسيين ، فاضطربت عليه البلاد ، واختلفت الآراء ، وعجز عن ضبطها لقلّة المساعد ، فظهر عند ذلك / ملك بني نصر⁽¹⁾ وأوّل ملوكهم محمّد بن يوسف بن محمّد بن أحمد بن محمّد بن خميس بن نصر بن قيس الأنصارى الخزرجي بن ولد سعد بن عبادة - رضي الله تعالى عنه - سيّد أنصار رسول الله ﷺ استقرّ سلفه عند الفتح الأول بقرية من قرى المشرق ، وتُعرف بقرية الخزرج ، فدعا محمّد لنفسه ببلد أرجونة عام تسعة وعشرين وستائة⁽²⁾ ، فساعده السّعد ، قال ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - .

[رجز]

وبان في الأندلس الفسادُ	وانتشرت من ضعفها البلادُ
وأخذت أمانها النصارى	فأصبح الناسُ بها سُكاري
تراهم من هولها حيارى	قد أشغل الرّوعُ بها الأفكار
وانبهم الأمرُ على ابن هودٍ	ولم يوافق طالع السعد
فحيثما وجّه جيشاً هُزّما	وحيثما قدّم حكماً حكما
فجدّد الله رسوم الملة	في قطرنا بالأمراء الجلّة
العظماء سادة الأعلام	أبناء نصر ناصري الاسلام

(1) ويقال لهم بنو الأحمر .

(2) 1231 - 1232 م .

أول أملاكهم محمد
قد لم شمل الدين من شتات
فنعش الدين به لما عثر
وثار في أرجونة لنفسه
ودخلت في أمره جيان
وأوجبت طاعته الحصون
فاطرده السعد بها واكتملا
وأحكم السلم سريعاً وعقد
واستكثر العدد فيها والعدد
وهو الأمير الغالب الموحد⁽³⁾
والرؤم تستولي على الجهات
ونظم السلك وقد كان انتشر
وكان شهماً غرة في جنسه
واغبتت بقربه الأعيان
فالخوف أمن والحمى مأمون
واستوسق الأمر بها وكملا/
وصارت الذئاب ترعى والنقذ
وكل من قدم مصيلاً وجد

وكانت وفاته - رحمه الله تعالى - يوم الجمعة التاسع والعشرين لجمادى الثانية من عام أحد وسبعين وستائة⁽⁴⁾.

فوتى بعده وليّ عهده ولده محمد ، وهو من أعظم الملوك قدراً ، وأبعدهم صيتاً ، وأعلامهم فخراً ، وأرسخهم في السياسة قدماً ، وأسرعهم إلى المكارم تقدماً ، وهو الذي استصرخ السلطان أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني لما طغا عليه النصارى - كما تقدم - ثم خلا له الجو ، وأنام الأنام في ظلّ الأمان ، وأجابته الآمال ، حتى حضرت منيته ليلة الأحد ثامن شهر شعبان من عام أحد وسبعمائة⁽⁵⁾ وهو يُصلي - رحمه الله تعالى - .

وولي من بعده ولي عهده ولده محمد ، فكان ملكاً جليلاً ، وملك أسطوله سبته ليلة الخميس السابع والعشرين من شوال سنة خمس وسبعمائة⁽⁶⁾ وكان كثير الأسقام في جسمه ، فاستغلب وزيره ، فخلعه أخوه يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة⁽⁷⁾ ، وقام بالأمر أخوه الذي خلعه ، وهو نصر ، فكانت أيامه أيام نخس مستمر ، ووقعت على المسلمين في أيامه وقائع من عدو الدين ، فقام في مالقة ابن عمه فرج بن اسماعيل بن

(3) في ط : «المؤيد» .

(4) 21 جانني 1273 م .

(5) 8 أفريل 1302 م .

(6) 12 ماي 1306 م .

(7) 14 مارس 1309 م .

يوسف بن نصر ، ففسد ما بينهما ، ونصب فرج ولده اسماعيل إماماً للناس ، وأغراه بطلب الأمر إلى أن تحصل له الأمر بعد حروب وحركات ، واستولى / اسماعيل على ملك الحضرة ، واستنزل نصرًا منها على عهد إلى مدينة وادي آش ، فانتظم له ملك الأندلس غلّسَ اليوم السَّابع والعشرين لشوال من عام ثلاثة عشر وسبعمائة⁽⁸⁾ ، وفي غرة ذي القعدة دخل الحمراء دار الملك ، وأقام نصر - رحمه الله - بوادي آش مقيمًا للرسم بين حرب وسلم ، إلى أن توفي سادس ذي القعدة من عام اثنين وعشرين وسبعمائة⁽⁹⁾ . واستبدَّ بالأمر اسماعيل ، وهو السلطان الكبير الشأن ، وفي أيامه كانت الواقعة الشهيرة بملكي الروم⁽¹⁰⁾ ، في المرج⁽¹¹⁾ بحضرته بعد أن أجليا واستوليا على كثير من البلاد فأتاح الله لهذا السلطان عليهما وقية عظيمة حصدت منهما الشوكة ، وسدلت على المسلمين العصمة وقتل الملكين المذكورين يومئذ ، وطارت الأخبار إلى أقاصي بلاد المسلمين ، وكانت هذه الواقعة في اليوم الخامس⁽¹²⁾ لجمادى الأولى من عام تسعة عشر وسبعمائة⁽¹³⁾ ، «وغدر به أقاربه فأوقعوا به جراحات دهش منها ، فعاجل بالقتل من غدر به ثم توفي السلطان إثر ذلك ضحى يوم الاثنين السَّابع والعشرين من شهر رجب عام خمسة وعشرين»⁽¹⁴⁾ .

وأخذت البيعة لولده محمد فتغلَّب عليه وزيره ، وهكذا تتابع الأمراء بالأندلس دائماً في شدة ورخاء من بعضهم لبعض ومن عدو الدين ، واستمر أمراء بني نصر إلى أن تغلَّب عليهم النصارى فأخذوها وأخرجوا / من بها من المسلمين حسبما تأتي الإشارة إليه إن شاء الله تعالى .

(8) 14 فيفري 1314 م .

(9) 16 نوفمبر 1322 م .

(10) أي الأسبان وهما : سانجه بن اذفونش وعمه دون جوان ، أنظر أ: جمال الاعلام : ص 294 - 295 .

(11) لعلها مرج فريش ، أنظر معجم البلدان 101/5 . المرج من غرناطة ، أعمال الاعلام ص 295 .

(12) ظهر يوم الاثنين السادس من جمادى الأولى : أعمال الاعلام ص 295 ، وبعد قليل يفهم منه أن السنة 725 .

(13) 24 جوان 1319 م وعند ابن خلدون في سنة ثمان عشرة ، كتاب العبر 373/4 .

(14) 9 جويلية 1325 م .

المقالة العاشرة

في ذكر دولة بني حفص بأفريقية

أبو محمد عبد الواحد

أول هذه الدولة الشيخ أبو محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين بن علي بن أحمد بن والال⁽¹⁾ بن ادريس بن خالد [بن اليسع]⁽²⁾ بن الياس بن عمر بن وافق⁽³⁾ بن محمد بن تحية⁽⁴⁾ بن كعب بن [محمد بن]⁽⁵⁾ سالم بن عبد الله ابن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - كذا نسبُه ابن نخيل⁽⁶⁾ وغيره من المؤرخين حكاه ابن خلدون في كتاب⁽⁷⁾ العبر في أخبار العرب والبربر⁽⁸⁾.

وقال ابن الخطيب الأندلسي: هو عبد الواحد بن أبي حفص عمر بن عبد الواحد، وأصحاب المهدي قبيلتهم هتانة، وعدّهم سابق بن سليمان النسابة من قبائل السوس من ولد صنهاج بن عاسل، ولما توطأ له الأمر كان عبد الواحد من الثمانية أهل دار

(1) في الأصول: «ولال» والتصويب من تاريخ الدولتين ص 24، وكتاب العبر 578/6.

(2) الإضافة من نفس المرجعين.

(3) في الأصول: «وأمين» والتصويب من كتاب العبر، وفي تاريخ الدولتين: «ياسين» في مكانها.

(4) في ط: «نجبة» وفي ش وتاريخ الدولتين: «نجبة» والمثبت من كتاب العبر الذي ينقل عنه المؤلف.

(5) إضافة من المرجعين السالفين.

(6) في الأصول: «بخيل» والتصويب من كتاب العبر.

(7) في الأصول وتاريخ الدولتين: «ترجمان».

(8) تاريخ ابن خلدون: 578/6، المؤلف ناقل من تاريخ الدولتين ص 24، واحتراز ابن خلدون من هذا النسب بقوله «ويظهر منه أن هذا النسب القرشي وقع في المصامدة والتحم به، واشتملت عليه عصيتهم شأن الأنساب التي تقع من قوم إلى قوم وتلتحم بهم».

المهدي ، ولما خرج الناصر إلى افريقية في وسط جمادى الآخرة سنة إحدى وستمائة (9) ، وفتح بلادها وهزم الميورقي بها وبلغ غرضه من الحركة إليها ولّى على عمل افريقية أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر بن عبد الواحد في سابع شوال سنة ثلاث وستمائة ، وتمادت مدّته بافريقية إلى زمان المأمون اهـ .

وكيفية استخلافه أن الناصر لما دخل عليه رمضان وهو بتونس من السنة المذكورة «أشاع» (10) الحركة إلى المغرب ، وتحدّث مع أشياخه ومدبري دولته فيمن يترك / بافريقية فأجمعوا على الشيخ أبي محمد عبد الواحد المذكور ولم يختلف في ذلك اثنان ، وكانوا أرادوا تبعيده عن الخلافة ليجدوا السبيل إلى اغراضهم ، فأمر الناصر بعض خدّامه في الحديث معه استحياء من مواجهته به ، فامتنع ، ولم تسمح نفسه بمفارقتها (11) ، وخاطبه الناصر في ذلك بنفسه فاعتذر له ببعد الشّقة عن خلفه بمرآكش من أهله وولده وبما يلزم ذلك من مفارقة الخليفة والبعده عنه ، ونظر الناصر فلم يجد عوضاً عنه ، ولم يُرد إكراهه على المقام فحكى نبيل مملوك الشيخ عبد الواحد المذكور قال : بينما أنا جالس على خباء الشيخ ليلة أذ بضوء قد خرج من مضارب الخليفة فاذا بطائفة من الفتيان قد قصدوا نحو خباء الشيخ ، قال : فعرفته بذلك ، قال : اذا وصلوا فافتح لهم الباب ، فلما وصلوا فتحت لهم فدخل ولد الخليفة الناصر ومعه ولد الشيخ أبي محمد من ابنة المنصور وهو المعروف بالسيد أبي الحسن ، وكان الناصر (12) خاله قد رباه مع ولده يوسف المستنصر ولي عهده واختصه كولد فوجهه مع ولده ومعهما سالم الفتى مربّي الناصر وفتيان آخرون سواه ، فقام الشيخ أبو محمد لولد الناصر وأجلسه معه وقال له : ما حاجتك أيّها الطالب ولو كان عندي غير نعمتكم (13) لقابلتك به ، فقال له الفتيان : كرامته عندك قضاء حاجته ، فقال : نعم ، حاجته / مقضية ، فقال له الولد : إن مولانا وسيّدنا يخصّك بالسلام ، ويقول لك هذه البلاد هي من أول هذا الأمر العزيز مع هؤلاء الثوار في شأن عظيم ، وتحت ليل بهم ، وقد وصل إليها سيدنا عبد المؤمن وسيدنا أبو يعقوب وسيدنا الناصر ، وما منهم الا وقد أنفق عليها أموالاً وأفنى في الحركة إليها رجالاً ، والشّقة بعيدة ،

(9) فيفري ، 1205 م .

(10) النقل من رحلة التجاني ص 360 .

(11) في الرحلة : «بمفارقة وطنه» .

(12) كذا في ط وفي الرحلة ، وفي ش : «المنصور» .

(13) في الأصول : «نعمتكم» .

والمشقة شديدة ، وما عاد واحد منهم إلى حضرته الا وعاد الويل ، وأظلم ذلك الليل ، وهذه الدعوة كما يجب علينا القيام بها والدّب عنها كذلك يجب عليك ، وقد طلبنا في جميع اخوانك السّادة وأعيان هذه الجماعة من ينوب عنا في هذه البلاد ، فلم نجد عند أحد معوّلاً فأنحصر الأمر إلينا وإليك ، فأما أن تطلع الى حضرة مراكش فتقوم هناك مقامنا ، ونقيم نحن بهذه البلاد ، أو نطلع نحن الى حضرتنا وتقيم أنت هنا مقامنا ، فقال الشيخ : يا بني أما القسم الأول فهو مما لا يمكن ، وأما القسم الثاني فأجبت اليه على شروط ، فسرّ الولد بذلك ، وقبّل يديه ، فقبّل الشيخ أبو محمد رأسه ، وأنفصلوا فكأنما كان عندهم تلك الليلة فتح جديد بالسرور الذي عمّهم ، والطمانينة مما كان أهمهم . ثم خلا النّاصر به مستفهماً عن شروطه فشرط أن لا يتولى إفريقية الا بقدر ما تصلح أحوالها ، وينقطع طمع الميورقي عنها ، ويرسل النّاصر من يكون عوضاً عنه ، وجعل النهاية / في ذلك ثلاث سنين ، وأنه يعرض عليه الجيش فيبقى معه من يقع اختياره عليه ، وأنه إن فعل فعلاً أي فعل كان لا يسأل عنه ولا يعاتب فيه ، وإن من (14) بقي بعد انفصال النّاصر واليا على بلد من بلاد إفريقية فهو فيه بخير النظرين (15) : إن شاء أبواه وإن شاء عزله ، وغير (16) هذه الشّروط ، والنّاصر مقبل عليه قابل لشروطه ، وبعد تقرر ذلك خرج النّاصر متوجّهاً الى المغرب وذلك سابع شوال ، وصحبه الشيخ أبو محمد ثلاثة أيام رحل معه فيها الى باجة .

وكان أهل تونس عند خروج النّاصر قد وقفوا ورفعوا أصواتهم بين يديه مستشفعين (17) من الميورقي وخائفين أن يصل اليهم بعد انفصال الخليفة عنهم ، فاستدعى النّاصر وجوهمهم وقربهم منه وكلمهم بنفسه وقال : إنّنا قد اخترنا لكم من يقوم مقامنا فيكم وآثرناكم به على أنفسنا مع شدة حاجتنا اليه ، وهو فلان ، فتباشر النّاس بولايته اذ كان لا يسمع له كلام ما دام راكباً إلى أن ينزل ، وكان يلقب «بالصّامت» ورجع الشيخ أبو محمد من باجة إلى تونس والياً على جميع بلاد إفريقية (18) .

(14) ساقطة من ش .

(15) كذا في ط ورحلة التجاني ص 362 ، وفي ش : «الناظرين» .

(16) في الأصول : «وإن شاء أعزله وغيره» والتصويب من رحلة التجاني .

(17) في الرحلة : «مشفقين» .

(18) نقل المؤلف من رحلة التجاني ص 360 - 363 ما كان من الخليفة الناصر في تولية الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي حفص .

«واستكتب⁽¹⁹⁾ أبا عبد الله محمد بن أحمد بن نخيل⁽²⁰⁾ المشهود له بالحدود وحسن الوساطة والتدبير واصلاح الأحوال ، ورتب الأجناد ، واخترع زمام التضييف للوفود ، وكان يجلس كل يوم سبت لمسائل الناس في القصة «وأول جلوسه يوم السبت العاشر من شوال سنة ثلاث وستمائة»⁽²¹⁾ . [291/ب]

وكان عالماً فاضلاً شجاعاً محسناً ذكياً فطناً .

توفي⁽²²⁾ يوم الخميس غرة محرم سنة ثمانى عشرة وستمائة⁽²³⁾ بتونس ، ودفن بقصبتها⁽²⁴⁾ بعد صلاة الصبح .

أبو العلا ادريس .

فتولى بعده السيد أبو العلا ادريس بن يوسف بن عبد المؤمن من الموحدين ، وتوفي بتونس في شهر شعبان من سنة عشرين وستمائة⁽²⁵⁾ ، وكان ابنه السيد أبو زيد المشمر بالقيروان فلما بلغه مهلك أبيه انكفاً راجعاً الى تونس ، ولما خرج العادل من الأندلس حين خلع عبد الواحد بن يوسف عبد المؤمن أخا المنصور المخلوع ، وعقد البيعة للعادل صاحب مرسية - حسباً مر - جاز العادل الى العدو فلقه أبو محمد عبد الله المعروف⁽²⁶⁾ بعبو ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الذي استخلفه الناصر فولاه افرقية وكتب للسيد أبي زيد المشمر ابن عمه أبي العلا ادريس بالقدوم عليه بمراكش ، فارتحل ووصل أبو محمد عبو لتونس ، فأبو محمد عبد الله عبو هو ثاني الحفصيين ، فقدم لتونس وبين يديه أخوه المولى الأمير أبو زكرياء يحيى يوم السبت سابع عشر ذي القعدة من عام

(19) نقل من تاريخ الدولتين ص 18 .

(20) في الأصول وفي المؤنس : «ابن بخليل» والمثبت من تاريخ الدولتين ص 18 وغيرها . وهو محمد بن ابراهيم بن عبد العزيز بن نخيل الأندلسي ، أبو عبد الله ، نزيل تونس ، الأديب ، الكاتب ، المؤرخ . أنظر مثلاً ترجمته محمد محفوظ : تراجم المؤلفين ... 25/5 .

(21) 10 ماي 1207 م وما بين الظفرين أخذه من رحلة التجاني ص 363 .

(22) تاريخ الدولتين ص 19 .

(23) 25 فيفري 1221 م .

(24) داخل القصة قرب مغارة كان يتعبد فيها ، ولم تزل معروفة يتبرك بها ، ويزار قبره إلى عهد الزركشي ، وعفاه الترك في وقائع القصة . (إنحاف أهل الزمان لابن أبي الضياف) 127/2 ، ط . وزارة الشؤون الثقافية تونس 1963 .

(25) سبتمبر 1223 م .

(26) ساقطة من ش .

ثلاثة وعشرين وسمائة⁽²⁷⁾، فلما استقر بتونس عقد لأخيه المولى أبي زكرياء يحيى المذكور على مدينة قابس وأضاف إليه الحامّة وسائر تلك البلاد، وعقد لأخيه أبي ابراهيم على توزر ونفطة وسائر بلاد قسطنطية⁽²⁸⁾، فلم يزل المولى أبو زكرياء وليا على قابس وأعمالها، الى أن وقعت بينه / وبين أخيه أبي محمد عبّو وحشة عزله بسببها عن قابس [أ/292] وأعمالها، وأمر أخاه أبا ابراهيم صاحب قسطنطية⁽²⁸⁾ بالسّير إلى قابس والقبض عليه، فسار إليه فبلغه في أثناء طريقه أن المولى أبا زكرياء يحيى كتب بيعته للمأمون من بني عبد المؤمن، فنكب أبو ابراهيم عن قابس الى المهديّة، وخطب أخاه أبا محمد عبّو بذلك، فلما قتل الموحدون العادل بمراكش، وبويع بعده للمعتصم، قام أبو العلا ادريس الملقب بالمأمون وهو أخو العادل، وكان باشيلية فدعا لنفسه باشيلية - حسبا مرّ - فخلع الموحدون المعتصم، وبايعوا المأمون بفاس وتلمسان، وسبّته، فبعث⁽²⁹⁾ المأمون لصاحب إفريقية أبي محمد عبّو ليأخذ له البيعة، فتوقف وظن أنها مكيدة عليه وقال للرسول: نحن مقيمون على بيعة العادل، فاذا تحقّقنا موته بايعنا أخاه، فرجع الرّسول بلا بيعة ولا جواب ولا كتاب فلما بلغ الرسول للمأمون بلا كتاب ولا جواب كتب إلى الأمير أبي زكرياء يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص، وكان اذ ذاك واليا على قابس بالولاية على إفريقية، فكان أبو زكرياء يحيى ثالث الحفصيين وأمر المأمون أبا زكرياء بخلع عبّو وعزله لأجل امتناعه من بيعته، فبادر أبو زكرياء يحيى بالبيعة للمأمون، فاتصل ذلك بأخيه أبي محمد عبّو، فخرج من تونس متوجّهاً إليه فلما وصل القيروان جمع من معه من / أشياخ الموحدين وعرفهم بما عزم عليه من قتال أخيه فأظهروا الكراهية لذلك لمحبّتهم في المولى أبي زكرياء، واعتذروا له فلم يقبل منهم، وقاموا قيام رجل واحد عليه ورجموه بالحجارة، فقام أولاده دونه يقونه بأنفسهم الى أن دخل فسطاطه، فوجّه النّاس أشياخاً منهم إلى المولى أبي زكرياء يحيى يُعرّفونه بذلك، ويطلبون منه المبادرة بالوصول، فبادر المولى أبو زكرياء الخروج صحبة أولئك الأشياخ، وتسلم العسكر من أخيه [وسار]⁽³⁰⁾ الى تونس وحمل أخاه محتاطا عليه فأدخله ليلا الى القصر المعروف بقصر ابن فاخر فاعتقله به.

(27) 9 نوفمبر 1226 م.

(28) في الأصول: «قسطنطية» والمثبت من تاريخ الدولتين ص 21، وقسطنطية هي الجريد.

(29) هذه الأحداث اي اعتقال أبي زكرياء أخاه نقلها المؤلّف من تاريخ الدولتين ص 22 - 23.

(30) إكمال من تاريخ الدولتين.

أبو زكرياء يحيى :

وكان دخول المولى أبي زكرياء يحيى لتونس يوم الأربعاء الرابع والعشرين لرجب من سنة خمس وعشرين وستائة⁽³¹⁾ ولم يكن أهم لديه من القبض على أبي عمرو⁽³²⁾ كاتب أخيه فأخذه وبسط عليه العذاب إلى أن مات ورُميت جثته ، وكان يغري أخاه به ، ثم إن الأمير أبا زكرياء وجّه بأخيه أبي محمد عبو إلى المغرب في البحر.

ثم إن المأمون بعث عملاً لتونس ، فأنف من ذلك المولى أبو زكرياء يحيى المعتصم ابن الناصر من بني عبد المؤمن ، وهو حينئذ المنازع للمأمون في الخلافة بمراكش ، وكتب المولى أبو زكرياء الحفصي إلى جميع بلاد افريقية بخلع أبي العلا المأمون ، ثم أسقط المولى أبو زكرياء اسم المعتصم من الخطبة في بلاد افريقية ، / واقتصر على الدعاء للمهدي وللخلفاء الراشدين ، وكان ذلك أول درجة في الاستبداد ، وذلك أول سنة سبع وعشرين وستائة⁽³³⁾ ، وسمّى نفسه بالأمير وكتبه في صدر كتبه ، ولم يتعرّض لذلك في الخطبة سياسة منه واختباراً لأحوال افريقية ، ثم أخذ لنفسه البيعة في العام المذكور بتونس وبلادها⁽³⁴⁾ ، وكتب علامته : « الحمد لله والشكر لله » وأبقى اسم المهدي في الخطبة وغيرها ، ولم يذكر اسمه هو في الخطبة.

وكان فقيهاً⁽³⁵⁾ عارفاً ظريفاً له شعر كثير مدوّن مع الجزالة في الأمر ، وصلّحت به البلاد ، ورخصت الأسعار ، وأمنت الطرق ، وجمع من الأموال والسلاح ما لا جمعه أحد.

وفي السنة المذكورة بنى المصلّى خارج باب المنارة من تونس ، ولما استقل المولى أبو زكرياء بتونس ، وخلع بيعة بني عبد المؤمن نهض إلى قسنطينة في سنة ثمان وعشرين

(31) 30 جوان 1228 م.

(32) طراً من الأندلس ، واستكتبه أبو محمد فغلب على هواه ، وكان يغريه بأخيه (تاريخ ابن خلدون 593/6 - 594).

(33) نوفمبر 1229 م.

(34) عما يتعلق بالأمير أبي زكرياء وأخيه عبو إلى أن استبد بالإمارة نقله المؤلف من تاريخ الدولتين ص 21 - 24 مع حذف ما له صلة بأخبار المغرب الأقصى.

(35) تاريخ الدولتين ص 25 وانظر تحاف أهل الزمان 1/156 ، وترجم له ابن شاكر الكنتي (ت. 764) في فوات الوفيات 632/2 - 633 تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة 1951.

وسمّائة⁽³⁶⁾ فترّل ساحتها وحاصرها أياماً ، ثم داخله ابن علناس في شأنها ، وأمكته من غرتها ، فدخلها وقبض على واليها ، وولى عليها ابن النعمان ، ورحل إلى بجاية ففتحها ، وقبض على واليها وصيّره مع والي قسنطينة إلى المهديّة معتقلين ، وبعث معها معتقلاً [إلى المهديّة]⁽³⁷⁾ محمد بن جامع وابن أخيه جابر بن عون⁽³⁸⁾ بن جامع من شيوخ مرداس بن عوف ، وابن [أبي] الشيخ ابن عساكر من شيوخ الذواودة فاعتقلوا جميعاً / بمطبق⁽³⁹⁾ المهديّة .

وكان أبو عبد الله ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص - ويسمّى اللحياني لكبر لحيته - هو صاحب أشغال بجاية ، فلما افتتحها أخوه المولى أبو زكرياء صار في جملته فولّاه بعد ذلك الولايات الجليلية ، وكان يستخلفه بتونس في مغييه⁽⁴⁰⁾ . وفي ليلة الإثنين السادسة عشرة لشعبان من سنة ثمان وعشرين وسمّائة⁽⁴¹⁾ توفي بتونس الشيخ الصّالح أبو سعيد خلف بن يحيى التميمي⁽⁴²⁾ ودفن بجبانته المعروفة في جبل المرسى بمقربة من المنارة ، وكان مولده سنة إحدى وخمسين وخمسمائة⁽⁴³⁾ ، فعمره سبع وسبعون سنة .

وفي سنة تسع وعشرين وسمّائة⁽⁴⁴⁾ ، ابتدأ السلطان أبو زكرياء بينان جامع القصبة بتونس ، وجدّد رسوم القصبة ، ولما كملت الصّومعة بالبناء في رمضان سنة ثلاثين وسمّائة⁽⁴⁵⁾ ، صعد إليها ليلاً وأذن فيها بنفسه وفرغ من بنائه مسجد القصبة سنة ثلاث وثلاثين وسمّائة⁽⁴⁶⁾ .

(36) 1230 - 1231 في ابن خلدون سنة ست وعشرين 595/6 والمؤلف تابع لما في تاريخ الدولتين ص 25 ولعل هذا التاريخ هو الصحيح لأن رسوخ القدم واختيار الأحوال يستدعي فترة من الزمن والمؤلف ناقل لعبارات الزركشي بنصها .

(37) إكمال من تاريخ الدولتين ص 25 .

(38) في الأصول : «عبون» والتصويب من تاريخ الدولتين .

(39) في الأصول : «مطيف» والتصويب من تاريخ الدولتين .

(40) عن احتلال قسنطينة وبجاية والإعتقال بمطبق المهديّة نقله المؤلّف حرفياً من تاريخ الدولتين ص 25 .

(41) 19 جوان 1231 م .

(42) هو الباجي .

(43) 1156 - 1157 م .

(44) 1231 - 1232 م .

(45) جوان - جويلية 1233 م .

(46) 1235 - 1236 م .

وفي سنة أربع وثلاثين وستائة⁽⁴⁷⁾ ذكر المولى أبو زكرياء نفسه في الخطبة بعد ذكر الإمام المهدي مقتصرًا عليه ، وبويع البيعة الثانية التامة التي لم يتخلّف فيها أحد من الناس ، ولم يتسم بأمر المؤمنين .
وبايعه أهل بلنسية في رابع مُحَرَّم فاتح سنة ست وثلاثين وستائة⁽⁴⁸⁾ ، ولما وقعت عليهم وقعة كبيرة ، وضيق عليهم / العدو أنشدته ابن الأَبَّار بين يديه قصيدة منها بيتان⁽⁴⁹⁾ وهما :

[أ/294]

[بسيط]

أدرك بخيلك أرض الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها اندرسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمس فلم يزل منك عز النصر مُلْتَمَسًا

فعاجلهم المولى أبو زكرياء في الوقت بما أمكنته المبادرة إليه من طعام وإنعام ، وكانت قيمته مائة ألف دينار ، فأعجل تغلب الروم عليها عن تمام نصرته لهم .
وفي العام المذكور تجهّز المولى أبو زكرياء من تونس يؤم بلاد زناتة بالمغرب الأوسط فسار إلى بجاية ، ثم ارتحل إلى الجزائر فافتتحها وولى عليها من قبله ، ثم نهض إلى بلاد مَغْرَاوَة ، فأطاعه بنو متديل وتجاهر بنو توجين بالخلاف ، فأوقع بهم وقبض على رئيسهم عبد القوي بن العباس⁽⁵⁰⁾ واعتقله وبعثه إلى تونس ، وأقبل راجعًا إلى حضرته ، وعقد في رجوعه على بجاية لابنه الأمير أبي يحيى وأنزله بها .

وفي يوم الخميس الثاني لشهر رجب من سنة ثمان وثلاثين وستائة⁽⁵¹⁾ كتب المولى أبو زكرياء صاحب تونس عهده لولده الأمير أبي يحيى زكرياء صاحب بجاية وخطب له على جميع بلاد افريقية .

وفي شهر شوال من سنة تسع وثلاثين وستائة⁽⁵²⁾ تحرك الأمير أبو زكرياء صاحب تونس إلى تلمسان في جيش جملته أربعة وستون ألفًا من الفرسان فحاربها حتى أخذها

47 1236 - 1237 م .

48 17 أوت 1238 م .

49 قصيدة طويلة وهي ستة وستون بيتًا والبيتان من طالعهما ذكرهما الزركشي في تاريخ الدولتين ص 27 والمؤلف ناقل عنه ص 28 .

50 في الأصول : «الباسي» والتصويب من تاريخ الدولتين ص 28 .

51 17 جانفي 1241 م .

52 1242 م .

عنوة في شهر ربيع الأول من سنة أربعين⁽⁵³⁾ من باب كَشُوطُ ، ولما رأى صاحبها يغمراسن بن زيان / بن عبد الوادي أنه قد أحيط بالبلد قصد باب القصة لابسا [294/ب] [سلاحه]⁽⁵⁴⁾ في خاصّته فاعترضته عساكر الموحدين فقصده نحوهم وجدل بعض أبطالهم ، فأفروا له ولحق بالصحراء ، وافتتحت جيوش الموحدين تلمسان من كل حدب ، وعاثوا فيها ، ثم لما تجلّى غشاء تلك الهيعة أعمل المولى أبو زكرياء نظره فيمن يقلّده أمر تلمسان والمغرب الأوسط ، وكان يغمراسن قد أرسل للمولى أبي زكرياء راعباً في القيام بدعوته بتلمسان فخطبه المولى أبو زكرياء بالإسعاف واتّصال اليد على صاحب مراكش ، ووفدت أم يغمراسن واسمها «سوط النساء» بالاشتراط والقبول ، فأكرم موصلها وأسنى جائزتها ، وأحسن وفادتها ، ثم ارتحل المولى أبو زكرياء يحمي إلى تونس بعد ردّ يغمراسن إلى بلاده تلمسان ، فكانت غيبته تسعة أشهر .

وفي سنة ست وأربعين⁽⁵⁵⁾ توفي ببجاية الأمير أبو يحيى زكرياء⁽⁵⁶⁾ صاحب بجاية ، فكتب السلطان العهد لولده المستنصر⁽⁵⁷⁾ ، عوضاً عن أخيه .

وفي ليلة الجمعة الثامنة والعشرين لجمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وستائة⁽⁵⁸⁾ توفي المولى أبو زكرياء يحيى صاحب تونس في محلته بظاهر بونة ، ودفن غداً بجامعها إلى جانب الشيخ الصّالح أبي مروان ، ثم نقل بعد ذلك إلى قسنطينة ودفن بها ، وكانت ولادته بمراكش سنة تسع وتسعين وخمسمائة⁽⁵⁹⁾ ، فكان عمره تسعاً وأربعين سنة ، وخلافته بتونس عشرون سنة [ونصف السنة]⁽⁶⁰⁾ .

(53) سبتمبر 1242 م .

(54) الإكمال من تاريخ الدولتين ص 29 .

(55) 1248 — 1249 م .

(56) ابن أبي زكرياء يحيى «صاحب تونس» تاريخ الدولتين ص 30 .

(57) في الأصول : «المستنصر» والتصويب من تاريخ الدولتين .

(58) 7 أكتوبر 1249 م .

(59) 1202 — 1203 ، وقد أقرّه برونشفيك (R. Brunschvig) في أطروحته «بلاد البربر الشرقية تحت حكم

الحفصيين» (La Berbérie orientale sous les Hafsides) ، باريس 1940 ، 20/1 : أما في تاريخ الدولتين

وقد خالفه المؤلف مع أنه ينقل عنه فإنه ولد سنة «سبع وتسعين وخمسمائة» فإن اعتبرنا هذا التاريخ وكانت وفاته

وله من العمر تسع وأربعون سنة فإن ميلاده يكون سنة 597 لا سنة 599 كما ذكر مقديش .

(60) إكمال من تاريخ الدولتين ، وعن حركة أبي زكرياء إلى تلمسان ووفاته ببونة نقله المؤلف من تاريخ الدولتين

ص 29 — 32 .

المستنصر ومن توفي من العلماء في أيامه :

[295/أ]

وتولّى / بعده بلاد إفريقية ولده وولي عهده السلطان أبو عبد الله محمد - المقدم الذكر - الملقب «بالمستنصر»⁽⁶¹⁾ ببيع أولاً وهو ببونة بعد وفاة أبيه ، وكان الذي أخذ له البيعة من الخاصّة وسائر العسكر عمّه محمد اللحياني ، ثم ببيع بعد وصوله من بونة إلى حضرة تونس وذلك ثالث رجب من سنة سبع وأربعين وستائة⁽⁶²⁾ ، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، وتسمى بالأمر⁽⁶³⁾.

وفي يوم الإثنين الرابع والعشرين لذي الحجة من سنة خمسين وستائة⁽⁶⁴⁾ ، رأى أن يتسمّى بأمر المؤمنين⁽⁶⁵⁾ ، وأن يذكر ذلك في الخطبة ، وأن يطع في الذهب ، واختار للعلامة «الحمد لله والشكر لله» فبايعه الناس بذلك البيعة التامة واتبع بذلك ردّ المظالم ، واتفق أن كان المطر قد احتبس ، ففي ثالث يوم من هذه البيعة نزل المطر فهنّاه الشعراء بذلك ، ثم رأى شيخ الدّولة أبو سعيد عثمان المعروف «بالعود الرطب» حين تقرر من أمر العامة ما تقرر أن الأوامر السلطانية قد تنفذ بأمر حقير لا ينبغي الكتب بمثلها عن الخلافة ، فقسم الكتب إلى علامة صغيرة وإلى كبيرة ، فالأوامر الكبيرة الصّادرة عن الخلافة تكتب بالعلامة التي وقع / الاختيار عليها ، والكتب الصغيرة التي يكبر قدر الخليفة عنها تكتب عن يمينه الخليفة لذلك ، وتنفذ بعلامة أخرى تشعر بأن ذلك من أمر الخليفة ، فانقسمت العلامة إلى صغرى وكبرى ، فالكبرى موضعها في أول الكتاب بعد البسملة ، والصغرى معلمة في آخره .

[295/ب]

(61) في الأصول «المستصر» . (62) 2 أكتوبر 1249م .

(63) بعدها في الأصول : «ثم تسمى بأمر المؤمنين يوم الإثنين الرابع والعشرين لذي الحجة من سنة خمسين وستائة وذلك لما قدمت عليه بيعة أهل مكة بإنشاء عبد الحق بن سبعين وقدمت عليه بيعة الشام والأندلس» أسقطناها لأنها تكرر لما جاء بعدها مباشرة وما أثبتناه يتماشى مع تسلسل نص الزركشي الذي ينقل عنه المؤلف .

(64) 25 فيفري 1253م .

(65) وعلق برونشفيك (Brunschvig) على هذا الحدث بقوله : «لقد أحسن المستنصر اختيار الوقت بذلك فالخلافة العباسية انحطت وهي تعيش آخر سنواتها تحت تهديد سطوة التتر المتصاعدة وانقرضت السّلطة الأيوبية في مصر سنة 1250/648م . في الوقت الذي كان فيه الصّليبيون تحت قيادة ملك فرنسا التاسع يجاربون داخل الأراضي الإسلامية ، وفي الأراضي المغربية ، فإن الدولة المومنية كانت تعيش أيضاً آخر مراحل حياتها منذ أن انكسرت منها المربونيون شمال المغرب الأقصى ، أما في إسبانيا فقد سقطت عدة مدن منها اشبيلية ، وقادس ... بين أيدي ملوك قشتالية فيما بين سنتي 1246/1248م لكل هذا لم يكن المستنصر يخاف من رد فعل خارجي ، بينما كان يعمّن على الصّميم الشعبي المتشدد داخل إفريقية قبول هذا الحدث» .

وفي سنة تسع وخمسين⁽⁶⁶⁾ وصلت بيعة⁽⁶⁷⁾ مكة المشرقة على يد الشيخ أبي محمد عبد الحق بن سبعين⁽⁶⁸⁾، وكان الواصل بها المحدث الراوية أبو محمد بن برطلة⁽⁶⁹⁾، فأُشيد بعض الشعراء :

[كامل]

اهنأ أمير المؤمنين ببيعة وافتك بالاقبال والإسعاد
فلقد جباك بملكه ربُّ الوري فأتى يبشِّر⁽⁷⁰⁾ بافتتاح بلاد
وإذا أتت أمُّ القرى مُنْقَادَةً فَمِنْ المَبْرَةِ طاعةُ الأولادِ.
وفي السنة المذكورة توفي الفقيه المحدث أبو بكر بن سيد الناس.
وفي شهر ربيع الآخر لعشر منه توفي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المهدوي المعروف بابن الخباز⁽⁷¹⁾.

وفي الرابع لربيع الأول من السنة المذكورة توفي بتونس الفقيه الإمام المصنف عبد العزيز بن إبراهيم القرشي شهر ابن بَرِيزَة⁽⁷²⁾ شارح الإرشاد⁽⁷³⁾.
وفي ليلة الأحد الخامسة والعشرين لذي القعدة من سنة تسع وستين⁽⁷⁴⁾، توفي الأستاذ النحوي أبو الحسن علي بن موسى الخضرمي عرف بابن عصفور بتونس، ولد باشبيلية سنة سبع وتسعين وخمسمائة⁽⁷⁵⁾، وسبب موته فيما نقل عن الشيخ أحمد القلجاني وغيره أنه / دخل على السلطان يوماً وهو جالس برياض أبي فهر في القبة التي على الجابية

[296/أ]

(66) 1260/1261 م.

(67) نص البيعة في تاريخ ابن خلدون 635/6.

(68) هو الصوفي الأندلسي نزيل مكة من القائلين بوحدة الوجود المتوفي سنة 667.

(69) في الأصول: «بردة» والمثبت من تاريخ الدولتين ص 37 وابن برطلة الأزدي من أهل مرسية بالأندلس ونزل تونس وتوفي بها، شجرة النور الزكية ص 196.

(70) كذلك في ط وتاريخ الدولتين، وفي شر: «مبشر».

(71) الذي يفهم من تاريخ الدولتين أنه تولى القضاء في هذا التاريخ بعد وفاة القاضي أبي موسى عمران بن معمر الطرابلسي وابن الخباز توفي سنة 683 كما سيأتي.

(72) في تاريخ الدولتين ابن نورية وهو تحريف.

(73) الإرشاد لإمام الحرمين في أصول الدين الشرح يسمى «الاسعاد بمقاصد الارشاد»، منه نسخة جيدة بالمكتبة الوطنية بتونس، وأصلها من مكتبة الشيخ علي النوري، وانظر عن ابن بَرِيزَة تراجم المؤلفين التونسيين 127/1 - 129، والسراج، الحلل السنلمية، 645/1.

(74) 4 جويلية 1271 م.

(75) 1200 - 1201 م.

الكبيرة فقال السلطان على جهة الفخر بدولته : قد أصبح ملكنا عظيماً !⁽⁷⁶⁾ فأجابه ابن عصفور بقوله : بنا وبأمثالنا فوجدها المستنصر⁽⁷⁷⁾ في نفسه ، فلما قام الشيخ ليخرج أمر المستنصر⁽⁷⁷⁾ بعض رجاله أن يلقيه بثيابه في الجاية الكبيرة ، وكان يوماً شديداً البرد ، وقال له [لا]⁽⁷⁸⁾ تتركه يصعد مظهرًا للعب معه ، فألقاه من أمرٍ بذلك ، فكلما أراد الصعود رُدَّ ، وبعد صعوده أصابه برد وحمى بقي ثلاثة أيام وقضى نحبه ، فدفن بمقبرة ابن مهنا قرب جبانة الشيخ ابن نفيس شرقي باب يَنْتَجَمِي أحد ابواب القَصَبَةِ .

وفي يوم الأحد رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وسبعين وستمائة⁽⁷⁹⁾ ابتدأ السلطان المستنصر⁽⁷⁷⁾ مرض موته وكان مسافراً فأصابه ذلك بعين إعلان فسيق إلى تونس في محفّة على أعناق الرّجال في كسوف القمر وأدخل القصبّة ، وكثر إرجاف الناس بموته ، فجعل يوم عيد الأضحى في محفّة من خشب ، وأصعد إلى قُبْنِهِ ورآه الناس وتجلّد لإظهار حركة علم منها أن فيه بقية رمق ، ثم عاد إلى منزله وتوفي من ليلته بعد صلاة العشاء الآخرة ليلة الأحد الحادي عشر لذي الحجة سنة خمس وسبعين وستمائة⁽⁸⁰⁾ ، فكانت خلافته ثمانية وعشرين عاماً وخمسة أشهر واثني عشر يوماً / ويقال إن أصل مرضه أنه كان في صيادة فقام بين يديه وحش فطردته⁽⁸¹⁾ الجوارح ، فدخل مغارة ودخل وراءه الرجال فوجدوا بها رجلاً قائماً يُصَلِّي ، فسلم من صلاته وقال لهم : هذا دخيل الفقراء اتركوه ، فذهبوا إلى السلطان فعرفوه فقال لهم : ايتوني بالصّيد ، فرجعوا إلى المرباط فمنعهم منه ، فرجعوا إلى السلطان فقال لهم : إن منعكم أعطوه الرّماح ، فرجعوا إلى المرباط وعرفوه ، فقال لهم : وأنا أقرع السلطان بالرّماح ، ثم طلبوه فلم يجدوه ، وسقط السلطان من حينه مغشياً عليه ثم أفاق بعد زمان ، ولم يزل ذلك المرض يتعهده إلى أن مات⁽⁸²⁾ .

[296/ب]

(76) «وهو مصراع بيت كأنه يريد إجازته» اتخاف أهل الزمان 162/5.

(77) في الأصول : «المستنصر» .

(78) اكمال من تاريخ الدولتين بقتضيه السياق .

(79) 23 نوفمبر 1276 م .

(80) 15 ماي 1277 م .

(81) في الأصول : «طرده» .

(82) نقل المؤلف أخبار السلطان المستنصر مع حذف قليل من تاريخ الدولتين ص 33 - 40 .

الوائق :

فتولى بعده ولده أبو زكرياء يحيى الواثق ، ولد سنة سبع وأربعين وستائة⁽⁸³⁾ ، وبويع له ليلة مات أبوه فأصبح خليفة ، وبايعه من بقي صبيحة تلك الليلة وذلك يوم الأحد الحادي عشر لذي الحجة عام خمسة وسبعين وستائة⁽⁸⁴⁾ ، فكانت سيرته أحسن سيرة ، وأخباره مع أولي الفضل مشهورة ، جدّد ما اختل من جامع الزيتونة وغيره من المساجد ، وسرّح أهل السجن ، وأحرق أزمّة المظالم ، وأحسن إلى الأجناد ، إلّا أنه كان لا يحسن القيام بأمر الخلافة ، وتغلّب على دولته يحيى بن عبد الملك الغافقي المعروف بابن الحبيّر⁽⁸⁵⁾ ، وكان لا يشتغل بأمر الملك بل بأمور غير مفيدة من البناء وأنواع الملابس واقتناء الأثاث ، / فساء تدبيره الملك ولم يحسنه ، فتلاشت الدّولة بسبب ذلك . [297/أ]

وفي سنة ست وسبعين⁽⁸⁶⁾ أخذ سعيد بن يوسف بن أبي الحسين وأخذت منه أموال عظيمة ، وكان المتولي تعذيبه خديمه عبد الرّحمان بن أبي الأعلام ، فكان اذا اشتد به الألم يقول له : من أعان ظالمًا سلّطه الله عليه ، ولمّا بلغ الخبر الواثق وهو بتونس متبذ عن الحامية والبطانة⁽⁸⁷⁾ وضعف أمر المملكة خلع نفسه وبايع لعمّه أبي اسحاق ، وذلك يوم الأحد الثالث لربيع الثاني عام ثمانية وسبعين وستائة⁽⁸⁸⁾ ، فكانت خلافته ستين⁽⁸⁹⁾ وثلاثة أشهر واثنين وعشرين يومًا : وقيل خلع نفسه لعمه يوم الجمعة من ربيع الأول سنة تسع وسبعين وستائة⁽⁹⁰⁾ .

(83) 1249 - 1250 م .

(84) 16 ماي 1277 م .

(85) في الأصول : «علي بن عبد الله الغافقي المعروف بالحميز» والتصويب من تاريخ الدولتين وتاريخ ابن خلدون 680/6 وغيرها .

(86) 1277 - 1278 م .

(87) في الأصول : «الباطنة» وفي الكلام بتر صار به المعنى غير واضح وتمامة أن ابن الحبيّر حمل الواثق على أن يكتب لعمه أبي حفص وزيره ابن جامع يغري كل واحد منهما بصاحبه فتفاوضا واتفقا على الدعاء للأمير أبي اسحاق وبعثا إليه بذلك ، ولما بلغ الخبر للواثق وهو بتونس متبذ عن الحامية والبطانة أيقن بذهاب ملكه فخلع نفسه وبايع لعمه أبي اسحاق . أنظر تاريخ الدولتين ص 52 .

(88) 13 أوت 1279 م .

(89) في الأصول : «ثلاث سنين» .

(90) جوان 1280 نقل المؤلف أخبار الواثق بن المستنصر باختصار من تاريخ الدولتين ص 40 - 43 .

أبو اسحاق ابراهيم ابن أبي زكرياء :

ولما خلع الواثق نفسه تولى بعده عمه المولى أبو اسحاق ابراهيم ابن المولى الأمير أبي زكرياء ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص ، ولد سنة احدى وثلاثين وستائة⁽⁹¹⁾ وصلى بالمصلى هناك صلاة العيد ، ودخل بجاية من يومه ، ودخل تونس يوم الثلاثاء الخامس لربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وستائة⁽⁹²⁾ ، وجلّدت له البيعة يوم الأربعاء ، وانتقل الواثق المخلوع من القسبة إلى دار الغوري بالكتبيين وسكن بها أياماً ، ثم إن السلطان سمع به أنه بعث إلى قائد النصارى وتكلم معه أن يثور على عمه بلبل ، فرفع⁽⁹³⁾ القسبة / هو وبنوه وكانوا ثلاثة : الفضل والطاهر والطيب ، فتثقفوا بها ودُجّوا جميعاً في صفر سنة تسع وسبعين وستائة⁽⁹⁴⁾ .

[297/ب]

وفي ثالث يوم من دخول السلطان أبي اسحاق لتونس أخذ ابن الحبير⁽⁹⁵⁾ رئيس دولة الواثق وقتله تحت العذاب ، وكان السلطان أبو اسحاق فيه غلظة وشدة⁽⁹⁶⁾ ، ولا ينظر في عواقب الأمور ، فكان ولده الأمير أبو زكرياء يردُّ عليه أكثر أوامره بالتلطف ، واستولت العرب في أيامه على القرى ، وهو أول من كتب البلاد الغربية بالظاهرة للعرب .

الدعي ابن أبي عمارة :

وفي الرابع من محرم مفتتح عام واحد وثمانين وستائة⁽⁹⁷⁾ ظهر عند دباب رجل ادعى أنه الفضل بن يحيى الواثق ، وادّعى أنه انفلت من السجن ، وسبب وصوله لهذه الدّعى أن الفضل كان له فتى خصي يربيّه ، فلما قُتل الفضل فرّ الخصي للمغرب ، فلقى فتى خياطاً من أهل تونس يعرف بابن [أبي]⁽⁹⁸⁾ عمارة أشدّ الناس شبهاً بالفضل بن

(91) 1233 - 1234 م .

(92) 15 أوت 1279 م .

(93) واعتقله بالقسبة .

(94) جوان 1280 م .

(95) في الأصول : « الحمير » .

(96) في تاريخ الدولتين : « شجاعة » .

(97) 14 أفريل 1282 م .

(98) اكمال من تاريخ الدولتين وتاريخ ابن خلدون .

الوائق المقتول معه ، فداخله وأطمعه في الأمر وعرفه بتأني الحيلة ، ولقّنه أمور الملك وأسماء القاربة ، ثم قصد العرب فعرضه عليهم واغتنم منهم نفرة عن الأمير أبي اسحاق ، فلبس عليهم ، وجعل الفتى ييكي كلما رأى الدعيّ موهماً أنه الفضل ، ويُقَبِّلُ أقدامه ، واسم الخصي نصير ، فأقبل على أمراء العرب منادياً بالسرور بابن مولاه حتى خيل عليهم بأن أخبرهم الدعي بن أبي عمارة لمحاورات [وقعت] بين العرب وبين الواثق قصّها / [298/أ]

عليهم كان عرفه بها نصير ، فلما سمعها الأعراب وقد كانت جرت بينهم وبين الواثق صدقوه ولم يشكّوا فيه واطمأنوا له ، وبايعوه ، وألّقيت محبته في قلب أبي علي بن مُرْغَم⁽⁹⁹⁾ بن صابر شيخ دباب ، فعضده وجمع عليه العرب ونزل معه طرابلس ، وصاحبها حينئذ من قبل السلطان أبي اسحاق محمد بن عيسى الهتائي المعروف بعنق⁽¹⁰⁰⁾ الفضّة فأغلقتها⁽¹⁰¹⁾ ووقع القتال مُدَّة ، ثم رحل عنها وجبى تلك النواحي ، ثم رحل إلى قابس وقد ظهر أمره ، ولم يشك أهل الأوطان أنه من البيت الحفصي ، فخرج اليه عبد الملك بن عثمان بن مكّي وفتح له قابساً فدخلها ، وبايع له أهلها يوم الأربعاء السّابع عشر لرجب من سنة احدى وثمانين المذكورة⁽¹⁰²⁾ ، وجاءته بها بيعة جربة والحامّة ونفزاوة وتوزر وسائر بلاد قسطنطينية⁽¹⁰³⁾ ، ثم فُتِحَتْ له قفصة يوم الجمعة فدخلها سابع رمضان من العام المذكور ، وأخرج له السلطان أبو اسحاق من تونس جيشاً عظيماً أمر عليه ولده الأمير أبا زكرياء يحيى فنزل القيروان ، وأغرم أهلها أموالاً ، ثم توجّه نحو الدعي ، فنزل قَمُودَة ، والنّاس يتسلّلون منه حتى كاد يبقى وحده ، فرجع إلى تونس ورحل الدّعي من قفصة إلى القيروان فدخلها وبايعه أهلها وجاءته بيعة المهديّة وصفافس وسوسة ، فخرج السلطان أبو اسحاق من تونس في جيش عظيم ، ونزل المحمدية في العشر / الأوسط من شوال من السنة المذكورة ، وأخرج من العدد حمل تسعين بغلاً ، [298/ب]

فنهب ذلك كله من منزل المحمدية ، وفرّ كثير من الناس عنه إلى الدّعي ، ثم فرّ إلى الدّعي الشيخ أبو عمران موسى بن ياسين في جماعة عظيمة من الموحدّين ، فالتقى به على مقربة من شاذلة

(99) في الأصول «عمر» والتصويب من تاريخ الدولتين وهو شيخ الجوارى من بني دباب ، أسره الصقليون بنواحي طرابلس وأطلقه صاحب برشلونة لغرض سياسي ، راجع ابن خلدون 703/6 .

(100) كذا في تاريخ الدولتين ص 45 ، وتاريخ ابن خلدون 698/6 ، وفي الأصول «بعين الفضّة» .

(101) في ش : «فغلقتها» .

(102) 21 أكتوبر 1282 م .

(103) في ط : «قسطنطينية» وفي ش : «قسطنطينية» والتصويب من تاريخ الدولتين ص 45 .

وبايعة ، ورجع السلطان أبو اسحاق إلى سبخة تونس حتى أخرج نساءه وأولاده ، وارتحل من تونس مغرباً فلقي شدائد وأهوالاً من المطر والتلج والجوع والخوف ، فكان يبدل الأموال للقبائل مصانة على نفسه وأولاده وأهله حتى وصل إلى قسنطينة فأغلقها صاحبها أبو محمد عبد الله بن توفيان⁽¹⁰⁴⁾ الهرغي⁽¹⁰⁵⁾ في وجهه فطلب منه ما يأكل ، فأنزل له من أعلى السور الخبز والتمر ، فأكلوا ورحلوا من يومهم إلى بجاية ، ففنع ولد أبو فارس عبد العزيز الدخول إليها فأقام بقصر الربيع على شاطئ وادي بجاية ، وسكن بقصر الكوكب ، وكان فراره من تونس ليلة الثلاثاء الخامس والعشرين لشوال سنة إحدى وثمانين وستائة⁽¹⁰⁶⁾ ، وكانت خلافته بتونس من حين خلع الواثق نفسه إلى حين فراره ثلاثة أعوام ونصفاً واثنين وعشرين يوماً .

وفي يوم الخميس السابع والعشرين لشوال من سنة إحدى وثمانين⁽¹⁰⁷⁾ بويج الدعي بتونس على أنه الفضل بن أبي زكرياء يحيى الواثق ، وإنما هو أحمد بن مرزوق ابن أبي عمارة المسيلي / أمه فرحة من فران من بلاد الزاب ، مولده بالمسيلة سنة اثنتين وأربعين وستائة⁽¹⁰⁸⁾ ، وتربيته ببجاية ، وخطب له بهذا الإقراء على جميع منابر إفريقية . وكان هذا الدعي سفاكاً للدماء ظالماً يظهر قطع المنكر ويأتيه ، ويوم دخوله لتونس عاث العرب في الناس ، فأخذ منهم ثلاثة وضرب أعناقهم وصلبهم ، ثم أخرج جيشاً وأمر عليه شيخ الموحدين أبا محمد عبد الحق بن تافراجين ، وأمره بقتل من ظفر به من العرب ، ومات يوم دخوله تونس في زحام باب المنارة ثلاثة عشر رجلاً منهم الفقيه القاضي أبو علي حسن بن معمر الهواري الطرابلسي ، وفي الخامس والعشرين من يوم دخوله أخذ أمراء العرب الملاقين له وكانوا نحواً من ثمانين ، وفي يوم السبت بعده أخذ الزناتيين وأخرجهم من القصبة عراة إلى السجن ، وكانوا نحواً من ثلاثمائة⁽¹⁰⁹⁾ ، وفي الثالث والعشرين من ذي الحجة أخرج⁽¹¹⁰⁾ قرابة السلطان أبي اسحاق كلهم وسجنهم ، واستأصل أموالهم ، وهمم بقتلهم ، فنعهم الله منه .

[299/أ]

(104) في ش : « يوفيان » وفي ط : « توفيان » وتاريخ ابن خلدون 6/692 : « يوفيان » والتصويب من تاريخ الدولتين التي ينقل عنها المؤلف .

(105) في الأصول : « المزغني » والتصويب من المرجعين السالفين .

(106) 26 جانفي 1283 . (107) 28 جانفي 1283 م .

(109) ثلاثمائة وخمسين : تاريخ الدولتين ص 47 . (108) 1244 - 1245 م .

(110) كذا في ط وتاريخ الدولتين ، وفي ش : « أخرج » .

وفي يوم السبت الثاني عشر من صفر سنة اثنين وثمانين⁽¹¹¹⁾ خرج الدعي من تونس يريد بجاية لما أحس بخروج الأمير أبي فارس صاحبها إليه ، وقد كان أبو فارس جيش الجيوش ، وجمع الجموع ، وخرج قاصداً للقاءه ، وخرج عمّه الأمير أبو حفص خلفه بتاج على رأسه تعظيماً له لأنه جرت عادة ملوك هذه الدولة الحفصية باستعماله ، وإنما ترك من دولة ابن اللّحياني الآتي إلى هلم جرا / ، فخرج الدّعي من تونس في عسكر [299/ب] عظيم ، والتقى الجمعان بفج الأبيار قريباً من قلعة سينان ، وذلك يوم الإثنين الثالث لربيع الأول سنة اثنين وثمانين وستمائة⁽¹¹²⁾ ، فكان يوماً هائلاً فظيعاً خانت⁽¹¹³⁾ فيه أبا فارس أنصاره عقوبة من الله حين أغلق الباب في وجه أبيه ومنعه من الدخول لبجاية ، فأخذ رجال الدّعي أبا فارس وقتلوه وقطعوا رأسه ونهبوا محلته وأخذوا مضاربه وخزائنه وسبق رأسه إلى الدّعي ، ثم سيق أخوه عبد الواحد حيا فقتله الدّعي بحربة كانت بيده ، ثم سيق أخواه لأبيه عمر وخالد فأمر بهما فقتلا صبراً ، ثم سيق محمد بن أخيه عبد الواحد فقتل . وكانت ولاية أبي فارس ببجاية وأحوازها ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوماً ، وسيقت رؤوس أولاد السلطان وأقاربه إلى تونس فطيف بها على أطراف الرّماح في الأسواق يوم الخميس السادس لشهر ربيع الأول من سنة اثنين وثمانين وستمائة⁽¹¹⁴⁾ ، وعُلّقت على باب المنارة ، ولم ينج منهم أحد إلا الأمير أبو حفص ابن الأمير أبي زكرياء فانه فرّ إلى قلعة سينان وهو على رجله ، ولأذبه في ذهابه ثلاثة من صنائعهم : أبو الحسن بن أبي بكر بن سيّد الناس ، والوزير ابن الفزاري ، ومحمد بن أبي بكر بن خلدون ، وربما كانوا يتناوبونه على ظهورهم إذا أصابه الكلل إلى أن بلغ القلعة فتحصّن بها ، وأما الأمير / أبو زكرياء [300/أ] ابن الأمير أبي اسحاق فإنه بقي خائفاً ببجاية ومعه الشيخ أبو زيد الفزاري⁽¹¹⁵⁾ ، ولما بلغ خبر الواقعة إلى بجاية اضطرب اضطراباً شديداً ، واجتمع الناس في الجامع الأعظم وفيهم القاضي أبو محمد عبد المنعم بن عتيق ، ومعه ابنه فتكلم بكلام أغضب به العامة ، فوثبوا على الولد وقتلوه في المحراب ، وحملوا القاضي من مجلس حكمه إلى السجن (ثم إلى البحر)⁽¹¹⁶⁾ وصرفوه إلى بلد الجزائر ، وخاف الأمير أبو اسحاق على نفسه فخرج هارباً من

(112) 1 جوان 1283 م.

(111) 12 ماي 1283 .

(113) في الأصول : «خان» والتصويب من تاريخ الدولتين ص 48 .

(114) جوان 1283 م .

(115) وكذا في تاريخ الدولتين وفي تاريخ ابن خلدون الفزاري ولعله هو الصواب .

(116) ساقطة من ش .

القصة يريد تلمسان ومعه ابنه الأمير أبو زكرياء وعامة أهل بجاية يتبعونه ، فخرج أهل بجاية في طلبه فأدركوه في جبل بني غيرين وقد سقط عن فرسه ودقت فخذه ، ونجا ابنه الأمير أبو زكرياء إلى تلمسان ، وكان له بها أخت في عصمة والي تلمسان عثمان بن يغمراسن بن زيّان ، فأكرمه ورحّب به ، وأخذ الأمير أبو اسحاق ورُدَّ إلى بجاية فدخلها راكبًا على بغل عليه برذعة وألقوه بدار بجومة سابات الأموي⁽¹¹⁷⁾ ببجاية إلى أن أرسل الدّعي في قتله محمد بن عيسى بن داود الهنتاتي ، فقتله يوم الخميس السابع والعشرين⁽¹¹⁸⁾ ربيع الأول عام اثنين وثمانين وستائة⁽¹¹⁹⁾ . ثم رُفِع رأسه إلى تونس وطيف به⁽¹²⁰⁾ على عصا في الأسواق ، والسفهاء يضحكون والنساء تولول ، وفي ذلك عبرة لأولي الأبصار.

ويوم الخميس ثاني صفر من السنة المذكورة خرج الدّعي مسافرًا يريد قتل الأمير أبي حفص لأنه ظهر عند العرب وعظّم سلطانه / في البلاد ، واجتمع عليه خلق كثير لكون الدّعي أساء في العرب وقتل منهم ، فسمعوا بالأمير أبي حفص في قلعة سنان ، فرحلوا اليه وأتوه بيعتهم في ربيع الأول من السنة المذكورة ، وجمعوا له شيئًا من الآلات والأخبية ، وقام بأمره أبو الليل بن أحمد شيخهم ، وبلغ الخبر الدّعي فخرج من تونس يريد القتال ، فأرجف أهل عسكره ومالت نفوسهم إلى الأمير أبي حفص ، فلما تبين الدّعي ذلك رجع إلى تونس رجوع منهزم ، وذلك يوم الخميس الخامس والعشرين من ربيع الأول من سنة ثلاث وثمانين وستائة⁽¹²¹⁾ وطوى الأمير أبو حفص البلاد إلى أن نزل قريبًا من تونس بسبخة سيجوم ، فخرج اليه الموحّدون والجند وقتلوه أيامًا كثيرة ولم يظفروا منه بشيء ، ونهب العرب البلاد إلى أن خرج الدّعي يوم الأحد الثاني والعشرين لربيع الآخر من السنة المذكورة ، فأقام برهة بذيّل السّبخة ، فلما علم بهلاكه فرّ بنفسه رغبة في الحياة ، واختفى في دار بمقربة من الصّفارين بتونس عند رجل قرّان أندلسي ليلة الإثنين الثالث والعشرين لربيع الآخر من السنة المذكورة ، فكانت دولة الدّعي بتونس سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يومًا ، وأقام الدّعي بتلك الدّار سبعة أيام إلى أن دخلت

(117) في الأصول : «الأصول» والتصويب من تاريخ الدولتين ص 49 .

(118) في الأصول : «تاسع عشر» والتصويب من تاريخ الدولتين ص 49 .

(119) 25 جوان 1283 م .

(120) في الأصول : «بها» .

(121) 11 جوان 1284 م .

عليه امرأة فأخذ وأخرج من تلك الدار وهُدِّمت حينها ، وحُمِلَ إلى الأمير أبي حفص فقرر به بحضرة القاضي ابن الغماز⁽¹²²⁾ والشهود ، / فأقر بأنه أحمد بن مرزوق بن أبي [301/أ] عمارة المسيلي وأشهد الشهود عليه بذلك ، وأمر الأمير أبو حفص بضرب عنقه بعد ضربه مائتي سوط ، وأخرج جسمه دون الرأس وطيف به⁽¹²³⁾ على حمار أشهب⁽¹²⁴⁾ ، وجرَّ إلى السَّبَّخة بخارج باب البحر ، فرُمي بها ، ثم طيف برأسه على عصا يوم الثلاثاء الثاني لجمادى الأولى من السنة المذكورة ، قيل كان سبب فضيحتة على يد امرأة حفصية أراد تزويجها ، وكانت⁽¹²⁵⁾ لا تحل للفضل لأنها من محارمه فامتنعت منه فألحَّ في طلبها لِمَا غلب عليه من حُبِّها وحُسْنِها ، وعرفها بأنه ليس هو الفضل فافتضح مع ما اتفق من قبح السيرة ونخب السرية⁽¹²⁶⁾ .

أبو حفص عمر ابن أبي زكرياء :

وتولى بتونس الأمير أبو حفص عمر ابن السلطان أبي زكرياء ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص ، وُلد بتونس بعد صلاة الجمعة الموفى ثلاثين من ذي القعدة سنة إثنين وأربعين وستائة⁽¹²⁷⁾ ، وبُوع له بها يوم الأربعاء الخامس والعشرين لربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستائة⁽¹²⁸⁾ ، وتلقب «بالمستنصر» .
وفي السابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة توفي بالمهدية القاضي ابن الغماز .

وفي السادس والعشرين لذي الحجة من سنة ثلاث وتسعين⁽¹²⁹⁾ توفي السلطان أبو

(122) «أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن بن الغماز الأنصاري» (609 - 1212/693 - 1294 م) ذكره ابن فرحون في الديباج . وصفه الغبريني صاحب عنوان الدراية بأنه القاضي الكبير الشهير العدل الرضي ، ولي قضاء بجاية ثم استدعي لحاضرة تونس وقدم للقضاء بها ، عن الحلل السندسية 644/1 .

(123) في الأصول : «بها» .

(124) كذا في ط وتاريخ الدولتين ، وفي ش «أشهب أحمر اللون» .

(125) في الأصول : «وكان» .

(126) دولة الأمير إبراهيم بن أبي زكرياء ودولة الدعي نقل المؤلف أخبارهم باختصار وزيادة في الأخير من تاريخ

الدولتين (ص 43 - 50) .

(127) 29 أبريل 1245 م .

(128) 11 جويلية 1284 م .

(129) 21 نوفمبر 1294 م .

[301/ب]

حفص فكانت خلافته أحد عشر عاماً وثمانية أشهر إلا يومين ، وكان عهد لولده عبد الله فتحديث الموحِّدون في صغره وأنه لم يبلغ الحلم ، فبعث السلطان / إلى الشيخ الصَّالح أبي محمد المرجاني وتحدث معه في ذلك ، وكان الواثق بن المستنصر⁽¹³⁰⁾ لما قتل هو وأولاده - حسباً مر - فَرَّت إحدى جواريه حاملاً منه إلى زاوية الشيخ الولي أبي محمد المَرْجاني ، فوضعت الولد في بيته وسمَّاه الشيخ «محمداً» ، وعق⁽¹³¹⁾ عليه وأطعم الفقراء يومئذ عَصيدة الحِنطة ، فَلَقَّبَ بأبي عَصيدة ، ثم صار بعد اختفائه إلى قُصُورهم ، ونشأ في ظلِّ الخلفاء حتى شَبَّ ، وبقيت له مه مع الشيخ المرجاني ذِمَّة ، فلما فوضه السلطان في شأن العهد ، وأخبره بنكير الموحدين لولده أشار عليه الشيخ بصرف العهد إلى محمد بن الواثق ، فقبل إشارته ووقع الإنفاق على ذلك فأخرجه الشيخ أبو محمد المرجاني ، وبارك عليه ودعا له ، وبويع البيعة الخاصة يوم الأربعاء الثاني والعشرين لذي الحجة .

أبو عَصيدة ومن توفي من العلماء في أيامه :

ثم لما توفي السلطان أبو حفص في التاريخ المذكور بويع الأمير أبو عبد الله محمد ابن المولى السلطان محمد الواثق الملقب «بأبي عَصيدة» وافتتح أمره بقتل عبد الله ابن السلطان أبي حفص لأجل ترشحه للولاية .

ثم خرج السلطان أبو عَصيدة من حضرة تونس بمحلته حتى تجاوز تخوم عمله إلى أعمال قسنطينة ، وجفلت قدامه الرعايا ، ثم رجع إلى حضرته .

وفي شهر جمادى الأولى سنة تسع وتسعين⁽¹³²⁾ ، توفي الشيخ الصَّالح المرجاني ، ودفن بجبل الزَّلاج⁽¹³³⁾ وكان صديقاً لقاضي الجماعة / بتونس الفقيه أبي يحيى بن أبي بكر الغوري الصفاقسي وكان القاضي مريضاً ، فكتم أقاربه موت صديقه ، فلم يخبروه به ، وجعلوا يوصون من يعود له ألا يُخبره بموته ، فأتى الفقيه أبو اسحاق بن عبد الرِّفيع لعيادة

[302/أ]

(130) في الأصول : «المستنصر» .

(131) في الأصول : «عن» والتصويب من تاريخ الدولتين ص 53 . «عقَّ يعقُّ عن المولود حلق عقيقته أو ذبح عنه شاة وفي التهذيب والصحاح يوم أسبوعه» تاج العروس 16/7 .

(132) جاني - فيفري 1300 م .

(133) في الأصول : «جلاز» .

اضي فأوصوه فَنسي وأخبره ، فازداد مرضه ، وتوفي يوم الأحد رابع عشر جمادى الأولى
ة تسع وتسعين وستائة (134).

ونقل عن الشيخ أبي محمد عبد الواحد الغرياني أنه أخبره من يثق به أن عادة
رحلين (135) قديماً بتونس أنهم لا يُؤلّون القضاء أكثر من عامين عملاً بما أوصى به عمر
ن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - حين كتب عهده أنه لا يلي عامل أكثر من عامين
يضاً فإنهم يرون أن القاضي إذا طالت مدة قضائه اتخذ الأصحاب والإخوان ، وإذا
قُن العزل فلا يغتر ، وأيضاً فإن الحال إذا كانت هكذا ظهرت مخايل المعرفة بين
أقران ، وكثر فيهم القضاة بتدريجهم على الوقائع ، فيبقى الحال معروفاً محفوظاً ، بخلاف
إذا استبد الواحد بالعمل لم يقع تناصف ولم يحصل لمن بعده النفوذ لياسهم من الولاية
لا بعد مشقة.

وفي ثاني صفر من سنة سبعمئة (136) توفي الشيخ الفقيه النحوي أبو زكرياء
يفرنزي (137) كان تلميذ ابن عصفور وخليفته في فنه.

وفي شهر جمادى الأولى من سنة ست وسبعمئة (138) سافر شيخ الموحدين أبو
عيسى / زكرياء بن أحمد اللحياني بالعساكر إلى جربة برسم خلاصها من أيدي
لنصارى ، فقاتل القشتيل (139) شهرين (140) ، ولما عجز عنه رحل إلى قابس (141) وانتهى
لى توزر ، وأعانه على الخدمة أحمد بن محمد بن يملؤل مخدوم التجاني صاحب الرحلة ،

(134) 6 فيفري 1300 م.

(135) هم الحفصيون لأنهم فرع من الدولة الموحدية.

(136) 17 أكتوبر 1300 م.

(137) في الأصول : «اليفري» والتصويب من تاريخ الدولتين ص 56.

(138) نوفمبر - ديسمبر 1306 م.

(139) هو حصن حرابي بناه الأميرال الأروغوني (Aragonais) روجي دي لوريا (Roger de Lauria) في جزيرة

جربة اثر احتلاله لها في ما بين سبتمبر وأكتوبر من سنة 1284/683 م. عن هذه الأحداث أنظر بلاد البربر

تحت إمارة الحفصيين (... La Berberie)، المصدر السابق/93. وعن القشتيل أنظر رحلة التجاني 126 - 128

ورشيد غريب : برج غازي مصطفى بجربة. المجلة التاريخية المغربية عدد 4 السنة 1975 ص 85 - 91.

(140) لما توفي روجي دي لوريا خلفه ابنه روجر الذي لم يكن يتمتع بحظوظ والده ، وثار عليه أهل جربة ، ولما علم

ابن اللحياني ذلك خف لنصرتهم كما أتى في النص وحاصر القشتيل الذي استقرت به حامية عسكرية نصرانية

في شهر جمادى الآخرة 31/706 ديسمبر 1306 ، بلاد البربر 123/1.

(141) كذا في ط وتاريخ الدولتين ، وفي ش وت : «صفافس».

فخلص مجابي الجريد ، ورجع إلى قابس ، فأنزله عبد الملك بن مكّي فصرف العساكر إلى الحضرة ، وعمل على السفر إلى الحج ، فتولى رئاسة الموحّدين بتونس أبو يعقوب بن يزدوتن ، وتحوّل هو عن قابس إلى بعض جبالها خوفاً من وُحْمِهَا ، وأقام في انتظار الركب . ثم انتقل إلى طرابلس ، فأقام بها حولاً ونصفاً إلى أن وصل وفد التّرك من المغرب في آخر سنة ثمان ، كانوا أتوا بهدية من صاحب مصر ليوسف المريني ، فخرج معهم حاجاً فقصى حَجَّه .

وفي يوم الثلاثاء الثالث عشر⁽¹⁴²⁾ لربيع الآخر سنة تسع وسبعمائة⁽¹⁴³⁾ توفي الأمير أبو عبد الله محمد أبو عصيدة ، فكانت خلافته أربعة عشر عاماً وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً⁽¹⁴⁴⁾ وكان في قائم حياته عقد عهداً مع الأمير أبي البقاء خالد صاحب قسنطينة وبجاية على أن أيّهما توفي قبل صاحبه أخذ صاحبه بلاده .

أبو بكر الشهيد :

وكان السلطان خالد قد نزع إليه حمزة بن عمر بن أبي الليل يُرَغِّيه في ملك الحضرة⁽¹⁴⁵⁾ واستنضه إليها ، فلما مرض السلطان أبو عبد الله ، وتحقّق ذلك الأمير خالد وهو ببجاية جدّ في / الحركة على تونس ، وأظهر أنها للجزائر ، ثم سار إلى قسنطينة وترك بها نائباً⁽¹⁴⁶⁾ ، فلما قرب من تونس ونزل قصر جابر توفي الأمير أبو عبد الله أبو عصيدة فاجتمع الأشياخ وكبار الموحدين وتحدّثوا هل يقع الوفاء بالعهد والشّرط المتقدّم أو ينظرون من يبايعونه لأنفسهم فاتّفق رأيهم على مبايعة الأمير أبي يحيى أبي بكر المعروف بالشهيد ابن الأمير أبي زيد عبد الرحمان ابن الأمير أبي يحيى بن أبي بكر ابن السلطان أبي زكرياء ، فبويع يوم وفاة أبي عصيدة ، وذلك يوم الثلاثاء الثالث عشر لربيع الآخر من سنة تسع وسبعمائة⁽¹⁴⁷⁾ .

[أ/303]

(142) في الأصول : « العاشر » والتصويب من تاريخ الدولتين ص 58 .

(143) 21 سبتمبر 1309 .

(144) عن الأمير أبي حفص عمر والأمير أبي عصيدة انظر تاريخ الدولتين ص 50 - 58 واختصر المؤلف ما يتعلق بأبي

حفص عمر .

(145) « عند إياسه من خروج أخيه من محبسه » ، تاريخ الدولتين .

(146) هو الفقيه أبي الحسن علي بن عمر ، تاريخ الدولتين ص 58 .

(147) 20 سبتمبر 1309 م .

فأتم ثمانية أيام حتى خرج لقتال أبي البقاء خالد فأقام بمحلته تسعة أيام ، والتقى أبو البقاء وأبو بكر ، فانهزم أبو بكر ، ودخل القصبة ، ثم لما أصبح أراد الوقوف بالسبّخة مع خاصته ، وظن أن من بقي من الأجناد بتونس يقفون معه ، فوقف عند الأقواس يسيراً ، ثم انصرف فقبض عليه من ساعته وقُتل في السابع⁽¹⁴⁸⁾ والعشرين من الشهر المذكور فكانت دولته ستة عشر يوماً .

أبو البقاء خالد :

وباع الناس لأبي البقاء خالد يوم الجمعة السابع⁽¹⁴⁸⁾ والعشرين من ربيع الآخر سنة تسع وسبعمائة ، ولقب «بالناصر لدين الله» .
وفي يوم الخميس التاسع لجمادى الأولى من سنة إحدى عشرة وسبعمائة⁽¹⁴⁹⁾ ، وصل الشيخ أبو عبد الله المزدوري صحبة العرب إلى تونس نائباً عن الأمير أبي يحيى زكرياء بن أحمد بن محمد اللّحياني ، وكان وصل من الحجاز / إلى إفريقية ، فوجد الأحوال اضطربت ووجد الأعراب غلبت على إفريقية ، فعزم على الولاية فبُيع بطرابلس ، فلما دخل المزدوري حكم أبا البقاء خالد⁽¹⁵⁰⁾ ، فكانت دولته بتونس ستين وثلاثة عشر يوماً وتوفي بتونس قتيلاً في سنة إحدى عشرة وسبعمائة⁽¹⁵¹⁾ ، وقيل سنة ثلاثة عشرة .

أبو يحيى زكرياء ابن اللّحياني :

وفي يوم الأحد الثاني من رجب من سنة إحدى عشرة ببيع البيعة العامة بمنزل المحمدية الأمير أبو يحيى زكرياء ابن الشيخ أبي العباس أحمد ابن الشيخ أبي عبد الله

(148) في الأصول : «السادس والعشرين» والتصويب من تاريخ الدولتين .

(149) 23 سبتمبر 1311 م .

(150) الكلام غير واضح والأمير أبي يحيى زكرياء ارتحل إلى تونس وبعث في مقدمته أولاد أبي الليل ومعهم شيخ دولته محمد المزدوري فوصلوا إلى تونس ، فكانت بها معركة وتसारح الناس إلى المزدوري ومكّثوه من تونس بعد اشهاد أبي البقاء خالد على نفسه بالخلع . أنظر تاريخ الدولتين ص 61 .

(151) 1311 - 1312 م .

مُحَمَّدُ اللَّحْيَانِي ابن الشيخ أبي عبد الواحد ، كان -رحمه الله- مشاركاً في العلوم والآداب ، فلذا كان يَألف أهل العلم والأدب ، وكان في أول أمره كثير التَّمَنُّع من الأمر ، وكان أحب الأمر إليه أن يكون نائباً عن خليفة يكون قابلاً لكلامه مؤثراً له عما سواه ، عاملاً بمقتضى السياسة ، فلذا ردَّ⁽¹⁵²⁾ أفعال من كان قبله ، واسترجع البلاد التي سوغت ، وقال : لا يمضي عطاء من لا يعرف قدر ما أعطى ، ثم عرض الجيش فأسقط منه من لم يكن له أصل ثابت في القبائل ، وسار في الناس سيرة حسنة ، ومكَّن⁽¹⁵³⁾ ولده للحكم عند القاضي أبي اسحاق بن عبد الرِّفيع في دم أدعي عليه به ، وهو كان سبب محنة القاضي المذكور.

ثم إن السُّلطان أبا يحيى زكرياء بن اللحْياني رأى اضطراب الأحوال ، وافتتان العربان ، وظهر له خروج الأمر من يده ، فجمع الأموال وباع / جميع الذخائر التي كانت في القسبة حتى الكتب التي كان الأمير أبو زكرياء الأكبر جمعها ، واستجاد أصولها ودواوينها ، أخرجت للكتيبين وبيعت بدكاكينهم ، زعموا أنه جمع ما يجاوز عشرين قنطاراً من الذهب ، وجولقين من حصى الدر والياقوت ، واستعمل حركة لقابس وخرج إليها في أول عام سبعة عشر وسبعمائة⁽¹⁵⁴⁾ ، بعد أن رتب بتونس أجناداً يذبون عنها مع قائد البلد ألف فارس ، بعضهم بأنف الجبل الذي بقبلة تونس ، وبعضهم بالعلويين ، وبعضهم على طريق باجة ، وخرج من تونس في قدر ألف فارس ، واستخلف بها أبا الحسن بن وانودين ، ورحل إلى قابس فسكنها بأهله وولده إلا ولده محمد ، ويدعى «أبا ضربة» فإنه تركه معتقلاً.

ولما خرج هو من تونس تحرك السُّلطان أبو يحيى أبو بكر ، وارتحل⁽¹⁵⁵⁾ من قسنطينة في جمادى الآخرة من سنة سبع عشرة قاصداً الحضرة فلقية وفد العرب وانتهى إلى باجة ، وانصرفت حاميته لتونس ، وكان نواب ابن اللحْياني كتبوا له بحركة أبي بكر على تونس ، فكتب لهم : عندكم الأموال والأجناد ، وما فعلتم فقد أمضيته ، فوجدوا عندهم من المال المجتمع من حين سافر مائة ألف دينار⁽¹⁵⁶⁾ وخمسين ألفاً ، ووجدوا من

(152) كذا في ط وتاريخ الدولتين ص 62 ، وفي ش : «أراد» .

(153) كذا في ط وتاريخ الدولتين ص 62 ، وفي ش : «مكنه» .

(154) مارس 1317 م .

(155) كذا في تاريخ الدولتين وط ، وفي ش : «تحرك» .

(156) ساقطة من ش .

الأجناد سبعمائة فارس ، فأخرجوا ولده أبا ضربة من الثِّقَاف ، واستنابوا الشَّيْخَ أبا الحسن بن وانودين على تونس ، وخرجوا إلى القيروان ومعهم مُحَمَّدُ أبو ضربة راكبًا بغلاً دون سلاح ، وخرج جميع الأشياخ / ، وخالفهم الشَّيْخُ مولاهم ابن عمر بن أبي الليل ، فذهب إلى أبي بكرٍ لَمَّا كان في نفسه من السُّلطان ابن اللحياني لكونه كان يؤثر عليه أخاه حمزة ، فلقى أبا بكرٍ بمنزلة قشبة⁽¹⁵⁷⁾ واستحثه لتونس ، فوصلها ونزل برياض السَّنَاجرة في شعبان من سنة سبع عشرة⁽¹⁵⁸⁾ .

محمد أبو ضربة :

وكان أبو ضربة ومن معه من تونس لقيهم حمزة بن عمر بن أبي الليل فقال لهم : إلى أين ؟ فقالوا له : إلى القيروان ، ومن ثم نكاتب السُّلطان بقابس ، ونعرفه أن صاحب قسنطينة قد ملك تونس ، فقال لهم : هذا هو السُّلطان - يعني أبا ضربة - ونزل فباعه هو وجميع الناس ، واجتمعت عليه كلمة الموحدين والعرب ، وذلك أواسط شعبان من عام سبعة عشر ، ثم رجعوا بأجمعهم إلى تونس ، وكتب حمزة لأخيه مولاهم : ارجع بسلطانك ، فرجع خالد ورحل به مولاهم من رياض⁽¹⁵⁹⁾ السَّنَاجرة ، بعد أن أقام به سبعة أيام ، وعمل المُقَرِّحات هنالك ، وسار إلى قسنطينة ورجع عنه مولاهم من تخوم وطنه .

وفي وسط شعبان بويج بتونس الأمير أبو عبد الله محمد أبو ضربة ، وبقي هو بتونس وأبوه بقابس ، والخطبة مشتركة بينهما فيقول الخطيب بعد ذكر الأب : اللهم وارض عن نجلهم⁽¹⁶⁰⁾ الناشئ عن مقامات شرفهم⁽¹⁶¹⁾ «المستنصر بالله» أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد ، ثم إن حمزة بن عمر بن أبي الليل طلب من أبي ضربة كسوة ألف فارس كل كسوة بثلاثين دينارًا وغير ذلك من المطالب حتى ما أبقي شيئًا / من المال .

[أ/305]

(157) «فلي السُّلطان دوين باجة» تاريخ الدولتين ص 64 .

(158) أكتوبر 1317 م .

(159) في الأصول : «ريض» والتصويب من تاريخ الدولتين ص 65 ومن النص فيما يلي .

(160) في الأصول : «نجله» .

(161) في الأصول : «شرفه» .

ثم إن الأمير أبا بكر حشد الحشود في صفر من سنة ثمان عشرة وسبعمائة⁽¹⁶²⁾ ، وقصد تونس ، واستعمل على بجاية أبا عبد الله محمد بن القالون ، وسار إلى أن وصل الأربس فوافاه وفد هوارة وكبيرهم سليمان بن جامع ، فأخبره أن الأمير أبا ضربة إرتحل عن باجة عازماً على اللقاء ، فجد أبو بكر ولقيه الشيخ مولاهم صاحبه وراجع الطاعة له ، وإرتحل في طلب أبي ضربة وجموعه ، فخرج إلى أبي بكر العمال والمشيخة وبايعوه ، فارتحل راجعاً عن طلب أبي ضربة إلى محضرة تونس⁽¹⁶³⁾ .

ولما ورد⁽¹⁶⁴⁾ على ابن اللحياني بقابس خبر ما وقع بتونس وأن أبا بكر هزم ولده ، ورأى أموراً تفاقمت خرج من قابس إلى طرابلس ، وبنى بها موضعاً لجلوسه يقال له الطارمة ، بناه بالزليج والرّخام ، وجبى أموال عمل طرابلس ، ثم سرح ذلك الجيش لنصرة ولده صحبة صاحبه أبي زكرياء بن يعقوب ووزيره ابن ياسين⁽¹⁶⁵⁾ بالأموال ففرقها في العرب ، وزحفوا بهم إلى القيروان مع الأمير أبي ضربة فخرج أبو بكر فهزمهم ، ونجا أبو ضربة إلى المهديّة فامتنع بها ، ولحق الحاجب المذكور وبعض الفلّ - أي المنهزمين - بالسلطان ابن اللحياني بطرابلس ، فأرسل إلى النصاري ، وطلب منهم عمارة ستة أجفان ، فوردت عليه وطلع بولده وأهله وماله وحاجبه ابن يعقوب ، وترك صهره أبا عبد الله محمد بن أبي بكر بن أبي عمران من قرابته / حافظاً لطرابلس ، وسافر هو في الأجفان إلى الإسكندرية فنزل بها على السلطان محمد بن قلاوون ، فاستقدمه إلى مصر فعظم مقدمه واهتر للقاءه ، وأسنى جائزته واقطاعه إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين وسبعمائة⁽¹⁶⁶⁾ ، وكانت خلافته بتونس ستة أعوام وأربعة أشهر .

ثم إن محمداً أبا ضربة بعد ما حصل بالمهديّة أدرك وقتل في ربيع الآخر من سنة ثمان عشرة وسبعمائة⁽¹⁶⁷⁾ ، فكانت خلافته بتونس تسعة أشهر ونصفاً⁽¹⁶⁸⁾ .

[305/ب]

(162) أبريل 1318 م .

(163) تاريخ الدولتين ص 66 .

(164) تاريخ الدولتين ص 65 .

(165) في الأصول : «ياصميين» والتصويب من تاريخ الدولتين .

(166) 1327 - 1328 م .

(167) جوان 1318 م .

(168) عن دولة ابن اللحياني ومحمد أبي ضربة وانتصار أبي بكر عليه ، أنظر تاريخ الدولتين ص 60 - 66 فقد نقل

المؤلف ما فيه مع زيادة يسيرة .

أبو يحيى أبو بكر:

وتولّى بعده السُّلطان أمير المؤمنين أبو يحيى أبو بكر بن أبي زكرياء يحيى [ابن المولى السُّلطان أبي اسحاق إبراهيم ابن الأمير أبي زكرياء يحيى] ⁽¹⁶⁹⁾ ابن الشَّيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص في تاريخه ، وقد تحرَّك لتونس كرات متعددة أولها وهو أمير المؤمنين بقسنطينة في عام ستة عشر ⁽¹⁷⁰⁾ فوصل إلى عين تبرسق وهي أصل وادي مجردة ، ورجع إلى المغرب ، ثم تحرَّك الحركة الثانية وصل فيها إلى سيجوم ، وملك تونس ، ولم يدخلها ، وبويع له برياض السناجرة في ثامن شعبان عام سبعة عشر وسبعمائة ⁽¹⁷¹⁾ ، ثم رجع إلى المغرب ثم تحرَّك الحركة الثالثة بجيوش وافرة من قسنطينة ، فوصل تونس في الثامن لشهر ربيع الأول عام ثمانية عشر وسبعمائة ⁽¹⁷²⁾ ، ثم انصرف من تونس ، وتحرَّك إليها رابعة فوصل إليها ، وكتب له البيعة بها في غرة صفر عام ثلاثة وعشرين ⁽¹⁷³⁾ ، ثم انصرف عنها ووصل مرَّة خامسة في سابع شهر رمضان عام خمسة وعشرين ⁽¹⁷⁴⁾ ثم / انصرف عنها ووصل المرَّة السادسة في صفر عام ثلاثين وسبعمائة ⁽¹⁷⁵⁾ ، وفي أثناء انصرافه عن تونس ملكها ابن أبي عمران الحفصي كرَّتين نحو ثمانية أشهر ، ونزل الأعراب تونس في أثناء الكرَّتين المذكورتين بالأمير إبراهيم ابن الشهيد ، ونزلوا أيضًا كُذبة أبي علي الأمير عبد الواحد بن اللحياني عام إثنين وثلاثين ⁽¹⁷⁶⁾ ، وهو عبد الواحد ابن السُّلطان أبي يحيى زكرياء بن اللحياني أخو أبي ضربة ، فوصل إلى تونس بعد قدومه إثر موت أبيه بالشرق مع دُباب وابن مكي ، وتسامع به الناس وإفريقية خالية من حاميتها لنهوضهم لبيجاية ، فاغتنم ⁽¹⁷⁷⁾ حمزة بن عمر الفرصة فاستقدمه وبايعه ، ودخل الأمير عبد الواحد وحاجبه ابن مكي وأقام بها إلى أن بلغ الخبر إلى السُّلطان بمقربة من المسيلة بعد هدمه حصن بني عبد الواحد المحدث على بجاية ، فقفل إلى الحضرة ، وبعث في مقدمته محمد البطرني مع

(169) اكمال من تاريخ الدولتين ص 66.

(170) 1316 - 1317 م.

(171) 16 أكتوبر 1317 م.

(172) 10 ماي 1318 م.

(173) 9 فيفري 1323 م.

(174) 17 أوت 1325 م.

(175) 24 نوفمبر 1329 م.

(176) 1331 - 1332 م.

(177) في ش : «استغنم».

بطانته في عسكر اختارهم لذلك ، فأجفل ابن اللحياني وجموعه عن تونس لخمس عشرة ليلة من نزولهم ، ودخل البطرفي إليها ، وجاء السلطان على أثره أيام عيد الفطر سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، وجُددت له البيعة بتونس ، وهي المرة السابعة له كما قيل .

[طويل]

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قرّ عيننا بالإياب المسافر

وفاة القاضي ابن قَدّاح :

وفي سنة أربع وثلاثين وسبعمائة⁽¹⁷⁸⁾ ، توفي القاضي ابن قَدّاح ، قال ابن عرفة⁽¹⁷⁹⁾ : حدثني من أثق به قال : لما مات القاضي ابن قَدّاح بتونس / قال أهل مجلس السلطان أبي بكر في ولاية قاضي فذكر بعض أهل المجلس الشيخ ابن عبد السلام ، فقال بعض أهل المجلس الكبار : إنه شديد الأمر ولا تطيقونه ، فقال بعضهم : نستخيره ، فدرسوا عليه رجلاً من الموحدين كان جاراً له يعرف «بابن ابراهيم» فقال له : هؤلاء امتنعوا من ولايتك لأنك شديد في الحكم ، فقال : أنا أعرف الفوائد وأمشيها ، فحينئذ ولوه من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة⁽¹⁸⁰⁾ إلى أن توفي عام تسعة وأربعين⁽¹⁸¹⁾ . قال الشيخ البرزلي في «تأليفه» : لعلّه إنما ذكر ذلك لأنه خاف أن يتولى من لا يصلح بوجه [فكان]⁽¹⁸²⁾ كلامه مانعاً . وكان الشيخ ابن عبد السلام عالماً سيداً ساد بالعلم ورأس ، واقتبس من الحضرة ما اقتبس ، له التأليف المشهور الذي شرح به ابن الحاجب ، وجمع بين القضاء والخطابة والتدريس والفتوى ، وكان يُدرّس بمدرسة الشّماعين ، ولما بَنَت أخت السلطان مدرسة عُتق الحمل طلبت من أخيها السلطان أبي بكر أن يكون قاضي الجماعة ابن عبد السلام يُدرّس بمدرستها فأسغفها بذلك ، فكان يقسم الجمعة بين المدرستين ، ثم إنها عزلته من مدرستها ونسبته إلى التفريط وقدمت عوضه أبا عبد الله بن سلامة⁽¹⁸³⁾ .

(178) 1333 - 1334 م .

(179) محمد بن محمد بن عرفة بن حماد الورغمي ولد بتونس (716 - 1316/803 - 1401) شيخ الإسلام بالمغرب كان مقرئاً قتيهاً منطقياً فريضاً نحوياً ، انظر مثلاً محفوظ ، تراجم المؤلفين التونسيين 3/363 - 371 وترجم له مقديش فيما يلي من نصه هذا .

(180) 1333 - 1334 م . (181) 1348 - 1349 م .

(182) في الأصول : «وجه كلامه» ، وهي غير ذات معنى والتصويب من تاريخ الدولتين ص 71 .

(183) وهو شيخ ابن عرفة له ترجمة بنيل الإيتاج .

وفاة الفقيه محمد بن عبد الله بن راشد القفصي :

وفي الليلة الموفية⁽¹⁸⁴⁾ عشرين من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وسبعمائة⁽¹⁸⁵⁾ ، توفي الشيخ الفقيه الحافظ أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله بن راشد القفصي البكري بمدينة تونس شارح ابن الحاجب ، أصله / من قفصة ونشأ بها وقرأ ، ثم انتقل إلى تونس ، وأخذ عن ابن الغمّاز ثم انتقل للمشرق ، فلقى أعلاماً كَنَّا صِر الدّين بن المُتبر والأبياري ، وشهاب الدين القُرّافي ، وتقي الدين بن دقيق العيد ، وشمس الدين الأصفهاني وغيرهم ، وأتقن قراءة المعقولات وحجج وزار ، ولما عاد من المشرق وقدم لقضاء بلده قفصة حَسِدَ وَسَلِقَ بِالْأَسَنَةِ حِدَاد ، وطرأت⁽¹⁸⁶⁾ عليه غصائص وقُدِّمَ لقضاء الجزيرة القبلية ، ثم عُزِلَ وأحمل ذكره وناوأه القاضي أبو اسحاق بن عبد الرفيغ فلم يتركه يخرج رأسه طرفة عين حتى لقد منعه الجلوس للوعظ بجامع القصر الأعلى وقال له : إن دخلته كسرت رجليك ، فكان ابن راشد يقول : أتمنى أن أجلس أنا وهو للمناظرة حتى يظهر الحق ومن هو المقدم في العلم ، وله تصانيف منها «تلخيص المحصول» و«نخبة الراحل في شرح الحاصل» و«الفاثق في الأحكام والوثائق» في ثمانية أجزاء و«الشهاب الثاقب في شرح ابن الحاجب» في ثمانية أجزاء و«المُذْهَب في ضبط مسائل المذهب» في ستة أسفار و«تحفة اللبيب في اختصار ابن الخطيب» في أربعة أسفار و«المذاهب السنية في علم العربية» و«المرتبة العليا في تعبير الرؤيا» .

قال الشيخ ابن عرفة : حضرت جنازته بعد أن جلس الفقيه [ابن]⁽¹⁸⁷⁾ الحُباب بالجبانة مستنداً إلى حائط في جبانة أخرى ، وكان بالأخرى مستنداً إلى ذلك الحائط الشَّيْخَان القاضي ابن عبد السلام والمفتي / ابن هارون ، فأخذ [ابن] الحُباب في الثناء على ابن راشد ، وذكر من فضائله وعلمه ما دعاه الحال إلى أن قال : ويكني من فضله أنه أول من شرح «جامع الأمهات»⁽¹⁸⁸⁾ لابن الحاجب ، وجاء هؤلاء السَّرَّاق - وأشار إلى

(184) النقل مستمر من تاريخ الدولتين ص 73 .

(185) 3 فيفري 1336 م .

(186) من تاريخ الدولتين : «وجرت» .

(187) ساقطة من الأصول .

(188) هو كتاب من الفقه المالكي ويقال له ابن الحاجب الفرعي تمييزاً له عن تأليفه في الأصول الذي يقال له ابن

الحاجب الأصولي أو الأصلي .

الجالسين خلفه - فعمد كل واحد إلى أن وضع شرحاً عليه ، وأخذ من كلامه ما لولاه لما علم أين يمور⁽¹⁸⁹⁾ ولا أين يجيء .

وفاة الفقيه عبد الله ابن البراء التنوخي :

وفي التاسع⁽¹⁹⁰⁾ والعشرين لجمادى الأخيرة من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة⁽¹⁹¹⁾ توفي بتونس الفقيه المؤرخ أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي القاسم بن علي بن البراء التنوخي ، كان اماماً بجامع الزيتونة ، وخطيباً بجامع القصبة ، عدلاً ذا سمعة حسن ، له عناية بالتأريخ والرواية ، اختصر « ذيل⁽¹⁹²⁾ السمعاني » ، واقتضب « تاريخ الغرناطي »⁽¹⁹³⁾ ، وألف تاريخه على طريقة الطبري مرتباً على السبق من سيد البعثة المحمدية إلى زمنه ، أجاد فيه ، وتجزئه في ستة أسفار⁽¹⁹⁴⁾ .

وفي سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة⁽¹⁹⁵⁾ فتح القائد ابن الكماد قشتيل جربة واستخلصه من أيدي النصاري بعد أن حاصره أعظم محاصرة .

وفاة الشيخ علي بن منتصر الصدي :

وفي ليلة الخميس الخامس لجمادى الأولى من سنة اثنتين وأربعين⁽¹⁹⁶⁾ ، توفي الشيخ الصالح الإمام أبو الحسن علي بن منتصر الصدي ، ودُفن بجبل الزلاج⁽¹⁹⁷⁾ ، كان من أهل العلم والصلاح لا يبالي بذي سلطان لسلطانه ، ولا تأخذه في الحق لومة لائم ، كتب للقاضي ابن عبد السلام : يا محمد ليت أمك لم تلدك ، وليت اذ ولدتك لم تتكلم ،

(189) في تاريخ الدولتين : « يمر » ص 74 .

(190) في الأصول : « السابع » والتصويب من تاريخ الدولتين ص 74 .

(191) 2 فيفري 1337 م .

(192) ذيل تاريخ بغداد لأبي سعد عبد الكريم السمعاني .

(193) المشرق في علماء المغرب والمشرق لأحمد بن محمد الغرناطي نزيل تونس (ت سنة 1293/692 م) .

(194) لابن البراء التنوخي ترجمة في « تراجم المؤلفين » لمحمد محفوظ 251/1 .

(195) 1337 - 1338 م .

(196) 1341 - 1342 م .

(197) في الأصول : « الجلاز » .

وليت اذ تكلمت لم تتعلم ، ورأى يوماً / مكسًا فأخذ قرطاسًا وكتب فيه : من أكل طعامًا [308/أ] من مكس ينظر عاقبة أمره ، وطوى الكتاب ووجهه إلى الخليفة ، فلما نظر فيه قال : ما هذا ؟ فأخبر ، فقطعه (198) ، وكذلك أخبر بامرأة رومية وقعت في الجانب العلي ، ورام بعض الأمراء عصمتها فكتب للخليفة : أخبروني فإن أردتم عز الاسلام فأعزوه ، وإلا ارتحلنا من بينكم ، فإن مثل هذا الواقع وحماية من فعله ردةً ، قال الشيخ البطرني : فوجه الخليفة للقاضي ابن عبد السلام وقال له : ما قت ولا قعدت لو أنك نفذت الحكم الشرعي ما سمعت أنا مثل هذا ، ثم أمر بالمرأة فرُفعت للقاضي ، وتم الحكم عليها ، وقدمه ابن عبد الرفيق للشهادة عدلاً بتونس ، فكان لا يأخذ أجرًا على شهادته ، ويأخذ الصدقة والزكاة ، وحكى الشيخ ابن عرفة عنه أنه قال : يجلس كل يوم الخضر - عليه السلام - بالمقصورة الشرقية من جامع الزيتونة من أول آذان الظهر إلى أن يكثر الناس فيخرج يشير إلى أنه رأى الخضر مرارًا .

وفاة الشيخ أبي حيان :

وفي شهر صفر من السنة المذكورة (199) توفي بالقاهرة الشيخ الإمام الحافظ النحوي المفسر أثير الدين أبو حيان (200) محمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي ، كان إمامًا عارفًا بالتفسير والعربية ، انتقل من الأندلس لمصر واستوطنها ، وأخذ الناس عنه فأفاد واستفاد ، وتمذهب بمذهب (201) الشافعي ، وصنف تصانيف في علوم شتى أربت على خمسين / تصنيفًا (202) ، منها «البحر المحيط» (203) في تفسير القرآن الذي اختصر الصفاقسي [308/ب] والسمين اعرابه (204) وكان جيد الشعر والنثر فن شعره :

(198) «أمر بقطعه» تاريخ الدولتين .

(199) أي سنة 742 والذين ترجموا له ذكروا أنه توفي سنة 745 ، والمؤلف حذف خبرًا وقع سنة 745 ثم نقل ترجمة

أبي حيان بدون تنبه إلى ما في كلمة السنة المذكورة من الإشباه .

(200) في تاريخ الدولتين ص 77 : «أبو يحيى» .

(201) بعد أن كان ظاهريًا إلا أنه لبث ظاهريًا في الباطن يعظم امام المذهب داود الظاهري كلما مست المناسبة كما

نراه في تفسيره .

(202) وله ديوان شعر مطبوع .

(203) في 8 مجلدات كبيرة وهو مطبوع .

(204) وأبو حيان كان يقول عن نفسه أبو حيات يقصد تلامذته ، وكان يستهزئ بالفضلاء من أهل القاهرة ، =

[طويل]

عداني لهم فضل علي ومنة فلا أذهب الرحمان عني الأعاديا
همُ بحثوا عن زلي فاجتنبها وهم نافسوني فاكسبت المعاليا

وفي شهر ربيع الأول من عام سبعة وأربعين وسبعمائة⁽²⁰⁵⁾ كُتب صداق الحرة عزونة بنت السلطان أبي بكر على سلطان المغرب أبي الحسن المريني ، عوضاً عن أختها فاطمة التي كان صاهره عليها وكانت توفيت في غزوة طريف من بلاد الأندلس التي أشرنا إليها في دولة بني مرين ، وكان صداق عزونة خمسة عشر ألف دينار ذهباً ومائتي خادم ، وتوجهت إلى المغرب في البر في شهر جمادى الثانية من العام المذكور ، صحبة أخيها شقيقها الأمير الفضل ، وبسبب المصاهرة اعتضد الأمير أبو بكر ، وقهر أعداءه من بني زيان ملوك تلمسان وغيرهم .

وفي ليلة الأربعاء الثانية من رجب من سنة سبع وأربعين وسبعمائة⁽²⁰⁶⁾ توفي السلطان أبو بكر بتونس ، فبلغ عمره خمساً وخمسين سنة إلا شهراً ، ودفن في روضة جدّه الشيخ أبي محمد عبد الواحد بالقصبة ، ومدة خلافته من حين وُلي في المرة الأولى تسع وعشرون سنة وعشرة أشهر وخمسة / وعشرون يوماً ، وفي أيامه يرحى كل يوم أربعة آلاف قفيز قوت الناس ، وهو كناية عن قوة عمارة مدينة تونس وسعة رزقها تلك الأيام⁽²⁰⁷⁾ .

[309/أ]

= ويحتملونه لحقوق اشتغالهم عليه ، (كذا في تنمة المختصر لابن الوردي) وقد ترجم لأبي حيان من كتب أهل القرن 8 ومن كتب عن طبقات المفسرين وطبقات اللغويين: فله ترجمة في بنية الوعاة للسيوطي 280/1 ، البلغة في تاريخ أئمة اللغة للفيروزآبادي صاحب القاموس (ت. 817) ص 203 - 204 ، تنمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي 482/2 - 483 ، الدرر الكامنة 70/5 - 72 ، طبقات الشافعية للاستوى 456/1 - 457 ، ذيل العبر للحميني 243 - 244 ، طبقات المفسرين للماوردي 286/2 - 291 ، طبقات النحاة واللغويين لابن قاضي شهبة (ت. 851) 289 - 291 ، نكت الحميان في نكت العميان لصلاح الدين الصفدي تلميذ أبي حيان وترجم له لأنه سمي قبل وفاته بفترة ، ص 280 - 286 .

(205) جوان - جويلية 1346 .

(206) 19 أكتوبر 1346 م .

(207) أخبار دولة السلطان أبي بكر يحمي وما ذكر من تراجم في الأثناء نقلها المؤلف باختصار يسير من تاريخ الدولتين ص 66 - 79 .

أبو حفص عمر بن أبي بكر والنافس بين الحفصيين :

ثم تولى بعده ولده الأمير أبو حفص عمر ، بويح له بالخلافة يوم الأربعاء الثاني لرجب الفرد من عام سبعة وأربعين وسبعمائة ، وذلك أنه لما مات والده بادر بملك القصر وضبط أبوابه ، وبعث للقاضي ابن عبد السلام وقاضي الأُنكحة الأجمي⁽²⁰⁸⁾ فقال لهما : بُئَايَنا؟ فقالا له : نحن شهدنا في بيعة أخيك أحمد صاحب قفصة ، فاعطنا شهادتنا نقطعها ، فنشهد⁽²⁰⁹⁾ حينئذ في بيعتك ، قال الشيخ ابن عرفة : فخاض بعض الناس في بعض وهم جلوس في القبة الكبرى ، فأمر الشيخ ابن تافراجين أن لا يخرج أحد من القبة ، وفسخ المجلس بقول القاضي : نحن نمشي نشتغل بمؤونة دفن السلطان وحينئذ نجتمع ، واستدعى وجوه الموحدين وبعض وجوه البلد ، وأخرج لهم الأمير عمر ، فبايعوه ، فما شعر القاضيان ومن معهما حتى سمعوا جلبة الطبول والبوقات ، فقليل ما هذا؟ قيل قد بايع الناس الأمير واستدعى القاضي ومن معهما فأروا تمام القضية لوقوع البيعة وانعقادها من الجُم الغفير فكُتبت⁽²¹⁰⁾ وثيقة بعقد البيعة للأمير عمر لاختبار العامة والخاصة له عن ولي العهد ، وهذا من حسن سياسة ابن تافراجين ، وكان الأمير خالد نجل السلطان / أبي بكر برياض رأس الطائية ، وكان قدم من بلد المهديّة زائرًا فبلغه الخبر [309/ب] ليلاً ، فخرج فارًّا بنفسه في نفر قليل من خُدّامه ، فتبعه من العرب أولاد مندبل والكعبون⁽²¹¹⁾ مظهرين أنهم في خدمته ، فلما أصبح قبضوا عليه ، وجاؤوا به إلى أخيه أبي حفص فاعتقله ، واستقام له الملك ، وتلقّب بالنّاصر ، ولما بلغ الخبر للأمير أبي العباس أحمد صاحب قفصة موت والده وتولية أخيه بادر بمن التفّ عليه من العرب إلى تونس ولقيه أخوه أبو فارس عبد العزيز صاحب عمل سوسة بالقيروان ، فأثّاه طاعته وصار في جملته ، وجمع السلطان أبو حفص جموعه ، وخرج في غرة شعبان، بمحلته من تونس ومعه حاجبه الشيخ أبو محمد بن تافراجين منذر منه بالهلكة ، فعمل في أسباب النجاة ، ولما تراءى الجمعان رجع الحاجب إلى تونس في بعض الشغل ، وركب لاجئًا⁽²¹²⁾ إلى

(208) في الأصول : «الأحسن» والتصويب من تاريخ الدولتين ص 80.

(209) في ش : «فنشهد».

(210) في الأصول : «فكُتبت».

(211) في تاريخ الدولتين : «كعبون».

(212) في تاريخ الدولتين : «ناجئًا».

المغرب على⁽²¹³⁾ قسنطينة ، فبلغ أبا حفص خبر سفر الحاجب فاختل مصافه وذهب إلى باجة ، وتخلّف عنه العسكر ولحقوا بأخيه أبي العباس⁽²¹⁴⁾ .

وسار أبو العباس بجيوشه فلك تونس ، وبويع بها يوم السبت التاسع لرمضان من السنة ، ونزل برياض رأس الطاية ، وتلقب «بالمعتمد على الله» وأطلق أخاه خالدًا من اعتقاله ، ودخل إلى قصره لسبع ليال من منكره ، ثم إن أبا حفص رحل من باجة ، وأصبح على تونس⁽²¹⁵⁾ يوم السبت / سادس [عشر]⁽²¹⁶⁾ شهر رمضان ، وقرق خيله ورجله على أبواب المدينة ، وكسّرت الأقفال ، وفُتحت الأبواب ، وقامت معه العامة ، فلم يحصل وقت الضحى إلّا وقد استولى على المدينة ، وقتل أخاه الأمير أحمد ، ونصب رأسه على قناة ، وقتل أيضًا أخويه خالدًا وعبد العزيز بعد أن قطع يديهما ، وقتل في ذلك اليوم في المدينة والريّض نيفًا وثمانين رجلًا من العرب الواصلين صحبة أخيه الأمير أحمد ، فكانت دولة أخيه أحمد بتونس سبعة أيام ، واستوثق الأمر أبو حفص عمر ، وملك الحضره .

ثم بلغ الأمير أبا الحسن المريني أن الأمير عمّر قتل أخاه أبا العباس أحمد ولي العهد وأخويه ، وكان أحمد يستظهر على عهده بكتاب أبيه وما أودعه السلطان أبو الحسن المريني بطرته من الوفاق على ذلك بخطه لما اقتضاه منه حاجبه أبو القاسم بن عبّو في سفارته إليه ، فمغص السلطان أبو الحسن من ذلك ، وامتعص ورأى أن الأمير أبا حفص ارتكب مذهب العقوق في أخوته ، فأجمع أبو الحسن الحركة على افريقية ، وقوي عزمه على ذلك قدوم الحاجب ابن تافراجين ، فلما انقضى عيد الأضحى من سنة سبع وأربعين وسبعمائة عقد لابنه أبي عنان على المغرب الأوسط تلمسان وأحوازها ، وتحرّك هو لافريقية - حسبما مر مفصلاً - ووفد عليه أبناء حمزة بن عمر بن أبي الليل يستصرخونه بثار أخيم أبي الهول الذي قتله أبو حفص فيمن قتل ، ونزل عليه أهل القاصية / من افريقية بطاعتهم في وفد واحد ، وابن مكّي صاحب قابس ، وابن يَمْلُول صاحب توزر ، وابن العابد صاحب قفصة ، والشّيخ مولاها م ابن أبي عنان صاحب الحامة⁽²¹⁷⁾ وابن

[310/أ]

[310/ب]

(213) في تاريخ الدولتين : «من عمل قسنطينة» ص 81 .

(214) عن دولة السلطان عمر بن أبي بكر ، أنظر تاريخ الدولتين ص 79 - 81 ومنه نقل المؤلف مع حذف واختصار .

(215) في الأصول : «صبح تونس» ، والتصويب من تاريخ الدولتين ص 81 .

(216) إضافة من تاريخ الدولتين .

(217) في الأصول : «الجريد» ، والتصويب من تاريخ الدولتين الذي ينقل عنه المؤلف ص 82 .

الخلف صاحب نفطة ، فلقوه بوهران ، وأتوه بيعتهم رغبة ورهبة ، وأدوا بيعة ابن ثابت صاحب طرابلس ، ولم يتخلف عنهم إلا لبعد داره ، ثم جاء على أثرهم صاحب الزَّاب يوسف بن منصور⁽²¹⁸⁾ ومعه مسيخة الذواودة وكبيرهم يعقوب بن علي فلقوه بأرض بجاية ، فأوسع لكل تكربة ، وعقد لكل منهم على بلده وعمله ، وبعث مع أهل الجريد حاميته للجباية والحماية لنظر مسعود بن ابراهيم⁽²¹⁹⁾ من وزرائه ، ولما قدم لبجاية خرج له أميرها عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكرياء ، فأثاه طاعته ، فصرفه إلى المغرب مع إخوته ، وقدم على بجاية ، وسار لقسنطينة ، فخرج إليه بنو الأمير أبي عبد الله محمد ابن الأمير أبي بكر يقدمهم كبيرهم الأمير أبو زيد ، فأتوه طاعتهم ، فقبل منهم وصرفهم إلى المغرب وأنزلهم بوجدة وأقطعهم جبايتها ، وأنزل قسنطينة أمراءه وعُمَّاله ، وأطلق المعتقلين بها من المغاربة ، وورد عليه هنالك بنو حمزة بن عمر ومشايخ قومهم الكعوب وأخبروه بفرار الأمير أبي حفص من تونس مع أولاد مهلهل ، واستحثوه لاعتراضهم قبل فوتهم⁽²²⁰⁾ ، فوجه السلطان أبو الحسن في طلبه وزيره حمو⁽²²¹⁾ في حملة كبيرة ، وبعث [معه]⁽²²²⁾ أولاد أبي الليل ، وسرح عسكريا إلى تونس لنظر يحيى بن سليمان / من بني عسكر ، ومعه أحمد بن مكِّي ، فسار حمو ومن معه حتى أدركوا السلطان أبا حفص ومن معه بأرض الحامة من جهات قابس بموضع يُسمَّى المباركة بقرب جبل السَّباع فصبحوهم ، فدافعوا عن أنفسهم بعض الدفاع ، ثم انفضوا ، فقبض على السلطان أبي حفص وعلى مولاه ظافر ، وسيقا إلى الأمير حمو ، فاعتقلهما إلى الليل ، فذبحهما وبعث برأسهما إلى السلطان أبي الحسن [المريني] فأدركه بياحة ، وخلص الملاء إلى قابس ، فقبض عبد الملك بن مكِّي كبارا من رجال الدولة منهم أبو القاسم ابن عبو وصخر بن موسى وعلي بن منصور وغيرهم ، فبعث بهم ابن مكِّي إلى السلطان أبي الحسن ، فقطعهم من خلاف .

وكان مقتل السلطان أبي حفص يوم الأربعاء سابع عشر جمادى الأولى من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة⁽²²³⁾ فكانت ولايته بتونس عشرة أشهر وخمسة وعشرين يوما ، منها سبعة أيام لأخيه أحمد كما تقدم .

(221) حمو العشري : تاريخ الدولتين ص ٥٤ .

(222) اكمال من تاريخ الدولتين .

(223) 25 أوت 1347 م .

(218) «ابن مزي» : تاريخ الدولتين .

(219) «الرياسي» : تاريخ الدولتين .

(220) في تاريخ الدولتين : «قبل التحاقهم بالفقر» .

عود إلى ذكر تملك أبي الحسن المريني تونس وأعمالها وما وقع له بها :

وملك تونس وأعمالها أبو الحسن المريني ، ودخل تونس ثامن جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، ودخل معه ابن تافراجين ، وأعطاه فرسه مُسَرَّجًا مُلَجَّمًا ، ودخل معه حجر القصر ومساكن الخلفاء ، فطاف عليها ، ودخل من القصبة إلى الرياض المتصلة⁽²²⁴⁾ برأس الطَّايِّية ، فطاف على بستانه ، وخرج منه إلى عسكره ، وأنزل يحيى ابن سليمان بقصبة تونس بعسكره لحمايتها ، ثم صرف للبلاد المغربية ولاتها ، ورحل بعد مدة إلى القيروان ، فزار من بها من الصَّالحين / والعلماء ، ثم إلى سوسة والمهدية ووقف على آثار ملوك الشيعة وصنهاجة ، ومرَّ بقصر الجلم ورباط المنستير ، وانكفأ راجعاً إلى تونس ، فَحَلَّ بها غرة رمضان من العام المذكور ، ولما استوثق له ملك إفريقية منع العرب من البلاد التي ملكوها بالإقطاعات ، فوجسوا لذلك وترَبَّصوا به الدوائر وأغاروا بعض الأيام في ضواحي تونس ، فاستاقوا⁽²²⁵⁾ الظهر الذي كان للسلطان في مراعيها ، وتوقَّعوا بأسه ووفد عليه أيام الفطر خالد بن حمزة وأخوه أحمد من أولاد أبي اللُّيل ، وخليفة بن عبد الله بن مسكين ، وخليفة بن أبي زيد بن حكيم ، وساءت ظنونهم في السلطان ، فدخلوا عبد الواحد بن اللحياني في الخروج على السلطان ، فقبض أربعتهم لما بلغه الخبر ، وأحضرهم مع عبد الواحد فأنكروا وبهتوا ، ثم وبَّخهم واعتقلهم ، فبلغ الخبر إلى أحيائهم وانطلقوا يُحزَّبون الأحزاب ، وينظرون فيمن يقيم الملك ، وكان أولاد مهلهل أمثالهم⁽²²⁶⁾ وعديلة حملهم ، قد أيأسهم السلطان من القبول لما بالغوا في نصيحة أبي حفص ، فلحقوا⁽²²⁷⁾ بالقفر ، ودخلوا الرَّمْل ، فركب قتيبة⁽²²⁸⁾ بن حمزة وأمه ومعهم صغار⁽²²⁹⁾ منادين لأولاد مهلهل بالعصية ، فأجابوهم ، واجتمعوا بقسطنطينية⁽²³⁰⁾ ، وتواهبوا الدماء وتوأمروا فيمن ينصبوه للأمر ، وكان بتوزر أحمد بن عثمان بن أبي دبوس آخر خلفاء بني عبد المؤمن وكان خياطًا ، فجاءوا به ونصبوه للأمر ، وبايعوه على الموت ،

[311/ب]

(224) في الأصول: «المتصل» وبعدها من تاريخ الدولتين «المدعوة برأس الطايية».

(225) كذا في ط وتاريخ الدولتين ، وفي ش : «استقاموا».

(226) في تاريخ الدولتين: «اقتالهم» ولعل الصواب : أقيالهم.

(227) كذا في ش وتاريخ الدولتين ، وفي ط : «فلجوا».

(228) في الأصول: «فتية» ، والتصويب من تاريخ الدولتين ص 84.

(229) في تاريخ الدولتين: «ظعائن ابنائهما».

(230) في الأصول: «قسطنطينية» والتصويب من تاريخ الدولتين ص 84.

وزحف إليهم السلطان أبو الحسن ، فالتقوا / قرب القيروان ، فغلبهم وأجفلوا أمامه ، ثم رجعوا [312/أ] مستميتين في ثاني محرم سنة تسع وأربعين وسبعمائة⁽²³¹⁾ ، وتوافقوا ، واختل مصاف السلطان ، ونُهيت محلته بكل ما فيها ، وكان جيشه يزيد على ثلاثين ألف فارس ، ونجا السلطان بنفسه في شردمة قليلة ، فتحصن بالقيروان ، وأخذوا بمخقه ، وكان الشيخ ابن تافراجين وجد السلطان أبا الحسن لم يجره على مألوفه كما كان مع السلطان أبي بكر لقيام هذا على أمره ، فكان في قلبه مرض منه ، وكان العرب يفاضونه بذلك⁽²³²⁾ ، فلما أحاط العرب بالسلطان تحيل ابن تافراجين في الخروج عليه ، فبعثه السلطان يتحدث مع العرب في الطاعة ، فخرج إليهم فقلدوه حجابة سلطانهم أحمد بن أبي دُبوس ودفعوه لمحاربة من بقصة تونس ونصب المجانيق عليها فلم تغن شيئاً ، فجعل يحاول نجاة نفسه لاضطراب الأمور إلى أن بلغه خلوص السلطان من القيروان إلى سوسة ، وكان السلطان داخل أولاد مهلهل وحكيماً في الصلح على أموال اشترطها لهم ، فاختلف رأي العرب لذلك ، ودخل إليه قتيبة⁽²³³⁾ بن حمزة مكانه بالقيروان زعماً بالطاعة فقبله ، وأطلق أخويه خالدًا وأحمد ، ولم يثق بهم ، ثم دخل إليه محمد بن طالب من أولاد مهلهل وجماعته فأسرى معهم إلى سوسة بعسكره فصبجها ، وركب منها في البحر لتونس ، وسبق الخبر إلى ابن تافراجين فتسلل عن أصحابه وركب البحر إلى الإسكندرية في ربيع [الآخر] / فأصبحوا وقد فقدوه ، فاضطربوا وأجفلوا عن تونس ، ولما دخل السلطان [312/ب] لتونس من البحر في ربيع الآخر أصلح أسوارها وأدار الخندق بها ، ولحق أولاد أبي الليل وسلطانهم أحمد بن عثمان الدَّبوسي بتونس ونازلوها والسلطان بها ، فامتنعت عليهم ، وخلص⁽²³⁴⁾ للسلطان أولاد مهلهل ، فلما أحس بهم أولاد أبي الليل أتوا إليه ودخل عليه كبيرهم عمر وافداً عليه في شعبان من السنة ، فحبسه إلى أن يقبضوا على سلطانهم أحمد ابن عثمان الدَّبوسي ، فقبضوا عليه وقادوه إلى السلطان أبي الحسن استبلاغاً في الطاعة ، فقبل ذلك منهم ، وأودع سلطانهم المذكور السجن إلى أن لحق المغرب ، ولحق هو بالأندلس ، فأقام السلطان أبو الحسن بتونس ، ووفد عليه أحمد بن مكي ، فعقد

(231) 2 أبريل 1348 م .

(232) في تاريخ الدولتين : «يفاضونه بذات صدورهم من الخلاف والاجلاب» ص 84 .

(233) في الأصول : «فتية» .

(234) في تاريخ الدولتين : «وخلص ولاية أولاد مهلهل للسلطان . فلما أحس بهم أولاد أبي الليل رجعوا إلى

مهاندته» ص 85 .

لعبد الواحد اللّحَياني على الثغور الشرّقية وطرابلس وقابس وصفاقس وجربة ، وسرّحه مع ابن مكّي ، فهلك عبد الواحد عند وصوله في الطّاعون الجارف ، وعقد لابن عبّو على قسطنطية⁽²³⁵⁾ وسرّحه إليها ، وعقد السّلطان أبو الحسن لابنه أبي الفضل على ابنة عمر بن حمزة .

ولما وقع على السّلطان أبي الحسن في⁽²³⁶⁾ القيروان ما وقع هرب بنو مرين مشاة بالمرقعات إلى المغرب فقدموا على ولده الأمير أبي عنان ، وشاع الخبر أن أباه أبا الحسن توفي على القيروان ، وكتب بذلك رسم شهادة⁽²³⁷⁾ فيه خلق كثير من الواصلين من بني مرين ، فدعا أبو عنان لنفسه فبويع بتلمسان ، ثم خرج لفاس / بعد أن استعمل على تلمسان عثمان بن يحيى - كما تقدم - فعند انفصال أبي عنان دعا لنفسه وعاد ملك بني عبد الواد⁽²³⁸⁾ لتلمسان ، ولما قدمت الطّائفة التي كانت⁽²³⁹⁾ مع أبي الحسن بافريقية بعد وقوع الهزيمة عليه قدموا ومعهم عثمان بن عبد الرّحمان بن يحيى بن يغمراسن ، وجعلوه خليفة على تلمسان ، فاستأمن عند وصولهم عثمان بن يحيى خائفًا على نفسه من عثمان بن عبد الرّحمان فأمنه ، ثم أودعه المطبق إلى أن مات ، وكان السّلطان أول قدومه من تلمسان أخرج صاحب بجاية وصاحب قسنطينة - حسبما أسلفنا - وصرفهم للمغرب ، وأبقى الأمير الفضل ببلدة بُوّنة لما غلب⁽²⁴⁰⁾ على ظنه من عافيته وتقدمت معرفته به بمصاهرته بأخته ، فلما وقعت الواقعة على أبي الحسن على القيروان كاتب الأمير الفضل أهل قسنطينة ، ثم قدمها وحاصرها ، فدخلها صبيحة يوم الجمعة غُرّة محرم فاتح سنة تسع وأربعين وسبعمائة⁽²⁴¹⁾ ، وقصد القصبة فأغلقت في وجهه وعُمِرت أسوارها ، فقصد جامع البلد وصلّى فيه الجمعة ، ولم يصل فيه خليفة حفصي قبله ، ثم بعث لأهل القصبة بالأمان ففتحوا له فدخلها عصر ذلك اليوم ، واحتوى الفضل على أموال كثيرة في القصبة ، وهي مما أتت به الوفود من الهدايا لأبي الحسن ، وما

[1/313]

(235) في الأصول : « قسنطينة » والتصويب من تاريخ الدولتين ص 85 .

(236) في الأصول : « علي » .

(237) في تاريخ الدولتين : « شهد فيه » .

(238) كذا في ط وتاريخ الدولتين ، وفي ش : « عبد الواحد » .

(239) في الأصول : « ولما قدم الطائفة التي كانوا وظهر السياق أن هذه الطائفة من بني عبد الواد .

(240) في الأصول : « غولب » .

(241) 1 أبريل 1348 م .

كان بالقصة من الجايي ، فأقام بها ثلاثة أشهر⁽²⁴²⁾ ، ثم تحرك إلى بجاية فأخذها بقيام أهلها على بني مرين ، وارتفع له بذلك صيت ، وعزم على الرحيل / إلى الحضرة [313/ب] والسلطان أبو الحسن مقيم بها .

ولما تبين للأمير أبي عنان حياة أبيه خاف من عقوبته فأرسل صاحب بجاية وصاحب قسنطينة لبلديهما ليُعظّم الأمر على أبيه وليكونوا حائلين بينه وبين بلاده⁽²⁴³⁾ ، وربط معهم في ذلك ربطاً فرجع كل لبلده ، ورجعت البلدان لأربابها ، وتوجّه الفضل من بجاية لبونة في البحر بعد أن أخذ بيده⁽²⁴⁴⁾ وسبق للأمير أبي عبد الله الداخل عليه ببجاية ، فعفا عنه ووجهه إلى بلاده بونة⁽²⁴⁵⁾ ، وذلك بشوال من سنة تسع وأربعين وسبعمائة⁽²⁴⁶⁾ ، فوجد بعض قرابته قد ثار ببونة ، ولم يتم لهم ذلك ، فدخل إلى قصره واستقلت⁽²⁴⁷⁾ الثغور الغربية بأربابها وأمرائها .

وفي السنة المذكورة توفي بتونس الشيخ أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عمر المَعافري المعروف بابن الحُباب ، كان ابن عرفة يثني عليه بتحصيل العلم وتحقيقه⁽²⁴⁸⁾ - وهو أحد أشياخه وشيخ ابن عبد السلام أيضاً - قال ابن عرفة : ولما مات ابن الحُباب حضرت جنازته فكنت سادس ستة ، وكان توفي ذلك اليوم السكُوني⁽²⁴⁹⁾ فضاق الفجاج بالازدحام على نعشه لأن منزلة ابن الحُباب عند العامة لا تكون بذلك .

وفي سنة خمسين وسبعمائة⁽²⁵⁰⁾ ، انتفض⁽²⁵¹⁾ العرب على السلطان أبي الحسن ، واستقدموا السلطان الفضل ابن السلطان أبي بكر من بونة لطلب حقه واسترجاع ملك

(242) في الأصول : « ثلاثة أيام » والتصويب من تاريخ الدولتين الذي ينقل عنه المؤلف ص 86 .

(243) في الأصول : « بينه وبينه » والتصويب من تاريخ الدولتين .

(244) في الأصول : « ما بيده » .

(245) في البحر .

(246) ديسمبر - جانفي 1248 - 1249 م .

(247) في الأصول : « استقامت » .

(248) قال الأبي في اكمال العلم (شرح صحيح مسلم) 308/4 « ابن الحباب هذا لم يكن عارفاً بالفقه وإنما كان إماماً في العقلية » . وله ترجمة في كتاب تراجم المؤلفين التونسيين 84/2 - 87 .

(249) لعله من أسرة السكوني الاشيبيلة المشهورة بالعلم ، نزلت إلى تونس بعد سقوط اشيبيلة بيد الاسبان وانتهاء الحكم الاسلامي بها وكان نزوحها حوالي منتصف القرن السابع .

(250) 1349 - 1350 م .

(251) كذلك في ط وتاريخ الدولتين ، وفي ش : « انتفض » .

[314/أ] آبائه ، فأجابهم ووصل إليهم آخر السنة المذكورة فنازلوا تونس ، ثم أفرجوا / عنها آخر الصيف ، واستدعي أبا القاسم بن عبّو صاحب الجريد من توزر فدخل في طاعة الفضل وحمل أهل الجريد على الطاعة وانتقضت إفريقية على السلطان أبي الحسن من أطرافها ، فلما رأى الأحوال تغيرت بإفريقية خرج من تونس في البحر - كما تقدم - في دولة بني مرين .

الفضل بن أبي بكر:

ولما خرج أبو الحسن (252) ولحقه ولده الفضل (253) قدم الأمير أبو العباس الفضل بن أبي بكر من الجريد مع العرب وبويع في التاسع والعشرين لذي القعدة (254) سنة خمسين وسبعمائة (255) واستولى على القصبه يوم منى من الشهر المذكور ، وتغلب العرب على دولته ، ثم وصل الخبر أن الشيخ أبا محمد بن تافراجين وعمر بن حمزة الليلي قدما من الحج ، فخرج السلطان للقائهما ، فأخذ وسلب من معه من أهل تونس ، ودخل به ابن تافراجين مأخوذاً في الثامن عشر لجمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة (256) فجميع دولته (257) خمسة أشهر وسبعة عشر يوماً (258) .

أبو اسحاق ابراهيم بن أبي بكر وابن تافراجين :

ولما دخل ابن تافراجين بالفضل (259) على تلك الحالة ورأى الأمور اختلت ومات أكثر أولاد السلطان أبي بكر حدثته نفسه بأن يطلب الملك لنفسه ، فتنعه القاضي عمر بن

(252) عن حلول السلطان أبي الحسن المريني بتونس . وما وقع له من أحداث انظر : تاريخ الدولتين ص 82 - 90 ونقل المؤلف باختصار .

(253) في الأصول : «أبو الفضل» .

(254) في الأصول : «غرة حجة» والتصويب من تاريخ الدولتين الذي ينقل عنه المؤلف ص 91 وبرونشفيك (La Berberie... Brunschwig) . 171/1 .

(255) 8 فيفري 1350 م .

(256) 24 جويلية 1350 م .

(257) أي الفضل .

(258) عن السلطان الفضل بن أبي بكر . أنظر تاريخ الدولتين ص 90 - 92 .

(259) ساقطة من ش .

عبد الرقيق⁽²⁶⁰⁾ فن ثم طلب المولى ابراهيم ابن السلطان أبي بكر أخا⁽²⁶¹⁾ الفضل ، وبايعه في اليوم المذكور ، وكان يوم بيعته صغير السن مناهز البلوغ ، فاستخرجه ابن تافراجين من داره بعد أن بذل لأمه من العهود ما أرضاها⁽²⁶²⁾ ، وجاء به إلى القصر وأقعده على كرسي الخلافة ، وهو السلطان أبو اسحاق ابراهيم ابن السلطان / أبي بكر ، فعقد له البيعة ، فبايعه الناس خاصة وعامة ، وكان ذلك في الحادي عشر لجمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة⁽²⁶³⁾ ، ودخل بنو كعب فأتوه طاعتهم ، وسبق إليه أخوه الفضل فاعتقله ، وغطّ ليلاً بحبسه حتى فاضت روحه ، وخوطف العمال في الجهات ، فأخذوا البيعة في قبليهم ، ووقف ابن تافراجين بين يدي الأمير المولى السلطان أبي اسحاق ابراهيم ، ومهدّ أموره وأحكم دولته ، ولقب «بالمستنصر بالله» ، وتعلّب ابن تافراجين على دولته مستبدًا بتدبير الملك ، واستخلص البلاد من أيدي العرب بأحسن الوجوه ، فاستجى المجابي المخزنية .

حركة أبي عنان المريني في اتجاه تونس :

ولما كان آخر شعبان من سنة ثمان وخمسين وسبعمائة⁽²⁶⁴⁾ قدم السلطان أبو عنان فارس المريني وهو يسوق الدنيا⁽²⁶⁵⁾ ، فاستولى على البلاد حتى انتهى إلى قسنطينة ، فلما فتحها بعث رسله إلى أبي محمد بن تافراجين في الأخذ بطاعته والتزول عن تونس ، وقدم أسطوله في البحر أوائل رمضان⁽²⁶⁶⁾ ، فجاهر⁽²⁶⁷⁾ من نزل منهم إلى البر بالمنكر في رمضان وفيما بعده ، ولما طلب التزول عن تونس ردّهم ابن تافراجين ، وأخرج سلطانه أبا اسحاق

(260) محاولة ابن تافراجين في طلب الملك لنفسه ومنع القاضي ابن عبد الرقيق له خبر انفرد به المؤلف ولم نجد له ذكرًا في تاريخ ابن خلدون وتاريخ الدولتين والفارسية في مبادئ الدولة الحفصية .

(261) في الأصول : «أخو الفضل» .

(262) في الأصول : «رضيا» .

(263) 17 جويلية 1350 م .

(264) 17 أوت 1357 م ، عن هذه الأحداث أنظر تاريخ الدولتين ص 92 - 93 .

(265) في ط : «يسوس» .

(266) استولت عساكر بني مرين على تونس في شهر رمضان المعظم من سنة ثمان وخمسين : تاريخ الدولتين ص 97 .

وانظر تاريخ ابن خلدون 618/13 .

(267) هذا لم يذكره أحد من المؤرخين السابقين في سياق الكلام عن حملة أبي عنان المريني على تونس .

ابراهيم مع أولاد أبي اللّيل بعد أن جهّز له عسكرياً وما يحتاجه من آلات الحرب ، وأقام هو بتونس ، وأجمع أبو عنان على النهوض إليه ، ووفد إليه أولاد أبي اللّيل يستحثونه لذلك ، فأرسل إلى تونس مع الأسطول - المقدّم / الذكر - جيشاً مع أولاد مهلهل فلكوا البلد المدافعة ، فخرج ابن تافراجين إلى المهديّة ، واستولت عساكر بني مرين على تونس في شهر رمضان . [315/أ]

ومكث السلطان أبو اسحاق ابراهيم الحفصي بالجريد مع خالد بن حمزة (268) وعياله وثقيلته بالمهدية مع الشيخ ابن تافراجين .

ثم ارتحل أبو عنان من قسنطينة لتونس ، فلما انتهى إلى فحص تبسّة تحدّث رجال بني مرين في الرجوع عن سلطانهم أبي عنان ، حذراً من أن يصيبهم بإفريقية ما كان أصابهم من قبل مع أبي الحسن والد أبي عنان - مما تقدم - فانفضوا متسلّلين إلى المغرب ولما خفّ العسكر من أهله نادى من بقي من الجند : الغرب الغرب ، فقال أبو عنان : ما هذا ؟ فأخبر بتسلّل الجند ، فأمر بالرجوع إلى المغرب ، ولما وصل إلى فاس عاقب أكثر المتسلّلين لامتناعهم من السّير معه لتونس ، وثقف نحو مائة شيخ من شيوخهم وقتل وزيره ، وكان أبو عنان أرسل مع الجيش المسير لتونس الفقيه المحدث الخطيب ابن مرزوق برسم خطبة ابنة السلطان أبي بكر ، فوقف الفقيه على والدتها ، فقالت له : غداً إن شاء الله يكون الحديث بمحضر القاضي وغيره ، فرجع إليها من الغد ، فاختمت عنه ولم يجدها ، فجدّ السلطان في طلبها فلم يقف لها على أثر ، وإنما امتنعت البنت لأنها قالت : بلغني أن فيه خلقةً يمنع عشرته ، ولما رجع لفاس / ثقف الفقيه ستة أشهر ، وقال : لم قصّرت في خطبتها ؟

[315/ب]

عود إلى ذكر أبي اسحاق ابراهيم وابن تافراجين :

ثم إن ابن تافراجين لما تحقق رجوع أبي عنان إلى المغرب قدم من المهديّة ، وخرج بنو مرين من تونس ، وكانت مدة غيبته سبعين يوماً ، وأقبل السلطان ابراهيم من الجريد إلى حضرته فدخل في رابع الحجة من السنة المذكورة .

وفي سنة ستين وسبعمائة⁽²⁶⁹⁾ تحرك السلطان أبو اسحاق ابراهيم إلى بجاية ففتحها ، وأقام بها خمس سنين ، وبقي ابن تافراجين بتونس حتى دخل على السلطان أبي اسحاق ابن أخيه أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكرياء بن أبي بكر إلى بجاية صلحاً ، فخرج أبو اسحاق ابراهيم لتونس في البر فوصل بعياله واستقر بتونس .

خبر عن عمل البارود :

وفي سنة ست وستين وسبعمائة⁽²⁷⁰⁾ ، كان ابتداء عمل البارود ، قال الآرياش⁽²⁷¹⁾ صاحب تأليف «عمل المدافع»⁽²⁷²⁾ عند الجمهور «أن ابتداء عمل البارود ليس له إلا مدة يسيرة ، كان الاستنباط على يد راهب مشغول بالكيمياء ، فكان يريد تقطير ملح البارود والكبريت بالقرعة والأنبيق»⁽²⁷³⁾ ، وكان يدق ذلك في مهراس ، فوقعت فيه شرارة نار ، فقام النار⁽²⁷⁴⁾ في الحال واشتعل بقوة ودفع ، فأعجبه ذلك لأنه رأى شيئاً ما رآه قط ، ولا سمع به ، وجرب ذلك بأن جعل التركيب في موضع مسدود عليه بالقهر ، وكان رجلاً فيلسوفاً ، وعمل كبوساً ومكحلة / ثم مكحلة كبيرة ثم مدفعاً ، وكان ذلك في بلاد الألمانية⁽²⁷⁵⁾ ، وهي بلاد جوفية كثيراً في التاريخ المقدم ، وقيل إن البارود كان من قديم الزمن بآلاته في بلاد الصين⁽²⁷⁶⁾ .

(269) 1359 م .

(270) 1364 - 1365 م .

(271) في الأصول : «الرياش» وهو أسم أطلق عليه بالاسبانية ، ويسمى هكذا أيضاً بالمعجم وهو علي بن ابراهيم بن أحمد بن غانم الأندلسي ، نزيل تونس (ت . نحو 1610/1019) ولد قرب غرناطة بعد خروج المسلمين من اسبانيا ، ثم خرج منها وتعاطى الجهاد في البحر ضد الإسبان ، وهو ما يعبر عنه تعبير غير صادق بالقرصة ، ودعي إلى تونس وعهد إليه بالدفاع عنها ، انظر تراجم المؤلفين التونسيين 273/1 .

(272) هذا التأليف يسمى : «العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع» وهو في وصف آلات الحرب على اختلاف أشكالها مع إيضاح ذلك بالرسوم ، منه نسخة في المكتبة الوطنية بتونس رقم 440 ، كما في الجزائر ودار الكتب المصرية وفيينا . وعن البارود أنظر الاستقصاء 36/3 ، ويفهم أن البارود كان موجوداً في القرن السابع هـ . وذلك أن السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني لما عزم على افتتاح سجلماسة وانتزاعها من أيدي بني عبد الواد المتغلبين عليها نهض إليها في رجب سنة 672 ، وفي كلام لابن خلدون ما يثبت وجود البارود في هذا الحصار ، وورد في كلام أبي زيد القاسمي الناقل عن بعضهم في تأليف له عن الجهاد ، وهو بدون شك «العز والمنافع» لآرياش ، إشارات قريبة عما ذكر مقدش .

(273) في الأصول : «الإنبيق» . (275) كذا في ط وفي ش : «الأمية» والصواب «ألمانيا» .

(274) في ط : «قام في الحين» . (276) الخبر عن البارود خارج عن تاريخ الدولتين .

وفاة ابن تافراجين :

وفي هذه السنة (277) توفي الشيخ الحاجب أبو محمد عبد الله بن تافراجين بتونس ودفن بمدرسته (278) بقنطرة ابن ساكن (279) ، داخل باب السويقة ، وكان في حياته سار في أهل تونس بالرفق ، وساس الأعراب وأعظم جبايته من سفار البحر ، وكانت له مواصلة بالمهدية مع السلطان أبي عنان حتى فسدت بإيالة ابنة المولى الخليفة أبي بكر من قبول خطبته - حسبما مر - ولما مات ابن تافراجين استبد السلطان بملكه وأقام سلطانه لنفسه .

وفاة القاضي أبي القاسم بن سلمون البياسي :

وفي الثالث عشر لجمادى الأولى سنة سبع وستين وسبعمائة (280) توفي قاضي الجماعة بغرناطة الفقيه الموثق أبو القاسم بن سلمون بن علي بن عبد الله الكنايني البياسي (281) الأصل ، الغرناطي المولد والمنشأ ، صاحب التأليف في الأحكام المسمى « بالعقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من الوثائق والأحكام » (282) .

وفاة أبي اسحاق ابراهيم :

وتوفي السلطان أبو اسحاق ابراهيم ثاني رجب سنة سبعين وسبعمائة (283) فجأة بليل بعد أن قضى وطراً من محادثة السمر وغلبه النوم من آخر الليل فنام ولما أيقظه الخادم وجده قد مات ، فكانت مدة خلافته بتونس ثمانية عشر عاماً وعشرة أشهر ونصف (284) .

(277) رجع إلى النقل من تاريخ الدولتين ص 101 وما بعدها .

(278) وهذه المدرسة هي الآن دار سكنى .

(279) قرب حوانيت عاشور (تحاف أهل الزمان 1/179) وقنطرة ابن ساكن هي الآن ساباط سيدي ابراهيم الرياحي ، والرأي عندنا أن المدرسة والدار كانت تربطان دار الطريق القديم وتصلان بطحاء خير الدين حيث يوجد مسجد ابن تافراجين تعليق (1) للمرحوم عثمان الكفالك على الأدلة البينة التورانية لابن الشماخ ص 435 .

(280) 26 جانفي 1366 م .

(281) في الأصول : « البياسي » والتصويب من تاريخ الدولتين ص 103 .

(282) عن ابن سلمون مراجعة الديباج ونيل الابتهاج وغيره . (283) 11 فيفري 1369 .

(284) عن دولة السلطان ابراهيم بن أبي بكر وما وقع فيها من الأحداث كمنازلة السلطان أبي عنان المريني لتونس ، نقل المؤلف ما في تاريخ الدولتين ص 92 - 104 باختصار .

أبو البقاء خالد :

فبويغ بعده لولده أبي البقاء / خالد بتونس صبيحة موت أبيه ، أخذ له البيعة عن [316/ب] الناس مولاه منصور وعتيقه من العلوج وحاجبه أحمد بن إبراهيم المالقي ، فاستبد به ، فلم يكن له حكم عليهما .

وفي رابع ذي الحجة من سنة احدى وسبعين وسبعمائة⁽²⁸⁵⁾ ، توفي الشيخ الشريف أبو عبد الله محمد بن أحمد الحسيني شارح جمل الخونجي بتلمسان ، وكان إماماً ذا عقل وذهن ثابت ثاقب ، قال الشيخ ابن عرفة : رأيت لما قدم تونس فرأيت منه علماً تاماً ومعرفة⁽²⁸⁶⁾ .

ثم إن ابن المالقي ومنصورًا سارا في الناس سيرة غير مرضية فاخذت أحوال إفريقية ، وكان أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد ابن السلطان أبي بكر بيجاية ، فذهب إليه شيوخ عرب إفريقية فحضره على الوصول إلى إفريقية فسار معهم في جنده حتى وصل تونس فقاتل من بها أياماً ثم دخل تونس يوم السبت ثاني عشر ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة⁽²⁸⁷⁾ ، وخرج خالد فأرّأ من باب الجزيرة في جماعة من خدامه ، فأخذوا من يومهم ، فكان جميع دولة السلطان سنة وتسعة أشهر ، ثم بعث أبو العباس أحمد خالدًا إلى قسنطينة إلى البحر ففرق⁽²⁸⁸⁾ .

أبو العباس أحمد ونزول النصارى بالمهدية :

وبويغ للسلطان أبي العباس أحمد بتونس يوم السبت الثامن عشر لشهر ربيع الثاني من سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة⁽²⁸⁹⁾ ، فسكن ما تزلزل من تونس ، وقوم ما اعوج ، وقطع أنواع الفساد على البلاد والعباد .

وفي السنة المذكورة / قُدِّم الشيخ الفقيه الإمام أبو عبد الله محمد بن عرفة الورغمي [317/أ] إمامًا بجامع الزيتونة ، وفي السنة التي بعدها قُدِّم للفتوى⁽²⁹⁰⁾ .

(285) 29 جوان 1370 م .

(286) عن الشريف التلمساني ، تراجع الديباج .

(287) 3 نوفمبر 1370 م .

(288) عن دولة خالد بن إبراهيم انظر تاريخ الدولتين ص 104 - 106 ، فقد نقل المؤلف ما فيه باختصار .

(290) للفتوى بجامع الزيتونة لا الفتوى بالمحكمة الشرعية .

(289) 9 نوفمبر 1370 م .

ولما مهَّد السُّلطان أحمد البلاد ، وتمكَّن ملكه بتونس انتزع ما بأيدي العرب من الأمصار فأهمَّهم ذلك ، وتَنَكَّر منصور بن حمزة شيخ [بني] (291) كعب وأولاد أبي الليل ، فترع يده من الطَّاعة ، وتابعه ، على الخروج من طاعة السُّلطان أبو صعنونة أحمد بن محمد بن عبد الله بن مسكين شيخ حكيم ، وارتحل إلى الذواودة صريحاً بالأمير أبي يحيى زكرياء ابن المولى السُّلطان أبي يحيى ، فبايعوه ورحل معهم إلى تونس ، ولقي منصور بن حمزة بمن معه فبايعوه ، وأوفدوا مشيختهم على يحيى بن يملول يستحثونه للطَّاعة فبايعوا له ، وبعث السُّلطان أخاه زكرياء بعسكر فالتقوا فانهزم عسكره ، ونزل العرب على تونس بسلطانهم ، ونمي إلى السُّلطان أن حاجبه أبا عبد الله محمد بن أبي محمد ابن تافراجين دأخل العرب في أخذ تونس ، فقبض عليه وأشخصه في البحر إلى قسنطينة ، فلم يزل بها معتقلاً إلى أن هلك ، ثم أن العرب عاودوا الطَّاعة إلى السُّلطان أحمد ونبدوا طاعة سلطانهم .

وفي سنة خمس وسبعين وسبعمائة (292) ، تولى الملك بفاس أبو العباس أحمد ابن الأمير أبي سالم المريني ، فقبض على أبي عبد الله ابن الخطيب الأندلسي لما كان أوصاه ابن الأحمر (صاحب الأندلس ، فأودعه السجن ، ثم قدم رسول (293) ابن الأحمر (294) يهنيه بالملك ، فقتل ابن الخطيب / بمحبسه خنقاً . وكان ابن الخطيب كاتباً بليغاً أديباً مؤرخاً جيد النظم عارفاً بالنجوم (295) وأحكامها ، سمعت بعض الشيوخ يحكي أن من نظمته في اليوم الذي قتل فيه :

[317/ب]

[منسرح]

قَفَّ كِي تَرَى مَغْرِبَ شَمْسِ الضُّحَى بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ
وَاسْتَرَجِمَ اللَّهُ قَتِيلًا بِهَا كَانَ وَحِيدَ الْعَصْرِ فِي الْمَغْرِبِ

وفي سنة إحدى وثمانين وسبعمائة (296) ، تَوَلَّى قضاء الجماعة بتونس الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الرحمن البَلَوِي القَطَّان من أهل سوسة بعد ما كان الشَّيْخ ابن عرفة دَلَّهم عليه ، فقال السُّلطان : « ما تَأْتِي بقاض من القرى حتى تكون تونس قد خلت مِنَّ يصلح » ، وولَّوا ذلك محمد بن خلف النُّفْطِي ، لكن ما قضاه الله يكون . ﴿ وَاللَّهُ

(291) انمام من تاريخ الدولتين ص 107 . (294) ما بين القوسين ساقط من ط .

(292) 1373 - 1374 م . (295) في تاريخ الدولتين : « النجامة » .

(293) في ش : « رسل » . (296) 1379 - 1380 م .

غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩٧﴾.

وفي السنة المذكورة توفي الشيخ الفقيه الخطيب أبو عبد الله محمد بن أبي أحمد بن مرزوق⁽²⁹⁸⁾ بالقاهرة ودفن بين ابن القاسم وأشهب وقد ناهز السبعين.

وفي ثاني عشر صفر من سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة⁽²⁹⁹⁾ توفي الشيخ الفقيه الحافظ الملقب أبو محمد عبد الله البلوي الشيبلي⁽³⁰⁰⁾ القروي⁽³⁰¹⁾ ، ودفن بدار الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي زيد بازاء قبره داخل مدينة القيروان.

وفي سنة خمس وثمانين وسبعمائة⁽³⁰²⁾ ، توفي قاضي الجماعة ابن القطان. وفي سنة سبع وثمانين⁽³⁰³⁾ تولى أبو مهدي عيسى الغبريني⁽³⁰⁴⁾ تلميذ ابن عرفة قاضي الجماعة بتونس.

[318/أ] وفي سنة اثنتين وتسعين⁽³⁰⁵⁾ نزل النصاري⁽³⁰⁶⁾ / - دمرهم الله - على المهدي في مائة قطعة بين مراكب كبيرة⁽³⁰⁷⁾ وأغربة⁽³⁰⁸⁾ ، فوجه السلطان أبو العباس أحمد محلة نزلت قرب البلد قدم عليها ولده المولى أبا فارس عبد العزيز صحبة أخيه المولى زكرياء ، فاتفقت للمولى أبي فارس مع النصاري وقائع منها في يوم نزولهم وقعت بين الفريقين وقعة عظيمة بحيث أسلم المسلمون المحلة ، فدخلها العدو فلم يجد فيها عيناً تطرف غير رجل واحد

(297) سورة يوسف: 21.

(298) هو ابن مرزوق الجد المعروف بالخطيب ، أشهر علماء عصره له ترجمة واسعة بالديباج وذيله ، وابن خلدون.

(299) 18 ماي 1380.

(300) شيخ البرزلي وابن ناجي ، له ترجمة بليل الديباج.

(301) يقصد القيرواني.

(302) 1383 م.

(303) 1385 م.

(304) الغبريني نسبة إلى بني غبرين من بربر زواوة كما يفهم من كلام ابن خلدون ، والغاء رأيتها مضبوطة الضم والفتح ووفاء أبي مهدي الغبريني عند غير المؤلف في 813 راجع انحاف أهل الزمان 83/1 وشجرة النور الزكية ونيل الإيتاج.

(305) 1390 م.

(306) الفرنسيين والجنوز معاً عن هذه الحملة انظر مثلاً زيادة عن تاريخ الدولتين برونشفيك (Brunschvig) بلاد البربر... (La Berbérie...) ، المرجع السابق 199/1 ص 200.

(307) في ط : «كثيرة».

(308) يقال أغربة وغربان ج غراب وهو نوع من المراكب أخذه العرب عن القرطاجيين والرومان. وبقيت إلى عهد الدولة العثمانية وقد سُمي بهذا الاسم لأن مقدمه يشبه رأس الغراب أو الطائر وهذا المركب يسير بالقلع كما كان يسير بعدد من المجاذيف لا يتجاوز 180 مجذاًفاً انظر سعاد ماهر «البحرية في مصر الإسلامية» ص 359.

قتلوه ، فبينما هم في سلب الأزواد اذ بالمولى أبي فارس نادى بالمسلمين وجمع القواد ومن حضره من الجند وكرّ راجعاً تجاه العدو حتى أخذ المحلة من أيديهم قهراً وحميت العرب ، وانصرف العدو منهزماً ، وقتل منهم نحو خمسة وسبعين ، وواجه العدو بنفسه ، ودفع في صدورهم دفعة شتت شملهم ، فلم يلتفت إلا والعدو قد أحاط به وعلموا أنه ابن الخليفة ، ومن عادتهم في الحرب أنهم اذا أخذوا ملكاً أو ابن ملك لا يُترلونه عن فرسه ، فن ثم أخذوا بعنان فرسه وساروا به فألهمه الله تعالى أن خلع عنان فرسه من رأسه وألح الفرس وهزّه فخرج الفرس من بينهم ، فرموه بسهام وأسنة ، واتبعوه بخيل وأعنة وهو لا يلتفت إليهم حتى وصل المسلمين سالماً ، ثم إن النصارى اختلفوا فيما بينهم ، وأراد الجنوي الغدر بالفرنسي ، فرحل الفرنسي بسفنه ، ولما علم الجنوي أنه لا يقدر وحده رجل أيضاً ، وكفى الله المؤمنين شرهم برد كيدهم / عليهم ، فانصرفوا خائبين بعد أن أقاموا (309) شهرين ونصف (310).

[318/ب]

وفي يوم الأربعاء ثالث شعبان من سنة ست وتسعين وسبعمائة (311) ، توفي السلطان أبو العباس أحمد بتونس ودفن بقصبها عن سبع وستين سنة ، ومدة خلافته بتونس أربعة وعشرين سنة وثلاثة أشهر ونصف (312).

أبو فارس عبد العزيز :

فوتى بعده ولده أبو فارس عبد العزيز ، ببيع بتونس يوم وفاة والده على رضا من الناس وألف بين اخوته واعتضدهم في دولته ، وكان والده أغمي عليه وأشرف على الهلاك في غرة شعبان ، فاجتمع أولاده وتأمروا في كتم حاله ودسّوا إلى عمهم أبي زكرياء يحيى وهو اذ ذاك ساكن بالرياض الذي صار مدرسة بالخلفاوين من باب السويقة من أخبره أن أخاه المولى الخليفة أصبح في عافية ، فجاء برسم عيادته على عادته ، فلما دخل القصبه وجد أولاد السلطان بالقصبه ، فظن أن أخاه قد توفي ، فأراد الرجوع إلى رياضه ، فقام

(309) في الأصول : «قدموا» .

(310) في تاريخ الدولتين نقل ذلك عن ابن الخطيب (أي ابن القنفذ القسنطيني) الذي ذكر ذلك في الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ص 188 .

(311) 3 جوان 1394 م .

(312) عن دولة السلطان أبي العباس أحمد ابن الأمير محمد ابن السلطان أبي يحيى أبي بكر انظر تاريخ الدولتين ص 106 - 114 فقد نقل المؤلف ما فيه باختصار .

إليه بعضهم وحلف له ومنعه الخروج حتى يدبروا أمرهم ، فقبضوا عليه وأدخلوه لداره بالقصبة واعتقلوه بها ، فلما سمع أولاده بالقبض على أبيهم خرجوا من حينهم لأخيهم الأمير أبي عبد الله صاحب بونة ، فرجع الأمير أبو فارس ، فاجتمع باخوته على أكبرهم أبي بكر وهو ولي عهد أبيهم فقال له : ابن عمنا صاحب بونة جالس بمحلته على الطريق يستمع الأخبار ، فإن هو سمع بأخذ / أبيه مشي إلى قسنطينة وأخذها فاختر إما أن تجلس هنا بتونس وأمشي أنا أمنعها ، وإلا فامش أنت إليها وأجلس أنا هنا بتونس ، فرأى أبو بكر أنه لا قدرة له على القيام بتونس ، فقال : أنا أمشي إلى قسنطينة ، فاجتمع أولاد الخليفة أبي العباس أحمد وكتبوا على اسم أبيهم كتاباً بولاية قسنطينة للمولى أبي بكر ، فخرج يوم الإثنين من غرّة شعبان إلى قسنطينة فوصلها يوم الخميس رابع يوم خروجه ، فخرج البوّاب القائد إبراهيم حتى وقف على الكتاب وتردّد في الجواب ، ثم لم يسعه إلا دخوله واستقل بتونس أبو فارس ، فأخذ بالحزم في أموره وأوقف في كل خطوة من يصلح لها ، فاستقامت الأمور في أيامه كلّها أحسن استقامة ثم شرع في إحداث الخيرات بتونس وغيرها فبناؤه لزاوية باب البحر بتونس ، وكانت بقعة معدة للمعاصي مجباها للمخزن عشرة آلاف دينار ذهباً في كل سنة ، ومنها بناؤه للماجل الذي بمصلى العيد من تونس (313) ، وهو من الأبنية الضخمة التي قلّ أن يبنى مثلها ، ومنها بناؤه للزاوية التي خارج باب أبي سعدون بجومة باردو ، وجعلها منهاً للوارد من أي أفق كان ، يأوي إليها عشية إلى أن ينشأ (314) سفره من هناك سحرًا ، وجس عليها ما يقوم بها ، ومنها بناؤه للزاوية التي بجومة الدّاموس خارج باب علاوة المعروفة بالشيخ الصّالح سيدي فتح الله (315) ، جعلها مأوى لميت الواردين من تلك الجهة إذا لم يقدر على الوصول / إلى [ب/319] المدينة ، ومنها بناؤه محارس جملة تحوط ثغور المسلمين كمحرس آدار والحمامات وأبي الجعد ورفراف وغير ذلك ، ومنها اقامة الخزانة يحوف جامع الزيتونة ، وجس ما فيها من الكتب الشرعية والعربية واللغة والطب والحساب والتاريخ والأدب وغير ذلك ، ومنها احداث قراءة البخاري في كل يوم بعد صلاة الظهر بجامع الزيتونة وكتاب «الشفاء» و«الترغيب والترهيب» (316) بعد العصر ، وأوقف على ذلك وقفًا ، ومنها احداث المارستان

(313) خارج الباب الجديد . تاريخ الدولتين ص 116 .

(314) في الأصول : «ينشي» وفي تاريخ الدولتين : «يشخص» .

(315) هو فتح الله العجمي .

(316) للحافظ زكي عبد العظيم المنذري وهو مطبوع .

بتونس للضعفاء والغرباء وذوي العاهات من المسلمين ، وأوقف على ذلك أوقافاً كثيرة تقوم به ، ومنها ما عيّن لأهل الأندلس اعانة لهم على العدو في كل عام ألفا قفيز طعام من عشر وطن وشتاة سوى ما يتبعها من ادام⁽³¹⁷⁾ وغير ذلك ، ومنها ما ترك من المجابي المخزنية لوجه الله تعالى ، فمنها مجبى سوق الرهادرة⁽³¹⁸⁾ ، وكان قدرها ثلاثة آلاف دينار ذهباً في كل عام اذ كان كل من اشترى شيئاً من انواع الأمتعة واللباس يغرم نصف عشر الدينار ، ومجبى رحبة الماشية وقدرها عشرة آلاف دينار ذهباً (ومجبى فندق الخضرة وقدرها ثلاثة آلاف دينار ذهباً)⁽³¹⁹⁾ ومجبى سوق العطارين وقدره مائتان⁽³²⁰⁾ وخمسون ديناراً ذهباً ، ومجبى فندق الملح وقدره ألف دينار ذهباً وخمسمائة دينار ، ومجبى فندق البياض⁽³²¹⁾ وقدره ألف دينار ذهباً (ومجبى قائد الأشغال وقدره ثلاثة آلاف دينار ذهباً ، ومجبى سوق القشاشين⁽³²²⁾ وقدره مائة دينار ذهباً)⁽³²³⁾ ومجبى سوق العزافين وقدره خمسون ديناراً ذهباً ، ومجبى الصابون وقدره ستة آلاف ، وأبيع عمله للناس بعد أن كان عمله محضوراً⁽³²⁴⁾ / متوعداً فاعله بالعقوبة المائيّة والبدنيّة ، وترك ما كان على المنكر من [أ/320]

(317) في تاريخ الدولتين : «آدم» ويقصد بها الزيوت .

(318) الأصح «الرهادنة» كما ورد في رياض النفوس في ترجمة أبي حمز محمد الكنائي 280/1 «وهم باعة الأمتعة القديمة ولهم أسواقهم وهي متعارفة قديماً والرهادنة ج رهدن ورهدون بفتح الراء في الأول وضمها في الثاني . والرهدن في الأصل طائر كالصغور بمكة ويقال كذلك لأحمق .

والرهدون الكذاب ، ولعلمهم سموا «الرهادنة» لهذا فإنهم يتوسلون إلى رواج سلعهم بالكذب غالباً . ويقال الرهادرة بعد أن عوضت الراء النون . وجاء في معالم الإيمان 37/2 - 38 «سوق الرهادرة عندنا اليوم : أصله للمخزن ، وكان خراباً - وكان سوق الرهادرة للرعية الذي هو الآن للشواشين» .

وجاء في بعض وثائق ملكية في صفاقس «سوق الرهادرة» ويقصد به «سوق الربيع» حيث تباع الملابس والأصواف . أنظر أبو بكر عبد الكافي ، تاريخ صفاقس 80/1 - 81 وفي مكانها في تاريخ الدولتين «سوق الدهانة» وأصلح المحقق بالهامش «رهادة» ص 116 .

(319) ما بين القوسين ساقط من ش .

(320) في الأصول : «مائة» والتصويب من تاريخ الدولتين ص 117 .

(321) المراد به الفحم ، وكان اللفظة من أسماء الأضداد أو للتفاضل ، في اللهجة الدارجة يستعمل «البياض» بمعنى «الفحم» إلى الآن . وفيما يتعلق بأسقاط مجابي هذه الأسواق راجع تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب لعبد الله الترجمان ، لأنه أول من ذكر ذلك ونقل عنه من جاء بعده كصاحب تاريخ الدولتين وابن أبي دينار في المؤنس .

(322) باعة القش ، الأشياء القديمة ، ما يعبر عنه الآن بالخردة .

(323) ما بين القوسين ساقط من ش .

(324) في الأصول : «محدوراء» والتصويب من تاريخ الدولتين ص 117 .

خراج كالشرطة⁽³²⁵⁾، كان غير واحد من المكاسين⁽³²⁶⁾ التزمها بثلاثة دنانير ونصف دينار ذهباً في كل يوم، وكذلك كان على المقامرين⁽³²⁷⁾ وظائف قطعها، وقطع موضع اجتماعهم، وكذلك على العزافين⁽³²⁸⁾ والمغنيات⁽³²⁹⁾، وكذلك قطع ما كان على المخشئين وأجلاهم من جميع بلاده لما بلغه عنهم من عمل المناكر، فقطع جميع المجابي لوجه الله تعالى.

ثم إن المولى أبا بكر لما دخل قسنطينة وبعد عشرة أيام من دخوله، جمع الناس وطلبهم يبعثه لما بلغه وفاة والده فبايعوه، وبعد مبايعته لازم داره في لذاته مقتصرًا على راحته فظهرت كلمة العرب، وفتحوا باب الطمع والطلب، وزين لهم الكاتب أحمد بن الكمّاد كل نوع من أنواع الفساد، ثم توجه أحمد بن الكمّاد مع بعض الأعراب لصاحب بونة الأمير أبي عبد الله محمد ابن المولى أبي يحيى زكرياء وحضه على المبادرة إلى ملك قسنطينة فجمع الأمير أبو عبد الله أجناده وأهل وطنه ونزل قسنطينة سادس قعدة من سنة ست وتسعين وسبعمائة⁽³³⁰⁾، ومنع الواصل والدّاخل، وقطع الأشجار ورمى بالحجارة، واقتصر أهل البلد على مدافعتهم من الأسوار، فأقام عليها خمسة وسبعين يومًا، ثم ارتحل يشًا منها، وعاد في السنة الثانية إليها، فخرّب المنازل وأهلك الزّرع والمناهل، فتحرك إليه أبو فارس والتقى الجمعان في رمضان من سنة سبع وتسعين وسبعمائة⁽³³¹⁾، / فهزمه أبو فارس من تبسة⁽³³²⁾ [الكائنة] بأرض الحنانشة عند أصل وادي مجردة إلى سييوس هزيمة شنيعة فرّ فيها الأمير أبو عبد الله بنفسه على فرسه حتى دخل بونة مع من لحقه فظنوا اقامته فارتقب يوم وصوله الظّلام، وركب البحر من غير وداع أهله ولا سلام، وقصد فاس

(325) «يبدو في تحفة الأريب بأنه أداء لحاكم المدينة...» ص 117.

(326) في تاريخ الدولتين: «المساكين».

(327) في مكانها في تاريخ الدولتين: «الفخارين».

(328) في تاريخ الدولتين «الزّافين» وشرح الشّخ ماضور ذلك بقوله «صوابه الزّافان وأصله من الزّفن وهو الرقص» وفي حديث لعب الأبحاش في العيد عند سلم «أنهم كانوا يزفون أي يرقصون ويقزّون» وبقيت هذه المادة مستعملة إلى عهد قريب لا سيما بالساحل فيقولون الطّبال والزّكار ومن معهما من رقاصة الزّنوج «زفانة» ولا شك أنهم المقصودون هنا كما أن المقصود بالمغنيات «المغنيات».

(329) في ط: «غنايات» وفي تاريخ الدولتين: «الغنايات» والمقصود هو «المغنيات».

(330) 2 سبتمبر 1394 م.

(331) جوان - جويلية 1395 م.

(332) في الأصول: «تبرسق» والتصويب من تاريخ الدولتين ص 118.

مستصرخاً بصاحبها ، ودخل أبو فارس بونة ، وأمن أهلها ومن وجد بها عن خدمة الأمير أبي عبد الله وخدمة أبيه ، ثم قدم أبو بكر من قسطنطينة ، فسلم عليه أبو فارس ، ورحب به ، وعند وداعه اعتذر إليه بالعجز فقبل منه ، وكتب أبو بكر خلع نفسه بيده في عشرين من رمضان من السنة المذكورة.

وفي السنة المذكورة بعث أهل قسطنطينة إلى أبي فارس يستغيثونه من أخيه أبي بكر فجيئش ، وسار إلى صفاقس قاصداً صاحبها أخاه عمر ، وكان والده تركه عاملاً بها ، فنزل بها أبو فارس ، وحاصرها إلى أن تحدث معه أهلها ، فدخلوا على الأمير عمر الحمّام ، فقبضوا عليه وأتوا به إلى السلطان أبي فارس ، فللك البلد ، وقدم عليها عاملاً من قبله ، وقفل راجعاً بمحلته إلى أن قرب من تونس ، فجدد حركة منها إلى قسطنطينة ، فحين أشرف عليها أظهر أخوه أبو بكر عصياناً وامتناعاً من اللقاء مع تيقن الأمان ، والمدير لذلك كاتبه ، فترها أبو فارس خامس عشر شعبان من سنة ثمان وتسعين وسبعمائة⁽³³³⁾ ، وقرر ما عنده / من الخير لأخيه وشافهه من شاطئ الهواء⁽³³⁴⁾ بكلام دل على تصافيه ، ودام الحصار مدة تزيد على عشرين يوماً واسم أبي فارس لم يزل يذكر في قسطنطينة على المنابر ، ولم تتفق هذه القضية لمُحاصر قبل هذا ، وفعل أبو فارس ما لا يفعله محاصر من حفظ الجنّات والزروع ودفع المضرات عن جميع جهات البلد ، ولما طال أمر الحصار نادى بعض من في السور الفرار ، وتوجّهت الإغاثة في ذلك ، وانتظمت الكلمة من هنالك ، ودخل بعض الناس من سور الحبشية ، ودخل السلطان ومن تبعه من باب الحمة ليلة الأحد ثامن عشر رمضان سنة ثمانمائة⁽³³⁵⁾ ، وقبض على أخيه أبي بكر ، وقتل كاتبه ، وأقام أبو فارس نحو شهر حتى مهّد البلاد ثم رجع إلى تونس آخر شوال ورجع بأخويه أبي بكر وعمر معه .

وفي سنة اثنتين وثمانمائة⁽³³⁶⁾ خرج السلطان واسترجع تُوْزْر من ابن يملول ، ثم استرجع قفصة ، وقبض على بني العايد شيوخها ، وأمر بتخريب سُورها ، وعفا عن أهلها .

وفي أول سنة ثلاث وثمانمائة⁽³³⁷⁾ تحرّك السلطان إلى طرابلس ، فحاصرها طويلاً ثم فتحها سادس رجب من السنة المذكورة⁽³³⁸⁾ .

(333) 24 ماي 1396 م .

(334) في الأصول : « الهوى » .

(335) 4 جوان 1398 م .

(336) 20 فيفري 1401 م .

(337) أوت 1400 م .

(338) 336 - 1400 م .

ترجمة الشيخ ابن عرفة :

وفي الرابع والعشرين لجمادى الآخرة من السنة المذكورة⁽³³⁹⁾ توفي الشيخ الحجة ابن عرفة ، ودُفن بجبل الزَّلَّاج⁽³⁴⁰⁾ وجُملة عمره سبعة وثمانون عاماً وأشهر ، ولذا قال في أبيات له خمسها في حياته تلميذه الإمام الأبي⁽³⁴¹⁾ . /

[321/ب]

[مقارب]

عِلِمْتُ العلوم وَعَلَّمْتُهَا وَنَلْتُ الرِّئَاسَةَ بَلْ حَزُنْتُهَا
وَهَاكَ سِنِينَ عَدَدْتُهَا⁽³⁴²⁾ بَلَغْتُ الثَّمَانِينَ بَلْ جَزَتْهَا

فَهَانَ عَلَى النَّفْسِ صَعْبُ الْحِمَامِ
فَلَمْ يَبْقَ لِي فِي الْبَقَاءِ⁽³⁴³⁾ رَغْبَةٌ وَلَا فِي الْعَلَا وَالنُّهْيِ بَغْيَةٌ
وَكَيْفَ أَرْجَى⁽³⁴⁴⁾ [وَلَوْ]⁽³⁴⁵⁾ لِحَظَّةٍ وَأَحَادُ عَصْرِي مَضَوْا جُمْلَةً

وَعَادُوا خِيَالًا كَطَيْفِ الْمَنَامِ
وَنَادَى الرَّدَى بِي وَلَا لِي مَغِيثٌ وَحَثَّ الْمَطِيَّةَ كُلَّ الْحَيْثِ
وَإِنِّي لَرَاجٍ وَحْيٍ أَثِثُ وَأَرْجُو بِهَا نِيلَ صَدَقِ الْحَدِيثِ
بِحُبِّ اللَّقَاءِ وَكَرِهِ الْمَقَامِ

فِيَا رَبِّ حَقِّقْ رَجَاءَ الذَّلِيلِ لِيَحْضِيَ بِدَارِكَ عَمَّا قَلِيلِ
فِيَمْسِي رَجَائِي بِمَوْتِي كَفِيلِ وَكَانَتْ حَيَاتِي بِلُطْفِ جَمِيلِ
لَسَبَقَ دَعَاءُ أَبِي فِي الْمَقَامِ

وكان - رحمه الله تعالى - إماماً في العلوم العقلية والنقلية ، صَنَفَ في أكثرها ، والغالب على كلامه شدة الإيجاز حتى التحق بالألغاز ، واشتغل آخر عمره بالفقه على مذهب مالك ، وكان كثير الإعتناء بالمُدَوَّنَةِ ملازماً لنظرها محتجباً بها ، قرأ القرآن العظيم

(339) في الأصول : « السامع والعشرين » والتصويب من تاريخ الدولتين ، 9 فيفري 1401 م .

(340) في الأصول : « الجلازة » .

(341) في الأصول : « الرملي » ، ولا يعرف من لقبه الرملي من تلامذة ابن عرفة ، والمخمس هو الإمام الأبي .

(342) في الأصول : « أعددها » .

(343) في تاريخ الدولتين : « الوري » .

(344) في تاريخ الدولتين : « أرجو » .

(345) ساقطة من الأصول .

في صغره على ابن سلامة من طريق الدَّائِي وابن شريح ، وقرأ أصول الفقه على ابن علوان⁽³⁴⁶⁾ ، وأصول الدِّين على ابن سلامة وابن عبد السلام ، والمعقول على الشَّيْخ الآبِي ، وكان يثني عليه بخير هو والشريف التلمساني ، وكان مجدًّا في الأمور الدِّينية / [322/أ] والدنيوية ، ولي إمامة جامع الزيتونة ، وابتدأ تصنيف المختصر الفقهي سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة⁽³⁴⁷⁾ ، وكَمَّلَه سنة ست وثمانين⁽³⁴⁸⁾ ، ومختصره المنطقي آية كبرى لم يتصد لشرحه ابتكاراً غير الإمام أبي عبد الله سيدي محمد السنوسي التلمساني - رحمه الله - وحج سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة⁽³⁴⁹⁾ ، وكان كثير الصَّوم والتَّلاوة لكتاب الله ، وكان مسعوداً حتى في دنياه ، موسعاً عليه فيها مالاً وجاهاً ونفوذ كلمة لمصادقة هذا السُّلطان السعيد أبي فارس وأبيه - رحمهما الله تعالى - ، ولما توفي تولى بعده الصَّلابة بالجامع والخطبة والإمامة والفتيا به بعد صَلاة الجمعة نائبه الفقيه القاضي الغبريني⁽³⁵⁰⁾ .

حركة أبي فارس عبد العزيز داخل افريقية والمغرب :

وفي سنة أربع وثمانمائة⁽³⁵¹⁾ تحرَّك السُّلطان إلى بسكرة ، فأقام بيئر الكاهنة مُدَّة حتى دَبَّر أمره ، ثم ارتحل إليها وضاق أمر شيخها أحمد بن يوسف [ابن]⁽³⁵²⁾ مَزْنِي ، ولم يبق غير الفرار والتَّسليم ، فدخل السُّلطان بسكرة يوم السبت سابع جمادى الآخرة من السَّنة المذكورة ، فأقام بها مُدَّة وانصرف إلى حضرته ، ورفع معه أحمد بن يوسف ، وقدم على البلد قائداً من قُواده بعد أن مضت لبني مَزْنِي بها المشيخة المستقلة نحو مائة وأربعين سنة ، منها لأحمد هذا أربعون سنة⁽³⁵³⁾ .
وفي سنة سبع وثمانمائة⁽³⁵⁴⁾ تحرَّك السُّلطان من تونس إلى غَدَامَس .

(346) في الأصول : « ابن غلبون » والتصويب من تاريخ الدولتين ص 121 .

(347) 1370 - 1371 م .

(348) 1384 م .

(349) 1390 م .

(350) تاريخ الدولتين ص 121 - 122 .

(351) 1401 - 1402 م .

(352) في الأصول : « يوسف المَزْنِي » والتصويب من تاريخ الدولتين ص 122 .

(353) تاريخ الدولتين ص 122 .

(354) 1404 - 1405 م .

وفي السنة المذكورة توفي بيونة الفقيه الشهير / أبو عبد الله محمد المراكشي (355) [322/ب] المشهور بالضرير ، كان جيد النظم والنثر.

وفي سنة ثمان وثمانمائة (356) توفي أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن محمد الشهير «بابن خلدون» عن تسع وسبعين سنة دون شهر ، وهو أستاذ العلامة بدر الدين الدماميني .

وفي ليلة الجمعة الثاني عشر لربيع الأول سنة تسع وثمانمائة (357) توفي قاضي قسطنطينة أبو العباس أحمد بن الخطيب (358) شارح رسالة ابن أبي زيد وجمل الخونجي وغيرهما .

وفي سنة عشر وثمانمائة (359) خرج السلطان أبو فارس من تونس بمحلته للقاء الأمير أبي عبد الله محمد ابن عمه المولى أبي يحيى زكرياء ، وذلك أنه لما هُزم الهزيمة الشنعاء سنة سبع وتسعين وسبعمائة (360) - حسبما مر تفصيلها - ركب - كما تقدم - من بونة بلده وقصد فاس مستصرخاً صاحبها على السلطان أبي فارس ، فلما وقع على السلطان وقعة عين الغدر (361) بين الحامّة ونفزاوة ، فكاد السلطان يتلف فيها لولا أن الله سلّم ، وذلك كله من العرب (362) حكم ومن شايعهم ، فثبته الله بعد الإشراف على السقوط ، وراجع فيها الم رابط بن أبي صغونّة الأعراب للطاعة ، وهربت منهم طائفة إلى صاحب فاس مستصرخين على أبي فارس ، فبعث معهم الأمير أبا عبد الله محمد (363) - المقدم الذكر - في جيش عظيم من جيوش بني مرين ، وأمرهم أن لا يرجعوا إلى بلادهم إلا باذن أبي عبد الله محمد حين لا تبقى له بهم حاجة . / فجاؤوا معه إلى أن وصلوا إلى اطراف عمالة بجاية ، فوفد على الأمير أبي عبد الله هنالك عرب إفريقية وأتوه طاعتهم ، ووفد عليه شيخ حكيم ، وهوّن عليه أمر إفريقية ، فلما رأى الأمير أبو عبد الله وفود العرب عليه وكثرتهم ، أمر جيش بني مرين بالإنصراف فانصرفوا ، وسار مع العرب فلقية القائد

(355) في الوفيات لابن قنفذ القسطنطيني ، تصحيح وتعليق هنري بيريس (ط . مصر) ص 63 أنه توفي سنة 807 وابن قنفذ أعرف بأخبار بني وطنه من غيره ، وراجع نيل الابتهاج .

(356) 1405 - 1406 م .

(357) 27 أوت 1406 م .

(358) المعروف بابن قنفذ أيضاً ، وهو من الأعلام المكثرين من التأليف ، ألف في الفقه والفلك والتاريخ .

(359) 1407 - 1408 م .

(360) 1394 - 1395 م .

(361) في الأصول : «القدر» والمثبت من تاريخ الدولتين ص 123 .

(362) في تاريخ الدولتين : «عرب» .

(363) كذا في ط وتاريخ الدولتين ، وفي ش : «أبا محمد عبد الله» .

أبو النصر ظاهر بمحلته ، لأن السلطان أبا فارس لما بلغه مجيء هذه الجيوش مع الأمير أبي عبد الله خشي على بجاية ، فعقد عليها لأخيه زكرياء صاحب بونة فصرفه إليها ، وصرف عنها القائد ظاهر - المقدم الذكر - فأمره بالخروج بالمحلة للقاء الأمير أبي عبد الله محمد ، فالتقى الجمعان ، فهزم أبو عبد الله محمد القائد ظاهراً وأخذ محلته بجميع ما فيها ، ثم سار الأمير أبو عبد الله لبجاية ، فقام أهلها على الأمير زكرياء وأخرجوه منها ، فقر في البحر ، وملك الأمير أبو عبد الله بجاية ، وعقد عليها لولده محمد المنصور ، وسار للقاء السلطان أبي فارس ، وسار أبو فارس بمن معه من العرب فرببجاية فأخذها بمدخله بعض أهلها بعد أن قاتلها أياماً وانبعث أيدي العيث في ديار أهلها فانتبهت ، وقبض أبو فارس على الأمير محمد المنصور وعلى كبار البلد كالاشيليين ، فبعث بهم إلى الحضرة فاعتقلوا بها ، وعقد على بجاية لصاحبها ، كان المولى أبي العباس أحمد ابن أخيه ⁽³⁶⁴⁾ المولى / أبي عبد الله خرج من بجاية للقاء أبي عبد الله محمد ، فلما التقى الجمعان تحول شيخ العرب المرباط ابن أبي صعونة شيخ حكيم عن الأمير أبي عبد الله محمد وتركه لعهد كان بينه وبين السلطان على ذلك ، فانهمز من كان مع الأمير أبي عبد الله محمد ، وفر هو بنفسه طالباً نجاته فلحقه خيل السلطان بموضع يقال له بتيته ⁽³⁶⁵⁾ جوفي بلد تامغزة فقتلوه ودُفنت جثته هنالك ، واحتتر رأسه وأُتي به إلى السلطان أبي فارس ، فبعث به رجلاً من رجال الطريق إلى مدينة فاس فعلقه ليلاً بباب المحروق بها فأصبح أهل فاس يتوارونه ، وكان قتله أول محرم سنة اثنتي عشرة وثمانمائة ⁽³⁶⁶⁾ .

وفي سنة ثلاث عشرة ⁽³⁶⁷⁾ أخذ السلطان الجزائر صلحاً من أهلها .

وفي يوم السبت السابع والعشرين لربيع الثاني من السنة المذكورة ⁽³⁶⁸⁾ توفي قاضي الجماعة الخطيب المدرس عيسى الغبريني ، ودُفن بالزلاج ، وقُدِّم عوضه أبو يوسف يعقوب الرُّعْبِي وقُدِّم لامامة الجامع والفتوى به الحافظ أبو القاسم البرُّزلي .
وفي سنة سبع عشرة وثمانمائة ⁽³⁶⁹⁾ توفي أبو عبد الله محمد بن خلف ⁽³⁷⁰⁾ الأبي بضم

(364) في الأصول : « بن أخي » .

(365) في ش : « تبة » وفي ط : « سبية » والتصويب من تاريخ الدولتين ص 124 .

(366) 16 ماي 1409 م . (368) 29 أوت 1410 م .

(367) 1410 - 1411 م . (369) الصحيح أن الأبي توفي سنة 828 .

(370) ابن خلفه بكسر المعجمة وفتحها ثم لام ساكنة ثم بعدها فاء . نيل الإبتهاج ص 287 نقلاً عن الحافظ ابن حجر . البدر الطالع للشوكاني 169/2 .

الهمزة نسبة لأبنة⁽³⁷¹⁾ قرية من قرى تونس مؤلف «اكمال المعلم في شرح مسلم»⁽³⁷²⁾ في ثلاث⁽³⁷³⁾ مجلدات ضخمة ، وشرح المُدَوَّنة ، سكن تونس ، وتوفي بها - رحمه الله تعالى - .

[324/أ] وفي عام سبعة وعشرين وثمانمائة⁽³⁷⁴⁾ / افتتح السلطان أبو فارس تلمسان المَرَّة الأولى من يد صاحبها عبد الواحد بن حمو الزياني لما بلغه أن سيرته غير مرضية ، ونهاه فلم ينته وفرَّ هارباً بعد كسر ولده عند خروجه بمحلة للملاقاة السلطان أبي فارس ، ودخل أبو فارس تلمسان ، واستقر بها في قَصَبَتِها ، واستولى على جميع ما فيها ثالث عشر جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وثمانمائة⁽³⁷⁵⁾ ، ثم قلدها الأمير محمد ابن السلطان أبي تاشفين بن أبي حمو الزياني ، فعقد له عليها ، ثم ارتحل قاصداً مدينة فاس حتى لم يبق بينه وبينها إلا مسيرة يومين ، فوجّه له صاحبها أن البلاد بلدكم والسلطنة لكم وجميع ما تأمرنا به نمثله ، فقبل أبو فارس كلامه ووجّه له هدية عظيمة ، فكافأه عليها بأكثر منها وقفل راجعاً إلى تونس غانماً منصوراً ولحقته بيعة فاس ثم صاحب الأندلس ، فصارت إفريقية والغرب الأقصى والأوسط كلها تحت نظره وفي ملكه .

نزول النصارى بقرقة :

وفي سنة سبع وعشرين المذكورة بعث سلطان النصارى القطلاني⁽³⁷⁶⁾ رسولا من قبله إلى حضرة تونس برسم التحدث في الصلح ، فوجد الرسول السلطان أبا فارس بالمغرب ، فبعث له الغراب وقال : «ارجع فوراً ، فرجع في الغراب ، فوجه عمارة عددها خمسون جفنًا⁽³⁷⁷⁾ ، وقصدوا قرقة ونزلوها ليلاً على حين غفلة من أهلها والنصارى نحو عشرة آلاف مقاتل / والمسلمون نحو ألفين ما بين رجال ونساء وأولاد ، ولا

(371) وأبنة في اللغة القرطاجنية بمعنى السوق .

(372) اكمال المعلم للقاضي عياض ، وتأليف الأبى اسمه «اكمال اكمال المعلم» .

(373) وهو مطبوع في سبع مجلدات ضخمة .

(374) 14 ماي 1424 م .

(375) 13 ماي 1424 م .

(376) هو الفونس الخامس (Alphonse V) ملك أرغون (Aragon) وكانت بينه وبين أبي فارس وقائع ، انظر عن هذه العلاقات برنشفيك (La Berbérie) ، المصدر السابق 230/1 الذي اعتمد فيها على مراجع غربية .

(377) جمعها Dozy ، Suppléments... ، 201/1 على جفان أو جفون ، وجمعها ابن بطوطة على أجفان ، وهي سفينة حربية بطيئة الحركة انظر عنها سعاد ماهر «البحرية في مصر الإسلامية» ص 336 .

حصن بالجزيرة يتحصّنون به ، فوقفوا وقتلوا عن⁽³⁷⁸⁾ أنفسهم وحرّيمهم ، فقتلوا من النّصارى نحو أربعمائة ، واستشهد من المسلمين نحو المائتين ، وأسير باقيهم ، واستولى العدو على ما في الجزيرة ، وكان السلطان قد انصرف إلى المغرب ، فلما وصل إلى قفصة بلغه خبر العمارة ، فجدّ في السّير إلى أن اتفق وصوله ووصول النّصارى لصفاقس فطلبوا من السلطان الأمان ليتزلوا ويتحدّثوا في فدية المسلمين ، فأعطاهم الأمان ونزل منهم نحو ستمائة نفس من كبارهم ، فأعطاهم السلطان خمسين ألف دينار فدية فأبّوا ، فأتى المرباط بن أبي صعنونة للسلطان وقال له : « النّصارى خانوك فانهم بعثوا رسلهم للصّلىح ، وفعلوا ما فعلوا وليس لخائن أمان ، فالرأي الصّواب عندي القبض على هؤلاء حتى يردوا المسلمين فأنى ذلك ، وقال : لا ، [لثلاث]⁽³⁷⁹⁾ يتحدث الناس⁽³⁸⁰⁾ أني خائن نعطي الأمان ونخون نعوذ بالله من ذلك ، فقال له المرباط : إذا لم تفعلها أنت نفعلها أنا ، تمشي أنت تصيد وأنا نأخذهم في غيبتك ، فهنا وطلعوا لأجفانهم على الأمان ، وسافروا بالمسلمين لبلدهم ، ولكن بعد ذلك افتداهم كما افتدى أكثر أسارى المسلمين من أيدي الكافرين لأنه التزم فداء جميع من يرد لمرسى تونس من الأسارى من بيت المال مدّة حياته ، وأوصى تجّار النّصارى من جميع أجناسهم / أن يأتوه بكل من يقدرّون عليه من أسارى المسلمين ، وعيّن لهم في كل شاب منهم من ستين ديناراً إلى سبعين ، وفي كل شيخ وكهل من الأربعين إلى الخمسين ، فما مضت مدّة يسيرة حتى جاء تجّارهم بعدد كثير من الأسارى ففداهم جميعاً من بيت المال ، وما زال يفعل ذلك مدّة حياته ، ثم أوقف أوقافاً كثيرة معتبرة ، وحفظ مجابها ، وكلّمها يتحصل من الجاهلي يشترى بها ربّعا برّانياً ودخلاً نياً بحضرة تونس أعدّه لفداء الأسارى بعد وفاته » .

[أ/325]

حركة أبي فارس عبد العزيز بمالطة والمغرب الأوسط :

وفي سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة⁽³⁸¹⁾ عمّر من تونس أسطولاً كبيراً وبعث معه مملوكه القائد رضوان أميراً عليه ، وأمره أن يسافر به إلى جزيرة مالطة - دمرها الله - وينازلها ثلاثة أيام فإن تيسر أخذها وإلاّ رحل عنها ، فلما وصلها ضيق عليها أشدّ الحصار ، ثم أقبل عنها بعد أن أشرف على أخذها .

(380) كذا في ط وتاريخ الدولتين ، وفي ش : « يتحدث الناس بي » .

(381) 1428 - 1429 م .

(378) في ش : « على » .

(379) ساقطة من الأصول .

وفي حدود السنة المذكورة بعث السلطان أبو فارس عسكرياً صاحباً قائد قسنطينة القائد «جاء الخير» إلى تلمسان لِمَا بلغه عن صاحبها الأمير محمد ابن السلطان أبي تاشفين من العتو والاستبداد ، وقطع اسم السلطان من الكتب والخُطبة ، وبعث معه السلطان أبو محمد عبد الواحد الذي كان صاحبها ، وكان قدم تونس بعد فراره بين يديه حين ملك تلمسان ، فلما وصلوا وخرج الأمير محمد بجيشه ، والتقى الجمعان فهزموهم ، فسار أبو محمد عبد الواحد إلى الجبال ، واستصرخ أعداءها ، فأتى بها إلى تلمسان فلُكها . / وبعث [325/ب] بيعتها للسلطان بتونس وخرج ابن أبي تاشفين فاراً بنفسه إلى الجبال .

ثم رجع (382) ودخل على [عمه] (383) أبي مُحَمَّد عبد الواحد فقتله وملك تلمسان ، فسار السلطان أبو فارس بعساكره حتى نزل على تلمسان وأخذ بمخنفها محاصراً لها أشدَّ الحصار فلما علم ابن تاشفين أن لا قُدرة له على القيام في البلد واشتدَّ عليه الحصار خرج ليلاً هارباً إلى جبل بني يزناين (384) وأصبح أهل البلد فاتحين الأبواب ، فدخل السلطان بمن معه وبعث القائد نبيل بن أبي قطاية في عسكر إلى الجبل وحاصره إلى أن طلبوا منه الأمان على أن يُمكنوه من الأمير مُحَمَّد ، فأنزلوه إلى أبي فارس ، فقبض عليه وقتل البلد للأمير أحمد ابن السلطان أبي حمو موسى بن يوسف الزياتي ، ورجع في عام خمسة وثلاثين وثمانمائة (385) واعتقل ابن أبي تاشفين بقصبة تونس إلى أن هلك سنة أربعين (386) .

نزول النصارى بجربة ومواجهة أبي فارس لهم :

وفي عام خمسة وثلاثين وثمانمائة (387) في العشر الأول من ذي الحجة نزل (طاغية النصارى ملك أرغون) (388) القطلاني على جزيرة جربة في أمم لا تحصى ، وكان أبو

(382) أي محمد ابن السلطان أبي تاشفين ، اختصر المؤلف الأحداث ، وقرنها ببعضها دون مراعاة فارق الزمن ، فرجع محمد بن تاشفين إلى تلمسان ثم خروج السلطان الحفصي إليه كان في سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة .

(383) اكتمال من تاريخ الدولتين للتوضيح .

(384) في الأصول : «يزناش» وفي تاريخ الدولتين ص 129 : «يزناتن» والصواب ما أثبتنا .

(385) 1431 - 1432 م .

(386) 1436 م .

(387) 1431 - 1432 م .

(388) في الأصول : «نزل رمي النصارى رعون» والتصويب من تاريخ الدولتين ص 129 .

فارس نازلاً بعمرة بمحله ، فلما بلغه الخبر ارتحل حالاً وجدَّ السير ، فلما وصل وجدَّ النَّصارى قطعوا القنطرة فنزل السلطان بمحله خارج الجزيرة مما يلي القنطرة ، وكان قد بعث قَيْل العدو عسكرياً صحبة قائد من قُوَّاده لحفظ الجزيرة من العدو ، فبنعوا العدو من نزول الجزيرة ، فكان أبو فارس بمن معه / خارج الجزيرة والعسكر السَّابِق داخلها والعدُو [326/أ] في البحر على طَرَف القنطرة ، وقد جعل بينه وبين المسلمين سوراً من الخشب ، وكان المولى أبو فارس يجلس كل يوم بطرف القنطرة مع أصحابه ويجلس بين يديه القائد نبيل يبيش معه للقتال ، فأخبر العدو بذلك ، وبأن أصحابه ينصرفون عنه لما ربههم في وقت القائلة ، فلما صار وقت القائلة ولم يبق إلا الخواص بعث النَّصارى سَفُنًا عدة فأحاطت بالقنطرة وأرادوا القبض على السلطان ومن معه ، فركب السلطان وسلَّمه الله من كيدهم ، واستشهد بعض من كان معه ، وأحاط العدو بالميدان وما فيه فأخذوه في رابع محرم من سنة ست وثلاثين وثمانمائة⁽³⁸⁹⁾ ، ثم إن بعض أهل جربة قصدوا إلى أبي فارس وأخبروه بأن للجزيرة طريقاً غير القنطرة في البحر فبعث معهم عسكرياً فأدخلوه الجزيرة فلما رأى العدو العسكر دخل الجزيرة من غير القنطرة أيقن بالخبيثة ، وأفلق بأساطيله خائباً وكانت إقامة العدو عليها سبعة وعشرين يوماً ، وأصلح السلطان القنطرة .

حركة أخرى بالمغرب الأوسط لأبي فارس ووفاته :

وارتحل سالماً ، وأعطى للجند عطياتهم ، وجدَّ⁽³⁹⁰⁾ حركته وسار متوجهاً إلى تلمسان لما بلغه عن صاحبها أحمد بن أبي حمو الزَّيَّاني من التحدُّث بالإستقلال كعادة أسلافه فلما بلغ ولجة السدرة - موضع قرب جبل ونشريس - من عمل تلمسان وبه عين تسمى عين الزال⁽³⁹¹⁾ ، وكان يوم الأضحى من سنة سبع وثلاثين وثمانمائة⁽³⁹²⁾ تطهر وجلس ينتظر صلاة العيد / فحضرته وفاته - رحمه الله تعالى - فجأة قبل الوصول إلى تلمسان ، فكانت مُدَّة خلافته بتونس إحدى وأربعين سنة وأربعة أشهر وسبعة أيام . [326/ب]

(389) 31 أوت 1432 م .

(390) في تاريخ الدولتين : « وجرده » .

(391) كذا في ط وتاريخ الدولتين ، وفي ش : « عين الذال » .

(392) 18 جويلية 1434 م .

مزاياء أبي فارس :

وما مات - رحمه الله تعالى - حتى حصل له من الفتوحات كل عظيم ، وطُوع
 العُصاة والبغاة وفتح المدائن ، ومَهَّد السُّبُل ، وفي أوَّل أيامه أَغْرَى أسطوله مدينة طرْقونة
 بجزيرة صِقلِيَّة فافتتحها عنوة ، وهَدَّم سورها وأتى منها بالغنائم الكثيرة والسَّبي الكثير ،
 وصار مُلكه من طرابلس لأقصى المغرب ، وأَذَلَّ الله بعزه كل جَبَّار من العرب والبربر ،
 وقد كان عرب إفريقية قبله بالاختيار على ملوكها ويُحَاصِرُونَ المدائن ، ويُشَارِكُونَ
 السُّلْطَنَةَ في مجابها وله مع الأعراب وقائع شهيرة - مما أشرنا لبعضها - فقهرهم الله جلَّت
 قدرته بهذا السُّلْطَان المُؤَيَّد فصاريقُودهم معه أجنادًا في أعراض أسفاره شرقًا وغربًا بعد
 أن أباد أكثر أعيانهم ورؤوس مشايخهم ، وصاريث قُوَّاده يَتَّبِعُونَ نجوع العرب لاستيفاء
 زكاة مواشيهم وهم صاغرون تحت السَّمْع والطَّاعة مذعنون ، فهو واسطة عِقْد بني
 حفص ، ولقد أَلَّف مآثره صاحب كتاب «تحفة الأريب»⁽³⁹³⁾ فذكر منها كل غريب ،
 فهو - رحمه الله تعالى - واسطة عقد بني حفص ، واليه انتهى شرفهم ، فهو غاية ارتفاع
 قوس شمس عزهم ، ونهاية أوج ملك فخرهم ، فنه أخذ قوس شمس عزهم في
 الانحطاط / حتى بلغ حضيض الاهانة والخسران في أيام الحسن وأولاده كما - يأتي إن
 شاء الله - وإنما أطلنا وأكثرنا بذكر مآثره لأنها جميلة ، والله يحب الجميل ، فلذا استتبَّعنا
 ما قَدَرْنَا عليه ، ومن ثمَّ وجب امساك عنان القلم عما بعده إلَّا بذكر أسمائهم إلَّا ما لا
 بد منه من أحوال الحَسَن وأبنائه لمسيس الحاجة الأكيدة إليه مما ستقف عليه - إن شاء
 الله تعالى - .

أبو عبد الله محمد المنتصر :

وبعد وفاته⁽³⁹⁴⁾ - رحمه الله تعالى - قام بالأمر بعده حفيده ولد ولده وولي عهده
 أبو عبد الله محمد المنتصر ، ابن أبي عبد الله محمد ابن السُّلْطَان أبي فارس ، ببيع له
 بالخلافة في التَّاريخ ، ورحل بالحملة بعد غَسْل جده وتكفينه ، وبعث به إلى حضرة تونس

(393) لعبد الله الترجمان وهو راهب اسباني أسلم بتونس ، والكتاب مطبوع وهو صغير الحجم .

(394) عن دولة السُّلْطَان أبي فارس عبد العزيز انظر تاريخ الدولتين ص 114 - 131 فقد نقل المؤلف ما فيه باختصار وزاد زيادات قليلة .

فدفن بها بازاء قبر والده بالتربة المحاورة لسيدي محرز بن خلف ، وجُدِّدَتْ له البيعة بتونس يوم عاشوراء من مُحَرَّم سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة⁽³⁹⁵⁾ ، ولأول ولايته أمر ببناء المدرسة بسوق الفلقة من تونس ، وبه تُسمَّى المُتَصَرِّية ، وبناء السِّقَاية بداخل باب أبي سعدون من تونس ، وفي ليلة الجمعة ثاني عشر من صفر سنة تسع وثلاثين وثمانمائة⁽³⁹⁶⁾ ، توفي بسانية باردو ، فدفن مع آبائه ، فكانت خلافته سنة واحدة وشهرين واثنين عشر يوماً .

أبو عمرو عثمان ومن توفي في أيامه من المشايخ :

وبويع صبيحة يوم⁽³⁹⁷⁾ موت شقيقه السلطان أبو عمرو عثمان بن محمد ابن السلطان أبي فارس فكان - رحمه الله - قائماً على طريقة جده سائراً / في ظل سطوته ، وكان عالماً فاضلاً مشهوراً ، طالت مُدَّتُهُ حتى أُرْبِت على مُدَّة جَدِّهِ ، وكان قاهرًا للعرب وله معهم وقائع مشهورة ، ومساعي محمودة مأثورة ، تَبَعُهَا يخرج بنا عن صواب الإختصار . وفي أيامه توفي بتونس أبو القاسم البُرْزُلي⁽³⁹⁸⁾ خامس القعدة من سنة احدى وأربعين وثمانمائة⁽³⁹⁹⁾ .

وفي سنة اثنين وأربعين عصر يوم الخميس رابع عشر شعبان⁽⁴⁰⁰⁾ توفي بتلمسان الشيخ الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد بن مرزوق⁽⁴⁰¹⁾ . وفي السنة التي قبلها سنة احدى وأربعين ، تُوفِّي العباس أحمد بن عبد الرحمن

(395) 16 أوت 1434 م .

(396) 6 سبتمبر 1435 م .

(397) ساقطة من ش .

(398) البرزلي من تلامذة الإمام ابن عرفة لازمه نحو أربعين سنة ، ومن تلامذته ابن بلدته ابن ناجي القيرواني ، وحلولو والرصاع وعبد الرحمان الثعالبي الجزائري وهو مؤلف جامع مسائل الأحكام فيما نزل بالمفتين ، ويعرف بديوان البرزلي أو فتاوى البرزلي وهو أربعة أجزاء في مجلدين كبيرين منه أربع نسخ بالمكتبة الوطنية بتونس ، راجع تراجم المؤلفين التونسيين 175/1 - 178 ، ومزينة هذا الكتاب أنه يحاول بقدر الإمكان احصاء تأليف المترجم واستقصاء المصادر والمراجع التي تكلمت عن المترجم .

(399) 30 أبريل 1438 م .

(400) 30 جانفي 1439 م .

(401) هو الحفيد وله ترجمة في نيل الإيتهاج .

الزليطني عرف حلولو⁽⁴⁰²⁾ أخذ عن البرزلي ، ولي قضاء طرابلس ، ورجع إلى تونس وشرح «جمع الجوامع» لابن السبكي ، و«مختصر خليل» ، و«تنقيح القرافي» ، و«إشارات الباجي» ، و«عقيدة الرسالة» .

وفي سنة إحدى وخمسين وثمانمائة⁽⁴⁰³⁾ ، قدم الفقيه القاضي أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر النشريسي⁽⁴⁰⁴⁾ للامامة والخطبة بجامع الزيتونة ثالث محرم ، وتوفي في عصر يوم الأربعاء خامس ربيع الثاني من سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة⁽⁴⁰⁵⁾ .
وفي سنة خمس وخمسين وثمانمائة⁽⁴⁰⁶⁾ تُوفي بتلمسان الشيخ المفتي العلامة أبو القاسم العقْباني⁽⁴⁰⁷⁾ .

وفي أواخر شهر رمضان سنة سبع وستين وثمانمائة⁽⁴⁰⁸⁾ ، تُوفي مفتي بجاية وعالمها الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد المَشْدَالِي⁽⁴⁰⁹⁾ ، بفتح الميم⁽⁴¹⁰⁾ وشين معجمة ثم ذال معجمة مفتوحة بأشباع مشددة ثم لام ، نسبة لقييلة / من زاوة ، كان إماماً كبيراً مقدماً على أهل عصره في الفقه وغيره ، ذا وجهة عند صاحب تونس المترجم أبي عمرو عثمان ، قيل كان يضرب به المثل ، فيقال أتريد أن تكون مثل أبي عبد الله المشدالي ؟ .
وفي ثاني عشر من محرم سنة ثمان وستين وثمانمائة⁽⁴¹¹⁾ ، توفي بتونس الشيخ الولي

(402) هو قيرواني النشأة والدار وليس له من الليبية إلا الإنتساب لأحد مدنها ، وقد عدّه الشيخ طاهر أحمد الزاوي من أعلام ليبيا ، وهو تعدّ على الحقيقة والتاريخ ، إذ من المعروف لدى كتاب الطبقات أن الشخص يتنسب إلى المكان المتوفى فيه ولا يتنسب إلى أصل بلدته ، مثل الصحابة المشهورين المتوفين بالمدينة كسيدنا أبي بكر وسيدنا عمر وغيرهما فإنهم يعدون من أهل المدينة لا من أهل مكة التي هي مسقط رأسهم . والشيخ طاهر الزاوي عد في أعلام ليبيا الذين مر على استقرارهم بالقيروان قرون ، ولم يبق لهم صلة بليبيا إلا صلة النسب الأصلي ، وحلولو له ترجمة في تراجم المؤلفين التونسيين 165/1 - 167 .

(403) 1447 م .

(404) في الأصول : «النشريسي» والتصويب من تاريخ الدولتين ص 143 .

(405) 28 ماي 1449 م .

(406) 1451 م .

(407) المؤلف مقلد في هذا للزركشي لأن اسم العقْباني هو قاسم أبو الفضل بن سعيد ، ووفاته في ذي القعدة سنة 854 وله ترجمة في الأعلام لخير الدين الزركلي ونيل الإبتهاج .

(408) جوان 1463 م .

(409) الصواب إهمال الدال لأن اللغة البربرية لا ذال فيها والمشدالي له ترجمة في نيل الإبتهاج .

(410) في الأصول : «الهزمة» .

(411) 26 سبتمبر 1463 م .

الصَّالِح أبو العباس سيدي أحمد بن عروس ، ودُفِنَ بزاويته المشهورة به قرب جامع الزَّيتونة .

وفي ثاني عشر صفر من سنة تسع وستين وثمانمائة (412) ، توفي الشَّيْخ الصَّالِح أبو العباس أحمد ابن الشَّيْخ الصَّالِح محمد بن زيد بالمنستير ودُفِنَ بها .
وفي خامس جمادى الأولى توفي قاضي الأنكحة الفقيه محمد الزَّندِيوي سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة (413) .

وفي يوم الجمعة سابع جمادى الأولى سنة تسع وسبعين (414) ، توفي بتونس الشَّيْخ الفقيه العالم الكبير أبو اسحاق ابراهيم الأَخْذري (415) .

وفي أواسط محرم سنة اثنتين [وثمانين] (416) وثمانمائة (417) . ورد على السُّلطان أبي عمرو عثمان نصر بن صولة شيخ الذواودة طالبًا عفوه فعفا عنه وأكرم نزله (418) .

وفي سنة إحدى وتسعين وثمانمائة (419) توفي بياجة افريقية الشَّيْخ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي القلصّادي ، أصله من بَسْطَة (420) بالأندلس ، وبها تفقّه على الشَّيْخ أبي الحسن علي بن موسى القُرْبَاقِي (421) ، ومن تأليفه «تاج أشرف المسالك إلى مذهب مالك» و«شرح مختصر الشَّيْخ خليل» و«شرح الرسالة» ، و«شرح التلقين» ، و«هداية الأنام في شرح مختصر قواعد الإسلام» ، و«شرح رجز القرطبي» / و«تنبيه الإنسان إلى علم الميزان» ، و«شرح أيساغوجي» ، وله «شرح على الأنوار السنية» وعلى «حكم ابن عطاء الله» و«على رجز قاضي الجماعة بن منظور في أسناء النبي ﷺ» ، وعلى «البردة» وعلى «رجز أبي مُقَرِّع» ، و«هداية النظار في الأحكام» و«كشف الأستار

[328/ب]

(412) 14 أكتوبر 1464 م .

(413) 21 نوفمبر 1468 م .

(414) 19 سبتمبر 1474 م .

(415) ويقال الأخضري وانظر اتحاد أهل الزمان 1/189 .

(416) ساقطة من الأصول .

(417) 29 أبريل 1477 م .

(418) هنا ينتهي تأليف الزركشي في تاريخ الدولتين الطبعة المشار إليها وقد أخذ عنه المؤلف ما يتعلق بالدولة الحفصية كما أشرنا مع اضافات قليلة من عنده .

(419) 1486 م .

(420) ويقال بَسْطَة ، أيضًا بمصر ، انظر معجم البلدان 1/422 .

(421) في الأصول : «القراني» .

عن علم الغبار» والتبصرة» ، و«كشف الجلباب عن علوم الحساب» و«شرح تلخيص ابن البناء بكبير وصغير» ، و«شرح»⁽⁴²²⁾ ابن الياسمين في الجبر والمقابلة» ، وغير ذلك⁽⁴²³⁾ مما يطول تعداده - رحمه الله تعالى - .

أبو زكرياء يحيى بن مسعود وعبد المؤمن بن ابراهيم :

ولما انقضت⁽⁴²⁴⁾ مدة أبي عمرو عثمان الحفصي - رحمه الله تعالى - تولى بعده [أبو زكرياء]⁽⁴²⁵⁾ حفيده يحيى بن مسعود ، فسار سيرة جدّه أبي فارس إلّا أنه كان بخيلاً قال الجند عنه إلى عبد المؤمن بن ابراهيم بن عثمان ، فاستولى على الملك . ثم أبو زكرياء من جديد⁽⁴²⁶⁾ . وفي سنة تسع وتسعين وثمانمائة⁽⁴²⁷⁾ وقع فناء عظيم فمات أبو زكرياء .

محمد بن الحسن وتغلب النصارى على مواقع من افريقية :

فتولى السلطان محمّد بن الحسن ، فاشتغل بالخمير واللّهو ، وفي أيامه سنة ثلاث عشرة وتسعمائة⁽⁴²⁸⁾ تغلب النصارى⁽⁴²⁹⁾ على كثير من البلاد إلّا أن الله تعالى لطف بالعباد .

(422) ويسمى هذا الشرح «تحفة الناشئين على أرجوزة ابن الياسمين» .

(423) القلصادي من المكثرين من التأليف ، واشتهرت تأليفه بالخصوص في علم الحساب والفرائض .

(424) لم ينقل المؤلف من الأخبار والحوادث في مدة السلطان أبي عمرو عثمان إلّا التراجم من تاريخ الدولتين عدا ترجمة القلصادي لأن تاريخ الدولتين يقف في سنة 882 هـ بحيث أنه لم يستوف الكلام عن دولة أبي عمرو عثمان .

(425) اكتمال من المؤنس ص 159 وفي الأنحاف 189/1 أبو يحيى زكرياء .

(426) في الأصول : «ثم تولى أخوه زكرياء» والواضح أنه وقع في ذهن المؤلف خلط بين الأحداث ففرق بين الإسم والكنية وأضاف بسبب ذلك أميراً على القاعة التاريخية قال ابن أبي دينار «وذلك أنه لما استبد بالملك أبو محمد عبد المؤمن جيء بجثة الأمير يحيى ودفن ... وكل ذلك مفتعل ، ولما اتضح الأمر فرّ عبد المؤمن واستقل أبو زكرياء بملكه» المؤنس ص 159 .

(427) في 9 شعبان - 15 ماي 1494 م .

(428) 1507 - 1508 م .

(429) هم الإسبان والصحيح أنهم احتلوا البلاد في مدة الأمير الحسن سنة 941 .

ذكر الشيخ عبد اللطيف بن بركات العربي في «الذخيرة السنّية» أنه اتفق عندنا بافريقية تغلب العدو - دمره الله تعالى - على حصن وهران فأخذه عام ثلاثة عشر وتسعمائة⁽⁴³⁰⁾ ، ثم تغلب أيضاً على بجاية فأخذت في عام خمسة عشر وتسعمائة⁽⁴³¹⁾ ، ثم تغلب على طرابلس عام ستة عشر وتسعمائة⁽⁴³²⁾ ، وتكالب العدو - دمره الله / تعالى - على البلاد والعباد وعاث وأظهر الفساد ، واغتر بقوته وصولته ، واعتزّ بجوله وقوّته ، ونزلوا جربة وبها شيخها الشيخ يحيى بن سمون⁽⁴³³⁾ الوهبي ، وكان صاحب يقظة وحزم ونباهة وعزم ، فهياً لهم الرّجال من الفرسان الأبطال ، فلما حصل جميعهم بالجزيرة وانتشروا ورأوا أنها لهم كغيرها واغترّوا ، أيد الله المسلمين بالنّصر والطّفر ، ورزقهم الصّبر ، فقتلهم بكل بقعة وهزمهم هزيمة شنيعة ، وعن اثني عشر ألف قتيل غير ما رمى البحر من فرائسهم ببلاد السّواحل ، انجلت الوقعة فحصل للمسلمين بالجزيرة من سلاحهم وأسلابهم عدد كثير ، ومال غزير ﴿والحكم لله العلي الكبير﴾⁽⁴³⁴⁾ ، والعجب أنه مات من المسلمين ثلاثة عشر رجلاً أو أربعة عشر.

وكذلك اتفق للعدو - دمره الله - بجزيرة قرقنة من بلاد السّاحل فانهم نزلوا بها مطمئنين وأرادوا أن يبنوا البناءات والحصون للقرار والسكنى ، فكن لهم المسلمون وصاحبجوهم فلا يرى منهم إلّا صريع طريح ، أو أسير جريح ، أو قتيل تنسفه الريح . ثم مات مُحَمَّد بن الحسن بعد أن ملك أزيد من ثلاثين سنة ، فكانت وفاته سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة⁽⁴³⁵⁾ .

الحسن بن محمد والتصارع العثماني الاسباني بافريقية :

وتولّى بعده ولده الحسن بن محمد بن الحسن ، بويع بعد موت أبيه بالتاريخ المذكور ولما تولى رَفَعَ المكوس على الناس وأجرى عوائد جميلة وسار سيرة مرضيّة ، ثم انقلبت أحواله فاضطربت عليه / البلاد ، وخرجت عليه الحامّة ، وخرجت عليه صفاقس فقام بها المُكَنّي - كما يأتي إن شاء الله - وخرجت عليه سوسة ، قام بها صهره

(433) في الأصول : «سمو بن» .

(434) سورة غافر : 12 .

(435) 1525 - 1526 م .

(430) 1507 - 1508 م .

(431) 1509 - 1510 م .

(432) 1510 - 1511 م .

القليعي⁽⁴³⁶⁾ وقام عليه بالقيروان الشيخ عرفة من أولاد الشيخ نَعْمُون⁽⁴³⁷⁾ ، وهو جد الشّائين ، فبايع لرجل من لمتونة اسمه يحيى مُدَّعِيًا أنه حفصي ورد من المغرب ، ثم فر يحيى المذكور ، ودخل تونس متنكرًا ، فسك وقطع رأسه .

ولما مات الشيخ عرفة صاحب القيروان قام بالأمر بعده محمد بن أبي الطيب وهو ابن أخيه⁽⁴³⁸⁾ ، وفي آخر أيام الحسن استنجد أهل القيروان بدرغوث باشا وكان بطرابلس لما قاسوا من جور ابن أبي الطيب ، ودخلت صفاقس في طاعة درغوث باشا . وفي أيام الأمير الحسن انقلبت قسنطينة على يد التُّرك أيضًا ، وتغلّبت الأعراب بالفساد ، وكانت الشُّوكة في أولاد سعيد إلى أن هادنهم السُّلطان حسن بستين ألفًا عن الوطن .

وفي أيامه جاءت عمارة من بر التُّرك لأخذ تونس أرسلها إبراهيم باشا ، وكان وزيرًا للسُّلطان سليمان ابن السُّلطان سليم - رحمهما الله تعالى - وكان إبراهيم باشا ضرب الدّنانير باسمه ، وهو أول وزير تولّى الوزارة من أولاد السّراية⁽⁴³⁹⁾ - كما قيل - ومات سنة احدى وأربعين وتسعمائة⁽⁴⁴⁰⁾ ، فأرسل خير الدّين إلى تونس عن غير اذن السُّلطان سليمان ، فنازل تونس وأخذها ، وفرّ عنها الحسن ، ودخلها خير الدّين ، واستقل⁽⁴⁴¹⁾ بقصبتها .

[330/أ] وقام ربض / باب السويقة على خير الدين وكانت بينهم مقتلة عظيمة مات فيها خلق كثير من الفريقين ، وكان محل القتل من باب القصبة إلى باب البنات وحومة العلوج ، ونادى المنادي بالأمان من قبل خير الدّين وكف الفريقين⁽⁴⁴²⁾ . وخير الدين هذا هو الذي ابتداء بدخول العساكر العثمانية لتونس . وقيل إن محمد بن الحسن خلف خمسًا وأربعين ولدًا ذكرًا وضع فيهم الحسن السّيف ولم يفلت منهم إلّا أخواه الرّشيد وعبد المؤمن كانا غائبين فلحقا ببعض أحياء العرب .

(436) في الأصول : «القليعي» والتصويب من المؤنس ص 161 .

(437) المؤلف تابع لما قاله ابن أبي دينار في المؤنس ، والصحيح أنه من أولاد الشيخ أحمد بن مخلوف الشّائبي .

(438) في الأصول : «أخوه» والتصويب من المؤنس ص 162 .

(439) في الأصول : «العرابة» والتصويب من المؤنس .

(440) 1534 - 1535 م .

(441) كذا في ط والمؤنس ، وفي ش : «اشتغل» .

(442) المؤنس 162 - 163 .

واشتغل الحسن باللهو، وجمع من الملاهي كثيرًا، ومن المردان⁽⁴⁴³⁾ أزيد من أربعمائة للفسق بهم، وشقَّ ذلك على أهل البلد وطلبوا منه ترك ذلك حتى رَمَوْه بالحجارة، فأبى أن يترك فنفرت عنه القلوب، فأرسلوا إلى الرُّشيد لِيَمْلِكُوهُ فلم يمكن، فذهب الرُّشيد إلى خير الدِّين باشا صاحب الجزائر، والتجأ إليه، فلما علم ذلك السلطان الحسن شقَّ عليه ذلك، وأرسل إلى السلطان سليمان يشكو من خير الدِّين، فانه آوى أخاه، وأرسل صحيفة الرُّسول هدايا متحفة، فأجابه السلطان بأن: طب نفسك فإننا نأمر خير الدين باستصحاب أخيك معه فإذا حصل عندنا أودعناه عندنا فلا يعود إليك، فلما قدم خير الدِّين على السلطان ومعه الرُّشيد، عيَّن له السلطان كل يوم خمسمائة درهم جامكية⁽⁴⁴⁴⁾، ومن المأكول ما يكفيه، وكانت عمارة السلطان مترددة على المغرب لاستنقاذ البلاد من أيدي الكُفَّار/ فعرف خير الدِّين السلطان بأن العمارة لا تطبق أن تخرج من ها هنا وتسير مسافة أشهر، ثم تجتمع بالكفار، فلا بد أن تُشْتَبَى⁽⁴⁴⁵⁾ عمارتكم قرب بلاد الكفار، ثم تسير منه إلى حيث شاءت، وليس ثم موضع تُشْتَبَى⁽⁴⁴⁵⁾ فيه أليق من حلق الوادي بتونس، وكيف ذلك والسلطان حسن بتونس، فقال: إن أهل تونس متضرِّجون منه وهذا الرُّشيد عندكم يحبه أهل تونس، فإن أمر السلطان سرت بالعمارة، وعَرَّفَهم بأن الرُّشيد معنا فنملك تونس باتفاق من أهلها فتكون البلاد كلها للسلطان، فوافقه السلطان على ذلك، فسار خير الدِّين بالعمارة، فدخل حلق الوادي، وعَرَّفَ أهل تونس بأن معهم الرُّشيد لِيَمْلِكُوهُ البلاد، فقام أهل البلد قومة واحدة وقالوا: نصر الله الرُّشيد، وساروا نحو العماثر، ففرَّ الحسن بأهله وماله إلى مشايخ العرب، فاستولى خير الدِّين على البلد وقتل مشايخ الحفصيين خفية فتحقَّق أهل البلد عدم مجيء الرُّشيد، وإنما هي حيلة من خير الدين، فقاموا عليه وقتلوه، وقُتِل من أهل تونس ما يزيد على ثلاثين ألفاً بين رجال ونساء، ثم كَفَّ عنهم وصالحهم، فأغار الحسن على تونس ليلاً وقتل أزيد من ألف بَقَّاشي، وسافر لإسبانية، واستمدَّ من ملكهم، ولما تمكَّن من

(443) ج أمرد.

(444) قال دوزي اعتمادًا على النويري ووصف مصر (Description de l'Egypte) «تعني في الأصل الأموال

المخصصة للأزباج ثم صارت تعني الأجرة. المرتب. المعاش الخ...» 168/1.

(445) أي تقضي الشتاء.

البلاد «وردت عليه عمارة»⁽⁴⁴⁶⁾ من النصارى واستنجدوها الحسن من قبل الامبراطور⁽⁴⁴⁷⁾ فيها مائة ألف مقاتل .

[أ/331] ولما نزلت النصارى تلقاهم جند خير الدين / ومن انضاف إليه من أهل تونس ، وكانوا نحو ثمانية عشر ألفاً ، فالتقى الجمعان شرقي تونس⁽⁴⁴⁸⁾ ، وخير الدين يُحرّض المؤمنين على القتال ، وظهر منهم في تلك الحرب ثبات وشدة إقدام وتمكّن في أنواع الحرب ، وكاد أن يكون الظفر له في ذلك اليوم ، فيبنا هو كذلك اذ ورد الخبر على خير الدين أن الحسن تمكّل بالقصبة ، وأن الأعلاج التي بها فتحوا الباب له ، ففرّ خير الدين ومن معه إلى المغرب وتعرّض له العرب بنواحي تبرسق ووقعت بينهم حروب شديدة ، وتخلّص منهم إلى أن وصل إلى بلاد العنّاب - بونة - فركب البحر في عشرين غراباً وتوجه لبر الترك⁽⁴⁴⁹⁾ فانفتح على تونس باب البلاء وجاءها ما كانت توعّد ﴿وإنا لله وإنا إليه راجعون﴾⁽⁴⁵⁰⁾ . ونال الحسن الحفصي الاسم القبيح الفعل بهذه الفعلة الشنيعة ما دعتة إليه نفسه القبيحة ﴿وحسبنا الله ونعم الوكيل﴾⁽⁴⁵¹⁾ مما حل بالمسلمين .

وقيل إن الحسن لما ذهب إلى اسبانية عينوا له كل يوم أربعة آلاف دينار افرنجي لماكله ، وكانت مدة المكث سبعة أيام ، ثم سار بعمارة فيها نحو أربعمئة غراب فانزل تونس ، فاتفق أهل تونس مع خير الدين أن لا يخرج للكفار بل⁽⁴⁵²⁾ يبقى بالقصبة ، ويباشرون بأنفسهم قتال الكفار ، فاستمر القتال نحو شهر ، فاستطال خير الدين المقاتلة فتزل بنفسه من القصبة ، وفوض أمرها إلى قائده جعفر آغة ، وكان افرنجياً يبطن الكفر ، وكان في البلد جيوش خير الدين بها نحو أربعين ألفاً / فقام جعفر المذكور فأطلقه من الحبس ومكّنه من القصبة وأسوارها ومدافعها ، فصار المسلمون بين عدوّين : المدافع من البلد والسيّف أمامهم ، فانهزموا أقبح هزيمة ، والهاربون هلك أكثرهم من العطش ، ودخل طاغية النصارى ، وأجلس السلطان حسناً على التّخت ، وأعطاه الحسن نفائس الأموال ، ومن أسارى المسلمين ما يزيد على سبعين ألفاً ممن يتهم بموالاة أخيه الرشيد ،

(446) النقل بتصرف من المؤنس ص 163 .

(447) كذا في المؤنس وفي الأصول : «الإبلاذور» .

(448) بقرية الكلخ شرقي تونس (المؤنس ص 164) ، وفي انحاف أهل الزمان 12/2 ونزل (أي الأسبانيول) للبر بمحل يقال له «برج العيون» قرب حلق الوادي .

(451) سورة آل عمران : 183 .

(449) المؤنس 163 - 164 .

(452) في ش «بأن» .

(450) سورة البقرة : 156 .

«ثم إن الناس اطمأنوا فافتتحوا أسواقهم ولزم كل صانع صنعته ، فبينما المسلمون في هذه الغفلة اذ دهمهم العدو فجأة ودُفِعَت النَّصارى دفعة ، والأسواق مفتوحة ، فنهبها سبيًا وقتلاً ، وفرَّ المسلمون بعيالهم إلى ناحية زغوان ، فبعث طاغية النَّصارى إلى العرب ، وعيَّن لهم جعلاً على كل مسلم من الحاضرة أتوه به شيئاً معلوماً ، فخرجت العربان في طلبهم وأخرجوهم من كل شعب وواد ، وأتوا بهم إلى النَّصارى ، فكان طلب العرب أشدَّ على المسلمين من طلب النَّصارى ، وأعطاهم ما شرط لهم ، والبعض افترس من البادية ، وبلغت قفدية الرَّجل المورس ألف دينار ، ومن لم يُقَدِّ نفسه أرسلوه إلى النَّصارى ، وكان خطباً على المسلمين جسيماً .

وهذه هي الواقعة المعروفة بواقعة⁽⁴⁵³⁾ الأربعاء ، وأباح الحسن للنَّصارى البلاد⁽⁴⁵⁴⁾ ثلاثة أيام ، ويقال في هذه الواقعة أسر الثلث ومات الثلث وهرب الثلث . قال صاحب المؤنس وسمعت من أهل الحضرة من يقول كل ثلث / ستون ألفاً وكانت⁽⁴⁵⁵⁾ هذه الواقعة سنة إحدى وأربعين وتسعمائة⁽⁴⁵⁶⁾ . [أ/332]

وعندما استقر الحسن بتونس ، تراجع أهل البلد بعد التشتت والنهب حُباً في الوكر⁽⁴⁵⁷⁾ ولما استقر أمر السُّلطان حسن بتونس ، وأراد طاغية النَّصارى السفر التمس السُّلطان حسن من الطاغية أن يؤخر عنده قدر أربعة آلاف أفرنجي يقيمون عنده بخلق الوادي ، وبينوا هناك معقلاً ، وذلك سنة إحدى وأربعين وتسعمائة⁽⁴⁵⁸⁾ ، فوافقوه على ذلك ، وبنوا مدينة مُسَوَّرة فتضرَّر بهم كافة الخلق ، فكان الحسن سبيًا لقرار الكفار هناك .

«⁽⁴⁵⁹⁾ ثم خرج الحسن لافتكاك القيروان من يد الشَّايين قبل قدوم الباشا درغوث ، فقاتلوه ليلاً بالسَّيف ، واغتموا ماله وسلاحه ، فأقسم لا يرجع عنها بحال ، وعزم على أن يستنجد لها النَّصارى ويفتكها بعد اباحتها للنَّصارى ، وكان ابنه أحمد عاملاً ببونة ، فلما سمع بتوجه أبيه لِبَرِّ النَّصارى لمعاداة القيروان اختلس نفسه خفية ، ودخل القسبة

(453) كذا في الأصول وفي المؤنس : «خطرة» .

(454) في المؤنس : «البلد» ساقطة من ش .

(455) في الأصول : «وكان» .

(456) 1534 - 1535 م .

(457) المؤنس يتصرف ص 165 ، الوكر هو العش ، وفي العامية : المسكن ، ويقصد بها هنا الوطن .

(458) 1534 - 1535 م . (459) رجع إلى النقل من المؤنس ص 165 .

وتملّكها ، ففرحت به البلاد ، وقال لهم : إنما حملني على أمري هذا حماية الدين ، ورأيت ما حل بكم أولاً فقلت : لعلّي نتدارك الأمة⁽⁴⁶⁰⁾ .

وقيل إن الحسن لما خرج لقتال القيروان خلّف في تونس ولده أحمد ، ويقال له مولاي «حميدة» ، فلما أبعد الحسن قام أهل البلد فأتوا حميدة وقالوا : لا يخفى عليك ما حلّ بنا من شؤم أبيك ، فإن كان لك حاجة بالملك فقم نبايعك وإلا دَعَوْنَا عمك عبد المؤمن نبايعه ، فلما رأى منهم الجِدّ ، رضي بذلك / فبايعوه وقلّده الأمر ، ولما بلغ الحسن ذلك الأمر ترك حرب ابن أبي الطَّيِّب⁽⁴⁶¹⁾ بالقيروان ، وركب⁽⁴⁶²⁾ البحر وعاد إلى اسبانية ثانية ، وأتى بعمارة عظيمة ، فبينما الناس في ما هم فيه إذا بالحسن ورد بالعمارة ، ونزل البر ، فتوجهوا للجهد ، ونادى منادي الأمير أحمد : إن من يأتيني برأس أو أسير فله مائة دينار ، وجلس عند باب القصة ، وأظهر لهم المال ، وحرّض المؤمنين على الجهاد ، فخرج أهل الربضين والتقوا بالنصارى ، والحسن الذي جاء معهم وهو في وسطهم ، وكان الملتقى في محل يعرف بخربة الكلخ ، وامتدت العساكر إلى سانية العنّاب ، وكان سيدي عليّ المحجوب من أحفاد سيدي طاهر المزوغي - نفعنا الله بهما - حاضراً واقفاً بكُدَيْة القيروان ، فأخذ قبضة من تراب وقرأ عليها حِزْبَ الْبَحْرِ ، ورمى بها في وجوه العدو ، فانهزم الكفار وأعزّ الله الاسلام بنصره ، وفرّ الحسن إلى شكلي⁽⁴⁶³⁾ وهي الجزيرة التي بوسط البحيرة⁽⁴⁶⁴⁾ ، فتبعه أبو الهول - رجل من المسلمين - وأخرجه ملوّناً بحمأة⁽⁴⁶⁵⁾ البحر وكساه بُرُتْسًا ، وجيء به لابنه أحمد فوبّخه وسجنه ، وطلب أهل تونس قتله ، فأشار بعض أرباب دولة ولده أن يُكَجِّلَ عيون الحسن بالنّار ليكفّ بصره ، ففعل به ذلك ، واستأذن ولده في الزّيارة ، فكان يخرج أحياناً إلى أن زار قبر الأستاذ سيدي أبي القاسم الجليزي⁽⁴⁶⁶⁾ ، وورد عليه صهره القلّيجي⁽⁴⁶⁷⁾ وهرب به إلى القيروان .

(460) المؤنس ص 165 - 166 .

(461) في الأصول : «ابن الخطيب» والتصويب من المؤنس ص 162 .

(462) القتل من المؤنس ص 165 .

(463) في الأصول : «شكلة» وجزيرة شكلي الآن خربة قرب بحيرة تونس .

(464) بحيرة تونس كما أشرنا .

(465) في المؤنس : «الغرم» .

(466) كذا كتبها ابن أبي دينار ومارسي (Marçais) وكتبها عبد العزيز الدولاتي «الزليجي» وهكذا يجب أن تكتب ان نسبناه إلى صنعة الزليج التي كان يغلقها . وحسب نقيشة داخل قبة زاويته هو «أبو الفضل قاسم أحمد =

[أ/333]

ومن ثمَّ احتال⁽⁴⁶⁸⁾ حتى ذهب ليرَّ النَّصاري ليأتي / بعمارة لأخذ المهديَّة.

قيل السَّبب في جلب العمارة للمهديَّة أنه لما جاء بالعمارة لتونس ، وطلب من المهديَّة مالاً ليدفعه للنَّصاري ، بعث ولده لهم لذلك ، وكانت المهديَّة أيسر بلاد افريقية ، فلمَّا وصل الولد للمهديَّة أنزل بدُّور بعض كبرائهم ، فاجتمع على سيدي علي المحجوب - رحمه الله تعالى - وكان يعرفه فسأله عن السَّبب الحامل له على القدوم للمهديَّة فعرَّفه بطلب المعونة ليدفعوا للنَّصاري ما عليهم من المال ، فقال له الشَّيخ : لا تسألهم شيئاً فإنَّ النَّاس متغيِّطون عليكم من أجل استعانتكم بالكفَّار ، وانج بنفسك قبل أن يسعوا في قتلك ، فخرج فاراً وعرَّف أباه بحقيقة الحال ، فحقد عليهم ، وأظهروا له العداوة والعصيان كغيرهم من البلاد ، فجاء بالعمارة للمهديَّة وقتلهم ، وفي هذه الواقعة قُتل سيدي علي المحجوب - رحمه الله تعالى - وكذا الحسن مات بالبحر فأُنزل للبر ، وجيء به للقيروان فدُفن بها ، وأنشد بعض أدباء المهديَّة قصيدة في مجيء العمارة وأخذهم المهديَّة ، ولا بدَّ من إيرادها وإن كان فيها طول لاشتغالها على بيان القضية وما فيها من الغرائب وهي هذه⁽⁴⁶⁹⁾ :

[بسيط]

وقفت تنشُد رسم الدار محترِّقا	على الحبيب فقال الرسم ما الخبر
لا علم عندي إلَّا كنت تنصرهم	يجمع شمل فيأوي ظله البشر
كما الملوك فكل الناس يرقبهم	مثل الهلال هلال الفطر ينتظر
نلت السلو عن الأحباب منك جفا	تنسى عهودهم والحق تَذَكَّرُ

= الصديقي الفاسي « فهو إذاً من أصل فاسي خلافاً لما شاع عنه من أنه أندلسي ، وربما تعلم بالأندلس صناعة الزليج التي صار ينسب إليها عبد العزيز الدولاتي *Tunis sous les Hafsides* ، تونس 1976 ص 206 . حول أبو القاسم منزله إلى زاوية وقال عنه ابن أبي دينار : « توفي أبو القاسم الجليزي أول صفر سنة اثنتين وتسعمائة ودفن بزاويته داخل باب خالد من تونس وحضر السُّلطان جنازته » المؤنس ص 160 وانظر إيضاح ج . مارسى *Manuel d'art musulman* ، باريس 1927 ، 860/2 - 861 .

(467) في الأصول : « القلعي » .

(468) قال ابن أبي دينار في المؤنس : « وكان في خبري أنه مات بالقيروان لأنه مقبور هناك حتى وقفت على ورقة بخط الشَّيخ بركات الشريف يذكر فيها أن السُّلطان الحسن هرب إلى بلاد النَّصاري وهو أعمى وأتى بعمارة لأخذ المهديَّة مات في البحر فأنزل إلى البر ورفعوه إلى القيروان فدفن بها » ص 168 .

(469) سلاحظ القارئ أن لغة القصيدة هزيلة ، وبعضها لا يخضع للموازين الشعرية كما أن الشاعر ضحى في بعض الأحيان بالقواعد النحوية لفائدة الميزان .

ما كان فيك من الغزلان ساكنة
أين الظباء التي قد كنت مرتعها
لها سيوفٌ من الأجفان في مقل
في لحظ مُقَلَّتْها سحر به فتنت
غارت عليها خيول البين فانزعجت
بانت سعاد وما بانت لها خرق
يا رُبَّ باكية في ضمن بكيتها
أشيم به من نهار البين حين غدت
ألا مجيب فكل نال نائبة
خط القضاء خطوط البين ما كتبت
فلا محيص لكل الخلق عنه اذا
من لي برد وكيف كنت أعهدده
صرف⁽⁴⁷¹⁾ الزمان عراني⁽⁴⁷²⁾ ثم وانبعثت
نأى الحبيب الذي قد كان يلزمني
أصبحت تنشد رسم الدار مهتلاً
أين استقر أهيل الحي واتجعوا
أكرم به من أهيل كان مفتخري
أجانيي الربع ما أنسيت عهدهم
وترب أرضي حقاً كان مسكنهم
لكن ظننت بأن الدهر خانهم
الله أعلم داء العين حل بهم
أجلأهم الدهر لا أدري مقرهم
وسل حمائم تلك الدار تنبيك [عن]
فهي التي تعرف الأحكام كيف جرت
ما طاقت الصبر يوماً لا ولا برحت

أهيل حبك في أحشائك اغتمروا⁽⁴⁷⁰⁾ / [333/ب]
تسي العقول ومنها القلب منسحر
سفك الدماء بها في الحب مغتفر
يا ما أميلج ذلك اللحظ والخور
من الديار وما بالربع معتمر
أمت حديثاً وفي أثنائها الخبر
رثا سعاد به الأحشاء تنحسر
ولا وداع لها يطفى به الجمر
من العباد عراة السقم والخور
على الرؤوس فماذا ينفع الحذر
حل القضاء وجاء الوقت لا وزر
يجلي همومي وهو القصد والوطر
طلائع البين والهجران والكدر
أودعته الله حسي الصبر نصطبر
كذا الغراب على الأرجاء ينشمر
وهل تلاق لذاك الحي ينتظر
به شغفت ، وكان الطالع القمر
وكيف ننسى وفي عيني هم النظر
وليس أرض سواي الدهر ما عمروا⁽⁴⁷³⁾
أعطى أمناً تلاه الغدر والخفر
من حاسديهم فبئس الداء محتذر
صوارم الدهر لا تبق ولا تذر / [334/أ]
يوم النوى قد جرى من عينها نهر
وحالها النوح والغريد والهدر
عن رسم مسكنهم بالحب تنتظر

(472) كذا في ط وت ، وفي ش : «على أني» .

(473) في الأصول : «ما عمر» .

(470) في الأصول : «اغتمرو» .

(471) في الأصول : «حرف» .

قرية⁽⁴⁷⁴⁾ الدار هل عرفت حالهم
 قلبي حزين على ليلي وما هجعت
 ألا وصالٌ إلى ليلي ألا خبرٌ
 مُعْنَعْنٌ بأداء الصّدق أسنّدهُ
 ولا غريب بنعت الضعف يخبرني
 بصيغة الجزم والتعليق إن وردت
 لا تحسبن سعاد نسيتها حسنٌ
 ليلي مثلتها حقًا بها قرنت
 بها الفؤاد فن لي أن نلاقيها
 أعر جناحك يا قُمْرِي⁽⁴⁷⁴⁾ يَحْمِلُنِي
 ففضلُ جنسي ذاب القلب منه أَسَى
 وكم تغرد طول الليل من أسف
 ترجيع نوحك بالأسحار قد عميت
 أبا لتجاهل قال الأرق تسألني
 فكم عزيز ضحا⁽⁴⁷⁶⁾ بالصرف في محن
 كانوا عازًا وكان العز رَقْمُهُ
 الله أكبر! يا لهني صغيرهم
 أسير قوم عداة الله حَنٌّ له
 فقدتُ النبي وأهلي والديارُ ترى
 وحق لي أن ننوح الدهر من حرق
 قوم عزاز على مثلي ومثلهم
 كانوا فبانوا فيا لله من زمن
 عدت عليهم خطوط البين فاندرسوا
 آو عليهم ، وآه من فراقهم

[ب/334]

أين استقروا؟ وهل بالوصل تنجبر؟
 مني العيون ودمع العين منهم
 ألا حديثٌ على الأجباب يعتبر
 عدلُ الثقات صحيح المتن مشتهر
 أين استقروا؟ وهل بالوصل تنجبر؟
 أمسى فؤادي عزيز القلب معتمر
 إن قيل ذا فشذوذ ما له أثر
 لها التساوي على الإطلاق ينهز⁽⁴⁷⁵⁾
 لقد تناءت وفي أثناها الخبر
 لكي نعاين أين الحب مستتر
 والنوع منه بشخص الهجر ينحصر
 أجب سؤالي إن القلب منقطر
 منه العيون وفي تلحينه خبر
 أما علمت صروف الدهر تغتور
 وكم ذليل غدا بالعز يفتخر
 أمسوا عبيدًا بأرض الكفر يحترق⁽⁴⁷⁷⁾ [وا]
 يبكي عليه غمام السحب والمطر
 صلدُ الحديد وقاسي القلب والحجر/
 لا أنسَ فيها عدا الغربان تنحدر
 من أجلها زاغت الأبصار والفكر
 يبكي عليه ويُبْكِي الجندل الصخر
 بيدي أَمَانًا⁽⁴⁷⁸⁾ ونكثًا ليس يعتذر
 غدوا أسارى فلا علم ولا خبر
 واحزن نفسي على ذا الحي ما ظهروا

(476) في الأصول: ضحى .

(477) إضافة .

(474) نوع من الطيور .

(475) في ط : «ينهدر» .

(478) في ش : «إمانًا» .

تعمى علي وقد نالتك محنتهم
 خَيْرَ بِحَالِكَ أَنِي عَنْكَ تَشُدُّ مِنْ
 رَفَقًا بِنَفْسِكَ عَيْنَ مِنْكَ هَامِلَةً
 عَلَى الْحَقِيقَةِ قَدْ فَارَقْتَ نَهْجَهُمْ
 مِنْ أَجْلِ فِرْقَتِهِمْ قَدْ حَلَّ بِي وَصَبَ
 مِنْ كَسْرِ قَلْبِي أَنْتَ الرَّبُّ يَا أُمَلِي
 أَنَا الدَّخِيلُ وَمَنْ يَلْجَأُ بِحَبْنِكَ يَغْدُ
 يَا أَكْرَمَ الرُّسُلِ خَيْرَ الْخَلْقِ أَجْمَعِهَا
 الْبَدْرُ شَقَّ سَرِيحًا مِنْ جَلَالَتِهِ
 وَكَلِمَتُهُ الظُّلُمَاتُ حَقًّا لِمَا نَظَرْتُ
 حَتَّى أَقَرْتُ بِأَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ
 أَمَّ الْمَلَائِكَةِ وَأَمَّ الرُّسُلِ أَجْمَعِهَا
 إِنْ قِيلَ مُوسَى كَلَّمَ اللَّهُ قُلُوبَ بَشَرٍ
 أَوْ قِيلَ عِيسَى قَفَلَ الرُّسُلُ أَجْمَعُهُمْ
 لَوْلَاهُ حَقًّا لَكَانَ الْكَوْنُ مَعْدَمًا
 سَمَا سَمَوًا عَلَى الْأَنْبِيَاءِ حِينَ رَأَى
 صَلَّى عَلَيْهِ إِلَاهُ الْعَرْشِ تَكْرِمَةً
 وَقُلْتُ لِلْوَرَقِ تَصْغِي أَنْ نَخْدُثَهَا
 حُلَّ اجْتِمَاعًا لَنَا كَالْعَقْدِ مُنْتَظَمًا
 مَضَتْ سَنُونَ وَلَا نَدْرِي مَتَى ذَهَبَتْ
 كُنَّا بِمَحْضِنٍ مِنَ الْأَذْكَارِ يَذْكُرُنَا
 عَرَبٌ وَعَجَمٌ إِلَى أَهْلِيهِ أَنْ لَهُ
 قَفْلُ السَّوَاكِيلِ لِلْمَهْدِيِّ نَسْبَتُهُ
 مَاذَا رَأَى أَهْلُهَا مِنْ عِزِّ حَرَمَتِهِمْ
 بِكُلِّ (480) نَوْعٍ مِنَ الْإِحْسَانِ تَحْفَهُهُمْ

وَأَنْتَ مِنْهُمْ بِرَأْيٍ كَيْفَ تَسْتَرُ
 يَرِدُ وَيَصْدُرُ حَتَّى الطَّيْرُ نَجْتَبِرُ
 قَدْ اسْتَعَارَتْ بِجَازِ الدَّمْعِ يَنْهَمِرُ
 كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ بِالْعِزِّ تَفْتَخِرُ
 مِنْ لِي بِرُؤْيَتِهِمْ نَشْفِي وَنَنْجِرُ
 مَا خَابَ عَبْدٌ دَعَاكَ اللَّهُ مُعْتَذِرُ
 أَنَا سَالِمًا وَمِنْ الْآفَاتِ يَتَصَرُ
 أَصْلَ الْعُلُومِ ، وَرُوحَ الْكَوْنِ مُفْتَخِرُ
 حَتَّى تَظَاهَرَ فِي الْآفَاقِ مُنْشَطِرُ
 مِنْ حَسَنِ طَلْعَتِهِ وَانْقَادَاتِ الشَّجَرِ
 لِلْخَلْقِ طَرًّا كَذَا الْأَمَلَاكِ وَالْبَشَرِ
 رَقَى الطَّبَاقِ بِهَذَا الْفَخْرِ يَفْتَخِرُ
 تَحْتَ اللَّوَاءِ لَوَاءُ الْحَمْدِ يَنْتَظِرُ
 قَالُوا الشُّفَاعَةَ لِلْمَخْتَارِ وَافْتَخَرُوا
 لَكِنَّهُ مِنْ سَنَاهِ النُّورِ مِنْهَرُ / [أ/335]
 وَجْهَهُ الْإِلَاحَ رَأَى الْقَلْبُ وَالْبَصَرُ
 فَهُوَ الْمَجْدُ بِالتَّجَمُّدِ مُشْتَهَرُ
 لَا بِالْكُنْيَةِ (479) أَنَّى رَاعَنِي الْأَسْرُ
 أَبْقَى جَوَاهِرِهِ فِي الْأَرْضِ تَنْشُرُ
 مِنْ حُسْنِهَا كَخِيَالِ الطَّيْفِ تَفْتَكِرُ
 كُلُّ الْمُلُوكِ جَمِيعِ النَّاسِ تَفْتَقِرُ
 عَلَى الْبِلَادِ جَمِيعًا فِيهِ تَنْعَمُ
 صَنِيعِ الْمُلُوكِ الَّتِي بِالْجِدِّ تَشْتَهَرُ
 لَمْ يَخْشَوْا الْبُؤْسَ يَوْمًا لَا وَلَا ذَعَرُوا
 هُمْ حَارِسُوهُ بِطُولِ الدَّهْرِ مَا قَصُرُوا

(479) في ط : «الكتابة».

(480) في ش : «بل كل».

مدافعٌ وعظيم الدرع والحجر
من الألوف كذاك القوس والوتر
صرح المدائن ذاك الحسن تختبر
إلا غدا بأليم الحرب منكسر
غدوا حيارى بذاك الوقت ما ظفروا
كم أغرقت سفناً بالجيش فانكسر [وا]
غيظاً وذرعاً كذا الفرسان تنصير
قد جاءها يجنود ليس تنحصر
مضى الفخار وزال العز والفخر
حل القضاء وحال الحين ما شعر [وا]
قد أحدقوها جمادى الثاني مشتهر/
يا ليته لم يكن في الدهر من ذكر
من الشواطئ مثل العد ينحصر
خمسين فرداً ونحو العشر ما قصروا
وصابحوا الحصن عند الباب وأنتشر [وا]
وغلاق الباب أهل الحصن وانحصر [وا]
تبكي عليهم وقلب الخلق منهر
رموا عليها حجار الهد ما قصر [وا]
عشرون وجهاً⁽⁴⁸⁴⁾ تُلَاقِي السُّور ينقطر
في اليوم ألف فهد السور والقصر
قضى الأمور بغيث الناس يتنصر
جوف الديار فشاب الرأس والشعر
تغلي سماء وفي الأرضين تنقطر
براً وبحراً إلى الهيجاء ما جسر [وا]

قد ضمنوه عظيمًا من حروبهم
من الحديد مع البارود عدته
من النصال سيوف لا نظير لها
ما قاسها الدهر افرنجي فقاتلها
كم قاتلوها وراموا ملك قصبتها
وسل رؤسائهم⁽⁴⁸¹⁾ تعلمك حالهم
وكم لعين من الأبطال مات بها
وحالة الدهر طول الوقت تغلب من
حتى مضت مدة التعمير في أول
فسبب الله أسباب الهلاك لها
ألا وجند من الكفار في سفن [335/ب]
من عام سبع وخمسين وتسعمائة
من الفراقيط⁽⁴⁸²⁾ بالتحقيق نحو مائة
أما الغراب حقيقةً كان عدته
فتزلوا الجيش نصف الليل اذ وردوا
حازوا المياه وحازوا أرض ملتها⁽⁴⁸³⁾
لهم بكاء كيوم الحشر تبصرهم
سوا مدافعهم تلقاء قصبتها
خمسون رطلاً وثلاثاً كان مبلغها
منها القلوب ومنها الناس داهشة
فضجت الناس بالتكبير تسأل من
رموا عليها حجار الجو تسقط في
الفرد منها كما القنطار زائدة
فقاتلوها قتال الجدد وانتدبوا

(481) بالعامة «الرايس» وهو ربان السفينة.

(482) ج فرقاطة ، وهي تحريف عن اللاتينية ، بالفرنسية «Frégate» وتعني في القديم مركب صغير له مجاذيف ثم صارت تشير إلى مركب حربي مجهز بالمدافع .

(483) في ط : «رملتها» . (484) أي طلقة نارية .

رموا عليها من الأحجار ما عظمت
 نحو الثلاثين ألفاً كلها وصلت
 من الحجار حجار لا فتور لها
 يا ما تقاسي نساء الحمي من نصب
 يندبن غيظاً سبقن الرجل من حق
 تلك الرجال أسود الحرب تحسبها
 وقامت الحرب في سوق التزال على
 كما الليوث جبلاً في لقاءهم
 وخرّبوا السور من تلقا محلّتهم
 ففي المساء كثير البطل قد تركوا
 تلك الرجال رجال الله قد نشرت
 فسرمد الحرب ليلاً والنهار فلا
 وكلت الناس واحتاجوا لقوتهم
 وحرّموا النوم طول الليل أن قدموا
 كما البدور يذوب القلب من أسف
 طال القتال ، وطال الحصر مدته
 واستنفروا جنوة مع نابيل وردت ،
 والرمي يخدم⁽⁴⁸⁶⁾ من كل الجهات فلم
 فكم جريح من الاسلام قد كسرت
 وكم قتيلاً غدا بالنار محترقاً
 وخرّبوا السور رمياً ثم وانفتحت
 أما العباد فداس⁽⁴⁸⁷⁾ الحسن أجمعهم
 فضل الجهاد وفضل الصبر فيه لذا
 فشاركوا الناس في جوف الحصون لذا
 يا لو ترى من بنات الناس كيف جرت

عن الحساب فكل الناس قد حذر[وا]
 سوراً الحصن تكاد الأرض تنفجر
 يقاتلون بها بالليل ما فتر[وا]
 فضحن وجهها وليس البكر تتر
 عن اللقاء وفي الميدان ما ستر[وا]
 كما الصواعق ما ردوا ولا قهروا
 ساق القتال وأهل الحصن قد نفر[وا]
 مقاتلين ونوم العين قد هجر[وا] / [336/أ]
 كروا وفروا أرادوا الصدم ما قدر[وا]
 هذا قتييل وذا ملقى وذا صبر
 قواضب العزم جيش الكفر قد نهر[وا]
 يمضي زمان خلي الرمي بل عمر[وا]
 وطال حصرهم والجهد⁽⁴⁸⁵⁾ والسهل
 ذاك الحفير مع نسوانهم حفر[وا]
 لما رأى قد بدا من حسنها الشعر
 نحو الثلاثة أشهر كلها ضرر
 تلك الجيوش بذلك الرمل تنحشر
 يفتر فريق ولم يهجع له بصر
 رجلاه برمي النار ما جبر[وا]
 استشهدوا ولهم في قتلهم أجر
 أساكين وتلاشى الحال واحترق[وا]
 برّاً ويحراً وماج الناس واقتكر[وا]
 قد قاتلوا قتلوا لكنهم ظفر[وا]
 مات الكثير وبقي القوم قد كسر[وا]
 منها الدموع على الخدين تنهر

(485) في ش : «جد» .

(486) أي يبعث .

(487) في ط : «الرأس» .

[336/ب]

من كل فاخترة بالجد شاختة
كما الغزال⁽⁴⁸⁸⁾ من الأشراف يملكها
أشؤم به من نهار البين حين بدا
هذا الزمان الذي كنا نُحَذِرُهُ
إِسْمَعْ كَلَامِي فِعْلُ الله قد حكمت
واستفرغ الدمع يا قري متحجاً
إني غريب وحالي صرت تعرفه
وصرت تكره من نفسي تلاقها
ثم الصلاة على المختار سيدنا
وارض عن الآل والأصحاب كلهم

درغوٹ باشا :

وفي سنة ثمان وخمسين وتسعمائة⁽⁴⁸⁹⁾ كان فتح⁽⁴⁹⁰⁾ درغوٹ باشا⁽⁴⁹¹⁾ لمدينة طرابلس فما نقل من رحلة العياشي⁽⁴⁹²⁾ ما نصه : «وما أفادنيه بعض فضلاء طرابلس من تاريخها أن العدو - دمره الله - استولى عليها بالإستيلاء الأخير سنة ست عشرة وتسعمائة بستة عشر من محرم⁽⁴⁹³⁾ ، وافتكك منهم سنة ثمان وخمسين وتسعمائة ، وتاريخه نقط قولك : «جاء الترك بس»⁽⁴⁹⁴⁾ ، وافتككها منهم درغوٹ باشا وكان يجربة ،

(488) في ط : «الغزال» .

(489) 1551 م .

(490) في الأصول : «السلطان درغوٹ» وأسقطنا «السلطان» لتنافي مع الحقيقة .

(491) عنه وعن أعماله انظر مثلاً عزيز سامح «الأترك العثمانيون» ترجمة عبد السلام أدهم دار لبنان 1969 .

(492) هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي (ت . 1679/1090 م) والرحلة العياشية ، النسخة المعتمدة :

طبعة ثانية مصورة بالأوفست ، الرابط 1977 ، 66/1 .

(493) 25 أبريل 1510 والحقيقة أنه وقع الاستيلاء على طرابلس في 25 جويلية من نفس السنة أنظر مثلاً «ليبيا منذ

الفتح العربي» المصدر السابق ص 138 ، وكان احتلال طرابلس بأمر من فرديناند الثاني الكاثوليكي

(Ferdinand II le Catholique) وعم على يد الكونت بدرو دي ناغارا (Le Conte Pietro di Navarro)

وفي سنة 1530 ترك شارل الخامس المعروف بشرلكان (Charles Quint) أمر طرابلس ، ولم تمض فترة طويلة

حتى استرجعها شرلكان ووهبها للرهبان بمالطة .

(494) عبارة وردت في عدة مصادر وترمز إلى احتكار الأتراك العثمانيين مدينة طرابلس وترجم فيرو (Féraud) محتواها

بقوله : «ما على الأتراك إلا أن يأبوا» .

ومراد باشا وكان بمَسَلَّة⁽⁴⁹⁵⁾ ، وبقى بها درغوث إلى أن توفي ، وقبره الآن مزار وعليه بناء عظيم» .

وسبب أخذها من العدو أن مراكب المسلمين جاءت من اسلامبول⁽⁴⁹⁶⁾ مددًا للعمارة المحاصرة لحلق الوادي بتونس - يعني بعد قدوم خير الدين أولاً ، وكان باشا العمارة سنان باشا ، أخا الوزير الأعظم رستم باشا وزير المرحوم السلطان سليمان خان -⁽⁴⁹⁷⁾ فمرت بسواحل طرابلس فكلهم أهل السواحل في اعانتهم على النصارى فقالوا انا لم نؤمر بذلك من السلطان ، فقال لهم الباشا مراد أعينوني في هذا الأمر فإن / كانت عقوبة فأنا المؤاخذ بها دونكم ، فحاصروها برًا وبحرًا إلى أن أخذوها فذهب معهم مراد باشا إلى السلطان ، وقال له : إن كانت عقوبة فأنا المؤاخذ بها دون هؤلاء الأمراء ، فرضي السلطان عنه وعنه وأكرمهم⁽⁴⁹⁸⁾ .

وأما أخذ النصارى لها فذكروا لذلك قصّة غريبة ، وهي أن أهل هذه المدينة فيما مضى كانوا أهل دنيا عريضة⁽⁴⁹⁹⁾ فيما يقال ، وليس فيهم عناء ولا لهم بالحرب خبرة ، فبينما هم كذلك اذ قدمت سفن للنصارى تُجَارًا بها سلع كثيرة فنزلت بالمرسى ، فخرج إليهم رجلاً من التجار فاشترى منهم جميع ما بأيديهم من السلع ونقد لهم ثمنها ، ثم استضافهم رجل آخر فصنع لهم طعاماً فاخراً ، فلما قرب لهم الطعام أخذ ياقوته ثينة ودقّها دقاً ناعماً وذرّها على الطعام فبهتوا من ذلك ، فلما فرغ قدم لهم دلاء⁽⁵⁰⁰⁾ فطلبوا سكيناً لقطعها فلم توجد في داره سكين⁽⁵⁰¹⁾ ولا عند جاره إلى أن خرجوا للسوق فأتوا

(495) مراد آغة ، وكان بك ناجوراء .

(496) في الرحلة العياشيّة : «اصطنبول» وكتبها المؤلف اسلامبول أي مدينة الاسلام طبقاً لما كان شائعاً ، وكذلك كتبها تجار أهل مدينته آنذاك حسباً ثبت الوثائق التجارية المحفوظة بمتحف صفاقس ، واسلامبول كلمة معروفة في المشرق والمغرب .

(497) اضافة تفسيرية من المؤلف عما في رحلة العياشي .

(498) ما أورده العياشي عن سبب احتلال طرابلس من طرف درغوث ونقله مقديش هنا يتفق مع رواية ابن غلبون في تاريخه ص 94 وتبناه فيرو (Féraud) في حويلاته ، ولكن روسي يرى في كتابه «ليبيا» أن الحملة ضد طرابلس كانت مدبرة من اصطنبول وتوجهات من السلطان العثماني ، ص 174 ، ويقف عزيز سامح الذي اعتمد وثائق عثمانية نفس الموقف في كتابه : «الأتراك العثمانيون» ص 49 .

(499) أي موسرة .

(500) ما يعرف في الشرق بالبطيخ الأخضر .

(501) ذكر بعض المؤرخين هذه القصة وهي شبيهة بالأسطورة لأن المسئلة والقصور من السلاح لا يبلغ هذا الحد إذ السكين لازمة الوجود في المطبخ وغاية ما في هذه القصة أننا نفهم منها أن هؤلاء التجار كانوا جواسيس .

بسكين ، فلما رجعوا إلى بلدهم سألهم ملكهم عن حال البلدة التي قدموا منها فقالوا له :
ما رأينا بلدًا أكثر منها مالا وأقل سلاحًا وأعجز أهل عن مدافعة عدو فحكّوا له
الحكايتين ، فتأهّب ملكهم لدخولها في مراكب البحر فدخلها في ليلة واحدة بلا كبير
مشقة ، واستولى عليها ، ولم ينج من أهلها إلا من كان تسوّر ليلاً ، وانحاز المسلمون إلى
تاجوراء ، وجبال غريان ومسلاتة ، وصارت المدينة للنصارى / إلى أن كان من أمرها ما
كان⁽⁵⁰²⁾ اهـ.

[ب/337]

ومما وقع في أيام الحسن لما أدخل النصارى لتونس انهم تمكنوا من بناء حصار حلق
الوادي⁽⁵⁰³⁾ ، وشاركوه في تصرفاته في الأحكام ، فأقاموا منهم كبيراً اسمه جوان بن
جاكمو⁽⁵⁰⁴⁾ في القصبية مشاركاً للحسن في أحكامه وتصرفاته ، وصار معه كالتمكين على
حلقومه بمذبة أن قال لأقطعه.

أحمد الحفصي واستمرار التصارع العثماني الإسباني :

ثم إن أحمد الحفصي لما استقلّ بالأمر بعد أبيه التفت بما يقوم به في مصالح البلاد
«وجد⁽⁵⁰⁵⁾ الخزائن خالية لأن أباه ألقها ، وغلب النصارى على أكثرها ، وشرع أولاد
سعيد في النهب على جاري عوائدهم ، وكانوا يحاهرون بشن الغارات إلى أن آل بهم الحال
ووصلوا إلى الجبل الأخضر⁽⁵⁰⁶⁾ وساقوا⁽⁵⁰⁷⁾ مواشي الأمير أحمد الحفصي ، فخرج لهم
بنفسه وأدركهم بسيجوم ، وطعن شجاعاً من شجعانهم ، وركب ثلاثة آلاف فارس
سمّاهم زمازية وكانوا قبلاً يسمون موحدية⁽⁵⁰⁸⁾ ، واستفتى أرباب الأحكام الشرعية في
شأنهم⁽⁵⁰⁹⁾ ، فأجابوا بأن ابن يونس المالكي لما سئل عن حكم أموال المفسدين القاطعين
للطرق المغيرين على المسلمين ويسفكون الدماء وينهبون الأموال كبوادي الغرب وشبههم ،

(502) رحلة العياشي نقلاً حرفياً ص 66 - 67 .

(503) انظر انحاف أهل الزمان 13/2 .

(504) في الأصول : «جاكموا» والتصويب من المؤنس ص 168 .

(505) النقل بتصريف من المؤنس ص 169 .

(506) فجاء باردو ، الانحاف 16/2 .

(507) في الأصول : «وسبوا» والتصويب من المؤنس .

(508) في الأصول : «موحدين» والتصويب من المؤنس .

(509) المؤنس ص 169 .

قال : قال سحنون لمالك - رضي الله تعالى عنهما - : أتكون دماؤهم وأموالهم هدرًا؟ قال : نعم . قال ابن القاسم : وإن كان فيهم ركن من أركان الاسلام / مثل الذين يصلُّون [338/أ] ويصومون شهر رمضان ويقولون لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ﷺ فقال مالك - رحمه الله تعالى - : لو كانوا مسلمين ما ضرُّوا باخوانهم المسلمين ، وإن الجهاد فيهم فريضة ، وقال مالك أيضًا : جهادهم أحبُّ إليَّ من جهاد الرُّوم ، قال سحنون بن سعيد : ما لهم سائق حلال لمن أخذه كان بالوجفة⁽⁵¹⁰⁾ أو بغير الوجفة أو بسبب من الأسباب ، صح من الأحكام ، نقله ابن يونس من المَدُونَة ، ونُقِلَ عن الرُّصاع مثل ذلك ، وفي ابن ناجي تحريم مبايعتهم السِّلَاح حتى الأخفاف والرواحي . وكان المولى أبو عمرو عثمان الحفصي أجلاهم عن الوطن ، وحدد لهم السُّكنى من وادِران إلى القبلَة لا يتعدونه⁽⁵¹¹⁾ .

ثم إن أحمد الحفصي اتخذ عسكريًا من السُّود لِمَا كان يتوقَّع من تملك البلاد لقوم لغتهم العربية ، فاتخذ لذلك الجيش السُّوداني ، ورفع منزلتهم رجاء أن يكونوا أولئك المرموز إليهم - حسبما وقع عليه في الأجفار أو أخبره به مُنَجِّمُوهُ - وكان له اهتمام بهذا الفن ودار على آذانه كثيرًا أن الحكم ينتقل عنهم إلى رجل اسمه علي من غير جنس العرب ، ويكون انقراض ملكهم على يديه ، فأقام مملوكًا من أعلاجه سَمَاءَ عليًا ، وأجلسه مجلسه ، وفوض له الأمر⁽⁵¹²⁾ ، ويأبى الله أن يكون إلا ما أَرَادَهُ وقدره ولا ينفع حذر مع قدر .

[338/ب] هذا وإن النُّصاري / الذين تخلفوا من نجدة الحسن - المتقدم الذكر - في غاية الاهتمام والإعتناء بانشاء الحصارات التي يخلق الوادي واحداث ما لم يسبق لحدوثه من قبل ، وضابقوا الحضرة غاية الضيق إلى أن صاروا يرمون الصُّوف والجير على أهل تونس فإن أتوا به فذلك مُرَادُهُمْ ، وإلا أغاروا عليهم برًّا وبحرًا وبارت⁽⁵¹³⁾ الحيلة في مدافعهم فمن أعظم بناءاتهم حصار حلق الوادي والبرج المقارب له ، والثالث البستون خارج باب البحر ، أما الحصار فهو بناء عظيم كالمدينة مُرَبَّع ، وعلى أركانه⁽⁵¹⁴⁾ الأربع أربعة أبراج في غاية الضخامة على كل ركن بُرْج ، والبحر من جنوبها والبحيرة من الغرب ، وحفروا

(510) ساقطة من ش .

(513) أي انعدمت .

(511) المؤنس ص 170 .

(514) في الأصول «أركانها» .

(512) المؤنس ص 171 .

حفيراً عميق الماء بينهما حتى أحاط الماء من جميع الجهات ، وعند مجتمع البحر والبحيرة البرج ، وتدخل سفنهم على هذا الحصن الأعظم ، فترسي عند بابه ، وعمق الخليج ستون ذراعاً ، وقعره مُتَّصِل بالبحر ، وخارج الحصن دور يسكنها المنافقون ، وقدرها أزيد من مائتي دار والخندق والبحر يحيط بالجميع ، ونقبوا تحت الأرض نقباً طويلاً يتصل إلى البرج الخارج عن الحصن ، وبين الحصن والدور سور يمنع من يريدهم بسوء وعرض سور الحصن يسير عليه سبعة من الخيل من غير مضايقة ولا مزاحمة ، وهو ذو وجهين خارج وداخل بحجارة ضخمة اقتطعوها / من الخنايا التي مرَّ وصفها ، وما بين وجهي السور حشو الجير افراغاً مع دقيق الحصباء كي يعسر نقبه ، ولا تعمل فيه الآلات من البونبات والألغام والمدافع ، وجعلوا كنيسهم وسطه ودواميس المياه المحكمة بأتقن الصُّنع ، وأقاموا في بنائه ثلاثاً وأربعين سنة لم يخل يوم فيها من التَّحصين ، وأما البستيون فكان خارج باب البحر قرب كنيسة النَّصارى ، وكان أشدَّ ضرراً على أهل تونس من غيره لأنهم أرادوا أن يبنوا فيه حصاراً ومدينة وقد ابتدؤوها ، وفَصَّلُوا⁽⁵¹⁵⁾ شوارعها وأسواقها ، وكادت أن تسكن لولا لطف الله ومعالجة العساكر العُثمانية ، والذي تمَّ لهم منه قلعة واحدة ، فكانت الحرب عليها لما دخلت العساكر العُثمانية كما يأتي إن شاء الله تعالى. ولما اشتدت أذية الكُفَّار للمسلمين وعجزوا عن مدافعهم جعل الأمير أحمد حيلة فأظهر سفيراً لافريقية⁽⁵¹⁶⁾ على جاري عادته وصحب في محلته ألف فارس ، وأردف كل فارس رجلاً وسار إلى أن بلغ ماطرًا ، ورجع منعطفًا وقصد الغزو إلى أهل حلق الوادي ، ولكن خاف من جواسيس المنافقين من الأعراب الذين تَزَنَّدَقُوا ، فأخفى أمره ورجع على ناحية المُعلَّقة ، وكن هنالك وأرسل طائفة يسيرة من الخيل نحو الحصار ، فتبعهم النَّصارى ففر المسلمون أمامهم راجعين لتونس ، فلما تباعدوا عن الحصار خرج الكمين لنحو / الحِصَار ، فهرب من كان باقياً فيه من النَّصارى ، ودخلوا الحصار ، وذهلوا من شدة الفرع عن غلق الباب ، ووصل المسلمون إلى الباب ، فلم يقدروا على الدُّخول لظنهم أن النَّصارى أبقوه مفتوحاً مكيدة ، فرجع المسلمون فالتقوا بالنَّصارى الذين كانوا تابعين للفرَّارين لتونس ، فاقتتل الفريقان ، ف وقعت هناك مقتلة عظيمة بين الفريقين ، وأكثر ما لاقى المسلمون من الأذى إنما كان من الزَّنادقة المرتدِّين من الأعراب ، ثم إن الأمير

[أ/339]

[ب/339]

(515) أي رسوا.

(516) هي الشمال التونسي في اصطلاح للتونسين.

أحمد جعل يكتاب باشاوات العساكر العثمانية بطرابلس والجزائر ، وهادئهم وطمع في اعانتهم ، فكانوا عليه لا له . فبعث أولاً محمد القصبي في أيام الحسن بن خير الدين ، وجاء معه إلى الجزائر لاحسانه إليه ، وبعث بعد ذلك أبا الطيب تاجا الخضار للبasha علي وهو بمدينة طرابلس ، وعاد مع البasha علي إلى الجزائر ، وكتاب حاكم قسنطينة ، وجعل مع درغوث باشا صحبة أكيدة ، ولما نزل درغوث باشا على جربة ليفتكها من أيدي النصاري أرسل له الأمير أحمد مددًا من العساكر والمؤونة⁽⁵¹⁷⁾ وافتكها على يد علي باشا الذي كان على طرابلس ، وكان مكث جربة في أيدي النصاري ستة أشهر .

ثم إن الأمير أحمد خاف من علي باشا أن يتترع منه تونس فطره هم أشد من هم النصاري ، وصار حائرًا في أمره فدخل عليه أبو الطيب الخضار فوجده / مطرقًا إلى الأرض مطيل الفكرة ، فسأله عن ذلك فقال له : « خوفًا يفاجئني علي باشا ولا طاقة لي⁽⁵¹⁸⁾ به » ، وكان الخضار يود دخول العساكر العثمانية لفساد الحفصية من أجل أن أحمد الحفصي بعد أن استقامت أحواله رجع بالفساد وظلم العباد ، ومدّ النظر إلى حريم الناس ، على عكس ما كان عليه أبوه من النظر إلى أطفال المسلمين ، فاجتمع عند أحمد أكثر من ثلاثمائة امرأة من بنات الناس ، فامتدت أيامه حتى بلغ خمسًا وعشرين وثلاثة أشهر ونصف .

فخرج أحمد الحفصي من تونس إلى قتال بعض أحياء العرب ، فلما بعد عن البلد اتفق الخضار مع أهل البلد باستدعاء علي باشا من الجزائر لاستنقاذ البلاد من أيدي الحفصيين لفساد نظام ملكهم وغلبة الفساد عليهم ، فراسل علي باشا وحرّضه على القدوم واغتنام الفرصة ، فخرج من الجزائر في عساكر عظيمة ، وانضاف إليه طوائف من الأعراب كمغراوة وسويد وغيرهم نحو سبعة آلاف ، وأقبل يجرّ ذيل عسكره لتونس ، فلما سمع الأمير أحمد تلقاهم بما التأم⁽⁵¹⁹⁾ عليه من العساكر ليدافع عن نفسه ، وكان الملتقى على باجة ، ولم يكن معه سوى الزمازية⁽⁵²⁰⁾ مع ما انضاف إليه وهو ألف وستائة رجل ، فلم يغن عنه ذلك شيئًا فانهمز عند الملتقى ، وأخذت محلته ، ووصلت عساكر علي باشا / إلى مجردة ، وكان زائدًا ، فعرس عليهم مجاوزته ، فأرسلوا إلى بنزرت فجاءت الأخشاب

(517) في الأصول : « مؤنة » .

(518) في الأصول : « له » .

(519) في الأصول : « التم » .

(520) في الأصول : « زمازمة » والتصويب مما سبق ومن المؤنس ص 173 .

والألواح فصنعوا جسراً عبّرت عليه العساكر ، فالتقى معهم ثانياً فهُزِمَ ، ثم ثالثاً فهُزِمَ ، وتلاشت جموعه ، فدخل تونس وجمع مهمّاته وذخائره وخرج خُفِيّة ليلاً ، فتبعه الأعراب ونهبوا ما قدروا عليه من ورائه وسار على طريق رادس ، وقطع إلى حلق الوادي ، فدقّ باب الحصار ليلاً فلما عرّفه النّصارى قبلوه وفتح أهل تونس لعلّى باشا والمناادي ينادي بالأمان ، ودخل القصبة ، وفرح النّاس ، وقبل البيعة للسلطان سليمان خان - رحمه الله تعالى - ليلة النّصف من شعبان سنة سبع وسبعين أو ثمان وسبعين وتسعمائة⁽⁵²¹⁾ ، وخطب بتونس ويجمع بلاد افريقية باسم السلطان سليمان خان الثاني - رحم الله جميعهم - ثم إن علي باشا أقام رجلاً مكانه باشا ، وسار حتى لحق بعمارة السلطان في البحر ، وكانوا عازمين على ملاقاته الكفار ، ثم إن الأمير أحمد أخذ يسعى في استجلاب عمارة من برّ النّصارى حتى وصلت لحلق الوادي فأخرج كبير النّصارى مکتوباً لأحمد فاذا فيه مقاسمة البلاد مالاً وحكماً بينهم وبين الأمير أحمد ، فقال أحمد : إنما شارطتكم على المال لا على مشاركة الحكم ، فقال النصراني : إن قبلت وإلا فعندي تحت يدي من يقبل الشروط وهو أخوك محمد ، فرفع الأمير أحمد يده عن ذلك وذهب إلى بليرمو/ من بلاد صقلية ، فأقام بها إلى أن مات ، وأُتي به ليدفن في الزلاج ، فبعد ثلاثة أيام دفن بسيدي قاسم الجليزي⁽⁵²²⁾ .

[أ/341]

محمد الحفصي : نهاية الدولة الحفصية والاستقرار العثماني بتونس :

وأما محمد الحفصي فانه تقدم ، وتحمل الشروط ، ولما تحقق أهل تونس تولية محمد تذكروا وقعة الأربعاء التي كانت في أيام أبيه الحسن ، ففروا إلى ناحية جبل الرّصاص وجعلوا لهم دواميس يستقروّن بها ، فصدم النّصارى تونس وعجز عن مدافعتهم وصار في أهل تونس ﴿وَأَنَا لِلَّهِ وَأَنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾⁽⁵²³⁾ ما تقشعرّ منه الجلود ، حتى إن الذين فروا صنعوا نوالات⁽⁵²⁴⁾ في الغابة ، وتسولوا على بيوت الأعراب ، ونالهم من الخوف والجوع

(521) 1570 - 1571 م .

(522) عن احتلال علي باشا التركي لتونس ، وانهمزام السلطان أحمد الحفصي واستنجاهه بإسبانيا حلق الوادي وخاتمة أمره انظر المؤنس 172 - 175 والمؤلف ينقل عنه بتصريف .

(523) سورة البقرة : 156 .

(524) الأفضح أن يقال «نواويل» جمع نوال لأن نوالات جمع قلة والنوال بيت من القصب .

ما يُدهِشُ الألباب ، وبعد مُدة أظهر النَّصارى الأمان واسترجعوا المسلمين لديارهم على شرط أن من وجد داره غير معمورة بالنَّصارى سكنها ، ومن وجد بها كافراً فَوَضَّ أمره إلى الله .

وَقُسِّمَتِ المدينة بين المسلمين والنَّصارى ، فاختلط النَّصارى بالمسلمين ، وأهين المسجد الأعظم ، ونهبت خزائن الكتب التي كانت به ، وداستها الكفرة بالأرجل ، وألقيت تصانيف الدِّين بالأزقة تدوسها حوافر خيل الكُفَّار ، حتى قيل إن أزقة الطيبين بجانب جامع الزيتونة كانت كلها مجلدات ملقاة تحت الأرجل ، وضربت النواقيس ، وربطوا الخيل بالجامع الأعظم ونبش قبر سيدي محرز بن خلف ، فلم يجدوا به إلا الرمل وفعلوا بالمسلمين ما يفعل العدو بعده / وكل دار مسلم مجاورة لدار نصراني ، وكبير النَّصارى ساكن بالقصبة مع محمد الحفصي يجلسان معاً بالقصبة للحكم ، واستعمل النَّصراني سياسة الرِّق بالنَّاس ورفع الجور في الحكم ، هذا كله وقع لأهل المدينة والربض القبلي⁽⁵²⁵⁾ ، لانهم تحت رمية المدفع ، فلم يجدوا بُدّاً من المساعدة ، وأما ربض باب السويقة فإنهم⁽⁵²⁶⁾ انحازوا إلى ناحية ، ومنعوا أنفسهم من الإهانة .

وفي هذه المدة كان شروعهم في مدينة البستيون⁽⁵²⁷⁾ - المقدمة الذكر - فلاقى أهل تونس من الكفار سوء العذاب .

وأما الباشا الذي بتونس وجنوده فإنهم لما دهمتهم النَّصارى ورأوا أمراً لا طاقة لهم به خرجوا ل ناحية الحمامات ، فامتنعوا⁽⁵²⁸⁾ من فتح الأبواب ، فذهبوا للقيروان ، وكان بها حيدر باشا الذي ضرب الحيدري⁽⁵²⁹⁾ ، وقيل إن الباشا الذي كان بتونس هو حيدر المذكور وإنه لما أحس بغلبة الكُفَّار خرج هو وأهل البلد جميعاً إلى جهة القيروان ، فجاء عسكر الكُفَّار واستولى على تونس .

فلما خرج حيدر بمن معه أتبعهم في ذهابهم النَّصارى فاقتتلوا فانهزم النَّصارى ، وبعث من رؤوسهم أحمالاً للقيروان ، ورجعوا للحمامات محاصرين لهم ففتحوها عنوة ، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال ، ونهبوا / الأموال وافتك الشَّيخ الجديدي [منهم]

[342/أ]

(525) هي ربض باب الجزيرة .

(526) أي أهله .

(527) في الأصول : « البستيرة » .

(528) أي أهل الحمامات .

(529) بعدها في المؤنس « المشهور بالقيروان » ص 177 .

النساء والأطفال ثم التحق العسكر وحيدر باشا بالقيروان ، فأقاموا بها عشرة أيام وتقرّبت شوكة النصارى بتونس ، وضاق الأمر على من بالقيروان حتى أراد حيدر باشا الفرار من القيروان ، وكان يتردد على الشيخ الصالح سيدي أحمد الرّنان⁽⁵³⁰⁾ - رحمه الله - يُصيّره ويعدّه النصر فيقف الباشا عند اشارته ، ثم تحرّك حيدر باشا بمن معه من العساكر لتونس فنارزوها ، وأقاموا عليها ، فعجزوا عن فتحها حتى فرغت أزوادهم لأن الكفار أبقوا بتونس لمقاتلة المسلمين الواردين عليهم ثمانية آلاف مقاتل ، فعجز حيدر باشا ومن معه عن الفتح وهما بالإنصراف عنها ، فبينما هم كذلك اذ قدمت العساكر العثمانية في المراكب لتونس⁽⁵³¹⁾ ، وفتحوها حسبما يأتي - إن شاء الله تعالى - .

وكان بذلك انقراض دولة الكفار ودولة بني حفص ، وكان ابتداء دولة بني حفص سنة ثلاث وستائة⁽⁵³²⁾ من أول ما تولّى أبو محمد عبد الواحد ، وإن دخل في ذلك غيرهم حسبما مرّ تفصيله وانقرضت سنة احدى وثمانين وتسعمائة⁽⁵³³⁾ فكانت المدة من أولها إلى آخرها ثمانية وسبعين وثلاثمائة سنة .

ولنرجع الآن إلى ذكر أصل الدولة السعيدة دولة / آل عثمان - أبقاها الله ببقاء الزمان وجعلها دولة مباركة - ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾⁽⁵³⁴⁾ ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾⁽⁵³⁵⁾ وهي خاتمة الدول وختامه مسك .

[342/ب]

تمة من الناسخ :

كامل الجزء الأول من نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، ويتلوه - إن شاء الله تعالى - الجزء الثاني ، مبدؤه المقالة الحادية عشر في ذكر دولة آل عثمان تأليف الشيخ الإمام وقدة الأنام ، وبحلي الظلام علامة زمانه ، وفريد دهره وأوانه ، حامل قول التحقيق ، ومالك أزمة التوفيق ، قدوة الأفاضل وبحلي المعاطل ، بقية السلف ، وعمدة

(530) كذا في المؤنس ، وفي اتحاف أهل الزمان 19/2 «الزقاق» هو تحريف أو خطأ مطبعي .

(531) المؤلف ناقل لما في المؤنس ص 177 - 178 .

(532) 1206 - 1207 م .

(533) 1573 - 1574 م باحتلال حلق الوادي من طرف سنان باشا .

(534) في الأصول «كشجرة مباركة..» سورة ابراهيم : 24 .

(535) سورة ابراهيم : 25 .

الخلف ، شيخنا وشيخ شيوخنا الحاج الناسك الأبر أبو الشاء محمود بن سعيد مقديش الصفاقسي أصلاً ووطناً وقارئاً المالكي مذهباً ، الأشعري اعتقاداً ، أسبل الله علينا وعليه جلايب ستره بجاه سيدنا محمد نبيه وعبداه ، ونسأل الله المنان بفضله أن ينفع به من تسبب فيه ، ومن كتبه وقراه ، وأن يجعلنا من حزبه ، وأن ينفعنا به وبأمثاله ، ورحم الله عبداً قرأه ورآى فيه نقصاً أو تحريفاً أو زيادة أو تقديماً أو تأخيراً أو غلطاً فقل أن ينجو من ذلك لأن الناسخ لا يخلو من النقص والغلط كتابه فأصلحه ليحصل الثواب للجميع ، ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾⁽⁵³⁶⁾ ، ونعم المولى ونعم النصير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي المصطفى الكريم وعلى آله وأصحابه الطاهرين الطيبين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ، ووافق الفراغ من نسخه من الأصل بخط المؤلف رضي الله عنه ونفعنا به ضحوة يوم الثلاثاء المبارك السابع من شهر جمادى الثانية سنة ثمان وثلاثين ومائتين بعد الألف⁽⁵³⁷⁾ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

(536) سورة آل عمران : 183 .

(537) 1822 م .

فهرسُ الموضوعات

5 تصدير

9 مقدمة المحققين

9 1 - فكرة عن الحياة العلمية والثقافية بصفاقس في عصر المؤلف.

13 2 - المؤلف.

نسبه وحياته : ص 13 ، تأليفه : ص 15 .

17 3 - نزهة الأنظار.

مصادرها : ص 17 ، تصميمها : ص 19 ، أهميتها : ص 23 .

25 4 - النسخ المعتمدة في التحقيق .

28 رموز وإشارات

35 مقدمة الكتاب

تمهيد : ص 35 ، المقدمة : ص 39 .

المقالة الأولى : في تحديد المغرب برًا وبحرًا وأسماء البلدان وخواصها ...

43 الباب الأول : في تحديد المغرب برًا وبحرًا .

البحر المظلم 43 ، الحدود البرية للمغرب : 44 ، حفر الزقاق : 44 ، المد

والجزر : 46 ، حدود البحر الشامي : 49 .

51 الباب الثاني : في الكلام على ضبط بر المغرب الأقصى وما يليه من الغرب الأوسط وذكر ما

فيه من البلاد والعباد .

البربر وأصولهم وإفريقية وتسميتها : 52 ، نول لمطة : 55 ، آزكي : 55 ،

سجلماسة : 56 ، درعة : 56 ، السوس : 57 ، جبل درن : 58 ، أغمات وريكة :

59 ، مراکش : 60 ، نهر تانسيفت : 62 ، أغمات أيلان : 62 ، عود إلى ذكر
مراكش : 62 ، الطريق من مراكش إلى أم ربيع : 63 ، أنقال : 64 ، مكول :
64 ، ايكسيس : 65 ، سلا : 65 ، فضالة : 66 ، الطريق من فضالة إلى آسني :
66 ، آسني : 67 ، مرسى ماست : 68 ، داي وتادلة : 68 ، الطريق من تادلة إلى
فاس : 69 ، فاس : 69 ، صفروي : 70 ، قلعة مهدي : 71 ، مغيلة : 71 ،
مكناسة : 71 ، بني تاورة : 72 ، السوق القدعية : 72 ، قصر عبد الكريم : 73 ،
عود إلى ذكر فاس : 73 ، الطريق من فاس إلى تلمسان : 74 ، تلمسان : 75 ،
الطريق من تلمسان إلى تنس : 76 ، تنس : 72 ، وهران : 78 ، المسيلة : 79 ،
الطريق من وازلفن إلى مليانة : 79 ، مليانة : 80 ، الطريق من كزناية إلى المسيلة :
80 ، قلعة بني حماد وما جاورها : 81 ، قسنطينة وما جاورها : 83 ، جبل سحاو :
85 ، سوق بني زندوي : 85 ، جيجل : 85 ، ومدن أخرى : 86 ، الجزائر : 89 ،
تامدقوس : 91 ، مرسى الدجاج : 91 ، تدلس : 92 ، بجاية : 92 ، الطريق من بجاية
إلى القلعة : 94 ، ومدن أخرى : 95 ، بلزمة : 96 ، حصن بشر : 97 ، سبتة : 97 ،
الجزر والمدن والمراسي والمواقع الساحلية من سبتة إلى بونة : 98 .

104 الباب الثالث : في الكلام على بقية الغرب الأوسط وجميع الغرب الأدنى .

باغاية : 104 ، توزر : 105 ، قفصة : 105 ، الطرقات من قفصة إلى ما
جاورها : 105 ، جبل نفوسة : 106 ، قابس : 106 ، صفاقس : 108 ، قصر الجمل :
110 ، جمال : 112 ، المهديّة : 112 ، نفزاوة : 115 ، القيروان : 115 ، تونس :
117 ، قرطاجنة : 120 ، بنزرت : 122 ، طبرقة : 123 ، باجة : 123 ، مرسى
الخرز : 123 ، بونة : 124 ، الأربس : 125 ، ومدن أخرى : 125 ، جزيرة باشو :
126 ، جبل زغوان : 126 ، جبل وسلات : 126 ، ومدن أخرى : 127 ، طرابلس :
129 ، الطرقات من طرابلس إلى ما جاورها : 130 ، جبل دمر : 131 ، برقة : 131 ،
الطريق من برقة إلى العين : 131 ، الطريق من برقة إلى الاسكندرية : 133 ، الطريق
الساحلي من بونة إلى نابل : 134 ، نابل : 136 ، الطريق الساحلي من نابل إلى سوسة :
136 ، سوسة : 137 ، الطريق الساحلي من سوسة إلى صفاقس : 137 ، جزيرة قرقة :
139 ، الطريق الساحلي من صفاقس إلى جربة : 140 ، جربة : 141 ، الطريق
الساحلي من جربة إلى لبدّة : 143 ، لبدّة : 145 ، الطريق الساحلي من لبدّة إلى
الاسكندرية : 145 ، الاسكندرية : 146 .

151 الباب الرابع : في الكلام على جزيرة الأندلس .

جغرافية الأندلس : 151 ، اليونان ودورهم بالأندلس : 151 ، طليطلة وما

جاورها: 156 ، قرطبة: 156 ، المرية: 159 ، أقاليم الأندلس: 160 ، مدن ساحلية: 164 ، البحر الشامي: 164 ، صقلية: 166 .

169 المقالة الثانية: في ذكر الخلافة وخلفاء الصحابة بعد رسول الله ﷺ ومن بعدهم من خلفاء بني أمية بالشرق وفتوحات المغرب في أيامهم .

169 الباب الأول: في الخلافة وخلافة النبي ﷺ والخلفاء الأربعة - رضي الله تعالى عنهم - . مفهوم الخلافة: 169 ، آدم أول الخلفاء: 172 ، كيومرث: 174 ، مهلائيل: 174 ، شيث وذريته: 174 ، ادريس: 175 ، ابراهيم وابنيه: 177 ، العرب ، طرف من أصلهم وبعض من أخبارهم: 180 ، ولاية الكعبة: 181 ، الخليفة الأكبر محمد ﷺ: 191 ، خلافة أبي بكر - رضي الله عنه - : 194 ، خلافة عمر - رضي الله عنه - : 195 ، خلافة عثمان - رضي الله عنه - : 196 ، خلافة علي - رضي الله عنه - : 197 ، خلافة الحسن بن علي - رضي الله عنه - : 198 .

199 الباب الثاني: في خلافة سيدنا معاوية - رضي الله تعالى عنه - بالشام ودولة بني أمية . معاوية: 199 ، يزيد: 199 ، بقية خلفاء بني أمية: 200 .

204 الباب الثالث: في ذكر فتوحات المغرب الواقعة في أيام الصحابة ومن بعدهم من بني أمية . غزوات عمرو بن العاص: 204 ، غزوة عبد الله بن سعد بن أبي سرح: 205 ، ولاية معاوية بن خديج: 208 ، ولاية أبي المهاجر: 211 ، ولاية عقبة بن نافع وغزواته: 212 ، غزوة عقبة بن عامر الجهني: 219 ، غزوة ربيعة بن ثابت: 219 ، غزوة زهير بن قيس البلوي: 221 ، ولاية حسان بن النعمان وغزواته: 223 ، فتح الأندلس: 230 ، بيت الحكمة بالأندلس: 234 ، تمة الحديث عن فتح الأندلس: 236 ، ولاية عبد الله بن موسى بن نصير: 237 ، ولاية علي بن رباح: 238 .

239 المقالة الثالثة: في ذكر خلفاء بني العباس وبعض أمرائهم بالعراق وأمرائهم بالمغرب .

239 الباب الأول: في ذكر خلفاء بني العباس . قيام الدولة وخلافة أبي العباس السفاح: 239 ، أبو جعفر المنصور: 242 ، محمد المهدي: 248 ، محمد موسى الهادي: 249 ، هارون الرشيد: 249 ، محمد الأمين: 250 ، المأمون وقضية خلق القرآن: 252 ، المعتصم: 253 ، الواثق بالله: 254 ، المتوكل على الله: 255 ، المستنصر بالله: 256 ، المعز بالله: 258 ، المهندي بالله: 259 ، المعتمد وحركة الزنج: 260 ، المعتضد بالله: 261 ، المكتني بالله وظهور

القرامطة : 263 ، المقندر بالله وقيام أبي طاهر القرمطي : 264 ، القاهر بالله والراضي بالله : 270 ، المتقي بالله : 270 ، المستكن بالله : 270 ، المطيع لله : 271 ، الطائع لله : 271 ، القادر بالله : 273 ، القائم بأمر الله : 273 ، المستظهر بالله : 274 ، المسترشد بالله : 274 ، الراشد بالله : 275 ، المقتني لأمر الله : 275 ، المستنجد بالله : 275 ، المستضيء بالله : 276 ، الناصر لدين الله : 276 ، المستنصر بالله : 277 ، المستعصم بالله : 279 ، التتار : 279 ، هولاكو وسقوط بغداد وانقراض الدولة العباسية : 282 ، العباسيون بمصر : 285 ، تيمورلنك : 287 .

299 الباب الثاني : في ذكر بعض أمراء بني العباس بالمشرق .
الصفارية : 299 ، السامانيون : 300 ، الغزنويون : 300 ، السلاجقة : 303 ، الدبلمية : 317 ، السلقدية : 318 ، الخوارزمية : 319 .

320 الباب الثالث : في ذكر مشاهير أمراء بني العباس بالمغرب
يزيد بن حاتم : 320 ، هرثة بن أعين : 321 ، بداية بني الأغلب : 322 ، أبو العباس عبد الله : 322 ، زيادة الله : 323 ، أبو العباس محمد : 323 ، زيادة الله الأصغر : 324 ، أبو الغرائق : 324 ، إبراهيم : 325 ، عبد الله بن إبراهيم : 326 .

327 المقالة الرابعة : في ذكر ملوك الشيعة بالمغرب وكيفية انتقالهم لمصر وما يتبع ذلك .
عبيد الله المهدي وقيام الدولة الفاطمية : 327 ، حركة القيروانيين المضادة للفاطميين : 334 ، أقوال بعضهم في الفاطميين والمجادلة حول رميهم بالكفر والزندقة وتبرئتهم منها : 338 ، تأسيس المهديّة : 344 ، القائم وثورة أبي يزيد : 347 ، المنصور وقشل ثورة أبي يزيد : 351 ، المعز لدين الله وانتقال الفاطميين إلى مصر : 353 ، الفاطميون بمصر : 357 .

361 المقالة الخامسة : في ذكر ملوك صنهاجة بالمغرب وصلاح الدين بمصر .

361 الباب الأول : في ذكر ملوك صنهاجة .
زيري بن مناد : 361 ، بلكين بن زيري : 362 ، باديس : 363 ، المعز ابن باديس : قطعه الدعوة للفاطميين واجتياح العرب إفريقية : 366 ، تميم ابن المعز : 380 ، أبو زكرياء يحيى : 381 ، علي بن يحيى وابنه الحسن : 384 .

386 الباب الثاني : في ذكر دولة نور الدين وصلاح الدين القاطعين لمذهب الشيعة الفاطميين من مصر والشام.

نور الدين : 386 ، عماد الدين إسماعيل : 388 ، عود إلى ذكر نور الدين : 388 ، الحملات الصليبية الأولى واستقرار الافرنج بالشام : 389 ، صلاح الدين وحروبه مع الصليبيين : 392 ، الملك الكامل والحرب الصليبية الخامسة : 415 ، الملك الصالح نجم الدين أيوب والحرب الصليبية السادسة : 416 ، نهاية الأيوبيين : 417 ، المماليك بمصر : 418.

421 المقالة السادسة : في ذكر خلفاء بني أمية بالأندلس وذكر الطوائف بعدهم .
بنو أمية : 421 ، ملوك الطوائف : 426 .

431 المقالة السابعة : في ذكر ملوك لمتونة وهم الملتزمون بالعدوة والأندلس .
بداية المرابطين : 431 ، يوسف بن تاشفين وحروبه الموقفة في الأندلس : 433 ،
نهاية المرابطين : 447 .

451 المقالة الثامنة : في ذكر دولة الموحدين وأمرائهم بالعدوة والأندلس وإفريقية .
الباب الأول : في أول ملوكها ومن بعده من الملوك .

المهدي بن تومرت : 451 ، عبد المؤمن : 462 ، أبو يعقوب يوسف : 465 ،
أبو يوسف يعقوب : 467 ، المنتصر بالله : 475 ، العادل : 475 ، المعتصم : 476 ،
المأمون ومن ولي بعده إلى نهاية الدولة الموحدية : 477 .

480 الباب الثاني : في فتح عبد المؤمن للمهدية والبلاد الساحلية بعد استيلاء الإفرنج عليها حسبما ذكره ابن الأثير وغيره من أئمة التاريخ .

أسباب احتلال الزمان للمهدية : 480 ، هروب الحسن الصنهاجي والتفائه
بعبد المؤمن : 487 ، احتلال الزمان لصفاقس والساحل : 489 ، انتفاض صفاقس
وغيرها من المدن على الزمان : 491 ، عبد المؤمن يسير نحو إفريقية ويخلصها من
الزمان وتمثل لطاعته : 494 .

503 الباب الثالث : في ذكر ثوار إفريقية على الموحدين .

ثورة بني غانية : 503 ، ثورة محمد بن عبد الكريم الرجرجاني : 510 ، يحيى

الميورقي يستولي على المهديّة وتونس وغيرها : 513 ، يحيى الميورقي يستمر في ثورته ويصده عنها الناصر الموحد ويقتل منه إفريقية : 515 ، نهاية قراقوش ويحيى الميورقي ابن غانية : 517 .

521 المقالة التاسعة : في ذكر دولة بني مريـن وبني زيـان وبني نصر .

521 الباب الأول : في ذكر دولة بني مريـن بالعدوة .

عبد الحق بن محبوب ومن ولي بعده : 521 ، أبو يوسف يعقوب : 522 ، أبو يعقوب يوسف : 524 ، أبو ثابت عامر : 524 ، أبو الربيع سليمان : 525 ، أبو سعيد عثمان : 525 ، أبو الحسن المريني ودخوله إلى تونس : 525 ، نهاية المرينيين : 531 ، السلطة بالمغرب الأقصى في عصر المؤلف : 532 .

533 الباب الثاني : في ذكر بني زيـان ملوك تلمسان .

يغمراسن : 533 ، عثمان ومن ولي بعده : 534 ، أبي تاشفين عبد الرحمان ودخوله تونس : 534 ، نهاية بني زيـان : 535 .

537 الباب الثالث : في ذكر دولة بني نصر بالأندلس .

541 المقالة العاشرة : في ذكر دولة بني حفص بإفريقية .

أبو محمد عبد الواحد : 541 ، أبو العلاء إدريس : 544 ، أبو زكرياء يحيى : 546 ، المستنصر ومن توفي من العلماء في أيامه : 550 ، الواثق : 553 ، أبو إسحاق إبراهيم ابن أبي زكرياء : 554 ، الدعي ابن أبي عمارة : 554 ، أبو حفص عمر ابن أبي زكرياء : 559 ، أبو عصبدة ومن توفي من العلماء في أيامه : 560 ، أبو بكر الشهيد : 562 ، أبو البقاء خالد : 563 ، أبو يحيى زكرياء ابن اللحياني : 563 ، محمد أبو ضربة : 565 ، أبو يحيى أبو بكر : 567 ، وفاة القاضي ابن القداح : 568 ، وفاة الفقيه محمد بن عبد الله ابن راشد القفصي : 569 ، وفاة الفقيه عبد الله ابن البراء التنوخي : 570 ، وفاة الشيخ علي بن متنصر الصديقي : 570 ، وفاة الشيخ أبي حيان : 571 ، أبو حفص عمر بن أبي بكر والتنافس بين الحفصيين : 573 ، عود إلى ذكر تملك أبي الحسن المريني تونس وأعمالها وما وقع له بها : 576 ، الفضل بن أبي بكر : 580 ، أبو إسحاق إبراهيم بن أبي بكر وابن تافراجين : 580 ، حركة أبي عنان المريني في اتجاه تونس : 581 ، عود إلى ذكر أبي إسحاق إبراهيم وابن تافراجين : 582 ، خبر عن عمل البارود : 583 ، وفاة ابن تافراجين : 584 ، وفاة القاضي أبي القاسم بن سلمون البياسي : 584 ، وفاة أبي إسحاق إبراهيم : 584 ، أبو البقاء خالد : 585 ، أبو العباس

أحمد ونزول النصارى بالمهدية : 585 ، أبوفارس عبد العزيز : 588 ، ترجمة الشيخ ابن عرفة : 593 ، حركة أبي فارس عبد العزيز داخل إفريقية والمغرب : 594 ، نزول النصارى بقرقة : 597 ، حركة أبي فارس عبد العزيز بمالطة والمغرب الأوسط : 598 ، نزول النصارى بحربة ومواجهة أبي فارس لهم : 599 ، حركة أخرى بالمغرب الأوسط لأبي فارس ووفاته : 600 ، مزايا أبي فارس : 601 ، أبو عبد الله محمد المنتصر : 601 ، أبو عمر عثمان ومن توفي في أيامه من المشايخ : 602 ، أبوزكرياء يحيى بن مسعود وعبد المؤمن بن إبراهيم : 605 ، محمد بن الحسن وتغلب النصارى على مواقع من إفريقية : 605 ، الحسن بن محمد والتصارع العثماني الاسباني بإفريقية : 606 ، درغوث باشا : 618 ، أحمد الحفصي واستمرار التصارع العثماني الاسباني : 620 ، محمد الحفصي ، نهاية الدولة الحفصية والاستقرار العثماني بتونس : 624 ، تمة من الناسخ : 626 ، فهرس الموضوعات : 634 .



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

أصاحبها: الحبيب العيسى

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL- GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113- 5787 - Beyrouth - Liban

الرقم 1988/10/3000/126

التنفيذ: مؤسسة الخدمات الطباعة (حبيب درغام وأبناءؤه)

الطباعة : مؤسسة جواد للطباعة والتصوير

MAḤMŪD MAQDĪŠ

Nuzhat al-anzār fī ‘ağā’ib
at-tawārīḥ wa-l-’ahbār

EDITION CRITIQUE

PAR

ALI ZOUARI • MOHAMED MAHFOUDH

VOLUME PREMIER



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI